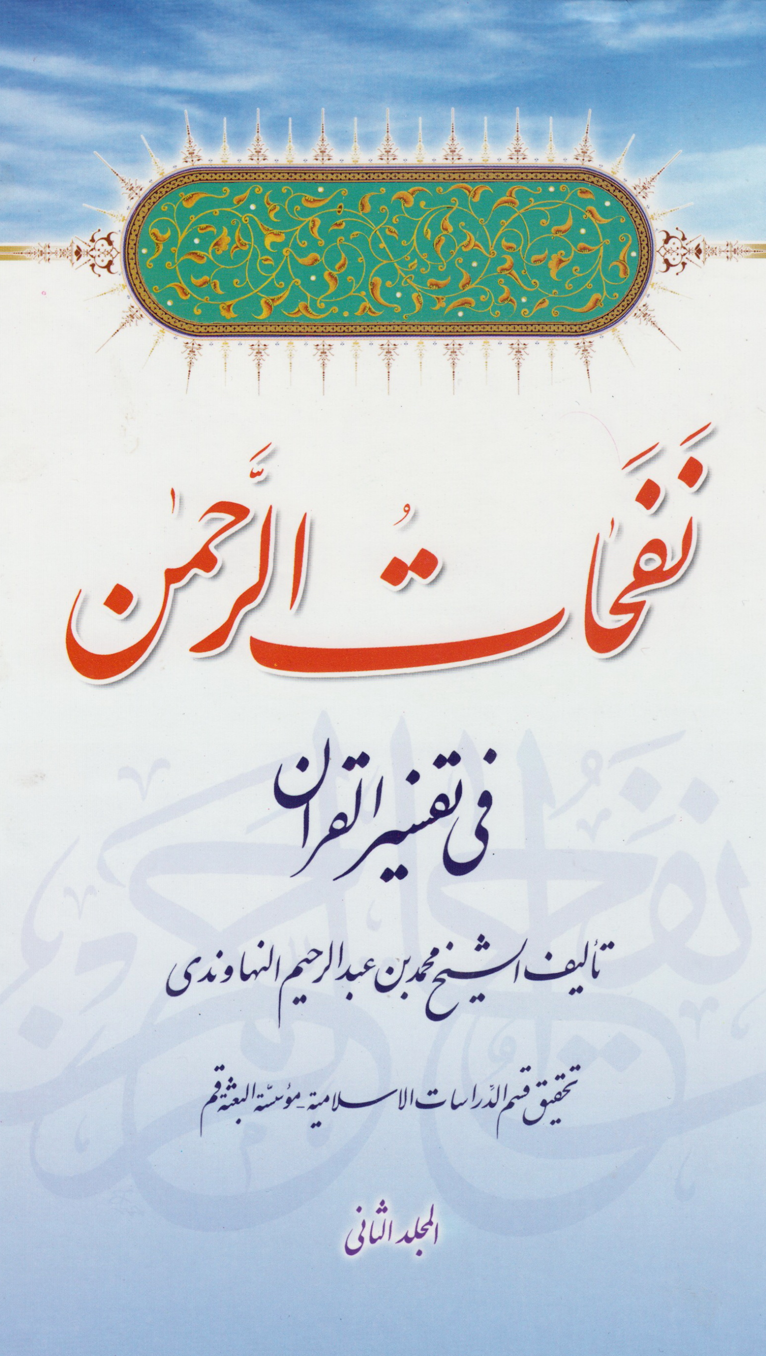

نفحات الرحمن
فى تفسير القرآن
تأليف الشيخ محمد بن عبد الرحيم النهاوندى
تحقيق قسم الدراسات الاسلامية - مؤسسة البعثة قم
المجلد الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم



نفحات الرحمن
في
تفسير القرآن

تأليف

الشيخ محمد بن عبدالرحيم النهاوندي

(١٢٩١ـ ١٣٧١هـ)

الجزء الثاني

تحقيق

قسم الدراسات الإسلامية ـ مؤسسة البعثة ـ قم

نهاوندی، محمد ۱۲۵۲- ۱۳۳۰
نفحات الرحمن فی تفسیر القرآن/تالیف محمد بن عبدالرحیم النهاوندی؛
تحقیق
قم: موسسه البعثه، مرکز الطباعه و النشر ۱۳۸۶
۶ج.
دوره: X-۷۶۵-۹-۳۰۹-۹۶۴؛ ج.۱: ۵-۷۵۹-۹-۳۰۹-۹۶۴؛ ج.۲: ۹-۷۶۰-۹-۳۰۹-۹۶۴؛ ج.۳: ۷-۷۶۱-۹-۳۰۹-۹۶۴؛ ج.۴: ۵-۷۶۲-۹-۳۰۹-۹۶۴؛ ج.۵: ۳-۷۶۳-۹-۳۰۹-۹۶۴؛ ج.۶: ۱-۷۶۴-۹-۳۰۹-۹۶۴
فیپا
عربی.
کتابنامه.
تفاسیر شیعه --قرن ۱۴.
بنیاد بعثت. واحد تحقیقات اسلامی
بنیاد بعثت. مرکز چاپ و نشر
BP۹۸/ن۹ن۷
۲۹۷/۱۷۹
۸۴/۳۷۴۹۰م



مرکز الطباعة و النشر فی موسسة البعثة

نفحات الرحمن فی تفسیر القرآن ج۲

الشیخ محمد بن عبدالرحیم النهاوندی

تحقیق: قسم الدراسات الاسلامیة – موسسة البعثة – قم

الطبعة الاولی ۱۴۲۸ق.

الکمیة: ۲۰۰۰ نسخه

التوزیع: موسسة البعثة

طهران – شارع سمیه – بین شارعی الشهید مفتح و فرصت – الرقم ۱۰۹

هاتف: ۸۸۸۲۲۳۷۴ فاکس: ۸۸۳۲۵۴۶۴

شابک ج.۲: ۹-۷۶۰-۹-۳۰۹-۹۶۴
شابک دوره: X-۷۶۵-۹-۳۰۹-۹۶۴

بسم الله الرحمن الرحيم

وَأَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَٱللهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّالِمِينَ[٥٧]

ثمّ أردف سُبحانه التّهديد والوَعيد بالوَعْد والتّرغيب، بقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ووَحْدانيّته، وعُبُوديّتك ورِسالتك ﴿وَعَمِلُوا﴾ الأعمال ﴿ٱلصَّالِحَاتِ﴾ التي يكون الالتِزام بها مِن وظائِف الإيمان، وداوَموا علىٰ العِبادات والطّاعات ﴿فَيُوَفِّيهِمْ﴾ الله، ويُكمِل لهم ﴿أُجُورَهُمْ﴾ وثَواب إيمانهم وأعمالهم، مِن غير نَقْصٍ ﴿وَٱللهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّالِمِينَ﴾ بَل يبغُضهم أشدّ البُغْض. وفيه بَيان عِلّة تَعْذيبه الكافرين، وتَوْفيته ثَواب المُؤمنين.

ذٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلآيَاتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ[٥٨]

ثمّ استَدلّ سُبحانه علىٰ نُبوّة خاتَم النّبيّين بأنّ جميع هذه القضايا مِمّا لا يُمكِن اطّلاع محمّد ﷺ عليها إلّا بالوَحْي مِنَ الله، لا بالتّعلُّم مِن عالِمٍ، ولا بالقراءة في كِتابٍ، حيثُ قال: ﴿ذٰلِكَ﴾ المَذكُور مِن نَبأ عيسىٰ بَدْواً وخَتْماً ﴿نَتْلُوهُ﴾ ونقرأه ﴿عَلَيْكَ﴾ بالوَحْي، وبتوسُّط جَبْرَئيل، حال كَوْن المَتْلُوّ ﴿مِنَ ٱلآيَاتِ﴾ والأدلّة الدّالّة علىٰ صِحّة نُبوّتك، مِن حيثُ إعجاز البَيان، وكَوْنه مِنَ الأخبار المُغيّبات، ﴿وَ﴾ مِن ﴿ٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾ والقرآن المُحْكم المَصُون مِن تطرُّق الخلل إليه، أو المُشتمِل علىٰ الحِكَم البالِغة في نَظْمه وتأليفه وكَثْرة عُلُومه.

إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ * ٱلْحَقُّ مِن رَبِّكَ فَلَا تَكُن مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ * فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِمَا جَاءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِل فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ ٱللهِ عَلَى ٱلْكَاذِبِينَ[٥٩ـ٦١]

ثمّ أنّه نقَل المُفسّرون أنّ وَفْد نَجْران لمّا قالوا لرَسُول الله ﷺ: لمّا سلّمتَ أنّه لا أب لعيسىٰ مِنَ البَشر، وجَب أن يكون أبُوه هُو الله، فنزَل دَفْعاً لهذه الشُّبْهة[١] ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ﴾ وشأنه البَديع المُنتَظم لغَرابته في سِلْك الأمثال ﴿عِندَ ٱللهِ﴾ وفي

تقدِيره وحكمه ﴿كَمَثَلِ آدَمَ﴾ ونَحْو خِلْقته العَجيبة التي لا يَرتاب فيها مُرتاب، ولا يُنازع فيها مُنازع.

---

١. تفسير الرازي ٨: ٧٤.

ثمّ بيّن سُبحانه وَجْه المُماثلة بقوله: ﴿خَلَقَهُ﴾ الله بقُدْرته الكامِلة ﴿مِن تُرَابٍ﴾ وسوّىٰ جَسَده مِن طِينٍ لازِب ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن﴾ بَشَراً وحَيّاً سوِيّاً، وأراد أن يُوجِد إنساناً كاملاً ﴿فَيَكُونُ﴾ ويُوجَد كما أراد مِن غيرِ رَيْثٍ، فإنْ كُنتم عجِبتم مِن خَلْق عيسىٰ بِلا آب، ولذلك قُلتم: إنّه ابنُ الله، فلابُدّ أن يكون تعجُّبكم مِن خَلْق آدم أكثر، وقولكم بأنّه ابنُ الله أوْلىٰ.

فذلك البِناء مِن كيفيّة خَلْق عيسىٰ هُو ﴿ٱلْحَقُّ﴾ الثابت ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ لا قول النّصارىٰ ﴿فَلَا تَكُن﴾ بعدَ وَحْي الله إليك ﴿مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ في كيفيّة خَلْق عيسىٰ، والشّاكِّين فيها، مع أنّه لا يُمكِن في حقّك الامتِراء والشّكّ.

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ﴾ في شأن عيسىٰ وأمّه [و] جادَلك ﴿فِيهِ﴾ لَجاجاً وجَهْلاً بالأقاويل الباطِلة والآراء الزّائِغة ﴿مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ ٱلعِلْمِ﴾ بالحَقّ وظُهور الصّواب مِنَ الآيات البيِّنات، وأقمتَ الحُجَج عليهم، فلَم يرتدعوا عمّا هُم عليه مِنَ الغَيّ والضّلال ﴿فَقُلْ﴾ لهم ﴿تَعَالَوْا﴾ وهَلُمُّوا بالرأي والعَزيمة ﴿نَدْعُ﴾ نحنُ وأنتم ﴿أَبْنَاءَنَا وأَبْنَاءَكُم﴾ وتَخصِيص الأبناء بالذِّكْر؛ لأنّهم أعزّ مِنَ البنَات ﴿ونِسَاءَنَا ونِسَاءَكُمْ﴾ وذِكْرهُنّ لكَوْنهِنّ مِن بعدِ الأبناء أعزّة الأهل، ويجعل الإنسان نفسَه وِقاية لهُنّ في المَهالِك، ﴿وَ﴾ ندع ﴿وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ إلىٰ المُباهَلة، واحضُروا حتّىٰ نحمِل نُفوسنا، ومَن هُو بمَنزِلة الرُّوح مِنّا وألصَق بقُلوبنا، علىٰ التّوطِين للهَلاك ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ ونَتَلاعَن ﴿فَنَجْعَل لَعْنَتَ ٱللهِ﴾ وعذابه ﴿عَلَىٰ الكَاذِبِينَ﴾ مِنّا ومِنْكُم.

في (العلل): عن الجواد عليه السلام قال: «ولَو قال: (تَعالَوا نَبْتَهِل فنَجْعَل لَعنةَ الله عليكم) لَم يُجِيبوا للمُباهلة، وقد عرَف أن نبيّه صلى الله عليه وآله مؤدٍّ عنه [رسالته] وما هُو مِنَ الكاذِبين، وكذلك عرَف النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه صادِق فيما يقول، ولكِن أحبّ أن يُنصِف مِن نفسه»[1].

في شرح قضية المباهلة

رُوي أنّه صلى الله عليه وآله لمّا أورد الدّلائِل علىٰ النّصارىٰ، ثمّ أنّهم أصرُّوا علىٰ جَهْلهم، فقال صلى الله عليه وآله: «إنّ الله أمرني إنْ لَم تقبَلوا الحُجّة أن أُباهِلكم، فقالوا: يا أبا القاسم، بل نرجِع فننظُر في أمرنا ثمّ نأتيك. فلمّا رجَعوا قالوا للعاقِب[2]، وكان ذا رأيهم: يا عبدَ المَسيح، ما ترىٰ؟ فقال: والله، لقد عرَفتم يا مَعْشر النّصارىٰ أنّ محمّداً نبيّ مُرسَل، ولقد جاءكم بالكلام [الحَقّ] في أمر صاحبكم، والله ما باهَل قومٌ نبيّاً قَطُّ، فعاش كبيرُهم، ولا نَبتَ صغيرُهم، ولَئِن فعلتُم لكان الاستئصال، فإن أبَيْتُم [إلّا] الإصرار علىٰ دِينكم، والإقامة علىٰ ما أنتم عليه، فوادِعوا الرّجُل وانْصرِفوا إلىٰ بلادِكم.

١. علل الشرائع: ١/١٢٩، عن الإمام الهادي عليه السلام.
٢. العاقِب: هو مَن يخلف سيّد القوم في الرتبة، وهو صاحب الرأي.

وكان رسُول الله ﷺ [قد] خرَج وعليه مِرْط مِن شَعَر أسود ـ والمِرْط كِسَاء مِن صُوف ـ وكان ﷺ قد احْتَضن الحُسين عليه السلام وأخذ بيد الحَسَن، وفاطِمةُ تمشي خَلْفه، وعلِيٌ عليه السلام خَلْفها، وهُو يقول: إذا دَعَوتُ فأمّنوا، فقال أُسْقف نَجْران: يا مَعْشَر النّصارىٰ، إنّي لأرىٰ وُجُوهاً لو سألوا الله أن يُزِيل جَبلاً مِن مكانه لأزاله [بها]، فلا تُباهِلوا فتهلكوا ولا يبقىٰ علىٰ وَجْه الأرض نَصراني إلىٰ يوم القِيامة.

ثمّ قالوا: يا أبا القاسم، رأينا أن لا نُباهِلك، وأن نُقِرّك علىٰ دِينك. فقال ﷺ: «فـإذا أبَـيْتُم المُـباهلة فأسْلِموا، يكُن لكُم ما للمُسلِمين، وعليكم ما علىٰ المُسلمين» فأبَوا، فقال: «فـإنّي أُنـاجِزكم القِـتال» فقالوا: ما لنا بحَرْب العَرَب طاقَةٌ، ولكِن نُصالِحك علىٰ أن لا تغزونا ولا تَرُدّنا عن دِيننا، علىٰ أن نُؤدّي إليك في كُلّ عامٍ ألفَي حُلّة؛ ألفاً في صَفر وألفاً في رَجب، وثلاثين دِرْعاً عادِيّة مِن حَديد، فصالَحهم علىٰ ذلك، وقال: «والذي نفسي بيده إنّ الهَلاك قد تدلّىٰ علىٰ أهل نَجْران، ولَو لاعَنوا لمُسِخوا قِرَدةً وخَنازير، ولاضْطَرَم عليهم الوادي ناراً، ولاسْتأصل الله نَجْران وأهله حتّىٰ الطّير في رؤوس الشّجر، ولَمَا حالَ الحَوْل علىٰ النّصارىٰ حتّىٰ يهلِكوا».

أقول: هذا عَينُ ما رواه الفَخْر الرازي في تفسيره[1]، وقَريب مِمّا رواه غيرُه مِن المُفسّرين[2].

وقال البيضاوي بعدَ نَقْله: هذا دَليلٌ علىٰ نُبُوّته، وفَضْل مَن أتىٰ بهم مِن أهل بيته[3].

وأقول: هذا دَليلٌ علىٰ أنّ أمير المؤمنين عليه السلام نفسُهُ[4]، وأفضل مِن سائر البَرِيّة، وأنّه خَليفته.

ثمّ قال الفخر: ورُوي أنّه ﷺ لمّا خرَج في المِرْط الأسود فجاء الحَسَـن عليه السلام فأدخَـله، ثـمّ جـاء الحُسَين عليه السلام فأدخَله، ثمّ فاطِمة، ثمّ علِيّ عليهما السلام، ثمّ قال ﷺ: ﴿إنّما يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهلَ البَيْتِ وَيُطَهِّرَكُم تَطْهِيراً﴾[5]. ثمّ قال: واعْلَم أنّ هذه الرِّواية كالمُتّفَق علىٰ صِحّتها بيْن أهل التّفسير والحديث[6].

في (العِلَل): عن الكاظم عليه السلام: «لَم يدّعِ أحدٌ أنّه أدخله النبيّ ﷺ تحت الكِساء عندَ مُباهلة النّصارىٰ إلّا علِيّ بن أبي طالب وفاطمة والحَسن والحُسين عليهم السلام، فكان تأويل قـوله عـزّ وجـلّ: ﴿أَبْـنَاءَنَا﴾ الحَسن والحُسين عليهما السلام، و﴿نِسَاءَنَا﴾ فاطِمة عليها السلام و﴿أَنفُسَنَا﴾ علِيّ بن أبي طالب عليه السلام»[7].

وعن القمي في رِواية عن الصادق عليه السلام، بعدَ ذِكْر آيـة ﴿فـمَن حَـاجّكَ﴾ فـقال رسُـول الله ﷺ: «فباهِلوني فإن كُنْت صادِقاً أُنزِلَتْ اللّعنةُ عليكم، وإن كنتُ كاذِباً أُنزِلتْ عَلَيّ» فقالوا: أنصفتَ. فتَواعدوا

---

١. تفسير الرازي ٨: ٨٠.
٢. تفسير البيضاوي ١: ١٦٣، تفسير أبي السعود ٢: ٤٦، تفسير الصافي ١: ٣١٨.
٣. تفسير البيضاوي ١: ١٦٣.
٤. أي نفس رسول الله ﷺ.
٥. الأحزاب: ٣٣/٣٣.
٦. تفسير الرازي ٨: ٨٠.
٧. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٩/٨٥، تفسير الصافي ١: ٣١٨ عن عيون أخبار الرضا عليه السلام، ولم نجده في العلل.

للمُباهلة، فلمّا رجَعوا إلىٰ مَنازِلِهم قال رؤساؤهم؛ السيِّد والعَاقِب والأهتم: إنْ باهَلَنا بقومه باهَلْنَاه، فإنّه ليس نبياً، وإن باهَلَنا بأهل بَيْتِه خاصّة فلا نُباهِله، فإنّه لايَقدِم علىٰ أهل بيته إلّا وهو صادِق.

فلمّا أصبحوا جاءوا إلىٰ رسُول الله ﷺ ومعه أمير المُؤمنين وفاطمة والحسَن، والحُسين عليهم السلام، فقال النّصارىٰ: مَن هؤلاء؟ فقيل لهم: إنّ هذا ابنُ عمّه ووصيُّه وخَتَنَهُ عليّ بن أبي طالب، وهذه ابنته فاطمة، وهذان ابناه الحَسن والحُسين عليهما السلام، ففرِقُوا وقالوا لرسُول الله ﷺ: نُعطيك الرِّضا فاعْفِنا مِنَ المُباهلة، فصالَحهم رسُول الله ﷺ علىٰ الجِزْية وانصرفوا[1].

في أن ابن البنت ابن حقيقة

قال الفَخْر: هذه الآية دَالّةٌ علىٰ أنّ الحَسن والحُسين ابْنا رسُول الله، حيثُ وعَد أن يدعو أبناءه فدعا الحَسن والحُسين عليهما السلام فوجَب أن يكونا ابنَيْه، ومِمّا يُؤكّد هذا قولُه تعالىٰ في سُورة الأنعام: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيمَانَ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ﴾[2] ومَعلُوم أنّ عيسىٰ انتسب إلىٰ إبراهيم بالأمّ لا بالأب، فثبَت أنّ ابنَ البِنْت قد يُسمّىٰ ابناً[3].

أقول: عصبيته منعَتْه مِن أن يقول: فثبَت أنّ ابنَ البِنْت ابنٌ حقيقةً، وقال: قد يُسمّىٰ ابناً.

في أنّ علي بن أبي طالب عليه السلام أفضل من سائر الأنبياء

ثمّ قال: إنّه كان بالرّي رَجُل يُقال له مَحمود بن الحسن الحِمْصي، وكان مُعلّم الاثني عشريّة، وكان يزعُم أنّ علياً أفضل مِن جميع الأنبياء سِوىٰ محمّد ﷺ، قال: والذي يدُلّ عليه قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾، وليس المُراد بقوله: ﴿أَنفُسَنَا﴾ نفسَ محمّد ﷺ؛ لأنّ الإنسان لا يدعو نفسه، بَل المُراد به غيرُه، وأجمعوا علىٰ أنّ ذلك الغَيْر كان عليُّ بن أبي طالب عليه السلام، فدلّت الآية علىٰ أنّ نفسَ عليّ هِي نفسُ محمّد ﷺ.

ولا يُمكِن أن يكون المُراد مِنه أنّ هذه النّفس هِي عَينُ تِلْك النَّفس، فالمُراد أنّ هذه النّفس هِي مِثْل تِلْك النّفس، وذلك يقتضي الإستواء في جميع الوُجُوه، تَرْك العمل بهذا العُموم في حَقّ النُّبُوّة وفي حَقّ الفَضْل، لقِيام الدّلائِل علىٰ أنّ محمّداً ﷺ كان نبيّاً، وما كان عليّ كذلك، ولانْعِقاد الإجماع علىٰ أنّ محمّداً ﷺ كان أفضل مِن عليّ عليه السلام، فيبقىٰ فيما وراءه مَعمُولاً به، ثمّ الإجماع دَلّ علىٰ أنّ محمّداً ﷺ كان أفضل مِن سائِر الأنبياء، فيلزَم أن يكون عليّ عليه السلام أفضل مِن سائر الأنبياء، فهذا وجْهُ الاسْتِدلال بظاهِر هذه الآية[4].

ثمّ قال الفخر [نقلاً عن محمود الحمصي المتقدم]: ويُؤيّد الاسْتِدلال بهذه الآية، الحديث المَقبُول

---

١. تفسير القمي ١: ١٠٤، تفسير الصافي ١: ٣١٨. ٢. الأنعام: ٦/٨٤ و٨٥. ٣. تفسير الرازي ٨: ٨١.

٤. وللشيخ المفيد تفصيلٌ في المقام ذكره في كتابه (تفضيل أمير المؤمنين عليه السلام) المنشور في ج ٧ من مصنفات الشيخ المفيد، فراجع.

عندَ المُوافِق والمُخالِف، وهُو قوله ﷺ: «مَن أراد أن يرىٰ آدم في عِلْمه، ونوحاً في طاعته، وإبراهيم في خُلّته، ومُوسىٰ في هَيْبته، وعيسىٰ في صَفْوته، فلينظُر إلىٰ عليّ بن أبي طالب». فالحديث دَلّ علىٰ أنّه اجْتمَع فيه ما كان مُتفرّقاً فيهم، وذلك يدُلّ علىٰ أنّ عليّاً أفضل مِن جميع الأنبياء سِوىٰ محمّد ﷺ.

وأمّا سائر الشّيعة فقد كانوا قديماً وحديثاً يستدلّون بهذه الآية علىٰ أن عليّاً أفضل مِن سائر الصّحابة؛ وذلك لأنّ الآية لمّا دلّت علىٰ أنّ نفس عليّ عليه السلام[1] مِثْل نفس محمّد ﷺ إلّا فيما خصّه الدّليل، وكان نفس محمّد ﷺ أفضل مِن الصّحابة، فوجَب أن يكون عليّ أفضل أيضاً مِن سائر الصّحابة. هذا تقرير كلام الشّيعة.

في نقل كلام الفخر ورده

ثمّ قال الفخر: والجواب: أنّه كما انْعقد الإجماع بيْن المُسلمين علىٰ أنّ محمّداً ﷺ أفضل مِن عليّ عليه السلام، انْعقد الإجماع بيْنهم قَبل ظُهُور هذا الإنسان على أنّ النبيّ أفضل مِمّن ليس بنبيّ، وأجمعوا علىٰ أن عليّاً عليه السلام لَم يكُن نبيّاً، فلزَم القَطْع بأن ظاهِر الآية كما أنّه مَخصُوص في حَقّ محمّد ﷺ، فكذلك مخصُوص في حَقّ سائر الأنبياء. أنتهىٰ كلام الفخر[2].

وفيه: أنّ دَعوىٰ الإجماع علىٰ أنّ كُلّ نَبيّ أفضل مِن غير النبي، في غاية البُطلان، بَل الإجماع علىٰ خِلافه، لُوضُوح أنّ مريم كانت أفضل مِن أنبياء بَني إسرائيل، ولم يكُن في كمالاتها النّفسانيّة قُصُور عن أهْليّتها لمَنْصِب النُّبوّة، غير أنّ صِفة الأُنوثية منعتْها عن نَيْله، والشّاهِد علىٰ ذلك أنّها كانت تُحدَّث المَلائِكة مُشافَهةً، وزكريّا مع كَوْنه نبيّاً، لَم يُعلَم أنّه رأىٰ مَلَكاً، وإنّما كان يسمَع النّداء.

وكذلك لَم يكُن في كمالات عليّ عليه السلام قُصُور عن قابليّة رُتْبة النُّبوّة، ولَولا خَتْم النُّبوّة بُوجُود خاتَم النّبيّين ﷺ لكان عليّ عليه السلام نبيّاً.

في إثبات أفضلية الصديقة الطاهرة علىٰ غير أبيها من الأنبياء

بَل اعتِقاد الإماميّة أنّ فاطِمة عليها السلام؛ التي كانت دُون عليّ عليه السلام في الفَضل، كانت أفضل مِن سائر الأنبياء، حيثُ قال النبيّ ﷺ: «فاطِمة رُوحي التي بيْن جَنْبي»[3]. وقال ﷺ أيضاً: «لَولا عليّ لَمَا كان لَفاطِمة كُفوٌ، آدم ومَن دُونه»[4].

وهذا الحدِيث والحديث السّابق المُتّفق عليه صَريحان في أفضليّة عليّ عليه السلام مِن سائر الأنبياء، نعم الإجماع مُنعقِد علىٰ أنّ كُلّ نبيّ أفضل مِن اُمّته ومِمّن هُو تحت تَبعيّته وحُكْمه، لا أنّه لابُدّ أن يكون

---

١. (أفضل من سائر ... عليّ عليه السلام) ليس في المصدر. ٢. تفسير الرازي ٨: ٨١. ٣. أمالي الصدوق: ٢/١٧٥.
٤. الكافي ١: ١٠/٣٨٣، من لا يحضره الفقيه ٣: ١١٨٣/٢٤٩، التهذيب ٧: ١٨٨٢/٤٧٠، الفردوس ٣: ٥١٣٠/٣٧٣، مقتل الحسين عليه السلام للخوارزمي ١: ٦٦.

أفضل مِنْ كُلّ مَنْ لا يكون نبيّاً، ولَو مِن سائر الأُمَم حتّىٰ أوصياء خاتم النّبيِّين صلى الله عليه وآله.

والحاصِل: أنّ القائِل بأفضليّة عليّ عليه السلام لَم يكُن مُنحصِراً بذلك الفاضل الحِمْصي، بَل هُـو قـول جميع عُلماء الإماميّة، بَل يُمكِن دَعوىٰ كَوْنه مِن ضُروريّات مَذهبهم.

ثمّ أنّ في واقِعة المُباهلة دَلالةً وَاضِحةً علىٰ صِدْق النبيّ صلى الله عليه وآله، وصِحّة نُبُوّته، لوُضُوح أنّه صلى الله عليه وآله كان أعقل النّاس، وأنّه أقدَم علىٰ المُباهلة وخَوَّف النّصارىٰ بنُزُول العَذاب عليهم بدُعائه، فلَو لَـم يكُـن قاطِعاً بنُبوّته، لكان ذلِك مِنه سعياً في ظُهور كِذْبه، ونَقْض غَرَضه، وإهلاك نفسه، حيثُ إنّ النّصارى إنْ كانوا أقدَموا علىٰ المُباهلة ورأوا أنّه لَم ينزِل عليهم العَذاب، كان يتّضِح عِندهم كِذْبه صلى الله عليه وآله وفَضاحته بيْن النّاس، مَع أنّه لا شُبْهة أنّ القوم ترَكوا مُباهلته، فلَو لَم يظهَر لهم نُبوّته، لَم يُمكِن عادةً امتِناعهم عن مُباهلته، مَع شِدّة إصرَارهم على تكْذيبه، وإبطال دَعْواه.

إِنَّ هٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلٰهٍ إِلَّا ٱللهُ وَإِنَّ ٱللهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ ٱللهَ عَلِيمٌ بِٱلْمُفْسِدِينَ [٦٢ و ٦٣]

ثمّ أكّد الله سُبحانه الحُجَج التي أقامها علىٰ النّصارىٰ بقوله: ﴿إِنَّ هٰذَا﴾ المَذكُور مِن نبأ عيسىٰ وأُمّه، وكَوْنهما مَخلُوقَين لله وعَبْدَيْه، ومِنَ الأدلّة المُفصّلة عليها ﴿لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ والبَيانات المَقرُونة بالصِّدْق والصَّواب التي نَتيجتها قوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلٰهٍ إِلَّا ٱللهُ﴾ وحدَه لا شَريك له، ولا ولد ﴿وَإِنَّ ٱللهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالِب علىٰ كُلّ شيء، القادِر علىٰ جميع مايُريد ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ العالِم بجميع الأُمور وعَواقِبها، وبحُكْم كافّة الأشياء ومَصالِحها، لا يُشابِهه غيرُه في القُدْرة والحِكْمة حتّىٰ يُشارِكة في الأُلُوهيّة.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ وأعرضوا عن قَبُول الإسلام، واستنكَفُوا عن الاعتِراف بتَوحيد الله ورِسالتك، فاعْلَم أنّه ليسَ ذلك التّولِّي إلّاعن العِناد وإرادة الفَساد، فإذَنْ لا تُبالِ بهم، ولا تَحزن عليهم، وأعرض عنهم، واقْطَع الكلام معَهم، وفوِّض أمرهم إلىٰ الله ﴿فَإِنَّ ٱللهَ عَلِيمٌ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ مُطّلِعٌ علىٰ خُبث ذاتـهم وسُوء نيّاتهم، خَبيرٌ بأهوائهم الزّائِغة وأغراضهم الفاسِدة، قادِرٌ علىٰ مُجازاتهم بأسوأ الجَزاء. وفي ذِكر اسْم الجَلالة، تربِية الرَّوْعة والمَهابة.

قُلْ يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ ٱللهِ فَإِن تَوَلَّوا فَقُولُوا ٱشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ [٦٤]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ أمر نبيّه بمُباهلة أهل الكِتاب، وإعراضه عن مُجادلتهم ـ مع كَوْنه ﷺ حَريصاً في إيمانهم، ومُصرّاً علىٰ هِدايتهم ـ أمره بأن يعدِل في دَعوتهم عن طريق المُجادلة والمُحاجّة إلىٰ نَهْجٍ يشهَد كُلّ عَقل سَليم أنّه عَدْلٌ وإنصاف، ليسَ فيه شائبة التّعصُّب، بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد للنّصارىٰ: ﴿يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ تَعَالَوْا﴾ وهَلُمُّوا بالتّصميم وتَوْطين النّفس ﴿إِلَىٰ كَلِمَةٍ﴾ ذات ﴿سَوَاءٍ﴾ وقَول فيه عَدْل وإنصاف ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ لا يُتصوّر فيها لأحَدٍ جَوْرٌ ومَيْل علىٰ صاحِبه؛ وهِي تَواطِئُنا علىٰ ﴿أَلَّا نَعْبُدَ﴾ أحداً مِنَ الخَلْق، وشيئاً مِنَ المَوجُودات ﴿إِلَّا ٱللهَ﴾ المُستحِقّ بالذّات للألُوهيّة والعِبادة ﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِ﴾ في عِبادتنا ﴿شَيْئاً﴾ مِن مَخلُوقاته مَسيحاً كان، أو صَنَماً، أو غيرهما ﴿وَلَا يَتَّخِذَ﴾ ولا يختار ﴿بَعْضُنَا بَعْضاً﴾ آخَر مِنَ الأحبار والرُّهْبان ﴿أَرْبَاباً﴾ ومُطاعِين في تحليل الأشياء وتَحريمها ﴿مِنْ دُونِ ٱللهِ﴾ ومِمّا سِواه.

في بيان المراد من الأقانيم

فإنّ جميع هذه الأمور الثّلاثة[1] مِمّا تسالَمتْ عليها العُقول السّليمة والطِّباع المُستقيمة، واتّفقتْ عليها الرُّسُل والكُتُب المُنزلة، ومع ذلِك خالفَتْ النّصارىٰ كُلّها، إذْ كان بعضُهم يقولون بالُوهيّة عيسىٰ عليه السلام وحدَه ويعبُدونه، وبعضُهم يُشرِكون بالله غيرَه، ويقولون بالأقانيم الثّلاثة: أبٌ، وابنٌ، ورُوحُ القُدُس، حيث قالوا: إنّ أُقْنُوم الكلمة تدرّعتْ بناسُوت المَسيح، وأُقنُوم رُوحُ القُدُس بناسُوت مَريم، ولَولَا [كون] هذَين الأُقنُومَين ذاتين مُستقلّتَين، لَمَا جازَتْ عليها مُفارقة ذات الأب والتّدرُّع بناسُوت عيسىٰ ومريم عليهما السلام، فلِذا أثبتوا ذَوات ثلاثة مُستقلّة، وكذا اتّخذوا أحبارَهم ورُهبانهم أرباباً، حيثُ كانوا يُطِيعونهم في التّحليل والتّحريم، ويسجُدون لهم.

رُوِي أنّه لمّا نزلَتْ ﴿اتَّخَذُوا أحبارَهُم وَرُهْبانَهم أرباباً مِن دُونِ آللهِ﴾[2] قال عَدِيّ بن حاتِم: ما كُنّا نعبُدهم يا رسُول الله، فقال ﷺ: «أليسَ كانوا يُحِلّون لكم ويُحرّمون، فتأخُذون بقولهم؟» قال: نعَم، قال: «هُو ذلِك»[3].

قيل: إنّ مِن مَذْهبهم أنّ مَنْ صار كامِلاً في الرّياضة والمُجاهدة يظهَر مِنه[4] أثَر حُلُول اللّاهُوت، فيقدِر علىٰ إحياء الأموات، وإبراء الأكمَه والأبرص. فإنّهم وإنْ لَم يُطلِقوا عليه اسْم الرَّبّ، إلّا أنّهم أثبتوا فيه[5] معنىٰ الرُّبوبيّة[6].

ورُوي أنّ اليَهود قالوا للنبيّ ﷺ: ما تُريد إلّا أن نتّخِذك ربّاً كما اتّخذتْ النّصارىٰ عيسىٰ، وقالَتْ

---

١. أي الواردة في الآية. ٢. التوبة: ٣١/٩. ٣. تفسير أبي السعود ٢: ٤٧.
٤. في تفسير الرازي: فيه. ٥. في تفسير الرازي: في حقه.
٦. تفسير الرازي ٨: ٨٦.

النّصارىٰ: يا محمّد، ما تُريد إلّا أن نقُول فيك ما قالَتْ اليَهُود في عُزَير، فأنزل الله هذه الآية[١]. وعليها يكون الخِطاب لأهل الكِتابَين.

ثمّ قال تعالىٰ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ عن سُلُوك طريق الإنصاف واتّباع العَقل، واستنكَفوا عن قَبُول ما دَعَوتهم إليه مِن التّوحيد وتَرْك الإشراك ﴿فَقُولُوا﴾ أيُّها المُوحِّدون لأهل الكِتابَين: ﴿ٱشْهَدُوا﴾ واعترِفوا بعدَما لزِمتكم الحُجّة ﴿بِأَنَّا﴾ خاصّة ﴿مُسْلِمُونَ﴾ لله مُنقادون لِما دَعانا إليه مِنَ التّوحيد، وعَدم الإشراك في العِبادة؛ ببَيان العَقل، ولِسان الرُّسُل. وفيه دَلالةٌ ظاهِرةٌ علىٰ أنّ أصل جميع الدِّيانات هُو التّوحيد، والإخلاص في العِبادة.

في توقيع سيد الرسل إلىٰ قيصر الروم

رُوي أنّ رسُول الله ﷺ كتب إلىٰ قَيصر الرُّوم: «مِن مُحمّد رسُول الله، إلىٰ هِرَقْل عظيم الرُّوم، سَلامٌ علىٰ مَن اتّبع الهُدىٰ، أمّا بَعْد: فإنّي أدعُوك بدِعاية الإسلام، أسْلِم تَسْلَم، وأسْلِم يُؤتِكَ اللهُ أجرَك مرّتين، وإنْ تولّيتَ فإنّ عليك إثْم الأولِيين[٢]، و﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْـًٔا﴾ إلىٰ قوله: ﴿فقُولوا اشهَدُوا بأنّا مُسلِمُونَ﴾»[٣].

رُوي أنّ هِرَقْل سَأل عن حَال النبيّ ﷺ وعَرَفها مِمَّن جاء بكتابه، فقال هِرَقْل: لَو كُنتُ عندَه لقبّلتُ قَدَمَيه؛ لمَعرِفته صِدْق النبيّ ﷺ بعَلاماته المَعلُومة له مِنَ الكُتُب القديمة، لكِن خافَ مِن ذَهاب الرِّئاسة.

ثمّ أنّه كتَب جَواب كتابه ﷺ: إنا نشهَد أنّك نبيّ، ولكِنّا لا نستطيع أن نترُك الدِّين القديم الذي اصْطفاه الله لعيسىٰ. فعجِب النبيّ ﷺ فقال: «لقد ثبّت مُلكهم إلىٰ يوم القِيامة أبداً».

وكتَب إلىٰ كِسرىٰ مَلِك فارس فمزّق كِتابه، ورجَع الرّسُول بعدما أراد قَتله، فدعا عليه رسُول الله ﷺ فقال: «خرّق اللهُ مُلكهم، فلا مُلْك لهم أبداً»، فكان كذلك[٤].

في مبالغة النبي ﷺ في دعوة النصارىٰ وحسن التدّرج في الحجاج

قال بعضٌ: انظُر ما رُوي في هذه القضيّة مِن المُبالغة في الإرشاد، وحُسْن التّدرُّج في الحِجاج بيّن أوّلاً أحوال عيسىٰ، وما تَعَاوَر[٥] عليه مِنَ الأطوار المُنافية للإلاهيّة، ثمّ ذكر كَيْفيّة دَعوته للنّاس إلىٰ التّوحيد والإسلام، ثمّ ذكر ما يحُلّ عُقْدتهم، ويُزيح شُبْهتهم، فلمّا ظهَر عِنادُهم ولَجاجُهم دَعاهم إلىٰ المُباهلة بنَوعٍ مِنَ الإعجاز، ثمّ لمّا

---

١. تفسير الرازي ٨: ٨٥.
٢. في تفسير روح البيان: الاريسيّين، وهم الخدم والخول، أو هم عبدة النار، أو الملوك والعشارون. اُنظر: مكاتيب الرسول: ١٠٥ ـ ١٠٧.
٣. تفسير روح البيان ٢: ٤٦.
٤. تفسير روح البيان ٢: ٤٦.
٥. تعاور: أي تداول عليه.

أعرضوا وانقادوا بعضَ الانقياد، عادَ عليهم بالإرشاد، وسلَك طريقاً أسهل وألزم بأن دَعاهم إلىٰ ما وافَق عليه عيسىٰ والإنجيل وسائر الأنبياء والكُتُب، ثمّ لمّا ظَهر عدَم إجْدائه، وعَلِم أنّ الآيات والنُّذُر لا تُغْنِ عنهم، أعرَض عن ذلك بقوله: ﴿اشهَدُوا بأنّا مُسْلِمُون﴾.

يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِى إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ ٱلتَّوْرَاةُ وَٱلْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ[٦٥]

ثمّ أنّه ـ لمّا كان كُلٌّ مِنَ اليَهُود والنّصارىٰ يدّعون أنّ إبراهيم كان علىٰ دِينهم، ويستدلّون بذلِك علىٰ صِحّة مِلّتهم، لتَسالُم جميع الفِرَق علىٰ عُلُوّ مَقام إبراهيم عليه السلام، واستِقامة طريقته، وحُسْن سِيرته، وصِحّة عقيدته ـ رَدّ الله عليهم بقوله: ﴿يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ﴾ مِنَ اليَهُود والنّصارىٰ ﴿لِمَ تُحَاجُّونَ﴾ وتُنازِعون ﴿فِى﴾ دِين ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ أنّه يَهُوديّ أو نَصْرانيّ ﴿وَ﴾ الحَال أنّه ﴿مَا أُنْزِلَتِ ٱلتَّوْرَاةُ وَٱلْإِنْجِيلُ﴾ اللذين بهما حدَث الدِّينان ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ﴾ بقُرُون كثيرة، ولَم يكُونا في زمانه ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أنّ هذه الدّعوىٰ واضحة البُطلان؟ وكيف لا تفهمُون أنّ هذا القول مِنَ الفساد بمَكان.

قيل: إنّ بيْن إبراهيم وموسىٰ عليهما السلام ونُزُول التّوراة ألف سنة، وبَيْن مُوسىٰ وعيسى عليهما السلام ونُزُول الإنجيل ألفا سنة[1].

وهْمٌ ودَفْعٌ

إن قيل: إنّ المُسلمين أيضاً يدّعون أنّ إبراهيم كان مُسلِماً، وهذه الدّعوىٰ كدَعْوىٰ أهل الكِتابَيْن مِنَ المحالات، حيثُ إنّه ما أُنزِل القُرآن والإسلام إلّا مِن بعدِه، فكُلّ ما يقول المُسلمون في تَوْجيه دَعْواهم، تقول الطّائِفتان أيضاً.

قُلنا: المُراد مِنَ الإسلام: هُو التّوحِيد الخَالِص، وتَنزيهه تعالىٰ عن التّجسُّم والوَلَد والحَاجة. وهذ الدِّين كان مِنْ أوّل الدُّنيا، ويكون إلىٰ يومِ القِيامة. والمُراد باليَهُوديّة: هُو القول بالشِّرْك، والتّجسُّم، وإثبات الوَلَد له تعالىٰ. وكذا النّصْرانيّة.

وهذه العقائِد الفَاسدة كانت عندَهم مَنسُوبة إلىٰ الكِتابَين، أو حدثَتْ في اعتِقادهم بعدَ الكِتابَين؛ لأنّ اليَهُود ذهبوا إلىٰ القول بأنّ العُزَيْر ابنُ الله لتِلاوته التّوراة بعدَ ذهابها مِن بيْن النّاس عن ظَهر القلب، والنّصارىٰ قالوا: إنّ المَسيح الجائي بالإنجيل كان هُو الله أو شريكه أو وَلَده؛ لأنّه كان بِلا أبٍ، أو كان عيسىٰ عليه السلام يُعبّر في الإنجيل عن الله بالأب.

وأمّا العقائِد الإسلاميّة فلم يكن حُدُوثها بنُزُول القُرآن، بَل أخبر القُرآن بأنّها كانت مِنْ لَدُن آدم

---

١. تفسير أبي السعود ٢: ٤٨، تفسير روح البيان ٢: ٤٨.

وقبله.

هَاأَنْتُمْ هٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيما لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُونَ فِيما لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَٱللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ * مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً وَلٰكِن كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ[٦٦ و ٦٧]

ثمّ إنّه سُبحانه وبّخ أهل الكتاب علىٰ دَعواهم الفاسدة بقوله: ﴿هَا﴾ تنبّهوا يا أهل الكتاب ﴿أَنـتُمْ هٰؤُلَاءِ﴾ الحُمَقاء، البعيدون عن العَقل، المُمتازون بغاية السّفاهة، حيثُ إنّكم ﴿حَاجَجْتُمْ﴾ وجادلتم في كثيرٍ مِنَ الدّعاوىٰ الباطِلة، متمسّكين بالتّوراة والإنجيل المُحرّفين، كدَعوىٰ كَوْن كثيرٍ مِن أحكامهما مُخالفاً لِدين الإسلام، وتدّعون أنّ جِدالكم فيه جِدالٌ ﴿فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾ لوُجود هذه المُخالفة في الكِتاب الذي تُسمّونه بالتّوراة والإنجيل ﴿فَلِمَ تُحَاجُّونَ﴾ وتُجادِلون ﴿فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾ مِن دِين إبراهيم عليه السلام أنّه كان يَهُوديّاً، أو نَصرانيّاً، أو مُسلماً، لعدَم تعيينه في الكِتابَين المحرّفَين ﴿وَٱللهُ يَعْلَمُ﴾ جميع الأُمور، مِنها دِين إبراهيم ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ شيئاً إلّا ما علّمكم الله.

فإن أردتم أن تعلَموا دِين إبراهيم فاعْلموا أنّه ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلَا نَصْرَانِيّاً﴾ فإنّ مَقامه أرفع مِن التّديُّن بالدّينَين الباطِلين ﴿وَلٰكِن كَانَ حَنِيفاً﴾ ومائلاً عن جميع العقائد الباطِلة و﴿مُسْلِماً﴾ مُنقاداً لله وحدَه ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وفيه تعريضٌ بأنّهم مُشركون، وردّ علىٰ مُشركي العرَب؛ حيثُ كانوا يدّعون أنّهم علىٰ دِين إبراهيم عليه السلام.

إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَٱللهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ[٦٨]

ثمّ أنّه تعالىٰ عرّف الذِين هُم علىٰ دِين إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ﴾ وأحقّهم بالاتّصال ﴿بِإِبْرَاهِيمَ﴾ برابِط الدِّين، فريقان: الأوّل: ﴿لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ في زَمانه والأعصار بعدَه، في التّوحيد الخالِص، والانقياد لله، ﴿وَ﴾ الثاني: ﴿هٰذَا ٱلنَّبِيُّ﴾ المُعظّم ﴿وَٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ مِنَ المُسلمين ﴿وَٱللهُ وَلِيُّ﴾ أُولئك ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فينصُرهم علىٰ مُخالِفيهم، ويُؤيّدهم بالحُجّة، ويُوفّقهم لكُلّ خَيرٍ في الدُّنيا، ويُجازيهم بأحسن الجزاء في الآخِرة.

وَدَّت طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ[٦٩]

ثمّ أنّه تعالىٰ ـ لمّا بيّن أنّ المُؤمنين بالنبيّ ﷺ هُم الذين يكونون علىٰ مِلّة إبراهيم، دُون اليَهُود والنّصارىٰ ـ بيّن أنّهم لا يقتصِرون علىٰ ضَلالة أنفسهم عن نَهج الحقّ، بَل يُريدون إضلال المُؤمنين، بقوله: ﴿وَدَّت طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ﴾ وتمنّوا ﴿لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾ أيُّها المُؤمنون عن دِينكم الحَقّ مع غَاية ثَباتكم عليه، والحال أنّهم ﴿وَمَا يُضِلُّونَ﴾ عن سَبيل الهِداية وطريق الجنّة ﴿إِلَّا أَنفُسَهُمْ﴾ لرُسُوخ الإيمان في قُلوبكم، وعدَم تَخطّيهم الضّلال ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ باختِصاصهم به، ورُجُوع وَبَال ذلك الضّلال إليهم.

قيل: نزلَتْ هذه الآية في مَعاذ وعمّار بن ياسر وحُذَيفة [لمّا] دعاهم اليَهُود إلىٰ دِينهم[1].

يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ ٱللهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ [٧٠]

ثمّ وجّه سُبحانه الخِطاب التّوبيخي إليهم بقوله: ﴿يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ ٱللهِ﴾ الناطِقة بصِحّة نُبوّة محمّد ﷺ ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ علىٰ أنّها آيات الله في خَلَواتكم، وقيل: المُراد: لِمَ تنكُرون القُرآن وأنتم تشهَدون بقُلُوبكم وعُقُولكم كَونه مُعجِزاً[2].

يَا أَهْلَ ٱلكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ [٧١]

ثمّ وبّخهم ثانياً بقوله: ﴿يَا أَهْلَ ٱلكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ﴾ وتخلِطون ﴿ٱلْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ وتجتَهدون في إلقاء الشُّبُهات، حتّىٰ لا يتميّز الرُّشْد مِنَ الغَيّ ﴿وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ﴾ وتُخفون دَلائله الواضِحة ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ بها وبدَلالتها، وقُبحْ الكِتمان والتّلبيس وبعِقابهما الأُخرويّ.

وَقَالَت طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِى أُنْزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَٱللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ [٧٢ و ٧٣]

ثمّ بينّ الله أحد أنواع تَلبيساتهم بقوله: ﴿وَقَالَت طَائِفَةٌ مِنْ﴾ رُؤساء ﴿أَهْلِ ٱلكِتَابِ﴾ لأتباعهم ـ قيل: إنّها كانت كَعْب بن أشرف ومالِك بن الصيف مِن رُؤساء اليَهُود، لأتباعهما وأصحابهما، لمّا

١. جوامع الجامع: ٦١. ٢. تفسير الرازي ٨: ٩٢.

تحوّلتْ القِبْلة مِن بَيت المَقْدِس إلىٰ الكعبة ـ: ﴿آمِنُوا﴾ في الظّاهِر بألسِنتكم ﴿بِالَّذِى أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بمحمّد، مِن تَحويل القِبْلة، وقولوا بأفواهكم: إنّه الحقّ، وصلّوا إليها ﴿وَجْهَ النَّهَارِ﴾ وفي أوّله.

وعن العيّاشي: وهُو صلاة الصُّبح[1]، حتّىٰ يعتقِد المُؤمنون أنّكم اعتقدتُم عن صَميم القلب ﴿وَاكْفُرُوا﴾ به وتجاهَروا بإنكاره وصلّوا إلىٰ الصَّخرة ﴿آخِرَهُ﴾

عبّاس[2] ـ كي يكون ذلك سبباً لوُقُوع الشُّبْهة في قلوبهم بأن يقولوا في أنفسهم: إنّ اليَهود أعلَم مِنّا، فآمنوا بالتّحويل مِن غيرِ تأمّل وغرض، ثمّ بعدَ التّأمّل والتّفكّر ظهر لهم بُطلانه فرجَعوا ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ بهذه الشُّبهة ﴿يَرْجِعُونَ﴾ عن الإيمان بمحمّد، وبتحويل القِبْلة.

وقيل: كانت الطّائِفة اثني عشَر رَجُلاً مِن أحبار خَيْبر، حيثُ تقاوَلوا بأن يدخُلوا في الإسلام أوّل النّهار، ويقولوا آخِره: نظَرنا في كِتابنا، وشاوَرنا علماءنا، فلَم نجِدْ محمّداً بالنَّعْت الذي ورَد في التّوراة، لعَلّ أصحابه يشكّون فيه[3].

﴿وَ﴾ قالوا لأتباعهم، ووصّوا إليهم بأن ﴿لَا تُؤْمِنُوا﴾ إيماناً واقعيّاً، ولا تصدِّقوا عن صَميم القَلب لأحدٍ ﴿إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ مِنَ اليَهُود، لا لمَنْ تبع دِين محمّد مِنَ المُسلِمين.

قيل: إنّ المُراد: لا تُظهِروا الإيمان وَجْه النّهار إلّا للمُسلمين الّذين كانوا علىٰ دِينكم مِنْ قَبْل، فإنّ رُجُوعهم أرجىٰ وأهمّ[4].

وفي الإخبار بهذه الأسرار الخَفيّة مُعجِزة ظاهِرة للنبيّ ﷺ، وحِفْظ قُلوب المُؤمنين عن الشَّك، ورَدْع المُنافقين عن السّعي في إلقاء الشُّبُهات.

ثمّ لمَا سَمّوا طريقتهم الباطِلة بالدِّين والهِداية رَدّهم الله بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ﴾ والدِّين ﴿هُدَى اللهِ﴾ ودِينه، لا مَذْهب اليَهُوديّة. أو المُراد: قُل لهم إنّ الهِداية والتّوفيق هِداية الله وتوفيقه، يهدي بها مَن يشاء إلىٰ الإيمان، ويُثيبه عليه، ولا يضرّه كَيْدُكم وحِيلَكم.

ثمّ إنّ الأظهر أنّه تعالىٰ ـ بعدَ الجُملة الاعتِراضيّة التي جاء بها، لشِدّة الاهتِمام بالتّنبيه بها ـ عاد إلىٰ حِكاية بقيّة كلام الرُّؤساء لأتباعهم، وكأنّهم قالوا لهم: ولا تُؤمنوا ﴿أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ﴾ مِنَ العَرب أو غيرِهم ﴿مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾ مِنَ المُعجِزات، والكِتاب، والأحكام، والعُلوم، فإنّ ذلك مِنَ المُحالات غير

---

١. تفسير الرازي ٨: ٩٤ عن ابن عبّاس، ولم نعثر عليه في تفسير العياشي.
٢. تفسير الرازي ٨: ٩٤.
٣. تفسير البيضاوي ١: ١٦٥، تفسير أبي السعود ٢: ٤٩.
٤. تفسير البيضاوي ١: ١٦٥، تفسير أبي السعود ٢: ٤٩.

القابِلة للتَصديق ﴿أَوْ﴾ أنّ المُسلمين ﴿يُحَاجُّوكُمْ﴾ ويغلِبوا عليكم ﴿عِندَ رَبِّكُمْ﴾ يومَ القِيامة، فاثبُتوا بغاية الثَبات علىٰ دِينكم، فإنّه غير مَنسُوخ. وفي الآية احتِمالات اُخَر يكون التكلّف فيها أكثر.

ثمّ رَدّ الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿إِنَّ الْفَضْلَ﴾ مِنَ النُبوّة، والعِلْم، والكِتاب، والهِداية، والتَوفيق أمره ﴿بِيَدِ اللهِ﴾ وإرادته ومَشيئته وقُدْرته ﴿يُؤْتِيهِ﴾ ويُصيب به ﴿مَن يَشَاءُ﴾ مِن عِباده علىٰ حَسَب قابليّته وكمال وُجوده، ولا يختصّ بطائفة خاصّة وأشخاص مَخصُوصة ﴿وَاللهُ وَاسِعٌ﴾ قُدْرة ورحمةً وفضلاً ﴿عَلِيمٌ﴾ باستِحقاقات الخلائِق وقابليّاتهم، ومُطَّلِع علىٰ جميع مَصالِح الأُمور ومَفاسِدها.

يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ[٧٤]

ثمّ أكّد سُبحانه سَعَة قُدْرته وفَضْله بقوله: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ﴾ مِن نِعَمه وكَرامته ﴿مَن يَشَاءُ﴾ إنعامه وإكرامه، قيل: إنّ الرّحمة أعلىٰ مِن الفَضْل ﴿وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ بحيث لا نفاد لفَضله، ولا نِهاية لكَرَمه.

وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ[٧٥]

ثمّ لمّا كان أهل الكِتاب مُدّعين أولَويّتهم بمنصب النُبوّة مِن غيرِهم مِن العَرب، نفىٰ الله أهلِيّتهم له، بكَوْن غير المُسلمين مِنهم خائِنين في أموال النّاس، بقوله: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ كعبدالله بن سَلَام، وأضرابه مِن المُؤمنين مِنهم ﴿مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ﴾ قيل: هُو كِناية عن المال الكثير ﴿يُؤَدِّهِ﴾ ويرُدّه ﴿إِلَيْكَ﴾ ولا يخونه[1] شيئاً.

عن ابن عبّاس: أودع رَجُلٌ عبدَالله بن سَلَام ألفاً ومائتي اُوقيّة ذهباً، فأدّاه إليه[2].

﴿وَمِنْهُم مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ﴾ قيل: هُو كِناية عن المال القَليل ﴿لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ ويخُونك فيه، في أي وقتٍ مِن الأوقات، وأي حالٍ من الأحوال ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ﴾ مِن حِين التّأمين ﴿عَلَيْهِ قَائِماً﴾ وله مُلازماً، لا تُفارقه في وقتٍ أو حالٍ. قيل: هُو كِناية عن المُبالغة في المُطالبة والتّشديد فيها.

عن ابن عبّاس: أنّ فنخاص بن عازورا اسْتودعه رَجُلٌ قَرَشيّ ديناراً فجحَده[3].

---

١. خان المال: نقصه. ٢. تفسير الرازي ٨: ١٠٠.

٣. تفسير الرازي ٨: ١٠٠، تفسير البيضاوي ١: ١٦٦، تفسير أبي السعود ٢: ٥٠.

وقيل: إنّ المُراد مِن المأمونين: النَصارىٰ، ومِن الخائنين: اليَهود، لكَوْن الغالِب فيهم الخِيانة[١].

ثمّ ذكَر سُبحانه عِلّة خِيانتهم بقوله: ﴿ذٰلِكَ﴾ العمَل القبيح مِن الخِيانة، وتَرْك أداء الأمانة وشُيوعه فيهم، مُعلّل ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوا﴾ تعصُّباً وعِناداً وغُروراً: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِى﴾ شأن ﴿ٱلْأُمِّيِّينَ﴾ والعَرب الذين ليسُوا مِن أهل العِلْم والكِتاب ﴿سَبِيلٌ﴾ ومؤاخذة وعِتاب مِن الله. رُوي أنّ اليَهود بايعوا رِجالاً في الجاهليّة، فلمّا أسلموا طالَبوهم بالأموال، فقالوا: ليس لكم علينا حَقّ؛ لأنّكم تركتم دِينكم[٢].

﴿وَ﴾هُم لخُبْث ذاتهم ﴿يَقُولُونَ﴾ ويفتَرون ﴿عَلَى ٱللهِ ٱلْكَذِبَ﴾ حيثُ إنّهم كانوا ينسُبون هذا القول الباطِل إلى التوراة ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنّ هذا القول والنِّسْبة كَذِبٌ وفِرْيَة.

في وجوب ردّ الأمانة ولو إلى الكافر

رُوي أنّه لمّا نزلت هذه الآية قال رسُول الله ﷺ: «كَذِب أعداءُ الله، ما مِن شيءٍ كان في الجاهليّة إلّا وهُو تحتَ قَدَمي، إلّا الأمانة فإنّها مُؤدّاةٌ إلىٰ البَرّ والفاجِر»[٣].

أقول: فيه دَلالةٌ علىٰ وُجوب رَدّ الأمانة، ولَو إلىٰ الكافر الحَربي غير المُحترم المال. ويعاضِده رِوايات اُخَر، وقد عمِل بها الأصحاب، وادُّعِي عليه الشُّهرة، ونُسِب قول أبي الصَّلاح - القائِل بعدَم الوُجوب - إلىٰ الشُّذود[٤].

بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ [٧٦]

ثمّ لمّا كان هذا الافتِراء مَبنِيّاً علىٰ ادّعائهم أنّهم أبناء الله وأحِبّاؤه، ردّ الله عليهم بقوله: ﴿بَلَىٰ﴾ عليكم في الأُمّيّين سبيل، ولَستُم أحبّاء الله، إنّما أحبّاؤه كُلّ ﴿مَنْ أَوْفَىٰ﴾ وعمِل ﴿بِعَهْدِهِ﴾ وتكاليفه وأحكامه ﴿وَٱتَّقَىٰ﴾ الشِّرْك والخِيانة في الأمانة ﴿فَإِنَّ ٱللهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ ويثيب المُتحرِّزين عن الخِيانة ونَقض العُهُود.

عن رسُول الله ﷺ: «أربَعٌ مَنْ كُنَّ فيه كان مُنافقاً خالِصاً، ومَن كانَتْ فيه خَصْلة مِنهُنّ كانت فيه خَصْلة مِن النِّفاق، حتّىٰ يدَعَها: إذا ائتُمِن خان، وإذا حدَّث كَذَب، وإذا عاهَد غدَر، [وإذا خاصم فجَر]»[٥].

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُولٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ

---

١. تفسير أبي السعود ٢: ٥٠.
٢. تفسير الرازي ٨: ١٠٢.
٣. تفسير الرازي ٨: ١٠٢.
٤. راجع مفتاح الكرامة ٦: ٤٠، جواهر الكلام ٢٧: ١٢٤.
٥. تفسير روح البيان ٢: ٥٢.

أَلِيمٌ[٧٧]

ثمّ لمّا كانت الخِيانة نَقض عَهد الله، وإنكار أخْذ الأمانة مُستلزماً للأيْمان الكاذِبة غـالباً، هـدّد الله عليهما بقوله: **﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ﴾** ويستَبدلون **﴿بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾** وميثاقه، [سَـواءً] كـان عـلىٰ الإيـمان بالرّسُول أو الوفاء بالأمانات أو غيرهما **﴿وَأَيْمَانِهِمْ﴾** الكاذبة، سَواءً كانت علىٰ إنكار أخْذ الأمانة، أو علىٰ أنّهم يُؤمنون بالرّسُول وينصُرونه. ويأخذُون بعِوَض الوَفاء بالعَهد، وأداء الأمـانة، وبِـرّ اليـمين **﴿ثَمَناً﴾** وبَدَلاً **﴿قَلِيلاً﴾** مِن مَتاع الدُّنيا، والرّئاسات الباطِلة.

﴿أُوْلَئِكَ﴾ المُتخلِّقون بتِلْك الأخلاق الذّميمة، المُتّصِفون بتِلْك الصِّفات القبيحة **﴿لَا خَلَاقَ﴾** ولا نَصيب **﴿لَهُمْ﴾** مِن النِّعَم والرّحمة **﴿فِى ٱلْآخِرَةِ﴾** والدار الباقية **﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾** بما يَسُرُّهم، أو بكلامٍ أصلاً، وإنّما يقَع ما يقع مِن السُّؤال والتقريع والتّوبيخ في أثناء الحِساب، مِنَ الملائِكة.

وقيل: إنّ المُراد أنّهم لا ينتفِعون بكَلمات الله وألطافه، وقيل: إنّ الجُملة كِناية عـن شِـدّة الغـضَب والسَّخَط[١].

﴿وَلَا يَنظُرُ﴾ الله **﴿إِلَيْهِمْ﴾** بنظَر الرّحمة والرّأفة **﴿يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ﴾** لغاية سُقُوطهم وهَـوانـهم **﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾** ولا يُطهِّرهم مِن أوساخ الأوزار، ودَنَس الذُّنوب، كما يُطهِّر المُذنِبين مِنَ المُؤمنين **﴿وَلَهُمْ﴾** بحَسَب الاستِحقاق **﴿عَذَابٌ﴾** بالنّار **﴿أَلِيمٌ﴾** ومُوجِع في الغاية.

رُوي أنّها نزلَتْ في أبي رافع، ولبابة بن الحُقَيق، وحُيَي بن أخطب، حرّفوا التّوراة، وبـدّلوا نـعت الرّسُول ﷺ وأخذوا الرّشْوة علىٰ ذلك[٢].

وقيل: نزلَتْ في الأشعث بن قيس، حيثُ كان بَيْنه وبَيْن رَجُل نِزاع في بِئْر، فاختصما إلىٰ رسُـول الله ﷺ، فقال له: «شاهداك، أو يمينه» فقال الأشعث: إذَنْ يحلِف ولا يُبالي. فقال رسُول الله ﷺ: «مَن حلَف علىٰ يمينٍ يستحِقّ بها مالاً، هُو فيها فاجِر، لقيَ الله وهُو عليه غَضبان»[٣].

وقيل: نزلَتْ في رَجُلٍ أقام سِلْعةً في السُّوق، فحلَف لقد اشتراها بما لَم يكُن اشتراها به[٤].

والجمعُ بَيْن الرِّوايات أنّ جميع الوقائع لاقْتِرانها كان شأن النُّزول.

وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَىٰ ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ[٧٨]

---

١. تفسير الرازي ٨: ١٠٥.

٢ ـ ٤. تفسير أبي السعود ٢: ٥١.

ثمَ لمّا ذكَر سُبحانه أنهم نقَضوا عَهْد الله بخِيانتهم في أموال النّاس، ذكَر أنهم نقَضوا عَهده بخِيانتهم في التّوراة التي هِي أعظم ودائع الله في خَلْقه، وتَحريفهم إيّاها، بقوله: ﴿وإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً﴾ وطائِفة ككَعْب بن أشرف وحُيَي بن أخطب وأضرابهما ﴿يَلْوُونَ﴾ ويفتِلون ﴿أَلْسِنَتَهُم﴾ عندَ التَلفُّظ ﴿بالكِتَابِ﴾ المُنزَل عليهم، وحينَ قراءة آياته الدّالّة علىٰ نُعُوت النبيّ ﷺ بتغيير الحَرَكات والإعراب، وكيفيّة تأدية الحُروف بحيث يُوجِب تحريف كلام الله، وتغيير مَدلُوله المُنزَل إلىٰ المُحرَّف ﴿لِتَحْسَبُوهُ﴾ وتتوهّموه أنّه بالنَّحْو الذي يقرأونه ﴿مِنَ﴾ جُملة ﴿الْكِتَابِ﴾ المُنزَل، ﴿وَ﴾ الحَال أنّه ﴿مَا هُوَ مِنَ﴾ جُملة ذلك ﴿الْكِتَابِ﴾ في نفس الأمر، وفي اعتِقادهم، ﴿وَ﴾ معَ ذلك ﴿يَقُولُونَ﴾ بالصَّراحة، لا بالكناية والتَّعريض لمُحرَّفهم: ﴿هُوَ﴾ الكِتاب المنزل ﴿مِنْ عِندِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ﴾ حتّىٰ في اعتِقادهم ﴿وَيَقُولُونَ﴾ بهذه النِّسْبة ﴿عَلَى اللهِ الْكَذِبَ﴾ والافتِراء تَجرّياً وغُروراً ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنّهم كاذِبون مُفترون، وفيه تسجيل عليهم بالتَعمُّد في الكَذِب.

عن ابن عبّاس ﷺ: أنّ النَّفَر الّذِين لا يكلّمهم الله يومَ القِيامة، ولا ينظُر إليهم، كتبوا كتاباً شوّشوا فيه نَعْت محمّد ﷺ وخلَطوه بالكتاب الذي كان فيه نَعْت محمّد ﷺ، ثمّ قالوا: هذا مِن عندِ الله[١].

مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِن دُونِ اللهِ وَلٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ * وَلَا يَأْمُرَكُم أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُم مُسْلِمُونَ[٧٩ و ٨٠]

ثمَ لمّا كان كِذْب أهل الكِتاب غير مختصّ بالله وتحريفهم بنُعُوت محمّد ﷺ، بَل كانوا يكذِبون ويفتَرون علىٰ أنبيائهم ويحرّفون كلماتهم، كافتِراء النّصارىٰ علىٰ عيسىٰ بأنّه كان يدّعي الأُلُوهيّة، ويأمر النّاس بعِبادة نفسه، نزّه الله تعالىٰ أنبياءه عن هذه الأباطيل، ردّاً علىٰ المُفترين، بقوله: ﴿مَا كَانَ﴾ صالِحاً ﴿لِبَشَرٍ﴾ بلَغ في كمال القُوّة النظريّة والعمليّة إلىٰ ﴿أَن يُؤْتِيَهُ اللهُ﴾ ويهَبه ﴿الْكِتَابَ﴾ الناطِق بالحَقّ، الآمر بالتّوحيد، النّاهي عن الشِّرْك ﴿وَ﴾ أن يُؤتيه ﴿الْحُكْمَ﴾ قيل: هُو كِناية عن الفَهم والعِلم والسُّنَن، ﴿وَ﴾ أن يهَبه ﴿النُّبُوَّةَ﴾ التي هِي مَنصِب إلٰهي للنفوس الكامِلة الطيِّبة الزَّكيّة كَي يقوموا بهِداية الخَلق وتَعليمهم وتَربيتهم ﴿ثُمَّ يَقُولَ﴾ ذلِك البَشَر، معَ كَوْنه في مَرتبة البَشريّة المُنافية للأُلُوهيّة، وبعدما شرّفه الله بما ذكَر مِنَ التّشريفات، وعرّفه الحَقّ، وأطلعه علىٰ شؤونه العالية ﴿لِلنَّاسِ كُونُوا

---

١. تفسير الرازي ٨: ١٠٧.

عِبَاداً﴾ خاضِعين مُنقادِين ﴿لِى﴾ وأطيعوني ﴿مِن دونِ ٱللهِ﴾ قيل: إنّ المُراد: مُتجاوِزين الله في العِبادة.

رُوي أنّ أبا رافع القرظيّ، والسيِّد النَجْراني قالا لرَسُول الله ﷺ: أتُريد أن نعبُدك ونتّخِذك ربّاً؟ فقال ﷺ: «مَعاذَ الله أن نعبُد غيرَ الله، وأن نأمر بعِباده غيره»[1] فنزلَتْ [الآية].

ونُقِل أنه قال رَجُلٌ مِن المُسلمين: يا رسُول الله، نُسلِّم عليك كما يُسلِّم بعضُنا علىٰ بعضٍ، أفلا نسجُد لك؟ قال ﷺ: «لا ينبغي أن يُسجَد لأحدٍ مِن دُون الله، ولكِن أكرِموا نبيَّكم، واعْرِفوا الحَقّ لأهله»[2].

أقول: يُمكِن كَوْن مرجِع ضمير (أهله) هُو النبيّ، لا (الحقّ) فيكون أمراً بمعرِفة آلِهِ بالوِلاية، ووُجوب الطّاعة.

﴿وَلَٰكِن﴾ البَشَر العالِم المُعلِّم للخَلق، يقول لهم: ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾ والعُلَماء الكامِلين في معرِفة الله، المُتمسِّكين بدِينه، القائِمين بطاعته، المُقبِلين علىٰ عِبادته، وذلك الاهتِمام في العِلْم والعَمَل ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ﴾ النّاس ﴿ٱلْكِتَابَ﴾ السّماوي المَشحُون بالمعارِف والحكم والأحكام ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ كِتاب الله وتقرأونه، فإنّ دِراسة كِتاب الله وتِلاوته ـ التي هِي ذَريعة المعَرِفة والعَمَل، والتّصدي لتَربية الخَلق وتكمِيلهم ـ سبَبٌ لاهتِمام المُربّي بتربية نفسه. وإنّما قدّم التّعلِيم علىٰ الدِّراسة لشَرَفه عليها.

﴿وَلَا﴾ يصلُح أنه ﴿يَأْمُرَكُمْ﴾ ويبعثكم ذلِك البَشَر المَبعُوث لِهداية النّاس إلىٰ ﴿أَن تَتَّخِذُوا﴾ وتختاروا لأنفسكم ﴿الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً﴾ وآلِهة مَعبُودين من دون الله كَمشركي العَرَب والصّابِئين حيثُ قالوا بأنّ الملائِكة بنات الله، وكاليَهُود حيثُ قالوا بأنّ العُزَير ابن الله، وكالنّصارىٰ حيثُ قالوا بأنّ المَسيح ثالثُ ثلاثةٍ، أو ابنُ الله.

ثمّ لإظهار غاية شَناعة نِسْبة هذه الأمور إلىٰ النبيّ العارِف بالله حَقّ معرِفته، بَل امتِناع وُقُوعها مِنه، أنكَر سُبحانه علىٰ القائِلين بها بقوله: ﴿أَيَأْمُرُكُم﴾ النبيّ الدّاعي إلىٰ الإسلام والتّوحيد ﴿بِالْكُفْرِ﴾ والشِّرك، لاسِيّما ﴿بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُسْلِمُونَ﴾ مُوَحّدون.

قيل: فيه دَلالة علىٰ أنّ المُخاطَبين كانوا مُسلمين، [وهم] الذين اسْتأذنوا الرّسُول ﷺ [في] أن يسجُدوا له[3].

---

١. تفسير الرازي ٨: ١٠٩، تفسير أبي السعود ٢: ٥٢. ٢. تفسير أبي السعود ٢: ٥٢.

٣. تفسير الرازي ٨: ١١٣.

وَإِذْ أَخَذَ ٱللهُ مِيثَاقَ ٱلنَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِنَ ٱلشَّاهِدِينَ * فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذٰلِكَ فَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْفَاسِقُونَ[٨١و ٨٢]

ثمّ لمّا ظهَر مِن الآية أنّ مَنصِب النُّبوّة مُلازِم للتّوحيد والدّعوة إلىٰ الله وعِبادته، أشار [سُبحانه] إلىٰ أنّ كُلّ نبيّ وأُمّته لابُدّ أن يكونوا مُصدِّقين لجميع الأنبياء، وأنّ الله أخَذ مِنهم العَهْد علىٰ ذلك بقوله: **﴿وَإِذْ﴾** قيل: إنّ المُراد اذكُر يا محمّد حينَ **﴿أَخَذَ ٱللهُ مِيثَاقَ ٱلنَّبِيِّينَ﴾**.

قيل: إنّ الله تعالىٰ أخَذ المِيثاق مِن النَّبيِّين خاصّة أن يُصدِّق بعضُهم بعضاً، وأخَذ العَهْد علىٰ كُلّ نبيّ أن يُؤمن بمَنْ يأتي بعدَه مِن الأنبياء، ويَنصُره إنْ أدرَكه، وأنْ يأمُر قومه بالإيمان به وبنُصْرته إنْ أدركوه، فأخذ الميثاق مِن مُوسىٰ أن يُؤمن بعيسىٰ، ومِنهما أن يُؤمِنا بمحمّد ﷺ. وقيل: المأخوذ مِنهم الميثاق أُمَمهُم.

عن (المجمع): عن الصادق عليه السلام قال: «معناه: وإذْ أخذ الله ميثاقَ أُمَم النّبيِّين، كُلّ أُمّة بتَصديق نبيّها والعمَل بما جاءهم به، [وأنّهم خالفوهم فيما بعد] فما وَفَوا به، وتركوا كثيراً مِن شرائعهم، وحرّفوا كثيراً مِنها»[١].

وعن الباقر ﷺ، في رِوايةٍ قال: «هكذا أنزلها الله» يعني طرَح مِنها (أُمَم)[٢].

وكان ذلك المِيثاق والعَهد أنّه **﴿لَمَا آتَيْتُكُم مِن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾** وشرّفتكم بالعِلم بالأحكام والسُّنَن والمَعارف **﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ﴾** وبُعِث إليكم في زمانكم **﴿رَسُولٌ﴾** مِن عندي، وهُو **﴿مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ﴾** ومُعترِف بصِحّة ما آتاكم الله مِن الكِتاب والحِكْمة، والله **﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ﴾** ولتُصدِّقُنّه **﴿وَلَتَنصُرُنَّهُ﴾** ولتُعينُنّه علىٰ أعدائه.

في (المجمع): عن أمير المؤمنين صَلَوات الله عليه: «إنّ الله تعالىٰ أخَذ المِيثاق علىٰ الأنبياء قبلَ نبيّنا أن يُخبِروا أُمَمهم بمَبْعثه ونَعْته، ويُبشِّروهم [به] ويأمروهم بتصديقه»[٣].

وعنه عليه السلام أنّه قال: «ما بعث الله نبيّاً، آدم ومَن بعدَه، إلّا أخذ عليه العَهد لَئِن بعث الله محمّداً وهو حَيّ، ليُومِننّ به وليَنصُرَنّه، وأمره أن يأخُذ العَهد بذلك علىٰ قومه»[٤].

وعن العياشي: عن الصادق عليه السلام : «ما بعث الله نبيّاً، من لَدُن آدم فهَلُمّ جرّاً، إلّا ويرجِع إلىٰ الدُّنيا

---

١. مجمع البيان ٢: ٧٨٤، تفسير الصافي ١: ٣٢٥.
٢. تفسير الصافي ١: ٣٢٥.
٣. مجمع البيان ٢: ٧٨٤، تفسير الصافي ١: ٣٢٥.
٤. مجمع البيان ٢: ٧٨٦، تفسير الصافي ١: ٣٢٥.

وينصُر أمير المؤمنين عليه السلام، وهُو قوله: ﴿لتُومِنُنّ بِهِ﴾ يعني رَسول الله صلى الله عليه وآله ﴿وَلَتَنصُرُنَّهُ﴾ يعني أمير المؤمنين عليه السلام»[1].

أقول: توضيحه أنّه بعدما ثبَت بآية المُباهلة أنّ أمير المؤمنين عليه السلام نفسُ الرّسول صلى الله عليه وآله، ثبت أنّ نصرته نصرة الرسول صلى الله عليه وآله، مُضافاً إلىٰ أنّه لا معنىٰ لنُصرته إلّا نُصْرة دِينه، ولا شُبْهة أن نُصْرة عَليٍّ عليه السلام نُصْرة دِين الرّسُول.

عن الباقر عليه السلام قال: «قال أمير المُؤمنين صلَواتُ الله عليه: إنّ الله أحَدٌ واحِدٌ تفرّد في وَحْدانيّته، ثمّ تكلّم بكلمةٍ فصارَتْ نُوراً، ثمّ خَلق مِن ذلك النُّور محمّداً صلى الله عليه وآله وخلَقني وذُرّيّتي، ثمّ تكلّم بكلمةٍ فصارَتْ رُوحاً فأسكنه الله في ذلك النُّور، وأسكنه في أبداننا، فنحنُ رُوح الله وكِلماته، فبنا احْتَجب عن خَلقه، فما زِلْنا في ظُلّة[2] خَضراء، حيثُ لا شَمس ولا قَمر ولا لَيل ولا نهار ولا عَين تطرِف، نعبُده ونقدِّسه ونسبّحه، وذلك قبلَ أن يخلق خلقه.

وأخذ مِيثاق الأنبياء بالإيمان والنُّصْرة لنا، وذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَاقَ ٱلنَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ﴾ يعني لتُؤمِنُنّ بمحمّد صلى الله عليه وآله ولتَنصُرُنّ وَصِيّه، وسينصُرونه جميعاً، وإنّ الله أخذ ميثاقي معَ مِيثاق محمّد صلى الله عليه وآله بنُصْرة بعِضنا [لبعض].

وقد نصرتُ محمّداً، وجاهدتُ بَيْن يدَيْه، وقتلتُ عدُوّه، ووفَيتُ لله بما أخذ عَلَيّ مِن الميثاق والعَهد والنُّصرة لمحمّد صلى الله عليه وآله، ولَم ينصُرني أحدٌ مِن أنبياء الله ورُسُله، وذلك لمّا قبَضهم الله إليه، وسوف ينصُرونني ويكون لي ما بَيْن مَشْرقها ومَغْربها، وليبعثَنهم الله أحياءً، من آدم إلىٰ محمّد صلى الله عليه وآله كُلّ نبيّ مُرسَل، يضرِبون بَيْن يدَيّ بالسّيف هَام الأموات والأحياء والثّقلين جميعاً.

فيا عَجَباه! وكيف لا أعجَب مِن أمواتٍ يبعثَهم الله أحياءً، يُلبّون زُمرةً زُمرةً بالتّلبية: لَبّيْك لَبّيْك يا وَلِيّ[3] الله، قد أظلّوا بسِكَك الكوفة، قد شهَروا سُيوفهم علىٰ عواتقهم، يضربون بها هَام الكَفَرة وجبابرتهم وأتباعهم مِن جَبابِرة الأوّلين والآخِرين، حتّىٰ يُنجز الله ما وعدَهم في قوله تعالىٰ: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فى الأَرْضِ كَمَا آسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُم دِينَهُمُ الَّذِى آرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبْدِلَنَّهُم مِن بَعْدِ خَوْفِهِم أَمْناً يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْئاً﴾[4] أي يعبُدونني آمنين لا يخافون أحداً في عِبادتي، ليس عندَهم تقيّة، وأنّ لي الكَرّة والرّجعة[5]،

---

١. تفسير القمي ١: ١٠٦، تفسير الصافي ١: ٣٢٥. ٢. في النسخة: ظلمة. ٣. في تفسير الصافي: داعي.
٤. النور: ٥٥/٢٤. ٥. في تفسير الصافي: الكرة بعد الكرة والرجعة بعد الرجعة.

وأنا صاحِب الرّجَعات والكرّات، وصاحِب الصّولات والنّقِمات والدّولات العجيبات، وأنا قَرْن مِن حديد» الحديث[1].

في توضيح الرواية الباقرية

أقول: يُحتمل أن يكون المُراد مِن التّكلّم بالكلمة: هُو إشراق فَيْض الوُجود، ومِن صَيْرورتها نوراً: وُجود العَقل الكُلّي، ومِن خَلق محمّد وعليّ وذُرّيّته عليهم السلام مِن ذلك النّور: جَعْل قِوام حقيقتهم به، ومِن إسكان أرواحهم الطيّبة في النّور: إحاطة العَقل بأرواحهم واتّصالها وتكميلها به، ومِن إسكان أرواحهم في أبدانهم: تعلّقها بقَوالبهم المِثاليّة في عالَم الأشباح والصُّوَر، ومِن قوله: «فنحنُ رُوح الله وكلماته»: كَوْن أرواحهم أشرف الأرواح وأكمل بدائعه تعالىٰ، ومِن احتِجابه تعالىٰ بهم عن خلقه: جَعْلهم وسائط فيُوضاته بَيْنه وبَيْن جميع المَوجُودات، فكأنّهم قائمون بَيْنه وبَيْنهم، وهُم الأوّلون وسائِر الخَلْق مِن ورائِهم، ومِن ثباتهم في ظلّة[2] خضراء: بقاؤهم في عالَم الأشباح حيثُ لا وُجود لعالَم الأجسام، وكان أخذُ الميثاق عن الأنبياء في عالَم الذَّرّ أو عالم الأرواح، وتكون نُصْرتهم له ووفاؤهم بالعَهد في زمان الرّجْعة.

ثمّ ﴿قَالَ﴾ الله للأنبياء وَحْياً، ولأُمَمهم بلِسانهم تقريراً وتأكيداً للعَهد عليهم: ﴿ءَأَقْرَرْتُمْ﴾ بذلك الميثاق والإيمان والنُّصْرة لمحمّد صلى الله عليه وآله ولسائر الأنبياء ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ﴾ الميثاق ﴿إِصْرِى﴾ وعَقْدي الذي عقَدتُه عليكم والتزمتُم بالعَمل به ﴿قَالُوا﴾ إنّ الجَواب: ربّنا ﴿أَقْرَرْنَا﴾ بذلك العَهد والْتزَمنا بالوَفاء به.

ثمَ ﴿قَالَ﴾ سُبحانه: ﴿فَاشْهَدُوا﴾ أيُّها الأنبياء والأُمَم بعضُكم علىٰ بعَضٍ. ثمّ قال تأكيداً وتحذيراً عن الرُّجوع: ﴿وَأَنَا﴾ أيضاً ﴿مَعَكُم مِنَ ٱلشَّاهِدِينَ﴾ علىٰ إقراركم ومُصاحِب لكم ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ﴾ مِنكم عن العَهد، وأعرض عن الوَفاء به ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ الميثاق المُؤكّد بالإقرار به والإشهاد عليه ﴿فَأُوْلَٰئِكَ﴾ المُعرِضون ﴿هُمُ الفَاسِقُونَ﴾ الخَارجون عن طاعة الله وانقِياده، المُتجاوِزون عن حُدود العَقل، المُنحرفون عن طريق الخَير.

أقول: بعدَ ثُبوت عِصمة الأنبياء، وعدَم إمكان نقضهم عَهد الله وإعراضهم عن الميثاق، لابُدّ من الالتِزام بكَوْن التّهديد راجِعاً إلىٰ الأُمَم خاصّة، وكان أجرأهم عليه بنو إسرائيل، حيثُ إنّهم بعدَما أخذ الله عليهم الميثاق بالإيمان بمحمّد صلى الله عليه وآله ونُصْرته، خالَفوه وعارَضوه ونصرُوا أعداءه.

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِى ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً

---

١. تفسير الصافي ١: ٣٢٥.

٢. في النسخة: ظلمة.

وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ[٨٣]

ثمّ أنّه تعالىٰ لمّا بيّن أنّ دِينَ محمّد ﷺ ونُصْرته دِينُ الله الذِي لَو كان موسىٰ بن عِمران وعيسىٰ بن مَريم في زمانه كان عليهما مُتابعته، كما رُوي عنه ﷺ، قال: «لقَدْ جِئتُكم بها بيضاء نَقيّة، أمَا وَالله لَو كان مُوسىٰ بن عِمران حيّاً لَمَا وَسِعه إلّا اتّباعي»[١].

وظهَر أنّ الله أخذ علىٰ الأُمَم الميثاق باتّباعه، وكان ذلك الميثاق مَذكُوراً في التّوراة وسائر الكُتُب السّماوية، وكانوا عارفين به، وكانوا عالِمين بصِدْق محمّد ﷺ في دَعوىٰ النُّبوّة، بشَهادة الكُتُب السّماوية، ودَلالة المُعجِزات، فلَم يكُن سَببٌ لكُفْرهم وجُحُودهم إلّا كَوْنهم طالِبين ديناً غير دِين الله.

وهذا في غاية الشّناعة والعجَب مِن العاقِل، ولذا وبّخهم سُبحانه عليه بقوله: **﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ﴾** مِن الوَثنيّة واليَهوديّة والنّصرانيّة **﴿يَبْغُونَ﴾** ويطلُبون، معَ أنّ حقيقة دِين الإسلام هُو التّوحيد الخالِص، والتّسليم والانقِياد لله، **﴿وَ﴾** الحال أنّ **﴿لَهُ﴾** وحدَه **﴿أَسْلَمَ﴾** وأخلَص وانقاد **﴿مَن﴾** هُو كائنٌ **﴿فِي ٱلسَّمَاوَاتِ﴾** مِن الكَرُوبيّين والملائِكة المُقرّبين **﴿وَ﴾** مَن في **﴿ٱلْأَرْضِ﴾** مِن الجِنّ والإنس **﴿طَوْعاً﴾** ورَغبةً بالمُشاهدة والبَراهين **﴿وَكَرْهاً﴾** بما فيهم مِن آثار الصُّنْع، فإنّ اقتِضاء الحُدُوث والإمكان والمَعلُوليّة نُفوذ قُدْرته فيهم، بتصَرْيفهم كيف يشاء إلىٰ صِحّةٍ ومرض، وغِنىً وفَقْر، وسُرُور وحُزْن، بحيث لا يُمكِنهم دَفع قَضائِه وقَدَره.

﴿وَإِلَيْهِ﴾ وإلىٰ حُكْمه بالمَوت والبَعث في الآخِرة **﴿يُرْجَعُونَ﴾** فلا يملِكون لأنفسهم في مَحْكمة عَدْله وقضائِه نَفعاً ولا ضَرّاً، فيُعذِّب مَن أعرض عن دِينه وطلَب غيرَه بالعذاب الشّديد الدّائم.

رُوي أنّ فرِيقين مِن أهل الكِتاب اختصموا إلىٰ رسُول الله ﷺ في ما اختلفوا فيه مِن دِين إبراهيم عليه السلام، فقالوا: ما نرضىٰ بقضائِك، ولا نأخُذ بدِينك، فنزلَتْ هذه الآية[٢].

قُلْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ[٨٤]

ثمّ لمّا كان ميثاقُه تعالىٰ علىٰ الأنبياء، أو علىٰ اُمَمهم أن يُؤمنوا برسُولٍ مُصدِّقٍ لِما معهم، أمر سُبحانه نبيّه بأن يُعلِن بأنّ دِينَه دِينُ الله، وبتَصْديقه جميع الأنبياء وما اُنزل عليهم، بقوله: **﴿قُلْ﴾** يا محمّد مِن قِبَل نفسك، وعن جميع المُؤمنين بك: نحنُ **﴿آمَنَّا بِاللهِ﴾** وَحْده، واعْترَفنا بأنّه المُستحِقّ بالذّات

---

١. تفسير الرازي ٨: ١١٥.

٢. تفسير الرازي ٨: ١٢٢.

للعِبادة، لا إلٰهَ ولا مَعبُود سِواه ـ وإنّما قدّمه لأنه الأصل في الدِّيانات ﴿وَ﴾ آمنّا بجميع ﴿مَا أُنزِلَ﴾ مِن عندِ الله ﴿عَلَيْنَا﴾ مِن القُرآن والمَعارِف والعُلُوم والأحكام.

وقيل: إنّ المُراد مِن الضَميرين نفسُه المُقدّسة، وإنّما أُمِر أن يُعبِّر عن نفسه بضمير الجَمع لإظهار جَلالة قَدْره، ورِفْعة مَحلّه، كما هُو الدّأب في تكلُّم المُلُوك[1].

وإنّما قدّم الإيمان بما اُنزل إليه علىٰ الاعتِراف بِصْدق ما اُنزل علىٰ غيره مِن قَبْل؛ لأنّه المَعرُوف له، والمُبتلى به فِعْلاً.

ثمّ شهِد بصِدْق ما اُنزل علىٰ غيرِه مِن الأنبياء بقوله: ﴿وَ﴾ آمنّا بكُلّ ﴿مَا أُنزِلَ﴾ مِن الله ﴿عَلَىٰ﴾ أنبيائه ﴿إِبْرَاهِيمَ وَ﴾ ابنَيْه ﴿إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَ﴾ وَلَده ﴿يَعْقُوبَ﴾ مِن الصُّحُف والأحكام والسُّنَن ﴿وَ﴾ علىٰ ﴿ٱلْأَسْبَاطِ﴾ الاثني عشر؛ حَفَدة يعقوب، وفيهم كثيرٌ مِن الأنبياء.

﴿وَ﴾ آمنّا بكُلّ ﴿مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ مِن التّوراة والإنجيل، والمُعجِزات التي ظهرت بأيديهما ـ وتخصِيصهما بالذِّكْر، معَ كَوْنهما مِن الأسباط، لعُلُوّ شأنهما، وكَوْن الكلام مع اليَـهُود و النّـصارىٰ ـ ﴿وَ﴾ بما اُوتي ﴿ٱلنَّبِيُّونَ﴾ غيرالمَذكُورين ﴿مِن﴾ مَواهِب ﴿رَبِّهِمْ﴾ ومَليكهم اللّطيف بهم.

ولمّا لَم يكُن فَرْق بَيْنهم في دَلائِل صِدْق النُّبوّة، وشَواهد الرِّسالة، فنحنُ أيضاً ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ في الإيمان والتّصديق، كما فرّق اليَهُود والنّصارىٰ بينهم، بأن آمنوا بـبعض وكَـفروا بـبعض؛ وذلك لأنّا لله مُنقادون ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ بخِلاف أهل الكِتابَين فإنّهم لهَـوىٰ أنـفسهم مُتّبِعون، وبالله مُشرِكون.

ثمّ لا يذهَب عليك أنّه لا مُنافاة بَيْن الإيمان بنُبوّة الأنبياء السّابقة وصِـحة ديـنهم، وبَـيْن الاعـتِقاد بانقِضاء مُدّة نُبوّتهم ونَسْخ دِينهم، لوُضُوح أنّ المُراد مِن الإيمان الاعتِراف بصِحّة نُـبوّتهم المُـؤقتة، ووُجُوب الالتِزام بدِينهم علىٰ جميع اُمَمهم.

وفي الاقتِصار علىٰ تَصْديق الأنبياء السّابقين إشعارٌ بخَتْم النُّبوّة والدِّين به ﷺ وبدِينه.

وَ مَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ [٨٥]

ثمّ قرّر سُبحانه كَوْن الإسلام دِين الله دُون غيرِه، بتَشْديد التّهديد علىٰ مُخالفته والتّديُّن بغيره، بقوله: ﴿وَمَن يَبْتَغِ﴾ ويختار لنفسِه ﴿غَيْرَ﴾ دِين ﴿ٱلْإِسْلَامِ﴾ الذي قد سبَق أنّ حقيقته التّوحيد الخـالِص، والتّسليم لأحكام الله وطلَب مَرضاته ﴿دِيناً﴾ ينتحِل إليه، كالوَثنيّة واليَهُوديّة والنّصرانيّة وغيرها ﴿فَلَن

---

١. تفسير روح البيان ٢: ٥٨.

﴿يُقْبَلَ﴾ ذلك الدِّين الباطِل **﴿مِنْهُ﴾** أبداً، ولا يُؤجر عليه شيئاً **﴿وَهُوَ﴾** مع ذلك **﴿فِى ٱلْأَخِرَةِ﴾** مَحسُوبٌ **﴿مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ﴾** المَغبُونين، حيثُ إنّه ضيّع فِطْرته السَّليمة التي فُطِر النّاس عليها، وحرّم علىٰ نفسه الثّواب الجَزيل الدائِم، والنِّعَم العظيمة الباقية، ثمّ اشْترىٰ العذاب الشّديد الأبَد، فيدخُله مِن التأسُّف والتّحسُّر علىٰ ما فاته في الدُّنيا مِن الأعمال الصّالِحة وحَلاوة العِبادة، وعلىٰ ما تحمّله مِن التَّعَب والمَشَقّة في تحصِيل الحُطام الدُّنيوي وتقرير ذلك الدِّين الباطل ما لا يتُصوَّر ولا يعلَمه إلا الله.

في أن ولاية آل الرسول داخلة في الاسلام الحقيقي المرادف للايمان

ثمّ اعْلَم أنّ لَفظ الإسلام كان مُرادِفاً للإيمان، وحقيقته حقيقته، وهُو الإقرار بالشّهادَتَين، والتّصديق بجميع ما جاء به النبيّ ﷺ، عن صَميم القلب، فيدخُل فيه وِلاية آل الرّسُول صَلَواتُ الله عليهم وخِلافة علي والمَعصومين مِن ذُرِّيَّته.

فمن أنكَر وِلايتهم ووُجُوب طاعتهم، فقَد اختار لنفسه دِيناً غيرَ الإسلام، حيثُ إنّ مَن أنكَر واحِداً مِمّا جاء به الرّسُول يكون كمَن أنكر جميعه.

نعم، يكون لمَن أقرّ بالشّهادتين، ولو كان مُنافقاً علىٰ الأظهر، أحكام خاصّة مِن طَهارة الجَسد، واحتِرام المال، وجَواز المُناكحة، ووجُوب غُسْل ميّته وتكفينه ودَفنه، دون غيرِها مِن الأحكام كحُرمة غِيبته، وجَواز الاقتِداء به، وإعطائه الزّكاة الواجِبة والكفّارات، وقَبُول الرِّواية والشّهادة.

﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ ٱلْبَيِّنَاتُ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ﴾[٨٦]

ثمّ أنّه تعالىٰ ـ بعدَ بيان عَظَمة دِين الإسلام، وأنّه دِينه الذي ارْتضاه لملائِكته وسائر خَلقه، والمُبالغة في تَهديد المُعرِضين عنه، وعَدّهم مِن الخَاسرين ـ بالغ في التوعيد والتّهديد علىٰ مَن خرَج عنه بعدَ دُخوله فيه، وجَحَده بعدما أقرّ به، بقوله اسْتِعجاباً وإنكاراً: **﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ﴾** إلىٰ طريق الحَقّ، ويُوَفق للرّشاد بالعِنايات الخاصّة **﴿قَوْماً﴾** ورَهْطاً **﴿كَفَرُوا﴾** بالرّسُول، وارْتَدّوا عن دِين الإسلام **﴿بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾** بهما.

قيل: هُم عشرة رَهْط ارْتدّوا بعدَما آمنوا ولحِقوا بمكّة[١]، وقيل: هُم يَهُود قُرَيْظة والنّضير ومَن دان بدِينهم، وأنّهم كفروا بالنبيّ ﷺ بعدَ أن كانوا مُؤمنين به قبلَ مَبْعثه، وكانوا يشهَدون له بالنُّبوّة، فلمّا بُعِث ﷺ وجاءهم بالبيِّنات والمُعجِزات كفروا به بَغياً وحَسَداً[٢]. وكلاهما مَرويّ عن ابن عبّاس.

---

١. تفسير الرازي ٨: ١٢٦.

٢. تفسير الرازي ٨: ١٢٦.

ثمَ بيّن سُبحانه ما يُوجب استِبعاد كُفرهم بقوله: ﴿وَشَهِدُوا﴾ قيل: إنّ المُراد وبعدَ أن شهدوا وأعتَرفوا في مَجامع النّاس ومَشاهِدهم، أو والحَال أنّهم اعتَرفوا ﴿أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ﴾ ودَعواه صِدْق ﴿وَجَاءَهُمُ﴾ مِن القُرآن وسائر المُعجِزات وخَوارِق العَادات ﴿ٱلْبَيِّنَاتُ﴾ والشَواهد الواضِحات علىٰ صِدْقه، بحيث لَم يُتوهَم في حَقِّهم الشُبْهة فيه، وفي صِحَة دِينه، فكان ارْتِدادهم مِن أقبح القبائح؛ لأنّ زَلّة العالِم أقبح مِن زَلّة الجاهِل، وكُفرهم ورُجوعهم عن الإسلام غاية الظُّلم علىٰ النفس ﴿وَٱللهُ لَا يَهْدِى﴾ إلىٰ الحَقّ، ولا يُوفّق للخَير ﴿ٱلْقَومَ ٱلظَّالِمِينَ﴾ المُتمرّنين علىٰ الظُّلم، المُصرّين علىٰ الفَساد، المُنهمِكين في الشَهوات، لغاية خُبْث ذاتهم، ورَذالة صفاتهم.

أُولٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللهِ وَٱلمَلَائِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ[٨٧و ٨٨]

ثمَ بالغ سُبحانه في التَهديد والوَعيد بقوله: ﴿أُولٰئِكَ﴾ المُرتدّون ﴿جَزَاؤُهُمْ﴾ المُقرّر علىٰ مُقتضىٰ استِحقاقهم ﴿أَنَّ عَلَيْهِمْ﴾ استقرّتْ ﴿لَعْنَةَ ٱللهِ﴾ والبُعْد عن رَحمته، المُوجب للحِرمان عن النِّعَم الأُخرويّة، وللعَذاب بالنّار ﴿وَ﴾ عليهم لَعنة ﴿ٱلْمَلَائِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

قيل: إنّ المُراد خُصُوص المُؤمنين مِنهم، وقيل: إنّ المُراد هُو العُمُوم، حيثُ إنّ الكُفّار أيضاً يَلعَنون في الدُّنيا كُلّ مُبْطِلٍ كافِر، غيرَ أنّهم يدّعون أنهم أنفسهم مُؤمنون مُحِقّون.

كما أنّ ظالِمي آل محمّد ﷺ يَلعَنون ظالِميهم ويدّعون أنّهم غيرُهم، حَال كَوْنهم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ قيل: أي مُقيمِين في اللَّعنة، وعن ابن عبّاس ﵁: خالِدين في جهنّم[1] أبداً ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ﴾ في جهنّم ﴿ٱلْعَذَابُ﴾ الشّديد ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ ويُمهَلون ساعةً، ولا يُؤخّرون لَحظة.

إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ ٱللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ[٨٩]

ثمَ دفَع الله سُبحانه تَوهُّم أنّ اللّعْنة الدّائِمة والعَذاب الخالِد لكُلّ مَن تلبّس بالكُفْر والارْتِداد، وإن تاب وأسلم بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا﴾ ورجَعوا إلىٰ الإسلام الحقيقي ﴿مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ﴾ الكُفر والارتِداد، وآمنوا عن صَميم القَلب ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ قُلُوبهم وأعمالهم الفاسِدة، فإنّهم تُقبَل تَوبتهم، ويُتفضَّل عليهم ﴿فَإِنَّ ٱللهَ غَفُورٌ﴾ للذُّنوب ﴿رَحِيمٌ﴾ بعِباده الصّالحين.

عن الصادق ؑ: «نزلَتْ الآيات في رَجُلٍ مِن الأنصار يُقال له الحَارث بن سُوَيد بن الصّامت، وكان

---

١. تفسير الرازي ٨: ١٢٩.

قتل المُجذّر بن زياد[١] البَلَوِيّ غَدْراً، وهرَب وارتّد عن الإسلام ولحِق بمكّة، ثمّ ندِم فأرسل إلىٰ قومه أن سَلُوا رسُول الله ﷺ هَل لِي مِن تَوبة؟ فنزلَتْ فحمَلها رَجُلٌ مِن قومه إليه، فقال: إنّي لأعلم أنّك لصَدُوق، ورَسُول الله ﷺ أصدق مِنك، وأن الله تعالىٰ أصدق الثّلاثة. ورجَع إلىٰ المدينة، وتابَ وحَسُن إسلامه»[٢].

والظّاهِر أنّ الآيات في المُرتدّ الذي تابَ عن ارتِداده حقيقةً، ورجَع إلىٰ الإسلام واقعاً وخالِصاً.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا كُفْراً لَن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلضَّالُّونَ[٩٠]

ثمّ أنّه سُبحانه بعدَ بيان هذا القِسْم مِن المُرتدِّين، ذكَر القِسْم الثّاني مِنهم؛ وهُم الّذِين استمرّوا علىٰ ارْتِدادهم باطِناً، ولكن تابوا نِفاقاً، أوحين الاحتِضار، بقوله: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ بالله ورَسُوله ﴿**بَعْدَ إِيمَانِهِمْ**﴾ به، وارتدّوا عن دِين الإسلام بعدَ اعْتِرافهم به، ودُخولهم فيه ﴿**ثُمَّ ٱزْدَادُوا كُفْراً**﴾ واستمرّوا عليه.

وقيل: إنّ المراد: الّذِين كَفروا بعيسىٰ والإنجيل بعدَ إيمانهم بموسىٰ والتّوراة، ثمّ ازْدادوا كُفراً بجُحُودهم نُبوّة محمّد ﷺ وكِتابه.

وقيل: الّذِين كَفروا بمحمّد ﷺ بعدَ بِعْثته، بعدَ إيمانهم به قبلَها، ثمّ ازْدادوا كُفراً بالإصرار عليه، والطَّعْن فيه، والصَّدّ عن الإيمان به، ونَقْض الميثاق.

ورُوي أنّ الآية نزلَتْ في الّذِين ارْتدّوا وذهَبوا إلىٰ مكّة، وازْدِيادهم الكُفْر أنّهم قالوا: نُقِيم بمكّة نتربّص بمحمّد رَيْب المَنُون[٣]، أو قالوا: نرجِع إليه فنُنافِقه.

فهؤلاء ﴿**لَن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ**﴾ عن ذَنب ارْتِدادهم أبداً، لعدَم إخلاصهم فيها، أو عدَم صُدُورها عنهم إلّا عندَ الاحتِضار ومُعاينة عالَم الآخِرة.

وقال جمعٌ مِن العامّة: إنّه تعالىٰ لمّا قدّم ذِكْر مَن كفَر بعدَ الإيمان، وأنّه تُقبَل توبتُه، ذكَر في هذا الآية أنّه لَو كفَر مرّة أُخرىٰ بعد [تلك] التّوبة، فإنّ التّوبة الأُولىٰ تصِير غير مَقبوله، وتصِير كأنّها لَم تكُن[٤]. وفيه نظَرٌ ظاهِر.

ثمّ بعدَ تَهْديدهم بعدَم قَبول تَوبتهم، ذمّهم بقوله: ﴿**وَأُولَٰئِكَ**﴾ المُرتدّون لتَناهيهم في الضّلال،

---

١. كذا في أُسد الغابة ١: ٣٣٢، وفي جمهرة أنساب العرب ١ - ٢: ٣٣٧: المجذّر بن ذَياد، وفي النسخة: المُحذّر بن زياد.

٢. مجمع البيان ٢: ٧٨٩، تفسير الصافي ١: ٣٢٧.

٣. تفسير الرازي ٨: ١٣٠.

٤. تفسير الرازي ٨: ١٣٠.

وفَرْط ثَباتهم فيه كأنّه ﴿هُمُ ٱلضَّالُّونَ﴾ عن طريق الحَقّ والصَّواب، لا ضالّ غيرُهم. وفيه غاية المُبالغة في ضَلالهم لكمالهم فيه، وعدَم توقُّع اهتِدائِهم.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِن نَاصِرِينَ[٩١]

ثمَ ذكَر القِسْم الثالث مِن المُرتدّين؛ وهُم الّذِين لا يتُوبون، لا ظاهِراً ولا واقِعاً حتّىٰ يمُوتوا، بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ورسوله وارْتدّوا عن دِين الإسلام ﴿وَ﴾ بعدَ ارْتِدادهم ﴿مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ غير تائِبين عن كُفْرهم وارْتِدادهم إلىٰ المَوت ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم﴾ لدَفْع العذاب عنهم في الآخرة ﴿مِلْءُ ٱلْأَرْضِ﴾ شَرْقها وغَرْبها علىٰ الفَرْض المُحال ﴿ذَهَبًا﴾ خالِصاً، وهُو كِناية عن أعزّ الأموال ﴿وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ﴾ الكافِر ﴿بِهِ﴾ لخَلاص نفسه.

قيل: إنّما آثر التّعبير بالافتِداء علىٰ الإهداء لأنّ الفِداء آثر في العَفْو مِن الهَدِية، حيثُ إنّ المَولىٰ قد لايقبَل الهَدِيّة مِن عَبْده، ولكِن يقبَل الفِداء مِنه.

وحاصِلُ المُراد: أنّ الكافِر لَو فُرِض قُدْرته يومَ القِيامة علىٰ أعزّ الأموال، وكان بالِغاً إلىٰ غاية الكَثْرة، فبَذْله ـ ولَو بعُنوان الفِدْية، ليتَوسّل بذلك إلىٰ تخليص نفسه مِن عذاب الله ـ لايُفيده في نَيْل مَقصُوده.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ المُتّصِفون بأشنع الصِّفات؛ وهُو الكُفْر، البَعيدون عن رَحمة الله ﴿لَهُمْ﴾ بالاسْتِحقاق ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وعقُوبة مُوجِعة ﴿وَمَا لَهُم مِن نَاصِرِينَ﴾ يدفَعون عنهم العَذاب، فهُم آيِسُون مِن تَخْليص أنفسهم؛ لانْقِطاع جميع الوَسائِل العاديّة للخَلاص مِن الشّدائد عنهم.

لَن تَنَالُوا ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ[٩٢]

ثمَ لمّا ظهَر مِن الآية أنّ بَذْل المال في الآخِرة غيرُ نافِعٍ في الخَلاص مِن العذاب، بيّن سُبحانه أنّ وسيلة الخَلاص مِنه، ومُوجب نَيْل كُلّ خَير، هُو الإنفاق مِن أحبّ الأموال في الدُّنيا، بقوله: ﴿لَن تَنَالُوا ٱلْبِرَّ﴾ ولا تصِلون إلىٰ الخَير والثّواب في الدُّنيا والآخِرة أبداً، بوَجْهٍ مِن الوجُوه ﴿حَتَّىٰ تُنْفِقُوا﴾ وتبذُلوا في سبيل الله وطلَب مَرضاته شيئاً ﴿مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وبعضاً مِمّا يُعجِبكم مِن كرائِم الأموال، أو مِنها ومِن غيرِها مُهْجةً كان، أو عملاً، أو عِلْماً، أو جَاهاً، أو غيرها.

ومن الواضِح أنّ الإنفاق بالمَحبُوب لا يكون إلّا إذا أيقن المُنفِق بأنّ إنفاقه وَسيلة النَّيْل بالأحبّ والأشرف مِن المَبذُول، فالإنسان لا يُنفِق مَحبُوبه في الدُّنيا لوَجْه الله إلّا إذا أيقن بالمَبدأ والمَعاد

وبالجَزاء الجزيل علىٰ إنفاقه، وعلىٰ هذا يلزَمه القِيام بطاعة الله والتَجنُّب عن مَعاصيه، أو التَخلُّق بالأخلاق الجَميلة.

في بيان فضيلة الإنفاق

ثمّ رغّب سُبحانه في الإنفاق، وبالغ فيه بقوله: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِن شَىْءٍ﴾ تُحِبّونه، أو خَبيث تكرَهونه، أوكثير في العَلانية، أو قليل في الخُفية ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ حيثُ إنّه لا يخفىٰ عليه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء، فيُجازيكم بحَسَبه جيّداً كان المال أو رديئاً، قليلاً كان أو كثيراً، خُفيةً كان الإنفاق أو عَلانيةً.

قيل: فيه غاية التَحذير مِن بَذْل الرّدِيء، والتّرغيب في بَذْل الطَّيِّب، فإنّ الآخِرة هِي عالَم النُّور والبقاء، فلا وَقْع فيه للأمور الظُّلمانيّة. فالوُصول إلىٰ المَحبُوب لا يكون إلّا ببَذْل المَحبُوب بنَحْوِ مَحبُوب، مِن خُلُوص النيّة، واسْتِجماع الخِصال المَرضِيّة.

رُوي أنّه لمّا نزلَتْ جاء أبو طلحة فقال: يا رَسُول الله، إنّ أحبّ أموالي إليّ بئر حاء؛ وهُو ضَيْعة له في المدينة مُستقبل مَسجد النبيّ ﷺ[1].

وفي رِوايةٍ: قال: لي حائط بالمدينة، هُو أحبّ أموالي، أنا أتصدّق به.

وفي رِوايةٍ: قال: فضَعْها يا رَسُول الله حيثُ أراك الله، فقال ﷺ: «بَخٍ بَخٍ، ذاك مال رابح[2] أو رائح، وإنّي أرىٰ أن تجعلَها في الأقربين» فقسَمها في أقاربه[3].

وفي رِوايةٍ: أنّه جعلها بيْن حسّان بن ثابت وأُبَيّ بن كعب[4].

ورُوي أنّ زيد بن ثابت جاء عندَ نُزول الآية بفرَس له كان تحته، فجعَلها[5] في سبيل الله، فحمَل عليها رَسُول الله ﷺ أُسامة، فوَجد [زيد] في نفسه، فقال ﷺ: «إنّ الله قد قَبِلها»[6].

وعن (المجمع): اشترىٰ عليّ عليه السلام ثوباً فأعجَبه، فتصدّق به وقال: «سمِعتُ رَسُول الله ﷺ يقول: مَن آثر علىٰ نفسه آثره الله يومَ القِيامة بالجَنّة، ومَن أحبّ شيئاً فجعلَه لله، قال الله يومَ القيامة: قد كان العِباد يُكافئون فيما بَيْنهم بالمعروف، وأنا أُكافيك اليوم بالجَنّة»[7].

وعن الحُسين بن عليّ، وعن الصادق عليهما السلام أنّهما كانا يتصدّقان بالسُّكَر، ويقولان: «إنّه أحبّ الأشياء إلينا، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿لَن تَنَالُوا ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾»[8].

---

١. تفسير الرازي ٨: ١٣٤، تفسير روح البيان ٢: ٦٣.
٢. في النسخة: رائح.
٣. مجمع البيان ٢: ٧٩٢، تفسير الرازي ٨: ١٣٤، تفسير روح البيان ٢: ٦٣.
٤. تفسير الرازي ٨: ١٣٤.
٥. في تفسير الرازي: كان يحبه وجعله.
٦. تفسير الرازي ٨: ١٣٤.
٧. مجمع البيان ٣: ٧٩٢.
٨. تفسير الصافي ١: ٣٢٨.

كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ [٩٣]

ثمّ عطف الله سُبحانه كلامه المَجيد إلىٰ ما كان مِن مُحاجّة اليَهُود والنّصارىٰ. وكان مِن شُبُهاتهم واعْتِراضاتهم علىٰ دِين الإسلام [أولاً]: وُقوع النَّسْخ فيه، معَ كَوْنه مُحالاً علىٰ الله في أحكامه؛ لرُجُوعه إلىٰ البَداء المُستلزم لجَهْله تعالىٰ بمَصالح الأشياء ومفاسِدها.

وثانياً: أنّ محمّداً يدّعي أنّ دِينه دِين إبراهيم، والحال أنه مُغاير له، حيثُ إنّ النبيّ ﷺ أحلّ في دِين الإسلام لُحُوم الإبل وألبانها، معَ حُرمتهما في دِين إبراهيم، فمِن تحليلها يلزَم النَّسْخ والمُغايرة.

فردّ الله عليهم بقوله: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ﴾ وكافة المَطعُومات مِن المأكولات والمَشرُوبات ﴿كَانَ﴾ في دِين إبراهيم ﴿حِلاًّ﴾ ومُباحاً لجميع النّاس، و ﴿لِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ إلىٰ مُدّة بعدَ بِعثة موسىٰ بن عِمْران عليه السلام.

نُقِل أنه لمّا نزَل قولُه تعالىٰ: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيهِم طَيِّبَات أُحِلَّتْ لَهُم﴾[1] الآية، وقوله: ﴿وَعَلَىٰ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ﴾ إلىٰ قوله ﴿ذٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِم﴾[2] أنكر اليَهُود، وغاظهم ذلك وبَرأوا ساحتهم مِن الظُّلم، وجَحدوا بما نطق به القُرآن، وقالوا: لَسْنا بأوّل مَن حُرِّمت عليه تِلك المَطعُومات، وما هُو إلّا تَحْريم قديم، كانت مُحرّمة علىٰ نُوح وإبراهيم ومَن بعدَه، وهَلُمّ جرّاً حتّىٰ انتهىٰ التّحريم إلينا.

وغَرَضهم تكذيب شَهادة الله عليهم بالبَغْي والظُّلم، والصّدّ عن سبيل الله، وأكل الرِّبا، وما عدّد مِن مَساوِئهم التي كُلّما ارْتكَبوا مِنها كبيرة، حرّم عليهم نَوعاً مِن الطَّيِّبات عُقوبةً لهم[3].

فكذّبهم الله وردّهم بأنّ جميع مايطعَمه الإنسان كان حلالاً في الأديان السّابقة علىٰ دِين مُوسىٰ ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ﴾ يَعقوب، ولَقَبه ﴿إِسْرَٰٓءِيلُ﴾ مِن لَحم الإبل ولَبَنها، بسَبب النَّذْر ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾.

رُوي مِن طريق العامّة أنّ يَعقوب عليه السلام نذَر إنْ وهَب الله له اثنَي عشر وَلَداً، وأتىٰ بيت المَقْدس صحيحاً، أن يذبَح آخِرهم، فتلقّاه مَلَك مِن الملائكة، فقال له: يا يعقوب، إنّك رَجُلٌ قويّ، فهَل لك في الصِّراع؟ فعالجه فلَم يصرَع واحدٌ مِنهما صاحِبه، فغمزه المَلَك، فعرَض له عِرق النسا من ذلك، ثمّ قال المَلَك: أما إنّي لو شِئتُ أن أصرَعك لفعلتُ، ولكن غمَزتُك هذه الغَمْزة؛ لأنّك كنتَ نذَرْتَ إنْ أتيتَ بيتَ المَقدِس صحيحاً ذبحتَ آخِر ولدك، فجعل الله لك بهذه الغَمْزة مَخرجاً مِن ذلك الذَّبح.

ثمّ أنّ يعقوب عليه السلام لمّا قدِم بيت المَقدِس، أراد ذَبْح وَلَده ونسِي قول المَلَك، فأتاه المَلَك فقال: إنّما

---

١. النساء: ١٦٠/٤. ٢. الأنعام: ١٤٦/٦. ٣. تفسير روح البيان ٢: ٦٤.

غمزتُك للمخرج، وقد وفىٰ نَذْرُك، فلا سبيل لك إلىٰ ذَبْح وَلَدك.

ثمّ أنّه حين ابْتُلي بذلك المَرض لقي مِن ذلك بلاءً شديداً، وكان لا ينام اللّيل مِن الوَجَع، فحلَف لَئِن شَفاه الله، لا يأكل أحبَّ الطّعام إليه، فحرّم لُحُوم الإبل وألبانها، إمّا حمية للدِّين، أو حمية للنّفس [١].

ورُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنه: أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال: «إنّ يَعقوب مرض مَرَضاً شديداً، فنذَر لَئِن عافاه الله ليُحرِّمَنّ أحبّ الطّعام والشّراب عليه، وكان أحبّ الطّعام إليه لُحمان الإبل، وأحبّ الشّراب إليه ألبانها» [٢].

ونُقِل أنّ في التّوراة: أنّ يعقوب لمّا خرَج مِن حرّان إلىٰ كَنعان، بعَث بَريداً إلىٰ عيص أخيه، إلىٰ أرض ساعير، فانْصرف الرّسُول إليه وقال: إنّ عيص هُو ذا يتلقّاك ومعه أربعمائة رجُل، فذعِر يعقوب وحَزِن جدّاً، فصلّىٰ ودعا، وقدّم هداياً لأخيه، [وذكر القصّة] إلىٰ أن ذكَر المَلَك الذي لَقِيه في صُورة رجُل، فدنا ذلك الرّجُل ووضَع إصْبِعه علىٰ مَوضع عِرق النسا، فخدَرت تلك العَصَبة وجفَت. فمِن أجل هذا لا يأكُل بنو إسرائيل العُروق [٣].

وقيل: إنّ في بعض الرّوايات: أنّ الذي حرّم يعقوب علىٰ نفسه زوائِد الكَبِد والشّحْم إلّا ما علىٰ الظّهْر [٤].

وعن (الكافي): عن الصادق عليه السلام: «أنّ إسرائيل كان إذا أكل لَحْم الإبل هيّج عليه وَجَع الخاصِرة، فحرّم علىٰ نفسه لَحْم الإبل. وهذا قبلَ أن تُنزّل التّوراة» [٥].

وعن القُمّي رحمه الله: أن يعقوب كان يُصِيبه عِرق النّسا، فحرّم علىٰ نفسه لَحْم الجَمل [٦] الخبر.

ومِن الواضِح أنّ هذا التّحريم كان ﴿مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ﴾ علىٰ بني إسرائيل ﴿ٱلتَّوْرَاةُ﴾ وقبل بِعثة مُوسىٰ وتشريع دينه.

وكانت تِلْك الأشياء حلالاً علىٰ غيرِ يعقوب ما دام بقاء دِين إبراهيم وفي بُرْهة بعدَ بَعْث مُوسىٰ، ثمّ حرّم الله عليهم طيّبات اُحلّتْ لهم، مِنها: لَحْم الإبل، وشَحْم البَقر والغَنم إلّا ما حمَلت ظُهورهما.

فإن ادَّعتْ اليَهُود حُرْمة هذه الأشياء في دِين نُوح وإبراهيم ومُوسىٰ، فقد ادَّعَوا خِلاف ما فـي التّوراة، التي هُم مُعترفون بصِحّتها وصِدْق ما فيها، وإن اسْتَندوا [في] دَعواهم إلىٰ التّوراة ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ﴾ وأحضِروها علىٰ رؤوس الأشهاد ﴿فَاتْلُوهَا﴾ واقرأوها بـمَحْضرٍ مِنّا ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دَعواكم قِدمة هذه الأشياء، فإنّها ناطِقة بأنّ حُرمتها حدثَتْ في دِين مُوسىٰ عقُوبةً علىٰ

---

١. تفسير روح البيان ٢: ٦٤.
٢. تفسير الرازي ٨: ١٣٨.
٣. تفسير الرازي ٨: ١٣٩.
٤. تفسير الرازي ٨: ١٣٩.
٥. الكافي ٥: ٩/٣٠٦، تفسير الصافي ١: ٣٢٩.
٦. تفسير القمي ١: ١٠٧، تفسير الصافي ١: ٣٢٩.

ظُلم بني إسرائيل.

رُوي أنّهم لم يجسُروا علىٰ إحضار التّوراة، فبُهتوا وانْقلبوا صاغِرين[١].

فثبت جَوازُ النَّسْخ، ومُوافقة دِين الإسلام لدِين إبراهيم، واتّضح كِذْب اليَهُود، وأنّهم نسبُوا إلىٰ التّوراة ما ليس فيها، وظهَر صِدْق النبيّ ﷺ في دَعوىٰ النُّبوّة؛ لأنّ هذا الإخبار مِنه ﷺ، مع كَونه اُمّيّاً، كان إخباراً بالغَيْب.

فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللهِ ٱلْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ فَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلظَّالِمُونَ[٩٤]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ إلزامِهم وتَبْكيتهم، هدّدهم بقوله: ﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ واختَلق ﴿عَلَى ٱللهِ ٱلكَذِبَ﴾ بقوله حُرمة هذه الأشياء في دِين إبراهيم، ومِن قَبْله، ومِن بعدِه، ونِسْبته إلىٰ إخبار الله به في التّوراة ﴿مِن بَعْدِ ذٰلِكَ﴾ التّبْكيت والإلزام ﴿فَأُولٰئِكَ﴾ المُجترئون علىٰ الله، المُفترون عليه، ﴿هُمُ﴾ بالخُصوص ﴿ٱلظَّالِمُونَ﴾ علىٰ أنفسهم بالضّلال، وتعريضها للهَلاك والعذاب، وتفضيحها للدُّنيا والآخِرة، وعلىٰ غيرِهم بالإضلال، وتقريبهم إلىٰ النّار، وتبعيدهم عن رَحمة الله.

قُلْ صَدَقَ ٱللهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ[٩٥]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ إثبات مُوافقة دِين الإسلام لدِين إبراهيم، أمر نبيّه ﷺ بتَصْديق الله في إخباره، بمُوافقة دِين الإسلام لدِين إبراهيم، بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد ﴿صَدَقَ ٱللهُ﴾ في إخباره بحِلّية لُحوم الإبل وألبَانها، في دِين إبراهيم، ومُوافقته لدِين الإسلام، وكذِبتُم أيُّها اليَهُود في دَعوىٰ حُرْمتها فيه، ومُخالفة دِين الإسلام له، إذَن ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ باتّباع دِين الإسلام، المُوافِق لها اُصولاً مُطلقاً، وفُروعاً كذلك أو بحَسَب الغالِب، وانْصرِفوا عن اليَهُودية المُخالفة لمِلّة إبراهيم؛ لأنّ في دِين اليَهُوديّة كثيراً مِن الأباطيل، وكان إبراهيم ﴿حَنِيفاً﴾ ومائِلاً عن كُلّ باطِل، ومُعرِضاً عن كُلّ زائِغ؛ ولأنّ في دِين اليَهُوديّة والنَصرانيّة الإشراك بالله ﴿وَمَا كَانَ﴾ إبراهيم مَحسُوباً ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ بَل كان مِن أفضل المُوحِّدين. فثبَت أنّه عليه‌السلام ما كان يَهُوديّاً ولا نَصرانياً.

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدىً لِلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ

١. تفسير أبي السعود ٢: ٥٩، تفسير روح البيان ٢: ٦٥.

ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَالَمِينَ[٩٦ و ٩٧]

ثمّ استشهد سُبحانه علىٰ مُغايرة دِين اليَهُود لمِلّة إبراهيم بإعراض اليَهُود عن تَعْظيم الكَعْبة، الذي هُو مِن أعظم شَعائِر مِلّته عليه السلام، بقوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ﴾ في العالَم ﴿وُضِعَ﴾ مِن جانِب الله، وجُعل مَعْبداً ﴿لِلنَّاسِ﴾ وقِبْلةً لكافّة الخَلْق، والله[1] ﴿لَلَّذِى﴾ هُو كائِنٌ ﴿بِبَكَّةَ﴾ والبَلَد الحَرام، واسْمه المَعروف مكّة.

عن الباقر عليه السلام: «إنّما سُمِّيت مكّة بكّة، لأنّه يُبك[2] بها الرِّجال والنّساء، والمرأة تُصلِّي بين يدَيك وعن يمينك و[عن] شِمالك[3] ومعك، ولا بأس بذلك، إنّما يُكرَه في سائر البُلدان»[4].

وقيل: لأنّها تَبُكّ أعناق الجَبابرة، يعني تدُقّها[5].

وقيل: إنّ بكّة هِي عَين الكعبة[6].

وعن الصادق عليه السلام، في روايةٍ، «البيتُ بكّة، والقرية مكّة»[7].

وفي (العِلَل): عنه عليه السلام: «إنّما سُمِّيت مكّة بكّة؛ لأنّ النّاس يَبْكَون[8] فيها»[9] يعني يزدحِمون.

وفي روايةٍ اُخرىٰ: «لبُكاء النّاس حَوْلها»[10].

وعن الباقر عليه السلام قال: «لمّا أراد الله أن يخلُق الأرض أمر الرِّياح فضربت متن[11] الماء حتّىٰ صار مَوجاً، ثمّ أزبد فصار زَبَداً واحداً، فجمَعه في موضِع البيت، ثمّ جعله جَبلاً مِن زَبَد، ثمّ دَحا الأرض مِن تَحْته، وهُو قول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكاً﴾»[12].

وزاد في (الفقيه): «فأوّل بُقْعة خُلِقت مِن الأرض الكَعْبة، ثمّ مُدّت الأرض منها»[13].

وفي (الكافي): عن الصادق عليه السلام قال: «كان مَوضِع الكَعْبة رَبْوة مِن الأرض بَيضاء، تُضيء كضَوْء الشّمس والقمر، حتّىٰ قَتَل ابْنا آدم أحدُهما صاحِبَه فاسْودّت، فلمّا نزَل آدم عليه السلام رفَع الله له الأرض كُلّها حتّىٰ رآها، ثمّ قال: هذه كُلّها لك، قال: يا رَبّ، ماهذه الأرض البَيضاء المُنيرة قال: هِي حَرمي[14] في أرضي، وقد جعلتُ عليك أن تطُوف بها في كُلّ يوم سَبعمائة طَواف»[15].

---

١. للقسم علىٰ أن البيت كائن في مكّة، لكن في روح البيان ٢: ٦٦ ﴿للذي ببكّة﴾ خبر لأنّ.

٢. أي يزدحم الرجال والنساء فيها لكثرتهم.

٣. زاد في النسخة: وعن يسارك.

٤. علل الشرائع: ٤/٣٩٧، تفسير الصافي ٢: ٣٣٠.

٥. تفسير أبي السعود ٢: ٦٠.

٦. جوامع الجامع: ٦٤.

٧. علل الشرائع: ٣/٣٩٧، تفسير الصافي ٢: ٣٣٠.

٨. في المصدر: يَتَباكّون.

٩. علل الشرائع: ١/٣٩٧، تفسير الصافي ١: ٣٣٠.

١٠. علل الشرائع: ٢/٣٩٧، تفسير الصافي ١: ٣٣٠.

١١. في الكافي: فضربن وجه.

١٢. الكافي ٤: ٧/١٨٩، تفسير الصافي ١: ٣٣٠.

١٣. من لا يحضره الفقيه ٢: ٦٧٠/١٥٦.

١٤. (حرمي) ليس في المصدر.

١٥. الكافي ٤: ٤/١٨٩.

وعن الصادق عليه السلام، قال: «إنّ الله أنزله[1] لآدم مِن الجنة، وكانت[2] دُرّة بيضاء فرفعه الله إلىٰ السّماء وبقي أُسّه، وهُو بحِيال هذا البيت يدخُله كُلّ يوم سَبعون ألف مَلَك لا يرجِعون إليه أبداً، فأمر الله عزّ وجلّ إبراهيم وإسماعيل ببنيان البيت علىٰ القواعد»[3].

في بدو بناء الكعبة فـي أن ولايـة آل الرسول داخـلة فـي الاسـلام الحـقيقي المرادف للايمان

ورُوي أنّ الله وضَع تحتَ العَرْش بيتاً؛ وهُو البيت المَعمُور، وأمر الملائِكة أن يطوفوا به، ثمّ أمر الملائِكة الّذِين هُم سُكّان الأرض أن يبنُوا علىٰ الأرض بـيتاً عـلىٰ مِثاله فبنَوا، وأمر مَـن فـي الأرض أن يـطُوفوا بـه كـما يـطُوف أهـل السّماوات بـالبيت المَعمُور[4].

ورُوي أنّ الملائِكة بنَوه قبلَ خَلْق آدم بألفَي عام، فلمّا أُهبِط آدم إلىٰ الأرض قالت له الملائِكة: طُف حَول هذا البيت، فلَقَد طُفْنا حَوله قبلَك بألفي عام، فطَاف به آدم ومَن بعدَه إلىٰ زمن نُوح عليه السلام، فلمّا أراد الله الطُّوفان حُمل إلىٰ السّماء الرّابعة، وهو البيت المَعمُور بحِيال الكَعْبة يطُوف به ملائِكة السّماوات[5].

وعن ابن عبّاس رضي الله عنه: أنّه أوّل بيت بناه آدم في الأرض. وعلىٰ هذا فنِسْبة بناء الكعبة إلىٰ إبراهيم؛ لرَفْعه قواعِدها، وإحياء ما درَس مِنها، حيثُ إنّ موضِع الكَعْبة انْدرَس بعد الطُّوفان، وبقي مُختفياً إلىٰ أن بعَث الله جَبْرئيل إلىٰ إبراهيم، ودَلّه علىٰ مكان البَيت، وأمره بعِمارته[6].

قيل: لمّا كان الآمر بالبِناء هُو الله، والمُبلّغ والمُهنْدِس هُو جَبْرئيل، والباني هُـو الخَليل، والتّلميذ المُعِين له إسماعيل عليهما السلام، فليس في العالَم بِناء أشرف مِنه[7].

ورُوي عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه سُئِل عن أوّل بيت وُضِـع للنّاس، فـقال: «المَسجِد الحَرام، ثـمّ بـيت المَقْدِس» وسُئل كَم بَيْنهما؟ فقال: «أربعون سَنة»[8].

ورُوي أنّه لمّا تحوّلت القِبلة إلىٰ الكَعبة، طعن اليَهُود في نُبوّة النبيّ صلى الله عليه وآله وقالوا: إنّ بيت المَقْدِس أفضل مِن الكَعْبة، وأحقّ بالاسْتِقبال؛ لأنّه وُضِع قبلَ الكَعبة، وهُو أرض المَحشَر، ومَهاجِر الأنبياء وقِبْلتهم، والأرض المُقدّسة التي بارَك الله فيها للعالَمين، وفيها الجَبل الذي كلّم الله موسىٰ عـليه، فتحويل القِبلة مِنه إلىٰ الكَعبة باطِلٌ. فنزلَتْ رداً عليهم ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ الآية[9].

ثمّ وصَف الله البيت بكَونه ﴿مُبَارَكاً﴾ كثير الخَير والنَّفع لمَن حجّه واعْتمره واعْتكف فيه وطَاف

---

١. في المصدر: أنزل الحجر.
٢. في المصدر: وكان البيت.
٣. الكافي ٤: ٢/١٨٨.
٤. تفسير روح البيان ٢: ٦٧.
٥. تفسير روح البيان ٢: ٦٧.
٦. نفس المصدر.
٧. تفسير روح البيان ٢: ٦٧.
٨. وأيضاً.
٩. تفسير روح البيان ٢: ٦٦.

حَوله، لتحصِيلهم بهذه الأعمال تَكفير الذُّنوب، والثّواب العظيم، ونَفْي الفَقر، وسَعَة الرِّزق ﴿وَ﴾ كَوْنه ﴿هُدىً﴾ ورَشاداً إلىٰ رِضوان الله ومعرفته؛ ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ لأنّه قِبلتهم ومَعبَدهم.

وفيه آيات عجيبة دالّة علىٰ عظيم قُدرته، وسَعَة حِكْمته، كما نبّه عليه بقوله: ﴿فِيهِ آيَاتٌ﴾ كثيرة ﴿بَيِّنَاتٌ﴾ وشَواهد واضِحات علىٰ عَظَمة قُدْرته، كانْحِراف الطُّيور عن مُوازاته مدىٰ الأعصار، ومُخالطة ضَواري السِّباع الطيور[1] في الحَرم مِن غيرِ تعرُّض لها لحرمته، وقَهر الله لكُلّ جَبّار قصَده بسُوء، كاصحَاب الفيل.

وقيل: إنّ المُراد مِن الآيات العديدة هُو ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ لكَوْنه بمَنْزلة الآيات الكثيرة، لظُهُور شأنه وقُوّة دَلالته علىٰ قُدْرة الله ونُبُوّة إبراهِيم، وعَظَمة شأنه وشأن البيت.

ثمّ ذكَر سُبحانه مِن فضائِله وفضائِل البيت كَوْنه آمناً، بقوله: ﴿وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً﴾ مِن التَعرُّض له بحُرْمته في نفسه، ولدُعاء إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿رَبِّ اجْعَل هٰذَا بلَداً آمِناً﴾[2] قيل: إنّ مَن سكَن مكّة أمِن مِن النَّهب والغَارة.

وقد مرّ في سُورة البقرة ذِكْر رِواياتٍ دَالّة علىٰ أنّ المُراد كَوْنه آمناً مِن عذاب الآخرة[3].

وفي الحديث: «مَن مات في أحَد الحَرَمين، بُعِثَ يومَ القِيامة آمِناً»[4].

وعنه صلى الله عليه وآله: «الحَجُون[5] والبقيع يُؤخذ بأطرافهما ويُنشران في الجنّة»[6].

وعن ابن مَسعود رضي الله عنه: وقف رَسُول الله صلى الله عليه وآله علىٰ ثَنِيّة[7] الحَجُون، وليس بها يومئِذٍ مَقْبرة فقال: «يبعث الله تعالىٰ مِن هذه البُقْعة ومِن هذا الحَرَم سبعين ألفاً وُجُوههم كالقمر ليلة البَدْر، يدخُلون الجنّة بغير حِساب، يشفَع كُلّ واحدٍ مِنهم في سَبعين ألفاً»[8] الخبر.

وعنه صلى الله عليه وآله: «مَن صبَر علىٰ حَرّ مكّة ساعةً مِن نَهار، تباعدَتْ عنه جهنّم مَسيرة مائتي عام»[9].

ولا يذهَب عليك أنّ الأمان مِن العذاب مُختصٌّ بالعُصاة مِن أهل الإيمان، لدَلالة الأدلّة القَطعيّة، وقِيام الضَّرورة علىٰ أنّ الكُفّار، ومَنْ في حُكْمهم مِن مُنكري الوِلاية وظالمي آل محمّد عليهم السلام، خالدين فيه، ولَو كانوا مَدفُونين في مكّة أو مَسجد النبيّ صلى الله عليه وآله.

وفي (العِلَل): عن الصادق عليه السلام أنّه قال لأبي حنيفة: «أخبِرني عن قول الله: ﴿وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً﴾ أين ذلك مِن الأرض؟» قال: الكعبة قال: «أفتَعْلَم أنّ الحَجّاج بن يوسف حينَ وضَع المَنْجَنيق علىٰ

---

١. في النسخة: الصيود، وما أثبتناه من روح البيان ٢: ٦٧.
٢. البقرة: ٢/١٢٦.
٣. راجع تفسير الآية.
٤. تفسير روح البيان ٢: ٦٨.
٥. الحَجُون: جبلٌ بمكّة.
٦. تفسير روح البيان ٢: ٦٨.
٧. الثَّنِيّة: الطريق في الجبل.
٨. تفسير روح البيان ٢: ٦٨.
٩. تفسير الرازي ٨: ١٥١.

ابن الزُّبير في الكَعبة فقتَله، كان آمِناً فيها؟» فسكَت.

فسُئل عليه السلام عن الجواب، فقال: «مَن بايَع قائمَنا، ودخَل معه فيه، ومسَح علىٰ يدِه، ودخل في عُقْدة[1] أصحابه كان آمِناً»[2].

أقول: الظّاهِر أنّ المُراد مِن الرِّواية بيان البَطْن والتّأويل.

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ بيان فضائِل البيت، أمر النّاس بحجّه، بقوله: ﴿وَلِلَّهِ﴾ ثابِتٌ ﴿عَلَى﴾ عَـهْده كـافّة المُكلّفين مِن ﴿ٱلنَّاسِ﴾ رِجالهم ونِسائهم ومؤمنيهم وكُفّارهم ﴿حِجُّ﴾ ذلك ﴿ٱلْبَيْتِ﴾ وقَـصْد زِيارته، للنُّسُك المَخصُوصة.

قيل: حِجّ، بالكَسْر: لُغة أهل نَجْد[3].

رُوي عن الصادق عليه السلام: «يعني به الحَجّ والعُمْرة؛ لأنّهما مَفروضان»[4].

ثمّ خصّ سُبحانه تَكليف عُمُوم العِباد بالحجّ بخُصُوص ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ﴾ مِـنهم اسْـتِطاعة عُـرْفيّة ﴿إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ وأطاق إلىٰ البيت ذَهاباً. ولاشُبْهة أنّها بوِجْدان الزّاد، والرّاحِلة، وصِحّة البَدَن، وتَخْلية السِّرب[5]. وأمّا الاقْتِصار ـ في رِواية أنس بن مالك، عن رَسُول الله صلى الله عليه وآله ـ علىٰ ذِكْر الزّاد والرّاحِلة[6]؛ فلوُضُوح اعتِبار القُوّة البَدنيّة، وعدَم الخَوْف علىٰ النّفس والمال، مِن حُكْم العَقْل، وأدِلّة نَفْي الحَرَج.

عن العيّاشي: عن الصادق عليه السلام أنّه سُئِل عن هذه الآية، فقال: «الصِّحّة في بَدَنه، والقُدْرة في ماله»[7].

وعنه عليه السلام، في رِوايةٍ أُخرىٰ: «مَن كان صَحيحاً في بَدَنه، مُخلّيً سَربه، له زاد ورَاحِـلة، فـهُو مِـمّن يستطيعُ الحَجّ»[8].

وفي رِوايةٍ ثالثة، بعدَ السُّؤال عن الآية، فقال: «مايقول النّاس؟» فقيل: الزّاد والرّاحِلة. فقال: «قد سُئِل أبو جعفر عليه السلام عن هذا فقال: هلَك النّاس إذاً، لَئِن كان مَنْ كان له زاد وراحِلة قَدْر ما يـقُوت عِـياله، ويستَغني به عن النّاس، ينطلِق إليهم

فيسألهم إيّاه [ويحجّ] لقد هَلكوا [إذاً]».

فقيل له: فما السّبيل؟ قال: فقال: «السَّعَة في المال، إذا كان يَحُجّ ببَعْضٍ، ويُبقي بعضاً يقُوت به عِياله، أليس قد فرَض الله الزّكاة فلَم يجعَلْها إلّا علىٰ مَن يملِك مائتي دِرْهم»[9].

---

١. في المصدر: عقد. ٢. علل الشرائع: ٩٠ و٥/٩١. ٣. تفسير الرازي ٨: ١٥٢.
٤. الكافي ٤: ١/٢٦٤.
٥. السِّرب: الطريق، يقال: خلِّ له سَربه، أي طريقه، وفلان مخلّى السَّرب: أي موسّع عليه غير مضيّق عليه.
٦. تفسير أبي السعود ٢: ٦٢. ٧. تفسير العيّاشي ١: ٧٥٦/٣٣٢.
٨. تفسير العياشي ١: ١١١/٣٣١. ٩. تفسير العياشي ١: ٧٥٢/٣٣١.

أقول: بَل الأظهر اعتِبار عَوْده إلىٰ الكِفاية، فمَن كان له مال يَكْفيه للذّهاب والإياب، ولمُؤنة عِياله في سَفَره، ولكِن إذا رجَع لا يُمكِنه الإعاشة إلّا بالعُسْر والذِّلّة، لا يجِب عليه الحَجُّ، لعدَم صِدْق (المُستطيع) عليه عُرفاً، ولنَفْي العُسْر والحَرَج شَرعاً، ولمُنافاته لسَماحة الدِّين وسُهُولته.

وما عن العيّاشي: عن الصادق عليه السلام أنّه سُئِل ما السَّبيل؟ قال: «أن يكون له ما يحُجّ» قال: قلت: مَن عُرِض عليه ما يحُجّ به فاستَحْيىٰ مِن ذلك، أهُو مِمَّن يستطيع إليه سبيلاً؟ قال: «نعَم، ما شأنه يستَحي! ولَو يحُجّ علىٰ حِمار أجْدَع أبتَر، فإن كان يُطيق أن يمشي بعضاً ويركَب بعضاً فليحُجّ»[1].

وفي رِوايةٍ: «يخرُج ويمشي إن لَم يكُن عندَه». قيل: لا يقدِر علىٰ المَشْي؟ قال: «يمشي ويركَب». قيل: لا يقدر علىٰ ذلك؟ قال: «يخدِم القوم، ويخرُج معهم»[2] فمَحمُول علىٰ الاستِحباب علىٰ الأظهر.

في ذكر وجوه دلالة الآية علىٰ تأكّد وجوب الحجّ

ثمّ بالغ سُبحانه في تأكيد الوُجوب بالتّهديد الشّديد علىٰ تركه، بقوله: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ وترَك ذلك الواجِب المُهِمّ، معَ القُدْرة عليه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ﴾ عنه و﴿عَنِ ٱلْعَالَمِينَ﴾ وعن جميع ما في السّماوات والأرضين، فلا يَحتاج إلىٰ حَجّكم وعِباداتكم.

وفي التّعبير عن تَرْك الحَجّ بـ(مَن كفر) تَنْبيهٌ علىٰ أنّهما ـ في خُبْث الذّات، وشَناعة العَمَل، وشِدّة العُقُوبة ـ واحِد. وفي ذِكْر الغَناء عنه إشعارٌ بغاية الإعراض عنه، ونِهاية السَّخَط عليه.

وعن الصادق عليه السلام، ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ قال: «يعني: مَنْ تَرَك»[3]، وفي رِوايةٍ، قال: «هو كُفْر النِّعَم»[4].

وعن ابن عبّاس رضي الله عنه: قال: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ أي جَحَد فَرْض الحَجّ، أنّه ليس بواجب.

وعن سعيد بن المُسيّب: نزلَتْ في اليَهُود، قالوا: الحَجّ ليس بواجِب.[5]

وفي (الفقيه): في وصيّة النبيّ صلى الله عليه وآله لعلِيّ عليه السلام: «يا عليّ، تارِك الحَجّ وهُو مُستطيع كافِر، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَالَمِينَ﴾ يا عليّ، مَن سَوّف الحَجّ حتّىٰ يمُوت بعثَه الله[6] يَهُودِيّاً أو نَصرانيّاً»[7].

وعنه صلى الله عليه وآله قال: «مَن لَم تحبسْه حاجةٌ ظاهِرة، أو مَرض حابِس، أو سُلطان جائِر، ولَم يحُجّ، فَلْيَمُت[8] يَهُودِيّاً أو نَصرانيّاً»[9].

وعن (الكافي) و(التهذيب): عن الصادق عليه السلام: «مَن مات ولَم يحُجّ حِجّة الإسلام، ولَم يمنَعْه مِن

---

١. الكافي ٤: ٢٦٦/١ عن الباقر، تفسير الصافي ١: ٣٣٤.
٢. تفسير الصافي ١: ٣٣٤.
٣. التهذيب ٥: ١٨/٥٢، تفسير الصافي ١: ٣٣٥.
٤. تفسير العياشي ١: ٣٣٢/٧٥٤، تفسير الصافي ١: ٣٣٥.
٥. تفسير أبي السعود ٢: ٦٢.
٦. زاد في المصدر: يوم القيامة.
٧. من لا يحضره الفقيه ٤: ٢٦٦/٨٢٤، تفسير الصافي ١: ٣٣٤.
٨. زاد في تفسير روح البيان: إن شاء.
٩. تفسير روح البيان ٢: ٦٨.

ذلك حاجة تُجحِف، أو مَرض لا يُطيق فيه الحَجّ، أو سُلطان يمنَعه، فليمُت يَهوديّاً أو نَصرانيّاً»[١].

رُوي أنه لمّا نزَل صَدْر الآية، جمع رَسُول الله ﷺ أرباب المِلَل[٢]، فخطَبهم فقال: «إنّ الله كتَب عليكم الحَجّ فحُجُّوا» فآمَنَتْ به مِلّة واحِدة، وهُم المُسلِمون، وكَفَرَتْ به خَمْسُ مِلَل، فنزلت [الآية][٣].

قيل: لقد حازَتْ الآية الكريمة مِن فُنُون الاعْتِبارات المُعْرِبة عن كمال الاعْتِناء بأمر الحَجّ، والتّشديد على تارِكه ما لا مَزيد عليه، حيث اُوثرت صِيغة الخبَر الدالّة على التَحقُّق، واُبرِزتْ في صُورة الجُملة الاسْميّة الدالّة على الثَبات والاسْتِمرار، على وَجْهٍ يُفيد أنّه حَقّ واجب لله تعالى في ذِمَم النّاس، لا انْفِكاك لهم عن أدائه والخُروج عن عُهْدته.

وسلَك بهم أوّلاً مَسْلَك التَعميم، ثمّ التّخصيص والإبهام ثانياً، ثمّ التّبيين والإجمال ثالثاً، ثمّ التّفصيل، لِما في ذلك مِن مَزيدِ تَحقيقٍ وتقرير، وعبّر عن تركه بالكُفْر، وجعل جَزاءه اسْتِغناءه تعالى المُؤْذِن بشِدّة المَقْت وعظيم السّخَط، لا من تارِكه فقَط ـ فإنّه قد ضرَب عنه صَفْحاً، إسقاطاً له عن درَجة الاعْتِبار، واسْتِهْجاناً بذِكْره ـ بَل من جميع العالَمين مِمّن فعَل وترَك، ليدلّ على نِهاية شِدّة الغَضب[٤].

رُوي عن النبيّ ﷺ، قال: «حُجُّوا قبلَ أن لا تحُجّوا، فإنّه قد هدِم البيت مرّتين، ويُرفع إلى السّماء في الثالثة». ورُوي عنه ﷺ، قال: «حُجُّوا قبلَ أن يمنع البرّ جانبه»[٥].

وعن ابن مَسعود ﷺ: حُجُّوا هذا البيت قبلَ أن ينبُت في البادِية شجَرة لا تأكُل منها دابّة إلّا نفقَت[٦].

ورُوي عن النبيّ ﷺ، قال: «لو ترَك النّاس الحَجّ عاماً واحداً ما نُوظروا»[٧].

قُلْ يَاأَهْلَ ٱلْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ ٱللهِ وَٱللهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ[٩٨]

ثمّ أنّه تعالى بعدما أزال الشُّبُهات، ونبّه على ما في البيت مِن الآيات البيّنات، وجحد أهلُ الكِتاب جميعها، أمر نبيّه ﷺ بأن يلُومهم على ذلك بلِسان ليّن، بقوله: ﴿قُلْ يَاأَهْلَ ٱلْكِتَابِ﴾ وحُفّاظ التّوراة والإنجيل ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ ٱللهِ﴾ وحُجَجه التي أقامها على صِدْق نبيّه ﷺ، وشَرافة بَيْته؟ ولأيّ سَبب وداعٍ تجحَدونها بعدَ عِرفانكم بها، وعِلْمكم بصِحّتها، ووُضوح صِدْق محمّد، وشَرَف الكعبة

---

١. الكافي ٤: ١/٢٦٨، و: ٥/٢٦٩، التهذيب ٥: ٤٩/١٧، تفسير الصافي ١: ٣٣٤.
٢. في تفسير أبي السعود: أهل الأديان كلهم.
٣. تفسير أبي السعود ٢: ٦٢.
٤. تفسير أبي السعود ٢: ٦٢.
٥. تفسير أبي السعود ٢: ٦٢.
٦. تفسير أبي السعود ٢: ٦٢.
٧. جوامع الجامع: ٦٤.

بدلالتها؟ ﴿وَاللَّهُ﴾ العَظيم الغَالب الشّديد العِقاب ﴿شَهِيدٌ﴾ ومُطّلِع ﴿عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ مِن القبائح، وما يصدُر مِنكم مِن جُحُود آياته، ومُعارضة رَسُوله، فيُجازِيكم أسوأ الجَزاء، ويُعذّبكم في الآخرة أشدّ العذاب. فاطّلاعه علىٰ أعمالكم، والخَوف من عقُوبته علىٰ عِصيانكم مِن أقوىٰ الزّواجِر وأتمّ الرّوادِع عمّا تأتونه وترتكِبونه.

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجاً وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ[٩٩]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ أمر نبيّه بتَوْبيخهم علىٰ كُفْرهم وضَلالهم، أمره بتَوْبيخهم علىٰ إضلالهم عِباده المُؤمنين، وصدِّهم عن سبيله، بقوله: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ ويا تَلَاة الصُّحُف والزُّبُر المُنزَلة وغيرها، جُزْنا عن اللَّوْم علىٰ ضَلالتكم ﴿لِمَ تَصُدُّونَ﴾ وتصرِفون ﴿عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ ودِينه الحقّ المُوصِل إلىٰ السّعادة الأبديّة؟ وتُضِلّون عنه بإلقاء الشُّبُهات والحِيَل والتّسْويلات ﴿مَنْ آمَنَ﴾ بالرّسُول ودِين الإسلام، ولِمَ تطلُبون لتِلْك السّبيل و﴿تَبْغُونَهَا﴾ معَ كمال اسْتِقامتها، وكَوْنها أقوَم السُّبل ﴿عِوَجاً﴾ وانْحِرافاً عن القصْد والاسْتِقامة، وتُوهِمون أن في تِلْك السّبيل مَيْلاً عن الحَقّ، وتسعَوْن في صَرْف النّاس عنها؟ بسبَب تَغْيير صِفات النبيّ وعلائِمه المَذكُورة في الكُتُب السّماويّة، وإلقاء شُبْهة امْتِناع نَسْخ دِين مُوسىٰ أو عيسىٰ في قُلوب العَوامّ، وتقريب أفضليّة بيت المَقْدِس مِن الكَعبة في الأذهان.

﴿وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ﴾ قيل: إنّ المُراد: والحَال أنّ النّاس يستَشْهدونكم في القَضايا والأمور العِظام، فشأنكم الصِّدْق وتأدية الحَقّ، لا تضييعه.

وقيل: إنّ المعنىٰ: أنّكم شاهِدون بأنّ دِين الإسلام سَبيل الحقّ لا تحُوم حَولها شائبة الإعوجاج، وأنّ الصّدّ عنها إضلال عن نَهج الحقّ والطريق المُستقيم.

عن ابن عبّاس رضي الله عنه: أي أنتم شُهداء علىٰ أنّ في التّوارة: أنّ دِين الله الذي لا يقبَل غيرَه هُو الإسلام[١].

فمَن كان كذلك، لا يليق به الإصرار علىٰ الكُفْر، والسّعْي في إضلال النّاس.

ثمّ أخذ سُبحانه في تَهديدهم بقوله: ﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ مِن إضلال النّاس، وإلقاء الشُّبُهات في قُلوب المُؤمنين، وصَدّهم عن سَبيل الحقّ، وكِتمان الشّهادة بصِفات النبيّ صلّى الله عليه وآله.

قيل: لمّا كان كُفْرهم بآيات الله بطريق العَلانية، خُتِمَتْ الآية السّابقة بشَهادته تعالىٰ علىٰ ما يعملون، ولمّا كان صدُّهم عن سبيل الله بطريق الخُفية، خُتِمَتْ هذه الآية بما يقطَع وسائِل حِيَلهم، من عِلْمه

---

١. تفسير الرازي ٨: ١٥٨.

واطّلاعه بجميع أعمالهم.

يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ يَـرُدُّوكُم بَـعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ * وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ ٱللهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [١٠٠ و ١٠١]

ثمّ لمّا بيّن سُبحانه أنّ أهل الكِتاب يصُدّون المؤمنين عن سَبيل الله، ويَحتالون في صَرْفهم عن الحقّ، وردِّهم إلىٰ الأعقاب صَرف الخِطاب إلىٰ المُؤمنين تكريماً لهم، ونهاهم عن اتِّباعهم لُطفاً بهم، بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالرّسُول وبدِين الإسلام ﴿إِن تُطِيعُوا﴾ وتتَّبعوا ﴿فَرِيقاً﴾ وطائِفة كافِرة ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ﴾ دُون فريق المُؤمنين بمحمّد ﷺ كعبدالله بن سَلَام وأضرابه ﴿يَرُدُّوكُم﴾ بحِيَلهم وتَلبيساتهم ﴿بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ بمحمّد ودِينه ومعَ ثباتكم عليه، إلىٰ أعقابكم، وأخلاق جاهليتكم، حال كَوْنهم ﴿كَافِرِينَ﴾ بمحمّد ﷺ مُرتدّين عن دِين الإسلام.

ثمّ أنكر سُبحانه عليهم الكُفر، واستَبعد مِنهم الارْتداد تثبيتاً لهم علىٰ الدِّين، بقوله: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ وأي سَببٍ يبعثكم في الارْتِداد، وأي داعٍ يدعُوكم إليه ﴿وَأَنتُمْ﴾ في حالٍ وشأنٍ مقتضٍ للثّبات علىٰ الإيمان، وهُو أنّه ﴿تُتْلَىٰ﴾ وتُقرأ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ حِيناً بعدَ حِين، وساعةً بعدَ ساعة ﴿آيَاتُ ٱللهِ﴾ القُرآنيّة المُشتمِلة علىٰ إعجاز البَيان والحكم والعُلُوم، والمواعِظ البالِغة مِن ربّكم، وهِي نُور لقُلوبكم، وشِفاء لِما في صُدُوركم، وضِياء لأبصاركم، وهُدىً ورحمةً لكم، ﴿وَ﴾ مع ذلك يكون ﴿فِيكُمْ﴾ ومعكم ﴿رَسُولُهُ﴾ الذي يقرّر لكم كُلّ حُجّة، ويُزِيل عنكم كُلّ شُبْهة بعِبارة وافية، ويزجُركم عن كُلّ سُوء بمواعِظ شافِية.

ومِن الواضح أنّ هاتين النِّعْمتين مِن أعظم مُوجبات الثّبات، وأقوىٰ علىٰ الإيمان، وأقوىٰ الزّواجر عن الكُفْر والارْتِداد.

ثمّ حثّهم إلىٰ الالتِجاء إلىٰ رَسُوله عند تَوارد الشُّبُهات، بقوله: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللهِ﴾ بالالْتِجاء إلىٰ رَسُوله في مَوارط الفِتَن، والاستِمساك بذَيْله عندَ تلاطُم أمواج البَلايا والشُّبُهات، وفي مَزالّ الأقدام عندَ مُنازلة أعداء الدِّين وجِهاد النّفس والشّياطين ﴿فَقَدْ هُدِيَ﴾ بتَوفيق الله، وأُرشِد بدَلالته ﴿إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وطريق قَويم مُوصِل إلىٰ كُلّ خَيْرٍ مُؤدٍّ إلىٰ رِضوان الله والنِّعم الدّائمة.

في وقوع التنازع بين الأوس والخزرج في زمان النبيّ ﷺ وبيان قوة تأثير القرآن في النفوس

رُوي أنّ نفراً مِن الأوس والخَزْرج كانوا جُلوساً يتحدّثون، فمرّ بهم شاس بن قيس

اليَهُودي وكان شَديد الحسَد للمُسلمين، فغاضه ما رأىٰ مِنهم مِن تآلف القُلوب، واتّحاد الكلمة، واجْتِماع الرّأي، بعدَ ما كان فيهم[١] مِن العَداوة والشنآن، فأمر شاباً يَهُودياً كان معه بأن يجلِس إليهم ويذكّرهم يوم بُعاث[٢] ـ وكان ذلك يوماً عظيماً اقْتَتَل فيه الحَيّان، و[كان] الظّفَر فيه للأوس ـ ويُنشِدهم ماقيل فيه مِن الأشعار ففعل، فتفاخر القوم وتغاضبوا حتّىٰ تواثّبوا وقالوا: السّلاح السّلاح، فاجْتمع مِن القَبيلتين خَلْق كثير.

فعنَد ذلك جاءهم النبيّ ﷺ وأصحابه فقال: «أتدعُون الجاهِليّة وأنا بيْن أظهُركم، بعدَ أن أكرمكم الله تعالىٰ بالإسلام، وقطَع به عنكم أمر الجاهِليّة، وألّف بيْنكم؟!»، فعَلِموا أنّها نَزغةٌ مِن الشّيطان، وكَيْدٌ مِن عدُوّهم، فألقوا السّلاح واسْتَغفروا، وعانق بعضُهم بعضاً، وانْصَرفوا مع رَسُول الله ﷺ[٣].

وقال الواحدي: اصْطفّوا للقتال، فنزلَتْ الآيات إلىٰ قوله: ﴿لَعَلَّكُم تَهْتَدُونَ﴾[٤] فجاء النبيّ ﷺ حتّىٰ وقف بيْن الصّفّين فقرأهُنّ ورفَع صوته، فلمّا سمِعوا صوتَ رسُول الله ﷺ أنصتوا له، وجعلوا يستمِعون له، فلمّا فرَغ ألقَوا السّلاح، وعانق بعضُهم بعضاً، وجعلوا يبكون[٥]. فما كان أقبح أوّلاً، وأحسَن آخِراً مِن ذلك اليوم!

أقول: انظُروا إلىٰ قُوّة تأثير القُرآن في النُّفوس، كيف انْقلبوا باسْتِماعه مِن أسوأ الأحوال إلىٰ أحسَنها!

وحاصِل معنىٰ الآيتين: أنّه إن لانَ المُؤمنون لليَهُود وقبِلوا قولهم، أدّىٰ ذلك حالاً بعدَ حالٍ إلىٰ أن يعُودوا كُفّاراً، والكُفْر مُوجِب للهَلاك في الدُّنيا والآخِرة.

أمّا في الدُّنيا فبوُقُوع العَداوة والبَغْضاء، وهيَجان الفِتَن، وثَوَران المُحاربة المُؤدّي إلىٰ سَفْك الدِّماء، وتلَف النُّفوس. وأمّا في الآخِرة فبعذاب الأبد، ومعَ أنّه يكفي وُجود هذه المَفاسد العظيمة فيه، المُوجبة لعدَم توجّه العاقِل إليه، تكون الصّوارِف والزّواجِر الخارجية عنه مَوجودة لكم، فعنَد ذلك لا يُتوقّع صُدوره مِنكم، بَل لا يُعقَل اخْتِياره مِن العاقل المُختار إلّا للجهل، واتّباع هَوىٰ النّفس، وتأثير وَساوِس الشّيطان، ولا عاصِم مِنه إلّا الاعْتِصام بالله وبرَسُوله، فمَن اعْتصم بهما حصَل له الاهتِداء إلىٰ كُلّ خَير، والفَوْز بجميع النِّعَم، وانْسَدّ عليه باب الضّلال، والوُقوع في المَهالِك.

وَٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ ٱللهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَٱذْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ

---

١. في تفسير أبي السعود: كان بينهم ما كان.
٢. بُعاث: موضع قرب يثرب، وفيه اقتتل الأوس والخزرج في الجاهلية.
٣. تفسير أبي السعود ٢: ٦٤.
٤. آل عمران ٣: ١٠٣.
٥. تفسير أبي السعود ٢: ٦٤.

ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ[١٠٣]

ثمَ أنّه تعالىٰ بعدَ أمره بالتقوىٰ والثّبات علىٰ الدِّين، بيّن طريق الاعْتِصام بالله وبرَسُوله الذي جعله وَسيلة للهداية، بقوله: ﴿وَٱعْتَصِمُوا﴾ وتمسّكوا ﴿بِحَبْلِ ٱللَّهِ﴾ ودِينه، أو كِتابه المَجيد، حالَ كَونكم ﴿جَمِيعاً﴾ ومُتّفقين في الاعتِصام بحيث لا يشِذَ مِنكم أحدٌ.

فشبّه سُبحانه دِين الإسلام أو القُرآن بالحَبْل الوثيق المأمون مِن الانقِطاع والانفِصام، فكما أنّ المُتمسّك بذلك الحَبل مأمونٌ مِن التردّي مِن المكان المُرتفع، كذلك المُتمسّك بدِين الإسلام أو القُرآن العزيز مأمونٌ مِن الوُقوع في الكُفْر والضّلال في الدُّنيا، ومِن التردّي في نار جهنّم في الآخرة.

عن أمير المُؤمنين عليه السلام، عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال: «أمَا أنّها ستكون فِتْنة» قيل: فما المخرَج مِنها؟ قال: «كتابُ الله؛ فيه نبأ مَن قبلكم، وخَبر مَن بعدِكم، وحُكْم ما بَيْنكم، وهُو حَبْل الله المتين»[1].

ويُحتَمل أن يكون مُراده صلى الله عليه وآله مِن الفِتْنة فتنة السّقيفة، وغَصْب الخِلافة، ومِن قوله: «فيه نبأ مَن قبلكم»: قضيّة السّامِريّ والعِجْل.

وعن ابن مَسعُود: عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال: «هذا القُرآن حَبل الله تعالىٰ»[2].

ورَوىٰ الفَخر الرّازي في تفسيره: عن أبي سعيد الخُدْري، عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال: «إنّي تارِكٌ فيكم الثّقَلين: كِتابُ الله تعالىٰ حَبلٌ مَمْدود مِن السّماء إلىٰ الأرض، وعِتْرتي أهل بيتي»[3].

عن القُمّي رحمه الله: الحَبْل: التّوحيد والوِلاية[4].

وعن الباقر عليه السلام: «آلُ محمّد صلى الله عليه وآله حَبل الله المَتين الذي أمر بالاعتصام به»[5].

وعن الكاظم عليه السلام: «عليٌّ بن أبي طالب عليه السلام حَبل الله المَتين»[6].

وعن الصادق عليه السلام: «نحنُ الحَبلُ»[7].

وعن السجّاد عليه السلام قال: «الإمام مِنّا لا يكون إلّا مَعصُوماً، وليست العِصْمة في ظاهِر الخِلْقة فيُعرَف بها، ولذلك لا يكون إلّا مَنصُوصاً» فقيل له: يابن رَسُول الله، فما معنىٰ المَعصُوم؟ فقال: «المُعتصِم بحَبل الله، وحَبل الله هُو القُرآن[8]، والقُرآن يهدي إلىٰ الإمام، وذلك قول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرآنَ

---

١. تفسير الرازي ٨: ١٦٢. ٢. تفسير الرازي ٨: ١٦٢.
٣. تفسير الرازي ٨: ١٦٢. ٤. تفسير القمي ١: ١٠٨، تفسير الصافي ١: ٣٣٧.
٥. تفسير العياشي ١: ٧٦٢/٣٣٤، تفسير الصافي ١: ٣٣٧.
٦. تفسير العياشي ٧٦١/٣٣٣، تفسير الصافي ٣٣٨. ٧. أمالي الطوسي: ٥١٠/٢٧٢.
٨. زاد في معاني الأخبار: لا يفترقان إلىٰ يوم القيامة، والإمام يهدي إلىٰ القُرآن.

يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾»[١].

أقول: مآل جميع الرّوايات واحِد.

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ أمره بالاجتِماع علىٰ الحَقّ، نهىٰ عن التّفرّق عنه، بقوله: **﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾** عن الحَقّ كتفرّق أهل الكِتاب، ولا تختلِفوا أنتم كما اختلفوا علىٰ مَذاهب كثيرة.

رَوىٰ الفخر الرازي في تفسيره: عن النبي ﷺ أنّه قال: «ستفترق[٢] اُمّتي علىٰ نيّف وسبعين فِرقة، النّاجي مِنهم واحِد، والباقي في النّار»، فقيل: ومَن هُم يا رَسُول الله؟ قال: «الجماعة». وفي رِوايةٍ: «السّواد الأعظم». وفي اُخرىٰ: «ما أنا عليه وأصحابي»[٣].

أقول: لا رَيْب أنّ ذَيْل الرّواية مِن المَجعُولات، لوُضُوح مُخالفة عليّ والمَعصُومين مِن ذُرّيّته مَع الجَماعة، وقد اتفّق الفَريقان علىٰ رِواية قوله ﷺ: «عليّ معَ الحَقّ، والحَقّ معَ عليّ»[٤]. وقوله: «إنّي تارِكٌ فيكم الثّقَلين؛ كِتاب الله، وعِترتي ...»[٥] الخبر، وقوله: «مَثَل أهل بيتي كمَثَل سَفينة نُوح مَن ركِبها نجا، ومَن تخلّف عنها غرِق»[٦].

وقيل: إنّ المُراد لا تفرّقوا كتفرّق أهل الجاهِليّة، يُحارِب بعضُكم بعضاً.

وقيل: أي لا تُحدِثوا ما يُوجِب الافتِراق، ويُزيل الاُلفة التي أنتم عليها[٧].

أقول: كنَصْب أبي بكر للخِلافة، حيثُ إنّه أحدَث بعدَ النبيّ ﷺ خِلافاً وافتِراقاً عظيماً بَيْن الصّحابة، ومِن بعدهم إلىٰ يوم القيامة، مع أنّ النبيّ ﷺ أوصىٰ باتّباع عليّ عليه السلام وأهل بيته، وجعلَهم أحد الثّقلَين، وحَبلاً مِن حَبْلَي الله المَمْدودَين. ومِن المُسلّم بَيْن الاُمّة أنّ عليّاً عليه السلام أفضل عِترته، وأشرف أهل بيته.

ثمّ لمّا كان الاعتِصام بحَبل الله مِن مَشاقّ الأعمال، لتوقُّفه علىٰ تَرك الرّئاسات، ومُخالفة الأهوية[٨] والشّهوات، بالغ سُبحانه في التّرغيب إليه بتَذْكيرهم نِعَمه، بقوله: **﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللّٰهِ﴾** التي أنعَمها **﴿عَلَيْكُمْ﴾** ثم لمّا كانت نِعْمة الأمن والاتّحاد والائتِلاف مِن أعظم النِّعَم، خصّها بالتذْكير بقوله: **﴿إِذْ كُنتُمْ﴾** في زمان الجاهِليّة والأعصار المُتمادية **﴿أَعْدَاءً﴾** مُتباغِضين، يقتُل بعضُكم بعضاً، ويُغير

---

١. معاني الأخبار: ١/١٣٢، تفسير الصافي ١: ٣٣٨، والآية من سورة الإسراء: ٩/١٧.
٢. في النسخة: ستفرق. ٣. تفسير الرازي ٨: ١٦٣.
٤. تاريخ بغداد ١٤: ٣٢١، ترجمة علي عليه السلام من تاريخ دمشق ٣: ١١٧٢/١٥٣.
٥. صحيح مسلم ٤: ١٨٧٣، سنن الترمذي ٥: ٦٦٢، مسند أحمد ٣: ١٤ و١٧ و٤: ٣٦٧ و٣٧١.
٦. مستدرك الحاكم ٢: ٣٤٣ و٣: ١٥١، الخصائص الكبرى ٢: ٤٦٦، الجامع الصغير ٢: ٥٣٣.
٧. تفسير أبي السعود ٢: ٦٦.
٨. كذا، والظاهر الأهواء؛ لأن الأهوية جمع هواء، والأهواء جمع هَوَى، ومراد المصنف الأخير.

بعضكم علىٰ بعض ﴿فَأَلَّفَ﴾ الله سُبحانه بفَضله ﴿بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ المُختلفة، حيثُ وفَقكم للإيمان بمحمَد ﷺ، وهَداكم إلىٰ دِين الإسلام ﴿فَأَصْبَحْتُم﴾ وصِرتم بعدَ التباغُض ﴿بِنِعْمَتِهِ﴾ العظيمة، مِن بعْثة محمَد ﷺ، ودِيانة الإسلام، وألْفة القُلوب، واتِّحاد الكلِمة ﴿إِخْوَاناً﴾ في الدِّين، مُتحابِّين في الله، متَفقين علىٰ الحَقّ، مُتراحِمين مُتناصِحين مُتذلِّلين بعضكم لبعضٍ.

قيل: إنّ الأوس والخَزرج كانا أخوين لأبٍ وأمّ واحِد، فوقعَت بَيْنهم العَداوة، وتطاولَتْ الحُروب مائة وعشرين سنة، إلىٰ أن أطفأ الله ذلك بالإسلام[١].

وعن (المجمع): عن مُقاتل: افتخَر رَجُلان من الأوس والخَزرج فقال الأوسيّ: مِنا خُزيمة، ومِنا حنظلة، ومِنّا عاصم، ومِنّا سعد بن مَعاذ الذي اهتزّ عَرْش الرّحمٰن له، ورضي الله بحُكْمه في بني قُريظة، وقال الخَزْرجي: مِنّا أربعةٌ أحكموا القُرآن: أُبَيّ بن كعب، ومَعاذ بن جبل، وزَيد بن ثابت، وأبو زيد، ومِنّا سَعد بن عَبادة. فجرىٰ الحدِيث بَيْنهما، فغضِبا وتفاخرا ونادَيا، فجاء الأوس إلىٰ الأوسي، والخَزْرج إلىٰ الخَزْرجي، ومعهم السِّلاح، فبلغ [ذلك] النبيّ ﷺ فركِب حماراً فأتاهم، فأنزل الله [هذه] الآيات، فقرأها عليهم فاصْطلحوا[٢].

ثمّ بعدَ تَذْكيرهم النِّعْمة العظيمة الدُّنيويّة، ذكَرهم الله تعالىٰ أعظم نِعَمهِ الأُخروِيّة، بقوله: ﴿وَكُنتُمْ﴾ في زمان كُفْركم مُقيمين ﴿عَلَىٰ شَفَا﴾ وطَرَف ﴿حُفْرَةٍ﴾ مَملوءة ﴿مِنَ ٱلنَّارِ﴾ وفي شَفير جهنّم، حالَ كَوْنكم مُشرِفين علىٰ الوُقوع فيها بالموت ﴿فَأَنقَذَكُم﴾ الله ونجّاكم ﴿مِنْهَا﴾ بسَبب تأخير موتكم، وتَوفيقكم لقَبُول الإسلام.

عن (الكافي): عن الصادق ﷺ، قال: «فأنقذَكُم مِنْها بمحمّد ﷺ، هكذا والله نَزَل بها جبْرئيل علىٰ محمّد ﷺ»[٣].

أقول: الظّاهِر أنّه بَيان المُراد مِن الآية، لا أنّ كلمة (محمّد) كانت جُزءاً مِنها، والمُراد مِن قوله: (نزَل بها جبْرئيل) أنّه أنزلها بهذا التّفسير، لبُطلان القول بالتّحريف.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ البَيان والتَوضيح الوافي ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ﴾ ويوضّح ﴿لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ المُنزَلة الدّالّة علىٰ المَعارف والأحكام ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ إلىٰ ما فيه خيرُكم وصَلاحكم، أو المُراد لكَي تثبُتوا علىٰ ما أنتم عليه مِن الإسلام، والازْدِياد في كمال الإيمان وقُوّة اليقين.

وَلتَكُن مِنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ

---

١. تفسير الرازي ٨: ١٦٤.

٢. مجمع البيان ٢: ٨٠٤.

٣. الكافي ٨: ١٨٣/٢٠٨.

وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَٱخْتَلَفُوا مِن بَعْدِمَا جَاءَهُمُ ٱلْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ[١٠٤ و ١٠٥]

ثم أنّه تعالىٰ ـ لمّا ذمّ أهل الكِتاب، بكَونهم ضالّين في أنفسهم مُضلّين لغيرهم ـ أمر المُؤمنين بالسّعي في إرشاد غيرِهم، والاهتِمام بهِداية أبناء نَوعهم، بعدَ أمرهم بالثّبات علىٰ الإيمان، والسّعي في تكميل أنفسهم، والقِيام بطاعة ربِّهم، علىٰ خِلاف أهل الكِتاب، بقوله: ﴿وَلتَكُن مِنكُمْ أُمَّةٌ﴾ وجَماعة كامِلة النّفس، عالِمة بالمَعارف الإلٰهيّة والأحكام الشّرعيّة ﴿يَدْعُونَ﴾ النّاس ﴿إِلىٰ ٱلخَيْرِ﴾ وما فيه صَلاح الدِّين والدُّنيا، مِن التّديُّن بالإسلام، والتِزام الطّاعات، والتّخلُّق بالأخلاق الكريمة، والتّنزُّه مِن الصّفات الذّميمة ﴿وَيَأمُرُونَ﴾ العِباد ﴿بِالمَعْرُوفِ﴾ وما استَحسنه الشّرعُ والعَقل ﴿وَيَنْهَوْنَ﴾ الجُهّال ﴿عَنِ﴾ ارتِكاب ﴿ٱلمُنكَرِ﴾ وما استَقبحه الشّرعُ والعقل. وفي تَخصِيصهما بالذِّكر إيذانٌ بغاية فَضلهما.

ثمّ وعدَهم بأفضل الثّواب بقوله: ﴿وَأُوْلَٰئِكَ﴾ الجماعة القائِمة بالدّعوة إلىٰ الله بأصنافها ﴿هُمُ المُفْلِحُونَ﴾ والفائِزون إلىٰ كُلّ[1] مَطلوب.

في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

عن النبيّ ﷺ: «مَن أمَر بالمَعروف، ونهىٰ عن المُنكر [كان] خَليفة الله في أرضه، وخليفة رَسُوله، وخليفة كِتابه»[2].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «أفضل الجِهاد الأمْر بالمَعروف والنّهي عن المُنكر».

وعنه عليه السلام: «مَن لَم يعرِف بقَلبه مَعرُوفاً، ولَم ينكِر مُنكراً، نُكّس وجُعِل أعلاه أسفله»[3].

وعن الصادق عليه السلام: «الأمر بالمَعروف والنّهي عن المُنكر خَلْقان مِن خَلْق الله تعالىٰ، فمَن نصَرهما أعزّه الله، ومَن خذَلهما خذَله الله»[4].

أقول: يُحتَمل أن يكون المُراد مِن قوله: (خَلْقان مِن خَلْق الله) أنهما حُكْمان مِن أحكام الله، أو أنّهما مَوجُودان مِن المَوجُودات الجَوهريّة في عالَم الصُّوَر، يظهَران في القِيامة بصُورتهما المِثاليّة، كما تظهَر الصّلاة والصّوم بصُورة، والقُرآن بصُورة.

وعن (التهذيب): عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «لا يَزال النّاس بخيرٍ ما أمروا بالمَعروف، ونهَوا عن المُنكر، وتعاوَنوا علىٰ البرّ [والتقوى]، فإن لَم يفعَلوا ذلك نُزعت مِنهم البَركات، وسُلّط بعضُهم علىٰ

---

١. كذا، والظاهر: والفائزون بكلّ.
٢. تفسير الرازي ٨: ١٦٨.
٣. تفسير الرازي ٨: ١٦٨.
٤. الكافي ٥: ١١/٥٩، تفسير الصافي ١: ٣٣٩.

بعضٍ، ولَم يكُن لهم ناصِرٌ في الأرض ولا في السّماء»[١].

وعن الباقر عليه السلام، في رِوايةٍ: «أنّ الأمر بالمَعروف والنّهي عن المُنكر سَبيل الأنبياء، ومِنهاج الصّادقين، وفريضة عظيمة بها تُقام الفرائِض، وتأمَن المذاهب، وتحِلّ المكاسِب، وتُرَدّ المَظالم، وتُعمَّر الأرض، ويُنتصَف من الأعداء، ويستقيم الأمر، فأنكروا بقُلوبكم، والْفِظوا بألسنتكم، وصُكّوا بها جِباههم، ولا تخافوا في الله لَومة لائِم، فإن اتّعظوا، وإلىٰ الحَقّ رجعوا، فلا سَبيل عليهم ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٢] هُنالك فجاهدوهم بأبدانكم، وابغُضوهم بقُلوبكم، غير طالِبين سُلطاناً، ولا باغِين مالاً، ولا مُريدِين بالظُّلم ظَفَراً، حتّىٰ يفيئوا إلىٰ أمر الله ويمضُوا علىٰ طاعته».

قال أبو جعفر عليه السلام: «وأوحىٰ الله إلىٰ شُعيب النبيّ: إنّي مُعذِّب مِن قومك مائة ألف، أربعين ألفاً مِن شِرارهم، وسِتّين ألفاً مِن خِيارهم، فقال: يا ربّ هؤلاء الأشرار، فما بَالُ الأخيار؟ فأوحىٰ الله عزّ وجلّ إليه: إنّهم داهَنوا أهل المَعاصي، ولَم يغضَبوا لغَضَبي»[٣].

عن الصادق عليه السلام أنّه سُئِل عن الأمر بالمَعروف والنّهي عن المُنكر، أواجِب علىٰ الأُمّة جميعاً؟ فقال: «لا»، فقيل: ولِمَ؟ قال: «إنّما هُو علىٰ القَويّ، المُطاع، العالِم بالمَعروف مِن المُنكر، لا علىٰ الضَّعَفة الّذِين لا يهتَدون سبيلاً إلىٰ أيٍّ من أيّ ـ يعني إلىٰ الحَقّ مِن الباطل ـ والدّليل علىٰ ذلك كِتاب الله: ﴿وَلْتَكُن مِنكُم أُمّة﴾ ـ إلىٰ أن قال ـ: فهذا خاصّ غير عامّ»[٤] الخبر.

وعنه عليه السلام أنّه سُئل عن الحديث الذي جاء عن النبيّ صلى الله عليه وآله: «إنّ أفضل الجِهاد كلمة عَدْلٍ عندَ إمامٍ جائِرٍ» ما معناه؟ قال: «هذا علىٰ أن يأمرَه بعدَ مَعرفته، وهُو معَ ذلك يقبَل مِنه»[٥].

وعنه عليه السلام: «إنّما يُؤمَر بالمَعروف ويُنهىٰ عن المنكر [مؤمن] فيتّعِظ، أو جاهل فيتعلّم، فأمّا صاحِب سَيف وسَوْط فلا»[٦].

وفي (نَهج البَلاغة) قال عليه السلام: «وانْهَوا عن المُنكر وتَناهَوا عنه، فإنّما أُمرتم بالنّهي بعدَ التّناهي»[٧].

وقال: «لعَن اللهُ الآمرين بالمَعروف والتّاركين [له، النّاهين] عن المنكر العامِلين به»[٨].

---

١. التهذيب ٦: ٣٧٣/١٨١، تفسير الصافي ١: ٣٣٩. ٢. الشورى: ٤٢/٤٢.

٣. الكافي ٥: ١/٥٥، التهذيب ٦: ٣٧٢/١٨١، تفسير الصافي ١: ٣٤٠.

٤. الكافي ٥: ١٦/٥٩، التهذيب ٦: ٩/١٧٧، تفسير الصافي ١: ٣٣٨.

٥. الكافي ٥: ١٦/٦٠، التهذيب ٦: ٣٦٠/١٧٨، تفسير الصافي ١: ٣٣٩.

٦. الكافي ٥: ٢/٦٠، التهذيب ٦: ٣٦٢/١٧٨، تفسير الصافي ١: ٣٣٩.

٧. نهج البلاغة: ١٠٥/١٥٢، تفسير الصافي ١: ٣٣٩. ٨. نهج البلاغة: ١٢٩/١٨٨، تفسير الصافي ١: ٣٣٩.

وعن القُمّي: عن الباقر عليه السلام، في هذه الآية، قال: «فهذه لآل محمّد صلى الله عليهم ومَنْ تابَعهم يدعُون إلىٰ الخَير، ويأمرون بالمَعروف، ويَنهَون عن المُنكر»[1].

﴿وَ لَا تَكُونُوا﴾ أيُّها المُؤمنون في خُبث النّفس، وحُبّ الدُّنيا، واتّباع الشَّهوات ﴿كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا﴾ بالقُلوب، وتَباينوا بالأخلاق، وتشتّتوا بالأهواء ﴿وَٱخْتَلَفُوا﴾ في العَقائد كاليَهُود والنَصارىٰ؛ حيث صاروا فِرَقاً كثيرةً ﴿مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ﴾ من قِبَل الله الآيات ﴿ٱلْبَيِّنَاتُ﴾ والدّلائِل الواضِحات علىٰ الحَقّ، مِن التَوحيد والتّنزيه وأحوال المَعاد، معَ أنّ كَثرة الدّلائِل علىٰ شيءٍ ووُضُوحها مُوجِبة للاتّفاق عليه ﴿وَأُولٰئِكَ﴾ المُتفرّقون بالقُلوب، المُختلفون في العقائد الفاسِدة مُعَدٌّ ﴿لَهُمْ﴾ عندَ الله﴿عَـذَابٌ عَظِيمٌ﴾ عُقوبة علىٰ تفرّقهم واختِلافهم.

في نقل كلام بعض العامة في عدم تحقق الاتفاق إلّا بالإمام

وقال بعضُ العامّة: لمّا أمر الله هذه الأُمّة بالأمر بالمعروف والنَّهي عن المُنكر ـ وذلك لا يتِمّ إلّا إذا كان الآمر بالمعروف والنّاهي عن المُنكر قادِراً علىٰ تَنفيذ هذا التّكليف علىٰ الظَّلَمة والمُتغلِّبين، ولا تحصُل هذه القُدْرة إلّا إذا حصَلتْ الأُلفة والمَحبّة بَيْن أهل الحَقّ والدِّين ـ فلا جَرَم حذّرهم الله عن التَفرُّق والاختِلاف، لكَيْلا يصير [ذلك] سبباً لعَجْزهم عن القِيام بهذا التّكليف.

فعلىٰ المُؤمنين أن يترُكوا مُقتضىٰ طِباعهم من اتّباع الهَوىٰ، ويتّفقوا علىٰ كلمةٍ واحِدةٍ باتّباع إمامٍ داعٍ إلىٰ الله علىٰ بصيرة، كالرّسُول وأصحابة، يجمَعهم علىٰ طريقة واحِدة، فإنْ لَم يكُن مُقتدىً وإمام تتّحِد عقائِدُهم وسِيَرُهم وآراؤهم بمُتابعته، وتتّفق كلِمتُهم وعاداتُهم وآهواؤهم لمحبّته وطاعته، كانوا مُتفرّقين، فَرائِس للشّيطان، كشَريدة الغَنم تكون للذِّئب.

ولهذا قال أمير المؤمنين عليه السلام: «لا بُدّ للنّاس مِن إمامٍ بارّ أو فاجر، ولَمْ يرسِل رَسُول الله صلى الله عليه وآله رجُلين فصاعِداً لشأنٍ إلّا وأمرَ أحدَهما علىٰ الآخَر، وأمَر الآخَرَ بمُتابعته وطاعته، ليتّحِد الأمر وينتظِم، وإلّا وقَع الهَرج والمَرج، واضْطرب أمر الدِّين والدُّنيا، واختَلّ [نظام] المَعاش والمَعاد»[2].

قال صلى الله عليه وآله: «مَنْ فارَق الجَماعة قَيْدَ شِبْرٍ لَمْ يَرَ بُحْبُوحة[3] الجَنّة».

وقال صلى الله عليه وآله: «يَدُ الله مَع الجَماعة»، فإنّ الشيطان معَ الفَذِّ[4]، وهُو مِن الاثنين أبعد، ألَا ترىٰ أنّ الجمعيّة الإنسانيّة إذا لَم تنضبِط برئاسة القَلْب وطاعة العَقل كيف اختَلّ نظامُها، وآلت إلى الفَساد والتّفرّق

---

١. تفسير القمي ١: ١٠٩، تفسير الصافي ١: ٣٣٩.

٢. تفسير روح البيان ٢: ٧٥.

٣. بحبوحة الشيء: وسطه وخياره.

٤. الفَذّ: الفرد المتفرّد.

المُوجب لخَسارة الدُّنيا والآخِرة[1].

أقول: إذا كان وُجود الإمام مُرتبطاً بالنِّظام الأتَمّ ـ كما أنّ وجُود القَلب والعَقل مُرتبطٌ بِنظام الجَمعيّة الإنسانيّة ـ كان واجباً علىٰ الله نصْبُه، والدّلالةُ عليه، وإيجابُ طاعته، وإلّا لزِم خِلاف الحِكْمة واللُّطف، ولا يُمكِن تَفْويض تَعْيِينه ونَصْبه إلىٰ الخَلْق؛ لأنّه مُوجِبٌ للاخْتِلاف والفُرْقة، ونَقْض الغَرَض، كما وقَع ذلك في السَّقيفة وفي الصَّحابة بعدَ النبيّ ﷺ.

وأمّا نَهْيه ﷺ عن مُفارقة الجماعة فلا شُبْهة في أنّ مَقصُوده الجَماعة التي تكون علىٰ الحَقّ، لا كُلّ جَماعة، لوضُوح أنّ إبراهيم فارَق جماعة أهل العالَم، ولَم يكُن مَلُوماً مَذمُوماً، وبعدَ دَلالة الأدلّة القاطِعة علىٰ نَصْب الله عليّاً عليه السلام للخِلافة تعيّن أنّ الجماعة الذين أمرنا باتِّباعهم، وبالدُّخول فيهم، هُم: سَلمان، وأبو ذَرّ، ومِقْداد، وعَمّار، وأضرابهم لا الجماعة الذين بايعوا أبا بَكْر، ونقضوا البَيْعة.

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّت وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ * وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[١٠٦ و ١٠٧]

ثمّ بالغ سُبحانه في الوَعْد علىٰ الاجْتِماع، والوَعيد علىٰ التفرّق والاختلاف، بقوله: **﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾** كثيرة بنُور الإيمان وضِياء المَلَكات الجميلة **﴿وَتَسْودُّ وُجُوهٌ﴾** كثيرة بظُلْمة الكُفر، وكُدْرَة الأخلاق السَّيِّئة.

وَنَصْب (يومَ) إمّا لَكَوْنه ظرفاً لمُتعلّق الجار، أو لكَوْنه مَفعولاً لـ(اذكرُوا) المُقدّر.

قيل: يُوسَم أهل الحَقّ ببَياض الوَجْه، والصَّحيفة، وسَعْي النُّور بَيْن أيديهم وبأيْمانهم. وأهل الباطل بأضداد ذلك.

وقيل: إنّ بَياض الوَجْه كِناية عن الفَرح والسُّرور بالفوز بالمَطلُوب، وسوَاده كِناية عن الخَيْبة مِنه ووُصول المَكرُوه؛ كما قال تعالىٰ: **﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً﴾**[2]

ثمّ بعدَ بَيان سِيماء الفَريقين مِن الحُسْن والقَباحة بيّن سُبحانه مُعاملته معهما بقوله: **﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّت وُجُوهُهُمْ﴾** يُقال لهم تَوْبيخاً وتَقْريعاً: **﴿أَكَفَرْتُم﴾** بالرّسُول ﷺ وبدِين الإسلام **﴿بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾** وتَصْديقكم عن صَميم القَلب، واعْتِرافكم لِساناً وجَناناً بهما؟!

عن أُبَيّ بن كعب: أي في عالَم الذَّرّ[3].

---

١. تفسير روح البيان ٢: ٧٦.
٢. النحل: ٥٨/١٦.
٣. مجمع البيان ٢: ٨٠٨.

وقيل: يعني قَبْل بِعثة محمّد ﷺ أو بعدَ إيمان أسلافكم به[١].

وعلىٰ الوَجهَين الأخيرين يكون العِتاب خاصّاً بأهل الكِتابَين.

وقيل: أُريد خُصوص بني قُرَيظة والنّضير.

وقيل: عُموم أهلِ البِدَع مِن هذه الأُمّة[٢]، أو المُرتدِّين في زمان النبيّ ﷺ وبعده.

عن الثّعلبي في تفسيره: عن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده، ليَرِدَنّ علَيّ الحَوض مِمَن صحِبَني أقوامٌ، حتّىٰ إذا رأيتهم اختَلجوا دُوني، فلأقولَنّ: أصحابي أصحابي، فيُقال لي: إنّك لا تدري ما أحدثوا بعدَك، إنّهم[٣] ارْتدّوا علىٰ أعقابهم»[٤].

وفي رِواياتٍ كثيرة: ارتّد النّاس بعدَ رَسُول الله ﷺ إلّا خمسة[٥].

وعلىٰ أي تقديرٍ يُقال لهم: إذَن ﴿فَذُوقُوا﴾ واطْعَموا ﴿العَذابَ﴾ في هذا اليوم ﴿بِما كُنتمْ تكفُرُونَ﴾.

قيل: إنّ الفُصحاء مُتفقون علىٰ أنّ مِن المُحسّنات البَديعيّة أن يكون مَطْلَع الكلام ومَقْطعه ماتُسَرّ به القُلوب[٦]؛ ولذا بدأ في الآية ببِيض الوُجوه وختمَها بذِكْر حالهم، بقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ بنُور الإيمان والطّاعة ﴿فَفِي رَحْمَةِ اللهِ﴾ مِن جَنّته ونِعَمه مُستقرّون، و﴿هُم﴾ خاصّة ﴿فِيهَا خَالِدُونَ﴾ دائِمون، لا يخرُجون مِنها، ولا يمُوتون.

قيل: في الآية إشعارات بغَلَبَة جانِب الرَحمة؛ حيثُ ابتدأ فيها بذِكْر أهلِ الرَحمة وختَمها بهم، وعبّر عن تَعذيب الكُفّار بالذّوْق، وعن إثابة المُؤمنين بالاسْتِقرار في الرّحمة، وعلّل العذاب بالكُفْر المُستنِد إلىٰ أنفسهم، والثّواب بالرّحمة المُضافة إلىٰ ذاته المُقدّسة، ولَم يُصرّح بخُلود الكُفّار في العذاب، معَ كَوْنهم خالِدين فيه، وصرّح بخُلود أهل الرّحمة فيها.

عن القُمّي ﵀، عن أبي ذَرّ ﵁، قال: لمّا نزلَتْ هذه الآية ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ قال رَسُول الله ﷺ: «ترِدُ عَلَيّ أُمّتي يومَ القِيامة علىٰ خَمس رايات؛ فرايةٌ مع عِجْل هذه الأُمّة، فأسألُهم: ما فعلتّم بالثّقَلين [من] بعدي؟ فيقولون: أما الأكبر فحرّفناه[٧] ونبَذناه وراء ظُهورنا، وأمّا الأصغر فعاديناه

---

١. مجمع البيان ٢: ٨٠٨.
٢. مجمع البيان ٢: ٨٠٩، تفسير الرازي ٨: ١٧٣.
٣. في المصدر: بعد إيمانهم.
٤. مجمع البيان ٢: ٨٠٩.
٥. راجع: رجال الكشي: ٨/١٧ و١١/٢٤ وفيه: ارتدّ الناس إلّا ثلاثة.
٦. تفسير الرازي ٨: ١٧٢.
٧. الظاهر أنه ليس المراد بالتحريف هنا الزيادة والنقصان، للاجماع علىٰ سلامة القرآن الكريم من التحريف بهذا المعنى، بل لعلّ المراد بالتحريف هنا التأويل الباطل الذي يخرج بالنص القرآني عن معناه الصحيح الموافق لمراده تعالى، ويؤيد ذلك حديث الإمام الباقر ﵇ في مراسلته لسعد الخير والتي جاء فيها: «وكان من نبذهم الكتاب أن ←

وأبغضناه وظلمناه، فأقول: رِدُوا النّار ظِماءً مُظمئين مُسودّة وُجوهكم.

ثمّ تردُ عَلَيّ رايةٌ معَ فِرعون هذه الأُمّة، فأقول لهم: ما فعلتم بالثّقلَين مِن بعدي؟ فيقولون: أمّا الأكبر فحرّفناه ومزّقناه وخالفناه، وأمّا الأصغر فعاديناه وقاتلناه، فأقول: رِدُوا النّار ظِماءً مُظمئين مُسودّة وُجوهكم.

ثمّ تردُ عَلَيّ رايةٌ معَ سامري هذه الأمّة، فأقول [لهم]: ما فعلتّم بالثّقلَين مِن بعدي؟ فيقولون: أمّا الأكبر فعصَيناه وترَكناه، وأمّا الأصغر فخذلناه وضيّعناه، فأقول: رِدُوا النّار ظِماء مُظمئين مُسودّة وُجوهكم.

ثمّ تردُ عَلَيّ رايةُ ذي الثُّدَيّة معَ أوّل الخَوارج وآخرهم، فأقول: ما فعلتّم بالثّقلَين مِن بعدي؟ فيقولون: أمّا الأكبر فمزّقناه وبرئنا مِنه، وأمّا الأصغر فقاتلناه وقتلناه، فأقول: رِدُوا النّار ظِماء مُظمئين مُسودّة وُجوهكم.

ثمّ تردُ عَلَيّ رايةُ إمام المُتّقين، وسَيّد الوصيّين، وقائِد الغُرّ المُحجّلين، ووصِيّ رَسُول ربّ العالَمين، فأقول لهم: ما فعلتّم بالثّقلَين مِن بعدي؟ فيقولون: أمّا الأكبر فاتّبعناه وأطعناه، وأمّا الأصغر فأحببْناه وواليناه ونصَرناه، حتّىٰ اُهريقت فيه دماؤنا، فأقول: رِدُوا الجنّة رِواء مَرويِّين، مبيضّة وُجوهكم»، ثمّ تلا رَسُول الله ﷺ: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ إلىٰ قوله ﴿خَالِدُونَ﴾[1].

وفي هذه الرِّواية شَهادة علىٰ أنّ المُراد بالآية أهل البِدَع والأهواء الزّائِغة مِن هذه الأُمّة، وقد رُوي ذلك عن أمير المؤمنين عليه السلام. أو المُراد عُموم المُرتدّين وأهل البِدَع مِنهم.

تِلْكَ آيَاتُ ٱللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالحَقِّ وَمَا ٱللهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعَالَمِينَ * وَلِلهِ مَا فِى ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ[١٠٨ و ١٠٩]

ثمّ أشار سُبحانه إلىٰ دَلالة هذه الآيات علىٰ صِدْق النُّبوّة، بقوله: ﴿تِلْكَ﴾ الآيات المُبشّرة للمُؤمنين ببَياض الوَجه في الآخِرة والنِّعَم الأبدية والمُنذِرة للكافِرين بسَواد الوَجه والعذاب الدّائِم، العالي شأنها من أن يطّلِع عليها أحدٌ إلّا بالوَحْي ﴿آيَاتُ ٱللهِ﴾ ودَلائِله القاطِعة، التي أنزلها لإثبات كَونك بشيراً ونذيراً مِن جانِب الله، حيثُ إنّها ـ لعُلوّ معانيها وإعجاز عِباراتها ـ تُنادي بأنّها ليسَتْ مِن البَشر، بَل ﴿نَتْلُوهَا﴾ ونقرؤها ﴿عَلَيْكَ﴾ يا محمّد بوساطة جبْرئيل، حالَ كَونها مُلتبِسة ﴿بِالحَقِّ﴾ والعَدل،

← أقاموا حروفه وحرّفوا حدوده، فهم يروونه ولا يرعونه ـإلىٰ أن قال عليه السلام ـ: وكان من نبذهم الكتاب أن ولوه الذين لا يعلمون فأوردوهم الهوى، وأصدروهم إلىٰ الردى، وغيروا عرى الدين» الحديث. الكافي ٨: ٥٣/١٦.

١. تفسير القمي ١: ١٠٩.

ليس فيها شائبة الجَوْر مِن انتِقاص الثّواب عن حَدّ الاستِحقاق، وزيادة العِقاب عليه ﴿وَمَا ٱللَّهُ﴾ الحَكيم الغنيّ المُنزّه مِن كُلّ نقصٍ وعَيب ﴿يُرِيدُ ظُلْماً﴾ بوَجْهٍ مِن الوُجوه ولَو مِثقال ذرّة ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ مِن الأوّلين والآخِرين، فإذا لَم يُمكِن تحقُّق إرادته مِنه تعالىٰ لكَوْنه مِن أقبح القبائِح، فكيف يُمكِن صُدوره مِنه تعالى؟ لوُضوح أنّ العاقِل لا يرتكِب القبيح إلّا للجَهل، أو شِدّة الضرورة والحاجة.

﴿وَلِلَّهِ﴾ وحدَه بالمُلْكية الحقيقيّة الإشراقيّة ﴿مَا﴾ وُجِد ﴿فِى ٱلسَّمَاوَاتِ﴾ السَّبْع كلّها ﴿وَمَا﴾ يكون ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كافّة مِن المَوجُودات الخارجة مِن الحَصر ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾ وإلىٰ حُكْمه وقضائِه خاصّة ﴿تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ مِن الإيجاد والإعدام، والإحياء والإماتة، والتّصرُّف والتّربيَة، والإثابة والعُقوبة، لا يشركه فيها نِدٌّ، ولا يُزاحِمه فيها ضِدٌّ، فإذن كان عِلْمه بلا نِهاية، وقُدْرته بلا غاية، وغَناؤه غير مَحدود، وعطاؤه غير مَجذوذ.

كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ مِنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَاسِقُونَ[١١٠]

ثمّ أنّه تعالىٰ ـ بعدَ أمر المُؤمنين بالاتّفاق علىٰ الحَقّ، والدّعْوة إلىٰ طاعته، ونَهيهم عن الفُرْقة والاختِلاف، ووَعْد المُطيعين، ووَعِيد العاصين ـ مدَح المُتّفقين السّاعين في الإرشاد مِنهم، بقوله: ﴿كُنتُمْ﴾ في عِلْمي، وفي اللّوح المَحفوظ عندي ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ مِن الأُمَم، وأفضلهم في العالَم.

عن الصادق عليه السلام قال: «يعني الأئمّة[١] التي وجَبتْ لها دَعْوة إبراهيم عليه السلام، فهُم الأمّة التي بعَث الله فيها ومِنها وإليها، وهُم الأمّة الوُسْطىٰ، وهُم خَير أُمّةٍ أُخرِجت للنّاس»[٢].

وعن العياشي: عنه عليه السلام قال: «في قراءة عليّ: (كُنتُم خيرَ أئمّة أُخرِجتْ للنّاس)، قال: هُم آل محمّد صلى الله عليه وآله»[٣].

وعنه عليه السلام قال: «إنّما نزلَتْ هذه الآية علىٰ محمّد فيه وفي الأوصياء خاصّة، فقال: (أنتم[٤] خير أئمّة أُخرِجت للنّاس تأمرون بالمعروف وتَنْهَون عن المُنكر) هكذا نزَل بها جَبْرئيل، وما عنىٰ بها إلّا محمّداً وأوصياءه»[٥].

---

١. في تفسير العياشي: الأُمّة.
٢. تفسير العياشي ١: ٧٦٩/٣٣٥، تفسير الصافي ١: ٣٤٣.
٣. تفسير العياشي ١: ٧٦٧/٣٣٥، تفسير الصافي ١: ٣٤٢.
٤. في تفسير العياشي: كنتم.
٥. تفسير العياشي ١: ٧٦٨/٣٣٥، تفسير الصافي ١: ٣٤٢.

أقول: قد مرّ أنّ المُراد مِن إنزال جَبْرئيل تفسيره حين إنزالها (خير اُمّة) بالأئمّة، لا وُقوع التّحريف فيها، وعليه تُحمَل سائِر الرِّوايات.

وعن القُمّي رحمه الله عنه عليه السلام أنّه قُرئ عليه **﴿كُنتُم خيرَ اُمّةٍ اُخرِجتْ للنّاس﴾** فقال [أبو عبدالله عليه السلام]: «خير اُمّة] يقتلُون أمير المُؤمنين، والحسَن والحُسين عليهما السلام؟!» فقال القارئ: جُعلت فِداك، كيف نزَلَت؟ فقال: «نزلَتْ (كنتُم خيرَ أئمّةٍ اُخرِجتْ للنّاس) ألا ترىٰ مَدْح الله لهم: **﴿تأمُرونَ بالمَعرُوفِ وتَنْهَونَ عَن المُنكَرِ وتُؤمِنُونَ باللهِ﴾**؟»[1].

وعن (المناقب): عن الباقر عليه السلام أنّه: «خير اُمّة[2] بالألف، نزَل بها جبْرئيل، وما عنىٰ بها إلّا محمّداً وعليّاً والأوصياء مِن وُلْده»[3].

قال بعضُ العامّة: لو شاء الله تعالىٰ لقال: (أنتُم خيرُ اُمّةٍ) حتّىٰ يشمُل جميع الاُمّة إلىٰ يوم القِيامة، ولكن قال: **﴿كُنتُم خيرَ اُمّةٍ﴾** ليختصّ بالمَخصُوصين، وقوم مُعيّنين مِن أصحاب الرّسُول صلّى الله عليه وآله؛ وهُم السّابقون الأوّلون.

ورُوي مِن طريقٍ عامّيّ عن سَعيد بن جُبَير، عن ابن عبّاس رضي الله عنه: **﴿كُنتُم خيرَ اُمّةٍ﴾** الّذِين هاجروا معَ رَسُول الله صلّى الله عليه وآله إلىٰ المدينة[4].

وعن الضّحّاك: أنّهم أصحاب رَسُول الله صلّى الله عليه وآله خاصّة[5].

أقول: لا رَيْب أنّ المُراد مِن (الاُمّة) في الآية ليسَ جميعهم إلى يومِ القِيامة، ولا جميع الحاضِرين في زمان الخِطاب مِن الصّحابة، للقَطع بفِسْق كثيرٍ مِنهم؛ كأبي سُفيان ومُعاوية. ولا دَليل علىٰ تَعْيين خُصُوص المُهاجرين، بعدَ القَطع بعدَم إرادة المعنىٰ الحقيقي وهُو العُموم، فلابُدّ مِن حَملها علىٰ المُتيقّن وهُو أمير المُؤمنين ومَن يحذو حَذْوه.

في بيان عدم حجية الاجماع إلّا بموافقة رأي المعصوم

وقال الفخر الرازي في تفسيره: احتجّ أصحابُنا بهذه الآية علىٰ أنّ إجماع الاُمّة حُجّة[6]. وفيه مُضافاً إلىٰ مَنْع الدّلالة: أنّ المُراد إنْ كان اتّفاق جميع الاُمّة ـ كما هُو ظاهِر اللّفظ ـ فنحنُ نقول به، لكِن لا مِن حيثُ الاتّفاق، بَل لوُجود الإمام المعصُوم الذي هُو أفضل الاُمّة فيهم. وإن كان المُراد اتّفاق بعضِهم، فمعَ أنّه ليس بإجماع حقيقةً [فانّ] إرادة خُصوص أهل البيت ـ الذين أذهب الله عنهم الرِّجس وطهّرهم تطهيراً، وقال النبيّ صلّى الله عليه وآله: «إنّهم حَبْلُ الله»[7]،

---

١. تفسير القمي ١: ١١٠، تفسير الصافي ١: ٣٤٢.
٢. في المصدر: أنتم خير اُمّة اُخرجت للنّاس.
٣. مناقب ابن شهر آشوب ٤: ٢، تفسير الصافي ٢: ٣٤٣.
٤. تفسير أبي السعود ٢: ٧١.
٥. تفسير أبي السعود ٢: ٧١.
٦. تفسير الرازي ٨: ١٧٨.
٧. كتاب سليم بن قيس: ١٣٤.

وأوجب حُبّهم وولايتهم ـ أولىٰ مِن إرادة غيرهم، مع أن قوله تعالى: ﴿أُخْرِجَتْ﴾ وأبرزتْ مِن كتَمْ العدَم، نَفعاً ﴿لِلنَّاسِ﴾ قَرينة ظاهِرة علىٰ إرادة خُصُوص جماعة يكون وُجودُهم نافعاً لعامّة الخَلق، ولُطفاً تامّاً مِن الله تعالىٰ بكافّة الأنام إلىٰ يوم القِيامة، وليسَتْ إلّا الأئمّة الاثني عشر الّذين نعتقِد بأنّهم أوصياء الرّسُول، وحُجَج الله علىٰ العِباد.

وما رواه التّرمذي عن بَهْز بن حكيم، عن أبيه، عن جدّه أنّه سمِع النبيّ ﷺ يقول في قوله تعالى: ﴿كُنتُم خَيْرَ أُمَّةٍ أُخرِجَتْ﴾: «أنتم[١] تتِمُّون سَبعين أمّة، أنتم خيرُها وأكرمها علىٰ الله»[٢] فمحمُولٌ ـ علىٰ تقدير صِحّتها ـ علىٰ كَوْن هذه الأمّة أكرم مِن حيث كرامة نبيِّها، وكمال دِينها، وأفضليّة أئمّتها. فلا يُنافي كَوْن كثيرٍ مِنهم أشقىٰ الأمَم.

ومِن شواهِد كَوْن (خير أمّة) خصُوص الهُداة المَهديِّين: تَعْليله تعالىٰ خَيْريّتهم بقوله: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ﴾ فإنّه يخصّ الوَصْف بالّذين يكون همّهم في تربِية الخَلْق وتكميل نُفوسهم.

ثمّ بقوله: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾ إيماناً خالِصاً عن شَوْب الشِّرْك الجَلِيّ والخَفِيّ والأخفىٰ، ومِن المَعلُوم أنّه كمال لا يكون إلّا للأوحَدِي مِن هذه الأمّة.

قيل: إنّ تأخير الإيمان بالله في الذِّكْر علىٰ الأمر بالمعروف والنّهْي عن المُنكر معَ تقدّمه عليهما في الوُجود، لكَوْن دَلالتهما علىٰ خَيْرهم ونَفْعهم للنّاس أظهر مِن دَلالته عليه، ولأن يقترِن به قوله: ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ ٱلكِتَابِ﴾ مِن اليَهُود والنّصارىٰ بوَحدانيّة الله، ورِسالة رَسُوله، وبدِين الإسلام، عن صَميم القَلب، كإيمانكم ﴿لَكَانَ﴾ ذلِك ﴿خَيْراً لَهُم﴾ وأنفع في الدُّنيا والآخرة مِن الكُفر والرّئاسات الباطِلة والزّخارف الدُّنيويّة؛ حيثُ إنّ بالإيمان يُجمَع لهم حُظُوظ الدّارَيْن.

ثمّ لمّا كان لفظ (أهل الكتاب) في القضيّة الشّرطية ظاهِراً في عُمومهم، نصّ الله سُبحانه بإيمان بعضِهم بقوله: ﴿مِنْهُمُ ٱلمُؤْمِنُونَ﴾ كعبدالله بن سَلّام وأضرابه ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلفَاسِقُونَ﴾ المُتمرّدون عن طاعة الله، المُصرّون علىٰ مُخالفته، الخارِجون عن حُدود دِينه، في اعتِقادهم وعندَ أهل مِلّتهم.

لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذىً وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ[١١١]

ثمّ لمّا كان تَوْصيف الكافرين بالكثرة مُوهِماً لقوّتهم وغَلَبتهم، بشّر الله المُؤمنين اطْمِئناناً لقُلوبهم بأنّهم ﴿لَن يَضُرُّوكُم﴾ أبداً بوَجْه مِن الوُجوه، مع كَثْرتهم ﴿إِلَّا أَذىً﴾ قليلاً، وألماً يسيراً، لا عِبرة به

---

١. في المصدر: قال: إنكم.

٢. سنن الترمذي ٥: ٣٠٠١/٢٢٦.

ولا التِفات إليه، كالطَّعْن باللّسان، والإساءة بالقول، والسَّعْي في الإضلال.

﴿وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ﴾ يتظاهروا علىٰ حَربكم، لا يُقاوموكم، بَل ﴿يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ ويُلجئهم الخَوفُ مِن بأسكم إلىٰ الفِرار، مِن غيرِ أن يُصيبوكم بقَتْلٍ، أو جُرحٍ، أو أسْر ﴿ثُمَّ﴾ بعدَ انْهِزامهم ﴿لَا يُنصَرُونَ﴾ مِن جِهة أحَدٍ، ولا يتقوّون بمَدَدٍ، ولا يُتوقّع لهم شَوْكة، ولا يُنتظر لهم قُوّة.

وفيه تَثْبيت لمَنْ آمن مِنهم وبِشارة بأنّهم لا يُفارقون الخِذلان، ولا ينهَضون بجَناح، ولا ترجِع إليهم سُلْطة ونَجاح، كما كان مِن حال بَني قُريظة، والنضير، وقَينُقاع، ويَهُود خَيبر.

ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ ٱللهِ وَحَبْلٍ مِنَ ٱلنَّاسِ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِنَ ٱللهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ ٱللهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ[١١٢]

ثمّ أكّد خِذلانهم بقوله: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ﴾ وأحاطت بهم ﴿ٱلذِّلَّةُ﴾ والمَهانة، كإحاطة الفُسطاط المَضروب بأهله ﴿أَيْنَ مَا ثُقِفُوا﴾ وفي أي مكان كانوا، وإلىٰ أي حالٍ تحوّلوا ﴿إِلَّا﴾ إذا تمسّكوا ﴿بِحَبْلٍ﴾ وَثيقٍ كائِن ﴿مِنَ ٱللهِ﴾ واعتَصموا بدِينه القَويم، وكِتابه الحكيم ﴿وَحَبْلٍ﴾ مَتين ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ وهُو ولاية أهل بيت النبيّ صلوات الله عليهم ومُتابعتهم، لنَصّ النبيّ ﷺ في خَبَر الثَّقلَين، المُتّفق علىٰ رِوايته بأنّ كِتاب الله والعِتْرة حَبلان مَمْدودان، مَنْ تمسّك بهما لَن يُضلّ أبداً[١].

وعن العياشي: عن الصادق عليه السلام قال: «الحَبْل مِن الله: كِتاب الله، والحَبْل من النّاس: عليّ بن أبي طالب عليه السلام»[٢].

والعَجَب مِن مُفسّري العامّة أنّهم فسّروا الحَبل مِن النّاس بذِمّة المُسلمين[٣]، ولم يحتمِلوا إرادة العِترة الطّاهرة مِنه، معَ أنّ دَأبهم في التّفسير التّمسّك بأضعف الشّواهد.

ثمّ اعْلَم أنّ في هذه الآيات دَلالةً ظاهِرةً علىٰ صِدْق النبيّ ﷺ في دَعْوىٰ النُّبوّة، لأنّها أخبار صادِقة بالمُغيّبات، لوُقوع جميع ما أخبر به كما أخبر، حيثُ إنّ اليَهُود لَم يُقاتلوا المُسلمين إلّا انْهزموا، وما أقدموا علىٰ مُحاربةٍ، ولا طلَبوا رِئاسةً إلّا خُذِلوا.

إنْ قيل: أهل الكِتاب شامِل للنّصارىٰ، معَ أنّهم لَم يَزالوا في شَوكة وسَلْطنة قاهِرة إلىٰ عصرِنا هذا، فكيف طابق الخَبَر المُخْبَر؟

---

١. مجمع البيان ٢: ٨٠٥.
٢. تفسير العياشي ١: ٧٧٠/٣٣٦، تفسير الصافي ١: ٣٤٣.
٣. تفسير أبي السعود ٢: ٧٢، تفسير روح البيان ٢: ٧٩.

قُلنا: اتّفق المُفسّرون على أنّ المُراد مِن الآيات خُصوص اليَهُود، ويشهَد لذلك ما رُوي في شأن نُزولها: مِن أنّ مالك بن الصّيف ووهب بن يهوذا اليَهُوديِّين، مَرّا بنَفَرٍ مِن أصحاب النبيّ ﷺ وفيهم ابن مسعُود، وأُبَيّ بن كعب، ومُعاذ بن جَبَل، وسالِم مَولىٰ حُذيفة، فقالا لهم: نحنُ أفضل مِنكم ودِينُنا خيرٌ مِمّا تدعوننا إليه. فنزلت [الآية][1].

ثمّ بيّن الله سُبحانه سُوء حالهم في الآخرة بقوله: ﴿وَبَاءُو﴾ ورجَعوا في الآخرة، أو المُراد تمكّنوا واستقرّوا ﴿بِغَضَبٍ﴾ وعذابٍ عظيمٍ كائِنٍ ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ العظيم. وفيه أشدّ التّهديد.

ثمّ لمّا كان هَمّ اليَهُود في الرّئاسات الباطِلة والحُطام الدنيوي، زاد سُبحانه في تَهديدهم بالأخبار بحِرْمانهم مِنها في الدُّنيا بقوله: ﴿وَضُرِبَتْ﴾ واشتَملت ﴿عَلَيْهِمُ﴾ اشتِمال القُبّة علىٰ مَن فيها ﴿ٱلْمَسْكَنَةُ﴾ والفَقْر والمَقْهورية، في أيدي المُسلمين وسائر المِلَل، فلا يكون لهم مُلْك وسُلْطان ورئاسة وثَروة ظاهِرة، حيثُ إنّهم وإنْ كثُرت ثَرْوتهم يُظهِرون الفَقْر بيْن النّاس.

وقيل: إنّ المُراد بالمَسْكنة هِي الجِزْية[2].

ثمّ أشار سُبحانه إلىٰ عِلّة هذه العُقوبات بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ المَذكور مِن الشّدائد الدُّنيويّة والأُخرويّة مُعلّل ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا﴾ مِن زمان بِعْثة محمّد ﷺ علىٰ الاستِمرار ﴿يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ ٱللَّهِ﴾ النّاطقة بنُبوّته، ويُنكِرون علائِمه المَذكورة في التّوراة، ويُحرِّفون عِباراتها المُبشِّرة ببَعثه، الدّالّة علىٰ أوصافه وعَلائِمه، ويجحَدون إعجاز القُرآن وسائر مُعجزاته ﴿وَ﴾ بأنّهم كانوا ﴿يَقْتُلُونَ ٱلْأَنبِيَاءَ﴾ مِن بني إسرائيل، كزكريّا، ويحيىٰ وغيرِهما، مع عِلْمهم بأنّ قَتْلهم ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ يُوجبه أو يُجوّزه.

قيل: إنّ إسناد القَتل إلىٰ الّذين كانوا في زمان النبيّ ﷺ لِرضاهم بفِعْل أسلافهم، وتَصْويبهم له[3].

عن (الكافي) والعيّاشي: عن الصادق عليه السلام: «والله ما قتلوهم بأيديهم، ولا ضرَبوهم بأسيافهم، ولكنّهم سِمعوا أحاديثهم فأضاعوها، فأُخِذوا عليها فقُتِلوا»[4].

أقول: الظّاهِر أنّ المُراد مِن الرّواية بَيان وَجْه نِسبْة قَتْلهم إلىٰ مُؤمني بني إسرائيل، معَ وُضوح عدَم مُباشرتهم له، وإنّما كان المُباشر مِنهم.

ثمّ بيّن الله عِلّة بُلُوغهم إلىٰ هذه الدّرَجة مِن الشّقاوة بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ المَذكور مِن الكُفْر والطُّغْيان مُعَلّل ﴿بِمَا عَصَوا﴾ الله وخالَفوا أوامره ونَواهيه، ومُسبّب عن الإصرار علىٰ صَغائر الذُّنوب وكبائِرها،

---

١. تفسير أبي السعود ٢: ٧١.
٢. تفسير الرازي ٨: ١٨٥.
٣. تفسير روح البيان ٢: ٧٩.
٤. الكافي ٢: ٦/٢٧٥، تفسير العياشي ١: ٧٧٠/٣٣٦، تفسير الصافي ١: ٣٤٣.

﴿وَ﴾ بما ﴿كَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [علىٰ] حُدود الله، ويُداوِمون علىٰ التّجاوز عنها، مِن غيرِ مُبالاة، ولا ازعِواء.

فإنّ الإصرار علىٰ الصّغائر مُفضٍ إلىٰ مُباشرة الكبائِر، والاسْتِمرار علىٰ الكبائِر مُوجبٌ لزَيْغ القَلب وطَبْعه المُلازم للكُفر والطُّغيان، وإليه أشار سُبحانه بقوله: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[1] وقوله: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَكَانُوا بِهَا يَستَهزِءُونَ﴾[2].

قال بعضُ العُرفاء: مَنْ ابتُلي بتَرْك الأدَب وقَع في تَرْك السُّنَن، ومَنْ ابتُلي بتَرْك السُّنَن وقَع في تَرْك الفريضة، ومَن ابتُلي بتَرْك الفريضة وقَع في استِحقار الشّريعة، ومن ابتُلي بذلك وقَع في الكُفر[3].

وعن النبيّ ﷺ قال: «لا يبلُغ العبدُ أن يكون مِن المُتّقين حتّىٰ يدَعَ ما لا بأس به حَذَراً مِمّا به البأس»[4].

وعنه ﷺ في رِوايةٍ: «ومَن ارتكَب الشُّبُهات وقَع في المُحرّمات؛ كالرّاعي حَول الحِمىٰ يُوشِك أن يقَع فيه»[5].

لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ [۱۱۳ و ۱۱٤]

ثمّ أنّه تعالىٰ ـ بعدَ ذَمّ أكثر أهلِ الكِتاب بسُوء اعتِقادهم وأخلاقهم وأعمالهم، وتَهديدهم علىٰ كُفرهم وطُغيانهم ـ ذكَر التّبايُن بَيْنهم وبَيْن المؤمنين مِنهم بقوله: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ في الاتّصاف بالكُفر والقبائِح، ولا يكونون مُشاركين ولا مُشابهين فيها.

ثمّ شرَع في مَدْح مَن آمن مِنهم بالرّسُول ﷺ، وبَيان عدَم المُساواة بينهم بقوله: ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ كعبدالله بن سَلَام وأضرابه.

رُوي أنّه لمّا أسلم هُو وأصحابه قال لهم بعضُ كِبار اليَهود: لقد كفرْتُم وخسَرتُم، فأنزَل الله لبَيان فَضلهم هذه الآية[6].

وقيل: إنّها نزلَتْ في أربعين مِن نَصارىٰ نَجْران، واثنين وثلاثين مِن الحَبشة، وثلاثة من الرّوم كانوا

---

۱. المطففين: ۱٤/۸۳. ۲. الروم: ۱۰/۳۰. ۳. تفسير روح البيان ۲: ۸۰.
٤. سنن الترمذي ٤: ۲٤٥۱/٦۳٤، تفسير روح البيان ۲: ۸۰. ۵. تفسير روح البيان ۲: ۸۰.
٦. تفسير الرازي ۸: ۱۸۷.

علىٰ دِين عيسىٰ، وصدّقوا محمّداً ﷺ، وكان جَمْع مِن الأنصار ـ قَبل قُدوم النبيّ ﷺ ـ مِنهم: أسعد بن زُرارة، والبَرَاء بن معرور، ومحمّد بن مَسْلَمة، وأبو قيس صِرْمة بن أنس، كانوا مُوحِّدين يغتَسلون مِن الجَنابة، ويقومون بما يعرِفون مِن شرائع الحَنيفيّة، حتّىٰ بعَث الله النبيّ ﷺ فصدّقوه ونصَروه[1].

وعلىٰ أي تقدير، ذكَر الله سُبحانه وَجْه عدَم المُساواة بَيْن المُؤمنين مِنهم والكافرين، وهُو أنّ المُؤمنين مِنهم ﴿أُمَّةٌ﴾ وجَماعة ﴿قَائِمَةٌ﴾ بالعَدْل، مُستقيمة في العقائِد والأعمال، لا يتحرّفون إلىٰ الباطِل، ولا يمِيلون إلىٰ الفَساد، وهُم ﴿يَتْلُونَ﴾ ويقرأون بخُلُوص النِّيَّة ﴿آيَاتِ ٱللهِ﴾ القُرآنية ﴿آنَاءَ ٱلَّيْلِ﴾ وساعاته ﴿وَهُمْ﴾ في حَال تِلاوتهم ﴿يَسْجُدُونَ﴾.

قيل: إنّ السُّجود كِناية عن الصّلاة لعدَم الفضيلة لِتلاوة القُرآن في السُّجود، بَل ثُبوت كراهيّتها لقول النبيّ ﷺ: «ألا إنّي نُهِيتُ أن أقرأ راكعاً وساجداً»[2].

وَوجْه التّعبير عن الصّلاة بالسُّجود كَوْنه أعظم أجزائها، وأشرف أركانها، وأدَلّ علىٰ كمال الخُضوع. وإنّما صرّح بتِلاوتهم القُرآن في الصّلاة، معَ اشْتِمال كُلّ صلاة عليها، لزيادة تحقيق المُخالفة بَيْن هؤلاء وغيرهم مِن مُنكري القُرآن، لتَوْضيح عدَم المُساواة بَيْنهم وبَيْن الّذِين وصفَهم الله ـ آنِفاً ـ بالكُفْر بالنبيّ وكِتابه.

ولعلّ هذا هُو الوَجْه في تقديم هذا الوَصْف في الذِّكْر علىٰ تَوْصيفهم بالإيمان بقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ﴾ إيماناً حقيقيّاً، مُطابقاً لِمَا نطَق به الشّرع، ورَضِي به الله.

فيدخُل في الإيمان الحقيقي بالله الإيمانُ بملائِكته وكُتُبه ورُسُله وبخاتَم النّبيِّين ﷺ وبالقُرآن المَجيد. وفي الإيمان بالآخرة تَصْديقُ خِلافة أمير المُؤمنين ووجُوب طاعته وطاعة المَعصُومين مِن ذُرِّيّته، والبَراءة مِن أعدائهم، والقِيام بأداء الفرائِض، والتّحرُّز عن المُحرّمات.

وحاصل الآيتين مِن قوله: ﴿أمّة قائِمة﴾ إلىٰ هُنا، مَدْحهم بكمال القوة النظريّة والعمليّة.

ثمّ بعدَ مَدْحهم بكمالهم في أنفسهم، مدَحهم بأنّهم غير مُقتصِرين علىٰ ذلك، بَل يكون همُّهم مُعَدّ إلىٰ إرشاد النّاس وتكميلهم، بقوله: ﴿وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ﴾.

عن ابن عبّاس رضي الله عنه: ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي بتَوحيد الله، وبنُبوّة محمّد ﷺ ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ﴾ أي ينهوَن عن الشِّرْك بالله، وعن إنكار نُبوّة محمّد ﷺ[3].

أقول: الظّاهِر أنّ المُراد مِن المَعروف والمُنكر هُو الأعمّ مِن العقائِد والأعمال.

---

١. تفسير أبي السعود ٢: ٧٣.

٢. تفسير أبي السعود ٢: ٧٣، تفسير روح البيان ٢: ٨١.

٣. تفسير الرازي ٨: ١٩٠.

ثمّ مدَحهم بصِفةٍ جامعةٍ لفُنون المَحاسِن، بقوله: ﴿وَيُسَارِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَاتِ﴾ بأصنافها؛ لخَوف الفَوْت بالمَوت، ولفَرْط الرّغبة، ويُبادرون إليها لغاية الشّوق.

وفي ذِكْر الأوصاف تَعْريضٌ علىٰ الفُسّاق مِن أهلِ الكِتاب، فإنّهم أمّة قائمة بالجَوْر والفَساد، مُنحرفة العقائد، مائلة إلىٰ الفَساد، ساعِية في إضلال النّاس، مُتباطِئة في الخَيرات، مُسارِعة في الشُّرور، كافرة بالله واليومِ الآخر.

ثمّ مدَحهم الله تعالىٰ بأكرم الصِّفات، بقوله: ﴿وَأُوْلَـٰئِكَ﴾ النُّفوس المُقدّسة، الكريمة الصِّفات مَعْدُودون ﴿مِنَ﴾ زُمْرة ﴿ٱلصَّالِحِينَ﴾ ومِن جُملة مَن حَسُنت أحوالُهم عندَ الله، واسْتحقّوا رِضاه وثَناءه.

وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَٱللهُ عَلِيمٌ بِالمُتَّقِينَ[١١٥]

ثمّ بشّرهم بالثّواب العظيم بقوله: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ وعمَلٍ صالحٍ؛ كائِناً ما كان، مِن قليلٍ أو كثير ﴿فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾ ولَن يُعدَموا ثَوابه، ولَم يُنقَصوا مِن أجره شيئاً.

وفي التّعبير عن تَرك الإثابة بالكُفْران الذي هُو مُحال علىٰ الله، دَلالةٌ واضِحةٌ علىٰ أنّ الثّواب بالاسْتِحقاق كدَلالة إطلاق الشُّكر علىٰ الإثابة.

ثمّ قرّر الله سُبحانه وَعْده بقوله: ﴿وَٱللهُ عَلِيمٌ بِالمُتَّقِينَ﴾ مُطّلِع علىٰ أحوالهم وضمائرهم، فيُوفّيهم أُجورهم في الدُّنيا والآخرة.

عن الصادق عليه السلام: «إنّ المُؤمِن مُكفَّر، وذلك أنّ معروفه يصعَد إلىٰ الله فلا ينتشِر في النّاس، والكافر مَشهُور، وذلك أنّ معروفه للنّاس ينتشِر في النّاس ولا يصعَد إلىٰ السّماء»[١].

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ ٱللهِ شَيْئاً وَأُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ[١١٦]

ثمّ ـ لمّا ذكَر الله سُبحانه حُسْن حال المُؤمنين في الآخرة، وعظَم ثوابهم ـ ذكَر سُوء حال الكُفّار فيها، وشِدّة عِقابهم بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ورَسُوله ﴿لَن تُغْنِيَ﴾ ولَن تُجزي ﴿عَنْهُمْ﴾ في الآخرة﴿أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِن﴾ عذاب﴿الله﴾ تعالىٰ ﴿شَيْئاً﴾يسيراً، فلا وَسيلة لهم إلىٰ النّجاةمِنه.

وتَخصيص المال والأولاد بالذِّكر لَكَونهما أنفع الأمور، وأوثق الوسائِل في دَفع المَكارِه

---

١. علل الشرائع: ١/٥٦٠، تفسير الصافي ١: ٣٤٤.

﴿وَأُولَٰئِكَ﴾ المُتباعدون عن رَحمة الله، الخارجون عن وظائف الإنسانيّة ﴿أَصْحَابُ ٱلنَّارِ﴾ ومُلازِموها و﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ مُقيمون أبداً، لا مَناصَ لهم ولا خَلاص.

عن ابن عبّاس ﵁ قال: يُريد بني قريظة والنضير؛ لأنّ مَقصود رُؤساء اليَهود في مُعاندة الرّسُول ما كان إلّا المال والولد[١].

وقيل: إنّما نزلَتْ في أبي سُفيان، فإنّه أنفق مالاً كثيراً علىٰ المُشركين يومَ بَدْر وأُحد في عداوة النبيّ ﷺ[٢].

وقيل: إنّما نزلَتْ في مُشركي قُرَيش، فإنّ أبا جَهْل كان كثير الافْتِخار بماله[٣].

وقيل: إنّها عامّة لجميع الكُفّار، فإنّ جميعهم كانوا يتعزّزون بكَثْرة الأموال والأولاد، وكانوا يُعيِّرون النبيّ ﷺ وأصحابه بالفَقْر، ويقولون: لو كان محمّد علىٰ الحَقّ لمَا ترَكه ربُّه في هذا الفَقْر والشِدّة[٤].

مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللهُ وَلَٰكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ[١١٧]

ثمّ لمّا بيّن الله تعالىٰ أنّ أموال الكفّار لا تُفيدهم شيئاً ـ وهُم كثيراً ما كانوا يُنفِقون أموالهم في الخَيْرات؛ كالصَّدَقة علىٰ الفُقَراء، وإعانة الضُّعَفاء ـ فكان مَجال تَوهُّم أنّهم ينتفِعون بأموالهم في الآخرة، فأزال الله ذلك التَوهُّم بقوله: ﴿مَثَلُ﴾ كُفْرهم في إبطال ﴿مَا يُنْفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا﴾ قُرْبةً، أو مُفاخرةً، أو سُمْعةً وطلباً لحُسْن الذِّكْر بيْن النّاس، أو رِياءً وخَوفاً كإنفاق المُنافقين ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ وبَرْد شَديد مُهلِك.

وقيل: إنّ المعنىٰ: فيها نارٌ مُحرقة، للَهَبها صِرٌّ وصَوْت. وكِلاهما مَرويّ عن ابن عبّاس[٥].

﴿أَصَابَتْ﴾ تِلك الرِّيح المُهلِكة ﴿حَرْثَ قَوْمٍ﴾ وزَرْع طائِفة ﴿ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بالكُفْر والمعاصي ﴿فَأَهْلَكَتْهُ﴾ واسْتأصلَتْهُ، بحيث لَم يبقَ لهم ثَمر ولا نَفْع بوَجْهٍ مِن الوُجوه، ولَم يحصَلْ لهم إلّا الخَيْبة والحَسْرة.

وقيل: إنّ المُراد تَشْبيه ما أنفق الكُفّار ـ في وُجوه الخَيْرات والقُرُبات، أو في مُعارضة الرّسُول ﷺ، وقِتال المُسلمين، كإنفاق أبي سُفيان في بَدْر وأُحُد، وسائر أعمالهم الحَسَنة التي يُرجىٰ مِنها النَّفع ولَو كان دُنيويّاً ـ في الهَلاك والضَّياع والبطلان، بِما يحرِثه الكُفّار، فضربَتْه صِرٌّ فأبادَتْه بحيث لَم يكُن لهم

---

١. تفسير الرازي ٨: ١٩٢.
٢. تفسير الرازي ٨: ١٩٣.
٣. تفسير الرازي ٨: ١٩٢.
٤. تفسير الرازي ٨: ١٩٣.
٥. تفسير الرازي ٨: ١٩٥.

فيه منفعة. فهو مِن التّشبيه المُركّب.

وإنّما وصَف القوم بكَوْنهم كُفّاراً، لأنّ الإهلاك عن السُّخط أقطع وأفظع ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بإهلاك ما أنفقوا مِن الأموال، وبإحباط ما عمِلوا مِن الخَيرات ﴿وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حيثُ إنّهم أنفقوها معَ الكُفر، أو عِصيان الله وطُغياناً عليه.

يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَاءُ مِن أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلآيَاتِ إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ[١١٨]

ثمّ ـ لمّا بيّن الله المباينة بَيْن المُؤمنين والكُفّار، وتَضادَ قُلوبهم وأخلاقهم ـ حذّر المُؤمنين من مُخالطتهم ومُوالاتهم بقوله: ﴿يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا﴾ ولا تَختاروا لأنفسكم ﴿بِطَانَةً﴾ وخليطاً كائِناً ﴿مِن دُونِكُمْ﴾ ولا تُودِعوا أسراركم عندَ الأجانب مِن دِينكم، فإنّهم ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ﴾ ولا يُقصّرون لكم ﴿خَبَالاً﴾ وفَساداً بمَكْرهم وخَديعتهم، ولا يتركون جُهْدهم في الإضرار بكم، في ما يُورِثكم الشّرّ ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾ وتمنَّوا مَشقّتكم، وشِدّة ضرَركم في دِينكم ودُنياكم.

قيل: إنّ معنىٰ الجُملتين: أنّهم لا يُقصّرون ضرَراً في أمر دِينكم ودُنياكم، فإن عجَزوا فحُبّ ذلك ثابِت في قُلوبهم[١].

حتّىٰ أنّهم ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَاءُ مِن أَفْوَاهِهِمْ﴾ وظهَرت شِدّة عَداوتهم في كلامهم، حيثُ إنّهم لا يتمَالكون ـ مع مُبالغتهم في حِفْظ أنفسهم ـ أن ينفلِت مِن ألسنتهم ما يُعلَم به بُغضهم للمسلمين. وفيه غاية المُبالغة؛ حيثُ فرض كلامهم ـ مِن ظُهور العَداوة والبُغْض فيه ـ عَيْن البَغْضاء، لا دالّاً عليها، فخُروج الكلام مِن أفواههم، لامْتِلاء قُلوبهم بالبُغَض، نَفْس خُروج البُغْض، ﴿وَ﴾ الحال أنّ ﴿مَا تُخْفِيْ صُدُورُهُمْ﴾ وما تَستّر في قُلُوبهم مِن البُغْض والحَسَد ﴿أَكْبَرُ﴾ وأكثر مِمّا بدأ وظهَر.

عن ابن عبّاس ﷺ: كان رِجالٌ مِن المُؤمنين يُواصِلون اليَهُود لِمَا بَيْنهم مِن القَرابة والصَداقة والحِلْف، فأنزل الله هذه الآية[٢].

وعن مُجاهد: نزلَتْ في قومٍ مِن المُؤمنين كانوا يُواصِلون المُنافقين، فنُهوا عن ذلك[٣].

وقيل: إنّ المُسلمين كانوا يُشاوِرون اليَهُود في أُمورهم ويُؤانسونهم لِمَا كان بَيْنهم مِن الرضاع

---

١. تفسير روح البيان ٢: ٨٥.

٢. تفسير أبي السعود ٢: ٧٦.

٣. تفسير أبي السعود ٢: ٧٦.

والحِلْف[1].

والظّاهِر أنّ المُراد النّهي عَن مُوالاة عُموم الكُفّار، وإن كان مَورد النُّزول خاصّاً.

ثمّ لمّا كان الإخبار بالضمائر والأسرار إخباراً بالمُغيّبات، الخارج عن طَوْق البَشر، ومُتوقّفاً علىٰ الوَحْي، نبّه الله سُبحانه علىٰ كون هذا الإخبار مِن علائِم صِدْق النُّبوّة، بقوله: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ﴾ أيُّها المُؤمنون ﴿ٱلآيَاتِ﴾ الدالّة علىٰ صِدْق محمّد في دَعْواه ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وتُعَدّون مِن زُمْرة أهل الفَهْم والإدراك.

هَاأَنْتُمْ أُوْلَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ[١١٩]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ تَنْبيه المُؤمنين علىٰ خطئهم في اعتِقاد النُّصْح في اليَهُود، بالَغ في الرَّدْع عن مُوالاتهم بقوله: ﴿هَا﴾ أيُّها المُؤمنون وتنبّهوا ﴿أَنْتُمْ أُوْلَاءِ﴾ المُشتبِهون فيهم، حيثُ إنّكم ﴿تُحِبُّونَهُمْ﴾ بتَخيُّل أنّهم يُحِبّونكم، ﴿وَ﴾الحال أنّهم ﴿لَا يُحِبّونَكُم﴾ ولا يُريدون خَيْركم وصَلاح حالكم، ﴿وَ﴾أنتم ﴿تُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ﴾ المُنزَل مِن الله ﴿كُلِّهِ﴾ [سواء] كان هُو التّوراة والإنجيل، أو القُرآن، وتعتقِدون أنّ جميعها حَقّ، وهُم لتصَلُّبهم في دِينهم لا يُؤمنون بكِتابكم.

قيل: فيه تَوْبيخ شَديد بأنّهم أصلب في باطِلهم مِنكم في حقّكم.

ثمّ ذكَر الله تعالىٰ مِن جُملة الرّوادِع عن مُخالطتهم شِدّة نِفاقهم بقوله: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ﴾ وواجَهوكم ﴿قَالُوا﴾ بألسنتهم نِفاقاً: نحنُ ﴿آمَنَّا﴾ بنبيّكم وكِتابكم كإيمانكم ﴿وَإِذَا خَلَوْا﴾ وتفرّدوا مِنكم أظهروا شِدّة العَداوة والغَيْظ عليكم، حتّىٰ تبلُغ الشِدّة إلىٰ أن ﴿عَضُّوا عَلَيْكُمُ﴾ واستَمسكوا شديداً بالأسنان﴿ٱلْأَنَامِلَ﴾ ورُؤوس الأصابع﴿مِنَ﴾ أجل ﴿ٱلغَيْظِ﴾ وشِدّة الغَضَب تأسُّفاً وتَحسُّراً، حيثُ لَم يجِدوا إلىٰ التّشفّي سبيلاً، كما هُو فِعْل مَن اشتَدّ غَضبُه، وعَظُم تحسُّره علىٰ حِرمانه مِن مَطلوبه.

قيل: إنّما حصَل لهم هذا الغَيظ الشّديد لِمَا رأوا مِن ائتِلاف المُؤمنين، واجتِماع كلمتهم، وصَلاح ذاتِ بَيْنهم[2].

ثمّ أمر الله نبيّه بتَقْريعهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد، لهؤلاء الحاسِدين الغائِظين: ﴿مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ واهْلكوا بسَبب شِدّة عَداوتكم وحَسَدكم.

---

١. تفسير الرازي ٨: ١٩٧.

٢. تفسير الرازي ٨: ٢٠١، تفسير روح البيان ٢: ٨٥.

قيل: إنّه كِناية عن أنّه لا وسيلة للخَلاص مِن هذا الغَيظ إلّا المَوت، فمَن رَام التَخلُّص مِنه فليتمنّىٰ المَوت وقيل: إنّه دُعاء عليهم بالموت قبل بُلوغ ما يتمنّونه[1].

ثمّ أمره ﷺ بتَهديدهم، بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ ومُطّلع علىٰ جميع ما تُخفونه وتكتُمونه في قُلوبكم مِن نيّات السُّوء، والحِقد والحَسَد علىٰ المُؤمنين، ويُجازيكم بأشدّ العذاب. وقيل: إنّه جُملة مُستأنفة.

إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ[١٢٠]

ثمّ بيّن الله تعالىٰ شِدّة حَسَدهم، وتَناهي عَداوتهم للمُؤمنين، بقوله: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ﴾ وتصِل إليكم ﴿حَسَنَةٌ﴾ وخَير مِن ربّكم مِن قُوّة دِينكم، وضَعْف أعدائكم، وظُهوركم عليهم، والغَنيمة مِنهم، والأُلْفة والمحابّة بَيْنكم، وخِصْب مَعيشتكم، وسَعَة رِزْقكم ﴿تَسُؤْهُمْ﴾ وتُحزنهم ﴿وَإِن تُصِبْكُمْ﴾ وتَردُ عليكم ﴿سَيِّئَةٌ﴾ وبَليّة مِن مرَضٍ أو فَقْرٍ أو جُرْحٍ أو قَتْل ﴿يَفْرَحُوا﴾ ويُسَرّوا ﴿بِهَا﴾ ويشتِموكم مِنها.

ثمّ لمّا كانت هذه المَرتبة مِن العَداوة والحَسَد مُوجباً للخَوْف مِنهم، أمّن الله سُبحانه المُؤمنين بقوله: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا﴾ علىٰ عَداوتهم، وامْتِثال أحكام دِينكم ﴿وَتَتَّقُوا﴾ ربّكم في مُخالفة تَكاليفه ﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ﴾ ومَكْرهم وحِيلتهم ـ التي يَحتالونها لأجلكم ـ ﴿شيئاً﴾ مِن الضَّرَر، فإنّكم في حِفْظ الله المَوعُود للصابرين والمُتّقين.

قال بعضُ العُلماء: إنّ الله تعالىٰ إنّما خَلق الخَلْق للعُبوديّة كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[2] فمَن وفَىٰ بعَهْد العُبوديّة، فالله سُبحانه أكرم مِن أن لا يفي بعَهْد الرُّبوبيّة، في حِفْظه عن الآفات والمَخافات، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً﴾[3] وقوله: ﴿وَيَرْزُقْهُ مِن حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[4] إشارة إلىٰ أنّه يُوصِل إليه كُلّ ما يَسُرّه.

وقال بعضُ الحُكماء: إذا أردت أن تكبِت مَن يحسُدك، فاجْتهِدْ في اكْتِساب الفضائل[5].

ثمّ سلّىٰ سُبحانه قُلوب المُؤمنين بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ في عَداوتكم مِن الكَيْد والإيذاء ﴿مُحِيطٌ﴾ عِلْماً، ومُدرِكٌ له كامِلاً، فيُعاقبهم عليه أشدّ العِقاب.

---

١. تفسير الرازي ٨: ٢٠١.
٢. الذاريات: ٥٦/٥١.
٣. الطلاق: ٢/٦٥.
٤. الطلاق: ٣/٦٥.
٥. تفسير الرازي ٨: ٢٠٣.

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ * وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ[١٢١ ـ ١٢٣]

ثمّ أنّه تعالىٰ لمّا وعَد الحِفْظ والنُّصرة مُطلقاً، علىٰ الصّبر والتّقوىٰ، المُستلزم لانتِفائهما عند انتِفائهما، أتبَعه بقضيّة أُحُد الشّاهدة عليه، بقوله: ﴿وَ﴾ ذكّر المُؤمنين ﴿إِذْ غَدَوْتَ﴾ يا محمّد، وحينَ خرجْتَ أوّل النّهار ﴿مِن﴾ عندِ ﴿أَهْلِكَ﴾ وزَوجتك قاصِداً للذّهاب إلىٰ أُحُد، كَي ﴿تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وتُنزلهم، أو تُهيِّىء لهم ﴿مَقَاعِدَ﴾ وأماكِن ينتظِرون فيها للعَدوّ، ويقِفون فيها ﴿لِلْقِتَالِ﴾ وإنّما سمّيت تِلك الأماكن بالمَقاعد؛ لأنّهم كانوا يقعُدون فيها مُنتظرين للعَدُوّ، فإذا جاءهم قاموا للمُحاربة ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لمَقال أصحابك في مُشاورتك إيّاهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بما في ضمائرهم مِن النّيّات الحَسَنة والسّيّئة.

في سبب وقعة أحد

عن القُمّي ﷺ: عن الصادق ﷺ قال: «سبَب غَزْوة أُحُد أنّ قُريشاً لمّا رجَعت مِن بَدْر إلىٰ مكّة ـ وقد أصابهم ما أصابهم مِن القَتل والأسر؛ لأنّه قُتِل مِنهم سَبعون، وأُسِر مِنهم سبعون ـ قال أبو سُفيان: يا مَعْشر قُريش، لا تدَعوا نِساءكم يبكِين علىٰ قَتْلاكم، فإنّ الدّمعة إذا خرَجت أذهبَتْ الحُزن[١] والعَداوة لمحمّد[٢]، فلمّا غزَوا رَسُول الله ﷺ [يوم أحد] أذِنوا لنِسائهم بالبُكاء والنَّوح، وخرَجوا مِن مكّة في ثلاثة آلاف فارس، وألفَي راجِل، وأخرجوا معهم النِّساء، فلمّا بلَغ رَسُول الله ﷺ جمَع أصحابه وحثّهم علىٰ الجِهاد...»[٣].

ورُوي أنّ المُشركين نزَلوا بأُحُد يومَ الأربعاء، فاسْتشار رَسُول الله ﷺ أصحابه، ودَعا عبدَالله بن أُبَيّ بن سَلُول، ولَم يدْعُه قَطّ قبلَها باستشارة[٤]، فقال عبدُ الله وأكثَرُ الأنصار: يا رَسُول الله، أقِمْ بالمدينة ولا تخرُج إليهم والله، ما خرَجنا مِنها إلىٰ عَدُوٍّ قَط إلّا أصاب مِنّا، ولا دخَل عَدُوٌّ علينا إلّا أصَبْنا مِنه، وكيف وأنت فينا، فدَعْهم فإن أقاموا أقاموا بشرّ مَوضع، وإن دخَلوا قاتلهم الرِّجال في وجوههم، ورَماهم النِّساء والصِّبيان بالحِجارة، وإن رجَعوا رجَعوا خائِبين[٥].

وقال سَعد بن مَعاذ وغيرُه مِن الأوس: يا رسول الله، ما طمَع فينا أحدٌ مِن العَرب ونحنُ مُشركون نعبُد الأصنام، فكيف يظفَرون بنا وأنت فينا؟! لا حتّىٰ لا نخرُج إليهم ونُقاتلهم، فمَن قُتِل مِنّا فهُو شهيد،

---

١. زاد في المصدر: والحُرقة.
٢. زاد في المصدر: ويشمت بنا محمّد وأصحابه.
٣. تفسير القمي ١: ١١٠، تفسير الصافي ١: ٣٤٥.
٤. في تفسير الرازي: فاستشاره.
٥. تفسير الرازي ٨: ٢٠٥.

ومَن يحيا مِنّا كان مُجاهداً في سبيل الله[١]، اخْرُج بِنا إلىٰ هؤلاء الأكْلُب[٢] لِئلا يظنّوا أنّا خِفْناهم.

فقال ﷺ: «إنّي قد رأيتُ في مَنامي بقرة[٣] تُذبح حَولي، فأوّلتُها خيراً، ورأيتُ في ذُباب[٤] سيفي ثلماً، فأوّلتُه هَزيمةً، ورأيتُ كأنّي أدخلتُ يدي في دِرْعٍ حصينةٍ، فأوّلتُها المدينة، فإن رأيتم [أن] تُقيموا بالمدينة وتَدْعُوهم».

فقال قومٌ مِن المُسلمين؛ مِن الّذين فاتَتْهم بَدْر، وأكرمهم الله بالشّهادة يومَ أُحُد: اخْرُج بِنا إلىٰ أعدائِنا. فلَم يَزالوا به حتّىٰ دخَل بيته ولبِس لأمَته، فلمّا لبِس ندَم القومُ وقالوا: بِئْسما صنَعْنا، نُشِير علىٰ رَسُول الله ﷺ والوَحْي يأتيه، فقالوا له: اصْنَع يا رَسُول الله ما رأيتَ، فقال: «لا ينبغي لنبيٍّ أن يلبَس لأمَته فيضَعها حتّىٰ يُقاتل»[٥].

وفي رِواية القُمّي ﷺ: وخرَج ﷺ مع نَفرٍ مِن أصحابه يتبوّأون[٦] موضِع القِتال[٧].

في نقل كلام الفخر في طهارة عائشة وردّه

قال الفَخر الرازي في تفسيره: يُروىٰ أنّه ﷺ غدا مِن مَنزل عائشة، فمشىٰ علىٰ رِجْليه إلىٰ أُحُد. وهذا قول مُجاهد والواقدي، فدَلّ هذا النصّ علىٰ أن عائشة كانت أهلاً للنبيّ ﷺ، وقال تعالىٰ: ﴿ٱلطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾[٨]، فدَلّ هذا النصّ علىٰ أنّها كانت مُطهّرة مُبرّأة مِن كُلّ قَبيحٍ. ألا ترىٰ أنّ وَلَد نُوح لمّا كان كافراً قال تعالىٰ: ﴿إِنَّه لَيْسَ مِن أَهْلِكَ﴾[٩] وكذا امرأة لُوط؟[١٠].

أقول: في كلامه خَلَل لا يَكاد يخفىٰ علىٰ عاقِلٍ، فضلاً عن فاضِل، فإنّ إطلاق (الأهل) علىٰ عائشة ـ علىٰ تقدير إرادتها مِنه ـ غيرُ مُشْعِرٍ أصلاً بكمالٍ وشرَف لها زائداً علىٰ شرَف الانْتِساب إليه ﷺ؛ كما كان هذا الشّرف لزوجة نُوح ولُوط، بَل الإشعار فيه بإسلامها، لوُضوح أنّ الزّوجة ـ في اللُّغة والعُرف ـ أحدُ المَصادِيق الحقيقية للأهل.

ومِن الواضِح أنّ الله تعالىٰ أطلق اسْم الأهل علىٰ زَوجة لُوط، حيثُ قال: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ فلَو لَم تكُن زَوجته داخلة في (الأهل) لَم يصِحّ الاسْتِثناء بقوله: ﴿إِلَّا امْرَأَتَكَ﴾[١١] فصِحّة الاسْتِثناء دَليلٌ علىٰ شمُول لَفظ (الأهل) لها حقيقةً، وإخراجها مِنه حُكْماً. وكذا أطلق نُوح اسْم الأهل علىٰ ابنه بقوله: ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِن أَهْلِي﴾[١٢] معَ عِلْمه بكُفْره.

---

١. تفسير القمّي ١: ١١١.
٢. الأكْلُب: جمع كَلب.
٣. في تفسير الرازي: بقراً.
٤. ذباب السيف: حدّ طرفيه.
٥. تفسير الرازي ٨: ٢٠٥.
٦. في تفسير القمي: يبتغون.
٧. تفسير القمي ١: ١١١.
٨. النور: ٢٦/٢٤.
٩. هود: ٤٦/١١.
١٠. تفسير الرازي ٨: ٢٠٦.
١١. هود: ٨١/١١.
١٢. هود: ٤٥/١١.

وأمّا قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيسَ مِن أَهلِكَ﴾[١] فلا شُبْهة أنّه مَجاز في السَّلْب بعَلاقة انْتِفاء الآثار، كما يُقال: يا رِجال ولا رِجال.

وأمّا قوله تعالى: ﴿ٱلطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ فقَد قيل في تفسيره: إنّ المُراد: الطَّيِّبات مِن القول والكَلِم، أو المُبرّأة مِن الزِّنا، فيكون مِثْل قوله: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أو مُشرِكَةً وَٱلزَّانِيَةَ لَا يَنكِحُها إِلَّا زَانٍ أو مُشرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَىٰ ٱلمُؤمِنِينَ﴾[٢].

ويُؤيِّد ذلِك أنّ الآية[٣] بعدَ آية رَمْي المُحصَنات مِن قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرمُونَ ٱلمُحْصَنَاتِ ٱلغَافِلَاتِ ٱلمُؤمِنَاتِ لُعِنُوا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلآخِرَةِ﴾[٤] ولا شُبْهة أنّ أزواج الأنبياء بريئات مِن الزِّنا، وإنّ كُنّ كافِرات، لوُضوح أنّ هذا الفُحْش مِنهُنّ شَيْن عليهم، معَ أنّ البراءة مِن كُلّ قَبيح يُساوِق العِصْمة، مع أنه لَم يقُل أحدٌ في سائر أزواجه ﷺ ذلك.

مع أنّه لا شُبْهة أنّ الخِطاب في قوله تعالى: ﴿إِنْ تَتُوبا إِلَىٰ ٱللهِ فَقَد صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيهِ فَإِنَّ ٱللهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ ٱلمُؤْمِنِينَ﴾[٥] لحَفْصة وعائشة، وفيه دَلالة واضِحة علىٰ عِصيانهما، وعدَم تنزُّههما مِن القبيح، معَ تواتُر أنها[٦] تبرّجت بعدَ النبيّ ﷺ تبرُّج الجاهِليّة، وخرَجت علىٰ إمام زمانِها. وقد ذكَر ابن أبي الحديد أنّ مَنشأ عَداوة أبي بَكْر وعُمر لفاطِمة وعليّ عليهما السلام شِدّة حَسَد عائشة وحَفصة عليهما، وسَعايَتهما عليهما عندَ أبويهما[٧].

والحاصل: أنّه لاينبغي لذي مُسْكة أن يتخيّل أنّ عائشة كانت مُبرّأة مِن كُلّ قبيح[٨].

في ذكر وقعة أحد

ثمّ إنّ الآية والرِّوايات وإن دَلّتا علىٰ خُروجه مِن بيت أهله أوّل النّهار، إلّا أنّ في بعضِ

---

١. هود: ٤٦/١١. ٢. النور: ٣/٢٤. ٣. أي آية ﴿والطيبات للطيبين﴾.
٤. النور ٢٣/٢٤. ٥. التحريم: ٤/٦٦. ٦. أي عائشة.
٧. راجع: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٩: ١٩٢ - ١٩٩.
٨. واعلم أن التطهير من الرجس يشمل أهل الكساء الذين نزلت فيهم آية التطهير من سورة الأحزاب: ٣٣ وهم أهل البيت: النبيّ ﷺ وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام وليس غيرهم، وقد روى ذلك مسلم في صحيحه ٤: ٢٤٢٤/١٨٨٣، والحاكم في المستدرك ٣: ١٤٦، وقال الفخر الرازي في تفسيره ٨: ٨٥ إن هذه الرواية كالمتفق على صحتها بين أهل التفسير.
واعلم أن النبيّ ﷺ أخرج أمّ سلمة مع جلالتها من أهل البيت فقال لها: إنك على خير ولم يقل إنك منهم، أخرجه الترمذي في السنن ٥: ٣٢٠٥/٣٥١، والحاكم في المستدرك ٢: ٤١٥. كما أن السيرة العملية لبعض نساء النبيّ ﷺ تخرجهن عن دائرة العصمة والطهارة من الذنوب فقد قال تعالى في بعضهن: ﴿إِن تَتُوبَا إِلَى ٱللهِ﴾ [التحريم: ٤/٦٦] والآية تدلّ على وقوع المعصية، لأنّ التوبة مترتبة على المعصية، وقال تعالىٰ في نفس الآية: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ أي مالت عن الحق، وقال تعالىٰ في نفس الآية: ﴿وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ﴾ والمراد حفصة وعائشة، كما في البخاري ٦: ٤٠٧/٢٧٧، والكشاف ٤: ٥٧١. وذلك يخرج صاحبه عن حد الطهارة والعصمة من الآثام، وعليه فان التطهير لا يشمل نساء النبيّ ﷺ بل مخصوص بالخمسة أهل الكساء من أهل البيت عليهم السلام دون غيرهم.

الرِّوايات أنّه ﷺ خرَج مِن المدينة يوم الجُمعة بعدَ صلاة الجُمعة، وأصبح بالشِّعْب مِن اُحُد يومَ السَّبْت للنِّصف مِن شوّال لسَنة ثلاث مِن الهِجرة، فمشىٰ علىٰ رِجْلَيه، وجعَل يصُفّ أصحابه للقِتال كأنّما يُقَوِّم بهم[١] القَدْح، إن رأىٰ صَدْراً خارِجاً قال: تأخر. وكان نُزوله في جانِب الوادي، وجعَل ظَهره عَسْكره إلىٰ اُحُد، وأمَر عبدَالله بن جُبير علىٰ الرُّماة وقال: «ادْفعوا عَنّا بالنَّبْل، حتّىٰ لا يأتونا مِن ورائِنا»، وقال ﷺ: «اثبُتوا في هذا المَقام، فلَن نزال غالِبين ما ثبَتم في مَكانكم».

ثمّ إنّ الرَّسول ﷺ لمّا خالَف [رأي] عبدالله بن اُبَيّ، شَقّ عليه ذلك وقال: «أطاع الوِلْدان وعَصاني» ثمّ قال لأصحابه: إنّ محمّداً إنّما يظفَر بعَدُوّه بكم، وقد وعَد أصحابه أنّ أعداءه إنْ عايَنوهم انْهزَموا، فإذا رأيتُم أعداءهم فانْهزِموا، فيتبعُونكم فيصير الأمرُ علىٰ خِلاف ما قاله محمّد.

فلمّا التقىٰ الفَريقان انْهزم عبدالله بالمُنافقين، وكان جُملة عَسْكر المُسلمين ألفاً، أو تِسْعمائة وخمسين، فانهزم عبدُالله بن اُبَيّ مع ثلاثمائة، فبقيتْ سَبْعمائة أو سِتمائة وخمسين، فتبِعهم عَمْرو بن حزم الأنصاري فقال: أنشُدكم الله في نبيّكم وأنفسكم، فقال عبدُالله: لو نعلَم قِتالاً لاتَّبعناكم.

وكان حيّان مِن الأنصار؛ بنو سَلَمة مِن الخَزْرج، وبنو حارِثة مِن الأوس، جَناحين مِن عَسْكر رَسُول الله ﷺ، فَهَمّ الحَيّان باتِّباع عبدالله، فتفضّل الله عليهما وعلىٰ المُؤمنين بأن ثبّتهما وقوّىٰ قُلوبهما[٢]، فذكَرالمُؤمنين هذهالنِّعْمة بقوله: ﴿إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ﴾ أيُّها المُؤمنون ﴿أَن تَفْشَلَا﴾ وتضعفا عن القِتال جُبْناً وترجعا إلىٰالمدينة. عن ابنعبّاس رضي الله عنه قال: أضمَروا أنيرجِعوا، فعزمالله لهم علىٰالرُّشْد[٣].

﴿وَٱللَّهُ﴾ بفَضله عليهما وعلىٰ المُؤمنين ﴿وَلِيُّهُمَا﴾ وعاصِمهما مِن اتِّباع تِلك الخَطْرة[٤] ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ وحدَه دُون مَن عَداه اسْتِقلالاً واشْتِراكاً ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ﴾ وليعتمِد ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ في جميع أمورهم، فإنّه حَسْبُهم ونِعْمَ الوكيل.

فإنّ مَن آمن وتيقّن بقُدْرة الله ولُطْفه بعِباده المُؤمنين، وعَوْنه ونُصْرته لهم، لا يعرِضه الفَشَل في الأُمور، ولا يطرُوه الخَوف مِن غيرِه تعالىٰ، سِيّما في الجِهاد في سبيله ونُصْرة دِينه.

ثمّ اسْتشهد سُبحانه علىٰ نُصْرته المُؤمنين عندَ الصَّبْر والتّقوىٰ، بنُصْرته لهم في وَقْعة بَدْر، حيثُ قال تعالىٰ تَذْكيراً لهم: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ علىٰ أعدائكم ﴿بِبَدْرٍ﴾ قيل: هُو اسْم ماء بَيْن مكّة والمدينة، كان لرَجُل اسمه بَدْر بنكَلَدة[٥]، فسُمّي باسْمه، وقيل: سُمّي به لصفائه [كالبدر] واسْتِدارته،[٦]

---

١. في النسخة: به. ٢. تفسير الرازي ٨: ٢٠٥، تفسير أبي السعود ٢: ٧٨، تفسير روح البيان ٢: ٨٨.
٣. تفسير أبي السعود ٢: ٧٩. ٤. الخَطْرة: ما يخطِرُ علىٰ القلب.
٥. الذي في معجم البلدان ١: ٤٢٥: ينسب إلى بَدْر بن يَخْلُد بن النضر بن كنانة، أو بدر بن قريش بن الحارث بن يخلدُ. ٦. تفسير أبي السعود ٢: ٧٩.

وقيل: هُو اسْم المَوضع أو الوادي[١].

وكانت الوَقْعة في السّابع عشر مِن شَهر رَمضان، سَنة اثنتين من الهجرة، وكانت الوَقْعة آية عظيمة، ولِذا بيّن الله عَظَمتها بقوله: ﴿وَأَنتُمْ﴾ أيها المؤمنون في تِلك الوَقْعة ﴿أَذِلَّةٌ﴾ ضُعَفاء مِن حيثُ قِلّة العَدَد والمال والسِّلاح والمَركوب، ومعَ ذلِك قهَرتُم خُصومكم، وظفَرتُم علىٰ أعدائكم، معَ كَثْرة عَدَدهم وسِلاحهم وشَوكتهم، وفُزتم بمَطلوبكم بفَضل الله ونَصْره.

ولمّا شاهدتُم النَّصر الخارِق للعَادة في تِلك الوَقْعة عندَ صَبْركم في نُصْرة الرَّسُول وطاعتكم لله ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في الثَّبات في هذه الوقعة أيضاً، واصْبِروا ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ بنُصْرته لكم فيها، وبنِعْمته عليكم ﴿تَشْكُرُونَ﴾ كما شكَرتُم ما أنعم عليكم مِن النَّصْر في تِلك الوقعة.

إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ * بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ [١٢٤ و ١٢٥]

ثمّ وجّه الله سُبحانه الخِطاب إلىٰ النبيّ ﷺ تشريفاً له، وإيذاناً بأنّ النّصْر كان بِبشارته ﷺ، وعيّن وَقت وُقوعه بقوله: ﴿إِذْ تَقُولُ﴾ يا محمّد تبشيراً ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يومَ بَدْر، حينَ أظهروا الضَّعْف والعَجْز عن المُقاتلة. وذلِك مَنسُوب إلىٰ أكثر المُفسّرين.

وعن ابن عبّاس، والواقدي، وجماعة: أنه ﷺ حين غدَا مِن منزِل أهله للخُروج إلىٰ اُحُد[٢]، قال للمُؤمنين تقويَةً لقُلوبهم: ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ﴾ ويُغنِيكم للنّصْر والغَلَبة علىٰ أعدائكم ﴿أَن يُمِدَّكُمْ﴾ ويعينكم ﴿رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ﴾ حالَ كَوْنهم ﴿مُنزَلِينَ﴾ مِن السّماء بأمره تعالىٰ لنَصْركم.

في ذكر الاختلاف في أن التبشير بامداد الملائكة كان في بدر أو اُحد

قيل: إنّ الله أنزل الملائكة يومَ اُحُد لنُصْرة المُؤمنين، ولمّا كان النّصْر مَشروطاً بالصّبْر والتّقوىٰ، وهُم في ذلك اليوم لم يصبِروا، ولَم يتّقوا، فلَم يُمِدّوهم.

وعن مُجاهد والواقدي، قالا: حضَرت الملائكة يومَ اُحُد، ولكنّهم لَم يُقاتلوا.

ويُؤيّده ما رُوي مِن أنّ الرّسُول ﷺ أعطىٰ اللِّواء مُصعب بن عُمير فقُتِل مُصعب، فأخذه مَلَك في صُورة مُصعب، فقال رَسُول الله ﷺ: «يا مُصعب» فقال المَلَك: لَسْتُ بمُصعب، فعرَف الرّسُول ﷺ أنه مَلَك اُمِدّ به[٣].

---

١. تفسير أبي السعود ٢: ٧٩.
٢. تفسير الرازي ٨: ٢٠٩.
٣. تفسيرالرازي٨: ٢١٠.

وعن سَعد بن أبي وقّاص قال: كنتُ أرمي السَّهم يومئذٍ، فيرُدّه إليَّ رجُلٌ أبيض حَسَن الوَجْه، وما كنتُ أعرِفه فظَنَنْتُ أنّه المَلَك[1].

وأمّا القائلون بأنّ هذه البِشارة كانت في بَدْر، [فقد] جمعوا بَيْنها وبَيْن قوله تعالىٰ: ﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾[2] بأنّ الله تعالىٰ أمَدّ الرَسُول ﷺ وأصحابه أولاً بألفٍ، ثمّ زاد فيهم ألفين [فصاروا ثلاثة آلاف]، ثمّ زاد ألفين آخرَين، فصاروا خَمسة آلاف، فكأنّه ﷺ قال لهم: «ألَن يكفِيَكم أن يُمِدّكم ربُّكم بألفٍ مِنَ المَلائكة؟» فقالوا: بلىٰ، ثمّ قال: ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ...﴾[3].

ثمّ بلَغ أصحاب بَدْر أنّ بعضَ المُشركين يُريد إمداد قُريش بعَدَدٍ كثير، ونُقل أنّه بلَغهم أنّ كُرْز بن جابر المُحاربي يُريد أن يُمِدَ المُشركين، فشَقّ ذلك علىٰ المُسلمين[4]، فبشّرهم الله تعالىٰ لطمأنة قُلوبهم بقوله: ﴿بَلَىٰ﴾ يكفيكم ذلك.

ثمّ وعدَهم الزِّيادة بشَرْط الصَبْر والتَقوىٰ حَثّاً لهم عليهما، وتَقويةً لقُلوبهم بقوله: ﴿إِن تَصْبِرُوا﴾ أيُّها المُؤمنون علىٰ مُنازلة الأعداء ومُناهضتهم ﴿وَتَتَّقُوا﴾ مَعصية الله، ومُخالفة الرَسُول، ﴿وَ﴾ المشركون ﴿يَأْتُوكُمْ﴾ بخَيْلهم ورَجْلهم ﴿مِن فَوْرِهِمْ هَـٰذَا﴾ وساعتهم هذه، بلا رَيْثٍ وتأخير ﴿يُمْدِدْكُمْ﴾ ويُقوّيكم ﴿رَبُّكُم﴾ الذي هُو بلُطفه ناصِرُكم وحافِظُكم حينَ إتيانهم ﴿بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ﴾ حالَ كَوْنهم ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ مُعْلِمين[5] أنفسهم أو خُيولهم.

رُوي أنّهم كانوا بعَمائم بِيض إلّا جَبْرئيل فإنّه كان بعَمامة صفراء[6].

وفي رِوايةٍ: أنّهم كانوا قد أعلَموا[7] في نَواصي الخَيل. وعن النبيّ ﷺ قال لأصحابه: «تسوّموا فإنّ الملائكة [قد] تسوّمت»[8].

قالوا: إنّ العَرَب كانوا يجعَلون في الحُروب لأنفسهم عَلامة يُعرَفون بها.

ونُقل أنّ حمزة بن عبدالمطلب كان يُعْلِم بريش نَعامة، وأنّ عليّاً كان يُعلِم بصُوفة بيضاء، وأنّ الزُّبير كان يتعصّب بعِصابة صفراء، وأنّ أبا دُجانة[9] كان يُعلِم بعِصابة حمراء[10].

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ

---

١. تفسيرالرازي٨: ٢١١. ٢. الأنفال: ٨/٩. ٣. تفسيرالرازي٨: ٢١١. ٤. تفسير الرازي ٨: ٢١٢.
٥. أي جاعلين لها علامة مميّزة. ٦. تفسيرأبي السعود٢: ٨٠.
٧. زاد في تفسير أبي السعود: بالعِهن. ٨. تفسيرأبي السعود٢: ٨١.
٩. أبو دُجانة، هو سِماك بن خَرشة الخزرجي الأنصاري، صحابي، من الشجعان، شهد بدراً، وثبت يوم أُحد، وأُصيب بجراحات كثيرة، واستشهد باليمامة سنة ١١ هـ. الاعلام/الزركلي ٣: ١٣٨. ١٠. تفسير الرازي ٨: ٢١٥.

ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ[١٢٦]

ثمّ بيّن سُبحانه عِلّة إمداد المُؤمنين ونُصْرتهم بالملائِكة، معَ كَونه تعالىٰ قادِراً عليها بلا واسِطة؛ بقوله: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾ بإنزال الملائِكة، لعِلّة مِن العِلَل ﴿إِلَّا﴾ لكَوْنه ﴿بُشْرَىٰ﴾ وسُروراً ﴿لَكُمْ﴾ بالنّصر ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾ وتَسكُن إليه أفئِدتكم مِن الخَوف، كما كانت السّكينة لبني إسرائيل، حيث إنّ نظَر العامّة إلىٰ الأسباب ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ﴾ والغَلَبة لأحَدٍ علىٰ عَدُوّه ﴿إِلَّا﴾ وهُو كائِنٌ ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ وحدَه، لا مِن العُدّة والعَدَد؛ لأنّه ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ الغالِب في حُكْمه وقضائه، لا يُغالب ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ العالِم بحقائق الأمور، لا يفعَل ما يفعَل إلّا بالنّظَر إلىٰ الحِكْمة البالِغة، والصّلاح الأتَمّ.

لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ[١٢٧]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَما بيّن عِلّة نَصْر الرّسُول والمؤمنين بوَاسطة إنزال الملائِكة ـ الذي هُو مِن قَبيل الأسباب، معَ عدَم حاجته تعالىٰ في فِعْله إليها بوَجهٍ مِن الوُجوه؛ لأنّه المُسبِّب للأسباب ـ بيّن سُبحانه وتعالىٰ عِلّة أصْل نُصْرة المُؤمنين علىٰ الكُفّار، بقوله: ﴿لِيَقْطَعَ﴾ ويُنقِص ﴿طَرَفاً﴾ وطائِفة ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالقَتْل والأسر، فإنّه قُتِل مِن رؤسائهم وصَناديدهم سَبعون وأسِر سَبعون ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾ ويُغيضهم بخزيهم وقهرهم ﴿فَيَنقَلِبُوا﴾ إلىٰ أماكنهم، ويرجِعوا إلىٰ مَنازلهم ﴿خَائِبِينَ﴾ مَحرومين مِنَ الظَّفَر، مُنهزمين عن القِتال. وكلمة (أو) هُنا للتّنويع، لا التّرديد.

لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ[١٢٨]

ثمّ إنّه تعالىٰ ـ لإظهار شِدّة الغَضَب علىٰ قُريش، أو خُصوص الحاضِرين مِنهم في بَدْر أو اُحُد، ولإعذار النبيّ ﷺ عندَ أرحامه وعَشيرته ـ سدّ باب شَفاعته لهم، بقوله: ﴿لَيْسَ لَكَ﴾ معَ كَوْنك أقرب الخَلْق إلَيّ، وأحبّهم لَدَيّ ﴿مِنَ ٱلْأَمْرِ﴾ الراجِع إلىٰ هؤلاء الكُفّار ﴿شَيْءٌ﴾ مِن الدَّخالة والشّفاعة فَضلاً عن غيرِك، بَل الأمر كُلّه لله المالِك القاهِر.

فإذَن يتعامل معهم بأحَد هذين الأمرين ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ إنْ يَتوبوا ويُسلِموا، ﴿أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ بالقَتْل والأسر والذُّل والفَقْر والمرَض في الدُّنيا، وبالنّار والزَقُّوم والضَّريع في الآخِرة، إنْ أقاموا علىٰ الكُفْر، وأصرّوا علىٰ الضَلال. وليسَ لأحدٍ الاعتِراض علىٰ الله في تَعذيبهم ﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ علىٰ رَسُوله وعلىٰ المُؤمنين، والظُّلم لكَوْنه أشدّ القبائِح، مُوجِبٌ لاستِحقاق أشدّ العذاب.

في ذكر ما أصاب النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم في أحد

رُوي أنّ عُتْبة بن أبي وقّاص شَجّ النبيّ صلّى الله عليه وآله في اُحُد، وكسَر رَبَاعِيتَه[١]، فجعل يمسَح الدَّم عن وَجْهه، وسالِم مَولىٰ حُذيفة يغسِل الدَم عن وَجْهه، وهُو يقول: «كيف يُفلح قومٌ خضِبوا وَجْه نبيِّهم بالدَم، وهُو يدعُوهم إلىٰ ربِّهم» ثمّ أراد أن يدعو عليهم فنزلَتْ[٢].

ورُوي أنّه دَعا علىٰ عُتبة بأن لا يَحُول عليه الحَوْل حتّىٰ يموت كافِراً، فمات كافِراً قَبْل أن يَحول الحَول[٣].

وقيل: إنّه أراد أن يدعُو عليهم، فنَهاه الله تعالىٰ لعِلْمه بأنّ مِنهم مَن يُؤمن[٤].

وفي رِوايةٍ: أنّه صلّى الله عليه وآله كان يمسَح الدَم عن وَجْهه ويقول: «اللّهُمّ اهْدِ قومي، فإنّهم لا يعلَمون»[٥].

وعن عبدالله بن عُمر أنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله لعَن أقواماً، فقال: «اللّهُمّ الْعَن أبا سُفيان، اللّهُمّ العَن حارث بن هشام، اللّهُمّ الْعَن صَفوان بن اُميّة» فنزلَتْ هذه الآيَة: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيهِم﴾ فتاب الله علىٰ هؤلاء وحَسُن إسلامهُم[٦].

أقول: يُعلَم حالُ ابن عُمر مِن تَحْسينه إسلام أبي سُفيان المَعروف بَيْن الفَريقين بالفُسْق والنِّفاق، ولعَلّ مَقصُوده أنّ إسلامه كان أحسَن مِن إسلام نفسه.

وقيل: إنّها نزلَتْ في حَمزة بن عبدالمطلب، وذلك لأنّه صلّى الله عليه وآله لمّا رآه ورأىٰ ما فعلوا به مِن المُثْلة قال: «لأمثِلَنّ مِنهم بثلاثين» فنزلت. وقيل: إنّها نزلَتْ بسَبب أنّه صلّى الله عليه وآله أراد أن يلعَن المُسلمين الّذين خالفوا أمره، والّذين انْهزَموا، فمنَعه الله مِن ذلك، وهُو مَرويّ عن ابن عبّاس رضي الله عنه[٧].

ولعلّ حِكْمة المَنع معَ كَوْنهم مُستحقِّين له، تأليف قُلوبهم، وازْدِياد شَوْكة الإسلام بظاهِر إسلامهم.

وقيل: إنّ (أو) في قوله: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ بمعنىٰ إلّا أن، والمُراد: أنّه ليسَ لك مِن الأمر شيءٌ إلّا أن يتُوب عليهم[٨].

وعن الباقر عليه السلام أنّه قُرِئ عندَه ﴿لَيسَ لَكَ مِنَ الأَمرِ شَيءٌ﴾، قال: «بَلىٰ والله، إنّ له مِن الأمر شيئاً وشيئاً، وليس حيثُ ذهبْتَ، ولكِن اُخبِرُك: أنّ الله تعالىٰ لمّا أخبر نبيّه صلّى الله عليه وآله أن يُظهِر وِلاية عليّ، ففكَر في عَداوة قَومه له؛ في ما فَضّله الله به عليهم في جميع خِصاله، وحَسَدهم له عليها، ضاق عن ذلك، فأخبر الله أنّه ليسَ له مِن هذا الأمر شيء، إنّما الأمر فيه إلىٰ الله أن يُصيِّر عليّاً وَصِيّه ووَلِيّ الأمر بعدَه.

---

١. الرباعية: السِّن بين الثنيّة والناب، وهنّ أربع، ربَاعِيتان في الفك الأعلىٰ، ورَبَاعِيتان في الفك الأسفل.
٢. تفسير الرازي ٨: ٢١٧، تفسير أبي السعود ٢: ٨٣، تفسير الصافي ١: ٣٥٠.
٣. مجمع البيان ٢: ٨٣١.
٤. تفسير أبي السعود ٢: ٨٣.
٥. مجمع البيان ٢: ٨٣١.
٦. تفسير الرازي ٨: ٢١٧.
٧. تفسير الرازي ٨: ٢١٧.
٨. تفسير الرازي ٨: ٢١٩.

فهذا عنىٰ الله، وكيف لا يكون له مِن الأمر شيء وقد فوّض الله إليه أن جعَل ما أحَلّ فهُو حَلال، وما حرّم فهُو حَرام؟!»[1].

وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّماواتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ[١٢٩]

ثمّ أنّه [تعالىٰ] ـ لمّا ذكَر أنّ أمر المَغفِرة والتّعذيب إليه، ولا دَخْل لغيره فيه ـ ذكَر أنّ جميع اُمور المَوجُودات راجِعة إليه، بقوله: ﴿وَلِلَّهِ﴾ بالمُلْكية التّامة؛ بِلا مُشارك ولا مُضادّ ﴿مَا﴾ وُجِد ﴿فِى ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَا﴾ خُلِق ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فأمور جميع المَوجُودات ـ إيجاداً وإعداماً، وإحياءً وإماتةً، وتَصرُّفاً وترتِيباً ـ راجِعة إليه، لا مَدْخل لغيره فيها، فهُو سُبحانه ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ أن يغفِر له، بحَسَب الحِكْمة والتّفضُّل ﴿وَيعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ أن يُعذّبه، بحَسَب العَدْل والاسْتِحقاق.

وإنّما قدّم المَغفرة علىٰ التّعذيب، للدّلالة علىٰ غَلَبة جانِب الرّحمة علىٰ الغَضَب، وللإشعار بأنّ المَغفرة أصلٌ في الغَرَض مِن الخِلْقة، والتّعذيب مَقصُود بالعَرَض.

ولِذا ختَم الآية بتَوْصيف ذاته المُقدّسة ـ بعدَ ذِكْر التّعذيب ـ بالمَغفرة والرّحمة، بقوله: ﴿وٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ للذُّنوب ﴿رَحِيمٌ﴾ بالعِباد. وتَقديم المَغفرة علىٰ الرّحمة، لتقدُّم الأمن مِن العذاب علىٰ الوَعْد بالرّحمة والثّواب.

قيل: إنّ الآية صَريحة في نفي وُجوب التّعذيب[2]، لتَعْليقه علىٰ مشيئته [تعالىٰ].

وفيه: إنّ مشيئته [تعالىٰ] لا تكون إلّا عن حِكْمةٍ بالِغة، ومعنىٰ الوُجوب: عدَم إمكان تخلُّفه عن مُقتضاها، لا الوُجوب التّكليفي، كما هُو واضِح علىٰ ذي مُسْكة.

يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا ٱلرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً وَٱتَّقُوا ٱللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَٱتَّقُوا ٱلنَّارَ ٱلَّتِى أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ * وَأَطِيعُوا ٱللهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ[١٣٠ـ١٣٢]

في حرمة الربا

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدما أناط السّلامة مِن كَيْد العَدوّ وضُرّه بالصّبْر والتّقوىٰ، وهدّد الكُفّار بأنّه يُعذّبهم في الآخرة إنْ لَم يتُوبوا ويُسلِموا، نبّه علىٰ إناطة السّلامة مِن عذاب النّار في الآخرة باجْتِناب أكْل الرِّبا والتّقوىٰ، وأنّ للمُؤمنين مَعصيةً تُشارِك الكُفْر في العُقوبة، بقوله: ﴿يَاأَيُّهَا

---

١. تفسير العياشي ١: ٧٧٨/٣٣٧، تفسير الصافي ١: ٣٥٠.

٢. تفسير البيضاوي ١: ١٧٩.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا﴾ ولا تأخذوا **﴿ٱلرِّبَا﴾** حالَ كَوْنه **﴿أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً﴾** ورِباءات كثيرة مُتكرِّرة.

قيل: كان الرَّجُل في الجاهليّة إذا كان له علىٰ إنسان مائة دِرْهَم إلىٰ أجَل، ولَم يكُن المَديُون واجِداً لذلك المال، قال: زِدْني في المال حتّىٰ أزِيدك في الأجل، فرُبّما جعَله مائتين، ثمّ إذا حَلّ الأجل الثاني فعَل مِثْل ذلك، ثمّ إلىٰ آجالٍ كثيرة، فيأخُذ بسَبب تِلك المائة أضعافها[١].

وتقيِيد الرِّبا بهذه الحال ليسَتْ لتقيِيد النَّهْي بها، حتّىٰ تنتفي الحُرمة بانْتِفائها، بَل لمُراعاة ما كانوا عليه مِن العادة، معَ زِيادة التّشنيع.

﴿وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾ في جميع مانُهِيتم عنه، ومِنه الرِّبا **﴿لَعَلَّكُمْ﴾** بالتّقوىٰ، وتَرك أكْل الرِّبا **﴿تُفْلِحُونَ﴾** وتَفُوزون بأهمّ المقاصِد وتَنالون خَيْر الدّارَين **﴿وَٱتَّقُوا ٱلنَّارَ ٱلَّتِى أُعِدَّتْ﴾** وهُيِّئت في الآخرة **﴿لِلْكَافِرِينَ﴾** ولا تُشارِكوهم بأكْل الرِّبا في التّعذيب بنارهم.

ثمّ أكّد الأمر بالتّقوىٰ بالأمر بالطّاعة بقوله: **﴿وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾** في ما أمراكم به مِن الجِهاد وسائر العِبادات، ومانَهَياكم عنه مِن أخذ الرِّبا الذي يُماثِل الكُفْر، وغيرِه مِن المُحرّمات **﴿لَعَلَّكُمْ﴾** بالطّاعة **﴿تُرْحَمُونَ﴾** فإنّها مُوجبةٌ لرَجاء الرّحمة.

في دلالة الآية علىٰ غاية التغليظ في حرمة الربا

قيل: إنّ في الآيات مِن المُبالغة في التّهديد علىٰ الرِّبا ما لا يخفىٰ علىٰ الفَطِن حيثُ أتىٰ سُبحانه بـ(لعلّ) في فَلاح مَن أتّقاه واجْتَنبه؛ لأنّ تعليق إمكان الفَلاح ورجائه بالاجْتِناب مِنه، يستلزِم امْتِناع الفَلاح لهم إذا لَم يجتنِبوه ويتّقوه معَ إيمانهم، ثمّ أوعد عليه بالنّار التي أُعدّت للكافرين، معَ كَوْنهم مُؤمنين. فما أعظمها مِن مَعصية تُوجب عِقاب الكُفّار للمُؤمنين، وما أشدّه مِن تَغْليظ عليها! ثمّ أيّد التّغْليظ بالأمر بإطاعة الله ورَسُوله؛ تَعْريضاً بأنّ آكِل الرِّبا مُنهمِكٌ في المَعصية ولا طاعة له.

ثمّ علّق رَجاء المُؤمنين رَحمة الله بالطّاعة؛ إشعاراً بأنّه لا رَجاء للرّحمة معَ هذا النّوع مِن العِصيان، فهُو يُوجب اليأس مِن رَحمته للمُؤمنين لانْتِفائها لهم معه. فانظُر كيف درّج التّغليظ في التّهديد، حتّىٰ ألحقه بالكُفّار في الجَزاء والعِقاب، انتهىٰ[٢].

قال رَسُول الله ﷺ: «لعَن الله آكِل الرِّبا، ومُوكِله، وشاهِده، وكاتِبه، والمُحلِّل»[٣].

وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِن رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَاوَاتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ

---

١. تفسير الرازي ٩: ٢، تفسير روح البيان ٢: ٩٢.
٢. تفسير روح البيان ٢: ٩٣.
٣. تفسير روح البيان ٢: ٩٣.

لِلْمُتَّقِينَ [١٣٣]

ثمّ بعدَ أمره سُبحانه بالاجْتِناب عن الرِّبا والتّحرُّز عن النّار، أمر بالمُسارعة إلىٰ العِبادات المُوجبة للمَغفرة والدُّخول في الجنّة، بقوله: ﴿وَسَارِعُوا﴾ وبادِروا ﴿إِلَىٰ﴾ تحصِيل ﴿مَغْفِرَةٍ﴾ كائنة ﴿مِن رَبِّكُمْ﴾ اللّطيف بكم، بالمُبادرة إلىٰ مُوجباتها مِن الإسلام والتّوبة والإخلاص، وأداء الواجِبات وتَرْك المُحرّمات. وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «إلىٰ أداء الفرائض»[١].

﴿وَ﴾ إلىٰ ﴿جَنَّةٍ﴾ وَسيعة ﴿عَرْضُهَا﴾ ووُسْعتها ﴿ٱلسَّمَاوَاتُ﴾ السّبْع ﴿وَٱلْأَرْضُ﴾ قيل: ذكر العَرْض للمُبالغة في وَصْفها بالسَّعة علىٰ طريق التّمثيل، فإنّ العَرْض في العَادة يكون أدنىٰ وأقصر مِن الطُّول[٢].

أقول: هذا الوَجْه مَبنِيّ علىٰ إرادة العَرْض المُقابل للطّول، لا إرادة مُطلَق السَّعة مِنه.

عن العيّاشي: عن الصادق عليه السلام قال: «إذا وضعوهما[٣]»، وبسَط يدَيْه إحداهما معَ الأخرىٰ[٤].

وعن ابن عبّاس: كسَبْع سماوات، وسَبْع أرضين لو وُصِل بعضُها ببعض[٥].

رُوي أنّ رَسُول هِرَقْل[٦] سأل النبيّ صلى الله عليه وآله وقال: إنّك تدعو إلىٰ جنّة عَرضها السّماوات والأرض أُعدت للمُتّقين، فأين النّار؟ فقال النبيّ صلى الله عليه وآله: «سُبحان الله! فأين اللّيل إذا جاء النّهار؟»[٧].

قال الفخر الرازي في تفسيره: والمعنىٰ، والله أعلم: أنه إذا دار الفَلَك حصَل النّهار في جانِب [من العالم]، واللّيل في ضِد ذلِك الجانِب[٨].

وقال الطَّبرسي رحمه الله: هذه مُعارضة فيها إسقاط المسألة؛ لأنّ القادر علىٰ أن يُذهِب اللّيل حيثُ يشاء، قادرٌ علىٰ أن يخلُق النّار حيثُ يشاء[٩].

وقال الفَيض رحمه الله: والسِّرّ فيه أنّ إحدىٰ الدّارَين لكُلّ إنسان، إنّما تكون مكان الأُخرىٰ بدلاً عنها، كما في اللّيل والنّهار[١٠].

ولعلّ المُراد أنّه ليسَ بيْن العالَمين في الآخرة تزاحُم كتزاحُم الأجسام الكثيفة، فكُلٌّ مَشغولٌ بعالَمه، ولا يكون له عالَم آخر، وفي الآية دَلالة علىٰ وجُود الجنّة فِعْلاً.

ثمّ وصَف سُبحانه تِلك الجنّة الوَسيعة بأنها ﴿أُعِدَّتْ﴾ وخُلِقت مُهيّأةً ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ للتّنبيه بأنّه لا حَظّ للعُصاة فيها، فمَن رَجاها بغير التّقوىٰ فهُو مَغرُور.

---

١. مجمع البيان ٢: ٨٣٦، تفسير الصافي ١: ٣٥١.
٢. تفسير روح البيان ٢: ٩٤.
٣. في المصدر: وضعوها كذا.
٤. تفسير العياشي ١: ٧٨١/٣٣٩، تفسير الصافي ١: ٣٥١.
٥. تفسير أبي السعود ٢: ٨٥.
٦. اسم ملك الروم.
٧ و٨. تفسير الرازي ٩: ٦.
٩. مجمع البيان ٢: ٨٣٧، تفسير الصافي ١: ٣٥١.
١٠. تفسير الصافي ١: ٣٥١.

عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «فإنّكم لن تنالوها إلّا بالتّقوىٰ»[١].

ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَاظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ[١٣٤]

ثمّ وصَف المُتّقين بصِفات جميلة هِي أعظم وسائِل نَيْل المَغفرة والجنّة، بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ﴾ مايقدِرون علىٰ إنفاقه ﴿فِى﴾ حالَتي ﴿ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ وفي وَقت سُرورهم بالإنفاق؛ كوَقت الغِنىٰ والسَّعة، وفي وَقت كراهتهم له، كَوقت الفقر والضّيق. والمُراد أنّهم يُنفقون في جميع الأحوال؛ لأنّ الإنسان لا يخلو عن إحدىٰ الحالَتين.

﴿وَٱلْكَاظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ الكاتِمين له علىٰ امتِلائهم مِنه، المُمسِكين عليه، الكافّين عن إمضائه، مع القُدْرة عليه. قيل: الغَيْظ توقّد حَرارة القَلب مِن الغَضَب[٢].

عن النبيّ صلّى الله عليه وآله: «مَن كظَم غيظاً، وهُو قادر علىٰ إنفاذه، ملأ الله قَلبه أمنا وإيماناً»[٣].

وعن الصادق عليه السلام قال: «مَن كظَم غيظاً، ولَو شاء أن يمضِيه أمضاه، ملأ الله قَلبه[٤] رِضاه»[٥].

وعن النبيّ صلّى الله عليه وآله: «مَن كظَم غيظاً، وهُو يستطيع أن يُنفِذه، زوّجه الله مِن الحُور العِين حيثُ يشاء»[٦].

وقال صلّى الله عليه وآله: «ما مِن جُرْعتين أحبّ إلىٰ الله مِن جُرْعة مُوجِعة يجرَعها صاحِبُها بحُسْن صَبْر وعزاء، ومِن جُرْعة غَيْظٍ كظمها»[٧].

وعنه صلّى الله عليه وآله: «ليسَ الشّديد بالصُّرْعة، لكنّه الذي يملِك نفسَه عندَ الغَضَب»[٨].

﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ التّاركين عُقوبة مَن استحقّها مِنهم ويُحتَمل كَوْن ذِكْر الوَصْفَين بسَبب غَضَب رَسُول الله صلّى الله عليه وآله علىٰ مَن فرّ مِن الزّحْف يومَ أُحُد، فندَب إلىٰ كَظْم الغَيْظ والعَفْو عنهم، أو بسَبب غَضَبه صلّى الله عليه وآله حينَ مثّلوا بحمزة رضي الله عنه وقال: «لأُمَثِّلَنّ بهم» وكان عَفْوه تَركه للمُثْلة.

عن النبيّ صلّى الله عليه وآله: «أنّ هؤلاء في أُمّتي قليلٌ إلّا مَن عصَمه الله، وقد كانوا كثيراً في الأُمَم التي مضَتْ»[٩].

عن الصادق عليه السلام قال: «قال رَسُول الله صلّى الله عليه وآله: عليكم بالعَفْو، [فإنّ العفو] لا يَزيد العَبْدَ إلّا عِزّاً، فتعافَوا يُعِزّكم الله»[١٠].

---

١. الخصال: ١٠/٦٣٣، تفسير الصافي ١: ٣٥١. ٢. تفسير روح البيان ٢: ٩٤.
٣. تفسير الرازي ٩: ٧. ٤. زاد في الكافي: يوم القيامة.
٥. الكافي ٢: ٦/٩٠، تفسير الصافي ١: ٣٥١. ٦ و٧. تفسير الرازي ٩: ٧.
٨. تفسير الرازي ٩: ٨. ٩. تفسير روح البيان ٢: ٩٥.
١٠. الكافي ٢: ٥/٨٨، تفسير الصافي ١: ٣٥١.

ورُوي أنّه يُنادي مُنادٍ يومَ القِيامة: أين الّذِين كانت أُجورهم علىٰ الله؟ فلا يقوم إلّا مَن عفا[1].

وإنّما ذكَر سُبحانه الإنفاق بصِيغة المُضارع لكَوْنه مِمّا يتجدّد ويحدُث، والكَظْم والعَفْو بصِيغة الفاعل لكَونهما مِن المَلَكات المُستمَرّة.

ثمّ أشار سُبحانه إلىٰ عِلّة تَخْصيصه الجنّة بالمُتّقين وتَهْيئتها نُزُولاً لهم، بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ الّذِين تمّت فضائِلُهم، وعمّت فواضِلُهم، فاستحقّوا بحُبّه إيّاهم هذا التّشريف والتّكريم، وبإحسانهم إلىٰ الغير، بالإنفاق وكَظْم الغَيْظ والعَفْو والإحسان الجسيم مِن الله.

وقيل: إنّ الصِّفات الثّلاث لمّا كانت مُشترَكة في كَوْنها إحساناً إلىٰ الغَير، خَصّ المُتّصِفين بها بثوابٍ أعظم مِن الجنّة ونَعِيمها، وهُو حُبّ الله لهم.

وقيل: إنّ الآية جامِعة لجميع جِهات الإحسان إلىٰ الغَير، فإنّه إمّا يكون بإيصال النَّفْع إليه، أو بدَفْع الضَّرَر عنه أمّا إيصال النَّفْع إليه، فهُو المُراد بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّاءِ وَٱلضَّرَّاءِ﴾ فإنّه يدخُل فيه إنفاق العِلْم بتَعْليم الجاهِلين، وهِداية الضّالّين، وإنفاق القُوىٰ بالسَّعْي في قَضاء الحوائج، وإنفاق المال في وُجوه الخَيرات وأمّا دَفْع الضَّرَر عن الغَير، فهُو إمّا في الدُّنيا، وهو أن لا يشتغِل بإساءة في مُقابل إساءة، وإمّا في الآخرة، فهُو أن يُبرئ ذِمّته مِن التَّبِعات والمُطالَبات.

رَوىٰ بعضُ العامّة أنّ خادِماً كان قائِماً علىٰ رأس الحَسن بن عليّ عليهما السلام، وهُو معَ أضيافه في المائِدة، فانحرَفت قَصْعة كانتْ في يَد الخادم، فسقَط مِنها شيءٌ علىٰ الحسَن فقال: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ قال عليه السلام: «قد عفَوْتُ عَنك» فقال: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾. قال عليه السلام: «أنت حُرٌّ لوَجْه الله، وقد زوّجتُك فُلانة فَتاتي، وعَلَيّ ما يُصلِحكما»[2].

وعن السّجاد عليه السلام مِن طُرُق أصحابنا: أنّ جارية له صبّتْ علىٰ يدَيه الماء، فسقَط الإبريق مِن يدِها فشجّه، فرفَع رأسه إليها، فقالت الجارية: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ قال عليه السلام لها: «كظَمتُ غَيْظي». فقالت: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ فقال عليه السلام: «عفا اللهُ عنك». فقالت: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾. قال عليه السلام: «ازجِعي، أنتِ حُرّةٌ لوَجْه الله»[3].

أقول: يُستفاد مِن الرِّوايتين أنّ التّذيِيل لبَيان صِفة رابعة؛ وهي الإحسان إلىٰ المُسيء ببَذْل المال، وإيصال النَفع إليه، أو دَفْع الضَّرَر عنه.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا ٱللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾

---

١. تفسير روح البيان ٢: ٩٥.
٢. تفسير روح البيان ٢: ٩٥.
٣. مجمع البيان ٢: ٨٣٨، تفسير الصافي ١: ٣٥١.

وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ[١٣٥]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ بَيان اهتِمامهم بالطّاعة، وصفَهم بالمُسارعة إلىٰ التّوبة عندَ الزّلّة والتّقصير في الطاعة، بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا﴾ وارتكبوا فِعْلة ﴿فَاحِشَةً﴾ ومَعصيةً شَديدة القَباحة، كالزّنا، وقَتْل النّفس ﴿أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بارتِكاب الصّغائر مِن الذّنوب، كالنّظَر إلىٰ الأجنبية وأمثاله، أو بالتّقصير في الطّاعة.

وقيل: إنّ المُراد بالفاحِشة: الظُّلم علىٰ الغَير[١]؛ كالغِيبة والبُهتان، ومن الظُّلم علىٰ النّفس: الذّنوب التي لا تضُرّ بالغير، كشُرب الخَمْر وأضرابه.

﴿ذَكَرُوا ٱللَّهَ﴾ والتَفتوا إلىٰ عَظَمته وعَظيم حَقّه المُوجِبَين للحَياء مِنه، أو إلىٰ وَعيده وسَخَطه المُورِثَين للخَشْية.

وقيل: إنّ المُراد: ذِكْر الله بالثّناء والتّعظيم، فإنّ مِن مُوجِبات كمال الدُّعاء وقُرْبه إلىٰ الإجابة، الثّناء علىٰ الله قَبْله.

﴿فَاسْتَغْفَرُوا﴾ وطلَبوا السّتْر ﴿لِذُنُوبِهِمْ﴾ بِلا تأخير وتَسْويف، وتابوا تَوْبةً خالِصةً، ناشِئةً عن حقيقة النّدَم المُلازِم للعَزْم علىٰ التّرْك في المُستقبل.

ثمّ حثّ سُبحانه علىٰ الاستِغفار والإنابة إليه بقوله: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ﴾ ويتَجاوز عنها ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فإنّه يَستحيل غُفرانُها مِن غَيره، فلا مَفْزع للمُذنِبين إلّا فَضْله وكَرَمه. وفيه بِشارة لهم بوَصْف ذاته بسَعَة الرَّحمة، وقَبُول التّوبة، وقُرْب المَغفرة.

عن ابن عبّاس رضي الله عنه: أنّ هذه الآية نزلَتْ في رَجُلَين أنصاري وثَقَفي، والرّسُول صلّى الله عليه وآله [كان قد] آخىٰ بيْنهما، وكانا لا يفترقان في أحوالهما، فخرج الثّقفي مع الرّسُول صلّى الله عليه وآله بالقُرْعة في السّفَر، وخلّف الأنصاري علىٰ أهله ليتَعاهدهُم، فكان يفعَل ذلِك، ثمّ قام إلىٰ امرأته ليُقبّلها، فوضعَت كفّها علىٰ وَجْهها فندِم الرَّجُل، فلمّا وافىٰ الثّقَفي معَ الرّسُول صلّى الله عليه وآله لم يرَ الأنصاري، وكان قد هَام في الجِبال للتّوبة، فلمّا عرَف الرّسُول صلّى الله عليه وآله سكَت حتّىٰ نزلَتْ[٢].

وقيل: إنّ نبهان[٣] التّمار أتَتْه امرأةٌ حسناء تطلُب مِنه تمراً، فقال لها: هذا التّمر ليسَ بجيّد، وفي البيت تمرٌ أجود مِنه، فذهَب بها إلىٰ بيته فضمّها إلىٰ نفسه وقبّلها، فقالت له: اتّقِ الله، فترَكها ونَدِم علىٰ ذلِك، وأتىٰ [الرسُول] صلّى الله عليه وآله وذكَر له ذلِك، فنزلَتْ[٤].

---

١. تفسير أبي السعود ٢: ٨٦.
٢. تفسير الرازي ٩: ٩.
٣. في النسخة: تيهان، راجع: أُسد الغابة ٥: ١٣.
٤. تفسير أبي السعود ٢: ٨٦.

في ذكر توبة الشاب النبّاش

ورُوي أنّ مُعاذ بن جَبل دخَل علىٰ رَسُول الله ﷺ باكِياً فسلّم، فرَدّ عليه السَّلام وقال: «ما يُبكِيك يا مُعاذ؟» فقال: يا رسول الله، إنّ بالباب شاباً طَرِيَ الجَسَد، نَقيّ اللَّون، حَسَن الصُّورة، يبكي علىٰ شَبابه بُكاءَ الثَّكْلىٰ علىٰ وَلَدها، يُريد الدُّخول عليك، فقال النبيّ ﷺ: «أدخِلْ عَليّ الشّابَ يا مُعاذ» فأدخَله عليه فسلّم، فردّ عليه ثمّ قال: «ما يُبكيك يا شابّ؟». قال: كيف لا أبكي، وقد ركِبتُ ذُنوباً إن أخذَني اللهُ عزّ وجلّ ببعضِها أدخلني نار جهنّم! ولا أراني إلّا سيأخُذني بها، ولا يغفِر لي أبداً.

فقال رَسُول الله ﷺ: «هل أشركتَ بالله شيئاً؟»، قال: أعوذ بالله أن أُشرِك بربّي شيئاً، قال: «أقتلتَ النّفس التي حرّم الله؟». قال: لا. فقال النبيّ ﷺ: «يغفِر اللهُ لك ذُنوبك وإن كانت مِثْل الجِبال الرّواسِي». قال الشّاب: فإنّها أعظم مِن الجِبال الرّواسِي.

فقال النبيّ ﷺ: «يغفر الله [لك] ذُنوبك وإن كانتْ مِثْل الأرضين السَّبْع، وبِحارها، ورِمالها، وأشجارها، وما فيها مِن الخَلق». قال الشّاب: فإنّها أعظم مِن الأرضين السَّبْع وبِحارها ورِمالها وأشجارها وما فيها مِن الخَلق.

فقال النبيّ ﷺ: «يغفِر الله لك ذُنوبك وإن كانتْ مِثْل السّماوات ونُجومها، ومِثْل العَرْش والكُرسِيّ». قال: فإنّها أعظم مِن ذلك.

قال: فنظَر إليه النبيّ ﷺ كهَيئة الغَضْبان، ثمّ قال: «وَيْحَك يا شابّ، ذُنوبك أعظم أم ربّك؟»، فخرّ الشّابّ لوَجْهه وهُو يقول: سُبحان ربّي، ما مِن شَيءٍ أعظم مِن ربّي، ربّي أعظم - يا نبيّ الله - مِن كُلّ عظيم [فقال النبيّ ﷺ: «فهل يَغفِر الذّنب العظيم إلّا الربّ العظيم» قال الشابّ: لا والله يا رسول الله. ثمّ سكت الشّابّ].

فقال النبيّ ﷺ: «ويْحَك يا شابّ، ألَا تُخبِرني بذَنْبٍ واحدٍ مِن ذُنوبك؟». قال: بَلىٰ أُخبِرك: إنّي كنتُ أنبِش القُبور سبْع سنين، أُخرِج الأموات وأنزع الأكفان، فماتَتْ جارية مِن بعضِ بنات الأنصار، فلمّا حُمِلتْ إلىٰ قَبرها ودُفِنتْ، وانصرف عنها أهلُها، وجَنّ عليها اللّيل، أتيتُ قبرَها فنبَشتُها، ثمّ استخرجتُها ونزعتُ ما كان عليها مِن أكفانها، وتركتُها مُجرّدة علىٰ شَفير قَبرها، ومضيتُ مُنصرفاً، فأتىٰ[1] الشّيطان فأقبَل يُزيِّنها لي ويقول: أما ترىٰ بَطْنَها وبياضها؟ أما ترىٰ وِرْكيها[2]، فلَمْ يزَلْ يقول لي هذا حتّىٰ رجَعت [إليها] ولَم أملِك نفسي حتّىٰ جامعتُها وتركتُها مَكانها، فإذا أنا بصوتٍ مِن ورائي

---

١. في أمالي الصدوق: فأتاني.

٢. الوِرك: ما فوق الفَخِذ.

يقول: يا شابّ، وَيْلٌ لك مِن دَيّان يوم الدِّين يوم يقضيني وإيّاك[١]، تركتَني عُريانة في عساكر الموتىٰ، ونزَعتَني مِن حُفرتي، وسلَبتَني إهابي[٢]، وتركتني أقوم جُنُبَةً إلىٰ حِسابي، فويلٌ لشبابِك مِن النّار. فما أظنُّ أنّي أشِمّ ريحَ الجنّة أبداً، فما ترىٰ يا رَسُول الله؟

فقال النبيّ: «تَنَحَّ عَنّي يا فاسِق، إنّي أخاف أن احترِق بنارك، فما أقربك مِن النّار!»، ثمّ لَم يزَل ﷺ يقول ويُشير إليه حتّىٰ أمعَن مِن بَيْن يدَيه فذهب.

فأتىٰ المدينة فتزوّد مِنها، ثمّ أتىٰ بعضَ جِبالها فتعبّد فيها ولبسَ مِسْحاً[٣]، وغَلّ يدَيه جميعاً إلىٰ عُنُقه ونادىٰ: يا ربّ، هذا عبدُك بُهْلول بَيْن يدَيك مَغلول، يا ربّ أنت الذِي تعرِفني وزَلّ مِنّي ما تعلَم سيّدي، يا ربّ إنّي أصبحتُ مِن النّادِمين، وأتيتُ نبيّك تائباً فطرَدني وزادَني خوفاً، فأسألُك باسْمك وجَلالك وعِظَم سُلطانك أن لا تُخيِّب رَجائي سيّدي، ولا تُبطِل دُعائي، ولا تُقنِطْني مِن رَحمتك. فلَم يزَل يقول ذلك أربعين يوماً وليلة، تبكي له السِّباع والوُحوش.

فلمّا تمّت له أربعون يوماً وليلة، رفَع يدَيه إلىٰ السّماء وقال: اللّهمّ ما فعلْتَ في حاجتي؟ إنْ كنْتَ اسْتجبْتَ دُعائي، وغفرتَ خطيئتي، فأوْحِ إلىٰ نبيّك، وإنْ لَم تستجِبْ دُعائي ولَم تغفِر لي خطيئتي وأردتَ عُقوبتي، فعجِّلْ بنارٍ تُحرقني، أو عُقوبةٍ في الدُّنيا تهلِكني، وخلِّصْني مِن فضيحة يوم القِيامة.

فأنزل الله تعالىٰ علىٰ نبيّه **﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾** يعني الزّنا **﴿أَو ظَلَمُوا أَنفُسَهُم﴾** يعني بارْتِكاب ذَنْبٍ أعظم مِن الزّنا، وهُو نَبْش القُبور، وأخْذ الأكفان **﴿ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِم﴾** يقول: خافُوا الله فعجّلوا التّوبة **﴿وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلّا اللهُ﴾** يقولُ الله: أتاك عبدي يا محمّد تائباً فطردْتَه، فأين يذهب، وإلىٰ مَن يقصِد، ومَن يسأل أن يغفِر له ذَنْبه غيري؟ ثمّ قال تعالى: **﴿وَلَم يُصِرُّوا عَلىٰ مَا فَعَلُوا﴾** يقول: لَم يُقيموا علىٰ الزّنا، ونَبْش القُبور، وأخْذ الأكفان.

إلىٰ أن قال: ولمّا نزلَتْ هذه الآية علىٰ رَسُول الله ﷺ، خرَج وهُو يتلوها ويتبسّم، فقال لأصحابه: «مَن يدُلّني علىٰ ذلك الشّابّ التّائِب؟». فقال مُعاذ: يا رَسُول الله، بلَغنا أنّه في موضِع كذا وكذا، فمضىٰ رسُول الله ﷺ مع أصحابه، حتّىٰ انتهىٰ إلىٰ ذلك الجَبل، فصَعِدوا إليه يطلبُون الشّابّ، فإذا هُم بالشّابّ قائِم بين صَخْرتين مَغلُولة يدَاه إلىٰ عُنُقه، قد اسْودّ وَجْهُه، وتساقطَتْ أشفار عينيه مِن البُكاء، وهُو يقول: سيّدي قد أحسنتَ خَلْقي، وأحسنتَ صُورتي، وليتَ شِعري ماذا تُريد بي، أفي النّار تُحرقني، أم في جِوارك تُسكِنُني؟ اللّهمّ إنّك قد أكثرتَ الإحسان إليّ وأنعمتَ علَيّ، فليتَ شِعري

---

١. في أمالي الصدوق: يقِفُني وإيّاك كما.

٢. في أمالي الصدوق: أكفاني.

٣. المِسح: هو كساء من شعر يلبسه الراهب.

ماذا يكون آخِر أمري، إلىٰ الجنّة تزفّني، أم إلىٰ النّار تسُوقني، اللّهمّ إنّ خطيئتي أعظم مِن السّماوات والأرض، ومِن كُرسِيّك الواسِع، وعَرْشك العظيم، فليتَ شِعري تغفِر خطيئتي، أم تفضَحني بها يومَ القِيامة.

فلم يزَل يقول نَحْو هذا [وهو يبكي] ويحثو التّراب علىٰ رأسه، وقد أحاطت به السِّباع، وصفّت فوقه الطّير، وهُم يبكون لبُكائه، فدَنا رَسُول الله ﷺ فأطلق يدَيه مِن عُنقه، ونَفض التُّراب عن رأسه، وقال: «يا بُهلول، أبشِر فانك عَتيق الله مِن النّار». ثمّ قال لأصحابه: «هكذا تَداركوا الذُّنوب كما تَداركها بُهلول»، ثمّ تلا عليه ما أنزل الله عزّ وجلّ فيه، وبشّره بالجنّة[1].

عن البَرْقي عن الصادق عليه السلام قال: «لمّا نزلَتْ هذه الآية صعِد إبليس جبَلاً[2]، فصرخ بأعلىٰ صَوته بعَفاريته، فاجتمعوا إليه فقالوا: يا سيِّدنا لماذا دعَوتنا؟ قال: نزلت هذه الآية، فمَن لها؟ فقام عِفريت مِن الشّياطين فقال: أنا لها بكذا وكذا، فقال: لستَ لها، فقام آخر فقال مِثْل ذلك، فقال: لستَ لها، فقال الوَسْواس الخَنّاس: أنَا لها، فقال: بماذا؟ قال: أعِدُهم وأُمنِّيهم حتّىٰ يُواقِعوا الخطيئة، فإذا وقعوا في الخطيئة أنسيتُهم الاسْتِغفار، فقال: أنت لها، فوكّل بها إلىٰ يوم القِيامة»[3].

وعن ابن مَسعُود: قال المُؤمنون للنبيّ ﷺ: كانت بنُو إسرائيل أكرم علىٰ الله مِنّا، فكان أحدهم إذا أذنب ذَنباً أصبحتْ كَفّارة ذَنْبه مَكتوبة علىٰ عَتَبة داره: اجدَعْ أنفك، افعَلْ كذا، فأنزل الله هذه الآية وبيّن أنّهم أكرم علىٰ الله مِنهم؛ حيثُ جعَل كَفّارة ذَنْبهم الاسْتِغفار[4].

ثمّ أكّد الله سُرعة المُؤمنين إلىٰ الاسْتِغفار، وعَزْمهم علىٰ عدَم العَوْد في المعصية، بقوله: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا﴾ ولم يُديموا ﴿عَلَىٰ مَا فَعَلُوا﴾ مِن الذّنب غَير مُستغفِرين.

عن (الكافي): عن الباقر عليه السلام قال: «الإصرار: أن يُذنِب الذَّنب فلا يستغفِر الله، ولا يُحدّث نفسه بتَوبة، فذلك الإصرار»[5].

وعن النبيّ ﷺ: «ما أصرّ مَن استغفر، وإن عاد في اليوم سبعين مرّة»[6].

وعن الصادق عليه السلام قال: «والله، ما خرج عبدٌ مِن ذَنْبٍ بإصرار، وما خرج عبدٌ مِن ذَنْب إلّا بإقرار»[7].

وعنه عليه السلام: «لا صغيرة معَ الإصرار، ولا كبيرة معَ الاسْتِغفار»[8].

ثمّ قيّد سُبحانه قُبح الإصرار بقوله: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ مَوضوع المعصية وقُبحه وحُرْمته؛ لأنّ الجَهل -

---

١. أمالي الصدوق: ٧٦/٩٧، تفسير الصافي ١: ٣٥٢. وراجع: أُسد الغابة ١: ٢١٠ ترجمة بهلول بن ذؤيب.
٢. زاد في الأمالي: بمكّة يُقال لَه ثور.
٣. أمالي الصدوق: ٧٣٦/٥٥١، تفسير الصافي ١: ٣٥٢.
٤. تفسير الرازي ٩: ٩.
٥. الكافي ٢: ١/٢١٩، تفسير الصافي ١: ٣٥٢.
٦. تفسير أبي السعود ٢: ٨٧.
٧. الكافي ٢: ٤/٣١٢، تفسير الصافي ١: ٣٥٢.
٨. الكافي ٢: ١/٢١٩، تفسير الصافي ١: ٣٥٢.

بالموضوع مُطلقاً، وبالحُكْم إذا كان عن قُصُور ـ عُذْر، ومَرفوع في الشَّريعة، بخِلاف ما إذا كان الجَهل بالحُكْم عن التَّقصير في التَّعلّم، فإنّ الجاهل المُقصّر بمَنزلة العامِد إجماعاً.

أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَامِلِينَ[١٣٦]

ثمّ أكّد سُبحانه تَخصيص الجنّة بالمتّقين الواجِدين للصِّفات الحميدة، المُستلزِم لتَخصيص المَغفرة لهم، بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ المُتّقون المُتّصفون بتِلك الصِّفات ﴿جَزَاؤُهُم﴾ وثَوابهم علىٰ التّقوىٰ والاتّصاف بها، أوّلاً: ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ كائِنةٌ ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾ الرّؤوف بهم، ﴿وَ﴾ ثانياً: ﴿جَنَّاتٌ﴾ عَديدة كثيرة الأشجار ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ﴾ حالَ كَوْنهم ﴿خَالِدِينَ﴾ مُقيمين ﴿فِيهَا﴾ أبداً، لا تنقضي ساعاتُها، ولا تمضي لذّاتُها. وإنّما قدّم المَغفرة، لأنّها دَفْع الضَّرَر المُقدّم علىٰ جَلب النَّفْع.

ثمّ مدَح سُبحانه ما أعدّ لهم مِن الجَزاء لزيادة التّرغيب إليه، بقوله: ﴿وَنِعْمَ﴾ الأجر ﴿أَجْرُ ٱلْعَامِلِينَ﴾ بمَرضاة الله، المُبالغين في طاعته. وفي التّعبير عن تفضّله بالأجر، دَلالة علىٰ أنّه بالاستِحقاق واللِّياقة.

قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ * هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ[١٣٧ و ١٣٨]

ثمّ حثّ الله عِباده علىٰ طاعته وطاعة رَسُوله، ورغّبهم في تَربية نُفوسهم وجِهاد أعدائهم، بتَذْكيرهم أحوال العُصاة مِن الأُمَم الماضية بقوله: ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ ومضَتْ في الأُمَم الّذين كانوا ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ في القُرون الخَالية ﴿سُنَنٌ﴾ ومُعاملات مِن الله، ووقائع عَظيمة، مِن الخَسْف، والغَرَق، والإهلاك بالصَّيْحة، والصَّاعِقة، والرَّجْفة، لمُخالفتهم الأنبياء والرُّسُل حرصاً علىٰ الدُّنيا، واتّباعاً للهَوىٰ، وطلَباً للذّات، وانْغِماراً في الشَّهَوات، وحِفظاً للرئاسات.

وقيل: إنّ المُراد مِن السُّنَن السِيرة المُستقيمة الجَارية فيهم، مِن إهلاك عُصاتهم وطُغاتهم بَعذاب الاستئصال.

ثمّ لم يبقَ مِنهم أثرٌ، وبقي عليهم اللَّعْن والعَذاب الدّائِم المُستقرّ، فإن أردتُم الاطّلاع علىٰ سُوء حالهم ووَخامة مآلهم ﴿فَسِيرُوا﴾ وسِيحوا ﴿فِي﴾ وَجْه ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ لتعرِفوا أحوالهم بمُشاهدة آثارهم، فإنّ أثر المُشاهدة أقوى في القَلب مِن أثر السَّماع.

وقيل: إنّه ليسَ المُراد المُسافرة والمَشْي بالأقدام، بَل المُراد تتبُّع ما يُوجِب العِلْم بوقائعهم،

وتحصِيل اليَقين بفجانعهم، ولَو بسير الكتُب.

﴿فَانْظُرُوا﴾ فيها حتّىٰ تعلَموا ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ﴾ أمر ﴿ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ للرُّسُل، المُعارضين للحَقّ وأوليائه. عن الصادق عليه السلام: «انظُروا في القُرآن»[1].

ولعلّه تعالىٰ أشار إلىٰ هذا المعنىٰ بقوله: ﴿هٰذَا﴾ القُرآن ﴿بَيَانٌ﴾ وإيضاحٌ لسُوء عاقبة الأُمَم الماضية، وحُجّة قاطِعة للعُذْر ﴿لِلنَّاسِ﴾ كافّة ﴿وَهُدىً﴾ ورُشداً إلىٰ الصَواب، ودَلالة إلىٰ الحَقّ ﴿وَمَوْعِظَةٌ﴾ زاجِرة عن الضَّلال ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ خاصّة، حيثُ إنّهم المُنتفِعون به، المُستضيئُون بنُوره.

ثمّ إنّه قيل: إنّ الآيتَين مُقدّمة للرُّجوع إلىٰ قضّية أُحُد، حيثُ إنّه تعالىٰ بعدَ تَمْهيد مَبادئ الرُّشد والصَّلاح، وترتيب مُقدّمات الفَوز والفَلاح، ذكَر المُؤمنين أحوال القُرون الماضية، ونبّههُم بأنّ أهل الباطِل وإن كانت لهم الصَّوْلة في اليَد، ولكِن صار مَآلُ أمرهم إلىٰ الضَّعْف والخِزي والهَلاك، وأهل الحَقّ بعدَ الضَّعْف صارتْ دَولتُهم غالِبة، وكلِمتُهم عالِيَة.

وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنْتُم مُؤْمِنِينَ * إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَٱللهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّالِمِينَ[١٣٩ و ١٤٠]

ثمّ نَهاهم عن الضَّعف والجُبْن في قِتال أهل الباطِل بقوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ ولا تضعُفوا في جِهاد المُشركين، لما ترَون مِن صَولتهم ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ لِمَا أصابكم مِن القَتْل والجُرْح في قِتالهم ﴿وَأَنْتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ المُستَولون عليهم بالمآل، وهُم مَقهورون لكم في العاقِبة حَسَب ما شاهدتُم في أحوال أسلافهم، وهذه البِشارة مِن الله كافِيةٌ لقُوّة قُلوبكم، وسُرور خاطِركم ﴿إِن كُنْتُم مُؤْمِنِينَ﴾ بما يعِدُكم ويُبشّركم مِن النَصْر والغَلَبة عليهم، حيثُ إنّ مِن لَوازِم الإيمان الثِّقة بالله، وتَصديق وَعْده، والتَوكُّل عليه، وعدَم المُبالاة بأعدائه.

ثمّ سلّىٰ سُبحانه قُلوبهم بقوله: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ﴾ ويُصِبكم مِنهم ﴿قَرْحٌ﴾ وجُرح ﴿فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ﴾ المُشركين وأصابهم مِنكم ﴿قَرْحٌ﴾ وجُرح ﴿مِثْلُهُ﴾ ببَدْر، ولَم يُضعِف ذلِك قُلوبهم، ولَم يُثبِّطهم عن مُعاودتكم بالقِتال، بَل زاد ذلك في جِدّهم فيه.

قيل: قتَل المُسلمون مِن المُشركين ببَدْر سَبعين، وأسَروا سَبعين، وقتَل المُشركون مِن المُسلمين بأُحُد سَبعين، وأسَروا سبعين[2].

---

١. الكافي ٨: ٣٤٩/٢٤٩، تفسير الصافي ١: ٣٥٥.
٢. تفسير روح البيان ٢: ٩٩.

وحاصِل المعنىٰ: إنْ نالوا مِنكم يوم اُحُد، فقَد نِلْتُم مِنهم قَبْله يوم بَدْر مِثْل ما نالوا، ثمّ لَم تضعُف قُلوبهم، معَ أنَكم أولىٰ بأن لا تضعُفوا؛ لأنَكم ترجُون مِن الله ما لايرجُون.

وقيل: إنّ المُراد: إنْ نال المُشركون في اُحُد مِنكم آخِر النَهار، فقد نِلْتم مِنهم أوّل النَهار، فقتُل مِن المُشركين في اُحُد أوّلاً نَيِّف وعشرون رَجُلاً، وقُتِل صاحِبُ لوائهم طَلْحة بن أبي طلحة، وعُقِرت عامّة خُيولهم بالنَّبْل، وكانت الهَزيمة عليهم أوّل النَهار.

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ﴾ والوَقائع الجارية في الأُمَم الماضية والأقوام الآتية مِن الصَّوْلة والجولة والقاهِريّة والمَقهوريّة أمور ﴿نُدَاوِلُهَا﴾ ونصرِّفها ﴿بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ مِن الأوّلين والآخِرين، ونجعل الغَلَبة تارةً لطائِفة، وأُخرىٰ لأُخرىٰ.

فإنّه لو كانت المِحْنة والشِدّة علىٰ الكُفّار في جميع الأوقات، والغَلَبة والفَتح والسَلامة للمُؤمنين في جميع الأوقات، لحصَل العِلْم الضُّروري والاضْطِراري لجميع النّاس بأنّ الإيمان حَقّ، وما سِواه باطِل، ولَو كان كذلك لبطَل التَكليف والثَواب والعِقاب.

فلهذا يُسلِّط الله المِحْنة علىٰ أهل الإيمان تارةً، وعلىٰ أهل الكُفْر أُخرىٰ، لتكون الشُّبُهات باقية، والمُكلَّف ـ بالنَّظَر في الدَّلائِل، بالاجْتِهاد الصّائب ـ يدفَعها حتّىٰ يعظُم ثوابُه.

ثمّ بيّن سُبحانه أنّ غَلَبة الكُفّار علىٰ المُؤمنين ـ لهذا الوَجْه ولغيره ـ مِن الحِكَم الخَفيّة، والمَصالح المَكنُونة ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ واخلَصوا إيمانهم، وثبَتوا عليه، ويُميّزهم بَيْن النّاس مِن غيرهم ﴿وَ﴾ لأن ﴿يَتَّخِذَ﴾ الله ويختار طائِفة ﴿مِنكُمْ شُهَدَاءَ﴾ في سبيل الله، مَقتولين في تَرْويج دينه، وإعلاء كِلمته، وهُم الّذِين أكرمهم الله في اُحُد بالشَّهادة، ونالوا بهذه الكرامة دَرجة يغبِطهم بها الأوّلون والآخِرون غيرُ البَدريّين والطَّفيّين.

ثم أنّه تعالىٰ ـ لتَقْرير أنّ غَلَبة المُشركين لَم تكن مِن التَفضُّل عليهم واللُّطف بهم، بَل كانت لابْتِلاء المُؤمنين عامّة، ولتَكريم طائِفة مِنهم خاصّة ـ أعلن بالغَضَب علىٰ المُشركين بقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّالِمِينَ﴾ بَل يبغُضهم.

وإنّما عدَل سُبحانه عن التَعبير بـ(المُشركين) إلىٰ التَعبير بـ(الظالمين)، للإشارة إلىٰ عِلّة الغَضَب وهُو الظُّلم علىٰ أنفسهم، وعلىٰ النبيّ ﷺ، ولأن يشمُل العُنوان جميع مَن عصىٰ الله، [سَواء] كان العِصيان بالشِّرك، أو الفِرار مِن الزَّحْف.

وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ ٱلْكَافِرِينَ[١٤١]

ثمَ أنّه تعالىٰ ـ بعدَ بَيان عِلّتين لغَلَبة المُشركين: مِن امتِحان مَن يُظهِر الإيمان، وتمييز الثّابتين عليه مِن غيرِهم، وإكرام جَماعة مِن المُؤمنين بالشّهادة ـ ذكَر العِلّة الثالثة بقوله: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ ويُطهّرهم مِن دَنَس الذُّنوب، بسَبب ما أصابهم مِن المِحَن والجِراحات، فإنّ الشّدائِد الدُّنيويّة أدَب لهم، وكفّارة لزلّاتهم.

ثمَ أشار سُبحانه إلىٰ العِلّة الرابعة بقوله: ﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَافِرِينَ﴾ الّذين حارَبوا رَسُوله ﷺ ويُهلِكهم قليلاً قليلاً، بسبَب شِدّة اسْتِحقاقهم لعَذابه إنْ لَم يُسلِموا، ولَم يتُوبوا مِن ظُلْمهم علىٰ النبيّ والمُؤمنين، وأصرّوا علىٰ كُفْرهم وشِقاقهم.

قيل: إنّ الله محَقهم جميعاً، فظهَر مِن الآية: أنّ الدّولة إذا كانت علىٰ المُؤمنين، كان هَلاكهم تَطهيراً لذُنوبهم، ورَفعاً لدَرجاتهم عندَ الله.

أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّابِرِينَ[١٤٢]

ثمَ لمّا كان الامتِحان هُو الغاية القُصوىٰ مِن المُداولة، أكّده سُبحانه وقرّره بقوله، مُخاطباً للمُنهزمين مِن المُؤمنين يومَ أُحُد: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ قيل: إنّ التّقدير: أعلِمتُم أنّكم لا تَنالون خَيراً إلّا بثَباتكم في الإيمان، وصَبْركم علىٰ جِهاد أعداء الله؟ أم توهَمتُم ﴿أَن تَدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ﴾ وتَنالوا أعلىٰ دَرجات الخَيرات، ﴿وَ﴾ الحَال أنّه ﴿لَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ﴾ ولم يُميّز ﴿ٱلَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ ـ في سبيل الله، بخُلوص النّيّة، والإيمان الرّاسِخ ـ مِن غيرِهم الّذين انْهزموا لحُبّ الدُّنيا وضَعْف الإيمان، ﴿وَ﴾ أن ﴿يَعْلَمَ ٱلصَّابِرِينَ﴾ في طاعة الله، ومَشاقّ التّكاليف، ويُميّزهم مِمّن يتّبع هَواه، ويَستريح إلىٰ لذّاته وشَهَواته.

وحاصِل المُراد، والله العالِم: أتَتوقّعون أيُّها المُؤمنين أن تدخُلوا الجنّة، وتفُوزوا بنَعيمها، وتَصِلوا إلىٰ كرامة الله وقُربة، والحال أنّه لَم يتحقّق مِنكم الجِهاد في سبيل الله، والصّبْر علىٰ الشّدائِد في مَرضاته.

فإنّه لا يكون ذلِك في حِكْمة الله أبداً، لاسْتِحالة اجتِماع خُبْث الذّات، وظُلمة القَلب ـ المُستَتْبِعَين لحُبّ الدُّنيا ولذّاتها ـ معَ السّعادة الأُخرويّة، والكَرامات الأبديّة، والنِّعَم الدّائمة، لغاية التّبايُن والتّضادّ بَينهما.

عن الصادق عليه السلام، في هذه الآية قال: «إنّ الله هُو أعلم بما هُو يُكوّنه قَبل أن يُكوّنه، وعَلِم وهم ذَرّ[١] من يُجاهِد ومَن لا يُجاهد»[٢] الخبر.

والظّاهِر أنّ المُراد مِن الرِّواية أنّ نَفي العِلْم ليسَ على مَعناه الحقيقي، بَل هُو كِناية عن عدَم المَعلوم، فنزّل نَفي العِلْم مَنزِلة نَفي الجِهاد للتأكيد والمُبالغة؛ لأنّ وُقوع الشيء مُستلزِم لكَوْنه مَعلوماً لله تعالىٰ، فانْتِفاء اللّازم بُرهان علىٰ انْتِفاء المَلزوم.

ثمّ أنه كان جماعة مِن أصحاب الرّسُول صلى الله عليه وآله لَم يشهَدوا بَدراً، وكانوا يتمنّون أن يشهَدوا معَ رَسُول الله صلى الله عليه وآله مَشهداً يَنالوا فيه ما نالَ شُهداء بَدْر مِن الشّهادة والكرامة، ولِذا ألَحُّوا علىٰ رَسُول الله صلى الله عليه وآله عندَ المُشاورة، في الخُروج إلىٰ اُحُد، فخرَج صلى الله عليه وآله مِن المدينة ونزَل اُحُد.

وقال ابن عبّاس رضي الله عنه: إنّه صلى الله عليه وآله أمر الرُّماة أن يلزَموا أصل الجَبل، ولا ينتقِلوا عن ذلك، سَواءٌ كان الأمر لهم أو عليهم، فلمّا وقَفوا وحمَلوا علىٰ الكُفّار هزَموهم[٣].

في قتل أمير المؤمنين عليه السلام أصحاب لواء قريش في اُحُد، وقتل خالد أصحاب الشعب وانهزام المسلمين

وفي رِوايةٍ: كان أمير المؤمنين عليه السلام صاحِب راية رَسُول الله صلى الله عليه وآله، وقاتل قِتالاً عظيماً، حتّىٰ الْتوىٰ سَيفه[٤]، وقتَل عليه السلام طَلحة بن أبي طلحة صاحِب لِواء المُشركين، وحمَل الزُّبير والمِقْداد وشدّا علىٰ المُشركين، ثمّ حَمل رَسُول الله صلى الله عليه وآله مع أصحابه، فهزموا أبا سُفيان لعنه الله، وحمَل أبو دُجانة في نفرٍ مِن المُسلمين علىٰ المُشركين فقاتَل قِتالاً شديداً، فقَتلوا جماعةً مِن المُشركين.

وفي رِوايةٍ: ووقَع أصحاب الرّسُول في سَواد المُشركين، وكان خالد بن الوليد علىٰ مَيْمنة الكُفّار فانحَطّ في مائتي فارِس علىٰ عبدالله بن جُبير مِن قِبَل الشِّعْب، فاسْتقبلوهم بالسِّهام فرجَع، ونظَر أصحاب عبدالله بن جُبير إلى أصحاب رَسُول الله صلى الله عليه وآله ينتهِبون سَواد القَوم، فقالوا لعبدالله بن جبير: غنِم أصحابنا ونبقىٰ نحنُ بلا غَنيمة، فقال لهم عبدالله: اتّقوا الله، فإنّ رَسُول الله صلى الله عليه وآله قد تقدّم إلينا أن لا نبرَح، فلَم يقبَلوا مِنه، وأقبلوا ينسَلّ رَجُلٌ فرَجُل؛ حتّىٰ أخلَوا مَراكزهم، وبقي عبدُالله في اثني عشر رجلاً.

وكانت راية قُريش معَ طلحة بن أبي طلحة العبدري[٥] فقتله عليّ عليه السلام، فأخذ الرّاية أبو سعيد بن أبي طلحة فقتله عليّ عليه السلام، فسقطت الرّاية فأخذها مسافع بن أبي طلحة فقتله عليّ عليه السلام، حتّىٰ قتل تسعة

---

١. في تفسير العياشي: بما هو مكوّنه قبل أن يكونه وهم ذرٌّ، وعلم.

٢. تفسير العياشي ١: ٧٨٦/٣٤٠، تفسير الصافي ١: ٣٥٦.

٣. تفسير الرازي ٩: ٢٠.

٤. تفسير أبي السعود ٢: ٩٣.

٥. العبدري: نسبة إلىٰ بني عبدالدار.

مِن بني عبدالدار، فصار لِواؤهم إلىٰ عَبْدٍ لهم أسود يُقال له صُواب، فانتهىٰ إليه عليّ عليه السلام فقطع يدَه، فأخذ الرّاية بيده اليُسرىٰ، فضرب يُسراه فقطعها، فاعْتنقها بالجِذماوَيْن[1] إلىٰ صدره، ثمّ التفتَ إلىٰ أبي سُفيان فقال: هل أعذرتُ في بني عبدالدار؟ فضربه عليّ عليه السلام [علىٰ رأسه] فقتله، فسقط اللِّواء فأخذته عَمْرة بنت عَلْقمة الكِنانية فرفعته.

وانحطّ خالد بن الوليد علىٰ عبدالله بن جبير وقد فرّ أصحابُه وبقي [في] نَفَرٍ قليل، فقتلهم علىٰ باب الشِّعْب، ثمّ أتىٰ المُسلمين مِن أدبارهم.

ونظرتْ قُريش في هزيمتها إلىٰ الرّاية قد رُفِعت فلاذوا بها، وانْهزم أصحابُ رَسُول الله صلى الله عليه وآله هزيمةً عظيمةً، وأقبلوا يصعدون في الجِبال وفي كُلّ وَجْه، فلمّا رأىٰ رَسُول الله صلى الله عليه وآله الهزيمة كشف البيضة عن رأسه، وقال: «إنّي[2] أنا رَسُول الله، أين تفِرّون عن الله وعن رَسُوله؟»[3].

وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ[۱٤۳]

فظهر عندَ ذلِك كِذْب جماعةٍ، كانوا يتمنّون الشهادة ويُلِحّون علىٰ النبيّ صلى الله عليه وآله في الخُروج عن المدينة لجِهاد المُشركين، فوبّخهم الله تعالىٰ بقوله: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ﴾ قبلَ الوَقْعة ﴿تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ﴾ بالشّهادة، وتُظهِرون اشْتِياقكم إليه ﴿مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ﴾ وتُشاهدوه بمُشاهدة مَباديه، وتعرِفوا هَوْله وشِدّته، فإن كُنتُم صادِقين في إظهار التّمنّي ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾ برُؤية أسبابه ﴿وَأَنتُمْ﴾ لفَرْط قُرْبه إليكم كأنّكم ﴿تَنظُرُونَ﴾ إليه وتُعايِنونه حينَ قُتل بَيْن أيديكم مَنْ قُتِل [مَنْ] إخوانكم وأقاربكم، وشارَفتُم علىٰ أن تُقتلوا، فلِمَ هُزِمتم وفعلْتُم ما فَعَلْتُم وترَكتُم الرّسُول بين أعدائه؟ وفيه غاية التّوبيخ والتّقريع.

في وقعة أُحد، وشهادة حمزة عليه السلام

ورُوي أنّه كانت هِنْد بنت عتبة زوجة أبي سُفيان في وسَط العَسْكر، وكُلمّا انْهزم رَجُلٌ مِن قُريش دفعت إليه مِيلاً ومُكْحُلَة وقالت: إنّما أنت امرأة فاكْتحِلْ بهذا، وكان حمزة بن عبدالمطلب يحمِل علىٰ القوم فإذا رَأوه انْهزموا، ولم يثبُت له أحدٌ، وكانت هِند [قد] أعطت وحشيّاً عهداً: لَئِن قتلتَ محمّداً أوعليّاً أوحمزة لأُعطِينّك كذا وكذا ـ وكان وحشيّ عبداً لجُبير بن مُطعم، حَبَشيّاً ـ فقال وحشيّ: أمّا محمّدٌ فلا أقدِر [عليه]، وأمّا عليٌّ فرأيتُه حذِراًكثير الالتِفات فلا مَطْمع فيه، وأمّا حمزة فلعَلّي أقتُله.

---

١. الجِذماوين: مثنى الجِذمة، وهي الأصل الباقي من اليد المقطوعة.

٢. في مجمع البيان: إليّ.

٣. مجمع البيان ٢: ٨٢٥، تفسير الصافي ١: ٣٤٦.

فكَمَن لحمزة، قال: فرأيته يهُذّ[١] النّاس هَذّاً، فمرّ بي فوَطِئ على طَرَف[٢] نَهَر فسقَط، فأخذتُ حَرْبتي فهزَزْتُها، ورَمَيته فوقعتْ في خاصِرته وخرجتْ مِن ثُنّته[٣] فسقط، فأتيتُه وشقَقْتُ بَطْنه، فأخذتُ كَبِده وجِئتُ به إلىٰ هِند فقلتُ: هذه كَبِد حمزة، فأخَذَتْها في فمِها فلاكَتْها، فجعلها الله مِثْل الدّاغِصة؛ وهِي عظم رأس الرّكبة، فلفظَتْها ورمَتْ بها.

قال رَسُول الله ﷺ: «فبعَثَ الله مَلَكاً فردّها إلىٰ موضِعها». قال وحشيّ: فجاءت هِند إليه فقطعت مَذاكيره [وقطعت أذنَيه] وقطعَتْ يدَه ورِجْله.

ولَم يبقَ معَ رَسُول الله ﷺ إلّا عليّ ﷺ، وأبو دُجانة سِمَاك بن خَرَشة، فكُلّما حمَلت طائفة علىٰ رَسُول الله ﷺ استقبلهم عليّ ﷺ فدفَعهم حتّىٰ انقطَع سيفه، فدفَع [إليه] رَسُولُ الله ﷺ سيفَه ذا الفَقَار. وانْحاز رَسُول الله ﷺ إلىٰ ناحيةٍ فوقف، وكان القِتال من وَجْه واحِد، فلم يزَلْ عليّ ﷺ يُقاتلهم حتّىٰ أصابه في وَجْهه ورأسه ويدَيه[٤] ورِجْلَيه سبعون جِراحة.

قال: فقال جبْرئيل ﷺ: إنّ هذه لهِي المُواساة يا محمّد، فقال له: «إنّه مِنّي وأنا مِنه».

وقال الصادق ﷺ: «نظَر رَسُول الله ﷺ إلىٰ جبْرئيل ﷺ بَيْن السّماء والأرض علىٰ كُرسيّ مِن ذَهَب، وهُو يقول: لا سَيف إلّا ذو الفَقَار، ولا فتىً إلّا عليّ»[٥].

وفي رِوايةٍ: بقي معه ﷺ عليٌّ ﷺ وسِمَاك بن خَرَشة أبو دُجانة ﷺ، فدعاه النبيّ ﷺ فقال: «يا أبا دُجانة، انصرِف، أنتَ في حِلٍّ مِن بَيْعتك وبيعتي، وأمّا عليّ فهُو أنا وأنا هُو»، فتحوّل وجلس بَين يدَي النبيّ ﷺ وبكىٰ وقال: لا والله، ورفَع رأسه إلىٰ السّماء وقال: لا والله، لا جعلتُ نفسي في حِلٍّ من بَيْعتي، إنّي بايعتُك فإلىٰ مَن انصرِف يا رَسُول الله، إلىٰ زوجةٍ تموت، أو إلىٰ ولدٍ يموت، أو دارٍ تخرَب، أو مالٍ يفنىٰ، وأجلٍ قد اقترَب؟ فرقّ له النبيّ ﷺ فلَم يزلْ يُقاتل حتّىٰ أثخنته الجِراح، وهُو في وَجْه، وعليّ ﷺ في وَجْه، فلمّا سقط احتَمله عليّ ﷺ فجاء به إلىٰ النبيّ ﷺ فوضَعه عندَه، فقال: يا رَسُول الله، أو فيتُ ببَيْعتي، قال ﷺ: «نعَم». وقال له النبيُّ خيراً[٦].

وقال ابن عبّاس: إنّه كثُر القَتْل في المُسلمين[٧].

وفي رِوايةٍ: وكان النّاس يحمِلون علىٰ النبيّ ﷺ المَيْمنة، فيكشِفهم عليّ ﷺ، فإذا كشَفهم أقبلتْ المَيْسرة إلىٰ النبيّ ﷺ، فلَم يزَلْ كذلك حتّىٰ قُطِع سيفه بثلاث قطع، فجاء إلى النبيّ ﷺ فطرَحه بَيْن

---

١. هَذّ: قطع بسرعة.
٢. في مجمع البيان: جرف.
٣. في النسخة: ثنيته، وثُنّته، أي أسفل بطنه.
٤. زاد في مجمع البيان: وبطنه.
٥. مجمع البيان ٢: ٨٢٥، تفسير الصافي ١: ٣٤٧.
٦. الكافي ٨: ٥٠٢/٣١٨، تفسير الصافي ١: ٣٥٧.
٧. تفسير الرازي ٩: ٢٠.

يدَيه وقال: «هذا سيفي قد تقطّع»، فيومئذٍ أعطاه النبيّ ﷺ ذا الفقار، ورأىٰ اختِلاج ساقيه مِن كَثرة القِتال، فرفَع رأسه الىٰ السّماء وهو يبكي وقال: «يا ربّ، وَعَدْتني أن تُظهِر دِينك، وإنْ شِئْتَ لَم يُعْيِك»[١].

في ارتداد جمع من الصحابة في أحد

وقال ابن عبّاس: ورمىٰ عبدُالله بن قميئة الحارثي رَسُول الله ﷺ بحجَرٍ فكسَر رَباعِيَتَه، وشجّ وَجْهه، وأقبل يُريد قَتْله، فذبّ عنه مُصعب بن عمير، وهُو صاحِب الرّاية يومَ بَدْر ويومَ أُحُد، حتّى قَتله ابن قميئة، وظَن أنه قتَل رَسُول الله ﷺ قال: قد قتلتُ محمّداً، وصرَخ صارِخٌ: ألَا إنّ محمّداً قد قُتِل، وكان الصارخ الشيطان لعنه الله، ففشا في النّاس خبَر قَتْله ﷺ.

فهنالك قال بعضُ المُسلمين: ليتَ عبدالله بن أُبيّ يأخُذ لنا أماناً مِن أبي سفيان، وقال قومٌ مِن المُنافقين: لَو كان نبيّاً لَمَا قُتِل، ارْجِعوا إلىٰ إخوانكم والىٰ دِينكم، وقال أنس بن النّضر رضي الله عنه ـ عمّ أنس بن مالك ـ: يا قوم، إنْ كان قد قُتِل محمّد ﷺ فإنّ ربّ محمّد حَي لا يموت، وما تصنعون بالحياة بعدَ رَسُول الله ﷺ، قاتِلوا علىٰ ما قاتَل عليه، ومُوتوا علىٰ ما ماتَ عليه، ثمّ قال: اللّهمّ إنّي اعتذِرُ إليك مِمّا يقول هؤلاء، ثمّ سَلّ سيفه فقاتَل حتّىٰ قُتِل رضي الله عنه[٢].

وفي رِوايةٍ بعض المُفسّرين مِن العامّة: أنّ أنس بن النضر أقبل إلىٰ عُمر بن الخطاب، وطلحة بن عبدالله، في رِجالٍ مِن المُهاجرين والأنصار، فقال لهم: ما يحبِسكم؟ قالوا: قُتِل محمّد ﷺ، فقال رضي الله عنه: ما تصنعون بالحياة بعدَه؟ مُوتوا كِراماً علىٰ ما مات عليه نبيُّكم. ثمّ أقبل نحو العَدُوّ فقاتل حتّىٰ قُتِل رِضوان الله عليه[٣].

ورُوي أنّه مَرّ بعضُ المُهاجرين بأنصاريّ يتشحّط في دَمه فقالوا: يا فلان، أشعَرتَ أنّ محمّداً قد قُتِل؟ فقال: إن كان قد قُتِل فقد بلّغ، قاتِلوا علىٰ دِينكم[٤].

قال كَعب بن مالك: أنا أوّل مَن عرَف رَسُول الله ﷺ مِن المُسلمين، رأيتُ عينَيه مِن تحتِ المِغفَرة[٥] تزهَران، يُنادي بأعلىٰ صوته: «إليّ عِباد الله»[٦]. فاجتمعوا إليه، فلامهم رَسُول الله ﷺ علىٰ هزيمتهم، فقالوا: يا رَسُول الله، فدَيناك بآبائنا وأمّهاتنا، أتانا خَبَرُ سُوءٍ فرُعِبتْ قُلوبُنا فولّينا مُدبِرين[٧].

---

١. الكافي ٨: ٣٢٠/٥٠٢، تفسير الصافي ١: ٣٥٧، ولم يُعيك، بمعنى لم يُعجزك ولم يتعِبك.
٢. تفسير الرازي ٩: ٢٠. ٣. تفسير روح البيان ٢: ١٠٣. ٤. تفسير الرازي ٩: ٢٠.
٥. المِغفَرة أو المِغفَر: دِرعٌ منسوج من حَلَقٍ على قدر الرأس، يُلبس تحت القَلَنسُوة.
٦. زاد في تفسير روح البيان: إليّ عباد الله. ٧. تفسير روح البيان ٢: ١٠٤.

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِين مَاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّاكِرِينَ [١٤٤]

ورُوي أنّه ارتدَ في اُحُد جمعٌ مِن المُهاجرين والأنصار، مُعتذِرين بأنّ النبيّ ﷺ قد قُتِل[١]. ولم يتفحّصوا عن صِدْق الخَبَر، مع أنّه لَم يكُن بَيْن مَقامهم ومَقامه ﷺ مَسافةٌ بعيدةٌ، فوبّخهم الله سُبحانه علىٰ ارْتدادهم بعدَ تَوْبيخهم علىٰ فِرارهم، بقوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ كسائر الرُّسُل يأكل ويمشي ويمُوت ويُقتل، وليسَ اُمتيازه مِن سائر البَشر إلّا بكَمال النّفس ومَنْصِب الرِّسالة.

ومِن الواضِح أنّه ليس مِن لَوازِم هذا المَقام الخُلُود في الدُّنيا، ألا ترَون أنّه ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ ومضَتْ مِن الدُّنيا بالمَوت والقَتل ﴿مِن قَبْلِهِ﴾ وفي الأزمنة السّابقة علىٰ بِعثته ﴿ٱلرُّسُلُ﴾ المَبعُوثون علىٰ الاُمَم، ثمّ لَم يرجِع المُؤمنون بهِم عن دِينهم، ولَم ينقطِع تمسُّكهم عن شريعتهم، بَل كانوا مُستمرّين عليها، فإنّ الغرَض مِن بَعْث الرّسُول الهِداية، وتَبليغ الدِّين، وتَبيين الحَقّ، وإلزام الحُجّة، لا وُجوده بَيْن اُمّته أبداً.

فالارْتِداد عن دِين الرّسُول، ورَفع اليَد عن شريعته بعدَ مَوته أو قَتْله مِن البدائع المُستنكَرة، ولذا أنكر سُبحانه علىٰ المُرتدّين في اُحُد ذلك بقوله: ﴿أَفَإِين مَاتَ﴾ محمّد ﴿أَوْ قُتِلَ﴾ علىٰ حَسَب الفَرْض ﴿ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ ورجَعتُم إلىٰ ماكنتُم عليه مِن الكُفْر والشِّرك.

ثمّ اعلَمْ أنّه قد اتّفقت العامّة والخاصّة علىٰ أنّ عُمَر كان مِن الفارّين مِن الزّحْف، المُولّين الدُّبُر.

وقال ابن أبي الحديد:

فإن أنْسَ لَم أنسَ اللذين تقدّما　　　وفرُّهما والفَرُّ قد عَلِما حُوب[٢]

ومُراده مِن اللذين تقدّما: أبو بَكر وعُمَر.

ومِن العجَب معَ ذلك أنّه رَوىٰ الفَخر الرازي في تفسيره: أن أبا سُفيان صعِد الجَبل يومَ اُحُد، ثمّ قال: أين ابن أبي كبشة؟ أين ابن أبي قُحافة؟ وأين ابن الخَطّاب؟ فقال عمر: هذا رَسُول الله، وهذا أبو بكر، وأنا عُمر، فقال أبو سفيان: يومٌ بيومٍ، والأيام دُوَلٌ، والحَرب سِجَال، فقال عُمر: لا سَواء، قَتلانا في الجنّة، وقَتلاكم في النّار، فقال أبو سُفيان: إن كان كما تزعُمون، فقد خِبْنا إذن وخسِرنا[٣].

وليتَ شِعْري؛ متىٰ حصَل لعُمر اعتِقاد أنّ قَتلى المُسلمين في الجنّة، أقَبْل الفِرار أم بعدَ حُصول الأمن؟ فإن كان قَبْل الفِرار، فكيف لَم يردَعْهُ هذا الاعتِقاد، وكيف يُمكِن معه أن يحتبِس عن القِتال

---

١. جوامع الجامع: ٧٠.　٢. القصائد العلويات: ٩١، وفيه: وما أنس لا أنس.　٣. تفسير الرازي ٩: ١٥.

حتىٰ يقول أنس بن النضر: ما يحبِسكم عن القِتال؟ فيقول: قد قُتِل محمّد ﷺ[١]، وإن كان بعدَ حُصول الأمن، ورُجوع الفارّين مِن الزّحف إلىٰ النبيّ ﷺ، وخَيبة المُشركين، وتَوْبيخ النبيّ إيّاهم، واعْتِذارهم بأنّه أتانا خَبَرُ سُوءٍ فرُعِبتْ قُلوبُنا[٢]، فهذا إيمانٌ بعدَ الارْتِداد، والظّاهِر أنّه كان بعدَ رُجوع أبي سُفيان وحِزبه إلىٰ مكّة.

ثمّ اعْلم أنّ المُهاجرين والأنصار الّذِين كان إيمانهم في زمان النبيّ ﷺ بهذه المَثابة، لا يبعُد مِنهم الارْتِداد بعدَ وفاته ﷺ للأحقاد الجاهليّة وطَمَع الرِّئاسة.

ثمّ أنه قال الفخر الرازي: إنّ الله تعالىٰ بيّن في آياتٍ كثيرةٍ أنّه ﷺ لا يُقتَل، قال تعالىٰ: ﴿**إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَيِّتُونَ**﴾[٣]، وقال: ﴿**وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ**﴾[٤]، وقال: ﴿**لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ**﴾[٥].

في ذكر اعتذار بعض العامّة لتجويز عمر قتل النبيّ ﷺ وبيان فساده

ثمّ اعْتذار أبو السُّعود في تفسيره لتَجْويز عُمر وجمعٌ مِن المُهاجرين والأنصار قَتْله ﷺ، وقال: تَجْويزهم لقَتله؛ معَ قوله تعالىٰ: ﴿**واللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ**﴾ لِمَا أنّ كُلّ آية لا يسمَعها كُلُّ أحدٍ، ولا كُلّ مَن يسمَعها يستحضِرها في كُلّ مَقام، لاسِيّما في مِثل ذلك المَقام الهائِل[٦].

أقول: في إصلاح الاعْتِذارَين فسَادُ ما صدَر مِن عُمر ما لا يخفىٰ، أمّا الاعْتِذار بأنّ عُمر لَم يسمَع الآيات، فمِمّا لا يُمكِن قَبُوله ـ سيّما مِن المُعتذِر وأصحابه مِن أهل السُّنّة ـ لاعْتِقادهم في عُمر أنّه كان مِن بِطانة الرسُول ﷺ ومعَ ذلك، كيف يُمكِن القول بعدَم اطّلاعه علىٰ هذه الآيات، وعدَم سَماعه لها، مُضافاً إلىٰ أنّه لا يُمكِن أن يعتقِد المُؤمن برِسالة محمّد ﷺ قَتْلَه في أُحُد، معَ إخباره ﷺ قبلَ خُروجه إلىٰ أُحُد برُجوعه حيّاً إلىٰ المدينة، حيثُ قال عندَ ذِكْره رُؤياه: «ثمّ إنّي رأيتُ أنّي أدخلتُ يدي في دِرع حصينةٍ، أوّلتُها أنّي أرجعُ إلىٰ المدينة»[٧].

وأمّا الاعْتِذار بعدَم اسْتِحضار الآيات، ونِسيانها والغَفْلة عنها، ففي غاية البُعْد، معَ كوْن تِلاوة القُرآن والتّدبُّر في آياته مِن أعظم عِبادات المُؤمنين، وأهمّ مَشاغِلهم، بحيث كان مَدلُول ظواهِرها نَصْب أعْيُنهم راسِخاً في قُلوبهم.

في زلة عمر بعد وفاة النبيّ ﷺ ورد الاعتذار له

ومِن الغرائِب: استِشهاد أبي السّعود علىٰ غَفْلة الصّحابة عن تِلك الآيات، بغَفْلة عُمر عن هذه الآية بعدَ وفاة النبيّ ﷺ[٨]، وتَبِعه صاحِب تفسير (رُوح البيان) حيثُ قال:

---

١. تفسير روح البيان ٢: ١٠٣.
٢. تفسير روح البيان ٢: ١٠٤.
٣. الزمر: ٣٠/٣٩.
٤. المائدة: ٦٧/٥.
٥. تفسير الرازي ٩: ٢١، والآية من سورة الصف: ٩/٦١.
٦. تفسير أبي السعود ٢: ٩٣.
٧. تفسير أبي السعود ٢: ٧٨، تفسير روح البيان ٢: ٨٧.
٨. تفسير أبي السعود ٢: ٩٣.

لمّا تُوفّي رَسُول الله ﷺ اضطرب المُسلمون، فمِنهم مَن دُهِش، ومنهم مَن اُقعِد ولَم يُطق القِيام، ومنهم مَن اعتقل لِسانُه فلَم يُطِق الكلام، ومِنهم مَن أنكَر موتَه بالكُلّيَة، حتّىٰ غفَل عُمر عن هذه الآية الكريمة عندَ وفاته ﷺ، وقام في النّاس فقال: إنّ رِجالاً مِن المُنافقين يزعُمون أنّه ﷺ تُوفّي، إنّ رَسُول الله ما مات، ولكِنّه ذهَب إلىٰ رَبه، كما ذهَب مُوسى بن عِمران، فغاب عن قومه أربعين ليلةً ثمّ رجَع، والله ليَرجِعَنّ رَسُول الله ﷺ، ولأقطَعَنّ أيدي رِجالٍ وأرجُلهم يزعُمون أنّ رَسُول الله مات.

ولَم يزَل يُكَرِّر ذلك إلىٰ أن قام أبو بكر، فحمِد الله وأثنىٰ عليه، ثمّ قال: أيُّها النّاس، مَن كان يعبُدُ محمّداً فإنّ محمّداً قد مات، ومَن كان يعبُد الله فإنّ الله حيٌّ لا يموت، ثمّ تلا: **﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾**.

قال الرّاوي: والله، لكأنّ النّاس لَم يعلَموا أنّ هذه الآية نزلَتْ علىٰ رَسُول الله ﷺ حتّىٰ تلاها أبو بكر، فاستَيْقن النّاس كُلّهم بموته[1].

وفي رِواية أبي السعود: قال عُمر: والله ما هُو إلّا أن سمعتُ أبا بكر يتلُو فعَقِرتُ حتّىٰ لا تَحمِلُني رِجلاي، وعرَفتُ أن رسول الله ﷺ قد مات[2]، انتهىٰ.

[وذلك][3] لوضُوح أنّ ضَعْف إيمان كثيرٍ مِن الصّحابة ونِفاق كثيرٍ مِنهم وحُبّهم للحياة، صار سَبباً لِفِرارهم في اُحُد قَبْل سَماع خَبَر قَتْله صلوات الله عليه، لا غَفْلتهم عن آية **﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾**؛ فإنّ الآية لَم تنزل بعدُ، وإنّما نزلَتْ في حِجّة الوَداع.

وأمّا إنكار عُمر موت النبيّ ﷺ فلَم يكُن لغَفْلته عن آية **﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾** بَل لتَغافُله عنها، وتَدْبيره في إلقاء الشُّبْهة في قُلوب النّاس وتفرُّقهم عن باب بَيت النبيّ ﷺ، ليتمكّن في بُرهةٍ مِن الزّمان إلىٰ أغراضه الفاسدة لوُضوح أنّ الاعتِقاد بموت النبي ﷺ لَم يكُن مُتوقّفاً علىٰ إخبار الله بأنّه يمُوت، وعلىٰ الالْتِفات للآية الكريمة.

بَل كان مَوت الأنبياء مِن ضَروريّات جميع أهل المِلَل والأديان، معَ إخبار الله بمَوتهم في مواضِع مِن الكِتاب الكريم، مُضافاً إلىٰ كِفاية عُموم قوله تعالىٰ: **﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْتِ﴾**[4] معَ عدَم ظُهور مُخصِّص له وإخباره ﷺ بموته مُكرّراً، حتّىٰ سأل أبو بكر وعمر منه ﷺ وقالا له: يا رَسُول الله، إذا حدَث حَدَثٌ فإلىٰ مَن نرجِع؟

وقوله ﷺ، في الحديث المُتفق بيْن الفَريقين: «إنما أنا بشر يُوشِك أن يأتيني رَسُول ربّي فأُجيب،

---

١. تفسير روح البيان ٢: ١٠٤.
٢. تفسير أبي السعود ٢: ٩٣.
٣. في النسخة: بياض، وما أثبتناه يقتضيه السياق.
٤. آل عمران: ١٨٥/٨٣.

وإنّي تارِكٌ فيكم الثّقلَين: أوّلهما: كِتاب الله، فيه الهُدىٰ والنُّور، فخُذوا بكِتاب الله واستمسِكوا به، وأهل بيتي، أُذكِّركم الله في أهل بيتي خيراً»[١]. مُضافاً إلىٰ تَراكُم القرائِن القَطعيّة علىٰ موته، مِن صُراخ أهله، واشتِغال عليّ عليه السلام بتَجْهيزه، إلىٰ غيرِ ذلك.

وليتَ شِعْري، كيف لَم يُجوِّز هُنا موت النبيّ صلى الله عليه وآله وأنكره حتّىٰ اختلق مِن قِبَل نفسه أنّه صلى الله عليه وآله ذهَب لِيناجي ربّه... إلىٰ آخر ما نقله شِيعتُه عنه.

وجوّز موته صلى الله عليه وآله في يومٍ أو يَومين قَبْله، حينَ دعا صلوات الله عليه وآله بدَواة وكَتِف كَي يكتُب كِتاباً لا يختلِفون فيه ولا يضِلّون بعدَه، حيثُ قال: حَسْبُنا كِتابُ الله[٢] -يعني: بعدَ موته-

بَلْ قطَع بقَتله في اُحُد، بمُجرد سَماع قول القائِل: قد قُتِل محمّد، مِن غيرِ فَحْصٍ وتحقيق، معَ قُرب مَكانه مِن مَقام النبيّ صلى الله عليه وآله، وقال لأنس بن النضر مُعتذراً عن فِراره مِن الزَّحف: قد قُتِل محمّد صلى الله عليه وآله[٣].

وقال بعدَ تَوبيخ الرّسُول صلى الله عليه وآله أصحابه الفارّين من الزّحْف: إنّه أتانا خَبَرُ قَتْلك، فاستولىٰ الرُّعب علىٰ قُلوبنا، فولّينا مُدبِرين[٤].

ثمّ أنّه لا يُمكِن الاعتِذار عن إنكاره مَوت النبيّ صلى الله عليه وآله بنِسيانه آية **﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾**، حيثُ إنّها نزلَتْ في شأنه وشأن أصحابه، بعدَ فِرارهم مِن الزَّحْف في واقعة اُحُد؛ لأنّ نِسيان تِلك الآية كان مَشرُوطاً بِنسيان تلك الوَقْعة، وهُو مِن المُحالات العاديّة في حَقّه. ولا بغَفْلته عنها لاضْطراب خاطِره، لدَلالة ما اختلقه علىٰ جَمعيّة حَواسّه، وسُكُون خاطِره، وقُوّة فِكْره، وكمال تَدْبيره.

فتحصّل مِن جميع ما تقدّم: أنّ الوَجْه في صُدور هذا القول الشّنيع مِنه مُنحصِر في كَوْنه حِيلةً احْتالها، لتفريق النّاس عن باب بَيت النُّبوّة، وصَرْف القُلوب عن التّوجُّه إلىٰ عليّ عليه السلام، وجَمع النّاس في السّقيفة. فلمّا الْتفت أبو بكر إلىٰ أنّ هذا القول فَساده أظهر مِن أن يخفىٰ علىٰ ذي مُسْكةٍ، بادر إلىٰ إظهار خِلافه، وصَرَف عُمر عنه، لِئلّا تزداد فضيحتُهما.

عن الصادق عليه السلام: «أتدرون، مات النبيّ صلى الله عليه وآله أو قُتِل؟ إنّ الله يقول: **﴿أَفَإِين مَاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُم عَلَىٰ أَعقَابِكُم﴾** -ثمّ قال عليه السلام -: [فسُمَّ قبل الموت] إنّهما سَقَتاه قبلَ الموت» يعني الامرأتَين لعنَهما الله[٥].

ثمّ هدّد الله سُبحانه المُؤمنين علىٰ ارْتِدادهم بقوله: **﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾** ويرجِع إلىٰ كُفْره الأصليّ **﴿فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ﴾** بارْتِداده ورُجوعه إلىٰ الكُفْر **﴿شَيْئاً﴾** مِن الأشياء؛ لأنّه تعالىٰ مُنزّه عن النَفْع

---

١. صحيح مسلم ٤: ٢٤٠٨/١٨٧٣، سنن الترمذي ٥: ٣٧٨٦/٦٦٢ و٣٧٨٨، مستدرك الحاكم ٣: ١٤٨.
٢. صحيح مسلم ٣: ٢٢/١٢٥٩، صحيح البخاري ٧: ٣٠/٢١٩، مسند أحمد ١: ٣٢٤.
٣. تفسير روح البيان ٢: ١٠٣.
٤. تفسير الرازي ٩: ٢١، تفسير روح البيان ٢: ١٠٤.
٥. تفسير العياشي ١: ١٥٢/٣٤٢، تفسير الصافي ١: ٣٥٩.

والضَّرَر، بَل يَضُرّ نفسَه أشدّ الضَرَر، مِن خُسْران الدُّنيا، وعذاب الآخِرة.

عن (الجمع بين الصَحيحين)، في مَسند سهل[١]، مِن المُتّفق عليه، قال: سمِعتُ رَسُول الله ﷺ يقول: «أنا فَرَطكم علىٰ الحَوض، مَن ورَد شرِب، ومَن شرِب لَم يظمَأ [أبداً]، وليَرِدَنّ عليّ أقوامٌ أعرِفُهم ويعرِفُونني، ثمّ يُحال بَيْني وبَيْنهم»[٢].

أقول: قوله: «أعرِفُهم ويعرِفُونني» قرينةٌ علىٰ إرادة الصَّحابة.

فيقول ﷺ: «إنّهم مِن اُمّتي! فيقال: إنّك ما تدري ما أحدثوا بعدَك. فأقول: سُحْقاً سُحْقاً لِمَن بدّل بعدي».

وعنه أيضاً ـ مِن المُتّفق عليه ـ عن ابن عبّاس رضي الله عنه، قال: إنّ النبيّ ﷺ قال: «ألا إنّه سيُجاء برِجالٍ مِن اُمّتي، فيُؤخذ بهم ذاتَ الشِّمال، فأقول: يا ربّ، أصحابي! فيُقال: إنّك لا تدري ما أحدثوا بعدَك، فأقول كَما قال العبدُ الصّالح: ﴿كُنتُ عَلَيهِم شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِم فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وأنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ شَهِيدٌ * إن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُم عِبَادُكَ﴾[٣] قال: فيُقال لي: إنّهم لَم يَزالوا مُرتدّين علىٰ أعقابهم منذُ فارقتَهُم»[٤].

في ارتداد النّاس بعد الرسول ﷺ إلّا ثلاثة

وعن الباقر عليه السلام، قال: «كان النّاس أهلَ رِدّةٍ بعدَ رَسُول الله ﷺ، إلاّ ثلاثة» قيل: ومَن الثّلاثة؟ قال عليه السلام: «المِقْداد، وأبو ذَرّ، وسَلمان الفارسي رحمهم الله، ثمّ عرف اُناسٌ بعد يسيرٍ» وقال: «هؤلاء الّذين دارَتْ عليهم الرَّحا، وأبَوا أن يُبايعوا حتّىٰ جاءوا بأمير المُؤمنين عليه السلام مُكرَهاً فبايَع، وذلِك قولُ الله تعالىٰ: ﴿وَمَامُحَمَّدٌ إلّا رَسُولٌ﴾ الآية»[٥].

وفي خُطبة الوَسيلة لأمير المؤمنين صَلوات الله عليه: «حتّىٰ إذا دعا الله نبيّه ورفعَه إليه لَم يكُ ذلك بعدَه إلّا كلَمْحةٍ مِن خَفْقة، أو وَميضٍ[٦] مِن بَرقة، إلىٰ أن رجَعوا إلىٰ الأعقاب، وانْتكصوا علىٰ الأدبار، وطَلَبوا بالأوتار، وأظهروا الكتائب وردَموا الباب، وفَلُّوا الدماء[٧]، وغيّروا سُنن[٨] رَسُول الله ﷺ، ورغِبوا عن أحكامه، وبعُدوا عن أنواره، واستبدلوا بُمستَخْلَفه بَديلاً اتّخذوه وكانوا ظالِمين، وزعَموا أنّ مَن اختاروا مِن آل أبي قُحافة أولىٰ بمَقام رَسُول الله ﷺ مِمّن اختاره الرَّسُول ﷺ لمَقامه، وأنّ مُهاجِر آل أبي قُحافة خَيرٌ مِن المُهاجري الأنصاري الرّبّاني؛ نامُوس هاشِم بن عبد مَناف ....» إلىٰ

---

١. هو سهل بن سعد.　　٢. الطرائف: ٣٧٦، بحار الأنوار ٢٨: ٢٦.　　٣. المائدة: ١١٧/٥ و١١٨.

٤. الطرائف: ٣٧٦، صحيح البخاري ٩: ٢/٨٣ و٣، مسند أحمد ٥: ٣٣٣، صحيح مسلم ٤: ٢٢٩٧/١٧٩٦، مستدرك الحاكم ٤: ٧٤ ـ ٧٥.　　٥. تفسير العياشي ١: ٧٨٧/٣٤١، الكافي ٨: ٣٤١/٢٤٥، تفسير الصافي ١: ٣٥٩.

٦. الخفقة: النُّعاس، والوَميض: اللّمع الخفيّ.　　٧. في الكافي: الدّيار.　　٨. في الكافي: آثار.

آخره[١].

فعُلِم مِن الرِّوايات الخاصيّة والعاميّة أنّ كثيراً مِن الصَّحابة الّذِين كان يعرِفهم النبيّ ﷺ وهُم يعرفونه، ارتدّوا بعدَ وَفاته ﷺ، وغيرّوا أحكامه، وأحدثوا في دِينه. ومِن الضَّروري المُتفَق عليه أنّهم غيرُ أمير المؤمنين صلوات الله عليه وأتباعه كسلمان، وأبي ذرّ، والمِقْداد، وعمّار، وأضرابهم مِمّن يحذُوا حَذْوه، وقد قال رَسُول الله ﷺ: «علي معَ الحَقّ، والحَقُّ معَ عليّ»[٢].

وفي (الجمع بين الصِّحاح): عن النبيّ ﷺ قال: «رحِم الله علياً، اللّهمّ أدِرْ الحَقّ معَه حيثُ دار»[٣].

وروىٰ الجُمهُور: قال صلوات الله عليه لعمّار: «سيكون في أُمّتي بعدي هَناتٌ[٤] واختِلاف، حتّىٰ يختلف السّيف بينهم حتّىٰ يقتُل بعضُهم بعضاً، ويتبرّأ بعضُهم مِن بعضٍ. يا عمّار، تقتلُك الفِئة الباغية، وأنت إذ ذاك معَ الحَقّ، والحَقّ معك، إنّ علياً لَن يُدلِيك في رَدىً، ولَن يُخرِجك مِن هُدىً.

إلىٰ أن قال: وإنْ سلَك النّاس كُلّهم وادِياً فاسْلُك وادياً سَلَكه عليٌّ، وخَلِّ النّاس طُرّاً. يا عمّار، إنّ علياً لا يزال علىٰ هُدىً. يا عمّار، إنّ طاعة عليّ مِن طاعتي، وطاعتي مِن طاعة الله»[٥].

وعن الجُمهور بعِدّة طُرُق، عن عائشة: أنّ رَسُول الله ﷺ قال: «الحَقُّ معَ عليّ، وعليٌّ معَ الحَقّ، لَن يفترِقا حتّىٰ يرِدا عليّ الحَوض»[٦]. فإذَن لابُدّ مِن كَوْن المُرتدّين المفترين المُحدِثين مخالِفيه.

وقال فضَل بن روزبهان: إنّهم أهل الرِّدّة الّذِين قاتلهم أبو بكر، وكان بعضُهم أصحاب رَسُول الله ﷺ.

وفيه: أنّ الّذِين قاتلهم أبو بكر لَم يكونوا مُرتدّين مُستحلِّين للزّكاة، بَل كانوا مُمتنعِين عن تأديتها لأبي بكر، لإنكارهم خِلافته، معَ أن الظّاهِر أنّ المُراد مِن قول القائِل: «لا تدري ما أحدثوا بعدَك» هُم الّذِين أحدثوا بِدَعاً باقيةً مُستمرة في الأمّة، كغَصْب الخِلافة، وتحريم المُتْعة، وصلوات التّراويح، والمَسْح علىٰ الخُفّ، والتكتّف في الصّلاة، وغير ذلك من البِدَع، لامنَع الزّكاة، والّذِي لَم يتجاوز عن مالِك بن نُوَيْرة وأصحابه، ولَم يصِرْ فِعْلُهم سُنّة باقية.

ثمّ بشّر الله الثّابِتين علىٰ الإيمان بقوله: ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ لنِعَمه مِن تعريفهم الحُجّة

---

١. الكافي ٨: ٢٩/٤، تفسير الصافي ١: ٣٥٩.

٢. تاريخ بغداد ١٤: ٣٢١، ترجمة الإمام علي عليه السلام لابن عساكر ٣: ١١٧٢/١٥٣.

٣. مناقب الخوارزمي: ٥٦، الطرائف: ١٠٢.

٤. أي شرور وفساد.

٥. تاريخ بغداد ١٣: ١٨٦، بحار الأنوار ٣٨: ١٣/٣٧ و: ١٤/٣٨.

٦. تاريخ بغداد ١٤: ٣٢١، ترجمة الإمام علي عليه السلام ٣: ١١٧٢/١٥٣، سنن الترمذي ٥: ٣٧١٤/٦٣٣، مستدرك الحاكم ٣: ١٢٤.

والهِداية لدِين الله، والتّوفيق لقَبُوله بالثّبات على الحَقّ، والقِيام بوظائف العُبودية، والعمل بأحكام الإسلام.وفيه إشعارٌ بأنّ الارْتِداد والخُروج عن الإسلام كُفْران لنِعَم الله.

عن (الاحتجاج)، في خُطبة الغدير: «مَعاشر النّاس، أنذِركُم أنّي رَسُول الله إليكم، قد خلَتْ مِن قَبْلي الرُّسُل، أفإن مُتّ أو قُتِلتُ انقلبتم على أعقابكم ﴿وَمَن يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجزِيُ الله الشَّاكِرِينَ﴾، ألا وإنّ علياً هُو المَوصُوف بالصبر والشُّكر، ثمّ مِن بعده وُلْدي مِن صُلْبه»[١].

وعن ابن عبّاس رضي الله عنه: أنّ المُراد الطائعون لله تعالى مِن المُهاجرين والأنصار[٢].

ورَوىٰ الفخر الرازي في تفسيره: عن الطّبري، عن عليّ عليه السلام أنه قال: «المُراد بقوله: ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّاكِرِينَ﴾ أبو بكر وأصحابه»[٣].

ورُوي عنه صلوات الله عليه أيضاً أنّه قال: «أبو بكر مِن الشّاكرين، وَهُو مِن أحبّاء الله»[٤]. وفي الرِّوايتين مِن الضَّعْف والوَهْن ما لا يخفىٰ.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَاباً مُّؤَجَّلاً وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِى ٱلشَّاكِرِينَ﴾ [١٤٥]

ثمّ لمّا أرجَفَ المُنافقون بأنّ محمّداً صلى الله عليه وآله قد قُتل، ولَو كان نبيّاً ما قُتِل، وقالوا: إنّ الّذِين قُتِلوا مِن أصحاب النبيّ لَو كانوا عندَنا، ولَم يخرُجوا مِن المدينة إلىٰ اُحُد ما ماتوا وما قُتلوا، رَدّ الله عليهم بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ﴾ مِن النُّفوس، وحَيّ مِن الأحياء ﴿أَن تَمُوتَ﴾ بسَببٍ مِن الأسباب، أو بإرادة مُريد ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ وإرادته، وبسَبب أمره مَلَك الموت بقَبض رُوحه، فلا يؤثّر تراكُم الأسباب العاديّة للموت ـ مِن الخُروج عن الحِصْن، وتَهاجُم الأعداء، وتخاذُل الأنصار، وغير ذلك ـ في مَوت أحدٍ ما لَم تكن إرادة الله ومشيئته، فإنّه كتَب المَوت ﴿كِتَاباً﴾ وقدّره تقديراً ﴿مُّؤَجَّلاً﴾ مُؤقّتاً، لا يُؤخّره التّحصُّن في البَلد والفِرار مِن الزّحْف، ولا يقدّمه الثّبات في الجِهاد والخُروج إلىٰ العَدُوّ. فالمُجاهد لا يمُوت بغيرِ أجله، والقاعِد لا يسلَم معَ حُضور أجَله.

وفيه تعريضٌ علىٰ أكثر[٥] أصحاب الرّسُول صلى الله عليه وآله، وتحريضٌ للمُؤمنين علىٰ القِتال، وتشجيعٌ لهم، ووَعْدٌ للرّسُول صلى الله عليه وآله بالحِفْظ وتأخير الأجَل.

---

١. الاحتجاج: ٦٢، تفسير الصافي ١: ٣٥٨.
٢. تفسير أبي السعود ٢: ٩٤.
٣ و ٤. تفسير الرازي ٩: ٢٢.
٥. كذا، والظاهر: تعريض بأكثر، أو لأكثر.

ثمّ أنّه تعالىٰ ـ بعدَ تحقيق أنّ الحَياة والمَوت دائران مَدار إرادة الله ومشيئته، وليسَ لغَيره فيهما مَدخَل وصُنْع ـ بيّن أنّ ثَواب الجِهاد وسائر الأعمال دائرٌ مَدار نِيّة العَبْد وإرادته، بقوله: ﴿وَمَن يُرِدْ﴾ بجِهاده وسائر عِباداته ﴿ثَوابَ ٱلدُّنْيا﴾ مِن الغَنيمة وحُسْن الذِّكْر ﴿نُؤْتِهِ﴾ ونُوفّه نَصيبه ﴿مِنْهَا﴾ علىٰ حَسَب ما تقتضيه الحِكْمة والمَصلحة.

عن أبي هُريرة: عن النبيّ صلى الله عليه وآله: «أنّ الله تعالىٰ يقول يومَ القِيامة لمُقاتلٍ في سبيل الله: في ماذا قُتلِتَ؟ فيقول: أمرت بالجِهاد في سبيلك، فقاتلتُ حتّىٰ قُتِلْتُ، فيقول تعالىٰ: كذِبتَ، بَل أردتَ أن يُقال: فُلان مُحارِب[١]، ثمّ أنّ الله تعالىٰ يأمُر به إلىٰ النّار» وفيه تعريضٌ لمَن شَغَلتهُم الغَنائِم يومَ أُحُد عن الجِهاد.

﴿ومَن يُرِدْ﴾ ويطلُب بجِهاده، أو بجميع أعماله الحَسَنة ﴿ثَوَابَ ٱلآخِرَةِ﴾ مِن الجنّة، والرّحمة المُتّصلة، والنِّعَم الدّائمة ﴿نُؤْتِهِ﴾ ونُوفّه حظّاً وافِراً ﴿مِنْهَا﴾ علىٰ حَسَب أهليّته واستِحقاقه، وقابليّته للتّفضُّل، ومَرتبة خُلوصه في النِيّة.

وفيه دَلالةٌ علىٰ أنّ الأعمال الخَيريّة لا تخلو عن الأجر والثّواب إمّا الدُّنيوي وإمّا الأُخروي.

ثمّ أكدَ الله الوَعْد بقوله: ﴿وَسَنَجْزِى﴾ عن قَريب جزاءً جزيلاً لا يسَعه البَيان، ولا يحوِيه الكلام ﴿ٱلشَّاكِرِينَ﴾ لنِعَمه، مِن القُوىٰ والصِّحّة، وتَوفيق الهِداية إلىٰ الإسلام، والعِلْم بالمَعارف والأحكام وغيرها، بصرف ما آتاهم الله في مَرْضاته وطاعته، لا يصرِفهم عن ذلك صارف أبداً، فيدخُل فيهِم المُجاهدون والشُّهَداء.

في ذكر معجزة للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم

عن (المجمع): عن الباقر عليه السلام: «أنّه أصاب علياً عليه السلام يومَ أُحُد سِتُّون جِراحة، وأنّ النبيّ صلى الله عليه وآله أمر أمّ سليم وأمّ عطية أن تُداوياه فقالتا: إنّا لا نُعالج منه مكاناً إلّا انفتَق مِنه مَكان، وقد خِفْنا عليه، ودخَل رَسُول الله صلى الله عليه وآله والمُسلمون يعُودونه وهُو قُرْحة واحدة، فجعَل يمسحه بيده ويقول: إنّ رَجُلاً لقي هذا في الله، فقد أبلىٰ وأعذَر، فكان القُرْح الذي يمسَحه رَسُول الله صلى الله عليه وآله يلتَئِم، فقال عليّ عليه السلام: الحَمدُ لله، إذ لَم أفِرّ، ولَم أُوَلّي الدُّبُر، فشكَرَ اللهُ له ذلك في موضِعين مِن القُرآن، وهُو [قوله: ﴿وَسَيَجْزِى ٱللهُ ٱلشَّاكِرِينَ﴾[٢] من الرزق في الدُّنيا] ﴿وسنجزي الشاكرين﴾»[٣].

وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللهِ وَمَا

---

١. تفسير الرازي ٩: ٢٥، تفسير روح البيان ٢: ١٠٦. ٢. آل عمران: ١٤٤/٣.
٣. مجمع البيان ٢: ٨٥٢، تفسير الصافي ١: ٣٥٩.

ضَعُفُوا وَمَا ٱسْتَكَانُوا وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّابِرِينَ[١٤٦]

ثمّ ذكَر الله شِدّه اهتِمام المُؤمنين مِن الأُمَم السّابقة في جِهاد الكُفّار، ونُصْرة أنبيائهم ودِينهم، وتحمّلهم الشّدائِد في ذلك، تَقْريعاً للمُنهزمين في اُحُد علىٰ تَقْصيرهم في الجهاد ونُصْرة الإسلام، وسُوء صَنيعهم معَ الرّسُول ﷺ بقوله: ﴿وَكَأَيِّن﴾ قال جَمعٌ مِن المُفسرين: إنّ هذه الكلِمة مُستعملة في الكثير[١]، فيكون المعنىٰ: وكَم ﴿مِن نَّبِيٍّ﴾ مِن الأنبياء في القُرون السّابقة قاتَل أعداء الدِّين، لتَرويج دِينه، وإعلاء كلمة الحَق، و﴿قَاتَلَ مَعَهُ﴾ وجاهَد الكُفّار، مُصاحِباً له ﴿رِبِّيُّونَ﴾ وعُلماء اتْقِياء ﴿كَثِيرٌ﴾!

وقيل: إنّ المُراد مِن (ٱلرِّبِّيُّون) الجُموع الكثيرة[٢].

وعن (المَجمع): عن الباقر عليه السلام: «الرِّبِّيُّون: عشرة آلاف[٣]».

وعن الصادق عليه السلام قال: «اُلوف واُلوف»[٤].

﴿فَمَا وَهَنُوا﴾ في مُنازلة الأعداء، وما فتَروا في مُقاتلة الكُفّار ﴿لِمَا أَصَابَهُمْ﴾ مِن البَلايا والشّدائِد، ولكَثْرة مانَالهم مِن القَتل والجَرْح ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ولإعلاء كَلمته، وإعزاز دِينه، وطَلَب مَرضاته ﴿وَمَا ضَعُفُوا﴾ في دِينهم وعقائِدهم، وما تَقاعدوا عن مُقاتلة أعدائهم ﴿وَمَا ٱسْتَكَانُوا﴾ وما خضَعوا عندَهم لطَلَب الصُّلْح والمُداهنة.

فإذا كانت سِيرة المُؤمنين بسائر الأنبياء، ودَأب أتباعهم ذلك، فلا ينبغي لكُم الوَهْن في الجِهاد، والضَّعْف في الإيمان، والفِرار مِن الزّحْف، بَل الارْتِداد عن الإسلام وأنتم أتباع خاتَم النّبيّين.

وفيه تَعْريضٌ عليهم بقولهم: لَو كان محمّد نبيّاً لمَا ورَد عليه ما ورَد. وباسْتِكانتهم لعَدُوّهم حيثُ قالوا: لَيْت ابن اُبَيّ يأخُذ لنا أماناً مِن أبي سُفيان.

وعن (المجمع): عن الباقر عليه السلام: «بيّن اللهُ سُبحانه أنّه لَو كان قُتِل كما اُرجِف بذلك يومَ اُحُد لَمَا أوجب ذلك أن يضعُفوا أو يهنوا، كما لَم يهِن مَن كان معَ الأنبياء بقَتْلهم»[٥].

أقول: هذا التّفسير مَبنيّ علىٰ قِراءة (قتل معه)[٦] كما هِي مَرويّة عن الصادق عليه السلام[٧].

ثمّ بشّر سُبحانه أهل الثّبات في الجِهاد، بل مُطلق الصّابرين علىٰ الطّاعات بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّابِرِينَ﴾ علىٰ ما أصابهم مِن البأساء والضّرّاء، في سَبيله ومَرْضاته، والمُحتبِسين أنفسهم علىٰ طاعته. فعليه تعالىٰ أن يُكرِمهم إكرام الأحبّاء، ويَجزيهم في الدُّنيا والآخِرة أحسَن الجَزاء.

---

١. تفسير الرازي ٩: ٢٦، تفسير أبي السعود ٢: ٩٥، تفسير روح البيان ٢: ١٠٦.

٢ و٣. مجمع البيان ٢: ٨٥٤، تفسير الصافي ١: ٣٦٠.

٤. تفسير العياشي ١: ٧٩٣/٣٤٢، تفسير الصافي ١: ٣٦٠.

٥. مجمع البيان ٢: ٨٥٤، تفسير الصافي ١: ٣٦٠.

٦. في المصحف الشريف ﴿قَاتَلَ مَعَهُ﴾.

٧. تفسير العياشي ١: ٧٩٣/٣٤٢، تفسير الصافي ١: ٣٦٠.

وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَنْ قَالُوا رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنْصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَافِرِينَ * فَآتَاهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلآخِرَةِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ [١٤٧ و ١٤٨]

ثمَ أنه تعالىٰ ـ بعدَ بَيان كمال اسْتِقامتهم علىٰ الدِّين، وشِدَّة ثَباتهم في الجِهاد ونُصْرة النَبِيّين، وقُوَة صَبْرهم علىٰ الشدائِد والأهوال ـ بيّن أنّهم معَ ذلك لا هَمّ لهُم ولا مَطلوب بعدَ المَغفرة عندَهم، إلّا ازْدِياد الثّبات والصَبْر، والغَلَبة علىٰ أعداء الحَقّ بقوله: ﴿وَمَا كَانَ﴾ في حالٍ مِن الأحوال أو عندَ لِقاء العَدُوّ، واقْتِحام مَضائق الحَرب، والخَوْض في غَمَرات المَوت ﴿قَوْلَهُمْ﴾ ومَسؤولهم شيئاً مِن الأشياء ﴿إِلَّآ أَنْ قَالُوا﴾ مُتضرّعين إلىٰ مَلِيكهم اللّطيف بهم ﴿رَبَّنَا﴾ ويا مَن إليه تَربية نُفوسنا، وإصلاح جميع أحوالنا وأُمورنا ﴿ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ صَغائرها وكَبائرها ثمّ بعدَ التّعميم خَصُّوا الكبائر بالذِّكْر لعِظَمها بقولهم: ﴿وَإِسْرَافَنَا﴾ وتَجاوُزنا عن حُدودك ﴿فِى أَمْرِنَا﴾ وعَملنا.

وإنّما أضافوا إلىٰ أنفُسهم الإسراف معَ كَوْنهم رَبّانِيّين بُرَآء مِن التّفريط، اسْتِحقاراً لها، وإسناداً لِمَا أصابهم إلىٰ أعمالهم، وإنّما قدّموا الدّعاء بالمَغفرة لكَوْن النّجاة مِن سَخَط الله وعَذابه أهمّ المَقاصِد في نَظَرهم.

ثمّ الأهمّ ما سألوه بقولهم: ﴿وَثَبِّتْ﴾ بتأيِيدك لنا، وتَقْوية قُلوبنا ويَقِيننا ﴿أَقْدَامَنَا﴾ علىٰ دِينك القَويم وصِراطك المُستقيم، وفي مُجاهدة النَفْس، ومُدافعة الشّيطان الرّجيم، ونُصْرة الأنبياء، ومُنازلة الأعداء ﴿وَٱنْصُرْنَا﴾ بالحُجّة والسّيْف ﴿عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَافِرِينَ﴾ حتّى تَعْلُو كلمتُك، وتتِمّ حُجّتُك.

ففيه دَلالةٌ علىٰ أنّ المَقصد الأعلىٰ عندَ المُؤمنين مَغفرة الذُّنوب، والثّبات علىٰ الدِّين، ونُصْرة الحَقّ. وفيه تعريضٌ بالمُنهزمين والمُرتدّين في أُحُد.

﴿فَآتَاهُمُ ٱللَّهُ﴾ وأعطاهم بسَبب حُسْن حالِهم، وكمال ضَراعتهم ﴿ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ مِن انشِراح الصَدْر، وقُوّة اليَقين، والنُّصْرة علىٰ أعداء الدِّين والغَنيمة، وحُسْن الذِّكْر بَين المُؤمنين ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلآخِرَةِ﴾ مِن الجنّة العالية، والنِّعَم الباقية، واللّذّات الدّائِمة، والحُور والقُصور، والكرامة والسُّرور.

وإنّما خَصّ الله سُبحانه ثَواب الآخِرة بالحُسْن، للإيذان بفَضْله ومَزِيّته علىٰ الدُّنْيا وما فيها ﴿وَٱللَّهُ﴾ تعالىٰ لكَوْنه حَسَن الصِّفات والفَعال ﴿يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ويرضىٰ عنهم، ويزيد لهم خَير الدّارَين.

ففيه دَلالةٌ علىٰ أنّهم بلَغوا ـ بثَباتهم في الدِّين، وخُضوعهم لرَبّ العالَمين وَعدّ أنفُسهم في المذنِبين والمُسرِفين ـ إلىٰ دَرَجة المُقرّبين، والعِباد المَرضِيِّين.

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ * بَلِ ٱللهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّاصِرِينَ[١٤٩ و ١٥٠]

ثمّ لمّا دَعا الكُفّار والمُنافقون ـ بعدَ انتِشار خَبَر قَتْل النبيّ ﷺ ـ بعضَ ضُعفاء المُؤمنين إلىٰ الكَفّ والرُّجوع إلىٰ ما كانوا عليه مِن الشِّرْك، وألقَوا بعضَ الشُّبُهات فيهم، نهىٰ الله المُؤمنين عن اتّباعهم، والاعتِناء بشُبُهاتهم بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ لا تُطيعوا المُنافقين ـ في قولهم: ارْجِعوا إلىٰ دِينكم وإخوانكم، ولَو كان محمّد نبيّاً لَمّا غُلِب وقُتِل ـ فإنّكم ﴿إِن تُطِيعُوا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ كأبي سُفيان وغيرِه مِن المُشركين واليَهُود والمُنافقين، وتَتَّبِعوا قولَهم في أمر الدِّين، وتُصغوا إلىٰ الشُّبُهات التي يُلقُونها في قُلوبكم، خُصوصاً بعدَ وَقْعة اُحُد ﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ ويُخرِجوكم عن دِينكم، ويُصَيِّروكم كُفّاراً ﴿فَتَنْقَلِبُوا﴾ وترجِعوا إلىٰ الشِّرْك، بعدَ اهْتِدائكم إلىٰ التَّوحيد ودِين الإسلام، حالَ كَوْنكم ﴿خَاسِرِينَ﴾ في الدُّنيا والآخِرة، مَحرُومين مِن كَرامتهما وسَعادتهما، لابْتِلائكم بذُلّ الانْقِياد للعَدُوّ بدَلاً مِن عِزّ الإسلام، وبعَذاب الخُلْد بدلاً مِن الثّواب المُؤبّد، فلا تتّبِعوا بطاعتهم مُوالاتهم ونَصْرهم.

﴿بَلِ ٱللهُ﴾ وحدَه ﴿مَوْلَاكُمْ﴾ في الدُّنيا والآخِرة، ناظِر في صَلاحكم، مُعطٍ لِمَا فيه خَيْركم ونَفعكم ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّاصِرِينَ﴾ والأعوان لكم، فإنّه الجَواد الذي لا يبخَل، والعالِم الذي لا يجهَل، والقادِر الذي لا يعجِز، وهُو الكافي من كُلّ شيءٍ، ولا يكفِي مِنه شيءٌ، فلا ينبغِي للمُؤمن أن يرجو غيرَه، ولا ينظُر إلىٰ ما سِواه، وعليه أن يخُصّه بالطّاعة والاسْتِعانة.

سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَأْوَاهُمُ ٱلنَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّالِمِينَ[١٥١]

في أن النبيّ ﷺ كـان مـنصوراً بالرعب

ثمّ اعْلَم أنّ الله تعالىٰ نصَر النبيّ ﷺ والمُؤمنين، كما قال رَسُول الله ﷺ: «نُصِرتُ بالرُّعْب مَسيرة شهر»[1] ولِذا هزَموا علىٰ ضَعْفهم وقِلّة عَدَدهم عَسْكَر المُشرِكين علىٰ كَثْرتهم وشَوْكتهم في بَدْر وفي اُحُد، ما داموا في طاعة الله ورَسُوله ﷺ، فلمّا عَصَوا الله ورَسُوله ﷺ في اُحُد سلَب الله الرُّعْب عن قُلوب المُشركين، حتّىٰ رجَعوا وفعَلوا ما فعَلوا، فلمّا عادوا إلىٰ طاعة الرَّسُول ﷺ بشّرهم الله بالنَّصْر بالرُّعْب في اُحُد وغيرها مِن المَواطن بقوله: ﴿سَنُلْقِي﴾ ونقذِف عن قَريب ﴿فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلرُّعْبَ﴾ أو يستولي عليهم الخَوف مِنكم ﴿بِمَا أَشْرَكُوا بِاللهِ﴾ ولأجل كُفْرهم بوَحْدانيّته وإشراكهم في اُلوهيته وعِبادته ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ﴾ ولَم

---

١. مجمع البيان ٢: ٨٥٧، تفسير الصافي ١: ٣٦١.

يُقم علىٰ ألوهيّته، واستِحقاق عِبادته ﴿سُلْطَاناً﴾ وحُجَةً وبُرهاناً.

رُوي أنّ الكُفّار لَمّا اسْتَولَوا علىٰ المُسلمين وهزَموهم، أوقَع الله الرُّعْب في قُلوبهم، فترَكوهم وفرّوا مِنهم مِن غيرِ سبَب، حتّىٰ أن أبا سُفيان صعِد الجَبل وقال: أين ابن أبي كَبْشة، وأين ابن أبي قُحافة، وأين ابن الخطّاب؟ فأجابه عُمر، ودارَتْ بَيْنهما كَلمات، وما تجاسَر أبو سُفيان أن ينزل مِن الجَبل والذّهاب إليهم[1].

ونُقِل أنّ الكُفّار لمّا ذهَبوا إلىٰ مكّة، قالوا حينَ كانوا في بعضِ الطّريق: ما صنَعْنا شيئاً، قتَلْنا الأكثرين مِنهم وترَكناهم ونحنُ ظاهِرون، ارْجِعوا حتّىٰ نستأصِلَهُم بالكُلّيّة، فلمّا عزَموا علىٰ ذلك ألقىٰ الله الرُّعب في قُلوبهم[2].

وعن الصادق عليه السلام، في رِواية: «ثمّ انْهزم النّاس، فقال رَسُول الله صلى الله عليه وآله لعليّ عليه السلام: يا عليّ، امْضِ بسَيفك حتّىٰ تُعارِضهم، فإنْ رأيتَهم رِكبوا القِلاص[3] وجنّبوا الخَيْل فإنّهم يُريدون مكّة، وإن رأيتَهم قد ركِبوا الخَيْل وهُم يجتَنِبون القِلاص فإنّهم يُريدون المدينة، فأتاهم عليّ عليه السلام فكانوا علىٰ القِلاص، فقال أبو سُفيان لعليّ عليه السلام: ماتُريد؟ هُو ذا نحنُ ذاهِبون إلىٰ مكّة، فانْصرِفْ إلىٰ صاحِبك، فاتّبَعهُم جَبْرئيل عليه السلام، فلمّا سمِعوا وَقْع حافِر فَرسه جدّوا في السَّيْر وكان يتلوهم، فإذا ارْتحلوا قالوا: هُو ذا عَسْكر محمّد قد أقبل، فدخَل أبو سُفيان مكّة فأخبرهم الخَبر، وجاء الرُّعاء والحطّابون فدخَلوا مكّة فقالوا: رأينا عَسْكر محمّد كلمّا رحَل أبو سُفيان نزَلوا يقدُمهم فارِس علىٰ فَرَسٍ أشقر يطلُب آثارهم، فأقبل أهل مكّة علىٰ أبي سُفيان يوبّخونه»[4].

أقول: وعليه، فلابُدّ مِن كَوْن نُزول الآية في أثناء الحَرب، أو عندَ انْقِضائها.

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ بَيان حَال المُشركين في الدُّنيا، بيّن سُوء حَالهم في الآخِرة بقوله: ﴿وَمَأْوَاهُمُ﴾ ومَسكنهم في الآخِرة ﴿ٱلنَّارُ﴾ لا غيرُها ﴿وَبِئْسَ﴾ المَثْوىٰ والمَقرّ ﴿مَثْوَىٰ ٱلظَّالِمِينَ﴾ ومَقرّهم وساء المكان الذي خصّهم الله به في القِيامة، بسَبب ظُلْمهم علىٰ أنفسهم بالشِّرك، وعلىٰ النبيّ صلى الله عليه وآله والمُؤمنين بالمُقاتلة.

وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَا تُحِبُّونَ مِنكُم مَن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَن

---

١ و٢. تفسير الرازي ٩: ٣٢.

٣. قِلاص وقَلائِص: جمع قَلُوص: وهي الإبل الفتيّة.

٤. الكافي ٨: ٥٠٢/٣٢١، تفسير الصافي ١: ٣٥٨.

يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ[١٥٢]

ثمّ قيل: إنّه لمّا رجع رَسُول الله ﷺ وأصحابه إلىٰ المدينة، وقد أصابهم ما أصابهم مِن الجِراح والمَصيبة قال ناسٌ مِن أصحابه: مِن أين أصابنا هذا، وقد وعَدنا الله النَّصْر؟ فأنزل الله تعالىٰ: **﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ﴾** وأنجز لكم **﴿وَعْدَهُ﴾** إيّاكم بالنَّصر والغَلَبة علىٰ لِسان نبيّه ﷺ، ولكِن كان ذلك الوَعْد مَشروطاً بالتّقوىٰ والصّبْر، وأنتم مادُمتم علىٰ طاعة الرّسُول ﷺ نُصِرتُم وغُلّبتُم علىٰ المُشركين **﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم﴾** وتقتُلونهم قتلاً ذَريعاً بتَيْسير الله و **﴿بِإِذْنِهِ﴾** وتأييده.

رُوي أنّ المُشركين لمّا أقبلوا جعَل الرُّماة مِن المُسلمين يرشُقونهم بالنّبْل، والباقُون يضرِبونهم بالسيف، وقَتل عليٌّ عليه السلام طَلحة بن أبي طلحة كَبش قُريش، وتِسعة من أصحاب لِوائهم فانهزم المُشركون، والمُسلمون علىٰ آثارهم يقتلُونهم قتلاً ذريعاً.

فكأنّه قال سُبحانه: كُنتم علىٰ هذه الحالة مِن النَّصر والغَلَبة **﴿حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾** وضعُفتم رأياً في طاعة الرّسُول ﷺ؛ لغَلَبة الحِرْص علىٰ الغَنيمة، ومِلتُم إليها **﴿وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾** مِن الثّبات والإقامة في المركز، والذّهاب لأخذ الغَنيمة.

رُوي أنّ بعضَ الرُّماة ـ حينَ انْهزم المُشركون وولُّوا هاربين، والمُسلمون علىٰ أعقابهم ضرباً وقتلاً ـ قالوا: فما مَوقفُنا هُنا بعدَ هذا؟ وقال أميرُهم عبدُالله بن جُبير: لا تُخالِفوا أمر الرّسُول ﷺ، فإنّه قال: «لا تبرَحوا مكانكم، فإنّا لا نزَل غالبين ما دُمتُم في هذا المكان» فثبَت عبدُالله في نَفَرٍ دُون العشرة في مكانه، ونَفَر الباقون للنَّهب.

وإليه أشار سُبحانه بقوله: **﴿وَعَصَيْتُم﴾** الله ورسوله **﴿مِن بَعْدِ مَا أَرَاكُم﴾** اللهُ تعالىٰ **﴿مَا تُحِبُّونَ﴾** مِن الظَّفَر والغَنيمة، وانْهزام العَدُوّ. وقد مَرّ أنّه لمّا رأىٰ المُشركون قِلّة الرُّماة في الشِّعب حمَلوا عليهم، وقتلوا أمير الرُّماة ومَن مَعه.

ثمّ حمَلوا علىٰ المُسلمين مِن وَرائهم، فظهَرت سرائِر القوم كما بيّنها سُبحانه بقوله: **﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾** وهُم الّذِين خَالفوا أمر الرّسُول ﷺ، وتركوا المَركز طمعاً في الغَنيمة، وأقبلوا علىٰ النّهب.

عن ابن مَسعود رضي الله عنه قال: ما علمت أنّ أحداً مِنّا يُريد الدُّنيا حتّىٰ نزلَتْ هذه الآية[١].

﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ بجهاده، وهُم الّذِين ثَبَتوا علىٰ طاعة الرّسُول ﷺ ولم يُخلُوا مَراكزهم

---

١. تفسير روح البيان ٢: ١١٠.

حتّىٰ نالوا شرَف الشّهادة، وحازُوا علىٰ دَرجة السّعادة.

﴿ثُمَّ﴾ بعدَ عِصيان الرُّماة ﴿صَرَفَكُمْ﴾ الله، وكَفّ أيديكم ﴿عَنْهُمْ﴾ وهزَمكم مِنهم بأن أوجد فيكم مُقتضى الهَزيمة مِن زَوال الرُّعب عن قُلوب المُشركين، وإلقائه في قُلوبكم ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ ويمتَحِنكُم في الثّبات علىٰ الإيمان، والصَّبْر في الجِهاد، حتّىٰ يمتاز المُخلصون الكامِلون، والصّابرون المُحتسبون مِن غيرهم ﴿وَلَقَدْ عَفَا﴾ الله ﴿عَنكُمْ﴾ تفضُّلاً عليكم، أو لِمَا عَلِم مِن نَدَمكم علىٰ عِصيانكم بالفِرار مِن الزَّحف، والهَزيمة مِن الجِهاد.

ثمّ لمّا كان امْتِياز الثّابتين في الإيمان مِن غيرهم، والعَفْو عن العُصاة، تفضُّلاً مِن الله تعالىٰ، وصَف ذاته المُقدّسة بقوله: ﴿واَللّٰهُ ذُو فَضْلٍ﴾ عظيم ﴿عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ﴾ كافّة بتَكْميل نُفوس المُطيعين مِنهم، وتَعْلية دَرجاتهم، وتَوفيق العَاصين مِنهم للتّوبة، وتكفير ذُنوبهم.

وقيل: إنّ المُراد ذُو فَضل عليهم في جميع أحوالهم [سَواءً] كانت الدّولة لهم أو عليهم.

إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِى أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمّاً بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَٱللّٰهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ[١٥٣]

ثمّ بيّن الله تعالىٰ وقت صَرْفهم عنهم بقوله: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾ وحينَ تذهَبون في السَّهْل والجَبَل مُنهزمين مِن بأس المُشركين ﴿وَلَا تَلْوُونَ﴾ مِن شِدّة الخَوف ﴿عَلَىٰ أَحَدٍ﴾ مِن النّاس، ولا تلتفِتون إلىٰ مَن في يَمينكم وشِمالكم وورائكم.

وقيل: إنّ المُراد: لا يقفِ بعضُكم لبعضٍ، ولا ينظُر نَفس إلىٰ نَفس أنّه والِد أو ولد، قَريب أو بعيد، صديق أو عَدُوّ.

﴿وَٱلرَّسُولُ﴾ في هذا الحال، بأعلىٰ صوته ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ ويُناديكم ـ حالَ كَوْنه واقِفاً ﴿فِى أُخْرَاكُمْ﴾ وساقَتكم[١]، أو في جَماعة أُخرىٰ مِنكم، أو في آخِركم ـ بقوله: «إليَّ عِباد الله، أنا رَسُول الله، أين تفرّون عن الله، وعن رَسُوله؟».

وفي رِوايةٍ: يقول: « مَن كَرّ فله الجنّة»[٢] أمراً بالمعروف وهُو الكَرّ، ونهياً عن المُنكر وهُو الانْهِزام، لا اسْتِعانة بهم.

﴿فَأَثَابَكُمْ﴾ الله، وجَازاكم عن عِصيانكم وانْهزامكم ﴿غَمّاً﴾ مُتصلاً ﴿بِغَمٍّ﴾ آخَر.

---

١. السّاقة: مؤخّرة الجيش.

٢. تفسير روح البيان ٢: ١١٠، تفسير الصافي ١: ٣٦٢.

قيل: إنّ الغُموم كانت في أُحُد كثيرة مِن غَلَبة العَدو، وقَتل الاحبّة، وما نزل على النبيّ ﷺ وغير ذلك.

وعن القُمّي رحمه الله: عن الباقر عليه السلام: «فأمّا الغَمّ الأوّل: فالهَزيمة والقَتل، والغَمّ الآخَر: فإشراف خالد بن الوليد عليهم»[١].

وقيل: إنّ المُراد: غمّاً شديداً، بسَبب شَجّة وَجه الرّسول ﷺ وكَسْر رَباعِيَته، وقَتل عمّه حمزة، بعوض غَمّ الرّسول بسَبب عِصيانكم أمره.

في أن أبابكر وعمر وعثمان كانوا من المنهزمين في أُحُد

ثمّ أن الفخر الرازي قال في تفسيره الكبير: ومِن المُنهزمين عُمَر، إلّا أنه لَم يكُن مِن أوائل المُنهزمين، ولَم يبعُد بَل ثَبت علىٰ الجَبل إلىٰ أن صعِد النبيّ ﷺ[٢].

أقول: ليتَ شِعري، من أين عَلِم أنه لَم يكُن مِن أوائل المُنهزمين؟! ثمّ أنه بعدَما ثبَت أنّه كان مِن المُنهزمين، كيف يصلُح فَساد عمله عدَم كَونه مِن أوائلهم؟

ثمّ قال: ومِنهم أيضاً عُثمان، انْهزم مع رَجُلين مِن الأنصار يُقال لهما سَعد وعُقبة، انْهزموا حتّىٰ بلَغوا موضِعاً بعيداً، ثمّ رجَعوا بعدَ ثلاثة أيام ـ إلىٰ أن قال ـ: وأمّا الّذِين ثبَتوا مع الرّسول ﷺ فكانوا أربعة عشر رَجُلاً؛ سبعةً من المهاجرين وسَبعةً مِن الأنصار، فمِن المُهاجرين أبو بكر وعليّ عليه السلام[٣].

أقول: قال بعضٌ: إنّ أبا بكر أيضاً كان مِن المُنهزمين[٤].

وقال ابن أبي الحديد:

فإنْ أنسَ لَم أنس اللذين تقدّما وفرّهُما والفَرّ قد عَلِما حُوبٌ[٥]

والظاهِر أن مُراده أبو بكر وعُمر، ويُؤيّد ذلك الاعتِبار وشُهرته بيْن الشّيعة[٦].

ثم قال فخر الدّين: وذُكِر أنّ ثمانية مِن هؤلاء ـ أي مِن الأربعة عشر ـ بايعوه يومئذٍ علىٰ الموت؛ ثلاثة مِن المُهاجرين عليّ عليه السلام، وطلحة، والزُّبير...[٧].

أقول: فعُلِم أنّ أبا بكر ـ علىٰ تقدير كَونه مِن الثّابتين ـ لَم يُكن مِن الّذِين بايعوا رَسُول الله ﷺ علىٰ الموت، ثمّ أنّ عَدّ طلحة مِنهم مُنافٍ لِمَا رُوي مِن اعْتِراض أنس بن النضر عليه وعلىٰ عُمر، بقوله: ما يحبِسكم عن القِتال؟ فقالوا: قد قُتل محمّد ﷺ.

ثمّ أنّ الله تعالىٰ بيّن عِلّة تراكُم الغُموم عليهم بقوله: ﴿لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ مِن المَنافع

---

١. تفسير القمي ١: ١٢٠، تفسير الصافي ١: ٣٦٢. ٢. تفسير الرازي ٩: ٥٠. ٣. تفسير الرازي ٩: ٥٠.
٤. راجع: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٣: ٢٩٣.
٥. القصائد العلوية: ٩١، وفيه: وما أنس لا أنس...
٦. راجع: إرشاد المفيد ١: ٨٣، مناقب ابن شهر آشوب ٣: ١٢٣، كشف الغمة ١: ١٩٣، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٥: ٢١. ٧. تفسير الرازي ٩: ٥١.

والخَيرات الدُّنيوية ﴿وَلَا﴾ علىٰ ﴿مَا أَصَابَكُمْ﴾ مِن البَلايا والمَصائب، فإنّ التَمرُّن علىٰ عدَم الاعْتِداد بالمَنافع والمَضارّ، والاعْتِياد عليه، يُهوّن فَوْت المَنافع والابْتِلاء بالمَضارّ الدُّنيوية.

وقيل: إنّ المُراد: لِئَلّا تحزنوا علىٰ ما فاتكم مِن الغَنيمة، ولا ما أصابكم مِن قَتل إخوانكم، أو علىٰ ما فاتكم مِن النَّصْر، ولا علىٰ ما أصابكم مِن الجِراح.

وقيل: إنّ التَعليل للعَفْو، فإنّ السُّرور بالعَفْو يُزيل غَمّ فَوْت الغَنيمة وإصابة الجِراح، وغمّ الابْتِلاء بالمَعصية.

ثمّ زجَرهم الله تعالىٰ عن جميع المعاصي بقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ خَفيِّه وجَليِّه، فيُجازيكم به، إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشرّ.

ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِن بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاساً يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِنْ شَيءٍ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِم مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ[١٥٤]

ثمّ ـ لمّا كان أصحاب النبيّ ﷺ في أُحُد طائِفتين: إحداهما المُؤمنون الصّادِقون المُخلِصون، والأُخرىٰ المُنافقون الكاذبون في دَعْواهم الإيمان ـ بيّن الله تعالىٰ حُسْن حال المُؤمنين مِنهم، وتفضُّله عليهم، أوّلاً لشَرفهم، بقوله: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ﴾ الله ﴿عَلَيْكُم﴾ وأعطاكم ﴿مِن بَعْدِ ٱلْغَمِّ﴾ الذي اعْتراكم بسَبب الخَوف والهَزيمة ﴿أَمَنَةً﴾ وسَكينةً في قُلوبكم، واطْمِئناناً لنفوسكم مِن بأس العَدُوّ وضُرّه، بأن ألقىٰ عليكم لغاية سُكون خاطِركم في ذلك الوقت ﴿نُعَاساً﴾ ووَسَناً، ولكن لا علىٰ جميعكم، بَل كان ﴿يَغْشَىٰ﴾ ويعرِض ﴿طَائِفَةً﴾ خاصّة ﴿مِنكُمْ﴾ وهُم المُؤمنون المُخلصون.

وعن ابن عبّاس رضي الله عنه: المُراد من الطائِفة: المُهاجرون، وعامّة الأنصار[١].

وفي إدخال كلمة (عامّة) علىٰ الأنصار دُون المُهاجرين، إشعارٌ بعدَم كَوْن جميعهم خُلَصين[٢] في الإيمان، بَل كان بعضُهم مِن المُنافقين، أو كان بعضُهم في قُوّة الإيمان بحيث لَم يطرَأه خَوف[٣]، ولَم

---

١. تفسير أبي السعود ٢: ١٠١.

٢. كذا والظاهر: مخلصين.

٣. كذا والظاهر: لم يطرأ عليه خوف.

يألَف عينَيْه نومٌ اهتِماماً بطاعة الله وحِفْظ النبيّ ﷺ كأمير المُؤمنين عليه السلام.

عن ابن مَسعُود ﵁، قال: النُّعاس في القتال أمَنةٌ، وفي الصَّلاة مِن الشَّيطان[١]. وذلك لأنه في القِتال لا يكون إلّا مِن غاية الوُثوق بالله والفَراغ مِن الدُّنيا، ولا يكون في الصَّلاة إلّا من غاية البُعْد عن الله.

في غشيان النعاس طائفة من الصحابة

وعن ابن عبّاس ﵁ أنّه قال: آمَنهم بنُعاسٍ يغشاهم بعد خَوفٍ، وإنّما ينعَس مَن آمن، والخائِف لا ينام[٢].

وعن عبدالرحمن بن عوف، قال: ألقِيَ النّوم علينا يومَ أُحُد[٣].

نُقِل أنّ المُشركين لمّا انْصَرفوا كانوا يتوعّدون المُسلمين بالرُّجوع، فلم يأمنوا كَرّتهم، وكانوا تحتَ الحجَف[٤] متأهّبين للقِتال، فأنزل الله عليهم الأمَنة فأخذَهم النُّعاس.

ورُوي أنّه غشِيهم النُّعاس في المَصافّ، حتّىٰ كان السّيف يسقُط مِن يَد أحدِهم فيأخُذه، ثمّ يسقُط فيأخُذه.

ورُوي أنّه قال طَلحة[٥]: رفعتُ رأسي يومَ أُحُد، فجعلْتُ لا أرىٰ أحداً مِن القوم إلاّ هُو يمتدّ تحتَ حَجَفته مِن النُّعاس، قال: وكنتُ مِمّن أُلقِيَ عليه النُّعاس يومئذٍ، فكان السّيف يسقُط مِن يدي فآخُذه، ثمّ يسقُط السّوط مِن يدي فآخذه[٦].

وعن الزُّبير، أنّه قال: كنتُ معَ النبيّ ﷺ حينَ اشتدّ الخَوف، فأنزل الله علينا النّوم، والله إنّي لأسمَع قول مُعتّب بن قُشَير والنُّعاس يغشاني، ما أسمَعه إلّا كالحُلْم، يقول: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَا قُتِلْنَا هَا هُنَا﴾[٧].

ثمّ بيّن الله تعالىٰ سُوء حال المُنافقين مِنهم بقوله: ﴿وَطَآئِفَةٌ﴾ أُخرىٰ مِنهم وهُم المُنافقون كعبدالله بن أُبيّ ومُعتّب بن قُشَير وأصحابهما كانوا ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ﴾ وأوقعَتْهم ﴿أَنفُسُهُمْ﴾ في تَدْبير النّجاة، لا هَمّ لهم غيره، وذلك لكَوْنهم في حال ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ﴾ مِن غاية جَهْلهم وحُمْقهم ظنّاً ﴿غَيْرَ﴾ الظّنّ ﴿ٱلْحَقِّ﴾ والصّواب، بَل يكون ظنّهم ﴿ظَنَّ﴾ أهل ﴿ٱلْجَاهِلِيَّةِ﴾.

قيل: وَجْه الشّبَه كَوْنه مِن أقبح أنواع الظُّنُون.

وقيل: إنّ المُراد أنّهم يظُنّون ظنّاً ناشِئاً عن غاية الجاهِليّة والسّفاهة؛ لأنّهم اعْتقدوا أنّ أمر النبيّ ﷺ يضمحِلّ قريباً، ولن ينصُره الله أبداً.

---

١. تفسير الرازي ٩: ٤٥. ٢. تفسير أبي السعود ٢: ١٠١. ٣. تفسير الرازي ٩: ٤٥.
٤. الحَجَف: جمع حَجَفَة: وهي التُّرس من الجلد. وفي النسخة: الجفف.
٥. في تفسير أبي السعود وروح البيان: أبو طلحة. ٦. تفسير أبي السعود ٢: ١٠١، تفسير روح البيان ٢: ١١٢.
٧. تفسير أبي السعود ٢: ١٠١.

وكانوا ﴿يَقُولُونَ﴾ للنبيّ ﷺ، على صُورة الاسْتِرشاد، وإنْ كان مَقصُودهم في الواقِع الإنكار: ﴿هَل لَنَا﴾ يا رَسُول الله ﴿مِنَ ٱلْأَمْرِ﴾ الذي وَعدْتنا، وهُو النّصر والغَلَبة، وقيل: إنّ المُراد: هَل لنا مِن التّدبير في الإصلاح ﴿مِن شَيْءٍ﴾ قليلٍ، وحَظٌّ يسير قَطّ؟

ثمّ أمر الله سُبحانه نبيّه أن ﴿قُلْ﴾ لهم جواباً: ﴿إِنَّ ٱلْأَمْرَ﴾ مِن النّصْر والظّفَر والتّدبير ﴿كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ وهُو بالآخِرة يَنصُر أولياءه، ويخذُل أعداءه؛ كما قال: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ ٱلغَالِبُونَ﴾[1].

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ بَيان ظاهِر حالهم ومَقالهم، كشَف عن سِرّهم، وما في قُلوبهم بقوله: ﴿يُخْفُونَ﴾ ويُضمِرون ﴿فِى أَنفُسِهِم﴾ وفي قُلوبهم مِن الإنكار والتّكذيب، وقيل: إنّ المُراد يقول بعضُهم لبعضٍ خُفيَةً وسِرّاً ﴿مَا لَا يُبْدُونَ﴾ وضميراً أو كلاماً لا يُظهِرون ﴿لَكَ﴾ خَوفاً ونِفاقاً.

ثمّ لمّا كان مَقام السُّؤال عمّا يُخفون، فأجاب سُبحانه قبلَ المَسألة بقوله: ﴿يَقُولُونَ﴾ بطَريق حَديث النّفس، أو بألسنتهم فيما بَينَهم سِرّاً: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا﴾ في هذه الحَرب ﴿مِنَ ٱلْأَمْرِ﴾ المَوعُود، وهُو النّصر والغَلَبة، أو مِن التّدبير والرّأي ﴿شَيْءٌ﴾ مِن الحَظّ والنّصيب ﴿مَا قُتِلْنَا﴾ بسَيف الأعداء، وما غُلِبنا ﴿هَا هُنَا﴾.

قيل: إنّ نظَرهم إلىٰ ما رأىٰ عبدُالله بن أُبَيّ عندَ مُشاورة النبيّ ﷺ مِـن الإقـامة بـالمدينة وعـدَم الخُروج مِنها إلىٰ العَدُوّ، فأمر الله نبيّه ﷺ بقوله: ﴿قُل﴾ رَدّاً عليهم: ﴿لَوْ كُنتُمْ﴾ مُقيمين مُستَتِرين ﴿فِى بُيُوتِكُمْ﴾ وفي خَبايَا مَنازلكم في المدينة، وحتَمْتُم علىٰ أنفسكم أن لا تـخرُجوا ﴿لَبَرَزَ﴾ وخرَج الأشخاص ﴿ٱلَّذِينَ كُتِبَ﴾ في اللّوْح المَحفُوظ، وحُتِم فـي تَـقدير الله وقَـضائه ﴿عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ﴾ بسَببٍ مِن الأسباب، وداعٍ مِن دَواعي الخُروج ﴿إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ ومَصارعهم التي قدّر الله قَتْلهم فيها، وقُتِلوا هُنالك ألبتّة، ولَم ينفَعهم التصميم والعَزيمة علىٰ الإقامة، فـإنّ قَـضاء الله لا يُـردّ، وحُكْمه لا يُعقّب، والأجل المَحتوم لا يُؤخّر.

رُوي أنّ مَلَك الموت حضَر مَجلس سُليمان ﷺ، فنظَر إلىٰ رَجُلٍ مِن أهل المَجلس نظرةً هـائلة، فلمّا قام قال الرّجُل: من هذا؟ فقال سُليمان: مَلَك الموت، قال: أرسِلني معَ الرّيح إلىٰ عالَم آخر، فإنّي رأيتُ [منه] مَرأىً هائلاً، فأمرها ﷺ، فألقَتْهُ في قُطْرٍ سَحيق مِن أقطار العالَم، فما لبِث أن عاد مَـلَك الموت إلىٰ سُليمان فقال: كنتُ أُمِرتُ بقَبْض رُوح ذلك الرّجُل في هذه السّاعة في أرض كذا، فلمّا وَجَدتُه في مَجلسك قلت: متىٰ يَصِل هذا إليها، وقد أرسلتَه بالرِّيح إلىٰ ذلك المكان، فوجدتُه هُناك، فقُضِي أمْر الله في مكانه وزمانه[2].

---

١. المائدة: ٥٦/٥. ٢. تفسير أبي السعود ٢: ١٠٢.

ثمّ - لمّا كان في زَعْم المُنافقين أنّ الخُروج مِن المدينة، وقَتْل مَن قُتِل، مَفسدة مَحْضة، لَم يكُن فيها جِهَةُ خَيْرٍ وصَلاح - بيّن الله تعالىٰ حِكَمه ومَصالحه، والتّقدير: أنّ الأمر بالخُروج، ووُقوع ما وَقع، لتبلُغوا إلىٰ مَصالح كثيرة ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ﴾ ويمتحِن بما هُو كائِن ﴿مَا فِى صُدُورِكُمْ﴾ مِن الإخلاص والنِّفاق، والنِّيّات السّيّئة والحَسَنة ﴿وَلِيُمَحِّصَ﴾ وليُخلّص ما هُو كائِن ﴿مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ مِن العقائِد الحَقّة عن الشُّكوك والشُّبهات والوَساوِس ﴿وَٱللَّهُ﴾ بذاته ﴿عَلِيمٌ﴾ أزلاً ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ وما في الضّمائر مِن الأسرار والخَفِيّات، فلا يحتاج إلىٰ الاختِبار والامتِحان، وإنّما يُبرِز صُورة الابتِلاء، لتَمزين المُؤمنين، وإظهار حال المُنافقين.

نُـقِل أنّ ثُـلث عَسكـر الرّسُول ﷺ كـانوا مَجروحين، وثُـلثهم مُـنهزمين، وثُـلثهم ثـابتين مـعَ الرّسُول ﷺ [١].

ورُوي أنّ سَعد بن عثمان ورَد المدينة وأخبر أنّ النبي ﷺ قُتِل، ثمّ ورَد بعدَه رِجال ودخَلوا علىٰ نِسائهم فجعل النِّساء يقُلنَ عن رَسُول الله ﷺ تفِرّون! وكُنّ يَحْثِينَ التُّراب في وُجوههم ويقُلن: هاك المِغْزل واغْزِل به [٢].

ورُوي أنّه أُصِيب معَ رَسُول الله ﷺ نحوٌ مِن ثلاثين، كُلّهم يجيء ويجثُو بَيْن يدَيه ويقول: وَجهي لوَجهك الفِداء، ونفسي لنفسك الفِداء، وعليك السّلام غير مُودّع [٣].

ورُوي أنّ ثمانية بايعوا رَسُول الله ﷺ علىٰ الموت، ثلاثةٌ مِـن المُـهاجرين: عـليّ عليه السلام، وطَلحة، والزُّبير، وخمسة مِن الأنصار: أبو دُجانة، والحارث بن الصِمّة، وخَبّاب بن المُنذر، وعاصم بن ثابت، وسهل بن حنيف، ثمّ لم يُقتل مِنهم أحد [٤].

إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ[١٥٥]

ثمّ أنّه تعالىٰ - بعدَ بيان عِلَل إيراد البَليّات والمصائب علىٰ المُؤمنين واستِيلاء المُشركين عليهم - بيّن عِلّة انْهزام المُنهزمين، وعدَم ثَباتهم في الجِهاد بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّـذِينَ تَـوَلَّوْا مِـنكُمْ﴾ عـن القِتال، وانْهزموا عندَ النِّزال ﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ وتَصادف الفَريقان مِن المُسلمين والكُفّار، لَم يكُن تولِّيهم وانْهزامهم بعِلّة خُروجهم مِن المدينة كما توهّم المُنافقون، ولا لقُوّة المُشركين وكَثْرة شَوكتهم، بَل ﴿إِنَّمَا﴾ كان بسَبب أنّه ﴿ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَانُ﴾ ودَعاهم إلىٰ الوُقوع في الخطيئة، وارتِكاب المعصية

---

١. تفسير الرازي ٩: ٥٠.　٢. تفسير الرازي ٩: ٥٠.　٣. تفسير الرازي ٩: ٥١.　٤. تفسير الرازي ٩: ٥١.

الكثيرة، فأجابوه وأسلموا له، وإنّما كان تَسْليمهم له مُعلّلاً ﴿بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ وارْتكبوا مِن الذُّنوب والمعاصي التي كانت دُون ذلك، مِن مُخالفة أمر الرّسُول ﷺ في حِفظ الشِّعْب، والحُرص علىٰ الغَنيمة، فصارَتْ تِلك الذُّنوب مُوجِبة لكَثْرة اسْتِيلاء الشّيطان عليهم، حتّىٰ أوقعهم في أعظم المعاصي من الفِرار مِن الزَّحْف وتَسليم الرّسُول ﷺ إلىٰ الأعداء حِفظاً لأنفسهم.

ثمّ بعدَ التّوبيخ بشّرهم سُبحانه بالعَفْو بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللهُ﴾ بعدَ تِلك الزّلّات والمعاصي ﴿عَنْهُمْ﴾ بفَضله وسَعَة رَحمته ﴿إِنَّ اللهَ غَفُورٌ﴾ للذُّنوب ﴿حَلِيمٌ﴾ عن العاصيين، لا يُعاجل بعُقوبتهم، كَي يتُوب مَن في قَلبه نُور الإيمان، ويجري قضاؤه بمَن لا نَصيب له مِنه، ويقَع ما في مَكنُون عِلمه مِن الفِتَن التي مِنها غصْب

خِلافة الرّسُول ﷺ وتقدّم المُنهزمين في الرئاسة الإلٰهيّة علىٰ مَن بايعه علىٰ الموت.

رُوي أنّ عثمان عُوتِب في هزيمته يومَ أُحُد، فقال: إنّ ذلِك وإنْ كان خطأً، لكنّ الله عَفا عنه[1].

ففي تَوصيف ذاته المُقدّسة بالمَغفرة والحِلْم إشعارٌ باختِلاف المُنهزمين، فبعضُهم غفَر لهم ذُنوبهم، وبعضُهم حَلُم عنهم وأخّر عُقوبتهم إلىٰ ما بعدَ الموت.

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ ٱللهُ ذٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ وَٱللهُ يُحْيِى وَيُمِيتُ وَٱللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ[١٥٦]

ثمّ أنّه تعالىٰ - بعدَ بَيان سُوء عقائِد المُنافقين وشَناعة أقوالهم - نهىٰ المُؤمنين عن مُوافقتهم ومُماثلتهم، بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا﴾ في فَساد العقائِد، وشَناعة القول ﴿كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بقُلوبهم وآمنوا بألسنتهم نِفاقاً، كعبدالله بن أُبَيّ، ومُعتّب بن قُشَير، وأضرابهما، ﴿وَ﴾ كالّذين ﴿قَالُوا﴾ - في أنفسهم، أو تذاكروا فيما بينهم تلهُّفاً ﴿لِإِخْوَانِهِمْ﴾ النّسَبيّة والاعتِقاديّة والمَذهبيّة ﴿إِذَا ضَرَبُوا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وسافروا في البَراري والجِبال للتِّجارة وغيرها مِن الأغراض، فماتوا في سَفرهم ﴿أَوْ كَانُوا غُزًّى﴾ وخرَجوا مِن بَلَدهم مُقاتلين فقُتِلوا في المَعركة -: إنّهم ﴿لَوْ كَانُوا﴾ مُقيمين ﴿عِندَنَا﴾ في المَدينة ﴿مَا مَاتُوا﴾ في السّفر ﴿وَمَا قُتِلُوا﴾ في الغَزْو. فإنّهم إنّما قالوا ذلك، واعْتقدوا تِلك العقيدة الفاسِدة ﴿لِيَجْعَلَ ٱللهُ ذٰلِكَ﴾ القول والاعتِقاد ﴿حَسْرَةً﴾ ونَدامة شديدة مُستقرّة ﴿فِى قُلُوبِهِمْ﴾ في الدُّنيا والآخرة.

---

١. تفسير الرازي ٩: ٥١.

وفي جَعل القول الذي هُو سَبب للحَسْرة عَيْن الحَسْرة مُبالغة في سَببيّته لها وعدَم انْفِكاكه عنها، وفي ذِكْر هذه الغاية للقول دَلالة علىٰ عدَم ترتُّب فائِدة وأثر عليه غيرها.

قيل: إنّ وَجه كَوْن هذا الكلام حَسْرة لهم في الدُّنيا، زَعمهم أنّ مَن مات أو قُتِل مِنهم إنّما مات أو قُتل بسَبب تَقْصيرهم في حِفظ القَتلىٰ، ومَنعهم مِن السَّفر والقِتال، ومَن اعْتقد ذلِك لاشكّ أنّه تزداد حَسْرته وتَلهُّفه.

وقيل: إنّ المُراد: لا تكونو مِثْلهم في هذا القول الصادر عن الاعتقاد الفاسد السَّيّء، ليكون ذلِك القول والاعتِقاد حَسْرة لهم خاصّة دُونكم. أو المُراد: لا تكونوا مِثْلهم، ليكون عدَم مُماثلتكم حَسْرة لهم، أمّا في الدُّنيا فلأنّهم يرَونكم مَنصُورين، مُستولين على الأعداء، فائِزين بالأماني، حائزين للغَنائم الكثيرة، وفي الآخرة يرَونكم مَخصُوصين بكرامة الله ونِعَمه، وهُم بسَبب تَثبّطهم عن الجِهاد لهذا الاعتقاد، حُرِموا عن جميع ذلك.

ثمّ رَدّ الله سُبحانه قولهم بقوله: ﴿وَٱللهُ يُحْيِى﴾ كُلّ نَفس، لا الإقامة في البَلَد والقُعود عن القِتال، ﴿وَ﴾ هُو ﴿يُمِيتُ﴾ كُلّ حَيّ، لا السَّفر والقتال. فإذا أراد الله حَياة مُسافرٍ أو مُقاتلٍ يرجِعان سالِمَين وإن تورّطا في المَهالك، وإذا أراد الله مَوت مُقيم أو قاعدٍ يموتان وإن رَاعَيا جميع أسباب السّلامة.

ثمّ بالغ سُبحانه في زَجْر المُؤمنين عن مُماثلة الكُفّار، وبعدَ نَهيهم عنها بتَهديدهم عليها بقوله: ﴿وَٱللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ مِن جَعْل أنفسكم مماثلة لهم، ومُوافقتكم إيّاهم في العقائد والأقوال والأعمال ﴿بَصِيرٌ﴾ ومُطّلِع، لا يخفىٰ عليه سِرّكم وعَلانيتكم، فيُعاقبكم علىٰ سيّئاتكم بأشدّ العُقوبة.

وَلَـئِن قُـتِلْتُمْ فِـى سَـبِيلِ ٱللهِ أَوْ مُـتُّمْ لَـمَغْفِرَةٌ مِـنَ ٱللهِ وَرَحْـمَةٌ خَـيْرٌ مِـمَّا يَجْمَعُونَ[١٥٧]

ثمّ رغّب سُبحانه في الجِهاد بوَعْد الثّواب بعدَ الزّجْر عن التّقاعُد، والتّهديد عليه بقوله: ﴿وَلَـئِن قُتِلْتُمْ﴾ أيُّها المُؤمنون في الجِهاد ﴿فِى سَبِيلِ ٱللهِ﴾ ونُصرة دِينه ﴿أَوْ مُتُّمْ﴾ في المُسافرة في طَلب مَرضاته، مِن الهِجرة إلىٰ الرّسُول، وتحصيل العِلم، وغير ذلك، يكون ذلِك القَتل والموت مُستلزِمَين للمَغفرة عن الذُّنوب، والرّحمة الدّائمة مِن الجنّة والنِّعَم و﴿لَـمَغْفِرَةٌ﴾ كائِنة ﴿مِـنَ ٱللهِ﴾ لذُنوبكم ونجَاتكم مِن عذابه ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ عظيمةٌ مِنه تعالىٰ ﴿خَيْرٌ﴾ لكم، وأنفع ﴿مِـمَّا يَـجْمَعُونَ﴾ هؤلاء الكَفَرة، مِن الزّخارِف الدُّنيويّة التي يحسبونها مِن الخَيرات، في مُدّة أعمارهم.

عن ابن عبّاس ﷺ: خَيرٌ مِن طِلَاع الأرض[1] ذَهبةً حمراء[2].

وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللهِ تُحْشَرُونَ[١٥٨]

ثمّ بالغ سُبحانه في الوَعْد بقوله: ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ﴾ في السَّفر لوَجْه الله ﴿أَوْ قُتِلْتُمْ﴾ في سبيله ﴿لَإِلَى ٱللهِ﴾ العظيم الشّأن، الواسِع الرّحمة، الجَزيل الإحسان ﴿تُحشَرُونَ﴾ وتُوفَدون، ومِن الواضِح أن الحَشْر إلىٰ الله والوُفود عليه ونَيْل رِضوانه، أعلىٰ وأنبل مِن الحَشْر إلىٰ مَغفرته ورحمته.

قيل: في الآية إشارة إلىٰ مَراتب العُبودية، ففي قوله ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِنَ ٱللهِ﴾ إشارة إلى مَن يعبُده خَوفاً مِن العِقاب، وفي قوله: ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ إشارة إلىٰ مَن يعبُده طَمَعاً في الثّواب، وفي قوله: ﴿إلىٰ ٱللهِ تُحْشَرُونَ﴾ إشارة [إلىٰ] مَن يعبُده لحُبّ ذاته، ولكَوْنه مُستحِقّاً للعِبادة.

عن العيّاشي: عن الصادق ﷺ أنه سُئِل عمّن قُتِل أو مات، قال: «لا، المَوت موتٌ، والقَتلُ قتلٌ» قيل: ما أحدٌ يُقتَل إلّا وقد مات، فقال: «قولُ الله أصدق مِن قولك، ففرّق بينهما في القُرآن قال: ﴿أَفَإِين مَاتَ أو قُتِلَ﴾[3] وقال: ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللهِ تُحْشَرُونَ﴾، وليس كما قلتَ، المَوتُ موتٌ، والقَتلُ قَتلٌ».

قيل: فإن الله يقول: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْتِ﴾[4]؟ قال: «مَن قُتِل لَم يذُق الموت ـ ثمّ قال ـ: لابُدّ مِن أن يرجِع حتّىٰ يذُوق الموت»[5].

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ ٱللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَىٰ ٱللهِ إِنَّ ٱللهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ[١٥٩]

ثمّ أنه قيل: لمّا عاد المُنهزمون لَم يُخاطبهم رَسُول الله ﷺ بالتّغليظ والتّشديد، وإنّما خاطبهم بكلام لَيّن[6]، فمدَحه الله تعالىٰ بقوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ﴾ عظيمة كائنة ﴿مِنَ ٱللهِ﴾ العظيم، شامِلة لك، ورَبْطه علىٰ قَلبك، وتَخصيصك بمكارم الأخلاق ﴿لِنتَ لَهُمْ﴾ وعامَلتَ بالرِّفْق معهم، وتلطّفتَ بهم، بعدَ ما كان مِنهم مِن مُخالفة أمرك، وتَسليمك إلىٰ أعدائك.

قيل: إنّ كلمة (ما) في قوله: ﴿فَبِما﴾ زائدة جيء بها للتّأكيد، وقيل: استفهاميّة في مَقام التّعجُّب[7]،

---

١. طِلاعُ الأرض: مِلؤها. ٢. تفسير أبي السعود ٢: ١٠٤. ٣. آل عمران: ١٤٤/٣.
٤. آل عمران: ١٨٥/٣. ٥. تفسير العياشي ١: ٧٩٩/٣٤٤ عن الباقر ﷺ، تفسير الصافي ١: ٣٥٧.
٦. تفسير الرازي ٩: ٦٠. ٧. تفسيرالرازي٩: ٦١.

والمعنىٰ: فبأيّ رَحمةٍ عظيمةٍ مِن الله عليك ظهَر مِنك هذا الخُلُق الحَسَن! وفي إسناده إلىٰ رَحمة الله دَلالة علىٰ أن جميع الأخلاق الحَسَنة بإفاضة الله؛ لأنّها مِن قِبَل كمال الوُجود المُفاض مِنه تعالىٰ.

رُوي أنّه ﷺ اغتَمّ لهم بعدَ أن خالفوه.

ورَوىٰ الفخر الرازي في تفسيره: أنّ أمرأة عُثمان دخلَتْ علىٰ رَسُول الله ﷺ وهُو وعليّ عليهما السلام كانا يغسِلان السِّلاح، فقالت: ما فعل ابن عفّان؟ أما والله، تجدونه[1] أمام القوم، فقال لها عليّ عليه السلام: «ألا إنّ عُثمان فضَح الزّمان». فقال ﷺ: «مَه»[2].

وفي رِوايةٍ: قال ﷺ حينئذ: «أعياني أزواج الأخوات أن يتحابّوا». ثمّ لمّا دخَل عليه عُثمان مع صاحِبَيه ما زاد علىٰ أن قال: «لقد ذهَبْتُم فيها عريضة»[3].

ثمّ أشار سُبحانه إلىٰ مَصلحة اللِّين، ومَفسدة خِلافه بقوله: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا﴾ في القَول والفِعْل، جافياً في العِشْرة، كَرِيه الخُلُق مع أصحابك ﴿غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾ وقاسيه، غير رَفيق بهم ولا رَحيم ﴿لَٱنفَضُّوا﴾ وتفرّقوا ﴿مِنْ حَوْلِكَ﴾ وجَوانِبك، ولَم يسكُنوا إليك، حتّىٰ تَتِمّ فائِدة الرِّسالة، فإنّ حِكْمة البِعْثة هِي هِداية الخَلْق، وتَبْليغ الشّريعة.

ومِن الواضِح أنّه لا يتِمّ إلّا إذا مالَتْ القُلوب إلىٰ الرّسُول، وسكَنَتْ النُّفوس إليه، وذلك مُتوقّف علىٰ كَوْن الرّسُول عَطوفاً، رَحيماً، مُدارِياً، رَفيقاً، يتجاوَز عن سيِّئاتهم، ويخُصّهم بالبِرّ والشّفقة والمَكْرمة، ولِذا قال ﷺ: «لا حِلْم أحبّ إلى الله مِن حِلْم إمامٍ ورِفقه، ولا جَهْل أبغض إلىٰ الله مِن جَهْل إمام وخُرْقه»[4].

ورُوي عنه ﷺ، قال: «خَصْلتان لا تجتمعان في مُؤمن: البُخْل، وسُوء الخُلُق»[5].

وقيل: لرَسُول الله ﷺ: ما الشُّؤم؟ قال: «سُوء الخُلُق»[6].

وعنه ﷺ، قال: «ألا أُنبّئكم بشَرّ النّاس؟» قالوا: بلىٰ، يا رَسُول الله، قال: «مَن نزَل وحْدَه، ومنَع رِفْده، وضرَب عَبْده». ثمّ قال: «ألا أُنبّئكم بشرٍّ مِن ذلك؟» قالوا: بلىٰ. قال: «مَن لَم يُقِلْ عَثْرةً، ولَم يقبَل مَعْذِرةً»[7].

ثمّ اعْلَم أنّ الله تعالىٰ خَصّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام بخُلُق رَسُول الله ﷺ، حيثُ كان له مِن لِين الجانِب والرِّفق بالنّاس ما لَم يكُن لغيره، واختَصّ عُمر بخِلافه، فإنّه كان له مِن الغِلْظة والفَظاظة

---

١. في المصدر: لا تجدونه. ٢ و٣. تفسير الرازي ٩: ٦١.
٤. تفسير الرازي ٩: ٦١. ٥ و٦. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٦: ٣٣٧.
٧. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٦: ٣٣٨.

وسُوء الخُلُق ما لَم يكُن لأحد.

في نقل كلام لابن أبي الحديد في فظاظة عمر

رویٰ ابن أبي الحديد: عن الزُّبير بن بكّار، أنّ عُمر كان إذا غضِب علىٰ بعض أهله، لَم يسكُن غَضَبُه حتّىٰ يعَضّ يَده عضاً شديداً[1]، قال: ولقُوّة هذا الخُلُق فيه أضمر عبدالله بن عبّاس في خِلافته إبطال القول بالعَوْل[2]، وأظهره بعدَه، فقِيل له: هَلّا قُلتَ هذا في أيام عُمر؟ فقال: هبته.

وقد ارتدّ جَبَلة بن الأيهم عن الإسلام لتَهْديد عُمر له، ووَعيده إيّاه أن يضرِبه بالدِّرّة[3].

وكفىٰ في شَراسة خُلُق عُمر وفَظاظتة، ما ذكره ابن أبي الحديد في شَرحه علىٰ نَهج البلاغة؛ تَوجيهاً لقَدْح عُمر في عليّ عليه السلام بقوله: لكنّه امرؤ فيه دُعابة[4].

مِن قوله: واعلَم أنّ الرّجُل ذا الخُلُق المَخصُوص، لا يرىٰ الفضيلة إلّا في ذلك الخُلُق، ألا ترىٰ أنّ الرّجُل يبخَل فيعتقِد أنّ الفضيلة في الإمساك. والبخيل يعِيب أهل السَّماح والجُود، وينسُبهم إلىٰ التّبذير، وإضاعة الحَزْم، وكذلك الرّجُل الجَواد يعِيب البُخلاء، وينسُبهم إلىٰ ضِيق النّفس، وسُوء الظَّنّ، وحُبّ المال. والجَبان يعتقِد أنّ الفضيلة في الجُبْن، ويعِيب الشّجاعة، ويعتقِد كَوْنها خُرْقاً وتغريراً بالنّفس، والشُّجاع يعِيب الجَبان، وينسُبه إلىٰ الضَّعْف، ويعتقِد أنّ الجُبْن ذُلّ ومَهانة. وهكذا القول في جميع الأخلاق والسّجايا المُقسّمة بيْن نَوع الإنسان.

ولمّا كان عُمر شَديد الغِلْظة، وَعْر الجانِب، خَشِن المَلْمس، دائِم العُبُوس، كان يعتقِد أنّ ذاك هُو الفضيلة، وأنّ خِلافه نَقْص، ولَو كان سَهلاً طَلِقاً مَطبوعاً علىٰ البَشاشة وسَماحة الخُلُق، لكان يعتقِد أن ذاك هُو الفَضيلة وخِلافه نَقْص، حتّىٰ لَو قدّرنا أنّ خُلُقه حاصِلٌ لعليّ عليه السلام، وخُلُق عليّ عليه السلام حاصِلٌ له، لقال في عليّ عليه السلام: لَولا شَراسة فيه.

فهُو غير مطعون[5] عندي في ما قاله، ولا مَنسُوب إلىٰ أنه أراد التّنقيص[6] مِن علي عليه السلام والقَدْح فيه، ولكنّه أخبر عن خُلُقه ظانّاً أنّ الخِلافة لا تصلُح إلّا لشَديد الشّكيمة، العظيم الوُعورة، وبمُقتضىٰ ما كان يظُنّه مِن هذا المعنىٰ تمّم خِلافة أبي بكر بمُشاركته إيّاه في جميع تَدبيراته وسياسته وسائر أحواله، لرِفْقٍ وسُهولة كانت في أخلاق أبي بكر.

وبمُقتضىٰ هذا الخُلُق المُتمكّن عندَه، كان يُشير علىٰ رَسُول الله صلى الله عليه وآله في مَقامات كثيرة وخُطُوب

---

١. زاد في المصدر: ٣٤٢: حتى يدميها. ٢. العَول: أن تزيد السهام في الأرث على المال الموجود.
٣. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٦: ٣٤٣، والدِّرّة: السَّوط يُضرب به.
٤. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٦: ٣٢٦، والدُّعابة: اللّعب والممازحة. ٥. في المصدر: غير ملوم.
٦. في المصدر: الغضّ.

مُتعدّدة، بقَتل قوم كان يرىٰ قَتلهم، وكان النبيّ ﷺ يرىٰ اسْتِبقاءهم واسْتِصلاحهم، فلَم يقبَل عليه السلام مَشورته علىٰ هذا الخُلق، كما أشار[1] عليه يومَ بَدْر بقَتْل الأسرىٰ، حيثُ أشار أبو بكر بالفِداء، فكان الصَّواب معَ عُمر، ونزَل القُرآن بمُوافقته، فلمّا كان في اليوم الثاني، وهُو يومَ الحُدَيبِية، أشار بالحَرب وكَرِه الصُّلح، فنزَل القُرآن بضِدّ ذلك، فليس كُلّ وقت يصلُح تَجْريد السّيف، ولا كُلّ وقت يصلُح إغماده، والسّياسة لا تجري علىٰ مِنهاجٍ واحدٍ، ولا تلزم نِظاماً واحداً[2].

إلى أن قال: ونحنُ نذكُر كلاماً كُليّاً في سَبب الغِلظة والفَظاظة، وهُو الخُلق المُنافي للخُلق الذي عليه أمير المؤمنين عليه السلام، فنقول: إنّه قد يكون لأمرٍ عائِد إلىٰ المِزاح الجسماني، وقد يكون لأمر عائِد إلىٰ المِزاح الجِسماني، وقد يكون لإمرٍ راجعٍ إلىٰ النّفس، فأمّا الأوّل فإنّما يكون لغَلبَة الأخلاط السّوداوية وترمّدها[3]، وعدَم صَفاء الدّم وكَثْرة كُدورته وعَكَره، فإذا غلُظ الدّم وثخُن، غلُظ الرُّوح النّفساني وثخُن أيضاً؛ لأنّه مُتولّد مِن الدّم فيحدث مِنه نوعٌ مِمّا يحدُث لأصحاب الفطرة مِن الاسْتيحاش، والنُّبوة[4] عن النّاس، وعدَم الاسْتِئناس والبَشاشة، وصار صاحِبه ذا جَفاء، وأخلاق غَليظة، ويشبَه أن يكون هذا سبباً ماديّاً. فإنّ الذي يقوىٰ [في نفسي أنّ النُّفوس] إنْ صَحّتْ وثبتَتْ، مُختلفة بالذّات.

وأمّا الرّاجِع إلىٰ النّفس فأن يجتمع عندَها أقساط وأنصِباء مِن قُوىٰ مُختلفة مَذمومة، نحوَ أن تكون القُوّة الغَضَبيّة عندَها مُتوفِّرة، [وينضاف إليها تصوّر الكمال في ذاتها وتوهمّ النقصان في غيرها، فيعتقد أنّ حركات غيره واقعة على غير الصّواب وأن الصواب ما توهمه] وينضاف إلىٰ ذلك لَجاج وضِيق [في] النفس، وحِدّة واسْتِنشاط[5] وقِلّة صَبْر عليه، فيتولّد مِن مَجمُوع هذه الأمور خُلق دَنِيّ، وهُو الغِلْظة، والفَظاظة، والوُعورة، والبادِرة المكروهة، وحُبّهم مِحْنة[6] النّاس، ولقاؤهم بالأذىٰ، وقلّة المُراقبة لهم، واسْتِعمال القَهر في جميع الأمور، وتَناوُل الأمر مِن السّماء وهُو قادِر علىٰ أن يتناوله مِن الأرض.

وهذا الخُلق خارج عن الاعْتِدال، وداخِل في حَيّز الجَوْر، ولا ينبغي أن يُسمّى بأسماء المَدح، وأعني بذلك أنّ قوماً يُسمّون هذا النّوع مِن العُنْف والخُلق الوَعْر رُجوليّة وشِدّة وشكيمة، ويذهبون به مَذهب قُوّة النّفس وشجاعتها، [الذي] هُو بالحقيقة مَدح. وشتّان مابيْن الخُلقين، فإنّ صاحِب هذا

---

١. في المصدر: وأما إشارته.
٢. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٦: ٣٢٧.
٣. أي صيرورتها بلون الرّماد.
٤. النُّبوة: الجَفْوَة والابتعاد.
٥. في المصدر: استشاطة.
٦. في المصدر: المكروهة، وعدم حُبّه.

الخُلُق الذي ذمَمْناه، تصدُر عنه أفعال كثيرة يجُور بها علىٰ نفسه، ثمّ علىٰ إخوانه، ثم الأقرب فالأقرب[١]، حتّىٰ ينتهي إلىٰ عَبيده وحَرَمه، فيكون عليهم سَوْط عذاب، لايُقيلهم عَثْرة، ولا يرحَم لهم عَبْرة، وإن كانوا بُرآء مِن الذُّنوب، غير مُجرمين، ولا مُكتسِبي سُوء، بَل يتجرّم عليهم ويهيج مِن أدنىٰ سَببٍ يجِد به طريقاً إليهم حتّىٰ يبسُط يدَه ولِسانه، وهُم لا يمتنِعون مِنه، ولا يتجاسرون علىٰ رَدّه عن أنفسهم، بَل يُذعِنون له، ويُقِرّون بذُنوبٍ لم يقترفوها، اسْتِكفافاً لعَادِيته، وتَسكيناً لغضبه، وهُو في ذلك يستمرّ علىٰ طريقته، لا يكُفّ يداً ولا لِساناً.

وأصل هذا الخُلُق الذي ذكرناهُ أنّه مُركّب مِن قُوىً مُختلفة شِدّةً: القُوّة الغَضبيّة، فهِي الحامِلة لصاحِب هذا الخُلُق علىٰ ما يصدُر عنه مِن البَادرة المكروهة، والجَبْه والقِحة[٢]، ولهذا رأينا وشاهدنا مَن تشتدّ القُوّة الغَضبيّة فيه فيتجاوز الغَضب عن نوع الإنسان إلىٰ البَهائم التي لا تعقل، وإلىٰ الأواني التي لا تحِسّ، فربما قام إلىٰ الحمار والبِرذَوْن فضربهما ولكَزهما، وربّما كسَر الآنِية لشِدّة غضبه، وربّما عَضّ القُفْل إذا تعسّر عليه، وربّما كسرَ القَلم إذا تعلّقت به شَعْرة من الدّواة واجتهد في إزالتها فلَم تزُلْ.

ثمّ حكىٰ عن الزُّبير بن بَكّار بعضَ سيّئات عُمر عندَ غَضبه والشّنآن[٣] الذي كان بَيْنه وبَيْن طلحة، حتّىٰ هَمّ أن يُوقع به، وحتّىٰ هَمّ طلحة أن يُجاهره، وطلحة هُو الذي قال لأبي بكر عندَ موته: ماذا تقول لربّك وقد ولّيت فينا فَظّاً غليظاً؟ وهُو القائل له: يا خليفة رَسُول الله، إنّا كُنّا لا نحتمل شراسته وأنت حَيّ تأخُذ علىٰ يدَيه، فكيف يكون حالُنا معه وأنت ميّت وهُو الخليفة؟

ثمّ قال ابن أبي الحديد: واعْلَم أنّا لا نُريد بهذا القول ذمّه ﷺ، وكيف نذُمّه وهُو أولىٰ النّاس بالمَدح والتّعظيم، ليُمن نقيبته، وبَرَكة خِلافته، وكَثْرة الفُتوح في أيّامه، وانْتِظام اُمور الإسلام علىٰ يَده، ولكِنّا أردنا أن نشرح حال العُنْف والرِّفْق، وحال سَعَة الخُلُق وضِيقه، وحال البَشاشة والعُبُوس، وحال الطّلاقة والوُعورة[٤].

في نقل كلام ابن أبي الحديد في حُسن خُلق أمير المؤمنين عليه السلام وحلمه

إلىٰ أن قال: في حِلْم أمير المؤمنين عليه السلام وصَفْحه ولِينه، حِلْمه وصَفْحه عن مَروان بن الحكم بعدَ وَقْعة الجَمَل، وظَفَره عليه؛ معَ أنّه مِن أشدّ النّاس عَداوةً له، وصَفْحه عن عائشة وإرجاعِها إلىٰ المدينة مُحترمة مكرّمة، ومُعاملته مع أهل البصرة مُعاملة رَسُول

---

١. في المصدر: علىٰ الأقرب فالأقرب من معامليه.
٢. الجَبْه: المُقابلة بما يكره الآخر، والقحة: هي قلّة الحياء والاجتراء على فعل المساوئ.
٣. في المصدر: الشأن. ٤. شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد ٦: ٣٤٠ - ٣٤٤.

الله ﷺ معَ أهل مكّة بعدَ الفَتح، معَ أنّهم حارَبوه وضرَبوا وَجْهه وَوَجْه أولاده بالسيف، وواجَهُوه بالشَتم واللّعن[١].

وقال أيضاً في مُقدّمة شَرحه: إنّه ﷺ كان أحلَم النّاس. ثمّ استشهد بحِلْمه عن هؤلاء وغيرِهم مِن أعدائه، معَ قُدْرته على الانْتِقام. إلى أن قال: وأمّا سَجاحة الأخلاق[٢]، وبِشْر الوَجْه، فإنّه ﷺ المَضروب به المَثَل، حتّىٰ عابه بذلك أعداؤه...[٣] إلى آخره.

وإنّما بَسطنا الكلام وخرَجنا عمّا هُو المَقصُود مِن وَضع الكِتاب في المقام؛ لأن يشهَد الوَرق عندَ الله على وِلايتي لأوليائه، وَبراءتي مِن أعدائه يوم القيامة.

ثمَ أنّه تعالىٰ بعدَ مَدْح نبيّه باللّين والرِّفْق، رتّب عليه الأمر بلَوازمه اهتِماماً به، بقوله: ﴿فَاعْفُ﴾ وتجاوز ﴿عَنْهُمْ﴾ في ما يتعلّق بحُقوقك، كما عفا الله عنهم في ما تعلّق بحُقوقه مِن الذّنب ﴿وَٱسْتَغْفِرْ﴾ الله ﴿لَهُمْ﴾ في جميع معاصيهم، إتماماً للشّفقة عليهم، وإكمالاً للبرّ بهم ﴿وَشَاوِرْهُمْ﴾ واستطلع آراءهم ﴿فِى ٱلْأَمْرِ﴾ المُهمّ عندَك، حرباً كان أو غيره، لتطْييب قُلوبهم، والإحاطة بمَراتب عُقولهم وخُلوصهم وحُبّهم، وتَعْليمهم المَشْورة في الأمور، وإجراء تِلك السُّنّة في الأمّة.

رَوىٰ الفخر الرازي: عن الواحدي، عن ابن عبّاس رضي الله عنه أنّه قال: الذي أمر النبيّ ﷺ بمُشاورته في هذه الآية أبو بكر وعُمر[٤].

ثمّ قال: وعندي فيه إشكال؛ لأنّ الّذِين أمر الله نبيّه بمُشاورتهم في هذه الآية هُم الّذِين أمره بأن يعفُو عنهم ويستغفِر لهم، وهُم المُنهزِمون. فهَبْ أنّ عُمر كان مِنهم فدخَل تحت الآية، إلّا أنّ أبا بَكر ما كان مِنهم، فكيف يدخُل تحت هذه الآية؟[٥]

في استفادة قدح الشيخين من رواية ابن عبّاس

أقول: وبعد أنّه نفسه روىٰ أنّ عُمر كان مِن المُنهزمين[٦]، واتّفاق أكثر أصحابه عليه، لَم يكُن مَجال لقوله: (هَبْ أنّه كان منهم) لدَلالة هذا الكلام على عدَم التَسليم. ثمّ بعدَ تَسْليمه دَلالة رِواية ابن عبّاس بالالتِزام على أن أبا بكر كان مِن المُنهزمين، لا وَجْه لإنكاره، وجَعْله وَجْهاً للأشكال في الرِّواية، مع أنّ ابن عبّاس كان أتقن مِن غيره، وتأيّدها بالاعتبار، لوُضوح عدَم كَوْن أبي بكر أقوى إيماناً وأربط جأشاً مِن عُمر، ولدَلالة الإخاء الذي جعله الرّسُول ﷺ بَينهما على أنّهما فَرَسا رِهان.

---

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١: ٢٢ ـ ٢٣.
٢. سَجاحة الأخلاق: ليونتها وسهولتها.
٣. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١: ٢٥.
٤ و ٥. تفسير الرازي ٩: ٦٧.
٦. تفسير الرازي ٩: ٥٠.

ثمّ أنّ الرّواية دالّة علىٰ قَدْح عظيم فيهما، حيثُ إنّها ـ لدَلالتها علىٰ تَخصيص المَشْورة بهما، معَ وُضوح أنّ مَشْورة النبيّ ﷺ كانت لتَطْييب القُلوب ـ دالّة علىٰ أنّ حِفْظ الإسلام كان مَوقُوفاً علىٰ تَطْييب قُلوبهما، وحِفْظ خاطِرهما أزيد مِن تَطْييب قُلوب المُنهزمين؛ لأنّه لا يؤمَن معَ مَلالة خاطِرهما علىٰ النبيّ ﷺ مِن إخلالهما في أمره، وإفسادهما في دِينه، فافْهم.

وعن العيّاشي رحمه الله: كتب الجَواد عليه السلام إلىٰ عليّ بن مَهزيار «أن سَلْ فُلاناً أن يُشير عَلَيّ ويتخيّر لنفسه، فهُو يعلم ما يجوز في بلده، وكيف يُعامل السّلاطين، فإنّ المَشْورة مُباركة، قال الله تعالىٰ لنبيّه ﷺ في مُحكم كتابه ـ وتَلا هذه الآية وقال ـ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ يعني: الاسْتِخارة»[١].

في (نَهج البلاغة): «مَن اسْتبدّ برأيه هَلَك، ومَن شاوَر الرِّجال شارَكها في عُقولها»[٢].

وفيه: «الاسْتِشارة عَين الهِداية، وقد خاطَر مَن اسْتغنىٰ برأيه»[٣].

وعن الصادق عليه السلام: «وشاوِر في أمرك الّذِين يخشَوْن الله»[٤].

ثمّ نبّه سُبحانه علىٰ وُجوب التّوكُّل علىٰ الله في إنجاح المقصود بعدَ المُشاورة؛ بقوله: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾ وأحكمتَ الرّأي بعدَ المُشاورة علىٰ عَملٍ، واطمأنّتْ به نفسُك، فلا تعتمِد عليه، بَل إذا أردت إنفاذه ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ واعْتمد عليه فيه، حتّىٰ يُرشِدك إلىٰ ما هُو أصلح وأرشد لك، حيثُ إنّه لا يعلم ما هُو الأصلح مِن جميع الجِهات في الواقِع إلّا الله، لا أنت ولا مَن تُشاوِره.

في معنىٰ التوكل

ثمّ بيّن سُبحانه فضيلة التّوكُّل ترغيباً إليه بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ في أُمورهم عليه، حيثُ إنّ التّوكُّل علىٰ الله، وتَفْويض الأُمور إليه، لا يكون إلّا بعدَ مَعْرِفته، ومَعْرِفته مُلازمة لمَحبّته، ومَن أحبّ الله أحبّه الله، ومَن أحبّه الله نَصَره وهَداه إلىٰ كُلّ خَير وصَلاح.

قيل: إنّ الآية دالّة علىٰ أنّ التّوكُّل ليسَ معناه أن يُهمِل الإنسان نفسَه، ولا يُراعي الأسباب الظّاهِرة، كما توهّمه كَثيرٌ مِن الجُهّال، وإلّا لكان أمرُه تعالىٰ بالمُشاورة مُنافياً لأمره بالتّوكُّل، بَل مَعناه أن يُراعي الإنسان جميع الأسباب والمُعِدّات الظاهِريّة، ولكِن لا يُعوِّل بقَلبه عليها، بَل يُعوِّل علىٰ لُطف الله وعِصمته.

إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ[١٦٠]

---

١. تفسير العياشي ١: ٨٠٤/٣٤٨، تفسير الصافي ١: ٣٦٤.
٢. نهج البلاغة: ١٦١/٥٠٠، تفسير الصافي ١: ٣٦٤.
٣. نهج البلاغة: ٢١١/٥٠٦، تفسير الصافي ١: ٣٦٤.
٤. الخصال: ٢٢٢/١٦٩، تفسير الصافي ١: ٣٦٤.

ثمَ بالغ سُبحانه في حَثّ المُؤمنين علىٰ التَوكُل، بتوجيه الخِطاب إليهم تَشريفاً لهم وتَحْبيباً، بقوله: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ﴾ أيُها المُؤمنون علىٰ أعدائكم، كما نصَركم يومَ بَدْرٍ ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ مِن الموجودات، ولا قاهِر عليكم مِن المُمكِنات، بَل أنتم الغالِبون القاهِرون ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ﴾ الله، ويترُك نَصْركم، ويُخلّي بَيْنكم وبَيْن الأعداء، كما خذَلكم يومَ أُحُد ﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم﴾ علىٰ الأعداء، ويقدِر علىٰ عَوْنكم في الأمور ﴿مِّن بَعْدِهِۦ﴾ وعندَ خِذلانه.

ثمَ بعدَ التَنبيه علىٰ أنّ جميع الأمور مِن النَصْر، والخِذلان، وغيرهما، بإرادة الله وقضائه، أكَد وُجوب التوكل علىٰ عِباده، بقوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ وَحْده دون غيره استقلالاً وتَشْريكاً ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ كُلَهم في كُلّ الأمور، وليعتمد علىٰ لُطفه العارِفون، لاسْتِلزام العِرفان والإيمان به، سَلْب القُدْرة عن النَفس، وتَفْويض الأمور إليه، والاعْتِماد بلُطفه وفَضْله.

في فضيلة التوكل

عن عِمران بن حُصَين، قال: قال رَسُول الله ﷺ: «يدخُل سَبعون ألفاً مِن اُمَتي الجَنَة بغير حِساب». قيل: يا رَسُول الله، مَن هُم؟ قال: «هُم الّذِين لا يكيدون، ولا يسترقون، ولا يتطيّرون، وعلىٰ ربّهم يتوكّلون».

فقال عُكاشة بن مِحْصَن: يا رَسُول الله، ادْعُ الله أن يجعَلني مِنهم. قال ﷺ: «أنت مِنهم»، ثمَ قام آخر، فقال: يا رَسُول الله، ادعُ الله أن يجعَلني مِنهم، فقال: «سبَقك بها عُكاشة».

وقال ﷺ: «لَو أنّكم تتوكّلون علىٰ الله حَقّ توكُّله، يرزُقكم كما يرزُق الطَّير، تَغدو خِماصاً، وتَرُوح بِطاناً»[١].

وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ[١٦١]

ثمَ أنَه رُوي أنّ الرُّماة الّذِين ترَكوا المركز يومَ اُحُد، وأفاضوا في طلَب الغَنيمة، قالوا: نخشىٰ أن يقول رَسُول الله ﷺ: مَنْ أخذ شيئاً فهُو له، ولا يقسّم الغنائم كما لَم يُقسِّمها يومَ بَدْر، فقال لهم رَسُول الله ﷺ: «ألَم أعهَد إليكم أن لا تترُكوا المركز حتّىٰ يأتيكم أمري؟». فقالوا: ترَكنا بقيَة إخواننا وُقوفاً، فقال ﷺ: «بَل ظننتُم أنّا نَغُلّ[٢] ولا نُقسّم بينكم»[٣].

فنزّه الله تعالىٰ نبيّه عن الغُلول والخِيانة بقوله: ﴿وَمَا كَانَ﴾ يصِحّ وينبغي ﴿لِنَبِىٍّ﴾ ولا يَستقيم له، معَ

---

١. تفسير روح البيان ٢: ١١٧.

٢. الغلّ: الخيانة.

٣. تفسير روح البيان ٢: ١١٨.

كَوْنه أمين الله في أرضه ﴿أَن يَغُلَّ﴾ المُسلمين، ويخُونهم في الغنيمة، لغاية التّنافي بَيْن ذلك المَنْصِب، الذي هُو أعلىٰ درجة كَمال الإنسانيّة، وبَيْن الخِيانة التي هِي سَبب للعار في الدُّنيا، والنّار في الآخرة.

ورُوي أنّه ﷺ بعَث طلائع، فغنِم النبيّ ﷺ بعدَهم، فقسّمها بَين الحاضرين، ولم يترُك للطلائع شيئاً، فنزلَت[١].

والمعنىٰ: ما كان لنبيٍّ أن يُعطي قوماً مِن العَسْكر الغنيمة، ويمنَعها مِن الآخرين، بَل عليه أن يُقسّمها بَيْن الكُلّ بالسَّوِيّة. وإنّما عبّر عن حِرمان بعض الغُزاة بالغُلُول للتّغليظ في النّهي.

وعن ابن عبّاس ﵁: أنّ أشراف النّاس طمِعوا أن يخُصّهم النبيّ ﷺ مِن الغنائم بشيءٍ زائدٍ، فنزلت[٢].

ورُوي أنّه ﷺ غنِم في بعض الغَزوات وجمَع الغنائم، وتأخّرت القِسْمة لبعض المَوانع، فجاء قومٌ فقالوا: ألا تُقسّم غنائِمنا؟ فقال النبيّ ﷺ: «لَو كان لكم مِثل اُحُد ذهباً ما حَبَستُ عنكم دِرْهماً، أتحسَبون أنّي أغلُلكُم مَغْنمكم!» فأنزل الله هذه الآية[٣].

وعن القُمّي ﵀: نزلَتْ في حَرْب بَدْر، وكان سَبب نُزولها أنّه كان في الغنيمة التي أصابوها يومَ بَدْر قَطيفةٌ حمراء ففُقِدت، فقال رَجُل مِن أصحاب رَسُول الله ﷺ: ما لنا لا نرىٰ القَطيفة؟ ما أظُنّ إلّا رَسُول الله أخذها! فأنزل الله في ذلك هذه الآية، فجاء رَجُل إلىٰ رَسُول الله ﷺ فقال: إنّ فُلاناً غَلّ قطيفةً، فاحْفُرها[٤] هُنالك، فأمر رَسُول الله ﷺ بَحفَر ذلك المَوضع، فأخرج القطيفة[٥].

وعن الصادق ﵇: «أنّ رِضا النّاس لا يُملَك، وألسِنتهم لا تُضبَط، ... ألَم ينسُبوه يومَ بَدْر إلىٰ أنّه أخذ لنفسه مِن المَغْنم قطيفةً حَمراء حتّىٰ أظهر الله القطيفة، وبرّأ نبيّه مِن الخِيانة، وأنزل في كتابه: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ الآية[٦]. وعن عِكرمة ما يقرُب مِنه[٧].

ورُوي أنّها نزلَتْ في أداء الوَحْي، [حيث] كان ﷺ يقرأ القُرآن، وفيه عَيْب دِينهم، وسَبّ آلهتهم، فسألوه أن يترُك ذلك، فنزلَتْ[٨].

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ تَنْزيه الأنبياء عن الغُلُول بيّن شِدّة قُبْحه وحُرْمته تأكيداً لنَزاهتهم عنه، بقوله: ﴿وَمَن يَغْلُلْ﴾ ويخُون في مالٍ في الدُّنيا ﴿يَأْتِ بِمَا غَلَّ﴾ وخان فيه بعَيْنه، حاملاً [له] علىٰ ظهره ﴿يَوْمَ

---

١. تفسير روح البيان ٢: ١١٨.
٢ و٣. تفسير الرازي ٩: ٧٠.
٤. في المصدر: فاخبأها.
٥. تفسير القمي ١: ١٢٦، تفسير الصافي ١: ٣٦٥.
٦. أمالي الصدوق: ١٦٣/١٦٤، تفسير الصافي ١: ٣٦٥.
٧. تفسير الرازي ٩: ٧٠.
٨. تفسير الرازي ٩: ٧٠.

ٱلقِيَامَةِ﴾.

في حرمة الخيانة وشدة عذابها

عن ابن عبّاس رضي الله عنه، أنّه قال: يمثّل له ذلك الشيء في قَعْر جهنّم، ثمّ يُقال له: أنْزِل إليه فخُذْه، فينزل إليه، فإذا انتهىٰ إليه حمَله علىٰ ظهره، فلا يقبل منه[1].

وعن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال: «ألا لأعرِفَن أحدَكم يأتي ببعير له رُغاء، وببقرة لها خُوار، وبشاة لها ثُغاء، فيُنادي: يا محمّد، يا محمّد! فأقول: لا أملِكُ لك مِن الله شيئاً، فقد بلّغتُك»[2].

وعنه صلى الله عليه وآله قال: «مَن بعثناه علىٰ عملٍ فغَلّ شيئاً، جاء يومَ القِيامة يحمِله علىٰ عُنُقه»[3].

قيل لأبي هُريرة: كيف يأتي بما غَلّ وهُو كثير كبير، بأن غَلّ أموالاً جَمّة؟ فقال: أرأيت مَن كان ضِرْسه مثْل أُحُد، وفَخِذه مِثْل جَبل[4]، وساقه مِثْل وَدْقان[5]، ومَجلْسه مابيْن المدينة ورَيدان[6]، يحمِل مِثْل هذا؟ وقيل: إنّ المُراد: يأت بما احتمل مِن إثْمه[7].

﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ﴾ وتُعطىٰ كاملاً ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ مِن النُّفوس ﴿مَا كَسَبَتْ﴾ وحصّلت في مُدّة عمرها مِن جَزاء عملها، إنْ خَيراً فخَير، وإنْ شراً فشرّ ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ شيئاً، لا بزيادة العذاب، ولا بتَنْقيص الثّواب.

قيل: كان المُناسب أن يُقال: ثمّ يُوفَىٰ الغالّ ماكسب[8]، وإنّما عدَل عنه إلىٰ حُكم عُموم النّاس ليكون كالبرهان علىٰ المَقصود، والمُبالغة فيه، فإنّه إذا كان كُلّ كاسِب مَجزيّاً بعمله، فالغالّ معَ عِظَم جُرمه أولىٰ بذلك[9].

رُوي أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله جعَل سَلمان رِضوان الله عليه علىٰ الغنيمة، فجاءه رَجُل وقال: يا سَلمان، كان في ثوبي خَرْق، فأخذت خيطاً مِن هذا المَتاع فخِطْته به، فهَل عليّ جُناح؟ فقال سَلمان: كُلّ شيءٍ بقَدْره، فسَلّ الرّجُل الخَيط مِن ثوبه، ثمّ ألقاه في المَتاع[10].

ورُوي أنّ رَجُلاً جاء النبيّ صلى الله عليه وآله بشِراك[11] أو شِراكَين مِن الغُنْم، فقال: أصبتُ هذا يومَ خَيْبر، فقال النبيّ صلى الله عليه وآله: «شِراك أو شِراكان مِن نار»[12].

ورُوي أنّ رَجُلاً رُمي بسَهْم في خَيبَر، فقال القوم لمّا مات: هنيئاً له الشّهادة، فقال [النبيّ صلى الله عليه وآله]: «كلّا.

---

١. تفسير الرازي ٩: ٧٣.
٢. تفسير الرازي ٩: ٧٣، تفسير روح البيان ٢: ١١٨.
٣. تفسير الرازي ٩: ٦٩، تفسير روح البيان ٢: ١١٨.
٤. جَبل: منطقة يراد بها العراق.
٥. وَدْقان: اسم موضع.
٦. رَيدان: حصن باليمن.
٧. تفسير روح البيان ٢: ١١٨.
٨. في النسخة: توفّى الغال ما كسبت.
٩. تفسير روح البيان ٢: ١١٨.
١٠. تفسير الرازي ٩: ٧٠.
١١. الشِّراك: سير النّعل علىٰ ظهر القدم.
١٢. تفسير الرازي ٩: ٧٠.

والذي نفس محمّد بيده، إنّ الشّمْلة[١] التي أخذها مِن الغنائم قبل قِسْمتها لتلهَب[٢] عليه ناراً»[٣].
وعنه ﷺ قال: «هَدايا الوَلاة غُلول»[٤].

أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَانَ ٱللهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ ٱللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ[١٦٢]

ثمّ أكدّ سُبحانه تنزّه النبيّ ﷺ عن الخِيانة ببَيان التّنافي بَين مَرتبة النُّبوة المُستلزمة للتّمحُّض في طاعة الله وطلَب مَرضاته، وبَين ارْتِكاب الظُّلم الذي هُو أشدّ القبائح وأكبر المَعاصي، بقوله: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَانَ ٱللهِ﴾ وسعىٰ في العَمل بطاعته، مِن الإيمان به وباليوم الآخر، وامْتِثال أحكامه التي مِنها حُرمة الغُلول.

وقيل: إنّ المعنىٰ: أمَن اتّقىٰ فاتّبع رِضْوان الله يُمكن أن يكون ﴿كَمَنْ بَاءَ﴾ ورجَع إلىٰ مَحْضر عَدْله مُلتبساً ﴿بِسَخَطٍ﴾ عظيم، وغضَبٍ شديد، ومُستحِقاً للعذاب الأليم الكائِن ﴿مِنَ ٱللهِ﴾ العظيم بسُوء أعماله، وعِظَم مَعاصيه؟

عن الصادق عليه السلام: «الذين اتّبعوا رِضْوان الله هُم الأئمّة عليهم السلام»[٥].

وفي رِوايةٍ أُخرىٰ، عنه عليه السلام: «والّذِين باءوا بسَخَطٍ مِن الله هُم الّذِين جحَدوا حَقّ عليّ عليه السلام، وحَقّ الأئمّة مِنّا أهل البيت، فباءوا لذلك بسَخَط الله»[٦].

﴿وَ﴾ كان ﴿مَأْوَاهُ﴾ ومُستقرّه في الآخرة ﴿جَهَنَّمُ﴾ والدَّرْك[٧] مِن النّار، ﴿وَ﴾ هِي ﴿بِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ قيل: الفَرْق بَين المَصير والمَرجِع: أنّ المَصير يجِب أن يُخالف المَقرّ الأوّل، وليس كذلك المَرجِع.

هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ ٱللهِ وَٱللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ[١٦٣]

ثمّ أنّه تعالىٰ ـ بعدَ بَيان المُباينة بَين المُطيع والعاصي ـ نبّه علىٰ أنّ النُّفوس الإنسانية مُختلفة بالماهيّة والحقيقة، كما عليه جَمع مِن الحُكماء، ودلّت عليه رِوايات الطِّينة[٨]، وحديث: «النّاس كمعادِن الذّهَب والفِضّة»[٩] بعَضُها نُورانية، وبعضُها ظُلْمانيّة، وبعضُها زَكيّة، وبعضُها بليدة.

ولمّا كان اخْتِلافها في دَرَجات القُرْب والبُعْد دائِراً مَدار هذا الاختِلاف، عبّر عنه بنَفْس الدَّرَجات

١. الشَّملة: ثوب أو كساء من صوف أو شعر، يتغطّى به أو يتلفّف به.
٢. في تفسير الرازي: لتلتهب.
٣. تفسير الرازي ٩: ٧٠.
٤. تفسير الرازي ٩: ٦٩.
٥ و٦. تفسير العياشي ١: ٨٠٦/٣٤٩، تفسير الصافي ١: ٣٦٦.
٧. الدَّرْك: أسفل كل شيء.
٨. انظر الكافي ٢: ٢ باب ١.
٩. بحار الأنوار ٦١: ٥١/٦٥.

بقوله: ﴿هُمْ﴾ بسَبب اختِلاف أحوالهم وتَبايُن أخلاقهم ﴿دَرَجَاتٌ﴾ وطَبقات مُتفاوتة ﴿عِندَ اللهِ﴾ وفي عِلْمه وحُكْمه، فكما أنّ أهل الجنّة مُختلفون في الدَّرجات، كذلك أهل النّار مُختلفون في الدَّركات.

عن الرضا عليه السلام: «الدَّرجة ما بَين السّماء والأرض»[١].

وعن الصادق عليه السلام: «الأئِمّة والله، درَجات للمُؤمنين، وبمُوالاتهم ومَعرِفتهم إيّانا يُضاعِف الله لهم أعمالهم، ويرفَع لهم الدَّرجات العُلىٰ»[٢].

وعن النبيّ صلى الله عليه وآله: «[أن] أهون أهل النّار عذاباً يومَ القِيامة رَجُلٌ يُحذىٰ له نَعْلان مِن نارٍ يغلي مِن حَرّهما دِماغه، يُنادي: يا ربّ، وهَل أحدٌ يُعذَّب عذابي؟»[٣].

قيل: في الآية حَذْف، والتَقدير: لهم درَجات، أو: هُم ذُوو دَرَجات.

ثمّ لمّا كان تَوْفية جَزاء الأعمال، وعَطاء الدَّرجات بها، متَوقّفة علىٰ العِلْم بها، بيّن سَعَة عِلْمه بقوله: ﴿وَاللهُ بَصِيرٌ﴾ ومُحيط عِلْماً ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ مِن الحَسَنات والسَّيِّئات، بحيثُ لا يعزُب عنه مِثقال ذرّة.

﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [١٦٤]

ثمّ بالغ سُبحانه في الزّجْر عن نِسْبة الغُلول وكُلّ ما لا يَليق بساحة نبيّه إليّه، ووُجوب حِفظ حُرمته، والالْتِزام بطاعته، ومَعرِفة قَدْره، ببَيان كَوْنه صلى الله عليه وآله مِن أعظم نِعَم الله علىٰ أهل العالَم، بقوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ﴾ وتفضّل بنِعْمةٍ عظيمةٍ ﴿عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ مِن غيرِ توقُّع عِوَض. وتَخْصيصهم بالامْتِنان لزِيادة انْتِفاعهم بها، وإن كانت نِعْمةً علىٰ المُؤمن والكافر، بَل نِعْمةً علىٰ العالَمين ﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ﴾ وأرسل إليهم ﴿رَسُولاً﴾ عظيم الشّأن.

في فوائد كون الرّسول صلى الله عليه وآله من العرب

ومِن كمال تِلك النِّعْمة أنّ ذلِك الرّسُول كان ﴿مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ ومِن جِنْسهم ليأنسوا به، ومِن أهل لِسانهم ليفهَموا لِسانه، ومِن قَبيلتهم ليكونوا واقِفين علىٰ أخلاقه وكمالاته، ويفتخِروا علىٰ العالَم بالانْتِساب إليه، أو كَوْنهم قومه، حيثُ إنّه حصَل للعَرَب بكَوْنه صلى الله عليه وآله عَرَبيّاً شَرَفٌ عظيم بعدَ كَوْنهم قبل بِعْثته مِن أذلّ النّاس وأبعدَهم مِن شؤون الإنسانيّة.

---

١. تفسير العياشي ١: ٨٠٧/٣٥٠، تفسير الصافي ١: ٣٦٦.
٢. تفسير العياشي ١: ٨٠٦/٣٤٩، تفسير الصافي ١: ٣٦٦.
٣. تفسير الرازي ٩: ٧٦.

قيل: إنّ مِن فوائِد كَوْنه ﷺ مِن أنفسهم وُجوه:

الأوّل: أنّه ﷺ وُلِد فيهم وفي بَلَدهم، ونشَأ فيما بَينهم، وهُم كانوا عارِفين بأحواله، مُطَّلِعين علىٰ جميع أقواله وأفعاله، فما شاهدوا مِنه مِن أوّل عُمْره إلىٰ آخره إلّا الصِّدْق والعَفاف، وعدَم الالْتِفات إلىٰ الدُّنيا، والبُعْد عن الأخلاق الرّذيلة والكِذْب. ثمّ ادّعىٰ النُّبوّة والرِّسالة، التي يكون الكِذْب في مِثل هذه الدَّعوىٰ مِن أقبح أنواع الكِذْب، فمَن عَرَفه بهذه الكمالات يغلِب علىٰ ظنّه، بَل يتيقّن أنّه صادِقٌ في هذه الدّعوىٰ.

الثاني: أنّهم كانوا عالِمين بأنّه ﷺ لَم يتلمذ لأحدٍ، ولَم يقرأ كِتاباً، ولَم يُمارس دَرْساً ولا تَكراراً، وأنّه إلىٰ تمام الأربعين لَم ينطِق قَطُّ بحديث النُّبوّة والرِّسالة. ثمّ أنّه بعد الأربعين ادّعىٰ الرِّسالة، وظهَر علىٰ لِسانه مِن العُلوم ما لَم يظهَر علىٰ لِسان أحدٍ مِن العالَمين، وذكَر قِصَص المُتقدّمين وأحوال الأنبياء الماضين علىٰ الوَجْه الذي كان مَوجوداً في كُتُبهم، فكُلّ مَن له عَقْل سَليم عَلِم أنّ هذا لا يتأتّىٰ إلا بالوَحْي السّماوي، والإلهام الإلٰهي.

الثالث: أنّه بعدَ ادِّعاء النُّبوّة، عرَضوا عليه الأموال الكثيرة والأزواج ليترُك هذه الدّعوىٰ، فلَم يلتفِت إلىٰ شيءٍ مِن ذلك، بَل قنِع بالفَقْر وصبَر علىٰ المَشقّة، ولمّا عَلا أمرُه، وعظُم شأنُه، وأخذ البِلاد، وعظُمت الغنائم، لَم يُغيِّر طريقَه في البُعْد عن الدُّنيا، والدَّعوة إلىٰ الله. والكاذِب إنّما يُقدِم علىٰ الكِذْب ليجِد الدُّنيا، فإذا وجدَها تمتّع بها، وتوسّع فيها، فلمّا لَم يفعَل شيئاً مِن ذلك عُلِم أنّه كان صادِقاً.

الرابع: أنّ الكِتاب الذي جاء به ليسَ فيه إلّا تقرير التّوحيد، والتّنْزيه، والعَدْل، والنُّبوّة، وإثبات المَعاد، وشَرْح العِبادات، وتَقْرير الطّاعات. ومَعلوم أنّ كمال الإنسان في أن يعرِف الحَقّ لذاته، والخَير لأجل أن يعمَل به، ولمّا كان كِتابه ليسَ إلّا في تَقرير هَذين الأمرين، عَلِم كُلُّ عاقِل أنّه صادِق في ما يقوله.

الخامس: أنّ قبلَ مَجيئه كان دِينُ العَرب أرذل الأديان، وهُو عِبادة الأوثان، وأخلاقهم أرذل الأخلاق، وهي الغَارة، والنَّهب، والقَتْل، وأكْل الأطْعِمة الرّديئة. ثمّ لمّا بعَث الله محمّداً ﷺ نقلهم الله ببركة مقدمه[1]، مِن تِلك الدّرَجة التي هِي أخسّ الدَّرَجات، إلىٰ أن صاروا أفضل الأُمَم في العِلْم والزُّهْد والعِبادة، وعدَم الالْتِفات إلىٰ الدُّنْيا وطيِّباتها. ولاشكّ أنّ فيه أعظم النِّعْمة والمِنّة.

إذا عرَفت هذه الوُجوه، فنقول: إنّ محمّداً ﷺ وُلِد فيهم، ونشَأ فيما بَينهم، وكانوا مُشاهدين لهذه

---

١. في النسخة: بلغهم الله بتركه مقدمةً.

الأحوال، مُطّلِعين علىٰ هذه الدّلائل، فكان إيمانهم معَ مُشاهدة الأحوال أسهل مِمّا إذا لَم يُشاهدوها، ولَم يطّلِعوا عليها[١].

ورُوي عن أبي طالب رضوان الله عليه أنّه قال في خُطبته، عند تَزويج خديجة: ثمّ إنّ ابن أخي هذا محمّد بن عبدالله، مَن لا يُوزَن به فتىً مِن قُريش إلّا رجَح به، وهُو والله له نبأ[٢] عظيم[٣].

ثمّ بيّن الله سُبحانه أعظم فوائد بِعثته مِن تَكْميل قُوّتَي العِلْميّة والعَمَليّة فِيهم، بقوله: ﴿يَتْلُوا﴾ ويقرأ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أوّلاً، لإثبات صِدْق دَعْوته، وكَوْنه مَبعوثاً مِن جانب الله ﴿آيَاتِهِ﴾ القرآنيّة المُشتمِلة علىٰ عُلومٍ كثيرةٍ، معَ إعجاز البَيان الدّالّ علىٰ كونها مِمّا أُوحِي إليه بعدما كانوا جُهّالاً لَم يسمَعوا الوَحْي، ﴿وَ﴾ بعدَ ذلك ﴿يُزَكِّيهِمْ﴾ ويُطهّرهم مِن أدناس العقائد الفاسِدة، والأهواء الزّائغة، والأرجاس الجاهِليّة، وأنجاس الأخلاق الرّذيلة، والأعمال السّيّئة ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ﴾ بعدَ التّلاوة ذلِك ﴿ٱلْكِتَابَ﴾ المُنزَل، ويُبَيِّن لهم حَقائقه وتأويلاته، ويُوضّح مُتشابِهاته، ﴿وَ﴾ يُدرّسهم ﴿ٱلْحِكْمَةَ﴾ والسُّنَن الإلَهيّة.

ثمّ بالغ سُبحانه في إيضاح كمال النِّعْمة بقوله: ﴿وَإِن كَانُوا﴾ كُلّهم ﴿مِن قَبْلُ﴾ بِعْثته، وفي الأزمنة المُتطاولة السّابقة علىٰ طُلوع شَمس نُبوّته، وإشراق نُور هِدايته ﴿لَفِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ وتَيه الجَهالة مُتحيِّرين، يَرعَوْن كالبَهائم في مَرعىٰ الشّهَوات، ويتردّدون عُمي العُيون في الظُّلُمات.

في نقل رؤيا عبدالمطلب

رَوىٰ العامّة مِن طُرُقهم: أنّ عبدالمُطّلب جَدّ النبيّ ﷺ، بَينا هُو نائم في الحِجْر انْتَبه مَذعوراً، قال العبّاس: فتبِعتُه، وأنا يومئذٍ غُلام أعقِل ما يُقال، فأتىٰ كَهَنة[٤] قُريش فقال: رأيتُ كأنّ سِلسِلة مِن فِضّة خرجَتْ مِن ظَهري، ولها أربعة أطراف: طرَفٌ قد بلَغ مَشارق الأرض، وطرَفٌ قد بلَغ مَغاربها، وطرَفٌ قد بلَغ عَنان السّماء، وطرَفٌ قد جاوز الثّرىٰ، فبَينا أنا أنظرُ عادتْ شَجرة خضراء لها نُورٌ، فبينا أنا كذلك إذ قام عَلَيّ شَيْخان فقلت لأحدِهما: مَن أنت؟ قال: أنا نُوح نبيّ ربّ العالَمين، وقلت للآخر: مَن أنت؟ قال: إبراهيم خليل ربّ العالَمين، ثمّ انتبهتُ.

قالوا: إن صدَقتْ رُؤياك، ليخرُجَنّ مِن ظَهرك مَنْ[٥] يؤمن به أهل السّماوات وأهل الأرض، ودلّت السِّلسِلة علىٰ كَثْرة أتباعه وأنصاره وقُوّتهم، لتَداخُل حَلَق السِّلسِلة، ورُجوعها شَجرة تدُلّ علىٰ ثَبات أمره وعُلُوّ ذِكْره، وسيهلَك مَنْ لَم يُؤمِن به كما هلَك قومُ نُوح، وستظهر به مِلّة إبراهيم عليه السلام[٦].

أقول: هذه الرّواية والرّواية السّابقة دالّتان علىٰ إيمان عبدالمُطّلب، وأبي طالب عليهما السلام به ﷺ قبلَ

---

١. تفسير الرازي ٩: ٧٩ و٨٠.

٢. في النسخة: بناء، وفي روح البيان: والله له بعد هذا نبأ.

٣. تفسير روح البيان ٢: ١٢٠.

٤. الكَهَنَة: جمع كاهن، وهو المنجّم عند العرب.

٥. في تفسير روح البيان: نبيّ.

٦. تفسير روح البيان ٢: ١٢١.

بغتته.

أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ ٱللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ[١٦٥]

ثمّ أنّه تعالىٰ ـ بعد ما نزّه نبيّه عن الغُلول، وبيّن امتِناع صُدور ذلِك الفِعْل الشّنيع مِمّن له مَنْصِب النُّبوّة ـ أشار سُبحانه إلىٰ الشُّبْهة التي ألقاها المُنافقون بَيْن الضُّعَفاء مِن المُؤمنين، ووبّخهم عليها أوّلاً بقوله: ﴿**أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم**﴾، قالوا: الاستِفهام للتّوبيخ، والمعنىٰ: أحينَ أصابتكم مِن المُشركين في أُحُد ﴿**مُصِيبَةٌ**﴾ وبَلِيّة؛ مِن القَتل والجُرْح، معَ أنّكم ﴿**قَدْ أَصَبْتُمْ**﴾ في يومِ بَدْر مِنهم ﴿**مِثْلَيْهَا**﴾ وأوردتم عليهم مِن القَتل والجُرْح والأسْر ضِعْف ما ورَد عليكم، جزِعتُم؟ و﴿**قُلْتُمْ**﴾ إنكاراً للنُّبوّة، أو استِبعاداً لِما وقَع ﴿**أَنَّىٰ هٰذَا**﴾ البَلاء؟ ومِن أين هذه الغَلَبة للمُشركين؟ ولأيّ وَجْهٍ صاروا مَنصورين؛ معَ شِرْكهم وكُفْرهم؟ ونحنُ ننصُر رَسُول الله. وقال المُنافقون: لو كان محمّد نبيّاً لَمَا أُصيب المؤمنون، ولَمَا انْهزم عَسْكرُه مِن الكُفّار.

عن العيّاشي: عن الصادق عليه السلام: «كان المُسلمون قد أصابوا ببَدْر مائة وأربعين رَجُلاً؛ قتلوا سَبعين رَجُلاً، وأسِروا سبعين، فلمّا كان يومُ أُحُد أُصيب مِن المُسلمين سَبعون رَجُلاً، فاغتمّوا لذلك»[١].

ثمّ أمر الله نبيّه بأن يبيّن لهم سَبب الإصابة، ردّاً علىٰ المُنافقين، وتَنْبيهاً للمُؤمنين، بقوله: ﴿**قُلْ**﴾ لهم: لا تشْكّوا في نُبوّتي لأجل ما أصابكم، إذ ﴿**هُوَ**﴾ كائِن ﴿**مِن عِنْدِ أَنفُسِكُمْ**﴾ ونازِل عليكم بسُوء فِعالكم وعِصيانكم.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «هُو باخْتيارِكم الفِداء يومَ بَدْر»[٢].

عن القُمّي رحمه الله: كان الحُكْم في الأسارىٰ يومَ بَدْر القَتل، فقامتْ الأنصار فقالوا: يا رَسُول الله، هَبْهم لنا ولا تقتُلهم حتّىٰ نُفاديهم، فنزَل جَبْرئيل عليه السلام فقال: إنّ الله قد أباح لهم الفِداء بأن يأخُذوا مِن هؤلاء القوم ويُطلِقوهم، علىٰ أن يستَشْهِد مِنهم في عامٍ قابلٍ بعَدَد مَن يأخُذون مِنهم الفِداء، فأخبرهم رَسُول الله صلّى الله عليه وآله بهذا الشّرْط، فقالوا: قد رَضِينا به، نأخُذ العامَ الفِداء مِن هؤلاء ونتقوّىٰ به، ويُقتل مِنّا في عام قابل بعَدَد مَن نأخُذ مِنه الفِداء، وندخُل الجنّة.

فأخذوا مِنهم الفِداء وأطلقوهم، فلمّا كان يومُ أُحُد قُتِل مِن أصحاب رَسُول الله صلّى الله عليه وآله سَبعُون، فقالوا:

---

١. تفسير العياشي ١: ٨٠٨/٣٥٠، تفسير الصافي ١: ٣٦٦.

٢. مجمع البيان ٢: ٨٧٧، تفسير الصافي ١: ٣٦٧.

يا رَسُول الله، ما هذا الذي أصابنا، وقد كُنتَ تَعِدنا النَصر؟ فأنزَل الله: ﴿**أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُصِيبَةٌ**﴾ إلى قوله: ﴿**هُوَ مِن عِندِ أَنفُسِكُمْ**﴾ أي بِما شرَطتم يومَ بَدْر[١].

ورَوىٰ الفخر الرازي في تفسيره، عن أمير المؤمنين عليه السلام ما يقرُب مِنه[٢].

ثمَ أنَه تعالىٰ لزيادة الرَوعة في قُلوب المُؤمنين، وارْتِداعهم عن المعصية، نبَههم بقُدْرته الكاملة، بقوله: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ**﴾ مِن العُقوبة بالقَتل والمَصائب، والنَصر والخِذلان ﴿**قَدِيرٌ**﴾ لا يمنَعه شيءٌ عن إنفاذ إرادته، ولا يحتاج إلىٰ شيءٍ في إجراء مشيئته.

وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ[١٦٦ و ١٦٧]

ثمَ أشار سُبحانه إلىٰ عدَم انحِصار سَبب المُصيبة في ما ذكَر بقوله: ﴿**وَمَا أَصَابَكُمْ**﴾ مِن المَصائب ﴿**يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ**﴾ وحينَ تلاقىٰ العَسْكران؛ عَسْكرُ المُسلمين، وعَسْكر المُشركين عندَ جَبل أُحُد ﴿**فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ**﴾ وتقَديره وإرادته التي هِي عَيْن العِلْم بحِكَم كثيرة ﴿**وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ**﴾ ويظهر إيمانهم ﴿**وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا**﴾ معَ الرَسُول أصحابه، ويظهر كُفْرهم، وهُم عبدالله بن أُبَيّ، ومُعتّب بن قُشَير وأصحابهما، حيثُ خذَلوا المُسلمين، وانصرَفوا يومَ أُحُد عن رَسُول الله صلى الله عليه وآله ﴿**وَ**﴾عندَ ذلك ﴿**قِيلَ لَهُمْ**﴾ والقائِل عبدُالله بن حِزام، أبو جابِر، قال: يا قوم، اذْكُروا الله أن تخذِلوا نبيَكُم وقومكُم ﴿**تَعَالَوْا**﴾ وارْجِعوا إلىٰ الجِهاد و﴿**قَاتِلُوا**﴾ المُشركين ﴿**فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ**﴾ ونُصْرة دِينه إن كنتُم تُحِبّون الله ورَسُوله ﴿**أَوِ ٱدْفَعُوا**﴾ عنّا الأعداء بتَكْثير سَوادنا إنْ لَم تُقاتلوا معنا، فإنّ كَثْرة السَواد مِمّا يُروّع العَدُوّ، ويزيد في الهَيْبة والعَظَمة في نظَرهم.

وقيل: إنّ المُراد: ادْفَعوا العَدُوّ عن بَلَدكم وأهلكم وحَريمكم، وقاتلوا دُونهم إن لَم تُقاتِلوا في سَبيل الله.

وعلىٰ أي تَقدير، فلمّا رأوا إلحاح عبدالله بن حِزام وإصراره في مَنْعهم عن الانصِراف ﴿**قَالُوا**﴾ في جوابه دَغَلاً واسْتِهزاءً بالرَسُول والمُؤمنين: ﴿**لَوْ نَعْلَمُ**﴾ ما يصِحّ أن يُسَمّىٰ ﴿**قِتَالاً لَاتَّبَعْنَاكُمْ**﴾ وساعَدناكم عليه، إلّا أنَه ليسَ بقِتال، لعدَم كَوْنه عن تَدْبير ورأي مَتين، بَل هُو إلقاء النَفس في التَهلُكة. وإنّما قالوا ذلك لأنّ عبدالله بن أُبَيّ كان يرىٰ الإقامة في المدينة، ولَم يسْتَصوب الخُروج إلىٰ أُحُد.

---

١. تفسير القمي ١: ١٢٦، تفسير الصافي ١: ٣٦٧.

٢. تفسير الرازي ٩: ٨٢.

ثمَ كشَف الله سَريرتهم بقوله: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ﴾ لكَوْنه راسِخاً في قُلوبهم، ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ وحينَ انْصِرافهم، وقولهم ما قالوا ﴿أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ﴾ لكَوْنه لَقْلَقةً علىٰ ألسنتهم وقيل: المُراد أنّ هؤلاء المُنافقين لِأهلِ الكُفْر أقرب نُصْرة يومَ اُحُد مِنهم لِأهل الإيمان؛ لأنّهم بالانْعِزال عن عَسْكر المُسلمين أعانوا المُشركين عليهم.

وفيه نَصّ مِن الله تعالىٰ علىٰ كُفْرهم فِي الباطِن، وإن كانوا بالإقرار بالشّهادتين في الظّاهر بحُكم المُسلمين.

ثمَ بالغ سُبحانه فِي تَثْبيت نِفاقهم بقوله: ﴿يَقُولُونَ﴾ هؤلاء المُنافقون، ويتكلّمون نِفاقاً ﴿بِأَفْوَاهِهِم﴾ وألسنتهم ﴿مَا لَيْسَ﴾ مَعناه وحقيقته، مِن الإيمان بالله والرّسُول، أو اتّباعكم في القِتال، داخلاً وثابتاً ﴿فِي قُلُوبِهِمْ﴾ بَل ما يُظهِرونه مِن الإيمان والمُوافقة مُبايِن لِمَا يُضمِرونه مِن الكُفْر والمُخالفة ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ﴾ مِنكم، بَل مِن أنفسهم ﴿بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ عنكم، وما يستُرون في ضمائِرهم، مِن الكُفْر بالله والرّسُول، ومِن بُغضكم ومُخالفتكم.

عن الصادق عليه السلام في حديثٍ يذكُر فيه حال ضُعَفاء الإيمان: «ومِن ضَعْف يقينه أنّه يتعلّق بالأسباب، ويُرخِص نفسه بذلك، ويتّبع العادات وأقاويل النّاس بغَير حقيقةٍ، ويسعىٰ في اُمور الدُّنيا وجَمْعها وإمساكها، يُقِرّ باللّسان أنّه لا مانع ولا مُعطي إلّا الله، وأنّ العَبدَ لا يُصيب إلّا ما رُزِق وقُسِم له، والجَهْد لا يزيدُ فِي الرِّزق، ويُنكِر ذلك بفِعْله وقَلبه، قال الله تعالىٰ: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾»[١].

أقول: فيه دَلالة علىٰ أنّ إظهار كُلّ مَرتبة مِن الإيمان يكون خِلاف ما في مَكنون القَلب، نِفاقٌ، ومَشمول للآية الكريمة.

ٱلَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ[١٦٨]

ثمَ بالغ سُبحانه في تَفضيح المُنافقين، بإفشاء ما كانوا أسَرّوه مِن قولٍ سيِّئٍ آخر، بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوانِهِمْ﴾ والمُوافقين معهم فِي النّفاق، وعَداوة الرّسُول صلى الله عليه وآله ﴿وَ﴾ هُم بأنفسهم ﴿قَعَدُوا﴾ عن الجِهاد، وتخلّفوا عنه: إنّ الجَماعة الّذِين قاتلوا في اُحُد وقُتِلوا ﴿لَوْ أَطَاعُونَا﴾ واتّبعوا رأينا في الإقامة في المدينة، وقعَدوا عن القِتال، كما قَعدنا ﴿مَا قُتِلُوا﴾ كما لم نُقتَل.

---

١. مصباح الشريعة: ١٧٨، تفسير الصافي ١: ٣٦٧.

ثمّ أمر الله نبيّه ﷺ بردّهم، بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد؛ تبكيتاً لهم، وإثباتاً لفساد ظنّهم، وإظهاراً لكذبهم: ﴿فَادْرَءُوا﴾ وادفعوا ﴿عَنْ أَنفُسِكُمُ﴾ بالحيَل والتدابير ﴿الْمَوْتَ﴾ الذي تكرهونه ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في ما ينبئ عنه قولكم، من أنّ الحذر يدفع القتل عمّن كُتب عليه، ويطيل الأجل المحتوم، فإذا التزمتم بأنّ الموت ممّا لا يمكن دفعه بالحذر والتدبير، لكونه بقضاء الله وإرادته، فكذلك القتل وخصوصيّاته، من زمانه ومكانه، يكون بقضاء الله، لا ينفع الحذر منه في دفعه، ولا يفيد الفرار في تأخيره. فكلّ من قُتل كان قتله بسبب كونه مكتوباً عليه، لا بسبب عدم حذره، وكلّ من لم يُقتل لم يكن القتل مكتوباً عليه.

وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ[١٦٩]

ثمّ لمّا كان تحرّز المنافقين عن الشهادة مبنيّاً على حسبان أنّ القتل موت، وانقطاع حياة، وحرمان من النِّعم واللّذائذ، ردّهم الله سبحانه بقوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ ونالوا الشهادة في طريق مرضاته وطاعته، من الجهاد وغيره، كشهداء أُحُد، ولا تظنّهم ﴿أَمْوَاتاً﴾ منقطعين عن الحياة، محرومين عن النِّعم ﴿بَلْ﴾ هم ﴿أَحْيَاءٌ﴾ بالحياة الأبديّة، مقرّبون ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ مستغرقون في رحمة مليكهم ﴿يُرْزَقُونَ﴾ من ثمار الجنّة، ويتنعّمون بالنِّعم الدائمة، ويتلذّذون بما تشتهيه الأنفس وتلذّ الأعين.

فلو فُرض أنّ التدبير يكون مفيداً في دفع القتل، إلّا أنّ القتل في سبيل الله ممّا يجب على العاقل السّعي في تحصيله، والمسارعة إليه، لكثرة فوائده.

وإنّما وجّه الخطاب إلى النبيّ ﷺ؛ مع أنّ المقصود أُمّته، ونهاه عن الحسبان مع أنّه منزّه عنه، لشرافته وللإشعار بأنّ التبشير من وظائفه.

عن الباقر عليه السلام: «أنّها نزلت في شهداء[١] أُحُد»[٢].

ورُوي أنّهم كانوا سبعين، أربعة من المهاجرين: حمزة بن عبدالمطّلب، ومصعب بن عمير، وعبدالله بن جحش، وعثمان بن شهاب، والبقيّة من الأنصار رضوان الله عليهم[٣].

وعنه عليه السلام قال: «أتى رجلٌ رسول الله ﷺ، قال: إنّي راغب نشيط في الجهاد، قال: فجاهد في سبيل

---

١. زاد في تفسير الصافي: بدرٍ و.
٢. مجمع البيان ٢: ٨٨١، تفسير الصافي ١: ٣٦٨.
٣. تفسير أبي السعود ٢: ١١١، تفسير روح البيان ٢: ١٢٣.

الله، فإنّك إن تُقتَل كُنتَ حَيّاً عندَ الله تُرزَق، وإن تموت فقد وقَع أجرُك علىٰ الله، ولَئِن رجَعت خرَجتَ مِن الذُّنوب إلىٰ الله. هذا تفسير ﴿وَلَا تَحسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا﴾ الآية»[١].

في حال أرواح المؤمنين في البرزخ

وعن النبيّ ﷺ: «أرواحهم في أجواف طُيور خُضر، وأنّهم يُرزقون، يأكلون ويتنعّمون»[٢].

وعنه ﷺ، قال: «لمّا اُصيب إخوانكُم بأحُد، جعَل الله أرواحهم في أجواف طُيورٍ خُضر، تدُور في أنهار الجنة»[٣].

وفي رِوايةٍ: «تَرِدُ أنهار الجنّة، وتأكل مِن ثِمارها، وتَسْرح مِن الجنّة حيثُ شاءتْ، وتأوي إلىٰ قناديل مِن ذَهب مُعلّقة في ظِلّ العَرش»[٤].

وعن الصادق عليه السلام أنّه قيل له: يَروون أنّ أرواح المُؤمنين في حواصِل طُيورٍ خُضر حَول العَرش، فقال: «لا، المُؤمن أكرم علىٰ الله مِن أن يجعَل رُوحه في حواصِل طَير، ولكِن في أبدانٍ كأبدانهم»[٥].

أقول: يُمكِن أن يكون وَجْه اخْتِلاف الرِّوايات، اخْتِلاف المُؤمنين في مَراتب الكمال.

فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ ٱللهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِن خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ[١٧٠]

ثمّ بالغ سُبحانه في بَيان حُسْن حال الشُّهداء، بأنّهم ـ معَ عدَم دُخول الحُزن في قُلوبهم علىٰ ما فاتهم مِن حياة الدُّنيا ونَعيمها ـ يكونون ﴿فَرِحِينَ﴾ مَسرُورين غايةَ السُّرور ﴿بِمَا آتَاهُمُ ٱللهُ﴾ وحَباهُم مِن الكرامات الكائِنة ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ وإحسانه الخاصّ بهم مِن شَرَف الشّهادة المُوجبة لحُسْن الذِّكْر في الدُّنيا، والمَحبّة الشّديدة في قُلوب المُؤمنين، والزُّلفىٰ مِن الله تعالىٰ، ونَيْل النِّعَم الدّائِمة غير المُتناهية في الآخرة.

عن جابِر بن عبدالله، قال: قال رَسُول الله ﷺ: «ألا اُبشّرك أنّ أباك حيثُ اُصيب بأحُد أحياه الله، ثمّ قال: ما تُريد يا عبدَالله بن عَمْرو أن أفعل بكَ؟ فقال: يا ربّ اُريد أن ترُدّني إلىٰ الدُّنيا فأُقتَل فيك مرّة اُخرىٰ»[٦].

في بيان بقاء الأرواح بعد الموت

ثمّ اعْلَم أنّه قد ثبَت بالأدلّة العَقليّة والنَّقليّة، بَل بالضَّرورة مِن جميع الأديان، أنّ الأرواح باقية بعدَ مَوت الأجساد وانْحِلالها، ودلّت الرِّوايات الكثيرة علىٰ أنّ لها

---

١. تفسير العياشي ١: ٨٠٩/٣٥٠، تفسير الصافي ١: ٣٦٨.
٢ و٣. تفسير أبي السعود ٢: ١١٢.
٤. تفسير أبي السعود ٢: ١١٢.
٥. الكافي ٣: ١/٢٤٤، تفسير الصافي ١: ٣٦٩.
٦. تفسير الرازي ٩: ٩٠.

تعلّقاً بالأجساد المِثاليّة التي هِي جَواهر تِلك الأجساد، سارية فيها سَرَيان النّار في الفَحْم، والدُّهْن في السِّمْسِم، والماء فِي الوَرْد.

فالرُّوح بهذا التَعلُّق تلتَذّ باللَذائِذ الجِسْمانيّة مِن الأكل والشُّرْب وغيرهما، وتُعذّب بالنّار والعَقارِب والسَلاسِل وغيرها، فإذا لَم يدُلّ دليلٌ قاطِع علىٰ امتِناع ذلك التَعلُّق والحَياة، والتَنعُّم والتَعذيب، وجَب المصير إليه والالْتِزام به، ولا يُصغىٰ إلىٰ الشُّبُهات التي أُورِدتْ علىٰ ثَواب القَبْر والنِّعَم البَرزخِيّة بَل الظّاهِر أنّ أرواح الشُّهداء والكامِلين مِن المُؤمنين لها تَعلُّق خاصّ بأبدانهم العُنصريّة، به تُحفَظ مِن البِلاء.

عن جابر بن عبدالله رضِي الله عنهما: أنّه لمّا أراد مُعاوية أن يُجري العَيْن علىٰ قُبور الشُّهداء، أمر بأن يُنادىٰ: مَنْ كان له قَتِيل فليُخرِجْهُ مِن هذا الموضع. قال جابر: فخرَجنا إليهم فأخرجناهم رِطاب الأبدان، فإن أصابَتْ المِسْحاة إصْبع رَجُلٍ مِنهم قطَرت دَماً[1]. وفي ذلِك رِوايات وحِكايات كثيرة لا تُحصىٰ.

ثمّ أخبر الله سُبحانه بلذّتهم الرحانيّة، بقوله: ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ﴾ ويسرُّون بالبِشارة ﴿بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم﴾ وبحُسْن حال إخوانهم وأقربائهم الّذِين لَم يُقتلوا معهم في الجِهاد، وبَقُوا في الدُّنيا ﴿مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ ومِن بعدِ شَهادتهم،وتقَرّ عينُهم بالإخبار بأنّ مِن حُسْن حالِهم ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ مِن نَيْل مَكروهٍ إنْ قُتلوا ﴿وَلَاهُمْ يَحْزَنُونَ﴾ علىٰ فَوات مَطلُوبٍ إنْ لَم يُقتلوا؛ حيثُ إنّهم أيضاً يفُوزون بالحياة الأبديّة والنِّعَم الدّائِمة إن ماتوا.

وعن ابن عبّاس ﷺ، في روايةٍ: فلمّا رأوا طِيب مَسْكنهم ومَطْعمهم ومَشْربهم قالوا: يا لَيتَ قومنا يعلَمون ما نحنُ فيه مِن النِّعَم، وما صنَع الله بنا، كَيْ يرغَبوا في الجِهاد، فقال الله تعالىٰ: أنا مُخبِر عنكم، ومُبلِّغ إخوانكم، ففرِحوا بذلك واستبشروا، فأنزل الله هذه الآية[2].

وعن (الكافي): عن الباقر عليه السلام، قال: «هُم والله شِيعتُنا، حينَ صارَتْ أرواحُهم في الجنّة، واستقبلوا الكرامة مِن الله عزّ وجلّ، عَلِموا واسْتَيقنوا أنّهم كانوا علىٰ الحَقّ، وعلىٰ دِين الله عزّ وجلّ، فاستبشروا بمَن لَم يلحَقوا بهم مِن إخوانهم مِن خَلْفهم مِن المؤمنين»[3].

يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ ٱللهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ[١٧١]

---

١. تفسير الرازي ٩: ٩٣. ٢. تفسير الرازي ٩: ٩٠. ٣. الكافي ٨: ١٤٦/١٥٦، تفسير الصافي ١: ٣٦٩.

ثمَ أخبر سُبحانه بأنَ استِبشارهم بحُسْن حال إخوانهم ليسَ بصَرْف فَراغ قُلوبهم مِن الخَوف والحُزن، بَل ﴿يَستَبْشِرُونَ﴾ معَ ذلك في حَقّ إخوانهم ﴿ بِنِعْمَةٍ﴾ عظيمةٍ كائِنة ﴿مِنَ ٱللهِ﴾ لا يُقادَر قَدْرُها ﴿وَفَضْلٍ﴾ عظيم أو زِيادةٍ كثيرة علىٰ ما يتوقّع لهم مِن ثَواب الأعمال، لا يعلَمها إلّا الله.

وقيل: إنّ البِشارة الأُولىٰ فَقَط مُتعلِّقة بإخوانهم، وأمّا الثانية فإنّها مُتعلّقة بأنفسهم، وبَيان ما أجمل في قوله: ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتاهُمُ﴾.

ثمَ أكّد تِلك البِشارة بقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللهَ﴾ تعالىٰ بكرَمه، ولتعَالي ذاته عن ارْتِكاب القَبيح ﴿ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ولا يُبطِل ثَواب مَنْ تَنوّر قَلْبه بنُور اليقين، [سَواءً] قُتِل في سَبيل الله أو بقي حيّاً في طاعة الله.

﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِلهِ وَٱلرَّسُولِ مِن بَعْدِمَا أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ* ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا ٱللهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ ٱللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَٱتَّبَعُوا رِضْوَانَ ٱللهِ وَٱللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾[١٧٢-١٧٤]

ثمَ أنّه رُوي أنّ أبا سُفيان وأصحابه لمّا انْصرفوا مِن اُحُد وبلَغوا الرَّوحاء[١] ندَموا، وقالوا: إنّا قَتلنا أكثرهم ولَم يبقَ مِنهم إلا قليل فلِمَ تركناهم؟ بَل الواجِب أن نرجِع ونستأصِلهم، فهَمّوا بالرُّجوع، فبلغ ذلك رَسُول الله ﷺ فأراد أن يُرهِب الكُفّار ويُريهم مِن نفسه ومِن أصحابه قُوّةً، فندَب أصحابه إلىٰ الخُروج في طَلَب أبي سُفيان، وقال: «لا اُريد أن يخرُج الآن معي إلّا مَن كان معي في القِتال، فخرَج الرّسُول ﷺ مع قوم مِن أصحابه ـ قيل: كانوا سبعين رَجُلاً ـ حتّىٰ بلَغوا حَمراء الأسد، وهُو [موضع] مِن المدينة علىٰ ثلاثة أميال، فألقىٰ [الله] الرُّعْب في قُلوب المُشركين فانْهزموا[٢].

فمدَح الله المُؤمنين الّذِين خرَجوا مع رَسُول الله ﷺ بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِلهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ وأطاعوا أمرهما بالخُروج في طَلَب قُريش ﴿مِن بَعْدِمَا أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾ وأثخنتهم الجِراح في وَقعة اُحُد.

عن القُمّي ﵀: أن النبيّ ﷺ لمّا دخَل المدينة، مِن وَقْعة اُحُد، نزَل عليه جَبْرئيل ﵇ فقال: يا محمّد، إنّ الله يأمُرك أن تخرُج في أثر القوم، ولا يخرُج معك إلّا مَن به جِراحة، فأمر رَسُول الله ﷺ مُنادياً ينادي: يا مَعْشَر المُهاجرين والأنصار، مَن كان به جِراحة فليخرُج، ومَن لَم يكُن به جِراحة

١. الرَّوحاء: موضع علىٰ ستة وثلاثين ميلاً من المدينة.

٢. تفسير الرازي ٩: ٩٧.

فليُقِم، فأقبلوا يُضمِّدون جِراحاتهم ويُداوونها، فخرَجوا علىٰ ما بهم مِن الألم والجِراحات.

فلمّا بلَغ رَسُول الله ﷺ حَمراء الأسد، وقُريش قد نزلَتْ الرَوحاء قال عِكرمة بن أبي جَهل، والحارث بن هشام، وعَمرو بن العاص، وخالد بن الوليد: نرجِع ونَغير علىٰ المدينة، قد قَتلنا سَراتهم، وكَبْشهم ـ يعنون: حمزة ـ فوافاهم رَجُل مِن المدينة فسألوه الخَبر فقال: تركتُ محمّداً وأصحابه بحَمراء الأسد يطلُبونكم جِدَ الطَّلَب، فقال أبو سُفيان: هذا النَّكَد والبَغْي، فقد ظَفِرنا بالقوم وبَغَينا، والله ما أفلح قومٌ قَطُّ بَغَوا.

فوافاهم نُعيم بن مسعود الأشجعي، فقال أبو سُفيان: أين تُريد؟ قال: المدينة، لأمتار لأهلي طَعاماً، قال: هل لك أن تمُرَّ بحَمراء الأسد، وتلقىٰ أصحاب محمّد، وتُعْلِمهم أنّ حُلفاءنا ومُوالينا قد وافونا مِن الأحابيش، حتّىٰ يرجِعوا عَنّا، ولك عندي عَشرة قلائِص أملأها تَمْراً وَزَبيباً؟ قال: نعم.

فَوافىٰ مِن غدِ ذلك اليوم حمراء الأسد، فقال لأصحاب رَسُول الله ﷺ: ما تُريدون؟ قالوا: قُريشاً، قال: ارجِعوا، إنّ قُريشاً قد اجتمعَتْ إليهم حُلفاؤهم، ومَن كان تخلّف عنهم، وما أظُنّ إلّا أنّ أوائل خَيْلهم يطلُعون عليكم السّاعة، فقالوا: حسبُنا الله ونِعْم الوكيل، ما نُبالي، فنزَل جَبْرئيل عليه السلام علىٰ رَسُول الله ﷺ فقال: ارجِع يا محمّد فإنّ الله قد أرعب قُريشاً، ومرُّوا لا يلوُون علىٰ شيءٍ، فرجَع رَسُول الله ﷺ إلىٰ المدينة، وأنزل الله ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ الآية[1].

ورُوي أنّه كان فيهم مَن يحمِل صاحِبَه علىٰ عُنُقه ساعةً، ثمّ كان المَحمولُ يحمِل حامِلَه ساعةً اُخرىٰ، وكان فيهم مَن يتوكّأ علىٰ صاحِبه ساعةً، ويتوكّأ عليه صاحِبُه ساعةً، كُلّ ذلك لإثخان الجِراحات فيهم[2].

وقيل: إنّ الآية نزلَتْ في يومِ اُحُد لمّا رجَع النّاس إليه ﷺ بعدَ الهزيمة، فشَدّ بهم حتّىٰ كشَف المُشركين، وكانوا قد همُّوا بالمُثْلة فدفَعهم عنها بعدَ أن مَثلوا بحَمزة عليه السلام فقذَف الله في قُلوبهم الرُّعب فانهزموا، وصلّىٰ عليهم رَسُول الله ﷺ ودفَنهم بِدِمائهم[3].

ورُوي أنّ صَفية جاءت لتنظُر إلىٰ أخيها حَمزة، فقال النبيّ ﷺ للزُّبير: «رُدّها لِئلّا تجزَع مِن مُثْلة أخيها» فقالت: قد بلَغني ما فُعِل به، وذلِك يَسير في جَنْب طاعه الله تعالىٰ فقال ﷺ للزُّبير: «فدَعْها تنظُر إليه». فقالت خيراً واستغفرت له[4].

وقيل: جاءت امرأة قد قُتل زَوجُها وأبوها وأخوها وابنها، فلمّا رأتْ النبيّ ﷺ وهُو حَيّ قالت: إنّ

---

١. تفسير القمي ١: ١٢٤، تفسير الصافي ١: ٣٦٩.
٢ و٣. تفسير الرازي ٩: ٩٧.
٤. تفسير الرازي ٩: ٩٨.

كُلّ مُصيبةٍ بعدَك هَدْرٌ.[١]

في قضية بدر الصغرىٰ

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ الثّناء عليهم وَعَدهم بقوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ﴾ بطاعة أوامر الله ﴿وَٱتَّقَوْا﴾ الله في مُخالفة نَواهية ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لا يسَع البَيان وَصفه.

ثمّ أنّه رُوي عن الباقر عليه السلام: «أنّ أبا سُفيان قال يومَ أُحُد، حينَ أراد أن ينصَرف: يا محمّد، المَوعد بَيْننا وَبَيْنك مَوسِم بَدْر الصُّغرىٰ، القابل[٢] إنْ شِئْت، فقال رَسُول الله صلّى الله عليه وآله: «ذلك بَيْننا وَبينك»، فلمّا كان العام المُقبل خرَج أبو سُفيان في أهل مكّة حتّىٰ نزَل مَجَنّة مِن ناحية مَرّ الظّهران[٣]، ثمّ ألقىٰ الله عليه الرُّعب، فبَدا له في الرُّجوع، فلقيَ نُعيم بن مسعود الأشجعي[٤] ـ وفي رِوايةٍ أُخرىٰ: فمرّ به رَكْب مِن بني عبد قيس يُريدون المدينة للمِيرة ـ فقال له أبو سُفيان: إنّي واعدتُ محمّداً وأصحابه أن نلتقي مَوسِم بَدْر الصُّغرىٰ، وإنّ هذا عام جَدْب، ولا يُصلِحنا إلّا عامٌ نرعىٰ فيه الشجر، ونشرَب فيه اللّبَن، وقد بدَا لي أن لا نخرُج إليها، وأكره أن يخرُج محمّد ولا أخرُج أنا فيَزيدهم ذلك جُرأة، فالحَقْ بالمدينة وثبّطهم، ولَك عشرة مِن الإبل أضعها علىٰ يد سُهيل بن عَمرو.

فأتىٰ نُعيم بن مسعود المدينة فوجَد النّاس يتجهّزون لميعاد أبي سُفيان، فقال لهم: بئس الرّأي رأيكم، أتَوكم في قَراركم فلَم يفلِت مِنكم إلّا شريد، فتُريدون أن تخرُجوا وقد جمَعوا لكُم عندَ المَوسِم، فوَالله لا يفلِت مِنكم أحدٌ، فكرِه أصحاب رَسُول الله صلّى الله عليه وآله الخُروج، فقال رَسُول الله صلّى الله عليه وآله: «والذي نفسي بيَده، لأخرُجنّ ولَو وَحْدي، وأمّا الجَبان فإنّه رَجْعٌ. وأمّا الشُّجاع فإنّه تأهّبَ للقِتال. وقال: حسبُنا الله ونعِم الوكيل»[٥].

فمدَحهم الله تعالىٰ بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ الّذِين استقبلوا مِن بني عبد قيس، أو المُراد نُعيم بن مسعود، وإطلاق (النّاس) عليه لكَوْنه مِن جِنْسهم وكلامه كلامهم، أو لأنّه انضمّ إليه ناسٌ مِن مُنافقي المدينة وأذاعوا كلامه: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ﴾ وهُم أبو سُفيان وأصحابه ﴿قَدْ جَمَعُوا﴾ حُلفاءهم ومُواليهم ﴿لَكُمْ﴾ وتظاهَروا إلىٰ حَربكم ﴿فَٱخْشَوْهُمْ﴾ أيُّها المُسلمون، ولا تخرُجوا إليهم فتهلَكوا، فلَم يلتفِت المُؤمنون المُخلصون إلىٰ قولهم ﴿فَزَادَهُمْ﴾ التّرهيب ﴿إِيمَاناً﴾ ويقيناً وثَباتاً علىٰ نُصرة الإسلام، وخُلوصاً في النّيّة، وتأهّبوا للقتال ﴿وَقَالُوا﴾ عندَ التّخويف ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ وكَفانا مُؤنة الأعداء ﴿وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ ربّنا.

---

١. تفسير الرازي ٩: ٩٨. ٢. في النسخة: نقاتل.

٣. مَجَنّة: اسم سوق للعرب في الجاهلية، قرب جبل يقال له: الأصغر بأسفل مكّة، ومرّ الظّهران: موضع على مرحلة من مكّة. ٤. مجمع البيان ٢: ٨٨٨، تفسير الصافي ١: ٣٧٠.

٥. مجمع البيان ٢: ٨٨٨، تفسير الصافي ١: ٣٧١، وصدر الرواية في تفسير روح البيان ٢: ١٢٧.

رُوي أنه هِي الكِلمة التي قالها إبراهيم عليه السلام حين أُلقِي في النّار[١].

فخرج رَسُول الله ﷺ في أصحابه ووافىٰ بَدْر الصُّغرىٰ، وهُو ماء لبني كِنانة، وكان موضِع سُوق للعَرب في الجاهليّة يجتمعون إليه في كُلّ عامٍ ثمانية أيّام، فأقام ﷺ ببَدْر ينتظِر أبا سُفيان، وقد أنصَرف أبو سُفيان مِن مَجَنّة إلىٰ مكّة فسمّاهم أهل مكّة جَيش السَّوِيق[٢]؛ ويقولون: إنّما خرَجتم تشرَبون السَّوِيق.

ولَم يلْقَ رَسُولُ الله ﷺ وأصحابُه أحداً مِن المُشركين ببَدْر، ووافَق السُّوق، وكانت لهم تِجارات، فباعوا وأصابوا بالدِّرْهَم دِرْهَمين ﴿فَانقَلَبُوا﴾ ورجَعوا مِن بَدْر الصُّغرىٰ إلىٰ المدينة مُصاحَبين ﴿بِنِعْمَةٍ﴾ عظيمة كائِنة ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ مِن العَافية والسّلامة والزِّيادة في الإيمان واليقين ﴿وَفَضْلٍ﴾ وزِيادة كثيرة في المال، بسَبب الرِّبْح في التِّجارة، مُضافاً إلىٰ أنّه ﴿لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ ولم يُصِبهم مَكروه أصلاً ولَو أقلّ قليل ﴿وَٱتَّبَعُوا﴾ في سَفَرهم ذلك، وطاعتهم الرَّسُول في الأفعال والأقوال ﴿رِضْوَانَ ٱللَّهِ﴾ الذي هُو مَناط الفَوْز بخَير الدُّنيا والآخرة ﴿وَٱللَّهُ﴾ بحُبّه للمُؤمنين ﴿ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ عليهم مِن تَوْفيقهم للثَّبات علىٰ الإيمان، والتَّوطين علىٰ لِقاء الأعداء، والجِهاد في سَبيل الله، والتَّصلُّب في الدِّين، وحِفْظهم مِن كُلّ سُوء في الدُّنيا، وذو عَطاء جَسيم عليهم بالجنّة والنِّعمة الدّائمة، وحِفْظهم مِن كُلّ مَكروه في الآخِرة.

إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ [١٧٥]

ثمّ ذمّ الله سُبحانه الّذِين خَوّفوا المُسلمين، وقَرّع المثبّطين[٣] الذِين تخلّفوا وعَصَوا الرّسُول ﷺ جُبناً، بقوله: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَانُ﴾ المُضِلّ المُغوي بوَسْوَسته وشَيْطنته، وإلقاءاته علىٰ لِسان الرَّكْب، أو نُعيم بن مسعود ﴿يُخَوِّفُ﴾ مِن سَطْوة المُشركين ﴿أَوْلِيَاءَهُ﴾ ومُطيعيه مِن المُنافقين وضُعفاء المُؤمنين.

وقيل: إنّ المُراد: الشّيطان يخوّفكم أيُّها المُؤمنون مِن أوليائه المُشركين، كأبي سُفيان وأصحابه، لتقعُدوا عن قِتالهم.

﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾ في مُخالفة أوامري، وأوامر رَسُولي ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بِي وبرِسالة

---

١. مجمع البيان ٢: ٨٨٩، تفسير أبي السعود ٢: ١١٤.

٢. طعام يُتّخذ مِن مدقوق الحنطة والشعير، سُمّي بذلك لانسِياقه في الحَلْق.

٣. في النسخة: المتثبّطين

رَسُولي؛ لأنّ عذابي في الآخرة شديد.

وَلَا يَحْزُنْكَ ٱلَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا ٱللَّهَ شَيْئاً يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظّاً فِى ٱلاَخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ[١٧٦]

ثمّ لمّا كان سَعْي الكُفّار - في تَخويف المُؤمنين، وتَضعيف أمر الإسلام، وارْتِداد قومٍ مِن المُسلمين الضُّعَفاء خوفاً مِن قُريش - مُوجباً لحَزن النبيّ ﷺ، وكَسْر قَلبه الشَريف، أخذ الله في تَسْليته بقوله: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ﴾ المُنافقون وضَعَفة المُسلمين ﴿ٱلَّذِينَ يُسَارِعُونَ﴾ لشِدَة حِرْصهم علىٰ الدُّنيا، وحُبّهم الحياة، في الدُّخول ﴿فِى الكُفْرِ﴾ بالارْتِداد، أو بمُظاهرة الكُفّار، والسَّعْي في إبطال أمر رِسالتك.

قيل: إنّ المُنافقين كانوا بعدَ وَقْعة اُحُد يُخوّفون المُؤمنين مِن المُشركين، ويُؤيِسُونهم مِن النَصر والغَلَبة، ويقولون: إنّ محمّداً طالِبُ مُلْكٍ، فتارة يكون الأمر له، وتارة عليه، ولَو كان رَسُولاً ما غُلِب. وهذه الأقوال كانت تُنفر المُسلمين عن الإسلام.

وقيل: إنّها نزلَتْ في كُفّار قُريش، والله جعَل رَسُوله آمِناً مِن شرّهم، والمعنىٰ ﴿وَلَا يَحْزُنْكَ ٱلَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ بأن يقصِدوا جَمع العَساكر ﴿إِنَّهُمْ﴾ بهذا الصُّنْع ﴿لَن يَضُرُّوا ٱللَّهَ﴾ وأولياءه ﴿شَيْئاً﴾ بَل إنّما يَضُرّون أنفسهم به أشدّ الضَرَر، ويهلِكونها أسوء هَلاك.

ثمّ أشار سُبحانه إلىٰ عِلّة تَرْكه إيّاهم علىٰ ما هُم عليه مِن الانْهِماك في الكُفْر، والسّعْي في إطفاء نوره الحَقّ، والجِدّ في مُشاقّة النبيّ ﷺ ومُعارضته بقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ أن يظهر ما في ذَواتهم مِن الخَباثة، ويصِل استِعدادُهم الذّاتي بأعمالهم السَّيِّئة إلىٰ مَقام الفِعْليّة حتّىٰ لا تبقىٰ فيهم قابلية التفضُّل، و﴿أَلَّا يَجْعَلَ﴾ ﴿لَهُمْ﴾ بسَبب عدَم الأهليّة ﴿حَظّاً﴾ وإن كان قليلاً، ونصيباً وإن كان يسيراً ﴿فِى ٱلاَخِرَةِ﴾ والدّار البَاقية مِن الرّحمة والثّواب ﴿وَلَهُمْ﴾ مُضافاً إلىٰ الحِرمان الكُلّي من الثّواب، بَدلاً مِنه ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لا يعلم عَظَمته إلّا الله العظيم، فإنّ عَظَمة عَذابهم لعَظَمة شأن المُسارعة في الكُفْر عندَهم.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوا ٱلْكُفْرَ بِالإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا ٱللَّهَ شَيْئاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ[١٧٧]

ثمّ أكدّ الوَعيد بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوا﴾ واستبدلوا ﴿ٱلْكُفْرَ بِالإِيمَانِ﴾ بأن اختاروا لأنفسهم الكُفْر، وتركوا الإيمان الذي كان لوضوح دَلائله وسُهولة مآخذه كأنّه في مُلْكهم وقَبْضتهم ﴿لَن يَضُرُّوا ٱللَّهَ﴾ ورَسُوله والمُؤمنين أبداً ﴿شَيْئاً﴾ يَسيروا مِن الضَرَر، بَل يضُرّون أنفسهم ضَرَراً كثيراً،

ويخسرون بصَفقتهم خُسراناً مُبيناً ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

قيل: لمّا كانت العَادة باغْتِباط المُشتري بما اشتراه، وسُروره بتَحْصيله عندَ كَوْن الصَّفْقة رابِحة، وبتألّمه عندَ كَوْنها خاسِرة، وصَف الله عذابهم بالإيلام مُراعاةً لذلك.

وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ [١٧٨]

ثمّ لمّا كان تخلُّف مَن تخلّف عن رَسُول الله ﷺ بتوهّم أن البقاء في الدُّنيا خَير مِن القَتل في سَبيل الله، وأنّ حياتهم وطُول تعيُّشهم أنفع مِن شَهادة شُهَداء اُحُد، أبطل الله ذلك التّوهُّم بقوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وتخلّفوا عن رَسُول الله ﷺ حُبّاً للحياة، ولَم يُطيعوه في الخُروج إلىٰ الجِهاد ﴿أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ﴾ ونُطيل في أعمارهم في الدُّنيا، وتعيُّشهم فيها.

قيل: إنّ (ما) مَوصولة، وقيل: مصدرية. وعليه يكون المعنىٰ لا يتوهّمون أنّ إمهالهم في الدُّنيا وإبقاءهم فيها ﴿خَيْرٌ﴾ وأصلح ﴿لِأَنْفُسِهِمْ﴾ ولا تُسَرّ قُلوبُهم بطُول عَيْشهم فيها، لأنّ إمهالنا إيّاهم ليسَ بدَاعي الإحسان إليهم، بَل ﴿إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ﴾ ونُطيل أعمارهم ﴿لِيَزْدَادُوا﴾ بازْدِياد خُبْثهم في كُلّ آنٍ مِن الآنات ﴿إِثْماً﴾ علىٰ آثامهم مِن الاستمرار علىٰ الكُفر والطُّغيان، واشْتِداد بُغضهم للحَقّ، وجِدّهم في مَحْق الدِّين ومَحْو آثاره ﴿وَلَهُمْ﴾ خاصّة بتِلك الآثام في الآخرة ﴿عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ لهم زائِداً علىٰ ما في عَذاب غيرهم مِن المَهانة والذُّل.

قيل: إنّما وصَف سُبحانه عَذابهم بالوصف لأنّه كان غَرَضهم مِن البقاء في الدُّنيا التّعزُّز والتّكبُّر فيها، والتّمتُّع بطيِّباتها وزينتها.

عن النبيّ ﷺ: «خيرُ النّاس مَن طال عُمْره وحَسُن عَمَله، وشَرّ النّاس مَن طال عُمْره وسَاء عَمَله»[١].

وعن العيّاشي: عن الباقر عليه السلام أنّه سُئل عن الكافر، الموتُ خَير له أم الحياة؟ فقال: «الموتُ خَيرٌ للمُؤمن والكافر؛ لأنّ الله يقول: ﴿وَمَا عِندَ اللهِ خَيرٌ لِلأَبرَارِ﴾[٢]، ويقول: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ﴾»[٣].

روي أنّه قال الله تعالىٰ لرسول الله ﷺ ليلة المِعراج: «إنّ مِن نِعَمي علىٰ اُمتك أنّي قصّرتُ أعمارهم كَي لا تكثُر ذُنوبهم، وأقللتُ أموالهم كَي لا يشتدّ في القيامة حِسابهم»[٤].

---

١. تفسير روح البيان ٢: ١٣٠.
٢. آل عمران ٣: ١٩٨.
٣. تفسير العيّاشي ١: ٨١٢/٣٥١، تفسير الصافي ١: ٣٧٢.
٤. تفسير روح البيان ٢: ١٣٠.

مَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ فَـَٔامِنُوا بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ[١٧٩]

ثمّ أكّد الله سُبحانه عِلّيّة امْتِحان المُؤمنين في التّكليف بالمَشاق، مِن أمرهم بتَعقيب المُشركين معَ ما بهم مِن ألم الجِراحات، وبالخُروج في العام القابِل إلىٰ بَدْر الصُّغرىٰ بقوله: ﴿مَا كَانَ ٱللَّهُ﴾ بحِكْمته البالغة يُريد ﴿لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ المُخلصين مِنكم أيُّها المسلمون ويترُكهم ﴿عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ مِن الاخْتِلاط واشْتِبَار الحال، بَل عليه تعالىٰ أن يقدّر الأمور، ويُسبّب الأسباب مِن جَعل التّكاليف الشّاقة، وتَسليط الكُفّار، وإيراد المِحَن والبَلِيّات، والبَعْث إلىٰ الغَزَوات وغيرها ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ﴾ المُنافق ﴿الْخَبِيثَ﴾ الذّات، السيء السّريرة ﴿مِنَ﴾ المُؤمن المُخلص ﴿ٱلطَّيِّبِ﴾ النّفس، المُنوّر الفكر ويُظهِر حال كُلٍّ مِنهما بظُهور ما في قُلوبهم مِن الكُفر والإيمان، والغَدْر والصِدْق، وما في ضمائِرهم مِن النّيّات الحَسَنة والسّيّئة.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ﴾ لَما في عِلْمة مِن النِّظام الأتَمّ ﴿لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ وأن يُعلِمكم بما في القُلوب والضَمائِر بغير الأسباب الظّاهريّة والعادية، وليس مِن حِكْمته أن يُوحي إلىٰ كُلّ أحدٍ: أنّ هذا مُؤمن خالِص، وهذا كافر مُنافق ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى﴾ ويَصْطفي ﴿مِن﴾ بَيْن جَماعة ﴿رُّسُلِهِۦ﴾ وأنبيائه العِظام ﴿مَن يَشَآءُ﴾ إعلامه بالمُغيّبات فيخُصّه بعِلْمها، ويُوحي إليه: أن هذا مُؤمن مُخلص، وذاك مُنافق غادِر.

وقيل: إنّ المُراد: ولكنّ الله يمتحِن الفَريقين بأن يجتبي مَن يشاء مِن خَلْقه للرِّسالة، ويخُصّه بالشّريعة، وأحكام شاقّة بإطاعته وعِصيانه يمتاز الفَريقان.

ثمّ بعدَ ذِكْره سُبحانه مَصلحة الابْتِلاء بالمَكاره والتّكاليف الشّاقّة، وأنّ النِّفاق لا يُنتِج إلّا الفضيحة في الدّارَين، أمر النّاس بالإيمان الخالِص عن شَوْب النِّفاق بقوله: ﴿فَـَٔامِنُوا﴾ أيُّها النّاس إيماناً خالِصاً ﴿بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ لظُهور دَلائل التّوحيد والنُّبوّة، بحيث لَم يبقَ لأحدٍ عُذْر في التّشكيك والامْتِناع.

قيل: في ذِكْر جميع الرُّسُل هُنا إشعارٌ بأنّ مِلاك الإيمان بجميع الرُّسُل واحِد، وهُو ظُهور المُعجِزة، فمَن آمَن برَسُولٍ كان عليه الإيمان بالجميع.

ثمّ أردف سُبحانه أمره بالإيمان بالوَعْد بالثّواب تأكيداً وإشعاراً بعِظم فائِدته، بقوله: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا﴾ بالله ورُسُله عن صَميم القَلب ﴿وَتَتَّقُوا﴾ النِّفاق، وعِصيان الله، ومُخالفة أوامر الرُّسُل ﴿فَلَكُمْ﴾ بُمقابل الإيمان والتّقوىٰ في الدُّنيا والآخرة ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ مِن الله لعُظْم شأن الإيمان والتّقوىٰ عندَه تعالىٰ

شأنه.

وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ ٱللّٰهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ وَلِلّٰهِ مِيرَاثُ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللّٰهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ[١٨٠]

ثمّ ـ لمّا كان مِن دأب الله تعالىٰ في كِتابه العَزيز أنّه كُلّما أمر بالجِهاد أردفه بالحَثّ على إنفاق المال، لكمال الارْتِباط بَيْنهما، وتَوقُّف الحَرب علىٰ المال، وقد بالَغ سُبحانه في الآيات السّابقة في التّحريض علىٰ بَذْل النّفس في الجِهاد، وفي دَفْع توهُّم أنّ الحياة خَيرٌ مِنه ـ شرَع في الحَثّ علىٰ بذل المال، والرَّدْع مِن توهُّم أنّ البُخْل ومَنع حُقوق الله خَيرٌ مِنه، بقوله: **﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾** المُؤثرون **﴿ٱلَّذِينَ يَبْخلُونَ بِمَا آتَاهُمُ ٱللّٰهُ﴾** ووَهَب لهم مِن الثّرْوة والمال **﴿مِن فَضْلِهِ﴾** وإحسانه مِن غير أن يكون لهم مَدْخل فيه واسْتِحقاق، البخلَ بما وَجدوه مِن المال **﴿هُوَ خَيْراً﴾** وأنفع **﴿لَهُمْ﴾** مِن صَرْفه في سَبيل الله، فإنّه حِسبانٌ باطل؛ لأنّه ليسَ في البُخْل وجَمع المال ومنع حُقوق الله خيرٌ أصلاً **﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ﴾** مَحْض **﴿لَهُمْ﴾** لأنّه مُوجِب لابْتِلائهم بأشدّ العُقوبات، حيثُ إنّهم **﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ﴾** وسيجعَل ذلك المال ـ الذي امتنعوا مِن إنفاقه في سَبيل الله، حُبّاً له وشُحّاً عليه ـ طَوْقاً في عُنُقهم **﴿يَوْمَ ٱلقِيَامَةِ﴾**.

عن (الكافي): عن الباقر والصادق عليهما السلام، قالا: «ما من أحدٍ يمنَع مِن زَكاة ماله شيئاً إلّا جعَل الله ذلِك يومَ القِيامة ثُعباناً مِن نارٍ مُطوَّقاً في عُنُقه، ينهَش مِن لَحمه، حتّىٰ يفرغ مِن الحِساب، وهُو قول الله: **﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ ٱلقِيَامَةِ﴾** يعني ما بخِلوا به مِن الزّكاة»[١].

وعن ابن عبّاس رضي الله عنه: تُجعَل تِلك الزّكاة المَمنوعة في عُنُقهم كهَيْئة الطَوْق، شُجاعاً[٢] ذا زَبِيبتَين[٣] يلدَغ بهما خَدّيه، ويقول: أنَا الزّكاة [التي] بخِلْتَ في الدُّنيا بِي[٤].

أقول: ظاهِر الرّوايتين أنّ عَين مال الزّكاة بصُورتها الواقِعيّة البَرزخيّة يصير طَوْقاً في عُنُق البخيل. وقيل: المُراد: سيُطوّقون وَبال ما بخِلوا به. ويُؤيّده ما رُوي عن الصادق عليه السلام، قال: «قال رَسُول الله صلى الله عليه وآله: ما مِن ذي زكاة مال، نَخْل أو زَرْع أو كَرْم [يمنع زكاة ماله]، إلّا قلّده الله تُربةَ أرضه يطوّق بها مِن سَبع أرضين إلىٰ يوم القِيامة»[٥].

---

١. الكافي ٣: ١/٥٠٢ و: ١٠/٥٠٤، تفسير الصافي ١: ٣٧٣.

٢. الشُّجاع: الحَيّة.

٣. الزَّبِيبتَان: نقطتان سوداوان فوق عيني الحيّة والكلب.

٤. تفسير الرازي ٩: ١١٤.

٥. الكافي ٣: ٤/٥٠٣، تفسير الصافي ١: ٣٧٣.

وقيل: إنّ المعنىٰ: سيُكلّفون أن يأتوا بما بخِلوا به يوم القيامة.

وقيل: إنّ المعنىٰ سيُلزَمون إثم ما بخِلوا به في الآخرة. وهذا علىٰ طريق التّمثيل.

ثمّ لمّا كان للجاهل مَجال توهُّم أنّ مُبالغته تعالىٰ في الحَثّ علىٰ إنفاق المال لمَكان حاجته، دفَع ذلك التوهُّم بالتّنبيه علىٰ غَنائه المُطلق، بقوله: ﴿وَلِلَّهِ﴾ وحَدْه مِن غير شَريك ﴿مِيرَاثُ﴾ أهل ﴿ٱلسَّمَاوَاتِ وَ﴾ أهل ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ وما يُخلّفونه عندَ مَوتهم، فلا يبقىٰ لأحدٍ مُلْك إلّا له، وكُلّ مُلْك باطِل إلّا مُلْكه سُبحانه.

ويُحتمل أن يكون ذِكْر هذه القضيّة للإشعار بأنّه إذا كانت الأملاك زائِلة غير باقية لأحد، يكون مَنع الحُقوق والبُخل به خِلاف العَقل. وفيه تأكيد في الحَثّ علىٰ الإنفاق.

ثمّ بالغ سُبحانه في الوَعيد علىٰ تَرْك الإنفاق، بقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ مِن الحِرص علىٰ جَمع الأموال والتّعزُّز بها، ومنع الحُقوق الواجبة فيها ﴿خَبِيرٌ﴾ ومُطّلِع لا يخفىٰ عليه خافية.

وحاصِل المَضمُون: أنّه ما لهم يبخَلون بالزّكاة والحُقوق الماليّة الواجبة، معَ كَوْنه في غاية الضّرَر عليهم، وعدَم بقاء الأموال لهم، وغَنائه تعالىٰ عنهم، وشِدّة حاجتهم إلىٰ الأداء، وإحاطته تعالىٰ بخَفيّات أعمالهم، واشْتِداد غَضَبه تعالىٰ علىٰ سَيئاتهم.

وقيل: إنّ قِراءة (تعملون) بالتّاء ـ علىٰ الالْتِفات إلىٰ الخِطاب ـ أبلغ في الوَعيد.

لَقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوا إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ[١٨١]

ثمّ أنّه تعالىٰ ـ بعدَ الحَثّ علىٰ الإنفاق، وذَمّ البُخل، ودَفْع توهُّم الحاجة إلىٰ الخَلق عن ساحته المُقدّسة ـ تعرّض لقول مَن نسَب إليه الحاجة، بقوله: ﴿لَقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾ وعَلِم، كعِلْمكم بالمَسمُوعات ﴿قَوْلَ﴾ اليَهود ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا﴾ اسْتِهزاءً بالقُرآن، أو إلزاماً للمُسلمين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ﴾ عدَيم المال، مُحتاج إلىٰ أموالنا، حيثُ سأل مِنّا الصَّدَقات ﴿وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ لاسْتِقراضه مِنّا.

قيل: في التّعبير عن العِلْم بهذا القول الشّنيع بالسّماع إيذانٌ بأنّه مِن الشّناعة والقَباحة بمكانٍ لا يرضىٰ قائله بأن يسمَعه سامِع[١].

رُوي أنّ النبيّ ﷺ كتَب مع أبي بكر إلىٰ يهود [بني] قَينُقاع يدعُوهم إلىٰ الإسلام، وإلىٰ إقامة الصّلاة، وإيتاء الزّكاة، وأن يقرِضوا الله قَرْضاً حَسَناً، فدخَل أبو بكر ذاتَ يومٍ بيت مِدرَاسهم[٢]، فوَجد

---

١. تفسير روح البيان ٢: ١٣٥.

٢. المِدْرَاس: بيتٌ تُدرس فيه التوراة.

ناساً كثيراً مِن اليَهود قد اجْتمعوا إلىٰ رَجُل مِنهم يُقال له: فنحاص بن عازوراء، وكان مِن عُلمائهم، ومعه حِبْر آخر يُقال له: أشيع، فقال أبو بكر لفنحاص: اتّقِ الله وأسلِم، فوالله إنّك لتعلَم أنّ محمّداً لرَسُول الله، قد جاءكم بالحَقّ مِن عندِ الله، تجِدونه مَكتُوباً عندَكم في التّوراة، فآمِنْ وصَدِّق وأقرِضْ الله قَرضاً حَسَناً، يدْخِلك الجنّة، ويُضاعِف لك الثّواب. فقال فنحاص: يا أبا بكر، تزعُم أنّ ربّنا يستقرض أموالنا! وما يستقرِض إلّا الفقير مِن الغنيّ، فإن كان ما تقول حَقّاً فإنّ الله فقير ونحنُ أغنياء، وأنّه ينهاكم عن الرِّبا ويُعطينا، ولَو كان غنيّاً ما أعطانا الرِّبا. فغضِب أبو بكر وضرَب وَجْه فنحاص ضَربةً شديدة، وقال: والّذي نفسي بيده، لولا العَهد الذي بَيْننا وبَيْنكم لضرَبتُ عُنُقك يا عَدُوّ الله، فذهب فنحاص إلىٰ النبيّ ﷺ فشكاه وجحَد ما قاله، فنزلَتْ الآية رَدّاً عليهم[1].

وقيل: القائل حُيي بن أخطب[2].

وعن القُمّي ﷺ، قال: والله، ما رأوا الله فيعلَموا أنّه فقير، ولكنّهم رأوا أولياء الله فُقراء فقالوا: لَو كان غَنيّاً لأغنىٰ أولياءه؛ ففخَروا علىٰ الله بالغِنىٰ[3].

وعن (المَناقب): هُم الّذِين زعَموا أن الإمام يحتاج[4] إلىٰ مايحمِلونه إليه[5].

ثمّ هدّد الله سُبحانه القائلين علىٰ قولهم الشّنيع بقوله: ﴿سَنَكْتُبُ﴾ في صَحيفة الكَتَبة أو المُراد: سنثبت في القُرآن، أو نحفَظ في عِلْمنا، للاهْتِمام بالحِفْظ ﴿مَا قَالُوا﴾ مِن هذا القول السّيئ، لتَعْذيبهم عليه، أو لإبقاء شَيْنه عليهم إلىٰ آخر الدّهْر. وقيل: إن المُراد: سنثبت عليهم إثم هذا القول وعُقوبته. و(السين) دالّ علىٰ التّأكيد.

ثمّ أردف سُبحانه أقوالهم الشّنيعة بأعمالهم التي في الشّناعة كأقوالهم، بقوله: ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنبِيَاءَ﴾ المُقرّبين، معَ كَوْنهم عالِمين أنّه ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ وجُرْم.

وفيه تَنْبية علىٰ أنّ مَن كان في الجِهالة والشّقاوة بدَرجةٍ يكُون قاتلاً للأنبياء، أو راضياً بفِعْل مَن قَتَلهم، أو مِن نَسْلهم، لا يبعُد مِنه هذا القَول الشّنيع الذي في العَظَمة مِثْل ذلك الفِعل.

ثمّ بالغ في التّهديد بقوله: ﴿وَنَقُولُ﴾ لهم عندَ الموت، أو في المَحْشر، أوبعدَ قِراءتهم الكِتاب: ادْخُلوا النّار، و﴿ذُوقُوا﴾ واطْعَموا ﴿عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ وأنظُروا كيف طَعْمه، كما أذقتُم المُرسَلين والمُسلمين مَرارة الكُروب والغُصَص.

---

١. تفسير روح البيان ٢: ١٣٤.
٢. مجمع البيان ٢: ٨٩٨.
٣. تفسير القمي ١: ١٢٧، تفسير الصافي ١: ٣٧٣.
٤. زاد في المصدر: منهم.
٥. مناقب ابن شهر آشوب ٤: ٤٨.

ذٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ[١٨٢]

ثمّ نبّههم بأنّه حقٌّ عليكم ﴿ذٰلِكَ﴾ العذاب الشّديد الدّائم، وصِرتُم مُستحقّين له جَزاءً ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ وبما عمِلت جَوارحكم في الدُّنيا مِن قَتل الأنبياء، وهَتْك الحُرمات، وإخافة الأولياء، والتّفوُّه بمِثْل هذا القول الشّنيع، والتّجرّي على الله باقتِراف المَعاصي.

﴿وَ﴾اعْلموا ﴿أَنَّ اللهَ﴾ حَكيمٌ، عَدْل ﴿لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ وليس بـمُعذّب بـغيرِ ذَنْب، لتنافي الحِكمة والعَدْل معَ الظُّلم والإيلام بغيرِ الاستِحقاق، حيثُ إنّ مُقتضى الحِكمة وضْعُ الشّيء في ما وُضِع له، ومُقتضى العَدل إعطاء كُلّ شيءٍ ما يستحِقّه، وهُما معَ الظُّلم ـ الذي هُو التّعذيب مِن غيرِ أهليّة واستِحقاق ـ مُتضادّان.

ٱلَّذِينَ قَالُوا إِنَّ ٱللهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ[١٨٣]

ثمّ أنّه تعالى بعدَ تَهْديد اليَهُود على قولهم الذي فيه هَتْك حُرمته وحُرمة كِتابه، هدّدهم على قولهم الآخر الذي فيه إبطال رِسالة رَسُوله، بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا﴾، قيل: التّقدير: لقد سمِع الله أيضاً قول اليَهُود الّذِين قالوا إبطالاً لدَعوى الرّسُول، واعْتِذاراً مِن عدَم الإيمان به، معَ مُشاهدتهم المُعجزات الباهرات، واستِماعهم الآيات النّيِّرات: ﴿إِنَّ ٱللهَ﴾ بتَوسّط أنبيائه ﴿عَهِدَ إِلَيْنَا﴾ وأخذ المِيثاق الأكيد مِنّا ﴿أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ﴾ مِن الرُّسُل، ولا نُصدّق دَعوى أحدٍ مِنهم ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا﴾ مُدّعي الرِّسالة ﴿بِقُرْبَانٍ﴾ وتَفدْيةٍ لله، وصَدَقة مال يجعَله له ويتقرّب إليه، فيتقبّله الله مِنه، و﴿تَأْكُلُهُ﴾ وتحرِقه ﴿ٱلنَّارُ﴾ وكان ذلك عَلامة القَبُول، ودَليل صِدْقه، كما كان عليه أمرُ أنبياء بني إسرائيل.

عن عَطاء، أنّه قال: كان بنو إسرائيل يذبحون لله، فيأخُذون الثُّرُوب وأطايب اللّحْم فيضعُونها في وسَط بَيْتٍ والسّقْف مَكشوف، فيقوم النبيّ في البيت ويُناجي ربّه، وبنو إسرائيل خارِجون واقِفون حَول البيت، فتنزِل نارٌ بيضاء لها دَويّ خفيف ولا دُخان لها، فتأكل ذلك القُربان[1].

وعن ابن عبّاس ﵁، قال: نزلَتْ هذه الآية في كَعْب بن الأشرف، وكَعب بن أسد، ومالك بن الصيف، ووهب بن يهوذا، وزيد بن التابوب[2]، وفنحاص بن عازوراء، وغيرهم، أتوا رَسُول الله ﷺ فقالوا: يا محمّد، تزعُم أنّك رَسُول الله، وأنّه تعالى أنزل عليك كِتاباً، وقد عهِد الله إلينا في التّوراة أن لا

---

١. تفسير الرازي ٩: ١٢١.

٢. في النسخة: التاوبوت.

نُؤمن لرَسُولٍ حتّىٰ يأتينا بقُربانٍ تأكله النّار، ويكون لها دَويّ خفيف، تنزل مِن السّماء، فإن جِئتنا بهذا صدّقناك. فنزلَت هذه الآية[١].

ثمّ لمّا كان ذلك السُّؤال مِن باب التّعنُّت بهذه المُعجزة، وأنّ أنبياءهم أتوهُم ومعَ ذلك قتلوهم، كزكريّا، ويحَيىٰ، وعيسىٰ، باعْتِقادهم، مع أنّ العَهد الذي ادّعوه كان مِن مُفترَياتهم وأباطيلهم؛ لوُضوح أنّه لا ينحصِر دَليل صِدْق النبيّ في هذه المُعجزة، بَل كُلّ مُعجزة كافية في إثبات النُّبوّة لاشتِراك الجميع في كَونه خارجاً عن طَوْق البَشر، وتَصْديقاً مِن الله لدَعوىٰ مَن أتى بها.

ومِن الواضَح أنّ السُّؤال التّعنُّتي لا يحسُن إجابته، أمر الله نبيّه ﷺ بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد، تَبْكيتاً لهم، وإظهاراً لكِذْبهم في أنّ عدَم إيمانهم بكَ لعدَم إتيانك بقربان تأكله النّار: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ﴾ وأتىٰ أسلافكم الّذِين تتخلقون أنتم بأخلاقهم، وتتّبعون آثرهم ﴿رُسُلٌ﴾ كثيرة العَدَد، عظِيمة الشّأن ﴿مِن قَبْلِى بِالبَيِّنَاتِ﴾ والمُعجزات الباهرات ﴿وبِالَّذِى قُلْتُمْ﴾ وسألتم بعَيْنه مِن القُربان الذي تأكلُه النّار ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾ بعدَما أتوَكم بما اقْترحتموه عليهم، مُضافاً إلىٰ غيرِه من المُعجزات الدّالّة علىٰ صِدْقهم ﴿إن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في ما دَلّ عليه قولُكم مِن أنّكم مُلتزمون بالإيمان بنبيٍّ يأتيكم بقُربان.

فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِن قَبْلِكَ جَاءُو بِالْبَيِّنَاتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَابِ ٱلْمُنِيرِ[١٨٤]

ثمّ لمّا كانت مَقالات المفشركين واليَهود سبباً لكُدورة قَلب النبيّ ﷺ وتَحزُّنه، أخذ في تَسلية حبيبه بقوله: ﴿فَإِن﴾ عارَضك اليَهود والمُشركون و﴿كَذَّبُوكَ﴾ في دَعْوىٰ نُبوّتك، وصِحّة شَريعتك، وفي ما تُخبِرهم به مِن سُوء صُنْع أسلافهم، فإنّ هذا التّكذيب والمُعارضة ليسَ أمراً يخُصّك ﴿فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ﴾ كثيرة العَدَد، كبيرة المِقدار، كانوا ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ كنُوح، وإبراهيم وموسىٰ وأضرابهم، وهُم صبَروا علىٰ التّكذيب، وما نالهم مِن المُكذبين، معَ أنّهم ﴿جَاءُو﴾ وأتوَهم ﴿بِالبَيِّنَاتِ﴾ المُعجزات الظّاهِرات التي لَم يبقَ لأحدٍ معها مجَالٌ للتّكذيب ﴿وٱلزُّبُرِ﴾ والصُّحُف السّماوية المُشتملة علىٰ الأحكام والمَواعظ والزّواجر ﴿وَٱلكِتَابِ ٱلمُنِيرِ﴾ المُوضِّح للحَقائق مِن التّوراة، والإنجيل.

وتَخْصيص الكِتاب بالذِّكر معَ كَوْنه داخلاً في عُموم الزُّبُر، للإشعار بكَوْنه أشرف مِنها. وعَطْف جميعها علىٰ البيّنات، للدّلالة علىٰ عدَم كَوْن واحد مِنها مُعجزاً للأنبياء، وأنّ كَوْن نَفس الكِتاب مُعجزاً، مِن خَصائص خاتَم النّبيّين ﷺ وكِتابه المَجيد. وَوجْه كَوْن الآية تَسْليةً وضُوح أنّ البَليّة إذا

---

١. تفسير الرازي ٩: ١٢١.

عَمَّتْ طابَتْ.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ ٱلْغُرُورِ[١٨٥]﴾

ثمَ بالغ سُبحانه في تَسْلية قَلبه الشَريف بتَذْكيره المَوت الذي ذِكْره يُهوّن الخُطوب، ويُسهّل جميع المصائب، ويُزيل الكُروب، بقوله: **﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾** مِن النفُوس البَشريّة والحَيوانيّة بالآخرة **﴿ذَائِقَةُ﴾** طَعْم **﴿ٱلْمَوْتِ﴾** وزُهوق الرُّوح، بَل كُلّ مَوجود مِن الجِسمانيّات، وكُلّ مُركّب مِن المُركّبات آيلٌ أمرُه إلىٰ الانْحِلال والانْعِدام، فلا يبقىٰ إلّا وَجْهه الكريم.

عن (الكافي): عن الصادق عليه السلام، أنه قال: «يموت أهلُ الأرض حتّىٰ لا يبقىٰ أحدٌ، ثمَ يمُوت أهل السّماء حتّىٰ لا يبقىٰ أحدٌ إلّا مَلَك الموت، وحمَلة العَرْش، وجَبْرئيل، وميكائيل» قال: «فيجيء مَلَك الموت حتّىٰ يقوم بَيْن يدَي الله عز وجل فيقول له: مَنْ بقي؟ ـ وهُو أعلم ـ فيقول: يا رَبِّ، لَم يبْقَ إلّا مَلَك المَوت، وحمَلة العَرْش، وجَبْرئيل، وميكائيل. فيُقال له: قُل لجَبْرئيل وميكائيل فليمَوتا. فتقول الملائكة عندَ ذلك: يا رَبِّ، رَسُولاك واميناك. فيقول: إنّي قَضَيتُ علىٰ كُلِّ نَفسٍ فيها الرُّوح الموت.

ثمَ يَجيء مَلَكُ المَوت حتّىٰ يقِف بَيْن يدَي الله عزّ وجلّ فيقال له: مَن بقي؟ ـ وهُو أعلم ـ فيقول: يا رَبِّ، لَم يبْقَ إلّا مَلَك الموت، وحمَلة العَرْش. فيقول: [قُلْ] لحمَلة العَرْش فليَمُوتوا ثمَ يجيء كئيباً حزيناً لا يرفَع طَرْفه فيقول: مَنْ بقي؟ ـ وهُو أعلم ـ فيقول: يا رَبِّ، لَم يبقَ إلّا مَلَك المَوت. فيقول له: مُتْ يا مَلك الموت، فيموت.

ثمَ يأخذ الأرض بيمينه والسّماوات بيمينه، فيقول: أين الَذِين كانوا يدْعون معي شَريكاً؟ أيـن[1] الَذِين كانوا يجعَلون مَعي إلٰهاً آخر؟»[2] انتهىٰ. فإذا كان ذلك، فلا ينبغي للعاقِل أن يغتَمّ في المَصائب.

ثمَ أنّه سُبحانه بعدَما كنّىٰ عن الدّار الأُخرى بذَوْق الموت، بيّن تَوْفية ثَـواب المُـصدِّق، وعِـقاب المُكذِّب، بقوله: **﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ﴾** وتُعطَون علىٰ نَحْو الكَمال جزاءَ أعمالكم **﴿يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ﴾**.

قيل: إنّ في لَفْظ التَوْفية إشعاراً بأنّ بعضَ أُجورهم يصِل إليهم قبلَ القِيامة، كما يُنبئ عنه قوله صلى الله عليه وآله: «القَبْرُ رَوْضةٌ مِن رِياض الجنّة، أو حُفرةٌ مِن حُفَر النيِّران»[3].

﴿فَمَن زُحْزِحَ﴾ وأبعِد **﴿عَنِ ٱلنَّارِ﴾** ونُحّي مِنها يومئذٍ **﴿وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ﴾** بفَضل الله ورَحمته **﴿فَقَدْ**

---

١. في النسخة: من، بدل أين.
٢. الكافي ٣: ٢٥٦/٢٥، تفسير الصافي ١: ٣٧٥.
٣. تفسير أبي السعود ٢: ١٢٣، تفسير روح البيان ٢: ١٣٨.

فَازَ﴾ بالمَقصد الأعلىٰ، وظفِر بالبُغْية العُليا.

رُوي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «موضِع سَوط في الجنّة خَيرٌ مِن الدُّنيا وما فيها، وقرأ: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾»[١].

وعنه ﷺ: «مَن أحبّ أن يُزَحزح عن النّار ويُدخَل الجنّة، فلتُدركه مَنيّته وهُو يُؤمن بـالله واليـوم الآخر، وليُؤتِ إلىٰ النّاس ما يُحِبّ أن يُؤتىٰ إليه»[٢].

وعن (الكافي): عن الصادق عليه السلام: «خِيارُكم سُمحاؤكم، وشِرارُكم بُخلاؤكم، ومِن خالِص الإيمان البِرّ بالإخوان، والسّعْي في حَوائجهم، وإنّ البـارّ بـالإخوان ليُحبّه الرّحمٰن، وفـي ذلك مَرْجمة[٣] الشيطان، وتَزَحزُح عن النِّيران، ودُخول في الجِنان»[٤].

وعن النبيّ ﷺ، في حديثٍ: «قال الله تعالىٰ: فبعِزّتي حلَفْتُ، وبجَلالي أقسمتُ أن لا يتولّىٰ عليّاً عبدٌ مِن عِبادي إلّا زَحْزَحتُه عن النّار، وأدخلْتُه الجنّة، ولا يبغُضه عبدٌ مِن عِبادي إلّا أبغضتُه، وأدخلتُه النّار وبِئس المصير»[٥].

ثمّ أنّه تعالىٰ ـ بعدَما بيّن أنّ أعلىٰ المقاصِد النّجاة مِن النّار، والدُّخـول فـي الجـنّة ـ بـيّن أن أردأ المَطالب وأدنىٰ المقاصد هُو الدُّنيا، بقوله: ﴿وَمَا ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا﴾ وعَيْشها ولذّاتها وزَخارفها بشـيءٍ ﴿إِلَّا مَتَاعُ ٱلْغُرُورِ﴾ وسِلعة مُدلّسة. فشبّه سُبحانه الدُّنيا بالمَتاع الذي يُدلّس علىٰ المُستام[٦] ويُغرّ حتّىٰ يشتريه.

عن سَعيد بن جُبير: أنّ هذا في حَقّ مَن آثر الدُّنيا علىٰ الآخرة، وأما مَن طلَب الآخرة بها، فإنّها نِعْم المَتاع[٧].

لَتُبْلَوُنَّ فِى أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًىٰ كَثِيراً وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ[١٨٦]

ثمّ أنّه تعالىٰ ـ بعدَ تَسْلية النبيّ ﷺ عن تَكْذيب الكُفّار وأقوالهم السّيّئة المُقرحة للقَلب ـ شرَع في تَسْلية المُؤمنين عمّا يلقَونه مِن الكُفّار فيما بعدُ؛ ليُوطّنوا أنفسهم علىٰ احْتِماله عندَ وُقوعه، ويستعِدّوا لِلقائه ويُقابلوه بحُسْن الصّبْر والثّبات، فإنّ هُجوم الآجال يُزلزِل أقدام الرّجال، والاسْتِعداد للرُّكوب

---

١ و٢. تفسير الرازي ٩: ١٢٦.
٣. في المصدر: مَرغمة.
٤. الكافي ٤: ١٥/٤١، تفسير الصافي ١: ٣٧٥.
٥. أمالي الصدوق: ٣٢٦/٢٩٢، تفسير الصافي ١: ٣٧٥.
٦. المُستام: المشتري.
٧. تفسير الرازي ٩: ١٢٦.

مِمّا يهوّن الخُطوبـن فقال تعالىٰ: ﴿لَتُبْلَوُنَّ﴾ البتّة مِن جانب الله أيُّها المُـؤمنون، ولتُعاملُنّ مُعاملة المُختبِر؛ ليُظهر ما عندكم مِن الثّبات علىٰ الإيمان ولَوازمه بما يقَع ﴿فِى أَمْوَالِكُمْ﴾ مِن ضُروب الآفات والمَضارّ، ﴿وَ﴾ بِما يقَع في ﴿أَنفُسِكُمْ﴾ مِن القتَال، والجَرْح، والأسْر، وسائر المَتاعب والشّدائد والمَصائب.

عن الرّضا عليه السلام: «﴿فِى أَموَالِكُمْ﴾: بإخراج الزّكاة، ﴿وَ﴾ في ﴿أَنفُسِكُمْ﴾: بالتّوطين علىٰ الصّبْر»[١].

﴿وَ﴾ بالله ﴿لَتَسْمَعُنَّ﴾ أقوالاً سيّئة ﴿مِنَ﴾ اليَهود والنّصارىٰ ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ﴾ السّماوي مِن التّوراة والإنجيل ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ وفي زمان سابق علىٰ نزول القُرآن عليكم ﴿وَ﴾ أقوالاً ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ بالله وعَبدوا الأصنام، كأبي جَهل وأبي سُفيان وأضرابهما، فيها ﴿أَذىً كَثِيراً﴾ لكم، وإيلامٌ شديد في قُلوبكم، كالطّعْن في دِين الإسلام، والقَدْح في أحكامه، وإلقاء الشُّبُهات، وتَخطئة المؤمنين وهِجائهم، وتَحريض المُشركين علىٰ مُضادّة الرّسول صلى الله عليه وآله ﴿وَإِن تَصْبِرُوا﴾ علىٰ ما يُصيبكم مِن المَكاره، وتُقابلوه بحُسْن العَزاء والتّحمُّل ﴿وَتَتَّقُوا﴾ الله في مُخالفة مَرضاته مِن الإقدام علىٰ ما يليق بالمُؤمن، ومِن المُداهنة معهم ﴿فَإِنَّ ذٰلِكَ﴾ المَذكور مِن الصّبْر والتّقوىٰ يكون ﴿مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ وصَواب التّدبير، ومِمّا ينبغي أن يعزِم العازِمون ويتنافس فيه المُتنافسون، لِما فيه مِن كمال المَزيّة عندَ الله، وإنفاذ المَقصود مِن الإرشاد والهِداية؛ لأنّه أقرب إلىٰ دخُول المُخالف في الدِّين.

ولذا كان رَسُول الله صلى الله عليه وآله مُدارياً للنّاس صَبوراً علىٰ الأذىٰ أكثر مِن أن يُحصىٰ، بَل كان مُداراته وصَبْره مِن كراماته ومُعجزاته.

رُوي أنّه بعَث رَسُول الله صلى الله عليه وآله أبا بكر إلىٰ فِنحاص اليَهودي يستمدّه، فقال فِنحاص: قد احتاج ربُّك إلىٰ أن نمُدّه، فهمّ أبو بكر أن يضربه بالسّيف وكان رَسُول الله صلى الله عليه وآله قال له حينَ بعَثه: «لا تغلبَنّ علىٰ شيءٍ حتّىٰ تُؤدّي إليّ» فتذكّر أبو بكر ذلك وكفّ عن الضّرْب، فنزلَتْ[٢].

قيل: أمر الله سُبحانه بالصّبْر تقليلاً لمَضارّ الدُّنيا، وأمر بالتّقوىٰ تقليلاً لمَضارّ الآخرة، فكانت الآية جامِعة لآداب الدُّنيا والآخرة[٣].

وَإِذْ أَخَذَ ٱللهُ مِيثَاقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ[١٨٧]

---

١. علل الشرائع: ٣/٣٦٩، تفسير الصافي ١: ٣٧٦.
٢. تفسير الرازي ٩: ١٢٨.
٣. تفسير الرازي ٩: ١٢٩.

ثمّ ـ لمّا كان كِتمان اليَهود والنصارىٰ ما في التوراة والإنجيل مِن دَلائل نُبوّة خاتَم النبيّين ﷺ وصِفاته وعَلائمه، مِن أشدّ أنواع إيذائهم للرسُول والمؤمنين، وأظهر مَصاديقه ـ تعرّض سُبحانه لذلك بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ﴾، قيل: إنّ المُراد: وتذكّر يا محمّد وقتاً أخذ الله ﴿مِيثَاقَ﴾ اليَهود والنَصارىٰ ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ﴾ والعَهد المُحكم المُبْرم عليهم علىٰ لِسان الأنبياء والرُّسُل، حيثُ قالوا لأمَمهم ـ بعدما بيّنوا لهم ما في الكِتاب مِن صِفات نبيّ آخِر الزّمان وعلائِمه ـ: يا عِبادَ الله، بالله عليكم ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ﴾ ولتُظهِرنّ جميع ما فيه مِن الأحكام والأخبار التي مِنها أمر نُبوّة محمّد ﷺ ﴿لِلنَّاسِ﴾ الّذين لا يطّلِعون بما فيه كما أوضحناه وبيّناه لكم ﴿وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ عن العَوامّ بوَسيلة تَحْريف عِباراته، أو إبداء التّأويلات، أو إلقاء الشُّبُهات.

هذا حاصِل العَهد الأكيد بفُنون التأكيدات، ومع ذلك ﴿فَنَبَذُوهُ﴾ وطرَحوه لحُبّهم الدُّنيا وألقَوه ﴿وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ ولَم يُراعوه، ولَم يلتفِتوا إليه معَ قَبُوله والالتِزام بالعَمل به ﴿وَٱشْتَرَوْا بِهِ﴾ وأخذوا بدَل المِيثاق والوَفاء ﴿ثَمَنًا﴾ وعِوضاً ﴿قَلِيلًا﴾ مِن الزّخارف الدُّنيويّة والحُطام الفانية، وأخفَوا الحَقّ، واسْتهانوا بالعَهد الأكيد الإلٰهي طمعاً في أموال سَفَلتهم، وحِفْظاً للرّئاسة علىٰ جَهَلتهم ﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ وسَاء ما يستبدِلون به.

وفيه دَلالة علىٰ نِهاية قَباحة كِتمان الحَقّ، وشِدّة حُرمته علىٰ العالِم به، للأغراض الدُّنيويّة والأهواء الفاسدة، ولَو كان الكاتِم مِن المُسلمين.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «ما أخذ الله علىٰ أهل الجَهل أن يتعلّموا حتّىٰ أخذ علىٰ أهل العِلْم أن يُعلّموا»[1].

لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ[١٨٨]

ثمّ بالغ سُبحانه في تَهديد الكاتِمين لعَلائِم النبيّ ﷺ المُدلّسين للحَقّ، بقوله: و﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ يا محمّد، ولا تتوهّمَنّ الكاتِمين ﴿ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ﴾ ويُسَرّون ﴿بِمَا أَتَوْا﴾ مِن الأموال والرّئاسات، أو بما فعلوا مِن نَقْض العَهْد، وكِتمان آيات نُبوّتك ﴿وَيُحِبُّونَ﴾ بقُلوبهم ويتمنّون ﴿أَن يُحْمَدُوا﴾ بَيْن النّاس ﴿بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ مِن الوَفاء بالعَهد، والصِّدْق في الإخبار، والتّقوىٰ في الدِّين.

ثمّ أكّدَ سُبحانه النَّهي عن الحِسبان بقوله: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم﴾ مُتمكّنين ﴿بِمَفَازَةٍ﴾ ومَنجاةٍ ﴿مِنَ

---

١. مجمع البيان ٢: ٩٠٥، تفسير الرازي ٩: ١٣١، تفسير الصافي ١: ٣٧٦.

﴿ٱلعَذَابِ﴾ في القِيامة.

وعن القُمّي، عن الباقر عليه السلام: «أي ببَعيد مِن العذاب»[١].

﴿وَلَهُمْ﴾ بالاستِحقاق ﴿عَذَابٌ﴾ بالنّار ﴿أَلِيمٌ﴾ غايته، بسَبب كُفْرهم، وكِتمانهم، وتَدْليسهم.

عن ابن عبّاس رضي الله عنه: هُم اليَهود، حرّفوا التّوراة، وفرِحوا بذلك، وأحَبّوا أن يوصَفوا بالدِّيانة والفَضل[٢].

ورُوي عن رَسُول الله صلى الله عليه وآله أنّه سأل اليَهود عن شيءٍ مِمّا في التّوراة فكتموا الحَقّ، وأخبروه بخِلافه، وأرَوه أنّهم قد صدّقوه، واسْتحمدوا إليه، وفرِحوا بما فعلوا[٣].

وعن أبي سَعيد الخُدْري، قال: نزلَتْ في رِجالٍ مِن المُنافقين كانوا يتخلّفون عن رَسُول الله صلى الله عليه وآله في الغَزو، ويفرَحون بقُعودهم، فإذا قدِم اعْتذروا إليه فيقبَل عُذْرهم، فطمِعوا أن يُثني عليهم كما كان يُثني على المُسلمين المُجاهدين[٤].

أقول: يُحتمل أنّه قرأ رَسُول الله صلى الله عليه وآله هذه الآية في اُولئك المُنافقين، فتوهّم[٥] أنّها نزلَت فيهم.

وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ[١٨٩]

ثمّ أعلن سُبحانه بعُظْم سُلطانه، وسَعَة قُدْرته ازْدِياداً للرّهبْة في القُلوب، بقوله: ﴿وَلِلَّهِ﴾ وَحْده ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ والسَّلْطنة الاسْتِقلاليّة التّامّة فيهما، بحيثُ لا يخرُج مِن سُلطانه شيءٌ مِن الأشياء، وذرّة من الذّرّات ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ مِن القَهْر والغَلَبة والتّعذيب ﴿قَدِيرٌ﴾ لا يدفَعه شيءٌ عن إنفاذ إرادته، ومعَ ذلك كيف يجترِئ العاقِل علىٰ عِصيانه؟

إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَافِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَابِ[١٩٠]

ثمّ أكّد سُبحانه تَخْصيصه بالسَّلْطنة التّامّة، والقُدرة الكاملة، بقوله: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَاوَاتِ﴾ السَّبْع أو التِّسع، وإنشائها علىٰ ما هي عليه مِن ذواتها، وصِفاتها، وكَواكبها، وحَركاتها، وسائر اُمورها التي تحار فيها العُقول.

عن أمير المُؤمنين عليه السلام، قال في صِفة السّماوات: «جعَل سُفلاهُنّ مَوْجاً مَكفوفاً، وعُلياهُنّ سقفاً

---

١. تفسير القمي ١: ١٢٩، تفسير الصافي ١: ٣٧٧.

٢ و٣. تفسير أبي السعود ٢: ١٢٥.

٤. تفسير الرازي ٩: ١٣٢.

٥. أي أبو سعيد الخدري.

مَحفوظاً وسَمْكاً مَرفوعاً، بغير عَمَد يدعَمها، ولا دِسار[1] يَنْتَظِمها[2]، ثمّ زيّنها بزينة الكَواكب، وضِياء الثواقب، وأجرىٰ فيها سِراجاً مُستطيراً، وقمراً مُنيراً في فَلَكٍ دائر، وسَقف سائر، ورقيم مائِر»[3].

﴿وَ﴾ في خلق ﴿الْأَرْضِ﴾ على ما هي عليه في ذاتها، وصِفاتها، وأجزائها، وما خلق فيها مِن البِحار والجِبال والمَعادن والأشجار، ﴿وَ﴾ في ﴿اَخْتِلَافِ اَلَّيْلِ وَاَلنَّهَارِ﴾ وتَعاقُبهما، وقيل: اختِلاف لَونهما وتَفاوُتهما بازْدِياد كُلٍّ مِنهما ونَقْص الآخر، بحَسَب اختِلاف حال الشّمس بالنِّسبة إلينا قُرباً وبُعداً ﴿لَآيَاتٍ﴾ عظيمة، ودَلائل واضِحة علىٰ وَحْدة خالِقها، وكمال قُدرته، وسَعَة عِلْمه، وبُلوغ حِكْمته، وعِظَم سُلْطانه، وعُلُوّ شأنه، ولكِن لا لجميع الخَلْق لعَمىٰ قُلوب أكثرهم، وعدَم تَفكُّرهم فيهان بَل ﴿لِأُوْلِى اَلْأَلْبَابِ﴾ مِنهم، وذَوي العُقول السَّليمة، والأفهام المُستقيمة الخالِصة عن شَوائب الأوهام والشَّهَوات الحَيوانية، والأهواء الزّائِغة النّفسانيّة خاصّة، لتَنوُّر قُلوبهم، ونُفوذ بَصيرتهم.

قيل: لمّا كان رَسُول الله ﷺ يدعو أهل مكّة إلىٰ عِبادة الله وَحْده سألوه أن يأتيهم بآية تُصحّح دَعْواه، فنزلَتْ.

قيل: إنّه تعالىٰ ذكَر في سُورة البقرة في نَظير الآية، الآياتِ الثّمانية، واكْتفىٰ هُنا بذِكْر الثلاثة مِنها؛ لأنّ السّالك إلىٰ الله في أوّل الأمر لابُدّ له مِن تكثير الدّلائِل، فإذا استنار قَلبُه بنُور المَعرفة صار اشْتِغاله بالدّلائل كالحِجاب له عن استِغراق القَلب في المَعْرفة، فيصِير طالباً لتَقْليلها.

ففي الآية الأولىٰ إشارة إلىٰ مَبدأ السُّلوك، ولذا قال هُناك: ﴿لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[4] وهُنا: ﴿لَآيَاتٍ لِأُوْلِى الْأَلْبَابِ﴾، فإنّ لُبّ العَقل خالِصه ومُصفاه وكماله.

عن ابن عُمر، قال: قلتُ لعائشة: ما أعجب ما رأيتِ مِن رَسُول الله ﷺ! فبكَتْ فأطالت، ثمّ قالت: كُلّ أمره عجيب، أتاني في ليلةٍ فدخل لِحافي حتّىٰ ألصق جِلْده بجِلْدي، ثم قال لي: «يا عائشة، هَل لكِ أن تأذني لي في عِبادة ربّي؟»، فقلتُ: يا رَسُول الله، إنّي لأحِبّ قُربك وأحبّ مُرادك، قد أذنْتُ لك، فقام إلىٰ قِرْبة مِن ماء في البيت فتوّضأ، ولَم يُكثِر مِن صَبّ الماء، ثمّ قام يُصلّي فقرأ مِن القُرآن فجعل يبكي، ثمّ رفَع يدَيه وجعَل يبكي، حتّىٰ رأيتُ دُموعه قد بلّت الأرض، فأتاه بِلال يُؤذِنه بصلاة الغَداة فرآه يبكي، فقال له: يا رَسُول الله أتبكي، وقد غفَر الله لكَ ما تقدّم مِن ذَنْبك وما تأخرا فقال: «يا بِلال، أفلا أكونُ عَبداً شَكوراً؟» ثمّ قال: «ما لي لا أبكي وقد أنزل الله في هذه اللّيلة: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ

---

١. الدِّسار: المسمار. ٢. في نهج البلاغة: ينظمها.
٣. نهج البلاغة: ٤١ الخطبة ١. ٤. البقرة ٢: ١٦٤.

ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ...﴾؟» ثمّ قال: «ويلٌ لمَن قرأها، ولَم يتفكّر فيها»[١].

ورُوي أنّه قال: «ويلٌ لمَن لاكها بيْن فكّيه، ولَم يتأمّل فيها»[٢].

وعن عليّ عليه السلام: «أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله كان إذا قام مِن اللّيل يتسوّك، ثمّ ينظُر إلىٰ السّماء ويقول: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسّماواتِ وٱلأرْضِ﴾»[٣].

ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هٰذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ[١٩١]

ثمّ وصَف الله سُبحانه أُولي الألباب بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللهَ﴾ بألسنتهم وقُلوبهم حالَ كَونهم ﴿قِيَاماً وَقُعُوداً وَ﴾ مُضطَجعين ﴿عَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ وفي سائر أحوالهم.

قيل: إنّه ثبَت في الطِّبّ: أنّ كَون الإنسانُ مُستلقياً علىٰ قَفاه، يمتنِع عن اسْتِكمال الفِكْر والتّدبُّر، بخِلاف الاضْطِجاع علىٰ الجَنْب، وأنّ الاضْطِجاع علىٰ الجَنْب يمنَع مِن النوم المُغْرق[٤].

عن النبيّ صلى الله عليه وآله: «مَنْ أراد أن يرتَع في رِياض الجنّة فليُكثِر ذِكْر الله»[٥].

وعنه صلى الله عليه وآله: «مَنْ أكثَر ذِكْر الله أحبّه [الله]»[٦].

وعن الصادق عليه السلام: «[لا يزال] المُؤمن في صلاةٍ ما كان في ذِكْر الله قائماً وجالساً ومُضْطجِعاً، إنّ الله يقول: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾، الذي يكون أضعف مِن المريض الذي يُصلّي جالِساً»[٧].

وعن النبيّ صلى الله عليه وآله قال لعمران بن حُصَين: «صَلِّ قائماً، فإن لَم تستطِعْ [فقاعِداً، فإن لم تستطِع] فعلىٰ جَنْبٍ تومئ إيماءً»[٨].

ثمّ لمّا كان كمال الذِّكْر بكَوْنه مَع التّفكُّر، وصَفهم بقوله: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّماوَاتِ﴾ وإنشائها ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ وإيجادها، ويعتبِرون بهما.

وقيل: إنّ المُراد: يتفكّرون في ما خَلَق الله في السّماوات مِن الشّمس والقَمر والنُّجوم، وفي ما خَلَقَ الله في الأرض مِن الجِبال والبِحار والأشجار والوُحوش والطُّيور.

---

١. تفسير الرازي ٩: ١٣٣، تفسير روح البيان ٢: ١٤٥. ٢ و٣. تفسير الرازي ٩: ١٣٤.
٤ و٥. تفسير الرازي ٩: ١٣٦. ٦. الكافي ٢: ٣/٣٦٢، تفسير الصافي ١: ٣٧٧.
٧. العياشي ١: ٨٢٩/٣٥٧ و٨٣١، وتفسير الصافي ١: ٣٧٧ عن الباقر عليه السلام.
٨. تفسير أبي السعود ٢: ١٢٩.

وإنّما خصّ التّفكُّر بالخَلْق؛ لأنّ معرفة حقيقة ذاته تعالىٰ غير مُمكِنة للبَشَر، فلا فائدة لهم في التّفكُّر في ذاته المُقدّسة، ولذا قال النبيّ ﷺ: «تفكّروا في الخَلْق، ولا تتفكّروا في الخالِق»[1].

قيل: لمّا كان الإنسان مُركّباً مِن النّفس والبَدن، كانَتْ العُبوديّة بحَسَب النّفْس والبَدن، فأشار إلىٰ عُبوديّة البَدن بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ...﴾، فإنّ ذلك لا يتِمّ إلّا باستِعمال الجَوارِح والأعضاء وأشار إلىٰ عُبودية القَلْب والرُّوح بقوله: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ...﴾.

في فضيلة التفكر وفوائده

ثمّ ـ لمّا كان نتيجة التّفكّر في المَخلُوقات تَنوّر القَلب، وزيادة المَعرفة بسَعَة قُدْرة الله وكمال حِكْمته ـ وصفَهم بعدَ التّفكُّر في عَجائِب صُنْع السّماوات والأرض بإظهار المَعرفة بقولهم: ﴿رَبَّنَا﴾ اعترَفنا بأنّك ﴿مَا خَلَقْتَ هٰذَا﴾ الخَلْق العظيم، والمَصنوع العجيب ﴿بَاطِلاً﴾ وعَبَثاً، بَل فيه حِكَم بالِغة وأسرار عظيمة لا تُحيط بأقلّ قليلٍ مِنها عُقولُ الكائِنات، ولا يُمكِن ان يبلُغ إلىٰ عِشْرٍ مِن أعشارها إدراك المُمكنات.

ثمّ لمّا كان مِن لَوازم التّفكُّر في الخَلْق، تَنْزيه خالِقه عن التّشْبيه به، يُبادِرون بعدَ التّفكُّر إلىٰ تَنْزيهه تعالىٰ مِن الصِّفات الإمكانيّة بقولهم: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ أن يكون لك خَصائص المُمكنات، ونُقدِّسك عن نقائِص المَخلوقات، ونُنزّهك عمّا لا يليق بك مِن العَبَث، وفِعْل ما لا حِكْمة فيه.

عن النبيّ ﷺ، قال: «تفكُّر ساعة خَيرٌ مِن عِبادة ستِّين سنة»[2].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «نبّه بالتّفكُّر قَلبَك، وجَاف عن اللّيل جَنْبك، واتّقِ الله ربّك»[3].

وعن الرّضا عليه السلام: «ليسَ العِبادة كَثْرة الصّلاة والصّوم، وإنّما العِبادة التّفكُّر في أمر الله»[4].

ورُوي أنّه كان أكثر عِبادة أبي ذَر التّفكُّر [والاعتبار][5].

ويشهَد علىٰ كَوْن التفكُّر أفضل العِبادات، وُضوح أنّ الغَرض مِن الخَلْق المَعرفة، وهِي مَوقُوفة علىٰ التّفكُّر في صَنائع الله عزّ وجلّ، فإنّ مَنْ تفكّر فيها ـ علىٰ ما هِي عليه مِن النَّمَط البديع ـ قضىٰ باتِّصاف صانِعها بالوُجوب الذّاتي، لامْتِناع انْتِهاء وُجود المُمكن إلّا إلىٰ الواجب. ومِن اتِّساقها علىٰ النّظام الأتمّ، علِم بوَحْدانيّته الذّاتيّة، وقُدْرته الكامِلة، وعِلْمه الواسع، وحِكْمته البالغة.

ومِن لَوازم حِكْمته جَعْل التّكاليف، ولازِمه جَعْل الثّواب والعِقاب، ولازمه إيجاد عالَم آخر، وبعْث المُكلّفين فيه، ليتعامل معهم علىٰ حَسَب اسْتِحقاقهم، وأنّ مَنْ قَدَر علىٰ إنشائهم بِلا مِثال كان علىٰ

---

١. تفسير الرازي ٩: ١٣٧.
٢. تفسير روح البيان ٢: ١٤٥.
٣. الكافي ٢: ١/٤٥، تفسير الصافي ١: ٣٧٧.
٤. الكافي ٢: ٤/٤٥، تفسير الصافي ١: ٣٧٧.
٥. الخصال: ٣٣/٤٢، بحار الأنوار ٢٢: ٣٩/٤٣١.

إعادتهم أقدر. فظهَر أنّ معرِفة المَبدأ والمَعاد، ووظَائف العُبوديّة، ووجُوب القِيام بها نتيجة التَفكُّر في الآفاق والأنفس.

ثمّ لمّا كان على المُؤمن بعدَ مَعرِفة الله، وظُهور عَظَمته في قَلبه، غاية التَخضُّع، وإظهار ذِلّة العُبوديّة ـ ومِن الواضِح أنّ أحَبّ أنواعه عندَ الله الضَّراعة وسُؤال الحاجة، وأنّ أهمّ الحَوائج للعِباد، المُؤمنين بالمَعاد، النّجاة مِن العذاب، والسّلامة مِن العِقاب ـ حكى الله بعدَ مَدْحهم بالتّفكُّر والمَعرِفة والتّسبيح، ضَراعتهم ومَسألتهم النّجاة مِن النّار بقوله: ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ الذي أعدَدْتَه للكافرين بك، والجَاحدين لرُبوبيّتك، واحْفَظنا مِنه بالتّوفيق للاجْتِناب عن الزّلّات والمعاصي، حيثُ إنّه لا تسلَم نفسٌ مِن اقْتِراف الذُّنوب معَ خِذلانك، ولا يُرجى النّجاة مِن المَهالك إلّا بحِفْظك، فإنّ النّفس أمّارة بالسُّوء، والشّيطان عَدُوٌّ مُبين.

قيل: في ذِكْر (الفاء) إشعار بتَرتّب هذا السُّؤال على الذِّكْر والفِكْر، وحُصول المَعرِفة الكاملة، كأنّهم قالوا: وإذْ عرَفْنا سرّك، وأطعْنا أمرك، ونزّهناك عمّا لا يليق بك، فاحْفَظنا مِن عذاب النّار الذي هُو جَزاء مَن لا يعرِفك.

رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ[١٩٢]

ثمّ لمّا كان الالْتِفات بعِظَم الحاجة مُوجباً لقُوّة الدّاعي في الطلَب والإلحاح، حكى عنهم ذِكْر عَظَمة مَطلُوبهم بقوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾ غاية الخِزْي، وأبعَدتَه مِن مَقام قُربك، وحَرمتَه مِن ساحة رَحمتك، وأهنتَه بَيْن خلقك، وفَضحتَه على رُؤوس الأشهاد، وأهلكتَه أبدَ الآباد.

وفي التّصدير بالنّداء مُبالغةٌ في التّضرُّع، وإلحاحٌ في الدُّعاء، وفي تَوْصيفه بالرُّبوبيّة وإضافتها إلى ضمير المُتكلّم اسْتِرحامٌ واسْتِعطاف. وفي التّأكيد بـ (إنّ) إظهارٌ لكمال اليقين بمضمون الجُملة، وإيذانٌ بشِدّة الخَوف. وفي ذِكْر النّار مَوضع الإضمار إشعارٌ بتَهْويل أمرها. وفي ذِكْر (تُدخل) بدَل (تُعذب) تَعْيينُ كيفيّة التّعذيب، وتَبْيين غاية فَظاعته. وفي تَرتيب الخِزْي على التّعذيب بالنّار دَلالةٌ على أنّ العذاب الرُّوحاني أشدّ مِن الجِسماني، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «هَبْني صَبَرتُ على عَذابك، فكيف أصبِر على فِراقك؟»[١].

ثمّ بالغوا في إظهار نِهاية فَظاعة حالهم تأكيداً لاسْتِدعائهم، بقوله: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ على أنفسهم بعِصيانك، حينَ دخُولهم في النّار ﴿مِنْ أَنْصَارٍ﴾ وأعوان كَي يدفَعوا عنهم العذاب.

---

١. مصباح المتهجد: ٨٤٧.

وفيه إشعارٌ بخُلود عَذابهم، بفِقدان مَن يقُوم بنُصْرتهم وتَخليصهم. وفي ذِكْر الظَّالمين مَوضِع الضَمير الرّاجع إلىٰ المُدخَلين دَلالةٌ علىٰ ذَمّهم، وعِلّة استِحقاقهم لأشَد العذاب.

ثمّ لمّا كان المُراد بالنّاصر هُو المُدافع بالقَهر، فلا دَلالة في نَفْيه علىٰ نَفْي الشّفاعة التي هِي ضَراعة الشّفيع في التّخليص.

عن العيّاشي: عن الباقر عليه السلام: «ما لهم مِن أئمّة يُسمّونهم بأسمائهم»[1].

رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ[١٩٣]

ثمّ ـ لمّا كان الانْقِياد وحُسْن الخِدمة والطاعة دَخيلاً في تعطّف المَسؤول، وإقدامه في قَضاء حاجه السّائِل، وإجابة دُعائه ـ حكىٰ الله عن المُؤمنين إظهار إيمانهم وطاعتهم له ولرَسُوله بقوله: ﴿رَبَّنَا﴾ ومَليكنا ﴿إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً﴾ وداعياً عظيم الشّأن، كثير الاهتِمام بالدّعوة، بحيث يرفَع صَوته بها، وهُو ﴿يُنَادِي﴾ ويدعو عامّة النّاس بصَوتٍ عالٍ ﴿لِلْإِيمَانِ﴾ بِك وبوَحْدانيّتك، وكَمال صِفاتك، وصِحّة شريعتك، ويدعُوهم إلىٰ سَبيل مَرضاتك، والالْتِزام بطاعتك بكلمةٍ جامعةٍ لجميع هذه الأُمور، هِي ﴿أَنْ آمِنُوا﴾ أيُّها النّاس ﴿بِرَبِّكُمْ﴾ وخالِقكم اللّطيف بكم، والرّؤوف المُتولّي لجميع أُموركم، الحافِظ لمصالِحكم، لوضُوح أنّ مَعرِفته تعالىٰ بصِفة الرُّبوبيّة والإيمان بـه مُلازِم للإيـمان بـرَسُوله وكِتابه وشريعته.

ويُحتمل أن يكون وَجْه تَخصيص الأمر بالإيمان بالرّبّ، تفخيم شأنه.

﴿فَآمَنَّا﴾ به بِلا مُماطلة امْتِثالاً لأمره، وبادَرنا إلىٰ الإقرار به إجابةً لدَعوته ﴿رَبَّنَا﴾ إذَنْ ﴿فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ وتَجاوز عن كبائر مَعاصينا، جَزاءً لإيمانِنا بك ﴿وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾ وامْحُ صغائِر زلّاتنا. وقيل: إنّ الجُملة تأكيد للأُولىٰ.

ثمّ بعدَ سُؤال المَغفرة والتِماس الأمن مِن العُقوبة، يتوجّهون الىٰ النِّعَم واللّذائذ، ويسألون أتـمّها وأعلاها بقولهم: ﴿وَتَوَفَّنَا﴾ واقْبِض أرواحنا، وأخرِجنا مِن الدُّنيا حالَ كَوْننا مُصاحبين ﴿مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ مَحظُوظين بجِوارهم، مُلتذّين بمُرافقتهم وصُحْبتهم، فإنّ صُحْبة الأحِبّة أتمّ اللّذائذ وأعلا الحظوظ.

وقيل: إنّ المُراد: حال كَوْننا مَعْدودين في زُمْرة المُطيعين، أو التّابعين لهم في أعمالهم، حتّىٰ نكون في دَرَجاتهم.

---

١. تفسير العيّاشي ١: ٨٣٢/٣٥٧، تفسير الصافي ١: ٣٧٨.

رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ[١٩٤]

ثمّ بعدَ طَلَب الأمن مِن العقوبة، وسُؤال أهم النِّعَم، يعُمّون السّؤال، ويستدعون جميع المثوبات المَوعودة للمُؤمنين، بقولهم: ﴿رَبَّنَا وآتِنَا﴾ برَحمتك، وأعْطنا بجُودك وكَرَمك ﴿مَا وَعَدتَّنَا﴾ مِن الثّواب والأجر الدُّنيوي والأُخروي ﴿عَلَىٰ﴾ تَصْديق ﴿رُسُلِكَ﴾. وقيل: إنّ المُراد: ما وَعَدْتنا بالوَعْد الكائن علىٰ ألسِنة رُسُلك، ووسائط تبليغ وَحْيك.

وفي تَكْرير النِّداء بقولهم: ﴿رَبَّنَا﴾ إظهار المُبالغة في الضَّراعة.

عن الصادق عليه السلام: «مَنْ حَزبه[١] أمرٌ فقال: رَبّنا؛ خَمس مرّات، أنجاه الله مِمّا يَخاف، وأعطاه ما أراد»[٢].

وفي ذِكْر جميع الرُّسُل ـ معَ كَوْنِ المُراد مِن المُنادي للإيمان خُصوص خاتَم النَّبيِّين صلى الله عليه وآله ـ إشعار باتّفاقهم في الوَعْد، وتأكّده بكَثْرة الشُّهود، وإظهار كمال الثّقة بإنجازه.

ثمّ أنّه تعالىٰ ـ بعدَما حكىٰ عن المُؤمنين تَقديم سُؤال المَغفرة والأمن مِن العُقوبة علىٰ سُؤال الجنّة وسائر النِّعَم والمَثوبات، إظهاراً لأهميّته وكَوْنه أصلاً، وغيره فَرْعاً وتَبَعاً ـ حكىٰ عنهم خَتْم دعواتهم به تَثْبيتاً لذلك، بقوله: ﴿وَلَا تُخْزِنَا﴾ ولا تُهِنّا بَيْن النّاس ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ بالعَذاب الدّائم.

وقيل: إنّ السُّؤال الأوّل ـ وهُو الوِقاية مِن النّار ـ طَلَب الأمْن مِن العَذاب الجِسماني، والسُّؤال الآخَر مِن قولهم: ﴿وَلَا تُخْزِنَا﴾، طلَب السّلامة مِن الخِزْي والهَوان؛ وهُو العَذاب الرُّوحاني، حيثُ يظهَر يومَ القِيامة لبعض العِباد أنّ اعْتِقاده كان ضَلالاً، وعَمَله كان ذَنْباً؛ كما قال تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾[٣]، فعندَ ذلك يحصُل لهم خَجْلة عظيمة، وحَسْرة كاملة، وأسَف شديد، وذلك هُو العذاب الرُّوحاني، وهُو أشدّ مِن العذاب الجِسماني.

وقيل: إنّ المُراد: لا تُهِنّا حين إعطاء الثّواب، بَل عظّمنا وأكرمنا. فإنّه يُمكِن أن يكون إعطاء الثّواب مَقروناً بالتّوهين.

ثمّ حكىٰ الله سُبحانه عن المُؤمنين إظهار اليقين بامْتِناع صُدور خُلْف الوَعْد مِنه تعالى، بقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ لإظهار أنّ سُؤال الوَفاء بالوَعْد ليسَ لخَوف صُدور خُلْف الوَعد مِنه تعالىٰ، بَل لإظهار الاسْتِكانة، أو احْتِمال التّقصير مِن قِبَلهم، والخَوف مِن أنّهم لا يكونون مِن جُملة المَوعودين، لسُوء العاقبة، أو القُصور في الامْتِثال، فمرجِعها إلىٰ الدُّعاء بالتّثبُّت علىٰ الإيمان والطّاعة.

---

١. حزبه الأمر: اشتدّ عليه.
٢. تفسير الرازي ٩: ١٥١، تفسير أبي السعود ٢: ١٣٣.
٣. الزمر: ٤٨/٣٩.

عن ابن عبّاس رضي الله عنه: أنّه البَعْث بعدَ الموت[١]. يعني: المُراد مِن المِيعاد: البَعْث المَوعود.

فــي ذكــر آداب الدعاء وكيفيته

ثمّ اعْلَم أنّ الله تعالىٰ علّم عِباده ـ في هذه الآيات من قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللهَ﴾[٢] إلىٰ قوله: ﴿لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ ـ آداب الدُّعاء وكَيْفيّاته، حيثُ ظهرَ مِنها أنّه لابُدّ للدّاعي قبلَ الدُّعاء [من] التفكُّر في آيات الله، وتَحصيل المَعرفة به، ثمّ ثَنائه بالتّسبيح والتّهليل، ثمّ مُخاطبته بخِطاب فيه كمال الضرّاعة، وإظهار العُبوديّة والاسْتِكانة، ثمّ نِدائه بِما فيه جَلْب العُطوفة؛ كقول: يا رَبّ، يا رَحيم، يا رؤوف، وأمثال ذلك، ثمّ تذكُّر ما فيه اشْتِداد شَوْقه إلىٰ الدُّعاء، وما يؤثّر في تَقْوية دَاعي المَدعُوّ إلىٰ الإجابة، ثمّ يخُصّ دُعاءه بالمُهِمّات، ويكون نظَره إلىٰ الحَوائج الأُخرويّة، ولا يعتني إلىٰ الدُّنيا وما فيها، ولا يطلُب في دُعائه شيئاً مِنها، ويقدّم أوّلاً طَلَب المَغفرة؛ لأنّها ـ معَ كونها مِن أهمّ الحَوائج ـ لها أثَر تامّ في إجابة الدُّعاء به.

عن ابن عبّاس رضي الله عنه، عن النبيّ صلّى الله عليه وآله: «مَنْ لزِم الاسْتِغفار جعَل الله له مِن كُلّ هَمٍّ فَرَجاً، ومِن كُلّ ضِيقٍ مَخْرَجاً، ورَزَقه مِن حيثُ لا يحتسِب» الخبر[٣].

ويسأل النّجاة مِن النّار والهَوان في الآخرة، ثمّ يطلُب النِّعَم والدّرَجات الرّفيعة في الجِنان ـ لتقدُّم التّخلية علىٰ التّحلية ـ وأن يكون علىٰ يقين بكرَم الله، وأنّه يُجيب دَعْوة الدّاعي إذا دَعاه حَسَب ما وَعد، وأنّه لا يُخلف الوَعْد، ولا يسُوء ظنُّه به تعالىٰ.

فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُم مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُم مِن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِى سَبِيلِى وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُم سَيِّآتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ ثَوَاباً مِنْ عِندِ ٱللهِ وَٱللهُ عِندَهُ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ[١٩٥]

ثمّ رتّب الله علىٰ دَعَواتهم الجامعة لآدابها الإجابة السّريعة بقوله: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ وتحقّق إنجاح مَسؤولهم مِن مَليكهم اللّطيف بهم، المُكمِّل لنفوسهم.

وقيل: إنّ (اسْتَجاب) أخصّ مِن (أجاب)، فإنّ (أجاب) مَعناه: أعطاه الجَواب، وهُو أعمّ مِن إعطاء المَطلوب، وإنّما يُقال: (استجاب) إذا حصَل المَطلوب.

---

١. تفسير البيضاوي ١: ١٩٦، تفسير أبي السعود ٢: ١٣٣.

٢. آل عمران: ١٩١/٣.

٣. تفسير روح البيان ٢: ١٤٩.

واسْتِجابته كانت بإنجاز وَعْده بالثّواب علىٰ الإيمان وأعمالهم الصّالحة المُستلزمة للمَغفرة والوِقاية مِن النّار، مُوجِّهاً الخِطاب إليهم تَشْريفاً لهم، وتَطييباً لقُلوبهم، بقوله: ﴿أَنِّى لَا أُضِيعُ﴾ ولا أُبطِل ﴿عَمَلَ عَامِلٍ﴾ أيّ عاملٍ كان ﴿مِنْكُم﴾ مِن الكامِلين في الإيمان، أو الضُّعفاء ﴿مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ ومِن خَسيس النَّسَب أو شَريفه؛ لأنّه ﴿بَعْضُكُم﴾ مُنشعِبٌ ﴿مِن بَعْضٍ﴾ آخَر، وكُلّكم مِن أصلٍ واحدٍ، فلا مَزيّة لأحدٍ علىٰ أحد عندَ الله إلّا بالتّقوىٰ والعمَل الصّالح، فمعَ تساوي النِّسْبة إلىٰ الله، وكَوْن التّفاوُت والمزيّة بالإيمان والقِيام بوَظائف العُبودية، لا يُمكِن إثابة بعضٍ دُون بعض.

وقيل: إنّ المُراد مِن قوله: ﴿بَعْضُكُم مِن بَعْض﴾ أنّكم مُتوافِقون في الدِّين والأعمال؛ كما قال في حَقّ المنافقين: ﴿بَعْضُهُم مِن بَعْضٍ﴾[1].

وقيل: إنّ (مِن) بمعنىٰ: (الكاف) والمعنىٰ: بعضُكم كبعض[2]، والمَقصود: بَيان شِرْكة النِّساء معَ الرِّجال في ما وعد للأعمال.

رُوي أنّ اُمّ سَلَمة قالَتْ لرَسُول الله ﷺ: إنّي أسمَع الله يذكُر الرِّجال في الهِجرة، ولا يذكُر النِّساء، فنزلَت الآية[3].

ثمّ ذكَر الله تفصيل أعظم الأعمال التي يُستحَقّ بها غاية الثّواب، بقوله: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ مِن أوطانهم حِفْظاً لدِينهم، واخْتِياراً لخِدْمة الرّسُول ﷺ، وشَوقاً إلىٰ صُحْبته ـ عن القُمّي ﷺ يعني: أمير المؤمنين، وسلمان[4] ـ أو لَم يُهاجروا اخْتِياراً ﴿وَ﴾ لكِن ﴿أُخْرِجُوا﴾ قَهْراً وجَبْراً ﴿مِن دِيَارِهِمْ﴾ التي وُلِدوا فيها وتَوطّنوها، واضْطرّوا إلىٰ تَرك الإقامة بها بسَبب إيذاء المُشركين، والخَوف علىٰ أنفسهم وأعراضهم، ﴿وَ﴾ الّذين ﴿أُوذُوا﴾ مِن الكُفّار، بأيّ نَوعٍ مِن أنواع الإيذاء ﴿فِى سَبِيلِى﴾ لأجل تَحْصيل مَرْضاتِي مِن الإقرار بالتّوحيد، والدُّخول في المِلّة الحَنيفيّة ﴿وَ﴾ الّذين ﴿قَاتَلُوا﴾ أعداء الدِّين، وجاهدوا معهم نُصْرةً للإسلام ﴿وقُتِلُوا﴾ في تَرْويج الشّريعة، تالله ﴿لَأُكَفِّرَنَّ﴾ وأمحُوَنّ ﴿عَنْهُمْ﴾ ومِن صَحيفة أعمالهم ﴿سَيِّآتِهِمْ﴾ وخَطاياهم ﴿وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ﴾ في القِيامة برَحمتي وفَضلي ﴿جَنَّاتٍ﴾ عديدة، تكون مِن مُحسِّناتها وصِفاتها أنّه ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الكثيرة، ولاُثيبَنّهم وَفاءً بالوَعْد ﴿ثَوَاباً﴾ عظيماً علىٰ هذه الأعمال وغيرها، حالَ كَوْن ذلك الثّواب تَشْريفاً لهم ﴿مِنْ عِندِ اللهِ﴾ ومِن قِبَل فَضْله وجُوده.

ثمّ بالغ سُبحانه في تأكيد الوَعْد، وتَشْريف الثواب بقوله: ﴿وَاللهُ﴾ مَذخُورٌ ﴿عِندَهُ﴾ وفي خَزائن

---

١. التوبة: ٦٧/٩.　　　٢ و٣. تفسير الرازي ٩: ١٥٠.

٤. تفسير القمي ١: ١٢٩، تفسير الصافي ١: ٣٧٩.

جُوده ﴿حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ وأكمل الجَزاء علىٰ طاعته، لا يُعادِله ثَواب، ولا يُشابِهه جَزاء.

قيل: في تَصْدير الوَعْد الكريم بعدَم الإضاعة، ثمّ تعقيبه بهذا الإحسان الجَسيم الذي لا يُقادَر قَدْرُه مِن لُطْف المَسْلك المُنبِئ مِن عُظْم شأن المُحسِن ما لا يخفىٰ.

ثمّ أنّ ظاهِر الآية وإنْ كان ثُبوت هذا الأجر العظيم للّذِين اجْتمعتْ لهم جميعُ هذه الأمور مِن الهِجرة، والإخراج مِن الأوطان، والإيذاء، والمُقاتلة والقَتل، ولكِن يُحتمَل أن يكون لمَنْ له أحدها، ويُؤيّده سَعَة رَحمة الله وفَضله.

عن (الأمالي): أنّ أمير المؤمنين عليه السلام لمّا هاجر مِن مكّة إلىٰ المدينة ليلحَق النبيَّ صلى الله عليه وآله؛ وقد قارع الفُرسان مِن قُريش، ومعه فاطمة بنت أسد وفاطمة بنت رَسُول الله صلى الله عليه وآله، وفاطمة بنت الزُّبير، فسار ظاهِراً قاهراً حتّىٰ نَزل ضَجَنان[1] فتلوّم بها يوماً وليلة، ولحَق به نَفَرٌ مِن ضُعفاء المُؤمنين، وفيهم أُمّ أيمن مَولاة رَسُول الله صلى الله عليه وآله، وكان يُصلّي ليلته تِلك هو والفَواطم ويذكُرون الله قِياماً وقُعوداً وعلىٰ جُنُوبهم، فلَن يزالوا كذلك حتّىٰ طلع الفجر، فصلّىٰ بهم صَلاة الفجر، ثمّ سار لوَجْهه.

فجعَل هو وهنّ يصنَعون ذلك مَنزلاً بعدَ مَنزل، يعبُدون الله عزّ وجلّ ويرغَبون إليه كذلك حتّىٰ قدموا المدينة، وقد نزَل الوَحي بما كان مِن شأنهم قَبْل قُدومهم ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِياماً وَقُعُوداً﴾[2] الآيات، إلىٰ قوله: ﴿مِن ذَكَرٍ أو أُنثىٰ﴾ الذَّكَر: عليّ عليه السلام، والأُنثىٰ: الفَواطم ﴿بعضُكُم مِن بَعضٍ﴾ يعني: عليّ مِن فاطِمة، أو قال: مِن الفَواطم، وهُنّ مِن عليّ[3].

وعن القُمّي رحمه الله: ﴿فالّذِينَ هَاجَروا وأُخرِجُوا مِن دِيارِهِم﴾ يعني: أبا ذَرّ حينَ أُخرج وعمّار اللذين أُوذوا في سبيل الله[4].

أقول: الظّاهِر أنّ الرِّواية بَيان لأظهر مَصاديق الآية وأكملها، لا أنّها تفسيرٌ لها، بَل هِي عامّة لكُلّ مَنْ اتّصف بتِلك الصِّفات.

لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِى ٱلْبِلَادِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ[١٩٦ و ١٩٧]

ثمّ لمّا وَعد الله سُبحانه الثّواب العَظيم علىٰ الإيمان والهِجرة، وكان المُهاجرون في شِدّة الفَقر والفاقة، صاروا مَعْرضاً للطَّعْن بأنّه لَو كان لهم منزِلة عندَ الله لأعطاهم مِن الدُّنيا ما يعيشون به في

١. ضَجَنَان: جبل على بريد من مكة.
٢. آل عمران ٣/١٩١.
٣. أمالي الصدوق: ١٠٣١/٤٧١، تفسير الصافي ١: ٣٧٩.
٤. تفسير القمي ١: ١٢٩، تفسير الصافي ١: ٣٧٩.

الرّاحة، فدفَع الله ذلك الطَّعْن، وسلّىٰ قُلوب المُؤمنين مُخاطباً للنبيّ ﷺ تَشريفاً له، وإيذاناً بكـونه المُسلّي عن الله والمُبلِّغ، بقوله: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ﴾ ولا يُلقينّك في اعْتِقاد خِلاف الواقع ـ وقيل: إنّ الخِطاب لكُلّ أحدٍ ـ ﴿تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِى ٱلْبِلَادِ﴾ وتصرُّفهم في المَكاسب والمَتاجر، وتبسُّطهم في المَعيشة، والمُؤمنون في شِدّة الفَاقة ـ أو المُراد: سَيْرهم في الأرض آمِنين، والمُؤمنون في خوف ـ أنّ للكُفّار مَنزلة عندَ الله دُون المُؤمنين، فإنّ الغِنىٰ أو الأمْن الذي يكون للكُفّار ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ في الدُّنيا، وانْتفاع يَسير فيها، يزول بسُرعة ولَو كانت مُدّته طويلة، لوُضوح أنّ أمَد الدُّنيا ـ بالنِّسبة إلىٰ طُول مُدّة الآخرة ـ أقلّ مِن دَقيقة بالإضافة إلىٰ أضعاف عُمْر الدُّنيا، وأنّه لا قَدَر لنِعَمها في جَنْب أقلّ قليلٍ مِن نِعَم الآخرة.

عن النبيّ ﷺ، قال: «ما الدُّنيا في الآخرة إلّا مِثْل ما يجعَل أحدُكم إصْبعه في اليَمّ، فلينظُر ما[1] يرجِع!»[2].

﴿ثُمَّ﴾ بعدَ انْقِضاء أجَلهم يكون ﴿مَأْوَاهُمْ﴾ ومَنزِلهم إلىٰ الأبد ﴿جَهَنَّمُ﴾ يصلَونها ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ تِلك جهنم، وساء ما مَهَدوا وهيئوا لأنفسهم مِن النّار بسَبب كُفْرهم بالله، وحُبّهم للدُّنيا.

قيل: إنّ مُشركي مكّة كانوا يتَجِرون ويتنعّمون، وإنّ بعضَ المُسلمين كانوا يرَونهم في رَخاءٍ ولِين عَيْشٍ فيقولون: [إنّ] أعداءَ الله في ما نرىٰ مِن الخَير، وقد هلَكْنا مِن الجُوع والجَهْد، فنزلَتْ[3].

وقيل: إنّ اليَهُود كانت تضرِب في الأرض فتُصيب الأموال، فنزلَتْ[4]، فبيّن الله تعالىٰ أنّ الدُّنيا معَ قِلّتها وخَساستها مُورِثة للعَذاب الدّائم. ومِن الواضِح أنّ النِّعمة القليلة لا تُعدّ نِعمةً إذا كانت مُستتبِعة للمَضرّة الشّديدة، بَل يجِب علىٰ العاقِل أن يتحرّز مِنها، ويفِرّ عنها.

لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِنْ عِندِ ٱللهِ وَمَا عِندَ ٱللهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ[١٩٨]

ثمّ أتبَع الله سُبحانه وَعيد الكُفّار المُنهمِكين في حُبّ الدُّنيا بوَعْد المُؤمنين المُهتمّين بأمور الآخرة، بالثّواب العظيم، وبيّن حُسْن حالهم فيها، غِبّ[5] بيان كرّر ذِكْره إثْر ما قرّر، معَ زِيادة بَيان خُلودهم في الجنّات العالية والنِّعَم الباقية، ليتِمّ بذلك سُرورهم، ويتزايد به إيضاح سُوء حال مُخالِفيهم، بقوله: ﴿لَـٰكِنِ﴾ المؤمنون ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا رَبَّهُمْ﴾ وخافُوا مِن عِصيان مَليكهم، واحترَزوا عن الإشراك به

---

١. في تفسير أبي السعود: بم.
٢. تفسير أبي السعود ٢: ١٣٥.
٣ و٤. تفسير الرازي ٩: ١٥٢.
٥. الغِبّ: بمعنىٰ بَعْدَ.

والكُفران لنِعَمه، يكون ﴿لَهُمْ﴾ خاصّة بالاستِحقاق ﴿جَنَّاتٌ﴾ عديدة، وبَساتين عالية ذَوات أشجار وَفيرة ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ﴾ الكثيرة، حال كَوْنهم ﴿خَالِدِينَ﴾ ومُقيمين ﴿فِيهَا﴾ أبداً، آمِنين مِن الخُروج مِنها، وتكون تِلك النِّعَم العظيمة ﴿نُزُلاً﴾ وتَهْيئةً تَشْريفيّة ﴿مِنْ عِندِ ٱللهِ﴾ للنّازلين عليه، والوَافدين لَدَيه.

وقيل: إنّ المُراد أنّها تكون رِزْقاً وعَطاءً لهم مِن فَضله.

﴿وَمَا﴾ هُو مَذخُور ﴿عِندَ ٱللهِ﴾ وفي خَزائن رَحمته مِن النِّعَم ﴿خَيْرٌ﴾ وأنفع: لكَثْرتها ودَوامِها، وخُلُوصها مِن شَوْب المَكاره ﴿لِلْأَبْرَارِ﴾ والمُطيعين لله، مِمّا يتقلّب فيه الكُفّار، ويكتسبون مِن الأموال، ويتمتّع به الفُجّار، وينتفِعون مِن مَتاع الدُّنيا؛ لقِلّته، وسُرعة زَواله، وشَوْبه بأنواع المَكاره والآلام، معَ وخَامة تَبِعاته ووَباله.

عن ابن مَسعود ﷺ: ما مِن نَفس بَرّة ولا فاجِرة إلّا والموت خَيرٌ لها، أمّا البَرّة فإنّ الله تعالىٰ يقول: ﴿وَمَا عِندَ ٱللهِ خَيرٌ للأَبرَارِ﴾ وأمّا الفاجرة فإنّه يقول: ﴿إِنَّما نُمْلِي لَهُم لِيَزْدادُوا إِثْماً﴾[1].

وعن ابن الخطاب، قال: جئتُ فإذا رَسُول الله ﷺ في مَشْربة[2]، وإنّه لعلىٰ حَصيرٍ ما بَيْنه وبَيْنه شيءٌ، وتحتَ رأسه وِسادة مِن أدم حَشْوها لِيف، وعندَ رِجْلَيه قَرظاً مصبوراً[3]، وعندَ رأسه أهُب[4] مُعلّقة، فرأيتُ أثَر الحَصير في جَنْبه فبكيتُ، فقال ﷺ: «ما يُبكيك؟» فقلتُ: يا رَسُول الله، إنّ كِسرىٰ وقَيْصر فيما هُما فيه، وأنت رَسُول الله! فقال: «أما ترضىٰ أن تكون لهُما الدُّنيا ولنا الآخِرة»[5].

وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ ٱللهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ ٱللهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ[١٩٩]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَما بيّن سُوء حال الكُفّار، الذين مِنهم أهل الكتابين، بشّر بحُسْن حالم مَن آمن مِنهم بدِين الإسلام، بقوله: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ﴾ الّذين دَخلوا في دِين الإسلام عن صَميم القَلب، كعبدالله بن سَلام وأضرابه ﴿لَمَن يُؤْمِنُ باللهِ﴾ ويُصّدق بوَحدانيّته ﴿وَ﴾ يعترِف بأنّ ﴿مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ مِن الدِّين والقُرآن حَقّ، وأنّهما مِن الله.

---

١. تفسير روح البيان ٢: ١٥٤، والآية من سورة آل عمران: ٣/١٧٨.
٢. المَشْربة: الغرفة.
٣. القَرظ: ورق السَّلَم يُدبغ به، ومصبور، أي مجموع مكوّم.
٤. الأهُب: جمع إهاب، وهو الجلد قبل الدّبغ.
٥. تفسير روح البيان ٢: ١٥٤.

وتقديمه[١] علىٰ قوله: ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم﴾ مِن الكِتابَين، في الذِّكر - معَ أنّ الأمر في الوُجود بالعَكس - للإشعار بأشرفيّة الإيمان بالأول مِن الثّاني، وأنّ الإيمان بالكِتابين مُتوقّف علىٰ ثُبوتهما بالقُرآن، لانْقِطاع التّواتُر عنهما، وثُبوت التّحريف فيهما، حَسَب ما حُقّق في مَحلّه، فلَو لم يكُن إخبار القُرآن بكَوْنهما مِن عندِ الله لَم يكُن طَريقٌ إلىٰ الإيمان بهما.

ثمّ وَصَفهم الله بكونهم ﴿خَاشِعِينَ﴾ مُتواضعين ﴿لِلَّهِ﴾ خَوفاً مِن عِقابه وطمعاً في ثَوابه، أو تَعْظيماً له، وبكَوْنهم ﴿لَا يَشْتَرُونَ﴾ ولا يستبدِلون ﴿بِآيَاتِ ٱللَّهِ﴾ المُنَزلة في الكِتابَين ﴿ثَمَناً قَلِيلاً﴾ وعِوضاً يسيراً، ولايُحرّفونهما، ولا يكتُمون مافيهما مِن شَواهد نُبوّة مُحمّد ﷺ اسْتِجلاباً لحُطام الدُّنيا، وحِفظاً لرئاستهم، كما هُو دأب مَن لَم يسلَم مِن أحبارهم وقسّيسيهم ﴿أُوْلَٰئِكَ﴾ المُتّصفون بهذه الصِّفات الكريمة الفائِقة ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ العظيم المَوعود، وثَوابهم المَذخُور ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ اللَطيف بهم، يصِل إليهم في الآخِرة بلا تأخير ولا تَسْويف، بسَبب طُول الحِساب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلحِسَابِ﴾ لسَعَة عِلْمه بجميع الأشياء، فلا حاجة له في تَعْيين جَزاء العاملين إلىٰ فِكْر ووَعْي صَدر، ومُدّة وتَحقيق وكُتُب، فيكون أجر كُلّ أحد سَريع الوُصول إليه.

عن ابن عبّاس: أنّها نزلَتْ في النّجاشي، فإنّه لمّا مات نَعاه جَبْرئيل للنبيّ ﷺ فقال ﷺ لأصحابه: «اخْرُجوا فصلُّوا علىٰ أخٍ لكم مات بغيرِ أرضكم»، فخرَج إلىٰ البقيع، ونظَر إلىٰ أرض الحَبَشة فأبصَر سَرير النّجاشي، وصلّىٰ عليه واسْتغفر له، فقال المُنافقون: انظُروا إلىٰ هذا، يُصلّي علىٰ عِلْج[٢] نَصراني لَم يرَه قَطّ، وليس علىٰ دِينه، فنزلَتْ[٣].

وقيل: نزلَتْ في أربعين رَجُلاً مِن أهل نَجْران، وآثنين وثلاثين رَجُلاً مِن الحَبَشة، وثمانية مِن الرُّوم، كانوا علىٰ دِين عيسىٰ عليه السلام فأسلموا[٤].

وقال بعضٌ: نزلَتْ في مُؤمني أهل الكِتاب كُلّهم[٥].

يَـا أَيُّـهَا ٱلَّـذِينَ آمَـنُوا ٱصْـبِرُوا وَصَـابِرُوا وَرَابِـطُوا وَٱتَّـقُوا ٱللَّهَ لَـعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ[٢٠٠]

ثمّ أنّه تعالىٰ لمّا ذكَر في السُّورة المُباركة كثيراً مِن الأُصول كالتوحيد والعَدْل والنُّبوّة والمَعاد، وكثيراً مِن الفُروع كالحَجّ والجِهاد وغيرِهما، ختَمها ببَيان ما يُوجب المُحافظة عليها، والقِيام بالعمَل بها،

---

١. أي تقديم قوله تعالى: ﴿ما أنزل إليكم﴾ على قوله تعالى: ﴿وما أُنزل إليهم﴾.   ٢. العلِج: الكافر من العجم.
٣ - ٤) مجمع البيان ٢: ٩١٦.

بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا﴾ علىٰ مَشاقّ التكاليف، وما يُصيبكم مِن الشدائد كالقَحط، والفَقر، والبَلايا، والأمراض، وسائر المَصائب، أو علىٰ أداء الواجبات ﴿وَصَابِرُوا﴾ في قِتال أعداء الله في مَواطن الحُروب، وفي أداء حُقوق النّاس وتحمّل المَكاره مِنهم، أو علىٰ تَرك المُحرّمات. وتَخْصيص المُصابرة بالأمر بعدَ الأمر بمُطلق الصَبْر، لاختِصاصها بمَزيد التَعَب والمَشقّة.

عن القُمّي: عن الصادق عليه السلام: «اصْبِروا علىٰ المَصائب، وصابِروا علىٰ الفَرائض»[1].

وعن العيّاشي: عنه عليه السلام: «اصْبِروا علىٰ المعاصي، وصابِروا علىٰ الفرائض»[2].

وفي رِوايةٍ: «اصْبِروا علىٰ دِينكم، وصابروا عَدُوّكم مِمّن يُخالِفكم»[3].

وعن (المعاني): عنه عليه السلام: «اصْبِروا علىٰ المَصائب، وصابِروهم علىٰ الفتنة»[4].

وعن الباقر عليه السلام: «وصابِروهم علىٰ التقيّة»[5].

﴿وَرَابِطُوا﴾ علىٰ الأئمّة، كما عن الصادق عليه السلام[6]. وفي رِوايةٍ أُخرىٰ: «ورابطوا إمامكم»[7]. وفي أُخرىٰ: «رابطوا علىٰ ما تَقتدون به»[8].

أو المُراد: رابِطوا الصَلوات، أي انْتظِروها واحدةً بعدَ واحِدة، كما عن أمير المُؤمنين عليه السلام، مُعلِّلاً بأنّ المُرابطة لَم تكن حينئذٍ[9].

وعن أبي سَلَمة، أنّه قال: لَم يكُن في زمَن النبيّ صلّى الله عليه وآله غَزْوٌ يُرابَط فيه، وإنّما نزلَتْ هذه الآية في انْتظار الصَلاة بعدَ الصَلاة[10].

ونُقل أنّه ذُكِر انتِظار الصَلاة بعدَ الصَلاة، فقال أبو هُرَيرة: فذلِكُم الرِّباط، ثلاث مرّات[11].

ويُحتمل إرادة القَدَر المُشترك بيْن المَعاني المَذكورة، ويُؤيّده ما عن النبيّ صلّى الله عليه وآله أنّه قال: «مِن الرِّباط انتِظار الصَلاة بعدَ الصَلاة»[12].

ويُحتمل أنّ يكون المعنىٰ: أقيموا في الثُّغُور رَابطين خَيْلكم فيها، مُترصِّدين للغَزْو والجِهاد، كما هُو ظاهِر اللّفظ عندَ العُرْف.

عن القُمّي رحمه الله: عن السجاد عليه السلام: «نزلَتْ في العبّاس وفينا، ولمَ يكُن الرِّباط الذي أُمرنا به، وسيكون

---

١. تفسير القمي ١: ١٢٩، تفسير الصافي ١: ٣٨٠.
٢. تفسير العياشي ١: ٨٣٦/٣٥٨، تفسير الصافي ١: ٣٨٠.
٣. تفسير العياشي ١: ٨٣٨/٣٥٩، تفسير الصافي ١: ٣٨٠.
٤. معاني الأخبار: ١/٣٦٩، وفيه: علىٰ التقية، تفسير الصافي ١: ٣٨٠.
٥. معاني الأخبار: ١/٣٦٩، عن الصادق عليه السلام، تفسير الصافي ١: ٣٨٠.
٦. الكافي ٢: ٣/٦٦، تفسير الصافي ١: ٣٨٠.
٧. تفسير العياشي ١: ٨٣٨/٣٥٩، تفسير الصافي ١: ٣٨٠.
٨. معاني الأخبار: ١/٣٦٩، تفسير الصافي ١: ٣٨٠.
٩. مجمع البيان: ٩١٨، تفسير الصافي ١: ٣٨١.
١٠ و١١. تفسير الرازي ٩: ١٥٦.
١٢. مجمع البيان ٢: ٩١٨، تفسير الصافي ١: ٣٨١.

مِن نَسْلنا المُرابط، ومِن نَسْله المُرابط»[١]. انتهىٰ.

والظّاهِر أنّ المُراد: المُرابطة في زَمان القائم المُنتظر صَلَواتُ اللهِ عليه.

ثمّ ـ لمّا كان الإقدام علىٰ تِلك المَشقّات، والتّحمُّل لهذه المَرارات شديداً علىٰ النّفس، مُحتاجاً إلىٰ قُوّة الدّاعي ـ ذكَر الله تعالىٰ أقوىٰ الدّواعي، وهُو التّقوىٰ والخَوف مِن الله، بقوله: ﴿وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾ وخَافوه في مُخالفة أوامره وأحكامه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وكَيْ تفوزوا بأعلىٰ المَقاصد مِن النّجاة مِن النّار، والتّنعُّم والرّاحة في دَار القرَار.

عن النبيّ ﷺ: «ألَا أدلّكم علىٰ ما يمحُو الله به الخَطايا، ويرفَع به الدَّرَجات؟». قالوا: بلىٰ يا رَسُول الله، قال: «إسباغ الوُضوء علىٰ المَكاره، وكَثْرة الخطىٰ إلىٰ المَساجد، وانتِظار الصّلاة بعدَ الصّلاة، فذلِكم الرِّباط»[٢].

ونُقل عن أصحاب التذْكير أنّهم قالوا: إنّ المُراد مِن الآية المُباركة: اصْبِروا عندَ قِيام اليقين علىٰ احْتِمال الكَرْب، وصابِروا علىٰ مُقاساة العَناء والتّعَب، ورابِطوا في دِيار أعدائي بلا هَرَب، واتّقوا الله في الالْتِفات إلىٰ السّبب، لعلّكم تُفلِحون غداً بلِقائي علىٰ نَشاط وطَرَب.

وقال السرقسطي: اَصْبروا علىٰ الدُّنيا رجَاءَ السّلامة، وصابِروا عندَ لِقاء أعدائي بالثّبات والاسْتِقامة، ورابِطوا هَوىٰ النّفس اللّوامة، واتّقوا ما يُعقِب النّدامة، لعلّكم تُفلحون غداً علىٰ بِساط الكَرامة.

وقيل: اصْبروا علىٰ النّعماء، وصابِروا علىٰ البأساء والضّرّاء، ورابِطوا في دَار الأعداء، واتّقوا إلٰه الأرض والسّماء، لعلّكم تُفلحون في دَار البقاء.

وقيل: اصبِروا علىٰ مَضَض الطّاعات، وصابِروا علىٰ رَفْض العَادات، ورابِطوا السِّرّ علىٰ جَناب واهِب العَطِيّات، واتّقوا الله بالتبرّي مِمّا سِواه مِن الكائِنات، لعلّكم تُفلحون في الدُّنيا بأعلىٰ المَقامات، وفي الآخرة بأرفع الدَّرَجات.

أقول: اعْلَم أنّ القَلب الإنساني إذا زَكا بالرِّياضة ـ مِن الصّبْر علىٰ الطّاعة، وتَرك اتِّباع الهَوىٰ، وقَطع عَلاقة الدُّنيا، والمُصابرة علىٰ البأساء والضّرّاء، والثّبات في مُكايدة الأعداء، وتحمّل الشّدائِد في سَبيل الله وفي تَحْصيل رِضاه ـ ونَقِيَ عن النِّفاق وخَبائث الأخلاق، وطَهُر عن دَنَس الشَّهَوات بالتّقوىٰ، يُفاض عليه أوّلاً خَواطر الخَيْر، ونُور الهِداية إلىٰ حَقائق الأمور مِن خَزائِن المَلكُوت وعالَم الجَبَروت، فيصرِف عَقْلَه إلىٰ التّفكُّر في ما فيه خَيْره وصَلاحه، وما به كمال نَفسه، والقُرب إلىٰ رَحمة ربّه، والنّظَر في مُقدّماته ومُحصّلاته، فعندَ ذلك يطّلِع علىٰ أسرار الطّاعات، وينكشِف له بنُور البَصيرة حَقائق

---

١. تفسير القمي ٢: ٢٣، تفسير الصافي ١: ٣٨٠.
٢. تفسير روح البيان ٢: ١٥٧.

الخَيْرات والحَسَنات، فيُلزِمه عَقلُه بفِعْلها، ويزجُره عن أضدادها مِن الشُّرور والقَبائح، فيتقرَب إلىٰ كُلّ خَيْر ويلتزِم به، ويتَباعد عن كُلّ سُوء ويجتَنِب عنه.

فإذا نظَر المَلَك المُرشِد والمُعلِّم للحَقائق إلىٰ هذا القَلب ـ المُعَبّر عنه بالنَفس النّاطقة ـ ووَجده طَيّباً بجَوْهره، طاهِراً بتَقْواه، نقِيّاً مِن خَواطر السُّوء، مُستنيراً بضِياء العَقْل، أفاض عليه أنوار المَعرِفة والحِكْمة والهُدىٰ، وأيّده بجُنودٍ لا تُرىٰ، وأرشده إلىٰ خَيْراتٍ اُخرىٰ، وسدّده بإلهاماتٍ تَتْرىٰ فيُشرِق في تِلك اللَطيفة[١] الرّبانيّة حِيناً بعدَ حِين نُورٌ علىٰ نُور، مِن مِشكاة نُور الأنوار، حتّىٰ لا يبقىٰ فيه مِن ظُلمة الشِّرك شيءٌ، ولَو كان أخفىٰ مِن دَبيب النَملة السَوداء، في اللّيلة الظَّلْماء، علىٰ الصَخْرة الصَماء، فلا يؤثّر فيه شيءٌ مِن مَكائد الشّيطان ودَسائسه، ولا يلتفِت إلىٰ حِيَله ومَكائده، بَل يتوجّه بشَراشِره[٢] إلىٰ ربّه، ويستغرِق بكُلّه في ذِكْره.

وهذا هُو معنىٰ الفَلاح الحَقيقي في الدُّنيا المُستعقِب للفَلاح الأبدي في الآخِرة مِن الرّحمة والرِّضْوان، والنِّعَم الدَائمة الباقية في الجِنان، ومُرافقة الأنبياء والشُّهداء، ومُصاحبة الأولياء والصُّلَحاء، كما قال سُبحانه وتعالىٰ: **﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَةُ * ارْجِعِى إلىٰ رَبِّكِ رَاضِيةً مَرْضِيّةً * فَادْخُلِى فِى عِبادِى * وَٱدْخُلِى جَنّتى﴾**[٣].

وإنّما قال سُبحانه: **﴿لَعَلّكُم تُفْلِحُون﴾**، ولَم يقُل: كَي تكونوا مُفلحين، إشعاراً بأنّ الإنسان ما دَام فيه الرُّوح، ويكون في عالَم الطَبيعة، من قِبَل النَفس الأمّارة، وشَياطين الإنْس والجِنّ، في خَطَرٍ عظيم وإنْ كان مِن المُخلصين، فإذا فارَق الدُّنيا مُقالاً مِن الزّلّات، سَليماً مِن الهفوات[٤] بتأييد الله وتَوْفيقه، حتَم له الفَلاح وأتقن[٥] به، كما قال سُبحانه: **﴿قَدْ أَفلَحَ الْمُؤمِنُونَ﴾**[٦].

فعلىٰ العَبد المُؤمن أن يكون خائفاً مِن مَكائد الشَياطين المُغوِيةَ وَغَلبة الهَوىٰ المُردِية، في جميع حالاته وآناتِ عُمره، ويستعِيذ بالله السَميع العَليم مِن شَرّ أعدىٰ عَدُوّه، ويلتجِئ إلىٰ ربّه، ويتضَرع إليه أنْ يحفَظه مِن الضَلال وسَيِّئات الأعمال بلُطْفه وعِنايته، وأن لا يخذُله بإيكاله إلىٰ نَفسه.

قال سُبحانه: **﴿إنَّ الشَّيطَانَ لَكُم عَدوٌّ فاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إنَّمَا يَدعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِن أصحَابِ السَّعِير﴾**[٧]، وقال: **﴿وَلَولَا فَضْلُ ٱللهِ عَلَيْكُم وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيطانَ إلَّا قَلِيلاً﴾**[٨]، وقال: **﴿وَلَولَا فَضْلُ ٱللهِ عَلَيكُم وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلَكِنّ ٱللهَ يُزَكِّى مَن يَشَاءُ﴾**[٩].

---

١. أي القلب.
٢. شراشر القلب: أطرافه، أو كُلّ القلب بجملته.
٣. الفجر: ٨٩/ ٢٧ ـ ٣٠.
٤. في النسخة: الهوات.
٥. كذا، والظاهر: وأيقن.
٦. المؤمنون: ١/٢٣.
٧. فاطر: ٦/٣٥.
٨. النساء: ٨٣/٤.
٩. النور: ٢١/٢٤.

فلْيَحذَرْ العَبدُ أنْ يعجَب بنفسه، ويغْتَرّ بعَمَله، ويأمَن مِن زَلّله، إلىٰ زمان حُلول أجله. لقد كان في قَصَص كَثيرٍ مِن العِباد عِبْرةٌ لأولي الألباب.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِى آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[١]، إلىٰ أن قال: ﴿مَن يَهْدِ ٱللهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى وَمَن يُضْلِلْ فَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ﴾[٢].

ولِذا ورَد الأمر بالإكثار مِن قَول: ﴿رَبّنا لا تُزِغ قُلُوبنَا بَعدَ إذْ هَدَيتنا﴾[٣] إلىٰ آخِر الآية.

عن النبيّ ﷺ: «مَنْ قرأ سُورة آل عِمران أُعْطِي بكُلّ آيةٍ مِنها أماناً علىٰ جِسر جَهنّم»[٤].

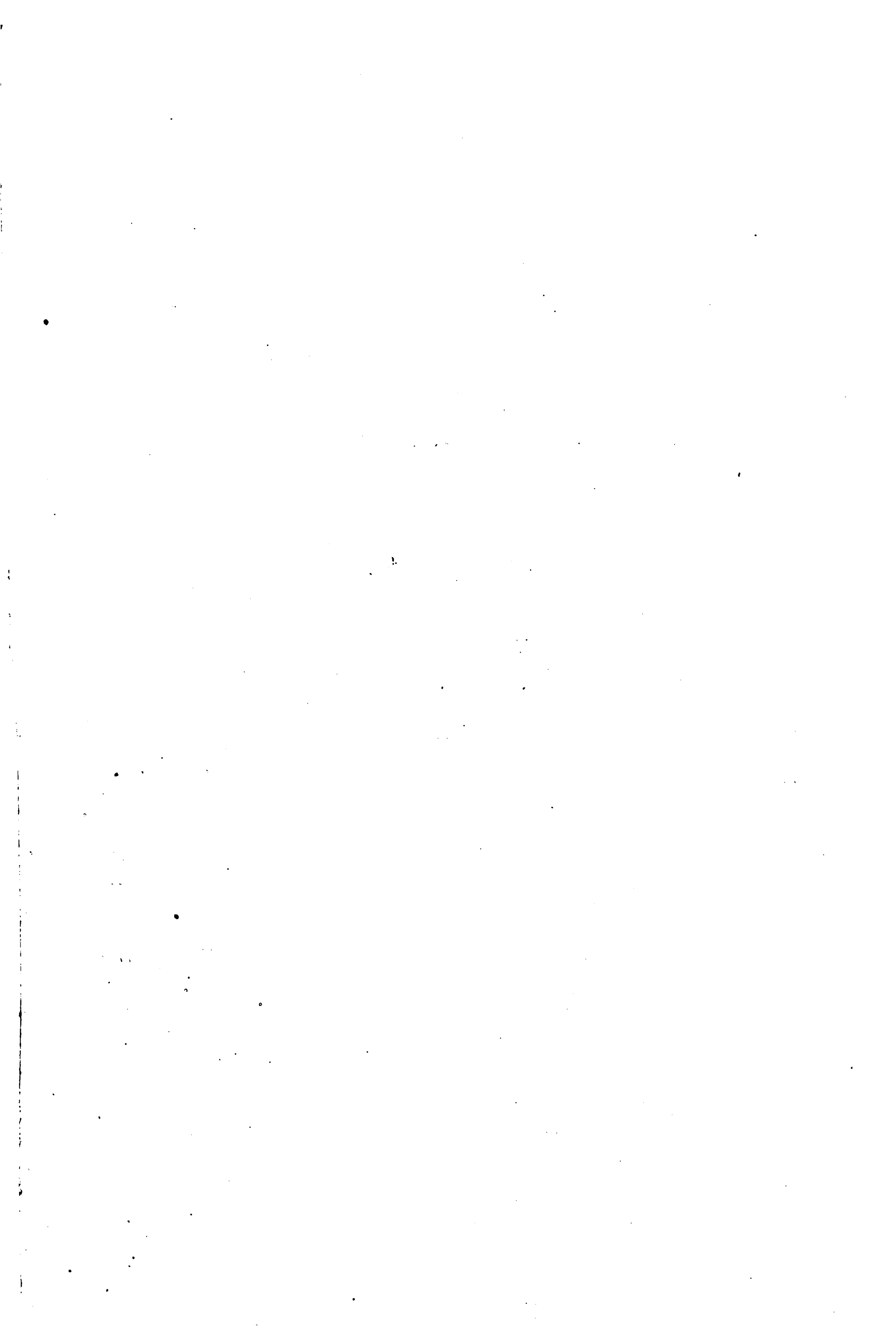
وعنه ﷺ: «مَنْ قرأ السُّورة التي يُذكَر فيها آلُ عِمران يومَ الجُمعة صلىٰ الله عليه ومَلائكتُه حتّىٰ تَحْتجِب الشّمس»[٥].

وفّقنا اللهُ وجميعَ المُؤمنين لأداء حَقّه.

---

١. الأعراف: ١٧٥/٧ و١٧٦. ٢. الأعراف: ١٧٨/٧. ٣. آل عمران: ٨/٣.

٤ و٥. تفسير البيضاوي ١: ١٩٨.



في تفسير سورة النساء

بسم الله الرحمن الرحيم

يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَٱتَّقُوا ٱللهَ ٱلَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً[١]

في وجه نظم سورة النساء

ثمّ أُردِفت السّورتان ـ المُتَضمّنتان لإثبات التّوحيد، والرّسالة، ومُحاجّة اليَهود والنّصارىٰ، وبَيان مُهمّات حُقوق الله، كوجُوب الصّلاة، والصّوم، والزّكاة، والحَجّ، والجِهاد، وأمثال ذلك ـ بسُورة النِّساء المُشتمِلة لبيان مُهمّات حُقوق النّاس، كاليَتامىٰ والأزواج والسُّفَهاء والوُرّاث وغيرِ ذلك، فافتَتَحها بالبَسْملة ليتعلّم العِباد التبرُّك بها عندَ الشُّروع في كُلّ أمرٍ ذِي بال.

ثمّ لمّا ختَم سُورة آل عِمران بآيةٍ فيها الأمر بالتّقوىٰ مُعلّلاً برَجاء الفَلاح في المَعاد ـ ولِذا خاطَب المُؤمنين بالمَبدأ والمَعاد لتوقُّف هذا الرّجاء علىٰ الإيمان بهما ـ أكّد ذلك الأمر بالتّقوىٰ ثانياً مُعلّلاً بمَعرفة المبدأ، والخَوف مِن سَعَة قُدْرة الله، ونُفوذ إرادته، ولذا خاطَب جميعَ النّاس بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ الظّاهِر في إرادة جميع المَوجُودين مِنهم في زَمان الخِطاب، وإن قال ابن عبّاس: إنّه خِطابٌ لأهل مكّة[١]. وعليه يشترِك مَعهم غيرُهم، وإن كانوا مَعدُومين في الحُكْم الذي ذكَره تعالىٰ بقوله: ﴿ٱتَّقُوا﴾ وخَافوا ﴿رَبَّكُمُ﴾ ومُكمِّل وُجودكم، في مُخالفة أحكامه التي سيُبيّنها لكم وغيرِها.

وفي تَوْصيف ذاته المُقدّسة بالرُّبوبيّة تَنْبيهٌ علىٰ كَمال رَأفته وقُدْرته، اللّتَين هُما عِلّتان تامّتان للقِيام إلىٰ طاعته والاجْتِناب عن مَعْصيته.

في مبدأ خلق حوّاء

ثمّ بالغ في تَعريف رأفته وقُدْرته بتَوْصيف ذاته المُقدّسة بقوله: ﴿ٱلَّذِى﴾ بجُوده وحِكْمته ﴿خَلَقَكُم﴾ وقدّر وُجودكم الذي هُو أصل النِّعَم وأعاليها، المُوجِب لغاية

---

١. تفسير الرازي ٩: ١٥٧.

الشُّكر، والتمحُّض للطّاعة، والقِيام بوَظائِف العُبوديّة.

ثمّ لمّا كان التّرهيب أدخَلَ مِن التّرغيب في البَعْث على امْتِثال التّكاليف، وتحمُّل المَشاقّ، أوضحَ كمال قُدْرته بقوله: ﴿مِن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ وشَخْصٍ فارِدٍ، كان إيجاد جميع الخَلائق التي لا تُحصىٰ كَثرةً [مِنه] وهُو آدم.

عن ابن عبّاس ﵁: سُمّي به لأنه خُلِق مِن أديم الأرض كُلّها، أحمرها وأسودها، طيِّبها وخَبيثها، فلذلك كان في وُلْده الأحمر والأسود، والطَّيِّب والخَبيث[١].

أقول: يُمكِن كَوْن المُراد مِن الأحمر والأبيض؛ لإنّه[٢] مِن الأضداد.

عن الصادق ﵇: «إنّ الله خلق آدم مِن الماء والطِّين، فهِمّة ابن آدم في الماء والطين»[٣].

ثمّ قرّر سُبحانه انْتِهاء الخَلْق إلىٰ أصلٍ واحِد، ونفسٍ واحِدة، بقوله: **﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ حَوّاء**، فزوّجها مِن فَرْعها، فلا يُتوهّم أنّ الخَلْق كان مِن أصلَين، ومِن نَفْسين.

عن الصادق ﵇، في رِوايةٍ: «أنّ الله خلَق حَوّاء مِن آدم، فهِمّة النِّساء في الرِّجال»[٤].

عن القُمّي: «بَرَأها مِن أسفل أضلاعه»[٥].

عن العَيّاشي: عن أمير المؤمنين ﵇، قال: «خُلِقت حَوّاء مِن قُصَيْرىٰ جَنْب آدم ـ والقُصَيْرىٰ: هُو الضِّلْع الأصغر ـ فأبدَل الله مَكانه لَحْماً»[٦].

وعن النبيّ ﷺ: «أنّ المَرأة خُلِقت مِن ضِلْعٍ أعْوج، فإنْ ذهبْتَ تُقيمها كسَرْتَها، وإن تركْتَها وفيها عِوَج استمتعتَ بها»[٧].

وعن ابن عبّاس ﵁، في رِوايةٍ: وإنّما سُمِّيت المَرأة بحَوّاء؛ لأنّها خُلِقت مِن ضِلْعٍ مِن أضلاع آدم، فكانت مَخلوقة مِن شيءٍ حَيّ، فلا جَرَم سُمِّيت بحَوّاء[٨].

ورَواها في (معاني الأخبار) أيضاً[٩].

في بيان حكمة خلق حــوّاء مـن الضِّـلع الأيسر

ولعَلّ حِكْمة جَعْل مَبدأ خَلْق حَوّاء الضِّلْع الأيسر، تأثيرُه في تعطُّف الزّوج بالزّوجة[١٠]، وحَصول الألْفة بَيْنهما، وتعلُّق قَلب الزّوج بها، ويُسْر دُخولها تحتَ يَد الزوّج وسُلطانه، وتَمْكينها مِن مُضاجعة الزّوج: حيثُ إنّ الضِّلْع الأيسر جُزءٌ مُنعطِف

---

١. تفسير الرازي ٩: ١٦١.
٢. كذا، والظاهر: أنّه.
٣ و٤. تفسير العياشي ١: ٨٤٦/٣٦١، تفسير الصافي ١: ٣٨٢.
٥. تفسير القمي ١: ١٣٠، تفسير الصافي ١: ٣٨٢.
٦. تفسير العياشي ١: ٨٤٤/٣٦١، تفسير الصافي ١: ٣٨٢.
٧ و٨. تفسير الرازي ٩: ١٦١.
٩. معاني الأخبار ١/٤٨.
١٠. كذا، والظاهر: على الزوجة.

واقِعٌ في الجَنْب، قَريبٌ مِن القَلب، تحتَ اليَد اليُسرىٰ التي بها تبطِش بالأمور السَهلة، ويُنام عليه غالباً، هذا هُو المشهُور بيْن العامّة، وعليه جُلّ مُفسِّريهم.

وفي عِدّة رِوايات ـ مِن طُرُق الخاصّة عن الصادِقَين عليهما السلام ـ تَكْذيبه، وتأويل الضِّلْع الأيسر بالطِّينة التي فضَلت مِن ضِلْعه الأيسر.[1] ورَدّ عِلْمه إلىٰ الرّاسخين في العِلْم أولىٰ ـ بعدَ عدَم حُجِّيّة أمثال هذه الرِّوايات التي لا رَبْط لها بالحُكم الشّرعي ـ مِن تكلُّف الجَمْع بيْنهما بما في حاشِية (أسرار التنزيل)[2]، وتَبِعه الفَيض في (الصّافي)[3].

في تزويج حوّاء من آدم

ثمّ أنّه رُوي عن الصادق عليه السلام: «أنّ الله تبارَك وتعالىٰ لمّا خلَق آدم مِن طِين، وأمر المَلائكة فسَجدوا له، ألقىٰ عليه السُّبَات، ثمّ أبدع له حَوّاء، فجعَلها في مواضع النُّقْرة التي بين وِرْكَيه، لكَي تكون المَرأة تَبَعاً للرّجُل، فأقبلَتْ تتحرّك فانْتَبه، فلمّا انْتبه نُوديتْ أن تَنَحّي عنه، فلمّا نظَر إليها نظَر إلىٰ خَلْق حَسَن يُشْبه صورته غيرَ أنّها أُنثىٰ، فكلّمها فكلّمتْه بلُغته، فقال لها: مَن أنتِ؟ فقالت: خَلْقٌ خلَقني الله كما ترىٰ، فقال آدم عندَ ذلِك: يا رَبِّ، مَن هذا الخَلْق الذِي آنسَني قُربُه والنَّظرُ إليه؟ فقال الله: يا آدم، هذه أَمَتي حَوّاء، أفتُحِبّ أن تكون مَعك فتؤنِسك وتُحدِّثك وتأتمِر لأمرك؟ فقال: نعَم يا رَبِّ، ولَك عَلَيَّ بذلك الشُّكر والحمْد ما بقِيتُ. فقال الله تبارَك وتعالىٰ: فاخْطُبها إلَيَّ فإنّها أَمَتي وقَد تصلُح لكَ أيضاً زَوجة للشَّهْوة.

وألقىٰ الله عليه الشَّهْوة، وقد علّمه قَبْل ذلك المَعرِفة بكُلّ شيءٍ، فقال: يا رَبِّ فإنّي أخطُبها إليك، فما رِضاك لذلك؟ فقال: رِضاي أن تُعلِّمها مَعالِم دِيني. فقال: ذلك لكَ يا رَبِّ عَلَيَّ، إنْ شِئْتَ ذلك فيّ[4]، فقال: قد شِئتُ ذلك، وقد زوّجتُكما، فضُمّها إليك، فقال لها آدم: إلَيَّ فاقْبِلي. فقالت: لا، بَل أنتَ فاقْبِل إلَيَّ، فأمر الله تعالىٰ آدم أن يقوم إليها فقام، ولَولا ذلك لكان النِّساء يذهَبْنَ حتّىٰ يخطُبْنَ علىٰ أنفُسهنّ»[5].

وفي (الاحتجاج): عن السّجاد عليه السلام يحدّث رَجُلاً مِن قُريش، قال: «لمّا تابَ الله علىٰ آدم واقَع حَوّاء، ولَم يكن غَشِيَها منذُ خُلِق وخُلقتْ إلّا في الأرض، وذلك بعدما تاب الله عليه، وكان آدم يُعظِّم البيت وما حوله مِن حُرْمة البيت، فكان إذا أراد أن يغشىٰ حَوّاء خرَج مِن الحَرَم وأخرجها معه، فإذا

---

١. تفسير العياشي ١: ٨٤٩/٣٦٣، من لايحضره الفقيه ٣: ١١٣٥/٢٤٠، تفسير الصافي ١: ٣٨٣.
٢. يريد أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي، والحاشية للشيخ البهائي، ذكرها المؤلف ضمن مصادر هذا التفسير.
٣. تفسير الصافي ١: ٣٨٣.
٤. في من لا يحضره الفقيه: لي.
٥. علل الشرائع: ١/١٧، من لا يحضره الفقيه ٣: ١١٣٣/٢٣٩، تفسير الصافي ١: ٣٨٢.

جاز الحَرَم غَشِيهَا في الحلّ، ثمّ يغتسلان إعظاماً مِنه للحَرم». الخبر[١].

فتناسَلا ﴿وَبَثَّ﴾ الله ونشَر في الأرض ﴿مِنْهُمَا﴾ بالوِلادة ﴿رِجَالاً كَثِيراً﴾ بنيناً ﴿وَنِسَاءً﴾ كثيرة بَناتاً، وإنّما لَم يصِفهنّ بالكَثْرة لوضُوح أنّ الحِكْمة مُقتضية لكَوْنهن كثيرات[٢]، بَل أكثر.

ولمّا كان التَفرُّع والتّشعُّب مِن أُرُومة[٣] واحدة موجباً لرِعاية حُقوق النّاس سِيَما الأقارب، داعياً لحِفْظها، نبّه عليه تَوْطئةً للنَهي عن تَضْييعها، وإشعاراً بكمال الاهتِمام [بها]، كما يدُلّ جعَله قَريناً للنَهي عن تَضْييع حُقوق نَفسه، المُستفاد مِن إعادة الأمر بالتَقوىٰ تأكيداً، بقوله: ﴿وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾ في تَرك أداء حُقوقه. وذِكْر اسْم الجَلالة هُنا لتربية المَهابة.

في وجوب صلة الأرحام

ثمّ وصَف ذاته المُقدّسة بقوله: ﴿ٱلَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ﴾ فيما بيْنكم، وتقولون عندَ طلَب الحاجة مِن الغَير: أسألك بالله، للأشعار بأنّه كما تُعظّمونه بالسِنتكم وأقوالكم عَظّموه بطاعتكم وأعمالكم.

ثمّ عطَف عليه الأمر بحِفْظ حُقوق الأرحام بقوله: ﴿وَٱلْأَرْحَامَ﴾ والمُنتسِبين إليكم بالوِلادة اتّقوهم مِن أن تقطعونهم ـ كما عن الباقر[٤] عليه السلام ـ وتترُكوا رِعاية حُقوقهم.

عن الصادق عليه السلام: «هِي أرحام النّاس، إنّ الله أمر بصِلتها وعظّمها، ألا ترىٰ أنّه جعَلها معه»[٥].

وعن (الكافي): عنه، عن أمير المؤمنين عليه السلام، قال: «صِلُوا أرحامكم ولَو بالتّسليم»، ثمّ تلا هذه الآية[٦].

وعن (العيون): عنه عليه السلام: «أنّ الله أمرَ بثلاثة مقرون [بها] ثلاثة ـ إلىٰ أن قال ـ: وأمر باتّقاء الله وصِلَة الرَّحِم، فمَن لَم يصِلْ رَحِمه لَم يتّقِ الله»[٧].

وعن الرّضا، عن أبيه، عن آبائه، عن عليّ عليهم السلام، قال: «قال رَسُول الله صلى الله عليه وآله: لمّا أُسْرِي بي إلىٰ السَّماء رأيتُ رَحِماً مُعلّقة بالعَرْش تشكو رَحِماً إلىٰ ربّها، فقلت: كَم بَيْنَكِ وبَيْنها مِن أبٍ؟ فقالَتْ: نلتقي في أربعين أباً»[٨].

وعن القُمّي، قال: تَساءلون يومَ القِيامة عن التّقوىٰ هَل اتّقيتُم، وعن الأرحام هَل وصَلْتُموها؟[٩].

---

١. الاحتجاج: ٣١٤، تفسير الصافي ١: ٣٨٦.
٢. في النسخة: كثيرة.
٣. الأرومة: أصل الشجرة، والمراد أصل نسب الإنسان.
٤. مجمع البيان ٣: ٦، تفسير الصافي ١: ٣٨٧.
٥. الكافي ٢: ١/١٢٠، تفسير الصافي ١: ٣٨٧.
٦. الكافي ٢: ٢٢/١٢٤، تفسير الصافي ١: ٣٨٧.
٧. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١٣/٢٥٨، تفسير الصافي ١: ٣٨٨.
٨. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٥/٢٥٤، تفسير الصافي ١: ٣٨٨.
٩. تفسير القمي ١: ١٣٠، تفسير الصافي ١: ٣٨٧.

أقول: يُمكِن القول بشمول الآية لرَحِم آل محمد ﷺ ولو بالفحوىٰ والأوْلوِيّة، ويدلّ عليه ما رُوي عن الرضا عليه السلام: «أنّ رَحِم آل محمد: الأئمة عليهم السلام مُعلّقة بالعَرْش تقول: اللّهمّ صِل مَنْ وَصَلني، واقْطَع مَنْ قطَعني، ثمّ هِي جارية بعدَها في أرحام المُؤمنين»، ثمّ تَلا هذه الآية[1].

ثمّ وعَد [تعالىٰ] الثّواب علىٰ رِعاية الحُقوق، وأوعد علىٰ تَضْييعها، بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ وحَفيظاً، مُراقب لأعمالكم وأقوالكم، ومُطّلِع علىٰ ضمائِركم وسَرائركم، فيُجازيكم بها، إنْ خيراً فخيرٌ، وإن شرّاً فشرٌّ.

عن النبيّ ﷺ: «ما مِن شيءٍ أطِيعَ الله به أعجل ثواباً مِن صِلَة الرَّحِم»[2].

وعنه ﷺ: «أنّ الصَّدَقة وصِلة الرَّحِم يزِيد الله بهما في العُمْر، ويدفع بهما مِيتة السُّوء، ويدفع الله بهما المَحذور والمَكروه»[3].

وَآتُوا ٱلْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا ٱلْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً[٢]

ثمّ لمّا كان المَقصود الأهمّ في السُّورة المُباركة ـ كما ذكَرنا في وَجْه النَّظْم ـ بَيان أحكام حُقوق النّاس مِن الأرحام والضُّعَفاء والمُؤمنين، ولِذا بَدأ سُبحانه فيها بِذِكْر بَدْء خِلْقة البَشر، وكَوْن جميعهم مِن أصلٍ واحدٍ بَراعة للاستِهلال، وحَثّاً علىٰ الامتِثال، بدأ عند ذِكْر الأحكام بإيجاب رِعاية حُقوق أضعف النّاس وأحوَجهم إلىٰ الرِّعاية؛ وهُم الصِّغار الّذِين مات آباؤهم، لإظهار كمال العِناية بأمرهم ومُلابسَتهم بالأرحام، بقوله: ﴿وَآتُوا ٱلْيَتَامَىٰ﴾ أيّها الكافِلون لهم القَيِّمون بأُمورهم، بعَد بُلوغهم ورُشْدهم ﴿أَمْوَالَهُمْ﴾ وأملاكهم التي تكون عندَكم، بِلا نَقْصٍ وبَخْس.

وقيل: إنّ المُراد: اقْطعوا الطَّمَع عن أموالهم، وكُفُّوا عن التّعدِّي والتّفريط فيها.

﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا﴾ مالَهم ﴿ٱلْخَبِيثَ﴾ والمُحرّم عليكم ﴿بِالطَّيِّبِ﴾ والحَلال مِن أموالكم، بَل أعْطوهم أعيان أموالهم.

وقيل: هُو النّهي عن أخذ الرّفيع مِن أموالهم، وجَعْل الخَسيس مَكانه.

وقيل: إنّ المُراد: لا ترتزِقوا بأموالهم المُحرّمة، فينقطِع عنكم الرِّزْق الحَلال الذي قُدِّر لكم.

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ﴾ ولا تتصرّفوا فيها مُنضمّةً ﴿إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ﴾ بأن تخلِطوهما، فإنّ حُرْمة الحَرام لا تزول بخَلْطه بالحَلال.

---

١. الكافي ٢: ١٢٥/٢٦، تفسير الصافي ١: ٣٨٧.

٢ و٣. تفسير الرازي ٩: ١٦٦.

ثمَ أنّه تعالىٰ عَلّل رَدْعه عن صَرْف أموال اليَتامىٰ والانْتِفاع بها بجميع الوُجوه، بقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ﴾ عندَ الله ﴿حُوباً كَبِيراً﴾ وإثماً عظيماً، فيُعاقب عليه عِقاباً شديداً.

رُوي أنّها نزلَتْ في رَجُلٍ مِن غَطفان، كان مَعه مالٌ كثير لابن أخٍ له يتيم، فلمّا بلَغ طلَب المال فمنَعه عمُّه، فتراجعا إلىٰ النبيّ ﷺ، فنزلَتْ هذه الآية، فلمّا سمِعها العَمّ قال: أطعنا الله وأطعنا الرّسُول، نعُوذ بالله مِن الحُوْب الكبير، ودفَع إليه ماله، فقال النبي ﷺ: «ومَنْ يُوقَ شُحَّ نفسه، ويُطِع ربّه هكذا، فإنّه يحُلّ دَاره، أي جنّته» فلمّا قبض الصَّبيّ ماله أنفقه في سبيل الله، فقال ﷺ: «ثبَت أجرُ الغُلام[١]، وبقي الوِزْر علىٰ والده»[٢].

أقول: في نَهْيه تعالىٰ عن أكل مال اليتيم مُختلِطاً بمال نفسه، بعدَ النّهْي عن مُطلق التّصرُّف والتّبديل فيه، اشعارٌ بأنّ أكل مال اليتيم لَدىٰ اليَسَار أقبح وأشنع، وأمّا النّهْي عن التّبْديل ـ بِناءً علىٰ التّفسير الأوّل ـ فهُو مَخصوص بما لم يكُن فيه الغِبْطة لليتيم.

وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِى ٱلْيَتَامَىٰ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِنَ ٱلنِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا[٣]

ثمَ لمّا كان توَلّي أمر اليتيم وحِفْظ ماله في الأغلب لازماً لكَفالته وعِشْرته، ومِن المَعلوم أنّ للصغير غالباً اقْتِراحات علىٰ مَن هُو في حِجْره وتَربيتة، وكثيراً ما لا يَجُوز أو لا يُمكِن مُوافقته في مُراداته ومَسؤولاته، ولا يهتدي الرِّجال إلىٰ الحِيَل في صَرْفه عنها وتَرْضِية خاطِره، سيّما إذا كان لَجوجاً، سَيّء الخُلُق، فحينئذٍ قد لا يحلُم الوَلِيّ أو القَيِّم فيبتلي بضَربه وشَتْمه والتّعدِّي عليه، معَ أن مِن حُقوق الأيتام المُداراة معهم، فعلّم الله كافِليهم بطريق الأمْن مِن إيذائهم وظُلمهم؛ بقوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾ بسَبب قِلّة الحِلْم، وضِيق الصَدْر ﴿أَلَّا تُقْسِطُوا﴾ ولا تعدِلوا ﴿فِى﴾ شأن ﴿ٱلْيَتَامَىٰ﴾ الّذِين تَلُون اُمورهم، وتتكفّلون تَربيتهم ﴿فَانْكِحُوا﴾ وتزَوجوا ﴿مَا طَابَ لَكُم﴾ ومَنْ يُوافق مَيْل قُلوبكم ﴿مِنَ ٱلنِّسَاءِ﴾ فإنّ شأنهُنّ حَضانة الأطفال، والرِّفْق بهم، والمُداواة معهم[٣]، والتّدبير في رِضايتهم، وإعمال الحِيَل في صَرْفهم عن اقْتِراحاتهم، وإسكاتهم عن البُكاء بأفعالٍ مُضحِكة، وأصواتٍ هائلة، ونَغَماتٍ مُلهِية، وكلماتٍ لاغِية.

---

١. في تفسير الرازي: «ثبت الأجر وبقي الوزر» فقالوا: يا رسول الله، لقد عرفنا أنه ثبت الأجر، فكيف بقي الوزر وهو ينفق في سبيل الله؟ فقال: ثبت أجر الغلام...

٢. تفسير الرازي ٩: ١٦٩.

٣. كذا، والظاهر: مداراتهم.

ومن الواضِح أنّ التّصبيّ وارْتِكاب أمثال ذلك، في غاية الصُّعوبة علىٰ الرِّجال لأكمليّة عُقولهم، وفي كمال السُّهولة علىٰ النِّساء لضَعْف عُقولهنّ، ولِذا عبّر سُبحانه عنْهنّ في الآية بكلمة (ما) التي تُستعمل في غيرِ ذَوي العُقول، تَنْزيلاً لهُنّ مَنزلته[١].

ثمّ لمّا أمر بالنِّكاح بيّن العَدَد الذي يجُوز تزوّجه مِن الحَرائر بالعَقْد الدّائم، ولا يجُوز التّجاوزُ عنه، بقوله: ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ فأذِنَ سُبحانه للنّاس في الجَمْع بيْن النِّساء في التزَوج اثْنَين اثْنَين، وثَلاث وثَلاث، وأربع أربع.

فيكون الحاصِل جَواز اخْتِيار أيّ عَدَدٍ شاءوا مِن الأعداد، مُتّفقين أو مُختلفين، بأنْ اخْتار واحدٌ اثْنين، وواحدٌ ثلاث، وواحدٌ أربع. ولَو كان (أو) بدَل (الواو) لَم يَجُز الاخْتِلاف.

ثمّ أشار سُبحانه إلىٰ أنّه كما يجِب العَدْل في حَقّ الأيتام، يجِب العَدْل في حَقّ الأزواج، بقوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ في صُورة اخْتِيار المُتعَدِّد ﴿أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ بَيْنهُنّ، ولا تقوموا بحُقوقهنّ ـ وعن الصادق عليه السلام: «يعني: في النّفقَة»[٢] ـ ﴿فَوَاحِدَةً﴾ مِن النِّساء اخْتاروا للتّزويج، وأكْتفوا بها، واترُكوا الجَمْع ﴿أَوْ﴾ اخْتاروا ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ مِن الإماء، وإنْ تعدَّدْنَ وبلَغْنَ أربعين وأزيد، لعدَم كَون حُقوقهنّ علىٰ مَوالِيهنّ كحُقوق الحَرائر علىٰ الأزواج، مِن التّسْوية والقَسْم[٣] وغيرهما، فلا تبتلُون بتَرك العَدْل.

﴿ذَٰلِكَ﴾ المَذكُور مِن الاكْتِفاء بالمهيرة[٤] الواحِدة أو بالمَملوكة، وإن كُنّ مُتعدّدات ﴿أَدْنَىٰ﴾ وأقرب طريق إلىٰ ﴿أَلَّا تَعُولُوا﴾ ولا تَميلوا إلىٰ الجَوْر والظُّلم، أو لا تموتوا؛ لأنّ وُجوب القَسْم والمُجامعة وغيرهما مُختصّ بالنِّكاح الدّائم دُون المُلْك والتّمتُّع.

عن القُمّي: أي لا يتزوّج ما لايقدِر أن يُعول[٥].

ثمّ اعْلَم أنّ ما ذكَرتُه مِن وَجْه النّظْم، هُو الذي سَنَح بخاطِري وقوِي في نظري. ومن طريق العامّة رِوايات في شأن نُزولها، ووَجْه نَظْمها:

احداها: عن عائشة، قال عُروة: قلتُ لها: ما معنىٰ قول الله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِى ٱلْيَتَامَىٰ﴾

---

١. أي منزلة غير العاقل، وقد ذُكِر في (ما) هنا وجوه، أحدها: أنه أراد بها الجنس، كما تقول: ما عندك؟ فيقال: رجل أو امرأة، وثانيها: أن (ما) وما بعدها في تقدير المصدر، أي فانكحوا الطيب من النساء، وثالثها: أن (ما) و(من) ربما يتعاقبان، قال تعالى: ﴿والسماء وما بناها﴾ وقال: ﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾ وقال: ﴿فمنهم من يمشي على بطنه﴾. راجع: تفسير الرازي ٩: ١٧٢.

٢. الكافي ٥: ١/٣٦٣، تفسير الصافي ١: ٣٨٩.

٣. القَسم: نصيب الزوجة من المبيت.

٤. المهيرة: الحرّة الغالية المهر.

٥. تفسير القمي ١: ١٣٠، تفسير الصافي ١: ٣٨٩.

فقالَتْ: يا بن أُختي، هي اليتيمة تكون في حِجْر وَليِّها فيرغَب في مالها وجمالها، إلّا أنّه يُريد أن ينكِحها بأدنىٰ مِن صَداقها، ثمّ إذا تزوّج بها عاملها مُعاملة رديئة، لعِلْمه بأنّه ليسَ لها مَن يذُبّ عنها ويدفَع شرّ ذلك الزّوْج عنها، فقال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾ أن تظلموا اليتامىٰ عندَ نِكاحهِنّ ﴿فَانكِحُوا﴾ مِن غيرهِنّ ﴿مَا طَابَ لَكُم مِنَ ٱلنِّسَاءِ﴾[١].

وأُخرىٰ: عن عِكرمة، أنّه قال: كان الرّجُل عندَه النّسوة ويكون عندَه الأيتام، فإذا أنفق مال نَفسه على النّسوة ولَم يبقَ له مال وصار مُحتاجاً، أخذ في إنفاق أموال اليتامىٰ عليهِنّ، فقال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِى﴾ أموال ﴿الْيَتَامَىٰ﴾ عندَ كَثْرة الزّوجات، فقد حظَرتُ عليكم أن تنكِحوا أكثر مِن أربع، كَي يزول هذا الخَوف ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ في الأربع أيضاً ﴿فَوَاحِدَةً﴾، فذكَر الطّرَف الزّائد وهُو الأربع، والنّاقص وهُو الواحِدة، ونبّه بذلك علىٰ ما بَيْنهما، فكأنّه تعالىٰ قال: فإن خِفتم مِن الأربع فثلاث، فإن خِفتم فاثنتان، فإن خِفتم فواحدة[٢].

وثالثة: أنّه لمّا نزلَتْ الآية المُتقدّمة في اليَتامىٰ، وما في أكل أموالهنّ مِن الحُوبْ الكبير، خاف الأولياء أن يلحقهم الحُوْب بتَرك الإقساط في حُقوق اليَتامىٰ، فتحرّجوا مِن وِلايتهم، وكان الرّجُل مِنهم رُبّما كان تحته العشر مِن الأزواج وأكثر، فلا يقوم بحُقوقهنّ ولا يعدِل بَيْنهنّ، فقيل لهم: إن خِفتم تَرك العَدل في حُقوق اليَتامىٰ فتحرّجتم مِنها، فكونوا خائفين مِن تَرك العَدْل بَيْن النّساء فقلّلوا عَدَد المَنكوحات، لأنّ مَن تحرّج مِن ذَنْب وتاب عنه وهُو مُرتكب لمِثْله، فكأنّه غير مُتحرّج[٣].

وقيل: إنّهم كانوا يتحرّجون مِن وِلاية اليَتامىٰ، فقيل: إن خِفتم في حَقّ اليَتامىٰ، فكونوا خائفين مِن الزّنا، فانكِحوا ما حَلّ لكم مِن النّساء، ولا تحُوموا حَول المُحرّمات[٤].

وَآتُوا ٱلنِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً[٤]

ثمّ بَيّن الله سُبحانه وجُوب إعطاء مُهور النّساء بقوله: ﴿وَآتُوا﴾ أيُّها الأزواج ﴿ٱلنِّسَاءَ﴾ اللاتي تزوّجتُموهُنّ ﴿صَدُقَاتِهِنَّ﴾ ومُهورهُنّ التي استحلَلْتُم بها فُروجهُنّ، لكَوْنها ﴿نِحْلَةً﴾ وفَريضةً فرَضها الله في دِينه، أو عَطيّة مِن الله لهُنّ، حيثُ إنّ الله أمر بإعطاء الزّوْج المَهر، معَ أنّه والمَرأة مُشتركان في مَنافع النّكاح، مِن قَضاء الشّهْوة والتوالُد.

---

١. تفسير الرازي ٩: ١٧١.
٢. تفسير الرازي ٩: ١٧١.
٣ و٤. تفسير الرازي ٩: ١٧١.

وقيل: إنّها عَطِيّة مِن الأزواج لهُنّ مَجّاناً بِلا عِوَضٍ؛ لأنّهم لا يملِكون البُضع، وإنّما يُباح لهم الانْتِفاع.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «أحقّ الشّرط أن يُوفىٰ به[١]، ما اسْتحلَلْتُم به الفُروج»[٢].

وعن الصادق عليه السلام: « مَنْ تزوّج أمرأةً ولَم ينْوِ أن يُوفيها صَداقها، فهُو عندَ الله زانٍ»[٣].

عن الباقر عليه السلام: «أنّ الخِطاب فيه للأولياء؛ لأنّ الرّجُل مِنهم كان إذا زَوّج أيِّمة[٤] أخذ صَداقها دونها فنهاهم الله عن ذلك»[٥]. وعليه جَمعٌ مِن مُفسّري العامّة.

وقيل: إنّ العرَب كانت في الجاهليّة لا تعطي النِّساء شيئاً، ولذلك كانوا يقولون لمَن وُلدت له بِنتٌ: هنيئاً لك النّافجة، ومعناه: إنّك تأخُذ مَهرها إبِلاً فتضُمّها إلىٰ إبلِك، فتنفِج مالَك، أي تُعظّمه[٦].

ثمّ رخّص سُبحانه في أخذه منهُنّ بشَرْط الرِّضا والطِّيب، بقوله: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ﴾ أيُّها الأزواج، أو الأولياء ﴿عَن شَيْءٍ﴾ قَليل أو كثير ﴿مِنْهُ نَفْساً﴾ ورَضِين بأكلكم مِنه، وتصرُّفكم فيه، وتملّككم له؛ قلباً مِن غيرِ أن يكون عَطاؤهنّ فِداءً عن أنفسهنّ، لسُوء أخلاقكم ورَداءة صُحْبتكم ﴿فَكُلُوهُ﴾ أكلاً ﴿هَنِيئاً﴾ سائغاً لذيذاً ﴿مَرِيئاً﴾ بلا غُصّة ولا دَاء، وتصرّفوا فيه كتصرُّفكم في أموالكم، بِلا تَبِعة عليكم في الدُّنيا ولا في الآخِرة. وفيه غاية المُبالغة في التحليل وعدَم التَّبِعة.

رُوي أنّ ناساً كانوا يتأثّمون أن يقبَل أحدُهم مِن زوجته شيئاً مِمّا ساقه إليها، فنزلَتْ[٧].

فالآية دالّة علىٰ تملُّك المرأة مَهرها بالعَقد وجواز مُطالبتها، وعدَم جَواز تصرُّف غيرها فيه، إلّا بطِيب نفسِها، ولها التّصرُّف فيه بالتّمليك وأنواع الانْتفاعات قبلَ الدُّخول وبعدَه.

وَلَا تُؤْتُوا ٱلسُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللهُ لَكُمْ قِيَاماً وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً[٥]

ثمّ أنّه تعالىٰ - بعدَ بَيان وُجوب رِعاية حُقوق الضّعيفَين؛ اليتيم والزّوجة التي هِي كالأسيرة - بيّن وُجوب رِعاية حَقّ ثالث الضُّعَفاء وهُو السّفيه، بقوله: ﴿وَلَا تُؤْتُوا ٱلسُّفَهَاءَ﴾ والأشخاص الّذِين لارُشْد لهم في إصلاح مالهم، ولا يُميِّزون لضَعْف عُقولهم بيْن الخَير والشّرّ، والنّفع والضّرَر، أموالهم

---

١. في من لا يحضره الفقيه: إنّ أحقّ الشروط أن يوفى بها...
٢. من لا يحضره الفقيه ٣: ١٢٠١/٢٥٢، تفسير الصافي ١: ٣٨٩.
٣. من لا يحضره الفقيه ٣: ١٢٠٠/٢٥٢، تفسير الصافي ١: ٣٨٩.
٤. الأيِّمة: المرأة غير المتزوجة بكراً أو ثيباً، جمعها أيامىٰ.
٥. مجمع البيان ٣: ١٢، تفسير الصافي ١: ٣٩٠.
٦. الكشاف ١: ٤٧٠، تفسير الرازي ٩: ١٧٩، تفسير أبي السعود ٢: ١٤٣، تفسير روح البيان ٢: ١٦٣.
٧. تفسير الصافي ١: ٣٩٠.

التي يجِب أن تعدّوها ﴿أَمْوَالَكُمُ﴾ في كمال الرِّعاية، وشِدّة العِناية والاهتِمام بالحِفْظ؛ لأنّها ﴿ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ﴾ إيّاها ﴿لَكُمْ﴾ بحِكمته ﴿قِيَاماً﴾ تقُومون بها، وقِواماً تتقوّمون بمَنافعها، ومَعاشاً تتعيّشون بالارْتِزاق مِنها، فلا تفسِدوها بتَسْليطهم عليها، بَل اقْطعوا أيديهم عنها، واتّجِروا بها واسْتربحوا مِنها ﴿وَٱرْزُقُوهُمْ﴾ مِن الرِّبْح الذي يكون ﴿فِيهَا﴾ بالاتِّجار ﴿وَٱكْسُوهُمْ﴾ به.

والحاصِل أنّ علىٰ الأولياء أن يجعَلوا أموال السُّفهاء محَلّ ارْتِزاقهم، وأرباحها مَدار نفقاتهم؛ حتّىٰ يعِيشوا في ظِلّ وِلايتهم ورأفتهم برَحْبٍ وسَعَة، مع بقاء أصل مالهم مدىٰ أعمارهم.

وقيل في وَجْه النَظْم: إنّه لمّا أمر الله سُبحانه برَدّ أموال اليَتامىٰ ومُهور الزّوجَات، ذكَر في الآية أنّ وجُوب الرَّدّ والإيتاء يكون حال كَوْنهم رَشيدين، وأمّا إذا كانوا سُفَهاء فلا تُؤتوهم.

عن العيّاشي: عن الصادق عليه‌السلام: «هُم اليَتامىٰ، لا تُعطوهم حتّىٰ تعرِفوا مِنهم الرُّشْد»، قيل: فكيف تكون أموالُهم أموالَنا؟ فقال: «إذا كُنت أنت الوارِث لهم»[1].

وعن (الفقيه): عن الباقر عليه‌السلام، أنّه سُئل عن هذه الآية فقال: «لا تُؤتوها شَرّاب الخَمْر، ولا النِّساء» ثمّ قال: «وأيّ سَفيهٍ أسفَه مِن شارِب الخَمْر»[2].

وفي رِوايةٍ: «كُلّ مَن يشرَب الخَمْر فهُو سَفيهٌ»[3].

وعن الباقر عليه‌السلام، في هذه الآية، قال: «السُّفهَاء: النِّساء والوَلَد، إذا علِم الرّجُل أنّ امرأته سَفيهةٌ مُفسِدة، ووَلَده سَفيهٌ مُفسِد، لا ينبغي لَهُ أن يُسلِّط أحداً مِنهما علىٰ ماله الذي جعَل الله [له] قِياماً، يقول: مَعاشاً»[4].

وقيل: إنّ في الآية نهياً لكُلّ أحدٍ أن يعمَد إلىٰ ما خَوّله الله مِن المال فيُعطي امرأته وأولاده، ثمّ ينظُر إلىٰ أيديهم، وإنّما سَمّاهم الله سُفَهاء اسْتِخفافاً بعَقلهم، واسْتِهجاناً لجَعْلهم قُوّاماً علىٰ أنفسهم.

أقول: لا يبعُد حَمْل الآية علىٰ النّهي مِن تَسْليط السُّفَهاء علىٰ الأموال مُطلقاً، سواءً كانت لهم أو لغيرهم مِن الأولياء، وبه يُجمَع بَيْن الرِّوايات، والله العالِم.

ثمّ أمر سُبحانه بالتَلطُّف بهم وتَرْضيتهم وتَطْييب قُلوبهم بقوله: ﴿وَقُولُوا لَهُمْ﴾ إذا اقتَرحوا عليكم أمراً، وسألوا مِنكم ما لا يجوز أو لا يُمكِن إجابتهم فيه ﴿قَوْلاً﴾ وجَواباً ﴿مَعْرُوفاً﴾ ومُستحسناً عندَ الشّرْع والعَقل مِن عِدَةٍ جميلة، وكلامٍ ليِّن طيّب لا يكون فيه كذب ولا إيذاء، بَل تطِيب به نفُوسُهم.

---

١. تفسير العياشي ١: ٨٦٥/٣٦٨، تفسير الصافي ١: ٣٩٠.
٢. من لا يحضره الفقيه ٤: ٥٨٦/١٦٨، تفسير الصافي ١: ٣٩٠.
٣. تفسير العياشي ١: ٨٦٤/٣٦٨، تفسير الصافي ١: ٣٩٠.
٤. تفسير القمي ١: ١٣١، تفسير الصافي ١: ٣٩٠.

عن الباقر عليه السلام: «المَعروف العِدة»[1].

وعن ابن عبّاس رضي الله عنه، قال: هُو مِثل أن يقول: إذا ربِحتُ في سَفْرتي هذه فعلتُ بك ما أنت أهلُه، وإن غنِمتُ في غَزاتي أعطيتُك[2].

قيل: إنّ الله أمر بذلك؛ لأنّ القول الجميل يؤثّر في القَلب، فيُزيل السَّفَه، وأما خِلاف القول المعروف فإنّه يَزيد السَّفيه سَفَهاً ونَقصاً[3].

وقيل: إنّ المُراد: عَلّموهم ـ معَ إطعامكم وكُسْوتكم ـ أمرَ دِينهم مِمّا يتعلّق بالعِلْم والعَمل[4].

﴿وَٱبْتَلُوا ٱلْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللهِ حَسِيباً﴾ [٦]

ثمّ ـ لمَا أمر الله سُبحانه بإعطاء أموال اليَتامىٰ، ونَهىٰ عنه إذا كانوا سُفَهاء ـ أمر الأولياء باخْتِبار عَقلهم ورُشْدهم قبلَ البُلوغ، بقوله: **﴿وَٱبْتَلُوا ٱلْيَتَامَىٰ﴾** أيُّها الأولياء، واختبروا رُشْدهم إذا لَم يكُن بَيّناً لكم قبلَ بُلوغهم بتتبُّع أحوالهم في أُمور الدِّين والمُعاملات، والاهْتِداء إلىٰ حِفْظ المال عن الضَرَر، وحُسْن التَصرُّف فيه، والتَحرُّز عن الإسراف والتَبذير، وأديموا تَجْربتكم **﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا﴾** واستأهلوا **﴿ٱلنِّكَاحَ﴾** وصلَحوا للازْدِواج بالاحْتلام أو اسْتِكمال خمس عشرة سنة إن كانوا ذُكْراناً، ورُؤية الحَيض أو اسْتِكمال تسع سنين إنْ كُنّ إناثاً **﴿فَإِنْ آنَسْتُمْ﴾** وأحرزتُم بالاخْتِبار والتَجارب **﴿مِنْهُمْ رُشْداً﴾** وصَلاحاً بتَسْليطهم علىٰ المال، واهْتِداءً إلىٰ وُجوه التَصرُّفات العُقلائيّة فيه، واحْترازاً عن السَّرف والتَبذير **﴿فَادْفَعُوا﴾** وسلّموا **﴿إِلَيْهِمْ﴾** بلا تأخيرٍ ومَطْل **﴿أَمْوَالَهُمْ﴾** التي تكون بأيديكم كُلّها.

في بيان المراد من الرّشد

عن الصادق عليه السلام: «إيناس الرُّشد: حِفْظ المال»[5].

وعن الباقر عليه السلام: «الرُّشد: العَقل، وإصلاح المال»[6].

عن القُمّي رحمه الله: عنه عليه السلام في هذه الآية قال: «مَن كان في يده مالٌ بعضِ اليَتامىٰ، فلا يجُوز أن يُعطيه حتّىٰ يبلُغ النّكاح ويحتلِم، فإذا احْتلَم وجَب عليه الحُدود وإقامة الفرائض، ولا يكون

---

١. تفسير القمي ١: ١٣١، تفسير الصافي ١: ٣٩١.
٢ و٣. تفسير الرازي ٩: ١٨٦.
٤. تفسير الرازي ٩: ١٨٦.
٥. من لا يحضره الفقيه ٤: ٥٧٥/١٦٤، تفسير الصافي ١: ٣٩١.
٦. مجمع البيان ٣: ١٦، تفسير الصافي ١: ٣٩١.

مُضيِّعاً، ولا شارِب خَمْر، ولا زانياً».

إلىٰ أن قال: «وإن كانوا لا يعلَمون أنّه قد بلَغ فإنّه يُمتحَن بريح إبْطه، أو نَبْت عانَته، فإذا كان ذلك فقد بلَغ، فيُدفع إليه ماله إذا كان رَشيداً، ولا يَجُوز له أن يحبِس عنه مالَه، ويعتلّ عليه أنّه لَم يكبَر بعدُ»[1].

ثمّ أكّد سُبحانه النَهي عن أكل أموالهم بقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا﴾ حال كون أكلكم مِنها ﴿إِسْرَافاً﴾ وزِيادة علىٰ استِحقاقكم مِنها ﴿وَبِدَاراً أَن يَكْبَرُوا﴾ واسْتِباقاً بُلوغهم.

أو المُراد: لا تأكلوها لإسرافٍ ومُبادرةِ كبرهم بأن تُفرطوا في أموالهم وتقولوا: نُنفِق كما نشتهي قبل أن يكبَر اليَتامىٰ وينتزعوها مِن أيدينا، كذا قيل[2].

في بيان جواز أكل الولي من مال اليتيم

وفيه إشعارٌ بجَواز الأكل ـ إذا لَم يكُن إسرافاً وبِداراً، بَل كان بمِقدار الحَاجة، مع رِعاية الغِبْطة ـ وإجمالٌ لِما فصّله بعدُ، بقوله: ﴿وَمَن كَانَ﴾ مِن الأولياء والأوصياء ﴿غَنِيّاً﴾ ذا ثروة كافية لمَعاشه ﴿فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ وليتنزه عن الأكل مِن مال اليتيم، وليقنع بما آتاه الله إشفاقاً عليه، وإبقاءً لما له ﴿وَمَن كَانَ﴾ مِنهم ﴿فَقِيراً﴾ ومُحتاجاً في مَعاشه إلىٰ الأكل مِن مال اليتيم، لاشْتِغاله بإصلاح ماله، وعدَم فرَاغه له لكَسْب مَعيشة نفسه وعِياله وتَحصيل مُؤنتهم ﴿فَلْيَأْكُلْ﴾ ذلك الفقير مِن مال اليتيم، وليصرِف مِنه في حَوائجه ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ وبقَدر حاجته وكِفايته مِن غير إسراف، أو بمِقدار أُجرة عَمَله وسَعْيه.

عن (الكافي) و(العيّاشي): عن الصادق عليه السلام في هذه الآية: «مَن كان يلي شيئاً لليَتامىٰ، وهُو مُحتاج ليس له ما يُقيمه، وهُو يتقاضىٰ أموالهم ويقوم في ضَيْعتهم، فليأكل بقَدَرٍ ولا يُسرِف، فإن كانت ضَيعتهم لا تشغَله عمّا يُعالج لنفسه فلا يرزأنّ مِن أموالهم شيئاً»[3].

أقول: الظّاهِر أنّ المُراد مِن (قَدَر): قَدَر الحاجة والضُّرورة العُرْفية، ومِن قوله (لا يرزأنّ) لا يُنقِصنّ.

وعنه عليه السلام، في هذه الآية: «هذا رَجُل يحبِس نفسه لليتيم علىٰ حَرْث أو ماشية، ويشغَل فيها نفسه، فليأكُل بالمعروف، وليسَ له ذلك في الدّنانير والدّراهم التي عندَه مَوضوعة»[4].

وعنه عليه السلام: «ذلك رَجُل يحبِس نفسه عن المعيشة، فلا بأسَ أن يأكُل بالمعروف إذا كان يُصلِح لهم أموالهم، فإن كان المال قليلاً فلا يأكل مِنه شيئاً»[5].

---

١. تفسير القمي ١: ١٣١، تفسير الصافي ١: ٣٩١. ٢. تفسير أبي السعود ٢: ١٤٦.
٣. تفسير العياشي ١: ٨٧٢/٣٧٠، الكافي ٥: ١/١٢٩، تفسير الصافي ١: ٣٩١.
٤. تفسير العياشي ١: ٨٧٣/٣٧٠، تفسير الصافي ١: ٣٩٢.
٥. تفسير العياشي ١: ٨٧١/٣٦٩، الكافي ٥: ٥/١٣٠، تفسير الصافي ١: ٣٩٢.

أقول: الظّاهِر أنّ المَنع مِن المال القليل في الرّواية، ومِن الدّنانير والدّراهم في السابقة، لعدَم الزّحمة في حِفظها، وعدم مُزاحمته لاشْتِغاله بكَسْبه، وعليه لَو أتّجر بالنَقدَين، أو بالمال القليل، وكان الاتّجار بهم شاغِلاً له عن التَكسُّب لنفسه، فلا بأس بالأكل مِنها.

وفي (الكافي): عن الصادق عليه السلام: «المَعروف هُو القُوت، وإنّما عنىٰ الوَصِيّ والقَيِّم في أموالهم ومايُصلِحهم»[1].

عن الباقر عليه السلام: «مَن كان فقيراً فليأخُذ مِن مال اليتيم قَدَر الحاجة والكِفاية، علىٰ جِهة القرض، ثمّ يرُدّ عليه ما أخذ إذا وجَد»[2].

أقول: علىٰ تَقدير كَون المُراد هُو الوَلِيّ أو القَيِّم الفقير دون غيرهما، لابُدّ مِن حَمْله علىٰ النّدْب، كما أنّه يُمكِن حَمل النَهي عن أكل الوَلِيّ الغَنِيّ علىٰ الكَراهة، لإشعار مادّة الاسْتِعفاف، ومعنىٰ التَنزُّه بها، وأدلة احْتِرام عَمَل المُسلم، ونَفي الضَرَر. وعليه يَجوز للغَنِيّ الأكل بمِقدار أُجرة عَمَلة، والأحوط التَجنُّب.

ثمّ أمر الله تعالىٰ الأولياء ـ لُطفاً بهم، وحِفظاً لهم عن التُهمة، وسدّاً لباب الخُصومة ـ بالإشْهاد علىٰ دَفْع أموال اليَتامىٰ إليهم، بقوله: **﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ﴾** وسلّمتم **﴿إِلَيْهِمْ﴾** بعدَ البُلوغ والرُشد **﴿أَمْوَالَهُمْ﴾** جميعاً بِلا نَقص وتَفريط **﴿فَأَشْهِدُوا﴾** شاهِدَين عَدْلين **﴿عَلَيْهِمْ﴾** بأنكم سلّمتم إليهم جميع ما كان لهم عندَكم، وأنّهم تسلّموه وبرِئت ذِمَمكم عنه، حتّىٰ لا تُرمَوا بالخِيانة، ولا تُبتلوا بالخُصومة.

أقول: الظّاهِر أنّ الأمر بالإشهاد للإرشاد، لا الإيجاب المَولوي. قيل: بدَلالته علىٰ عدَم قَبول دَعوىٰ الرّدّ مِن الوَليّ والقَيِّم إلّا بالبيِّنة، وفيه تأمُّل.

ثمّ نبّه سُبحانه علىٰ أن الإشهاد طريق التَخلُّص مِن خُصومة الخَلْق لا الخالق، بقوله: **﴿وَكَفَىٰ﴾** لليتيم **﴿بِاللهِ حَسِيباً﴾** فيُحاسبكم في مَحضر عَدله، ويُخاصمكم علىٰ ما صدَر مِنكم مِن الخِيانة، ويؤاخذكم بالنَقير والقِطْمير، ويُعاقبكم علىٰ ما دَقّ وخَفِي مِن التَفريط والخِيانة في أموال النّاس وحُقوقهم، فلا تقصّروا في حِفْظ أموال الأيتام وغيرهم، ولا تخونوا في أمانة الله، ولا تَجاوزوا ما حَدّ لكم في دِينه وشَريعته.

لِلْرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَالِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلْنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَالِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَفْرُوضاً[٧]

---

١. الكافي ٥: ٣/١٣٠، تفسير الصافي ١: ٣٩١.

٢. مجمع البيان ٣: ١٧، تفسير الصافي ١: ٣٩٢.

ثمّ لمّا بيّن الله سُبحانه حُقوق اليَتامىٰ والزّوجات والسُّفَهاء، شرَع في بَيان حُقوق الأولاد والأقارب، قيل: إنّ أهل الجاهِليّة كانوا لا يورّثون النِّساء والأطفال، وكانوا يقولون: لا يرث إلّا مَن طاعَن بالرُّمْح، وذاد عن الحَوزة، وحاز الغنيمة[١]، فأبطل الله تعالىٰ هذا الحُكم، وشرّك النِّساء معَ الرّجال في الإرث بقوله: ﴿لِلرِّجَالِ﴾ مِن الأولاد والأقارب ﴿نَصِيبٌ﴾ وحَظّ ﴿مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَالِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ المُتوارثون مِن الأموال والحُقوق الماليّة ﴿وَلِلنِّسَاءِ﴾ مِنهم أيضاً ﴿نَصِيبٌ﴾ وحَظّ معلوم ﴿مِمَّا تَرَكَ﴾ وخلَف ﴿ٱلْوَالِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾.

وفي ذِكْر حُكم إرث النِّساء استِقلالاً بعدَ ذكر حُكم الرِّجال، إيذانٌ بكمال العِناية بشأنهنّ، ومُبالغة في إبطال حُكم الجاهِليّة.

ثمّ أكّد سُبحانه تَعميم نَصيبهنّ في جميع التَّركة بقوله: ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ﴾ ودَقّ أو جَلّ.

قيل: فيه إبطال لحُكم بعضِ العَرَب مِن عدَم تَوريث النِّساء مِن آلات الكَسْب والحَرْب، وتَخصيصهما بالرِّجال.

ثمّ بالغ سُبحانه في تأكيد ثُبوت النَصيب لكُلٍّ مِن الفَريقين بقوله: ﴿نَصِيباً﴾ وقِسْماً ﴿مَفْرُوضاً﴾، وثابتاً واجباً مِن الله لهم، لا يسقُط بإسقاطهم، ولا بوَصيّة المَيّت بعدَم إعطائهم.

في بيان شأن نزول الآية

عن ابن عبّاس ﷺ، في شأن نُزول الآية: أنّ أوس بن ثابت الأنصاري تُوفّي عن ثلاثِ بناتٍ وزوجة يُقال لها أمّ كحّة، فجاء رَجُلان مِن بني عمّة، وهُما وصِيّان له، يُقال لهما سُويد وعُرفجة ـ وفي رِواية: اسمهما قتادة وعُرفطة ـ وأخذا ماله، فجاءت أم كحّة زوجة أوس إلىٰ رَسُول الله ﷺ وذكَرت القِصّة، وذكَرت أنّ الوَصِيّين ما دَفعا[٢] إلىٰ بناته شيئاً مِن المال، فقال النبيّ ﷺ: «ارْجعي إلىٰ بيتك حتّىٰ انظُر ما يُحدِث الله في أمرك».

فنزلَتْ الآية، ودلّت علىٰ أنّ للرّجال نصيباً، وللنِّساء نصيب، ولكنّه تعالىٰ لَم يُبيِّن المِقدار في هذه الآية، فأرسل الرّسُول ﷺ إلىٰ الوَصِيّين وقال: «لا تقربا مِن مال أوس شيئاً. ثمّ نزل بعدُ ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِى أَوْلَادِكُمْ﴾[٣] وفَرض الزّوج، وفَرض المرأة، فأمر رَسُول الله ﷺ الوَصِيّين أن يدفعا إلىٰ المرأة الثّمن ويُمسِكا نَصيب البَنات، وبعدَ ذلك أرسل إليهما «أن ادْفَعا نَصيب بناتِها إليها» فدَفَعاه إليها[٤].

قيل: لمّا كانت عادةُ العَرب عدَم تَوريث النِّساء، وكان نَقلهم عن تِلك العادة دُفعةً إلىٰ التّوريث بالسِّهام المفروضة ثقيلاً علىٰ طِباعهم، عظيماً في قُلوبهم، ذكَر سُبحانه أوّلاً في هذه الآية نصيبهنّ

---

١. تفسير الرازي ٩: ١٩٤، تفسير أبي السعود ٢: ١٤٦. ٢. زاد في تفسير الرازي: إليّ شيئاً، وما دفعا.
٣. النساء: ٤/١١. ٤. تفسير الرازي ٩: ١٩٤، تفسير البيضاوي ١: ٢٠٢، تفسير أبي السعود ٢: ١٤٧.

بنحو الإجمال، وفي الآية الآتية بنَحْو التَفصيل، ليسهُل عليهم القَبُول بهذا التَدريج[١].

وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُولُوا ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَامَىٰ وَٱلْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً[٨]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ حُكْمه بحِرمان بني الأعمام مِن مال الميّت إرثاً، معَ وجُود البِنت الوارِث، بتَطْييب قُلوب غيرِ الوارِث مِن الأقارب بالإحسان إليهم، وحُسْن العِشْرة معهم، بقوله: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ﴾ للتَركة، وشهِد إفراز الأنصِباء ﴿أُولُوا ٱلْقُرْبَىٰ﴾ وذوو الأرحام الذين لا يرثون من الميت ﴿وَٱلْيَتَامَىٰ وَٱلْمَسَاكِينُ﴾ مِن الأجانب والأبعدِين ﴿فَارْزُقُوهُم﴾ مِمّا رزقكم مِن المال المَقسوم، وأعْطوهم شيئاً ﴿مِنْهُ﴾ تَطيب به قُلوبُهم، للأرحام صِلَة ولغيرِهم صَدَقة ﴿وَقُولُوا لَهُمْ﴾ مع الإعطاء وبعدَه ﴿قَوْلاً مَعْرُوفاً﴾ وكلاماً حَسَناً مِن الاعْتِذار إليهم مِن قِلّة العَطاء ببَيانٍ لطيف، والدُّعاء لهم، وإظهار الامْتِنان مِن قَبُولهم القليل، ونَحْو ذلك.

وقد مرّ في الطُّرفة العِشرين قولٌ بأنّها مَنسوخة بآية الإرث بالنَّسَب، وروايات دالّة عليه، وذكَرنا أنّها لو صَحّت، مَحمولةٌ علىٰ نَسخ الوُجوب دُون الاسْتِحباب، فيُستحبّ للوَرَثة ـ حين قِسْمتهم للتَّركة ـ الرَضخ[٢] لمَن لا سَهْم له مِن الأقارب والأيتام والمَساكين.

وقيل: إنّ ذلك مُختصّ بالعَين، وأمّا الأرضون والرَقيق فلا يُستحبّ الإعطاء، بَل عليهم الاعْتِذار، والقَول بالمَعروف[٣].

وقيل: إنّ القول بالمَعروف والاعْتِذار إليهم فيما لَو كان في الوَرَثة صغير، فلا يَجُوز إعطاؤهم مِن سَهمه، بَل يعتذِر إليهم وَليُّه بأن يقول لهم: لو كان لي لأعطيتكم[٤].

قيل: إنّ الخِطاب في الآية للمريض ـ إذا حَضَرتْه أمارات المَوت، وأراد قِسمة أمواله، والإيصاء بها ـ أن يفعل ذلك[٥]. والأوّل أشهر بَيْن المُفسّرين.

وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا ٱللّٰهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً[٩]

ثمّ لمّا كان ضَعْف الأيتام إلىٰ الغاية، أظهر الله بهم كَمال العِناية بعدَ الأمر بإرزاقهم عندَ القِسْمة،

---

١. تفسير الرازي ٩: ١٩٤.

٢. في النسخة: الوَضح، والرّضخ: الشيء اليسير.

٣ و ٤. كنز العرفان ٢: ٣٣٧.

والإحسان إليهم بالتأكيد في إيجاب حِفظ أموالهم، والاهتِمام في رِعاية صَلاحهم، والمبالغة في حُسْن العِشْرة معهم، والتّهديد علىٰ تَضْييع مالهم والإساءة إليهم بالعُقوبة بالمِثْل في الدُّنيا، بقوله: ﴿وَلْيَخْشَ﴾ كافِلوا اليَتامىٰ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ يكون حالهم أنّه ﴿لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أو خلّفوا مِن بعدِ مَوتهم ﴿ذُرِّيَّةً﴾ وأولاداً صِغاراً ﴿ضِعَافاً﴾ لا يقومون إلّا بكافِل شَفيق ﴿خَافُوا﴾ عند وفاتهم ﴿عَلَيْهِمْ﴾ الضَّياع والفَقْر بعدَهم، وعدَم الكافِل لهم، أو إساءة الكافل العِشْرة معهم، إن ظلَموا الأيتام الّذِين في حُجُورهم وفي كفالتهم وضيّعوهم، وأتلفوا أموالهم، وأساءوا العِشْرة معهم، مِن أن يُفعَل بذُرِّيتهم بعدَهم مِثْل ما فعَلوا بهم.

فإذا تبيّن لهم أنّ أثر الإساءة بأيتام الغير، وتَضْييع مالهم، الإساءة بأيتام أنفسهم، وتَضييع حُقوقهم ﴿فَلْيَتَّقُوا ٱللَّهَ﴾ في تَضْييع يَتامىٰ غيرهم، وتَرك الشفقة والرّحمة بذَراري إخوانهم المُؤمنين.

وحاصل المُراد أنّه تعالىٰ حَثَّ كافِلي اليَتامىٰ علىٰ حِفْظ مالهم، وتَنزيلهم أنفسهم في حِفظ أموالهم والإحسان إليهم، مَنزلة كافِل يتيم أنفسهم لَو فاتوا[1] وخلّفوا لهم مالاً. ولا يخفىٰ أنّه مِن أقوىٰ الدّواعي في الشَّفقة بالأيتام.

ثمّ بالغ سُبحانه في الوصِيّة إلىٰ الأولياء برِعاية الأيتام وحُسْن صُحْبتهم، بقوله: ﴿وَلْيَقُولُوا﴾ في مُكالمتهم اليَتامىٰ ومُخاطبتهم ﴿قَوْلاً سَدِيداً﴾ وكلاماً صواباً. قيل: هُو بأن يُكلِّموهم باللُّطف والتّرحيب، ويُخاطِبوهم كما يُخاطبون أولادهم مِن قول: يا بُني، ويا قُرّة عَيني[2].

في (الكافي): عن الصادق عليه السلام: «مَنْ يظلِم يتيماً سلّط الله عليه مَن يظلِمه، أو علىٰ عَقِبه، أو علىٰ عَقِب عَقِبه»[3].

وقيل: إنّ المَقصود بالخِطاب في الآية الّذِين يجلِسون عندَ المريض فيقولون: إنّ ذرِّيّتك لا يُغنون عنك مِن الله شيئاً فأوصِ بمالك لفُلان ولفُلان، فلا يزالون يأمُرونه بالوَصِيّة للأجانب حتّىٰ لا يبقىٰ مِن ماله للوَرَثة شيئاً، فقال الله تعالىٰ لهم: كما تكرَهون ابْتِلاء أولادكم بعدَكم بالجُوع والضَّعْف والفَقْر، فاخْشَوا الله، ولا تحمِلوا المريض علىٰ أن يحرِم أولاده الضُّعفاء مِن ماله[4].

عن النبيّ صلى الله عليه وآله: «لا يُؤمن العَبد حتّىٰ يُحِبّ لأخيه ما يُحِبّ لنفسه»[5].

وقيل: إنّ المَقصود هُو مَن قرُب مَوتُه، فنهاه الله عن الإكثار في الوَصيّة بماله لِئلّا يبقىٰ وَرَثته

---

١. فاتوا: مضوا، ويريد هنا ماتوا.

٢. الكشاف ١: ٤٧٨، تفسير الرازي ٩: ١٩٩، وفيهما: يا بني، ويا ولدي.

٣. تفسير العياشي ١: ٨٧٩/٣٧١، الكافي ٢: ١٣/٢٥٠، تفسير الصافي ١: ٣٩٣.

٤ و٥. تفسير الرازي ٩: ١٩٨.

ضائِعين[١].

ويُؤيّده مارواه الكُليني رحمه الله مُرسلاً: عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنه قال لرَجُلٍ مِن الأنصار أعتقَ مَماليكه لَم يكُن له غيرُهم: «تَرك صِبْيَةً صِغاراً يتكفّفون النّاس»[٢].

والأظهر هُو التّفسير الأوّل، وإن أمكن القول بعُموم المِلاك لمَن له رِعاية الأيتام مِن الأولياء والأوصياء والأجانب والمُوصِين.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ ٱلْيَتَامَىٰ ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً[١٠]

ثمّ بالغ سُبحانه في تأكيد وُجوب حفظ أموال الأيتام بتَهْديد آكلِي أموالهم ظُلماً بالعُقوبة بالنّار في الآخرة، بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ﴾ ويصرِفون ﴿أَمْوَالَ ٱلْيَتَامَىٰ﴾ في مَحاويجهم علىٰ وَجْه يكون أكلهم وصَرْفهم ﴿ظُلْماً﴾ علىٰ اليَتامىٰ، وتَعدِّياً عن الحَقّ، مِثْل كَوْن الأكل زائداً علىٰ أُجرة المِثْل، فهُم ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ﴾ ويُدخِلون ﴿فِى بُطُونِهِمْ﴾ ويملأون أجوافهم ﴿نَاراً﴾ لا تُوصَف شِدّة حَرّها.

وقال كثيرٌ مِن المُفسّرين: إنّ المُراد بالنّار ما يُؤدّي إليها مَجازاً بعَلاقة السّببيّة[٣].

وفيه: أنّه لا وَجْه له معَ إمكان إرادة الحَقيقة، لِما ثَبت مِن أنّ لكُلّ شيءٍ صُورة بَرزخيّة، فكما أنّ للصّلاة صُورة وللصّوم صُورة، وللقُرآن صُورة، يُمكِن أن تكون لمال اليتيم المحرّم صُورة النّاريّة، فأهل البصيرة يرَون أنّ مَن يأكُله يأكُل النّار[٤].

عن أبي بُردة، عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه قال: «يبعَث الله تعالىٰ قوماً مِن قُبورهم تتأجّج أفوهُهم ناراً، فقيل: من هُم؟ فقال صلى الله عليه وآله: «ألَم ترَ أنّ الله يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ ٱلْيَتَامَىٰ ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَاراً﴾»[٥]

وعنه صلى الله عليه وآله: «أنّ آكل مال اليتيم يُبعث يوم القِيامة والدُّخان يخرُج مِن قَبره ومِن فِيه وأنفه وأُذُنيه وعَيْنيه، فيعرِف النّاس أنّه آكل مال اليتيم»[٦].

وعن القُمّي رحمه الله: عن الصادق عليه السلام، قال: «قال رَسُول الله صلى الله عليه وآله: لمّا أُسري بي إلىٰ السّماء رأيتُ قوماً تُقذف في أجوافهم النّار وتخرُج مِن أدبارهم، فقلت: مَن هؤلاء يا جَبْرَئيل؟ فقال: هؤلاء [الّذين]

---

١. تفسير الرازي ٩: ١٩٩.
٢. الكافي ٧: ٩/١٠.
٣. راجع: تفسير الرازي ٩: ٢٠٠، تفسير روح البيان ٢: ١٧٠.
٤. جوامع الجامع: ٨٠، تفسير الرازي ٩: ٢٠٠.
٥. تفسير البيضاوي ١: ٢٠٣، تفسير أبي السعود ٢: ١٤٨.
٦. تفسير أبي السعود ٢: ١٤٨.

يأكلون أموال اليَتامىٰ ظُلماً»[1].

وفي (الكافي): عن الباقر عليه السلام: «أنّ آكل مال اليتيم يجيء يومَ القِيامة والنّار تَلْهَب في بَطنه حتّىٰ يخرُج لَهَبُ النّار مِن فيه، يعرفه أهلُ الجمع أنه آكل مال اليتيم»[2].

﴿وَسَيَصْلَوْنَ﴾ وعن قريب يدخُلون مع ذلك في الآخرة ﴿سَعِيراً﴾ ذات لَهَب لا يعرف شِدّتها غيرُ الله.

رُوي أنه لمَا نزلَت هذه الآية ثَقُل ذلك علىٰ النّاس، فاحترَزوا عن مُخالطة اليَتامىٰ بالكُلّيّة، فصعُب الأمْر علىٰ اليَتامىٰ، فنزل قولُه تعالى: ﴿وإن تُخَالِطُوهُم فَإخوَانُكُم﴾[3].

ثمَ لمَا كان مَنشأ انْتِزاع الحُقوق الواجبة الرِّعاية، النِّسْبة الحاصِلة بَيْن الأشخاص، ومِن المَعلوم أنّ أقواها هِي النِّسبة الحاصلة بالوِلادة، وأضعفها الحُقوق الحاصلة بالوِلاية والوِصاية والمُصاهرة. وقدّم الوِلاية والوِصاية لإظهار الاهْتِمام بشأنها.

يُوصِيكُمُ ٱللهُ فِى أَوْلَادِكُم لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنْثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَمْ يَكُن لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً فَرِيضَةً مِنَ ٱللهِ إِنَّ ٱللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً[١١]

ثمَ شرَع سُبحانه في بَيان حُقوق الوِلادة، فابتدأ بذِكْر ما هُو أولىٰ بالرِّعاية مِنها مِن حُقوق الأبوين والأولاد، بقوله: ﴿يُوصِيكُمُ اللهُ﴾ أيُّها النّاس ويعهَد إليكم ﴿فِى﴾ شأن ﴿أولَادِكُمْ﴾ وأمر حُقوقهم.

وإنّما قدّمهم علىٰ الآباء والأمّهات والكَلالة وسائر الأرحام، لكَوْنهم أقرب وألصَق، ولأنّه تعالىٰ ذَكَر حقّهم في آية ﴿لِلرِّجالِ نَصيبٌ﴾[4] إجمالاً، فبدأ في الآية بذِكْر تَفصيله بقوله: ﴿لِلذَّكَرِ﴾ مِنهم حَظّ ﴿مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ وما يُساوي نَصيب البِنتين مِن جميع أموالكم وحُقوقكم. وإنّما خَصّ الذّكَر بالتّنصيص علىٰ حَظّه للإشعار بفَضيلته، وبأنّ تضعيف حظّه لها.

---

١. تفسير القمي ١: ١٣٢، تفسير الصافي ١: ٣٩٣.
٢. الكافي ٢: ١/٢٦، تفسير الصافي ١: ٣٩٣.
٣. تفسير الرازي ٩: ٢٠٢، تفسير أبي السعود ٢: ١٤٨، والآية من سورة البقرة ٢: ٢٢٠.
٤. النساء: ٧/٤.

في بيان وجوه استفادة نصيب البنتين من الآية

ثمّ أنّ هذا في صُورة اجْتِماع الصِّنْفين، وأمّا نَصيب الذُّكُور في صُورة الانْفِراد عن الإناث فجميع التَّرِكة، لدَلالة تَعْيين نَصيب الإناث في حال انْفِرادها عن الذُّكور، بقوله: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً﴾ وبناتاً فإنْ كان عدَدُهنّ اثْنتَين، أو عدداً ﴿فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ﴾ وزائداً عليه، بلَغْن ما بلغْنَ ﴿فَلَهُنَّ﴾ بالفَرْض ﴿ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ وخلَف المُتوفَىٰ مِن المال، والثُّلْث الباقي لهُنّ ردّاً، إنْ لَم يكُن وارِث غيرُهن.

وهذا مِمّا لا إشكال ولا شُبهة فيه عندَنا نصّاً وفتوىً، إنّما الإشكال في اسْتِفادة حُكم إرث البِنْتين مِن الآية المُباركة، وقد ذكَروا لها وجُوهاً ثلاثة:

الأوّل: أنّه لمّا بيّن الله تعالىٰ أنّ حَظّ الذَّكر الواحِد ـ إذا كانت معه أُنثىٰ واحدة ـ مِثل حَظّ الأُنثَيَيْن، وهُو الثُّلُثان، عُلِم أنّ فَرْض الاثنين الثُّلُثان في صُورة الانْفِراد.

الثاني: أنّه لمّا عُلِم مِن قوله: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ أنّ حَظّ الأُنثيَيْن أزيد مِن حَظّ الأُنثىٰ الواحِدة، عُلِم أنّ حَظّ الأُنثَيَين الثُّلُثان، لعدَم القول بالفَرْق.

الثالث: أنّه لمّا عُلِم أنّ نَصيب البِنت الواحدة ـ إذا كانت معَ الذَّكَر الواحد ـ الثُّلث، عُلِم أنّه إذا لَم يكُن معها الذَّكَر، وكانت معها الأُنثىٰ الأُخرىٰ، كان نَصيبُها الثُّلث لأقوائيّة الذَّكَر. وأحسن الوُجوه الوَجْه الأوّل.

﴿وَإِن كَانَتْ﴾ البِنت ﴿وَاحِدَةً﴾ ليسَ معها غيرُها مِن الأولاد، ذُكوراً وإناثاً ﴿فَلَهَا ٱلنِّصْفُ﴾ مِمّا ترَك الميِّت بالفَرض، والنِّصف الآخر بالرَّدّ، إذا لَم يكُن معها مِن الوالدين والزَّوجين أحدٌ.

ثمّ بيّن الله تعالىٰ حُكْم إرث والدَي المُتوفَىٰ حالَ اجْتِماعهما معَ أولاده، بقوله: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ﴾ لكِن لا مَجموعاً، بَل ﴿لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا﴾ أباً كان أو أُمّاً ﴿ٱلسُّدُسُ﴾ فَرضاً، ولكُلَيهما السُّدُسان ﴿مِمَّا تَرَكَ﴾ المُتوفَىٰ، قليلاً كان أو كثيراً ﴿إِن كَانَ لَهُۥ﴾ حينَ وَفاته ﴿وَلَدٌ﴾ وإنْ نزَل، ذَكَراً كان أم أُنثىٰ، واحِداً كان أو مُتعدِّداً.

نعَم، في صُورة انْحِصار الوَلد في بِنت واحدة، وفي صُورة تَعدّدها ووُجود أحد الأبوين، يُرَدّ ما زاد علىٰ الفُروض إلىٰ جميعهم علىٰ حَسَب سِهامهم.

﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ﴾ أصلاً، لا ذكراً ولا أُنثىٰ، بِلا واسِطة أو معها ﴿وَوَرِثَهُۥٓ﴾ مِن الأقارب النَّسَبي ﴿أَبَوَاهُ﴾ فقط، وإن كان معهما الزَّوج والزَّوجة ﴿فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾ مِمّا ترَك ولأبيه الثُّلُثان، إن لَم يكُن الزَّوج أو الزَّوجة، فإن كان أحدُهما فله النَّصيب الأعلىٰ، وللأمّ فَرضها، وما بقِي مِن فَرض الأمّ وأحدِ الزَّوجين فللأب.

ولكِن كَوْن نَصيب الأمّ الثُّلث مَشروط بعدَم وجُود الإخوة للميّت ﴿فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ﴾ للأب أو للأبوين، كانوا اثْنين أو أكثر ﴿فَلِأُمِّهِ﴾ إذا كان أبوه حَيّاً ﴿ٱلسُّدُسُ﴾ ولأبيه بقيّة التَّركة، لكَوْنه ذا عَيْلَة[1] بوُجودهم، فاقْتَضت الحِكْمة التّوفير عليه لمَكان نَفَقتهم. والأختان للأب تقومان مَقام أخٍ واحدٍ له.

في (الكافي) و(التهذيب): عن الصادق عليه السلام: «أنّه لا يحجُب الأمّ عن الثُّلث إلّا أخَوان، أو أخ وأُختان[2]، أو أربع أخواتٍ لأبٍ وأم، أو لأب»[3].

وعن زُرارة قال: سمِعتُ أبا عبدالله عليه السلام يقول في الإخوة مِن الأمّ: «لا يحجبُون [الأمّ] عن الثُّلث»[4].

ثمّ بيّن الله سُبحانه أنّ الإرث والفُروض لا مَحلّ لها إلّا ﴿مِن بَعْدِ﴾ إخراج ﴿وَصِيَّةٍ يُوصِى﴾ الميّت ﴿بِهَا﴾ مِن التَّركة - قيل: فائدة تَوْصيف الوَصيّة بقوله: ﴿يُوصِى بِهَا﴾ التّرغيب بها، والنَّدْب إليها - ﴿أَوْ﴾ بعد إخراج ﴿دَيْنٍ﴾ ثابتٍ على الميّت وإنْ لَم يُوصِ به، كان ثُبوته بإقراره به حال صِحّته، أو بالبيِّنة، أو بغيرهما.

وفي إيثار كلمة (أو) على (الواو) دَلالة على تَساويهما[5] في وُجوب الإخراج، إذا وسعتهما التّركة، ولَم يكُن الدَّين مُستوعباً لها.

وفي تقديم ذِكْر الوصيّة على الدَّين معَ تأخّرها عنه في الرُّتبة، إشعارٌ بكمال العِناية والاهْتِمام بتنفيذها.

روى الفخر الرازي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «إنّكم لتقرأون الوَصيّة قبلَ الدَّين، وإن رَسُول الله صلى الله عليه وآله قضى بالدَّين قبلَ الوصيّة»[6].

ثمّ لمّا جعَل الله سُبحانه هذا التّفاوُت بَيْن نَصيب الآباء والأولاد في الإرث، وقد لا تُساعده العُقول الضّعيفة والاعْتِبارات السّخيفة، نبّه الله تعالى على قُصور العُقول عن إدراك حِكْمة هذا التّفاوُت، ووُجوب العَمل بوَصيّته تعالى في نَصيبهم، بقوله: ﴿آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ﴾ الّذِين يرثونكم ﴿لَا تَدْرُونَ﴾ ولا تُدرِك عُقولُكم ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً﴾ في الدُّنيا، وأكثر فائدة لكُم، مِن جِهة التّربية والإنفاق والنُّصْرة وغيرها، فقد تتخيّلون أنّ أحدَهما أنفع لكم مِن الآخر، ورُبّما يخطِر ببالكم أنّ القِسْمة بغير هذا الوَجْه أصلح، وهُو خِلاف الواقع، فسلِّموا لحُكْم الله - العالِم بالمُغيّبات وحَقائق الأمور - بأقربيّة بعضٍ مِن بعض، وبتَوفير القِسْمة على بعضٍ دون بعض، وأطيعوا أمرَ الله في التّقديرات التي قدّرها

---

١. العَيْلَة: الفقر والحاجة.
٢. (أو أخ وأختان) ليس في الكافي والتهذيب.
٣. الكافي ٧: ٥/٩٢، التهذيب ٩: ١٠١٧/٢٨١، تفسير الصافي ١: ٣٩٤.
٤. الكافي ٧: ٦/٩٣، تفسير الصافي ١: ٣٩٤.
٥. أي تساوي الوصيّة والدَّين.
٦. تفسير الرازي ٩: ٢١٦.

في أموالكم، وأترُكوا مُوافقة هَوىٰ أنفسكم في قِسمة المَواريث.

وقيل: إنّ المُراد: أقرب لكُم نفعاً في الآخرة[١].

رُوي عن ابن عبّاس ﷺ أنّه قال: إنّ الله ليُشفِّع بعضَ المُؤمنين في بعضٍ، فأطوعكم لله عزّ وجلّ مِن الأبناء والآباء أرفعكم دَرجةً في الجنّة، وإن كان الوَالد أرفع دَرَجةً في الجنّة مِن وَلده رفَع الله إليه ولده بمسألته ليُقِرّ بذلك عَيْنيه، وإن كان الوَلد أرفع دَرجةً مِن والديه رفع الله إليه والدَيْه، فقال: ﴿لَا تَدرُونَ أيُّهم أقربُ لكُم نَفعاً﴾ لأنّ أحدَهما لايعرِف أن انْتِفاعه في الجنّة بهذا أكثر أم بذلك[٢].

أقول: يُمكِن القول بإرادة النَفْع الأعمّ مِن الدُّنيوي والأُخروي.

وقيل: إنّ الخِطاب للوَرَثة، والمُراد أنّه لا تدرون أيُّها الوَرَثة، أيَّ مُورثكم مِن الأُصول والفُروع أقرب لكم نفعاً، أمَن وصَىٰ ببعضِ ماله فيُعرّضكم لثَواب الآخرة بتنفيذ وصيّته، أم مَنْ لَم يُوصِ بشيءٍ فوفّر عليكم حظّكم مِن تَركته، فإنّكم تحكُمون بأنّ الثاني أنفع، والواقع خِلافه، بَل الأوّل أنفع لأنّه لا يعدِل ثَواب الآخرة جميعُ الدُّنيا وما فيها.

ثمّ أكّد سُبحانه وُجوب الالْتِزام بما فَرضَه في المَواريث بقوله: ﴿فَرِيضَةً﴾ كائِنةً ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ الْتزِموها، وقِسْمة قسَمها الله فلا تعدِلوا عنها إلىٰ ما تميل إليه طِباعُكم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ﴾ في الأزل ﴿عَلِيماً﴾ بمَصالح عِباده ﴿حَكِيماً﴾ في كُلّ ما فرَض وقدّر، فإذا كان كذلك كانت قِسْمته أصلح وأحكم. وفي ذِكْر اسْم الجَلالة وتَكراره مُبالغة في تَربية مَهابته في القُلوب.

وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِى ٱلثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ[١٢]

ثمّ لمّا بيّن سُبحانه حُكم إرث أقرب القَرابات النَّسَبيّة وأقواها؛ وهِي القَرابة بالوِلادة التي تكون بيْن الوالِدَين والأولاد، أردفه ببَيان إرث أقرب القَرابات السَّببيّة، وهِي النِّسبة بالمُزاوجة التي تكون شريكاً للنَّسَبيّة في جميع الطّبقات في الإرث.

---

١. تفسير الرازي ٩: ٢١٨.

٢. تفسير الرازي ٩: ٢١٨.

قيل: إنّ العَرَب كانوا في الجاهليّة لا يورّثون الزّوجة مِن تَركة زَوجها، فنسَخه الله سُبحانه بحُكْمه بالتّوارث.

ولمّا كان الحكم بإرث الزّوجة ثقيلاً على الطّباع، قدّم بَيان حُكم إرث الأزواج، تَطييباً لقُلوبهم، وإظهاراً لفَضلهم بقوله: ﴿وَلَكُمْ﴾ أيّها الأزواج بجِهة الإرث ﴿نِصْفُ﴾ جميع ﴿مَا تَرَكَ﴾ وخلّف ﴿أَزْواجُكُمْ﴾ ونِساؤكم المَنكوحات بالنّكاح الدّائم، دون المُنقطع على الأصحّ، مِن الأموال كانت عِقاراً أو غيرها، مَنقولة أو غيرها ﴿إِن لَمْ يَكُن لَهُنَّ﴾ حينَ مَوتهن ﴿وَلَدٌ﴾ وارِثٌ أصلاً مِنكم، أو مِن غيركم، ذُكور أو إناث، بلا واسِطة أو معها ﴿فَإِن كَانَ لَهُنَّ﴾ حينَ مَوتهنّ مِنكم أو مِن غيركم ﴿وَلَدٌ﴾ وارِثٌ، وإنْ كان اُنثىٰ واحِدة سافلة[1] ﴿فَلَكُمْ﴾ إرثاً وفَرضاً ﴿ٱلرُّبُعُ مِن﴾ جميع ﴿مَا تَرَكْنَ﴾ وخلّفنَ مِن الأموال، إذا لَم يكُن لهُنّ وَصيّة بمالٍ، أو عليهِنّ دَيْن، وإنْ كانا فالإرث ﴿مِنْ بَعْدِ﴾ إخراج ﴿وَصِيَّةٍ﴾ كُنّ ﴿يُوصِينَ بِهَا﴾ في حياتِهنّ ﴿أَوْ﴾ قَضاء ﴿دَيْنٍ﴾ ثابِت في ذِمّتهِنّ.

ثمّ بينّ سُبحانه نَصيب الزّوجات الدّائمات مِن تَركة أزواجِهنّ، بقوله: ﴿وَلَهُنَّ﴾ إنْ مُتّم وبَقين بعدَكم ﴿ٱلرُّبُعُ مِن﴾ جميع ﴿مَا تَرَكْتُمْ﴾ وخلّفتم مِن الأموال المَنقولة عَيناً، ومِن الأبنية والأشجار قيمةً لا عَيناً ﴿إِن لَمْ يَكُن لَكُمْ﴾ بعدَ مَوتكم مِنهُنّ أو مِن غيرهِنّ ﴿وَلَدٌ﴾ وارِثٌ أصلاً، وإنْ كان اُنثىٰ نازلة. والباقي لغيرهِنّ مِن وُرّاثكم، فإن لَم يكُن لكُم وارِثٌ غيرهُنّ فللإمام عليه السلام ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ﴾ ولَو مِن الأمَة، أو المُنقطعة، أو في الحَمْل بشَرط الانفِصال حيّاً، وإن نزَل ﴿فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم﴾ مِن المال، سِوىٰ الأراضي وأعيان الأبنية والأشجار، دُون قيمتها ـ كما مرّ ـ علىٰ الأصحّ، ولكِن ﴿مِنْ بَعْدِ﴾ إخراج ﴿وَصِيَّةٍ﴾ كنتُم ﴿تُوصُونَ بِهَا﴾ في حَياتكم ﴿أَوْ﴾ أداء ﴿دَيْنٍ﴾ كان عليكم.

قيل: لمّا فضّل الله تعالىٰ الرِّجال علىٰ النِّساء في النّصيب، نبّه علىٰ فَضيلتهم عليهِنّ بذِكْرهم في الآية علىٰ سَبيل المُخاطبة سَبع مرات، وذِكْرهِنّ علىٰ سبيل المُغايبة أقلّ مِن ذلك[2].

في بيان علل تفضيل الرجال على النساء في النصيب

وقد علّل أئمّتُنا صلَواتُ الله عليهم تَفضيل الرِّجال علىٰ النِّساء في النّصيب بوُجوهٍ، علىٰ ما في رِوايات أصحابنا رِضوان الله عليهم أجمعين:

مِنها: ما رُوي عن الرضا عليه السلام، في جَواب مَن سأله عن ذلك مِن: «أنّ المرأة إذا تزَوجت أخذت، والرّجُل يُعطي، ولذلك وفَر علىٰ الرجل، ولأنّ الأُنثىٰ في عِيال الذّكَر إنْ احْتاجَتْ، وعليه أن يعولها وعليه نَفقتُها، وليسَ علىٰ المرأة أن تعول الرّجُل ولا تُؤخذ بنَفقته إن احْتاج، فوفّر

١. سافلة: أي نازلة، مثل بنت البنت أو بنت الولد.
٢. تفسير الرازي ٩: ٢٢٠.

علىٰ الرّجُل لذلك، وذلك قوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ...﴾ الآية»[١].

ومنها: مارُوي عن الصادق عليه السلام، في جَواب عبدالله بن سِنان حين سأله عن عِلّة التّوفير، حيث قال عليه السلام: «لِمَا جعَل لها مِن الصَّداق»[٢].

ومنها: مارُوي عن العسكري سلام الله عليه، في جواب الفَهفكي، لمّا قال له عليه السلام: ما بالُ المرأة المسكينة الضعيفة تأخذ سهماً ويأخذ الرجل القوي سهمين؟ فقال عليه السلام: «لأنّ المرأة ليس عليها جِهاد ولا نَفَقة ولا مَعْقُلَة[٣]، إنّما ذلك علىٰ الرِّجال».

فقلتُ في نفسي: قد كان قيل لي: إنّ ابن أبي العَوجاء سأل الصادق عليه السلام عن ذلك، فأجابه مِثل هذا الجواب، فأقبل عليه السلام عَلَيّ فقال: «نعم، هذه مَسألة ابن أبي العوجاء، والجواب مِنّا واحدٌ»[٤].

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَما بيّن حُكم إرث أقوىٰ الانْتِسابات النَّسَبيّة، وهُو القَرابة بالوِلادة كقَرابة الأبوين والأولاد، وأقوىٰ الانْتِسابات السَّببيّة، وهُو المُزاوجَة كالزّوجين، ولِذا يرِثان مع جميع طَبقات الوارِث، شرَع سُبحانه في بَيان حُكم إرث أضعف القَرابات النَّسَبيّة، وهِي القَرابة مِن قِبَل الأمّ إلىٰ الميِّت، بقوله: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ﴾ ميّت ﴿يُورَثُ﴾ مِنه، لكَوْنه أو حال كَوْنه ﴿كَلَالَةً﴾ وذا قريبٍ، ليس بَيْنه وبَيْن ذلك القريب نِسْبة اُبوّة وبُنوّة، كما عن الصادق عليه السلام فإنّه فسّرها بمن ليسَ بوَلدٍ ولا والدٍ[٥]، ﴿أَوِ﴾ كانت ﴿آمْرَأَةٌ﴾ مُتوفّاه كذلك.

قيل: إنّ الكَلالة في اللُّغة بمعنىٰ الإحاطة، وسُمّي مَن عَدا الوالد والولد مِن القَرابات بالكَلالة لإحاطتهم بالشّخص.

ثمّ كنّىٰ سُبحانه عن الرّجُل دون المرأة إظهاراً لشَرَفه وفَضله، بقوله: ﴿وَلَهُ﴾، وقيل: إنّ المُراد مِن (الضمير) الميّت، الصّادِق علىٰ الرّجُل والمرأة ﴿أَخٌ﴾ واحد ﴿أَوْ أُخْتٌ﴾ واحدة، مِن قِبَل الأمّ ﴿فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا﴾ في تِلك الصُّورة ﴿السُّدُسُ﴾ مِمّا ترَك الميِّت مِن المال ﴿فَإِن كَانُوا﴾ هؤلاء الأقرباء الأمّيون ﴿أَكْثَرَ﴾ وأزيد ﴿مِن ذَٰلِكَ﴾ العَدَد الوَحداني بواحدٍ أو بأكثر، [سواء أ]كانوا مُتّفقين في الذُّكورة والأنوثة، أو مُختلفين ﴿فَهُمْ شُرَكَاءُ فِى الثُّلُثِ﴾ مِن المال يتساوون فيه لا فضيلة للذُّكور مِنهم علىٰ الإناث في النّصيب. وتَعليله بكَوْن الانْتِساب بمَحْض الأنوثة ـ كما عن بعض العامة[٦] ـ عليل.

---

١. علل الشرائع: ١/٥٧٠، والآية من سورة النساء: ٣٤/٤.
٢. علل الشرائع: ٢/٥٧٠.
٣. المَعْقُلة: دِية القتيل تُدفع من الإرث.
٤. الكافي ٧: ٢/٨٥، التهذيب ٩: ٩٩٢/٢٧٤.
٥. الكافي ٧: ٢/٩٩ و٣.
٦. تفسير روح البيان ٢: ١٧٥.

ثمّ بيّن سُبحانه أنّ هذين الفَرْضين أيَضاً كسائر الفُروض، يكونان في التَّركة ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ حال كَوْن المُوصي ﴿غَيْرَ مُضَارٍّ﴾ لوَرَثته بوَصيّة زائدة علىٰ الثُّلث، أو بالإقرار بالدَّين كَذِباً لإيصال النَّفع إلىٰ المُقرّ له وتنقيص حَقّ الوَرَثة.

ثمّ أكّد سُبحانه وجُوب تَوريث الأزواج والكَلالة علىٰ النَحو المَذكور، بقوله: ﴿وَصِيَّةً﴾ كائنةً ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ قيل: إنّ التَقدير: يُوصيكم الله بتَوريث هؤلاء الأقارب وَصيّةً لا يجُوز تغييرها.

ويُمكِن أن يكون المُراد: تلقّوا أيُّها النّاس هذه الأحكام بعُنوان كَوْنها وَصيّةً أكيدة مِن الله إليكم، فمَن بدّلها فإنّما إثمه علىٰ الّذِين يُبدِّلونه.

قيل: إنّه تعالىٰ ختَم آية إرث الوَالدين والأولاد بقوله: ﴿فَرِيضَةً مِنَ ٱللَّهِ﴾[1]، وهذه الآية بقوله: ﴿وَصِيَّةً مِنَ ٱللَّهِ﴾ للدلالة علىٰ أنّ رِعاية الوَالدين والأولاد أهمّ وأولىٰ مِن رِعاية غيرهم، لأنّ لَفظ الفَرْض أقوىٰ وآكد مِن لَفظ الوَصيّة[2].

ويُمكن أن تكون النّكتة أنّ تَوريث الأبوين والأولاد لمّا كان مُوافقاً لطِباعهم شدّد عليهم في الحُكْم، بخِلاف تَوريث الزَّوجَات والأباعد فإنّه كان مُخالفاً لطِباعهم فأكّده بما فيه تَطييب لقُلوبهم واستِمالة لخاطِرهم أوّلاً ثمّ أردفه بالتّهديد علىٰ المُخالفة، بقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأعمالكم ﴿حَلِيمٌ﴾ علىٰ مَن خالفه وعَصاه، لا يُعاجله بالعُقوبة.

تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ[١٣]

ثمّ بالغ سُبحانه في التّأكيد في العمل بجميع الأحكام السّابقة، بقوله: ﴿تِلْكَ﴾ الأحكام المَذكورة المُفصّلة ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ التي حَدّها، فلا يرضىٰ بالتّجاوز عنها، والقوانين التي قَنّنها، فلا يجُوز مُخالفتها.

ثمّ رغّب في إطاعة جميع أحكامه بالوَعد بالثّواب الجزيل عليها، بقوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وامتَثل أوامرهما ونَواهيهما التي مِنها ما فصّله في السُّورة المُباركة ﴿يُدْخِلْهُ﴾ الله في الآخرة برَحمته وفَضله ﴿جَنَّاتٍ﴾ وبَساتين ذوات أشجارٍ مُلتفّة ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ﴾ الكثيرة، حالَ كَوْنهم ﴿خَالِدِينَ﴾ مُقيمين ﴿فِيهَا﴾ أبداً ﴿وَذَٰلِكَ﴾ الثّواب هو ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ والظّفَر الأتمّ بأعلىٰ المَقاصد، والنّجاح الكامِل بأسنىٰ المَطالب.

---

١. النساء: ١١/٤.

٢. تفسير الرازي ٩: ٢٢٦.

وَمَن يَعْصِ ٱللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ ناراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ[١٤]

ثمَ أردف الوَعد بأشدّ الوَعيد، تَرهيباً مِن المَعصية، وتَتميماً للُطف، بقوله: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللهَ وَرَسُولَهُ﴾ ويُخالف أحكامه ﴿وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ﴾ ويَتجاوز حِماه ﴿يُدْخِلْهُ﴾ الله ﴿نَاراً﴾ لا تُوصف شِدّةُ حَرّها، حالَ كَونه ﴿خَالِداً فِيهَا﴾ في الآخرة ﴿وَلَهُ﴾ معَ ذلك ﴿عَذَابٌ﴾ لا يعرف كُنْهه أحدٌ إلّا الله ﴿مُهِينٌ﴾ له، لاستِهانته بأحكام الله وحُدوده.

وَٱلَّاتِى يَأْتِينَ ٱلْفَاحِشَةَ مِن نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللهُ لَهُنَّ سَبِيلاً[١٥]

ثمَ أنّه تعالىٰ بعدما بيّن وُجوب رِعاية النِّساء، والعَدْل بَيْنهنّ، وإيتائهنّ مُهورهنّ، وتَوريثهنّ مِن أزواجِهنّ وأرحامهنّ، شدّد عليهِنّ في ما يأتينه مِن الفاحشة، بقوله: ﴿وَٱلَّاتِى يَأْتِينَ﴾ ويرتَكِبْنَ ﴿ٱلْفَاحِشَةَ﴾ والعمل الذي هُو في غاية القَباحة، وهُو الزِّنا، وهُنّ الكائنات ﴿مِن نِسَائِكُمْ﴾ وزَوجاتكم، أو الحرائر والمُؤمنات ﴿فَاسْتَشْهِدُوا﴾ واطْلبوا للشّهادة ﴿عَلَيْهِنَّ﴾ مِن قاذِفهنّ ﴿أَرْبَعَةً﴾ مِن الرِّجال الّذين يكونون ﴿مِنكُمْ﴾ وعلىٰ دينكم ﴿فَإِن شَهِدُوا﴾ عليهنّ بارْتِكاب الفاحشة، وكانوا عُدُولاً ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ واحْبِسوهُنّ أيُّها المُؤمنون ﴿فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ﴾ ويقطَع مِن الدُّنيا عَلاقتهنّ ﴿ٱلْمَوْتُ﴾ وقيل: إنّ المُراد: مَلَك الموت بحذف المضاف ﴿أَوْ يَجْعَلَ ٱللهُ لَهُنَّ سَبِيلاً﴾ للخَلاص مِن الحَبس.

عن الصادق عليه السلام أنّه سُئل عن هذهِ الآية ﴿وَٱللَّاتِي يَأْتِينَ ٱلْفَاحِشَةَ...﴾، قال: «هذه مَنسوخة»، قيل: كيف كانت؟ قال: «كانت المرأة إذا فجَرت فقام عليها أربعة شُهود، اُدْخِلت بيتاً ولَم تُحدَّث ولم تُكَلَّم ولَم تُجالس، واُوتيت بطَعامها وشرابها حتّىٰ تموت»، ﴿أَوْ يَجْعَلَ ٱللهُ لَهُنَّ سَبِيلاً﴾،قال: «جَعْل السَّبيل: الجَلْد والرَّجْم»[١].

وعن النبيّ صلى الله عليه وآله: «خُذوا عنّي، قد جعَل الله لهُنّ سبيلاً، البِكْر بالبِكر جَلْد مائة وتَغْريب عام، والثَّيِّب بالثَّيِّب جَلْد مائة والرجْم»[٢].

---

١. تفسير العياشي ١: ٩٠٣/٣٧٧، تفسير الصافي ١: ٣٩٨.

٢. مجمع البيان ٣: ٣٤، تفسير الصافي ١: ٣٩٨.

قد مرَ في بعض الطَرائف أنّ المُراد بالنّسخ هُنا غيرَ مَعناه المُصطلح[١].

قيل: إنّ المُراد بالسّبيل هُو النّكاح المُغني عن السّفاح[٢].

وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ ٱللهَ كَانَ تَوَّاباً رَحِيماً[١٦]

ثمَ أنّه تعالىٰ بعدَ بَيان العُقوبة المُختصّة بالمرأة الزّانية، بيّن العُقوبة المُشتركة بيْن الرّجُل والمرأة إذا زَنيا بقوله: ﴿وَٱلَّذَانِ﴾ يرتكبان الفَاحشة و﴿يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ﴾ سَواءً كانا بِكرين أو ثَيّبين ﴿فَآذُوهُمَا﴾ بالتّوبيخ والتّعيير.

عن ابن عبّاس ﷺ: [هو التعيير باللسان و] الضرب بالنعال[٣].

﴿فَإِن تَابَا﴾ وندِما عن فِعْلهما القَبيح ﴿وَأَصْلَحَا﴾ والْتزما بحُسْن العَمل ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾ واتْرُكوا إيذاءهما؛ فإنّه يرتفع بالتّوبة اسْتِحقاق العُقوبة ﴿إِنَّ ٱللهَ كَانَ﴾ بكرَمه ﴿تَوَّاباً﴾ مُبالغاً في قَبُول التّوبة، عائداً علىٰ التّائبين بالفَضل والمَغفرة ﴿رَحِيماً﴾ بهم.

قيل: إنّ المُراد مِن الآية الأُولىٰ الثّيّبات، ومن الثانية الأبكار مِن الرّجال والنّساء[٤]؛ لأنّ العَذاب في الثّانية أخفّ مِن الأُولىٰ.

وقيل: إنّ الأُولىٰ في السّحّاقات، والثانية في أهل اللّواط[٥].

والقولان مُخالفان لِروايات الخاصّة والعامّة، وعلىٰ أيّ تَقدير لا شُبهة في أنّ الآية الثّانية مَنسُوخة بآيات الحَدّ.

إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولٰئِكَ يَتُوبُ ٱللهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللهُ عَلِيماً حَكِيماً[١٧]

ثمَ أنّه تعالىٰ لمّا ذكَر أنّ التّوبة ماحِية للذُّنوب رافعة للعُقوبة، حَثّ العُصاة عليها ببَيان إيجابه قَبُول التّوبة علىٰ نفسه؛ بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ﴾ واجبة القَبُول ﴿عَلَى ٱللهِ﴾ لكمال حُسْنه عقلاً، واقْتِضاء كَرَمه، وسَعَة رَحمته، قُبولها وامْتِناع رَدّها ـ وهذا أشدّ مَراتب الوّجوب ـ ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوءَ﴾ والعِصيان صَغيراً كان أو كبيراً، ولكِن إ ذا كان ارْتِكابهم له ﴿بِجَهَالَةٍ﴾ وسَفاهة، وغَلَبة الهوىٰ، وإعانة النّفس،

---

١. راجع الطرفة (٢٠). ٢. تفسير البيضاوي ١: ٢٠٥. ٣. مجمع البيان ٣: ٣٥.
٤. تفسير الرازي ٩: ٢٣٥. ٥. تفسير البيضاوي ١: ٢٠٦.

والغَفلة عن سُوء العَاقبة، لا بسبب الكُفْر والطُّغيان، وعدَم الاعْتِقاد بالمَبدأ والمَعاد؛ فإنّ الكافر لا تُقبل تَوبتُه مِن الأعمال السَّيِّئة معَ بقائه علىٰ الكُفر.

فتحصّل مِن تقييد قَبُول التّوبة عن المَعصية بكَوْنها مُسبّبة عن جَهالةٍ أنّ تحتُّم القَبُول علىٰ الله مَشروط بكَوْن العَمَل السيّء صادِراً عن السفاهة، وعدَم التّدبُّر في سُوء عاقبته، لا عن الجَهل المُركّب بالمَبدأ والمَعاد، أو البسيط.

عن الصادق عليه السلام: «كُلّ ذَنبٍ عمَله العَبد وإن كان عالِماً فهُو جاهل حينَ خاطَر بنفسه في مَعصية ربّه، فقد حكىٰ الله سُبحانه قولَ يُوسف لإخوته: ﴿هَل عَلِمتُم مَا فَعَلتُم بِيُوسُفَ وَأخِيهِ إذا أنتُم جاهِلُونَ﴾»[1].

ثمّ بيّن سُبحانه الشّرْط الثّاني بقوله: ﴿ ثُمّ يَتُوبُونَ﴾ ويرجِعون إلىٰ النّدَم والتّوجُّه إلىٰ الله في جُزءٍ ﴿مِن﴾ زَمان ﴿قَرِيبٍ﴾ مِن المَعصية، ولا يؤخّرونها إلىٰ زمان حُضور الموت، ومُشاهدة عالَم البَرْزخ، ومُعاينة أهواله.

وتَسمية هذا الزّمان قريباً، لأنّه آتٍ، وكُلّ آتٍ قريب، ولوُجوب انْتِظار الإنسان مَوته في كُلّ آن، ويحسَبه قريباً، ويُبادر إلىٰ التّوبة.

رُوي أنّ إبليس لمّا هبَط قال: وعزتك [وجلالتك] وعظمتك، لا اُفارق ابن آدم حتّىٰ تُفارق رُوحُه جَسَده، فقال الله عزّ وجلّ: وعزّتي وعظمتي [وجلالي] لا أحجِب التّوبة عن عبدي حتّىٰ يُغرغر[2] بها[3].

وفي (الفقيه): قال رَسُول الله صلى الله عليه وآله، في آخر خُطبة خطَبها: «مَنْ تاب قبلَ مَوته بسنَةٍ تاب الله عليه» ثمّ قال: «وإنّ السّنة لكثير، مَن تاب قبلَ مَوته بشَهرٍ تاب الله عليه» ثمّ قال: «وإنّ الشّهْر لكثير [مَن تاب قبل موته بجُمعة تاب الله عليه» ثمّ قال: «إنّ الجمعة لكثير] مَن تاب قبلَ مَوته بيومٍ تاب الله عليه» ثمّ قال: «وإن اليوم بكثير، من تاب قبل موته بساعةٍ تاب الله عليه» ثمّ قال: «وإنّ السّاعة لكثير، مَن تاب [قبل موته] وقد بلَغتْ نفسُه هذه» وأهوىٰ بيده إلىٰ حَلْقه «تاب الله عليه»[4].

قيل: إن كلمة (من) هُنا، ليس للتّبعيض، بَل هِي لابْتداء الغاية، والمعنىٰ: يجعل مُبتدأ توبته زماناً قريباً مِن المعَصية؛ لِئلا يقع في زُمرة المُصرّين[5].

---

١. مجمع البيان ٣: ٣٦، تفسير الصافي ١: ٣٩٨، والآية من سورة يوسف: ٨٩/١٢.

٢. في النسخة: يرغرغ، ومعنىٰ الغرغرة هنا تردد الروح في الحلق.

٣. مجمع البيان ٣: ٣٧.

٤. من لا يحضره الفقيه ١: ٣٥٤/٧٩، تفسير الصافي ١: ٣٩٩.

٥. تفسير الرازي ١٠: ٥.

وقيل: إنّ المُراد مِن قوله تعالىٰ: (من) زمان قريب قبلَ أن يُشرَب في قُلوبهم حُبُّه، فيُطبع عليها، فيتعذّر[1] عليهم الرُّجوع[2].

ثمّ أكّد سُبحانه وَعْده بقَبُول التّوبة، بقوله: ﴿فَأُوْلَٰئِكَ﴾ الواجِدون لشَرطَي قَبُول التّوبة ﴿يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيهِمْ﴾ عملاً بما كتَب علىٰ نفسه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيماً﴾ بضمائر التّائبين مِن الإخلاص، وحقيقة النّدَم، والعَزْم علىٰ عدَم العَوْد ﴿حَكِيماً﴾ في فِعاله،لا يُمكن صُدور عُقوبة التّائبين مِنه؛ لمُنافاتها حِكْمته وكَرَمه.

وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلآنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً[١٨]

ثمّ بيّن الله سُبحانه زَمان عدَم قَبُوله التّوبة فيه، والمَعصية التي لا تُقبل التّوبة مِنها، بقوله: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ﴾ المَقبولة ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّئَاتِ﴾ ويشتغِلون بالذُّنوب ويديمون عليها، لاهين عن ذِكْر الله وعن التّوبة ﴿حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ وشاهد عَلاماته، وعَاين أهواله، وصار معرِفتَه بالله وعِلْمه بدَار الجزاء ضَرورياً، ﴿قَالَ﴾ عندَ رُؤية بأس الله: ﴿إِنِّي تُبْتُ ٱلآنَ﴾ مِن ذُنوبي ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ﴾ حينَ مَوتهم ومُعاينتهم الآخرة ﴿كُفارٌ﴾ وغير مُستأهلين لقَبُول تَوبتهم وإن آمنوا بعدَه، لقوله: ﴿فَلَم يَكُ يَنفَعُهُم إِيمَانُهُم لَمَّا رأَوا بَأسَنَا﴾[3] ﴿أُوْلَٰئِكَ﴾ الفريقان ﴿أَعْتَدْنَا﴾ وهيّأنا ﴿لَهُم﴾ في الآخرة ﴿عَذَاباً﴾ دائِماً ﴿أَلِيماً﴾ مُوجِعاً في الغاية.

فسوّىٰ سُبحانه بيْن المُؤمن الفاسق المُسوّف للتّوبة إلىٰ وُقوعه في سَكْرة الموت، وبيْن الكافرين الّذِين لا يُؤمنون ولا يتُوبون إلىٰ رُؤية مَلَك الموت، في عدَم قَبُول التّوبة واسْتِحقاق العذاب الأليم.

قيل: إنّ المُراد مِن الّذِين يعمَلون السَّيِّئات المُنافقون، لدَلالة قوله تعالىٰ: ﴿يَا عِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسرَفُوا عَلَىٰ أنفُسِهِم لَا تَقنَطُوا مِن رَحْمَةِ ٱللهِ إِنَّ ٱللهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾[4]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾[5]، ولدَلالة رِواياتٍ كثيرة علىٰ شُمول الرّحمة والشّفاعة لعُصاة المؤمنين.

أقول: يُمكن أن يكون المُراد مِنه خُصوص مَنْ أخرجتهُ سيِّئاتُ أعماله مِن الإيمان إلىٰ الكُفْر عندَ

---

١. في النسخة: فيعتذّر. ٢. تفسير البيضاوي ١: ٢٠٦. ٣. المؤمن: ٨٥/٤٠.
٤. الزمر: ٥٣/٣٩. ٥. النساء: ٤٨/٤.

مَوته، كما قال تعالىٰ: **﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَاؤُا ٱلسُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ ٱللهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾**[١] فإنّ فيه دَلالةً علىٰ أنّ التّمادي في العِصيان والأعمال السّيّئة مُوجبٌ لطَبع القَلب وقَساوته، ومُخرج المعاصي مِن نُور الإيمان إلىٰ ظُلُمات الكُفْر والتّكذيب بآيات الله، بَل في بعض الرِّوايات أنّ أثر بعضِ المعاصي ـ كتَرْك الصّلاة، ومَنْع الزّكاة ـ ذلك، مثلُ ما رُوي مِن أنّه يُقال لمانِع الزّكاة عندَ مَوته: مُتْ يَهوديّاً أو نَصرانيّاً[٢].

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا ٱلنِّسَاءَ كَرْهاً وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ ٱللهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً[١٩]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ التّشديد علىٰ النِّساء في إرْتِكاب الفَاحشة، والوَعْد بقَبُول التّوبة، وبَيان شُروط قَبُولها، عاد إلىٰ بَيان وُجوب رِعاية النِّساء والنّهي عن التّعدي عليهم بإجبارهِنّ علىٰ التّزويج، ومَنْعهِنّ مِن اختيارهِنّ الأزواج، بقوله: **﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾** بالله واليوم الآخر **﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ﴾** في شَرع الإسلام **﴿أَن تَرِثُوا﴾** مِن أقاربكم **﴿ٱلنِّسَاءَ﴾** والزّوجَات، وتتملّكوا أزواجهم للاسْتِمتاع، كما تتملّكون أموالهم بعنوان الميراث **﴿كَرْهاً﴾** مِنهم، وبغير رِضاهِنّ بالنِّكاح.

قيل: كان الرّجُل في الجاهليّة إذا مات وكانت له زوجة، جاء ابنُه مِن غيرِها، أو بعضُ أقاربه فألقىٰ ثوبه على المرأة وقال: ورِثتُ زوجته كما ورِثتُ ماله. فصار

أحقّ بها مِن سائر النّاس ومِن نفسِها، فإن شاء تزوّجها بغير صَداق إلّا الصَّداق الذي أصدقها الميِّت، وإن شاء زوّجها مِن إنسان آخر، وأخذ صَداقها ولم يُعطِها مِنه شيئاً، فنهىٰ الله عن إرث عَيْن النِّساء[٣].

وقيل: إنّه كان لوارث الميّت أن يحبِس زَوجته حتّىٰ تموت ويرث مالها، أو يُضيّق عليها حتّىٰ تفتدي بما ورثت مِن زوجها[٤]، فنهىٰ الله عنه بقوله: **﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾** وتحبِسوهُنّ وتُضيّقوا عليهِنّ **﴿لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾** وأعطيتُموهُنّ مِن الصّداق والمِيراث، وتأخُذوه مِنهنّ فِداءً مِن أنفسهن.

وقيل: إنّه كان الرّجُل إذا كرِه زَوجته أساء عِشْرتها، وضَيّق عليها حتّىٰ تفتدي مِنه بمَهْرها، فنهىٰ الله

---

١. الروم: ١٠/٣٠. ٢. المحاسن: ٢٨/٨٧، عقاب الأعمال: ٢٣٦. ٣. تفسير الرازي ١٠: ١٠.
٤. تفسير روح البيان ٢: ١٨١.

عن التزوّج بهن بالإكراه، والتضييق عليهنّ، وإساءة العِشرة معهنّ بعدَ التزويج ليفتدِين بصَداقهنَ أو ببعضه[١].

فإنّ أخذ صَداقهنّ ومالهنّ لا يجوز بسببٍ مِن الأسباب **﴿إِلَّا﴾** بسَببٍ واحِد وهُو **﴿أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ﴾** وفعْلة قَبيحة في الغاية **﴿مُبَيِّنَةٍ﴾** ظاهِرة، كعدَم التعفُّف، أو النُّشوز وشَكاسة الخُلق وإساءة العِشرة مع الزّوج وأهله.

عن الباقر عليه السلام، في تفسير الفاحشة، قال: «كُلّ معصية»[٢].

وعن الصادق عليه السلام: «إذا قالت لزَوجها: لا أغتسل لك مِن جَنابةٍ، ولا أبَرُّ لك قَسَماً، ولأوطئنّ فِراشك مَنْ تكرَهُه، حَلّ له أن يخلَعها، وحَلّ له ما أخذ مِنها»[٣].

ثمّ أكّد سُبحانه وُجوب الرِّفْق بالزَّوجَات، وحُسْن عِشْرتهن بقوله: **﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾** وبما هُو مُستحسَن عندَ الشّرْع والعَقل، مِن الإنصاف في المَبيت والنَفقة، والإجمال في القَول **﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾** طبعاً، وسئِمتُم مِن صُحْبتِهنّ مِن غيرِ جِهةِ عِصيانهنّ ونُشوزهِنّ، فلا تُبادروا في التّفريق بمُجَرد كَراهة النّفس، بَل امْسِكوهُنّ بالمعروف، واصْبِروا علىٰ مُعاشرتهِنّ **﴿فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً﴾** وتتنفَروا مِن أمرٍ **﴿وَ﴾** الحال أنّه **﴿يَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً﴾** في الدُّنيا كوِلادة وَلدٍ صَالح مِن هذه المرأة، وفي الآخرة كالثواب العظيم علىٰ مُخالفة النّفس في الصّبْر علىٰ المَكروه، ونَحْو ذلك.

وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَاراً فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً[٢٠]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ النّهي عن مُضارّة النِّساء، وأخذ شيءٍ مِن مُهورهِنّ بأيّ سَببٍ، أكّد النّهي عنه في صُورة إرادة الاسْتِبدال، بقوله: **﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ﴾** واخْتِيار زَوجة **﴿مَكَانَ زَوْجٍ﴾** وامرأة كانت لكم **﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ﴾** سَواءً كانت المرأة الأولىٰ أو الثانية **﴿قِنطَاراً﴾** ومالاً كثيراً غايته، عن الصادقين عليهما السلام: «القِنطار ملْء مَسْك[٤] ثورٍ ذهباً»[٥] **﴿فَلَا تَأْخُذُوا﴾** ولا تُنقِصوا **﴿مِنْهُ شَيْئاً﴾** ولَو كان في غاية القِلّة.

رُوي أنّ الرّجُل مِنهم كان إذا مال إلىٰ التّزوُّج بامرأة أُخرى، رمىٰ زوجة نفسه بالفَاحشة حتّىٰ يُلجئها إلىٰ الافْتِداء مِنه بما أعطاها، ليصرِفه إلىٰ تزوّج المرأة التي يُريدها[٦].

---

١. تفسير الرازي ٩: ١١. ٢. مجمع البيان ٣: ٤٠، تفسير الصافي ١: ٤٠١.
٣. من لا يحضره الفقيه ٣: ١٦٣٠/٣٣٨، تفسير الصافي ١: ٤٠١. ٤. المَسك: الجِلد.
٥. مجمع البيان ٢: ٧١٢، تفسير الصافي ١: ٤٠١. ٦. تفسير الرازي ١٠: ١٣.

فنهىٰ سُبحانه عن ظُلم المرأة بالأخذ مِن مَهرها، وإن كان في غاية الكَثْرة، وأنكر علىٰ الأزواج أخذهم مِن مُهورهِنّ بسَبب رَمْيِهنّ بالفاحشة، بقوله: ﴿أَتَأْخُذُونَهُ﴾ بسَبب أن تتهموهُنّ ﴿بُهْتَاناً وَ﴾ تَرتكبون بالبُهتان، ورَمْيهنّ بالفاحشة، وبظُلْمهِنّ بأخذ صَداقهِنّ ﴿إِثْماً مُبِيناً﴾ وذَنباً ظاهِراً عظيماً، فإنّ البُهتان والظُّلم مِن أكبر الكبائر.

في دلالة الآية علىٰ جواز المغالاة في المهر

قالوا: الآية تدُلّ علىٰ جَواز المغالاة في المَهر[1].

وروىٰ الفخر الرازي: أنّ عمر قال علىٰ المِنْبر: ألَا لا تغلُوا[2] في مُهور نِسائكم، فقامت امرأة فقالت: يا بن الخطّاب، الله يُعطينا وأنت تمنعنا! وتلَت هذه الآية، فقال عمر: كُلّ النّاس أفقه مِن عُمر، ورَجع عن كراهة المُغالاة[3].

أقول: تقريب دَلالة الآية علىٰ الجَواز أنّ النّهي عن الأخذ مِنه دَالّ علىٰ صِحَة جَعْل القِنْطار مَهراً وتملُّكهُنّ له بالعَقْد، ولا معنىٰ للجَواز وعدَمه في المَقام إلّا الصِّحّة وعدَمها، والحُرمة للأمر الخارج والجِهة العَرَضيّة، كحُرمة البَيع وقت النِّداء وإن كان مُمكناً، إلّا أنّها مُحتاجة إلىٰ الدّليل المُعتبَر[4]، بَل في الآية إشعارٌ بعدَمها، ويشهَد لِما ذُكر فَهم المرأة وجميع الحاضِرين في المَسجد ذلك، ورُجوع عُمر عن قوله.

ولا معنىٰ للدّلالة إلّا فَهم العَرَب مِن الكلام، والعَجَب مع ذلك مِن الفَخر أنّه بعد نَقل الرِّواية قال: وعندي أنّ الآية لا دَلالة فيها علىٰ جَواز المغالاة[5]... إلىٰ آخره.

وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِيثَاقاً غَلِيظاً[٢١]

ثمّ بالغ سُبحانه في إنكار الأخذ مِن المَهر بجَعْله لشِدّة الشّناعة مَحلاً للتعجُّب، بقوله: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ﴾ مِنهنّ، ولأيّ سَببٍ تستردّون شيئاً مِمّا استحلَلتُم به فُروجهُنّ بطِيب أنفُسكم؟! والحال أنّه ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ واستمتع كُلٌّ مِنكما ـ بالجِماع وغيره مِن وُجوه الاستِمتاع ـ مِن الآخر، وحَصلَت بينكما الألْفة التّامّة والقَرابة الكامِلة، حيثُ إنّ العَرَب يقولون: صُحْبة عِشرين يوماً قرابة[6]. فكيف بما يجري بَيْن الزوجين مِن الاتّحاد والامتِزاج؟

﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم﴾ علىٰ الصّداق معَ ذلك الإفضاء والاتّصال ﴿مِيثَاقاً غَلِيظاً﴾ وعَهداً وكِيداً. عن ابن

---

١. تفسير الرازي ١٠: ١٣. ٢. في المصدر: تغالوا. ٣. تفسير الرازي ١٠: ١٣.
٤. زاد في النسخة: وليس، ولا يصح. ٥. تفسير الرازي ١٠: ١٣.
٦. تفسير الرازي ١٠: ١٧.

عبّاس ﷺ: الميثاق الغليظ: كلمة النّكاح المَعقودة علىٰ الصَّداق، وتلك الكلمة كلمة يُستحلُّ بها فروجُ النِّساء[١].

قال ﷺ: «اتّقوا الله في النِّساء، فانّكم أخذتُموهُنَّ بأمانة الله، واستحلَلتُم فُروجَهُنَّ بكلمة الله»[٢].

وعن عِكرمة: هُو قولهم: زوّجتُك هذه المرأة علىٰ ما أخذ الله للنِّساء علىٰ الرِّجال، مِن إمساكٍ بمعروف، أو تَسريحٍ بإحسان، فإذا ألجأها إلىٰ أن بذلت المَهر، فما سرّحها بإحسان، بَل سرّحها بالإساءة[٣].

وعن (المجمع): عن الباقر ﷺ: «الميثاق هِي الكلمة التي عُقِد بها النِّكاح، والغليظ هُو ماء الرَّجُل يُفضِيه إليها»[٤]. ولعلّ بعضَ مفسّري العامّة تبِعوا هذه الرِّواية، حيثُ قالوا: أخذْنَ مِنكم ـ بسَبب إفضاء بعضِكم إلىٰ بعضٍ ـ ميثاقاً غليظاً، فوصفه بالغِلْظة لقوّته وعظمته[٥].

وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِنَ ٱلنِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاءَ سَبِيلاً[٢٢]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَما منَع مِن إرث أعيان النِّساء، وكان الرَّجُل في الجاهِليّة يرِث زَوجة أبيه كما يرِث ماله وينكِحها، نهىٰ الله سُبحانه عن نِكاح زَوجة الأب، بقوله: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ﴾ وإن عَلَوا ﴿مِنَ ٱلنِّسَاءِ﴾ ولا تتزوّجوا بزَوجاتهم ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ مِن هذا النِّكاح مِنكم.

قيل: إنّ التّقدير: إنّ هذا النِّكاح قَبيح حَرام يُعاقبكم الله عليه، إلّا النِّكاح الذي سَلَف مِنكم في الجاهلية، فإنّه لجَهلكم كنتُم مَعذورين فيه.

عن القُمّي ﵀: عن الباقر ﷺ، قال: «كان في الجاهليّة في أوّل ما أسلموا في قبائل العَرَب إذا مات حميمُ الرَّجُل وله امرأة، ألقىٰ الرَّجُل ثوبه عليها، فورِث نِكاحها بصَداق حميمه الذي كان أصدقها كما يرِث ماله، فلمّا مات أبو قيس بن الأسلت ألقىٰ مِحصَن بن أبي قيس ثوبه علىٰ امرأة أبيه؛ وهِي كبيشة بنت مَعْمَر بن مَعْبَد، فورِث نِكاحها، فترَكها لا يدخُل بها ولا يُنفق عليها، فأتتْ رَسُول الله ﷺ فقالت: يا رَسُول الله، مات أبو قيس بن الأسلت فورِث ابنُه مِحصَن نِكاحي، فلا يدخُل عَلَيّ، ولا يُنفق عليّ، ولا يُخلِّي سبيلي فألحق بأهلي. فقال رَسُول الله ﷺ: «ارجِعي إلىٰ بيتك، فإنْ يُحدِث الله في شأنك

---

١ ـ٣. تفسير الرازي ١٠: ١٦.

٤. تفسير العياشي ١: ٩١٠/٣٨٠، الكافي ٥: ١٩/٥٦٠، تفسير الصافي ١: ٤٠٢، ولم نجده في المجمع، والظاهر أن المصنف أخذه من تفسير الصافي.

٥. تفسير الرازي ١٠: ١٧.

شيئاً أعلمتُك» فنزلَتْ الآية[١].

ثمّ بالغ سُبحانه في الرّدع عنه ببيّان عِلَل التحريم بقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ﴾ في جميع المِلَل ﴿فَاحِشَةً﴾ شديدة القَباحة لكَونه تَهجُّماً علىٰ فِراش الآباء الّذِين حُقوقهم أعظم مِن حق كلّ أحدٍ، وكان ﴿مَقْتاً﴾ ومُوجباً لغضب الله، وغَضب ذَوي المُروءات ـ قيل: إنّ العَرَب كانوا يُسمّون مَن تولّد مِنه بالمَقتيّ [٢] ـ ﴿وَ﴾إنه ﴿سَاءَ سَبِيلاً﴾ وبئسَ طريقاً، حيثُ إنّها تنتهي إلىٰ النّار.

قيل: أشار بالفاحشة إلىٰ القُبْح العَقلي، وبالمَقْت إلىٰ القُبْح الشّرعي، وبقوله: ﴿سَاءَ سَبِيلاً﴾ إلىٰ القُبْح العادي[٣]، فبيّن سُبحانه أن فيه جميع جِهات القُبْح ومَراتبه.

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاَتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ ٱلَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِنَ ٱلرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ ٱلَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِن نِسَائِكُمُ ٱلَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ ٱللهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً[٢٣]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدما ذكَر حُرمة مَنكوحة الأب علىٰ ابنه، شرَع في بَيان حُرمة نِكاح أصناف أُخَر مِن النِّساء، بقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ﴾ في شَرْع الإسلام ﴿أُمَّهَاتُكُمْ﴾ نِكاحاً واستِمتاعاً، وإن علون كالجدات، وجَدّات الجَدّات ﴿وَبَنَاتُكُمْ﴾ وإن سَفَلْنَ ﴿وَأَخَوَاتُكُمْ﴾ مِن الأب، أو من الأمّ، أو مِنهما ﴿وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ﴾ مِن قِبَل الأب، أو مِن قِبَل الأمّ، وإن عَلَوْنَ ﴿وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ﴾ للأب، أو الأمّ، أولهما، وإن نَزَلْنَ، ﴿وَ﴾ كذا ﴿بَنَاتُ ٱلْأُخْتِ﴾ بالتّفصيل المَذكور.

ثمّ بعدَ ذِكْر المُحرّمات السّبْع السّببيّة،ذكَر المُحرّمات بالرّضاع بقوله: ﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ ٱلَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ﴾ وتدخُل فيها الجَدّات ﴿وَأَخَوَاتُكُم مِنَ ٱلرَّضَاعَةِ﴾ فنزّل سُبحانه الرّضاع مَنزِلة النّسَب، حيثُ سمّىٰ المُرضِعة أمّاً، والمُراضعة أختاً، فنبّه بذلك علىٰ حُرمة العَناوين السّبعة الحاصِلة بالرّضاع.

كما رُوي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «الرّضاع لُحْمة كلُحْمة النّسب»[٤] وقال: «يحرُم مِن الرّضاع ما يحرُم

---

١. تفسير القمي ١: ١٣٤.
٢. تفسير البيضاوي ١: ٢٠٧، مجمع البيان ٣: ٤٣.
٣. تفسير الرازي ١٠: ٢٤، تفسير أبي السعود ٢: ١٦٠.
٤. تفسير الصافي ١: ٤٠٣.

من النَّسَب»[١].

ثمّ شرَع في المُحرَمات بالمُصاهرة، بقوله: ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾ وزَوجاتكم الدّائمات، أو المُنقطعات المدخول بهِنّ أولاً، وإن عَلَتْ الأمَهات وكُنّ رضاعيّات ﴿وَرَبَائِبُكُمُ الَّاتِى﴾ يكُنّ ﴿فِى حُجُورِكُم﴾ وإن سَفَلْن، إذا كُنّ ﴿مِن نِسَائِكُمُ﴾ وأزواجكم ﴿الَّاتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ وباشرتُموهُنّ.

سُمّيت بِنت الزّوجة إذا كانت مِن الزّوج الآخر ربيبةً؛ لأنّ الغالِب أنّ الإنسان يُربّيها كما يُربّي ولَده. واسْتُعِير الحِجْر للتّربية؛ لأنّه يُجلِس الطِّفل الذي يُربّيه في حِجْره. وفي تَقيِيد الرّبائب باللّاتي في الحُجُور، معَ كَونه تَخصيصاً، إشعارٌ بأنّهنّ بمَنزِلة البَنات.

﴿فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ ولَم تُجامعوهنّ ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾ ولا بأس ﴿عَلَيْكُمْ﴾ في تَزوّج بَناتهِنّ ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ سَواءٌ كانت حَليلة الابْن زَوجة دائِمة له، أو مُنقطعة، أو مِلْك يمين، وسَواءٌ كان الابْن نَسَبيّاً، أو رضاعيّاً، بِلا واسِطة أو معها، والتّقييد بكَونه مِن الصُّلْب لإخراج الأدعياء.

قيل: إنّ الرّبيب المُتبنّىٰ كان في الجاهليّة بمنزِلة الابْن الصُّلْبي، لا ينكِح المتبنّي زوجة المتبنّىٰ ولذا عيّر المُشركون رَسُول الله ﷺ حين تزوّج زَينب بنت جَحش بعدما فارقت زَوجها زيد بن حارِثة، وكان ﷺ تبنّاه ودَعاه ابناً، فنزل ﴿وَمَا مُحمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِن رِجَالِكم﴾[٢] وقال: ﴿وَمَا جَعَلَ أدعِياءَكُم أَبنَاءَكُم﴾[٣] إلىٰ آخره.

﴿وَأَن تَجْمَعُوا﴾ في النِّكاح، أو في مِلْك اليمين مع الوَطْء ﴿بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾، ثمّ استثنىٰ مِن لازم الحُكم بقوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ وسبَق مِنكم مِن الجَمْع في زمان الجاهليّة. والمعنىٰ: أنّكم تُعاقَبون علىٰ الجَمْع بيَن الأُختين إلّا علىٰ الجَمع في زمان الجاهليّة، فإنّه لجَهلكم مَعفُوٌّ ومَغفورٌ ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُوراً﴾ للمُذنبين ﴿رَحِيماً﴾ بالمُؤمنين.

وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَا وَرَاءَ ذٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً[٢٤]

---

١. تفسير الرازي ١٠: ٢٩، تفسير البيضاوي ١: ٢٠٨، تفسير الصافي ١: ٤٠٣.
٢. الأحزاب: ٤٠/٣٣.
٣. الأحزاب: ٤/٣٣.

﴿وَٱلْمُحْصَنَاتُ﴾ والمُزوّجات ﴿مِنَ ٱلنِّسَاءِ﴾ اللّاتي أحصَنَ فُروجهُنّ بالتّزويج ﴿إِلَّا مَا﴾ كانت مِن المُزوّجات اللّاتي ﴿مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ إيّاهنّ واسْترقَقتُموهنّ بالشِّراء أو الاسْتيهاب أو الأسر، فإنّه يجُوز للمالك فَسخ عَقد نِكاحهنّ إذا كُنّ مُزوّجات الغير، ووطأهنّ بعدَ العِدّة أو الاسْتِبراء، بَل رُوي أنّ بيعَهُنّ طلاقَهُنّ[1].

وعن أبي سعيد الخُدْري: أنّ المُسلمين أصابوا في غَزاة أوطاس نِساء، ولهُنّ أزواج في دار الحَرب، فنادىٰ مُنادي رَسُول الله ﷺ: ألا لا تُوطأ الحُبالىٰ حتّىٰ يضَعْنَ، ولا [غير] الحُبالىٰ حتّىٰ يستبرِئْنَ بحَيْضة[2].

ثمّ أكّد سُبحانه تَحريم المُحرّمات المذكورة، بقوله: ﴿كِتَابَ ٱللهِ عَلَيْكُمْ﴾ قيل: إنّ التّقدير: الْزَموا كِتاب الله الذي كتبه عليكم، وفَريضته التي فرَضها عليكم.

ثمّ صرّح بعُموم حِلّ التّزويج بغير الأصناف المذكورة، بقوله: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم﴾ في دِين الله ﴿مَا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ﴾ وما سِوىٰ هؤلاء النِّسوة لإرادة ﴿أَن تَبْتَغُوا﴾ وتطلُبوا نِكاحهُنّ ﴿بِأَمْوَالِكُم﴾ وبصَرْفها في مُهورِهنّ أو أثمانِهنّ، حالَ كَونكم بتَزْويجهِنّ أو تملُّكهِنّ ﴿مُحْصِنِينَ﴾ ومُحرزين فُروجكم مِن الزِّنا.

ثمّ أكّد سُبحانه وُجوب الإحصان والتّعفُّف عن الزِّنا بقوله: ﴿غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ وغير زانين ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم﴾ به مِن النِّساء، ومَن انْتفعتُم ﴿بِهِ مِنْهُنَّ﴾ بجِماعٍ أو عَقد ﴿فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ ومُهورهُنّ، لكَون المُهور ﴿فَرِيضَةً﴾ مِن الله التي فرضها عليكم.

قيل: إنّ (فريضة) مصدر مُؤكّد، والتّقدير: فرضها الله فريضةً[3].

في (الكافي): عن الصادق عليه السلام: «إنّما نزلتْ: (فما أستمتعتُم به مِنهُنّ إلىٰ أجلٍ مُسمّىً)»[4].

أقول: الظّاهِر أنّ المُراد: إنّما نزلتْ بهذا التفسير، لا أنّها نزلَتْ بهذا التّعبير، لبُطلان القول بالتّحريف، ولا شُبهة أن المُراد بها المُتعة، وهِي النّكاح المُؤقّت. ونقَله الفخر الرازي عن جَماعة مِن العامّة[5].

ثمّ بيّن سُبحانه جَواز تَجديد المُتْعة بعدَ انْقِضاء المُدّة، بقوله: ﴿وَلَا جُنَاحَ﴾ ولا حَرَج ﴿عَلَيْكُمْ﴾ إذا أردتُم تَجديد العَقد علىٰ المُتمتّع بها ﴿فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ﴾ مِن الأجل والمَهر ﴿مِنْ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ﴾ الأُولىٰ، وهِي الأجل والمَهر المُقرّران في العَقْد الأول.

---

١. تفسير الرازي ١٠: ٤١.
٢. مجمع البيان ٣: ٥١.
٣. الكشاف ١: ٤٩٨، تفسير الرازي ١٠: ٥٤.
٤. الكافي ٥: ٣/٤٤٩، تفسير الصافي ١: ٤٠٦.
٥. تفسير الرازي ١٠: ٥١.

عن العيّاشي: عن الباقر عليه السلام: «لا بأس بأن تزيدها وتزيدك إذا انقطع الأجل فيما بينكما، تقول: استحللتك بأجلٍ آخر، برضىً منها» الخبر[1].

﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً﴾ بمصالح العباد ﴿حَكِيماً﴾ في ما شرع من الأحكام.

وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ[٢٥]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ بَيان جَواز نِكاح الحَرائر دَواماً ومُتعةً، أذِن في نِكاح الإماء، بقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ﴾ ولَم يقدِر ﴿مِنكُمْ طَوْلاً﴾ وغِنىً ـ كما عن الباقر عليه السلام[2] ـ ﴿أَن يَنكِحَ﴾ النِّساء ﴿الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ والحَرائر العَفيفات، لغلاء صَداقِهنّ، وكَثْرة نَفَقاتهنّ ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ﴾ وإمائكم ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾ تزوّجوا واقْنَعوا مِنهن بظاهِر الحال في الإيمان ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ﴾ القلبي الحقيقي، مُطّلع علىٰ سَرائركم، ففوّضوا الإيمان الباطن إلىٰ عِلمه تعالىٰ.

ثمّ ردَع سُبحانه عن التأنُّف مِن تَزويجهنّ لدَناءة نَسَبهنّ، بقوله: ﴿بَعْضُكُم﴾ مُنشعِبٌ ﴿مِّن بَعْضٍ﴾ وكُلّكم مِن أرُومةٍ واحدة، لا فَضل لبعضِكم علىٰ بعضٍ مِن جِهة الأصل والنَّسَب، وإنّما الفَضل بالإيمان.

وقيل: إنّ المُراد: كُلّكم مُشتركون في الإيمان، وهو أعظم الفضائل، وغيرُه لا يُلتفت إليه[3]. ففيه رَدْعٌ عن الافتِخار بالأنساب.

رُوي عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال: «ثلاثٌ مِن أمر الجاهليّة: الطّعن في الأنساب، والفَخر بالأحساب، والاستِسقاء بالأنواء، ولا يدَعها النّاس في الإسلام»[4].

ثمّ نبّه سُبحانه علىٰ شَرْط صِحّة هذا النِّكاح، بعدَ الإشعار بإشراطها بالإيمان، بقوله: ﴿فَانكِحُوهُنَّ

---

١. تفسير العياشي ١: ٩٢٨/٣٨٥، تفسير الصافي ١: ٤٠٦.
٢. مجمع البيان ٣: ٥٤، تفسير الصافي ١: ٤٠٧.
٣. تفسير الرازي ١٠: ٦٠.
٤. تفسير الرازي ١٠: ٦١.

بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ ومَواليهنّ، فإنّهنّ مَملوكات لهم عيناً ومَنفعةً، فلا يجُوز التّصرُّف فيهنّ إلّا برِضاهم السّابق علىٰ التّصرُّف، وإنْ قُلنا بصِحّة العَقد بالإجازة اللّاحقة، كما هُو الحَق.

عن الصادق عليه السلام أنّه سُئل: هَل يتزوّج الرّجُل بالأمة بغير علم أهلها؟ قال: «هُـو زِناً، إنّ الله تـعالىٰ يقول: ﴿فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾»[1]. ولا فَرق بَين كَون المولى رَجُلاً أو امرأةً، ولا بَين النّكاح الدّائم والمُنقطع.

فما في (الكافي)، عن الصادق عليه السلام: «لابأس بأن يتمتّع الرّجُل بأمة المرأة، وأمّا أمة الرّجل فلا يتمتع بها إلّا بأمره»[2] فلعلّه لا عَمَل به.

﴿وَآتُوهُنَّ﴾ بإذن مَواليهن ﴿أُجُورَهُنَّ﴾ ومُهورهُنّ، وتَسْمية المَهر أجراً لكَونه عِوض البُضع، وهو المُنفعة. وإنّما قيّدنا الإيتاء بإذن مَواليهنّ لكَونها مُلْكاً لهم، وليكُن الإيتاء مُلابساً ﴿بِالمَعْرُوفِ﴾ وهُو عدَم المَطْل والضِّرار والنّقص. وقيل: في إطلاق إيجاب إعطاء المَهر دَلالةٌ علىٰ وجُوبه وإنْ لَم يُسمّ لها مَهراً، فيجِب في الصُّورة مَهر المِثْل بالدُّخول. والمُراد من قوله: ﴿بِالمَعْرُوفِ﴾ ما هُو المُتعارف في مِثْل هذه المرأة مِن المَهر.

ثمّ أشار سُبحانه إلىٰ أنّ وُجوب إيتاء المَهر فيما إذا كُنّ ﴿مُحْصَنَاتٍ﴾ عَفيفات.

وقيل: إنّ جَواز نِكاح الأمة أو اسْتحبابه مُقيّد به، وعليه يكون المعنىٰ: فـانكِحُوهُنّ حـال كـونِهنّ عفائِف غير زانيات.

ثمّ أنّه قيل: إنّ العَرَب كانو يفرّقون بَين المُتجاهرات بالزّنا والمُستترات، ولذا نصّ الله سُبحانه علىٰ عدَم الفَرق بقوله: ﴿غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ﴾ ومُتجاهرات بـالزّنا ﴿وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ ومُصاحبات للأصدقاء في السِّرّ، يزنون بهِنّ.

ثمّ ذكَر سُبحانه حَكْم حَدّهِنّ في الزّنا بقوله: ﴿فَإِذَا أُحْصِنَّ﴾ بالتّزويج ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ﴾ بعدَ النّكاح والإحصان ﴿بِفَاحِشَةٍ﴾ وارتكبْنَ الزّنا سِرّاً أو عَلانيةً ﴿فَعَلَيْهِنَّ﴾ ثابِتٌ شَرعاً ﴿نِصْفُ مَا﴾ ثبت ﴿عَلَى ٱلْمُحْصَنَاتِ﴾ والنِّساء الحَرائر ﴿مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ والحَدّ، وهُو الجَلْد دون الرّجْم، للإجماع ولعدَم تبعُّض الرّجْم. فلا يزداد حدُّها علىٰ خمسين جَلدة إذا كانت مُحصنة فضلاً عمّا إذا كانت بِكراً.

ثمّ بيّن الله تعالىٰ أنّ هذا النّكاح المُحرّم في الأصل علىٰ قولٍ، أو المَكروه علىٰ آخر، جائزٌ لا حَرازة فيه ﴿ذٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ﴾ على نفسه ﴿ٱلْعَنَتَ﴾ والمَشقّة ﴿مِنكُمْ﴾ لغَلَبة الشّهوة وعدَم الصّبْر عليها،

---

١. تفسير العياشي ١: ٩٣٣/٣٨٧، تفسير الصافي ١: ٤٠٨.

٢. الكافي ٥: ٤/٤٦٤، تفسير الصافي ١: ٤٠٨.

حتّىٰ خاف مِن نفسه الوّقوع في الزّنا، ﴿وَ﴾مع ذلك ﴿أَن تَصْبِرُوا﴾ علىٰ المَشقّة، وتكفّوا عن الزّنا، ونِكاح الإماء فهو ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾ دِيناً ودُنياً مِن الإقدام علىٰ نِكاحهِنّ لكَثْرة مَفاسده ﴿وَٱللهُ غَفُورٌ﴾ للذُّنوب ﴿رَحِيمٌ﴾ بالعِباد.

يُرِيدُ ٱللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ[٢٦]

ثمّ أنّه تعالىٰ ـ بعدَ ذِكْر هذه الآيات المَقرونة بأعلىٰ دَرجة الفَصاحة، وبَيان هذه الأحكام المُشتملة علىٰ المَصالح الكثيرة ـ أظهر المِنّة وغاية اللُّطف بالعِباد ترغيباً لهم في الطاعة بقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللهُ﴾ بإنزال هذه الآيات وبَيان تِلك الأحكام ﴿لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ ما فيه صَلاح آخرتكم ودُنياكم ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ﴾ الأنبياء والمؤمنين ﴿ٱلَّذِينَ﴾ كانوا ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ في الأزمة السّالفة.

قيل: فيه دَلالةٌ علىٰ أنّ هذه الأحكام كانت في جميع الشّرائع[1].

﴿وَ﴾ أن ﴿يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ لوُضوح أنّه لَو لَم تكُن الأحكام لَم يتحقّق العِصيان، ولَولاه لَم تتحقّق التّوبة، ولَولاها لم تظهَر صِفةُ تَوّابيّته، وعفويّته، وغفوريّته، ولطفه في تَوفيقه للتّوبة ﴿وَٱللهُ عَلِيمٌ﴾ بمَصالح العِباد ﴿حَكِيمٌ﴾ في وَضع أحكامه.

وَٱللهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً[٢٧]

ثمّ أعاد ذِكْر الحِكْمة الثّالثة اهتِماماً بإظهار سَعَة رَحمته بقوله: ﴿وَٱللهُ يُرِيدُ﴾ ويُحِبّ ﴿أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ ويعفو عنكم إثْرَ ندمِكم علىٰ عِصيانكم ﴿وَيُرِيدُ﴾ أعداء الله ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَاتِ﴾ وينهمِكون فيها ﴿أَن تَمِيلُوا﴾ إلىٰ الباطِل بعدَ إعراضكم عنه وقَبولكم الحَقّ ﴿مَيْلاً عَظِيماً﴾ وتضِلّوا بعدَ الهِداية ضَلالاً بعيداً.

يُرِيدُ ٱللهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَانُ ضَعِيفاً[٢٨]

ثمّ تحبّب إلىٰ عِباده بإعلامهم بغاية رأفته بهم، وإحسانه إليهم بقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللهُ﴾ بتَشريعة الحَنيفيّة السّمحة السّهلة التي مِنها تَحليل نِكاح الإماء ﴿أَن يُخَفِّفَ﴾ ويضَع ﴿عَنكُمْ﴾ التّكاليف الشّاقّة،

---

١. تفسير الرازي ١٠: ٦٦.

والآصار والأغلال التي كانت علىٰ الأمم الماضية.

ثمّ أشار إلىٰ عِلّة هذا التخفيف بقوله: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَانُ ضَعِيفاً﴾ في نفسه وعقله وقُواه، عاجزاً عن احتِمال المَشاقّ، جزوعاً عندَ الشّدائد، لا يصبِر عن الشّهَوات، ولا يحتمِل مَشقّة الطّاعات.

عن ابن عبّاس رضي الله عنه، قال: ثمانِ آياتٍ في سُورة النِّساء هِي خيرٌ لهذه الأمّة مِمّا طلَعت عليه الشمس وغرُبت ﴿يُرِيدُ ٱللهُ لِيبَيّنَ لكُم...﴾[1]، ﴿وَٱللهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيكُم...﴾[2]، ﴿يُرِيدُ ٱللهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُم...﴾، ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ ما تُنْهَونَ عَنهُ...﴾[3]، ﴿إِنَّ ٱللهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ...﴾[4]، ﴿إِنَّ ٱللهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ...﴾[5]، ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءاً أو يَظْلِمْ نَفْسَهُ...﴾[6]، ﴿مَا يَفْعَلُ ٱللهُ بِعَذَابِكُم...﴾[7].

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ ٱللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً[٢٩]

ثمّ لمّا أجاز سُبحانه في التّصرُّف في النُّفوس بالنّكاح، وأمر بابْتِغائه بالأموال، وإيفاء المُهور والنّفَقات، نهىٰ عن التّصرُّف في الأموال بغير الوَجْه العُقلائي والنّحْو المُحلّل في الشّرع أوّلاً بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَينَكُم﴾، ولا تتصرّفوا فيها ﴿بِالبَاطِلِ﴾ بالأسباب غير المُبيحة للمال، كالقِمار والرّشوة والغَصْب والسّرِقة ونحوها. وعلىٰ هذا التّفسير تكون الآية مُجملة.

عن الباقر عليه السلام: «الرِّبا والقِمار والبَخْس والظُّلم»[8].

وعن الصادق عليه السلام: «عنىٰ بها[9] القِمار، وكانت قُريش تقامر [الرجل] بأهله وماله فنهاهم [ٱلله] عن ذلك»[10].

وعن ابن عبّاس رضي الله عنه: إنّ الباطل [هو] كُلّ مايُؤخذ مِن الإنسان بغير عِوَض[11].

﴿إِلَّا أَن تَكُونَ﴾ التِّجارة ﴿تِجَارَةً﴾ كائنةً ﴿عَن تَرَاضٍ مِنكُم﴾ بها. وعليه لا يكون الاستِثناء مُنقطعاً لعدَم كَون التِّجارة مِن جِنس الباطل، ويكون المعنىٰ: ولكِن يحِلّ أكلُها بالتّجارة عن التراضي ويُمكِن تَوجيه الآية بنَحوٍ يكون الاستِثناء مُتّصلاً.

ثمّ بعدَ النّهي عن التّصرُّف في الأموال بغيرِ الوَجْه المُحلّل، نهىٰ عن التّصُّرف في النُّفوس بالقتل ـ ثانياً ـ بقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾.

---

١. النساء: ٢٦/٤. ٢. النساء: ٢٧/٤. ٣. النساء: ٣١/٤. ٤. النساء: ٤٨/٤.
٥. النساء: ٤٠/٤. ٦. النساء: ١١٠/٤. ٧. تفسير الرازي ١٠: ٦٨، والآية من سورة النساء: ١٤٧/٤.
٨. مجمع البيان ٣: ٥٩، تفسير الصافي ١: ٤٠٩. ٩. في تفسير العياشي: نهى عن.
١٠. تفسير العياشي ١: ٩٤٥/٣٩٠، تفسير الصافي ١: ٤٠٩. ١١. تفسير الرازي ١٠: ٦٩.

قيل: إنّ المُراد لا يقتُل بعضُكم بعضاً[1].

وقيل: إنّ المُراد النّهيَ عن قَتْل الشّخص نفسِه[2].

عن الصادق عليه السلام: «أنّ معناه: لا تُخاطروا نُفوسَكم في القتال فتقاتلوا مَن لا تطيقونه»[3].

وعنه عليه السلام: «كان المُسلمون يدخُلون علىٰ عدُوّهم في المَغارات، فيتمكّن مِنهم عدوّهم فيقتُلهم كيف يشاء، فنهاهم الله أن يدخُلوا عليهم في المغارات»[4].

وعن القُمّيّ قال: كان الرّجُل إذا خرَج معَ رَسُول الله صلى الله عليه وآله في الغَزْو يحمِل علىٰ العدُوّ وَحده مِن غيرِ أن يأمُره رَسُول الله صلى الله عليه وآله، فنهىٰ الله أن يقتُل نفسَه مِن غير أمره[5].

وعن أمير المؤمنين صلوات الله عليه، قال: «سألتُ رَسُول الله صلى الله عليه وآله عن الجَبائر تكون علىٰ الكسير، كيف يتوضّأ صاحبها، وكيف يغتسِل إذا أجنب؟ قال: يُجزيه المَسح[6] بالماء عليها في الجَنابة والوُضوء، قلت: فإن كان في بَرْدٍ يَخاف علىٰ نفسِه إذا أفرغ الماء علىٰ جسده؟ فقرأ رَسُول الله صلى الله عليه وآله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾»[7].

أقول: يُمكِن باستِعمال لَفظ (القتل) و (النفس) في عُموم المَجاز إرادةَ تَعريض نفسِه ونَفس غيره للهَلاك الدُّنيوي والأُخروي.

ثمّ نبّه سُبحانه علىٰ أنّ النّهي عن إتلاف المال والنّفس لمَحْض رَحمته بالعباد، حثّاً على الطّاعة بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً﴾ لا يرضىٰ بتَلَف أموالكم ونُفوسكم، وبُوقوعكم في الضّرَر والمَشقة.

وَمَن يَفْعَلْ ذٰلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً وَكَانَ ذٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيراً[٣٠]

ثمّ أخذ سُبحانه بالتّهديد على المُخالفة بقولة: ﴿وَمَن يَفْعَلْ﴾ ويرتكِب ذلك المَذكور مِن إتلاف الأموال والأنفُس، حالَ كَون ارتِكابه ﴿عُدْوَاناً﴾ علىٰ الغير، وتَجاوُزاً عن الحُدود الإلٰهيّة ﴿وَظُلْماً﴾ علىٰ العِباد ﴿فَسَوفَ نُصْلِيهِ﴾ ونُدخِله ﴿نَاراً﴾ لا تُوصَف شِدّةُ حَرّها ﴿وكَانَ ذٰلِكَ﴾ التّعذيب والتّصلية ﴿عَلَىٰ ٱللَّهِ﴾ القادر علىٰ كُلّ شيء ﴿يَسِيراً﴾ وسَهلاً.

---

١. تفسير الرازي ١٠: ٧٢، مجمع البيان ٣: ٥٩.
٢. مجمع البيان ٣: ٥٩.
٣. مجمع البيان٣: ٦٠، تفسير الصافي ١: ٤١٠.
٤. تفسير العياشي ١: ٩٤٥/٣٩٠، تفسير الصافي ١: ٤١٠.
٥. تفسير القمي ١: ١٣٦، تفسير الصافي ١: ٤١٠.
٦. في تفسير العياشي: المسّ.
٧. تفسير العياشي ١: ٩٤٤/٣٨٩، تفسير الصافي ١: ٤١٠.

إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُدْخَلاً كَرِيماً[٣١]

ثمّ بالغ سبحانه في إظهار رَحمته ورأفته بالمؤمنين، وترغيبه في الطّاعة بقوله: **﴿إِن تَجْتَنِبُوا﴾**وتحترزوا **﴿كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾** مِن القَبائح **﴿نُكَفِّرْ عَنكُمْ﴾** ونغفِر لكُم **﴿سَيِّئَاتِكُمْ﴾** الصَّغيرة، وذُنوبكم الحقيرة **﴿وَنُدْخِلْكُم﴾** في الآخرة **﴿مُدْخَلاً﴾** ومَنزِلاً **﴿كَرِيماً﴾** وحَسَناً مَرضِيّاً.

قيل: إنّ المُراد: إدخالاً مع كَرامة[1].

في بيان الكبائر وعددها

عن الباقر عليه السلام، أنّه سُئل عن الكبائر، فقال: «كُلّ ما أوعد اللهُ عليه النّار»[2].

وعن الصادق عليه السلام: «الكبائر التي أوجب اللهُ عليها النّار»[3].

وعنه عليه السلام، في هذه الآية: «مَنْ اُجْتنَب ما أوعد اللهُ عليه النّار، إذا كان مُؤمناً، كفّر الله عنه سَيّئاته ويُدخِله مُدخلاً كريماً، والكبائر السبع المُوجبات: قَتلُ النّفس الحَرام، وعُقوق الوَالدين، وأكل الرِّبا، والتعرُّب بعدَ الهِجرة، وقَذْف المُحصَنة، وأكل مال اليَتيم، والفِرار مِن الزّحْف»[4].

أقول: لا شُبهة في وجُود المَعصية الصَّغيرة، وبُطلان ادِّعاء أنّ جميع المَعاصي كبائر، لظُهور الكِتاب، وصَراحة كثيرٍ مِن الأخبار في وجُود القِسْمين للمعاصي.

وما عن ابن عبّاس رضي الله عنه: - مِن أنّ كُلّ ما عُصي الله فيه فهُو كبيرة، فمَن عمِل منها شيئاً فليستغفِر الله[5] - فمحمولٌ علىٰ إرادة وجُوب اُحتِراز العبدِ عن جميع المعاصي، والاستغفار مِنه إذا ارتكب شيئاً مِنها، ولا يجُوز له التّهاونُ بها.

ثمّ لاريب أنّ جميع الكبائر ليست علىٰ حَدٍّ واحد، بَل بعضها أكبر مِن بعضٍ، لُوضوح أنّ قتل النَّفس أكبر مِن أكل مال اليَتيم، ولعلّ أكل مال اليَتيم أكبر مِن أكل الرِّبا، والفِرار مِن الزّحف أكبر مِن قَذْف المُحصَنة، إلىٰ غيرِ ذلك.

فالميزان الثّابت بالأخبار للكبائر هُو ما أوعد الله عليه النّار، وإن كان الوَعيد بالدّلالة الأِلْتِزاميّة، وما ذُكِر في الأخبار مِن عَدَد الكبائر مِن السّبْع، فمَحمول علىٰ بَيان أكبر الكبائر.

وهذا القول مَنقول عن ابن عبّاس أيضاً، واعتراض الفخر الرازي عليه - بأنّ كُلّ ذَنب مُتعلّق للذّمّ في العاجِل والعِقاب في الآجل[6]، فلا تبقىٰ صغيرة - شَطَطٌ مِن الكلام، لوُضوح عدَم ذِكر كثير مِن

---

١. تفسير الصافي ١: ٤١١.
٢. تفسير العياشي ١: ٩٥٧/٣٩٣، تفسير الصافي ١: ٤١١.
٣. الكافي ٢: ١/٢١١، تفسير الصافي ١: ٤١١.
٤. ثواب الأعمال ١٣٠، تفسير الصافي ١: ٤١١.
٥. تفسير الرازي ١٠: ٧٣.
٦. تفسير الرازي ١٠: ٧٤.

المُحرَمات كالاستِمناء والقُبلة وأمثالهما في القرآن.

وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ ٱللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا ٱكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا ٱكْتَسَبْنَ وَسْئَلُوا ٱللهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ ٱللهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً[٣٢]

ثمَ ـ لمّا كان عدَم الرِّضا بما قَسَمه الله لخَلْقه مُوجباً للحَسَد، وأخذ الأموال بالباطِل، وقَتل النُّفوس المُحترمة بغير الحَقّ ـ نهىٰ الله سُبحانه عن الطَمَع في ما في أيدي النّاس وتمنّيه، بقوله: ﴿**وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ ٱللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ**﴾ مِن الأموال والأولاد والجَاه مِمّا يجري التّنافُس فيه، فإنّ ذلك قِسْمة مِن الله صادرة عن تَدبير لائق بأحوال العِباد، مترتّبة علىٰ الإحاطة بجلائِل شُؤونهم ودَقائقها.

فكلّ ما كنتُم فاقدين له مِن الأمور الدُّنيويّة وكان غيرُكم واجِداً له، فلعلّ عدَمه خيرٌ لكم، فعلىٰ كُلّ أحدٍ مِن المُفضَل والمُفضَل عليه أن يرضىٰ بما قُسِم له، ولا يتمنّىٰ المُفضَل عليه حظّ المفضَل، ولا يحسُده عليه؛ لأنّه مُعارضة لحِكْمة المُقدِّر، فإنّ الأنصِباء كالأشكال والصُّوَر، وكما أنّ الأشكال والصُّوَر واخْتِلافهما بمُقتضىٰ الحِكْمة الإلٰهيّة لا يطّلِع علىٰ سِرّها أحدٌ، فكذلك الأقسام والأنصِباء.

عن الصادق عليه السلام، في تفسير الآية: «أي لا يقُل أحدُكم: ليتَ ما أُعطي فُلان مِن المال والنِّعْمة والمرأة الحَسْناء كان لي، فإنّ ذلك يكون حَسَداً، ولكن يجُوز أن يقول: اللّهمّ أعطني مِثْله»[١].

أقول: ومِمّا ينبغي أن يقول: اللّهمّ أعطِني ما فيه صَلاح دُنياي وآخرتي، بَل أحسَن الأدعية ما علّمه الله عِباده في كِتابه المجيد مِن قوله: ﴿**رَبَّنَا آتِنَا فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى الآخِرَةِ حَسَنَةً**﴾[٢].

وقيل: إنّ وَجه النَظْم أنّه تعالىٰ بعدما أمر بتَطهير الجَوارح مِن أقبح القبائح، وهُو أخذ المال بالباطِل، وقَتل النَفس المُحترمة، أمر بتَطهير القلب مِن أرذل الصِّفات، وهُو الحَسَد علىٰ ما أعطاه الله غيرَه، ليصير الباطِن مُوافقاً للظّاهِر في الطّهارة مِن الذّمائم[٣].

ثمّ علّل سُبحانه النَهي عن التَمنّي بقوله: ﴿**لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ**﴾ وحَظّ مُعين لا يتخطّاه ﴿**مِمَّا ٱكْتَسَبُوا**﴾ بأعمالهم وصَلاح حالهم، مِن النِّعَم الدُّنيوية والأخرويّة ﴿**وَلِلنِّسَاءِ**﴾ أيضاً﴿**نَصِيبٌ**﴾ وحظّ ﴿**مِمَّا اكتَسَبْنَ**﴾ فاطْلُبوا ما تُريدون بالأعمال، لا بالتَمنّي والحَسَد ﴿**وَسْئَلُوا ٱللهَ**﴾ بعضاً ﴿**مِن فَضْلِهِ**﴾ والتمِسوا مِن جميع ما تُحِبّونه وتحتاجون إليه مِن خزائن جُوده ورَحمته التي لا تنفَد، فإن أعطاكم وأجاب سُؤلكم فاشْكروه، وإن منَعكم فارْضوا بما قَسَمه لكم، فإنّه ليس إلّا لعِلْمه بصَلاحكم ﴿**إِنَّ ٱللهَ**

---

١. مجمع البيان ٣: ٦٤، تفسير الصافي ١: ٤١٣.   ٢. البقرة: ٢/٢٠١.   ٣. تفسير الرازي ١٠: ٨٠.

كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ مِن المَصالح والمَفاسد ﴿عَلِيماً﴾ خبيراً.

عن النبيّ ﷺ: «أنّ الله تعالىٰ أحبّ شيئاً لنفسه وأبغضه لخَلْقه، أبغض عزّ وجلّ لخَلْقه المَسألة، وأحبّ لنفسه أن يُسأل، وليس شيءٌ أحبّ إليه مِن أن يُسأل، فلا يَستحي أحدُكم أن يسأل الله عزّ وجلّ مِن فَضله ولَو شِسْع نَعْله»[١].

وعن الباقر عليه السلام: «ليسَ مِن نفسٍ إلّا وقد فرَض الله لها رزقاً حلالاً يأتيها في عافية، وعرض لها بالحَرام مِن وَجْه آخر، فإن هِي تناولَتْ شيئاً بالحرام قاصّها به مِن الحَلال الذي فرض الله لها، وعندَ الله سِواهُما فَضْل كثير»[٢] وهُو قوله: ﴿وسئَلُوا ٱللهَ مِن فَضْلِهِ﴾.

ثمّ قال: «وذِكْر الله بعدَ طُلُوع الفَجر أبلغُ في طَلَب الرِّزق مِن الضَّرْب في الأرض»[٣].

قيل: إنّ سَبب نُزول الآية أنّه قالت أمّ سَلَمة رضي الله عنها: يا رَسُول الله، يغزُو الرِّجال ولا نغزو، ولهم مِن الميراث ضِعْف ما لنا، فليتنا كُنّا رِجالاً، فنزلَتْ[٤].

وقيل: لمّا جعَل الله المِيراث للذَّكَر مِثْل حَظّ الأنثيَين، قالت النِّساء: نحنُ أحوج لأنّا ضُعفاء، وهُم أقدر علىٰ طَلَب المَعاش[٥].

في بيان طبقة الورّاث

وقيل: أتتْ واحدة مِن النِّساء إلىٰ رَسُول الله ﷺ وقالت: رَبُّ الرِّجال والنِّساء واحدٌ، وأنت الرَّسُول إلينا وإليهم، وأبونا آدم وأُمّنا حَوّاء، فما السَّبب في أنّ الله يذكُر الرِّجال ولا يذكُرنا؟ فنزَلت الآية، فقالت: وقد سبقنا الرِّجالُ بالجِهاد، فما لنا؟

فقال ﷺ: «إنّ للحامِل مِنكُنّ أجرَ الصّائم القائِم، فإذا ضرَبها الطَّلْق لَم يدْرِ أحدٌ ما لها مِن الأجر، فإذا أرضَعت كان لها بكُلّ مَصّةٍ أجرُ إحياء النَّفس»[٦].

وقيل: لمّا نزلت آيةُ المَواريث قال الرِّجال: نرجو أن نُفضَّل علىٰ النِّساء في الآخرة كما فُضّلنا في المِيراث، وقالت النِّساء: نرجو أن يكون الوِزر علينا نِصف ما علىٰ الرِّجال كما في الميراث، فنزلَت[٧].

﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَالِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ ٱللهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً﴾[٣٣]

ثمّ أنّه تعالىٰ، بعدَ ذِكْر مِيراث الأقارب والأزواج، والمَنع عن إرث نِساء الميّت، خُصوصاً زَوجة الأب وحُرمة نِكاحها، وحُرمة غيرِها مِن النِّساء المُحرّمات، وذِكْر أحكام أُخَر بالمُناسبة، عاد إلىٰ بَيان

---

١. الكافي ٤: ٢٠/٤، تفسير الصافي ١: ٤١٣.
٢. تفسير العياشي ١: ٩٦١/٣٩٤، تفسير الصافي ١: ٤١٣.
٣. تفسير العياشي ١: ٩٦٢/٣٩٤، تفسير الصافي ١: ٤١٣.
٤ و٥. تفسير الرازي ١٠: ٨٢.
٦ و٧. تفسير الرازي ١٠: ٨٢.

حُكم الإرث وذِكر طَبقات الوُرّاث بقوله: ﴿وَلِكُلٍّ﴾ مِن أفراد نَوع الإنسان، ذَكَراً كان أو اُنثىٰ ﴿جَعَلْنَا﴾ وقرّرنا ﴿مَوَالِيَ﴾ ووُرّاثاً يرثونه ﴿مِمَّا تَرَكَ﴾ بعد مَوته.

وهُم أوّلاً: ﴿ٱلْوَالِدَانِ﴾ وفي طَبقتهما الأولاد والأزواج، ولعلّه لَم يَذكَروا هُنا لمَعلوميّة ذلك مِن الآيات السّابقة، ولتَعظيم شأنهما في الطَّبقة الأولىٰ. ثمّ ذكَر الطَّبقة الثّانية بقوله: ﴿وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾.

عن الصادق عليه السلام: «إنّما عنىٰ بذلك اُولي الأرحام في المَواريث، ولَم يعْنِ أولياء النِّعْمة، فأولاهم بالميّت أقربهم إليه مِن الرَّحم التي تجرّه إليها»[١].

ثمّ الطَّبقة الثّالثة؛ بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾.

في (الكافي): عن الصادق عليه السلام: «إذا والىٰ الرَّجُلُ الرَّجَلَ فله ميراثه، وعليه مَعْقُلته»[٢]، يعني: دِية جِناية خطئه.

وعن الرضا عليه السلام: «عنىٰ بذلك الائمّة عليهم السلام بهم عقد الله عزّ وجلّ أيمانكم»[٣].

في نقل كلام الفاضل المقداد رحمه الله

وقال الفاضل المِقداد في (آيات الأحكام): الأيمان هُنا جمع : يمين اليد؛ لأنهم كانوا عندَ العَهد يمسَحون اليمين باليمين، فيقول العاقد: دَمُك دَمي، وثأرُك ثأري، وحَربُك حَربي، وسِلمُك سِلمي، ترِثني وأرِثُك، وتطلُب بي وأطلُب بك وتعقِل عنّي وأعقِل عنك، فيكون للحالف السُّدس مِن ميراث حليفه. وهذا من إسناد الفِعل إلىٰ آلته. وقيل: الأيمان جمع يمين الحِلْف، فيكون مِن إسناد الفِعل إلىٰ سَببه[٤].

إذا عرَفت ذلك فهُنا فوائِد:

الأُولىٰ: كانوا في الجاهليّة يتوارثون بهذا العَقد دُون الأقارب، فأقرّهم الله عليه في مَبدأ الإسلام ثمّ نسخ ذلك، فكانوا يتوارثون بالإسلام والهِجرة.

رُوي أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله آخىٰ بَين المُهاجرين والأنصار لمّا قدِم المدينة، فكان المُهاجر يرث الأنصاري وبالعكس، ولَم يرث القريب مِمّن لَم يُهاجر، ونزل في ذلك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللهِ وَٱلَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِن وَلَايَتِهِم مِن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾[٥]، ثمّ نسخ ذلك بالقَرابة والرَّحم والأنساب والأسباب بقوله: ﴿وأُولُوا ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾[٦].

---

١. التهذيب ٩: ٩٧٥/٢٦٨، تفسير الصافي ١: ٤١٣. ٢. الكافي ٧: ٣/١٧١، تفسير الصافي ١: ٤١٤.
٣. تفسير العياشي ١: ٩٦٣/٣٩٥، تفسير الصافي ١: ٤١٤. ٤. كنز العرفان ٢: ٣٢٤.
٥. الأنفال: ٧٢/٨. ٦. كنز العرفان ٢: ٣٢٤، والآية من سورة الأنفال: ٧٥/٨.

الثانية: هذا الحُكم ـ أعني: المِيراث بالمُعاهدة والمُعاقدة، وهُو المُسمّىٰ بضَمان الجَريرة ـ منسُوخ عندَ الشّافعي مُطلقاً، وقال: لا إرث به، وعند أصحابنا ليس كذلك، بَل هُو ثابت عندَ عدَم الوارث النِّسبي والسَّبَبي لِما رُوي عن النبيّ ﷺ، أنّه خطَب يوم الفَتْح فقال: «ما كان مِن حِلْفٍ في الجاهليّة فتمسّكوا به، فإنّه لَم يزِدْه الإسلام إلّا شِدّة، ولا تُحدِثوا حِلْفاً في الإسلام».

إلىٰ أن قال الفاضل: علىٰ ما قُلناه مِن بقاء حُكم الإرث بالتّعاهُد، فتكون الآية غير مَنسوخة جُملةً، بَل تكون مُحكمة، لكن الإرث فيها مُجملٌ مُفتقرٌ إلىٰ شَرائط ومُخصِّصات تُعلَم مِن مَوضعٍ آخر مِن الكتاب، أو مِن السُّنّة الشّريفة.

وقال بعضُهم: المُعاقدة هُنا هِي المُصاهرة، فيكون إشارة إلىٰ إرث الزّوجين، واختاره المعاصر[١]، وفيه بُعْدٌ؛ لأنّه عُدول عن الظّاهر، وعن قول الأكثر، انتهى[٢].

وقد سبق في طُرفة مِن الطّرائف بعضُ التّحقيق في ذلك[٣].

وقيل: إنّ المُراد مِن قوله تعالى: ﴿فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ النُّصرة والنّصيحة، والمُصافاة في العِشْرة، والمُخالصة في المُخالطة، لا التّوارُث.

ثمّ وعَد سُبحانه المُطيعين بالثّواب والعاصين بالعِقاب بقوله: ﴿إِنَّ ٱللهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ مِن الجُزئيّات والكُلّيات وجميع أعمال العِباد ﴿شَهِيداً﴾ وخبيراً يُجازيهم علىٰ حَسَب أعمالهم إنْ خيراً فخيراً، وإن شرّاً فشرّاً.

ٱلرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى ٱلنِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللهُ وَٱلَّاتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ ٱللهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً[٣٤]

في بيان فضل الرجال علىٰ النساء

ثمّ لمّا كان شأن نُزول آية: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ ٱللهُ بِهِ بَعضَكُم عَلَىٰ بَعضٍ﴾[٤] ـ علىٰ ما ورَد في بعض الرِّوايات ـ في رَدْع النِّساء عن التّكلُّم في تفضيل الرِّجال علىٰ النِّساء في المِيراث، وتمنّيهنّ المُساواة لهم في النّصيب، أشار سُبحانه إلىٰ وَجْه

---

١. مُراد الفاضل المقداد من (المعاصر) هو ابن المتّوج، وهو فخر الدين أحمد بن عبدالله بن سعيد بن المتّوج البحراني صاحب كتاب (النهاية في تفسير الخمسمائة آية). الذريعة ٢٤: ٤٠٢/٢١٣٧.

٢. كنز العرفان ٢: ٣٢٤. ٣. راجع: الطرفة (٢٠). ٤. النساء: ٣٢/٤.

التفضيل بقوله: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ مُهيمِنون عليهِنّ، مُهتمّون بتَنظيم اُمورهِنّ، مُبالغون في حِفْظِهِنّ، ناظِرون في صَلاحِهِنّ.

ثمّ علّل سُبحانه هذه القَيمومة بأمرين:

الأوّل: ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ﴾ الغالب ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ الأغلب مِن النِّساء، مِن العَقل والحَزْم، والقُوّة والفُتوّة، والشّجاعة والسّماحة، والعِلم، [وغيرها] مِن الفَضائل الدّاخلية والكمالات النَفسانيّة.

والثاني: ﴿وَبِمَا أَنفَقُوا﴾ عليهِنّ ﴿مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ في نِكاحِهِنّ، كالمَهْر والنَفقَة والإحسان وغيرِها مِن الفَضائل العَمَليّة. وفيه دَلالةٌ علىٰ وُجوب نَفَقتِهِنّ علىٰ الأزواج.

عن النبيّ ﷺ أنّه سُئل: ما فَضل الرِّجال علىٰ النّساء؟ فقال: «كفَضل الماء علىٰ الأرض، فبالماء تحيا الأرض، وبالرِّجال تحيا النِّساء، ولَولا الرّجال ما خُلِقت النِّساء» ثمّ تَلا هذه الآية، ثمّ قال: «ألا ترىٰ إلىٰ النِّساء كيف يحِضْنَ ولا يُمكِنهُنّ العِبادة؛ مِن القَذارة، والرّجال لا يُصيبهم شيءٌ مِن الطَّمَث»[1].

رُوي أنّ سعد بن الرّبيع أحد نُقباء الأنصار نشَزت عليه امرأته حَبيبة بنت زيد بن أبي زهير فلطَمها، فانطَلق بها أبوها إلىٰ رَسُول الله ﷺ وشكا، فقال صلوات الله عليه: «لنَقتصَّنّ مِنه». فنزلَتْ الآية، فقال ﷺ: «أردنا أمراً وأراد الله أمراً، والذي أراد الله خيرٌ، ورُفِع القِصاص»[2].

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَما أشار إلىٰ وظيفة الرِّجال، بيّن وظيفة النِّساء بقوله: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ الخَيِّرات مِنهُنّ ﴿قَٰنِتَٰتٌ﴾ لله، مُطيعاتٌ له ولأزواجِهِنّ، قائماتٌ بأداء حُقوقهم ﴿حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ﴾ مِن الأزواج بحِفْظ أنفسهِنّ مِن الأجانب، وأموال أزواجِهِنّ مِن التّلف والتبذير في غِيابهم.

عن الصادق عليه السلام عن آبائه، عن النبيّ ﷺ: «ما أستفاد امرؤٌ مُسلم فائدةً بعدَ الإسلام أفضل مِن زَوجةٍ مُسلمة، تسُرّه إذا نظر إليها، وتُطيعه إذا أمرها، وتحفَظه إذا غاب عنها، في نفسِها وماله»[3].

وقيل: إنّ المُراد: حافظات لِما يكون بَينهنّ وبَين أزواجِهِنّ في الخَلَوات من الأسرار[4].

﴿بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ لهُنّ، وبعِوَض الحُقوق التي جعَلها الله لهُنّ رِعايةً لهُنّ علىٰ أزواجِهِنّ، مِن العَدْل والإحسان إليهِنّ، وإيجاب إمساكهِنّ بالمَعروف، وإعطائهِنّ المُهور والنفَقات وغيرِها.

وحاصل المعنىٰ: أنّ حِفْظهِنّ لحُقوق الأزواج يكون في مَقابِل حِفْظ الله حُقوقهِنّ علىٰ الأزواج.

وقيل: إنّ المعنىٰ: كَونهُنّ حافظاتٍ للغيب يكون بسبَب حِفظ الله لهُنّ مِن الزَّلَل، وتَوفيق الله إيّاهنّ للقِيام بُحقوق الأزواج[5].

---

١. علل الشرائع: ١/٥١٢، تفسير الصافي ١: ٤١٤.
٢. تفسير روح البيان ٢: ٢٠٢.
٣. الكافي ٥: ١/٣٢٧، تفسير الصافي ١: ٤١٤.
٤. كنز العرفان ٢: ٢١٢.
٥. تفسير الرازي ١٠: ٨٩.

حكم نشوز الزوجة

ثمّ لمّا بيّن سُبحانه وظيفة الزّوجة مِن التمكين والطّاعة للزّوج، بيّن حُكم خُروجها عن الطّاعة بقوله: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ وترفُّعهُنّ عن الطّاعة بظُهور أماراته في أقوالِهنّ وأفعالِهن ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾ وخوّفوهُنّ بسُوء عاقبة النُّشوز، وعِقاب الله عليه، وانْصَحوهُنّ بالتّرغيب إلىٰ حُسْن العِشْرة والقِيام بالطّاعة ﴿وَٱهْجُرُوهُنَّ﴾ وتباعدوا مِنهنّ ﴿فِى ٱلْمَضَاجِعِ﴾ والمَراقد، إنْ لَم يُفِد الوَعْظ والنُّصح. قيل: هُو أن لا يبيت معها في فِراشها، بل في فِراش آخر[1].

وقيل: هُو أن يُولِّيها ظَهرَه في الفِراش[2].

وقيل: هُو أن لا يُجامعها[3]. ولا يبعُد أن يكون مِن الوُجوه امْتِناعه عن التكلّم معها.

﴿وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾ إن لَم يُفِد الهِجران، ضرباً غيرَ جارحٍ لَحْماً، أو كاسِر عَظماً.

عن الباقر عليه السلام: «أنّه الضّرب بالمسواك»[4]. ولا يبعُد أنّه بَيان أقلّه ووُجوب رِعاية ما يُوجب رَدْعها في الهَجْر والضّرْب، وعدم جَواز التعدّي عنه.

﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ﴾ وقمْنَ بحُقوقكم بالضّرْب، ورجَعْنَ عن النُّشوز إلىٰ الطّاعة ﴿فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً﴾ ولا تطلُبوا إلىٰ إيذائهِنّ طريقاً بالتّوبيخ والضّرْب وغيرهما.

عن أمير المُؤمنين عليه السلام: «يعِضها بلِسانه، فإن انتهت فلا سبيلَ له عليها، فإن أبَتْ هجَر مَضْجَعها، فإن أبَتْ ضربَها، فإن لَم تتّعِظ بالضّرْب بعَث الحَكَمين»[5].

ثمّ رغّب سُبحانه الأزواج بعدَ انْتِهائهِنّ بالرِّفق بهنّ، واسْتِمالة قُلوبهِنّ، وقَبُول تَوبتهِنّ، بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّاً﴾ شأناً ﴿كَبِيراً﴾ قُدْرةً.

ففيه إشارةٌ إلىٰ أنّه تعالىٰ معَ عُلوّ شأنه، وكَمال قُدْرته، يُعاملكم معَ عِصيانكم بالرِّفق، ويُخاطِبكم بالشّفَقة ويستميل قلوبكم، ويقبَل تَوبتكم، فعاملوا أزواجكم بعدَ ندَمهم علىٰ النُّشوز مُعاملة رَبّكم العَليّ معكم.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاحاً يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً﴾[٣٥]

ثمّ أنّه تعالىٰ - بعدَ بَيان حُكم النُّشوز مِن طَرف الزّوجة - بيّن حُكم النُّشوز، وعدَم القِيام بالحُقوق، إذا كان مِن الزّوجين، مُخاطباً للحُكّام بقوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾ أيُّها الحُكّام ﴿شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ والنُّشوز،

---

١ - ٣. كنز العرفان ٢: ٢١٢.

٤. مجمع البيان ٣: ٦٩، تفسير الصافي ١: ٤١٥.

٥. تفسير الرازي ١٠: ٩١.

وتَجاوز الحُدود الشَرعيّة مِنهما ﴿فَابْعَثُوا حَكَماً﴾ عادِلاً مُنصفاً، صالحاً للحُكومة مِن طَرَف الزَوج كائناً ﴿مِنْ أَهْلِهِ﴾ وأقاربه إلىٰ الزَوجة ﴿وَحَكَماً﴾ آخر، علىٰ صِفة حَكَم الزَوج مِن طَرَف الزَوجة، كائناً ﴿مِن أَهْلِهَا﴾ وعَشيرتها إلىٰ الزَوج لإصلاح ذاتِ البَيْن.

قيل: تَعْيين أهل الزَوجين للحَكَميّة لكَونه أعرف بحالهما[1].

وقيل: هُو علىٰ سبيل النَّدب، ويجُوز البَعث لغير الأهل لحُصول الغَرَض[2].

وعلىٰ أيّ حالٍ وتقدير فالحَكَمان المُعيّنان ﴿إن يُرِيدَا﴾ وقَصَدا ﴿إِصلاحاً﴾ وتوفيقاً بين الزَوجين بالشُّروط والالْتِزامات نظراً إلىٰ صَلاحهما ﴿يُوَفِّقِ اللهُ﴾ ويُؤلّف بقُدْرته ﴿بَيْنَهُمَا﴾ قيل: إنّ ضمير التّثنية الأولىٰ أيضاً راجِع إلىٰ الزَوجين[3]، وقيل: الثّانية أيضاً راجعة إلىٰ الحَكَمين[4] ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً﴾ بالكُلّيّات ﴿خَبِيراً﴾ بالجُزئيّات، أو عليماً بالبواطِن خبيراً بالظَواهر مِن الأقوال والأفعال.

في (الكافي): عن الصادق عليه السلام: «الحَكَمان يشتِرطان إن شاءا فرّقا وإن شاءا جمَعا، فإن جمعا فجائز، وإن فرّقا فجائز»[5].

[و]قال: «ليس لهما أن يُفرّقا حتّىٰ يستأمراهما»[6].

وَٱعْبُدُوا ٱللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَامَىٰ وَٱلْمَسَاكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ ٱللهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً[٣٦]

ثمّ أنّه تعالىٰ لمّا أرشد الزَوجين إلىٰ طَريق الإصلاح بَيْنهما، أرشد النّاس إلىٰ طَريق الإصلاح بَيْنهم وبَيْن الله بقوله: ﴿وَٱعْبُدُوا ٱللهَ﴾ وأطيعوه أيُها النّاس جَوانِحاً وجَوارحاً ﴿وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾ مِن الإشراك جَلِيّاً وَخفيّاً، ﴿وَ﴾ أحسِنوا ﴿بِالْوَالِدَيْنِ﴾ وإن عَلَوا ﴿إِحْسَاناً﴾ لائقاً بعَظيم حُقوقهما.

وفي إقران ذِكْر وُجوب بِرّهما بوُجوب عِبادة ذاته المُقدّسة تنبيهٌ علىٰ كمال العِناية بهما، وعُلُوّ قَدْرهما، والتّأكيد في وجوب طاعتهما، والقِيام بخِدمتهما، والسَعْي في حَوائجهما، والإنفاق عليهما بقَدَر الاستِطاعة، والخُضوع لهما، وتَلْيين الكلام معهما.

رُوي أنّ رَجُلاً جاء إلىٰ رَسُول الله صلّى الله عليه وآله مِن اليمن فاستأذَنه في الجِهاد، فقال صلوات الله عليه: «هل لكَ أحدٌ باليمن؟» فقال: أبواي، فقال: «أبواك أذِنا لك؟» فقل: لا، فقال: «فارْجِع فاستأذِنهما، فإنْ أذِنا

---

١. تفسير الرازي ١٠: ٩٣.
٢. تفسير أبي السعود ٢: ١٧٥.
٣. تفسيرر أبي السعود ٢: ١٧٥.
٤. تفسير أبي السعود ٢: ١٧٥.
٥. الكافي ٦: ٣/١٤٦، تفسير الصافي ١: ٤١٥.
٦. الكافي ٦: ٥/١٤٧، تفسير الصافي ١: ٤١٥.

لَك فجاهِد، وإلّا فبرّهما»[١].

وعن العيّاشي: عنهما عليهما السلام، في هذه الآية: «أنّ رَسُول الله صلى الله عليه وآله أحدُ الوالدَين، وعلياً عليه السلام الآخَر»[٢].

ثمّ بعدَ الأمر بالإحسان إلىٰ الوالدين، أمر بالإحسان إلىٰ الأرحام بقوله: ﴿وَبِذِى الْقُرْبَىٰ﴾ والأرحام القريب مِنكم والبعيد، فإنّهم أحقّ بالإحسان مِن غيرِهم. ﴿وَ﴾ بَعْدهم ﴿الْيَتَامَىٰ﴾ لضَعفهم، وصِغَرهم، وعدَم الكافل لهم، ﴿وَ﴾ بَعْدهم ﴿الْمَسَاكِينِ﴾ والفُقراء، ﴿وَ﴾ بَعْدهم ﴿الْجَارِ ذِى الْقُرْبَىٰ﴾ ومَن له قُرب الدّار، ﴿وَ﴾ بَعْدهم ﴿الْجَارِ الْجُنُبِ﴾ ومَن يكون له بُعْد الدّار.

بيان حدّ الجار وحقوقه

في (الكافي): عن الباقر عليه السلام: «حَدُّ الجِوار أربعون داراً مِن كُلّ جانِبٍ، مِن بَيْن يَدَيه، ومِن خَلْفه، وعن يَمينه، وعن شِماله»[٣].

وعن الصادق عليه السلام، قال: «قال رَسُول الله صلى الله عليه وآله: كُلّ أربعين داراً جِيرانٌ مِن بَيْن يَدَيه، ومِن خَلْفه، وعن يَمينه، وعن شِماله»[٤].

وعن النبيّ صلى الله عليه وآله: «الجِيرانُ ثلاثةٌ: جَارٌ له ثلاثةُ حُقوق. حَقّ الجار وحقّ القرابة وحق الإسلام، وجارٌ له حقّان: حَقّ الجار، وحَقّ الإسلام، وجارٌ له حَقٌّ واحدٌ: حَقّ الجار[٥]، وهُو المُشرك مِن أهل الكِتاب»[٦].

وعن الصادق عليه السلام: «حُسْن الجِوار يزِيد في العمر»[٧].

وقال: «حُسْن الجِوار يُعمِّر الدِّيار، ويزِيد في الأعمار»[٨].

وعن الكاظم عليه السلام: «ليس حُسْن الجِوار كَفّ الأذىٰ، ولكن حُسْن الجِوار صَبْرُك علىٰ الأذىٰ»[٩].

وعن النبيّ صلى الله عليه وآله، قال: «والذي نفسُ محمّدٍ بيَده، لا يُؤدّي حَقّ الجَار إلّا مَنْ رَحِم الله، وقليلٌ ما هُم، أتدرون ما حَقُّ الجَار؟ إ ن افتقر أغنَيْتَهُ، وإن اسْتقرض أقرضتَهُ، وإن أصابه خيرٌ هنّأتَهُ، وإن أصابه شَرٌّ عزّيتَهُ، وإن مرِض عُدْتَهُ، وإن مات شيّعتَ جِنازته»[١٠].

وقيل: عنىٰ بالجار ذي القُربى: القَريب النّسيب، وبالجار الجُنُب: الجار الأجنبي[١١].

ثمّ ذكَر الصِّنف السّابع بقوله: ﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ﴾ قيل: هُو الذي صحِبك وحَصل في جَنْبك،

---

١. تفسير الرازي ١٠: ٩٥.
٢. تفسير العياشي ١: ٩٧١/٣٩٧و٩٧٢، تفسير الصافي ١: ٤١٥.
٣. الكافي ٢: ٢/٤٩١، تفسير الصافي ١: ٤١٥.
٤. الكافي ٢: ١/٤٩١، تفسير الصافي ١: ٤١٥.
٥. في مجمع البيان: الجوار.
٦. مجمع البيان ٣: ٧٢، تفسير الصافي ١: ٤١٦.
٧. الكافي ٢: ٣/٤٨٩، وفيه: يزيد في الرزق، تفسير الصافي ١: ٤١٦.
٨. الكافي ٢: ٨/٤٨٩، تفسير الصافي ١: ٤١٦.
٩. الكافي ٢: ٩/٤٨٩، تفسير الصافي ١: ٤١٦.
١٠. تفسير الرازي ١٠: ٩٦.
١١. تفسير الرازي ١٠: ٩٦.

إمّا بكونه رَفيقاً في سَفر، أو جاراً مُلاصقاً، أو شريكاً في تَعلُّم أو حِرْفة، أو قاعداً بجنبك في مَجْلس أو مَسْجِدٍ، أو غير ذلك مِمّن له أدنىٰ صحبة التّأمتْ بَينك وبَيْنه، فعليك أن [ترعى ذلك الحقّ ولا تنساه و] تجعله ذَريعة إلىٰ الإحسان إليه[1].

وقيل: إنّه المرأة فإنّها تكون معَك وتضجَع إلىٰ جَنْبك[2].

﴿وَ﴾ بَعْدهم ﴿ابنِ السَّبِيلِ﴾ وهُو المُسافر المُنقطع عن بَلَده وماله، والإحسان إليه بأن تُؤويه وتُزوّده، وقيل: هُو الضَّيف[3]. ﴿وَ﴾ بَعده ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ مِن العَبيد والإماء.

عن القُمي ﷺ قال: الصّاحِب بالجَنْب يعني صاحِبُك في السّفر، وابن السبيل يعني أبناء الطَّريق الّذِينَ يستعِينون بك في طريقهم، وما ملكت أيمانكم يعني الأهل والخادم[4].

وقيل: هُو كُلّ حَيوان تملِكه[5]. وعلىٰ كُلّ تقديرٍ، فإنّ الإحسان إلىٰ الكُلّ طاعة عظيمة.

قيل: كانوا في الجاهليّة يُسيئون إلىٰ المَمْلوك، فيُكلّفون الإماء بالبَغْي[6] والتّكسُّب بفروجهِنّ[7].

ثمّ لمّا كان عُمْدة المَوانع عن الإحسان والتّوجُّه إلى الفُقراء والضُّعفاء والمَماليك التّكبُّر والتّطاول، هَدّد الله التّاركين للإحسان إليهم بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً﴾ ومُتكبراً ﴿فَخُوراً﴾ ومُتطاولاً علىٰ النّاس.

﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً﴾[٣٧]

ثمّ قسّمهم سُبحانه قِسْمين، وعرّف القِسْم الأوّل بقوله: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ بأموالهم ولا يُنفِقونها في سَبيل الله ووُجوه البرّ مِن الجِهاد، وإعانة الفُقراء، وصِلَة الأرحام، وأمثال ذلك.

ثمّ بالغ سُبحانه في [بيان] خُبثِهم البُخل بقوله: ﴿وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ ويُرغّبونهم فيه، ولا يَرضَون بإنفاق أحدٍ إلىٰ أحد ﴿وَيَكْتُمُونَ﴾ ويستُرون مِن النّاس ﴿مَا آتَاهُمُ اللَّهُ﴾ وأعطاهم ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ وسَعَة جُوده، بأن يُظهِروا الفَقْر والإعسار مَع كَونهم أغنياء مُوسِرين لئلا يَتوقّع مِنهم البَذْل أحدٌ.

ثمّ لمّا كان هذا الخَلْق الرّذيل مُلازِماً للكُفْر ـ ولَو بسَبب إنكار حُقوق الله مِن الزّكاة، وصِلة الرَّحْم،

---

١. تفسير الرازي ١٠: ٩٦.
٢. تفسير الرازي ١٠: ٩٧.
٣. تفسير الرازي ١٠: ٩٧.
٤. تفسير القميّ ١: ١٣٨، تفسير الصافي ١: ٤١٦.
٥. تفسير الرازي ١٠: ٩٧، تفسير روح البيان ٢: ٢٠٦.
٦. كذا، وفي تفسير الرازي: البغاء.
٧. تفسير الرازي ١٠: ٩٧.

والإحسان إلىٰ الفُقراء ـ وإظهار الشِّكاية مِن الله وصَفهم الله بالكُفر، وهدّدهم بقوله: **﴿وَأَعْتَدْنَا﴾** وهيّئنا في الآخرة **﴿لِلْكَافِرِينَ﴾** بالله ونعِمَه والدّار الآخرة **﴿عَذَاباً مُهِيناً﴾** لهم لاستهانتهم بأحكام الله وعباده.

عن النبيّ ﷺ: «خَصْلتان لا تجتمِعان في مُسلم: البُخل، وسُوء الخُلُق»[1].

وعن الصادق عليه السلام: «ما كان في شيعتنا فلا يكون فيهم ثلاثةٌ: لا يكون فيهم مَن يسأل بكَفّه، ولا يكون فيه بَخيل...»[2]

عن ابن عبّاس: أنّهم اليَهود، بخِلوا أن يعترِفوا بما عرَفوا مِن نَعْت محمّد ﷺ وصِفته في التّوراة، وأمروا قومَهم أيضاً بالكِتْمان، **﴿وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ ٱللّٰهُ مِن فَضْلِهِ﴾** مِن العِلم بما في كِتابهم مِن صِفة محمّد ﷺ **﴿وَأَعتَدنَا﴾** في الآخرة لليَهود **﴿عَذَاباً مُهِيناً﴾**[3].

وقيل: إنّ اليَهود كانوا يقولون للأنصار بطريق النَّصيحة: لا تُنفِقوا أموالكم، فإنا نخشىٰ عليكم الفَقْر[4].

وَٱلَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ ٱلآخِرِ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَانُ لَهُ قَرِيناً فَسَاءَ قَرِيناً[٣٨]

ثمّ عرَف الله القِسْم الثاني بقوله: **﴿وَٱلَّذِينَ يُنْفِقُونَ﴾** ويصرِفون **﴿أَمْوَالَهُمْ﴾** في وُجوه البِرّ، ولكن لا لغَرَض طاعة الله، والقُرْب إليه، وطلَب الآخرة، بَل يكُون غَرَضُهم مِن البَذْل والإنفاق **﴿رِئَاءَ ٱلنَّاسِ﴾** ولتَحصيل الجَاه بَيْنهم، والمَدح في ألسنتهم.

ثمّ أشار سُبحانه إلىٰ عِلّةِ ريائهم بالإنفاق بقوله: **﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ ٱلآخِرِ﴾** عن صَميم القَلب حتّىٰ يقصِدوا بإنفاقهم التَقرُّب إلىٰ الله وطاعته، والنَجاة في الآخرة.

ومِن البَيِّن أنّ هؤلاء المُرائين قُرَناء الشَيطان يُضِلّهم عن الصِّراط المُستقيم، ويَهديهم إلىٰ الجَحيم **﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَانُ لَهُ قَرِيناً﴾** ومُصاحباً في الدُّنيا، لا يُرجىٰ مِنه خَيرٌ، ولا يكون له فَلاح **﴿فَسَاءَ﴾** إذَنْ الشّيطان **﴿قَرِيناً﴾** وبِئْس مُصاحباً، حيثُ إنّه يحرِم قرينَه مِن النِّعَم الدّائمة، ويُدخِله بتَسْويلاته الجَحيم الحاطِمة.

قيل: نزلَتْ في المُنافقين لذِكر الرِّياء في إنفاقهم، وهُو النِّفاق[5].

وقيل: نزلَتْ في مشركي مكة المنفقين علىٰ عَداوة رَسُول الله ﷺ[6].

---

١. الخصال: ١١٧/٧٥، تفسير الصافي ١: ٤١٧.
٢. الخصال: ١٣٧/١٣١، تفسير الصافي ١: ٤١٦.
٣. تفسير الرازي ١٠: ٩٨.
٤. تفسير أبي السعود ٢: ١٧٦.
٥. تفسير الرازي ١٠: ٩٩.
٦. تفسير الرازي ١٠: ٩٩.

وعلىٰ أيّ تقدير، تدلّ الآية على أنّ المُنفِق رِياءً والبُخلاء الّذين لا يُنفِقون بشيءٍ متشاركون في الذّمّ والعِقاب لا شتِراكهم في تَرْك الإنفاق في ما ينبغي وكما ينبغي.

وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ وَكَانَ اللهُ بِهِمْ عَلِيماً[٣٩]

ثمّ لام الله سُبحانه كِلا الفَريقين علىٰ تَرْك الإيمان والإنفاق لوَجْه الله وفي سبيله الذي فيه نَفْع عظيم، وفي تَرْكه ضَرَر كثير، بقوله: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ﴾ مِن الضَّرَر المُتصوَّر ﴿لَوْ﴾ أنّهم ﴿آمَنُوا بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ معَ وُضوح دَلائل التَوحيد والمَعاد ﴿وَأَنْفَقُوا﴾ في سبيل الله شيئاً ﴿مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ﴾ مِن المال مَع كَثْرة مَنافعه، وعدَم تَصوُّر الضَّرَر فيه. وفيه غاية الحَثّ والتَحْريض إليهما.

ثمّ هدّد سُبحانه علىٰ تَرْكهما بقوله: ﴿وَكَانَ اللهُ بِهِمْ﴾ وبأخلاقهم وأعمالهم الظّاهِرة والخَفيّة ﴿عَلِيماً﴾ ومِن الواضِح أنّ الاعْتِقاد بأنّ الله القادر، المُنتقم، الشّديد العِقاب، مُطلّع علىٰ ظاهِره وباطِنه مِن أقوىٰ الرَوادِع عن الكُفْر والعِصيان والنِّفاق والرِّياء.

إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً[٤٠]

ثمّ بالغ سُبحانه في تَرغيب النّاس إلىٰ الإيمان والإنفاق في سَبيله بقوله: ﴿إِنَّ اللهَ﴾ تعالىٰ ﴿لَا يَظْلِمُ﴾ أحداً عَمِل عَمَلاً بزيادة عِقابٍ، أو بنَقْص ثَواب ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ وبقَدَر نَمْلةٍ صغيرة لا سْتِحالة صُدور الظُّلم منه، معَ كَمال حِكْمته، وعدم حاجته. وفيه مُبالغة في تَنزيه ساحته عن الظُّلم.

ثمّ أعلن عن سعة رَحمته وعَظَمة فَضله بقوله: ﴿وَإِن تَكُ﴾ زِنة الذَّرّة ﴿حَسَنَةً﴾ وفعلة خيرٍ ﴿يُضَاعِفْهَا﴾ الله بإضعاف ثَوابها ﴿وَيُؤْتِ﴾ صاحِبَها ﴿مِن لَدُنْهُ﴾ ومِن خَزائن رَحمته، زائداً علىٰ ما يستحِقّه في مُقابل عَمَله ﴿أَجْراً عَظِيماً﴾ وثَواباً جسيماً لا يعرِف أحدٌ عَظَمة هذا الفَضل وجَسامته.

وفي تَوْصيفه بالعَظَمة دَلالة علىٰ أنّه أضعاف الدُّنيا وما فيها، حيثُ إنّه وصَف الدُّنيا وما فيها في كِتابه بالمَتاع القليل.

فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هٰؤُلَاءِ شَهِيداً[٤١]

ثمّ أنّه تعالىٰ ـ بعدَ تَهْديد الكُفّار والمُنافقين والبُخلاء والمُنفقين رياءً بعِلْمه بسَرائرهم وبَواطن أمورهم، وتَعْذيبهم مِن غير ظُلْم ـ هدّدهم بأنّه يقطَع عُذْرهم، ويُتِمّ عليهم الحُجّة، مُضافاً إلىٰ عِلْمه

بإقامة الشُّهود عليهم مِن الأنبياء والرُّسُل؛ بحيثُ لا يُمكِن لأحدٍ مِنهم الإنكار ودَعوىٰ العُذْر، بقوله: ﴿فَكَيْفَ﴾ ترون حال الكَفَرة والعُصاة في القِيامة، مِن شِدَّة الهَوْل والفَزَع ﴿إِذَا جِئْنَا﴾ في ذلك اليوم ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ﴾ مِن الأُمَم ﴿بِشَهِيدٍ﴾ عليهم من أنفسهم، وهُو رَسُولهم، يشهَد بفَساد عقائدهم، وعِنادهم لله ورُسُله، وارْتِكابهم السَّيِّئات طُغياناً وكُفراً ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يا محمَّد، بعدَ شَهادة الرُّسُل ﴿عَلَىٰ﴾ صِدْق ﴿هَٰؤُلَاءِ﴾ الرُّسُل ﴿شَهِيداً﴾ تشهد بصِدْقهم في ما شهِدوا به.

وقيل: إنّ كلمة (هؤلاء) إشارة إلىٰ المُكذِّبين، والمعنىٰ: أنّك تشهد بكُفرهم، كما شهِدت الأنبياء عليهم السلام.

رُوي أن النبيّ صلى الله عليه وآله قال لابن مسعود: «اقرأ القُرآن عَلَيّ» قال: فقلت: يا رَسُول الله، أنت الذي علّمتنيه. فقال: «أُحِبُّ أن أسمَعه مِن غيري» قال ابن مسعود: فأفتتحت سُورة النِّساء، فلمّا انتْهيتُ إلىٰ هذه الآية، بكىٰ الرّسُول صلى الله عليه وآله، قال ابن مسعود: فأمسكتُ عن القِراءة[1].

وفي حديثٍ، قال: «فيُقام الرُّسُل فيُسألون عن تأدِية الرِّسالات التي حمَلوها إلىٰ أُمَمهم، فأخبروا أنّهم قد أدُّوا ذلك إلىٰ أُمَمهم وتُسأل الأمم فيجحَدون، كما قال الله: ﴿فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِين أُرسِلَ إِلَيهِم وَلَنَسْئَلَنَّ المُرسَلِينَ﴾[2]، فيقولون: ﴿مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾، فتُشهِد الرُّسُلُ رَسُولَ الله صلى الله عليه وآله فيشهَد بصِدْق الرُّسُل، ويُكذِّب مَن جحَدها مِن الأُمَم، فيقول لكُلّ أُمّة مِنهم: بلىٰ قد ﴿جَاءَكُم بَشِيرٌ ونَذيرٌ وَاللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ﴾[3]، أي مُقتدر علىٰ شَهادة جَوارحكم عليكم، بتَبليغ الرُّسُل إليكم رِسالاتهم.

ولذلك قال الله لنبيّه صلى الله عليه وآله: ﴿فَكَيفَ إذَا جِئنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهيدٍ وجِئنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيداً﴾ فلا يستطيعون رَدّ شهادته خَوفاً مِن أن يختِم الله علىٰ أفواههم، وتشهد عليهم جَوارحُهم بما كانوا يعملون. ويشهد علىٰ مُنافقي[4] أُمّته وكُفّارهم بإلحادهم، وعِنادهم، ونَقْضهم عهدهم[5]، وتَغييرهم سُنّته»[6] الخبر.

وفي (الكافي): عن الصادق عليه السلام: «نزلتْ في أُمّة محمّد صلى الله عليه وآله خاصّة، في كُلّ قَرْنٍ مِنهم إمام [منّا] شاهِد عليهم، ومحمّد شاهد علينا»[7].

يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ

---

١. تفسير الرازي ١٠: ١٠٥. ٢. الأعراف: ٦/٧. ٣. المائدة: ١٩/٥.
٤. زاد في الاحتجاج: قومه و. ٥. في الإحتجاج: عهده.
٦. الإحتجاج: ٢٤٢، تفسير الصافي ١: ٤١٨. ٧. الكافي ١: ١/١٤٦، تفسير الصافي ١: ٤١٨.

ٱللَّهَ حَدِيثاً[٤٢]

ثمّ كأنّه قيل: ما شِدّة حالِهم التي أشرتَ إليها بقولك: ﴿**فَكَيْفَ**﴾ إلىٰ آخره، فقال سُبحانه: ﴿**يَوْمَئِذٍ**﴾ وفي ذلك الوقت ﴿**يَوَدُّ**﴾ ويتمنّىٰ ﴿**ٱلَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ بالله ﴿**وَعَصَوُا ٱلرَّسُولَ**﴾ وخالفوا أحكامه، وعارضوه بالتّكذيب ﴿**لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلأَرْضُ**﴾ وتنطبِق عليهم بعدَ انْشِقاقها، وسُقوطهم في بَطنها، بحيثُ لا يبقىٰ مِنهم أثرٌ فَوقها.

وقيل: إنّ المُراد: يوَدّون أنّهم لَم يُبعثوا، وأنّهم كانوا والأرض سَواء[١].

وقيل: يَودّون أنّهم صاروا كالبَهائم تُراباً، كما حكىٰ اللهُ أنّ الكافِر يقول يومئذٍ: ﴿**يَا لَيْتَنِى كُنتُ تُرَاباً**﴾[٢].

وعن القُمّي، قال: يتمنّىٰ الّذِين غصبوا أمير المُؤمنين عليه السلام أن تكون الأرض ابتلعتهم في اليوم الذي اجتمعوا [فيه] علىٰ غَصْبه[٣].

﴿**وَ**﴾ إذَن ﴿**لَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثاً**﴾ لعدَم قُدْرتهم علىٰ الكِتمان بعدَ ظُهور أعمالهم وعَقائدهم عندَ الله، وثُبوت كُفْرهم وعِصيانهم بشَهادة الرُّسُل.

عن الصادق عليه السلام، عن جدّه أمير المؤمنين صلوات الله عليه في خُطبةٍ يصِف فيها هَوْل يومِ القيامة: «ختم علىٰ أفواههم، وتكلّمت الأيدي، وشهِدت الأرجُل، ونَطَقت الجُلُود بما عملوا، فلا يكتُمون الله حديثاً»[٤].

وعن ابن عبّاس رضي الله عنه: يوَدّون لو تنطبق عليهم الأرضُ، ولَم يكونوا كتَموا أمر محمّد صلى الله عليه وآله، ولا كفروا به ولا نافقوا[٥].

وعن القُمّي: [يتمنّىٰ الذين غصبوا أمير المؤمنين عليه السلام أن تكون الأرض ابتلعتهم في اليوم الذي اجتمعوا فيه على غصبه، و] أنْ لَم يكتُموا ما قاله رَسُول الله صلى الله عليه وآله في عَلِي عليه السلام[٦].

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا ٱلصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُباً إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِن كُنتُم مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنكُم مِنَ ٱلْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ ٱلنِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً

---

١. تفسير الرازي ١٠: ١٠٦.

٢. تفسير الرازي ١٠: ١٠٦، والآية من سورة النبأ: ٧٨/٤٠.

٣. تفسير القمي ١: ١٣٩، تفسير الصافي ١: ٤١٨.

٤. تفسير العياشي ١: ٩٧٦/٣٩٨، تفسير الصافي ١: ٤١٨.

٥. تفسير الرازي ١٠: ١٠٦.

٦. تفسى القمي ١: ١٣٩، تفسير الصافي ١: ٤١٨.

فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ ٱللهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً[٤٣]

ثمّ لمّا أمر الله سُبحانه النّاس بعِبادته، والإحسان إلىٰ الأقارب والضُّعفاء، ورغّب في ما أمر، ورهّب عن المُخالفة، بيّن شَرائط أهم عِباداته، وهِي الصّلاة، بقوله: **﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا ٱلصَّلَاةَ﴾** ولا تشتغِلوا بها، وقيل: إنّ المُراد: لا تدخُلوا مَواضع الصّلاة، وهِي المَساجد **﴿وَأَنْتُمْ سُكَارىٰ﴾** مِن الخَمْر، أو مِن النّوم[١] **﴿حَتّىٰ تَعْلَمُوا﴾** وتفهموا **﴿مَا تَقُولُونَ﴾** في حال الصّلاة.

رُوي أنّ جَماعة مِن الصّحابة صَنع لهم عبدُالرّحمن بن عَوف طعاماً وشراباً، حينَ كانت الخَمرة مُباحة، فأكلوا وشرِبوا، فلما ثمِلوا جاء وقتُ صلاة المَغرب، فقدّموا أحدَهم ليُصلّي بهم، فقرأ: (أعبد ما تعبدون وأنتم عابدون ما أعبد)، فنزلتْ. فكانوا لا يشربون [في] أوقات الصّلاة، فإذا صَلّوا العِشاء شرِبوها، فلا يُصبحون إلّا وقد ذهَب عنهم السُّكْر، وعلِموا مايقولون[٢].

عن ابن عبّاس رضي الله عنه: نزلتْ في جَماعة مِن أكابر الصّحابة قبلَ تَحْريم الخَمْر وكانوا يشرَبونها، ثمّ يأتون المَسجد للصّلاة معَ رَسُول الله صلى الله عليه وآله، فنَهاهم الله عنه[٣].

وعن الكاظم عليه السلام: «أنّ المُراد سُكْر الشّراب، ثمّ نسَخها تَحريمُ الخَمْر»[٤].

وعن النبيّ صلى الله عليه وآله: «إذا نعَس أحدُكم، وهُو في الصّلاة، فليرقُد حتّىٰ يذهَب عنه النّومُ، فإنّه إذا صلّىٰ وهُو ينعَس لعلّه يذهَب يستغفِر فيسُبّ نفسَه»[٥].

وعن الباقر عليه السلام: «لا تقُم إلىٰ الصّلاة مُتكاسِلاً ولا مُتناعِساً ولا مُتثاقِلاً، فإنّها مِن خِلال النِّفاق، وقد نهىٰ الله أن تقُوموا إلىٰ الصّلاة وأنتم سُكارىٰ» قال: «سُكْر النّوم»[٦].

وعن الصادق عليه السلام قال: «سُكْر النّوم»[٧].

وعنه عليه السلام، أنّه سُئل عن هذه الآية، قال: «يعني سُكر النُّوم، يقول: بكم نُعاس يمنعَكم أن تعلَموا ما تقولون في رُكوعكم وسُجودكم وتكبيركم، وليس كما يصِف كثيرٌ مِن النّاس يزعُمون أنّ المُؤمنين يسكَرون مِن الشّراب، والمُؤمن لا يشرَب مُسكِراً ولا يسكَر»[٨].

تحقيق في جميع الأخبار

وقد تصدّىٰ شيخُنا البَهائي لجَمع الأخبار في حاشية (أسرار التّنزيل)، ونقله الفَيض رحمه الله في (صافيه) بعَين عِباراته، فراجع[٩].

---

١. مجمع البيان ٣: ٨١.　٢. تفسير الرازي ١٠: ١٠٧.　٣. تفسير الرازي ١٠: ١٠٨.
٤. مجمع البيان ٣: ٨٠، تفسير الصافي ١: ٤١٩.　٥. تفسير الرازي ١٠: ١١٠.
٦. تفسير العياشي ١: ٩٧٧/٣٩٨، علل الشرائع: ١/٣٥٨، تفسير الصافي ١: ٤١٩.
٧. الكافي ٣: ١٥/٣٧١، تفسير الصافي ١: ٤١٩.　٨. تفسير العياشي ١: ٩٨٠/٣٩٩، تفسير الصافي ١: ٤١٩.
٩. تفسير الصافي ١: ٤١٩.

والتَحقيق والأولىٰ في الجَمع أنّ العامة خَصّوا الآية بالسُكر مِن الخَمْر، وأنكروا شمولها لسُكْر النَوم لكَونه مَجازاً. فتلِك الأخبار الواردة عن المَعصومين ناظِرة إلىٰ المنع عن تَخصيص الآية بالسُكر مِن الخَمْر، وتَعميمها بالدَلالة المُطابقيّة أو الالتِزاميّة والفَحوىٰ لجميع أحوال عَدم إلتِفات الإنسان لِما يقول، ولَو كان مِن جِهة غَلَبة النَوم.

ومعنىٰ قوله عليه السلام: «نسخَها تَحريمُ الخمر». مَنعُ تحريم الخَمْر عن وجُود سُكر الخَمْر للمؤمن، وانحِصار السُكر في السُكر مِن النَوم. ولعلّ ما ذكَرنا كان مُراد الشَيخ.

ثمّ ذكَر سُبحانه الشَرط الآخَر لصِحَة الصَلاة، أو للقُرب إلىٰ مكانها، بقوله: ﴿وَلَا جُنُباً﴾ في حالٍ مِن الأحوال ﴿إِلَّا﴾ حالَ كَونكم ﴿عَابِرِى سَبِيلٍ﴾ ومُجتازين مِن المَسجد ﴿حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا﴾ مِن الجَنابة.

عن الباقر عليه السلام، والقُمّي عن الصادق عليه السلام: «الحائض والجُنُب لا يدخُلان المَسجد إلا مُجتازين، فإنّ الله يقول: ﴿وَلَا جُنُباً إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا﴾»[1].

وقد صَحّح إرادة الأركان المَخصُوصة مِن ﴿لَا تَقْرَبُوا ٱلصَّلَاةَ﴾ بقرينة قوله: ﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾، وإرادة مَوضع الصَّلاة، وهُو المَسجد، بقرينة قوله: ﴿إِلَّا عَابِرِى سَبيلٍ﴾ وهذا الوَجْه وإن كان خِلاف الظَاهِر إلّا أنّه لابُدّ مِنه بعدَ ثُبوت إرادة الحُكمين مِن القَضيّتين بدَلالة الرِّوايات المُعتبرة.

ثمّ ذكَر حُكْم تَعذُّر الطَهارة المائيّة بقوله: ﴿وَإِن كُنتُم﴾ في حال الجَنابة ﴿مَرْضَىٰ﴾ يضُرُّكم استِعمال الماء والاغتِسال ﴿أَوْ﴾ كُنتُم ﴿عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ ومُتلبّسين به، في طريق لا يُوجد فيه الماء ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنكُم مِنَ ٱلْغَائِطِ﴾ والمكان المُنخفِض مِن الأرض، كُنّي به عن الحَدَث، لغَلَبة وُقوعه فيه ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ﴾ وباشَرتُم ﴿ٱلنِّسَاءَ﴾ بالجِماع قُبُلاً أو دُبُراً، كما في المُستفيض مِن الأخبار ﴿فَلَمْ تَجِدُوا﴾ بعدَ الحَدَث الأصغر أو الأكبر ﴿مَاءً﴾ كافياً للوُضوء أو الغُسل، أو لَم تتمكّنوا مِن استِعماله للضَرَر أو الحَرَج ﴿فَتَيَمَّمُوا﴾ وتعمّدوا ﴿صَعِيداً طَيِّباً﴾ وأرضاً طاهرة.

في بيان معنىٰ الصَعيد

عن الصادق عليه السلام: «الصَعيد: المَوضع المُرتفع، والطَيِّب: الذي ينحدِر مِنه الماء»[2].

أقول: قال الفاضل المِقداد، في (آيات الأحكام)، في تفسير الآية: واقْصُدوا شيئاً مِن وَجْه الأرض ـ إلىٰ أن قال ـ: ولذلك قال أصحابنا: لَو ضرَب المُتيمّم يدَه علىٰ حَجَرٍ صُلْب ومسَح أجزاءه، وبه قال أبو حنيفة... إلىٰ آخره[3].

وعن الزَجّاج أنّه قال: الصَعيد: وَجْه الأرض؛ تُراباً [كان] أو غيرَه[4]، ولا أعلم خِلافاً بيْن أهل اللُغة[5].

---

١. تفسير القمي ١: ١٣٩، تفسير العياشي ١: ٩٨١/٣٩٩، علل الشرائع: ١/٢٨٨، تفسير الصافي ١: ٤١٩.
٢. معاني الأخبار: ١/٢٨٣، تفسير الصافي ١: ٤٢٠. ٣. كنز العرفان ١: ٩/٢٦. ٤. مجمع البيان ٣: ٨٠.

وقال الفخر الرازي: الصَعيد الطَيِّب: هُو الأرض التي لا سبَخة فيها[٦].

وقال البيضاوي، في تفسير الآية: فتعمّدوا شيئاً مِن وَجْه الأرض [طاهراً][٧].

والحاصل: أنّه لا شُبهة في أنّ لفظ الصَعيد في اللُّغة: مُطلق وَجْه الأرض، وعليه جُلّ اللُّغويِّين وأكثر المُفسّرين، وأنّه قد يُستعمل في خُصوص التُّراب إما مَجازاً وإمّا مِن باب إطلاق الكُلّي علىٰ الفَرد.

وعليه يُحمَل كلامٌ بعضِ اللُّغويِّين مِمّن قال إنّه التُّراب، لوُضوح أن مَقصود اللُّغوي بَيان مَورد الاستِعمال، لا خُصوص المعنىٰ المَوضوع له اللّفظ، ولذا نقَل ذلك البعض اسْتِعماله في مطلق وَجْه الأرض أيضاً، كما لارَيْب أنّه المُراد مِن قوله تعالىٰ: **﴿فَتُصبِحَ صَعِيداً زَلَقاً﴾**[٨] ومِن قوله تعالىٰ: **﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً﴾**[٩]. وعليه جميعُ المُفسّرين، وإنّما فسّره بعَضُهم بالتُّراب فيالآية بتَوهُّم كَوْن كلمة (مِنه) في آية المائدة[١٠] قرينةً علىٰ إرادة التُّراب مِنه في الآية[١١]. وهُو مَمنوعٌ للإجماع علىٰ جَواز التَيمُّم بالرَمْل والحَجَر والمَدَر وسائر أجزاء الأرض عندَ فَقد التُّراب. وكلمة (منه) ـ علىٰ فَرْض إرادة التَبعيض مِنها ـ تدُلّ علىٰ اعْتِبار العَلُوق[١٢]، ولا يلزَم مِنه إرادة التُّراب[١٣]، لإمكان كَوْن العَلُوق مِن غيره.

وليس في أغلب أخبار بَيان التَيمُّم إلّا لَفظ الأرض، وما في قليلٍ مِنها مِن لَفظ التُّراب لا مَفهومَ له يُوجِب تقْييد مُطلَقات لفظ الأرض.

وأما الأخبار الامْتِنانية، فما هُو الثّابت مِن طريق أصحابنا فهُو قوله ﷺ: «جُعلت لي الأرضُ مَسجداً وطَهوراً»[١٤] وأمّا مارُوي مِن قوله: «جُعلت لي الأرضُ مَسجداً، وتُرابها طَهوراً»[١٥] فلَم تثبُت صِحّتُه، معَ وَضُوح بُطلان مَضمونه، لِما ذكَرنا مِن اتّفاق النُّصوص والفَتاوىٰ علىٰ جَواز التَيمُّم بغير التُّراب عندَ فَقْده، فالأرضُ جميعُها طَهورٌ، لا خُصوص تُرابها، إنّما الكلام في الترتيب بَيْنه وبَيْن غيرِه مِن أجزاء الأرض وعدمه، نعم لَو كان قوله: «وتُرابها طَهوراً» صحيحاً مِن حيث السَّنَد، أو مَقبولاً عندَ الأصحاب، حمَلناه علىٰ صُورة وجدانه، والأخبار المُطلقة علىٰ صُورة فَقْده.

ثمَ بيّن سُبحانه كيفيّة التَيمُّم بقوله: **﴿فَامْسَحُوا﴾** بباطِن كَفّيكم، بعدَ ضَربهما علىٰ الأرض مَرّةً **﴿بِوُجُوهِكُمْ﴾** مِن قِصاص الشّعر إلىٰ طَرَف الأنف **﴿وَأَيْدِيكُمْ﴾** مِن الزَّنْد إلىٰ رُؤوس الأصابع **﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً﴾**.

---

٥. مجمع البيان ٣: ٨٢.
٦. تفسير الرازي ١٠: ١١٤.
٧. تفسير البيضاوي ١: ٢١٧.
٨. الكهف: ٤٠/١٨.
٩. الكهف: ٨/١٨.
١٠. المائدة: ٦/٥.
١١. تفسير الرازي ١٠: ١١٤.
١٢. العَلُوق: ما يعلَق باليد من التُّراب وغيره، بعد الضرب عند التيمّم.
١٣. زاد في النسخة: منه.
١٤. أمالي الطوسي: ٨١/٥٧.
١٥. تفسير الرازي ١٠: ١١٤.

قيل: هذا التَّذييل إشارةٌ إلىٰ أنّه تعالىٰ إذا كان مُسهّلاً علىٰ العُصاة بالعَفْو والغُفْران، كان بالتّسهيل علىٰ المُطيعين في أحكامه وأوامره أولىٰ[١].

عن الصادق عليه السلام في كيفيّة التّيمُّم: فضرَب بيَدَيْه علىٰ الأرض، ثمّ رفَعهما فنفضَهما، ثمّ مسَح علىٰ جَبينه وكَفّيه مرّةً واحدة[٢].

وفي رِوايةٍ أُخرىٰ: ثمّ مسَح كَفّيه إحداهما علىٰ ظهَر الأُخرى[٣].

وفي رِوايةٍ ثالثة: ولَم يمسَح الذِّراعين بشيء[٤].

أقول: لا شُبهة في كِفاية المَسْح علىٰ الجَبين وظَهر الكفّين معَ تَقديم مَسح ظَهر الكَفّ اليُمنىٰ بباطِن اليُسرىٰ، وعدَم وُجوب مَسْح تَمام الوَجْه والذراعين كما يفعَله بعضُ العامّة[٥]، بَل لا رَيْب في حُرمته بقصْد المَشروعيّة، إنّما الإشكال في كِفاية الضَرْب الواحِد للوَجْه واليَدين مُطلقاً، أو وُجوب الضَربتَين، إحداهما للوَجْه والأُخرىٰ لليَدين مُطلقاً، أو الضَرْب الواحِد في ما هُو بَدَل عن الوُضوء، والضَربتان في ما هو بَدَل عن الغُسْل. ومنشأ الإشكال اختِلاف الأخبار.

والأظهر في الجَمْع هُو الاجْتِزاء بالضَرْب الواحِد مُطلقاً، واسْتِحباب الزِّيادة، والأفضل مرّتان للوَجْه ومرّتان لليَدين مُطلقاً، ودُونه في الفَضل مرّتان للوَجْه ومَرّة لليَدين، ودونه مرّة للوَجْه ومرّة لليدَين، وتأكّد في ما هُو بَدَل عن الغُسْل، فنُزّل الزِّيادة في الضَرْب مَنزلة الإسباغ في الوُضوء.

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ ٱلْكِتَابِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّـلالَةَ وَيُـرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا ٱلسَّبِيلَ [٤٤]

ثمّ ـ لمّا ذكَر سُبحانه مِن أوّل السُّورة إلىٰ هُنا كثيراً من حُقوق النّاس مِن الأرحام والأيتام والأزواج والسُّفهاء والأبوين والكلالة، وسائر النّاس مِن المَساكين والجَار والصّاحب والمَماليك وغيرهم، والتّرغيب في الطّاعة والتّرهيب في المُخالفة ببيانٍ فيه غاية الإعجاز، ومَع ذلِك كان أهلُ الكِتاب الّذِين هُم أهل العِلْم مُصرّين علىٰ الكُفْر والضَّلال ـ أظهر سُبحانه وتعالىٰ التَعجُّب مِن ضَلالهم بعدَ وُضوح آياتِ صِدْق النبيّ، وصِحَة دِين الإسلام، بقوله: **﴿أَلَمْ تَرَ﴾** يا محمّد **﴿إِلَىٰ﴾** اليَهُود **﴿ٱلَّـذِينَ أُوتُـوا**

---

١. تفسير الرازي ١٠: ١١٤.
٢. الكافي ٣: ٦١/١، والتهذيب ١: ٢٠٧/٦٠١، عن الباقر عليه السلام، تفسير الصافي ١: ٤٢١.
٣. الكافي ٣: ٦٢/٣، التهذيب ١: ٢٠٧/٦٠٠، تفسير الصافي ١: ٤٢١.
٤. التهذيب ١: ٢٠٨/٦٠٣، تفسير الصافي ١: ٤٢١.
٥. راجع: تفسير الرازي ١٠: ١١٤، تفسير أبي السعود ٢: ١٨١.

نَصِيباً﴾ وحَظّاً قليلاً ﴿مِنَ﴾ عِلم ﴿ٱلْكِتَابِ﴾ الذي اُنزل إليهم، وهُم معَ ذلك ﴿يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ﴾ لأنفسهم بعِوَض الهِداية التي جاءتهم مِن الله وبَواسطتك، بَل الأعجب مِن ذلك أنهم لا يقنَعون بَضَلالة أنفسهم ﴿وَيُرِيدُونَ﴾ أيُّها المؤمنون بكِتمان نُعوت محمّد ﷺ وإلقاء الشُّبُهات والحِيَل والتَسويلات ﴿أَن تَضِلُّوا ٱلسَّبِيلَ﴾ المُستقيم، وترجِعوا عن الحَقّ، وتكفُروا بدِين الإسلام.

رُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنه: أنها نزلَت في حِبْرَين مِن أحبار اليَهود كانا يأتيان رؤوس المُنافقين عبدالله بن اُبيّ ورَهْطِهِ يثبّطانهم[1] عن الإسلام[2].

وقيل: إنّ المُراد مِن الّذِين يشترون الضَلالة: عوامّ اليَهود، فإنّهم كانوا يعطُون علماءهم بعضَ أموالهم، ويطلُبون مِنهم أن ينصُروا اليَهودية ويتعصّبوا لها، فهُم بمنزِلة مَن يشتري الضَلالة بماله[3].

وَٱللهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَىٰ بِاللهِ وَلِيّاً وَكَفَىٰ بِاللهِ نَصِيراً[٤٥]

ثمّ نبّه الله المؤمنين بعَداوتهم، بقوله: ﴿وَٱللهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾ جميعاً مِنكم، بَل أنتم لا تعلَمون بهم، فتُوالون اليَهود الّذِين هُم أعدىٰ عَدُوّكم، وتتوقّعون مِنهم أن ينصُروكم ﴿وَكَفَىٰ بِاللهِ﴾ لكُم ﴿وَلِيّاً﴾ وكافلاً لكافّة اُموركم، ومُحِبّاً ﴿وَكَفَىٰ بِاللهِ﴾ لكُم ﴿نَصِيراً﴾ ومُعيناً في دَفع أعدائكم، فلا تحتاجون إلىٰ وَليٍّ وناصرٍ غيرِه، فتوكّلوا عليه ولا تُبالوا بعَداوة غيره.

مِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَواضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِى ٱلدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنْظُرْنَا لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلٰكِن لَعَنَهُمُ ٱللهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً[٤٦]

ثمّ بيّن الله سُبحانه كيفيّة إضلالهم، وشِدّة عَداوتهم للرّسُول ﷺ ودِينه، بقوله: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا﴾ قَومٌ ﴿يُحَرِّفُونَ﴾ ويُميلون ﴿ٱلْكَلِمَ﴾ الذي وضَعه الله في التوراة ﴿عَن مَوَاضِعِهِ﴾ التي وَضَعه فيها إلى غير تِلك المَواضع.

قيل: إنّ تَحريفهم كان بإزالة الكَلِم عن مَواضعه، وإثبات غيره مكانه[4].

وقيل: إنّه كان بتأويلها إلىٰ المعاني الفاسدة[5].

---

١. في النسخة: ليبطؤهم.

٢. تفسير الرازي ١٠: ١١٥، تفسير أبي السعود ٢: ١٨١، تفسير روح البيان ٢: ٢١٤. ٣. تفسير الرازي ١٠: ١١٥.

٤. تفسير الرازي ١٠: ١١٧، تفسير الصافي ١: ٤٢٢. ٥. تفسير الرازي ١٠: ١١٨.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ إذا أمرهم الرّسُول بأمرٍ ﴿سَمِعْنَا﴾ أمره ﴿وَعَصَيْنَا﴾ه استِحقاراً به، وإظهاراً لمُخالفته، ﴿وَ﴾ يقولون: ﴿ٱسْمَعْ﴾ كلامنا يا محمّد، حالَ كَونك ﴿غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ كلاماً ترضاه.

وقيل: إنّ مَعناه: غير مُجابٍ إلىٰ ما تدعو إليه[1].

وقيل: إنّه دُعاءٌ عليه بالصَّمَم، أو الموت[2].

ويقولون: ﴿رَاعِنَا﴾ حينَ مُخاطبتهم النبيَّ ﷺ ﴿لَيًّا﴾ وفَتلاً ﴿بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾ قيل: إنّهم كانوا يفتِلون أشداقهم وألسِنتهم عندَ ذِكْر هذا الكلام استِهزاءً وسُخْريةً[3] ﴿وَطَعْنًا﴾ مِنهم ﴿فِى ٱلدِّينِ﴾ وقَدْحاً مِنهم في الرّسُول.

قيل: كانوا يلوُون ألسنتهم حتّىٰ يصِير قولُهم (راعِنا) (رَاعينا) وكانوا يُريدون: إنّك ترعىٰ أغنامنا[4].

كانوا يقولون لأصحابهم: إنّا نشتُمهُ ولا يعرِف، ولَو كان نبيّاً لعرَف ذلك، فأظهره الله تعالىٰ لنبيّه وعرّفه، فصارَ ما فعَلوه طَعناً في نُبوّته دَليلاً قاطِعاً عليها؛ لأنّ الإخبار بالغَيْب مُعجزةٌ عظيمة.

ثمّ وبّخهم الله علىٰ ما قالوا بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا﴾ عندَ استِماع أوامر الله ورَسُوله، بدَلَ قولهم: سمِعنا وعصَينا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أمر الرّسُول تعظيماً له وإظهاراً لطاعته، ﴿وَ﴾ يقولون: ﴿ٱسْمَعْ﴾ ولا يُلحِقون به كلمة (غير مسمع)، ﴿وَ﴾ يقولون: ﴿ٱنظُرْنَا﴾ حتّىٰ نفهم كلامَك، بدَل قولهم (راعنا)، ولَم يدُسّوا تحت كلامهم شرّاً وسُوءاً، والله ﴿لَكَانَ﴾ ذلك ﴿خَيْرًا لَّهُمْ﴾ وأنفع في الدُّنيا والآخرة مِمّا قالوا، ﴿وَ﴾ كان ﴿أَقْوَمَ﴾ وأعدل عندَ العَقل ﴿وَلَٰكِن﴾ لأجل أنّه ﴿لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ وخذَلهم ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ عَمَتْ قُلوبُهم، وبعُدوا عن الهُدىٰ، وتمرّنوا في الضّلال وجُحُود الحَقّ ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ بالله وآياته ورَسُوله ﴿إِلَّا﴾ إيماناً ﴿قَلِيلًا﴾ لا يُعبأ به، وهُو إيمانهم ببعض الآيات والرُّسُل، أو إيمانهم باللِّسان دُون القَلب، أو إلّا فَريقاً قليلاً، كعبدالله بن سَلام وأضرابه.

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُم مِن قَبْلِ أَن نَطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ ٱلسَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ ٱللهِ مَفْعُولاً[٤٧]

ثمّ لمّا ذكَر سُبحانه شِدّةَ عِناد اليَهود وسُوء فِعالهم وأقوالهم، باشَر بذاته المُقدّسة دَعوتهم إلىٰ الإيمان بمحمّد وبكِتابه، وخاطَبهم بما فيه استِمالة قُلوبهم بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا﴾ مِن قِبَل الله

---

١. تفسير الرازي ١٠: ١١٨.
٢. تفسير أبي السعود ٢: ١٨٣.
٣ و٤. تفسير الرازي ١٠: ١١٩.

﴿ٱلْكِتَابَ﴾ المُسمىٰ بالتّوراة، وعَلموا ما فيه مِن الأخبار بنُبوّة محمّد ﷺ وكِتابه ﴿آمِنُوا﴾ بالقَلب واللِّسان ﴿بِمَا نَزَّلْنَا﴾ مِن القُرآن الذي يشهد بصِدْقه كَوْنُه ﴿مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُم﴾ مِن التّوراة وغيرها مِن الكُتُب السّماويّة التي فيها نَعْت هذا الكِتاب، ولَو لَم يكُن القُرآن لَم تكُن أخبارُ سائر الكُتب به صِدقاً، وكَونُه مُوافقاً لها في القَصص، والدّعوة إلىٰ التّوحيد، والوَعْد والوَعيد، وسارِعوا إلىٰ الإيمان به ﴿مِن قَبْلِ أَن نَطْمِسَ﴾ ونُغيّر ﴿وُجُوهاً﴾ كائِنة للمُصرّين علىٰ الكُفر مِن الصُّورة الإنسانيّة إلىٰ صُورة الحَيوانات في الآخرة وقيل: إنّ المُراد مِن تَغْييرها: مَحْو آثار الصُّورة مِن العَين والأنف والحَاجب، وجَعْلها كخُفّ البَعير وحافِر الدّابة، كما عن ابن عبّاس رضي الله عنه[١] ﴿فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا﴾ وأقْفِيتها. وقيل: إنّ المُراد: نجعلُها مَطموسة علىٰ هيئتها[٢].

وعن الباقر عليه السلام: «أنّ المعنىٰ نطمِسها عن الهُدىٰ فنرُدّها في[٣] أدبارها، أي في ضلالتها...»[٤].

﴿أَوْ﴾ مِن قَبل أن ﴿نَلْعَنَهُمْ﴾ ونُخزيهم بالمَسخ في الدُّنيا ﴿كَمَا لَعَنَّا﴾ ومسَخنا ﴿أَصْحَابَ ٱلسَّبْتِ﴾ في زَمان دَاود بصُورة القِردة والخَنازير.

ثمّ أكّد سُبحانه التّهديد بالإخبار بتحتُّم العَذاب المَوعود، بقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللهِ﴾ وعِقابه المَوعود علىٰ تَرك الإيمان برَسُوله وكِتابه ﴿مَفْعُولاً﴾ لا محالة، وواقِعاً ألبتّة لا يُدافعه شيء.

قيل: لمّا نزلت الآية أتىٰ عبدُالله بن سَلام رَسُول الله ﷺ قبل أن يأتي أهلَه، فأسلم وقال: يا رَسُول الله، كنتُ أرىٰ أن لا أصِلَ إليك حتّىٰ يتحوّل وَجْهي في قَفاي[٥].

قيل: إنّ المُراد بالطَّمس ورَدِّ الوُجوه في الدُّنيا، وإنّما لَم يقَع لأنّه كان مَشروطاً بعدَم إيمان أحدٍ مِنهم، وقد آمن عبدُالله بن سَلام وكثيرٌ مِن الأحبار[٦].

إِنَّ ٱللهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰ إِثْماً عَظِيماً[٤٨]

ثمّ أشار سُبحانه إلىٰ أنّ أهل الكِتاب مِن اليَهود والنّصارىٰ مِلّتهم الشِّرْك، ويتحتّم العَذاب علىٰ المُشركين، بقوله: ﴿إِنَّ ٱللهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ أبداً إذا لَم يتُب المُشرك مِن شِرْكه ومات عليه، لعدَم قابليّته للغُفران واقْتِضاء الحِكْمة سَدّ باب الشِّرْك والكُفر، واحْتِمال العَفْو عنه مُوجبٌ لفتحه.

---

١. تفسير أبي السعود ٢: ١٨٥.
٢. تفسير أبي السعود ٢: ١٨٥.
٣. في مجمع البيان: على.
٤. مجمع البيان ٣: ٨٦، تفسير الصافي ١: ٤٢٣.
٥. تفسير الرازي ١٠: ١٢٢، تفسير أبي السعود ٢: ١٨٦.
٦. تفسير أبي السعود ٢: ١٨٦.

ثمّ بشّر بسَعَة رَحمته بقوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذٰلِكَ﴾ في القُبح مِن المَعاصي بفَضله وإنْ كانت كبيرة، ولكِن لا لكُلّ أحدٍ، بَل ﴿لِمَن يَشَاءُ﴾ أن يغفِر له.

في (الفقيه): أنّه عليه السلام سُئل: هل تدخُل الكَبائر في مَشيئة الله؟ قال: «نعم، ذلك إليه عزّ وجلّ إنْ شاء عذّب عليها، وإن شاء عفا عنها»[١].

عن أمير المؤمنين عليه السلام عن النبيّ صلى الله عليه وآله - في حديث - قال: «مَن قال: لا الٰهَ إلّا الله بإخلاص، فهُو بَريءٌ مِن الشِّرْك، ومَن خرج من الدُّنيا لا يُشرِك بالله شيئاً دخَل الجنّة - ثمّ تلَا هذه الآية -: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ مِن شِيعتك ومُحبّيك يا عليّ» قال أميرُ المُؤمنين عليه السلام: «فقلتُ: يا رَسُول الله، هذا لشيعتي؟ قال: إي وربّي، إنّه لشيعتك»[٢].

وعن الصادق عليه السلام أنّه سُئل عن أدنىٰ ما يكون الإنسان مُشركاً، قال: «مَن ابتَدع رأياً فأحبّ عليه أو أبغض»[٣].

وعن الباقر عليه السلام: «﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ يعني لا يغفِر لمَن يكفُر بوِلاية عليّ ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ يعني لمَن والىٰ عَليّاً»[٤].

ثمّ أشار سُبحانه إلىٰ عِلّة عدَم مَغفرة الشِّرْك بقوله: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ شيئاً مِن صَنَم أو غيره ﴿فَقَدِ ٱفْتَرَىٰ﴾ واقترف ﴿إِثْماً عَظِيماً﴾ يستحقر دُونه الآثام.

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُم بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً[٤٩]

ثمّ لمّا كانت اليَهُود مع سُوء أخلاقكم وأعمالهم مُبالغين في تَزكية أنفسهم بادِّعائهم أنّهم أبناء الأنبياء وأحِبّاء الله، وأنّ الله لا يُعذّبهم بذُنوبهم، أظهر سُبحانه التَعجُّب مِمّا كان يصدُر مِنهم مِن القول الباطِل، مُخاطباً لنبيّه صلى الله عليه وآله بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا محمّد ﴿إِلَىٰ﴾ هؤلاء اليَهُود ﴿ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ﴾ ويمدَحون ﴿أَنفُسَهُم﴾ بالطَّهارة مِن الذُّنوب، وقُربهم إلىٰ الله، وأولوِيّتهم بالنُّبوّة والرِّسالة، والحَال أنّهم مُشركون مَلعونون عندَ الله، معَ أنّه ليس لأحدٍ تَزكية نفسه ﴿بَلِ ٱللَّهُ﴾ المُطّلِع علىٰ ضَمائر العِباد ﴿يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ تَزكيته، فإنّه عالِم بتَقوىٰ النُّفوس وكمالها، كما قال: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُم هُوَ أَعلَمُ

١. من لا يحضره الفقيه ٣: ١٧٨٠/٣٧٦، تفسير الصافي ١: ٤٢٣.
٢. من لا يحضره الفقيه ٤: ٨٩٢/٢٩٥، تفسير الصافي ١: ٤٢٣.
٣. تفسير العياشي ١: ٩٩٣/٤٠٣، تفسير الصافي ١: ٤٢٤.
٤. تفسير العياشي ١: ٩٩٢/٤٠٣، تفسير الصافي ١: ٤٢٤.

بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾[1] فيَجزيهم ما يستحقّونه مِن الجزاء ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ﴾ بالعِقاب أو بتنقيص الثّواب ﴿فَتِيلاً﴾ وقَدَراً قليلاً.

انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْماً مُبِيناً[٥٠]

ثمّ أشار سُبحانه إلىٰ وَجه التّعجُّب بقوله: ﴿انظُرْ﴾ إلىٰ هؤلاء المُزكّين لأنفسهم ﴿كَيْفَ﴾ يجترئون و﴿يَفْتَرُونَ﴾ بدَعاويهم الباطلة، مِن قولهم: نحنُ ابناءُ الله وأحبّاؤه، وإنّا لا نُعذّب في الآخرة ﴿عَلَىٰ اللهِ الكَذِبَ﴾ ويُجاهرون بهذا الافتِراء ﴿وَكَفَىٰ بِهِ إِثْماً مُبِيناً﴾ وذَنباً ظاهراً.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً[٥١]

ثمّ بالغ سُبحانه في ذَمّهم بما هُو أقبح مِن الافتِراء بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا محمّد ﴿إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً﴾ وحَظّاً ﴿مِنَ﴾ عِلم ﴿الكِتَابِ﴾ وآيات التّوراة، حتّىٰ تتعجّب من خُبث ذاتهم، وقُبح فِعالهم، أنّهم ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ ويعبُدون الأصنام عِناداً لدِين الإسلام، وتعصُّباً لدِين اليَهوديّة.

رُوي أنّ حُيَي بن أخطب وكعب بن الأشرف اليَهوديّين خرجا إلىٰ مكّة معَ جَماعة مِن اليَهود يُحالفون قريشاً علىٰ مُحاربة رَسُول الله ﷺ، فقالوا: أنتُم أهل الكتاب، وأنتُم أقرب إلىٰ محمّد مِنكم إلينا فلا نأمَن مكرَكم، فاسجُدوا لآلهتنا حتّىٰ تطمئِنّ قُلوبُنا، ففعلوا ذلك، فهذا إيمانهم بالجِبْت والطّاغوت؛ لأنّهم سجَدوا للأصنام[2].

عن الباقر عليه السلام: «الجِبْت والطّاغوت: فُلان وفُلان»[3].

﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿يَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وأشركوا ولتَطييب قُلوبهم: ﴿هؤُلَاءِ﴾ المُشركون ﴿أَهْدَىٰ﴾ وأرشد ﴿مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بمحمّد ﴿سَبِيلاً﴾ وأحسن ديناً.

رُوي أنّ أبا سُفيان قال لكعب بن الأشرف: أنحنُ أهدىٰ سبيلاً أم محمّد؟ فقال كعب: ما يقول محمّد؟ قال: يأمُر بعِبادة الله وَحْده، وينهىٰ عن عِبادة الأصنام وتَرك دِين آبائه، وأوقع الفُرقة؛ قال: وما دِينكم؟ قال: نحنُ وُلاة البيت، نسقي الحَاجّ، ونَقري الضَيف، ونفُكّ العاني[4]، وذَكر أفعالهم، فقال: أنتُم أهدىٰ سَبيلاً[5].

---

١. النجم: ٣٢/٥٣.
٢. تفسير الرازي ١٠: ١٢٨.
٣. تفسير العياشي ١: ٩٩٦/٤٠٣، تفسير الصافي ١: ٤٢٥.
٤. العاني: هو الأسير.
٥. تفسير الرازي ١٠: ١٢٨.

عن القُمّي، قال: نزلَتْ في اليَهود حينَ سألهم مُشركو العَرَب: أدينُنا أفضل أم دِين محمّد؟ قالوا: بَل دينُكم أفضل[١].

عن الباقر عليه السلام: «يقولون لأئمّة الضّلال والدُّعاة إلى النّار: هؤلاء أهدىٰ مِن آل محمّد»[٢].

أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللهُ وَمَن يَلْعَنِ ٱللهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيراً[٥٢]

ثمّ هدّدهم الله تعالىٰ بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ المُؤمنون بالجِبْت والطّاغوت، القائلون بهذا القول السّيِّء، هُم ﴿ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللهُ﴾ وطردهم عن رحمته، وخذلهم في الدنيا ﴿وَمَن يَلْعَنِ ٱللهُ﴾ ويخذُله ويُخزيه ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيراً﴾ ومُحامياً يدفَع عنه العَذاب في الدُّنيا والآخرة، فلا ينالون مَطلوبهم مِن نُصْرة قُريش وغيرهم.

أَم لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذاً لَا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيراً[٥٣]

ثمّ لمّا كانوا مُدّعين أنّ المُلْك والسّلْطنة لابُدّ مِن أن تكون فيهم، وتعود إليهم، أبطل الله هذه الدّعوىٰ، وأنكر عليهم هذا الزّعْم بقوله: ﴿أَم لَهُمْ نَصِيبٌ﴾ وحَظّ ﴿مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾ والسّلْطنة أو النُّبوّة، فإنّ ذلك لا يكون أبداً؛ لأنّهم أبخل النّاس، فإن ملَكوا ﴿فَإِذاً لَا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيراً﴾ ومُقدار النُّقطة التي تكون في وَسط النّواة، ومِن المَعلوم أنّ البُخل والسّلْطنة لا يجتمعان، لأنّ بالبِرّ يُستعبَد الحُرّ.

عن الباقر عليه السلام: «﴿أَم لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾ يعني الإمامة والخِلافة. ـقال ـ: ونحنُ النّاس الّذين عنىٰ الله»[٣].

أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ ٱللهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبرَاهِيمَ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُلْكاً عَظِيماً[٥٤]

ثمّ لمّا لَم تكُن عَداوتهُم للنبيّ ودِينه، وسَعيهُم في إبطال أمره، لاعْتِقادهم بصِحّة دِينهم وبطلان دِين الإسلام، بَل كان لغاية حَسَدهم، ذَمّهم الله بالحَسَد بعدَ ذَمّهم بالجَهل والعَصبيّة والبُخل، وأنكر عليهم ذلك الخُلُق الرّذيل، بقوله: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ ٱللهُ﴾ مِن النُّبوّة والكِتاب، ووجُوب الطّاعة، والعِزّ والنُّصْرة علىٰ الأعداء، وغير ذلك مِن الكَرامات التي كُلّها ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ تعالىٰ عليهم، لكَمال وجُودهم، وحُسْن فُطرتهم، ونُورانيّة طِينتهم.

---

١. تفسير القمي ١: ١٤٠، تفسير الصافي ١: ٤٢٤.
٢. الكافي ١: ١/١٥٩، تفسير الصافي ١: ٤٢٥.
٣. الكافي ١: ١/١٥٩، تفسير الصافي ١: ٤٢٥.

وليس هذه التَفضُّلات مِن الله علىٰ عِباده المُخلصين بِدْعاً بِلا نظير حتّىٰ تستبعِدوها ﴿فَقَدْ آتَيْنَا﴾ قبلَ محمّد ﷺ ﴿آلَ إِبْرَاهِيمَ﴾ وأولاده المَعصومين الّذِين هُم أسلاف محمّد ﷺ وبَنو أعمامه ﴿الْكِتَابَ﴾ السّماوي ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ التي تُلازم النُّبوّة ﴿وَآتَيْنَاهُم﴾ مُضافاً إلىٰ ذلك ﴿مُلْكاً عَظِيماً﴾ لا يُقادر قَدْره، فاسْتكملوا بكمال العِلْم والقُدْرة، فإذا لَم يكُن اجتِماع تِلك التَفضُّلات في آل إبراهيم مُستبعَداً، لَم يكُن في محمّد ﷺ مُستبعَداً.

عن الصادق عليه السلام: «الكتاب: النُّبوّة، والحكمة: الفَهْم والقضاء، والمُلك العظيم: الطّاعة المَفروضة»[١].

وعن الباقر عليه السلام، قال: «المُلك العظيم: أن جعَل فيهم أئمّةً، مَن أطاعهم أطاع الله، ومَن عصاهم عصىٰ الله، فهُو المُلك العظيم»[٢].

وعنه عليه السلام: «يعني جعَل مِنهم الرُّسُل والأنبياء والأئمّة، فكيف يُقرّونه في آل إبراهيم، ويُنكِرونه في آل محمد؟!»[٣].

وعن ابن عبّاس رضي الله عنه: المُلك في آل إبراهيم مُلك يُوسف وداود وسُليمان عليهم السلام[٤].

فَمِنْهُم مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيراً[٥٥]

ثمّ لمّا ذَمّ اليَهود بالحَسَد وعدَم الإيمان بمحمّد ﷺ، نبّه علىٰ براءة بعضِهم مِن هذه الرّذيلة، ودُخول بعضِهم في الإيمان، وعدَم شُمول الذّمّ لجميعهم، بقوله: ﴿فَمِنْهُم مَنْ آمَنَ بِهِ﴾ كعبدالله بن سَلام، وبعضٍ مِن الأحبار ﴿وَمِنْهُم مَن صَدَّ عَنْهُ﴾ وأعرض عن دِين محمّد ﷺ ولَم يُؤمن به.

وقيل: إنّ المُراد أنّ بعض أولاد إبراهيم آمن به، وبعضهم كفر به[٥]، ولَم يكُن في كُفْرهم به تَوْهين أمره، فكذا لا يُوهِن أمرَك كُفرُ هؤلاء.

ثمّ بيّن وخامة عاقبة أمر المُعرضين بقوله: ﴿وَكَفَىٰ﴾ في عُقوبتهم ﴿بِجَهَنَّمَ﴾ حالَ كَونها ﴿سَعِيراً﴾ ووَقُوداً.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً[٥٦]

---

١. تفسير القمي ١: ١٤٠، الكافي ١: ٣/١٦٠، تفسير الصافي ١: ٤٢٥.
٢. تفسير العياشي ١: ١٠٠١/٤٠٥، الكافي ١: ٥/١٦٠، تفسير الصافي ١: ٤٢٦.
٣. تفسير العياشي ١: ٩٩٦/٤٠٤، الكافي ١: ١/١٦٠، تفسير الصافي ١: ٤٢٥.
٤. تفسير أبي السعود ٢: ١٩٠.
٥. تفسير أبي السعود ٢: ١٩١.

ثمّ بالغ سُبحانه في الوَعيد وعمّمه لجميع الكُفّار؛ بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ولَم يُؤمنوا ﴿بِآيَاتِنَا﴾ وبَراهيننا الدَّالّة علىٰ التَوحيد، ورِسالة رُسُلنا، واليوم الآخر ﴿سَوْفَ نُصْلِيهِمْ﴾ ونُدخلهم ﴿نَاراً﴾، ثمّ كأنّه قيل: كيف يبقون فيها؟ فقال: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ﴾ واحترقت ﴿جُلُودُهُم﴾ بالنّار ﴿بَدَّلْنَاهُمْ﴾ وألبسناهم بالقُدْرة الكامِلة ﴿جُلُوداً﴾ جديدةً حاسّةً، تكون عَين الجُلود المَنضوجة مادّةً، و﴿غَيْرَهَا﴾ صُورةً ﴿لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ الشّديد، ويُدرِكوا ألمَه.

ثمّ لمّا كان مَجال تَوهُّم عدَم إمكان بقاء جَسد الإنسان في النّار أبد الآباد، وعدَم لِياقة العَذاب الشّديد الدّائم بسَعَة رَحمة الرّحيم، سَدّ الله تعالىٰ باب المتَوهِّمين بقوله: ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَزِيزاً﴾ وقادِراً ﴿حَكِيماً﴾ لا يصدُر مِنه إلّا الصّواب، ولا يضَع شيئاً إلّا في مَوضعه.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلّاً ظَلِيلاً[٥٧]

ثمّ أنّه تعالىٰ؛ علىٰ حَسَب دَأبه في الكِتاب العزيز، أرفد الوَعد بالوَعيد بقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ﴾ في الآخرة ﴿جَنَّاتٍ﴾ وبَساتين ذات أشجار وقُصور ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الكثيرة، حالَ كَوْنهم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾ لا مَوت لهم ولا زَوال نِعمة ﴿لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ مِن الأدناس، مُنزّهة مِن الأخلاق الذّميمة ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلّاً﴾ دائماً ﴿ظَلِيلاً﴾ لا حَرّ فيه. قيل: هُو كِناية عن النِّعْمة التّامّة الدّائمة[١]، وقيل: كِناية عن الرّاحة الأبديّة[٢].

إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً[٥٨]

ثمّ عاد سُبحانه إلىٰ بَيان حُقوق النّاس التي مِن أهمّها رَدّ الأمانات، بقوله: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ﴾ أيُّها المؤمنون، ويُوجب عليكم ﴿أَن تُؤَدُّوا﴾ وتُوصِلوا ﴿الْأَمَانَاتِ﴾ والوَدائع الكائِنة عندَكم ﴿إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ وأصحابها.

رُوي أنّ رَسُول الله ﷺ لمّا دخَل مكّة يومَ الفَتح، أغلق عُثمان بن طلحة بن عبدالدّار ـ وكان سادِن الكَعبة ـ باب الكَعبة وصَعِد السّطح، وأبىٰ أن يدفع المِفتاح إليه وقال: لَو عَلِمتُ أنّه رَسُول الله لَم أمنعه، فلَوىٰ عليّ بن أبي طالب عليه السلام يدَه وأخذه مِنه وفتح، ودخَل رَسُول الله ﷺ وصلّىٰ رَكعتين،

---

١. تفسير البيضاوي ١: ٢٢٠.

٢. تفسير الرازي ١٠: ١٣٧.

فلمّا خرَج سأله العبّاس أن يُعطيه المِفتاح ويجمَع له السِّقاية والسِّدانة، فنزلَتْ هذه الآية.

فأمر عليّاً عليه السلام أن يُردّه إلىٰ عُثمان ويعتذِر إليه، فقال عُثمان لعليّ عليه السلام: أكرَهْتَ وآذيتَ، ثم جئتَ ترفُق، فقال: «لقد أنزل الله في شأنك قُرآناً»، وقرأ عليه الآية، فقال عثمان: أشهدُ أن لا إله إلّا الله، وأنّ محمّداً رَسُولُ الله، فهبَط جَبْرئيل عليه السلام وأخبر الرَّسُول أنّ السِّدانة في أولاد عُثمان[1].

وفي رِواياتٍ عديدة: «لا تنظُروا إلىٰ طُول رُكوع الرّجُل وسُجوده، فإنّ ذلك شيءٌ اعْتاده، فلَو تركه اسْتوحش لذلك، ولكن انظُروا إلىٰ صِدْق حدِيثه وأداء أمانته»[2].

وعن الصادق عليه السلام: «أنّ ضارِب عليّ بالسّيف وقاتِله، لو ائتمنني واسْتنصحني واسْتشارني، ثمّ قَبِلتُ ذلك مِنه، لأدّيتُ إليه الأمانة»[3].

وعن الباقر عليه السلام، في هذه الآية: «إيّانا عنىٰ، أن يُؤدّي الإمامُ الأوّلُ إلىٰ الذي بعدَه العِلْمَ والكُتُبَ والسِّلاح»[4].

وفي رِوايةٍ: «ثمّ هِي جَارية في سائر الأمانات»[5].

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَما أمر كُلّ أحدٍ بردّ ما عندَه مِن حُقوق النّاس وأموالهم، أمر المؤمنين بأن يحكُموا علىٰ الغير بردّ أموال النّاس وحُقوقهم، بقوله: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم﴾ وقضَيتُم أيُّها المُؤمنون ﴿بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ عندَ تَنازعُهم في الأموال والحُقوق ﴿أَن تَحْكُمُوا﴾ بَيْنهم ﴿بِٱلعَدلِ﴾ والإنصاف، وتأدية حَقّ المُستحِقّ إليه.

عن النبيّ صلّى الله عليه وآله: «لا تزال هذه الأمّة بخيرٍ ما إذا قالت صدَقتْ، وإذا حكَمتْ عدلَتْ، وإذا اسْتُرحِمت رحَمتْ»[6].

ثمّ أنّه تعالىٰ لوُضوح مُوافقة هذين الحُكمين للعُقول مدَحهما بقوله: ﴿إِنَّ ٱللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ﴾ وما أحسن ما رغّبكم فيه مِن رَدّ الأمانات والحُكْم بالعَدل! فاعْملوا بما أمركم الله، واتّعِظوا بما وعظكم به ﴿إِنَّ ٱللهَ كَانَ سَمِيعاً﴾ لأقوالكم ﴿بَصِيراً﴾ بأعمالكم، يسمَع حُكْمكم بالعَدل والجَور، ويُبصِر رَدّكم للأمانات وخيانتكم فيها، فيُجازيكم بما تستحقّون.

﴿يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا ٱللهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَأُولِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِى شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللهِ وَٱلْيَومِ

---

١. تفسير الرازي ١٠: ١٣٨.

٢. الكافي ٢: ١٢/٥١، تفسير الصافي ١: ٤٢٧.

٣. الكافي ٥: ٥/١٣٣، تفسير الصافي ١: ٤٢٧.

٤. الكافي ١: ١/٢١٧، تفسير الصافي ١: ٤٢٧.

٥. معاني الأخبار: ١/١٠٨، تفسير الصافي ١: ٤٢٦.

٦. تفسير الرازي ١٠: ١٤١.

ٱلآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً[٥٩]

ثمَ أكّد الأمر بأداء الأمانات، وأوجب الرُّجوع في المُنازعات إلىٰ حُكم الرَسُول ﷺ وخُلفائه المَعصومين عليهم السلام، بقوله: ﴿يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا ٱللهَ﴾ في أوامره ونَواهيه ﴿وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ﴾ في جميع ما يُبلّغكم عنه ﴿وَأُولِى ٱلْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ والأئمّة الّذين فرَض الله طاعتهم عليكم في جميع أحكامهم.

عن جابر بن عبدالله الأنصاري، قال: لمّا نزلَتْ الآية قلتُ: يا رَسُول الله، عَرفْنا الله ورَسُولَه، فمَن أُولي الأمر الّذِين قرَن الله طاعتهم بطاعتك؟

فقال ﷺ: «هُم خُلفائي يا جابر، وأئمّة المُسلمين مِن بعدي؛ أوّلُهم عليٌ بن أبي طالب، ثمَ الحَسَن، ثمَ الحُسين، ثمّ عليَ بن الحُسين، ثمّ محمّد بن علي، المَعروف في التوراة بالباقر، وستُدرِكه يا جابر، فإذا لقِيته فأقرِئه مِنّي السّلام، ثمَ الصادق جعفر بن محمّد، ثمّ مُوسىٰ بن جعفر، ثمَ عليَ بن مُوسىٰ، ثمَ محمّد بن عليَ، ثمَ عليَ بن محمّد، ثمَ الحَسن بن علي، ثمَ سَمِيِّي محمّد وكَنِيِّي؛ حُجَة الله في أرضه، وبقيّته علىٰ عِباده، ابن الحسَن بن عليَ، ذاك الذي يفتح الله علىٰ يَدَيه مَشارق الأرض ومَغاربها، وذاك الذي يغِيب عن شيعته وأوليائه غَيْبةً لا يثبُت [فيها] علىٰ القول بإمامته إلاّ مَن امتحَن الله قلبَه للإيمان».

قال جابر: فقلت: يا رَسُول الله، فهَل لشيعته الانْتِفاع به في غَيبته؟

فقال: «إي والذي بعثني بالنُّبوَة، إنّهم يستضيئون بنُوره وينتفِعون بوِلايته في غَيْبته كانتفاع النّاس بالشّمس وإن تجلّاها سحَابٌ. يا جابر، هذا مِن مكنونِ سِرّ الله، ومَخزون علَم الله، فاكتُمْه إلّا عن أهله»[١].

في دلالة الآية علىٰ عصمة أولي الأمر عليهم السلام

وعن الصادق عليه السلام، في هذه الآية، قال: «نزلَتْ في عليّ بن أبي طالب، والحَسن، والحُسين».

فقيل: إنّ النّاس يقولون: فماله لَم يُسَمِّ علياً وأهلَ بيته في كتابه؟

فقال: «فقولوا لهم نزلَتْ الصَلاة، ولَم يُسَمِّ [الله] لهم ثلاثاً ولا أربعاً، حتّىٰ كان رَسُول الله ﷺ [هو الذي] فسّر ذلك لهم. ونزلَتْ عليه الزّكاة، ولَم يُسَمِّ لهم مِن كُلّ أربعين دِرْهَماً دِرْهَم، حتّى كان رَسُول الله ﷺ [هو الذي] فسّر ذلك لهم، ونزل الحَجّ، فلَم يقُل لهم: طُوفوا أُسبوعاً، حتّىٰ كان رَسُول الله هو الذي فسّر ذلك لهم.

ونزلت ﴿أَطِيعُوا ٱللهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَأُولِى ٱلْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾، ونزلت في عليٍّ والحسَن والحُسَين،

---

١. إكمال الدين: ٣/٢٥٣، تفسير الصافي ١: ٤٢٩.

فقال رَسُول الله ﷺ [في عليّ]: مَن كنتُ مَولاه فعليٌّ مَولاه، وقال: أُوصيكم بكِتاب الله وأهل بيتي، فإنّي سألتُ الله أن لا يُفرّق بَيْنهما حتّىٰ يُورِدْهما عليّ الحَوض، فأعطاني ذلك، وقال: لا تُعلّموهم فإنّهم أعلم مِنكم، وقال: إنّهم لَن يُخرِجوكم مِن بابِ هُدىً، ولَن يُدخِلوكم في باب ضَلالة.

فلَو سكت رَسُول الله ﷺ ولم يُبيِّن مَنْ أهل بيته، لادَّعاها آلُ فُلان، وآلُ فُلان، ولكنّ [الله] أنزل في كِتابه تَصْديقاً لنبيّه ﴿إنَّمَا يُريدُ اللهُ لِيُذهِبَ عَنكُمُ الرِّجسَ أهلَ البَيْتِ وَيُطهِّركُم تَطْهِيراً﴾[1] فكان عليٌّ والحَسَن والحُسين وفاطمة عليهم السلام، فأدخلهم رَسُول الله ﷺ تحتَ الكِساء، في بيت أُمّ سَلَمة، فقال: اللّهمّ إنّ لكُلّ نبيٍّ أهلاً وثَقَلاً، وهؤلاء أهلُ بيتي وثَقَلي، فقالت أُمّ سَلَمة: ألستُ مِن أهلك؟ فقال: إنّك إلىٰ خَيرٍ، ولكنّ هؤلاء أهلي وثَقَلي»[2] الحديث.

وعن الصادق عليه السلام، أنّه سُئل عمّا بُنيت عليه دَعائم الإسلام؛ إذا أُخِذ بها زكا العَمل، ولَم يضُرّ جَهل مَن جَهل بعدَه؟ فقال: «شهادةُ أن لا إلهَ إلّا الله، وأنّ محمّداً رَسُولُ الله، والإقرار بما جاء به مِن عند الله، وحَقّ في الإموال الزّكاة، والوِلاية التي أمر الله بها وِلاية آل محمّد، فإنّ رَسُول الله ﷺ قال: مَن مات ولا يعرِف إمام زمانه، مات مِيتة جاهلية، قال الله تعالىٰ: ﴿أَطِيعُوا ٱللهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَأُولِى ٱلْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ فكان عَليّ، ثمّ صار مِن بعدِه الحَسَن، ثمّ مِن بعدِه الحُسَين، ثمّ مِن بعدِه عليّ بن الحُسين، ثمّ مِن بعدِه محمّد بن عليّ، ثمّ هكذا يكون الأمر، إنّ الأرض لا تصلُح إلّا بإمام»[3] الحديث.

في استدلال الفخر علىٰ دلالة الآية علىٰ حجيّة الاجماع

قال الفَخْر الرّازي في التّفسير الكبير: اعْلَم أنّ قوله تعالىٰ: ﴿وَأُولِى ٱلْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ يدُلّ علىٰ أنّ إجماع الأُمّة حُجّة، والدّليل علىٰ ذلك أنّ الله أمر بطاعة أُولي الأمر علىٰ سبيل الجَزْم في هذه الآية، ومَن أمر الله بطاعته علىٰ سبيل الجَزْم والقَطْع لابُدّ وأن يكون مَعصُوماً عن الخطأ، إذْ لَو لَم يكُن مَعصوماً عن الخطأ كان بتقدير إقدامه علىٰ الخطأ يكُون قد أمر الله بمُتابعته، فيكون ذلك أمراً بفِعْل ذلك الخطأ، والخطأ لكَوْنه خطأً مَنهيٌّ عنه، فهذا يُفضي إلىٰ اجْتِماع الأمر والنّهي في الفِعْل الواحد باعتِبارٍ واحِد وإنّه مُحال، فثبت أنّ الله تعالىٰ أمر بطاعة أُولي الأمر على سبيل الجزم، وثبت أنّ كُلّ مَن أمر الله بطاعته علىٰ سبيل الجَزم وجَب أن يكون مَعصوماً عن الخطأ، فثبت قطعاً أنّ أُولي الأمر المذكور في هذه الآية لابُدّ وأن يكون مَعصوماً.

ثمّ نقول: ذلك المعصوم إمّا مَجموع الأُمّة أو بعض الأُمّة، لا جائز أن يكون بعضَ الأُمّة، لأنّا بيّنّا أنّ الله أوجب طاعة أُولي الأمر في هذه الآية قطعاً، وإيجاب طاعتهم قطعاً مَشروطٌ بكَوننا عارِفين بهم،

---

١. الأحزاب: ٣٣/٣٣. ٢. تفسير العياشي ١: ١٠١٢/٤٠٨، الكافي ١: ١/٢٢٦، تفسير الصافي ١: ٤٢٨.

٣. الكافي ٢: ٩/١٨، تفسير الصافي ١: ٤٢٨.

قادِرين علىٰ الوّصول إليهم، والاسْتِفادة مِنهم، ونحنُ نعلَم بالضَّرورة أنّا في زماننا هذا عاجِزون عن مَعرفة الإمام المعصوم، عاجزون عن الوّصول إليهم، عاجزون عن اسْتِفادة الدِّين والعِلْم مِنهم، فإذا كان الأمر كذلك عَلِمنا أنّ المعصوم الذي أمر الله المُؤمنين بطاعته ليس بعضاً مِن أبعاض الأُمّة، ولا طائفة مِن طوائفهم، ولمّا بطَل هذا وجَب أن يكون ذلك المَعصوم الذي هُو المُراد بقوله: ﴿أُولي الأمرِ﴾ أهل الحَلّ والعَقْد مِن الأُمّة، وذلك يُوجب القَطع بأن إجماع الأُمّة حُجّة[1].

أقول: لَم يثبُت عِصمةُ مَجموع الأُمّة عن الخطأ لعدَم الدّليل علىٰ ذلك، والدّليل المَذكور كما لا يُثبِت عِصمةَ بعضِ الأُمّة، لا يُثبِت عِصمَة مَجموعِ الأُمّة. نعم، لو عَلِمنا وأثبَتّنا إرادةَ بعضِ مَن لا نعرِفه، كان اتِّفاق مَجمُوع الأُمّة حُجّة، لوُجود ذلك البعض المَجهول فيهم، كما هُو الوجه في حجيّة الإجماع علىٰ قول بعض أصحابنا.

والحاصل: أنّ لفظ (أُولي الأمر) ليس موضوعاً لأهل الحَلّ والعَقْد، ولا ظاهِراً فيه، فيكون مِن المُجمَل، ولا بُدّ لتَعيين المُراد مِنه مِن دَليل، وقَرينةُ لُزوم اجْتماع الأمر والنّهي علىٰ تَقْدير كَوْنهم غير مَعصومين، يدُلّ علىٰ لُزوم كَوْنهم معصومين، فإذا دَلّ دَليلٌ علىٰ إرادة بعضٍ مُعيّن أو مَجموع الأُمّة، نقول ـ بهذه القَرينة ـ بعِصمتهم.

فكما أنّ إرادة بعضٍ مُعيّن مُحتاج إلىٰ الدّليل، [فانّ] إرادة مَجموع أهل الحَلّ والعَقْد أيضاً مُحتاج إلىٰ الدّليل، فكما لا يُعلَم بعِصْمة بعضٍ مُعيّن، لا نعلَم بعِصمة الكُلّ، معَ إمكان اتِّفاقهم علىٰ الباطل، كما وقَع الاتِّفاق مِن بني إسرائيل علىٰ عِبادة العِجْل.

نعم، يُمكِن القول بأنّه المُتيقَّن حيثُ إنّ المَجموع إمّا هُم المَعصومون، أو المَعصوم يكون فيهم، فلابُدّ مِن اتِّباع قولهم، ولكنّ ليس هذا تَعْيين معنىٰ اللّفظ والمُراد مِنه.

في نقل كلام الفخر الرازي وتزييفه

ثمّ اعترض علىٰ نفسه بأنّ المُفسّرين ذكروا في (أُولي الأمر) وُجوهاً أُخَر سِوىٰ ما ذكَر:

أحدُها: أنّ المُراد مِن (أُولي الأمر) الخُلفاء الرّاشِدون.

والثاني: المُراد: أُمَراء السّرايا.

قال سَعيدُ بن جُبير: نزلَتْ هذه الآية في عبدِالله بن حُذافة السّهمي، إذْ بعثَه النبيّ ﷺ أميراً علىٰ سَرِيّة.

وعن ابن عبّاس رضي الله عنه أنّها نزلَتْ في خالد بن الوليد، بعثه النبي ﷺ أميراً علىٰ سَرِيّةٍ فيها عمّار بن

---
١. تفسير الرازي ١٠: ١٤٤.

ياسر، فجرىٰ بينهما اختِلاف في شيء، فنزلَتْ هذه الآية، وأمر بطاعة أُولي الأمر.

وثالثها: المُراد: العُلماء الّذِين يُفتون في الأحكام الشّرعيّة، ويعلّمون النّاس دِينهم. وهذه رِواية الثّعلبي عن ابن عبّاس، وقول الحَسَن ومُجاهد والضّحاك.

ورابعها: نُقل عن الرّوافض أنّ المُراد به الأئمّة المَعصومون.

ولمّا كانت أقوال الأُمّة في تفسير هذه الآية مَحصورة في هذه الوُجوه، وكان القول الذي نصَرتُموه خارجاً عنها، كان ذلك بإجماع الأُمّة باطِلاً[١].

ثمّ أجاب عن الاعتراض بإبطال الأقوال، إلىٰ أن قال: وأمّا حَمْل الآية علىٰ الأئمّة المَعصومين، علىٰ ما تقوله الرّوافض، ففي غاية البُعد لوُجوه:

أحدُها: ما ذكرنا مِن أنّ طاعتهم مَشروطةٌ بمعرِفتهم وقُدرة الوُصول إليهم، فلَو أوجب علينا طاعتهم قبل معرِفتهم كان هذا تكليفاً بما لا يُطاق، ولَو أوجب علينا طاعتهم إذا صِرنا عارِفين بهم وبمَذاهبهم، صار هذا الإيجاب مَشروطاً، وظاهر قوله: **﴿أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَأُولِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾** يقتضي الإطلاق.

وأيضاً ففي الآية ما يدفَع هذا الاحتِمال، وذلك لأنّه تعالى أمر بطاعة الرّسُول وطاعة أُولي الأمر في لَفظةٍ واحدة [وهو قوله: **﴿أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَأُولِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾**، واللَفظة الواحدة لا يجُوز أن تكون مُطلقة ومَشروطة] معاً، فلمّا كانت هذه اللَفظة مُطلقة في حَقّ الرّسُول، وجَب أن تكون مُطلقة في حَقّ أُولي الأمر.

الثاني: أنّه تعالىٰ أمر بطاعة أُولي الأمر، وأُولوا الأمر جَمع، وعندَهم لا يكون في الزّمان الواحِد إلّا إمام واحد، وحمل الجَمْع على المُفرد خِلاف الظّاهر.

الثالث: أنّه قال: **﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾**، ولَو كان المُراد بأُولي الأمر الإمام المَعصوم لوجب أن يُقال: (فإن تنازعتُم في شيءٍ فرُدّوه إلىٰ الإمام) فثبَت أنّ الحَقّ تفسيرُ الآية بما ذكرنا[٢]. انتهىٰ كلامُه بطُوله المُمِلّ الذي لا يُمكِن التّطويل في العِبارة أزيد مِنه.

ثمّ أقول: حاصل ما ذكرنا سابقاً في ردّه: أنّ وُجوب كَوْن أُولي الأمر مَعصومين مِن الخطأ حَقٌّ لا مَحيص عنه، كما رُوي: «أنّه لا طاعة لمَن عصىٰ الله، وإنّما الطاعة لله ولرَسُوله ولولاة الأمر، إنّما أمَرَ الله بطاعة الرّسُول لأنّه مَعصومٌ مُطهّر، لا يأمُر بمَعصيته، وإنّما أمر بطاعة أُولي الأمر لأنّهم مَعصومون

---

١. تفسير الرازي ١٠: ١٤٤.

٢. تفسير الرازي ١٠: ١٤٦.

مُطهَرون، لا يأمرون بمعصيته»[١].

وأمّا حَمْل الآية علىٰ إرادة الإجماع، فهُو فَرْع ثُبوت كَوْن مَجموع المُجمعين ـ من حيثُ المَجموع ـ مَعصومين، وإن كان كُلّ واحدٍ واحدٍ غير مَعصوم؛ وهُو مُحتاج إلىٰ الدّليل القاطع علىٰ عِصمتهم، كما احْتاج عِصْمة كُلّ واحدٍ إليه، معَ أنّ المُراد مِن إجماع الأمّة ـ إن كان ـ إجماعُ جميعهم، فهُو مِمّا لا يُمكِن الاطِّلاع عليه؛ لأنّ النِّساء وأهل البَوادي والجِبال والّذين هُم في بِلاد الكُفر مِن المُسلمين كُلّهم مِن الأمّة.

وإن أراد طائفة خاصّة مِنهم، وهِي أهلُ الحَلّ والعَقْد، كما هُو صَريح قوله: (مِن أهل الحَلّ والعَقْد)، فمع أنّه مُنافٍ لقوله: (ولا جائز أن يكون المُراد بعضَ الأمّة)، فإنّه مُجْمَل، لا يُعلَم المُراد مِنه هَل هُو المُهاجرون، أو جميع الصّحابة، أو جميع العُلَماء؟

وعلىٰ أيّ تَقديرٍ، عِلْمُنا برأي جميعهم، بحيثُ نقطَع بقول كُلّ فَردٍ فَردٍ مِنهم أيضاً مُمتنِعٌ عادةً ألبتّة؛ لأنّه لَم يُنقَل عن غالِبهم رأيٌ في الأحكام الشّرعيّة، والمُصنّفين أو المَشهورين في العِلم والفَتْوىٰ مِنهم في غاية القِلّة، [و] أنّ الظّاهِر مِن (أولي الأمر) هُو العُموم الأفرادي لا المَجموعي.

ولا يُطلق (ذو أمر) علىٰ أحدٍ إلّا إذا كان أمرُه واجِب الإطاعة عقلاً أو شرعاً ـ معَ قَطع النّظَر عن الآية المُباركة ـ في جميع الأمور؛ مِن العِبادات، والمُعاملات، والسِّياسات، والكُلّيات، والجُزئيّات، ويكون أولىٰ بالمُؤمنين مِن أنفسهم؛ كالرّسُول الذي قال الله تعالىٰ في شأنه: **﴿مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهاكُم عَنهُ فانْتَهُوا﴾**[٢]، وهُو ليس إلّا المَعصوم الذي يجِب عقلاً وشَرعاً طاعتهُ، واتِّباع أمره.

وأمّا قوله: إنّا عاجزون عن معرفته، عاجزون عن الوُصول إليه، عاجزون عن استِفادة الدِّين والعِلم مِنه.

ففيه: أنّ العَجز المُدّعىٰ ـ مع وجُود الأدلّة القاطِعة علىٰ تَعْيينه وتَعْريفه ـ ليس إلّا كعَجْز أبي جَهْل وأضرابه عن معرفة الرّسُول صلى الله عليه وآله الحاصِل بسبَب طَبْع القَلْب، وغَشاوة العَصبيّة علىٰ السّمع والبَصَر، وكعَجز غير المُعاندين مِن الكُفّار الحاصِل بسبَب عدَم النّظَر في الأدلّة والآيات. ومِن البَديهيّ أن هذا العَجز لا يكونُ عُذْراً عندَ العَقْل والشّرع.

في ردّ ما قاله الفخر

والحاصل: أنّ الأدلّة الدّالّة علىٰ إمامة عليّ عليه السلام، وأحد عشر مِن ذُرّيّته ليستْ أقلّ عدَداً، وأخفىٰ دَلالة مِن الأدلّة الدالّة علىٰ رِسالة خاتَم النّبيّين صلى الله عليه وآله، وحال مُنكريها ليس إلّا كحال مُنكري التّوحيد والرِّسالة، وهُم أكثرُ النّاس، كما أنّ مُنكري الوِلاية أكثرُ

---

١. الخصال: ١٥٨/١٣٩، علل الشرائع: ١/١٢٣، تفسير الصافي ١: ٤٢٩.
٢. الحشر: ٧/٥٩.

المُسلمين.

وأمّا الوَجه الاوّل الذي ذكره ـ رَدّاً علىٰ قول أصحابنا ـ مِن أنّ وجُوب طاعة المعصوم مَشروط بمعرِفته، والوُجوب في الآية مُطلق.

ففيه: أنّ المَعرفة شَرط عقليّ لتَنجُّز التكليف، لا شَرط شرعيّ مُوجِب لتَقْييد التكليف بإطاعة أُولي الأمر؛ كتَقييد وُجوب الحَجّ بالاسْتِطاعة. وليس إشراط هذا التّكليف إلّا كإشراط التّكليف بالإيمان بالرّسُول بمعرِفته، والتّكليف بالصّلاة والصّوم والحَجّ وغيرها مِن العِبادات بمعرِفتها. ومِن المَعلوم أنّ هذا الشّرط يجِب تَحْصيله كما يجِب تَحْصيل الطّهارة المائيّة للعَمل المَشروط بها، وكمعرِفة الإجماع علىٰ مَذهبه السّخيف.

وبهذا يظهر الجَواب عن الوَجْه الثاني[1] مِن قوله: (إنّ الأمر بطاعة الرّسُول وطاعة أُولي الأمر في لفظة ...) إلىٰ آخره.

فإنّ معرِفة أُولي الأمر إن كان شَرطاً في وُجوب طاعة أُولي الأمر، كان معرِفة الله ومعرِفة رَسُوله شَرطاً في وُجوب طاعتهما أيضاً، وإن لَم يكُن شَرطاً في وُجوب طاعتهما، لَم يكُن شَرطاً في وجوب طاعتهم.

فإنّ قيل: إنّ الخِطاب في الآية للمُؤمنين، فهُم كانوا عارفين بالله ورَسُوله، فإيجاب طاعتهما بالنِّسْبة إليهم مُطلَق، بخِلاف وُجوب طاعة أُولي الأمر الّذِين لَم يكونوا عارِفين بهم.

قلنا: وجُود الشّرط لا يُوجب انْقِلاب الواجِب المَشروط إلىٰ المُطلق، بَل الواجب المَشروط مَشروطٌ أبداً [سواء أ]كان الشّرط حاصِلاً أو غير حاصِل، والواجب المُطلق مُطلقٌ أبداً.

وأمّا الوَجه الثّالث مِن أنّه لَو كان المُراد مِن أُولي الأمر المَعصوم، لقال: (فإن تنازعتُم في شيءٍ فرُدّوه إلىٰ الإمام)، ولَم يقُل: ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ﴾. ففاسِدٌ جدّاً؛ لأنّه فَرق واضح بَين أوامر الإمام وأحكامه في المُشاجرات؛ فإنّ أوامره قد تكون بمِلاك المَصالح التي يَراها في تنظيم المَملكة الإسلاميّة وتَجهيز الجَيش والتّدبير في الغَلَبة علىٰ الأعداء، ولا يكون في تِلك الأوامر واسِطة في التّبليغ، بَل الأمر أمره، ولِذا أمر الله بطاعته كما أمر بطاعة الرّسُول، بخِلاف أحكامه فإنّها لا تكون إلّا أحكام الله ورَسُوله، ففي الحقيقة يكون مُبلِّغاً عن الرّسُول، كما أنّ الرّسُول مُبلِّغٌ عن الله، فإطاعته إطاعة الرّسُول، والرَدُّ إليه رَدٌّ إلىٰ الرّسُول، ولذا اقْتصر الله سُبحانه في الآية ـ في صورة التّنازع في

---

١. لا يزال المصنف في معرض الردّ على الوجه الأوّل، والعبارة التي ذكرها هنا هي من الوجه الأوّل لا من الثاني الذي ذكره أولاً وأغفله هنا.

شيء ـ بالأمر بالرّدّ إلى الرّسول، ولَم يعطِف عليه الرّدّ إلى القُضاة والوُلاة الّذين كانوا مَنصوبين مِن قِبَل الرّسُول في البِلاد، كما أنّ الفقهاء في زمان غيبة الإمام مَنصوبون مِن قِبَله عليه السلام للحُكومة بَيْن الأنام، ويكون الرّدّ إليهم رَداً إليه، وحُكْمُهم حُكْمَه، وقد بيّن الله شِرْكة أولي الأمر مع الرّسُول صلى الله عليه وآله في وُجوب الرّدّ إليهم في الآية التي بعدَها بقوله: **﴿وَلَو رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الأَمرِ مِنهُم لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَستَنبِطُونَهُ مِنهُم﴾**[١].

في الاعتراض على الفخر الرازي

والعَجبُ مِن هذا الرّجُل المُتعصّب، كيف رضِي بالقول بأنّ الله أمر بطاعة أُولي الأمر، ولَم يُبيّن المُراد مِن أُولي الأمر لرَسُوله، ولَم يُفسّره الرّسُول للنّاس، حتّى التجأ هذا القاصر إلى الاجْتِهاد في تَعْيين المُراد، ولَم يكتفِ في تَعْيينهم بقوله تعالى: **﴿كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾**[٢]، وقوله: **﴿إنّما وَلِيُّكُم الله...﴾**[٣]، وقوله: **﴿وأنفسنا﴾**[٤]، وقوله: **﴿بَلِّغ مَا أُنزِلَ إليكَ﴾**[٥] وقوله: **﴿ويَتلُوهُ شاهِدٌ مِنه﴾**[٦] وغيرها مِن الآيات الكثيرة المُفسَّرة ـ في رِوايات بعضِ العامّة وجميع الخاصّة ـ بعليٍّ.

والرِّواية المُتواترة مِن قوله: «مَن كُنتُ مَولاه فعليٌّ مَولاهُ»[٧]، وقوله: «عليٌّ مِنّي بِمَنزلة هارون مِن مُوسى»[٨]. وغير ذلك.

وعن سُليم بن قيس الهِلالي: عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه سأله عن أدنى ما يكون الرّجُل به ضالاً؟ فقال: «أن لا يعرِف مَنْ أمر الله بطاعته، وفرَض وِلايته، وجعَله حُجّةً في أرضه، وشاهِداً على خَلْقه».

قال: فمَنْ هُم يا أمير المؤمنين؟ قال: «الّذين قرَنهم الله بنفسه ونبيّه فقال: **﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمرِ مِنكُمْ﴾**»، قال: فقبّلتُ رأسَه وقلت: أوضحتَ لي، وفرّجتَ عنّي، وأذهبتَ كُلّ شَكٍّ كان في قَلبي[٩].

ثمّ أمر الله تعالى بالرُّجوع في ما اختلفوا فيه إلى المَعصومين بقوله: **﴿فَإِن تَنَازَعتُمْ﴾** واختلفتم **﴿فِي شَيْءٍ﴾** مِن الأحكام والحُقوق **﴿فَرُدُّوهُ﴾** وارْفَعوه **﴿إِلَى اللهِ﴾** بالرُّجوع إلى كِتابه **﴿وَالرَّسُولِ﴾** بالرُّجوع إلى سُنّته، وإلى الأئمّة المَعصومين الّذين هُم خُلفاؤه المَنصُوبون مِن قِبَله بنَصّه الجَلِيّ،

---

١. النساء: ٨٣/٤. ٢. التوبة: ١١٩/٩. ٣. المائدة: ٥٥/٥. ٤. آل عمران: ٦١/٣.
٥. المائدة: ٦٧/٥. ٦. هود: ١٧/١١.
٧. الكافي ١: ١/٢٢٧، معاني الأخبار: ٦٥ ـ ١/٦٦ ـ ٥، علل الشرائع: ٩/١٤٤، سنن الترمذي ٥: ٣٧١٣/٦٣٣، مسند أحمد ١: ٨٤ و٨٨ و١١٩ و١٥٢ و٣٢١، مستدرك الحاكم ٣: ١١٠ و١٣٤.
٨. علل الشرائع: ٢٢٢، عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٢٣/١٠، مسند أحمد ٣: ٣٢ و٦: ٤٣٨، صحيح مسلم ٤: ٣٠/١٨٧٠ ـ ٣٢.
٩. كتاب سليم: ٥٩، معاني الأخبار: ٤٥/٣٩٤، تفسير الصافي ١: ٤٢٩.

المُبلَّغون عنه **﴿إن كُنتُمْ﴾** أيُّها المؤمنون باللِّسان **﴿تُؤْمِنُونَ﴾** عن صَميم القَلب إيماناً خالِصاً **﴿بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾**، فإنّ الإيمان الحقيقي مُلازِم التّسليم لحُكْمهم.

﴿ذٰلِكَ﴾ الرَّدُّ إليهم، والانقِياد لهم **﴿خَيْرٌ﴾** لكُم مِن التّنازُع **﴿وَأَحْسَنُ﴾** وأصلح لكُم **﴿تَأْوِيلاً﴾** وعاقبةً مِن العَمَل بآرائكم مِن غيرِ الرَّدّ.

في (نَهج البَلاغة) في معنىٰ الخَوارج، لمّا أنكروا تَحْكيم الرِّجال، قال عليه السلام: «ولمّا دَعانا القوم إلىٰ أن نُحكِّم بَيْننا القُرآن، لَم نكُن الفريق المُتولِّيَ عن كِتاب الله تعالىٰ، و [قد] قال الله سُبحانه: **﴿فإن تنازَعتُم في شيءٍ فرُدُّوهُ إلىٰ اللهِ والرَّسُول﴾** فرَدُّه إلىٰ الله أن نحكُم بكِتابه، ورَدُّه إلىٰ الرّسُول أن نأخُذ بسُنّته، فإذا حُكم بالصِّدْق [في كتاب الله] فنحنُ أحقُّ النّاس به، وإنْ حُكِم بسُنّة رَسُول الله، فنحنُ أولاهم [بها]»[١].

وقال عليه السلام، في عَهْده للأشتر: «وارْدُدْ إلىٰ الله ورَسُوله ما يُضلِعُك مِن الخُطُوب، ويشتَبِه عليك مِن الأمور، فقد قال الله سُبحانه لقوم أحبَّ إرشادَهم: **﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فإن تنازعتُم في شيءٍ فرُدُّوهُ إلىٰ اللهِ والرَّسُول﴾** فالرَّدُّ إلىٰ الله الأخذُ بكتابه[٢]، والرَّدُّ إلىٰ الرّسُول الأخذُ بسُنّته الجامعة غيرِ المُفرِّقة»[٣].

وفي (الاحتجاج): عن الحُسين بن عليّ عليهما السلام، في خطبته: «وأطيعونا، فإنّ طاعتنا مَفروضة، إذ كانت بطاعة الله وطاعة رَسُول مَقرونةً، قال الله: **﴿أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنازَعتُم فِي شَيءٍ فرُدُّوهُ إلىٰ اللهِ والرَّسُول﴾**، وقال: **﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إلىٰ الرَّسُولِ وإلىٰ أُولي الأمرِ مِنهُم لعَلِمَهُ الَّذِين يَستنبِطُونَهُ مِنهُم وَلَولا فَضلُ اللهِ عَلَيكُم وَرَحمتُهُ لاتّبعتُمُ الشَّيطانَ إلّا قَلِيلاً﴾**»[٤].

وعن الباقر عليه السلام، أنّه تَلا هذه الآية هكذا: «فإن خِفتُم تَنازُعاً في أمرٍ فرُدُّوه إلى الله وإلى الرسول وإلى أولي الأمر منكم، ـ قال ـ كذا نزلَت».

أقول: يعني: تفسيرها.

ثمّ قال: «كيف يأمُر الله بطاعة وُلاة الأمر ويُرخِّص في مُنازعتهم؟! إنّما قيل ذلك للمأمورين الّذِين قيل لهم: **﴿أَطِيعُوا اللهَ...﴾**»[٥].

أقول: هذا رَدٌّ علىٰ مَن فسّر التّنازُع بالتّنازُع معَ وُلاةِ الأمر.

---

١. نهج البلاغة: ١٨٢/الخطبة ١٢٥، تفسير الصافي ١: ٤٣٠.

٢. في المصدر: بمحكم كتابه.

٣. نهج البلاغة: ٤٣٤/الرسالة ٥٣، تفسير الصافي ١: ٤٣٠.

٤. الاحتجاج: ٢٩٩، تفسير الصافي ١: ٤٣٠.

٥. الكافي ١: ١/٢١٧، تفسير الصافي ١: ٤٣٠.

في استدلال الفخر بالآية على حجية القياس وردّه

ثمّ استدلّ الفخر الرازي بقوله: ﴿فرُدّوه إلى الله والرّسول﴾ على حُجيّة القِياس؛ بتقريب أنّ المُراد مِن التّنازُع والرّدّ في صُورةٍ ليسَ الحُكْم مَنصوصاً في الكِتاب والسُّنّة، وإلّا كان داخلاً تحت قوله: ﴿أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ﴾، فيكون الأمر بالرّدّ تَكراراً له، فيكون معنى الرّدّ في تِلك الصُّورة رَدّ حُكْمه إلى الأحكام المَنصوصة في الوقائع المُشابهة له، وهُو القِياس[1].

أقول: هذا مُلخّص ما أطنبه من الكلام في المَقام، وهُو في غاية الفَساد، لوُضوح عدَم صِدْق الرّدّ إلى الكِتاب والسُّنّة على القِياس، بَل هُو رَدٌّ إلى الحُكْم العَقليّ الظّنّي. ومِن المَعلوم أنّ دِين الله لا يُصاب بالعُقول الضّعيفة الكاسِدة، والأهواء الزّائغة الفاسِدة، بَل في الأمر بالرُّجوع إلى القِياس في مَورد الاختِلاف إدامة النِّزاع لا رَفْعه.

وأمّا قوله بأنّ الأمر بالرّدّ، على تَقْدير كَوْن الحُكْم مَنصوصاً في الكِتاب والسُّنّة، يكون تَكراراً لقوله: ﴿أَطِيعُوا ٱللَّهَ﴾. ففيه: ـ مع أنّ التّأكيد هُنا في غاية الحُسْن، لكَونْ التّنازُع مُوجِباً لهَيجان النُّفوس إلى الأغراض الفاسدة، وشدّة اهتِمام المُتنازعين في اتِّباع الأهواء الفاسدة، ونبذ الكِتاب والسُّنّة وراء الأظهر، ولدَفع تَوهُّم اختِصاص أحكام الكِتاب والسُّنّة بغير مَورد التّنازُع، واحتِمال تغيير المَصالح ـ أنّ الأمر في المَقام أمرٌ بالدِّقّة في تَطْبيق الواقِعة الجُزئيّة على الأحكام الكُلّيّة.

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى ٱلطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً[٦٠]

ثمّ وبّخ الله سُبحانه المُنافقين الّذين لم يَصغُوا إلى الرّسُول ولم يَرضَوا بحُكْمه بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا محمّد ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ ويقولون كَذِباً ﴿أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ مِن القُرآن والأحكام ﴿وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ مِن سائر الكُتُب السّماويّة، وهُم معَ ذلك الزّعْم والادِّعاء ﴿يُرِيدُونَ﴾ في ما وقع بَيْنهم مِن التّنازُع ﴿أَن يَتَحَاكَمُوا﴾ ويترافعوا ﴿إِلَى ٱلطَّاغُوتِ﴾ والأصنام والكُفّار الآخذين للرّشوة ﴿وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَانُ﴾ المُغوي ﴿أَن يُضِلَّهُمْ﴾ عن صِراط الحَقّ ﴿ضَلالاً بَعِيداً﴾ عنه، بحيث لا يُرجى مِنهم الهِداية أبداً.

قيل: كان المُشركون يتحاكمون إلى الأوثان، وكانت طريقتهم أنّهم يضرِبون بالقِداح عندَ الوَثَن، فما

---

١. تفسير الرازي ١٠: ١٥١.

خرَج علىٰ القِداح عمِلوا به، وكان بعضُ المُنافقين أراد التّحاكُم إلىٰ الوَثَن، ولَم يَرضَ بالتّحاكُم إلىٰ النبيّ ﷺ.

وقيل: إنّه أسلم ناسٌ مِن اليَهود ونافَق بعضُهم، وكانت قُرَيظة والنَّضير في الجاهليّة إذا قتَل قُرَظيٌّ نَضيريّاً قُتِل به، وأُخِذ دَمه[1] مائة وسْقٍ مِن تَمْر، وإذا قَتَل نَضيريٌّ قُرَظيّاً لَم يُقتَل به، لكن أُعطي دَمه[2] ستّين وَسْقاً مِن تَمْرٍ.

وكان بنو النَّضير أشرف، وهُم حُلفاء الأوس، وقُرَيظة حُلفاء الخَزْرج، فلمّا هاجر الرّسُول ﷺ إلى المدينة قتَل نَضيريّ قُرَظيّاً، فاختصما فيه، فقالت بنو النَّضير: لا قِصاص علينا، إنّما علينا ستُّون وَسْقاً مِن تمرٍ، علىٰ ما اصطلحنا عليه مِن قَبل. وقالت الخَزرج: هذا حُكم الجاهليّة، ونحنُ وأنتم اليوم إخوة، ودينُنا واحدٌ، ولا فَضل بَيْننا، فأبىٰ بنو النَّضير ذلك.

فقال المُنافقون: انطلِقوا إلىٰ أبي بُردة الكاهِن الأسلمي، وقال المُسلمون: بَل إلىٰ رَسُول الله، فأبىٰ المُنافقون وانطَلقوا إلىٰ الكاهِن ليحكُم بَيْنهم، فأنزل الله هذه الآية، ودَعا الرّسُول ﷺ الكاهِن إلىٰ الإسلام فأسلم[3].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً﴾[٦١]

ثمّ بيّن الله تعالىٰ سُوء فِعْلهم بعدَ بَيان سُوء إرادتهم بقوله: **﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم﴾** نُصْحاً: **﴿تَعَالَوا﴾** وجيئوا **﴿إِلَىٰ مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾** في كتابه مِن الحُكمْ **﴿وَإِلَىٰ﴾** حُكْم **﴿ٱلرَّسُولِ﴾** وأمره **﴿رَأَيْتَ ٱلْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ﴾** ويمنعُون مِن التّحاكُم إليك **﴿صُدُوداً﴾** ومَنعاً أكيداً، أو يُعرِضون عنك إعراضاً شديداً، لشِدّة عَداوتهم لدِينك، ولعِلْمهم بأنّك لا تحكُم إلّا بمُرّ الحَقّ، ولا تقبَل الرّشوة.

﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً﴾[٦٢]

ثمّ أوعدهم بالعِقاب علىٰ نَفْرتهم عن الحُضور عندَ الرّسُول، وامتِناعهم مِن التّحاكُم إليه، بقوله: **﴿فَكَيْفَ﴾** يكون حالُهم **﴿إِذَا أَصَابَتْهُم﴾** ونالتهُم **﴿مُصِيبَةٌ﴾** وعُقوبة عظيمة، وبليّة شديدة **﴿بِمَا**

---

١. في تفسير الرازي: وأخذ منه دية.

٢. في تفسير الرازي: ديته.

٣. تفسير الرازي ١٠: ١٥٤.

قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ مِن الامتِناع مِن التّسليم للحُكْم بالحَقّ، والرِّضا بحُكومة الطُّغاة.

ثمّ بيّن نِفاقهم بقوله: **﴿ثُمَّ﴾** بعدَ الامتِناع **﴿جَاءُوكَ﴾** مُعتذِرين إليك مِن عدَم حُضورهم عندَك، والتّحاكُم إلىٰ غيرك، وهُم **﴿يَحْلِفُونَ بِاللهِ﴾** لك **﴿إِنْ أَرَدْنَا﴾** مِن التّحاكُم إلىٰ غيرك، وما طَلبنا به **﴿إِلَّا إِحْسَاناً﴾** إليك برَفع الكُلْفة والتّصديع عنك، أو إلىٰ الخُصوم حيثُ إنّك تحكُم بمُرّ الحَقّ، وغيرك يأمُر كُلّاً مِنهم بالإحسان إلىٰ الآخرة، **﴿وَ﴾** إلّا **﴿تَوْفِيقاً﴾** وإصلاحاً بيْنهم.

وقيل: إنّ الآية تبشير للنبيّ ﷺ، والمعنىٰ: كيف حالُك مِن الفَرح إذا أصابتهم مُصيبة تُلجئهُم إلىٰ الحُضور عندَك لرَفْعها؟ ثمّ يحلِفون بالله لك أنّهم ما أرادوا مِن عدَم الحُضور في تِلك الوَقْعة مُخالفتك، بَل أرادوا الإحسان والتّوفيق.

أُولٰئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِى أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً[٦٣]

ثمّ بيّن سُبحانه أنّ النّفاق لا ينفعُهم، وهُو يُعاقبهم عليه بقوله: **﴿أُولٰئِكَ﴾** المُنافقون هُم **﴿ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾** مِن الكُفْر وعَداوة الحَقّ، فيفضَحهم في الدُّنيا، ويُعاقبهم عليه في الآخرة، ولا يُغني عنهم الكِتْمان والحلف عن العِقاب، فإذا كان كذلك **﴿فَأَعْرِضْ﴾** أنت **﴿عَنهم﴾** ولا تُؤاخذهم بُسوء فِعالهم، ولا تهتِك سِترهم بيْن النّاس، بَل **﴿وَعِظْهُمْ﴾** مَوعِظة حَسَنة، وخَوّفهم بالعِقاب علىٰ الكُفْر والعِصيان، والكَذِب والعِناد معَ الحَقّ **﴿وَقُل لَّهُمْ فِى﴾** شأن **﴿أَنْفُسِهِمْ﴾** الخَبيثة **﴿قَوْلاً بَلِيغاً﴾** مُؤثّراً في قُلوبهم، وافياً بمَقصودك مِن الهِداية.

وقيل:إنّ معنىٰ قوله **﴿فِى أَنْفُسِهِم﴾** خالياً[١] بهم غير فاشٍ؛ لظُهور كَوْن النُّصْح في الخَلْوة والسِّرّ لمَحض النَّفع[٢].

وقيل: إن معنىٰ (البليغ): الكلام الطّويل، الحَسَن الألفاظ والمَعاني، فإنّه أعظم وَقْعاً في القَلب[٣].

وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا ٱللهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا ٱللهَ تَوَّاباً رَحِيماً[٦٤]

ثمّ أكّد سُبحانه وُجوب طاعة الرّسُول والتّسليم لحُكْمه بقوله: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا﴾** إلىٰ النّاس مِن بَدْو الخِلْقة **﴿مِن رَسُولٍ﴾** لغَرضٍ مِن الأغراض **﴿إِلَّا لِيُطَاعَ﴾** في أوامره ونَواهيه وأحكامه **﴿بِإِذْنِ ٱللهِ﴾**

---

١. مِن الخَلوة: أي مختلياً بهم في السِّرّ.

٢ و٣. تفسير الرازي ١٠: ١٥٩.

وإرادته وتَوفيقه.

وفيه دَلالة علىٰ عِصمة الأنبياء، كما اسْتدَلّ الفخر الرازي بالتّقريب الذي ذكَره في آية ﴿أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾[1].

ثمّ حثّ الله سُبحانه المُنافقين إلىٰ التّوبة عن نِفاقهم وسُوء أفعالهم بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بالنِّفاق والتّحاكُم إلىٰ الطّاغُوت ﴿جَاءُوكَ﴾ نادمين علىٰ مَعاصيهم ﴿فَاسْتَغْفَرُوا ٱللهَ﴾ مِنها مُخلِصين ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ بعدَ اعْتِذارهم إليه ﴿لَوَجَدُوا ٱللهَ﴾ ولَقَوْهُ ﴿تَوَّاباً﴾ علىٰ العاصين ﴿رَحِيماً﴾ بالمُذنبين.

وإنّما قال: ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ ولَم يقُل: (واستغفرتُ) إظهاراً لعَظَمته[2]، وإشعاراً بأنّ مَن كان سَفيراً بَيْن الله وخَلْقه لا تُردّ شَفاعتُه.

قيل: إنّ قوماً مِن المُنافقين آصْطلحوا علىٰ كَيْدٍ في حَقّ رَسُول الله ﷺ، ثمّ دخَلو عليه لأجل ذلك الغَرض، فأتاه جَبْرئيل فأخبره به، فقال ﷺ: «إنّ قوماً دخَلوا يُريدون أمراً لا ينالُونه، فليقُوموا وليستغفِروا الله حتّىٰ أستغفر لهم» فلَم يقوموا، فقال ﷺ: «ألا تقومون؟»، فلَم يفعلوا، فقال ﷺ: «قُم يا فُلان، قُم يا فلان» ـ حتّىٰ عَدّ اثْنَي عشَر رَجُلاً مِنهم ـ فقاموا وقالوا: كُنّا عزَمنا علىٰ ما قُلتَ، ونحنُ نتُوب إلى الله مِن ظُلمنا أنفسنا، فاسْتغفِرْ لنا، فقال ﷺ: «[الآن] اخرُجوا، أنا كنتُ في بَدء الأمر أقرب إلىٰ الاسْتِغفار، وكان الله أقرب إلىٰ الإجابة، اخرُجوا عنّي»[3].

فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً[٦٥]

ثمّ بيّن الله سُبحانه مُلازمة الإيمان بالرّسُول للرِّضا بحُكْمه، والتّسليم لقَضائه، مُؤكّداً له بالحَلْف عليه، وزِيادة (لا) للتّأكيد، بقوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ﴾ إنّ النّاس ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بك إيماناً صادقاً ﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ﴾ ويتَرافعوا إليك ﴿فِيمَا شَجَرَ﴾ واخْتلف فيه ﴿بَيْنَهُمْ﴾ مِن الأمور، فتقضي فيه بمُرّ الحَقّ ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ وقُلوبهم ﴿حَرَجاً﴾ وضِيقاً ﴿مِمَّا قَضَيْتَ﴾ به وحكَمتَ فيه ﴿وَيُسَلِّمُوا﴾ لقَضائك ﴿تَسْلِيماً﴾ قَلبيّاً، وينقادوا لحُكْمك انْقِياداً باطِنيّاً.

رُوي أنّ رَجُلاً مِن الأنصار خاصَم الزُّبير في ماءٍ يُسقىٰ به النّخل، فقال ﷺ للزُّبير: «اسْقِ أرضَك، ثمّ

---

١. المائدة: ٩٢/٥.
٢. أي عظمة الرّسُول ﷺ.
٣. تفسير الرازي ١٠: ١٦٢.

أرسِل الماء إلىٰ أرض صاحبك[١]»، فقال الأنصاري: لأجل أنّه ابن عمّتك. فتلوّن وَجهُ رَسُول الله ﷺ، ثمّ قال للزُّبير: «اسْقِ ثمّ احْبِس الماء حتّىٰ يبلُغ الجَدْر»[٢].

وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً * وَإِذاً لَآتَيْنَاهُم مِن لَدُنَّا أَجْراً عَظِيماً * وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً[٦٦ ـ ٦٨]

ثمّ بيّن الله سُبحانه ضَعْف إيمان المُسلمين، ووَهْنهم في طاعة الله ورَسُوله، وقِلّة المُؤمنين الخُلّص[٣]؛ بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا﴾ وفرَضنا ﴿عَلَيْهِمْ﴾ وقُلنا لهم: ﴿أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ كم كتبنا علىٰ بني إسرائيل في التّوبة عن عِبادة العِجْل ﴿أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم﴾ واتركوا أوطانكم ﴿مَا فَعَلُوهُ﴾ عِصياناً، لصُعوبته عليهم ﴿إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾ وهُم الكاملون في الإيمان، الخُلّص[٤] فيه.

رُوي أنّ ثابت بن قيس بن شمّاس ناظَر يَهُودياً، فقال اليَهُودي: إنّ مُوسىٰ عليه السلام أمرنا بقَتْل أنفسنا فقبِلنا ذلك، وإنّ محمّداً يأمُركم بالقِتال فتكرهونه، فقال: ما أنت[٥]، لَو أنّ محمّداً أمرني بقَتْل نفسي لفعلتُ، فنزلَتْ هذه الآية[٦].

ورُوي أنّ ابن مَسعود قال [مثل] ذلك، فنزلت[٧].

وعن النبيّ ﷺ: «والذي نفسي بيده، إنّ مِن اُمّتي رِجالاً الإيمان أثبت في قلوبهم مِن الجبال الرّواسي»[٨].

وقيل: إنّ المُراد مِن الآية بَيان حال المُنافقين[٩]. والمعنىٰ: ما فعلوه، فيظهَر كُفْرهم ونِفاقهم إلّا قليلٌ مِنهم، فإنّهم يفعلونه رِياءً وسُمْعة.

ثمّ حثّ الله المُؤمنين إلىٰ الإيمان الكامِل، والمُنافقين إلىٰ الإيمان الخالص، بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ﴾ عن خُلوص الإيمان، وصِدْق النّيّة ﴿فَعَلُوا﴾ وامتثلوا ﴿مَا يُوعَظُونَ﴾ ويُؤمرون ﴿بِهِ﴾ مِن مُتابعة الرّسُول، وإطاعة أحكامه ﴿لَكَانَ﴾ ذلك ﴿خَيْراً لَهُمْ﴾ وأنفع في العاجِل والآجل ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً﴾ لإيمانهم.

عن الصادق عليه السلام: «لَو أنّ أهل الخِلاف فَعلوا...»[١٠].

---

١. في تفسير الرازي: جارك.
٢. تفسير الرازي ١٠: ١٦٣، والجُدر، جمع جِدار: الحائط.
٣. في النسخة: الخلّصين.
٤. في النسخة: الخلّصون.
٥. في تفسير الزازي: يا أنت.
٦ ـ ٩. تفسير الرازي ١٠: ١٦٧.
١٠. تفسير العياشي ١: ١٠٣٢/٤١٧، تفسير الصافي ١: ٤٣٢.

وعن الباقر عليه السلام: «﴿مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾ في عليّ» قال: «هكذا نزلت»[١].

ثمّ كأنّه قيل: فماذا يكون لهم بعدَ التثبُّت؟ فقال: ﴿وَإِذاً﴾ لَو ثبتوا بالله ﴿لَآتَيْنَاهُم مِن لَدُنَّا﴾ ومِن خَزائن رَحمتنا ﴿أَجْراً﴾ وثَواباً ﴿عَظِيماً﴾ في الآخرة، لا ينقطع أبداً ﴿وَلَهَدَيْنَاهُمْ﴾ في الدُّنيا بالتّوفيق ﴿صِرَاطاً مُسْتَقِيماً﴾ يُوصلهم إلىٰ جَواهر العُلوم ومَقام الرِّضوان.

عن النبيّ صلّى الله عليه وآله: «مَن عمِل بما عَلِم ورّثه الله عِلْم ما لَم يعلَم»[٢].

وَمَن يُطِعِ ٱللهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُولٰئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللهُ عَلَيْهِم مِنَ ٱلنَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَاءِ وَٱلصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولٰئِكَ رَفِيقاً * ذٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللهِ وَكَفَىٰ بِاللهِ عَلِيماً[٦٩ و ٧٠]

ثمّ بالغ سُبحانه في الوَعد علىٰ طاعته وطاعة رَسُوله، بقوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ خالِصاً لوَجْهه ﴿فَأُولٰئِكَ﴾ المُطيعون يُحشَرون في الآخرة ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللهُ عَلَيْهِم﴾ بعُلوّ المَقام، وعِظَم القدْر عندَه ﴿مِنَ ٱلنَّبِيِّينَ﴾ الفائزين بكمال العِلْم والعَمَل ﴿وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾ العارِجين بأعلىٰ مَدارج الإيمان والعِرفان ﴿وَٱلشُّهَدَاءِ﴾ الباذِلين مُهَجهم في إظهار الحَقّ، وإعلاء كلمته ﴿وَٱلصَّالِحِينَ﴾ الصّارفين أعمارهم في طاعة الله، وطلَب مَرضاته.

ثمّ بالغ في إظهار حُسْن هذه المُرافقة مع هؤلاء، بإظهار التَعجُّب مِن حُسْنها بقوله: ﴿وَحَسُنَ أُولٰئِكَ﴾ المَذكورون ﴿رَفِيقاً﴾ للمُؤمن ومُصاحباً في الجَنّة.

في بيان محبة ثوبان للرّسول صلّى الله عليه وآله

رُوي أنّ ثَوْبان مَولىٰ رَسُول الله صلّى الله عليه وآله كان شديد الحُبّ له، قليل الصَّبْر عنه، فأتاه يوماً وقد تغيّر وَجهُه، ونحَل جِسمُه، وعُرِف الحُزْن في وَجْهه، فسأله رَسُول الله صلّى الله عليه وآله عن حاله، فقال: يا رسُول الله، ما بي وَجَعٌ غيرَ أنّي إذا لَم أرَك اشْتقتُ إليك، واسْتوحشْتُ وَحْشةً شديدة، حتّىٰ تذكّرتُ[٣] الآخرة وخِفتُ أن لا أراكَ هُناك؛ لأنّي إنْ دخلتُ الجنّة فأنت تكون في دَرَجات النَبِيّين، وأنا في دَرَجات العبيد، فلا أراك، وإنْ أنا لَم أدخُل الجنّة، فحينئذٍ لا أراك أبداً. فنزلَت هذه الآية[٤].

فـي أنّ المـؤمنين صنفان

قيل: إنّ المُراد مِن المُرافقة في الجنّة: هُو رَفْع الحِجاب بَيْن الفاضِل والمَفضول، بحيثُ يرىٰ كُلٌّ مِنهما الآخر، لعدَم إمكان تَساويهما في الدّرَجة[٥].

---

١. الكافي ١: ٣٥١/٦٠، تفسير الصافي ١: ٤٣٢.
٢. تفسير روح البيان ٢: ٢٣٢.
٣. في تفسير الرازي: حتىٰ ألقاك فذكرت.
٤. تفسير الرازي ١٠: ١٧٠.
٥. تفسير الرازي ١٠: ١٧١.

عن الصادق عليه السلام: «المؤمن مؤمنان: مؤمن وفىٰ لله بشروطه التي اشترطها عليه، فذلك معَ النبيّين والصدّيقين والشُّهداء والصالحين وحَسُن أولئك رَفيقاً، وذلك مِمَن يشفَع ولا يُشفَع له، ولا تُصيبه أهوالُ الدُّنيا، ولا أهوالُ الآخرة،ومؤمن زلّت به قَدَمٌ، فذلك كخامة[1] الزرع، كَيفما كُفِئت[2] الريحُ انكفأ، وذلك مِمَن يُصيبه أهوالُ الدُّنيا وأهوال الآخرة، ويُشفَع له، وهُو علىٰ خَير»[3].

عن (الكافي): عن الباقر عليه السلام، قال: «أعينونا بالوَرَع، فمَن لقي الله تعالىٰ[4] بالوَرَع كان له عندَ الله فَرَجاً، إنّ الله يقول: ﴿مَن يُطِعِ اللهَ والرَّسُولَ...﴾ ـ وتلا هذه الآية، ثمّ قال ـ: فمِنّا النبيّ، ومِنّا الصِّدّيق، ومِنّا الشُّهداء، ومِنّا الصّالِحون»[5].

وعن الصادق عليه السلام: «لقد ذكَرَكُم الله في كِتابه فقال: ﴿أُولٰئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللهُ عَلَيْهِم ...﴾ ـ الآية، فرسُول الله في الآية النَبيُّون، ونحن في هذا المَوضع الصِّدّيقون والشُّهداء، وأنتم الصالِحون، فتسمَّوا بالصَلاح كما سمّاكم الله»[6].

﴿ذٰلِكَ ٱلفَضْلُ﴾ وزيادة الثَواب كائن ﴿مِنَ ٱللهِ﴾ المُفضِل ﴿وَكَفَىٰ بِاللهِ عَلِيماً﴾ بجَزاء المُطيعين، ومِقدار استِحقاقهم الفَضل.

يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا جَمِيعاً[٧١]

ثمّ لمّا كان الجِهاد مِن أهمّ الطّاعات حَثّ الله إليه بعدَ المُبالغة في الحَثّ إلىٰ طاعته وطاعة رَسُوله بقوله: ﴿يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ واحترزوا كيدَ أعدائكم، أو خُذوا أسلحتكم ـ كما عن الباقر عليه السلام[7] ـ وأستعدوا للجِهاد ﴿فَانفِرُوا﴾ واخرُجوا إلىٰ الجِهاد ﴿ثُـبَاتٍ﴾ وجَماعاتٍ مُتفرّقات، سَريّة بعدَ سَريّة ﴿أَوِ ٱنفِرُوا﴾ إلىٰ غَزوةٍ واحدةٍ كُلّكم ﴿جَمِيعاً﴾ وكَوكبةٍ واحدةٍ.

وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَعَهُمْ شَهِيداً * وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ ٱللهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَم تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً[٧٢ و ٧٣]

---

١. الخامَة: أول كُلّ شيء، وهنا بمعنىٰ أول ما ينبت من الزرع الغَضّ.
٢. في الكافي: كفَأته.
٣. الكافي ٢: ٢/١٩٣، تفسير الصافي ١: ٤٣٣.
٤. زاد في المصدر: منكم.
٥. الكافي ٢: ١٢/٦٣، تفسير الصافي ١: ٤٣٣.
٦. تفسير العياشي ١: ١٠٣٤/٤١٧، الكافي ٨: ٦/٣٥، تفسير الصافي ١: ٤٣٣.
٧ مجمع البيان ٣: ١١٢، تفسير الصافي ١: ٤٣٤.

ثمّ لمّا كان في مَوْقع الجِهاد مَجال نِفاق المُنافقين، عاد سُبحانه إلىٰ ذِكْر حالهم وتَقاعُدهم عن الخُروج إليه، بقوله: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ﴾ أيُّها المُسلمون لله ﴿لَمَن لَيُبَطِّئَنَّ﴾ وليتثاقَلنَ مِن الخُروج إلىٰ الجِهاد، ويتخلّف عنكم.

وقيل: إنّ المعنىٰ: أنّه ليُثبِّطنّ سائر المُسلمين ويصرِفهم عن الخُروج، كعبدِالله بن أُبَيّ.

﴿فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ﴾ بعدَ الخُروج إلىٰ الجِهاد ﴿مُصِيبَةٌ﴾ وبَليّة مِن الأعداء، كالقَتل، والجُرْح، والهَزيمة ﴿قَالَ﴾ ذلك المُنافق المُبطِئ؛ فرحاً بتقاعُده، وحامِداً لربّه: ﴿قَدْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيَّ﴾ بالسّلامة والحياة ﴿إِذْ لَمْ أَكُن﴾ في المعركة ﴿مَعَهُمْ شَهِيداً﴾ وحاضِراً، فيُصيبني ما أصابهم ﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ﴾ ونالكم ﴿فَضْلٌ﴾ مِن فَتح وغَنيمة ﴿مِنَ﴾ جانب ﴿اللهِ﴾ وبإعانته ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ ذلك المُنافق تَحسُّراً وحُزناً ﴿كَأَن لَم تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾ وصَداقة، حتّىٰ يفرَح لفرَحكم: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ﴾ في تِلك الغَزوة ﴿فَأَفُوزَ﴾ وأنال ﴿فَوْزاً﴾ وحَظّاً ﴿عَظِيماً﴾ وافراً مِن الغَنيمة.

وفي ذِكْر الجُملة الاعتِراضية بيْن فِعْل القول ومَفعوله، دَلالة علىٰ أن تَمنِّيهم الحُضور في الوَقْعة كان للحِرْص علىٰ المال، لا للاشْتياق إلىٰ نُصْرة المُسلمين بمُقتضىٰ المَودّة والخِلْطة.

فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً[٧٤]

ثمّ عاد سُبحانه إلىٰ الحَثّ في الجِهاد بقوله: ﴿فَلْيُقَاتِلْ﴾ ألبتّة ﴿فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ ولطلَب مَرضاته المُؤمنون الخُلَّص[١] ﴿الَّذِينَ يَشْرُونَ﴾ ويبيعون ﴿الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ومَتاعها ﴿بِالآخِرَةِ﴾ ويختارون الفَوز برضوان الله، والنِّعَم الخالِصة الدّائمة علىٰ العَيش المُكدَّر الزّائل.

ثمّ بالغ في التّرغيب فيه بقوله: ﴿وَمَن يُقَاتِلْ﴾ أعداء الدِّين ﴿فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ ولإعلاء كلمة التّوحيد والحَقّ ﴿فَيُقْتَلْ﴾ بأيديهم ﴿أَوْ يَغْلِبْ﴾ عليهم فيقتُلهم ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ﴾ في الآخرة ﴿أَجْراً عَظِيماً﴾ وثَواباً جَسيماً لا يُقادَر قَدْرُه.

وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِن لَدُنْكَ وَلِيّاً وَاجْعَل لَنَا مِن لَدُنكَ نَصِيراً[٧٥]

---

١. في النسخة: الخلصون.

ثمّ لامَ المُتقاعدين عن القتال وأنكره عليهم بقوله: ﴿وَمَا﴾ العُذر ﴿لَكُمْ﴾ أيُّها المُؤمنون ﴿لَا تُقَاتِلُونَ﴾ الكفار ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَ﴾ لتَخليص ﴿ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ والمُستذلِّين بَيْن المُشركين ﴿مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ المُؤمنين ﴿وَٱلنِّسَاءِ﴾ المُؤمنات ﴿والوِلْدَانِ﴾ ـ الصِّغار ﴿ٱلَّذِينَ﴾ لا يُؤخذون بجُرْم الكِبار ـ مِن أسْر الكُفّار، وهُم مِن كَثْرة أذيّة المُشركين ﴿يَقُولُونَ﴾ مُتضرِّعين إلىٰ الله: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا﴾ وخلِّصنا ﴿مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ التي نحنُ فيها ﴿ٱلظَّالِمِ﴾ علينا ﴿أَهْلُهَا﴾ وساكنوها ﴿وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ﴾ ومِن رَحمتك ﴿وَلِيّاً﴾ من المُؤمنين يقوم بَمصالحنا، وحِفْظ دِيننا ﴿وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيراً﴾ ينصُرنا علىٰ أعدائنا، ويدفَع عنّا أذاهم.

قيل: هُم المُسلمون الّذِين حُبسوا في مكّة وصدّهم المُشركون عن الهِجرة، أو عجَزوا عنها فبَقَوا في الذِّلّة، وتَلَقَوا الأذىٰ[١]، فيسرَ الله لبعضِهم الهِجرة إلىٰ المدينة، وجعَل لبعضِهم ـ الّذين بَقوا فيها إلى الفَتْح ـ خَير وَليٍّ وأعزّ ناصرٍ، وهُو نبيّه محمّد ﷺ.

عن العيّاشي: عنهما عليهما السلام، في هذه الآية قالا: «نحنُ أُولئك»[٢].

ٱلَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ ٱلشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً[٧٦]

ثمّ بيّن الله سُبحانه أنّ الجِهاد لغَرض نُصْرة الدِّين مِن خصائص المُؤمنين حَثّاً لهم، بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ هُم الّذِين ﴿يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ولنُصْرة دِينه، فالله ناصِرهم ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّاغُوتِ﴾ ولاتِّباع الشّيطان، وتَرويج الباطل، فالشّيطان وَليّهم، والله خاذِلهم ﴿فَقَاتِلُوا﴾ يا أولياء الله ﴿أَوْلِيَاءَ ٱلشَّيْطَانِ﴾ وأتباعه وحِزبه، ولا تخافوا كَيْدهم ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَانِ﴾ لأهل الإيمان، وسَعْيه في إطفاء نُور الحَقّ مُنذُ كان ﴿كَانَ ضَعِيفاً﴾ وبِلا نتيجة، بالإضافة إلى كَيْد الله بالكافرين.

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ وَآتُوا ٱلزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً[٧٧]

---

١. تفسير أبي السعود ٢: ٢٠٢.

٢. تفسير العياشي ١: ١٠٣٧/٤١٨ و١٠٣٨، تفسير الصافي ١: ٤٣٦.

ثمّ قيل: إنّ فَريقاً مِن المُؤمنين يُظهِرون الرّغبة في الجِهاد قبلَ وُجوبه، فلمّا وجَب الجِهاد تَثاقلوا عنه، وأظهروا الكَراهة مِنه، فلامهم الله ووبّخهم[١] بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا محمّد ﴿إِلَى﴾ المُؤمنين ﴿ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ﴾ حينَ إظهارهم الرّغبة في الجِهاد، واستئذانهم فيه ﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾ عنه، ولا تَتعرّضوا للكُفّار ﴿وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ وَآتُوا ٱلزَّكَاةَ﴾ واشتغِلوا بسائر ما أمرتم به.

رُوي أنّ ناساً مِن المُؤمنين أتَوا النبيّ ﷺ قبل أن يُهاجر إلىٰ المدينة، وشكَوا إليه ما يلقَونه مِن أذىٰ المُشركين، وقالوا: كُنّا في عِزٍّ في حالة الجاهليّة، والآن صِرنا أذِلّةً، فلَو أذنت لنا قتلناهم علىٰ فُرُشهم. فقال ﷺ: «كُفّوا أيديكم ـ إي أمسِكوا عن القتال ـ وأقيموا الصّلاة، وآتوا الزكاة، واشتغِلوا بما اُمرتم به، فإنّي لم اُؤمَر بقِتالِهم». وكانوا في مُدّة إقامتهم بمكّة مُستمرّين علىٰ تِلك الحالة، فلمّا هاجَروا معَ رَسُول الله ﷺ إلىٰ المدينة، واُمروا بالقِتال في وَقت بَدْر، كَرِهه بعضُهم وشَقّ ذلك عليه، وذلك قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ﴾[٢] وفُرِض ﴿إِذَا فَرِيقٌ﴾ وجَمْع ﴿مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ﴾ المُشركين أن يقتُلوهم، خَشيةً ﴿كَخَشْيَةِ اللهِ﴾ الكائنة في قُلوبهم أن يَنزل عليهم بأسَه ﴿أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ من خَشيتهم مِن الله، أو مِن أهل خَشية الله. وفي التّرديد إيهامٌ علىٰ المُخاطب، أو إشعار باختِلاف الفَريق في شِدّة الخَوف.

﴿وَقَالُوا﴾ بألسِنتهم، أو في قُلوبهم تَمنّياً لطُول البَقاء، لا اعتِراضاً علىٰ الله: ﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ﴾ وفرَضتَ ﴿عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ﴾ مع الكُفّار ﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنَا﴾ وأمهلتَنا ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أجّلتَه لنا، والموت الذي قدّرتَه علينا.

قيل: إنّ الآية نزلَتْ في المُنافقين؛ وهُم المُراد بالفَريق منهم[٣].

ثمّ أمر الله نبيّه ﷺ بوَعْظهم بقوله: ﴿قُلْ مَتَاعُ ٱلدُّنْيَا﴾ والانتِفاع بها ﴿قَلِيلٌ﴾ المُدّة، سَريع التّقضّي، قليل اللّذّة، لشَوْبه بالمَكاره والغُموم، قليل القَدْر ﴿وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ﴾ مِن الدُّنيا ونِعَمها؛ لأنّها دائمة خالِصة من الكُدورات، عظيمة القَدْر، ولكن تكون ﴿لِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ وأطاعه ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ بنَقْص ثَواب أعمالكم ﴿فَتِيلاً﴾ وشيئاً يسيراً.

أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ ٱللهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِن عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ

---

١. تفسير الرازي ١٠: ١٨٤.
٢. تفسير روح البيان ٢: ٢٣٩.
٣. تفسير الرازي ١٠: ١٨٥.

عِندِ ٱللهِ فَمَالِ هٰؤُلَاءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً[٧٨]

ثمّ نبّه سُبحانه علىٰ أنّ الموت لا مَناص مِنه، تقصيراً للآمال، بقوله: ﴿أَيْنَما تَكُونُوا﴾ أيُّها النّاس، وفي أيّ مَكان تتمكّنوا ﴿يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ﴾ ويُصيبكم الفَناء ﴿وَلَوْ كُنتُمْ﴾ مُتحصِّنين ﴿فِى بُرُوجٍ﴾ وقُصُور حَصينة ﴿مُّشَيَّدَةٍ﴾ مُحكَمة، أو مُجصّصة، فإذا كان الموت لابُدّ مِنه، فبأن يقَع علىٰ وَجْهٍ يكون مُستعقِباً للسّعادة الأبديّة كان أولىٰ.

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدما ذكَر تَثاقُل ضُعفاء المُؤمنين أو المُنافقين عن الجِهاد، أردَفه بذِكْر سُوء مَقالهم، مِن بقوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ﴾ مِن سَعَةٍ ونِعْمةٍ ورَاحةٍ ﴿يَقُولُوا هٰذِهِ﴾ الحَسَنة ﴿مِن عِندِ ٱللهِ﴾ ومِن فَضله ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ مِن جَدْبٍ وغَلاءٍ وشِدَّة ﴿يَقُولُوا﴾ لك مِن غاية الجَهل والحُمْق، أو العِناد: ﴿هٰذِهِ﴾ السَّيِّئة ﴿مِن عِندِكَ﴾ ومِن شُؤمك.

قيل: كانت المدينة مَملوءةً مِن النِّعَم وَقت مَقْدم الرّسول ﷺ، فلمّا ظهَر عِناد اليَهود ونِفاق المُنافقين أمسك الله عنهم بعضَ الإمساك، كما جرَتْ عادَتُه في جميع الأُمَم، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا أرسَلْنا فِى قَرِيَةٍ مِن نَبِيٍّ إِلَّا أخَذْنَا أهلَهَا بالبَأْسَاءِ والضَّرَّاءِ لَعَلَّهُم يضَّرَّعُونَ﴾[١] فعندَ ذلك قالت اليَهود والمُنافقون: وما رأينا أعظم شُؤماً مِن هذا الرّجُل، نقَصتْ ثِمارُنا، وغلَتْ أسعارُنا مُنذ قَدِم، فقوله تعالى: ﴿وإن تُصِبهُم حَسَنَةٌ﴾ يعني: الخِصْب، ورُخْص السِّعْر، وتَتابُع الأمطار، قالوا: ﴿هَذِهِ مِن عِندِ الله وإن تُصِبهُم سَيِّئَةٌ﴾ مِن الجَدْب وغَلاء السِّعْر، قالوا: هذا مِن شُؤم محمّد. وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿فَإذَا جَاءَتهُمُ الحَسَنَةٌ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإن تُصِبهُم سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بمُوسىٰ وَمَن مَعَهُ﴾[٢]، وعن قوم صَالح قالوا: ﴿اطَّيَّرنَا بِكَ وبِمَن مَعَكَ﴾[٣].

ثمّ أمر الله بردِّهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ لَهم ﴿كُلٌّ﴾ مِن الحَسَنات والسَّيِّئات ﴿مِنْ عِندِ ٱللهِ﴾ يقبِض ويبسُط علىٰ حَسَب الحِكْمة والإرادة.

ثمّ بيّن الله شِدّة حماقتهم بإظهار التّعجُّب مِن قِلّة فَهمهم؛ بقوله: ﴿فَمَالِ هٰؤُلَاءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ﴾ ويفهَمون ﴿حَدِيثاً﴾ مِن الأحاديث وقولاً مِن الأقوال، إنْ هُم إلّا كالأنعام.

مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَىٰ بِاللهِ شَهِيداً[٧٩]

---

١. الأعراف: ٩٤/٧. ٢. الأعراف: ١٣١/٧

٣. تفسير الرازي ١٠: ١٨٨، والآية من سورة النمل: ٤٧/٢٧.

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ التّنبيه علىٰ أنّ إيجاد الحَسَنات والسَّيِّئات كُلّها بيَده وعن إرادته، نبّه علىٰ اخْتِلاف أسبابها بقوله: **﴿مَا أَصَابَكَ﴾** أيُّها الإنسان **﴿مِنْ حَسَنَةٍ﴾** مِن الحَسَنات، ومِن خيرٍ مِن الخَيْرات **﴿فَمِنَ ٱللهِ﴾** وبتَفضُّله وإحسانه، أو بحِكْمة الامتِحان **﴿وَمَا أَصَابَكَ﴾** وورَد عليك **﴿مِن سَيِّئَةٍ﴾** وبَليّة **﴿فَمِن نَفْسِكَ﴾** وبسبَب سَيئاتك ومَعاصيك، وإن كان إيجادها أيضاً مِن الله.

عن الرضا عليه السلام: «قال الله: [يا] ابن آدم [بمشيئتي] كُنتَ أنت الذي تشاء لنفسك ما تشاء [و] بقوّتي أدّيتَ فرائضي، وبنِعْمتي قَويتَ علىٰ مَعْصيتي، جَعلتُك سَميعاً بصيراً قويّاً، ما أصابك مِن حَسَنةٍ فمِن الله، وما أصابك مِن سَيِّئةٍ فمِن نفسِك، وذلك أنّي أولىٰ بحَسناتك مِنك، وأنت أولىٰ بسَيِّئاتك مِنّي، وذلك أنّي لا أسأل عمّا أفعل وَهُم يُسألون»[١].

وعن عائشة: ما مِن مُسلم يُصيبه وَصَبٌ ولا نَصَب، حتّىٰ الشّوكة يُشاكها، وحتّىٰ انْقِطاع شِسْع نَعْله، إلّا بذَنْبٍ، وما يغفر الله أكثر[٢].

أقول: حاصِل المُستفاد مِن [الآية] الكريمة أنّ جميع ما يُصيب الإنسان سَواءً أكان مِن الحَسَنات أو مِن السَّيِّئات، فبإيجاد الله تعالىٰ، لا يُشرِكه أحدٌ في إيجاده. وأمّا سَببها فما كان مِن الحَسَنات فبسَبب التّفضُّل، وقابليّة الفَيْض، وامْتِحان العَبد، وما كان مِن السَّيِّئات فبسَبب اسْتِحقاق العُقوبة علىٰ المَعاصي الحاصِلة بالشّهوات النّفسانيّة.

ثمّ لمّا كان بَيان هذا المَطلب العالي بعِبارةٍ وافيةٍ مِن أدلّة الرِّسالة، أعلن سُبحانه بـرِسالته، بـقوله: **﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ﴾** جـميعاً العَـرَب والعَـجَم، والأبيض والأسـود **﴿رَسُـولاً﴾** ومُـبلِّغاً عـن الله، والمُعجزات التي أُتيتَها شَهادة الله علىٰ رِسالتك وصِدْقك **﴿وَكَفَىٰ بِٱللهِ﴾** للنّاس **﴿شَهِيداً﴾** ومُصدِّقاً؛ فلا ينبغي لأحدٍ التّشكيك في صِدْقك والخُروج عن طاعتك.

مَن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً[٨٠]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ الاسْتِدلال علىٰ رسالته، أكّد وجُوب طاعته بقوله: **﴿مَن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ﴾** في أوامره ونَواهيه **﴿فَقَدْ أَطَاعَ ٱللهَ﴾** في الحقيقة، لكَونه مُبلِّغاً عنه، والله أمر بطاعته.

قيل: إنّ النبي صلى الله عليه وآله كان يقول: «مَن أحـبّني فـقد أحبّ الله، ومَـن أطاعني فـقد أطاع الله»، فـقال المنافقون: لقد قارَب[٣] هذا الرّجل الشِّرْك، إنّه ينهىٰ أن يُعبَد غيرُ الله، ويُريد أن نتّخِذه رَبّاً كما اتّخذتْ

---

١. الكافي ١: ١٢/١٢٢، تفسير الصافي ١: ٤٣٧ عن الصادق عليه السلام.
٢. تفسير أبي السعود ٢: ٢٠٦، تفسير روح البيان ٢: ٢٤٢.
٣. في تفسير أبي السعود والصافي: قارف.

النّصارىٰ عيسىٰ، فأنزل الله هذه الآية[١].

ثمّ هدّد الله سُبحانه المُعرضين عن طاعته، بقوله: ﴿ومَن تَوَلَّىٰ﴾ وأعرض عن طاعتك ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ كَي تكون ﴿عَلَيْهِمْ حَفِيظاً﴾ ومُراقباً لأعمالهم، ومُحاسباً لهم، بَل إنّما عليك البَلاغ وعلينا الحِساب، ووَظيفتك الإرشاد بالبَيان وإلينا الهِداية بالتّوفيق، فلا تحرِص علىٰ زَجْرهم عن العِصيان، ولا تغتَمّ بسَبب إعراضهم عن الطّاعة.

وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ وَٱللهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللهِ وَكَفَىٰ بِاللهِ وَكِيلاً[٨١]

ثمّ وبّخ الله سُبحانه المُنافقين بإظهار الطّاعة، وإبطال المُخالفة، بقوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ حينَ تأمُرهم بشيءٍ: شأننا ﴿طَاعَةٌ﴾ خالِصة دائمة ﴿فَإِذَا بَرَزُوا﴾ خرَجوا ﴿مِنْ عِنْدِكَ﴾ وخَلَوا إلىٰ أنفسهم ﴿بَيَّتَ﴾ ودبّر ﴿طَائِفَةٌ مِنْهُمْ﴾ وهُم السّاعون في مُخالفتك أمراً ﴿غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ﴾ لهم وتأمرُهم به ﴿وَٱللهُ يَكْتُبُ﴾ في صَحائف أعمالهم ﴿مَا يُبَيِّتُونَ﴾ ويُدبّرون مِن مُخالفتك وعِصيانك، فيُجازيهم به، ويُعاقبهم عليه أشدَ العِقاب ﴿فَأَعْرِضْ﴾ أنت ﴿عَنْهُمْ﴾ ولا تتَعرّض لعُقوبتهم، وهَتك سِتْرهم، وتَفْضيحهم بذِكْر أسمائهم، حتّىٰ يستقيم أمْرك وأمر دِينك ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللهِ﴾ في شأنهم، فإن الله يكفيك شرّهم ﴿وَكَفَىٰ﴾ لَك ﴿بِاللهِ وَكِيلاً﴾ وكافياً لحِفْظك وجميع اُمورك.

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ ٱخْتِلَافاً كَثِيراً[٨٢]

ثمّ لمّا كان نِفاق المُنافقين لعدَم اعتِقادهم بصِدْق الرّسُول معَ ظُهور مُعجزاته خُصوصاً القُرآن المَجيد الذي هو أعظمها، وكان لعدَم التّدبُّر فيه، حثّهم عليه بقوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْآنَ﴾ وهَلّا يتأمّلون في إعجاز بَيانه وعُلُوّ مَطالبه، حتّىٰ يظهَر لهم بهذه المُعجزة العظيمة صِدْق محمّد ﷺ في دَعوىٰ الرِّسالة.

في أحد وجوه إعجاز القرآن

ثمّ أرشدهم إلىٰ أحَد وُجوه إعجازه بقوله: ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ هذا القُرآن ﴿مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللهِ﴾ وكلاماً صادراً مِن البَشَر، كما زعَمه الكُفّار ﴿لَوَجَدُوا فِيهِ ٱخْتِلَافاً كَثِيراً﴾ وتَفاوُتاً فاحشاً في عِباراته مِن جِهة الفَصاحة والاُسلوب، وفي مَطالبه مِن جِهة

---

١. تفسير أبي السعود ٢: ٢٠٦، تفسير الصافي ١: ٤٣٧.

الصِحّة والفَساد فكَوْن جميع عِباراته بطُولها في أعلىٰ دَرجة الفَصاحة، ومَطالبه مع كَثْرتها في غاية الصِّحّة والمَتانة، دَليلٌ قاطِع علىٰ أنّه كلام الله، لا كلام البَشَر، لقضاء العادة بأن كلام البَشَر لا يخلو مِن الاختِلاف في الفَصاحة إذا كان طويلاً، والأخبار الغيبيّة الحَدْسِيّة لا تخلو مِن عدَم مُطابقة بعضِها للواقع، ومَطالبه العِلْميّة الكثيرة لا تخلو عن بُطلان بعضها.

﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ [٨٣]

ثمّ أنّه تعالىٰ لمّا أمّن نبيّه مِن شَرّ المُنافقين، وأحكم أساس نُبوّته بالإشارة إلى وَجْه إعجاز كِتابه، أخبره بإفساد المُنافقين في المُسلمين بقوله: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ﴾ وبلَغهم مِن سَرايا المُسلمين، أو مِن طَرف المُشركين ﴿أَمْرٌ﴾ وشيءٌ ﴿مِنَ ٱلْأَمْنِ﴾ للمُسلمين كالظّفَر علىٰ الأعداء، أو تَقاعُد المُشركين عن حَرْبهم ﴿أَوِ﴾ مِن ﴿ٱلْخَوْفِ﴾ كَنَكبة المُسلمين وَضَعْفهم، أو هزيمتهم عن العَدُوّ، أو تجمُّع الكُفّار لحَرْبهم، فهُم بمَحْض سَماع الخَبَر ﴿أَذَاعُوا بِهِ﴾ وأفشَوه بَيْن المُسلمين، مِن غيرِ تَحْقيقٍ عن صِدْقه، ومِن غيرِ مُلاحظةٍ للصَلاح في إفشائه، فقد يكون في إفشائه تَغرير المُسلمين، أو تَخْويفهم من العَدُوّ، وضَعْفهم في المُعارضة أو في الإيمان ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ﴾ وفوّضوه ﴿إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِى ٱلْأَمْرِ﴾ وأهل البَصيرة والعِلم ﴿مِنْهُمْ﴾ وإلىٰ نظَرهم في تَحقيق الصِّدْق، وتَشْخيص الصَلاح في الإفشاء، والتّدبير في كَيفيّة الذِّكْر، وطلَبوا مَعرفة الحال مِن جِهتهم ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ﴾ ويستخرِجون واقع الأمر ﴿مِنْهُمْ﴾ بأنظارهم الصّائبة، ومعرفتهم الكاملة بحَقائق الأمور.

قيل: كان قومٌ مِن ضَعَفه المُسلمين إذا بلَغهم خَبَرٌ مِن سَرايا رَسُول الله ﷺ، أو أخبرهم الرّسُول بما أُوحي إليه مِن وَعْدٍ بالظّفَر، أو تَخْويف مِن الكَفَرة، أذاعوا به لعدَم حَزْمهم، وكانت إذاعتهم مفسدة[١].

وقيل: كانوا يسمَعون أراجيف المُنافقين فيُذيعونها فيعود وَبالاً علىٰ المُسلمين، ولَو رَدُّوه إلىٰ الرّسُول ﷺ وإلىٰ أُولي الأمر مِنهم حتّىٰ يسمَعوا مِنهم، ويعرِفوا هَل يُذاع لعِلْم ذلك مِن هؤلاء الَّذِين يستنبطونه مِن الرّسُول ﷺ وأُولي الأمر[٢].

عن الباقر عليه السلام: «هُم الأئمّة المَعصومون عليهم السلام»[٣].

---

١. تفسير أبي السعود ٢: ٢٠٨.
٢. تفسير أبي السعود ٢: ٢٠٩.
٣. جوامع الجامع: ٩٢، تفسير الصافي ١: ٤٣٩.

وعن الرضا عليه السلام: «يعني: آل محمد عليهم السلام، وهُم الّذين يستنبطون مِن القرآن، ويعرِفون الحَلال والحَرام، وهُم حُجَّة الله على خَلْقه»[1].

وعن الباقر عليه السلام: «مَن وضَع وِلاية الله، وأهل استِنباط عِلْم الله في غيرِ أهل الصَّفْوة مِن بُيوتات الأنبياء، فقد خَالف أمرَ الله عزّ وجلّ، وجعَل الجُهّال وُلاة أمرِ الله، والمُتكلّفين بغيرِ هُدىً، وزعَموا أنّهم أهل استِنباط عِلْم الله، فكذَبوا على الله، وزاغوا عن وَصيّة الله وطاعته، ولَم يضَعوا فَضل الله حيثُ وضَعه الله تَبارك وتعالى، فَضلُّوا وأضلّوا أتباعهم، فلا تكون لهم يومَ القِيامة حُجَّة»[2].

ثمّ لمّا أمر الله بطاعة رَسُوله، والجِهاد في سَبيله، ورَدّ الأمور إلى الرّسُول صلّى الله عليه وآله وإلى أولي الله، أظهر مِنّته على العِباد بفَضْله عليهم، وهِدايتهم إلى الحَقّ، حَثّاً على طاعة أحكامه، بقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بإرسال الرّسُول، وإنزال القرآن ﴿وَرَحْمَتُهُ﴾ عليكم بهِدايتكم إلى دِين الإسلام.

وعن الباقر عليه السلام: «فَضل الله: رَسُول الله، ورَحمته: [ولاية] الأئمة عليهم السلام»[3].

وعنهم عليهم السلام: «فَضل الله ورَحمته: النبيّ، وعليّ عليهما السلام»[4].

وَالله[5] ﴿لَاتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَانَ﴾ في الكُفر والطُّغيان ﴿إِلَّا قَلِيلاً﴾ مِنكم، وهُم أُولوا الألباب.

قيل: إنّ قُسّ بن ساعِدة، وورقة بن نَوفل، وزيد بن عمرو بن نُفَيل كانوا مُؤمنين بالله قبلَ بِعثة النبيّ صلّى الله عليه وآله[6].

فَقَاتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْساً وَأَشَدُّ تَنْكِيلاً [٨٤]

ثمّ لمّا أمر الله سُبحانه في الآية السّابقة بالجِهاد، وبيّن نُفرة جَمْعٍ مِن ضَعَفة المُسلمين وجميع المُنافقين عنه، حَثّ نبيّه صلّى الله عليه وآله وأمره بالجِدّ فيه بنفسه، وتَحْريض المُؤمنين عليه بقوله: ﴿فَقَاتِلْ﴾ يا محمّد وحدَك ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ونُصْرة دِينه، وإن خذَلك جميعُ النّاس، ولَم ينصُرْك أحدٌ.

قيل: إنّ التقدير: إنْ أردتَ الفَوز فقاتِل الكُفّار[7].

وقيل: إنّه تعالى بعدَ ذِكْر سَيّئات أخلاق المُنافقين، ومُضادّتهم للنبيّ صلّى الله عليه وآله، وسَعْيهم في الإفساد بَيْن

---

١. تفسير العياشي ١: ١٠٥٠/٤٢٢، تفسير الصافي ١: ٤٣٩.

٢. إكمال الدين: ٢/٢١٨، تفسير الصافي ١: ٤٣٩.

٣. تفسير العياشي ١: ١٠٥١/٤٢٢، تفسير الصافي ١: ٤٣٩.

٤. جوامع الجامع: ٩٢، تفسير الصافي ١: ٤٣٩.

٥. لا محلّ للقسم هنا، واللام في قوله تعالى: ﴿لاتبعتم﴾ واقعة في جواب (لولا) فهي حرف جواب وربط، وليست لام القسم.

٦. تفسير الرازي ١٠: ٢٠٢.

٧. تفسير الرازي ١٠: ٢٠٣.

المُسلمين، كأنّه قال: فلا تعتَدّ بهم، ولا تلتِفتْ إلىٰ أفعالهم، بَل قاتِل في سبيل الله[١].

و﴿لَا تُكَلَّفُ﴾ ولا تحمِل عليه ﴿إِلَّا نَفْسَكَ﴾ فإنّ الله ناصِرُك. ففيه دَلالة علىٰ أنّ الجِهاد كان واجباً عليه، وإنْ لَم يُساعده غيرُه.

قيل: نزلتْ في بَدْر الصُّغرىٰ، فإنّه واعده أبو سُفيان اللِّقاء فيها، فكرِه بعضُ النّاس الخُروج معه، فخرَج وما معَه إلّا سَبعون، ولَم يلتفِتْ إلىٰ أحدٍ، ولَو لَم يخرُج معَه أحدٌ لخَرَج وَحده[٢].

ثمّ أمره بتَحْريض المُؤمنين بقوله: ﴿وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ علىٰ القِتال، ورغّبهم فيه بالنُّصح، ووَعْد النّصر والغنيمة، وثَواب الآخرة، ولا تعنُف بهم ـ علىٰ ما قيل[٣] ـ ﴿عَسَى ٱللَّهُ﴾ وأرْجِه ﴿أَن يَكُفَّ﴾ ويمنَع عنك، وعن المُسلمين ﴿بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مِن قُريش، ومَكروههم ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ﴾ مِنهم ﴿بَأساً وَأَشَدُّ تَنكِيلاً﴾ وعذاباً.

مَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتاً[٨٥]

ثمّ قيل: إنّه لمّا حرّض النبيّ ﷺ في القِتال، شفَع بعضُ المُنافقين إلىٰ النبيّ ﷺ أن يأذَن لبعضِهم في التّخلُّف عنه[٤]، فنهىٰ الله تعالىٰ عن تِلك الشّفاعة بقوله: ﴿مَن يَشْفَعْ﴾ إلىٰ أحدٍ ﴿شَفَاعَةً حَسَنَةً﴾ مَرضِيّةً عندَ الله؛ كأن [يشفَع] في

الإحسان إلىٰ مُؤمنٍ، أو دَفع شرٍّ عنه، طلباً لمَرضاة الله.

وعن ابن عبّاس: الشّفاعة الحَسَنة أن يشفَع إيمانَه بالله بقِتال الكُفّار[٥].

﴿يَكُن لَهُ نَصِيبٌ﴾ وحَظٌّ ﴿مِنْهَا﴾ بالانْتِفاع مِن أجرها وثَوابها.

عن النبيّ ﷺ: «اشْفَعوا تُؤجَروا»[٦].

﴿وَمَن يَشْفَعْ﴾ عندَ أحدٍ ﴿شَفَاعَةً سَيِّئَةً﴾ غير مَرضِيّة، كأن يشفَع في مَعصية أو تَضْييع حَقّ وعن ابن عبّاس: أن يشفَع كُفْره بالمَحبّة للكُفّار، وترَك إيذائهم[٧].

﴿يَكُن لَهُ كِفْلٌ﴾ وحَظّ ﴿مِنْهَا﴾ بالابْتِلاء بعُقوبتها ﴿وَكَانَ الله على كُلِّ شَيءٍ﴾ مِن الأجر والعُقوبة ﴿مُقِيتاً﴾ وقادراً، أو علىٰ كُلّ شيءٍ مِن الشّفاعة الحَسَنة والسَّيِّئة مُطّلِعاً وحافظاً.

---

١. تفسير الرازي ١٠: ٢٠٣.
٢. تفسير الرازي ١٠: ٢٠٤.
٣. تفسير روح البيان ٢: ٢٤٨.
٤. تفسير الرازي ١٠: ٢٠٦.
٥. تفسير الرازي ١٠: ٢٠٦.
٦. تفسير الرازي ١٠: ٢٠٧.
٧. تفسير الرازي ١٠: ٢٠٦.

عن الصادق عليه السلام، عن آبائه، عن النبيّ صلى الله عليه وآله: «مَنْ أمر بمَعروفٍ، أو نهىٰ عن مُنكر، أو دَلّ علىٰ خَيرٍ، أو أشار به، فهو شَريك»[١].

﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً﴾[٨٦]

في وجوب ردّ السلام والتحية

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ الأمر بجِهاد الكُفّار والشِّدّة عليهم، أمر بمُسالمتهم إذا سلّموا، أو بردّ تَحيّتهم، بقوله: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ﴾ وأكرِمتُم بنَوعٍ مِن الأكرام - [عن] القُمّي: السّلام وغيره مِن البِرّ[٢] - [سواء] كان المُحَيِّي مُسلماً أو كافراً ﴿فَحَيُّوا﴾ المُحيِّي وقابلوا تَحيّته ﴿بِأَحْسَنَ مِنْهَا﴾ كأن تقولوا في جَواب مَن قال: سَلامٌ عليكم؛ عليكم السّلام، أو مع زِيادة: ورَحمةُ الله وبَركاته، لوُضوح أنّ تحيّة الإسلام السّلام ﴿أَوْ رُدُّوهَا﴾ بأن تقولوا في جوابه: سَلامٌ عليكم.

في بيان كيفية الردّ بالأحسن

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «إذا عطَس أحدُكم [فسمّتوه] قولوا: يرحَمكم[٣] الله، ويقول هُو: يغفِرُ الله لكم ويرحَمكم، قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ﴾ الآية»[٤].

في (المناقب): جاءت جارية للحسَن بطَاقةِ رَيحانٍ، فقال لها: «أنتِ حُرّةٌ لوَجه الله» فقيل له في ذلك، فقال: «أدّبنا الله تعالىٰ فقال: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ﴾ الآية، وكان أحسنُ مِنها إعْتاقُها»[٥].

عن الباقر عليه السلام: «مَرّ أمير المؤمنين صَلوات الله عليه بقومٍ، فسلّم عليهم فقالوا: عليك السّلام ورَحمة الله وبَركاته ومَغفرته ورِضوانه، فقال أمير المؤمنين: لا تُجاوِزوا بِنا ما قالت المَلائكة لأبينا إبراهيم عليه السلام؛ إنّما قالوا: ﴿رَحمَت اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُم أَهلَ البَيْتِ﴾»[٦].

ورُوي أنّ رَجُلاً قال لرَسُول الله صلى الله عليه وآله: السّلام عليك، فقال: «وعليك السّلامُ ورَحمةُ الله»، وقال آخر: السّلامُ عليك ورَحمةُ الله، فقال: «وعليك السّلامُ ورَحمةُ الله وبَرَكاتُه»، وقال آخر: السّلامُ عليك ورَحمةُ الله وبَرَكاتُه، فقال: «وعليك»، فقال الرّجُل نقصتني، فأين ما قال الله - وتلا هذه الآية - فقال: «إنّك لَم تَترك لي فضلاً، فردَدْتُ عليك مِثْله»[٧].

عن الصادق عليه السلام: «مَن قال السّلامُ عليكم، فهِي عشر حسنات، ومَن قال: السّلامُ عليكم ورَحمةُ

---

١. الخصال: ١٥٦/١٣٨. ٢. تفسير القمي ١: ١٤٥. ٣. في الخصال: يرحمك.
٤. الخصال: ٦٣٣. ٥. مناقب ابن شهر آشوب ٤: ١٨.
٦. الكافي ٢: ١٣/٤٧٢، والآية من سورة هود: ٧٣/١١.
٧. مجمع البيان ٣: ١٣١، تفسير البيضاوي ١: ٢٢٨، تفسير أبي السعود ٢: ٢١١.

الله، فهي عشرون حَسَنة، ومَن قال: السّلامُ عليكم ورَحمةُ الله وبركاته؛ فهي ثلاثون حَسَنة»[١].

وعنه عليه السلام: «مِن تَمام التّحيّة للمُقيم المُصافحة، وتَمام التّسليم علىٰ المُسافر المُعانقة»[٢].

وعنه عليه السلام، عن أمير المُؤمنين صَلَواتُ الله عليه: «لا تبدَأوا أهل الكِتاب بالتّسليم، وإذا سلّموا عليكم فقولوا: وعليكم»[٣].

في كراهة التسليم علىٰ ثلاثة عشر طائفة

وعنه، عن أبيه عليهما السلام: «لا تُسلّموا علىٰ اليَهود، ولا علىٰ النّصارىٰ، ولا علىٰ المَجُوس، ولا علىٰ عَبَدة الأصنام[٤]، ولا علىٰ مَوائد شِرْب الخَمر، ولا علىٰ صاحِب الشِّطْرَنج والنَّرْد، ولا علىٰ المُخنَّث، ولا علىٰ الشّاعر الذي يَقذِف المُحَصنات، ولا علىٰ المُصلّي؛ وذلك أن المُصلّي لا يستطيع أن يُردّ السّلام، لأنّ التّسليم مِن المُسلّم تَطوُّع، والرّدّ عليه فَريضة، ولا علىٰ آكل الرِّبا، ولا علىٰ رَجُلٍ جالسٍ علىٰ غائط، ولا علىٰ الذي في الحَمّام، ولا علىٰ الفاسِق المُعلِن بفِسْقه»[٥].

ثمّ هدّد الله سُبحانه علىٰ مُخالفة الأمر برَدّ التّحيّة، أو الإساءة بالمُحيّي، بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من النّقير والقِطْمير مِن أعمالكم ﴿حَسِيباً﴾ فيُحاسبكم علىٰ جميع مايصدُر مِنكم، ويُجازيكم عليها، فكونوا مِن مُخالفته علىٰ حذر.

ٱللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثاً[٨٧]

ثمّ أظهر سُبحانه عَظَمته ووَحْدانِيّته في الأُلوهيّة والقُدْرة، وذَكَر يومَ القِيامة واجْتِماعهم للحِساب فيه، إرعاباً للقُلوب وتَخْويفاً مِن العِصيان، بقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فاخضعوا لعَظَمته وقُدْرته، وخُضَوه بالعُبوديّة والطّاعة، واعْلَموا أنّه بالله﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ ويَسُوقنّكم مِن القُبُور ﴿إِلَىٰ﴾ حِساب ﴿يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ﴾ وهُو يوم يقوم النّاس لربّ العالَمين ﴿لَا رَيْبَ﴾ لعاقِلٍ ﴿فِيهِ﴾.

ثمّ أكّد صِدْق هذا الحديث، بعَد الحَلْف ونَفْي الرّيْب عنه، بقوله: ﴿وَمَنْ﴾ هُوَ ﴿أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثاً﴾ وخبراً، فإنّ الكَذِب مُمكنٌ في خَبَر غيرِه، ولا يُمكِن في خَبره؛ لمُنافاته لحِكْمته وغِناه.

في الحديث القُدسيّ: «كذّبني ابنُ آدم، ولَم يكُن له ذلك»[٦].

فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ

---

١. الكافي ٢: ٩/٤٧١. ٢. الكافي ٢: ١٤/٤٧٢. ٣. الكافي ٢: ٢/٤٧٤. ٤. في الخصال: الأوثان.
٥. الخصال: ٥٧/٤٨٤. ٦. تفسير روح البيان ٢: ٢٥٥.

أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً[٨٨]

ثمَ أنّه تعالىٰ بعدَ إرعاب النّاس بعَظَمته وقُدْرته، وبَعْثهم إلىٰ يومِ الجَزاء، ونَفي الرَّيب فيه،ردَع المُؤمنين عن مُوادّة المُنافقين، وعن الرَّيْب في كُفرهم، بقوله: ﴿فَمَا لَكُمْ﴾ اختلفتم ﴿فِى﴾ كُفر ﴿ٱلْمُنَافِقِينَ﴾ بعدَ ظُهوره، وتفرّقتم فيه ﴿فِئَتَيْنِ﴾ وفِرقتين.

عن ابن عبّاس ﷺ: أنّها نزلتْ في قومٍ أظهروا الإسلام بمكّة، وكانوا يُعينون المُشركين علىٰ المُسلمين، فاختلف المُسلمون في كُفرهم وإسلامهم وتشاجروا فيه[١].

وعن عِكرمة: أنّها نزلْت في قومٍ ضلّوا، وأخذوا أموال المُسلمين وانْطلقوا بها إلىٰ اليَمامة، فاخْتلف المُسلمون فيهم[٢].

وقيل: إنّها نزلْت في قومٍ قدِموا إلىٰ النبيّ ﷺ مُسلمين، فأقاموا بالمدينة ما شاء الله، ثمّ قالوا: يا رَسُول الله، نُريد أن نخرُج إلىٰ الصَّحراء فأذَنْ لنا فيه، فأذِن لهم، فلمّا خَرجوا لَم يزالوا يرحلُون مَرْحلةً مَرْحلة حتّىٰ لحِقوا بالمُشركين، فتكلّم المُؤمنون فيهم فقال بعضُهم: لو كانوا مُسلمين مِثْلنا لبقُوا معنا وصبَروا كما صَبَرنا، وقال قومٌ: هُم مُسلمون، وليس لنا أن ننسُبهم إلىٰ الكُفر حتّىٰ يظهَر لنا أمرُهم[٣].

فبيّن الله تعالىٰ نفاقهم بقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم﴾ وردّهم إلىٰ أحكام الكُفْر، مِن الذُّل والصَّغار، والقتْل والسَّبْي ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ مِن إظهار الارْتِداد.

ثمَ لمّا كان المُؤمنون يتمنَّون إيمان المُنافقين ويَحتالون فيه، قطَع الله طَمعهم في إيمانهم، بقوله: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا﴾ إلىٰ الحَقّ وطريق الجنّة ﴿مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ وخَذله ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ عن الهُدىٰ، وخَذله ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾ إلىٰ الإيمان، وطريقاً إلىٰ الجِنان.

وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً[٨٩]

ثمّ بالغ سُبحانه في صَرْف قُلوب المُؤمنين عن مُوالاتهم بقوله: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ وتمنّوا أن ترتدّوا إلىٰ الكُفْر ﴿كَمَا كَفَرُوا﴾ وارتدّوا عن الإسلام ﴿فَتَكُونُونَ﴾ أنتم وهُم ﴿سَوَاءً﴾ في الكُفْر، فلمّا عَلِمتُم أنّهم طالبون هَلاككم الأبدي ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ﴾ لأنفسكم ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ ولا ترضَوا بهم لكم

---

١. تفسير الرازي ١٠: ٢١٨.
٢. تفسير الرازي ١٠: ٢١٩.
٣. تفسير الرازي ١٠: ٢١٨.

أصدقاء ﴿حَتَّىٰ﴾ يؤمنوا، وتحققوا إيمانهم بأن ﴿يُهاجِرُوا﴾ عن بِلاد الشِّرْك إلىٰ دَار الإسلام ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ولنُصْرة دِينه، وخِدمة الرَّسُول، لا للأغراض الدُّنيويّة ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ وأعرضوا عن مُوافقتكم في الإيمان، والهِجرة عن الأوطان بخُلُوص النِّيَّة ﴿فَخُذُوهُمْ﴾ إذا قدَرتُم عليهم ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُّمُوهُمْ﴾ مِن الحِلّ والحَرَم ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ﴾ لأنفسكم ﴿وَلِيّاً﴾ ولا صَديقاً ﴿وَلَا نَصِيراً﴾ ولا مُعيناً بوَجْهٍ أبداً، ما داموا علىٰ حالة الكُفْر والشِّقاق.

إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً[٩٠]

ثمّ استثنىٰ مِن الكُفّار الّذِين أمر بقَتلهم طائفتَين، أمّا الطّائفة الأولىٰ: فبقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ﴾ وينتهون ﴿إِلَىٰ قَوْمٍ﴾ كافرين يكون ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ وعَهد أكيد، أن لا تتحاربوا.

قيل: هُم الأسلميّون، فإنّ النبيّ ﷺ وادَعَ[1] وقتَ خُروجه إلىٰ مكّة هِلال بن عُويمر الأسلمي علىٰ أن لا يُعينه ولا يُعين عليه، وعلىٰ أنّ مَنْ وصَل إلىٰ هِلال ولجَأ إليه، فله مِن الجِوار مِثل الذي لهِلال[2].

وعن ابن عبّاس رضي الله عنه: هُم بنُو بَكر بن زيد مَناة[3].

وعن قَتادة: هُم خُزاعة وخُزيمة بن عبدمناة[4].

وأمّا الطّائفة الثانية: فبقوله: ﴿أَوْ جَاءُوكُمْ﴾ حالَ كَونهم ﴿حَصِرَتْ﴾ وضاقتْ ﴿صُدُورُهُمْ﴾ عن ﴿أَن يُقَاتِلُوكُمْ﴾ مع قومهم، لكَوْنكم مُسلمين مُعاهدين معهم ﴿أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ﴾ معكم، لكَوْنهم علىٰ دِينهم، فهُم لا لكُم ولا عليكُم.

في معاهدة الرسول ﷺ مع بني مدلج

قيل: هُم بنو مُدلِج، عاهدوا المُسلمين أن لا يُقاتلوهم، وعاهدوا قُريشاً أن لا يُقاتلوهم، فضاقت صُدُورهم عن قِتال المُسلمين للعَهْد الذي بينهم وللرُّعب الذي قَذَف الله في قُلوبهم، وضاقت صُدُورُهم عن قِتال قومهم لأنّهم كانوا علىٰ دِينهم[5].

ثمّ مَنّ الله علىٰ المُسلمين بكَفّ أذىٰ المُعاهَدين عنهم بقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ﴾ تَسْليط الكُفّار عليكم

---

١. أي صالح وهادن وسالم.
٢. تفسير روح البيان ٢: ٢٥٧.
٣. تفسير الرازي ١٠: ٢٢٢.
٤. تفسير الرازي ١٠: ٢٢٣، عن مقاتل.
٥. تفسير روح البيان ٢: ٢٥٧.

﴿لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ﴾ برَفع أثر العَهْد، وتَقوية قُلوبهم، وإزالة الرُّعب عنهم، إذَنْ ﴿فَلَقَاتَلُوكُمْ﴾ البتّة وقتَلوكم، ولكِن لَم يشأ ذلك، لكرامتكم عليه باتّباع الرّسُول ودِين الإسلام، فإذا عَلِمتم ذلك ﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ﴾ واجتَنبوا عن التعرُّض لكم ﴿فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ﴾ بمشيئة الله ﴿وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ﴾ وتلقَوكم بالانْقِياد والتّسليم ﴿فَمَا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً﴾ بالقَتل والأسر.

في (الكافي): عن الصادق عليه السلام: «نزلتْ في بني مُدلِج، جاءوا إلىٰ رَسُول الله صلى الله عليه وآله فقالوا: إنّا [قد] حصِرت صُدُورنا أن نشهد أنّك لرَسُول الله، فلَسنا معك ولا مع قومِنا عليك، فوادَعهم إلىٰ أن يفرَغ مِن العَرَب، ثمّ يدعوهم فإن أجابوا وإلّا قاتلهم»[1].

ذكر معاهدة الرسول صلى الله عليه وآله مع بني الأشجع

عن القُمّي، في قوله تعالىٰ: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ إلىٰ آخِر الآية: أنّها نزلَتْ في أشجع، وبني ضَمْرة، وكان خبرهم أنّه لمّا خرَج رَسُول الله صلى الله عليه وآله إلىٰ بَدْر لمَوعده مَرّ قريباً مِن بِلادهم، وقد كان رَسُول الله صلى الله عليه وآله هادن بني ضَمْرة ووادَعهم قبل ذلك، فقال أصحابُ رَسُول الله صلى الله عليه وآله: هذه بنو ضَمرة قريباً مِنّا، ونَخاف أن يُخالفونا إلىٰ المدينة، أو يُعينوا علينا قريشاً، فلو بدأنا بهم؟ فقال رَسُول الله صلى الله عليه وآله: «كلّا إنّهم أبرّ العَرَب بالوَالدين، وأوصلهم للرَّحم، وأوفاهم بالعَهْد».

وكان أشجع بِلادهم قريباً مِن بِلاد بني ضَمْرة، [وهم بطن من كنانة، وكانت أشجع بينهم وبين بني ضمرة حلف في المراعاة والأمان، فأجدبت بلاد أشجع وأخصبت بلاد بني ضمرة، فصارت أشجع إلىٰ بلاد بني ضمرة] فلمّا بلَغ رَسُول الله صلى الله عليه وآله مَسيرهم إلىٰ بني ضَمرة، تهيّأ للمَصير إلىٰ أشجع فيغزُوهم للمُوادعة التي كانت بَيْنه وبَيْن ضَمْرة، فأنزل الله: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا...﴾، ثمّ استثنىٰ أشجع فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ﴾ الآية.

وكانت أشجع مَحالّها البَيضاء والجبل والمُستباح، وقد كانوا قربوا رَسُول الله صلى الله عليه وآله، فهابُوا لقُربهم مِن رَسُول الله صلى الله عليه وآله أن يبعث إليهم مَن يغزوهم، وكان رَسُول الله صلى الله عليه وآله قد خافَهم أن يُصيبوا مِن أطرافه شيئاً، فهمّ بالمَسير إليهم، فبَينا هُو علىٰ ذلك إذ جاءت أشجع ورئيسها مسعُود بن رُخيلة[2] وهُم سبعمائة، فنزلوا شِعْب سَلْع[3]، وذلك في شهر ربيع سنة سِت، فدعا رَسُول الله صلى الله عليه وآله أسيد بن حُصين

---

١. الكافي ٨: ٣٢٧/٥٠٤.

٢. مسعود بن رخيلة؛ بالخاء، انظر: أسد الغابة ٤: ٣٥٧ والإصابة في تمييز الصحابة ٣: ٤١٠/٧٩٤٣، وفي النسخةوالصافي (رحيلة) بالحاء وفي القمي: (رجيلة) بالجيم.

٣. الشِّعْب: هو الطريق في الجبل، وسَلْع: هو جبل بسوق المدينة، أو هو نفسه الشق في الجبل، انظر معجم البلدان ٣: ٢٦٧.

فقال [له]: «اذهب في نَفرٍ من أصحابك حتّىٰ تنظُر ما أقدم أشجع»، فخرج أسيد ومعه ثلاثة نَفر مِن أصحابه فوقف عليهم فقال: ما أقدمكم؟ فقام إليه مَسعود بن رخيلة؛ وهُو رئيس أشجع، فسلّم علىٰ أسيد وعلىٰ أصحابه وقالوا: جئنا لنُوادع محمّداً، فرجع أسيد إلىٰ رَسُول الله ﷺ فأخبره، فقال رَسُول الله ﷺ: «خاف القوم أن أغزوهم، فأرادوا الصُّلْح بَيْني وبَيْنهم».

ثمّ بعث إليهم بعَشرة أحمال[١] تَمْر فقدّمها أمامه، ثمّ قال: «نِعْم الشيء الهَدِيّة أمام الحاجة»، ثمّ أتاهم فقال: «يا معشر أشجع، ما أقدمكم؟ قالوا: قريبٌ دارُنا مِنك، وليس في قومِنا أقلّ عدداً مِنّا، فضِقنا بحربك لقُرب دارِنا، وضِقنا بحرب قومنا[٢] لقِلّتنا فيهم، فجِئنا لنُوادِعك، فقَبِل النبي ﷺ ذلك مِنهم ووَادعهم، فأقاموا يومهم ثمّ رجعوا إلىٰ بِلادهم، وفيهم نزلَتْ هذه الآيـة: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ﴾ إلىٰ آخِر الآية[٣].

والقُمّي عن الصادق عليه السلام: «كانت السّيرة مِن رَسُول الله ﷺ قبلَ نُزول سُورة براءة أن لا يُقاتل إلّا مَن قاتله، ولا يُحارب إلّا مَن حاربه وأراده، وقد كان نزل في ذلك مِن الله تعالىٰ: ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً﴾ فكان رَسُول الله ﷺ لا يُقاتل أحداً قد تنحّىٰ عنه واعتزله، حتّىٰ نزلَتْ عليه سُورة براءة، وأُمر بقَتل المُشركين مَنْ اعتزله ومَن لَم يعتزِله، إلّا الّذِين قد عاهَدهم رَسُول الله ﷺ يوم فتَح مكّة إلىٰ مُدّة، مِنهم صَفوان بن أُميّة وسهيل بن عمرو[٤]، وسيجيء تمامُ الحَديث في سُورة بَراءة.

سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِن لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً مُبِيناً[٩١]

ثمّ أذِن سُبحانه في قِتال المُعاهدين الّذِين أرادوا بـعَهْدهم الغَدْر بـالمُسلمين، ونَـقضوه بـقوله: ﴿سَتَجِدُونَ﴾ قوماً ﴿ءَاخَرِينَ﴾ مِن الكفّار الّذِين ﴿يُرِيدُونَ﴾ بعَهْدهم ﴿أَن يَأْمَنُوكُمْ﴾ ويستريحوا مِن بأسكم بالعَهْد، أو بإظهار كلمة التّوحيد ﴿وَيَأْمَنُوا﴾ أيضاً ﴿قَوْمَهُمْ﴾ بإظهار الكُفْر عندَهم.

قيل: هُم قومٌ مِن بني أسد وغطفان، إذا أتَوا المدينة أسلموا وعاهدوا ليأمنوا المُسلمين، فإذا رجِعوا إلىٰ قومِهم كَفروا ونكثوا عُهودهم ليأمنوا قومهم[٥].

---

١. في المصدر: أجمال. ٢. في المصدر: قومك. ٣. تفسير القمي ١: ١٤٥، تفسير الصافي ١: ٤٤٤.
٤. تفسير القمي ١: ٢٨١، تفسير الصافي ١: ٤٤٥، وفي النسخة: سهل بن عمر.
٥. تفسير أبي السعود ٢: ٢١٤، تفسير روح البيان ٢: ٢٥٨.

وعن الصادق عليه السلام: «نزلت في عيينة بن حصين[١] الفَزاري، أجدبَتْ بِلادهم، فجاء إلىٰ رَسُول الله صلى الله عليه وآله ووادعه علىٰ أن يُقيم ببَطن نَخْل ولا يتعرّض له، وكان مُنافقاً مَلعوناً، وهُو الذي سمّاه رَسُول الله صلى الله عليه وآله الأحمق المُطاع»[٢].

﴿كُلَّ مَا رُدُّوا﴾ ودُعوا ﴿إِلَى ٱلْفِتْنَةِ﴾ مِن الكُفْر والفَساد في الإسلام، وقِتال المُسلمين، نقَضوا العَهْد، و﴿أُرْكِسُوا﴾ وانقلبوا ﴿فِيهَا﴾ أقبح انقِلاب، ودخَلوا فيها أشنع دُخول. وهو اسْتِعارة لشِدّة كُفْرهم وعَداوتهم للمُسلمين؛ لأنّ مَن وقَع في شيءٍ مَنكوساً يتعذّر عليه الخُروج.

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ بَيان غُدْرهم ونِفاقهم، أذِن في قِتالهم بعدَ نَقْضهم العَهد، بقوله: ﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ﴾ ولَم يتنَحّوا عن قِتالكم، ولَم ﴿يُلْقُوا إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾ ولَم يطلُبوا مِنكم الصُّلح، ﴿وَ﴾ لَم ﴿يَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ﴾ عن قِتالكم، ﴿فَخُذُوهُمْ﴾ كُلّما قدَرتُم عليهم ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ وفي أيِّ مكان تمكّنتُم مِنهم في حِلٍّ أو حَرَم ﴿وَأُوْلَٰئِكُمْ﴾ الكافرون الغادرون ﴿جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ في قَتْلهم وأسرهم ﴿سُلْطَاناً مُبِيناً﴾ وحُجّة ظاهِرة، مِن ظُهور كُفْرهم، وعَداوتهم، وغَدْرهم، ونَقْضهم العَهد، وإضرارهم بالإسلام.

وقيل: إنّ المُراد من السُّلطان المُبين: إذنه تعالىٰ في قَتلهم[٣].

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلَّا خَطَأً وَمَن قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً[٩٢]

ثمّ لمّا أذن الله في القِتال، وكان معرضاً لقَتل مؤمن فيه خطأً أو اشتِباهاً،بيّن حُكْمه بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ﴾ في زَمانٍ مِن أزمنة التّكليف جائزاً ﴿لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِناً﴾ بغير حَقّ، وليس مِن شأنه ذلك في حالٍ مِن الأحوال ﴿إِلَّا﴾ حالَ كَوْنه ﴿خَطَأً﴾ وبغير القَصْد إليه.

وقيل: إنّ الاسْتِثناء مِن لازم الحُكْم، وهُو أنّه يُعاقَب عليه إلّا إذا كان خطأً[٤].

---

١. في النسخة: عينية بن ا لحصين، تصحيف، انظر: أُسد الغابة ٤: ١٦٦.

٢. تفسير القمي ١: ١٤٧، مجمع البيان ٣: ١٣٦، تفسير الصافي ١: ٤٤٦.

٣. تفسير الرازي ١٠: ٢٢٦.

٤. تفسير الرازي ١٠: ٢٢٨.

وعن القُمّي: يعني [لا عمداً] ولا خطأ[١].

عن الباقر عليه السلام: «نزلَتْ في عَيّاش بن أبي ربيعة المَخزومي أخي أبي جهل لأمّه، كان أسلم وقتَل بعدَ إسلامه رَجُلاً مُسلماً وهو لا يعلَم بإسلامه، وكان المَقتول الحارث بن يزيد بن أنسة[٢] العامري، قتله بالحَرّة بعدَ الهِجرة، وكان أحَد مَن رَدّه عن الهِجرة، وكان يُعذّب عَيّاشاً مع أبي جهل»[٣].

ورُوي عن عُروة بن الزُّبير أنّ حُذيفة بن اليَمان كان معَ رَسُول الله صلى الله عليه وآله في اُحُد، فأخطأ المُسلمون وظنّوا أن أباه اليَمان واحدٌ مِن الكُفّار، فأخذوه وضرَبوه بأسيافهم وحُذيفة يقول: إنّه أبي، فلم يفهَموا قوله إلّا بعدَ أن قتلوه، فقال حُذيفة: يغفِر الله لكُم، وهُو أرحم الرّاحمين، فلمّا سمَع الرّسُول صلى الله عليه وآله ذلك ازْداد وَقْع حُذيفة عنده. فنزلت الآية[٤].

وقيل: إنّ الآية نزلَتْ في أبي الدّرداء، ذلك أنّه كان في سَرِيّة، فعدَل إلىٰ شِعْبٍ لحاجةٍ له، فوجد رَجُلاً في غَنَمٍ له فحمَل عليه بالسيَف، فقال الرّجُل: لا إلٰهَ إلّا الله، فقتله وسَاق غَنَمه، ثمّ وجَد في نفسه شيئاً، فذكَر الواقِعة لرَسُول الله صلى الله عليه وآله، فقال صلى الله عليه وآله: «هلّا شقَقْتَ عن قلبه»، ونـدَم أبـو الدّرداء. فنزلَتْ الآية[٥].

في كفّارة قتل المؤمن خطأً

ثمّ بيّن الله حالَ الكفّارة والدِّية بقوله: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِناً﴾ صَغيراً أو كبيراً ﴿خَطَأً﴾ وبغير قَصْد ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ وعِتق نَسَمة ﴿مُؤْمِنَةٍ﴾ واجِب عليه، كَفّارة للقَتْل.

عن الصادق عليه السلام: «كُلّ العِتْق يجُوز فيه المولود، إلّا كفّارة القتل، فإنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ يعني بذلك: المُقرّة و[قد] بلغت الحِنْث»[٦].

عن الكاظم عليه السلام، كيف تُعرف المُؤمنة؟ قال: «علىٰ الفِطرة»[٧].

﴿وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ﴾ ومُؤداة ﴿إِلىٰ أَهْلِهِ﴾ واجبة عليه ﴿إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا﴾ عليه، ويعفوا عنها.

قيل: سُمّي العَفْو عن الدِّية صَدَقة حَثّاً عليه، وتَنْبيهاً علىٰ فَضْله. وفي الحديث: «كُلّ مَعروفٍ صَدَقة»[٨].

سُئل الصادق عليه السلام عن الخَطأ الذي فيه الدِّية والكَفّارة، هُو الرّجُل يضرِب الرّجَلَ ولا يتعمّد قَتْله؟

---

١. تفسير القمي ١: ١٤٧.

٢. في النسخة: الحارث بن يزيد أبو هنبشة، تصحيف، وهو الحارث بن يزيد بن أنسة، وقيل: أُنيسة، راجع: أُسد الغابة ١: ٣٥٣.

٣. مجمع البيان ٣: ١٣٨.

٤. تفسير الرازي ١٠: ٢٢٧.

٥. تفسير الرازي ١٠: ٢٢٧.

٦. تفسير العياشي ١: ١٠٦٣/٤٢٦، الكافي ٧: ١٥/٤٦٢، والمراد من بلوغها الحِنث: أي بلوغها مبلغ الرجال ومبلغ التكليف الشرعي والمعصية والطاعة. النهاية ١: ٤٤٩.

٧. تفسير العياشي ١: ١٠٦٤/٤٢٦، تفسير الصافي ١: ٤٤٧.

٨. تفسير أبي السعود ٢: ٢١٥.

قال: «نعم»، قيل: فإذا رَمىٰ شيئاً فأصاب رَجُلاً؟ قال: «ذلِك الخطأ الذي لا شكَ فيه، وعليه الكَفَارة والدِّية»[١].

﴿فَإِن كَانَ﴾ المقتول خطأ ﴿مِن قَوْمٍ﴾ كافرين ﴿عَدُوٍّ﴾ ومُحارب ﴿لَّكُمْ﴾ لا عَهْد بَيْنكم وبَيْنهم ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ لَم يعلَم القاتِل إيمانَه، لكَوْنه بَيْن الكُفّار، وفي دَار الحَرب، ولَم يُهاجر إلىٰ دَار الإسلام ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾.

عن الصادق عليه السلام، في رَجُلٍ مُسلم [كان] في أرض الشِّرْك، فقتله المُسلمون، ثمَ عَلِم به الإمام بعدُ؟ فقال: «يعْتق مَكانه رَقبةً مُؤمنةً، وذلك قول الله عزَ وجلَ: ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ﴾ الآية»[٢].

وفي رِوايةٍ: «وليسَ عليه الدِّية»[٣].

﴿وَإِن كَانَ﴾ المَقتول خطأ ﴿مِن قَوْمٍ﴾ كَفَرة، ولكِن كان ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ وعَهْد أكيد ﴿فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ﴾ ومُؤدّاة ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ ووَارِثه، واجِبة علىٰ القاتل ﴿وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ لا زِمٌ عليه كَفَارة لقَتْله؛ كما عن الصادق عليه السلام[٤].

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ ولَم يملُك الرَقبة، ولَم يتمكَن مِن شِرائها بما زاد عن نَفَقته ونَفَقة عِياله ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ﴾ هِلاليّين ﴿مُتَتَابِعَيْنِ﴾ ومُتواليين بدَلاً عن العِتْق المأمور به، وإنّما شرَعت هذه الكَفَارة لكَونها ﴿تَوْبَةً﴾ مَقبولة ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ مِن التَقصير في المُبالغة في الاحْتِياط ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بما في قُلوبكم مِن العَمْد وعدَمه ﴿حَكِيمًا﴾ في ما أمركم به في مَوضوع قَتل الخَطأ.

عن الصادق عليه السلام: «إنْ كان علىٰ رَجُلٍ صِيامُ شَهرين مُتتابعين فأفطر أو مَرض في الشَهر الأول، فإنّ عليه أن يُعيد الصِّيام، وإن صَام الشَّهر الأوّل وصَام مِن الشَهر الثَاني شيئاً، ثمَ عرَض له ما له فيه العُذر، فعَليه أن يقضي»[٥]. يعني ما بقي عليه.

وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً[٩٣]

ثمَ بالغ سُبحانه في التَهديد علىٰ قَتل المؤمن مُتعمّداً، بقوله: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا﴾ حالَ كَون القاتل ﴿مُّتَعَمِّدًا﴾ في قَتله قاصِداً له ﴿فَجَزَآؤُهُۥ﴾ الذي يستحِقّه بهذا القَتل عندَ الله ﴿جَهَنَّمُ﴾ فيدخُلها يومَ القِيامة حالَ كَونه ﴿خَٰلِدًا﴾ ودائماً ﴿فِيهَا﴾ حكَم الله بذلك ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أشدَ الغَضب

---

١. تفسير العياشي ١: ٤٢٨/١٠٧٣، تفسير الصافي ١: ٤٤٧.
٢. من لا يحضره الفقيه ٤: ٣٧٣/١١٠.
٣. تفسير العياشي ١: ٤٢٥/١٠٦١، تفسير الصافي ١: ٤٤٧.
٤. مجمع البيان ٣: ١٤٠.
٥. الكافي ٤: ٧/١٣٩، تفسير الصافي ١: ٤٤٧.

﴿وَلَعَنَهُ﴾ وأبعده مِن رَحمته ﴿وَأَعَدَّ﴾ وَهيّأ ﴿لَهُ﴾ في جهنّم ﴿عَذَاباً عَظِيماً﴾ لا يُقادَر قَدْرُه.

في ذكر قصّة ارتداد مقيس ولحوقه بالمشركين

رُوي أنّ مِقيَس بن صُبابة[1] الكِناني، كان قد أسلم هُو وأخوه هِشام[2]، فوَجد أخاه قتيلاً في بَني النجّار، فأتىٰ رَسُول الله ﷺ وذكَر القصة، فأرسل ﷺ معه الزبير بن العيا[3] الفِهري؛ وكان مِن أصحاب بَدْر، إلىٰ بني النجار يأمرهم بتَسليم القاتِل إلىٰ مِقْيس ليقتصّ مِنه إن عَلِموه، وبأداء الدِّية إن لَم يعلموا، فقالوا: سمعاً وطاعةً لله ورَسُوله، لا نعلَم له قاتلاً، ولكنّا نُؤدّي دِيته، فأتوه بمائة مِن الإبل، فانصرفا راجعين إلىٰ المدينة، حَتّىٰ إذا كانا ببعض الطريق أتىٰ الشّيطان مِقْيساً فوَسوس إليه فقال: أتقبل دِية أخيك فيكون مَسبّة[4] عليك، أُقتل هذا الفهري الذي معك فتكون نفسٌ مكان نَفس، وتبقىٰ الدِّية فضيلة، فرماه بصَخر فشدَخ رأسه فقتله، ثمّ ركَب بعيراً من الإبل وساق بقيّتها إلىٰ مكّة كافراً، وهُو يقول:

قَتلتُ بـه فِهراً وحمّلت عَقْلَه ... سَراةَ بني النَّجّارِ أصحاب قارعِ[5]

وأدركتُ ثأري واضطجعتُ مُوسّداً ... وكـنتُ إلىٰ الأوثـان أولُ راجـع

فنزلَتْ الآية. وهو الذي اسْتثناه رَسُول الله ﷺ يوم فتح مكّة مِمّن آمنه، فقُتل وهُو متعلّق بأستار الكَعْبة[6].

عن الصادق عليه السلام، أنّه سُئل عن المُؤمن يقتُل المُؤمن مُتعمّداً، أله التوبة؟ قال: «إن كان قتَله لإيمانه فلا تَوْبة له، وإن كان قتَله لغَضبٍ أو لشيءٍ مِن أشياء الدُّنيا، فإنّ تَوبته أن يُقاد مِنه، وإن لَم يكُن عَلِم به انْطلق إلىٰ أولياء المقتول فأقَرّ عندَهم بقَتْل صاحِبهم، فإنْ عَفَوا عنه فلَم يقتُلوه أعطاهم الدِّية، واعتقَ نَسَمة، وصَام شَهْرين مُتابعين، وأطعم ستّين مِسكيناً توبةً إلىٰ الله عزّ وجلّ»[7].

وعنه عليه السلام: «لا يزال المُؤمن في فُسْحة مِن دينه ما لَم يُصِبْ دَماً [حراماً]».

وقال: «لا يُوفّق قاتلُ المُؤمن مُتعمّداً للتّوبة»[8].

---

١. في تفسير أبي السعود: ضبابة.

٢. في النسخة: وولده هشام، تصحيف صوابه من تفسير أبي السعود، وراجع: تاريخ الطبري ٢: ٦٠٩، الكامل في التاريخ ٢: ٢٥٠.

٣. كذا في النسخة، وفي تفسير أبي السعود وروح البيان: الزبير بن عياض، ولم نجده في أصحاب بدر، وفي مجمع البيان ٣: ١٤١: قيس بن هلال، وراجع: بحار الأنوار ٢٢: ٢١.

٤. أي يكون عاراً عليك وسبباً للسِّباب.

٥. في تاريخ الطبري ٢: ٦٠٩ (أصحاب فارع) وفارع: حصن لبني النجار.

٦. تفسير أبي السعود ٢: ٢١٦، تفسير القرطبي ٥: ٣٣٣ مع أختلاف في كلمات الشعر.

٧. الكافي ٧: ٢/٢٧٦، تفسير الصافي ١: ٤٤٨.

٨. الكافي ٧: ٧/٢٧٢، تفسير الصافي ١: ٤٤٨.

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذٰلِكَ كُنتُم مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ ٱللهُ عَلَيكُم فَتَبَيَّنُوا إِنَّ ٱللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً[٩٤]

ثمّ أمر الله سُبحانه المُجاهدين بالتّثبُّت في القَتل، والاكتِفاء بظَاهر الإسلام في الكَفّ عنه بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ﴾ وسافرتُم ﴿فِي سَبِيلِ ٱللهِ﴾ ولجِهاد الكُفّار ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ وتثبّتوا واستكشِفوا حالَ مَن تُريدون قَتله، وميّزوا بين الكافر والمؤمن، حتّىٰ لا تقتُلوا مُؤمناً بغير حَقّ، وعليكم الاكتِفاء بظاهِر الحَال في الإيمان ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَامَ﴾ الذي هُو تحيّة المُسلمين وأمارة الإسلام، أو لمَنْ ألقىٰ إليكم الانقِياد والتّسليم ﴿لَسْتَ مُؤْمِناً﴾ وإنّما أظهرتَ الإسلام طلَباً للسّلامة وتحفُّظاً علىٰ نفسِك، بَل عامِلوه بظاهِر الحَال، ولاتتّهمُوه بالكُفر فتقتُلوه حالَ كَونكم بقَتْله ﴿تَبْتَغُونَ﴾ وتطلُبون اغتِنام أمواله التي تكون ﴿عَرَضَ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ومَتاع الدّار الفانية، والحُطام السّريع الزّوال، فإنْ أردتُم الغَنيمة ﴿فَعِندَ ٱللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ مِن أموال المُشركين تُغنيكم عن أموال المَقتولين المُظهرين للإسلام بتُهمة الكُفر وعدَم كَون إسلامهم عن صَميم القَلب، فإنّكم ﴿كَذٰلِكَ﴾ [كهؤلاء] المُظهرين للإسلام ﴿كُنتُم مِنْ قَبْلُ﴾ وفي بَدْو إسلامكم، لَم تُكن فيكم عَلامةٌ قطعيّة علىٰ صِدْق إيمانكم، وتحقُّق اليَقين بالعقائد الحَقّة في قُلوبكم ﴿فَمَنَّ ٱللهُ عَلَيْكُمْ﴾ بقَبول إسلامكم الظّاهِري، فحقَن به دِماءكم، وصَان به أموالكم مِن غير تَوْقيف علىٰ العِلْم بمُوافقة ما سُمِع مِن أفواهكم لِما في قُلوبكم.

ثمّ أكّد سُبحانه الأمر بالتّبيين[١] والتّثبُّت في شأن مَن يُريدون قَتْله، بقوله: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ ولا تعجَلوا في قَتْل أحدٍ حتّىٰ تُحرزوا كُفْره، ثمّ بالغ في ذلك بوَعْد العِقاب علىٰ تَرك التّبيين، بقوله: ﴿إِنَّ ٱللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ مِن التّبيين وعدَمه والطّاعة والعِصيان، ﴿خَبِيراً﴾ ومُطّلِعاً حَقّ الاطّلاع، فيُجازيكم عليه حَقّ الجزاء.

في ذكر قتل أُسامة رجلاً بظن الكفر

رُوي أنّ مِرْداس بن نَهيك ـ رَجُلٌ مِن أهل فدَك ـ أسلم ولَم يُسلِم مِن قومه غيرُه، فذهبتْ سَريّة الرّسُول إلىٰ قومه وأميرهم غالب بن فَضالة، فهرب القومُ وبقي مِرداس لثِقَته بإسلامه، فلمّا رأىٰ الخَيل ألجأ غَنمه إلىٰ عاقول[٢] مِن الجَبَل، فلمّا تلاحقوا وكبّروا كبّر ونزل وقال: لا إلٰهَ إلّا الله، محمّد رَسُول الله السّلام عليكم، فقتله أُسامة بن زيد

١. كذا، والظاهِر أنّ الصواب التّبيُّن، في المواضع الثلاثة.
٢. العاقول هنا: الأرض الوعرة، الكثيرة المعاطف.

وساقَ غَنَمَه، فأخبروا رَسُول الله ﷺ فوجَد وَجْداً شديداً، وقال: «قتلتُموه إرادةَ ما معَه»، ثمّ قرأ الآية علىٰ أُسامة، فقال أُسامة: يا رسول الله، اسْتغفِر لي، فقال: «وكيف وقد تَلا: لا إلٰهَ إلّا الله؟!»، قال أُسامة: فما زُلتُ أُعيدها حتّىٰ وَدِدْتُ أنّي لَم أكُن أسلمت إلّا يومئذٍ، ثمّ اسْتغفر لي وقال: «أعْتِق رقبة»[1].

وعن القُمّي ﵀: نزلتْ لمّا رجَع رَسُول الله ﷺ مِن غَزْوة خيبر، وبعث أُسامة بن زيد في خَيلٍ إلىٰ بعض [قرى] اليَهُود في ناحية فَدَك ليدعُوهم إلىٰ الإسلام، وكان رَجلٌ مِن اليَهُود يُدعىٰ مِرداس بن نَهيك الفَدكي في بعض القُرىٰ، فلمّا أحسّ بخَيل رَسُول الله ﷺ جمَع أهله وماله وصار في ناحية جبلٍ، وأقبل يقول: أشهدُ أن لا إلٰهَ إلّا الله، وأن محمّداً رَسُول الله، فمرّ به أُسامة بن زيد فطعَنه وقتله، فلما رجَع إلىٰ رَسُول الله ﷺ أخبره بذلك، فقال [له] رَسُول الله: [قتلت رجلاً شهد أن لا إله إلّا الله، وأني رَسُول الله؟! فقال: يا رسُول الله، إنّما قال تعوّذاً من القتل. فقال رسُول الله]: فلا شَقَقْتَ الغِطاء عن قلبه [و] لا ما قال بلِسانه قبلتَ، ولا ما كان في نفسه عَلِمَت»، فحلف أُسامة بعدَ ذلك أن لا يقتُل أحداً قال: أشهدُ أن لا إلٰهَ إلّا الله، وأنّ محمّداً رَسُولُ الله، فتخلّف عن أمير المؤمنين صَلواتُ الله عليه في حُروبه[2]، وأنزل الله في ذلك: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن أَلْقَىٰ إِلَيكُمُ السَّلَامَ﴾[3].

وقيل: إنّ القاتل مُحلِّم بن جَثّامة، لقِيه عامر بن الأضبط فحيّاه بتحيّة الإسلام، وكانت بيْن مُحَلِّم وبيْنه إحْنة[4] في الجاهليّة، فرماه بسَهم فقتَله، فغضِب رَسُول الله ﷺ وقال: «لا غفَر اللهُ لك»، فما مضَتْ به سَبعةُ أيامٍ حتّىٰ مات، فدفنوه، فلفَظَتْه الأرضُ ثلاث مرّات، فقال النبيّ ﷺ: «إنّ الأرض تقبَل مَن هُو شَرٌّ مِنه، ولكنّ الله أراد أن يُريكم عِظَم الذّنْب عندَه»، ثمّ أمر أن تلقىٰ عليه الحِجارة[5].

وقيل: إنّ المِقداد بن الأسود [قد] وقعَتْ له مِثْل واقِعة أُسامة، قال: فقلت: يا رَسُول الله، أرايتَ إنْ لقيتُ رَجُلاً مِن الكُفّار فقاتلني، فضرَب إحدىٰ يدَيّ بالسَّيف، ثمّ لاذ بشجرةٍ فقال: أسلمتُ لله تعالىٰ، أفأقتُله يا رَسُول الله بعدَ ذلك؟ فقال رَسُول الله ﷺ: «لا تقتله»، فقلتُ: يا رَسُول الله، إنّه قطع يَدي؟

---

١. تفسير الرازي ١١: ٣.

٢. وتلك حجة داحضة، لأن أمير المؤمنين ﵇ يدور مع الحقّ حيثما دار بنصّ الرسول ﷺ، فضلاً عن أن الرسول ﷺ قد أخبره بقتال الفئات الباغية من الناكثين وهم أصحاب الجمل، والقاسطين وهم أهل الشام، والمارقين وهم الخوارج، وقد نصّ الكتاب الكريم على قتال أهل البغي بقوله: ﴿فَقَاتِلُوا الَّتى تَبْغِى﴾. [الحجرات: ٩/٤٩] وكان رسُول الله ﷺ قد قال لعمار بن ياسر: «تقتلك الفئة الباغية» فقتله أصحاب معاوية في صفين. وكان أمير المؤمنين ﵇ راية الهدىٰ التي ميزت رجالات الأمّة، فبعضهم نصر الحق فكانوا شهداء وصديقين، وبعضهم نصر الباطل وقاتل الإمام ﵇ وناصبه العداء فكانوا ناكثين وقاسطين ومارقين، وبعضهم وقف على التلّ فكانوا مذبذبين، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.

٣. تفسير القمي ١: ١٤٨، تفسير الصافي ١: ٤٤٩.

٤. الإحنة: الحِقد والضِّغن.

٥. تفسير الرازي ١١: ٣.

فقال ﷺ: «لا تقتُله، فإنْ قتلتَهُ فإنّه بمَنزلتك بعدَ أن تقتُله، وأنت بمَنزلته قبلَ أن يقول كَلمتَه التي قال»[١].

أقول: لا مُنافاة بَين الرِّوايات، لجَواز نُزولها عندَ وُقوع جميعها، فكان كُلٌّ مِنهم زعَم أنّها نزلت في واقِعته.

لَا يَسْتَوِي ٱلْقَاعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ ٱللهُ ٱلْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلّاً وَعَدَ ٱللهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ ٱللهُ ٱلْمُجَاهِدِينَ عَلَى ٱلْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً * دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ ٱللهُ غَفُوراً رَحِيماً [٩٥و ٩٦].

ثمّ أنه تعالىٰ ـ بعدَ ما بين حُكم قَتْل المُؤمن في الجهاد خطأً، وحُكم وجُوب التَبيين[٢]، ووُجوب الاكتِفاء في إحراز الإيمان بالظّاهِر ـ بيّن أنّ الجِهاد مِن الواجبات الكِفائيّة، فيجُوز القُعود عنه مع قِيام مَن به الكِفاية، ولكِن غاية الفَضل والثّواب للقائمين به بقوله: ﴿**لَا يَسْتَوِي ٱلْقَاعِدُونَ**﴾ والمُتخلِّفون عن الجِهاد، حالَ كَونهم ﴿**مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ**﴾ وكَونهم ﴿**غَيْرُ أُولِي ٱلضَّرَرِ**﴾ مِن مَرضٍ، أوعمَىً، أو عرَجٍ، أو غيرها مِن الأعذار ﴿**وَٱلْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ**﴾ في القُرْب عندَ الله، والأجر في الآخرة وفيه إشعارٌ بجَواز القُعود عن الجِهاد، إذا كان القائمون به كافِين له، والتّرغيب في القِيام به.

رُوي أنّها نزلَتْ في كَعْب بن مالك مِن بني سَلمة، ومُرارة بن الربيع مِن بني عمرو بن عَوف، وهِلال بن أُميّة مِن بني واقف، تخلّفوا عن رَسُول الله ﷺ يوم تَبوك[٣].

ورُوي عن زَيد بن ثابت أنّه قال: كنتُ إلىٰ جَنْب رَسُول الله ﷺ، فغشيَتْهُ السَكينةُ، فوقعتْ فَخِذُه علىٰ فَخِذي حتّىٰ خَشيتُ أن ترُضّها، ثمّ سُرِّي عنه، وأُزيل عنه ما عرَض له مِن شِدّة الوَحْي، فقال: «اكتُبْ» فكتبتُ ﴿**لَا يَسْتَوِي ٱلْقَاعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ والمُجَاهِدُونَ**﴾»، فقال ابن [أمّ] مَكتوم[٤] وكان

---

١. تفسير الرازي ١١: ٣.　　٢. كذا، والظاهر أن الصحيح: التبيُّن.

٣. مجمع البيان ٣: ١٤٧، تفسير الصافي ١: ٤٤٩.

٤. وهو عمرو بن قيس بن زائدة بن الأصمّ القرشي العامري، وأُم مكتوم أُمّه، واسمها عاتكة بنت عبدالله، وهو خال أُمّ المؤمنين خديجة بنت خويلد عليها السلام، فإن أُمّها فاطمة بنت زائدة بن الأصم، وقد اختلف في اسمه فقيل: عبدالله، والأكثر عمرو، وكان النبيّ ﷺ يستخلفه علىٰ المدينة ليصلي بالنّاس، وكان ضرير البصر، شهد القادسية وهو أعمى، وقتل فيها سنة ٢٣ هـ. أُسد الغابة ٤: ١٢٧، الأعلام للزركلي ٥: ٨٣.

أعمىٰ: يا رَسُول الله، فكيف بمَن لا يستطيع الجِهاد مِن المُؤمنين؟ فغشيتْهُ السَّكينةُ كذلك، ثمّ سُرّي عنه فقال: «اكتبْ»: ﴿لَا يَسْتَوِى ٱلْقَاعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى ٱلضَّرَرِ...﴾، قال زيد: أنـزلها الله وَحْدها فألحقتُها[1].

أقول: فيه دَلالة علىٰ أنّ أولي الضَّرَر مُساوٍ للمُجاهدين.

ثمّ لَم يكتَفِ سُبحانه في تَرغيب المُجاهدين بذِكْر عدَم مُساواتهم للقاعدين، بَل صرّح بتَفْضيلهم علىٰ القاعدين بقوله: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَاعِدِينَ﴾ الأصِحّاء ﴿دَرَجَةً﴾ عظيمة مِن الأجر.

ثمّ أكّد جَواز القُعود عندَ قِيام مَن به الكِفاية بقوله: ﴿وَكُلًّا﴾ مِن القاعدين والمُجاهدين ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ﴾ بفَضله العاقبة أو المَثوبة ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ لحُسن عَقيدتهم، وخُلوص نِيّتهم، وحُضورهم لطاعة ربّهم، وإنّما التّفاوتُ بزِيادة العَمل المُوجبة لزِيادة الثّواب.

ثمّ أكّد فَضيلة المُجاهدين بقوله: ﴿وفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَاهِدِينَ عَلَى ٱلْقَاعِدِينَ﴾ الأصِحّاء ﴿أَجْراً عَظِيماً﴾ وثواباً جزيلاً. ثمّ فصّل الله الأجر العظيم والدّرجة المُبهمة بقوله: ﴿دَرَجَاتٍ﴾ رفيعة في الجنّة كائنة ﴿مِنْهُ﴾ تعالىٰ قيل: عدَدها سبعون، ما بَيْن كُلّ دَرَجتين عَدْو الفَرَس الجَواد المُضْمَر سَبعين خريفاً، وقيل: سبعمائة.

وُروي أنّ في الجنّة مائة دَرجة أعدّها الله للمُجاهدين في سَبيله، مابَيْن الدّرجتين كما بَيْن السّماء والأرض[2].

أقول: يُمكن أن يكون الاختِلاف لا خْتِلاف المُجاهدين في الإيمان، وخُلوص النِّيَّة.

﴿وَمَغْفِرَةً﴾ لِما يصدُر مِنهم مِن الزّلّات والخَطايا في مُدّة أعمارهم ﴿وَرَحْمَةً﴾ عظيمةً مِن الله لا تُوصف ببَيان.

ثمّ قرّر المغفرة والرّحمة بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُوراً﴾ للعَاصين ﴿رَحِيماً﴾ بالمُؤمنين، وأفضلهم المُجاهدون.

في إثبات أفضلية أمير المؤمنين عليه السلام وردّ الفخر القائل بأفضلية أبي بكر منه

ثمّ اعْلَم أنّ في الآية دَلالة واضحة علىٰ أنّ المُجاهد مِن حيثُ المُجاهدة أفضل مِن القاعد عنها، وإن كان القاعِد مِن جِهة الكمالات الأُخر المَعنويّة قد يكون أفضل، وعلىٰ هذا يجِب الحُكم بأفضليّة المُجاهد علىٰ القاعد، حتّىٰ يثبُت للقاعد جِهة فَضيلة مُكافئة لفضيلة المُجاهدة، أو راجحة عليها، وقد ثبتت الجِهة الرّاجحة لرَسُول

---

١. تفسير روح البيان ٢: ٢٦٥.

٢. تفسير روح البيان ٢: ٢٦٦.

الله ﷺ لوُضوح أنّ الكمال الذي أوجب استِحقاق مَنصِب الرِّسالة كمال لا يُكافئه شيءٌ. ولذا لا يُمكن أن يُقال بأفضليّة المُجاهد علىٰ رَسُول الله ﷺ وإن كان مِن القاعدين، ووجَب القول بأفضليّة المُجاهد علىٰ غيره ﷺ.

إذا تمهّد ذلك فنقول: لا شُبهة أنّ أمير المُؤمنين عليه السلام كان أفضل المُجاهدين، فيجِب أن يُحكم بأنّه أفضل مِن أبي بكر وأضرابه مِن القاعدين، كما استدلّ أصحابُنا رِضوان الله عليهم بهذه الآية عليها. واعتِراض الفخر الرازي عليه بلُزوم أفضليّة أمير المؤمنين علىٰ رَسُول الله ﷺ مِن الخُرفات التي لاينبغي صُدورها مِن ذي مُسْكةٍ لِما ذكَرنا.

وأمّا قوله: إنّ أبي بكر كان مُجاهداً في سبيل الله، فغيرُ ثابت، إنْ لَم يثبُت كَونه مِن الفارّين مِن الجِهاد في اُحُد[1].

وأمّا كُونه مُجاهداً بدَعْوة النّاس إلىٰ الإسلام، ولذا أسلم بدَعوته جَمعٌ مِن الصّحابة، كما قال المُعترض، فغيرُ مَلعومٍ أيضاً، لعدَم دَلالة دَليل قاطعٍ عليه، وعلىٰ تَقدير ثُبوته لَم تكُن دَعوتُه أكثر مِن دَعوة عليّ عليه السلام، وقد ثبَت بالرِّوايات المُسلّمة بيْن الخاصّة والعامّة أنّه المُراد مِن قوله: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾[2]. وليت شِعري مِن أين عَلِم هذا الرّجُل المُتعصّب مُبالغة أبي بكر في إسلام سائر النّاس!

وقولُه بأنّه أسلم بدَعوته عِدّة قليلة مِن الصّحابة، علىٰ تَقدير تَسْليمه، لا يدُلّ علىٰ مُبالغته في الدّعوة، وادّعائه أنّه صرَف ماله ونفسه في الذّبّ عن النبيّ، فدَعْوىٰ بِلا بُرهان، مع ثُبوت بُخْله بصَدَقة

---

١. لقد اتفقت كتب السيرة والتاريخ أنه لم يبق مع رسول الله ﷺ يوم اُحد عند هزيمة الناس إلّا أمير المؤمنين عليه السلام وأبو دجانة، وسهل بن حنيف، وقيل: عبدالله بن مسعود، وكان لأمير المؤمنين عليه السلام الفضل في ردّ الكتائب وقتل أصحاب الألوية من المشركين، ومن ثم في ثبات من ثبت من المسلمين، فنادت الملائكة بفضله: (لا سيف إلّا ذو الفقار، ولا فتىٰ إلّا علي) وتباهوا بعظيم منزلته في مواساة رسول الله ﷺ (راجع: تاريخ الطبري ٢: ٥١٤، ومجمع الزوائد ٦: ١١٤، وشرح بن أبي الحديد ١٣: ٢٦١ و١٤: ٢٥٠).

قال ابن عباس: لعلي عليه السلام أربع خصال ليست لأحدٍ... وعدّ منها صبره مع رسُول الله ﷺ يوم فرّ النّاس عنه في اُحد (راجع مستدرك الحاكم ٣: ١١١، الاستيعاب ٣: ٢٧، شرح ابن أبي الحديد ٤: ١١٦).

وفي حنين لم يبق مع رسُول الله ﷺ غير تسعة نفرٍ من بني هاشم، وكان علىٰ رأسهم أمير المؤمنين عليه السلام، وعاشرهم أيمن بن أم أيمن الذي استشهد فيها.

وفي خيبر بعث رسُول الله ﷺ أبا بكر بالراية إلىٰ خيبر فانهزم ولم يكن فتح، وبعث بعده عمر فرجع يجبّن أصحابه ويجبّنونه (تاريخ الطبري ٣: ١٢، مستدرك الحاكم ٣: ٣٧) فقال ﷺ: «لأعطينّ الراية غداً رجلاً يحبّ الله ورسوله، ويحبّه الله ورسوله، كراراً غيرفرار» فأعطاها أمير المؤمنين عليه السلام وكان الفتح علىٰ يديه (راجع: البداية والنهاية ٧: ٣٤٩، وأُسد الغابة ٤: ٢١، وحلية الأولياء ١: ٦٢).

وأخرج البخاري حديث الراية في الصحيح ج ٥ ص ٨٧، كتاب المناقب ـ باب مناقب علي عليه السلام حديث ١٩٧ وص٢٧٩ من نفس الجزء ـ كتاب المغازي ـ باب غزوة خيبر. وأخرجه مسلم في الصحيح ٤: ١٨٧١، كتاب فضائل الصحابة ـ باب فضائل علي عليه السلام.

٢. هود: ١٧/١١.

دِرْهَم قُدّام نَجوىٰ الرّسُول[١]، وغاية خَوفه علىٰ نفسه في الغار، وأمير المُؤمنين عليه السلام نائم في فِراش الرّسُول صلى الله عليه وآله.

وكيف أنّه كان يُقيم الدّلائل والبَيّنات علىٰ صِدْق النبيّ صلى الله عليه وآله، ويُزيل الشُّبُهات والضَّلالات عن القُلوب، معَ جَهْله بعدَ مُدّة مَديدة مِن إسلامه بمعنىٰ (الإبّ) في قوله تعالىٰ: ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾[٢]! ولَولا الإطْناب المُخِلّ في عِبارة هذا الرّجُل لنقلتُها حتّىٰ يُعلم أنّ العَصبيّة كيف أعمته حتّىٰ قال بأفضليّة أبي بكر مِن أمير المؤمنين عليه السلام، مع كَون بُطلانها أظهر مِن الشّمس في رائعة[٣] النّهار.

إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ ٱلْمَلَائِكَةُ ظَالِمِى أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً[٩٧]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ إيجاب الهِجرة بقوله: ﴿حَتّىٰ يُهاجِرُوا فِى سَبِيلِ اللهِ﴾، وحُكْمه بقَتل مَن لَم يُهاجر بقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوا فَخُذوهُم واقتُلُوهُم﴾[٤] وبَيان أحكام القِتال، شرَع في تَهْديد غير المُهاجرين بعَذاب الآخرة بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ﴾ وتقبِض أرواحهم ﴿ٱلْمَلَائِكَةُ﴾ المُوكَلون علىٰ قَبض الأرواح، حالَ كَونهم ﴿ظَالِمِى أَنْفُسِهِمْ﴾ بتَرْك الهِجرة، وتعلُّم أحكام الإسلام والعمَل بها، والقِيام بالجِهاد، وبالرِّضا بمُجاورة المُشركين.

﴿قَالُوا﴾ سألت المَلائكة المتوفّين[٥] تقريراً لهم: إنكم ﴿فِيمَ﴾ وفي أيّ حال ﴿كُنْتُمْ﴾ مِن أُمور دِينكم؟ ولِمَ تركتُم الجِهاد والعَمَل بأحكام الإسلام؟ ﴿قَالُوا﴾ لهم اعتِذاراً عن تقصيرهم في القِيام بالوَظائف الدِّينيّة: إنّا ﴿كُنَّا﴾ بعدَ إسلامنا ﴿مُسْتَضْعَفِينَ﴾ مُستذلّين عندَ المُشركين، مَقهورين لهم،عاجزين عن العمَل بشَرْع محمد صلى الله عليه وآله ﴿فِى﴾ هذه ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ التي تكون دَار الشِّرْك والكُفْر.

فردَ عليهم المَلائكة و﴿قَالُوا﴾ في جَوابهم تقريراً أيضاً: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللهِ وَاسِعَةً﴾ وَمَمْلكته عريضة ﴿فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ وتنتقلوا إلىٰ قُطْرٍ آخر مِن أقطارها يسكُنه المُسلمون، حتّىٰ تتمكّنوا مِن إقامة دِينكم، والعمَل بوَظائفكم، ولا يمنعكُم المُشركون عنها، كما فعَله مَنْ هاجر إلىٰ المدينة أو

---

١. لما نزلت آية النجوى (المجادلة: ١٢/٥٨) لم يعمل بها أحدٌ من الصحابة إلّا أمير المؤمنين علي عليه السلام، راجع: تفسير الطبري ٢٨: ١٤، سنن الترمذي ٥: ٣٣٠٠/٤٠٦، الخصائص للنسائي: ح١٤٦، مستدرك الحاكم ٢: ٤٨١.

٢. الدر المنثور ٨: ٤٢١، والآية من سورة عبس: ٣١/٨٠.

٣. في الأصل: رابعة، تصحيف.

٤. النساء: ٨٩/٤.

٥. في النسخة: المتوفون عنهم.

الحبَشة، فأنتم بهوىٰ أنفسكم معَ قُدرتكم علىٰ الهِجرة، بقيتُم في دَار الشِّرْك وأرض الكُفر.

فبعدَ إتمام الحُجَّة عليهم أو عذَهم بقوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ الَّذِين تعمَّدوا فِي تَرك الهِجرة، وقصَروا في تعلُّم الدِّين والعمَل بالأحكام ﴿مَأْوَاهُمْ﴾ ومَنزلتهم ﴿جَهَنَّمُ﴾ فِي الآخرة، كما كان مأواهم دَار الشِّرْك في الدُّنيا، ومَصيرُهم ومُنقلبهم النَّار ﴿وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾ ومُنقلباً لهم.

قيل: إنّ جمعاً مِن المُسلمين لَم يُهاجروا مِن مكّة إلىٰ المدينة، ثمّ خرَجوا معَ المُشركين إلىٰ بَدْر فقُتلوا فيها، فضرَبتْ المَلائكة وُجُوههم وأدبارهم، وقالوا لهم ما قالوا[1].

وعن الباقر عليه السلام: «هُم قيس بن الفاكة بن المُغيرة، والحارث بن زمعة بن الأسود، وقيس بن الوليد بن المُغيرة، وأبو العاص بن المُنبّه بن الحجاج، وعليّ بن أُمية بن خلف»[2].

وعن القُمّي رحمه الله: نزلَتْ في مَن اعتزل أمير المؤمنين عليه السلام ولَم يُقاتلوا معه، فقالت الملائكةُ لهم عندَ الموت: ﴿فيمَ كُنتُم﴾؟ قالوا: كُنّا مُستضعفين في الأرض، أي لَم نعلَم معَ مَن الحَقّ، فقال الله: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ أي دِين الله وكِتابه واسِع، فتنظُروا فيه[3].

أقول: هذه الرِّواية تأويل، والسّابقة تَنزيل.

عن النبيّ صلى الله عليه وآله: «مَن فَرّ بدِينه مِن أرضٍ إلىٰ أرض، وإن كان شِبراً مِن الأرض، وجَبتْ له الجنّة»[4].

وفي (نهج البلاغة)، قال: «لا يقَع اسمُ الاسْتِضعاف علىٰ مَن بلَغتْهُ الحُجّة فسمعَتْها أُذُنُه، ووَعاها قلبُه»[5].

وعن الكاظم عليه السلام أنّه سُئل عن الضُّعفاء؟ فكتب: «المُستضعف مَن لَم تُرفع [إليه] حُجّة، ولَم يعرِف الاخْتِلاف، فإذا عرَف الاختِلاف فليسَ بمُستضعف»[6].

إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَاءِ وَٱلْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً [٩٨]

ثمّ استثنىٰ الله تعالىٰ مِن الوَعيد غير القادرين علىٰ الهِجرة بقوله: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ والمَقهُورين في أيدي الكُفّار ﴿مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَاءِ وَٱلْوِلْدَانِ﴾ الَّذِين ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾ ولا يتمكّنون تدبيراً للخُروج مِن بَلَد الكُفر، ولا يملِكُون نَفَقةً للسَفر، أو لا يقدِرون علىٰ حَركةٍ للمَرض ﴿وَلَا

١. تفسير أبي السعود ٢: ٢٢٣، تفسير روح البيان ٢: ٢٦٩.
٢. مجمع البيان ٣: ١٥٠، تفسير الصافي ١: ٤٥٣.
٣. تفسير القمي ١: ١٤٩، تفسير الصافي ١: ٤٥٣.
٤. تفسير أبي السعود ٢: ٢٢٣، تفسير الصافي ١: ٤٥٤.
٥. نهج البلاغة: ١٨٩/٢٨٠، تفسير الصافي ١: ٤٥٣.
٦. الكافي ٢: ١١/٢٩٩، تفسير الصافي ١: ٤٥٤.

يَهْتَدُونَ سَبِيلاً﴾ ولا يعرِفون طريقاً.

في معنى المستضعف

رُوي أنه بعث النبيّ ﷺ بهذه الآية إلىٰ مُسلمي مكّة، فقال جُندُب بن ضَمْرة[1] لبنيه: احمِلوني فإنّي لستُ مِن المُستضعفين، ولا إنّي لا أهتدي الطّريق، والله لا أبيت اللّيلة بمكّة، فحمَلوه علىٰ سَريرٍ مُتوجهاً إلىٰ المدينة، وكان شيخاً كبيراً، فمات في الطريق[2].

قيل: إن الاسْتِثناء مُنقطع، لعدَم دُخول المُستضعفين في **﴿ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾**[3].

وقيل: إنّ ضَمّ الوِلْدان إلىٰ الرِّجال والنِّساء، معَ عَدم كَونهم مُكلّفين، للمُبالغة في إيجاب الهِجرة، أو للإشعار بأنّه يجِب علىٰ أوليائهم أن يُهاجروا بهم[4].

عن الباقر عليه السلام أنّه سُئل عن المُستضعفين؟ فقال: «البَلْهاء في خِدْرها، والخادمة تقول لها: صَلّي فتُصلّي، لا تدري إلّا ما قُلتَ لها، والجَليب الذي لا يدري إلّا ما قُلتَ له، والكبير الفاني[5]، والصغير»[6].

قيل: الجَليب: الذي يُجلب مِن بَلَدٍ إلىٰ آخر[7].

وعنه عليه السلام أنّه سُئل مَن هُم؟ قال: «قال نساؤكم وأولاكم» ثمّ قال: «أرأيت أمّ أيمن؟ فإني أشهدُ أنّها مِن أهل الجنّة، وما كانت تعرِف ما أنتُم عليه»[8].

وعنه عليه السلام: «هُو الذي لا يستطيع حِيلةً يدفَع بها عنه الكُفر، ولا يهتدي سبيلاً إلىٰ الإيمان، لا يستطيع أن يُؤمن ولا يكفُر» قال: «الصِّبْيان، ومَن كان مِن الرِّجال والنِّساء على مثل عُقول الصِّبْيان»[9].

فَأُولَٰئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوّاً غَفُوراً[٩٩]

﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ المُستضعفون **﴿عَسَى ٱللَّهُ﴾** ويُرجىٰ مِنه **﴿أَنْ يَعْفُوَ﴾** ويصفَح **﴿عَنْهُمْ﴾** وفي التّعبير عن عدَم استِحقاقهم العُقوبة بالعَفو عنهم، إشارةٌ إلىٰ مَبغوضيّة عدَم الهِجرة في نفسه، وإن كانوا مَعذورين فيه.

ثمّ قرّر سُبحانه وتعالىٰ العَفو عنهم بقوله: **﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوّاً﴾** وصَفوحاً عن المَعاصي **﴿غَفُوراً﴾** وستّاراً للذُّنوب.

وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن

---

١. في النسخة: جندب بن مغيرة، تصحيف، أُنظر: أسد الغابة ١: ٣٠٣.
٢. تفسير الرازي ١١: ١٣.
٣. النساء: ٩٧/٤.
٤. تفسير أبي السعود ٢: ٢٢٣.
٥. زاد في تفسير العياشي: والصبي.
٦. تفسير العياشي ١: ١٠٩٥/٤٣٥، تفسير الصافي ١: ٤٥٤.
٧. تفسير الصافي ١: ٤٥٥.
٨. الكافي ٢: ٦/٢٩٨، تفسير الصافي ١: ٤٥٤.
٩. الكافي ٢: ٣/٢٩٧، تفسير الصافي ١: ٤٥٤.

بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى ٱللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى ٱللهِ وَكَانَ ٱللهُ غَفُوراً رَحِيماً[١٠٠]

ثمّ بالغ في التّرغيب إلىٰ الهجرة بقوله: ﴿**وَمَن يُهَاجِرْ**﴾ مِن دَار الشِّرْك إلىٰ دَار الإسلام ﴿ **فِى سَبِيلِ ٱللهِ**﴾ ولطَلَب مَرضاته، وحِفظ دِينه ﴿**يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَاغَماً**﴾ ومنازل كثيرة النِّعْمة والرّاحة، بحيثُ يُوجب رَغْم أنف الأعداء، ويكون ﴿**كَثِيراً**﴾ يظفَر بها بسُهولة ﴿**وَ**﴾ يجِد ﴿**سَعَةً**﴾ في الرِّزق وإظهار الدِّين.

ولمّا كان مَجال توهُّم أنّ فائدة الهِجرة فيما إذا بلَغ المَقصد، دُون ما إذا مات في الطريق، كجُندَب بن ضَمرة[1]، دفَعه الله بقوله: ﴿**وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ**﴾ حالَ كَونه ﴿**مُهَاجِراً**﴾ ومُفارقاً وَطنه وعَشيرته، مُتوجِّهاً ﴿**إِلَىٰ**﴾ طاعة ﴿**ٱللهِ**﴾ وحدَه، ﴿**وَ**﴾ خِدمة ﴿**رَسُولِهِ**﴾ أو بلَد يتمكَّن فيه مِن القِيام بوَظائف دِينه ﴿**ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ**﴾ في الطَّريق ﴿**فَقَدْ وَقَعَ**﴾ وثبَت ﴿**أَجْرُهُ**﴾ وثَوابه ﴿**عَلَىٰ ٱللهِ**﴾.

ثمّ قرّر الوَعْد بقوله: ﴿**وَكَانَ ٱللهُ غَفُوراً**﴾ لِمَا سبَق مِن التّهاوُن في الهِجرة إلىٰ آن خُروجه ﴿**رَحِيماً**﴾ بإكمال ثواب هِجرته.

في هجرة جُنْدُب بن ضَمْرة من مكة

رُوي أنّ جُندَب بن ضَمرة لمّا أشرف علىٰ الموت في التّنعيم[2]، أخذ يَصفِق بيَمينه علىٰ شِماله، ثمّ قال: اللّهمّ هذه لك، وهذه لرَسُولك، اُبايعُك علىٰ ما بايعَك عليه رَسُولك. فمات حميداً، فلمّا بلَغ خبرُه أصحاب رَسُول الله ﷺ قالوا: لَو تُوفّي في المدينة لكان أتمّ أجراً. وقال المُشركون وهُم يضحكون: ما أدرك هذا ما طلَب، فأنزل الله هذه الآية[3].

عن محمّد بن أبي عُمير، قال: وجّه زُرارة بن أعين ابنَه عبيداً[4] إلىٰ المدينة يستخبر خَبر أبي الحسن مُوسىٰ بن جعفر عليهما السلام، وعبدالله[5]، فمات قبلَ أن يرجِع إليه عبيد، قال ابن أبي عُمير: حدّثني محمّد بن حكيم، قال: ذكرتُ لأبي الحسن عليه السلام توجُّه عبيد إلىٰ المدينة فقال: «إنّي لأرجو أن يكون زُرارة مِمّن

---

١. تقدّم ذكره في تفسير الآية (٩٨) من هذه السورة.

٢. التّنعيم: موضع علىٰ فرسخين من مكة وقيل: علىٰ أربعة.

٣. تفسير روح البيان ٢: ٢٧١.

٤. في النسخة: عبيدالله، في جميع المواضع، تصحيف، انظر: رجال الكشي: ١٥٥/٢٥٥.

٥. هو عبدالله بن جعفر، المعروف بالأفطح، وقد ادّعى الامامة بعد أبيه الصادق عليه السلام، فهجرته الشيعة بعد أن امتحنوه فلم يروا فيه مواصفات الامامة كالعصمة والعلم والدلائل وغيرها، وبعد أن تحققوا من النصّ على الامام موسى الكاظم عليه السلام بعد أبيه الصادق عليه السلام.

قال الله: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى ٱللهِ وَرَسُولِهِ﴾ الآية»[١].

وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ ٱلصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ ٱلْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوّاً مُبِيناً[١٠١]

ثمّ لمّا كانت الهِجرة مُستلزمةً للسّفر أو الخوف، بيّن الله حُكْم الصّلاة فيهما بقوله: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ﴾ وسافرتم ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ للهِجرة أو لغيرها مِن الأغراض المُحلّلة ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ وحَرَج في ﴿أَن تَقْصُرُوا مِنَ ٱلصَّلَاةِ﴾ بتَنْصيف رُباعيّاتها، وتَرك نَوافل ما قصر مِنها، وكذا ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ويلقَوكم بالمَكروه، فلا جُناح عليكم في التّقصير في الصّلاة.

وإنّما عبّر سُبحانه عن وجُوب التّقصير بنَفي الجُناح، لدَفع توهُّم النّاس فيه، حيثُ إنّ الأذهان كانت مألوفة بالإتمام، كما عبّر عن وجُوب السّعي[٢] به لذلك.

وإنّما ذكَرنا (وكذا إن خِفتم)[٣] لثُبوت كَون كُلٍّ مِن السّفر والخَوف عِلّةً مُستقلّة لوُجوب التّقصير، وعدَم اشْتراط عِلّيّة كُلٍّ [مِنهما] بوُجود الآخر.

وقيل: إنّ اشْتِراط القَصْر في السّفَر بالخَوف مَبنِيٌّ علىٰ الغالِب مِن أسفار النبيّ ﷺ، حيثُ لَم يكُن في الغالب خالياً عن الخَوف، فلا مَفهوم للشّرط هُنا.

والحَقّ أنّ ظاهِر الآية تَعْليق القَصْر علىٰ وجُود الخَوف الدّالّ علىٰ انْتِفائه عند انْتفائه، إلّا أنّه ثبَت بالنّصّ والفَتوىٰ عدَم إرادة التّعليق، وكَون كُلٍّ مِن السّفر والخَوف سَبباً مُستقلّاً له[٤].

في صلاة السفر

عن زُرارة، ومحمّد بن مُسلم قالا: قُلنا لأبي جعفر عليه السلام: ما تقولُ في الصّلاة في السّفر، كيف هي، وكَم هي؟ فقال: «إنّ الله يقول: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ ٱلصَّلَاةِ﴾ فصار التّقصير[٥] واجباً كوجُوب التّمام في الحَضَر».

قالا: قُلنا له: قال الله تعالىٰ: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾، ولَم يقُل (افعلوا)، فكيف أوجب ذلك كما أوجب التّمام في الحَضَر؟ فقال عليه السلام: «أوَ ليس [قد] قال الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ ٱللهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾[٦]، ألا ترَون أنّ الطّواف بهما واجبٌ

---

١. تفسير العياشي ١: ١٠٩٧/٤٣٥، تفسير الصافي ١: ٤٥٥.

٢. كذا، والصواب: وجوب الطواف، وذلك في الآية (١٥٨) من سورة البقرة، راجع: تفسير أبي السعود ٢: ٢٢٥، وتفسير روح البيان ٢: ٢٧٣، والحديث الآتي لاحقاً عن أبي جعفر عليه السلام.

٣. هذه إشارة إلى عبارة المصنف المتقدمة آنفاً في تفسير الآية.

٤. راجع كنز العرفان ١: ٢/١٨٥.

٥. زاد في تفسير العياشي: في السفر.

٦. البقرة: ١٥٨/٢.

مَفروض، لأنّ الله عزّ وجلّ ذَكَره في كِتابه، وصنَعه رَسُول الله ﷺ، وكذلك التَقصير في السَفر شيءٌ صنَعه النبيّ ﷺ وذكَره الله في كِتابه».

قالا: قُلنا له: فمَن صَلّىٰ في السَفر أربعاً، أيُعيد أم لا؟ قال: «إن كان [قد] قُرِئت عليه آية التَقصير وفسّرت له وصلّىٰ أربعاً أعاد، وإن لَم يكُن قُرِئت عليه، ولَم يعلَمها فلا إعادة عليه، والصَلاة كُلّها في السَفر الفريضة ركعتان كُلّ صَلاة، إلّا المَغرب فإنّها ثلاث ليس فيها تَقصير، وتركها رَسُول الله ﷺ في السَفر والحَضَر ثلاث ركعات»[1].

وزاد في (الفقيه): «وقد سافر رَسُول الله ﷺ إلىٰ ذي خُشُب، وهِي مَسيرة يوم مِن المدينة، يكون إليها بَريدان، أربعة وعشرون ميلاً، فقصّر وأفطر، فصار سُنّة، وقد سمّىٰ رَسُول الله ﷺ قوماً صاموا حينَ أفطر العُصاة، قال: فهُم العُصاة إلىٰ يوم القِيامة، وإنّا لنعرِف أبناءهم وأبناء أبنائهم إلىٰ يوم القيامة»[2].

وعن زُرارة، عن أبي جعفر عليه السلام، [قال: قلتُ له:] صَلاة الخَوف وصَلاة السَفر تُقصران جميعاً؟ قال: «نعَم، وصَلاة الخَوف أحَقُّ أن تُقصَر مِن صَلاة السَفر؛ لأنّ فيها خَوفاً»[3].

وعن أبي عبدالله عليه السلام، في صَلاة الخَوف، فقال: «هذا تقصيرٌ ثانٍ، وهُو أن يرُدّ الرَجُل الرَكعتين إلىٰ الرَكعة»[4].

وفي رِوايةٍ: قال في الرَكعتين: «تنقُص مِنهما واحدة»[5].

وقال بعضٌ: إنّ رَدّ الرَكعتين إلىٰ رَكعة يُراد به رَدّ الأربع إلىٰ رَكعتين[6].

وعن الرضا عليه السلام، في روايةٍ: «التَقصير في ثَمانية فراسِخ وما زاد، وإذا قصَرتَ أفطرتَ»[7].

وعن زُرارة: قد سألت أبا عبدالله عليه السلام عن التَقصير، فقال: «بَريد ذاهب وبَريد جائي - إلىٰ أن قال: - إنّما فعل ذلك لأنّه إذا رجَع كان سفره بَريدين، ثمانية فراسخ»[8].

في صلاة الخوف

ثمّ بيّن سُبحانه المَوقعيّة للخَوف مِن الكُفّار، بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ﴾ مِن سابق الزَمان وقَديم الأيام ﴿عَدُواً مُبِيناً﴾ وخَصماً ظاهِراً، والآن زادت عَداوتهم فينتهزون الفُرصة عليكم، فلِذا أمركم الله بتَخفيف الصَلاة، لتكونوا مِنهم علىٰ حذر.

---

١. تفسير العياشي ١: ١٠٩٨/٤٣٦، تفسير الصافي ١: ٤٥٥.
٢. من لا يحضره الفقيه ١: ١٢٦٦/٢٧٨، وفيه: إلىٰ يومنا هذا.
٣. من لا يحضره الفقيه ١: ١٣٤٢/٢٩٤.
٤. من لا يحضره الفقيه ١: ١٣٤٣/٢٩٥.
٥. الكافي ٣: ٤/٤٥٨، تفسير الصافي ١: ٤٥٦.
٦. وسائل الشيعة ٨: ٤٣٤/ذيل الحديث ٤.
٧. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١/١٢٣.
٨. من لا يحضره الفقيه ١: ١٣٠٤/٢٨٧، عن الباقر عليه السلام.

وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُم مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِن مَطَرٍ أَوْ كُنتُم مَرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً[١٠٢]

ثمَ بيّن الله سُبحانه كَيفيّة صَلاة الخَوف بقوله: ﴿وَإِذَا كُنْتَ﴾ معَ المُؤمنين ومُقيماً ﴿فِيهِمْ﴾ فأرادوا أن تُصلّي بهم ﴿فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَاةَ﴾ جَماعةً، وكان العَدُوّ في مُقابلكم، فاجعَلْ أصحابك طائفتين، فإذا شرَعت في الصّلاة ﴿فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُم﴾ خَلفك يُصلّون ﴿مَعَكَ﴾ والطّائفة الأُخرىٰ يحرُسونكم مِن العَدُوّ ﴿وَ﴾ المُصلّون ﴿لْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ﴾ ويستصحِبوا آلات دِفاعهم ﴿فَإِذَا سَجَدُوا﴾ معَك قاموا وانفردوا، وصلّوا ركعة أُخرىٰ وسَلّموا ﴿فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ﴾ ووقفوا تِجاه العَدُوّ لحِراستكم ﴿وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ﴾ الّذِين كانوا بإزاء العَدُوّ و﴿لَم يُصَلُّوا﴾ بعدُ ﴿فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ﴾ جَماعةً، ﴿وَ﴾ لكِن ﴿لْيَأْخُذُوا﴾ ألبتّة ﴿حِذْرَهُمْ﴾ وليُراعوا غاية تَيقُّظهم مِن العَدُوّ، ﴿وَ﴾ كذا ﴿أَسْلِحَتَهُمْ﴾ وآلات حربهم.

ثمَ علّل إيجاب أخذ الحذر والسّلاح بقوله: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وتمنّوا أنكم ﴿لَوْ تَغْفُلُونَ﴾ وتبعُدون ﴿عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ﴾ أن ينالوا مِنكم غِرّةً في صَلاتكم ﴿فَيَمِيلُونَ﴾ حينئذٍ ﴿عَلَيْكُم مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾ ويحمِلون عليكم حَملةً شديدة.

وإنّما اقتصر سُبحانه في الطّائفة الأُولىٰ بإيجاب أخذ الأسلِحة، وضَمّ في الطّائفة الثّانية إليه أخذ الحذر؛ لأنّ الكُفّار لا يلتفتون غالباً في أوّل الصّلاة إلىٰ أن المُسلمين مَشغولون بها، فلا يحتاجون إلىٰ شِدّة الاحتِراز عنهم، بخِلاف الرّكعة الثّانية فإنّهم بعدَ الرّكوع والسُّجود يعلَمون بكَوْنهم في الصّلاة، فلابُدّ مِن شِدّة التّحذُّر والتيقُّظ.

ثمَ رخّص سُبحانه في وَضع الأسلِحة إذا كان في أخذها حَرَج، بقوله: ﴿وَلَا جُنَاحَ﴾ ولا بأس ﴿عَلَيْكُمْ﴾ أيُّها المُصلّون الخائفون مِن العَدُوّ ﴿إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى﴾ وكُلْفة في أخذ الأسلِحة لِثقْلها الحاصل ﴿مِن﴾ بَلَل ﴿مَطَرٍ﴾ شديد ﴿أَوْ كُنتُم مَرْضَىٰ﴾ وضعُفتم عن حَمْلها في ﴿أَن تَضَعُوا﴾ عنكم ﴿أَسْلِحَتَكُمْ﴾ في حالِ الصّلاة ـ ويلحَق بالحَالتين كُلّ حالةٍ يكون في حَمْلها مَشقّة ـ ﴿وَ﴾ لكِن ﴿خُذُوا﴾ في تِلك الحالة ﴿حِذْرَكُمْ﴾ والزَموا تيقُّظكم لمَكْرهم، أشدّ التيقُّظ كَيْلا يهجُم

عليكم العَدُوّ وأنتم في الصَّلاة.

ثمّ لمّا كان في إيجاب الحَذَر مَجال توهُّم القُوّة والشُّوكة للكُفّار، دفَعه الله تعالىٰ بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ﴾ وهَيّأ ﴿لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً﴾ مِن القَتل والأسر والخِزي في الدنيا، ومِن النّار في الآخرة، ويكون ذلك العذاب ﴿مُهِيناً﴾ ومُذلّاً لهم لتكبُّرهم عن الانقِياد لله وطاعة الرّسُول. وفيه بِشارة للمُؤمنين بنُصْرتهم، وخِذلان الكُفّار علىٰ أيّ حال.

في كيفية صلاة الخوف وأنواعها

عن القُمّي ﷺ: نزلَتْ لمّا خَرج رَسُول الله ﷺ إلىٰ الحُدَيبية يُريد مكّة، فلمّا وقع الخَبر إلىٰ قُريش بعثوا خالد بن الوليد في مائتي فارس يستقبِل رَسُول الله ﷺ، فكان يُعارض رَسُول الله ﷺ[1] علىٰ الجِبال، فكان في بعض الطَّريق وحضرت صَلاة الظُّهر فأذّن بِلال وصلّىٰ رَسُول الله ﷺ بالنّاس، فقال خالد بن الوليد: لو كُنّا حمَلنا عليهم وهُم في الصَّلاة أصبناهم، فإنّهم لا يقطعون الصَّلاة، ولكن يجيء لهم الآن صلاةٌ أُخرىٰ هي أحبّ إليهم مِن ضِياء أبصارهم، فإذا دَخلوا فيها حمَلنا عليهم، فنزل جَبْرئيل بصَلاة الخوف بهذه الآية، ففرق رَسُول الله ﷺ أصحابه فِرقتين؛ فوقف بعضُهم تِجاه العَدُوّ وقد أخذوا سِلاحهم، وفِرقة صلّوا مع رَسُول الله قياماً[2]، ومرّوا فوقفوا موَاقف أصحابهم، وجاء أُولئك الّذِين لَم يُصلّوا فصلّىٰ بهم رَسُول الله ﷺ الرّكعة الثانية ولهم الأولىٰ، وقعد رَسُول الله، وقام أصحابُه فصلّوا هُم الرّكعة الثانية، وسلّم عليهم[3].

وعن الصادق ﷺ[4]: «أنّها نزلَتْ في غَزوة ذاتِ الرِّقاع صَلاة الخَوف، ففرّق أصحابه فِرقتين؛ أقام فِرقة بإزاء العَدُوّ، وفِرقة خَلفه، فكبّر وكبّروا، وقرأ وأنصتوا، وركع وركعوا، وسجَد وسجَدوا، ثمّ استمرّ[5] رَسُول الله ﷺ قائماً، وصلّوا لأنفسهم رَكعة، ثمّ سلّم بعضُهم على بعض، ثمّ خرَجوا إلىٰ أصحابهم وقاموا بإزاء العَدُوّ، وجاء أصحابهم فقاموا خلف رَسُول الله، فصلّىٰ بهم رَكعة، ثمّ تشهّد وسلّم عليهم، فقاموا وصلّوا لأنفسهم رَكعة، ثمّ سلّم بعضُهم علىٰ بعض»[6].

وعنه ﷺ أنّه سُئل عن صَلاة الخوف، قال: «يقوم الإمام وتجيء طائفةٌ مِن أصحابه فيقومون خَلفه، وتقوم طائفة بإزاء العَدُوّ، فيُصلّي بهم الإمام رَكعة ثمّ يقوم ويقومون [معه] فيمثُل قائماً، ويُصلّون هُم الرّكعة الثّانية، ثمّ يسلّم بعضُهم علىٰ بعض، ثمّ ينصرِفون فيقومون في مَقام أصحابهم، ويجيء الآخرون فيقومون خَلف الإمام، فيُصلّي بهم الرّكعة الثّانية، ثمّ يجلِس الإمام، فيقومون هُم فيُصلّون

---

١. (فكان ... رسول الله ﷺ) ليس في المصدر. ٢. في النسخة: قائماً.
٣. تفسير القمي ١: ١٥٠، تفسير الصافي ١: ٤٥٧. ٤. في النسخة: ابن عَباس ﷺ.
٥. في الكافي: استتم. ٦. الكافي ٣: ٢/٤٥٦، تفسير الصافي ١: ٤٥٧.

رَكعة اُخرىٰ، ثمّ يسلِّم عليهم ويتفرّقون بتَسْليمه».

قال: «وفي المَغرب مِثْلُ ذلك، يقوم الإمام وتجيء طائفة فيقومون خلفه، ثمّ يُصلِّي بهم رَكعة، ثمّ يقوم ويقومون، فيمثُل الإمام قائماً، فيُصلّون رَكعتين فيتشهّدون، ويُسلّم بعضُهم علىٰ بعضٍ، ثمّ ينصرفون فيقومون في مَوقف أصحابهم، ويجيء الآخرون ويقومون موقف أصحابهم[١] خَلف الإمام، فيُصلّي بهم رَكعة يقرأ فيها، ثمّ يجلس فيتشهّد، ثمّ يقُوم ويقومون معه ويُصلِّي بهم رَكعة اُخرىٰ ثمّ يجلِس، ويقومون هُم فيُتمّون رَكعة اُخرى، ثمّ يُسلّم عليهم»[٢].

أقول: حال الخُوف إن كان بحيثُ لا يُمكِن معَه الاسْتِقرار وإيقاع الأفعال، كحال المُسايَفة[٣] والمعانقة صلّىٰ النّاس فُرادىٰ بحَسَب إمكانهم، فإنّ الصّلاة لا تُترك بحالٍ، فيُقصَر في الصّلاة حينئذٍ كميّةً وكيفيّة.

ثمّ اعْلَم أنّه قد ذكَر بعضُ الأصحاب في كيفية صلاة الخَوف ثلاثةَ أنواع:

الأوّل: صلاةُ بَطْن النّخل[٤].

وهي أن يكون العَدُوّ في جِهة القِبلة، فيُفرّق الإمام أصحابه فِرقتين؛ يُصلّي بأحدِهما رَكعتين ويُسلّم بهم، والثانيَة تحرُسهم، ثمّ يُصلّي بالثّانية رَكعتين نافلة ومُعادَة له وفريضة لأصحابه، وهذه تصِحُّ معَ الأمن أيضاً.

والثّاني: صلاة ذات الرِّقاع[٥].

وشَرطها كَون العَدُوّ في خِلاف جِهة القِبلة، أو في جِهتها، ولكِن بَيْنهم وبَيْن المسلمين حائل يمنعُهم مِن الرّؤية لو هجَموا، وقوّة العَدُوّ بحيث يُخاف هُجومهم، وكثرة[٦] المُسلمين بحيثُ يُمكن افتِراقهم فِرقتين يُقاوم كُلّ فِرقة العَدُوّ، وعدَم الاحْتِياج إلىٰ زِيادة التّفريق، فينحاز الإمام بطائفةٍ إلىٰ حيثُ لا يبلُغهم سِهام العَدُوّ، فيُصلِّي بهم رَكعة، فإذا قام إلىٰ الثّانية انفرَدوا واجباً وأتمّوا، والطّائفة الأُخرىٰ تحرُسهم، ثمّ تقوم الأُولىٰ مقام الثّانية، وتنحاز الثّانية إلىٰ الإمام وهُو ينتظرهم فيقتدون به في الثّانية، فإذا جلس الإمام للتّشهُّد قاموا وأتمّوا ولحِقوا به وسلّم بهم، ويُطوّل الإمام القِراءة في انتِظار الثّانية، والتّشهُّد[٧] في انتِظار فَراغها.

---

١. (موقف أصحابهم) ليس في الكافي.
٢. الكافي ١: ١/٤٥٥، تفسير الصافي ١: ٤٥٧.
٣. المسايفة: التضارب بالسيوف.
٤. بَطْنُ نخل: قرية قريبة من المدينة علىٰ طريق البصرة، وفي النسخة: بطن النجل.
٥. ذات الرِّقاع: اسم شجرة في موضع الغزوة سميّت بها، وقيل: لأن أقدامهم نقبت من المشي فلفّوا عليها الخرق.
٦. في النسخة: كثر.
٧. أي ويطوّل الإمام التشهد في انتظار فراغ الفرقة الثانية.

وفي المَغرب يُصلّي بالأولىٰ رَكعتين، وبالثّانية رَكعة، أو بالعَكْس. وهذا النّوع هُو مَدلُول الرِّوايات السّابقة.

والثالث: صلاة عُسْفَان[١].

وهي أن يكون العَدُوّ في جِهة القِبلة، فيُرتِّبهم صَفَّين، ويُحرِم الإمام بهما جميعاً ويركع بهم، ويسجُد بالأوّل خاصّة، ويقِف الثّاني للحِراسة، فإذا قام الإمام بالأوّل سجَد الثاني، ثمّ ينتقِل كُلٌّ مِن الصَّفّين إلىٰ مَكان الآخر، فيركع الإمام بهما، ثمّ يسجُد بالذي يليه[٢] ويقوم الثّاني الذي كان أوّلاً لحِراستهم، فإذا جلس بهم سَجدوا وسلّم بهم جميعاً[٣].

فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا ٱللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ إِنَّ ٱلصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً[١٠٣]

ثمّ أمر الله النّاس بالتوجُّه إلىٰ ذاته المُقدّسة في قِبال الكُفّار، بقوله: ﴿**فَإِذَا قَضَيْتُمُ**﴾ وأدّيتم ﴿**ٱلصَّلَاةَ**﴾ المَفروضة كما أمركم الله ﴿**فَاذْكُرُوا ٱللهَ**﴾ والتجئوا إليه واسألوه النصر في جميع الأحوال [سواءً أ]كنتم ﴿**قِيَاماً**﴾ في مُقابل العَدُوّ ﴿**وَقُعُوداً**﴾ للرّمي، أو غيره ﴿**وَ**﴾ نائمين ﴿**عَلَىٰ جُنُوبِكُمْ**﴾ مِن الجِراح ﴿**فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ**﴾ واستقررتُم في مَنازلكم وأوطانكم، أو في مَحَلّ قَصدتُم المُقام فيه عَشَرة أيّام، أو اطْمأنّت قُلوبُكم مِن خَوف العَدُوّ ﴿**فَأَقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ**﴾ تماماً كما كنتُم تُتِمُّونها قبلَ السّفر والخَوف.

ثمّ لمّا ذكَر صلاة السّفَر والخَوف، أكّد وجُوب الصّلاة في جميع الأحوال بقوله: ﴿**إِنَّ ٱلصَّلَاةَ كَانَتْ**﴾ في جميع الشّرائع والمِلَل والأعصار ﴿**عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ**﴾ مِن الله تعالىٰ ﴿**كِتَاباً مَوْقُوتاً**﴾ وفَرْضاً مُوَقّتاً، أو مُقدّراً.

عن الباقر عليه السلام: «يعني مَفروضاً، وليس يعني وقت فوتها[٤]، إذا جاز ذلك الوقت ثمّ صلّاها لَم تكُن صلاتُه مُؤدّاة، ولَو كان ذلك [كذلك] لهلك سُليمان بن داود حينَ صلّاها لغير[٥] وقتها، ولكِن متىٰ ما ذكرَها صلّاها»[٦].

وعن الصادق عليه السلام: «﴿**مَوْقُوتاً**﴾ أي ثابتاً، وليس إنْ عجِلتَ قليلاً أو أخّرتَ قليلاً بالذي يضرُّك ما لَم

---

١. عُسْفَان: منهلة من مناهل الطريق بين الجحفة ومكة، وقيل: عسفان بين المسجدين، وهي من مكة على مرحلتين.
٢. في النسخة: بالذي بينه.
٣. كنز العرفان ١: ١٨٩.
٤. في تفسير العياشي: وقتاً وقّتها.
٥. في تفسير العياشي: بغير.
٦. تفسير العياشي ١: ١١٠٣/٤٣٩، تفسير الصافي ١: ٤٥٨.

تُضيِّع تِلك الإضاعة، فإنّ الله عزّ وجلّ يقول: **﴿أَضَاعُوا ٱلصَّلَاةَ واتّبعُوا الشَّـهَوَاتِ فَسَـوفَ يَـلقَونَ غَيّاً﴾**»[١].

أقول: الظّاهِر أنّ الرِّوايتين ناظِرتان إلىٰ نَفي التّوقيت بوَقْت الفضيلة.

وَلَا تَهِنُوا فِى ٱبْتِغَاءِ ٱلْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَـمُونَ فَـإِنَّهُمْ يَأْلَـمُونَ كَـمَا تَأْلَـمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ ٱللهُ عَلِيماً حَكِيماً[١٠٤]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ بَيان وُجوب قِتال الكُفّار، وشِدّة عَداوتهم، وكيفيّة الصّلاة فيهم، أمر بـالجِدّ فـي قِتالهم، ونهىٰ عن التّهاوُن فيه بقوله: **﴿وَلَا تَهِنُوا﴾** ولا تَضعُفوا أيُّها المُؤمنون **﴿فِى ٱبْـتِغَاءِ ٱلقَـوْمِ﴾** الكافرين الّذِين دُونكم، وجِدّوا في طلَبهم، واجْتَهدوا فِي قِتالهم، ولا تخافوا مِن الآلام التي تُصيبكم، فإنّكم **﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ﴾** مِن الجِراحات التي تُصيبكم في حَرْبهم **﴿فَإِنَّهُمْ﴾** أيضاً **﴿يَأْلَمُونَ﴾** مِن الجِراحات التي تُصيبهم مِنكم **﴿كَمَا تَأْلَمُونَ﴾** مِن الجِراحات التي تُصيبكم منهم، وهُم مع ذلك لا يفترُون عن قِتالكم، ولا يتَهاونون فِيه، مع أنّكم وهُم سَواء في ما يُوجب الخوف **﴿وَ﴾** أنتم **﴿تَرْجُونَ مِنَ ٱللهِ﴾** بجِهادكم، وما يُصيبكم مِن الآلام والمَشاقّ **﴿مَا لَا يَرْجُونَ﴾** مِن الثّـواب والأجـر؛ لأنّكـم تعتقدون بدِين الإسلام ودَار الجَزاء، وتعلَمون أنّ لكم بالجِهاد دَرَجات عَظيمة عند الله في الآخرة، والمُشركون لا يعتقدون بشيءٍ مِن ذلك، فإذا كانوا معَ إنكارهم الحَشْر ودَار الجَـزاء صـابرين علىٰ قِتالكم مُجدّين فيه، فأنتُم أولىٰ بالجِدّ والصَّبْر عليه مِنهم **﴿وَكَانَ ٱللهُ عَلِيماً﴾** بصَلاح دِينكم ودُنياكم **﴿حَكِيماً﴾** في ما يأمركم وينَهاكم، وفي تَدبير اُموركم.

عن القُمّي ﵀: أنّ النبيّ ﷺ لمّا رجَع مِن وَقْعة اُحُد ودخَل المدينة، نزل [عليه] جَبْرئيل فقال: يا محمّد، إنّ الله يأمُرك أنّ تخرُج في إثْر القوم، ولا يخرُج معك إلّا مَن به جِراحة، فأمر رَسُول الله ﷺ مُنادياً يُنادي: يا معَشر المُهاجرين والأنصار، مَن كانت به جِراحة فليخرُج، ومَن لَم يكُن به جِراحـة فليُقِم، فأقبلوا يُضمّدون جِراحاتهم ويُداوونها، فأنزل الله علىٰ نبيّه **﴿وَلَا تَهِنُوا﴾** الآية[٢].

وقيل: إنّها نزلَتْ في بَدْر الصُّغرىٰ[٣]. وقد مضَتْ كِلْتا القَضيتين في سُورة آل عِمران.

إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَـيْنَ ٱلنَّـاسِ بِـمَا أَرَاكَ ٱللهُ وَلَا تَكُـن لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً * وَٱسْتَغْفِرِ ٱللهَ إِنَّ ٱللهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً[١٠٥ و ١٠٦]

---

١. الكافي ٣: ١٣/٢٧٠، تفسير الصافي ١: ٤٥٨، والآية من سورة مريم: ٥٩/١٩.

٢. تفسير القمي ١: ١٢٤، تفسير الصافي ١: ٤٥٩.

٣. تفسير أبي السعود ٢: ٢٢٨، تفسير روح البيان ٢: ٢٧٧.

ثمَ أنّه تعالىٰ بيّن ـ بعدَ الأمر بجِهاد الكُفّار ـ أنّهم وإن وجَب قِتالهم وقَتْلهم، ولكِن لا يجُوز خِيانتهم، ولا الحُكْم عليهم بغير الحَقّ لمَن خانهم، بقوله: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلْكِتَابَ﴾ الذي هُو دَليل صِدْقك، لكَونه مَقروناً ﴿بِالحَقِّ﴾ وشَواهد الصِّدْق، وأنّه مِن الله ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ وفي مُنازعاتهم ﴿بِما أَرَاكَ ٱللَّهُ﴾ مِن أحكامه، وبما عرّفك مِن الوَحْي، فاحْكُم به بَيْنهم ﴿وَلَا تَكُن لِلخَائِنِينَ﴾ ولأجلهم ﴿خَصِيماً﴾ ومُعارضاًللبَريئين والمُحقّين ﴿وَٱستَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾ مِمّا وقع في قَلبك مِن الحُكْم للخائنين ومُساعدتهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُوراً﴾ لمَن آستغفره ﴿رَحِيماً﴾ بمَن تاب إليه.

في قصة سرقة بني أُبيرق

رُوي أن أبا طَعمة بن أُبَيْرق سرَق دِرعاً مِن جارٍ له اسمه قَتادة بن النُّعمان، وخبّأها عندَ رَجُل مِن اليَهود، فأخذ الدِّرع مِن منزل اليَهودي، فقال: دفَعها إليَّ أبو طَعمة، فجاء بنو أُبيرِق إلىٰ النبيّ ﷺ وكلّموه أن يُجادل عن صاحبهم وقالوا: إنْ لَم تفعل ذلك[1] افتضَح أبو طَعمة، وبرئ اليَهودي، فهَمّ رَسُول الله ﷺ أن يفعل وأن يُعاقب اليَهودي، فنزلت[2].

وعن القُمّي ﵀: أن سبب نُزولها أنّ قوماً مِن الأنصار مِن بني أُبَيْرِق، وهُم إخوة ثلاثة: طَعمة[3] ومُبشر وبشير كانوا مُنافقين، فنَقَبوا علىٰ عَمّ قَتادة بن النُّعمان، وكان بَدْريّاً، وأخرجوا طعاماً كان أعدّه لعِياله وسَيفاً ودِرعاً، فشكا قَتادة ذلك لرَسُول الله ﷺ، فقال: يا رَسُول الله، إنّ قوماً نقبوا علىٰ عَمّي، وأخذوا طعاماً كان أعدّه لعِياله، ودِرعاً وسيفاً، وهُم أهل بيتِ سُوءٍ، وكان معهم في الرأي رَجُل مُؤمن يُقال له لَبِيد بن سَهل.

فقال بنو أُبيرق لقَتادة: هذا عمل لَبيد بن سهل، فبلغ ذلك لَبيداً، فأخذ سيفه وخرج عليهم، فقال: يا بني أُبيرِق، أترمونني بالسَّرَق وأنتم أولىٰ به مِنّي، وأنتم المُنافقون، تَهجُون رَسُول الله وتنسُبونه إلىٰ قُريش، لتُبيِّنُن ذلك أو لأملئنّ سيفي مِنكم، فَدارَوه وقالوا له: ارْجِع رَحمك الله، فإنّك بريء مِن ذلك.

فمشىٰ بنو أُبيرق إلىٰ رَجُلٍ مِن رَهْطهم، يُقال له أُسَيْد بن عُروة، وكان مِنْطيقاً بليغاً، فمشىٰ إلىٰ رَسُول الله ﷺ فقال: يا رَسُول الله، إنّ قَتادة بن النُّعمان عمَد إلىٰ أهل بيتٍ مِنّا أهل شَرفٍ وحَسَب ونَسَب، فرماهم بالسَّرَق، وأتاهم بما ليس فيهم. فاغْتمّ رَسُول الله ﷺ مِن ذلك، وجاء قَتادة إليه، فأقبل عليه رَسُول الله ﷺ فقال له: «عمَدتَ إلىٰ أهل بيتِ شَرَفٍ وحَسَب ونَسَب فرميتَهم بالسَّرِقة»، فعاتبه عِتاباً شديداً.

فاغتمّ قَتادة مِن ذلك، ورجَع إلىٰ عمّه وقال: ليتني مُتُّ ولَم أُكلِّم رَسُول الله ﷺ، فقد كلّمني بما

---

١. في جوامع الجامع: هلك و.
٢. جوامع الجامع: ٩٦.
٣. في المصدر وتفسير الصافي: بشر.

كرِهتَه. فقال عمّه: الله المُستعان، فأنزل الله في ذلك علىٰ نبيه ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيكَ الكِتَابَ﴾ الآيات[١].

أقول: لابُدّ لنا ـ علىٰ ما ثبت عندنا مِن عِصمة الأنبياء عن الخطأ والزَلَل ـ مِن حَمْل هذه الرِّوايات علىٰ أنّ النبيّ ﷺ رأىٰ مَصلحة دِينه في إظهار مُوافقة المُنافقين ومُساعدتهم إلىٰ أن تنزل الآيات، ويكون مَعذوراً عندهم عن المُوافقة بإعذار الله تعالىٰ له، كما أنه ﷺ كان يُصدِّق كُلّ ما كانوا يقولون، حتّىٰ قالوا: إنه أُذُن.

وَلَا تُجَادِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ ٱللهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً[١٠٧]

ثمّ نهىٰ الله تعالىٰ نبيّه ﷺ عن أن يُحامي عن بني أُبيرق ويُجادل عنهم اليَهُودي أو قَتادة[٢]، بقوله: ﴿وَلَا تُجَادِلْ﴾ ولا تُخاصم اليَهُودي أو قَتادة ﴿عَنِ﴾ المُنافقين ﴿ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ بنِفاقهم وخِيانتهم في أموال المُؤمنين ﴿إِنَّ ٱللهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّاناً﴾ للنّاس في أموالهم، ومَن كان ﴿أَثِيماً﴾ وعَصِيّاً، فلا تُحِبّهم.

يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَكَانَ ٱللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً[١٠٨]

ثمّ وبّخ هؤلاء المُنافقين السّارقين بقوله: ﴿يَسْتَخْفُونَ﴾ ويستُرون ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ كُفرَهم وسَرِقتهم، ويَستحيون أن تظهر أعمالُهم القبيحة ﴿وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللهِ﴾ أن يسرِقوا الأموال بعَينه ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ في جميع الأحوال، و﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ﴾ ويُرتّبون ﴿مَا لَا يَرْضَىٰ﴾ به الله ﴿مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ مِن رَمْي اليَهُودي أو لَبيد ابن سهل[٣]، والحَلْف علىٰ بَراءة أنفسهم، وأمثال ذلك.

[عن] القمي: يعني: الفِعل، فوقع القول علىٰ الفِعل[٤].

عن الباقر عليه السلام، في قوله: ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾، قال: «الأوّل والثاني[٥]، وأبو عُبيدة بن الجَرّاح»[٦].

وعن أمير المؤمنين صلوات الله عليه في حديثٍ: «وقد بيّن الله قَصص المُغيّرين بقوله: ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ

---

١. تفسير القمي ١: ١٥٠، تفسير الصافي ١: ٤٥٩.
٢. راجع تفسير الآيتين المتقدّمتين.
٣. راجع تفسير الآيتين (١٠٥ و١٠٦) من هذه السورة.
٤. تفسير القمي ١: ١٥١، تفسير الصافي ١: ٤٦٠.
٥. في تفسير العياشي: فلان وفلان وفلان.
٦. تفسير العياشي ١: ١١١١/٤٤١.

مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ بعدَ فَقْد الرَّسول ﷺ ما يُقيمون به أوَدَ باطِلِهم، حَسَب ما فعلتْه اليَهود والنَّصارىٰ بعدَ فَقْد مُوسىٰ وعِيسىٰ عليهما السلام مِن تَغيير التَّوراة والإنجيل، وتَحريف الكَلِم عن مواضعه»[1].

ثمّ هدّدهم بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ مِن النِّفاق والسَّرقة والبُهتان ﴿مُحِيطاً﴾ ومُطَّلِعاً، فيُجازيهم أسوأ الجَزاء.

هَا أَنْتُمْ هٰؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ أَم مَن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً[١٠٩]

ثمّ عاتب الله المُؤمنين الَّذِين كانوا يذُبّون عن هؤلاء المُنافقين بظَنّ أنّهم مِن المُسلمين، بقوله: ﴿هَا أَنْتُمْ هٰؤُلَاءِ﴾ المُخطِئون، هَبوا أنّكم ﴿جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ﴾ وخاصمتُم اليَهودي أو قَتادة، وحُفِظتم عِرْض بني أُبيرق[2] ﴿فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا﴾ والدّار الفانية ﴿فَمَن يُجَادِلُ ٱللَّهَ﴾ ويُحامي ﴿عَنْهُمْ﴾ إذا حَكَم عليهم بالعذاب ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ﴾ وفي مَحْضر عَدْله ﴿أَم مَن يَكُونُ﴾ في ذلك اليوم وتِلك الحالة ﴿عَلَيْهِمْ وَكِيلاً﴾ وحافِظاً مِن بأس الله وعُقوبته.

وَمَن يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً[١١٠]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ التَّهديد والوَعيد بالعذَاب، دَعاهم إلىٰ التّوبة بقوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ﴾ عملاً ﴿سُوءاً﴾ مِن السَّرِقة ورَمْي الغير بها ﴿أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾ بارْتِكاب مَعصية الله، كالحَلف به كَذِباً ﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾ ويتُوب إليه ﴿يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُوراً﴾ لمَعاصيه ﴿رَحِيماً﴾ ومُتفضّلاً عليه.

وَمَن يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً[١١١]

ثمّ رغّب سُبحانه في التّوبة بقوله: ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْماً﴾ مِن الآثام، ويحصّل بكَدّ يمينه وبِسُوء سَريرته ذَنباً مِن الذّنوب ﴿فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ﴾ ويطلُبه بجِدّه ضَرراً ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ لا يتعدّىٰ ذلك الضَّرَر إلىٰ غيره ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ بما يكسِبه مِن الإثم وما يرتكِبه مِن الذّنب ﴿عَلِيماً﴾ وفي ما يفعله مِن المُجازاة ﴿حَكِيماً﴾ لا يُجاوز عن حَدّ استِحقاقه.

وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً[١١٢]

---

١. الاحتجاج: ٢٤٩، تفسير الصافي ١: ٤٦٢.

٢. راجع تفسير الآيتين (١٠٥ و١٠٦) من هذه السورة.

ثمّ بالغ سُبحانه في التّرغيب إلىٰ التّوبة بالمُبالغة في عَظَمة خُصوص المَعصية التي آرْتكبوها مِن السّرقة، وبُهتان البريء، بقوله: ﴿وَمَن يَكْسِبْ﴾ ويرتكب ﴿خَطِيئَةً﴾ قيل: هِي الصَّغيرة، أو ما يكون بغير عَمْد[1]، ﴿أَوْ﴾ يقترف ﴿إِثْماً﴾ كالسّرقة، أو غيرها مِن الكبائر ﴿ثُمَّ يَرمِ﴾ بما يكسِب ويقذِف ﴿بِهِ﴾ مَن يكون ﴿بَرِيئاً﴾ مِنه ﴿فَقَدِ آحْتَمَلَ﴾ علىٰ ظَهره، بتَبرئة نفسه مِنه، وتَحميله علىٰ غيره البريء مِنه ﴿بُهْتَاناً﴾ قبيحاً، وتُهمة عنَد مَوته عندَ العُقلاء ﴿وَإِثْماً مُبِيناً﴾ وذَنباً ظاهراً يلحَقه أشدّ العِقاب في الآخرة.

وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنْزَلَ ٱللهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً[١١٣]

ثمّ مَنّ الله سُبحانه علىٰ حبيبه بحِفظه عن الخطأ في الحُكم، وعِصمته مِن زَلَل مُساعدة الخائن، بقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللهِ﴾ وإنعامه الجَزيل ﴿عَلَيْكَ﴾ بإعلامك، بتوسُّط الوَحْي، بسُوء ضمائر المُنافقين، وسيِّئات أعمالهم المَخفيّة ﴿وَرَحْمَتُهُ﴾ عليك بعِصمتك مِن الزَّلَل، وحِفْظك مِن مكائد أهل الضَلال ﴿لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ﴾ وفِرقة ﴿مِنْهُمْ﴾ قيل: هُم بنو ظَفَر الذّابون عن طَعمة[2] ﴿أَن يُضِلُّوكَ﴾ عن الحُكْم بالحَقّ بتَلبيسهم الأمر عليك، ﴿وَ﴾الحَال أنّهم ﴿مَا يُضِلُّونَ﴾ بسَبب تَعاونهم علىٰ الإثم والعُدوان، وشَهادتهم بالزُّور والبُهتان ﴿إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ عن الحَقّ وطريق الجنّة، وإنّما يضُرّون أنفسهم بالابْتِلاء بفَضيحة الدُّنيا، وعذاب الآخرة ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيءٍ﴾ قليلٍ أو كثير؛ لأنّك مَعصوم بعِصمة الله أبداً.

﴿وَ﴾لذا ﴿أَنْزَلَ ٱللهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ﴾ السّماويّ الذي هُو أفضل الكُتُب ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ التي هِي أفضل المَواهب، والرِّسالة التي هِي أعلىٰ المَناصِب، فكيف يليق بحِكْمته أن لا يعصِمك عن الحُكَم بغَير الحَقّ؟ ﴿وَعَلَّمَكَ﴾ معَ ذلك ﴿مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ بالأسباب العادِيّة مِن العُلوم الوَفيرة، بحقائق الأشياء وخَفِيّات الأمور، فكيف لا يُعلِمك حِيَل المُنافقين ومَكائدهم، وما تقدِر به علىٰ الاحْتِراز مِنها ﴿وَكَانَ﴾ مِن بَدْو خِلقتك في عالَم الأنوار والأشباح والأجسام ﴿فَضْلُ ٱللهِ﴾ وإنعامه ﴿عَلَيْكَ عَظِيماً﴾ لا يُقادر قَدْره.

---

١. تفسير أبي السعود ٢: ٢٣٠.

٢. تفسير أبي السعود ٢: ٢٣١، وراجع تفسير الآيتين (١٠٥ و١٠٦) من هذه السورة.

عن الباقر عليه السلام: «إنَّ أُناساً مِن رَهْط بشر[١] الأدنَين قالوا: انطلقوا بنا إلىٰ رَسُول الله صلى الله عليه وآله نُكلِّمه في صاحبنا ونعذره، فإنّ صاحبنا بريء، فلمّا أنزل الله ﴿يَستَخفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَستخفُونَ مِنَ اللهِ وَهُوَ مَعَهُم﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَكِيلاً﴾[٢]، أقبلت رَهط بشر فقالت: يا بشر، استغفِر الله وتُب مِن الذّنب، فقال: والذي أحلِف به، ما سرَقها إلّا لَبيد، فنزلَتْ: ﴿وَمَن يَكسِب خَطِيئَةً أو إثماً ثُمَّ يَرمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احتَمَلَ بُهتَاناً وَإِثماً مُبِيناً﴾[٣]، ثمّ إنّ بشراً كفَر ولحِق بمكّة، وأنزل الله في الّذِين أعذروا بشراً وأتَوا النبيّ ليعذِره ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ﴾ الآية»[٤].

لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِن نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذٰلِكَ ٱبْتِغَاءَ مَرْضَاتِ ٱللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً [١١٤]

ثمّ لمّا كان المُحامون عن بشر أو طَعمة يتناجَون في الدِّفاع عنه، كما قال: ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾[٥]، ردَع الله النّاس عن نَجْوىٰ السُّوء بقوله: ﴿لَا خَيْرَ﴾ للنّاس في الآخرة، ولا فائدة ﴿فِي كَثِيرٍ مِن نَجْوَاهُمْ﴾ وإسرار بعضِهم إلىٰ بعضٍ ﴿إِلَّا﴾ في نَجْوىٰ ﴿مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ وإنفاق للمُحتاجين، لوَجْه الله ﴿أَوْ﴾ فِعْل ﴿مَعْرُوفٍ﴾ ومُستحسَن عندَ الشّرع والعَقل، كفِعْل الواجِبات، وتَرك المُحرَمات ﴿أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ عند تَشاجُرهم ومُعاداتهم.

في فضيلة إصلاح ذات البين

عن النبيّ صلى الله عليه وآله: «أوّلُ أهل الجنّة دُخولاً أهلُ المَعروف، وصَنائع المَعروف تَقي مَصارع السُّوء»[٦].

وعنه صلى الله عليه وآله: «ألا أُخبِركم بأفضل دَرَجةٍ مِن الصّلاة والصّدَقة؟»، قالوا: بَلىٰ يا رَسُول الله. قال: «إصلاح ذات البَيْن»[٧].

وعن أبي أيّوب الأنصاري: أنّ رَسُول الله صلى الله عليه وآله قال له: «ألَا أدُلّك علىٰ صَدَقةٍ خيرٌ لك مِن حُمر النَّعَم؟» قال: بَلىٰ يا رَسُول الله. قال: «تُصلِح بَيْن النّاس إذا تَفاسدوا، وتُقرِّب بَينهم إذا تَباعدوا»[٨].

وعن الصادق عليه السلام: «الكلام ثَلاثة: صِدق، وكَذِب، وإصلاح بَيْن النّاس -وفسّر الإصلاح- بأن تسمع مِن الرّجُل كلاماً يبلُغه فتخبُث نفسُه، فتلقاه فتقول: سمِعتُ مِن فُلانٍ [قال] فيك مِن الخير: كَذا وكذا،

---

١. في تفسير القمي وتفسير الصافي: بشير، وكذا ما بعدها، وراجع تفسير الآيتين (١٠٥ و١٠٦) من هذه السورة.
٢. النساء: ١٠٨/٤ و١٠٩.
٣. النساء: ١١٢/٤.
٤. تفسير القمي ١: ١٥٢، تفسير الصافي ١: ٤٦١.
٥. النساء: ١٠٨/٤.
٦. تفسير روح البيان ٢: ٢٨٤.
٧ و٨. تفسير روح البيان ٢: ٢٨٤.

خِلاف ما سمِعتَ مِنه»[١].

وعنه، عن آبائه، عن النبيّ ﷺ: «ثلاثٌ يحسُن فيهنّ الكَذِب: المَكيدة في الحَرب، وعِدَتُك زَوجتك، والإصلاح بَيْن النّاس»[٢].

قيل: إنّ عَمَل الخَير إمّا بإيصال النَفع، أو بدَفْع الضَّرَر. والنَفع إمّا جِسْماني؛ وهُو إعطاء المال، وهُو الصَدَقة، وإمّا رُوحاني؛ وهُو تَكميل الغير بالقُوّة النَظريّة والعَمَلية، وهُو الأمر بالمَعروف والنَهي عن المُنكر. ودَفْعُ الضَّرَر؛ وهُو الإصلاح بَيْن النّاس. فالآية دالّة علىٰ مَجامع الخَير[٣].

ثمّ رغّب سُبحانه فيها بقوله: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذٰلِكَ﴾ المَذكور مِن الأمور ﴿ٱبْتِغَاءَ مَرْضَاتِ ٱللهِ﴾ وطلَباً لثَوابه، لا رِياءً ولا سُمْعةً ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ﴾ فِي الدُّنيا والآخرة ﴿أَجْراً عَظِيماً﴾ وثَواباً جَزيلاً لا يُوصف ببَيان.

ثمّ أنّه روىٰ بعضُ العامّة أنّ طَعمة هرَب إلىٰ مكّة وارتدّ، وثقب حائطاً هُناك لأجل السَّرقة، فسقَط الحائط عليه فمات[٤].

وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً[١١٥]

وفي رِواية القُمّي ﷺ: ثمّ إنّ بشراً كفَر ولحِق [بمكة]، ونزل فيه وهُو بمكّة قَوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾[٥] ويُخالفه فِي اتّباع دِينه، وأوامره ونَواهيه ﴿مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ﴾ واتّضح بالمُعجزات الباهِرات والآيات البَيِّنات ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾ ودِين الحَقّ ﴿وَيَتَّبِعْ﴾ ويسلُك سَبيلاً ﴿غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وطريقاً غيرَ الطّريقة التي يستمرّون عليها مِن الاعتِقاد بالتّوحيد، ورِسالة نبيّه، والعمَل بأحكامه ﴿نُوَلِّهِ﴾ ونجعَله يَلي ويقرّب ﴿ مَا تَوَلَّىٰ﴾ واعتَمده مِن دُون الله، واختار لنفسه مِن الشِّرك والضَّلال، ونُوكِله إلىٰ ما توكّل عليه ﴿وَنُصْلِهِ﴾ ونُدخِله ﴿جَهَنَّمَ﴾ والنّار المُوقدة ﴿وَسَاءَتْ﴾ جَهنّم مِن حيثُ كَونها ﴿مَصِيراً﴾ ومُنقلباً للكافرين.

إِنَّ ٱللهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً[١١٦]

---

١. الكافي ٢: ١٦/٢٥٥، تفسير الصافي ١: ٤٦٢.
٢. الخصال: ٢٠/٨٧، تفسير الصافي ١: ٤٦٢.
٣. تفسير الرازي ١١: ٤١.
٤. تفسير أبي السعود ٢: ٢٢٩.
٥. تفسير القمي ١: ١٥٢، تفسير الصافي ١: ٤٦٣، وفيهما: بشير، بدل بشر.

ثمَ أنّه تعالىٰ أكّد الإعلان بعدَم شُمول مَغفرته للمُشركين تَنبيهاً علىٰ سُوء حال طَعمة[١]، وتَزهيداً للنّاس مِن الشِّرك، بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾.

قيل: جاء شَيخٌ إلىٰ رَسُول الله ﷺ وقال: إنّي شيخ مُنهمك في الذُّنوب، إلّا أنّي لَم أُشرِك بالله شيئاً منذُ عرَفته، وآمنتُ به ولَم أتّخذ مِن دُونه وَليّاً، ولَم أُواقع المَعاصي جُرأة عليه، وما توهّمت طَرفة عَينٍ أنّي أُعجز الله هَرَباً، وإنّي لنادِمٌ تائب[٢]، فما ترىٰ حالتي عندَ الله؟ فنزلَتْ هذه الآية[٣].

ثمَ علّل عدَم قابليّة الشِّرك للمَغفرة بقوله: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ﴾ عن الحَقّ، والصِّراط المُستقيم ﴿ضَلَٰلًا بَعِيدًا﴾ حيثُ إنّ الشِّرك أعظم أنواع الضّلال، وأبعدها مِن الصّواب.

إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا * لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا [١١٧ و ١١٨]

ثمَ بيّن أنّ الشِّرك غايةُ الضّلال؛ بقوله توبيخاً للمُشركين: ﴿إِن يَدْعُونَ﴾ وما يعبُدون ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ ومِمّا سِوىٰ الله ﴿إِلَّآ إِنَٰثًا﴾.

قيل: إنّما سمّى الأصنام إناثاً؛ لأنّ العرَب كانو يُصوِّرونها بصُورة الإناث، ويُلبسونها أنواع الحُلَل التي يتَزيّن بها النِّساء، ويُسمّونها بأسماء المُؤنّثات، نحو: اللّات التي هِي تأنيث الله، والعُزّىٰ التي هِي تأنيث العَزيز، ومَناة[٤].

وقيل: لَم يكُن حَيٌّ مِن العَرَب إلّا ولهم صَنَم يعبُدونه، ويُسمّونه أُنثى فُلان[٥].

وقيل: إنّ المُراد مِن الإناث: الملائكة، حيثُ إنّهم كانوا يقولون: الملائكة بَنات الله[٦].

ثمَ بيّن سُبحانه أنّ عِبادة الأوثان عَيْن عِبادة الشّيطان، بقوله: ﴿وَإِن يَدْعُونَ﴾ وما يعبُدون ﴿إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾ مُبالغاً في التّمرُّد عن طاعة الله، ولِذا ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ وأبعده مِن ساحة رَحمته، وطَرده عن سَماواته.

ثمَ ذَمّه بمُعارضته له بقوله: ﴿وَقَالَ﴾ الشيطان بعدَ امتِناعه عن السَّجدة لآدم مُعارضَةً لله، وعَداوة لبني آدم: ﴿لَأَتَّخِذَنَّ﴾ يا رَبِّ ﴿مِنْ عِبَادِكَ﴾ وإمائك ﴿نَصِيبًا﴾ وحَظّاً وافِراً ﴿مَّفْرُوضًا﴾ ومَقطوعاً، أو مُقدَّراً لعِبادتي واتِّباع خُطُواتي.

---

١. راجع تفسير الآيتين (١٠٥ و١٠٦) من هذه السورة.
٢. زاد في تفسير أبي السعود: مستغفر.
٣. تفسير أبي السعود ٢: ٢٣٣.
٤. تفسير روح البيان ٢: ٢٨٦.
٥ و٦. تفسير أبي السعود ٢: ٢٣٣

عن النبيّ ﷺ: «مِن كُلّ ألفٍ واحدٌ لله، وسائره لإبليس»[١].

وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ ٱلْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللهِ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَانَ وَلِيّاً مِن دُونِ ٱللهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُبِيناً[١١٩]

ثمّ بيّن سُبحانه مَعنىٰ اتّخاذه النّصيب بقوله: ﴿**وَلَأُضِلَّنَّهُمْ**﴾ عن صِراط تَوحيدك وعِبادتك.

ثمّ لمّا ادّعىٰ إضلاله النّاس ذكَر حِيلته فيه، بقوله: ﴿**وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ**﴾ وأُلقِيَنّ في قُلوبهم الآمال الباطِلة، مِن تَوهُّم طُول العمر وتَزيين جَمع الأموال الكثيرة، والالتِذاذ بها سِنين مُتطاولة، وأمثال ذلك ﴿**وَلَآمُرَنَّهُمْ**﴾ بِبَتْك آذان الأنعام وقَطْعها ﴿**فَلَيُبَتِّكُنَّ**﴾ وليَقطَعَنّ امتِثالاً لأمري ﴿**آذَانَ ٱلْأَنْعَامِ**﴾ مِن الإبل والبَقر والغَنم، نُسكاً في عِبادة الأوثان، بظَنّ أنّ ذلك نَحو عِبادةٍ لها.

وقيل: إنّ المُراد: قَطْع أُذُن البَحيرة، فإنّ العَرَب إذا ولَدتْ ناقةٌ لهم خمسةَ أبطُن، وكان الخامس ذَكَراً، يشُقُّون أُذُنها، ويُحرّمون علىٰ أنفسهم الانتِفاع بها[٢].

عن الصادق عليه السلام: «ليَقطَعَنّ الأُذن[٣] مِن أصلها»[٤].

﴿**وَلَآمُرَنَّهُمْ**﴾ بالتّغيير ﴿**فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللهِ**﴾ وفِطرته التي فَطَر النّاس عليها، كذا قيل[٥].

وعن الصادق عليه السلام: «يُريد دِين الله وأمره ونهيه»[٦].

وعن عِكرمة: هُو هُنا الإخْصاء، وقطع الآذان، وَفقء العُيون[٧].

قيل: كانت العَرب إذا بلَغت إبل أحدِهم ألفاً عَوّروا عَين فَحْلها[٨].

ثمّ ردَع الله سُبحانه عِن عِبادة الشّيطان واتّباعه، بقوله: ﴿**وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَانَ**﴾ ويختاره لنفسه ﴿**وَلِيّاً**﴾ ومُحبّاً، أو مَتبوعاً في أفعاله ﴿**مِن دُونِ ٱللهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُبِيناً**﴾ وتضرّر ضَرَراً عظيماً فاحشاً، فإنّه يحرِمه مِن النِّعَم الدّائمة، ويَغُرّه باللّذائذ الوَهميّة الفانية، ويبدّل مَكانه مِن الجنّة والقُصور العالية الباقية بمُستقرٍّ مِن الجَحيم الحَاطمة.

يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً[١٢٠]

---

١. مجمع البيان ٣: ١٧٣، تفسير الرازي ١١: ٤٧، وفي مجمع البيان: وسائرهم للنّار ولابليس، وفي تفسير الرازي: وسائره للناس ولابليس.

٢. تفسير الرازي ١١: ٤٨.

٣. في مجمع البيان: الآذان.

٤. مجمع البيان ٣: ١٧٣، تفسير الصافي ١: ٤٦٣.

٥. تفسير الرازي ١١: ٤٨.

٦. مجمع البيان ٣: ١٧٣، تفسير الصافي ١: ٤٦٣، وكلمة (نهيه) ليست في مجمع البيان وتفسير الصافي.

٧ و٨. تفسير الرازي ١١: ٤٩.

ثمّ نبّه سُبحانه النّاس ببُطلان أمنياته، وكِذْب عِدَاته، بقوله: ﴿يَعِدُهُمْ﴾ الشّيطان بوَسْوسته ﴿وَيُمَنِّيهِمْ﴾ بالأماني البَاطلة ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَانُ﴾ وَعْداً ﴿إِلَّا﴾ كان ﴿غُرُوراً﴾ وَكِذباً مُورِثاً لمَن اغْتراه الحَسْرة الأبديّة.

قيل: إنّ الغُرور: إظهار النّفع في ما فيه الضَّرَر[1].

عن الصادق عليه السلام: «لمّا نزلَتْ هذه الآية ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا ٱللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾[2] صعِد إبليس جَبَلاً بمكّة يُقال لَه ثَور، فصرخ بأعلىٰ صَوته بعَفاريته فاجتمعوا إليه، فقالوا: يا سيّدنا، لِمَ دَعوتَنا؟ قال: نزلَتْ هذه الآية، فمَن لها؟ فقام عِفريت مِن الشّياطين فقال: أنا لها بكَذا وكذا. قال: لستَ لها. فقام آخر فقال مِثل ذلك، فقال: لستَ لها. فقال الوَسواس الخَنّاس: أنا لها. قال: بماذا؟ قال: أعِدهُم وأُمنّيهم حتّىٰ يُواقِعوا الخَطيئة، [فإذا واقعوا الخطيئة] أنسيتهُم الاسْتِغفار. فقال: أنت لها. فوكّله بها إلىٰ يوم القيامة»[3].

أُولٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصاً[١٢١]

ثمّ أوعد الله سُبحانه أولياء الشّيطان بالعَذاب الدّائم بقوله: ﴿أُولٰئِكَ﴾ الضّالُّون المُغرّرون ﴿مَأْوَاهُمْ﴾ ومَنزلهم في الآخرة ﴿جَهَنَّمُ﴾ حَال كَونهم خَالدين فيها ﴿وَلَا يَجِدُونَ﴾ لأنفسهم مَهرباً ﴿عَنْهَا﴾ ولا ﴿مَحِيصاً﴾ وملجأً.

وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَعْدَ ٱللهِ حَقّاً وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللهِ قِيلاً[١٢٢]

ثمّ أردَف سُبحانه الوَعيد بوَعْد المُؤمنين بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بوَحدانيّة الله، ورِسالة رَسُوله ﴿وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ﴾ لوَجْه الله ﴿سَنُدْخِلُهُمْ﴾ في الآخرة جَزاءً علىٰ إيمانهم وعمَلهم الصّالح ﴿جَنَّاتٍ﴾ ذات أشجار ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ﴾ حَال كَونهم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾ دائماً.

ثمّ لمّا كذّب مَواعيد الشّيطان أكّد سُبحانه صِدق مَواعيد ذاتِه المُقدّسة بقوله: ﴿وَعْدَ ٱللهِ﴾، قيل: إنّ المعنىٰ وعَد الله وَعْداً، وحَقّ ذلك ﴿حَقّاً﴾ ثمّ بالغ في التأكيد بقوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللهِ قِيلاً﴾ وخَبراً.

---

١. تفسير أبي السعود ٢: ٢٣٤.
٢. آل عمران: ١٣٥/٣.
٣. أمالي الصدوق: ٧٣٦/٥٥١، تفسير الصافي ١: ٤٦٤.

لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ ٱللهِ وَلِيّاً وَلَانَصِيراً[١٢٣]

ثمّ لمّا كان مِن تَسْويلات الشيطان تَغرير الإنسان بكَرَم الله، وأنّ الله يعفو عن السَّيِّئات، ويُدخل الجنّةِ بِلا عمَلٍ، نبّه الله النّاس بأنّ الثّواب إنّما يكون بالإيمان والعَمل، لا بـالأُمْنية، بـقوله: ﴿لَـيْسَ﴾ النّجاة مِن النّار، والدُّخول في الجنّة ﴿بِأَمَانِيِّكُمْ﴾ وغُروركم بأنّ الله لا يُعذّبكم، بَل يُدخِلكم الجنّة بفَضْله ﴿وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلكِتَابِ﴾ حيثُ إنّهم يقولون: لا يُعذّبنا الله إلّا أيّاماً مَعدودة، بَـل الثّـواب والعِقاب دائران مَدار العَمل ﴿مَن يَعْمَل سُوءاً﴾ ويرتكب ذَنباً ﴿يُجْزَ بِـهِ﴾ إمّا فـي الدُّنـيا، أو فـي الآخرة،أو فيهما.

وقيل: إنّ المعنىٰ: ليس الإيمان بالتّمنّي، ولكن ما وقَر في القَلب وصدّقه العَمل[١].

وعن القُمّي ﷺ: ليس ما تتمنّون أنتم ولا أهل الكِتاب أن لا تُعذّبون بأفعالكم[٢].

في (العُيون): أنّ إسماعيل قال للصّادق عليه السلام: [يا أبتاه] ما تـقول فـي المـذْنب مِنّا ومِـن غـيرنا؟ فقال عليه السلام: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ﴾[٣].

﴿وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ ٱللهِ وَلِيّاً﴾ وشَفيعاً ﴿وَلَا نَصِيراً﴾ ومُدافعاً يدفَع عنه العَذاب.

عن أبي هُريرة: لمّا نزلت الآية بكَينا وحزنّا وقلنا: يا رَسُول الله، ما أبقتْ هذه الآية مِن شيءٍ، فقال: «أما والذي نفسي بيَده إنّها لكَما نزلت، ولكن ابْشِروا وقارِبوا وسدِّدوا، إنّه لا يُـصيب أحـداً مِـنكم مُصيبة إلّا كفّر الله بها خطيئته، حتّىٰ الشّوكة يُشاكها أحدكم في قَدَمه»[٤].

أقول: معنىٰ قاربوا وسدِّدوا: اقْصِدوا في اُموركم، واطْلُبوا بأعمالكم السّداد والاسْتِقامة، مِن غير غُلوٍّ ولا تَقْصير.

عن الباقر عليه السلام: «لمّا نزلَتْ هذه الآية ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ﴾ قال بعضٌ: يا رَسُول الله، ما أشدّها مِن آية! فقال لهم رَسُول الله صلى الله عليه وآله: «أمَا تُبتلون في أنفسكم وأموالكم وذَراريكم؟». قالوا: بَـلىٰ، قـال: «هذا مِمّا يكتُب الله لكم [به] الحسنات، ويمحو به السّيِّئات»[٥].

وفي (الكافي): عنه عليه السلام: «أنّ الله تعالىٰ إذا كان مِن أمره أن يُكرِم عبداً وله ذَنبٌ ابْتلاه بالسَّقَم، فإنْ لَم يفعَل ذلك به ابْتلاه بالحَاجة، فإنْ لَم يفعل ذلك به شدّد عليه الموت، ليُكافئه بذلك الذَّنب»[٦].

---

١. تفسير روح البيان ٢: ٢٩٠. ٢. تفسير القمي ١: ١٥٣، تفسير الصافي ١: ٤٦٤.
٣. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٥/٢٣٤، تفسير الصافي ١: ٤٦٤.
٤. مجمع البيان ٣: ١٧٦، تفسير الصافي ١: ٤٦٥. ٥. تفسير العياشي ١: ١١٢٣/٤٤٥، تفسير الصافي ١: ٤٦٥.
٦. الكافي ٢: ١/٣٢٢، تفسير الصافي ١: ٤٦٥.

وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولٰئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيراً * وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّٰهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَٱتَّخَذَ ٱللّٰهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً [۱۲٤ و ۱۲٥]

﴿وَمَن يَعْمَلْ﴾ بعضاً ﴿مِنَ﴾ الأعمال ﴿ٱلصَّالِحَاتِ﴾ فإنّ أحداً لا يقدِر علىٰ كُلِها، سَواءً كان العامِل ﴿مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بالله، ورَسُوله، واليوم الآخر، فإنّه لا اعْتِداد بالعمل مِن دُون الإيمان ﴿فَأُولٰئِكَ﴾ المؤمنون العامِلون ﴿يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ﴾ في الآخرة بفَضل الله ورَحمته ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ﴾ ولا يُنقَصون مِن ثَواب أعمالهم ﴿نَقِيراً﴾ وقَدَراً قليلاً.

قيل: النَّقير: حُفرة في ظَهر النَّواة، مِنهاينبُت النَّخل، ثمَ صار كِناية عن غاية القِلّة والحَقارة.

قيل: لمَا نزلَتْ ﴿مَن يَعمَل سُوءاً يُجزَ بِهِ﴾ قال أهلُ الكِتاب للمُسلمين: نحنُ وأنتم سَواء، فنزلَتْ هذه الآية إلىٰ قوله: ﴿وَمَن أحسَنُ دِيناً﴾.

ثمّ لمَا شرَط الله الإيمان والعمَل في الثّواب، شرح الشَّرطَين بقوله: ﴿وَمَنْ﴾ يكون مِن أهل الأديان ﴿أَحْسَنُ دِيناً﴾ وأقوم طَريقةً ﴿مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ﴾ وأخلص قَلبه، وجعَل جميع ماله ﴿لِلّٰهِ﴾ وصيّر كُلّه فانياً فيه ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ﴾ في العَمل ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ وشريعته المُوافقة لشَريعة الإسلام، حَال كَون ذلك التّابع ﴿حَنِيفاً﴾ ومائلاً عن الأديان الباطِلة والأهواء الزّائفة.

في وجه تسمية إبراهيم عليه السلام بالخليل

ثمّ بيّن أصلحيّة إبراهيم عليه السلام بالتّبعيّة مِن سائر الأنبياء بقوله: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللّٰهُ إِبْرَاهِيمَ﴾ واصْطفاه مِن جميع خَلقه لنفسه ﴿خَلِيلاً﴾ شَديد المَحبّة والطّاعة له.

قيل: لمَا اطلّعَ إبراهيم عليه السلام علىٰ المَلَكوت الأعلىٰ والأسفل، ودعا قومه مرّة بعدَ أخرىٰ إلىٰ التّوحيد، ومنَعهم عن عِبادة الشّمس والقَمر والنّجم وعِبادة الأوثان، ثمَ سلّم نفسَه للنِّيران، ووَلَده للقُربان، ومالَه للضِّيفان، جَعله الله إماماً للخَلق ورَسُولاً إليهم، وبشّره بأنّ المُلك والنُّبوة فـي ذُرِّيّته. فلهذه الاخْتِصاصات سمّاه خَليلاً؛ لأنّ مَحبّة الله لخَلْقه عِبارة عن إيصال الخَيرات والمَنافع إليه.

عن الصادق عليه السلام: «اتّخذ الله إبراهيم عبداً قبلَ أن يتّخذه نَبيّاً، وأنّ الله اتّخذه نبيّاً قبلَ أن يتّخذه رَسولاً، وأنّ الله اتّخذه رَسُولاً قبلَ أن يتّخذه خليلاً، وأنّ الله اتّخذه خليلاً قبلَ أن يتّخذه إماماً»[1].

عن النبيّ صلى الله عليه وآله، في حديثٍ: «قولُنا: إنّ إبراهيم خَليلُ الله، فإنّما هُو مُشتَقٌ مِن الخَلّة، والخَلّة إنّما معناه: الفَقر والفَاقة، فقد كان خَليلاً إلىٰ رَبّه فقيراً، وإليه مُنقطعاً، وعن غيره مُتعفّفاً مُعرِضاً مُستغنياً،

---

۱. الكافي ۱: ۲/۱۳۳، تفسير الصافي ۱: ٤٦٦.

وذلك أنّه لمّا اُريد قَذْفُه في النّار فرُمي به في المَنْجَنيق، بعث الله إليه جَبْرَئيل فقال له: ادْرِكْ عبدي، فجاءه فلقِيَه في الهَواء، فقال: كلِّفني ما بَدا لك، فقد بعثني الله لنُصْرتك، فقال: بَل حَسْبيَ الله ونِعْم الوَكيل، إنّي لا أسأل غيرَه، ولا حاجة لي إلّا إليه، فسمّاه خَليله، أي فقَيره ومُحتاجه والمُنقطع إليه عمّا سِواه».

قال: «وإذا جُعِل مَعنىٰ ذلك مِن الخَلّة؛ وهُو أنّه قد تَخلّل مَعانيه، ووقف علىٰ أسرارٍ لم يقِف عليها غيرُه، كان[1] معناه العالِم به وبأموره، ولا يُوجب تَشْبيه الله بخَلْقه، ألَا ترَون أنّه إذا لَم ينقطِع إليه لَم يكُن خَليله؟»[2].

وعن الصادق عليه السلام: «إنّما اتّخذ الله إبراهيم خليلاً لأنّه لَم يُرِد أحداً، ولَم يسأل أحداً قَطّ إلّا الله»[3].

وعنه عليه السلام: «لكَثْرة سُجوده علىٰ الأرض»[4].

وعن النبيّ صلى الله عليه وآله: «لإطعامه الطّعام، وصَلاته باللّيل والنّاس نِيام»[5].

وعن الهادي عليه السلام: «لكَثْرة صَلاته علىٰ محمّد وأهل بَيته»[6].

أقول: الجامِع بَيْن الأخبار هُو كَمال معرِفته بالله، وطاعته له.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّماوَاتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطاً﴾[١٢٦]

ثمّ لمّا كان تَسْمية إبراهيم بالخَليل مُوهِمة لخُروجه عن العُبودية، والاحْتياج في ذات الله، دفَع الله سُبحانه التَوهُّمَين ببَيان مالِكيّته لجميع المَوجودات، وكَمال قُدْرته، بقوله: ﴿وَلِلَّهِ﴾ بالمُلْكيّة الإشراقيّة ﴿مَا فِى ٱلسَّماوَاتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فلا يخرُج أحدٌ عن عُبوديته، ولا يَحتاج إلىٰ شيءٍ في اُلوهِيّته.

قيل: لمّا لَم يكُن فيه دَلالة علىٰ عِلْمه وقُدْرته بما هُو خارج عن السّماوات والأرض، أثبت عِلْمه وقُدْرته غير المُتناهِيَين بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ﴾ مِن المَوجودات ﴿مُّحِيطاً﴾ عِلْماً وقُدْرةً، فيختار مِنها ما يَشاء، ويتفضّل بجُوده علىٰ مَن يشاء.

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَاءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَابِ فِى يَتَامَى ٱلنِّسَاءِ ٱلَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِٱلْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ

---

١. زاد في الاحتجاج: الخليل.
٢. الاحتجاج: ٢٤، تفسير الصافي ١: ٤٦٦.
٣. علل الشرائع: ٢/٣٤، تفسير الصافي ١: ٤٦٧.
٤. علل الشرائع: ١/٣٤، تفسير الصافي ١: ٤٦٧.
٥. علل الشرائع: ٤/٣٤، تفسير الصافي ١: ٤٦٧.
٦. علل الشرائع: ٣/٣٤، تفسير الصافي ١: ٤٦٧.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيماً﴾[١٢٧]

ثمّ لمّا وصَف دِين الإسلام المُوافق في غالب أحكامه لمِلّة إبراهيم، وكان مِن جِهات حُسْن الإسلام حِفظ حُقوق الضُّعفاء، وكانت النِّساء والأيتام أضعف النّاس وأولاهم بالرِّعاية، عاد إلىٰ التَوصِية بحفظ حُقوقهم بقوله: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ﴾ ويسألونك عن حُكم الله ﴿فِى﴾ شأن ﴿ٱلنِّسَآءِ﴾ وما لهُنّ مِن المِيراث.

عن الباقر عليه السلام: «سُئل النبيّ صلى الله عليه وآله عن النِّساء، وما لهُنّ مِن المِيراث، فأنزل الله الرُّبع والثُّمن»[١].

رُوي أنّ عيينة بن حصين أتىٰ النبيّ صلى الله عليه وآله فقال: أُخبرنا بأنّك تُعطي الابنة النِّصف والأُخت النِّصف، وإنّما كُنّا نُورِث مَن يشهَد القِتال، ويحُوز الغَنيمة، فقال صلى الله عليه وآله: «كذلِك أُمِرتُ»[٢].

فأمر الله نبيّه صلى الله عليه وآله أن يُجيبهم بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ﴾ ويُبيِّن لكم ما أُبهِم عليكم مِن الحُكم ﴿فِيهِنَّ﴾ وفي أمر إرثهِنّ أن تُؤتوهُنّ إرثهِنّ، ﴿وَ﴾ كذا ﴿مَا يُتْلَىٰ﴾ ويُقرأ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ مِن الآيات ﴿فِى﴾ هذا ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ الكريم، يوضِّح لكم ﴿فِى﴾ حَقّ ﴿يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾ وفي شأن البنات ﴿ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ﴾ وفُرض ﴿لَهُنَّ﴾ مِن المِيراث في آية ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾[٣]، ﴿وَتَرْغَبُونَ﴾ في ﴿أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ لجَمالهِنّ ومالهِنّ.

قيل: كانت اليتيمة عندَ الرَّجُل، فإن كانت ذاتَ جَمالٍ ومال تزوّج بها وأكل مالها، وإن كان ذَميمة فيرغَب الرَّجُل عن أن يتزوّجها، ولايُعطيها مالها، ويمنعها عن النِّكاح حتّىٰ تموت، ويرِث مالها، فنهىٰ الله عن ذلك.

﴿وَ﴾ كذا في ﴿ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ والصِّغار ﴿مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ﴾ هُو يفتيكم أنّ تُعطوا إرثهم.

قيل: إنّ أهل الجاهليّة كانوا لا يُورّثون الوِلدان، وكانوا يقولون: لا نُورّث إلّا مَن قاتل ودفَع عن الحَريم؛ فأنزل الله الآيات التي في أوّل السُّورة وهُو معنىٰ قوله: ﴿لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾[٤].

﴿وَ﴾ في ﴿أَن تَقُومُوا لِلْيَتَٰمَىٰ﴾ في أموالهم وحُقوقهم ﴿بِالْقِسْطِ﴾ والعَدل، وما يُتلىٰ عليكم مِن الكِتاب في حَقّهم قولُه تعالىٰ: ﴿وَءَاتُوا ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوٓا أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾[٥].

ثمّ رغَب الله في حِفظ تِلك الحُقوق بقوله: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ وعمَل صَالح مِن أداة الحُقوق المَذكورة، وغيره مِن الصّالحات ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيماً﴾ فيُجازيكم عليه أحسن الجَزاء.

---

١. تفسير القمي ١: ١٥٤، تفسير الصافي ١: ٤٦٨. ٢. تفسير أبي السعود ٢: ٢٣٨.
٣. النساء: ٤/١١. ٤. مجمع البيان ٣: ١٨٠، تفسير الصافي ١: ٤٦٨. ٥. النساء: ٤/٢.

وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنْفُسُ ٱلشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ٱللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً[١٢٨]

ثمّ بيّن فتوىً وحُكماً آخر في شأن النِّساء بقوله: ﴿**وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا**﴾ بسبَب ظُهور الأمارات ﴿**نُشُوزاً**﴾ وتَجافياً عنها، وترفُّعاً عن أداء حُقوقها لكَراهَته لها ﴿**أَوْ**﴾ خافت ﴿**إِعْرَاضاً**﴾ له مِنها وطَلاقها، وعدَم الاعْتِناء بها، والالْتِفات إليها معَ حِفظ حُقوقها ﴿**فَلَا جُنَاحَ**﴾ ولا حَرَج ﴿**عَلَيْهِمَا**﴾ إذَن في ﴿**أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً**﴾.

قيل: نزلَت في سَوْدة بِنت زمْعة، كانت كبيرة مُسِنّة، أراد النبيّ ﷺ طَلاقها، فالْتمسَتْ أن يُمسِكها ويجعل نَوْبتها لعائشة، فأجاز النبيّ ﷺ ذلك ولَم يُطلّقها[١].

وعن ابن عبّاس رضي الله عنه: نزلَت في ابن أبي السّائب، كانت له زَوجة وله مِنها أولاد، وكانت شَيخة، فهَمّ بطَلاقها فقالت: لا تُطلّقني، ودَعني أشتغِل بمَصالح أولادي، واقسِم في كُلّ شَهر ليالي قليلة، فقال الزّوج: إن كان الأمر كذلك فهُو أصلح[٢].

وعن الصادق عليه السلام: «هِي المرأة تكون عندَ الرّجُل فيكرَهها، فيقول لها: إنّي أُريد أن اُطلّقكِ، فتقول له: لا تفعل، إنّي أكره أن يُشمَت بي، ولكن انظُرْ في ليلتي فاصْنَع بها ما شِئتَ، وما كان سِوىٰ ذلك مِن شيءٍ فهُو لك، ودَعْني علىٰ حالتي. وهُو قوله تعالى: ﴿**فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً**﴾ هذا هُو الصُّلح»[٣].

ثمّ ندَب الله تعالىٰ إلىٰ الصُّلح بقوله: ﴿**وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ**﴾ مِن الفُرْقة وسُوء العِشرة.

ثمّ أشار إلىٰ بُعْد وُقوع الصُّلح بذِكْر عِلّته بقوله: ﴿**وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ**﴾ وطُبع فيها ﴿**ٱلشُّحَّ**﴾ والبُخل، فلا المرأة تسمَح بحُقوقها مِن الرّجُل، ولا الرّجُل يجُود بحُسْن العِشرة معَ الزّوجة الذّميمة المُسِنّة، ولِذا حَثّ الله تعالىٰ كُلّاً منهما إلىٰ الإحسان إلىٰ الآخر بقوله: ﴿**وَإِن تُحْسِنُوا**﴾ أيُّها الأزواج، كُلٌّ إلىٰ الآخر ببَذْل الحُقوق، والإمساك بالمعروف، وحُسْن العِشرة ﴿**وَتَتَّقُوا**﴾ الله ولا تَعصُوه بالظُّلم، وإساءة الكلام، واللّجاج في الخُصومة ﴿**فَإِنَّ ٱللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾ مِن الإحسان والتّقوىٰ ﴿**خَبِيراً**﴾ فيُجازيكم عليه أحسن الجَزاء.

قيل: إنّ الخِطاب إلىٰ غير الزّوجين، والمُراد: إن تُحسنوا في المُصالحة بينهما، وتتّقوا المَيل إلىٰ

---

١. تفسير الرازي ١١: ٦٥.
٢. تفسير الرازي ١١: ٦٥.
٣. الكافي ٦: ٢/١٤٥، تفسير العياشي ١: ١١٢٩/٤٤٧، تفسير الصافي ١: ٤٦٩.

واحدٍ مِنهما[١].

عن الزَمخشري: أنّ عِمران بن حطّان الخارجي، كان مِن أذَمَ[٢] بني آدم، وامرأته مِن أجملهم، فنظرت إليه يوماً فقالت: الحمدُ لله. فقال عِمران: مالَك؟ فقالت: حمِدتُ الله علىٰ أنّي وإيّاك مِن أهل الجنّة؛ لأنك رُزِقتَ مِثلي فشكرتَ، ورُزِقتُ مِثلَك فصبَرتُ، وقد وَعد الله بالجنّة عِبادَهُ الشاكرين والصابرين[٣].

وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ ٱلنِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً[١٢٩]

ثمّ أمر الله عزّ وجلّ بالعَدل والتّسوية بيْن الزَوجات في حُسْن العِشرة، دُون المَيل القَلبي، بقوله: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعوا﴾ أيُّها الأزواج ﴿أَن تَعْدِلُوا﴾ وتُسَوُّوا ﴿بَيْنَ ٱلنِّسَاءِ﴾ في المَحبّة، والمَيل القَلبي كما رُوي[٤]، أو في جميع الأمور وجميع الوجُوه علىٰ رِوايةٍ أُخرىٰ[٥] ﴿وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ علىٰ ذلك وبالغتُم فيه، ولِذا لَم يُكلّفكم الله به، إذَن ﴿فَلَا تَمِيلُوا﴾ ولا تُعرِضوا عن إحداهما إلىٰ الأُخرىٰ ﴿كُلَّ ٱلْمَيْلِ﴾ ومِن جميع الجِهات ﴿فَتَذَرُوهَا﴾ وتُبقوها أو تترُكوها ﴿كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾ لا أيّماً[٦] حتّىٰ تختار زَوجاً، ولا ذاتَ بَعْل حتّىٰ تنتفِع ببَعْلها.

وعن ابن مَسعود: فتذروها كالمَسجونة[٧].

رُوي أنّ النبيّ ﷺ كان يَقسِم بيْن زَوجاته ويقول: «اللّهمّ هذا قَسْمي في ما أملِك، وأنت أعلم بما لا أملِك»[٨].

عن الصادق عليه السلام، عن آبائه، عن النبيّ ﷺ أنّه كان يقسِم بيْن نِسائه في مَرضه، فيُطاف به بينَهُنّ[٩].

ورُوي أنّ عليّاً عليه السلام كان له امرأتان، إذا كان يوم واحدةٍ لا يتوضّأ في بَيْت الأُخرىٰ[١٠].

﴿وَإِن تُصْلِحُوا﴾ بالعَدل في القَسْم، أو مامضىٰ مِن مَيْلكم، وتتداركوه بالتّوبة ﴿وَتَتَّقُوا﴾ عن الجَور، أو عن المَيل في المُستقبل ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُوراً﴾ لمَيل قُلوبكم في ما مضىٰ ﴿رَحِيماً﴾ بكم بعدَم التّشديد عليكم في التّكاليف.

---

١. تفسير الرازي ١١: ٦٧.

٢. في تفسير الرازي والكشاف: أدمّ، والأذَمّ: هو من يعلو وجهه بَثر اسود فيصبح قبيح الوجه، والأدَمّ: الشديد الأدمة، أي السُّمرة.

٣. تفسير الرازي ١١: ٦٧، الكشاف ١: ٥٧١.

٤ و٥) مجمع البيان ٣: ١٨٥، تفسير الصافي ١: ٤٦٩.

٦. الأيِّم: المرأة بلا زوج بكراً أو ثيّباً.

٧. تفسير الرازي ١١: ٦٨، تفسير أبي السعود ٢: ٢٤٠.

٨. مجمع البيان ٣: ١٨٥، تفسير الصافي ١: ٤٧٠.

١٠. مجمع البيان ٣: ١٨٥، تفسير الصافي ١: ٤٧٠.

وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللهُ كُلاً مِن سَعَتِهِ وَكَانَ ٱللهُ وَاسِعاً حَكِيماً[١٣٠]

ثمّ أشار سُبحانه إلىٰ رُجْحان التّفريق عندَ عدَم الصُّلح وتَوافُقهما عليه، بقوله: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا﴾ وأبَيَا مِن الصُّلح، واجْتمعا علىٰ الطّلاق ﴿يُغْنِ ٱللهُ كُلاً﴾ مِن الزّوجين، ويَكفي مُهمّاته ﴿مِن سَعَتِهِ﴾ ورَحمته وغِناه وقُدْرته ﴿وَكَانَ ٱللهُ وَاسِعاً﴾ في القُدْرة والرّحمة والرِّزق ﴿حَكِيماً﴾ ومُتقناً في أحكامه وأفعاله.

في (الكافي): عن الصادق عليه السلام، أنّه شكا رَجلٌ إليه الحاجة، فأمره بالتّزويج فاشْتدَت به الحاجة، فأمره بالمُفارقة فأثرىٰ وحَسُن حالُه، فقال: «أمرتُك بأمرين أمرَ الله بهما، قال: ﴿وأنكِحُوا الأيَامَىٰ مِنكُم -إلىٰ قوله- إن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ﴾[1]، وقال: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللهُ كُلاً مِن سَعَتِهِ﴾»[2].

وَلِلهِ مَا فِى ٱلسَّماوَاتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا ٱللهَ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلهِ مَا فِى ٱلسَّماوَاتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللهُ غَنِيّاً حَمِيداً[١٣١]

ثمّ قرّر الله سُبحانه سَعَة قُدْرته ورَحمته بقوله: ﴿وَلِلهِ مَا فِى ٱلسَّماوَاتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مِن المَوجودات، فإذا كان كذلك فهُو واسِعٌ حِكْمةً وقُدْرةً ورَحمةً، فيُغنيكم عن زَوجكم وعن غَيره.

ثمّ لمّا حثّ سُبحانه على[3] التّقوىٰ في الآيتين السّابقتين، بَيّن الله أنّه شَريعة عامّة، بقوله: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ﴾ السّماوي ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ كاليَهود والنّصارىٰ وغيرهم مِن المِلَل، وأمرناهم في كُتُبهم ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ يا اُمّة خاتَم النّبيّين في كتابكم ﴿أَنِ ٱتَّقُوا ٱللهَ﴾ في أوامره ونَواهيه، ﴿وَ﴾ قلنا: ﴿إِن تَكْفُرُوا﴾ بالله ﴿فَإِنَّ لِلهِ مَا فِى ٱلسَّماوَاتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ومِنه وُجود المُمكنات، فلا يَحتاج إلىٰ إيمانكم، ولا يتضرّر بكُفْرهم ﴿وَكَانَ ٱللهُ غَنِيّاً﴾ عن جميع المَوجودات، وعن إيمانكم ﴿حَمِيداً﴾ في ذاته حمِدتُموه أو لا تَحمَدوه.

وَلِلهِ مَا فِى ٱلسَّماوَاتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللهِ وَكِيلاً * إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ ٱللهُ عَلَىٰ ذٰلِكَ قَدِيراً[١٣٢ و ١٣٣]

---

١. النور: ٣٢/٢٤. ٢. الكافي ٥: ٦/٣٣١، تفسير الصافي ١: ٤٧٠. ٣. في النسخة: إلىٰ.

ثمَ بالغ في تَقرير قُدْرته وغِناه بقوله: ﴿وَلِلهِ مَا فِى ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لا يخرُج عن سُلطانه شيءٌ، وهُو مُدبّر اُمور الكائنات ﴿وَكَفَىٰ بِاللهِ وَكِيلاً﴾ ومُدبراً للاُمور.

قيل: إنّ الله تعالىٰ بتَكرار قوله: ﴿وَلِلهِ ما فِى ٱلسَّماوَاتِ﴾ إلىٰ آخره ثلاثَ مرّات، قرّر ثلاثَة اُمور: فبالمرّة الأولىٰ قرّر سَعَة جُوده وكَرَمه وحِكْمته في أفعاله وأحكامه. وبالمرّة الثانية قرّر غِناه عن إيمان الخَلْق وطَاعتهم وتَقواهم، وعدَم تضرُّره بكُفْر الكافرين وعِصيان العاصين. وبالمرّة الثالثة قرّر كمال قُدْرته مُقدّمة للتّهديد[١] بقوله: ﴿إِن يَشَأْ﴾ الله ﴿يُذْهِبْكُمْ﴾ ويُفنيكم عن وَجْه الأرض ﴿أَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ بالمرّة بحَيث لا يبقىٰ مِنكم أثر ﴿وَيَأْتِ﴾ مَكانكم ﴿بِآخَرِينَ﴾ مِن جِنسكم ﴿وَكَانَ ٱللهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ﴾ الإعدام والإيجاد ﴿قَدِيراً﴾ مُقتدراً، لا يمنَعه عن إنفاذ إرادته شيءٌ.

رُوي أنّه لمَا نزلَتْ الآية ضرب النبيّ ﷺ يدَه علىٰ ظَهر سَلمان ﷺ وقال: «هُم قومُ هـذا» يعني عَجَم الفُرْس[٢].

ورُوي أنّه لا أحد أصبر علىٰ أذىً سمِعه مِن الله، إنّه يُشرَك به ويُجعل له الوَلد ثـمّ هـو يُعافيهم ويرزُقهم[٣].

مَن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلآخِرَةِ وَكَانَ ٱللهُ سَمِيعاً بَصِيراً[١٣٤]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ التّهديد والتّرهيب علىٰ الكُفْر وتَرْك التّقوىٰ، رغّب النّاس في الإيمان والطّاعة بقوله: ﴿مَن كَانَ﴾ بعمَله ﴿يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ وأمتِعتها الفانية فليَقُم إلىٰ طاعة الله ﴿فَعِندَ ٱللهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلآخِرَةِ﴾ فإنّ العاقل لا يقنَع بالقَليل الفاني، معَ تمكّنه مِن الكثير الباقي ﴿وَكَانَ ٱللهُ سَمِيعاً﴾ لأقوالكم ﴿بَصِيراً﴾ بأعمالكم وضَمائركم، فليُثيبنّكم علىٰ قَدْر طاعتكم وخُلوص نِيّتكم.

عن الصادق، عن أبيه، عن آبائه، عن أمير المؤمنين ﷺ، قال: «كانت الحُكَماء والفُقهاء إذا كاتب بعضُهم بعضاً كَتبوا بثلاث ليس معهُنّ رابعة: مَن كانت الآخرة هِمّته كَفاه الله همّه فـي الدُّنـيا، ومَـن أصلح سَريرته أصلح الله عَلانيته، ومَن أصلح ما بَيْنه وبَيْن الله أصلح الله ما بَيْنه وبَيْن النّاس»[٤].

وعن الصادق ﷺ: «الدُّنيا طالبة ومطلوبة، فمَن طلَب الدُّنيا طلَبه الموت حتّىٰ يُخرجه مِنها، ومَـن طلب الآخرة طلَبتهُ الدُّنيا حتّىٰ تُوفيه رِزقه»[٥].

---

١. تفسير الرازي ١١: ٧٠.
٢. مجمع البيان ٣: ١٨٧، تفسير الصافي ١: ٤٧١.
٣. تفسير روح البيان ٢: ٢٩٩.
٤. الخصال: ١٢٩/١٣٣، تفسير الصافي ١: ٤٧١.
٥. من لا يحضره الفقيه ٤: ٢٩٣/٨٨٣، تفسير الصافي ١: ٤٧١.

يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَالِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فَاللهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا ٱلْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ ٱللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً[١٣٥]

ثمّ لمّا بيّن الله وُجوب العَدل بَين الزّوجَات، والالْتِزام بالتّقوىٰ، والتّرهيب مِن تَركه، والوَعد بالثّواب عليه، بَيّن وُجوب العَدل في العَمل، وإقامته بيْن النّاس، بقوله: ﴿**يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ**﴾ مُقيمين علىٰ العَدل، مُواظبين عليه، مُجدّين فيه، وأقيموا العَدل بَيْن النّاس بكَونكم ﴿**شُهَدَاءَ**﴾ بالحَقّ ﴿**لِلهِ**﴾ وطلَباً لمَرضاته وثَوابه ﴿**وَلَوْ**﴾ كانت الشّهادة ﴿**عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ**﴾ بأن تُقِرّوا عليها ﴿**أَوِ**﴾ علىٰ ﴿**ٱلْوَالِدَيْنِ**﴾ الذين هُم أعزّ النّاس عندَكم ﴿**وَ**﴾ أحقّهم عليكم، أو علىٰ الأرحام ﴿**ٱلْأَقْرَبِينَ**﴾.

وفي تَقْديم الأمر بالقِيام بالقِسط علىٰ الأمر بالشّهادة بالحَقّ إشعارٌ بأنّ حَمْل الإنسان نفسَه علىٰ العَدل مُقدَم على حَمل الغَير عليه، وأنّ دَفْع الضّرَر عن النّفس أولىٰ مِن دَفْع الضّرَر عن الغير.

ثمّ نهىٰ الله سُبحانه عن الشّهادة بغَير الحَقّ، أو كِتمانها طلَباً لرِضا الغَنِيّ أو تَرحُّماً علىٰ الفقير بقوله: ﴿**إِن يَكُنْ**﴾ المَشهود عليه ﴿**غَنِيّاً**﴾ ذا ثَروة ﴿**أَوْ فَقِيراً**﴾ فليس لكم أن تَرعَوا مَصْلحتهما في الشّهادة ﴿**فَاللهُ**﴾ الخالِق لهما، المُدبّر لأمورهما ﴿**أَوْلَىٰ بِهِمَا**﴾ وأحقّ برعاية مَصلحتهما ﴿**فَلَا تَتَّبِعُوا ٱلْهَوَىٰ**﴾ واترُكوا مُوافقة شَهوة النّفس لأجل ﴿**أَن تَعْدِلُوا**﴾ في القول، وتنطِقوا بالحَقّ ﴿**وَإِن تَلْوُوا**﴾ وتحرفوا ألسنتكم عن الشّهادة بالحَقّ، بأن تشهدوا بغيره ﴿**أَوْ تُعْرِضُوا**﴾ عن أداء الشهادة رأساً وتكتُموها ﴿**فَإِنَّ ٱللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾ مِن تَغْيير الشّهادة أوكِتمانها، وتَضْييع حُقوق المُؤمنين ﴿**خَبِيراً**﴾ ومُطّلِعاً فيُعاقبكم عليه أشدّ العِقاب.

عن الباقر عليه السلام: «﴿**إِن تَلْوُوا**﴾ أي تُبدّلوا الشّهادة، ﴿**أَوْ تُعْرِضُوا**﴾ أي تكتمُوها»[١].

وعن الصادق عليه السلام: «﴿**إِن تَلْوُوا**﴾ الأمر ﴿**أَوْ تُعْرِضُوا**﴾ عمّا أمرتم [به]»[٢].

عن ابن عبّاس رضي الله عنه: أنّ المُراد بالآية: القاضي يتقدّم إليه الخَصمان، فيُعرض عن أحدهما، ويُدافع في إمضاء الحَقّ، أو لا يُسوّي بينهما في المجلس والنّظَر والإشارة[٣].

يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَٱلْكِتَابِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ

---

١. مجمع البيان ٣: ١٩٠، تفسير الصافي ١: ٤٧٢.
٢. الكافي ١: ٤٥/٣٤٩، تفسير الصافي ١: ٤٧٢.
٣. تفسير روح البيان ٢: ٣٠١.

وَٱلْكِتَابِ ٱلَّذِى أَنْزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً[١٣٦]

ثمَ لمّا كان القِيام بالقِسْط، والشّهادة بالحَقّ ولَو علىٰ النّفس، وتَرك اتّباع الهَوىٰ مَنوطاً بحقيقة الإيمان ورُسوخه في القَلب، أمر الله سُبحانه بتَحْصيل حَقيقة الإيمان بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ في الظاهِر وباللِّسان ﴿آمِنُوا﴾ في الواقِع، وعن صَميم القَلب ﴿بِاللهِ وَرَسُولِهِ﴾ بالتّوحيد والرِّسالة ﴿وَٱلْكِتَابِ﴾ المَجيد ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ﴾ الله بنَحْوِ ما ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ محمّد ﷺ ﴿وَالكِتَابِ ٱلَّذِى أَنْزَلَ﴾ دُفعةً ﴿مِن قَبْلُ﴾ أعظمه التّوراة والإنجيل، وآزدادوا في جميع هذه العقائد طُمأنينةً ويقيناً.

رُوي أنّ جَماعة مِن أحبار اليَهُود جاءوا إلىٰ النبيّ ﷺ وقالو: يا رَسُول الله، إنّا نُؤمن بك وبكِتابك، وبمُوسىٰ والتّوراة، وبُعزير، ونكفُر بما سِواه مِن الكُتُب والرُّسُل، فقال ﷺ: «بَل آمنوا بالله وبرُسُله، وبمحمّد وبكِتابه القُرآن، وبكُلّ كتاب كان قبلَه»، فقالوا: لا نفعَل. فنزلَتْ هذه الآية[١].

ثمّ هدّد الله سُبحانه الكافرين بقوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ﴾ مِن النّاس ﴿بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ مِن آدم إلىٰ خاتَم [الأنبياء] ﴿وَالْيَوْمِ ٱلآخِرِ﴾ ودَار الجَزاء جميعاً، أو بأحدٍ مِن المَذكورات ﴿فَقَدْ ضَلَّ﴾ عن صِراط الحَقّ ﴿ضَلَالاً بَعِيداً﴾ عنه بحيث لا يَكاد يَصِل إليه.

إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ٱزْدَادُوا كُفْراً لَمْ يَكُنِ ٱللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً * بَشِّرِ ٱلْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً[١٣٧ و ١٣٨]

ثمّ بيّن أنّ الايمان المَطلوب المُفيد هُو الإيمان المُستقرّ الثّابت، بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بمحمّد ﷺ ﴿ثُمَّ كَفَرُوا﴾ به وارْتدّوا كالمُنافقين ﴿ثُمَّ آمَنُوا﴾ مرّة ثانية ﴿ثُمَّ كَفَرُوا﴾ وارْتدّوا ﴿ثُمَّ ٱزْدَادُوا كُفْراً﴾ وأصَرّوا علىٰ الجُحود وإنكار الحَقّ حتّىٰ ماتوا عليه.

قيل: إنّ المُراد: اليَهود، آمنوا بمُوسىٰ والتّوراة، ثمّ كفروا بعُزير، ثمّ آمنوا بدَاوُد، ثمّ كفَروا بعيسىٰ، ثمّ ازْدادوا كُفْراً بمحمّد ﷺ[٢].

أقول: هذا التّفسير في غاية البُعْد وعلىٰ أيّ تَقدير ﴿لَمْ يَكُنِ ٱللهُ لِيغفِرَ لَهُم﴾ أبداً ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً﴾ إلىٰ الحَقّ والجنّة.

عن القُمّي ﷺ: نزلَتْ في الّذِين آمنوا برَسُول الله ﷺ إقراراً لا تَصْديقاً، ثمّ كفَروا لمّا كَتبوا الكِتاب فيما بينهم أن لا يردّوا الأمر في أهل بَيْته أبداً، فلمّا نزلَتْ الولاية وأخذ رَسُول الله ﷺ الميثاقَ لأمير

---

١. تفسير الرازي ١١: ٧٥.

٢. تفسير الرازي ١١: ٧٨.

المُؤمنين عليه السلام آمنوا إقراراً لا تَصْديقاً، فلمّا مضىٰ رَسُول الله صلى الله عليه وآله كفَروا وازدادوا كُفراً[1].

وعن الصادق عليه السلام: «نزلَتْ في فُلان وفُلان وفُلان، آمنوا برَسُول الله صلى الله عليه وآله في أوّل الأمر، ثمّ كفَروا حينَ عُرِضت عليهم الوِلاية؛ حيث قال [النبي صلى الله عليه وآله]: مَن كُنْتُ مَولاه فعليٌّ مَولاه. ثمّ آمنوا بالبَيْعة لأمير المُؤمنين عليه السلام، حيث قالوا: بأمر الله وأمر رَسُوله. وبايعوه، ثمّ كفَروا حيثُ مضىٰ رَسُول الله صلى الله عليه وآله فلَم يُقِرّوا بالبَيعة، ثمّ ازدادوا كُفراً بأخذهم من بايعه بالبيعة لهم، فهؤلاء لَم يبقَ فيهم مِن الإيمان شيءٌ»[2].

وفي رِواية عنهما عليهما السلام: «نزلَتْ في عبدالله بن أبي سَرح الذي بعثه عُثمان إلىٰ مِصر [قال]: **﴿ثُمَّ آزْدَادُوا كُفْراً﴾** حتىٰ لَم يبقَ فيه مِن الإيمان شيءٌ»[3].

وفي رِواية: «مَن زعَم أنّ الخَمر حَرام ثمّ شرِبها، ومَن زعَم أن الزِّنا حَرام ثمّ زنىٰ، ومَن زعَم أنّ الزّكاة حَقّ ولَم يُؤدّها»[4].

أقول: بعضُ الرِّوايات [في] بَيان التّنزيل، وبعضها [في] بَيان التّأويل فلا مُنافاة.

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَما يأس المُنافقين[5] مِن المَغفرة والهِداية إلىٰ الحَقّ أو الجنّة، أوعدَهم بلَفظ البِشارة تَهكُّماً بدُخول النّار، بقوله: **﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَافِقِينَ﴾** يا محمّد **﴿بِأَنَّ لَهُمْ﴾** في الآخرة **﴿عَذَاباً﴾** بالنّار **﴿أَلِيماً﴾** مُوجِعاً يخلُص ألمُه في قُلوبهم.

ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً[١٣٩]

ثمّ لمّا ذكَر الله سُوء حالِ المُنافقين، عرّفهم بقوله: **﴿ٱلَّذِينَ﴾** هُم **﴿يَتَّخِذُونَ﴾** ويختارون لأنفسهم **﴿ٱلْكَافِرِينَ﴾** مِن اليَهود والمُشركين **﴿أَوْلِيَاءَ﴾** وأصدقاء ويَرْكَنون إليهم في العَون والنُّصْرة **﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾** المُخلصين، وبدَلاً مِنهم.

ثمّ أنكر عليهم الدّاعي لمُوالاتهم بقوله: **﴿أَيَبْتَغُونَ﴾** ويطلُبون لأنفسهم بمُوالاة الكُفّار و**﴿عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ﴾** والقُوّة، معَ أنهم أذلّاء عندَ الله، فقد أخطأوا في ما توهّموه **﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ﴾** والقُوة والغَلَبة **﴿لِلَّهِ﴾** وَحْده **﴿جَمِيعاً﴾** وبتَمام مَراتبها، ليسَ لأحدٍ غيره وغَير مَن جعَلها له، وهُم الرّسُول صلى الله عليه وآله والمُؤمنون،

---

١. تفسير القمي ١: ١٥٦، تفسير الصافي ١: ٤٧٣.

٢. الكافي ١: ٤٢/٣٤٨، تفسير العياشي ١: ١١٣٤/٤٥١، تفسير الصافي ١: ٤٧٣.

٣. تفسير العياشي ١: ١١٣٢/٤٥٠، تفسير الصافي ١: ٤٧٣.

٤. تفسير العياشي ١: ١١٣٣/٤٥١، تفسير الصافي ١: ٤٧٣.

٥. يقال: يأسه من كذا، بمعنى أيأسه أو جعله ييأس.

كما قال: ﴿وَلِلَّهِ العِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلمُؤمِنِينَ﴾[1].

عن القُمّي: نزلَتْ في بني أميّة، حيثُ خالفوا [نبيّهم على] أنْ لا يرُدّوا الأمر في بني هاشم[2].

وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ ٱللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ إِنَّ ٱللهَ جَامِعُ ٱلْمُنَافِقِينَ وَٱلْكَافِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعاً[١٤٠]

ثمّ قرع المُنافقين المُوافقين للكُفّار مُخاطباً بقوله: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها المُنافقون آية ﴿فِى﴾ هذا ﴿ٱلكِتَابِ﴾ الكريم، يكون مَفادُها ﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ﴾ مِن الكُفّار ﴿آيَاتِ ٱللهِ﴾ حَال كَون تِلك الآيات المَقروءة ﴿يُكْفَرُ بِهَا﴾ ويُنكرون كَونها مِن الله ﴿وَيُسْتَهْزأُ بِهَا﴾ عندَ قِراءتها ﴿فَلَا تَقْعُدُوا﴾ في مَجلس الكَفَرة المُستهزئين، ولا تُجالسوا ﴿مَعَهُمْ﴾ اختياراً ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُوا﴾ ويشرعوا ﴿فِىحَدِيثٍ﴾ وكلامِ ﴿غَيْرِهِ﴾ فإن قعَدتُم معَ الكُفّار في مَجلس يكفُرون بالآيات ويستهزئون بها ﴿إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ﴾ عندَ الله في الكُفْر والعِقاب، أو في الإثم، لقُدْرتكم علىٰ الإنكار وتَرك المُجالسة.

نقل الفخر الرازي عن المُفسّرين: أنّ المُشركين كانوا في مَجالسهم يخُوضون في ذِكْر القُرآن ويستهزئون به، فأنزل الله: ﴿وَإِذَا رَأَيتَ ٱلَّذِينَ يخُوضُونَ فِى آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾[3]، وهذه الآية نزلَتْ بمكّة.

ثمّ أنّ أحْبار اليَهود بالمدينة كانوا يفعَلون مِثْل فِعْل المُشركين، والقاعدون معَهم والموافقون لهم علىٰ ذلك الكلام هُم المُنافقون، فقال تعالىٰ مُخاطباً للمُنافقين: إنّه ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَابِ﴾ الآية[4]، فدلّتْ الآية علىٰ أنّ الرّاضي بالفِسْق، والحاضر في مَجلسه مع قُدْرته علىٰ الإنكار، في حُكم المُباشر وإن لَم يرتكب.

عن الرضاعليه السلام، في تفسير الآية: «إذا سمِعتَ الرّجُل يجحَد الحَقّ، ويُكذّب به، ويقَع في أهله، فقُم مِن عندَه ولا تُقاعده»[5].

وعن الصادقعليه السلام: «وفرَض الله [علىٰ السمع] أن يَتنزّه عن الاسْتِماع [إلىٰ] ما حرّم الله، وأن يعرِض عمّا[6] نهىٰ الله عنه، والإصغاء إلىٰ ما أسخط الله، فقال في ذلك: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى

١. المنافقون: ٨/٦٣. ٢. تفسير القمي ١: ١٥٦، تفسير الصافي ١: ٤٧٣. ٣. الأنعام: ٦٨/٦.

٤. تفسير الرازي ١١: ٨١.

٥. تفسير العياشي ١: ١١٣٥/٤٥١، مجمع البيان ٣: ١٩٥، تفسير الصافي ١: ٤٧٤.

٦. زاد في تفسير العياشي والكافي: لا يحل له مما.

﴿ٱلْكِتَابِ﴾ الآية، ثمّ استثنىٰ موضع النّسيان فقال: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ﴾»[١].

القُمّي رحمه الله: آيات الله: هُم الأئمة عليهم السلام[٢].

ثمّ حقّق سُبحانه كَون المُنافقين المُوافقين للكُفّار مِثْلهم في العِقاب، بقوله: ﴿إِنَّ ٱللهَ جَامِعُ ٱلْمُنَافِقِينَ﴾ القاعدين مع المُستهزئين بالقُرآن ﴿وَٱلْكَافِرِينَ﴾ المَقعود معهم يومَ القِيامة ﴿فِى جَهَنَّمَ جَمِيعاً﴾.

ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ ٱللهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً[١٤١]

ثمّ عرّف المُنافقين بتَعريفٍ آخر بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ﴾ ويَنتظِرون ﴿بِكُمْ﴾ وبما يحدُث لكم في جِهاد الكُفّار ﴿فَإِن كَانَ﴾ وحصَل ﴿لَكُمْ﴾ في جِهاد ﴿فَتْحٌ﴾ وظَفَر ﴿مِنَ﴾ جانِب ﴿ٱللهِ﴾ وبعَوْنه وتأييده ﴿قَالُوا﴾ طلباً لقسمةٍ مِن الغَنيمة ﴿أَلَمْ نَكُن﴾ مُوافقين ﴿مَعَكُمْ﴾ في الدِّين والدَّعوة إلىٰ الإسلام، مُظاهِرين لكم في القِتال فأشرِكونا في الغَنائم ﴿وَإِن كَانَ﴾ بحَسَب الاتّفاق ﴿لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ﴾ وحَظّ مِن الغَلَبة علىٰ المُسلمين ﴿قَالُوا﴾ للكافرين تَحبُّباً لهم ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ﴾ ولَم نَسْتَولِ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ ولَم نكُن مُتمكّنين مِن قَتلكم وأسركم بمُظاهرة المُسلمين فكفَفْنا عنكم، ﴿وَ﴾ ألَم ﴿نَمْنَعْكُم﴾ ونحفَظكم ﴿مِنَ﴾ بأس ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بأن خَيّلنا لهم ما ضعُفت به قُلوبهم، وتَوانينا مِن مُظاهرتهم عليكم؟

قيل: إنّ الكُفّار واليَهود أرادوا الدُّخول في الإسلام، فحذّرهم المُنافقون عن ذلك، وبالَغوا في تَنْفيرهم عنه، وقالوا لهم: إنّه سيضعُف أمرُ محمّد وَيقوىٰ أمرُكم. فإذا اتّفقت لهم الصَّولة قالوا: ألسنا غَلَبنا علىٰ رأيكم في الدُّخول في الإسلام، ومنَعناكم مِنه، فلِذا فادْفَعوا إلينا نَصيباً مِمّا أصبتُم.

وإنّما سمّىٰ الله غَلَبة المُؤمنين فَتحاً، وغَلَبة الكُفّار نَصيباً، تعظيماً لشأن غَلَبة المُسلمين، وتحقيراً لغَلَبة الكافرين[٣].

ثمّ لمّا أجرى الله علىٰ المُنافقين حُكم الإسلام في الدُّنيا لمَصلحة رَغبة العُموم في الإسلام

---

١. تفسير العياشي ١: ١١٣٧/٤٥٢، الكافي ٢: ١/٢٩، تفسير الصافي ١: ٤٧٤، والآية من سورة الأنعام: ٦٨/٦.

٢. تفسير القمي ١: ١٥٦، تفسير الصافي ١: ٤٧٤. ٣. تفسير الرازي ١١: ٨٢.

الظّاهِري وغيرها، وعَد التّفريق بَيْن المؤمنين الخُلّص، وبيَن المُنافقين في الآخرة مُخاطباً لجميعهم بقوله: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ أيُّها الفَريقان بالفَرْق والامتِياز في الظّاهِر ﴿يَوْمَ الْقِيامَةِ﴾ بإكرام المؤمنين الخُلّص[١] وإعطائهم الثّواب الجَزيل، وإذلال المُنافقين وإدخالهم النّار.

ثمّ لمّا أثبت الله للكُفّار الغَلَبَة الاتّفاقيّة بالسّيف، نفىٰ عنهم الغَلَبة علىٰ المؤمنين بالحُجّة بقوله: ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلكَافِرِينَ﴾ ولَم يفتَح لهم ﴿عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾ بالحُجّة أبداً، وإن اتّفق لهم عليهم أحياناً وبحَسَب الحِكْمة سبيلاً في القُوّة.

في معنىٰ عدم جعل السبيل للكفار علىٰ المؤمنين

عن الرضا عليه السلام - في روايةٍ - أنّه قيل له: قومٌ يزعُمون أنّ الحُسين بن علي عليهما السلام لَم يُقتَل، وأنّه ألقِي شَبَهُهُ علىٰ حَنظلة بن أسعد الشّامي[٢]، وأنّه رُفِع إلىٰ السّماء كما رُفِع عيسىٰ بن مَريم، ويحتجّون بهذه الآية: ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾؟

فقال عليه السلام: «كَذَبوا، عليهم غضَب الله ولعنته، وكفَروا بتَكْذيبهم النبي صلى الله عليه وآله في إخباره بأنّ الحُسين عليه السلام سيُقتَل، والله لقد قُتِل الحُسين عليه السلام، وقُتل مَن كان خيراً مِن الحُسين؛ أمير المؤمنين، والحسَن بن عليّ، ومامِنّا إلّا مَقتول، وإنّي لوالله مَقتول باغتِيال مَن يَغتالني، أعرف ذلك بعَهدٍ مَعهودٍ إليّ مِن رَسُول الله صلى الله عليه وآله أخبره به جَبْرئيل عن رَبّ العالَمين.

فأمّا قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾ فإنّه يقول: لَن يجعَل اللهُ لكافرٍ علىٰ مُؤمنٍ حُجّة، ولقد أخبر الله عن كُفّارٍ قَتَلوا النَّبِيِّين بغَير الحَقّ، ومعَ قَتْلهم إيّاهم لَن يجعَل اللهُ لَهم علىٰ أنبيائهم سبيلاً مِن طَريق الحُجّة»[٣].

وقيل: إنّ المُراد مِن عدَم جَعْل السّبيل في القِيامة وقيل: إنّه عامّ في الكُلّ إلّا ما خَصّه الدّليل[٤].

أقول: الظّاهِر أنّ المُراد مِن جَعْل الله في المَقام: الجَعْل التّشريعي لا التّكويني، ولا الأعمّ مِنهما حتّىٰ يشمَل الغَلَبَة في الحَرب والمُصارعة وأمثالهما، ويُمكِن أن يكون أعمَّ مِن جَعْل الآيات الدّالة علىٰ الحَقّ والأحكام الوَضعيّة أو التّكليفيّة، المُوجبة لاستِيلاء الكُفّار علىٰ المُؤمنين، ولِذا استدلّ الفُقَهاء بهذه الآية في مسائل:

منها: عدَم جَواز إبقاء العَبد المُسلم في مُلْك الكافر، بَل يُقهَر الكافر علىٰ بيعه مِن مُسلم، فإن امتنَع

---

١. في النسخة: الخلّصين.

٢. كذا، وروي الشبامي، وشبام بطن من همدان، انظر: كتاب أنصار الحسين عليه السلام: ١٨/٧٠.

٣. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٥/٢٠٣، تفسير الصافي ١: ٤٧٤.

٤. تفسير الرازي ١١: ٨٣.

باعه الحَاكم عليه، ويُسلّم ثمنُه إليه.

منها: أنّه لا يَصِحُّ بَيْعُ العَبد المُسلم مِن الكافر.

منها: أنّه لا يَصِحُّ إيجارُ العَبد المُسلم للكافر.

منها: أنّه لا يجُوز إيجار الحُرّ المُسلم نفسَه مِن الكافر للخِدْمة، وأمّا لغيرها فلا يجُوز إذا كان أجيراً خاصّاً.

منها: رَهْن العَبد المُسلم عندَ الكافر معَ قَبْضه له.

منها: عدَم صِحّة جَعْله وَصِيّاً على صَبيٍّ مُسلم.

منها:عدَم صِحّة إعارة العَبد المُسلم للكافر. إلىٰ غير ذلك، وإن كان في كثيرٍ مِن الفُروع نَظَر.

إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ ٱللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى ٱلصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالىٰ يُرَاءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللهَ إِلَّا قَلِيلاً * مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذٰلِكَ لَا إِلَىٰ هٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هٰؤُلَاءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً [١٤٢ و ١٤٣]

ثمّ لمّا بيّن الله سُبحانه خَدْع المُنافقين بالمُؤمنين والكافرين، بيّن إفراطهم في الخُدْعة بقوله: ﴿**إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ ٱللهَ**﴾ ويمكُرونه. وقد مرّ تَفسير خَدْعهم بالله[١] في سُورة البقرة[٢].

وقيل: إنّ المُراد بخَدْعهم بالله: خَدْعهم برَسُوله والمُؤمنين، تنزيلاً لخَدْعهم بهم بإظهار الإيمان وإبطان الكُفْر مَنزلة خَدْعهم له تعالى[٣].

﴿**وَهُوَ خَادِعُهُمْ**﴾ ومُجازيهم بالعِقاب علىٰ خَدْعهم.

عن ابن عبّاس رضي الله عنه: أنّه تعالىٰ يُخادعهم في الآخرة، وذلك أنّه تعالىٰ يُعطيهم نُوراً كما يُعطي المُؤمنين، فإذا وَصَلوا إلىٰ الصِّراط انْطفأ نُورُهم وبقُوا في الظُّلْمة[٤].

ثمّ شرَح الله بعضَ أنواع خِداعهم بقوله: ﴿**وَإِذَا قَامُوا إِلىٰ ٱلصَّلَاةِ**﴾ مع المُؤمنين وفي جَماعتهم ﴿**قَامُوا**﴾ حَال كَونهم ﴿**كُسَالَىٰ**﴾ مُتثاقِلين مُتباطِئين لضَعْف دَاعيهم إلىٰ الصّلاة حيثُ إنّهم لكُفْرهم لا يرجُون بها ثَواباً، ولا يخافون مِن تَركها عِقاباً، بَل بفِعْلها ﴿**يُرَاءُونَ ٱلنَّاسَ**﴾ ليحسَبوهم مُؤمنين لا دَاعي لهم إلىٰ الصّلاة غيره ﴿**وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللهَ**﴾ في صَلواتهم معَ المُؤمنين وفي جَماعتهم ﴿**إِلَّا**﴾ ذِكْراً ﴿**قَلِيلاً**﴾ مِن أذكار الصّلاة، وهُو الذي يظهَر للمُؤمنين كالتكبيرات، وأمّا الذي مِثْل القِراءة

---

١. عدّى الفعل (خدع) بالباء في جميع المواضع المتقدمة والآتية، والصواب أنّه متعدٍ بنفسه كما في الآية.

٢. تقدم في تفسير الآية (٩) من سورة البقرة.

٣. تفسير الرازي ١١: ٨٣.

٤. تفسير الرازي ١١: ٨٣.

والتّسبيحات وأمثالها، فلا يذكُرونها.

هذا [في] كَيفيّة عمَلهم، وأمّا حَالهم مِن حيث الإيمان والكُفر فانّهم[١] يكونون ﴿مُذَبْذَبِينَ﴾ ومُتحيِّرين في الإيمان والكُفر، ومُتردّدين ﴿بَيْنَ ذٰلِكَ﴾ المَذكور لاختِلاف الدّواعي في نَظَرهم، فقد يرَون نَفْعهم في مُوافقة المُؤمنين فيكونون معهم، وقد يرَون نَفْعهم في مُوافقة الكُفّار فيكونون معهم، فلذلك ﴿لَا إِلىٰ هٰؤُلَاءِ﴾ المُؤمنين يَنتَسِبون ﴿وَلَا إِلىٰ هٰؤُلَاءِ﴾ الكُفّار يُضافون، فهُم دائمون في الحَيْرة والضَلال في اُمور دِينهم ودُنياهم ﴿وَمَن يُضلِلِ ٱللهُ﴾ ويخذُله لخُبْث ذاته، وعدَم قابليّته للهِداية ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُ﴾ أبداً ﴿سَبِيلاً﴾ إلىٰ الحَقّ، وطَريقاً إلىٰ الجنّة.

يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا ٱلْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا للهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناًمُبِيناً[١٤٤]

ثمّ لمّا ذَمّ الله سُبحانه المُنافقين بمُوالاة الكُفّار، نهىٰ المُؤمنين عنها بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ عن صَميم القَلب ﴿لَا تَتَّخِذُوا﴾ ولا تَختاروا لأنفسكم ﴿ٱلكَافِرِينَ﴾ الّذِين هُم أعداؤكم وأعداء دِينكم ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ وأصدقاء ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الخُلّص وبدَلاً مِنهم، ولا تتوقّعوا مِنهم النُّصْرة، فإنّ مُوالاتهم مِن شِعار المُنافقين ﴿أَتُرِيدُونَ﴾ بهذا الصَّنيع ﴿أَن تَجْعَلُوا للهِ عَلَيْكُمْ﴾ علىٰ نِفاقكم وفَساد عقائدكم ﴿سُلْطَاناً مُبِيناً﴾ وحُجّة ظاهِرة لا يُمكنِكم دَفْعها.

قيل: إنّ الأنصار بالمدينة كان لهم في بني قُرَيظة رَضاع وحِلف ومَودّة، فقالوا: يا رَسُول الله، مَن نتولّىٰ؟ فقال: «المُهاجرين» فنزلتْ[٢].

إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً * إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَٱعْتَصَمُوا بِاللهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلهِ فَأُولٰئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً[١٤٥ و ١٤٦]

ثمّ ذكَر سُبحانه سُوء حَال المُنافقين في الآخرة تنفيراً لقُلوب المُؤمنين عن مُوادّتهم، بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ﴾ في الآخرة مُستقرّون ﴿فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ﴾ والقَعْر الأنزل ﴿مِنَ ٱلنَّارِ﴾، قيل: هِي الهَاوية، وعَذاب مَن فيها أشدّ ممّن[٣] في الطّبقات السّت الاُخَر[٤].

---

١. في النسخة: كأنّهم. ٢. تفسير الرازي ١١: ٨٦. ٣. في النسخة: من.
٤. تفسير روح البيان ٢: ٣٠٩.

عن ابن مَسعود ﷺ، [وقد سُئل] عن الدَّرْك الأسفل، فقال: هُو تَوابيتٌ مِن حَديد مُبهمة عليهم، لا أبواب لها[1].

ثمّ بيّن انْقِطاع طَمَعهم عن الخَلاص بقوله: ﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً﴾ ومُخلِّصاً مِن النّار ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا﴾ ورجَعوا عن كُفْرهم ونِفاقهم ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ أيضاً أعمالهم وأخلاقهم ﴿وَٱعْتَصَمُوا﴾ ووَاثقوا ﴿بِٱللَّهِ﴾ بالتَمسُّك بحَبْل شَريعته ﴿وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ﴾ عن الشَّوْب بالأهوية[2] الفاسدة ﴿لِلَّهِ﴾ لا يبتَغون بطاعته وإيمانهم به إلّا رِضاه ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ المَوصوفون بتِلك الصِّفات الحَميدة يكونون في الدَّرَجات العَالية الأخرويّة ﴿مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الّذين كانوا مِن بَدْو إيمانهم مُؤمنين ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ﴾ في الآخرة والدُّنيا ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الخُلَّص عُموماً ﴿أَجْراً عَظِيماً﴾ لا يُمكِن بَيان عَظَمته وقَدْره.

وفي جَعْل التّائبين عن النِّفاق تَبَعاً للمُؤمنين الخُلَّص في الأجر، إشعارٌ بتَشْريف المُؤمنين الخُلَّص عليهم.

مَا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً [١٤٧]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ وَعيد المُنافقين بأشدّ العَذاب، ووَعْدِهم علىٰ الإيمان والتّوبة والعَمل الصّالح بأعلىٰ الثّواب مِنه. جعَل العَذاب علىٰ الكُفْر والعِصيان لتَحميل النّاس علىٰ الإيمان والطّاعة، لُطفاً بهم، لا للتّشفّي، أو جَلْب النَّفع إلىٰ نفسه، أو دَفع الضَّرَر عنها، بقوله: ﴿مَا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ﴾ وأيّ دَاعٍ له إلىٰ عِقابكم ﴿إِن شَكَرْتُمْ﴾ نِعمَه وامتثلتُم أحكامه ﴿وَآمَنْتُمْ﴾ به وبرَسُوله واليوم الآخِر، بَل إنّما أمَركم بما أمر ونَهاكم عمّا نهىٰ حِفْظاً لمصالحكم، وتكميلاً لنُفوسكم ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ معَ ذلك لطَاعتكم ﴿شَاكِراً﴾ بإعطاء الأجر، وَبذْل الثّواب ﴿عَلِيماً﴾ بها وبمِقْدار ما تستحقّون مِن الأجر عليها.

لَا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً [١٤٨]

ثمّ لمّا كان المُنافقون التّائبون ـ بعدَ تَوبتهم وتَخْليص إيمانهم ـ في مَعْرَض الذَّمّ والتَعيير لِمَا سَبَق مِنهم مِن فَساد العقيدة وسُوء الأعمال، نهىٰ الله تعالىٰ عن القول السَّيِّء بقوله: ﴿لَا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ﴾ والتّظاهُر ﴿بِالسُّوءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ في حَقّ أحدٍ، سَواءً كان القول السَّيِّء سَبّاً أو غِيبةً أو بُهتاناً أو تَعْييراً، لا

---

١. تفسير روح البيان ٢: ٣٠٩.

٢. كذا، والظاهر: بالأهواء؛ لأنّ الأهوية جمع هواء، والأهواء جمع هوى وهو المراد.

بَل يبغضه مِن كُلّ أحدٍ ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ به وأُسِيء إليه، بأن يدعُوَ على المُسيء، أو يذكُر إساءته، أو يشتكي منه بأن يقول: ضرَبني ظُلماً، أو شتمَني، أو غصَب أو سرَق مالي، أو يرُدَ بالشَتيمة على شاتِمه.

عن الباقر عليه السلام: «لا يُحبّ الله الشَتم في الانْتِصار إلّا مَن ظُلِم، فلا بأس أن ينتصِر مِمَن ظلمه بما يجُوز الانْتِصار به في الدِّين»[1] الخبر.

وعن الصادق عليه السلام: «أنّه الضَيف ينزِل بالرَجُل، فلا يُحسِن ضِيافته، [فلا جناح عليه أن يذكر سوء ما فعله»[2].

وعنه عليه السلام في هذه الآية: «ممن أضاف قوماً فأساء ضيافتهم فهو ممن ظلم] فلا جُناح في ما قالوا فيه»[3].

وفي رِوايةٍ: «إن جاءك رَجُلٌ وقال فيك مَا ليسَ فيك من الخَير والثّناء والعمَل الصَالح، فلا تقبَلْه مِنه وكَذِّبه، فقد ظَلَمك»[4].

ثمّ هدَّد المُجاهِر بالسُّوء بقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً﴾ لأقوالكم السَّيِّئة ﴿عَلِيماً﴾ باسْتِحقاقكم ومِقدار جَزائكم.

قيل: نزلَتْ في أبي بكر، فإنّ رَجُلاً شتَمه مِراراً فسكتَ، ثمّ رَدّ عليه، فقام النبيّ صلى الله عليه وآله، فقال أبو بكر: شتَمني وأنت جالِس، فلمّا رَدَدْتُ عليه قُمتَ؟ فقال صلى الله عليه وآله «إنّ مَلَكاً كان يُجيب عنك، فلمّا رَدَدْتَ عليه، ذهَب ذلك المَلَك وجاء الشَيطان، فلَم أجلس عندَ مجيء الشَيطان». فنزلَتْ هذه الآية[5].

إِن تُبْدُوا خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوّاً قَدِيراً[١٤٩]

ثمّ لمّا أذِن الله سُبحانه في الوُقوع في الظّالم، وإساءة القول له، رغّب في العمَل بالخَير والإحسان إلى الخَلْق، والعَفو عن إساءتهم بقوله: ﴿إِن تُبْدُوا﴾ وتُظهِروا ﴿خَيْراً﴾ وبرّاً وإحساناً ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ وتُسِرّوه ﴿أَوْ تَعْفُوا عَن﴾ كُلّ ﴿سُوءٍ﴾ ولا تنتقِموا مِن الظّالم معَ قُدْرتكم على الانْتِقام، ولا تُقابلوه بالقول السَّيِّء، وتتخلّقوا بأخلاق الله ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوّاً﴾ عن العُصاة وعن المُسيء والمُساء إليه معَ كَونه ﴿قَدِيراً﴾ على عُقوبتهم والانتِقام منهم فأنتم أولى بالعَفو.

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ

---

١. مجمع البيان ٣: ٢٠١، تفسير الصافي ١: ٤٧٦.
٢. مجمع البيان ٣: ٢٠٢، تفسير الصافي ١: ٤٧٦.
٣. تفسير العياشي ١: ١١٤١/٤٥٣، تفسير الصافي ١: ٤٧٦.
٤. تفسير القمي ١: ١٥٧، تفسير الصافي ١: ٤٧٦.
٥. تفسير الرازي ١١: ٩١.

نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذٰلِكَ سَبِيلاً * أُوْلٰـئِكَ هُمُ ٱلْكَافِرُونَ حَقّاً وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً[١٥٠ و ١٥١]

ثمّ لمّا كان أغلب المُنافقين مِن اليَهُود، شرَع في ذَمّ اليهود بعدَ الفَراغ مِن ذَمّ المُنافقين بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ﴾ ولكِن لا بالصّراحة، بَل بالالتِزام لِما نَسَبه إليهم بقوله: ﴿وَيُرِيدُونَ أن يُفَرِّقُوا﴾ في الإيمان ﴿بَيْنَ ٱللهِ وَرُسُلِهِ﴾ بأن يُؤمنوا به تعالىٰ ويكفُروا بهم، ولكِن لا بالتّصريح بهذا التّفريق، بَل هُو المَدلول الالْتِزامي لِما حَكاه عنهم بقوله: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ﴾ مِن الرُّسُل كمُوسىٰ وعُزَير ﴿وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ آخر كعِيسىٰ ومحمّد، معَ أنّ الكُفْر بأحَد الرُّسُل كُفرٌ بجميعهم، والكُفْر بجميعهم كُفرٌ بالله عزّ وجلّ.

﴿وَيُرِيدُونَ﴾ بقولهم بالتّفريق في الإيمان بَيْنهم ﴿أَن يَتَّخِذُوا﴾ ويَختاروا ﴿بَيْنَ ذٰلِكَ﴾ الإيمان والكُفْر المُطْلَق ﴿سَبِيلاً﴾ ومَذهباً وَسَطاً، معَ أنّه لا واسِطة بَيْنهما، فإنّ الإيمان بالله لا يتِمّ إلّا بالإيمان برُسُله، وتَصْديقهم في ما بلّغوا عنه، وتكذيب واحدٍ مِنهم في حُكْم تَكذيبِ جميعهم؛ فلذلك ﴿أُوْلٰئِكَ﴾ المُفرّقون بَيْن الرُّسُل المُبغّضون في الإيمان ﴿هُمُ ٱلْكَافِرُونَ﴾ المُنتهون في الكُفْر إلىٰ الغاية، وحَقّ ذلك القول ﴿حَقّاً﴾ لا يشُوبه شَك ولا رَيْب.

ثمّ أوعدَهم بعِقاب الكُفّار بقوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ في الآخرة ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ الّذين هؤلاء المُفرّقون مِن أظهر مَصاديقهم ﴿عَذَاباً مُهِيناً﴾ وعُقوبة مَقرونة بغَاية الذُّل، لاسْتِكبارهم عن الإيمان بالرُّسُل.

وَٱلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ ٱللهُ غَفُوراً رَحِيماً[١٥٢]

ثمّ أتبَع ذَمّ الكُفّار ووَعيدهم بمَدْح المُؤمنين ووَعْدهم بقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ﴾ كُلّهم ﴿وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ في الإيمان والتّصديق؛ معَ كَون جميعهم ذوي المَعاجز الباهرة والآيات الظّاهرة ﴿أُوْلٰئِكَ﴾ الكاملون في الإيمان ﴿سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ﴾ الله تعالىٰ مِن فَضله في الآخرة ﴿أُجُورَهُمْ﴾ التي وعَدهم علىٰ لِسان رُسُله ﴿وَكَانَ ٱللهُ غَفُوراً﴾ لِمَا فرَط مِنهم، ﴿رَحِيماً﴾ بهم بتَضْعيف حَسَناتهم، واسْتِغراقهم بأنواع النِّعَم الدّائمة.

يَسْئَلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِنَ ٱلسَّماءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا ٱللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا ٱلْعِجْلَ

مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذٰلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَاناً مُبِيناً[١٥٣]

ثمّ وبّخ الله سُبحانه اليَهُود باقْتِراحهم علىٰ النبيّ ﷺ كما اقتَراح أسلافهم علىٰ مُوسىٰ، بقوله: **﴿يَسْئَلُكَ﴾** اليَهُود الَذِين هُم **﴿أَهْلُ ٱلكِتَابِ﴾** والمُؤمنون بالتَوراة **﴿أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِنَ ٱلسَّمَاءِ﴾**.

قيل: إنّهم قالوا: إن كُنتَ رَسُولاً مِن عندِ الله فأتِنا بكِتاب مِن السّماء جُملةً، كما جاء مُوسىٰ بالألواح. وقيل: طلَبوا أن يُنزّل كِتاباً مِن السّماء إلىٰ فُلان، وكِتاباً إلىٰ فُلان بأنّك رَسُول الله[١]. وقيل: كِتاباً نُعاينه حين نُزوله[٢].

ولمّا كان سُؤالهم عن التَعنُّت واللّجاج لظُهور مَعجزات النبيّ أكثر مِمّا يحتاج إليه في ظُهور صِدْقه، ولَم يَحسُن إجابة مَسؤولهم، أجابهم بأنّ طِباعكم مَجبولة علىٰ التَعنُّت والاقْتِراح، فإنّكم أولاد الّذِين اقترحوا وتعنّتوا علىٰ نبيّهم العظيم الشأن **﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ﴾** وأعظم **﴿مِن ذٰلِكَ﴾** السُؤال، ولَم يكتفُوا بنُزول التَوراة دُفعةً وجُملةً، وبظُهور الآيات والمُعجزات في تَصْديقه بأنّ الله يُكلّمه، حتّىٰ اخْتار سَبعين رَجُلاً مِن كُبرَائهم وصُلَحائهم، فذهَب بهم إلىٰ جَبل طُور ليسمَعوا كَلام الله، فلمّا سمعوا أنّ الله كلّمه سألوه أن يُريهم الله حتّىٰ ينظُروا إليه بأبصارهم **﴿فَقَالُوا﴾** لمُوسىٰ عليه السلام: **﴿أَرِنَا ٱللهَ جَهْرَةً﴾** وعِياناً حتّىٰ نُصدّقك **﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّاعِقَةُ﴾** وشُعلة النّار مِن السّماءِ فأحرقتهم **﴿بِظُلْمِهِمْ﴾** علىٰ أنفسهم وتعنُّتهم علىٰ نبيّهم.

﴿ثُمّ ٱتَّخَذُوا﴾ واخْتاروا لأنفسهم **﴿ٱلعِجْلَ﴾** الذي صنَعه السّامري مِن حُليّهم إلهاً ومَعبوداً **﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ﴾** المُعجزات **﴿ٱلبَيِّنَاتُ﴾** مِن العصَا، واليَد البَيضاء، وفَلْق البَحر، وغير ذلك **﴿فَعَفَوْنَا﴾** وتجاوزنا **﴿عَن ذٰلِكَ﴾** الذَنب العَظيم بعدَ توبتهم، ولَم نستأصِلهم بالعَذاب معَ اسْتِحقاقهم له **﴿وَآتَيْنَا مُوسَىٰ﴾** معَ شِدّة لَجاج قومه علىٰ خِلاف العَادة **﴿سُلْطَاناً مُبِيناً﴾** وغَلَبة ظاهِرة علىٰ أعدائه حتّىٰ ظهَر دِينُه وقَوي أمرُه. وفي ذلك بِشارة للرّسُول بنُصْرته وظُهور دِينه، كما صرّح بتِلك البِشارة بقوله: **﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾**[٣].

وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا ٱلْبَابَ سُجَّداً وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِيثَاقاً غَلِيظاً[١٥٤]

---

١ و٢. تفسير الرازي ١١: ٩٤.
٣. غافر: ٥١/٤٠.

ثمّ بالغ سُبحانه في بَيان شِدّة لَجاجهم وطُغيانهم بقوله: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا ٱلْبَابَ سُجَّداً﴾ ـ وقد مرّ تَفسير القضيتَين في سُورة البقرة[١] ـ ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ﴾ بلِسان نبيِّهم ﴿ لَا تَعْدُوا﴾ ولا تَتجاوزوا حُدود الله ﴿فِى﴾ يوم ﴿ٱلسَّبْتِ﴾ باصْطِياد الحِيتان ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم﴾ علىٰ العمَل بأحكام التَوراة عُموماً، أو تَرك الصَيْد في السَبت ﴿مِيثَاقاً﴾ وعَهداً ﴿غَلِيظاً﴾ وَكيداً.

فَبِمَا نَقْضِهِم مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ ٱللهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ ٱللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً[١٥٥]

ثمّ نقضوا المِيثاق، وخالفوا التَوراة، واصطادوا في السَبت ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِيثَاقَهُمْ﴾ وبسَبب خُلْفهم عَهْدهم ﴿وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ ٱللهِ﴾ وحُجَجه الظَاهرة مِن القُرآن، أو جميع المُعجزات، أو خُصوص آيات التَوراة الدّالة علىٰ صِفات النبيّ ﴿وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنْبِيَاءَ﴾ كَزكريّا ويحيىٰ ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ معَ ظُهور نُبوتّهم لهم ﴿وَقَوْلِهِمْ﴾ في مَقام اللَّجاج جَواباً لمحمّد ﷺ: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ ومُغشّاة، أو أوعية العِلْم، ومعَ ذلك لا خَير فيها مِن نُبوّتك.

ثمّ ردّهم الله بقوله: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللهُ﴾ وختَم ﴿عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ وجُحودهم، فحُجبت عن العِلْم خِذلاناً مِن الله، وقسَتْ بحيث لا تُؤثّر فيها الدَعوة والمَوعِظة، ولذا ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ بالأنبياء ﴿إِلَّا قَلِيلاً﴾ مِنهم كمُوسىٰ وعُزيراً، أو إيماناً قليلاً لا يُعبأ به.

قيل: إنّ التَقدير: أنه بسبَب هذه المَعاصي لعنّاهم وجعَلْنا قُلوبهم قاسية.

وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً[١٥٦]

﴿وَ﴾ كذا ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ وإنكارهم قُدْرة الله علىٰ خَلْق الوَلد بغير أبٍ ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ﴾ بِنت عِمران ﴿بُهْتَاناً عَظِيماً﴾ وفِرية في غاية القَباحة مِن نِسْبة احْتِبالها إلىٰ الزِّنا، معَ أنّ الله تقبّلها بقَبُول حَسَن لخِدمة البَيت المُقدّس، وكفَلها زكريّا، وشهِد بطَهارتها، وتَكلُّم عِيسىٰ في المَهْد، إلىٰ غير ذلك مِن الأدلّة القاطِعة عندَ اليَهود علىٰ أنّ هذا القول في حَقّها بَهتٌ صِرْف.

في نقل بهتان الفخر الرازي علىٰ الشيعة وتكذيبه

قال الفخر الرازي، بعدَ ذِكْر براءة مَريم مِن كُلّ رِيبة: فلا جَرَم وصَفَ الله تعالىٰ طَعْن اليَهود فيها بأنّه بُهتان عظيم، وكذلك وصَف طعْن المُنافقين في عائشة بأنّه بُهتان عظيم، حيث قال: ﴿سُبْحَانَكَ هٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾[٢] وذلك يدُلّ علىٰ أنّ الرَوافِض

---

١. تقدم في تفسير الآيتين (٦٣ و٩٣) من سورة البقرة.

٢. النور: ١٦/٢٤.

الَذين يطعَنون في عائشة بالزِّنا[١] بمَنزلة اليَهود الَذين قالوا في مَريم[٢].

أقول: سُبحانك هذا بُهتان عظيم علىٰ الشّيعة، انظُروا إلىٰ الرَجُل كيف افترىٰ علىٰ الشّيعة بما هُم براء مِنه، فإنّ أحداً مِن الشّيعة لَم يطعَن في عائشة بذلك لقَطْعهم ببَراءتها مِن الفَحْش، لكَرامة النبيّ ﷺ، لا لكمال ذاتها وطَهارتها مِن المعصية، لصُدور ما هُو أكبر مِن الزّنا مِنها كخُروجها علىٰ خَليفة الرَسُول، وإيذائها لفاطمة البَضْعة. بَل نقول بعِصْمة جميع زَوجات النبيّ عن الفاحشة تنزيهاً له ﷺ مِن الشَّيْن.

فإصرار النّاصب بطَهارتها مِن المَعصية رَدٌّ للكِتاب النّاطق بعِصيانها، حيثُ قال سُبحانه: ﴿إِن تَتُوبَا إِلَى اللّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ﴾[٣] الآية.

وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً[١٥٧]

ثمّ حكىٰ سُبحانه وتعالىٰ افتِخار اليَهود بقَتْل الأنبياء بقوله: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ مفتخرين به معَ كَونه ﴿رَسُولَ اللّهِ﴾.

ثمّ كذّبهم الله في هذه الدّعوىٰ بقوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾ بَل ﴿وَمَا صَلَبُوهُ﴾ أصلاً ﴿وَلَكِن شُبِّهَ﴾ المَقتول والمَصلوب ﴿لَهُمْ﴾، قيل: يعني: وقع الشُّبْهة لهم[٤].

في رفع عيسىٰ عليه السلام إلىٰ السماء

رُوي أنّ رَهطاً مِن اليَهود سبّوه وقالوا: هُو السّاحر بن السّاحرة، والفَاعل بن الفَاعلة. فقذفوه وأمّه فلمّا سمع عليه السلام ذلك دعا عليهم، فقال: [اللّهمّ] أنت ربّي وأنا من رُوحك خرجتُ، وبكَلِمتك خلَقتني، ولم آتهم مِن تِلقاء نفسي، اللّهمّ فالْعَن مَن سبّني وسَبّ أمّي. فاستجاب الله دُعاءه ومسَخ الّذين سبُّوه وسبُّوا أمّه قِردةً وخَنازير، فلمّا رأىٰ ذلك يَهُودا رأس القوم وأميرهم فزِع لذلك، وخاف دَعوته عليه أيضاً، فاجْتمعت اليَهود علىٰ قَتل عيسىٰ عليه السلام، فبعَث الله جَبْرئيل فأخبره بأنّه يرفَعه إلىٰ السّماء، فقال لأصحابه: أيُّكم يرضىٰ بأن يُلقىٰ عليه شِبْهي، فيُقتل ويُصلَب فيدخُل الجنّة، فقال رَجُلٌ مِنهم: أنا، فأُلقي شِبْهه عليه فقُتِل وصُلِب[٥].

وقيل: إنّ الشِّبْه أُلقي علىٰ وَجْهه دُون بَدَنه، فلمّا قَتلوه نظرُوا إلىٰ بَدَنه فقالوا: الوَجْه وَجْه عِيسىٰ،

---

١. (بالزنا) لم ترد في المصدر.
٢. تفسير الرازي ١١: ٩٩.
٣. التحريم: ٦٦/٤.
٤. تفسير روح البيان ٢: ٣١٧.
٥. تفسير روح البيان ٢: ٣١٧.

والبَدَن بَدَن غيره[1].

وقيل: إنّ اليَهود حبَسوا عيسىٰ عليه السلام مع عَشرةٍ مِن الحواريّين في بيتٍ، فدخل [عليه] رَجُلٌ [من اليهود] ليُخرجه ويقتُله، فألقىٰ الله شِبْه عيسىٰ عليه، [ورفع إلى السماء] فأخذوا ذلك الرَّجُل وقتَلوه علىٰ أنه عيسىٰ، ثمّ قالوا: إن كان هذا عيسىٰ فأين صاحِبُنا؟ وإن كان صاحِبُنا فأين عيسىٰ؟[2]

فأشار سُبحانه إلىٰ اختِلاف اليَهود في قَتْله بقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ مِن اليَهود والنّصارىٰ - كما قيل إنّهم أيضاً مُختلفون في قَتْله[3] - أو [من] الفَريقين الّذين خالفوا وأعتقَدوا قَتْله ﴿لَفِى شَكٍّ مِنْهُ﴾ وتردُّد فيه ﴿مَا لَهُم بِهِ﴾ شيء ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ واعتِقاد جازم، وليسَ لهم في ادِّعاء قَتْل عيسىٰ، أو في جميع الأمور الدِّينيّة عمَل ودأب ﴿إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ ولا يُغني الظَّنّ مِن الحَقّ شيئاً.

ثمّ أكّد سُبحانه تَكْذيبهم في دَعْوىٰ قَتْله بقوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾ قتلاً ﴿يَقِيناً﴾ أو المُراد: أنّ نَفْي القَتل يكون يقيناً وحَقّاً، لا ينبغي أن يُشَكّ فيه.

بَل رَفَعَهُ ٱللّٰهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللّٰهُ عَزِيزاً حَكِيماً[١٥٨]

ثمّ أضرب وأعرض عن الدَّعوىٰ الكاذِبة بقوله: ﴿بَل رَفَعَهُ ٱللّٰهُ إِلَيْهِ﴾ وإلىٰ سَمائه ومَحَلّ كَرامته وقُرْبه.

قيل: إنّ الحِكْمة في رَفْعه إلىٰ السّماء تَبرُّك المَلائكة بصُحْبته؛ لأنّه كَلمة الله ورُوحه[4].

وقيل: إنّه لمّا لَم يكُن دُخوله في الدُّنيا مِن باب الشَّهْوة، لَم يكُن خُروجه مِنها مِن باب المَنيّة، بَل دَخل مِن باب القُدْرة، وخرَج مِن باب العِزّة[5].

أقول: فيه نظَرٌ، إذْ لابُدّ مِن خُروجه بعدَ عَوْده إلىٰ الأرض مِن باب المَنيّة؛ لقوله تعالىٰ: ﴿كُلّ نفسٍ ذائقةُ المَوتِ﴾[6]. ويُمكِن أن يكون الحِكْمة في رَفْعه إلىٰ السّماء تَقْريب صِحّة دَعوىٰ الرّسُول العُروج إلىٰ السّماء، والاستِدلال به علىٰ إمكانه.

ثمّ دفَع الله سُبحانه استِبعاد رَفْعه إلىٰ السّماء بهذا البَدَن العُنصري، بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللّٰهُ عَزِيزاً﴾ غالباً علىٰ أمره، قادراً علىٰ ما يُريد ﴿حَكِيماً﴾ في أفعاله.

عن السّجاد عليه السلام: «أنّ لله بِقاعاً في سَماواته، فمَن عُرِج به إلىٰ بقْعةٍ مِنها فقَد عُرِج به إليه، ألا تسمَع الله يقول في قِصّة عيسىٰ ﴿بَل رَفَعَهُ اللهُ إِلَيهِ﴾؟»[7].

---

١ و٢. تفسير الرازي ١١: ١٠١.
٣. تفسير روح البيان ٢: ٣١٨.
٤ و٥. تفسير روح البيان ٢: ٣١٩.
٦. آل عمران: ١٨٥/٣.
٧. من لا يحضره الفقيه ١: ٦٠٣/١٢٧، تفسير الصافي ١: ٤٧٩.

وعن القُمّي (رحمه الله): رُفع وعليه مِدرعة مِن صُوف[1].

عن الصادق عليه السلام قال: «رُفع عيسىٰ بن مَريم بمِدْرعةِ صُوف مِن غَزْل مَريم، ومِن نَسج مَريم، ومِن خِياطة مريم، فلمّا انتهىٰ إلىٰ السّماء نُودي: يا عيسىٰ، ألْقِ عنك زِينة الدُّنيا»[2].

وفي (الإكمال): عن النبيّ صلى الله عليه وآله: «أن عيسىٰ بن مَريم أتىٰ بيتَ المَقْدِس، فمَكث يدعُوهم ويرغّبهم في ما عندَ الله ثلاثاً وثلاثين سَنة، حتّىٰ طلَبَتْهُ اليَهُود وادّعتْ أنّها عذّبتْه ودفَنَتْه في الأرض حَيّاً، وادّعىٰ بعضُهم أنّهم قَتلوه وصلَبوه، وما كان الله ليجعَل لهم سُلطاناً عليه، وإنّما شُبِّه لهم، وما قدَروا علىٰ عَذابه ودفنه، ولا علىٰ قَتله وصَلْبه؛ لأنّهم لَو قدَروا علىٰ ذلك لكان تَكْذيباً لقوله: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾»[3].

وَإِن مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً [١٥٩]

ثمّ حرّض الله اليَهُود بالإيمان[4] بنُبوّة عيسى عليه السلام، والنّصارى بالإيمان بأنّه عبدُالله ورَسُوله حينَ ينفعهم الإيمان به، بقوله: ﴿وَإِن مِنْ أَهلِ ٱلكِتَابِ﴾ مِن اليَهُود والنّصارى أحد ﴿إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ وزُهوق رُوحه، وحيَن مُعاينة عالَم الآخرة ولكن لاينفعه إيمانُه.

قيل: إنّه إذا حضَرتْ اليَهُودي الوَفاة وعايَن الآخرة، ضربَتْ المَلائكة وَجْهه ودُبْره وقالت: أتاك عيسىٰ نبيّاً فكذّبتَ به، فيُؤمن حينَ لا ينفَعه إيمانُه، وتقول للنّصراني: أتاك عيسىٰ عبدُالله، فزعَمت أنّه هُو الله وابنُ الله، فيُؤمن بأنّه عبدُالله حينَ لا ينفَعه إيمانُه لانْقِطاع التّكليف[5].

رُوي عن شَهر بن حَوشب، قال: قال الحَجّاج: إنّي ما قرأتها إلّا وفي نفسي مِنها شيءٌ - يعني هذه الآية - فإنّي أضرِبُ عُنق اليَهُودي ولا أسمعُ مِنه ذلك، فقلتُ: إنّ اليَهودي إذا حضَره الموتُ ضرَبَتْ المَلائكةُ وَجْهه ودُبْره وقالوا: يا عَدُوّ الله، أتاك عيسىٰ نبيّاً فكذّبت به، فيقول: آمنتُ به، وتقول للنّصراني: أتاك عيسىٰ نَبيّاً فزعَمت أنّه هُو الله وابنُ الله، فيقول: آمنتُ أنّه عبدُالله، فأهل الكِتاب يُؤمنون به ولكن حيثُ لا ينفَعهم ذلك الإيمان، فاستوىٰ الحَجّاج جالساً وقال: عمّن نقلتَ هذا؟ فقلتُ: حدّثني به محمّد بن عليّ [ابن] الحَنَفيّة، فأخذ ينكُث بقضيبه الأرض ثمّ قال: أخذتَها مِن عَيْنٍ صافية[6].

---

١. تفسير القمي ١: ٢٢٤، تفسير الصافي ١: ٤٧٩.
٢. تفسير العياشي ١: ٦٩٢/٣١٠، تفسير الصافي ١: ٤٧٩.
٣. كمال الدين: ٢٠/٢٢٥، تفسير الصافي ١: ٤٨٠.
٤. كذا، والظاهر: على الايمان.
٥. تفسير روح البيان ٢: ٣٢٠.
٦. تفسير الرازي ١١: ١٠٣.

وعن القُمّي، عن شَهر مايقرُب مِنه، إلىٰ أن قال: فقلتُ: أصلح الله الأمير، ليسَ علىٰ ما تأوّلتَ، قال: كيف هُو؟ قلتُ: إنّ عيسىٰ ينزِل قبلَ يومِ القِيامة إلىٰ الدُّنيا، فلا يبقىٰ أهل مِلّة يَهُوديّ ولا غيرُه إلّا آمن به قبلَ مَوته، ويُصلّي خَلْف المَهدي عليه السلام، قال: وَيْحَك، أنّىٰ لك هذا، ومِن أين جِئتَ به؟ فقلتُ: حدّثني به محمّد بن عليّ بن الحُسين بن عليّ بن أبي طالب عليهم السلام، فقال: جئتَ بها [والله] مِن عينٍ صافية[1].

وعن الباقر عليه السلام، في تفسيرها: «ليسَ مِن أحدٍ مِن جميع أهلِ الأديان يمُوت إلّا رأىٰ رَسُول الله صلى الله عليه وآله وأميرَ المُؤمنين عليه السلام حَقّاً مِن الأوّلين والآخرين»[2].

وفي (الجوامع): عنهما عليهما السلام: «حرَام علىٰ رُوح [امرئ] أن تُفارق جَسَدها حتّىٰ ترىٰ محمّداً وعليّاً صلوات الله عليهما»[3].

وعن الصادق عليه السلام أنّه سُئل عن هذه الآية، فقال: «هذه نزلَتْ فِينا خاصّة، أنّه ليسَ رَجُلٌ مِن وُلْد فاطمة يمُوت ولا يخرُج مِن الدُّنيا حتّىٰ يقِرّ للإمام بإمامته، كما أقرّ وُلْد يَعقُوب ليُوسف حينَ قالوا: ﴿تَاللهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللهُ عَلَيْنَا﴾»[4].

وفي (المجمع): في أحد مَعانيه: «ليُؤمنَنّ بمحمّد صلى الله عليه وآله قبل مَوت الكِتابيّ»[5].

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ عيسىٰ عليه السلام أو محمّد صلى الله عليه وآله ﴿يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً﴾ فيشهَد علىٰ اليَهُود بالتّكذيب، وعلىٰ النّصارىٰ بأنّهم دَعَوا عيسىٰ ابن الله.

فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ كَثِيراً * وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً [١٦٠ و ١٦١]

ثمّ بعَد ذِكْره سُبحانه فضائح اليَهُود، ذكَر تَشْديده عليهم في الدُّنيا بقوله: ﴿فَبِظُلْمٍ﴾ عظيم صَادر ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ لا بغيره مِن الأسباب ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ﴾ ولذائذ مَخصوصة مِن الأطعمة التي ﴿أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ ولمَن قبلَهم، كلُحُوم الإبل وألبانها، والشُّحوم ﴿وَبِصَدِّهِمْ﴾ ومَنْعهم ﴿عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ مِن الإيمان بالنبيّ صلى الله عليه وآله، والدُّخول في دِين الإسلام صَدّاً ومَنْعاً ﴿كَثِيراً﴾ بإلقاء الشُّبُهات

---

١. تفسير القمي ١: ١٥٨، تفسير الصافي ١: ٤٨٠.
٢. تفسير العياشي ١: ١١٤٨/٤٥٥، تفسير الصافي ١: ٤٨٠.
٣. جوامع الجامع: ١٠١، تفسير الصافي ١: ٤٨٠.
٤. تفسير العياشي ١: ١١٤٥/٤٥٤، تفسير الصافي ١: ٤٨١، والآية من سورة يوسف: ٩١/١٢.
٥. مجمع البيان ٣: ٢١٢، تفسير الصافي ١: ٤٨٠.

والمَكائد والتّسويلات ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَا﴾ مِن النّاس، ﴿وَ﴾ الحَال أنّهم ﴿قَدْ نُهُوا عَنْهُ﴾ فِي التّوراة وغيرها مِن الكُتُب ﴿وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ ٱلنَّاسِ بِالبَاطِلِ﴾ وبغَير الوَجْه المُحلّل، كالرّشوة وغيرها.

ثمّ ذكَر تَشديده عليهم في الآخرة بقوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ﴾ دُون المُؤمنين بمحمّد ﷺ، ككثيرٍ مِن الأحبار ﴿عَذَاباً أَلِيماً﴾ في الآخرة.

لٰكِنِ ٱلرَّاسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَاةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَاةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ أُوْلٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً[١٦٢]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ ذمّ الكُفّار وذِكْر قَبائح أعمالهم وسُوء عاقبتهم، ذكَر مَحامد المُؤمنين وحُسن عاقبتهم علىٰ حَسَب دأبه في الكِتاب العَزيز بقوله: ﴿لٰكِنِ ٱلرَّاسِخُونَ﴾ والمُستغرِقون ﴿فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾ بحيث لا يضْطربون بإلقاء الشُّبُهات، ولا يَميلون إلىٰ الخُرافات بالتّسويلات ﴿وَالمُؤمِنُونَ﴾ الخُلَص ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ عن صَميم القلب وصِدْق النّيّة ﴿بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ مِن القُرآن ﴿وَمَا أُنزِلَ﴾ إلىٰ سائر الأنبياء ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ مِن الكُتُب السّماويّة، ﴿وَ﴾ أخُصّ ﴿المُقِيمِينَ ٱلصَّلَاةَ﴾ بالمَدْح.

وقيل: إنّه مَعطوف علىٰ ﴿مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾[1]، والمعنىٰ: يُؤمنون بالمُقيمين الصّلاة، والمُراد بهم الأنبياء والمَلائكة. ﴿وَالمُؤْتُونَ ٱلزَّكَاةَ﴾ مِن أموالهم ﴿والمُؤْمِنُونَ باللهِ﴾ وبوَحْدانيّته ﴿وَاليَوْمِ ٱلآخِرِ﴾ وإنّما قدّم سُبحانه الإيمان بالكُتُب والأعمال الصّالحة علىٰ الإيمان بالله وبالمَعاد لكَونه المَقصود الأهَمّ في المَقام.

﴿أُوْلٰئِكَ﴾ المُتّصِفون بتِلك الصِّفات الحَميدة ﴿سَنُؤْتِيهِم﴾ في الآخرة ﴿أَجْراً عَظِيماً﴾ وثَواباً جَزيلاً لا يُقادَر قَدْرُه.

إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً[١٦٣]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ بَيان شِدّة إنكار اليَهود وتَعنُّتهم علىٰ الرّسُول، بيّن أنّ الرّسالة ليسَت مِن البَدائع والأُمور الجَديدة غير المأنوسة، بَل كانت في جَميع الأزمان تَقْريباً للأذهان، ودَفعاً للتّحاشي عن

---

١. تفسير أبي السعود ٢: ٢٥٤.

الطِّباع، بقوله: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ وشرّفناك بمَنْصِب الرّسالة ﴿كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ﴾ الّذِين كانوا ﴿مِن بَعْدِهِ﴾ يُروِّجون شَريعته إلىٰ زَمان إبراهيم عليه السلام، ﴿وَ﴾ كما ﴿أَوْحَيْنَا﴾ بعدَهم ﴿إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ بن إسحاق، ﴿وَ﴾ أنبياء ﴿الْأَسْبَاطِ﴾ الاثنَي عشر، وهُم أولاد يَعقُوب، ﴿وَ﴾ إلىٰ ﴿عِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ﴾.

وفي ذِكْر هؤلاء بأسمائهم، معَ كَوْنهم مِن الأسباط وكَوْن الأنبياء أكثرهم مِنهم، دَلالةٌ علىٰ أفضليّتهم مِن الغَير المذكورين. وإنّما قدّم ذِكْر نوح لكونه آدم الثّاني، وأوّل مَن شَرع الله علىٰ لِسانه الأحكام، وأوّل اُولي العَزْم مِن الرُّسُل.

ثمَ أجمل في ذِكْر سائر الأنبياء الّذِين كانوا بعدَه، ثمَ ذكَر الأفاضل مِنهم تَفْصيلاً، وبَدأ بذِكْر إبراهيم عليه السلام لكَوْنه أفضل المَذكورين وأقدمهم، وثاني اُولي العَزْم، ثمَ ذكَر أنبياء الأسباط بنَحْو الإجمال، ثمَ ذكَر أسماء أفاضلهم، وبَدأ في هذا التّفصيل بذِكْر اسْم عيسىٰ، لكَوْنه أفضل المَذكورين في الآية وثالث اُولي العَزْم ولتَبْكيت اليَهُود، حيثُ إنّهم شَدّدوا في إنكار نُبوّته وصِحّة نَسَبه.

في بيان الزبور وتلاوة داود عليه السلام إيّاه

ثمَ خصّ دَاود عليه السلام مِن بَيْنهم بفَضيلة إيتائه الكِتاب بقوله: ﴿وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً﴾ لشُهرة كِتابه بين اليَهُود ونُزوله نُجوماً كالقُرآن، فأشار بذِكْره إلىٰ أنّه لَو كان نُزول كِتابٍ نجُوماً قادحاً فيه، لكان علىٰ اليَهُود القَدْح في الزّبور، معَ أنّهم يُعظّمونه غاية التعظيم.

قيل: كان فيه مائة وخمسون سُورة ليسَ فيها حُكْم، وإنّما هِي حِكَم ومَواعظ وتَحميد وتَمجيد وثَناء علىٰ الله عزّ وجلّ، وكان دَاود يبرُز إلىٰ البَريّة ويقرأ الزّبور، فيقوم عُلماء بني إسرائيل خَلفه، ويقُوم النّاس خَلف العُلماء، ويقوم الجِنّ خَلف النّاس، وتجيء الدّواب الّتي في الجِبال إذا سمِعت صَوت دَاود، فيقُمْنَ بيْن يدَيه تَعجُّباً لِمَا يسمَعْنَ مِن صَوته، وتجيء الطّير حتّىٰ يُظلّلْنَ علىٰ دَاود في خَلائق لا يُحصيهِنّ إلّا الله، يُرفرِفْنَ علىٰ رأسه، وتجيء السِّباع حتّىٰ تُحيط بالدّواب والوَحْش لِمَا يسمَعْنَ، فلمّا قارَف الذّنب[1] ـ وهُو تزَوج امرأة اُوريا مِن غير انتِظار الوَحْي بجَبْرئيل عليه السلام ـ لَم يرَوا ذلك[2].

في ذكر عدد الأنبياء والرسل

ثمَ أنّه تعالىٰ ذكَر أسماء الأنبياء المَشهورين، ولَم يذكُر مُوسى عليه السلام معهم، لأنّ اليَهُود كانو يحتجُّون علىٰ النبيّ صلى الله عليه وآله بأنّ كِتابك لَو كان مِن السّماء لكان ينزل دُفعةً كما

---

١. اقتراف الذنوب ممّا لا يجوز على الأنبياء عليهم السلام لأنهم معصومون، ولا يبعد أن تكون حكاية زواج داود عليه السلام من امرأة اوريا هي من الروايات الاسرائيلية التي تسربت إلى ساحة التفسير، وقد روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «لا اؤتىٰ برجل يزعم أن داود عليه السلام تزوج بامرأة اوريا إلا جلدته حدّين: حدّ النبوة، وحدّ الاسلام» راجع تنزيه الأنبياء/للسيد المرتضى: ٩٠ ـ ٩٢.

٢. تفسير روح البيان ٢: ٣٢٣.

أُنزلت التوراة على موسى دفعةً، فأجاب الله عن تلك الشُّبهة بأن هؤلاء المَذكورين كانوا كُلّهم أنبياء معَ أنّ واحداً مِنهم ما أتى بكِتاب مِثل التّوراة دُفعةً، فلا يقدَح نُزول الكِتاب نجوماً في كَوْنه مِن عندَ الله، كذا قيل[١].

وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْناهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ ٱللهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً[١٦٤]

ثمّ أكمل البَيان وأتمّ الحُجَة بقوله: **﴿وَرُسُلاً﴾** آخرين أرسلناهم إلىٰ النّاس جَماعةً مِنهم **﴿قَدْ قَصَصْنَاهُمْ﴾** وتلَونا أحوالهم **﴿عَلَيْكَ﴾** وسمّيناهم لك **﴿مِن قَبْلُ﴾** في السُّوَر الأُخَر مِن القُرآن، كهُود وصَالح وإدريس عليهم السلام **﴿وَرُسُلاً﴾** أُخَر **﴿لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيكَ﴾** في كِتابك، ولَم نُسمّهم لك، ولَم نذكُر أحوالهم.

عن أبي ذَرّ رضي الله عنه قال: قلتُ: يارَسُول الله، كَم كانت الأنبياء؟ وكَم كان المُرسلون؟ قال: «كانت الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، وكان المُرسلون ثلاثمائة وثلاثة عشَر»[٢].

ثمّ بيّن مَزِيّة مُوسىٰ عليه السلام مِن بيْنهم بقوله: **﴿وَكَلَّمَ ٱللهُ مُوسىٰ﴾** مِن بيْنهم في الطُّور **﴿تَكْلِيماً﴾** بطريق المُشافهة.

قيل: فيه إشارة إلىٰ أنّ تَخصيص مُوسىٰ عليه السلام بهذه المَزيّة، كما لا يقدَح في نُبوّة غيره مِن الأنبياء، لا يقدَح نزول كِتابه دُفعةً في نُبوّة نبيّ نزَل كِتابُه نُجوماً كالقُرآن[٣].

رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَىٰ ٱللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللهُ عَزِيزاً حَكِيماً[١٦٥]

ثمّ بيّن سُبحانه حِكْمة إرساله الرُّسُل بقوله: **﴿رُسُلاً﴾** كثيرة أرسلناهم إلىٰ النّاس مِن بَدْو الخِلْقة حَال كَونهم **﴿مُبَشِّرِينَ﴾** لهم بالثّواب علىٰ الإيمان بتَوْحيد الله والقِيام بعبُوديّته **﴿وَمُنذِرِينَ﴾** لهم بالعِقاب علىٰ الشِّرك والعِصيان **﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَىٰ ٱللهِ حُجَّةٌ﴾** ومَعذِرة، أو اعتِراض مُلزِم **﴿بَعْدَ﴾** إرسال **﴿ٱلرُّسُلِ﴾** بأن يقولوا: **﴿رَبَّنَا لَولَا أرسَلتَ إلَينَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ المُؤمِنِينَ﴾**[٤].

---

١. تفسير الرازي ١١: ١٠٩.
٢. تفسير روح البيان ٢: ٣٢٣.
٣. تفسير الرازي ١١: ١٠٩.
٤. القصص: ٤٧/٢٨.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزاً﴾ وقادراً علىٰ إرسال الرُّسُل، وإنزال الكُتُب، وتَكْميل النُّفوس، وإعطاء الثّواب، وتَعْذيب العُصاة، وقَطْع الأعذار ﴿حَكِيماً﴾ في جَميع أفعاله.

لٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَٱلْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيداً[١٦٦]

ثمّ قيل: إنّه لمّا نزَل قولُه تعالىٰ: ﴿إنّا أوحَينا إلَيكَ﴾[١] الآية، قال قوم: [نحن] لا نشهَد لك بذلك. فرَد الله عليهم، وسلّىٰ نبيّه ﷺ بقوله: ﴿لٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ﴾[٢] لَك ﴿بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ﴾ مِن السّماء وهُو القُرآن أنّه حَقّ وصِدْق، وشَهادته تعالىٰ باشْتِماله علىٰ إعجاز البَيان، والأخبار الصّادقة بالمُغيّبات، والعُلوم الكثيرة معَ كَون الجائي به اُمّيّاً.

ثمّ وصف ما أنزله بقوله: ﴿أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ غير المُتناهي، وحِكْمته البالغة، فلمّا كان عِلْمه غير المُتناهي سَبباً لنُزوله، صار في غاية الحُسْن ونِهاية الكَمال بحيثُ عَجَز الأوّلون والآخرون عن مُعارضته والإتيان بمِثْله.

وقيل: إنّ المُراد: أنزله بعِلْمه بأنّك مُستأهِل له[٣].

﴿وَالمَلَائِكَةُ﴾ كُلّهم أيضاً ﴿يَشْهَدُونَ﴾ بأنّ القُرآن نازِلٌ مِن عندِ الله ﴿وَكَفَىٰ بالله شَهِيداً﴾ بذلك لا يَحتاج إلىٰ شَهادة غيرِه.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلالاً بَعِيداً[١٦٧]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ شَهادته بِصْدق القُرآن وصِحّة دِين الإسلام، وبّخ المُنكرين له الصّادّين عنه، بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالقُرآن ﴿وَصَدُّوا﴾ ومنَعوا النّاس بإلقاء الشُّبهات ﴿عَن﴾ سُلوك ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ والدُّخول في دِين الإسلام ﴿قَدْ ضَلُّوا﴾ عن الهُدىٰ وطَريق الجنّة ﴿ضَلَالاً بَعِيداً﴾ لا يُرجىٰ مِنهم الهِداية.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً * إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَكَانَ ذٰلِكَ عَلَىٰ ٱللَّهِ يَسِيراً[١٦٨ و ١٦٩]

ثمّ هدّدهم بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا﴾ أنفسهم بإصرارهم علىٰ الكُفْر، والنّاس بَصدّهم عن

---

١. النساء: ١٦٣/٤.
٢. تفسير الرازي ١١: ١١١.
٣. تفسير الصافي ١: ٤٨٣.

الحَقّ، ومحمّداً ﷺ بتكذيبه وإخفاء نُعوته وكِتمانها.

عن الباقر عليه السلام، قال: «نزل جَبْرئيل بهذه الآية هكذا: إنّ الّذين كفَروا وظَلموا آل محمّد حقّهم...»[1].

﴿لَمْ يَكُنِ ٱللهُ﴾ مُريداً ﴿لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ عن ذُنوبهم، لعدَم قابليّتهم للمَغفرة ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً﴾ مِن الطُّرُق ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾ فلا مَناص لهم في الآخرة عن دُخولها، حَال كَونهم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾ دائماً ﴿وَكَانَ ذٰلِكَ﴾ الإدخال في النّار والإخلاد فيها معَ بقاء الأجساد أبدَ الآباد ﴿عَلَىٰ ٱللهِ﴾ وفي جَنْب قُدْرته الكاملة غير المُتناهية ﴿يَسِيراً﴾ سَهْلاً، وإنْ كان في نظَر المُنكرين لقُدْرة الله مُتعذَّراً مُستحيلاً.

يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِالحَقِّ مِن رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْراً لَكُمْ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلهِ مَا فِى ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللهُ عَلِيماً حَكِيماً[١٧٠]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ دَفْع شُبهات اليَهود في رِسالة النبيّ ﷺ وصِدْق كِتابه، وتَوبيخهم بالضَّلال والإضلال، وتَوعيدهم بالنّار، باشَر بذاته المُقدّسة دَعوتهم ودَعوة سائر النّاس إلىٰ الإيمان برِسالته بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ﴾ محمّد ﷺ ﴿ٱلرَّسُولُ﴾ الصّادق ﴿بِالحَقِّ﴾ والقرآن المُصدَّق بالإعجاز، أو الدِّين المُوافق للعَقل السّليم ﴿مِن﴾ عند ﴿رَبِّكُمْ﴾ اللّطيف بكم، الحَافظ لصَلاحكم ﴿فَآمِنُوا﴾ به وبكِتابه، يكُن الإيمانُ به في العَاجِل والآجل ﴿خَيْراً لَكُمْ﴾ وأحمَد مِمّا أنتم عليه مِن الكُفْر بمحمّد ﷺ، وإنكار رِسالته وكِتابه ﴿وَإِن تَكْفُرُوا﴾ بالله ورَسُوله فلا يضُرّ الله شيئاً ﴿فَإِنَّ لِلهِ مَا فِى ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فلا يَحتاج إليكم وإلىٰ إيمكانكم، ولا يعجَز عن تَعذيبكم ﴿وَكَانَ ٱللهُ عَلِيماً﴾ بأحوال عِباده وبإيمانهم وكُفْرهم وعَلانِيتهم وسِرّهم ﴿حَكِيماً﴾ في ما يصدُر عنه مِن تَعذيب الكافر، وإثابة المُؤمنين.

يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَىٰ ٱللهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَىٰ ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ٱنْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ إِنَّمَا ٱللهُ إِلٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِى ٱلسَّمَاوَاتِ وَما فِى ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللهِ وَكِيلاً[١٧١]

---

١. تفسير العياشي ١: ١١٥٢/٤٥٦، الكافي ١: ٥٩/٣٥١، تفسير الصافي ١: ٤٨٤.

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ دَفْع شُبهات اليَهود في نُبوّة النبيّ ﷺ وكِتابه، وإنذارهم ودَعوتهم إلىٰ الإيمان، صرَف الخِطاب إلىٰ النّصارىٰ بقوله: ﴿يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ لَا تَغْلُوا﴾ ولا تَتجاوزوا عن حُدود العَقل ﴿فِي دِينِكُمْ﴾ بالإفراط في شأن عِيسىٰ عليه السلام، وادّعاء ألوهيّته، أو بُنوّته لله ﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَىٰ ٱللهِ﴾ قولاً ﴿إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ والصّواب، مِن تَنْزيهه عن الشِّرك والصّاحبة والوَلَد، ولا تصِفوه بالحُلول في المَسيح أو الاتّحاد معه المُستحيلَين علىٰ الواجب، ولا باتّخاذه المَسيح وَلَداً لعدَم الحاجة له، وعدَم السِّنْخِيّة بيْنه تعالىٰ وبيْن الحادِث معَ لُزوم السِّنْخِيّة بيْن الوَالد والوَلَد.

ثمّ بعدَ نَهيهم عن الغُلوّ، أرشدهم إلىٰ القول الوَسَط والحَقّ بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ﴾ الذي اسْمه ﴿عِيسَىٰ﴾ ونَسَبه أنّه ﴿ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ بنت عِمران هُو ﴿رَسُولُ ٱللهِ﴾ إليكم لتَكْميل نُفوسكم، وتَبليغ شرائعكم ﴿وكلمته﴾ التّامّة وآيته العُظمى التي ﴿أَلْقَاهَا﴾ مِن عالَم القُدْس والأمْر، وأوصلها ﴿إِلَىٰ﴾ رَحِم ﴿مَرْيَمَ﴾ الصِّدّيقة. ولمّا كان مَبدأ وُجوده نَفْخة الرّوح الأمين، وصَفه بالرُّوحانيّة، ونَسَبه إلىٰ نفسه تَشريفاً له بقوله: ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾.

عن الصادق عليه السلام أنّه سُئل عنها، فقال: «هِي رُوح مَخلوقة خلَقها الله في آدم وعيسىٰ»[1]

وعن الباقر عليه السلام: «رُوحان مَخلوقان اخْتارهما واصْطفاهما: رُوح آدم، ورُوح عيسىٰ»[2].

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ إثبات عُبودية عيسىٰ ورِسالته وتَعْظيمه بأنّه كلِمته ورُوحه، أمر النّصارىٰ بالإيمان بتَوحيد الله ورِسالة المَسيح كسائر الرُّسُل بقوله: ﴿فَآمِنُوا بِٱللهِ﴾ وحْده لا شَريك له ﴿وَرُسُلِهِ﴾ الّذين هُم مُبلِّغون عنه، ومِنهم عيسىٰ عليه السلام ﴿وَلَا تَقُولُوا﴾ إنّ الله واحِد بالجَوْهر ﴿ثَلَاثَةٌ﴾ بالأقانيم، علىٰ ماقيل[3].

﴿ٱنْتَهُوا﴾ أيُّها النّصارىٰ وارتدِعوا عن هذا القول الباطِل، فإنّ الانْتِهاء عن التّثليث يكون ﴿خَيْراً لَكُمْ﴾ مِن القول بالتّثليث لأنّه كُفر ﴿إِنَّمَا ٱللهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ بالذّات والصِّفات، مُنزّه عن التّعدُّد والكَثْرة.

ثمّ نزّهه عن اتّخاذ الوَلَد بقوله: ﴿سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ كما ادّعاه النّصارىٰ؛ لأنّ الولَد لا يُمكِن أن يكون مُلْكاً لوالده، والحالَ أنّ الله ﴿لَهُ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ خَلقاً ومُلكاً وتصرُّفاً، لا يخرُج مِن مَلكوته عيسىٰ عليه السلام وغيرُه مِن المَوجودات، ولا يحتاج إلىٰ ولَد ومُعين، إذْ بذاته وقُدْرته يُدبّر كُلّ شيء ﴿وَكَفَىٰ بِٱللهِ﴾ وَحْده ﴿وَكِيلاً﴾ ومُدبّراً لامُور الكائنات، فمَن يكون له الغِنىٰ والقُدْرة غير المُتناهِيَين، يمتنِع أن يتّخذ لنفسه صاحبةً وولَداً.

---

١. الكافي ١: ٣/١٠٣، تفسير الصافي ١: ٤٨٤.

٢. التوحيد: ٤/١٧٢، تفسير الصافي ١: ٤٨٤.

٣. تفسير الرازي ١١: ١١٦، تفسير روح البيان ٢: ٣٣٠.

لَن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ وَلاَ ٱلْمَلاَئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْفَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً[١٧٢]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ إثبات عُبوديّة عيسىٰ عليه السلام له بالحُجَة القاطعة، نبّه العالَمين بأنّ عيسىٰ عليه السلام غيرُ مُستنكِفٍ عن عُبوديّته، وغيرُ راضٍ بما يقول النّصارىٰ في حَقّه مِن كَوْنه ثالثَ ثلاثةٍ، أو ولداً لله، بقوله: ﴿لَن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ﴾ ولا يأبىٰ أبداً عن ﴿أَن يَكُونَ عَبْداً﴾ خاضعاً ﴿لِلَّهِ﴾ وإن استنكف النّصارىٰ عنه، بَل ﴿وَلاَ﴾ يستنكِف ﴿ ٱلْمَلاَئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ والكَرُوبيّون الّذين هُم حَول العَرش، كجَبْرئيل وأضرابه، عن أن يكونوا عَبيداً لله، معَ كَونهم أشدّ قُوّة مِن عيسىٰ، وأعظم خِلْقة، وأقلّ حاجة مِنه، وإن كان عيسىٰ عليه السلام أقرب مَنزلة وأعلىٰ قَدْراً مِنهم عندَ الله. فظهَر مِن التّفسير الذي ذكَرنا أنّ الاسْتِدلال بالآية علىٰ أفضليّة المَلائكة مِن الأنبياء ـ كما نُسِب إلىٰ المُعتزلة ـ فاسِدٌ جداً.

رُوي أنّ وَفْد نَجْران قالوا لرَسُول الله صلى الله عليه وآله: لِمَ تعيبُ صاحبَنا؟ قال: « ومَن صاحِبُكم؟». قالوا: عيسىٰ، قال: «وأيّ شيءٍ قلتُ؟». قالوا: تقول إنّه عبدُالله ورَسُوله، قال: «[إنّه] ليسَ بعارٍ أن يكون عبداً لله». فنزلَتْ الآية[١].

ثمّ هدّد الله تعالىٰ المُستنكِفين عن عِبادته بقوله: ﴿وَمَن يَسْتَنْكِفْ﴾ ويتأنّف ﴿عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ وطاعته ﴿وَيَسْتَكْبِرْ﴾ ويترفّع عنها ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ﴾ مِن القُبور ويسُوقهم ﴿إِلَيْهِ﴾ يوم القِيامة حالَ كَوْنهم ﴿جَمِيعاً﴾ لا يشِذُّ مِنهم [أحَدٌ].

فَأَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِن فَضْلِهِ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا وَٱسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَلاَ يَجِدُونَ لَهُم مِن دُونِ ٱللهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً[١٧٣]

ثمّ بشّر المُقرّين بتَوحيده وعُبوديّته بالثّواب وزِيادة التّفضُّل بقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ برُبوبيّة الله وعُبوديّة أنفسهم ﴿وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ﴾ ويُعطيهم ﴿أُجُورَهُمْ﴾ وثَواب أعمالهم مِن غيرِ نَقْصٍ ﴿وَيَزِيدُهُمْ﴾ أضعافها ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ وسَعَة رَحمته.

ثمّ هدّد سُبحانه المُستنكِفين بالعَذاب الشّديد بقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا﴾ وتأنفوا عن عِبادة الله ﴿وَٱسْتَكْبَرُوا﴾ وترفّعوا عن طاعته ﴿فَيُعَذِّبُهُمْ﴾ في الآخرة بسَبب اسْتِنكافهم واسْتِكبارهم ﴿عَذَاباً أَلِيماً﴾ في الغاية لا يُمكِن وَصْفه ﴿وَلاَ يَجِدُونَ لَهُم﴾ فيها أحداً ﴿مِن دُونِ ٱللهِ﴾ ومِمّا سِواه

---

١. تفسير الرازي ١١: ١١٧.

﴿وَلِيّاً﴾ يُنجيهم مِن العَذاب ﴿وَلَا نَصِيراً﴾ ومُعيناً مُدافعاً عنهم.

يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِن رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً[١٧٤]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَما أبطل دَعاوىٰ النّصارىٰ بالحُجّة القاطِعة، والوَعد علىٰ الإيمان والطّاعة، والوَعيد علىٰ الاستِنكاف عن العُبوديّة، أعاد الدّعوة إلىٰ الإيمان بمحمّد ﷺ وكِتابه بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ﴾ وحُجّة قاطِعة علىٰ الحَقّ ﴿مِن رَبِّكُمْ﴾ اللّطيف بكم، وهُو الرّسُول المُبيِّن للحَقائق، القاطِع للأعذار.

وقيل: هُو المُعجزات الباهرات[١].

﴿وَأَنْزَلْنَا﴾ مِن السّماء ﴿إِلَيْكُمْ﴾ لِهدايتكم ﴿نُوراً مُبِيناً﴾ وقُرآناً مُوضِّحاً للعُلوم، كاشفاً لطريق الهِداية، ومُزيلاً لظُلُمات الجَهْل والغِواية، فما بقي لكم في الانْحِراف عن الحَقّ وتَرْك الدُّخول في الإسلام عُذْر.

فَأَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَٱعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً[١٧٥]

ثمّ رغّب النّاس في قَبول دِين الحَقّ والالْتِزام به، بقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ﴾ وأقرُّوا بوَحدانيّته وكَمال صِفاته ﴿وَٱعْتَصَمُوا بِهِ﴾ في أن يحفَظهم مِن الزّلّات واتّباع الشّهوات بتَوْفيقه ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ﴾ بعدَ المَوت ﴿فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ﴾.

عن ابن عبّاس رضي الله عنه: أي في الجنّة[٢].

﴿وَفَضْلٍ﴾ هُو ما لا عَينٌ رأتْ، ولا أُذنٌ سمِعتْ ﴿وَيَهْدِيهِمْ﴾ فِي الدُّنيا ﴿إِلَيْهِ﴾ وإلىٰ مَقام قُرْبه ﴿صِرَاطاً﴾ وطَريقاً ﴿مُسْتَقِيماً﴾ مُوصِلاً.

عن القُمّي رحمه الله: النُّور: إمامة أمير المؤمنين عليه السلام، والاعْتِصام: التّمسُّك بوِلايته ووِلاية الأئمّة صَلَواتُ الله عليهم بعده[٣].

وفي رِوايةٍ عن الصادق عليه السلام: «الصِّراط المُستقيم: عليّ عليه السلام»[٤]، وقد مرّ تفسير (الصِّراط) في الفاتحة.

---

١. تفسير أبي السعود ٢: ٢٦٢، تفسير روح البيان ٢: ٣٣٣.

٢. تفسير الرازي ١١: ١٢٠، تفسير أبي السعود ٢: ٢٦٣.

٣. تفسير القمي ١: ١٥٩، تفسير الصافي ١: ٤٨٦.

٤. تفسير العياشي ١: ١١٥٣/٤٥٧، تفسير الصافي ١: ٤٨٦.

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَالَةِ إِنِ ٱمْرُؤٌا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ[١٧٦]

في بيان إرث الأخوة والأخوات من قبل الأب أو الأبوين

ثمّ لمّا بدأ الله تعالى في السورة المباركة بحقوق الناس من الأيتام والازواج والأرحام، ختَم السُّورة بما بدأ به مِن حُقوق النّاس التي مِنها إرْث الإخوان والأخوات من الأب، بقوله: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ يا رَسُول [الله] عن حُكْم إرْث الإخوة والأخوات ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ﴾ ويُبيِّن لكم الحُكْم ﴿فِى ٱلْكَلَالَةِ﴾ والقَرابة التي لا تكون بوَالدٍ ولا وَلد.

رُوي أنّ جابر بن عبدالله كان مريضاً، فعادَه رَسُول الله ﷺ، فقال: إنّي كلالة - أي لا يخلُفني والدٌ ولا وَلد - فكيف أصنع في مالي؟ فنزلَتْ[١].

﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا هَلَكَ﴾ ورَجُل مات، وكان مِمّن ﴿لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾ وإن نزَل ﴿وَلَهُ﴾ مِن الوارِث القَريب ﴿أُخْتٌ﴾ واحدة مِن قِبَل الأب، سَواءٌ كانت مِن قِبَل الأمّ أيضاً أم لا، لذِكْره تعالىٰ حُكْم كَلالة الأمّ في أول السُّورة ﴿فَلَهَا﴾ بالفَرْض ﴿نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ الميِّت مِن الأموال والحُقوق، والنِّصْف الآخر بالرَّدِّ إن لَم يكُن له زَوجة.

ثمّ بيّن حُكْم إرْث الأخ مِن الأخت بقوله: ﴿وَهُوَ يَرِثُهَا﴾ جميع مالها ﴿إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ﴾ وإن نزَل، ولا زوج ولا غيره مِن الإخوة والأخوات، وإلّا فللزَوج نَصيبه الأعلىٰ، وللإخوة مِن الأمّ نَصيبهم، والباقي للأخ مِن الأب والأمّ، وإن لَم يكُن فللأخ مِن الأب وَحْده.

ثمّ بيّن حُكْم إرْث الأختَين فصاعِداً مِن الأب بقوله: ﴿فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ أو كُنّ أكثر ﴿فَلَهُمَا﴾ أولهُنّ جميعاً ﴿ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ الميِّت أخاً كان أو أختاً، يَقسِّمْنَ بَيْنهُنّ بالسَّويّة، والباقي لهُنّ بالرَّدِّ، إن لَم يكُن معهُنّ زَوجٌ أو زَوجة أو كَلالة الأم.

ثمّ بيّن حُكْم اجْتِماع الأخ والأخت في الإرث بقوله: ﴿وَإِن كَانُوا إِخْوَةً﴾ مختلفين[٢] ﴿رِّجَالاً وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ﴾ مِنهم مِن أموال الميِّت حَظٌّ ﴿مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾.

عن الباقر عليه السلام: «إذا مات الرَّجُل وله أخت، تأخذ نِصْفَ الميراث[٣] بالآية، كما تأخُذ البِنْتُ لَو كانت، والنِّصفُ الباقي يُرَدّ عليها بالرَّحِم، إذا لَم يكُن للميّت وارِث أقرب مِنها، فإن كان مَوضع الأخت أخ،

١. تفسير روح البيان ٢: ٣٣٤.
٢. في النسخة: مختلفة.
٣. في تفسير القمي: تأخذ نصف ما ترك من الميراث، لها نصف الميراث.

أخذ المِيراث كُلّه بالآية، لقول الله: ﴿وهُوَ يَرِثُها إن لَم يَكُن لَها وَلَدٌ﴾ وإن كانتا اُختين، أخذتا الثُّلثين بالآية، والثُلثُ الباقي بالرَّحِم، وإن كانوا إخوة رِجالاً ونِساءً، فللذَّكَر مِثْل حَظّ الأُنثيين، وذلك كُلّه إذا لَم يُكن [للميت] ولد، أو أبوان، أو زَوجة»[1].

ثمّ مَنّ سُبحانه وتعالىٰ علىٰ النّاس بقوله: ﴿يُبَيِّنُ آللهُ لَكُمْ﴾ المَعارف والأحكام بالبَيان الواضِح، كَراهةَ ﴿أَن تَضِلُّوا﴾ عن الحَقّ ﴿وَآللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ مِن الأشياء، ومَصالح الأحكام ﴿عَلِيمٌ﴾ خَبير.

قيل: هذه الآية آخر آية نزلَتْ في الأحكام[2]، وسُمّيت بآية الصَّيف، لأنّها نزلَتْ بالصَّيْف، وآية الكَلالة في أول السُّورة نزلَتْ بالشِّتاء[3].

[وجه نظم المائدة بعد النساء]

ومِن لَطائف هذه السُّورة المُباركة أنّ الله بدأ فيها ببَيان كَمال قُدْرته بقوله: ﴿خَلَقَكُم مِن نَفسٍ وَاحِدَةٍ﴾[4]، وختَمها ببَيان كَمال عِلْمه بقولَه: ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيمٌ﴾[5].

وهذان الوَصفان مرجِع جميع صِفاته تعالىٰ، ومثبت اُلوهيتّه ورُبوبيّته المُوجِبتين لكَمال طاعته والانْقِياد له علىٰ العَبد، ولِذا رَدَفها بسُورة المائدة، المُبدأة فيها بالأمر بطاعة جميع أحكامه التي هِي عُقود الله وعُهوده إلىٰ عِباده، مُضافاً إلىٰ تصدُّر السُّورتين بالخِطاب الشُّفاهِي مَعَ تقدُّم عامِّه وهُو قوله: ﴿يَا أيُّها النَّاسُ﴾ علىٰ خاصّة وهُو قوله: ﴿يا أيُّها الَّذِين آمَنُوا﴾[6] واشتِمال سُورتي البَقرة وآل عِمران علىٰ عُمَد أحكام العِبادات، وسُورة النِّساء علىٰ مُهمّات حُقوق النّاس، وسُورةالمائدة علىٰ كثيرٍ مِن أحكام الأطعمة والأشربة، واشْتِمال السُّورَ الثّلاثة السّابقة علىٰ مُحاجّة أهلِ الكِتاب، وهذه السُّورة علىٰ نتيجة المُحاجة مِن إيمان بعضِهم كالنّجاشي.

وفي السُّوَر السّابقة بَيان الدِّين، وفي هذه السُّورة البِشارة بتَكْميله، وفي النِّساء بَيان حُكْم الوَصيّة، وفي هذه السُّورة بَيان كيفيّة إثباتها، إلىٰ غير ذلك مِن الوُجوه التي اقتضىٰ حُسْن النَظْم ذِكْر المائدة بعدَ النِّساء، فابتدأ فيها تيُّمناً وتَعليماً للعِباد بذِكْر: بسم الله الرحمن الرحيم.

---

١. تفسير القمي ١: ١٥٩، تفسير الصافي ١: ٤٨٦، وفي النسخة: ولد وأبوان وزوجة.
٢. تفسير البيضاوي ١: ٢٥١.
٣. مجمع البيان ٣: ٢٢٩. وفيه: أن الله تعالى أنزل في الكلالة آيتين: إحداهما في الشتاء، وهي التي في أول هذه السورة، وأُخرىٰ في الصيف، وهي هذه الآية.
٤. النساء: ١/٤.
٥. الأنعام: ١٠١/٦.
٦. المائدة: ١/٥.

في تفسير سورة المائدة

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ[١]

﴿بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وقد سبق تفسيره في سُورة الفاتحة.

في دلالة آية: ﴿اوفوا بالعقود﴾ على لزوم كل عقد

ثمّ لمّا كان الانْقِياد لأحكام الله والوَفاء بعُهوده مِن لَوازم الإيمان، وشاقاً على الطِّباع، خاطَب أهل الإيمان علىٰ وَجْه المُشافهة بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ صَميماً وحقيقةً بتَوحيد الله وكَمال صِفاته، ورِسالة رَسُوله وأحكام دِينه ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ والْتزِموا بالعمَل بالعهُود المُوثَّقة التي بَيْنكم وبَيْن رَبّكم مِن أحكامه ووَاجباته ومُحرّماته، أو بَيْن غيركم مِن العِباد كعُقود المُعاملات، أو بَيْن أنفسكم كالإيقاعات مِن الطَّلاق والتّحرير والإبراء والنَّذْر والعَهْد واليَمين.

وقيل: إنّ المُراد خُصوص ما يعقِد النّاس في مُعاملاتهم، ومِن الوَفاء القِيام بمُقتضاه مِن اللُّزوم والجَواز، فإنّ كان لازم العمَل عمَل بلُزومه، وإن كان جائز العمَل عمَل بجَوازه.

أمّا القول الأوّل مِن تَخصيصه بخُصوص المُعاملات، فخِلاف الظّاهِر. وأمّا الثاني، ففاسِدٌ جِدّاً؛ لأنّ الوَفاء بالعَهْد هُو العَمل بمَضمونه، ولُزوم العَهد وجَوازه لَيْسا مِن مَدلوله، بَل هُما حُكْمان شَرعيّان في مَوضوع العَهْد.

فعلىٰ ما ذكَرنا لا إجمال في الآية، كما ادّعاه الفاضِل المِقداد[١]، وتَبِعه بعضُ مَن تأخّر عنه، بَل عُمومها مثبَت بلُزوم كُلّ عَقْدٍ حتّىٰ يثبت بالدليل جَوازُه والخِيار فيه.

وعن القُمّي رحمه الله: عن الجواد عليه السلام: «أنّ رَسُول الله صلى الله عليه وآله عقَد عليهم لعلِي عليه السلام [بالخلافة] في عشرة مَواطن، ثمّ أنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ التي عُقِدت عليكم لأمير المؤمنين صلَوات

---

١. كنز العرفان ٢: ٧١.

الله عليه»[١].

ثمَ أنّه تعالىٰ بعدَ أمره بإطاعة أحكامه علىٰ وَجْه الإجمال، شرَع في تَفْصيله، فبدأ بذِكْر ما يحِلّ وما يَحرُم مِن المَطعومات بقوله: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم﴾ مِن جانب الله ﴿بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَامِ﴾ مِن الإبل والبَقر والغَنم، أهليِّها ووَحْشِيِّها.

وعن الباقر عليه السلام: «هِي الأجِنّة التي في بُطون الأنعام، وقد كان أمير المؤمنين عليه السلام يأمُر ببَيع الأجِنّة»[٢].

وعن أحدهما عليهما السلام، في تفسيرها: «الجَنين في بَطن اُمّه إذا أشعر وأوبر، فذَكاته ذكاة اُمّه»[٣].

وزاد في (الكافي) و(القُمّي): «فذلك الذي عنىٰ الله عزّ وجلّ»[٤].

وفي رِوايةٍ: «وإنْ لَم يكن تامّاً فلا تأكُله»[٥].

وقيل: إضافة البَهيمة إلىٰ الأنعام بَيانيّة، والمُراد: عُموم الأزواج الثّمانية[٦].

وعن الباقر عليه السلام: «أنّ علياً عليه السلام سُئل عن أكل لَحْم الفِيل والدُّبّ والقِرْد، فقال: ليس هذا مِن بهيمة الأنعام التي تُؤكل»[٧].

ثمَ اسْتثنىٰ عن عُموم الحِلّ بقوله: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ﴾ ويُقرأ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ فيما بعدُ مِن قوله: ﴿حُرِّمت عليكُم الميتة والدّم﴾[٨]، ثمَ خصّ الحِلّ مِن الوَحشيّ بكَونكم ﴿غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ﴾ ومُقتضِيه ﴿وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ مُتلبّسون بإحرام الحَجّ أو العُمْرة، فإنّه لايحِلّ لكم الصّيد في تِلك الحالة.

ثمَ لمّا كان مَجال توهُّم عدَم الفَرق بَيْن حال الإحرام والإحلال، وبَيْن الصَّيد وغيره، دفَعه الله بقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ مِن التّحليل والتّحريم علىٰ ما تقتضيه حِكمتُه البالغة التي لاتبلُغها العُقول، فعليكم التّسليم والانْقِياد.

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ ٱللهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِن رَبِّهِمْ وَرِضْوَاناً وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَانِ وَٱتَّقُوا

---

١. تفسير القمي ٢: ١٦٠، تفسير الصافي ٢: ٥.
٢. تفسير العياشي ٢: ١١٦٩/٥، تفسير الصافي ٢: ٦.
٣. تفسير العياشي ٢: ١١٧٠/٥، عن الصادق عليه السلام، تفسير الصافي ٢: ٥.
٤. تفسير القمي ١: ١٦٠، الكافي ٦: ١/٢٣٤، تفسير الصافي ٢: ٦.
٥. الكافي ٦: ٢/٢٣٤، تفسير الصافي ٢: ٦.
٦. تفسير البيضاوي ١: ٢٥٣، تفسير روح البيان ٢: ٣٣٧.
٧. تفسير العياشي ٢: ١١٧١/٥، تفسير الصافي ٢: ٦.
٨. المائدة: ٣/٥.

ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ[٢]

ثمّ لمّا حرّم الله الصّيد في حالِ الإحرام، أكّد ذلك بالنّهي عن التّهاون بأحكامه ومُحرّماته بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ ٱللَّهِ﴾ ولا تُخِلّوا بشيءٍ مِن أحكامه التي يكون الالْتِزام بـها عَلامة الإيمان وأهله وشِعاراً للمُسلم. أو المُراد: لاتتهاونوا بشيءٍ مِمّا حرّم الله عليكم حالَ الإحرام أوبشيءٍ مِن مَناسك الحَجّ.

عن ابن عبّاس رضي الله عنه: أنّ المُشركين كانوا يحُجّون البيتَ، ويهدون الهَدايا، ويُعظّمون المَشاعر، وينحرون، فأراد المُسلمون أن يُغيِّروا عليهم، فأنزل الله: ﴿لَا تُحِلّوا شَعائرَ اللهِ﴾[١].

قيل: كانت العَرَبُ لا يرَون الصّفا والمَروة مِن شَعائر الحَجّ، ولا يطّوفون بهما، فأنزل الله: لا تَسْتحِلّوا تَرْك شيءٍ مِن مَناسك الحَجّ[٢].

﴿وَلَا﴾ تستحِلّوا ﴿ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ بالقَتْل والغَارة فيه.

عن الباقر عليه السلام: «نزلَتْ في رَجُلٍ مِن بني رَبيعة يُقال له الحطيم»[٣].

في قضية شريح البكري وغدره

وقيل: اسمه شُريح بن ضبيعة البكري، أتىٰ المدينة مِن اليَمامة وخلّف خَيْله خارج المدينة، ودخل وحدَه علىٰ النبيّ صلى الله عليه وآله فقال له: إلامَ تدعو النّاس؟ فقال: «إلىٰ شَهادة أن لا إله إلّا الله، وإقام الصّلاة، وإيتاء الزّكاة»، فقال: حَسَنٌ، إلّا أنّ لي اُمراء لا أقطع أمراً دُونهم لعلّي أسلم وآتي بهم، وقد كان النبيّ صلى الله عليه وآله قال لأصحابه: «يدخُل عليكم رَجُلٌ مِن رَبيعة يتكلّم بلِسان الشّيطان»[٤].

ثمّ خرَج شُريح مِن عنده فقال عليه السلام: «لقد دخَل بوَجْه كافر، وخرَج بقَفا غادر، وما الرّجُل بمُسلم»، فمرّ بسَرْح[٥] المدينة فاسْتاقه فانْطلق، فتَبِعوه فلَم يُدرِكوه، فلمّا كان العام المُقبل خرَج حاجاً في حُجّاج بني بكر بن وائل مِن اليَمامة ومعَه تِجارة عظيمة وقد قلّدوا الهَدْي، فقال المُسلمون للنبيّ صلى الله عليه وآله، هذا الحطيم[٦] قد خرج حاجاً، فخَلّ بيْننا وبيْنه، فقال النبيّ صلى الله عليه وآله: «إنّه قد قلّد الهَدْي»، فقالوا: يا رَسُول الله، هذا شيءٌ كُنّا نفعَله في الجاهلية، فأبىٰ النبيّ صلى الله عليه وآله. فأنزل الله تعالىٰ هذه الآية[٧].

﴿وَلَا﴾ تَستحِلّوا ﴿ٱلْهَدْيَ﴾ الذي يُهدىٰ إلىٰ الكَعْبة بغَصْبه، أو بمَنْعه مِن بُلوغ مَحلّه ﴿وَلَا ٱلْقَلَائِدَ﴾ التي يُقلّد بها الهَدْي. وفيه مُبالغة في النّهي عن التّعرّض لذَوات القلائد مِن الهَدْي، وتخصيصها

---

١ و٢. تفسير الرازي ١١: ١٢٨.

٣. مجمع البيان ٣: ٢٣٦، تفسير الصافي ٢: ٦، وفيهما: الحطم، بدل الحطيم.

٤. تفسير روح البيان ٢: ٣٣٨.

٥. السَّرح: الماشية تسرح في الأرض.

٦. في تفسير روح البيان: الخطيم.

٧. تفسير روح البيان ٢: ٣٣٨.

بالذِّكر معَ كَونها داخلة في الهَدْي لكَونها أشرف الهَدْي.

﴿وَلَآ﴾ تستحِلوا **﴿ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾** وقاصدي زِيارته، حَال كَونهم لا يقصُدون بزِيارتهم الكَعْبة قِتالكم وغَدْركم، بَل **﴿يَبْتَغُونَ﴾** ويطلُبون بسَفر الزِّيارة **﴿فَضْلاً﴾** وثَواباً، أو رِبْح تِجارة **﴿مِن رَبِّهِمْ وَرِضْوَاناً﴾** مِنه باعْتِقادهم، وإن كانوا بسَبب كُفرهم لا يَنالون ذلك، ولكن يكون لهم ببركة هذا القَصْد وهذا السَّفر نوعٌ مِن الحُرمة.

عن ابن عبّاس: أنّه مَنسوخ بقوله: **﴿فلَا يَقرَبُوا المَسجِدَ الحَرَامَ﴾**[1].

ورُوي أنّه لَم يُنسخ مِن المائدة حُكْم[2]. وعليه، فلابُدّ مِن القول بأنّ المُراد مِن الآمّين خُصوص المُسلمين، أو يُقال: لا تَنافي بين مَنْعهم مِن قُرْب المَسجد، وعدَم حِلِّيّة التَعرُّض لهم بالقَتل والغَارة.

ثمّ لمّا نهىٰ الله عن تَحْليل الصَّيد حالَ الإحرام، صرّح بجَوازه بعدَ التّحليل بقوله: **﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ﴾** مِن الإحرام وخرَجتُم مِنه **﴿فَاصْطَادُوا﴾** بعدُ لزَوال المانع.

ثمّ بعدَ النّهي عن التّعدِّي علىٰ الكُفّار في الأشهر الحُرُم بالقَتْل والغَارة، وعن اسْتِحلال قاصِدي زِيارة البيت، صرّح بأنّ تعدّي الكُفّار علىٰ المُسلمين في غير الأشهر الحُرُم لا يُوجب جَواز التّعدِّي عليهم فيها، بقوله: **﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾** أيُّها المُسلمون ولا يحمِلنّكم **﴿شَنَآنُ قَوْمٍ﴾** مِن الكُفّار، وشِدّة عَداوتكم لهم لأجل **﴿أَن صَدُّوكُمْ﴾** ومنَعوكم **﴿عَنِ﴾** دُخول **﴿ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾** وزِيارته وطَوافه للعُمْرة عام الحُدَيْبية علىٰ **﴿أَن تَعْتَدُوا﴾** وتجورُوا عليهم انْتِقاماً مِنهم وتَشفياً.

ثمّ بعد النّهي عن التّعدِّي، أمر بالمُعاونة علىٰ العَفْو والإحسان، ونهىٰ عن مُعاونة المُتعدِّي أيضاً بقوله: **﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى﴾** عمَل **﴿ٱلْبِرِّ﴾** والخَير؛ وهُو العَفْو **﴿وَ﴾** فِعْل **﴿ٱلتَّقْوَىٰ﴾** وهُو إطاعة أمر الله ونَهْيه **﴿وَلَا تَعَاوَنُوا﴾** ولا تعاضَدوا **﴿عَلَى ٱلْإِثْمِ﴾** وعِصيان الله، **﴿وَ﴾** لا **﴿ٱلْعُدْوَانِ﴾** والظُّلْم علىٰ الغَير للتَّشفِّي والانْتِقام.

ثمّ أكّد الأمر بالتّعاوُن علىٰ التّقوى بقوله: **﴿وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾** ولا تستحِلّوا شيئاً مِن مَحارمه. ثمّ هدّد علىٰ مُخالفة أحكامه بقوله: **﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾** بحيثُ لا يُطيق أحدٌ الصَّبْر عليه فخافوا ـ في مُخالفة أحكامه وتَرْك التّقوىٰ ـ عِقابه الشّديد في الآخرة.

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ

---

١. مجمع البيان ٣: ٢٣٩، والآية من سورة التوبة: ٢٨/٩.

٢. مجمع البيان ٣: ٢٣٩، تفسير الصافي ٢: ٧.

وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذٰلِكُمْ فِسْقٌ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَامَ دِيناً فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ[٣]

جملة من المأكولات المحرمة

ثمّ تَلا سُبحانه ما استثناه ـ مِن تَحْليل عُموم أجزاء بَهيمة الأنعام بقوله في الآية الأولىٰ: ﴿إِلَّا مَا يُتْلىٰ عَلَيْكُم﴾ ـ بقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ﴾ أيُّها المؤمنون مِن قِبَل الله أشياء: أحدُها: ﴿ٱلْمَيْتَةُ﴾ وما زهَق رُوحُه مِن كُلّ حَيوان بحَتْف أنفه، أو بغير التَذْكية الشَرعيّة؛ لأنّ في أكله مَضارّ عظيمة، لتَعفُّن الدَّم المُحتبِس في عُروقه.

﴿وَ﴾ الثانية: ﴿ٱلدَّمُ﴾ غير المُتخلّف في الذَّبيحة، سُمّي بالمَسفوح.

﴿وَ﴾ الثالثة: ﴿لَحْمُ ٱلْخَنزِيرِ﴾ لأنّ الخِنزير مَطبوع علىٰ الحِرْص والشَهْوة، والإنسان يتخلّق بأخلاق الحَيوان الذي تصير أجزاؤه جُزءاً مِن بَدَنه.

قيل: إنّما خَصّه بالذِّكْر مِن بَيْن سائر الحَيوانات المُحرّمة؛ لأنّ العَرَب كانوا يعتادون أكله[١].

﴿وَ﴾ الرابع: ﴿مَا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللهِ بِهِ﴾ وهُو المَذبوح الذي رُفع الصَوت عندَ ذَبْحه باسْم الأصنام.

وعن الباقر عليه السلام: «يعني ما ذُبح للأصنام»[٢].

﴿وَ﴾ الخامسة: ﴿ٱلْمُنْخَنِقَةُ﴾ وهِي الحَيوان الذي يُعصَر حَلْقه حتّىٰ يموت.

﴿وَ﴾ السادسة: ﴿ٱلْمَوْقُوذَةُ﴾ وهِي الحَيوان الذي يُضرب حتّىٰ يموت.

﴿وَ﴾ السابعة: ﴿ٱلْمُتَرَدِّيَةُ﴾ وهِي الحَيوان الذي يمُوت بالسُّقوط مِن شاهِق.

﴿وَ﴾ الثامنة: ﴿ٱلنَّطِيحَةُ﴾ وهِي الحَيوان الذي يموت بالمُناطحة.

﴿وَ﴾ التاسعة: ﴿مَا أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾ مِنه ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ إيّاه وطهّرتُموه بما جعلَه الله له تَطْهيراً مِن النَّحْر أو الذَّبْح.

عن الرضا عليه السلام: «المُتردِّية، والنَطيحة، وما أكل السَّبُع، إذا أدركتَ ذَكاتَه فكُلْه»[٣].

وعن الباقر والصادق عليهما السلام: «أنّ أدنىٰ مايُدرك به الذَكاة أن تُدرِكه وهُو يُحرّك أُذُنه وذَنَبه، أو تطرف عينيه»[٤].

---

١. تفسير الصافي ٢: ٧. ٢. الخصال: ٥٧/٤٥١، تفسير الصافي ٢: ٧.
٣. تفسير العياشي ٢: ١١٧٦/٨، تفسير الصافي ٢: ٩. ٤. مجمع البيان ٣: ٢٤٤، تفسير الصافي ٢: ٩.

وعن الصادق عليه السلام: «في كِتاب عليٍّ: إذا طرَفت العَينُ أو ركضَت الرِّجْلُ، أو تحرّك الذَّنَب، فكُلْ مِنه، فقد أدركتَ ذَكاتَه»[١].

في معنى الاستقسام بالازلام

﴿وَ﴾ العاشر: ﴿مَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ وفَوق الأحجار التي [هي] مَنصوبة حَول البيت، وكان المُشركون يذبَحون القَرابين عليها ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا﴾ وتطلبوا مَعرِفة النَصيب ﴿ بالأَ زْلَامِ﴾ والأقداح.

عن الباقر عليه السلام: «أمّا المنخنقة، فإنّ المَجوس كانوا لا يأكُلون الذَبائح ويأكلون الميتة، وكانوا يخنُقون البَقَر والغَنَم فإذا انخنقَتْ وماتت أكلوها. والمَوقوذة كانوا يشدّون أرجُلَها ويَضْربونها حتّىٰ تموت، فإذا ماتت أكلوها. والنَطيحة كانوا يُناطحون بالكِباش[٢]، فإذا مات أحدُهما أكلوه، ﴿وَمَا أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ فكانوا يأكُلون ما يأكُله[٣] الذِّئب والأسد، فحرّم الله ذلك، ﴿وَمَا ذُبِح عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ كانوا يذبَحون لبُيوت النِّيران، وقُريش كانوا يعبُدون الشّجر والصَّخَر فيذبحون لها»[٤].

وعن الجواد عليه السلام، في روايةٍ قال: «كانوا في الجاهليّة يشترون بعيراً فيما بَيْن عَشرة ... فمَن خرَج باسْمه سَهْم [من التي] لا أنصباء لها أُلزم ثُلث ثَمن البعير، فلا يزالون كذلك حتّى تقع السِّهام الثَّلاثة التي لا أنصباء لها إلىٰ ثلاثة مِنهم فيُلزمونهم ثمن البعير، ثمّ ينحرونه، ويأكله السَّبعة الّذِين لَم ينقُدوا في ثمنه شيئاً، ولا يُطعمون مِنه الثّلاثة الّذِين وفَروا ثمنه شيئاً، فلمّا جاء الإسلام حرّم الله تعالىٰ ذِكْرُه ذلك فيما حرّم، فقال عزّ وجلّ: ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلَامِ﴾، ﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ يعني حرام»[٥].

قيل: إنّما سمّىٰ الله الاسْتِقسام بالأزلام فُسقاً؛ لأنّه طَلَبُ مَعرِفة الغَيْب، معَ أنّه مُختصٌّ بالله تعالىٰ[٦].

عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال: «مَن تكهّن أو اسْتقسَم أو تطيَّر طَيْرةً تُردّه عن سَفَره، لم ينظُر إلىٰ الدَّرَجات العُلىٰ مِن الجنّة يومَ القِيامة»[٧].

وقيل: إنّ العرب كانوا يُجِيلون تِلك الأزلام عندَ الأصنام، ويعتقدون أنّ ما يخرُج مِن الأمر والنّهي علىٰ تِلك الأزلام فبإرشاد الأصنام وإعانتهم[٨].

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ بَيان غالب أحكام دِينه، وأمره بنَصْب أمير المُؤمنين عليه السلام عَلَماً وخليفةً في المُسلمين، وظُهور قُوّة الإسلام، بشّر المُسلمين بخِذلان الكُفّار بقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ والآن انقطع طَمعُهم ﴿مِن﴾ تَوهين ﴿دِينِكُمْ﴾ وَغَلبتهم عليكم، ومِن إضلالكم وانصِرافكم عن

---

١. الكافي ٦: ٣/٢٣٢، تفسير الصافي ٢: ٩.
٢. في النسخة: بالكبائش.
٣. في الخصال: ما يقتله.
٤. الخصال: ٥٧/٤٥١، تفسير الصافي ٢: ٧.
٥. التهذيب ٩: ٣٥٤/٨٣، تفسير الصافي ٢: ٨.
٦. تفسير الرازي ١١: ١٣٦.
٧ و٨. تفسير الرازي ١١: ١٣٦.

التَوحيد ورُجوعكم إلىٰ الشِّرْك ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ مِن أن يغلِبوكم، ويمنَعوكم مِن العمَل بأحكام دِينكم بعدَ اليوم ﴿وَٱخْشَوْنِ﴾ فقط في تَرْك طاعتي ومُخالفة شَريعتي أن تحِلّ بكم عقُوبتي.

ثمّ بشّرهم سُبحانه بعدَ تَعليمهم مَناسك الحَجّ، وتَعرِيفهم الحُجّة البالغة عليهم بعدَ نبيِّهم ﷺ بقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ بالنَّص علىٰ جَميع المَعارف، وعُمَد الأحكام، والدّلالة علىٰ باب العِلْم ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ بإتمام الدِّين ﴿نِعْمَتِى﴾ وفَضْلي ورَحمتي ﴿وَرَضِيتُ﴾ واخترتُ ﴿لَكُمُ ٱلْإِسْلَامَ﴾ الذي هُو دِين الله ودِين مَلائكته ﴿دِيناً﴾.

عن (المَجمع): عنهما عليهما السلام: «إنّما نزل بعدَ أن نصَب النبيّ ﷺ علياً عليه السلام عَلَماً للأنام يومَ غَدير خُمّ، عندَ مُنصَرفه عن حجّة الوَدَاع» قالا: «وهِي آخر فَريضة أنزلها الله، ثمّ لَم تنزل فَريضة بعدَها»[1].

وعن الباقر عليه السلام: «الفَريضة تنزِل بعدَ الفَريضة الأخرىٰ، وكانت الوِلاية آخر الفَرائض، فأنزل الله ﴿ٱلْيَوْمَ أكملتُ لكُم دِينَكم﴾، قال [الله عزّ وجلّ]: لا أُنزِلُ بعدَ هذه فريضةً، قد أكملتُ لكم الفَرائض»[2].

رُوي أنّه لمّا نزلَتْ هذه الآية بكىٰ عُمر، فقال النبيّ ﷺ: «ما يُبكيك ياعُمر؟»، قال: أبكاني أنّا كُنّا في زِيادة من دِيننا، فإذا كمُل فإنّه لَم يكمُل شيءٌ إلّا نقَص، قال: «صدقتَ»، فكانت هذه الآية تنعىٰ رَسُول الله ﷺ. وعاش بعدَها أحداً وثمانين يوماً، ومات يومَ الاثنين[3].

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ بَيان حُرمة جُملةٍ مِن الأطعمة ـ والفَصْل بالجُملة الاعْتِراضية للتّأكيد والتّبشير ـ عاد إلىٰ بَيان حُكْم الاضْطِرار إلىٰ تَناوُلها، بقوله: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾ إلىٰ تَناوُل شيءٍ مِن المُحرّمات المَذكورة ﴿فِى﴾ حالِ ﴿مَخْمَصَةٍ﴾ ومَجاعة يَخاف علىٰ نفسه مِنها الهَلاك أو الضَرَر، فليَتناول مِمّا حُرّم عليه، ولكن لابُدّ أن يكون في أكله ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ﴾ ومُتعمّد ﴿لِإِثْمٍ﴾ بأن يتَجاوز عن حَدّ الاضْطِرار ﴿فَإِنَّ ٱللهَ غَفُورٌ﴾ غير مُؤاخذ ﴿رَحِيمٌ﴾ به بترْخيصه في الأكل مِن المُحرّمات.

يَسْئَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللهِ عَلَيْهِ وَٱتَّقُوا ٱللهَ إِنَّ ٱللهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ[٤]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ بَيان حُرمة جُملةٍ مِن المَطعومات، حكىٰ سُؤال النّاس عن مُحلّلاتها بقوله:

---

١. مجمع البيان ٣: ٢٤٦، تفسير الصافي ٢: ١٠.
٢. الكافي ١: ٤/٢٢٩، تفسير الصافي ٢: ١٠.
٣. تفسير روح البيان ٢: ٣٤٣.

﴿يَسْئَلُونَكَ﴾ يا محمد، عن أنّه ﴿مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ﴾ مِن المَطاعِم؟ وما الذي رُخّص لهم في أكله؟ ثمّ أمر بجَوابهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ للسّائلين: ﴿أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَاتُ﴾ وكُلّ ما لا تَستخبِثُه الطِّباع السّليمة، أو [كلّ ما] يستلِذّ مِنه ذَوُو المُروءات، كما قيل[1].

وقيل: إنّ العَرَب في الجاهليّة كانوا يُحرّمون أشياءَ مِن الطَّيِّبات كالبَحيرة والسّائبة والوَصيلة والحَام، مع حُكمهم بكَونها طَيِّبة[2]، فرَدَ الله عليهم بتَرخيصه في أكلها.

ويُمكِن أن يكون المُراد ما لا ضَرَر في أكله في نظَر الشّارع. وعليه تكون مُجملة مُحتاجة إلى البَيان.

ثمّ نَصّ سُبحانه على حِلِّيّة قِسْم خاص مِنها، للاهتِمام بالتّنبيه عليه بقوله: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم﴾ قيل: إنّ التّقدير: صَيْد ما عَلّمتم[3] ﴿مِنَ ٱلجَوَارِحِ﴾ والكَواسب مِن السِّباع والطَّير، حالَ كَونهِنّ ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ ومُؤدّبين الاصْطِياد[4].

قيل: سُمِّي تأديب الجَوارح تَكْليباً، لكَثْرة كَوْن التّأديب في الكِلاب[5].

ثمّ أكّد سُبحانه اشْتِراط حِلّ صَيْدهِنّ بالتّأديب، بقوله: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللهُ﴾ وألهمكم به مِن طُرُق التّأديب.

عن الصادق عليه السلام، قال: «في كتاب عليٍّ عليه السلام، في قول الله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ قال: هِي الكِلاب»[6].

وقيل: إنّ ﴿مَا عَلَّمْتُم﴾ مُبتدأ، خَبَرُه: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ﴾[7].

﴿فَكُلُوا مِمّا أمسكْنَ﴾ مِن الحَيوانات ﴿عَلَيْكُمْ﴾ لا على أنفسهِنّ.

قيل: أدبُهنّ: اتِّباعُهنّ الصّيد بإرسالِ صاحبهِنّ، وانْزِجارهِنّ بزَجْره، وانْصِرافهِنّ بدُعائه، وإمساكُهنّ عليه الصّيد: بأن لا يأكُلْن مِنه وإن قَتَلْنَهُ[8].

﴿وَٱذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللهِ عَلَيْهِ﴾ حينَ إرسالهِنّ.

عن القُمّي رحمه الله: عن الصادق عليه السلام أنّه سُئل عن صَيْد البُزاة والصُّقُور والفُهود والكِلاب، قال: «لا، [تأكل] إلّا ما ذكّيتَ، إلّا الكِلاب». قيل: فإنّه قتله؟ قال: «كُل، فإنّ الله يقول: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِنَ ٱلْجَوَارِحِ

---

١. تفسير روح البيان ٢: ٣٤٥.
٢. تفسير الرازي ١١: ١٤١.
٣. تفسير الرازي ١١: ١٤٢.
٤. كذا، والظاهر من التفاسير: حال كونكم مكلّبين ومؤدّبين للاصطياد.
٥. تفسير الرازي ١١: ١٤٣.
٦. الكافي ٦: ٢٠٢/١، التهذيب ٩: ٨٨/٢٢، تفسير الصافي ٢: ١١.
٧. تفسير الرازي ١١: ١٤٣، تفسير أبي السعود ٣: ٨.
٨. تفسير أبي السعود ٣: ٨.

مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾»[١].

ثم قال عليه السلام: «كُلّ شيءٍ مِن السِّباع تُمسِك الصَيد علىٰ نفسها إلّا الكِلاب المُعلَّمة، فإنّها تُمسِك علىٰ صاحبها، فإذا ارسلتّم[٢] فاذكروا اسْم الله عليه فهُو ذَكاته»[٣].

وعنه عليه السلام، وقد سُئل عن إرسال الكَلب والصَقْر، فقال: «أمّا الصَقْر فلا تأكُل مِن صَيْده حتّىٰ تُدرِك ذَكاته، وأمّا الكَلب فكُل مِنه إذا ذكَرتَ اسْم الله عليه، أكلَ الكَلبُ مِنه أو لَم ياكُل»[٤].

وعن الباقر عليه السلام: «ما قتلَتْ مِن الجَوارح مُكلِّبين وذكَرتُم اسْم الله عليه فكُلُوا مِن صَيْدهِنَ، وما قتلَتْ الكِلاب التي لَم تُعلِّموها مِن قبل، انْ تُدركوه فلا تَطْعَموه»[٥].

وعن النبيّ صلّى الله عليه وآله، قال لعَدِيّ بن حاتِم: «إذا أرسلتَ كلبَك المُعلَم وذكرتَ اسْم الله، فكُل»[٦].

وفي روايةٍ: «وإن أكل فلا تأكُلْ، إنّما أمسكه علىٰ نفسه»[٧].

ثمّ لمّا كانت المَطاعم مَزلّة للشّيطان، أكّد الله سُبحانه التّكاليف التّحريميّة والتّحليليّة المَذكورة بأمره بالتّقوىٰ بقوله: **﴿وَٱتَّقُوا ٱللهَ﴾** واحْذَروا مُخالفة أحكامه. ثمّ هدّد علىٰ المُخالفة بقوله: **﴿إِنَّ ٱللهَ﴾** في الآخرة **﴿سَرِيعُ ٱلحِسَابِ﴾** لأعمالكم، فيؤاخذكم علىٰ مَعاصيكم بأسرع وقت.

ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوْتُوا ٱلْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَٱلْمُحْصَنَاتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَاتِ وَٱلْمُحْصَنَاتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوْتُوا ٱلْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِى أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِى ٱلآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ [٥]

ثمّ مَنّ الله سُبحانه علىٰ العِباد بتَسْهيل أحكامه في المأكولات بقوله: **﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَاتُ﴾** والآن رُخّص لكم في أكل المُستلذّات جميعها ـ وقد مرّت الوُجوه في تفسيرها[٨] ـ **﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوْتُوا ٱلْكِتَابَ﴾** مِن اليَهُود والنّصارىٰ **﴿حِلٌّ لَكُمْ﴾**.

[عن] القُمّي رحمه الله: عنىٰ بطَعامهم هنا: الحُبوب والفَواكه، غير الذبائح التي يذبحونها، فإنّهم لا يذكُرون

١. تفسير القمي ١: ١٦٢، تفسير الصافي ٢: ١١.
٢. في المصدر: قال: إذا أرسلت الكلب المعلّم.
٣. تفسير القمي ٢: ١٦٢، تفسير الصافي ٢: ١١.
٤. الكافي ٦: ٣/٢٠٧، تفسير الصافي ٢: ١١.
٥. الكافي ٦: ٥/٢٠٣، تفسير الصافي ٢: ١١.
٦. تفسير الرازي ١١: ١٤٤.
٧. تفسير أبي السعود ٣: ٨.
٨. في تفسير الآية المتقدمة.

اسْم الله خالصاً علىٰ ذبائحهم، ثمّ قال: والله، لا يستحِلّون ذبائحكم، فكيف تستحِلّون ذبائحهم؟[١].

إن قيل: بعدَ كَوْن ما سِوىٰ ذبائح أهل الكِتاب داخلاً في عُموم الطَّيِّبات، فما وَجْه تَخْصيصه بالذِّكْر؟

قلتُ: لعلّه دَفْع توهُّم حُرمته لدُخوله في تصرُّف المُشركين كحُرمة ذبائحهم، كما دفَع سُبحانه حُرمة طَعام المُسلمين عليهم بقوله: ﴿**وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ**﴾.

والحاصل: أنّه لا شُبهة في عدَم جَواز التَمسُّك بعُموم ﴿**طَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ**﴾ لإثبات حِلّ ذَبائحهم، لثُبوت تَخْصيصه بغير ذبائحهم بالرِّوايات المُعتبرة المَعمول بها بَيْن الأصحاب، وتَعيُّن حَمْل ما يُعارضها علىٰ التَّقيّة.

ثمّ مَنّ أيضاً بتَوْسعته علىٰ المُسلمين في المناكح بقوله: ﴿**وَٱلْمُحْصَنَاتُ**﴾ والعَفائف أو الحرائر ﴿**مِنَ ٱلْمُؤْمِنَاتِ**﴾ - عن الصادق عليه السلام: «هُنّ المُسلمات»[٢] - حِلٌّ لكم العَقْد عليهم مُطلقاً ﴿**وَٱلْمُحْصَنَاتُ**﴾ والعَفائف ﴿**مِنَ**﴾ نِساء ﴿**ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ**﴾ مِن اليَهود والنَصارىٰ، أيضاً حِلٌّ لكم ﴿**إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ**﴾ ومُهورهُنّ - وإنّما سُمّي المَهرُ أجراً لأنّه عِوض البُضْع والانْتِفاع، ولا يتقدّر بقَدَرٍ، وفي الاشتِراط معَ صِحّة النِّكاح بدُون إعطاء المَهْر دَلالة علىٰ تأكُّد وجُوب أدائه - حالَ كَوْنكم ﴿**مُحْصِنِينَ**﴾ فُروجكم، وحافظين لها مِن الزِّنا بنِكاحهنّ ﴿**غَيْرَ مُسَافِحِينَ**﴾ ومُجاهرين بالزِّنا معَهُنّ ﴿**وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ**﴾ ومُتستّرين به.

عن الشَّعبي: الزِّنا ضَرْبان: سِفاح، وهُو الزِّنا علىٰ سَبيل الإعلان. واتِّخاذ خِدْنٍ: وهُو الزِّنا في السِّرّ[٣].

وفي تَخْصيص المُحصَنات بالحِلّ، مع جَواز نِكاح غيرهِنّ، إشعارٌ بأولَويّتهنّ.

وقد مرّ بعضُ الكلام في كَونها ناسخة لقوله: ﴿**وَلَا تُمسِكُوا بِعِصَمِ الكَوَافِرِ**﴾[٤]، أو مَنسوخة به، أو بقوله: ﴿**وَلَا تَنكِحوا المُشرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤمِنَّ**﴾[٥] في طُرْفة بَيان النّاسخ والمَنسوخ[٦].

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ بَيان تَكْميل الدِّين، وتَسْهيل الأحكام في المَطعم والمَنكح، هدّد الكافرين بهذه المِلّة السَّمْحة السَّهلة بقوله: ﴿**وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ**﴾ ويمتنِع مِن الالتِزام بتِلك الأحكام ﴿**فَقَدْ حَبِطَ**﴾ وبطَل ﴿**عَمَلُهُ**﴾ الصّالح الذي عمِله في السّابق، أو قبلَ موته؛ فلا يُثاب عليه أبداً ﴿**وَهُوَ فِى ٱلآخِرَةِ**﴾ يكون ﴿**مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ**﴾ والمَغبُونين؛ حيثُ باع الجنّة والنّعيم الآبِد بالجَحيم والعذاب الدّائم.

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى

---

١. تفسير القمي ١: ١٦٣، تفسير الصافي ٢: ١٢.
٢. تفسير العياشي ٢: ١١٩٧/١٣، تفسير الصافي ٢: ١٢.
٣. تفسير الرازي ١١: ١٤٨.
٤. الممتحنة: ١٠/٦٠.
٥. البقرة: ٢٢١/٢.
٦. راجع الطرفة (٢٠) من المقدمة.

ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا وَإِن كُنتُم مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنكُم مِنَ ٱلْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ ٱلنِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِنْهُ مَا يُرِيدُ ٱللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِنْ حَرَجٍ وَلٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ[٦]

في بيان كيفية الوضوء

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ المِنّة علىٰ العِباد بتَسْهيل أحكامه في أهمّ اُمور مَعاشهم مِن المَطاعِم والمَناكح، بيّن تَسْهيله عليهم في ما هُو العُمْدة في أمر مَعادهم وهُو الصَّلاة بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ﴾ مِن النَوم ـ كما عنهما عليهما السلام [١] ـ قاصِدين ﴿إِلَىٰ ٱلصَّلَاةِ﴾ مُتهيِّئين لها، أو المُراد: إذا أردتُم القِيام إليها ﴿فَاغْسِلُوا﴾ بالمَاء المُطلق ﴿وُجُوهَكُمْ﴾ مِن قِصاص الشَّعر إلىٰ الذَّقَن طُولاً، وما دارَتْ عليه الإبهام والوُسطىٰ عَرْضاً ـ كما عن الباقر عليه السلام [٢] ـ ﴿وَأَيدِيكُم﴾ لكِن لاكُلّها، بَل ما بَيْن رؤوس الأصابع ﴿إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ ومَفاصل السّواعد والأعضاد، بحيث تُدخِلون المَرافِق في الغَسْل.

﴿وَٱمْسَحُوا﴾ بعدَ الغَسْلتين أكُفكم المُبتلّة ببَلَل الوضوء ﴿بِرُءُوسِكُمْ﴾، وقد فُسّر في صَحيح زُرارة ببَعْض الرأس، لمكان الباء [٣]، ولا يُلتفت إلىٰ إنكار سِيبَويْه مجيء الباء للتَبْعيض. ويجب أن يكون في الرُّبع المُقدّم مِنه، ويجزي مُسمّاه، ويُستحبّ أن يكون قَدر ثَلاث أصابع عَرضاً.

ثمّ عطَف سُبحانه الأرْجُل علىٰ الرؤوس بقوله: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ فعُلِم أنّ المَسْح يُجزي ببَعض الأرجُل، بحيث يصدُق مُسمّاه عَرْضاً، ويُستحبّ بالكَفّ، وأمّا طُولاً فيجِب أن يُمسح القَدَم مِن رؤوس الأصابع ﴿إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ وقُبّتَي القَدَمين.

عن الباقر عليه السلام أنّه سُئل عن وُضوء رَسُول الله صلّى الله عليه وآله، فدعا بطَسْت أو تَوْر [٤] فيه ماء، فغمَس يدَه اليُمنىٰ فغرَف بها غُرفةً فصبّها علىٰ وَجْهه فغَسَل بها وَجْهه، ثمّ غمَس كَفّه اليُسرىٰ فغرَف بها غُرفةً، فأفرغ علىٰ ذِراعه اليُمنىٰ، فغسَل بها ذِراعه مِن المَرْفِق إلىٰ الكَفّ لا يرُدّها إلىٰ المَرْفِق، ثمّ غمَس كَفّه اليُمنىٰ، فأفرغ علىٰ ذِراعه اليُسرىٰ مِن المَرْفِق وصنَع بها مِثْل ما صنَع باليُمنىٰ، ثمّ مسَح رأسه وقَدَميه ببَلَل كفّه لَم يُحدِث لهما ماءً جديداً، ثمّ قال: «ولا يُدخِل أصابعه تحت الشِّراك».

---

١. تفسير العياشي ٢: ١٢٠٨/١٦ و١٢٠٩، تفسير الصافي ٢: ١٤.
٢. تفسير العياشي ٢: ١٢١٢/١٨، من لا يحضره الفقيه ١: ٨٨/٢٨، تفسير الصافي ٢: ١٥.
٣. تفسير العياشي ٢: ١٢١٢/١٩، تفسير الصافي ٢: ١٨.
٤. التَّوْر: إناء يشرب فيه.

ثمّ قال: «إن الله يقول: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾، فليس له أن يدَع شيئاً مِن وَجْهه إلّا غسَله، وأمر بغَسْل اليَدين إلىٰ المَرفِقين، فليس له أن يدعَ شيئاً مِن يدَيه إلىٰ المَرفِقين إلّا غسَله؛ لأنّ الله يقول: ﴿اغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾، ثمّ قال: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ فإذا مسَح بشيءٍ مِن رأسه أو بشيءٍ مِن قدَميه ما بيْن الكَعْبين إلىٰ أطراف الأصابع فقد أجزء».

فقيل: أين الكَعْبان؟ قال: «هَا هُنا»، يعني: المَفْصِل، دُون عَظْم السّاق.

قيل: هذا ما هُو؟ فقال: «هذا مِن عَظْم السّاق، والكَعْب أسفل مِن ذلك».

قيل: أصلحَك الله، فالغُرفة الواحدة تجزي للوَجه، وغُرفة للذِّراع؟ قال: «نعم، إذا بالغتَ فيها، والثِّنتان تأتيان علىٰ ذلك كُلّه»[١].

وفي صحيح محمّد بن مسلم: عن أبي عبدالله عليه السلام: «مَسْح الرّأس علىٰ مُقدّمه»[٢].

فلابدّ مِن حَمل ما دَلّ علىٰ الاجْتِزاء بالمَسْح علىٰ المُؤخّر علىٰ التّقيَة.

وعن زُرارة، قال: سألت أبا جعفر عليه السلام قلتُ: إنّ أُناساً يقولون إنّ بَطْن الأُذُنَين مِن الوَجه، وظَهرهما مِن الرأس، فقال: «ليسَ عليهما غَسْل ولا مَسْح»[٣].

وعن حمّاد في الصّحيح، عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: «لا بأس بمَسْح الوُضوء[٤] مُقبلاً ومُدبراً»[٥].

وعن أحدهما عليهما السلام، في الرّجُل يتوَضأ وعليه العِمامة، قال: «يرفع العِمامة بقَدَر ما يُدخِل إصْبِعه فيمسَح علىٰ مُقدَم رأسه»[٦].

وعن أبي جعفر عليه السلام: «المرأة يجزيها مِن مَسْح الرأس أن تمسح مُقدّمه مِقدار ثلاث أصابع، ولا تُلقي عنها خِمارها»[٧].

وعنه عليه السلام، قال: «يُجزي مِن المَسح علىٰ الرأس مَوضع ثلاث أصابع، وكذلك الرّجل»[٨].

وعن أبي الحسن الرضا عليه السلام، سألته عن المَسْح علىٰ القَدَمين كيف هُو؟ فوضع كَفّه علىٰ الأصابع، فمسَحها إلىٰ الكَعْبين ـ إلىٰ ظاهِر القدَم ـ فقلتُ: جُعلتُ فِداك، لَو أنّ رَجُلاً قال بإصْبِعين مِن أصابعه؛ هكذا؟ فقال: «لا إلّا بكَفّه»[٩].

---

١. تفسير العياشي ٢: ١٢١١/١٧، تفسير الصافي ٢: ١٧.
٢. التهذيب ١: ١٧١/٦٢.
٣. الكافي ٣: ١٠/٢٩، التهذيب ١: ٢٤٩/٩٤.
٤. في التهذيب: بمسح القدمين.
٥. التهذيب ١: ٢١٧/٨٣.
٦. التهذيب ١: ٢٣٨/٩٠.
٧. الكافي ٣: ٥/٣٠، التهذيب ١: ١٩٥/٧٧.
٨. الكافي ٣: ١/٢٩، الاستبصار ١: ١٧٧/٦٠.
٩. الكافي ٣: ٦/٣٠، الاستبصار ١: ١٨٤/٦٢.

أقول: لا رَيب أنّ هذه الرِّواية والرِّواية السّابقة الدّالّة علىٰ الاجْتِزاء بثلاث أصابع مَحمولتان علىٰ الاسْتِحباب، لقُوّة إطلاق ما سِواهما مِن الرِّوايات، خُصوصاً قوله عليه السلام: «فإذا مَسَح بشيءٍ مِن رأسه أو بشيءٍ مِن قَدَميه مابيْن الكَعْبين إلىٰ أطراف الأصابع فقد أجزأ»[1] المُعتضد بعمَل الأصحاب وفَتوىٰ المَشهُور.

في علل تشريع الوضوء

وعن الرضا عليه السلام قال: «أمر بالوُضوء وبدئ به، لأن يكون العبدُ طاهراً إذا قام بَيْن يدَي الجَبّار [و] عندَ مُناجاته إيّاه، مُطيعاً [له] في ما أمره، نقيّاً مِن الأدناس والنَجاسة، معَ ما فيه مِن ذَهاب الكَسَل، وطَرْد النُّعاس، وتَزْكية الفُؤاد للقِيام بَيْن يدَي الجَبّار»[2].

قال: «وإنّما جَوّزنا الصَّلاة علىٰ الميِّت بغير وُضوء؛ لأنّه ليس فيها رُكوع ولا سُجود ....، وإنّما يجِب الوُضوء في الصَّلاة التي فيها رُكوع وسُجود»[3].

وفي حديث (المعاني) عن الرضا عليه السلام: «إنّما وجَب الوُضوء علىٰ الوَجْه واليَدين ومَسح الرأس والرِّجْلين؛ لأنّ العَبد إذا قام بَيْن يدَي الجَبّار فإنّما يكشف عن جَوارحه ويظهَر ما وجَب فيه الوُضوء، وذلك أنّه بوَجْهه يستقبِل ويسجُد ويخضَع وبيَده يسأل ويرغَب ويرهَب ويتبتّل، وبرأسه يستقبل في رُكوعه وسُجوده، وبرِجْلَيه يقوم ويقعُد، وإنّما وجَب الغَسْل علىٰ الوَجْه واليَدين، و[جعل] المَسْح علىٰ الرأس والرِّجْلين، ولم يُجعل غَسْلاً كُلّه، ولا مَسحاً كُلّه، لعِلَلٍ شتّىٰ، مِنها: أنّ العِبادة العُظمىٰ إنّما هِي الرُّكوع والسُّجود، وإنّما يكون الرُّكوع والسُّجود بالوَجْه واليَدين لا بالرّأس والرِّجْلَين. ومِنها: أنّ الخَلْق لا يُطيقون في كُلّ وقتٍ غَسْل الرّأس والرِّجْلين، ويشتدّ ذلك عليهم في البَرْد والسَّفَر والمَرَض و[أوقات من] اللّيل والنّهار، وغَسْل الوَجْه واليَدين أخفّ مِن غَسْل الرّأس والرِّجْلين، وإنّما وُضِعت الفَرائض علىٰ قَدْر أقلّ النّاس طاقةً مِن أهل الصِّحّة، ثمّ عمّ [فيها] القَويّ والضّعيف. ومِنها: أنّ الرأس والرِّجْلين ليسَ هُما في كُلّ وقت بادِيان وظاهران كالوَجه واليَدين، لمَوضع العِمامة والخُفّين وغير ذلك»[4].

في حكمة غسل الوجه واليدين ومسح الرأس والرجلين

وعنه عليه السلام، في رِوايةٍ: «ثمّ الوُضوء كما أمر الله في كتابه: غَسْل الوجه واليدين إلىٰ المَرفِقين[5] ومَسْح الرأس والرِّجْلين، فلِقيامه بَيْن يدَي الله عزّ وجلّ واسْتِقباله إيّاه بجَوارحه الظّاهرة، ومُلاقاته بها الكِرام الكاتبين، فغَسْل الوَجه للسُّجود والخُضوع،

١. التهذيب ١: ١٩١/٧٦.
٢. عيون أخبار الرضا عليه السلام: ٢: ١/١٠٤.
٣. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١/١١٥.
٤. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١/١٠٤.
٥. في علل الشرائع: أن علة الوضوء التي من أجلها صار غسل الوجه والذراعين.

وغَسْل اليَدين ليَقلِّبهما ويرغَب بهما ويرهَب [ويتبتَل]، ومَسْح الرَّأس والرِّجلين لأنـهما ظاهِران مَكشوفان يستقبِل بهما في كُلّ حالاته، وليس فيهما مِن الخُضوع والتَبتُّل ما في الوَجه والذِّراعين»[١] الخبر.

أقول: الظَاهِر أنّه وقَع التَصحيف في قوله: «لأنّهما ظاهِران مَكشوفان» وكانت العبارة: ليسا ظاهِرين مَكشوين يستقبل بهما في كُلّ حالاته.

وفي (العِلَل): جاء نَفَرٌ مِن اليَهود إلىٰ رَسُول الله ﷺ فسألوه عن مَسائل، وكان فيما سألوه: أخبِرنا يا محمّد، لأيّ عِلّةٍ تُوضّأ هذه الجَوارح الأربع وهِي أنظف المَواضع في الجَسَد؟

فقال النبيّ ﷺ: «لمّا أن وَسوَس الشّيطان إلىٰ آدم، دَنا مِن الشّجرة، فنظَر إليها، فذهب ماءُ وَجْهه، ثمّ قام ومشىٰ إليها، وهِي أوّل قدَمٍ مَشَتْ إلىٰ الخطيئة، ثمّ تَناول بيَده مِنها ممّا عليها وأكل فتطاير الحُلِيّ والحُلَل عن جسده، فوضع آدم يَده علىٰ اُمّ رأسه وبكىٰ، فلمّا تابَ الله عليه فرَض الله عليه وعلىٰ ذُرِّيّته تطهير[٢] هذه الجَوارح الأربع، فأمره الله بغَسْل الوَجْه لِمَا نظَر إلىٰ الشّجرة، وأمره بغَسْل اليَدين إلىٰ المَرافِق لِمَا تناول بهما، وأمره بمَسْح الرّأس لِمَا وضَع يدَه علىٰ اُمّ رأسه، وأمره بمَسْح القَدمين لِمَا مشىٰ بهما إلىٰ الخطيئة»[٣].

وزاد في روايةٍ قال: «ثمّ سَنّ علىٰ اُمّتي المَضْمَضة لينقىٰ القلب عن الحَرام، والاسْتِنشاق لتحرُم عليهم رائحةُ النّار ونَتْنِها».

قال [اليَهودي: صدقت] يا محمّد، فما جزاء عامِلِها؟ فقال النبيّ ﷺ: «أوّل ما يمَسّ الماء يـتَباعد عنه الشّيطان، فإذا تَمضْمَض نوّر الله قَلبَه ولِسانَه بالحِكْمة، وإذا اسْتنشَق آمنه الله مِن النّار ورزَقه رائحةَ الجنّة، وإذا غسَل وَجْهه بيّض الله وَجْهه يومَ تبيَضّ وُجوهٌ وتسوَدّ وُجوه، وإذا غسَل ساعدَيْه حرّم الله عليه أغلال النّار، وإذا مسَح رأسه مسَح الله عنه سيّئاته، وإذا مسَح قدَمَيه أجازه الله علىٰ الصِّراط يومَ تزِلّ فيه الأقدام»[٤].

وعن زُرارة قال: قلتُ لأبي جعفر عليه السلام: يُصلّي الرّجُل لوضوء [واحدٍ صلاة] الليل والنّهار كُـلّها؟ قال: «نَعم، ما لَم يُحدِث»[٥].

وعن أبي عبدالله عليه السلام: «الطُّهر علىٰ الطُّهر عَشْرُ حَسَنات»[٦].

في بيان فسل الجنابة وأحكامه

ثمّ لمّا بيّن الله تعالىٰ حُكم المُحدِث بالحَدَث الأصغر، كالنّوم والبَول والغائط والرّيح،

---

١. علل الشرائع: ٢/٢٨٠.
٢. في المصدر: غسل.
٣. علل الشرائع: ١/٢٨٠.
٤. أمالي الصدوق: ٢٧٩/٢٥٨.
٥. الكافي ٣: ٤/٦٣.
٦. الكافي ٣: ١٠/٧٢.

بيّن حُكم المُحدِث بالحَدَث الأكبر، كالجنابة، بقوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُباً﴾ بخروج المَنِيّ، أو التِقاء الخِتانَين، وإن لَم ينزِل المَنِيّ ﴿فَاطَّهَّرُوا﴾ بالماء واغتَسِلوا.

عن زُرارة، قلتُ: كيف يغتسِل الجُنُب؟ فقال: «إن لَم يكُن أصاب كَفَّه شيءٌ غمَسها في الماء، ثمّ بدأ بفَرْجه فأنقاه بثلاث غُرَف، ثمّ صَبّ علىٰ رأسه ثلاثَ أكُفّ، ثمّ صَبّ علىٰ مَنْكِبه الأيمن مرّتين، وعلىٰ مَنْكِبه الأيسر مرّتين، فما جرىٰ عليه الماء فقد أجزأ»[١].

وعنه ﷺ، قال: سألتُ أبا عبدالله ﷺ عن غُسْل الجَنابة، فقال: «تبدأ فتغسِل كفَيك، ثمّ تفرغ بيمينك علىٰ شِمالك فتغسِل فَرْجك ومَرافِقك، ثمّ تَمضْمَضْ واسْتنشِق، ثمّ تغسِل جَسَدك مِن لَدُن قَرنِك إلىٰ قَدَميك، ليس قبلَه ولا بعدَه وُضوء، وكُلّ شيءٍ أمسَسْتَه الماء فقد أنقيتَه، ولَو أنّ رجُلاً جُنُباً ارْتمس في الماء ارْتِماسة واحدة، أجزأ ذلك وإن لَم يدلُك جَسَده»[٢].

وعنه ﷺ، في رَجُلٍ أصابَتْه جَنابة، فقام في المطَر حتّىٰ سال علىٰ جَسَده، أيجزيه ذلك مِن الغُسْل؟ قال: «نعم»[٣].

وعنه ﷺ، قال: «يَجزيك مِن الغُسْل والاسْتِنجاء ما بلّت يمينُك»[٤].

وعن أبي جعفر ﷺ، قال: «إنّ الجُنُب ما جرىٰ عليه الماء[٥] قليلُه وكثيرُه، فقد أجزأه»[٦].

وعنه ﷺ، في حديثٍ: «ومَن انْفرد بالغُسْل وحَده فلابُدّ له مِن صَاع»[٧].

أقول: مَحمول علىٰ الاسْتِحباب لدَلالة الرِّوايات الكثيرة علىٰ إجزاء مُسمىٰ الغُسْل، ولَو كالتّدهين.

عن الثّعلبي: قال عليٌّ ﷺ: «أقبل عشرةٌ مِن أحبار اليَهُود فقالوا: يا محمّد، لماذا أمر الله بالغُسْل مِن الجَنابة، ولَم يأمُر مِن البَول والغَائط وهُما أقذر مِن النُّطْفة؟ فقال ﷺ: إنّ آدم لمّا أكل مِن الشّجرة تحوّل في عُروقه وشَعْره، فإذا جامع الإنسان نزَل مِن أصل كُلّ شَعرةٍ، فافْترضه الله عَلَيّ وعلىٰ اُمّتي تَطْهيراً وتَكْفيراً وشُكراً لِمَا أنعم الله عليهم مِن اللّذّة التي يُصيبونها»[٨].

وعن أبي عبدالله ﷺ، في حديثٍ: «مَن ترَك شَعْرةً مِن الجَنابة مُتعمّداً فهُو في النّار»[٩].

وعنه ﷺ، قال: «مَن اغتَسل مِن جنابته، فلَم يغسِل رأسه [ثمّ بدا له أن يغسل رأسه]، لم يجِدْ بُدّاً مِن إعادة الغُسل»[١٠].

---

١. الكافي ٣: ٣/٤٣، التهذيب ١: ٣٦٨/١٣٣.
٢. التهذيب ١: ٤٢٢/١٤٨.
٣. الكافي ٣: ٧/٤٤.
٤. الكافي ٣: ٦/٢٢، التهذيب ١: ٣٨٦/١٣٨.
٥. زاد في الكافي والتهذيب: من جسده.
٦. الكافي ٣: ٤/٢١، التهذيب ١: ٣٨٠/١٣٧.
٧. من لايحضره الفقيه ١: ٧٢/٢٤.
٨. تفسير روح البيان ٢: ٣٥٥.
٩. التهذيب ١: ٣٧٣/١٣٥.
١٠. الكافي ٣: ٩/٤٤، التهذيب ١: ٣٦٩/١٣٣.

وعنه عليه السلام، قال: «إنّ علياً عليه السلام لَم يرَ بأساً أن يغسِل الجُنُب رأسه غَدْوةً، ويغسِل سائر جَسَده عند الصّلاة»[١].

وعنه عليه السلام، قال: «لا بأس بتَبعيض الغُسْل، تغسِل يدَك وفَرْجَك ورأسَك، وتُؤخر غُسْل جَسَدك إلىٰ وقت الصّلاة، ثمّ تغسِل جَسَدك إذا أردتَ ذلك، فإن أحدثتَ حَدَثاً مِن البَول أو الغائط أو الرِّيح أو المَنِيّ بعدَما غسَلتَ رأسَك مِن قبلِ أن تغسِل جَسَدك، فأعِدْ الغُسل مِن أوّله»[٢].

وعنه عليه السلام، عن آبائه، قال: «كُنّ نِساء النبيّ صلى الله عليه وآله إذا اغتسلْنَ مِن الجَنابة يُبقِينَ صُفْرة الطِّيب علىٰ أجسادِهنّ، وذلك أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله أمرهُنّ أن يصبُبْنَ الماء صَبّاً علىٰ أجسادهِنّ»[٣].

ثمّ بيّن الله سُبحانه حُكْم مَن لَم يتمكّن مِن استِعمال الماء، بقوله: ﴿وَإِن كُنتُم مَرْضَىٰ﴾ بحيث يضُرّكم استِعمال الماء ﴿أَوْ﴾ راكبين ﴿عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ قريب أو بعيد يشُقّ عليكم استِعماله ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنكُم مِنَ ٱلْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ ٱلنِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾ للوُضوء أو الغُسْل ﴿فَتَيَمَّمُوا﴾ وتعمّدوا ﴿صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِنْهُ﴾، قد مرّ تَفسيرُه وبعضُ الكلام فيه في سُورة النِّساء[٤].

ثمّ صرّح سُبحانه بالمِنّة علىٰ العِباد بتَخْفيف أحكامه بقوله: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللهُ﴾ بأمركم بالوُضوء أو الغُسْل للصّلاة ﴿لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم﴾ شيئاً ﴿مِنْ حَرَجٍ﴾ وضِيقٍ ومشقّة، ولِذا لَم يأمُركم بتحمُّل الضَّرَر، وتَحْصيل الماء بمشقّة شَديدة ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ ويُنظِّفكم، ولِذا أمركم عندَ فَقْد الماء، أو عدَم التّمكُّن مِن استِعماله بالتّيمُّم بالتُّراب، لكَوْنه أحد الطَّهورَين.

أو يُريد ليُبرِئكم مِن الذُّنوب، كما رُوي عن النبيّ صلى الله عليه وآله في الوُضوء: «أيُّما رَجُل قام إلىٰ وضُوئه يُريد الصّلاة ثمّ غَسل كَفّيه، نزلَتْ خطيئةُ كفّيه مع أوّل قَطْرة، فإذا تمَضْمَض نزلَتْ خطيئةُ لِسانه وشَفَتَيه معَ أوّل قَطْرة، وإذا غسَل وَجْهه ويدَيه، سلِم مِن كُلّ ذَنْبٍ هُو عليه، وكان كيَوم ولدَتْهُ أُمّه»[٥].

ثمّ مَنّ بالمِنّة الأُخرىٰ بقوله: ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ بتَشْريعه الحَنيفيّة السّمْحة السّهْلة ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نِعْمته، وتعمَلون بشَريعته.

﴿وَٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱتَّقُوا ٱللهَ إِنَّ ٱللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [٧]

---

١. الكافي ٣: ٨/٤٤، التهذيب ١: ٣٧٢/١٣٤.
٢. مدارك الأحكام ١: ٣٠٨.
٣. علل الشرائع: ١/٢٩٣.
٤. تقدّم في تفسير الآية (٤٣) من سورة النساء.
٥. تفسير روح البيان ٢: ٣٥٦.

ثمّ لمّا ذكَر أنّ تَشريع التيمُّم، وتَخفيف أحكامه تتميمٌ لنِعَمه، نبّههم بأصل نِعمَه تَرغيباً إلى الشُّكر، وحَثّاً على الانقياد، بقوله: ﴿وَٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾ التي أنعمها ﴿عَلَيْكُمْ﴾ مِن هِدايتكم إلىٰ دِين الإسلام، وإخراجكم مِن ظُلُمات الشِّرْك والجَهْل إلىٰ نُور التّوحيد والمعَارف الإلٰهيّة التي لَم تكُن في سائر الأُمَم، ﴿وَ﴾ اذكُروا ﴿مِيثَاقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِ﴾ وعَهْده الأكيد الذي عاهدكم عليه، بتَوسُّط رَسُوله حينَ بايع المُؤمنين علىٰ السَّمْع والطّاعة لجَميع أوامره وأحكامه، في حالِ اليُسْر والعُسْر والنّشاط والكُرْه، وأنتم ـ أيُّها المُؤمنون ـ قَبِلتُم العَهد والتزمتُم به ﴿إِذْ قُلْتُمْ﴾ في جَواب الرّسُول: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أوامرك وأحكامك.

عن الباقر عليه السلام: «المُراد بالميثاق: ما بيّن لهم في حجّة الوَداع مِن تَحرْيم المُحرّمات، وكَيفيّة الطّهارة، وفَرض الوِلاية، وغير ذلك»[1].

وعن القُمّي رحمه الله: لمّا أخذ رَسُول الله صلى الله عليه وآله الميثاقَ عليهم بالوِلاية، قالوا: سمِعنا وأطعنا[2].

ثمّ رَهَب المُؤمنين عن كُفْران النِّعْمة، ونَقْض المِيثاق بقوله: ﴿وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾ واحْذَروه في كُفْران نِعَمه ونِسيانها، ونَقْض مِيثاقه، ومُخالفة أحكامه.

ثمّ بالغ في التّهديد بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ ومُطّلِع علىٰ مَكنونها، فيُجازيكم عليها، فكيف بجَليّات الأعمال!

يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ٱعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ[٨]

ثمّ أكّد سُبحانه وُجوب العمَل بالميثاق، والوَفاء بالعَهد علىٰ امْتِثال أحكامه التي مرجِعها إلىٰ وجُوب القِيام بوَظائف العُبوديّة، وأداء حُقوق النّاس، والعَدْل فيهم، بقوله: ﴿يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ﴾ بالعُبوديّة ﴿لِلَّهِ﴾ ثابِتين علىٰ طاعته، مُبالِغين في امْتِثال أوامره ونَواهيه، مُجدّين في العَمل بأحكامه، وكُونوا ﴿شُهَدَاءَ﴾ بيْن النّاس ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ والعَدل، وقُولوا الحَقّ وإن كان مُضرّاً علىٰ أوليائكم، نافعاً لأعدائكم ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ ولا يحمِلنّكم ﴿شَنَآنُ قَوْمٍ﴾ وشِدّة عَداوةِ طائفةٍ ﴿عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ فيهم، وتجورُوا عليهم بارْتِكاب ما لا يحِلّ لكم مِن المُثْلة، وقَتْل النِّساء والصِّبْيَة، وقَذْف المُحصَنة، وشَهادة الزُّور، وارْتِكاب الخِيانة، إلىٰ غير ذلك، بَل ﴿ٱعْدِلُوا﴾ فيهم وإن ظَلَموكم،

---

١. مجمع البيان ٣: ٢٦٠، تفسير الصافي ٢: ٢٠.

٢. تفسير القمي ١: ١٦٣، تفسير الصافي ٢: ٢٠.

وأنصِفوا بَيْنهم وإن جَاروا عليكم، واعْلموا أنّ العَدل في القَول والفِعْل ﴿هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ الذي أُمرتم به.

قيل: نزلَتْ الآية في مُشركي قُريش لمّا صدّوا المُسلمين عن المَسجد الحَرام[١].

إن قيل: فكيف يجُوز قَتل الكُفّار، وسَبْي نِسائهم وذَرَاريهم، ونَهب أموالهم، مَع أنه جَوْر عليهم؟

قلت: الجَور هُو التَجاوز عن حُدود الشَرْع، والمُعاملات المَذكورة معَ الكُفّار هِي الحُدود المُقرّرة فيه، وهُو عَيْن العَدْل.

ثمّ بالغ الله سُبحانه في تأكيد الأمر بالتَقوىٰ بقوله: ﴿وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾ يا عِباد الله في مُخالفة أحكامه. ثمّ وَعد المُلتزمين بالتّقوىٰ بالثّواب، وأوعد التّاركين له بالعِقاب بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ مِن الطّاعة والعِصيان، بحيث لا يخفىٰ عليه شيءٌ مِن أحوالكم وأعمالكم خَفِيّها وجَلِيّها، فيُجازيكم بما تستحقّون مِن الثّواب والعِقاب.

وفي تَكرار النَّهي عن حَمْل الشَنآن علىٰ التَعدّي وتَرك العَدل دَلالةٌ علىٰ مَزيد الاهتِمام بالعَدل، والمُبالغة في إيجاب إطفاء نائرة الغَيظ، وتَرك مُتابعة الهَوىٰ.

وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَهُم مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ * وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلْجَحِيمِ[٩ و ١٠]

ثمّ وعَد الله سُبحانه المُؤمنين المُلتزمين بالتّقوىٰ والعَدل والقِسط تَطْييباً لقُلوبهم، وتَشفّياً لهم مِن غَيظ الكُفّار بالثّواب العظيم أوّلاً بقوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ﴾ ومِنها العَدل والتّقوىٰ، ثمّ كأنّه قيل: ما وعدَهم؟ فقال: ﴿لَهُم مَغْفِرَةٌ﴾ وسَتْر للسّيِّئات بتَبْديلها بالحَسَنات ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ مِن الجنّة والنِّعَم الدّائمة.

ثمّ وعدَهم بتَعْذيب أعدائهم ثانياً بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ التي مِنها الآيات الدّالّة علىٰ وُجوب العَدل والتّقوىٰ ﴿أُولٰئِكَ﴾ الكافرون المُكذّبون ﴿أَصْحَابُ ٱلْجَحِيمِ﴾ ومُلازموها إلىٰ الأبد.

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱذْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ[١١]

---

١. تفسير الرازي ١١: ١٨٠.

ثمّ بالغ سبحانه في الحثّ على مُلازمة التّقوى والعَدْل لكونهما شديدَي المُخالفة للطّباع، بتَذكير المُؤمنين نِعَمه عليهم، المُقتضية للطّاعة والشُّكر، بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱذْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللهِ﴾ التي أنعمها ﴿عَلَيْكُمْ﴾ وهِي حِفظ نُفوسكم ﴿إِذْ هَمَّ﴾ وعزَم ﴿قَوْمٌ﴾ مِن الكُفّار علىٰ ﴿أَن يَبْسُطُوا﴾ ويُمدّوا ﴿إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ بالقَتْل والأسر والغَارة ﴿فَكَفَّ﴾ الله ﴿أَيْدِيَهُمْ﴾ بلُطفه ورَحمته ﴿عَنْكُمْ﴾ ومنَعها مِن الوُصول إليكم، إذَنْ فاشكُروا تِلك النِّعْمة العظيمة ﴿وَٱتَّقُوا ٱللهَ﴾ واحذَروا مُخالفة أوامره ونَواهيه، ولا تَخافوا في طاعته أحداً ﴿وَعَلَىٰ ٱللهِ﴾ القادر ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ﴾ وليعتمِد في دَفع الأعداء وكَيْدهم ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ به العارفون بوِلايته لأوليائه.

في بيان حفظ الله نبيه ﷺ من القتل

رُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنه: بعث النبيّ ﷺ سَريّة إلىٰ بني عامر فقُتلوا ببِئر مَعونة إلّا ثلاثة نَفَرٍ أحدهم عُمر بن أُميّة الضّمْري، وانصرف هُو وآخر معَه إلىٰ النبيّ ﷺ ليُخبراه خبَر القوم، فلقيا رَجُلين من بني سُليم، معَهما أمان مِن النبيّ ﷺ فقتلاهما ولَم يعلَما أنّ معهما أماناً.

فجاء قومُهما إلىٰ النبيّ ﷺ يطلُبون الدِّية، فخرَج النبيّ ﷺ ومعَه عليّ عليه السلام وأبو بكر وعُمر وعُثمان حتّىٰ دخَلوا علىٰ بني النّضير، وقد كانوا عاهَدوا النبيّ ﷺ علىٰ تَرك القِتال، وأن يُعينوه في الدِّيات، فقال النبيّ ﷺ: «رَجُلٌ مِن أصحابي أصاب رَجُلين معهما أمان مِنّي، فلزِمني دِيتهما، فأُريد أن تُعينوني».

فقالوا: اجْلِس حتّىٰ نُطعمك ونُعطيك ما تُريد، ثمّ همُّوا بالفَتْك برَسُول الله ﷺ وبأصحابه، فنزل جَبْرئيل فأخبره بذلك، فقام رَسُول الله ﷺ في الحَال مع أصحابه وخرَجوا، فقال اليَهُود: إنّ قُدورنا تَغلي، فأعلَمهم الرّسُول ﷺ أنّه قد نزَل عليه الوَحْي بما عزَموا عليه. قال[1]: وقد تآمروا علىٰ أن يطرَحوا عليه رَحاً أو حَجَراً. وقيل: بَل ألقَوا، فأخذه جَبرَئيل.

وقيل: إنّ الرّسُول ﷺ نزل مَنزلاً وتفرّق النّاس عنه، وعلّق سَيفه بشَجرة، فجاء أعرابي وسلّ سَيف رَسُول الله ﷺ، وقال: مَن يمنعُك مِنّي؟ فقال: «الله» ـ قالها ثلاثاً ـ فأسقطه جَبرَئيل مِن يدَه، فأخذه رَسُول الله ﷺ، وقال: «مَن يمنعُك مِنّي؟» فقال: لا أحد، ثمّ صاح رَسُول الله ﷺ بأصحابه فأخبرهم، وأبىٰ أن يُعاقبه[2].

أقول: علىٰ هاتين الرّوايتين يكون المُراد مِن تَذْكيرهم نِعْمة الله هُو دَفع الشّرّ عن النبيّ ﷺ حيثُ إنّ قَتْله أعظم المِحَن علىٰ المُؤمنين.

---

١. زاد في تفسير الرازي: عطاء.

٢. تفسير الرازي ١١: ١٨٣.

وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَاقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيباً وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضاً حَسَناً لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ[١٢]

ثمّ لمّا ذكَر الله سُبحانه أخْذَه المِيثاق مِن المُؤمنين ونِعْمته عليهم، ذكَر أخْذ المِيثاق مِن بني إسرائيل ونِعْمته عليهم عِبْرةً للمُؤمنين، بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَاقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وعَهْدهم الوَثيق علىٰ العَمل بأحكام التَوراة ﴿وَبَعَثْنَا﴾ واختَرنا ﴿مِنْهُمُ﴾ بلِسان مُوسىٰ وتَعْيينه ﴿ٱثْنَىْ عَشَرَ﴾ بعَدَد أسباطهم ﴿نَقِيباً﴾ وحاكِماً سائساً بَيْنهم، أو قَيِّماً وكافلاً لأمورهم، أو مُفتّشاً مُنقباً لأحوالهم، كما جعَل النبي ﷺ للأنصار اثْني عشَر نقيباً ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ﴾ بلِسان مُوسىٰ لبني إسرائيل أو لنُقَبائهم لتَرغيبهم إلىٰ الطّاعة، وتَرهيبهم عن المَعصية ﴿إِنِّى مَعَكُمْ﴾ بالعِلْم والقُدْرة والنُصْرة أسمعُ مَقالكم، وأرىٰ أعمالكم، وأطّلِعُ علىٰ ضَمائركم وأسراركم، فأجازيكم علىٰ ما يصدُر مِنكم.

ثمّ وعَدهم بالثَواب مُؤكّداً له بالقَسَم بقوله: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المَفروضة ﴿وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ الوَاجبة ﴿وَءَامَنتُم﴾ عن صَميم القَلب ﴿بِرُسُلِى﴾ كُلّهم مِن غير تَفْريق في الإيمان بَيْن مُوسىٰ وعُزير وغيرهما، فإن الإيمان بالرُّسُل شَرط قَبُول الأعمال ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ ومنعتُموهم مِن الأعداء بالنُصْرة ﴿وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ﴾ أموالكم بصَرفها في سَبيل الخير ﴿قَرْضاً حَسَناً﴾ برَغبة وخُلوص نِيّة، بِلا شَوبِ بالرِّياء والسُّمْعة، إذَنْ بالله ﴿لَّأُكَفِّرَنَّ﴾ وأمحُوَنّ ﴿عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ وذُنوبكم، صَغائرها وكَبائرها ﴿وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ﴾ في الآخرة ﴿جَنَّـٰتٍ﴾ وبَساتين ذات أشجارٍ كثيرة ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾.

ثمّ نبّه الله تعالىٰ علىٰ أنّ الكُفْر بعدَ وُضوح الحَقّ وظُهور النِّعَم مِن أقبح أنواع الضَّلال، بقوله: ﴿فَمَن كَفَرَ﴾ بالله ونِعمَه ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ العَهْد الوَثيق، والنِّعْمة العَظيمة، والوَعد الأكيد بالثَواب ﴿مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ﴾ وأخطأ ﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ ووسَط الطَريق المُوصل إلىٰ كُلّ خَير، ومَقام القُرب والدَّرجات الرَّفيعة مِن الجَنّة، ضَلالاً بيِّناً وخطأً واضحاً لا عُذْر معَه أصلاً، بخِلاف مَن كفَر قبل ذلك، فإنّه ربّما يكون عن الشُّبهة وتوهُّم المَعذِرة.

في أخذ موسىٰ عليه السلام النقباء وملاقاتهم عوجاً

رُوي أنّ بني إسرائيل لمّا استقرّوا بمِصر بعد مَهْلِك فِرعون، أمرهم الله تعالىٰ بالمَسير إلىٰ أريحا مِن أرض الشّام وهِي الأرض المُقدّسة، وكانت لها ألف قرية، في كُلّ قرية ألف بُستان، وكان يسكُنها الجَبابرة الكَنعانيّون، وقال لهم: إنّي كتبتُها لكم دارَ قرارٍ، فاخرُجوا إليها وجاهِدوا مَن فيها؛ وإنّي ناصِرُكم، وأمر مُوسىٰ أن يأخُذ مِن كُلّ سِبْط نقيباً أميناً يكون

كفيلاً علىٰ قومه بالوَفاء بما اُمروا به، تَوْثقةً عليهم، فاخْتار النُّقباء، وأخذ المِيثاق علىٰ بني إسرائيل، وتكفّل لهم النُّقباء، وسار بهم، فلمّا دَنا مِن أرض كَنعان، بعثَ النُّقباء يتجسّسون الأخبار ويعلَمون عِلْمها، فرأوا أجراماً عظيمة وقُوّة وشَوْكة، فهابوا ورجَعوا وحدّثوا قومهم بما رأوا، وقد نهاهم مُوسىٰ عن ذلك، فنكَثوا المِيثاق إلّا كالِب بن يوقنا نَقيب سِبْط يَهُودا، ويُوشع بن نون نقيب سِبط افرانيم بن يوسف الصِّديق.

قيل: لمّا توجّه النُّقباء إلىٰ أرضهم للتّجسُّس لقِيهم عَوج بن عَنَق وكان طُوله ثلاثة آلاف وثلاثمائة وثلاثة وثلاثين ذِراعاً وثلث ذراع، وعاش ثلاثة آلاف سنة، وكان يحتجِز بالسَّحاب ويشرَب مِنه، ويتناول الحُوت مِن قَرار البَحر، فيشوِيه بعَين الشّمس يرفَعها إليها ثمّ يأكله، فلمّا لقي عَوج النّقباء وعلىٰ رأسه حُزمة حَطَب أخذهم وجعلهم في الحُزمة ـ وفي رِوايةٍ: في كُمّه ـ فانطلَق بهم إلىٰ امرأته وقال: انظُري إلىٰ هؤلاء الّذِين يزعُمون قِتالنا.

وفي رِوايةٍ: أتىٰ بهم المَلِك فنشرَهم بَيْن يدَيه فقال: ارجِعوا إلىٰ قومكم فأخْبِروهم بما رأيتم، فلمّا رجَعوا قال بعضُهم: إنّكم إن أخبرتُم بني إسرائيل بخبر القوم ارتدّوا عن نبيّ الله، ولكن اكتُموه إلّا عن مُوسىٰ وهارون، فيكونان هُما يرَيان رأيهما، فأخذ بعضُهم علىٰ بعضٍ المِيثاق بذلك، ثمّ انصرفوا إلىٰ مُوسى، فنكثوا عَهْدهم، وجعَل كُلّ مِنهم ينهىٰ سِبْطه عن قِتالهم، ويُخبرهم بما رأوا، إلّا كالب ويُوشع[1]، الخبر.

فَبِمَا نَقْضِهِم مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ[١٣]

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم﴾ ونَكْثهم ﴿مِيثَاقَهُمْ﴾ وعَهدهم، وبسَبب خُلْفهم بما التزموا به ﴿لَعَنَّاهُمْ﴾ وطَردناهم عن ساحة الرّحمة وقيل: يعني: مسَخناهم خَنازير وقِرَدة[2] وعن ابن عبّاس: ضربنا عليهم الجزْية[3].

﴿وَجَعَلْنَا﴾ وصَيّرنا ﴿قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ صُلْبة، لا تتأثّر بالآيات والنُّذُر، وقيل: فاسِدة رديئة، أو نائية عن قَبُول الحَقّ، مُنصَرفة عن الانقِياد للدّلائل[4].

---

١. تفسير أبي السعود ٣: ١٤، تفسير روح البيان ٢: ٣٦٣.
٢. تفسير الرازي ١١: ١٨٦، تفسير روح البيان ٢: ٣٦٥.
٣. تفسير الرازي ١١: ١٨٦.
٤. تفسير الرازي ١١: ١٨٧.

ثمّ شرَح سُبحانه سَيّئات أعمالهم التي كانت نَتيجة اللّعْن والقَساوة، بقوله: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ﴾ التي كانت في التّوراة ﴿عَن مَوَاضِعِهِ﴾ ومَحالِّه فيها، ويُغيّرون ألفاظ آياتها.

وقيل: كانوا يؤوّلون آياتها بالتّأويل الباطِل لعدَم إمكان تَغْيير الألفاظ في الكِتاب للتّواتر[١].

﴿وَنَسُوا﴾ وتَركوا ﴿حَظّاً﴾ وافِراً ﴿مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ عن ابن عبّاس: تَركوا نصَيباً مِمّا اُمروا به في كِتابهم، وهُو الإيمان بمحمّد ﷺ[٢].

ثمّ خاطب سُبحانه نبيّه ﷺ بقوله: ﴿وَلَا تَزَالُ﴾ يا محمّد ﴿تَطَّلِعُ عَلَىٰ﴾ فِرقة، أو أنفس ﴿خَائِنَةٍ﴾ في التّوراة ﴿مِنْهُمْ﴾ أو علىٰ خيانة صاردة مِنهم ﴿إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ﴾ كعبدالله بن سَلام وأضرابه، أو كالكافرين الّذين لَم يخُونوا، وعلىٰ أي تقدير ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾ ولا تتعرّض لعُقوبتهم ﴿وَٱصْفَحْ﴾ عنهم وأعرض عمّا صدَر عنهم، ولا تُعيّرهم ولا تَعِيب عليهم بعدَ إيمانهم، أو بعدَ تَعاهُدهم والْتِزامهم بالجِزْية. كذا قيل[٣].

ثمّ علّل الأمر بالعَفْو والصّفح بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ إلىٰ النّاس وإن كانوا كافرين.

عن القُميّ ﷺ: مَنسوخة بقوله: ﴿اقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾[٤]. وقيل: بقوله: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾[٥].

وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ[١٤]

ثمّ نبّه الله سُبحانه علىٰ أنّ النّصارىٰ أيضاً كاليَهُود في نَقْض المِيثاق وتَرك العمَل بكِتاب الله بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوا﴾ وادّعَوا ﴿إِنَّا نَصَارَىٰ﴾ ونحنُ أنصار الله، أو أنصار عِيسىٰ إلىٰ الله، وليسُوا بذلك ﴿أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ﴾ علىٰ العمَل بأحكام الإنجيل والالْتِزام بما فيه، وفيه أمرهم بالإيمان بمحمّد ﷺ ﴿فَنَسُوا﴾ وتَركوا ﴿حَظّاً﴾ وافراً ونَصيباً وافياً ﴿مِمَّا ذُكِّرُوا﴾ واُمروا ﴿بِهِ﴾ فيه مِن الإيمان بمحمّد ﷺ ﴿فَأَغْرَيْنَا﴾ وألقينا بنَحْو اللّزوم واللّصوق فيما ﴿بَيْنَهُمُ﴾ وبَيْن اليَهود، أو بَيْن فِرَقهم المُختلفة ﴿ٱلْعَدَاوَةَ﴾ والمُباينة بالأفعال ﴿وَٱلْبَغْضَاءَ﴾ والمُنافرة بالقُلوب والعقائد بحيث يلعَن بعَضُهم بعضاً ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ﴾ ودَار الجَزاء ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ﴾ ويُخبرهم بشِدّة عُقوبتهم ﴿بِمَا

---

١ و٢. تفسير الرازي ١١: ١٨٧. ٣. تفسير روح البيان ٢: ٣٦٥.
٤. تفسير القمي ١: ١٦٤، تفسير الصافي ٢: ٢١، والآية من سورة التوبة: ٥/٩.
٥. مجمع البيان ٣: ٢٦٨، والآية من سورة التوبة: ٢٩/٩.

كَانُوا﴾ في الدُّنيا ﴿يَصْنَعُونَ﴾ مِن السَّيِّئات.

وفيه أشدّ الوَعيد، وإنّما عبّر عن العمَل بالصُّنع، للإيذان برُسوخهم في ذلك.

قــضية بــولس وافســاده ديــن النصارى

قيل: الذي ألقىٰ العَداوة بيْن النَّصارىٰ [رجل] يقال له بُولس، فإنّه كان بَيْنه وبَيْن النّصارىٰ قِتال، قتل مِنهم خَلْقاً كثيراً، فأراد أن يحتال حيلةً يُلقي بيْنهم القِتال، فجاء إلىٰ النّصارىٰ وجعَل نفسه أعور وقال لهم: ألا تعرِفونني؟ فقالوا: أنت الذي قتلتَ ما قتلتَ مِنّا، وفعلتَ ما فعلت، فقال: فعلت ذلك كُلّه، والآن تُبتُ لأنّي رأيتُ عيسىٰ في المَنام نزَل مِن السّماء فلطَم وَجْهي لطمةً فقأ عَيني، فقال: أيّ شيءٍ تُريد مِن قومي؟ فتبتُ علىٰ يدَيه، ثمّ جئتكُم لأكون بيْن ظَهرانيكم، وأُعلّمكم شرائع دِينكم كما علّمني عيسىٰ في المَنام، فاتّخذوا له غُرفة، فصَعِد تِلك الغُرفة، وفتَح كُوّه إلىٰ النّاس في الحائط، وكان يتعبّد في الغُرفة، ورُبّما كانوا يجتمعون إليه ويسألونه ويُجيبهم مِن تِلك الكُوّة، ورُبّما يأمُرهم بأن يجتمِعوا ويُناديهم مِن تِلك الكُوّة ويقول لهم بقولٍ كان مُنكراً في الظّاهر، ويُنكرون عليه، فكان يُفسّر ذلك القول تفسيراً يُعجبهم ذلك، فانْقادوا كُلّهم له، وكانوا يقبَلون قوله بما يأمُرهم به.

فقال يوماً مِن الأيام: اجتمعوا عندي فقد حضَرني عِلْمٌ، فاجتمِعوا فقال: أليس خلَق الله الأشياء في الدُّنيا كُلّها لمَنْفعة ابن آدم؟ قالوا: نعَم، فقال: لِمَ تُحرّمون علىٰ أنفسكم هذه الأشياء ـ يعني: الخَمْر والخِنزير ـ وقد خلَق لكم ما في الأرض جميعاً، فأخذوا قوله فاسْتحلّوا الخَمر والخِنزير.

فلمّا مضىٰ علىٰ ذلك أيّام دَعاهم وقال: حضرني عِلَم فاجْتمِعوا، فقال: مِن أيّ ناحيةٍ تطلُعُ الشّمس؟ فقالوا: مِن قِبَل المَشرق. فقال: مِن أيّ ناحيةٍ يطلُع القَمر والنُّجوم؟فقالوا: مِن قِبَل المَشرق، فقال: ومَن يُرسِلهم مِن قِبَل المَشرق؟ قالوا: الله تعالىٰ، فقال: فاعْلَموا أنّه تعالىٰ في قِبَل المَشرق، فإن صلّيتُم له فصلُّوا إليه. فحوّل صَلاتهم إلىٰ المَشرق، فلمّا مضىٰ علىٰ ذلك أيّام دَعا بطائفةٍ مِنهم وأمرهم بأن يدخُلوا عليه في الغُرفة، وقال لهم: إنّي أُريد أن أجعل نفسي قُرباناً اللّيلة لعيسىٰ، وقد حضَرني عِلمٌ فأُريد أن أُخبركم في السِّرّ، لتحفَظوا عَنّي وتدعوا النّاس إلىٰ ذلك بعدي.

ويُقال أيضاً: إنّه أصبح يوماً وفتح عينَه الأُخرىٰ ثمّ دعاهم وقال: جاءني عيسىٰ اللّيلة وقال: قد رَضيتُ عنك، فمسَح يدَه علىٰ عَيْني فبرِئتُ، والآن أُريد أن أجعل نفسي قُرباناً له.

ثمّ قال: هَل يستطيع أحدُكم أن يُحيي المَوتىٰ ويُبرىء الأكمه والأبرص إلّا الله تعالىٰ؟ فقالوا: لا، فقال: إنّ عيسىٰ قد فعل هذه الأشياء، فاعْلَموا أنّه هُو الله تعالىٰ، فخرَجوا مِن عندَه، ثمّ دعا بطائفةٍ أُخرىٰ فأخبرهم بذلك أيضاً وقال: إنّه كان ابن الله، ثمّ دعا بطائفةٍ أُخرىٰ وأخبرهم بذلك أيضاً وقال:

إنّه ثالثُ ثلاثةٍ، وأخبرهم أنّه يُريد أن يجعل نفسه اللّيلة قُرباناً، فلمّا كان بعضُ اللّيل خرَج مِن بيْن ظَهرانيهم، فأصبحوا وجعَل كُلّ فَريق يقول: قد علّمني كذا وكذا، وقال الفريق الآخر: أنت كاذِب، بَل علّمني كذا، فوقع بَيْنهم القِتال فاقْتتلوا وقتَلوا خَلْقاًكثيراً، ونصَب العَداوة بَيْنهم إلىٰ يوم القِيامة. وهُم ثلاثُ فِرق: النّسطورية، فقالوا: المَسيح ابنُ الله، والثّانية: الملكانية، قالوا: إنّ الله ثالثُ ثلاثةٍ، المَسيح وأُمّه والله، والثالثة: اليَعقوبية، قالوا: إنّ الله هُو المَسيح[١].

يَاأَهْلَ ٱلْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَابِ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِنَ ٱللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ[١٥]

ثمّ لمّا بيّن الله تعالىٰ نَقْض اليَهود والنّصارىٰ مِيثاقهم الذي أُخذ مِنهم علىٰ الإيمان بمحمّد ﷺ، وخِيانتهم بالتّوراة والإنجيل، وإخبار النبيّ بما أخفَوه عن النّاس مِن تَحْريفاتهم وتَغْييراتهم في الكِتابين، وكان ذلك مِن مَعاجزه الدّالّة علىٰ صِدْقه في دَعوىٰ الرّسالة، باشر بذاته المُقدّسة دَعوتهم إلىٰ الإيمان بقوله: ﴿يَاأَهْلَ ٱلْكِتَابِ﴾ من اليَهود والنّصارىٰ ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ محمّد ﷺ مع البَراهين القاطِعة علىٰ صِدْقه؛ منها: أنّه معَ أُمّيّته وعدَم قراءته الكُتبَ، وعدَم تعلُّمه عندَ أحدٍ ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَابِ﴾ السّماوي، كنُعوته في الكِتابين، واسْمه المَذكور فيهما، وآية[٢] الرّجْم ـ كما عن ابن عبّاس[٣] ـ وذلك مِنه إخبار بالمُغيّبات كإخبار عيسىٰ عليه السلام بما يأكُلون وما يدّخِرون ﴿وَيَعْفُوا﴾ ويُغمض ﴿عَن كَثِيرٍ﴾ مِمّا تُخفونه وتكتُمونه، فلا يُخبر به.

عن القُمّي رحمه الله، قال: يُبيّن النبيّ ﷺ كثيراً مِمّا أخفيتُموه مِمّا في التّوراة مِن أخباره، ويدَع كثيراً لا يُبيّنه[٤].

قضية تحكيم ابن صوريا اليهودي

عن الباقر عليه السلام: «أنّ امرأةً مِن خَيبر ذات شَرفٍ بينَهم، زَنتْ معَ رَجُل من أشرافهم وهُما مُحصَنان، فكرِهوا رَجْمهما، فأرسلوا إلىٰ يَهود المدينة وكتبوا إليهم أن يسألوا النبيّ ﷺ عن ذلك طمعاً في أن يأتي لهم برُخْصة، فانْطلق قومٌ مِنهم كعب بن أُسَيد، ومالك بن صيف، وكنانة بن أبي الحُقيق، وغيرهم، فقالوا: يا محمّد، أخبرنا عن الزّاني والزّانية إذا أُحصِنا، ما حَدُّهما؟ فقال: هَل ترضَون بقضائي في ذلك؟ قالوا: نعم. فنزل جَبْرئيل بالرّجْم، فأخبرهم بذلك، فأبوا أن يأخُذوا به، فقال جَبْرئيل: اجعَلْ بيْنك وبيْنهم ابن صُوريا، ووصَفه له، فقال النبيّ ﷺ:

---

١. تفسير روح البيان ٢: ٣٦٧.
٢. في تفسير الرازي: وأمر.
٣. تفسير الرازي ١١: ١٨٩.
٤. تفسير القمي ١: ١٦٤، تفسير الصافي ٢: ٢٢.

هَل تعرِفون شاباً أمردَ أبيضَ أعوَر يسكُن فدك، يُقال له ابن صُوريا؟ قالوا: نعَم، قال: أيّ رَجُلٍ هُـو فيكم؟ قالوا: هُو أعلم يَهُودي بقي علىٰ ظهر الأرض بما أنزل الله علىٰ مُوسىٰ. قـال: فأرسلوا إليـه. ففعلوا، فأتاهم عبدُالله بن صُوريا.

فقال له النبيّ ﷺ: أنشُدُك الله الذي لا إلهَ إلّا هُو، الذي أنزل التّوراة علىٰ مُوسى، وفلَق لكم البَحر فأنجاكم وأغرق آل فِرعون، وظلّل عليكم الغَمام، وأنزل عليكم المَنّ والسّلوىٰ، هل تـجِدون فـي كِتابكم الرّجْم علىٰ مَن اُحصِن؟ قال ابنُ صُوريا: نعَم، والذيذكّرتني به، لَولا خَشْيَةَ أن يُحرقني رَبّ التّوراة إنْ كذَبتُ أو غيرّتُ، ما أعترفتُ لك، ولكن أخبرني كيف هِي في كتابك يا محمّد؟ قـال: إذا شهَد أربعةُ رَهْطٍ عُدول أنّه قد أدخله فيها كما يدخل المِيل في المُكْحُلة، وجب عليه الرّجْم. فقال ابن صُوريا: هكذا أنزل الله في التّوراة علىٰ مُوسىٰ عليه السلام.

فقال له النبيّ ﷺ: فماذا كان أول ما ترخّصتم به أمر الله؟ قال: كُنّا إذا زَنىٰ الشّريف تركناه، وإذا زنىٰ الضَعيف أقمنا عليه الحَدّ، فكثُر الزّنا في أشرافنا حتّىٰ زنىٰ ابنُ عَمّ مَلِكٍ لنا، فلم نرجُمه، ثمّ زنىٰ رَجُلٌ آخر فأراد المَلِك رَجْمه فقال قومه: لا، حتّىٰ ترجُم فُلاناً ـ يعنون ابن عـمه ـ فـقُلنا: تـعالَوا نـجتمع فلنَضَع شيئاً دُون الرّجْم يكون علىٰ الشّريف والوَضيع، فوضعنا الجَلْد والتفحيم[١] ـ وهُو أن يُـجلَدا أربعين جَلدة، ثمّ تُسوّد وجوههما، ثمّ يحملا علىٰ حِمارين، وتُجعل وُجوههما مِن قِبَل دُبْر الحِمار، ويُطاف بهما ـ فجعلوا هذا مَكان الرّجْم.

فقالت اليَهُود لابن صُوريا: ما أسرع ما أخبرته به! وما كُنتَ لما أتينا عليك بأهْلٍ، ولكنّك كُنتَ غائباً فكرِهنا أن نَغتابك، فقال: إنّه نشَدني بالتّوراة، ولَولا ذلك لَمَا أخبرتُه به.

فأمر بهما النبي ﷺ فرُجما عندَ باب مَسجده، وقال: أنا أوّل مَن أحيا أمرك إذ أماتوه. فأنـزل الله سُبحانه فيه: ﴿يَاأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ﴾.

فقام ابن صُوريا فوضَع يدَه علىٰ رُكبتي رَسُول الله ﷺ ثمّ قال: هذا مقامُ العائذ بالله وبك، أن تذكُر [لنا] الكثيرَ الذي اُمرتَ أن تعفُو عنه، فأعرض النبيّ ﷺ عن ذلك[٢].

ومِن البَراهين علىٰ رِسالته بقوله[٣]: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِنَ اللهِ﴾ بوَساطة محمّد ﷺ دِين الاسلام الذي هُو ﴿نُورٌ﴾ في الحَقيقة، حيثُ تتقوّىٰ به بَصيرتُكم علىٰ إدراك المَعقولات كما يـتقوّىٰ بـالنُّور الحِسّـي

---

١. في مجمع البيان: والتحميم.

٢. مجمع البيان ٣: ٢٩٩، تفسير الصافي ٢: ٢٢.

٣. كذا، وتوجد كلمة بعد (من) غير واضحة. راجع النسخة ج١ ص٣٨٨.

بصَرُكم علىٰ إدراك المَحسُوسات.

ثمّ أشار سُبحانه إلىٰ البُرهان الثالث بقوله: ﴿وكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ للحَقّ، وكاشف عن حقائق الأمور. وقيل: النُّور هُو النبيّ ﷺ[1]. وقيل: النُّور والكِتاب واحد[2].

وعن القميّ ﵀: يعني بالنُّور: أميرَ المُؤمنين والأئمة ﵈[3].

يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ ٱلسَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ[١٦]

ثمّ بيّن عظيم فائدة الكِتاب تعظيماً له، بقوله: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ﴾ وطلب باتّباعه وإطاعة أحكامه ﴿رِضْوَانَهُ﴾ وقُربه ﴿سُبُلَ﴾ دَار ﴿ٱلسَّلَامِ﴾ وطُرق الجنّة، أو سُبل السّلامة مِن العَذاب ﴿وَيُخْرِجُهُم﴾ بوَسيلة هذا الكِتاب ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَاتِ﴾ وأنواع كُدورات الكُفر والضّلال، والجَهل وهَوىٰ النَفس ﴿إِلَىٰ ٱلنُّورِ﴾ مِن الإيمان والعِلْم والحِكْمة وكَمال النَفس ﴿بِإِذْنِهِ﴾ ومشيئته وتوفيقه ﴿وَيَهْدِيهِمْ﴾ ويُرشِدهم ﴿إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ والدِّين الحَقّ القَويم، المُوصل إلىٰ جميع الخَيرات وأكمل السّعادات.

لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ[١٧]

ثمّ لمّا ذكَر سُبحانه أنّ القُرآن الكريم هادٍ إلىٰ الحَقّ، ومُنجٍ مِن الضّلال، بيّن غاية ضَلالة النّصارىٰ بقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ﴾ النّصارىٰ ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓا﴾ واعتقَدوا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ والخَلّاق المَعبود ﴿هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ كما نُسِبت إلىٰ اليَعقوبيّة مِنهم، بَل هُو لازم قَول الملكانيّة القائلين بالأقانيم الثّلاثة، حيثُ إنّهم قائلون بأنّ الكلمة اتّحدت بعيسىٰ، لأنّه إنْ أرادوا به ذَاته تعالىٰ يلزَم مِنه القول بحُلوله تعالىٰ في عيسىٰ، فيكون عيسىٰ هُو الله، وإن أرادوا مِن الكلمة عِلْمه تعالىٰ فحُلول عِلْمه مُستلزم لحُلول ذاته، لأنّ عِلْمه عَين ذاته.

ثمّ بيّن الله تعالىٰ بُطلان هذا القول وفضاحته بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد لهم: إن كان الأمر كما تزعَمون

---

١. مجمع البيان ٣: ٢٧٠، تفسير الصافي ٢: ٢٣.

٢. تفسير الرازي ١١: ١٨٩، وفيه: والكتاب هو القرآن.

٣. تفسير القمي ١: ١٦٤، تفسير الصافي ٢: ٢٣.

﴿فَمَن يَمْلِكُ﴾ ويقدِر علىٰ أن يمنَع ﴿مِنَ﴾ نُفوذ قُدْرة ﴿ٱللَّهِ﴾ وإرادته ﴿شَيْئاً﴾ يَسيراً ﴿إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ﴾ ويُفني ﴿ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ﴾ بَل ﴿وَمَن﴾ كان ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ المَسيح وغيره ﴿جَمِيعاً﴾ فإذا كان المَسيح مَقهوراً تحتَ قُدْرة الغير وإرادته، بحيثُ لا يُمكنه دَفع الهَلاك عن نفسه وأمّه وغيرهما، لا يُعقَل أن يكون إلٰهاً.

ثمّ استدَلّ علىٰ اُلوهيّة ذاته المُقدّسة بعَظَمة سُلطانه بقوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ لا يخرُج شيءٌ مِن المَوجودات عن مُلكه وسُلطانه، ولا شَريك له فيهما.

ثمّ استدلّ بسَعَة قُدْرته بقوله: ﴿يَخْلُقُ﴾ ويُوجد ﴿مَا يَشَاءُ﴾ خَلقه وإيجاده كيف يَشاء بِلا أصلٍ كعالَم العُقول، أو مِن أصلٍ كعالَم الأجسام، مِن غير جِنْسه كآدم وسائر الحَشَرات، أو مِن جنسه كأولاد آدم، مِن ذَكَرٍ واحدٍ كحَوّاء، ومِن اُنثىٰ واحدة كعيسىٰ، أو مِنهما كسائر النّاس.

ثمّ بالغ في تَقرير قُدْرته الكامِلة بقوله: ﴿وَٱللَّهُ﴾ بذاته ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ مِن المُمكنات ﴿قَدِيرٌ﴾ وعيسىٰ لايقدِر علىٰ شيءٍ إلّا بإقداره تعالىٰ له.

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاؤُا ٱللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنْتُم بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلهِ مُلْكُ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ[١٨]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ حُكمه بكُفْر النَصارىٰ لغُلُوّهم في شأن عيسىٰ وادِّعائهم اُلوهيّته، وإبطال دَعواهم، حكىٰ عنهم وعَن اليَهُود غُلُوّهم في حَقّ أنفسهم معَ كَونهم في أشدّ مَراتب الكُفْر ومُنتهىٰ دَرَجة الضَلال، بقوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَارَىٰ﴾ ترفيعاً لأنفسهم علىٰ سائر النّاس، وغُروراً بشَرف آبائهم الأنبياء: ﴿نَحْنُ أَبْنَاؤُا ٱللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ فإنّه يُحبّنا كحُبّ الوالد لوَلَده.

قيل: إنّ مُراد اليَهُود مِن قولهم هذا: أنّا أشياع عُزير ابن الله، ومُراد النّصارىٰ: نحنُ أشياع عيسىٰ ابن الله، كما يقول أقاربُ المُلوك عندَ المُفاخرة: نحنُ المُلوك[١].

ثمّ أمر الله نبيّه ﷺ بإبطال قولهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد، إلزاماً لهم: إنْ كان ما تزعُمون حقّاً ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُم﴾ الله في الدُّنيا ﴿بِذُنُوبِكُم﴾ ومَعاصيكم بالمَسْخ والقَتل والأسر والذِّلّة، وفي الآخرة أيّاماً مَعدُودة باعْتِرافكم؟ فهذه الدَعوىٰ في غاية الفَساد ﴿بَلْ أَنْتُم﴾ كغيركم ﴿بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ﴾ الله، بِلا فَضيلة لكُم علىٰ أحدٍ عندَ الله، وهُو ﴿يَغْفِرُ﴾ الذُّنوب ﴿لِمَن يَشَاءُ﴾ أن يغفِر له، ولا يَشاء إلّا لأهل

---

١. تفسير روح البيان ٢: ٣٧٢.

الإيمان والأعمال الصّالحة ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ تَعْذيبه، وهُم أهل الكُفْر والعِصيان.

ثمّ أعاد تَقرير كَمال قُدرته وعَظَمة سُلطانه تربيةً للمَهابة في القُلوب بقوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ يتساوىٰ نِسْبة جميع المَوجودات إليه، لا فَضيلة لأحدٍ علىٰ أحد إلّا بالإيمان والطّاعة والعُبوديّة ﴿وَإِلَيْهِ﴾ وإلىٰ حُكْمه ﴿الْمَصِيرُ﴾ والمرجع في الآخرة، لا إلىٰ غيره، فيُجازيكم بكُفْركم وسيّئات أعمالكم وأقوالكم أسوأ الجَزاء.

رُوي عن ابن عبّاس ﵁: أنّها نزلَتْ في جَماعة مِن اليَهود والنَصارىٰ، دَعاهم رَسول الله ﷺ إلىٰ الإيمان، وخوّفهم بعِقاب الله تعالىٰ، فقالوا: كيف تُخوّفنا بعِقاب الله ونحنُ أبناء الله وأحبّاؤه[1]!

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ[١٩]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَما أبطل تِلك الدّعاوىٰ مِن اليَهود والنّصارىٰ بالحُجَج القاطِعة، وكان ذلك مِن مُعجزات النبيّ ﷺ معَ كَونه اُمّيّاً، أعاد دَعوتهم إلىٰ الإيمان به بقوله: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ محمّد ﷺ لهِدايتكم إلىٰ الحَقّ، حالَ كَونه معَ اُمّيّته ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾ شَرائع الله وسُنَنه، ويشرَح لكُم مُعضِلات الأمور ﴿عَلَىٰ﴾ حِين ﴿فَتْرَةٍ﴾ كائنةٍ ﴿مِنَ الرُّسُلِ﴾ وفي زَمان انْقِطاع الوَحْي وظُلمة الجَهالة.

وكان احْتِياج الخَلْق إلىٰ مُبيِّن الأحكام الإلٰهيّة والشّرائع الدِّينيّة، لتَقادُم عَهْدها، وطُول زَمانها، وتصرُّف التّغيير والتّحريف إليها، واخْتِلاط الحَقّ بالباطِل والصِّدْق والكِذْب، بحيث صَار ذلك عُذراً ظاهِراً لأهل الضّلال في إعراضهم عن الحَقّ والعِبادة.

فكان إرسال الرّسُول لأجل كَراهة ﴿أَن تَقُولُوا﴾ اعْتِذاراً: رَبّنا ﴿مَا جَاءَنَا﴾ في الدُّنيا ﴿مِنْ بَشِيرٍ﴾ بثَوابك ﴿وَلَا نَذِيرٍ﴾ مِن عِقابك، فنتّبع آياتك، ونكون مِن المُؤمنين.

فأجابهم الله بقوله: ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ﴾ الآن مِن قِبَل الله ﴿بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ فتمّت عليكُم الحُجّة، وانْقطع العُذْر ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ مِن إرسال الرّسُول، وقَطْع الأعذار ﴿قَدِيرٌ﴾ لا يُعجِزه شيءٌ.

قيل: كان بيْن مُوسىٰ وعِيسىٰ ﵉ ما يقرُب مِن ألف وسبعمائة سَنة، وألفا نبيّ، وبيْن عيسىٰ ومحمّد ﷺ سِتّمائة سنة وأربعة مِن الأنبياء؛ ثلاثة مِن بني إسرائيل، وواحد مِن العَرَب يُقال له خَالد

---

١. تفسير الرازي ١١: ١٩٢، تفسير أبي السعود ٣: ٢١.

بن سِنان العَبْسي[١].

عن الصّدوق في (الإكمال): معنىٰ الفَتْرة أن لا يكون نبيّ ولا وَصِيّ ظاهراً مَشهوراً، وإن كان بَيْن نبيّنا ﷺ وبيْن عيسىٰ عليه السلام أنبياء وأئمّة مَستُورون خائفون، مِنهم خالد بن سِنان العَبْسي، لا يدفَعه دافع ولا يُنكره مُنكِر، وكان بيْن مَبْعثه ومَبْعث نبيّنا خَمسمائة سنة[٢].

عن أمير المُؤمنين صلَوات الله عليه: «لا تخلو الأرض مِن قائمٍ لله بحُجّةٍ، إمّا ظاهِرٌ مَشهور، وإمّا خائِفٌ مَغمور»[٣].

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ ٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُلُوكاً وَآتَاكُم مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ ٱلْعَالَمِينَ [٢٠]

ثمّ لمّا دَعا الله تعالىٰ أهل الكِتاب إلىٰ الإيمان بالرّسُول ﷺ، بيّن أنّ عَادة اليَهُود اللّجاج وعدَم الانْقِياد للأنبياء، مُستشهداً بمُعاملة سَلَفهم ـ معَ كَونهم أبناء الأنبياء ـ معَ مُوسىٰ، بقوله: **﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾** بني إسرائيل، استِعطافاً واستِمالةً لقُلوبهم: **﴿يَاقَوْمِ ٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللهِ﴾** ومِنَنه العِظام **﴿عَلَيْكُمْ﴾** المُوجبة لغاية شُكركم وطَاعتكم له **﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ﴾** ومِن أقاربكم **﴿أَنْبِيَاءَ﴾** كثيرة، تُرشَدون بإرشادهم، وتَفتخرون بانْتِسابهم.

قيل: إنّ الله تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ مُوسىٰ عليه السلام: إنّي لا أبعثُ نبيّاً إلّا مِن وُلْد إسماعيل ويعقوب[٤].

﴿وَ﴾ إذْ **﴿جَعَلَكُم﴾** وبعَث فيكم **﴿مُلُوكاً﴾** وحُكّاماً كثيرة، قيل: إنّ المعنىٰ: جعلَكم أحراراً تملِكون أنفسكم بعدَما كُنتُم في أيدي القِبْط في مَمْلكة فِرعون بمَنزلة العَبيد وأهل الجِزية[٥].

وعن ابن عبّاس رضي الله عنه: يعني أصحاب خَدَم وحَشَم، وكانوا أوّل مَن ملَك الخَدَم[٦].

﴿وَآتَاكُم مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ ٱلْعَالَمِينَ﴾ مِن فَلْق البَحر، وإهلاك فِرعون وجُنْده، وتَظْليل الغَمام، وإنزال المَنّ والسّلوىٰ، وغير ذلك.

يَاقَوْمِ ٱدْخُلُوا ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ [٢١]

---

١. جوامع الجامع: ١٠٧، تفسير الرازي ١١: ١٩٤.
٢. إكمال الدين: ٢/٦٥٩، تفسير الصافي ٢: ٢٤.
٣. نهج البلاغة: ٤٩٧ الحكمة ١٤٧، تفسير الصافي ٢: ٢٤.
٤. تفسير الرازي ١١: ١٩٦.
٥. تفسير الرازي ١١: ١٩٦، تفسير روح البيان ٢: ٣٧٥.
٦. تفسير روح البيان ٢: ٣٧٥.

ثمّ بعدَ تَذكيرهم النِّعَم التي أنعم الله عليهم، أمرهم بمُجاهدة أعداء الله بعدَ إعادة مُخاطبتهم مَزيداً للاستعطاف بقوله: ﴿يَا قَوْمِ﴾ جاهدوا أعداء الله وأعداءكم، و﴿ٱدْخُلُوا﴾ بعدَ الغَلَبة عليهم ﴿ٱلأَرْضَ ٱلمُقَدَّسَةَ﴾ والبِلاد الطَّيِّبة الكثيرة النِّعَم ﴿ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللهُ﴾ وقدّر في اللّوح المَحفوظ إسكانها ﴿لَكُمْ﴾.

رُوي أنّ إبراهيم عليه السلام لمّا صعِد جَبل لبنان قال الله تعالىٰ له: انظُر، فما أدركه بصرُك فهو مُقدّس وميراث لذُرِّيتك[1].

وعن الباقر عليه السلام: «يعني: الشّام»[2].

﴿وَلَا تَرْتَدُّوا﴾ ولا ترجعوا ﴿عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ﴾ وأعقابكم خَوفاً مِن الجَبابرة، ولا تُهزَموا مِن بأسهم.

وقيل: إنّ المُراد: لا ترجِعوا عن الدِّين الحَقّ إلىٰ الشّك[3]، أو لا ترجِعوا عن الأرض التي أمرتم بدُخولها إلىٰ الأرض التي خرَجتُم منها ـ وهِي أرض مِصر[4] ـ ﴿فَتَنْقَلِبُوا﴾ وتنصَرفوا حالَ كونَكم ﴿خَاسِرِينَ﴾ مَغبونين في الدُّنيا والآخرة، لفَوتكم المَنافع العظيمة والثّواب وابتِلائكم بالمِحَن والعَذاب.

قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ * قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى ٱللهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُم مُؤْمِنِينَ [٢٢ و ٢٣]

ثمّ حكىٰ الله تعالىٰ امتِناع بني إسرائيل عن امتِثال أمر مُوسىٰ بعدَ تِلك التّرغيبات والمَواعظ بقوله: ﴿قَالُوا﴾ بعدَ اطّلاعهم علىٰ قُوّة الجَبابرة وشَوكتهم، والخَوف مِن قِتالهم: ﴿يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ﴾ أقوياء قاهرين، أو طُوالاً عِظام الأجساد، قيل: كانت أيدي قوم مُوسىٰ لا تصِل إليهم[5] ﴿وَإِنَّا لَن نَدْخُلَهَا﴾ أبداً خوفاً مِنهم ﴿حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ بمَيل أنفسهم، ويُخلّوا بِلادهم لنا مِن غير صُنع مِنّا؛ لعدَم قُدْرتنا علىٰ إخراجهم مِنها بالقَهر.

﴿فَإِن يَخْرُجُوا﴾ بسَببٍ مِن الأسباب ﴿مِنْهَا﴾ مِن غير دَخلٍ مِنّا في خُروجهم ﴿فَإِنَّا﴾ حينئذٍ ﴿دَاخِلُونَ﴾ فيها، فلمّا أبَوا عن الدُّخول في الأرض المُقدّسة ـ وهِي بَيت المَقدِس، أو بَلدة أريحا ـ ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿رَجُلَانِ﴾ كاملان في صِفات الرُّجوليّة مِن الشّجاعة والفُتوّة اسْمهما كالب ويُوشع،

---

١. تفسير الرازي ١١: ١٩٦.

٢. تفسير العياشي ٢: ١٢٣٥/٢٧، تفسير الصافي ٢: ٢٥.

٣ و ٤. تفسير الرازي ١١: ١٩٨.

وهُما كانا ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ الله ويتّقون، وقد ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ بنِعْمة اليَقين الصّادق بوَعْد الله وباليَوم الآخر، والثِّقة بعَونه ونُصْرته، تَشْجيعاً لهم وتقويةً لقُلوبهم: يا قوم ﴿ٱدْخُلُوا﴾ بجَماعتكم دُفعةً وبَغتةً ﴿عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ﴾ الذي لبَلد الجَبّارين، وضاغطوهم في المَضيق حتّىٰ لا يُمكنهم الخُروج إلىٰ الصّحراء، ولا يجِدوا للحَرْب مَجالاً.

ثمّ أنّهما بعدَ تَعْليمهم كَيفيّة الحَمْلة عليهم، وَعَداهم النّصر والغَلَبة؛ بقوله: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ﴾ وضيّقتم عليهم العَرَصة ﴿فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ﴾ عليهم لا محالة، وهُم مُنهزمون مِنكم ألبَتّةَ؛ لضعف قُلوبهم، وتعسُّر الكَرّ عليهم ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ خاصّة ﴿فَتَوَكَّلُوا﴾ في الغَلَبة عليهم، وفي غيرها مِن الأُمور، ولا تعتمِدوا علىٰ الأسباب بعدَ تَهيئتها وتَرتيبها ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بالله، مُصدّقين بوَعْده، عارفين بقُدرته.

قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَدْخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَا هُنَا قَاعِدُونَ[٢٤]

فلمّا لَم يُفِد بني إسرائيل نُصْح الرّجُلين، ولَم يُؤثّر فيهم التّشجيع، ولَم يفيضوا بتَعْليم كَيفيّة الحَرب وطَريق الغَلَبة وتَنْبيههم علىٰ التَوكُّل علىٰ الله، بالَغوا في الامْتِناع عن الدُّخول في الأرض المُقدّسة خوفاً علىٰ أنفسهم، و﴿قَالُوا﴾ تمرُّداً عن طَاعة الله ورَسُوله، واسْتِهانةً بهما: ﴿يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَداً﴾ خوفاً مِن الجَبابرة، ولا نرِد أرضهم ﴿مَا دَامُوا فِيهَا﴾ مُقيمين، فإن كان لك الغَلَبة عليهم ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ﴾ معاً إلىٰ أرضهم ﴿فَقَاتِلَا﴾ هُم ﴿إِنَّا﴾ جميعاً ﴿هَا هُنَا﴾ وفي مَكاننا هذا ﴿قَاعِدُونَ﴾ مُنتظرون نَصركُما وغَلَبكما عليهم، وإخراجكما إيّاهم مِن أرضهم.

قَالَ رَبِّ إِنِّى لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَاسِقِينَ[٢٥]

فلمّا يئِس مُوسىٰ عليه السلام مِن طاعة قومِه بعدَ أن سمِع مِنهم الامْتِناع والاسْتِهزاء ﴿قَالَ﴾ بثّاً وحُزناً وتَشكّياً مِن تَمرُّدهم إلىٰ الله: ﴿رَبِّ إِنِّى لَا أَمْلِكُ﴾ طاعة أحدٍ ﴿إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى﴾ الذي هُو بمَنزلة نفسي، وفي حُكْم جَوارحي التي لا تتخلّف عن إرادتي.

وإنّما لَم يذكُر الرّجُلين اللّذَين يَخافان، مع كَونهما في غاية الطّاعة والانْقِياد له، إعظاماً لشأن هارون مِن أن يكون له قَرين في الانْقِياد والتّسليم.

ثمّ دعا لنفسه ولأخيه، وعلىٰ قومه المُتمرّدين بقوله: ﴿فَافْرُقْ﴾ يا رَبّ وافصِل ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ

﴿ٱلْفَاسِقِينَ﴾ الخارجين عن طَاعتك، المُصرّين علىٰ عِصيانك، بأن تحكُم علينا[١] بما نستحقّه، وعليهم بما يستحقّون. كذا قيل[٢].

قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَاسِقِينَ[٢٦]

﴿قَالَ﴾ الله تعالىٰ بعدَ امتِناع بني إسرائيل [عن] الدُّخول في الأرض المُقدّسة، وشِكاية مُوسىٰ عليه السلام منهم: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ﴾ ومَمنوعة ﴿عَلَيْهِمْ﴾ دُخولاً، يعني أنّ طائفة بني إسرائيل لا يدخُلونها ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ ويكون حالُهم في المُدّة إلىٰ آخرها أنّهم ﴿يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ويسيرون فيها مُتحيِّرين.

في ابتلاء بني إسرائيل بالتيه

قيل: إنّ مُوسىٰ عليه السلام لمّا دَعا عليهم، أخبره الله بأحوال التِّيه، فأخبر مُوسىٰ قومَه بذلك فقالوا له: لِمَ دَعوتَ علينا؟ فندِم مُوسىٰ عليه السلام علىٰ ما عمل، فعزّاه الله بقوله: ﴿فَلَا تَأْسَ﴾[٣] ولا تحزن ﴿عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَاسِقِينَ﴾ فإنّهم بفِسقهم مُستحقّون لذلك.

قيل: لبِثوا أربعين سنة في سِتّة فَراسخ، وهُم سِتّمائة ألف مُقاتل[٤]. وقيل: [ستة] في اثنَي عشر فَرْسخاً[٥]. وقيل: تِسعة فراسخ في ثلاثين فَرْسخاً[٦]. وكانوا يسيرون كُلّ يومٍ جادّين، فإذا أمسَوا كانوا في المَوضع الذي ارْتحلوا مِنه[٧].

قيل: إنّ مُوسىٰ وهارون بشُؤْم مُعاملة بني إسرائيل بقِيا في التِّيه أربعين سنة، وبنو إسرائيل ببَرَكة كرامتهما ظُلِّل عليهم الغَمام، وأُنزِل عليهم المَنّ والسَّلوى، ليُعلَم أثر بَرَكة صُحْبة الصّالحين، وشُؤم صُحْبة الفاسقين[٨].

عن الباقر عليه السلام، قال: «نِعْم الأرض الشّام وبِئس القوم أهلها، وبِئس البِلاد مصر، أما إنّها سِجْنُ مَن سخَط الله عليه، ولَم يكُن دُخول بني إسرائيل إلّا معصيةً مِنهم لله، لأنّ الله قال: ﴿ادخُلُوا الأَرضَ المُقَدَّسَةَ الّتى كَتَبَ اللهُ لَكُم﴾[٩] يعني الشّام، فأبَوا أن يدخلوها، فتاهوا في الأرض أربعين سنة في فَيافيها، ثمّ دخَلوها بعدَ أربعين سنة قال: وما خرُوجهم مِن مِصْر ودخُولهم في الشّام إلّا بعدَ توبَتهم ورِضا الله عنهم»[١٠].

---

١. في تفسير روح البيان وتفسير أبي السعود: تحكم لنا.
٢. تفسير روح البيان ٢: ٣٧٧، تفسير أبي السعود ٣: ٢٥.
٣. تفسير الرازي ١١: ٢٠١.
٤. تفسير روح البيان ٢: ٣٧٧.
٥ و٦. تفسير الرازي ١١: ٢٠٢.
٧. تفسير روح البيان ٢: ٣٧٧.
٨. تفسير روح البيان ٢: ٣٧٧.
٩. المائدة: ٢١/٥.
١٠. تفسير العياشي ٢: ١٢٣٥/٢٧، تفسير الصافي ٢: ٢٦.

وعن الصادق عليه السلام، في روايةٍ ذكَر [أهل مصر، وذكر قوم] مُوسىٰ وقولهم: ﴿اذهَب أنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إنَّا هَا هُنَا قَاعِدُونَ﴾[١]، قال: «فحرّمها [الله] عليهم أربعين سنة وتيّههم، فكان إذا كان العشاء أخذوا في الرّحيل ونادَوا: الرّحيل الرّحيل، الوَحاء[٢] الوَحاء، فلَم يزالوا كذلك حتّىٰ تغيب الشّمس، حتّىٰ إذا ارْتحلوا واسْتوتْ بهم الأرض قال الله للأرض دِيري بهم، فلم يزالوا كذلك حتّىٰ [إذا] أسحروا وقارب الصُّبح قالوا: إنّ هذا الماء قد أتيتموه فانْزلوا، فإذا اصبحوا إذا أبنيتهم[٣] ومنازلهم التي كانوا فيها بالأمس، فيقول بعضُهم لبعضٍ: يا قوم، لقد ضلَلْتُم وأخطأتم الطَّريق، فلَم يزالوا كذلك حتّىٰ أذِن الله لهم فدخَلوها، وقد كان كتَبها لهم»[٤].

وعن الباقر عليه السلام، قال: «قال رَسُول الله صلى الله عليه وآله: والذي نفسي بيده، لتركبُنّ سُنَن مَن كان قبلكم حَذْو النَّعْل بالنَّعْل، والقُذّة بالقُذّة، حتّىٰ لا تُخطِئون طريقهم، ولا تُخطِئكم سُنّةُ بني إسرائيل».

ثمّ قال أبو جعفر عليه السلام: «قال مُوسىٰ لقومه: ﴿يَا قَومِ ادخُلُوا الأَرضَ المُقَدَّسَةَ الَّتى كَتَبَ اللهُ لَكُم﴾ فردّوا عليه وكانوا سِتّمائة ألف وقالوا: ﴿يَا مُوسَىٰ إنّ فِيهَا قَوماً جَبَّارِينَ﴾ الآيات، قال: فعصىٰ أربعون ألفاً، وسلِم هارون وابْناه، ويُوشع بن نون، وكالب بن يوفنا[٥]، فسمّاهم الله فاسقين فقال: ﴿لَا تَأسَ عَلَى ٱلقَوْمِ الفَاسِقِينَ﴾ فتاهوا أربعين سنة لأنّهم عصَوا، فكان حَذْو النّعل بالنّعل أنّ رَسُول الله صلى الله عليه وآله لمّا قُبض، لَم يكُن علىٰ أمر الله إلّا علِيّ والحَسن والحُسين عليهما السلام، وسلمان، وأبو ذرّ، والمِقداد، فمكثوا أربعين[٦] سنة حتّىٰ قام عليٌّ عليه السلام فقاتل مَن خالفه»[٧]. الخبر.

ثمّ أنّه اخْتُلِف في أنّ مُوسىٰ وهارون [هل] كانا في التِّيْه أم لا؟ فقال قوم: لا، لأنّه دعا الله أن يُفرّق بينه وبين قومه ودَعوات الأنبياء مُجابة[٨].

أقول فيه: إنّه مَبنيٌّ علىٰ كَون المُراد بالتّفريق: المُفارقة في الصُّحْبة، لا في الحُكومة.

وقال آخرون: إنّهما كانا في التِّيْه، ولَم يكُن عَذاباً بالنِّسبة إليهما.

في وفاة موسىٰ وهارون

ثمّ اختلف هؤلاء في أنّهما [هل] ماتا في التِّيْه أو خرجا منه؟ فقال بعضُهم: إنّهما خرجا مِنه، وحاربا الجَبّارين وقَهراهم وملَكا الأرض المُقدّسة[٩]، وقال آخرون: إنّ هارون مات في التِّيْه، ثمّ مات مُوسىٰ بعدَه بسَنة، وبقي يُوشع بن نون، وكان ابن اُخت

---

١. المائدة: ٥/٢٤. ٢. الوَحاء: كلمة تقال للاستعجال. ٣. في النسخة: تيههم.
٤. تفسير العياشي ٢: ١٢٣٤/٢٧، تفسير الصافي ٢: ٢٦. ٥. في تفسير العياشي: يافنا.
٦. قال العلامة المجلسي: لعلّه عليه السلام حسب الأربعين من زمان إظهار النبي صلى الله عليه وآله خلافة أمير المؤمنين عليه السلام. راجع: بحار الأنوار ١٣: ١٠/١٨٠. ٧. تفسير العياشي ٢: ١٢٢٨/٢٤، تفسير الصافي ٢: ٢٦.
٨. تفسير الرازي ١١: ٢٠١. ٩. تفسير الرازي ١١: ٢٠١.

مُوسىٰ ووصِيّه بعدَ موته، وهُو الذي فتح الأرض المُقدَسة[١].

عن النبيّ ﷺ: «أنّ مُوسىٰ كليم الله مات في التّيْه، فصاح صائحٌ مِن السّماء: مات مُوسىٰ، وأيّ نفسٍ لا تموت»[٢].

وعن القُمّي رحمه الله: عن الباقر عليه السلام: «مات هارون قبلَ مُوسىٰ، وماتا جميعاً في التّيْه»[٣].

وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ * لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّى أَخَافُ ٱللهَ رَبَّ ٱلْعَالَمِينَ * إِنِّى أُرِيدُ أَن تَبُوأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ ٱلنَّارِ وَذٰلِكَ جَزَاؤُ ٱلظَّالِمِينَ [٢٧ ـ ٢٩]

ثمّ أنّه تعالىٰ ـ بعدَ ذِكْر لَجاج بني إسرائيل، وعدَم طاعتهم لمُوسىٰ عليه السلام، وابتِلائهم بعذاب التّيْه معَ كَونهم أبناء الأنبياء، وأقرب مِن المَوجودين في زمان النبيّ ﷺ إلىٰ إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام ـ بيّن أن قابيل معَ كونه ابن نبيّ لصُلْبه، عصىٰ ربّه، فذهب فَضْلُه وشرَفُه، بقوله: ﴿وَٱتْلُ﴾ يا محمّد، في مَجمع أهل الكِتاب ﴿عَلَيْهِمْ﴾، أو المُراد: علىٰ النّاس ﴿نَبَأَ﴾ قابيل وهَابيل ﴿ٱبْنَىْ ءَادَمَ﴾ أبي البشر ـ وعن بعض المُفسّرين: أنّهما رَجُلان مِن بني إسرائيل[٤] ـ تِلاوةً مُلتبِسة ﴿بِالْحَقِّ﴾ والصِّدْق ﴿إِذْ قَرَّبَا﴾ إلىٰ الله، بأن جعل كُلّ واحدٍ مِنهما له تعالىٰ ﴿قُرْبَاناً﴾ وهَديّةً ﴿فَتُقُبِّلَ﴾ مِن جانب الله أحد القُربانَين ﴿مِنْ أَحَدِهِمَا﴾ لكَونه مَقروناً بالخُلوص وصِدق النِّيّة.

عن سعيد بن جُبير: نزلتْ نارٌ مِن السّماء فاحتملَتْ قربان هابيل، ورُفع بها إلىٰ الجنّة[٥].

﴿وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ﴾ وهُو قابيل، ولَم تتعرّض النّار له، لعدَم خُلوص نِيّته، واختياره أخسّ أمواله للقُربان.

قيل: ما كان في ذلك الوقت فقير يُدفع إليه المال الذي يُتقرّب به إلىٰ الله تعالىٰ، فكانت النّار تنزل مِن السّماء فتأكلُه.

في قصة قابيل وهابيل

عن (المجمع): عن الباقر عليه السلام: «أنّ حَوّاء امرأة آدم كانت تِلد في كُلّ بَطن غُلاماً

---

١. تفسير الرازي ١١: ٢٠١.
٢. الكافي ٣: ١١٢/٤، تفسير الصافي ٢: ٢٦.
٣. تفسير القمي ٢: ١٣٧، تفسير الصافي ٢: ٢٧.
٤. تفسير الرازي ١١: ٢٠٤، تفسير أبي السعود ٣: ٢٦.
٥. تفسير روح البيان ٢: ٣٧٩.

وجارية، فولدَتْ في أوّل بَطن قابيل ـ وقيل: قابين ـ وتَوأمته اقليما، والبَطن الثاني هابيل وتوأمته ليوذا[١]، فلمّا أدركوا جميعاً، أمَر الله تعالىٰ أن يُنكِح [آدمُ] قابيلَ أختَ هابيل وهابيلَ أختَ قابيل فرضي هابيل وأبىٰ قابيل؛ لأنّ أُخته كانت أحسنهما، وقال: ما أمر الله بهذا، ولكنّ هذا مِن رأيك، فأمرهما [آدم] أن يُقرّبا قُرباناً فرضيا بذلك، فعمَد هابيل وكان صاحِب ماشية فأخذ مِن خير غَنَمه زَبداً ولبناً، وكان قابيل صاحب زَرع فأخذ مِن شَرِّ زَرعه، ثمّ صَعِدا فوَضعا القربانين علىٰ الجَبل فأتَت النّار فأكلت قُربان هابيل، وتجنّبت قُربان قابيل، وكان آدم غائباً بمكّة، خرَج إليها ليزُور البَيت بأمر ربّه...»[٢].

وفي روايةٍ عن الصادق عليه السلام، قيل له: إنّهم يزعُمون أنّ قابيل إنّما قتَل هَابيل لأنّهما تغايرا علىٰ أُختهما؟ فقال: «تقول هذا، أما تستحي أن تروي هذا علىٰ نبيّ الله آدم؟» فقيل: فبِمَ قتل قابيلُ هابيل؟ قال: «في الوصيّة». ثمّ قال: «إنّ الله تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ آدم أن يدفَع الوصيّة واسْم الله الأعظم إلىٰ هَابيل، وكان قابيل أكبر [منه]، فبلَغ ذلك قابيل فغَضِب، فقال: أنا أولىٰ بالكرامة والوصيّة، فأمرهما أن يُقرّبا قُرباناً بوَحْي مِن الله إليه، ففعلا فتقبّل الله قُربان هابيل، فحسَده قابيل»[٣].

في قصة قتل هابيل

و﴿قَالَ﴾ له: بالله ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾. قيل: إنّ هَابيل قال: لِمَ؟ قال قابيل: لأنّ الله قَبِل قُربانك ورَدّ قُرباني، وتنكِح أُختي الحَسْناء، وأنكِح أُختك الدميمة، فتُحدّث النّاس أنّك خَير مِنّي، ويفتخر وُلْدك علىٰ وُلدي[٤].

﴿قال﴾ هابيل: أمّا تَقبُّل قُرباني فليس مِن ذَنْبي ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ﴾ القُربان ﴿مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ وأنا اتّقيت دُونك، فعدَم قَبُول قُربانك كان مِن قِبَل نفسِك، والله ﴿لَئِن بَسَطتَ﴾ ومدَدْت ﴿إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي﴾ حَسْبَما أوعدتني ﴿مَا أَنَا بِبَاسِطٍ﴾ ومادٍّ ﴿يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾ بَل أستسلِم لقَضاء الله، ولا ينقدِح في قلبي قَصْد الإساءة إليك، لأجل ﴿إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ وفيه إظهار غاية تَقْواه.

قيل: كان هَابيل أقوىٰ مِن قابيل، ولكِن لمّا كان القَتل للدِّفاع حراماً في ذلك الزّمان تحرّج عن قَتْله[٥].

ثمّ ذكَر عِلّة أُخرىٰ للتّحرُّج عن قَتله بقوله: ﴿إِنِّي أُرِيدُ﴾ مِن إمساكي عن قَتلك ﴿أَن تَبُوأَ﴾ وترجِع إلىٰ الله مُلابساً ﴿بِإِثْمِي﴾ عن ابن عبّاس رضي الله عنه: معناه: تحمِل إثْم قَتلي ﴿وَإِثْمِكَ﴾ الذي ارْتكبتَه قبل قتلي[٦].

---

١. في المصدر: لبوذا. ٢. مجمع البيان ٣: ٢٨٣، تفسير الصافي ٢: ٢٨.
٣. تفسير العياشي ٢: ١٢٤٢/٣٦، تفسير الصافي ٢: ٢٨.
٤. تفسير روح البيان ٢: ٣٧٩. ٥. تفسير روح البيان ٢: ٣٨٠.
٦. تفسير الرازي ١١: ٢٠٧.

عن الباقر عليه السلام: «مَن قتَل مؤمناً [متعمّداً] أثبت الله علىٰ قاتله جميع ذنوبه، وبرىٰ المَقتول مِنها، وذلك قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾»[١].

﴿فَتَكُونَ﴾ بسبَب قتلي ﴿مِنْ أَصْحَابِ ٱلنَّارِ﴾ ومُلازميها أبداً ﴿وَذَٰلِكَ﴾ الخُلود في النّار ﴿جَزَاؤُا ٱلظَّالِمِينَ﴾ علىٰ العِباد بالقَتل.

قيل: إنّ هذا الكلام دَار بينهما علىٰ وَجْه الوَعظ والنّصيحة[٢]. والتّنبيه علىٰ أنّ إثْم المَقتول يُحمَل علىٰ قاتله، ويكون جَزاء القاتل ظُلماً الخُلود في النّار.

فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ[٣٠]

ومَقصوده حُبّ عدَم مُلابسته بالإثم لا مُلابسة أخيه به ﴿فَطَوَّعَتْ﴾ وهوّنت ﴿لَهُ نَفْسُهُ﴾ بتَسْويلاتها ﴿قَتْلَ أَخِيهِ﴾ هَابيل، ولَم يُؤثّر فيه النُّصح.

رُوي أنّ عَدُوّ الله إبليس قال لقابيل: قد تُقُبِّل قُربان هَابيل، ولَم يُتقبّل قُربانك، فإن تركتَه يكون له عَقِب يفتخرون علىٰ عَقِبك[٣].

وقيل: إنّ قابيل لَم يدرِ كيف يقتُل هابيل، فتمثّل له إبليس، فأخذ طائراً أو حيّةً، ووضع رأسه علىٰ حَجَرٍ ثمّ شدخه بحَجَرٍ آخر، وقابيل ينظُر فتعلّم مِنه، فوضع رأس هابيل بين حَجَرين وهُو مُستسلم لا يستعصي عليه[٤].

وفي روايةٍ: أنّه صبَر حتّى نام هَابيل وغنمه ترعىٰ[٥]، فضرب رأسه بحَجر ﴿فَقَتَلَهُ﴾ قيل: قُتل عندَ جبَل ثَوْر، وقيل: عندَ عَقَبة حِراء، وقيل: في المَسجد الأعظم بالبَصْرة، وكان لهابيل يوم قُتل عِشرون سنة[٦] ﴿فَأَصْبَحَ﴾ قابيل بقَتْله أخيه ﴿مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ﴾ في دِينه ودُنياه.

عن ابن عبّاس رضي الله عنه: أنّه خسِر دُنياه وآخرته؛ أمّا الدُّنيا فأسخط وَالدَيه، وبقي مَذموماً إلىٰ يوم القِيامة، وأمّا الآخرة فهُو العِقاب العظيم[٧].

في اطلاع آدم علىٰ قتل هابيل وحزنه عليه

روي أنّه لمّا قتله اسوَدّ جَسَدُه وكان أبيض، فسأله آدم عليه السلام عن أخيه، قال: ما كُنتُ عليه وكيلاً، فقال: بَل قتلتَه، ولذلك اسودّ جَسَدُك[٨].

وفي روايةٍ: فانطلَق آدم عليه السلام فوجَد هابيل مقتولاً، فقال: لُعِنت مِن أرضٍ كما قَبِلت دَم

---

١. عقاب الأعمال: ٢٧٨، تفسير الصافي ٢: ٢٧.
٢. تفسير الرازي ١١: ٢٠٦.
٣. إكمال الدين: ٢/٢١٣، تفسير الصافي ٢: ٢٨.
٤ و٥. تفسير روح البيان ٢: ٣٨٠.
٦. تفسير روح البيان ٢: ٣٨٠.
٧ و٨. تفسير الرازي ١١: ٢٠٨، تفسير روح البيان ٢: ٣٨١.

هابيل، فبكى آدم علىٰ هابيل أربعين سنة[١].

وفي روايةٍ أُخرىٰ: فلعَن آدم الأرض التي قَبِلت دَم هابيل، وأمر أن يُلعَن قابيل، ونُودي قابيل مِن السّماء: لُعِنَت كما قتلتَ أخاك، ولذلك لا تشرب الأرضُ الدَمَ، فبكىٰ آدم على هابيل أربعين يـوماً وليلة[٢].

وفي روايةٍ: ومكَث آدم عليه السلام بعدَه مائة سنة لَم يضحك قَط[٣]، فلمّا جَزِع عليه شكا ذلك إلىٰ الله، فأوحىٰ الله إليه: يا آدم، إنّي واهِب لك ذكَراً يكون خَلَفاً مِن هابيل، فولدَتْ حَوّاء غُلاماً زكيّاً مُباركاً، فلمّا كان اليوم السابع، أوحىٰ الله إليه: يا آدم، إن هذا الغُلام هِبة مِنّي لك، فسمّه هِبة الله، فسمّاه هبة الله[٤].

وقيل: لمّا هبَط آدم إلىٰ الأرض تفكّر في ما أكل فاستقاء[٥]، فنبتت شجرةُ السُّمّ مِن قيئه، فأكلت الحَيّة ذلك السُّمّ، ولذا صارت مُؤذية مُهلكة، وكان [قد] بقي شيءٌ مِمّا أكل، فلمّا غَشِي حَوّاء حصَل قابيل، ولذا كان قاتلاً باعثاً للفَساد في وَجْه الأرض[٦].

رُوي أنّه قال طاوُسُ اليَماني لأبي جعفر عليه السلام: هل تعلم أيّ يـومٍ مـات ثُـلث النّاس؟ فـقال: «يـا عبدالله[٧]، لَم يمُت ثُلثُ النّاس قَطّ، إنّما أردتَ رُبْع النّاس»، قال: وكيف ذلك؟ قال: «كان آدم وحَوّاء وقابيل وهابيل، [فقتل قابيل هابيل] فذلك رُبع [الناس]»، قال: صدَقتَ[٨].

أقول: هذا مُنافٍ لِما دَلّ علىٰ أنّ لكُلٍّ مِنهما توأمه، ومُؤيّدٌ لِما دَلّ علىٰ أنّ نِزاعهما كان في الوَصيّة.

فَبَعَثَ ٱللهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَاوَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّادِمِينَ[٣١]

ثمّ قيل: إنّه لمّا قتَل قابيلُ هابيلَ ترَكه بالعَراء، ولم يدْرِ ما يصنع به؛ لأنه كان أوّل ميّتٍ علىٰ وَجْه الأرض مِن بني آدم، فخاف عليه السِّباع فحمَله في جِراب علىٰ ظهره أربعين يوماً ـ أو سنة ـ حتىٰ أروَح[٩]، وعكَفت عليه الطُّيور والسِّباع تنظُر متى يرمي به فتأكُله[١٠].

١. إكمال الدين: ٢/٢١٤، تفسير الصافي ٢: ٢٨، وفيهما: أربعين ليلة.
٢. تفسير القمي ١: ١٦٦، تفسير الصافي ٢: ٢٩.
٣. تفسير الرازي ١١: ٢٠٨، تفسير أبي السعود ٣: ٢٩.
٤. تفسير القمي ١: ١٦٦، تفسير الصافي ٢: ٢٩.
٥. استقاء: تقيّأ.
٦. تفسير روح البيان ٢: ٣٨٠.
٧. في الاحتجاج: يا أبا عبدالرحمن.
٨. الاحتجاج: ٣٢٦، تفسير الصافي ٢: ٣٠.
٩. أروح، بمعنى أنتَنَ وظهرت ريحه.
١٠. تفسير روح البيان ٢: ٣٨١.

﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ﴾ وأرسل ﴿غُرَابًا﴾ وهُو ﴿يَبْحَثُ﴾ ويحفِر ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ حُفرة ﴿لِيُرِيَهُۥ﴾ الله، أو الغُراب ﴿كَيْفَ يُوَارِى﴾ ويستُر مِن السِّباع ﴿سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ وجِيفته أو عَورته؛ لأنّه كان قد سلَب ثِيابه.

قيل: إنّ الله بعَث غُرابين فاقْتتلا، فقتل أحدهما الآخر، فحفَر [له] بمِنقاره ورِجْليه حُفْرةً فألقاه فيها ووَاراه، وقابيل ينظُر إليه[1].

فلمّا تعلّم الدَّفْن ﴿قَالَ﴾ تلهُّفاً وتحسُّراً: ﴿يَا وَيْلَتَىٰ﴾ احْضِري فهذا أوانُك ﴿أَعَجَزْتُ﴾ مع عَقلي وفَطانتي ﴿أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ﴾ البَهم، ولا أهتدي إلىٰ ما اهتدىٰ إليه مِن مُواراة قَتيله ﴿فَأُوَارِىَ﴾ واستُر بالتُّراب ﴿سَوْءَةَ أَخِى﴾ وجِيفته ﴿فَأَصْبَحَ﴾ قابيل إذَن ﴿مِنَ ٱلنَّادِمِينَ﴾ علىٰ قَتل هابيل، حيثُ صار سبباً لكُلفته، لتحمّله علىٰ رَقبته مُدّة طويلة، وتحيُّره في أمره، أو لِمَا رأىٰ أنّ الله أكرمه بعد مَوته ببَعْث الغُراب.

قيل: إنّ الغُراب حثا التُّراب علىٰ هابيل، ومِن عادة الغُراب دَفن الأشياء[2].

رُوي أنّه لمّا قتل أخاه رجَفت الأرض سبعة أيام بما عليها، ثمّ شرِبت الأرض دَم هابيل كشُرب الماء، فحرّم الله تعالىٰ علىٰ الأرض يومئذٍ أن تشرَب دَماً بعده أبداً[3].

قيل: إنّ السِّباع والوُحوش كانت تستأنس قبل ذلك، فلمّا قتَل قابيلُ هابيلَ نفروا، فلحِقت الطُّيور بالهَواء والوُحوش بالبَريّة والسِّباع بالغِياض، وآشْتاك الشّجر، وتغيّرت الأطعمة وحمُضت الفَواكه، وأمرّ الماء، وأغبرّت الأرض[4].

في حزن آدم علىٰ هابيل ورثائه له

ورثىٰ آدمُ عليه السلام هابيلَ وأنشأ يقول:

تـغيّرت البِلاد ومَـن عـليها ... فـوَجْهُ الأرض مُـغبَرٌّ قَـبيح

تـغيّر كُـلّ ذي لَـونٍ وطَـعْم ... وقَلّ بَشاشةُ الوَجْه الصَّبيح[5]

وعن ابن عبّاس رضي الله عنه: مَن قال إنّ آدم قال شِعراً فقد كذَب، إنّ محمّداً صلى الله عليه وآله والأنبياء كُلّهم في النّهي عن الشِّعر سَواء، ولكن لمّا قتَل قابيلُ هابيلَ رَثاه آدم، وهُو سُرياني، فلمّا قال آدم مَرثيّة قال لشِيث: يا بُني إنّك وصيِّي، احْفَظ هذا الكلام ليُتوارث فيرِقّ النّاس عليه، فلَم يزل يُنقَل حتّىٰ وصَل إلىٰ يَعرُب بن قَحطان وكان يتكلّم بالعربيّة والسُّريانية، وهُو أول مَن خَطّ بالعربيّة، وكان يقول الشِّعر، فنظَر في المَرثيّة فردّ المُقدّم إلىٰ المُؤخّر والمُؤخّر إلىٰ المُقدّم، فوزنه شِعراً، وزِيد فيه أبيات[6].

---

١. تفسير الرازي ١١: ٢٠٩، تفسير روح البيان ٢: ٣٨١.
٢. تفسير الرازي ١١: ٢٠٩.
٣. تفسير روح البيان ٢: ٣٨١.
٤. تفسير روح البيان ٢: ٣٨١.
٥. تفسير روح البيان ٢: ٣٨١، خزانة الأدب ١١: ٣٧٧.
٦. تفسير روح البيان ٢: ٣٨١.

ورُوي عن أنس أنّه سُئل النبيّ ﷺ عن يوم الثلاثاء، فقال: «يوم الدَّم، فيه حاضت حَوّاء، وفيه قُتل ابنُ آدم»[١].

وقيل: إنّ قابيل ذهب طَريداً شَريداً فَزِعاً مَرعُوباً لا يأمَن مَن يراه، فأخذ بيد اُخته إقليما وهرَب بها إلىٰ عدَن مِن أرض اليمَن، فأتاه إبليس فقال له: إنّما اُكلت النّار قُربان هابيل لأنّه كان يعبُد النّار، فالتهب[٢] أنت أيضاً ناراً تكون لك ولعَقِبك، فبنىٰ بيتَ النّار، وهُو أوّل مَن عبدَ النّار، وكان لا يمُرّ بأحدٍ إلّا رَماه، فأقبل ابنٌ له أعمىٰ ومعَه ابن له، فقال للأعمىٰ ابنه: هذا أبوك قابيل، فرمىٰ الأعمى أباه بحِجارة فقتله، فقال ابن الأعمىٰ: قتلتَ أباك، فرفع يَده فلطَم ابنَه فمات، فقال الأعمىٰ: وَيلٌ لي قتلتُ أبي برَميتي، و [قتلت] ابني بلَطمتي.

قال مجاهد: فعُقِلت إحدىٰ رِجْلي قابيل إلىٰ فَخِذها وساقها، وعُلّقت مِن يومئذٍ إلىٰ يوم القِيامة، وَجْهه إلىٰ الشّمس حيثُما دارت عليه، في الصيف حَظيرة مِن نار [وفي الشتاء حظيرة من ثلج][٣].

وروي أنّه لا تُقتل نُفسٌ ظُلماً إلّا كان علىٰ ابن آدم الأوّل كِفْل مِن دَمها؛ لأنّه أوّل مَن سَنّ القتل[٤]، وهُو أبو[٥] يأجوج ومأجوج شَرّ أولاد توالدوا مِن شَرّ والد[٦].

قيل: اتّخذ أولاد قابيل آلات اللّهو، وانهمكوا فيه وفي شِرب الخَمْر، وعِبادة النّار والزّنا والفَواحش، حتّىٰ غرّقهم الله بالطُّوفان أيّام نُوح، وبقي نَسْل شِيث[٧].

وقيل: لمّا ذهب قابيل إلىٰ اليمن كثُروا وطفِقوا يتحاربون مع سائر أولاد آدم إلىٰ زمن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شِيث، ففرّقهم مهلائيل إلىٰ أقطار الأرض، وسكَن هُو في أرض بابل، وكان كيومرث أخاه الصَّغير، وهُو أوّل السّلاطين في العالَم، فأخذوا يبنون المُدن والحُصون، واستمرّت الحَرب بينهم إلىٰ آخر الزّمان[٨].

مِن أَجْلِ ذٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِى إِسْرَاءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعاً وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِنْهُم بَعْدَ ذٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ[٣٢]

---

١. تفسير روح البيان ٢: ٣٨٢.
٢. في تفسير روح البيان: فانصب.
٣. تفسير روح البيان ٢: ٣٨٢.
٤. تفسير الرازي ١١: ٢٠٨، تفسير روح البيان ٢: ٣٨٢.
٥. في النسخة والمصدر: أب.
٦. تفسير روح البيان ٢: ٣٨٢.
٧ و٨. تفسير روح البيان ٢: ٣٨٢.

ثمّ لمّا بيّن سُبحانه غاية فَضاحة أمر القَتل، وكَونه مُوجباً لخُسران الدُّنيا والآخرة، ذكَر أنّ ﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ﴾ الخُسران المُبين في قَتْل النَفس وبعِلّة هذه الفَضاعة الشّديدة فيه شدّدْنا أمره في شَرْع مُوسى، و﴿كَتَبۡنَا﴾ في اللّوح المَحفوظ، وفي التّوراة، وقضَينا ﴿عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ وسائر اُمّة مُوسى ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا﴾ واحِدة ﴿بِغَيۡرِ﴾ عِلّة قِصاص ﴿نَفۡسٍ أَوۡ﴾ بغير ﴿فَسَادٖ﴾ ظاهِر مِن المَقتول ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ المُوجب لاستِحقاقه القَتل وإهْدار دَمه، كالشِّرْك والارْتِداد، أو قطع الطَّريق وغير ذلك مِن أسبابه ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ﴾ عَمْداً وعُدواناً ﴿ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا﴾ في اسْتِجلاب غَضب الله والعَذاب العظيم، لا في مِقدارهما، علىٰ ما قيل[١].

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ المُبالغة في تَعظيم قَتل النَفس وإتلافها بغير حَقّ، بالغ في تأكُّد وُجوب حِفْظها عن التَلَف بقوله: ﴿وَمَنۡ أَحۡيَاهَا﴾ بحِفظها عن الهَلاك والتّلَف بالعَفْو عن القِصاص، أو مَنْعها عن أن تُقتل بغير الحَقّ، أو اسْتِنقاذها مِن المَهالك ﴿فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا﴾.

عن الصادق عليه السلام: «وادٍ في جهنّم لَو قَتل النّاسَ جميعاً كان فيه، ولَو قتَل نفساً واحدة كان فيه»[٢].

وعن الباقر عليه السلام: «يُوضع في مَوضع مِن جهنّم إليه ينتهي شِدّةُ عذاب أهلها، لَو قَتل النّاسَ جميعاً إنّما كان يدخُل ذلك المكان»، قيل: فإن قتل آخر؟ قال: «يُضاعف [عليه]»[٣].

وفي روايةٍ: «له في النّار مَقعد لَو قتَل الناسَ جميعاً لَم يزدَدْ علىٰ[٤] ذلك المَقعد»[٥].

القُمّي: قال: مَن أنقذها مِن حَرْق أو غَرَق أو هَدْم أو سَبُع، أو كَفَله حتّى يستغني، أو أخرجه مِن فَقْر إلى غِنىً، وأفضل مِن ذلك مَن أخرجها مِن ضَلال إلىٰ هُدى[٦].

وعنهما عليهما السلام: «مَن أخرجها مِن ضَلال [إلى هدى] فكأنّما أحياها، ومَن أخرجها مِن هُدىً إلىٰ ضَلال فقد قتلها»[٧].

وفي روايةٍ: «فمَن أخرجها مِن ضَلالٍ إلىٰ هُدى، قال: ذلك تأويلها [الأعظم]»[٨].

وعن الصادق عليه السلام، قال: «تأويلها الأعظم أن دعاها فاسْتجابت له»[٩].

ثمّ أخذ في تَوبيخ بني إسرائيل علىٰ سَفْكهم الدِّماء بعدَ هذه التّشديدات بقوله: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ﴾

---

١. تفسير البيضاوي ١: ٢٦٤، تفسير روح البيان ٢: ٣٨٤.

٢. تفسير العياشي ٢: ١٢٤٦/٣٧.

٣. الكافي ٧: ١/٢٧١.

٤. في الكافي: لم يرد إلّا إلى.

٥. الكافي ٧: ٦/٢٧٢، تفسير الصافي ٢: ٣٠.

٦. تفسير القمي ١: ١٦٧، تفسير الصافي ٢: ٣٠.

٧. تفسير العياشي ٢: ١٢٤٥/٣٧، تفسير الصافي ٢: ٣١، عن الصادق عليه السلام.

٨. الكافي ٢: ٢/١٦٨، تفسير الصافي ٢: ٣١.

٩. الكافي ٢: ٣/١٦٨، تفسير الصافي ٢: ٣١.

لتقرير ماكتَبْنا عليهم ﴿رُسُلُنَا﴾ حَسْب ما أرسلناهم ﴿بِالبَيِّنَاتِ﴾ والآيات الواضحات ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِنْهُم بَعْدَ ذٰلِكَ﴾ التأكيد والتّشديد في أمر القَتل ومجيء الرُّسُل بتقْريره ﴿فِى الأَرضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ في القَتل غير مُبالين بعَظَمته حتّىٰ قتلوا الأنبياء.

إِنَّمَا جَزَاؤُا ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَاداً أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ ٱلْأَرْضِ ذٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ[٣٣]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ الإشارة إلىٰ جَواز قَتل المفسدين، صرّح بإباحته، بَل وُجوبه بقوله: ﴿إِنَّمَا جَزَاؤُا ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللهَ وَرَسُولَهُ﴾ بمُحاربة أوليائهما مِن المُسلمين.

عن الباقر عليه السلام: «مَن حمَل السّلاح باللّيل فهُو مُحارب إلّا أن يكون رَجُلاً ليس مِن أهـل الرِّيـبة»[١] ﴿وَيَسْعَوْنَ﴾ ويمشون ﴿فِى ٱلأَرْضِ﴾ لأجل أن يعمَلوا ﴿فَسَاداً﴾ في أموال المُسلمين، أو أنفسهم كالنَّهب والغارة والقَتل ﴿أَن يُقَتَّلُوا﴾ بأن تُضرَب أعناقُهم بالسّيف؛ إن قَتَلُوا ﴿أَوْ يُصَلَّبُوا﴾ ويُقتلوا بالصَّلْب، أو يُقتلوا ثمّ يُصلبوا؛ إنْ قَتَلُوا نفساً وأخذوا مالاً ﴿أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ﴾ مِن مَفْصِل الأصابع الأربع، ويُترك الرّاحة والإبهام ﴿وَأَرْجُلُهُم﴾ ولكِن بنحوٍ يبقىٰ العَقِب، إنْ اقْتصروا علىٰ أخذ المال، ولكن لابُدّ أن يكون القَطع ﴿مِنْ خِلَافٍ﴾ بأن تُقطَع اليدُ اليُمنىٰ أوّلاً، ثمّ تُقطَع الرِّجْل اليُسرىٰ ثانياً ﴿أَوْ يُنفَوْا مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ التي يسكُنها إلىٰ مِصْرٍ آخر؛ إن أخافوا السّبيل.

ثمّ نبّه الله سُبحانه على عدَم انحِصار عُقوبتهم بتِلك العُقوبات الدُّنيويّة بقوله: ﴿ذٰلِكَ﴾ الحَدّ المُقرّر في الشّرع ﴿لَهُمْ خِزْىٌ﴾ وفضيحة ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ﴾ مُضافاً إلىٰ ذلك ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وعِقاب شَديد لا يُقادَر قَدرُه.

في غدر قوم من بني ضبة بالرسول صلى الله عليه وآله

عن الصادق عليه السلام: «قدِم علىٰ رَسُول الله صلى الله عليه وآله قومٌ مِن بني ضَبّة مرضى، فقال لهم رَسُول الله صلى الله عليه وآله: أقيموا عندي فإذا بَرئتُم بعثتُكم في سَريّة. فقالوا: أخرِجنا مِن المدينة، فبعث بهم إلىٰ إبل الصَّدَقة يشرَبون مِن أبوالها ويأكُلون مِن ألبانها، فلمّا برِئوا واشْتدّوا قتلوا ثلاثةً مِمّن كانوا في الإبل وساقوا الإبل، فبلغ رَسُول الله صلى الله عليه وآله الخبر، فبعث إليهم عليّاً عليه السلام وهُم في وادٍ قد تحيّروا، ليسَ يقدِرون أن يخرُجوا مِنه قريباً مِن أرض اليَمن، فأسَرهم وجاء بهم إلىٰ رَسُول الله صلى الله عليه وآله، فنزلت هذه الآية، فاخْتار رَسُول الله صلى الله عليه وآله القَطع، فقطَع أيديهم وأرجلهم مِن

---

١. الكافي ٧: ٦/٢٤٦، تفسير الصافي ٢: ٣٢.

خِلاف»[١].

وفي روايةٍ: «أنّها نزلت في قوم هِلال بن عُويمر الأسلمي، وكان وَادعه رَسول الله ﷺ علىٰ أن لا يُعينه ولا يُعين عليه، ومَن أتاه مِن المُسلمين فهُو آمِن لا يُهاج، ومَن مَرّ بهِلال إلىٰ رَسُول الله ﷺ [فهو آمن] لا يُهاج، فمرّ قومٌ مِن بني كِنانة يُريدون الإسلام بناسٍ مِن قوم هِلال، ولَم يكُن هِلال يومئذٍ حاضراً، فقطعوا عليهم وقتلوهم وأخذوا أموالهم»[٢].

في الصّحيح عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «مَن شهَر السّلاح في مِصر مِن الأمصار فعقَر؛ اقتُصّ مِنه ونُفي مِن تِلك البلد، ومَن شهَر السّلاح في غير مِصر مِن الأمصار وضرَب وعقَر وأخذ المال ولَم يقتُل فهُو مُحارب، فجزاؤه جَزاء المُحارب وأمره إلىٰ الإمام إن شاء قتله، و[إن شاء] صلبه، وإن شاء قطَع يدَه ورِجْله. قال: وإن ضرَب وقتَل وأخذ المال، فعلىٰ الإمام أن يقطَع يدَه اليُمنىٰ بالسّرقة، ثـمّ يدفعه إلىٰ أولياء المَقتول فيتّبعونه بالمال ثمّ يقتُلونه».

قال: فقال له أبو عبيدة: أرأيت إنْ عفا عنه أولياءُ المقتول؟

قال: فقال أبو جعفر عليه السلام: «إنْ عفَوا عنه كان علىٰ الإمام أن يقتُله؛ لأنّه قد حَارب وقَتل وسَرق».

قال: فقال أبو عبيدة: أرايتَ إن أراد أولياء المقتول أن يأخذوا مِنه الدِّية ويدعونه، ألَهُم ذلك؟ قال[٣]: «عليه القتل»[٤].

وعن جميل بن درّاج في الصّحيح، قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿**إِنَّمَا جَزَاؤُا الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم**﴾ إلىٰ آخر الآية، [فقلت:] أيّ شيءٍ عليهم مِن هذه الحُدود التي سمّىٰ الله عزّ وجل؟ قال: «ذلك إلىٰ الإمام إن شاء قطَع، وإن شاء نفىٰ، وإن شاء صَلَب، وإن شاء قتَل».

قلتُ: النّفي إلىٰ أين؟ قال: «مِن مِصْرٍ إلى مِصْر آخر» ـ وقال: ـ «إنّ علياً نفىٰ رَجُلين مِن الكُوفة إلىٰ البَصرة»[٥].

وعن عبيد الله المدائني، عن أبي الحسن الرضا عليه السلام، قال: سُئل عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿**إِنَّمَا جَزَاؤُا الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ**﴾ الآية، فما الذي إذا فعله استوجب واحدة مِن هذه الأربع؟ فقال: «إذا حارب الله ورَسُوله وسعىٰ في الأرض [فساداً] فقتَل قُتل به، وإن قتَل وأخذ المال قُتل وصُلب، وإن

---

١. تفسير العياشي ٢: ١٢٥٠/٣٩، الكافي ٧: ١/٢٤٥، تفسير الصافي ٢: ٣١.
٢. تفسير أبي السعود ٣: ٣١، تفسير روح البيان ٢: ٣٨٥.
٣. زاد في الكافي: فقال: لا.
٤. الكافي ٧: ١٢/٢٤٨.
٥. الكافي ٧: ٣/٢٤٥.

أخذ المال ولَم يقتُل قُطِعت يدُه ورِجلُه مِن خِلاف، وإن شهَر السَّيف وحارب الله ورَسُوله وسعىٰ في الأرض فساداً ولَم يقتُل ولَم يأخُذ المال نُفي مِن الأرض»[١].

وعن أحمد بن الفَضل الخاقاني مِن آل رَزين، قال: قُطِع الطريق بجَلولاء علىٰ السابلة مِن الحاجّ وغيرهم، وأفلت القُطّاع ـ إلىٰ أن قال: ـ وطلبهم العامِل حتى ظَفِر بهم، ثمّ كتب بذلك إلىٰ المُعتصم، فجمع الفُقهاء وابن أبي دؤاد، ثمّ سأل الآخرين عن الحُكم فيهم، وأبو جعفر محمّد بن عليّ الرضا عليه السلام حاضر، فقالوا: قد سبق حُكم الله فيهم في قوله: **﴿إِنَّمَا جَزَاؤُا ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَاداً أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾** ولأمير المُؤمنين أن يحكُم بأيّ ذلك شاء فيهم.

قال: فالتفتَ إلىٰ أبي جعفر وقال: [ما تقول فيما أجابوا فيه؟ فقال: «قد تكلّم هؤلاء الفقهاء والقاضي بما سمِع أمير المؤمنين» قال: و] أخبرني بما عندك؟ قال: «إنّهم قد أضلّوا في ما أفتَوا به، والذي يجب في ذلك أن ينظُر أمير المُؤمنين في هؤلاء الّذين قطَعوا الطّريق، فإنْ كانوا أخافوا السَّبيل فقط ولَم يقتُلوا أحداً ولَم يأخذوا مالاً، أمر بإيداعهم الحَبْس، فإنّ ذلك معنىٰ نَفيهم مِن الأرض بإخافتهم السّبيل، وإنْ كانوا أخافوا السّبيل وقَتلوا النّفس أمر بقَتْلهم، وإنْ كانوا أخافوا السّبيل وقَتلوا النّفس وأخذوا المال، أمر بقَطع أيديَهم وأرجُلهم مِن خِلاف وصلَبهم بعد ذلك». فكتب إلىٰ العامل بأن يمتثل ذلك فيهم[٢].

أقول: الظّاهر أنّ هذا التّفصيل هُو المُراد مِن خبر بُرَيد بن معاوية، قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: **﴿إِنَّمَا جَزَاؤُا ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللهَ وَرَسُولَهُ﴾**؟ قال: «ذلك إلىٰ الإمام يفعل ما يشاء». قلتُ: فمُفوّض ذلك إليه؟ قال: «لا، ولكن نَحو الجِناية»[٣]. وفي رِوايةٍ: «ولكن بحَق الجِناية»[٤].

وفي اُخرىٰ: «ولكنّه يصنع [بهم] علىٰ قَدْر جِناياتهم»[٥].

ثمّ أنّه اختلَف الأصحاب وغيرهم لاختِلاف الأخبار، فمِنهم مَن قال بالتّخيير لصِحة أخباره، ومُوافقتها لظاهر الكِتاب الكريم، وضَعْف أخبار التّرتيب، ومِنهم مَن قال بالتّرتيب لاستِفاضة رِواياته، وانْجِبارها بالشُّهرة والإجماع المَنقولين، ومُوافقتها الاعتِبار، ومُخالفتها لأكثر العامّة، كما تُومئ إليه بعضُ النُّصوص.

---

١. تفسير العياشي ٢: ١٢٥٨/٤٢، الكافي ٧: ٨/٢٤٦، تفسير الصافي ٢: ٣.
٢. تفسير العياشي ٢: ١٢٥١/٣٩.
٣. تفسير العياشي ٢: ١٢٥٢/٤١، الكافي ٧: ٥/٢٤٦.
٤. تفسير العياشي ٢: ١٢٥٢/٤١.
٥. الكافي ٧: ١١/٢٤٧، تفسير الصافي ٢: ٣٢.

في الجمع بين أخبار حدّ المحارب

ويُمكِن الجَمع بين الأخبار بحَمل أخبار التَرتيب علىٰ رُجحان رِعاية قَدْر الجِناية، وصَلاح الوقت، وخُصوصيّات حال الجاني، وغير ذلك مِن المُرجِّحات، كما دَلّ عليه الخبَر الوارد في شأن النُّزول مِن قوله ﷺ: «فاختار الرَسُول القطع»[١].

واختِلاف الأخبار في كَيفيّة التَرتيب، وإن اتّفقت علىٰ تَعيُّن النَفي للإخافة المُجرّدة عن القَتْل وأخذ المال، وإن اختلفت في المُراد مِن النَفي، ففي بعضها فُسّر بالإيداع في الحَبْس، وفي آخر بالغرق في البحر، ولكنّ المَشهور فَتوىً ونصّاً هُو النَفي مِن مِصرٍ إلىٰ مِصر، ويُمكن حَمْل الأوّل علىٰ مَن لا يُؤمَن فسادُه بتَبعيده إلىٰ أرضٍ أُخرىٰ.

ثمّ لا فَرق في الحُكم بيْن الذَكر والأُنثىٰ إذا تحقّقت الإخافة، وتَجريد السِّلاح بقَصْدها، بَل قال بعضٌ بعدَم اعتِبار تحقُّق الإخافة، كما إذا كان مَن جرّد السِّلاح ضعيفاً في الأنظار، تمسُّكاً بإطلاق الأدلّة، كإطلاقها لِما إذا كان في بَرٍّ أو بَحر، أو مِصْر، أو ليل أو نهار.

إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ ٱللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ[٣٤]

ثمّ استثنىٰ سُبحانه مِن عُموم الحُكم بالجَزاء التّائبين بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا﴾ إلىٰ الله مِن مُحاربته وإخافته المُؤمنين وإفساده في الأرض ﴿مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا﴾ وتستولوا ﴿عَلَيْهِمْ﴾ فإنّه يسقُط عنه الحَدّ الذي هُو حَقّ الله دُون حُقوق النّاس مِن الضَمان والقِصاص للإشعار به بقوله: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ ٱللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، وعدَم ثُبوت مُخصِّص لأدلّة القِصاص والضَمان.

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللهَ وَٱبْتَغُوا إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِى سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ[٣٥]

ثمّ لمّا كان الدّاعي إلىٰ مُحاربة المُؤمنين والسّعي في الفَساد حُبّ المال والمَنافع الدُّنيويّة، أرشد النّاس بعدَ زَجْرهم عنه إلىٰ عمَلٍ فيه جميع الخَيرات الدُّنيويّة والأُخرويّة بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ إن كُنتُم تطلُبون خيرَ الدُّنيا ونَفعها، فلا تطلُبوه بالإفساد في الأرض وقَطع الطُرُق، بَل ﴿ٱتَّقُوا ٱللهَ﴾ واحترزوا عن مُخالفة أحكامه ﴿وَٱبْتَغُوا﴾ لأنفسكم ﴿إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ واطلُبوا القربة مِنه بالأعمال الصّالحة والانْقِياد والطّاعة.

---

١. الكافي ٧: ١/٢٤٥، تفسير العياشي ٢: ١٢٥٠/٣٩، تفسير الصافي ٢: ٣١.

القُمّي: «تقرّبوا إليه بالإمام»[١].

ثمّ خصّ الجِهاد بالذِّكر بقوله: ﴿وَجَاهِدُوا فِى سَبِيلِهِ﴾ لغاية الاهتِمام به ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وتفوزون بخَير الدُّنيا والآخرة.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ[٣٦]

ثمّ أشار سُبحانه إلىٰ أنّ المال لا ينفَع صاحِبه في الآخرة معَ الكُفْر والعِصيان، بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مِن أموالها وخَزائنها وزَخارفها ﴿جَمِيعاً﴾ وكُلّاً ﴿وَمِثْلَهُ﴾ وضِعْفه ﴿مَعَهُ﴾ فرضاً، ثمّ جاءوا بذلك ﴿لِيَفْتَدُوا بِهِ﴾ أنفسهم ويُخلّصوها ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ﴾ وعُقوبات عَقائدهم الفاسدة وأعمالهم السَّيِّئة ﴿مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ﴾ تِلك الفِدْية ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يخلُص ألمُه إلىٰ قلُوبهم.

قيل: إنّ الجُملة تمثيل [للزوم العذاب لهم و] اسْتِحالة نَجاتهم مِن العَذاب بوَجْهٍ مِن الوجُوه المُحقّقة والمَفروضة[٢].

عن النبيّ ﷺ: «يُجاء بالكافر يومَ القِيامة فيُقال له: أرأيت لَو كان [لك] مِلءُ الأرض ذهباً، أكنتَ تفتدي به؟ فيقول: نعَم، فيُقال له: إنّك كُنتَ سُئِلت ما هُو أيسر مِن ذلك»[٣].

عن العيّاشي عنهما عليهما السلام: «أنّهم أعداء عليّ عليه السلام»[٤].

يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ[٣٧]

ثمّ أكّد سُبحانه امْتِناع خَلاصهم بقوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ ٱلنَّارِ﴾ ويتمنَّون الخَلاص مِنها، قيل: إذا رفَعهم لَهبُ النّار إلىٰ فَوق فهُناك يتمنّون الخُروج ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ﴾ وناجين ﴿مِنْهَا﴾ ومِن شَدائدها ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ ثابت عليهم لا يزول أبداً. وفي تَخصيص الخُلود في النّار بالكُفّار دَلالة علىٰ عدَم الخُلود للعُصاة مِن أهل الإيمان.

وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ ٱللهِ وَٱللهُ عَزِيزٌ

---

١. تفسير القمي ١: ١٦٨، تفسير الصافي ٢: ٣٣. ٢. تفسير روح البيان ٢: ٣٨٩.

٣. تفسير الرازي ١١: ٢٢١، تفسير روح البيان ٢: ٣٨٩.

٤. تفسير العياشي ٢: ١٢٦٠/٤٣ و١٢٦١، تفسير الصافي ٢: ٣٣.

حَكِيمٌ[٣٨]

في بيان حدّ السارق

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ بَيان حَدّ مَن أخذ أموال النّاس بالمُحاربة وقَطع الطَّريق، بيّن حَدّ أخذ أموالهم خُفيةً بقوله: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ﴾ حدّهما الثّابت في الكِتاب أنّه إذا قدِرتُم عليهما ﴿فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾.

سُئل الصادق عليه السلام، في كَم يُقطع السّارق؟ قال: «في رُبْع دِينار، بلَغ الدِّينار ما بلغ»،

قيل: أرأيت مَن سرَق أقلّ مِن رُبع دِينار، هَل يقع عليه حينَ سرَق اسْم السّارق، وهَل هُو عنَد الله سارق في تِلك الحال؟ فقال: «كُلّ مَن سرَق مِن مُسلم شيئاً قد حَواه وأحرزه، فهُو يقع عليه اسْم السّارق، و[هو] عندَ الله سارق، ولكن لا يُقطع إلّا في رُبْع دِينار أو أكثر، ولو قُطعت أيدي السُّرّاق في ما هُو أقلّ مِن رُبْع دِينار لألفيتَ عامّة النّاس مُقطّعين»[1].

وعنه عليه السلام: «القطع مِن وسَط الكَفّ، ولا يُقطع الإبهام»[2].

وفي رواية: «يقطع أربع أصابع ويُترك الإبهام، يعتمِد عليها في الصلاة ويغسِل بها وَجْهه [للصلاة]»[3].

وعن أمير المُؤمنين عليه السلام، أنّه كان إذا قطَع السّارق ترك له الإبهام والرّاحة، فقيل له: يا أمير المُؤمنين، تركتَ عامّة يدَه؟ فقال: «فإنْ تاب فبأيّ شيءٍ يتوضّأ، يقول الله ﴿فَمَن تَابَ...﴾»[4] الخبر.

ثمّ علّل الحُكم بقَطع اليَد بقوله: ﴿جَزَاءً﴾ مِن الله لهما ﴿بِمَا كَسَبَا﴾ مِن الخِيانة ومُكافأةً لهما علىٰ ما فَعلا مِن السّرقة، و﴿نَكَالاً﴾ وعُقوبة ﴿مِنَ ٱللهِ﴾ رادعةً لهما عن العَود، ولغيرهما مِن الجُرأة علىٰ مِثْل عمَلهما ﴿وَٱللهُ عَزِيزٌ﴾ وغالب علىٰ أمره، يُمضيه كيف يشاء ﴿حَكِيمٌ﴾ في شَرائعه يحكم بما يقتَضيه الصّلاح.

في الاستدلال علىٰ وجوب نصب الامام

ثمّ اعْلَم أنّ المُتكلّمين اسْتدلّوا بالآية علىٰ وُجوب نَصْب الإمام، بتقريب أنّها دالّة علىٰ وجُوب إقامة الحَدّ، وقد أجمعت الأمّة علىٰ أنّها للإمام خاصّة دُون الرّعيّة، فوجب وجُود الإمام، وإلّا يلزَم وجُود التّكليف والخِطاب بدُون المُكلّف والمُخاطب؛ وهو مُحال إنّما الاختلاف بيْننا وبيْن العامّة في أنّ نَصب الإمام هَل هُو واجب على الرّعيّة، أو علىٰ الله؟ والعامّة قائلون بالأوّل، والخاصّة بالثّاني، لاشْتِراطها عندهم بشَرائط لا يطّلِع عليها

---

١. الكافي ٧: ٦/٢٢١، تفسير الصافي ٢: ٣٣.
٢. الكافي ٧: ٢/٢٢٢، تفسير الصافي ٢: ٣٤.
٣. الكافي ٧: ١٧/٢٢٥، تفسير الصافي ٢: ٣٤.
٤. تفسير العياشي ٢: ١٢٦٣/٤٤، تفسير الصافي ٢: ٣٤.

إلّا الله، ولأنّها عَهد الله كما قال سُبحانه: ﴿لا يَنالُ عَهدي الظّالمين﴾[١]. ومِن المَعلوم أنّه لا يُمكِن أن يكون بيَد غيرِه تعالىٰ حتّىٰ النبيّ.

فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ[٣٩]

ثمّ أنّه بعدَ إظهار الغضَب علىٰ السّارق بحُكْمه بقَطع يَده، أعلن بسَعَة رَحمته بقوله: ﴿فَمَن تَابَ﴾ مِن السُّرّاق إلىٰ الله وندِم مِن فِعله الشّنيع ﴿مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ﴾ علىٰ نفسه بالمَعصية، وعلىٰ غيره بسَرقة ماله ﴿وَأَصْلَحَ﴾ نِيّته في التّوبة، وعَمله برَدّ المال ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ بسَعَة رَحمته ﴿يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾ ويعفو عنه، فلا يُعذّبه بالقَطع في الدُّنيا وبالنّار في الآخرة إذا كانت تَوبتُه قَبل الظَّفَر، وبالنّار فقَط إن كانت بعدَه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ بالتّائبين مِن المُؤمنين.

في (الكافي): عن أحدهما عليهما السلام، في رَجُلٍ سرق أو شرِب الخمر أو زنىٰ، فلَم يُعلم ذلك مِنه، ولَم يُؤخذ حتّىٰ تاب وصلُح، [فقال: «إذا صلُح] وعُرف مِنه أمرٌ جميل لَم يُقَم عليه الحَدّ»[٢].

وعن الصادق عليه السلام: «مَن أخذ سارقاً فعفا عنه فذاك له، فإذا رُفع إلى الإمام قطَعه، فإن قال الذي سرق مِنه: أنا أهَبُ له؛ لَم يدَعْه الإمام حتّىٰ يقطعه إذا رفعه إليه، وإنّما الهِبة قبل أن يُرفع إلىٰ الإمام، وذلك قول الله: ﴿وَالحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ﴾[٣]، فإذا انتهىٰ الحَدّ إلىٰ الإمام فليس لأحدٍ أن يترُكه»[٤].

وعنه عليه السلام، أنّه سُئل عن الرّجُل يأخذ اللِّصّ يرفعه أو يترُكه؟ فقال: «إنّ صَفوان بن أُميّة كان مُضطجعاً في المَسجد الحَرام، فوضع رِداءه وخرج يُهريق الماء، فوجد رِداءه قد سُرق حينَ رجَع إليه، فقال: مَن ذهَب بِردائي؟ فذهب يطلُبه، فأخذ صاحبه فرفَعه إلىٰ النبيّ صلّى الله عليه وآله، فقال [النبيّ]: اقْطعوا يدَه، فقال صَفوان: تقطع يدَه مِن أجل رِدائي يا رَسُول الله؟ قال: نعَم، قال: فإنّي أهبُه له، فقال رَسُول الله صلّى الله عليه وآله: فهَلّا كان هذا قبل أن ترفَعه إليّ» قيل: فالإمام بمَنزلته إذا رُفع إليه؟ قال: «نعَم»[٥].

أقول: لأجل تِلك الرِّوايات ذهَب أصحابُنا إلى اشْتِراط القَطع بمُطالبة المَسروق مِنه، ورَفْعه السّارق إلىٰ الإمام، فإنْ عفا عنه قَبلَ الرّفع سقَط الحَدّ. وقد ادّعىٰ بعضُ الأصحاب عدَم الخِلاف فيه.

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُ مُلْكُ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ[٤٠]

---

١. البقرة: ١٢٤/٢. ٢. الكافي ٧: ١/٢٥٠، تفسير الصافي ٢: ٣٥. ٣. التوبة: ١١٢/٩.
٤. الكافي ٧: ١/٢٥١، تفسير الصافي ٢: ٣٥. ٥. الكافي ٧: ٢/٢٥١، تفسير الصافي ٢: ٣٥.

ثمَ لمّا أوجب الله تعالىٰ قَطع يَد السّارق للمال وإن كان قليلاً، ووَعده بالمَغفرة إذا تاب، عرّف ذاته المُقدّسة بالسّلْطنة التّامّة المُطلقة، بقوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ يا محمّد ﴿أَنَّ ٱللهَ لَهُ مُلْكُ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ والسّلْطنة التّامّة على جميع المَوجودات، إذَن ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ تَعْذيبه بحِكْمته ﴿وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ غُفرانه برَحمته [سواءً أ] كان الذّنب صغيراً أو كبيراً، لا يُسئل عمّا يفعَل.

ثمَ قرّر قُدْرته غير المُتناهية بقوله: إن ﴿وَٱللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ مِن التّعذيب والمَغفرة وغيرها ﴿قَدِيرٌ﴾ لا يمنَعه مانعٌ عن إنفاذ إرادته، ولا يدفَعه دافعٌ عن إمضاء مشيئته.

يَا أَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَن يُرِدِ ٱللهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ ٱللهِ شَيْئاً أُولٰئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ[٤١]

ثمَ أنّه تعالىٰ ـ بعدَ إثبات نُبوّة نبيّه ﷺ بالأخبار الغَيبيّة مِن قِصّة مُخالفة بني إسرائيل أمر مُوسىٰ عليه السلام بالجِهاد معَ العَمالقة وابتِلائهم بالتّيه، وقِصّة قابيل وهابيل ابنَي آدم، المُوافِقتين لِما في الكُتُب السّماويّة، معَ كَونه ﷺ أُمّياً، وبالأحكام المُحكمة المُوافقة للعقول السّليمة، وكان الكُلّ أدلّة علىٰ صِدْق نُبوّته، ومعَ ذلك كان المُنافقون واليَهود مُبالغين في إنكار رِسالته والإخلال في أمره ـ سلّىٰ قَلب حَبيبه بعدَ خِطابه بالتّشريف والتّعظيم بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ﴾ صَنيع ﴿ٱلَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ ويُبادرون إلىٰ إنكار رِسالتك بعدَ تَماميّة الحُجّة ووضُوح صِدقك ﴿مِنَ﴾ المُنافقين ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا﴾ بِك، ولكِن ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ وألسنتهم، ﴿وَ﴾ الحَال أنّه ﴿لَمْ تُؤْمِن﴾ بِك ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ وأفئدتهم ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا﴾ واتّبعوا دِين اليَهُودية، هُم ﴿سَمَّاعُونَ﴾ ومُبالغون في القَبُول ﴿لِلْكَذِبِ﴾ والفِرية مِن عُلمائهم وأحبارهم.

وقيل: إنّ المُراد أنّهم مُبالغون في سَماع أخبارك وأحاديثك ليُكذّبوا عليك بالزّيادة والنّقص والتّغيير[١].

قيل: إنّهم كانوا يسمَعون مِن الرّسُول، ثمَ يخرُجون ويقولون: سمِعنا مِنه كذا وكذا؛ معَ أنّهم لَم

---

١. تفسير روح البيان ٢: ٣٩٣.

يسمَعوا ذلك مِنه[1].

ومع ذلك هُم ﴿سَمَّاعُونَ﴾ ومُبالغون في القَبُول ﴿لِقَوْمٍ آخَرِينَ﴾ مِن اليَهُود الَذِين ﴿لَمْ يَأْتُوكَ﴾ ولَم يحضُروا عندَك تكبُّراً وإفراطاً في البَغضاء.

قيل: (سَمَّاعُونَ) بنو قريظة، و(قوم آخرين) يَهُود خيبر[2].

وهُم ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ﴾ الذي في التَوراة، ويُزيلونه عن مَواضعه ﴿مِن بَعْدِ﴾ أنّ الله وضعه في ﴿مَوَاضِعِهِ﴾، ثمَ القوم الآخرون المُحرِّفون ﴿يَقُولُونَ﴾ لعَوامّهم وأتباعهم السمّاعين لهم عندَ إلقائهم الأقاويل الباطلة والكَلمات المُحرّفة إليهم: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ﴾ مِن قِبَل محمّد ﴿هَٰذَا﴾ القول الذي قلنا لكم ﴿فَخُذُوهُ﴾ واقْبَلوا مِنه، واعْملوا بمُقتضاه لأنه الحَقّ، معَ كَونه باطلاً مُحرّفاً ﴿وَإِن لَمْ تُؤْتَوْهُ﴾ بَل أُوتيتم غيره ﴿فَاحْذَرُوا﴾ وامتنِعوا عن قَبُوله.

قيل: سَبب نُزول الآية ما مَرّ مِن حُكم النبيّ بالرَّجْم، وحُكومة ابن صُوريا فيه[3].

وعن القُمّي ﷺ: كان سبَب نُزولها أنّه كان في المدينة بَطنان مِن اليَهُود مِن بني هارون؛ وهُم النَّضير وقُريظة، وكانت قُريظة سبعمائة، والنَّضير ألفاً، وكانت النَّضير أكثر مالاً وأحسن حالاً مِن قُريظة، وكانوا حُلفاء لعَبد الله بن اُبيّ، فكان إذا وقع بين قُريظة والنَّضير قتل، وكان القتيل[4] مِن بني النَّضير قالوا لبني قُريظة: لا نرضىٰ أن يكون قتيلٌ مِنّا بقتيلٍ مِنكم؛ فجرىٰ بينهم في ذلك مُخاطبات كثيرة، حتّىٰ كادوا أن يقتتِلوا، حتّىٰ رضِيت قُريظة وكتبوا بينهم كِتاباً على أنّه أيّ رَجُل مِن النَّضير قتل رَجُلاً مِن بني قُريظة أن يُجنَب ويُحمّم[5]، والتَجنُبة أن يُقعد علىٰ جَملٍ، ويُولىٰ وَجْهه إلىٰ ذَنَب الجَمَل، ويُلطَخ وَجْهه بالحَمْأة[6]، ويدفَع نِصف الدِّية، وأيّما رَجُل مِن قُريظة قتل رَجُلاً مِن النَّضير أن يدفَع إليه الدِّية كاملة، ويُقتَل به.

فلمّا هاجر رَسُول الله ﷺ [إلىٰ المدينة]، ودخَل الأوس والخَزرج في الإسلام، ضعُف أمرُ اليَهُود، فقتل رَجُلٌ مِن بني قريظة رَجُلاً مِن بني النَضير، فبعث إليهم بنو النَّضير أن ابْعَثوا إلينا دِية المقتول وبالقاتل حتّىٰ نقتُله، فقالت قُريظة: ليس هذا حُكم التَوراة، وإنّما هُو شيءٌ غَلبتُمونا عليه، فأمّا الدِّية وأمّا القَتْل، وإلّا فهذا محمّد بَيْننا وبَيْنكم، فهلُمّوا وتحاكموا إليه.

فمشَتْ بنو النَّضير إلىٰ عبدالله بن اُبَيّ فقالوا: سَلْ محمّداً أن لا ينقُض شرطنا في هذا الحُكم الذي

---

١ و٢. تفسير روح البيان ٢: ٣٩٣.

٣. مجمع البيان ٣: ٢٩٩، تفسير روح البيان ٢: ٣٩٤، تفسير الصافي ٢: ٢٢.

٤. في المصدر: وكان القاتل.

٥. يجنّب: يُبعد، ويحمّم: يُسوّد وجهه بالفحم.

٦. الحَمْأة: الطين الأسود.

بيْننا وبيْن بني قُريظة في القتل، فقال عبدُالله بن أبَيّ: ابعثوا [معي] رَجُلاً يسمع كلامي وكلامه، فإن حكَم لكم بما تُريدون وإلّا فلا ترضَوا به، فبعثوا معه رَجُلاً، فجاء إلىٰ رَسُول الله ﷺ فقال: يا رَسُول الله، إنّ هؤلاء القوم، قُريظة والنَّضير، قد كتبوا كِتاباً بيْنهم وعهداً وَثيقاً تراضَوا به، والآن في قدومك يُريدون نَقضه، وقد رضَوا بحُكمك فيهم، فلا تنقُض كِتابهم وشَرطهم، فإنّ [بني] النَّضير لهم القُوّة والسِّلاح والكُراع[1]، ونحن نَخاف[2] الدَوائر، فاغتمّ رَسُول الله ﷺ مِن ذلك ولَم يُجبْه بشيء، فنزل عليه جَبْرئيل بهذه الآيات ﴿... يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ يعني: عبدالله بن أُبَيّ، وبني النَّضير، ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟﴾، يعني: عبدالله [بن أُبَيّ]، قال لبني النَّضير: إن لَم يحكُم [لكم] بما تُريدونه فلا تقبلوا[3].

ثمّ لمّا بيّن الله عزّ وجلّ فَضائح اليَهُود والمُنافقين كعبدالله بن أُبَيّ، نبّه علىٰ عدَم إمكان عِلاج مرض كُفْرهم، بقوله: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ﴾ بالإرادة التَكوينيّة ﴿فِتْنَتَهُۥ﴾، وابتِلاءه بالكُفْر والضَلال، أو فضيحته بالكُفْر، أو تَعذيبه ﴿فَلَن تَمْلِكَ﴾ ولَن تستطيع ﴿لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ في دَفعها ﴿شَيْـًٔا﴾ يسيراً، إذَن فاعْلَم أن ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ اليَهُود والمُنافقين هُم ﴿ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ مِن الزَّيغ والرَّين والطَّبع والضَّيق، ولذا ثبت ﴿لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ﴾ وذِلّة، بضرب الجِزْية علىٰ اليَهُود مِنهم، وإجلاء بني النَّضير، وإظهار كِذْبهم وكِتمانهم للحَقّ، وتَفضيح المُنافقين بإظهار كُفْرهم، وخِذلانهم بيْن المُؤمنين ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ ودار الجَزاء ﴿عَذَابٌ﴾ بالنّار ﴿عَظِيمٌ﴾ بالخُلود فيها.

سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّـٰلُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ[٤٢]

ثمّ بالغ سُبحانه في ذَمّهم وتَقريعهم بقوله: ﴿سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّـٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ والمال الحَرام. وإنّما ذَمّهم بالوَصفَين لتوغُّلهم فيهما.

قيل: كان الحاكم في بني إسرائيل إذا أتاه مَن كان مُبطلاً في دَعواه برَشوة، سمِع كلامه ولا يلتفت إلى خصْمه، وكان يسمع الكَذِب ويأكُل السُّحت[4].

وقيل: كان فقراؤهم يأخُذون مِن أغنيائهم مالاً ليُقيموا على ما هُم عليه مِن اليَهُوديّة، فالفُقراء كانوا

---

١. الكُراع: اسم يجمع الخيل والسِّلاح.
٢. زاد في المصدر: الغوائل و.
٣. تفسير القمي ١: ١٦٨، تفسير الصافي ٢: ٣٦.
٤. تفسير الرازي ١١: ٢٣٥.

يسمعون أكاذيب الأغنياء، ويأكلون السُّحت الذي يأخُذونه مِنهم[١].

وقيل: كانوا سمّاعون للكَذِب الذي ينسُبونه إلىٰ التوراة، أكّالون للرّبا[٢].

عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه، في قوله تعالى: ﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ قال: «هُو الرَّجُل يقضي لأخيه الحاجة [ثمَ] يقبَل هَدِيّته»[٣].

وفي رِوايةٍ عن الباقر عليه السلام: «السُّحت أنواع كثيرة؛ منها: اُجور الفَواجر[٤]، وثَمن الخَمر والنَّبيذ المُسكر، والرِّبا بعدَ البَيِّنة، وأمّا الرِّشا في الحُكم فإنّه كُفرٌ بالله العظيم وبرَسُوله»[٥].

وعن الصادق عليه السلام: «السُّحت ثَمن المِيتة، وثَمن الكلب، وثَمن الخَمر، ومَهر البَغِيّ، وأجر الكاهن، والرِّشوة»[٦].

ثمّ لمّا كان سَبب نُزول الآية السّابقة مُحاكمة اليَهود عندَ الرّسول صلى الله عليه وآله في أمر القَتل، أو حَدّ زِنا المُحصن، خيّره الله تعالىٰ في الحُكم بيْنهم، بقوله: ﴿فَإِن جَآءُوكَ﴾ مُتحاكمين إليك في ما شجَر بيْنهم مِن الخُصومات ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُمْ﴾ بما هُو الحَقّ عندَالله ﴿أَوْ أَعْرِضْ﴾ وتَولَّ ﴿عَنْهُمْ﴾ ولا تلتفِت إليهم.

ثمّ أمّنه الله سُبحانه ـ إثْر التّخيير ـ مِن الضّرَر علىٰ الحالين بقوله: ﴿وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ ولا تقبَل الحُكومة بيْنهم ﴿فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا﴾ يسيراً مِن الضّرَر بسَبب إعراضك عنهم وعدَم اعْتِنائك بهم، وإن زادت مُعاداتهم فالله عاصِمك ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ﴾ وقبِلتَ الفَصل بيْنهم ﴿فَاحْكُم﴾ واقْضِ ﴿بَيْنَهُم﴾ بحُكمٍ وقَضاءٍ مُلابس ﴿بِالْقِسْطِ﴾ والعَدل الذي اُمرت به ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ في الحُكم، العادلين في القَضاء؛ فيحَفظُهم مِن كُلّ سُوء ومَكروه، ويُكرمهم بالقُرب إليه.

في الحديث: «المُقسِطون عندَ الله علىٰ مَنابر مِن نُور»[٧].

عن الباقر عليه السلام: «إنّ الحاكم إذا أتاه أهلُ التَوراة و[أهل] الإنجيل يتَحاكمون إليه، كان ذلك إليه إن شاء حكَم بيْنهم، وإن شاء ترَكهم»[٨].

في أن الحاكم مخيّر في الحكم بين أهل الكتاب اذا كان المخاصمان أهل ملّة واحدة

أقول: حُكي اتّفاق أصحابنا علىٰ تَخيير الحاكم في الصُّورة إذا كان الخَصمان أهل مِلّةٍ واحدة، وأمّا إذا كان أحدُهما مُسلماً؛ فلا يجُوز رَدّ الحُكم فيه إلىٰ أهل الذِّمّة. وإنّما الخِلاف فيما إذا كانا ذِمِّيّين مِن أهل مِلّتين كاليَهُودي والنّصراني. والأقوىٰ تحتُّم

---

١ و٢. تفسير الرازي ١١: ٢٣٥.

٣. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١٦/٢٨، تفسير الصافي ٢: ٣٨.

٤. في النسخة: الفواحش.

٥. الكافي ٥: ١/١٢٦، تفسير الصافي ٢: ٣٧.

٦. الكافي ٥: ٢/١٢٦، تفسير الصافي ٢: ٣٧.

٧. تفسير روح البيان ٢: ٣٩٥.

٨. التهذيب ٦: ٨٣٩/٣٠٠، تفسير الصافي ٢: ٣٨.

الحُكم بيْنهما بمذهب الإسلام، لعُمومات وُجوب الحُكم والقَضاء بالحَقّ، وبما أنزل الله، ولَم يثْبُت التَخصيص إلّا فيما [إذا] كانا مِن أهل مِلّة واحدة، ويُؤيّده أنّ [في] الرّدّ إلىٰ إحدىٰ المِلّتين إثارة الفتنة.

وقيل: إنّ التَخيير مَنسوخ بقوله: ﴿وأن احكُم بَينَهُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ﴾[۱]؛ وهو مَرويّ عن ابن عبّاس رضي الله عنه[۲]، قال: ما نُسخ مِن المائدة غير هذه الآية، وغير قوله تعالىٰ: ﴿لَا تُحِلُّوا شَعائِرَ اللهِ﴾[۳]، نسخها قوله: ﴿اقتُلُوا المُشرِكِينَ﴾[٤].

وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ ٱلتَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ وَمَا أُوْلٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ[٤٣]

ثمّ وبّخ الله سُبحانه اليَهود علىٰ إعراضهم عن التَوراة التي يعتقدون أنّهم مؤمنون بها، وتَحكيمهم مَن لا يُؤمن به، باستِفهام فيه تَعجيب للنبيّ صلى الله عليه وآله بقوله: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ﴾ ويرضَون هؤلاء اليَهود بقضائك بيْنهم، ﴿وَ﴾ الحَال أنّ ﴿عِندَهُمُ﴾ وفي مَنظرهم ﴿ٱلتَّوْرَاةُ﴾ التي تُغنيهم عن حُكمك، إذْ ﴿فِيهَا حُكْمُ ٱللهِ﴾ صَريحاً في موضوع تشاجُرهم في أمر القِصاص والدِّية ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ﴾ ويُعرضون عن حُكمك المُوافق لكِتابهم ﴿مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ﴾ التحكيم والرّضا بقضائك ﴿وَمَا أُوْلٰئِكَ﴾ المُتحاكمون إليك ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ بشيءٍ مِن التَوراة ولا بحُكمك لإعراضهم عنها وعنه، بَل غَرضهم اتّباع الهَوىٰ، وتَحصيل مَصالح الدُنيا.

إِنَّا أَنْزَلْنَا ٱلتَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَٱلرَّبَّانِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ ٱللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَن لَمْ يَحْكُم بِمَا أَنْزَلَ ٱللهُ فَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْكَافِرُونَ[٤٤]

ثمّ بالغ سُبحانه في ذَمّهم وتَقريعهم علىٰ إعراضهم عن التَوراة ببَيان عِظَم شأنها بقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا ٱلتَّوْرَاةَ﴾ إلىٰ بني إسرائيل، والحَال أنّ ما ﴿فِيهَا هُدىً﴾ مِن الضَلال، ورَشاد إلىٰ الحَقّ، وبَيان لكُلّ حُكم، ﴿وَ﴾ فيها ﴿نُورٌ﴾ ترتفع به ظُلمة الجَهل، وتزول به كُدورة الشكّ، وقد كانت مِن أوّل نُزولها ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ وانقادوا لله ولأحكامه ﴿لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ واتّبعوا شَريعة مُوسى

---

۱. المائدة: ٤٩/٥. ۲. تفسير الرازي ۱۱: ۲۳۵، تفسير أبي السعود ۳: ۳۹. ۳. المائدة: ۲/٥.
٤. تفسير أبي السعود ۳: ۳۹، والآية من سورة التوبة: ٥/۹.

مِن بني إسرائيل وغيرهم ﴿وَٱلرَّبَّانِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾ أيضاً كانوا يحكُمون به، وكان اهْتِمامهم ببَعث النّاس إلىٰ العمَل بها ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ ٱللهِ﴾ وبسَبب كَونهم مُوكّلين علىٰ وِقايته مِن التّحريف والتّغيير والضّياع والإهمال، حَسَب ما وصّاهم الله به ﴿وَكَانُوا﴾ جميعاً لشِدّة اهتِمامهم بحِفظه كُلّ زمان ﴿عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ بين النّاس يشهدون بصِدْقه ونُزوله مِن الله. أو المُراد: أنّهم عليه رُقباء يُراقبون علىٰ أن لا يُغيّر ولا يُضيّع.

عن الصادق عليه السلام: «الربّانيّون: هُم الأئمّة دُون الأنبياء الّذِين يُربّون النّاس بعِلْمهم، والأحبار: هُم العُلَماء الربّانيّون ـ قال: ـ ثمّ أخبر عنهم فقال: ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ ٱللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾، ولَم يقل: بما حملوا مِنه»[1].

وعن الباقر عليه السلام، في هذه الآية: «فِينا نزلَتْ»[2].

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ بَيان قِيام النبيِّين والربّانيّين والأحبار بحِفظ التّوراة والاهتِمام بإمضاء أحكامها مِن غير مُبالاة، خاطب اليَهود الّذِين كانوا في عَصر النبيّ صلى الله عليه وآله وحرّضهم وحرّض رؤساءهم وأحبارهم بالاقتِداء بمَن قبلَهم مِن الأنبياء، واتّباعهم في عدَم المُبالاة مِن أحدٍ في حِفظ التّوراة وإمضاء أحكامها؛ بقوله: ﴿فَلَا تَخْشَوُا ٱلنَّاسَ﴾ [سواء أ] كانوا مُلوكاً أو غير مُلوك، علىٰ أنفسكم وأعراضكم وأموالكم، في أن تحكُموا بحُكم التّوراة في الرّجْم والقَتل وغيرهما، وإيّاكم أن تُحرّفوا كِتاب الله بإسقاط الحَدّ الواجب والتّساوي في الدِية والقِصاص ﴿وَٱخْشَوْنِ﴾ وخافوا مِن عِقابي علىٰ تَغيير كِتابي والحُكم بغير الحقّ.

ثمّ بعدَ الرّدع عن دَاعي الرّهبة الذي هُو أقوىٰ الدّواعي، ردَع عن دَاعي الرّغبة بقوله: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا﴾ ولا تستبدِلوا ﴿بِآيَاتِي﴾ وأحكام كِتابي ﴿ثَمَناً﴾ وعِوضاً ﴿قَلِيلاً﴾ مِن الرّشْوة والجَاه وسائر الحُظوظ الدُّنيويّة.

ثمّ هدّد المُغيّرين لكِتابه، الحاكمين بغير أحكامه بقوله: ﴿وَمَن لَمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ ٱللهُ﴾ مِن الأحكام، مُستهيناً بها، رادّاً لها ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ المُنكرون له بقُلوبهم، التّاركون له بأعمالهم ﴿هُمُ ٱلْكَافِرُونَ﴾ بالله وبكِتابه حقّاً، الخالدون في النّار أبداً.

عن (الكافي): عن النبيّ صلى الله عليه وآله: «مَن حكَم في دِرْهَمين بحُكم جَوْر؛ ثمّ جَبَر عليه، كان مِن أهل هذه

---

١. تفسير العياشي ٢: ١٢٧٩/٥١، تفسير الصافي ٢: ٣٨.

٢. تفسير العياشي ٢: ١٢٧٨/٥٠، تفسير الصافي ٢: ٣٩.

الآية»[١].

وعنهما عليهما السلام: «مَن حكَم في دِرهمين بغير ما أنزل الله، مِمَّن له سَوط أو عصا؛ فهُو كافر بما أنزل الله علىٰ محمّد»[٢].

وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَٱلْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَٱلْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِالسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَن لَمْ يَحْكُم بِمَا أَنْزَلَ ٱللهُ فَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلظَّالِمُونَ[٤٥]

ثمّ أخبر الله بما في التّوراة مِن حُكم القِصاص والمُساواة فيه بيْن الوَضيع والشريف بقوله: ﴿وَكَتَبْنَا﴾ وأثبتنا ﴿عَلَيْهِمْ فِيهَا﴾ بالصَراحة ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ﴾ القاتلة تُقاد ﴿بِالنَّفْسِ﴾ المَقتولة بغَير حقّ مُطلقاً، مِن غير فَرق بَيْن الوَضيع والشّريف، والقَويّ والضَعيف، والصَغير والكَبير، ﴿وَٱلْعَيْنَ﴾ تُفقأ ﴿بِالعَيْنِ﴾ إذا فُقِئت بغَير حقّ ﴿وَٱلأَنفَ﴾ يُجذَم ﴿بِالأَنفِ﴾ إذا جُذِم بغير حقّ، ﴿وَٱلأُذُنَ﴾ تُقطَع ﴿بِالأُذُنِ﴾ المَقطوعة بغَير حقّ، ﴿وَٱلسِّنَّ﴾ تُقلَع ﴿بِالسِّنِّ﴾ المَقلوعة بغَير حقّ، ﴿وَ﴾ كذا ﴿ٱلْجُرُوحَ﴾ كُلّها إذا عُرِف حَدٌّ فيها ﴿قِصَاصٌ﴾ مُعيّن، ومُجازاة بالمِثْل إذا أمكنت المُساواة، وأمّا إذا لَم يُمكن المُساواة والقِصاص بالمِثْل غالباً؛ كالجائفة ونحوها، ففيها الدِية أو الحُكومة.

ثمّ حثّ سُبحانه المَجنيّ عليه بالعَفو عن القِصاص بقوله: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ﴾ علىٰ الجاني، وعفا عنه القِصاص ﴿فَهُوَ كَفَّارَةٌ﴾ وماحِية للذُّنوب ﴿لَهُ﴾.

في الحديث: «مَن اُصيب بشيءٍ مِن جَسَده فتركه لله، كان كفّارةً له»[٣].

ورُوي أنّه «ثلاث مَن جاء بِهنّ يومَ القِيامة معَ الإيمان دخَل الجنّة مِن أيّ أبواب الجنّة شاء، وتزوّج مِن الحُور العين حيثُ شاء: مَن عفا عن قاتله، ومَن قرأ دُبْر كُلّ صَلاة مَكتوبة: ﴿قُل هُو الله أحد﴾ أحد عشر مرّات[٤]، و[من] أدّىٰ دَيناً خَفياً»[٥].

وقيل: إنّ ضمير (له) راجع إلى الجاني، والمُراد: أنّه إذا عفا المَجنِيّ عليه عن الجاني فعَفْوه كفّارة لذَنْب الجاني، فلا يُؤخذ به في الآخرة، كما أنّ القِصاص كفّارة، وأمّا أجر العافي فعلىٰ الله[٦].

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ بَيان حُكم القِصاص واسْتِحباب العَفو، هدّد علىٰ مُخالفة أحكامه بقوله: ﴿وَمَن لَمْ يَحْكُم بِمَا أَنْزَلَ ٱللهُ﴾ مِن حُكم القِصاص وغيرِه ﴿فَأُوْلَئِكَ﴾ المُخالفون ﴿هُمُ ٱلظَّالِمُونَ﴾ علىٰ

---

١. الكافي ٧: ٣/٤٠٨، تفسير الصافي ٢: ٣٩.
٢. الكافي ٧: ١/٤٠٧، تفسير الصافي ٢: ٣٩.
٣. تفسير روح البيان ٢: ٣٩٨.
٤. كذا في النسخة وتفسير روح البيان.
٥ و٦. تفسير روح البيان ٢: ٣٩٨.

أنفسهم بابْتِلائها بالعِقاب الدّائم، أو الظّالمون على المَجنيّ عليه.

وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ ٱلْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدىً وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَاةِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ[٤٦]

ثمّ لمّا ذكَر الله سُبحانه أنّ النبيّين والربّانيّين والأحبار كانوا يحكُمون بحُكم التّوراة، ذكَر أنّ عيسى عليه السلام معَ كَونه صاحب شَرعٍ وكِتاب، مُصدِّق للتّوراة أيضاً، بقوله: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم﴾ وأتبعناهم في الإسلام والانْقياد لحُكم الله ﴿بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ وجِئنا به بعدَهم رَسُولاً، حالَ كَونه ﴿مُصَدِّقاً لِمَا﴾ نزَل ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ وقبلَ بِعثته ﴿مِنَ﴾ كِتاب ﴿ٱلتَّوْرَاةِ﴾ وشاهداً علىٰ أنّها مِن الله، ومُعترفاً بصِدْقها ﴿وَآتَيْنَاهُ ٱلْإِنْجِيلَ﴾ الذي يكون ﴿فِيهِ هُدىً﴾ للحقّ، وإرشاداً إلىٰ تَنزيه الله مِن الصّاحبة والوَلد والمِثل، وإلىٰ جميع المَعارف الحقّة الإلٰهيّة، ﴿وَ﴾ فيه ﴿نُورٌ﴾ ينكشف به سَبيل السُّلوك إلىٰ الله مِن الأحكام والآداب والأخلاق، ﴿وَ﴾ يكون ﴿مُصَدِّقاً﴾ ومُوافقاً ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَاةِ﴾ في العُلوم والمَعارف، ﴿وَ﴾ يكون ﴿هُدىً﴾ ورَشاداً إلىٰ نُبوّة محمّد صلى الله عليه وآله ـ كما قيل ـ ﴿وَمَوْعِظَةً﴾ ونُصحاً وزَجراً ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ لأنّهم المُنتفعون به.

وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ ٱللهُ فِيهِ وَمَن لَمْ يَحْكُم بِمَا أَنْزَلَ ٱللهُ فَأُوْلٰئِكَ هُمُ ٱلْفَاسِقُونَ[٤٧]

في بيان أن القرآن حافظ الكتب السماوية

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ إخباره بأنّ في الإنجيل هُدىً إلىٰ نُبوّة محمّد صلى الله عليه وآله، أمر النّصارىٰ بالالْتِزام بجميع ما فيه بقوله: ﴿وَلْيَحْكُمْ﴾ البتة ﴿أَهْلُ ٱلإِنجِيلِ﴾ والمُؤمنون به ﴿بِمَا أَنْزَلَ ٱللهُ فِيهِ﴾ مِن الأحكام، والبِشارة ببِعْثة رَسُولٍ اسْمه أحمد، ولازِم ذلك هُو الالْتِزام بنَسخ ما أخبر النبيّ بنَسْخه.

ثمّ هدّد علىٰ تَرك الالْتِزام به بقوله: ﴿وَمَن لَمْ يَحْكُم﴾ ولم يلتزم ﴿بِمَا أَنْزَلَ ٱللهُ﴾ فيه، ولَم يحمِل النّاس عليه ﴿فَأُوْلٰئِكَ هُمُ ٱلْفَاسِقُونَ﴾ الخارجون عن طاعة الله وحُدود العَقل.

وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ ٱللهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ ٱللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلٰكِن لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا

آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا ٱلْخَيْرَاتِ إِلَى ٱللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ[٤٨]

ثمّ بعدَ بَيان فضائل الكِتابين، شرع سُبحانه في ذِكر فضائل القُرآن بقوله: ﴿**وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ**﴾ يا محمّد ﴿**ٱلْكِتَابَ**﴾ السّماوي؛ وهُو القُرآن العَظيم، حالَ كَونه مُلابساً ﴿**بِالْحَقِّ**﴾ ومقروناً بشَواهد الصِّدْق و﴿**مُصَدِّقاً**﴾ ومُوافقاً ﴿**لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ**﴾ وما أنزل قبله ﴿**مِنَ**﴾ جِنس ﴿**ٱلْكِتَابِ**﴾ السّماوي ﴿**وَمُهَيْمِناً**﴾ وشاهداً ﴿**عَلَيْهِ**﴾ دَالاً علىٰ صِدقه، أو حافظاً له، لكون القُرآن مُعجزة باقية دُون سائر الكُتب، ومصوناً مِن التّغيير والتّحريف أبدَ الدّهر، وليسَ علىٰ صِدق سائر الكُتب، دَليلٌ لعدَم اشْتِمال واحدٍ مِنها علىٰ الإعجاز، وانْقِطاع تَواتُرها، ولَولا القُرآن وصَراحته بصِدقها، لا طَريق لأحدٍ إلىٰ تَصْديقها، فما دام بقاء القُرآن تبقىٰ الحُجّة علىٰ صِدق سائر الكُتب.

ثمّ لمّا ذكَر فضائل القُرآن، أمر النبيّ ﷺ بالعمَل به، وإجراء ما فيه مِن الأحكام بقوله: ﴿**فَاحْكُمْ**﴾ يا محمّد ﴿**بَيْنَهُمْ**﴾ وعندَ مُشاجراتهم ﴿**بِمَا أَنْزَلَ ٱللهُ**﴾ إليك فيه مِن الأحكام ﴿**وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ**﴾ ولا تُراعِ مُشتهيات أنفسهم، ولا تعدِل؛ خَوفاً مِن ضَرَرهم وطمعاً في إيمانهم ﴿**عَمَّا جَاءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ**﴾ وما تبيّن لك مِن الحُكم، إلىٰ غيره.

ففيه سَدّ باب احْتِمال تَغيير حُكم الله علىٰ النبيّ وسائر النّاس لمَصلحة دَفع الضّرَر عن النّفس أو عن الإسلام، أو مُلاحظة أنّ تَغيير الحُكم أدخل في الهِداية إلىٰ الحَقّ. فظهر مِمّا ذكَرنا أنّه لا يجُوز التمسُّك بهذه الآية في الطّعن بعِصْمة الأنبياء بعدَ دَلالة الأدلّة القاطِعة علىٰ عِصمتهم.

وقيل: إنّ الخِطاب للنبيّ ﷺ، والمقصود به غَيره[١]، من باب إيّاك أعني واسْمعي يا جارة.

رُوي أنّ جَماعة مِن اليَهُود قالوا: تعالَوا نذهب إلىٰ محمّد لعلّنا نفتِنه عن دِينه، ثمّ دخلوا عليه وقالوا: يا محمّد، قد عرفتَ أنّا أحبار اليَهُود وأشرافهم، وأنّا إن اتّبعناك اتبعك كُلّ اليَهُود، وأنّ بيْننا وبيْن خُصومنا حُكومة؛ فنُحاكمهم إليك، فاقضِ لنا ونحنُ نُؤمن بك، فأنزل الله هذه الآية[٢].

ثمّ لمّا ذكَر الله كُتب الفِرَق الثّلاث وأحكامهم، نبّه علىٰ أنّ كُلّ دِينٍ كان حقّاً قبلَ نَسْخه؛ بقوله: ﴿**لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ**﴾ أيّتها[٣] الفِرَق ﴿**شِرْعَةً**﴾ ودِيناً كان العمَل به سَبباً لحَياتكم؛ كشَريعة الماء ﴿**وَمِنْهَاجاً**﴾ وطَريقاً واضحاً إلىٰ الحَقّ.

ثمّ بيّن حِكمة اخْتِلاف الأديان في القُرون [الماضية] بقوله: ﴿**وَلَوْ شَاءَ ٱللهُ**﴾ واقتضَتْ حِكمته

---

١. تفسير الرازي ١٢: ١٢.
٢. تفسير الرازي ١٢: ١١، تفسير أبي السعود ٣: ٤٧.
٣. في النسخة: أيها.

البالغة ﴿لَجَعَلَكُمْ﴾ مِن أوّل الدُّنيا إلىٰ فنائها ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ وأهل مِلّة فاردة ﴿وَلَكِن﴾ لَم يشأ ذلك، بَل جعَل أديانكم مُختلفة بعضُها ناسِخ لبعضٍ ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ ويمتحنكم ﴿فِي مَا آتَاكُمْ﴾ مِن الدِّين والأحكام، هَل تعمَلون بها مُنقادين لله، خاضعين لأحكامه، مُصدّقين بالحِكمة في اختِلافها، أو تُقصّرون مِن العمَل، وتتّبِعون الشُّبُهات والشّهَوات؟

فإن آمنتم بأنّ دِين الإسلام حقّ، وما في القُرآن ـ سَواءً كان مُوافقاً للكِتابين أو مُخالفاً لهما ـ أحكام الله وشرائعه ﴿فَاسْتَبِقُوا﴾ أيّتها[1] الفِرَق ﴿الْخَيْرَاتِ﴾ التي هَداكم الله إليها مِن العَقائد الحقّة، والأعمال الصّالحة، وبادِروا إليها انتِهازاً للفُرصة كَي لا تَموتوا معَ فَساد العقائد، وسُوء الأعمال، فإنّه يكون ﴿إِلَىٰ اللَّهِ﴾ بعدَ المَوت ﴿مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً﴾ أيُّها المُؤمنون بالقُرآن، والمُنكرون له ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ الله، ويُخبركم إذَن ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾ في الدُّنيا ﴿فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ مِن كَون القُرآن كِتاب الله وأحكامه، وإخباره تعالىٰ بإثابة المُؤمن به، وعِقاب الجاحد له؛ فلا يبقىٰ شكٌّ للمُبطِل والمُحِقّ.

وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ[٤٩]

ثمّ أكّد الله وجُوب الحُكم بما أنزل اهتِماماً به بقوله: ﴿وَأَنِ احْكُم﴾ ـ قيل: إنّ التّقدير: وأنزلنا إليك أن احْكُم[2]، أو أنزلنا إليك الكِتاب بالحقّ وبأن احْكُم، فيكون عَطفاً علىٰ الحقّ، أو أمرناك أن احْكُم[3] ـ ﴿بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ إليك.

رُوي عن الباقر عليه السلام: «إنّما كرّر الأمر بالحُكم بيْنهم؛ لأنّهما حُكمان أمر بهما جميعاً، لأنّهم احْتكموا إليه في زِنا المُحصَن، ثمّ احْتكموا إليه في قتلٍ كان بيْنهم»[4].

أقول: عليه بعضُ مفسّري العامّة[5].

ثمّ لمّا كان الحاكم في مَعرض اتّباع هَوىٰ المُتخاصمين، بالغ سُبحانه في النّهي عنه بقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ ولا تُراعِ مِيولهم.

ثمّ نبّه الله تعالىٰ نبيّه صلى الله عليه وآله بسُوء[6] قَصد اليَهُود، وإرادتهم تَحْريفه عن الحُكم بالحقّ بقوله: ﴿وَاحْذَرْهُمْ﴾ من ﴿أَن يَفْتِنُوكَ﴾ ويصرِفوك بخَديعتهم ﴿عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ مِن الأحكام

---

١. في النسخة: أيها.
٢. تفسير الرازي ١٢: ١٣.
٣. تفسير الرازي ١٢: ١٤، تفسير البيضاوي ١: ٢٦٩.
٤. مجمع البيان ٣: ٣١٥، تفسير الصافي ٢: ٤١.
٥. راجع: تفسير الرازي ١٢: ١٤.
٦. كذا، والظاهر: على سوء.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ وأعرضوا عن حُكمك بما نزَل ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللهُ﴾ تعالىٰ بخِذلانهم وتَولّيهم عن حُكمك ﴿أَن يُصِيبَهُم﴾ ويُعاقبهم في الدُّنيا ﴿بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ الكثيرة، وقليل مِن مَعاصيهم التي لا تُحصىٰ؛ مِن تَسْليطك عليهم وتَعْذيبهم بالقَتل والإجلاء، والذِلّة والمَسكنة، وضَرب الجِزية، ويُعاقبهم علىٰ بقيّتها في الآخرة.

ثمّ سلّىٰ سُبحانه قَلب حَبيبه ﷺ بقوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ ٱلنَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ وقليلٌ مِنهم مؤمنون شاكرون، فلا يعظُم عليك تَولّيهم عن حُكمهم.

أَفَحُكْمَ ٱلْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ[٥٠]

ثمّ أنكر سُبحانه عليهم التَولّي عن الحقّ، ووبّخهم عليه بقوله: ﴿أَ﴾ يتولّون ﴿فَحُكْمَ ٱلْـجَاهِلِيَّةِ﴾ ومِلّتها التي هِي مَحْض الهَوىٰ والجَهالة ﴿يَبْغُونَ﴾ ويطلُبون؛ معَ أنّهم أهل الكِتاب والعِلم.

ثمّ أنكر كَونَ حُكمٍ أحسنَ وأصلح مِن حُكمه بقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللهِ﴾ وأعدل ﴿حُكْماً﴾ ثمّ نبّه علىٰ أنّ هذا الخِطاب والاسْتِفهام الإنكاري أو التعجبي[١] يكون ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ بحِكمة الله وعدله؛ لأنّهم العارفون بأن لا أحد أعدل مِن الله، ولا حُكم أحسن مِن حُكمه، لا اليَهود الّذين هُم أهل الشَكّ والرَيب والعِناد.

رُوي أنّه كان بيْن النَّضير وقُريظة دمٌ قبلَ أن يبعَث الله محمداً ﷺ، فلمّا بُعث تحاكموا إليه فقالت قُريظة: بنو النَّضير إخواننا، أبونا واحد، ودِيننا واحد، وكِتابنا واحد، فإن قتل بنو النَّضير مِنّا قتيلاً أعطَونا سَبعين وَسْقاً[٢] مِن تَمرٍ، وإن قتلنا مِنهم واحداً أخذوا مِنّا مائة وأربعين وَسْقاً مِن تَمر، وأُروش جِناياتنا[٣] علىٰ النِّصف مِن أُروش جناياتهم[٤]، فاقضِ بيْننا وبيْنهم، فقال ﷺ: «فإنّي أحكُم أن دم القُرَظِيّ وَفاء مِن دم النَّضيري، ودَم النَّضيري وفاء مِن دَم القُرَظيّ، ليس لأحدهما فَضل علىٰ الآخر في دَم، ولا عَقل[٥]، ولا جِراحة». فغضِب بنو النَّضير وقالوا: لا نرضىٰ بحُكمك فإنّك عدُوٌّ لنا، فأنزل الله هذه الآية ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ يعني: حُكمهم الأوّل[٦].

وقيل: إنّهم كانوا إذا وجَب الحُكم علىٰ ضُعفائهم ألزموهم إيّاه، وإذا وجَب علىٰ أقويائهم لم

---

١. في النسخة: التعجيبي.
٢. الوَسْق: مكيال، وهو ستون صاعاً، والصاع خمسة أرطال وثلث.
٣. في تفسير الرازي: جراحاتنا، والأُروش جمع أَرْش: دِية الجراحة.
٤. في تفسير الرازي: جراحاتهم.
٥. العَقْل: الدِّية.
٦. تفسير الرازي ١٢: ١٥.

يأخذُهم به، فمنعهم الله تعالىٰ مِنه بهذه الآية[١].

عن الصادق عليه السلام: «الحُكم حُكمان؛ حُكم الله، وحُكم الجاهليّة، فمَن أخطأ حُكم الله حكَم بحُكم الجاهليّة»[٢].

[وعن أبي جعفر عليه السلام قال: «الحكم حكمان؛ حكم الله، وحكم الجاهلية] وقد قال الله عز وجل: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، وأشهد علىٰ زيد بن ثابت لقد حكَم في الفَرائض بحُكم الجاهليّة»[٣].

يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ[٥١]

ثمّ لمّا شرَح الله سُبحانه خِيانة اليَهُود والنّصارىٰ في كِتاب الله، وعَداوتهم للنبيّ صلى الله عليه وآله، واسْتِنكافهم عن قَبُول الحقّ، وتَولّيهم عن حُكم الله ورَسُوله، نهىٰ المُؤمنين عن مُوالاتهم بقوله: ﴿يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا﴾ ولا تَختاروا لأنفسكم ﴿ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾ وأحبّاء، ولا تُعاشروهم مُعاشرة الأصدقاء، ولا تتوقّعوا مِنهم النُّصْرة بعدَ وُضوح كَونهم لكُم ولدِينكم أعداء، كما لا يكون اليَهُود أولياء النَصارى ولا بالعَكس؛ معَ اتّفاقهم علىٰ الكُفْر، بَل كُلٌّ مِن الفَريقين ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ آخر مِمّن وافقهم علىٰ الدِّين، دُون مَن خالفهم، لوُضوح أنّ ائتِلاف القُلوب لا يُمكن معَ الاختِلاف في الدِّين، ﴿وَ﴾ علىٰ هذا ﴿مَن يَتَوَلَّهُم مِنكُمْ فَإِنَّهُ﴾ في الباطن ﴿مِنْهُمْ﴾ فلابُدّ أن يُحكَم عليه بحُكمهم، ويُحشَر في القِيامة في زُمرتهم.

رُوي أن عُبادة بن الصّامت قال لرَسُول الله صلى الله عليه وآله: إنّ لي مَوالي مِن اليَهُود كثيراً عَدَدهم، وإنّي أبرأ إلىٰ الله ورَسوله مِن وِلايتهم، وأُوالي الله ورَسُوله، فقال عبدُالله بن أُبَيّ: إنّي رَجُلٌ أخاف الدّوائر، لا أبرأ مِن وِلاية مَواليّ؛ وهُم يَهُود بني قَينُقاع[٤].

ثمّ أشار سُبحانه إلىٰ عِلّة تَولّي الكُفّار بقوله: ﴿إِنَّ ٱللهَ لَا يَهْدِى﴾ ولا يُرشِد إلىٰ الحقّ وعمَل الخير بالتّوفيق والتّأكيد ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ﴾ علىٰ أنفسهم[٥] بتَرك مُوالاة المُؤمنين، واختِيار مُوالاة الكافرين، بَل يخذُلهم ويُخلّيهم وشأنهم فيقَعون في الكُفْر والضّلال بهَوىٰ أنفسهم لا محالة.

---

١. تفسير الرازي ١٢: ١٥.
٢. الكافي ٧: ١/٤٠٧، تفسير الصافي ٢: ٤١.
٣. الكافي ٧: ٢/٤٠٧، تفسير الصافي ٢: ٤١.
٤. تفسير أبي السعود ٣: ٤٩، تفسير روح البيان ٢: ٤٠٢.
٥. كذا، والظاهر: الظالمين أنفسهم؛ لأنه متعدٍّ بلا حرف جر.

فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِى أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ [٥٢]

ثمّ وبّخ سُبحانه المُنافقين بقوله: ﴿فَتَرَى﴾ يا محمّد، المُنافقين ﴿ٱلَّذِينَ﴾ استقرّ ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ الكُفر والنِّفاق ﴿يُسَارِعُونَ فِيهِمْ﴾ ويُبادرون إلىٰ مُوالاتهم ومُرافقتهم، و﴿يَقُولُونَ﴾ للمؤمنين اعْتِذاراً مِن صَنيعهم القَبيح: إنّا نُواليهم لأنّا ﴿نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا﴾ وتدُور علينا ﴿دَائِرَةٌ﴾ مِن دَوائر الدَهر، ودَولة مِن دُوله؛ كانْقِلاب الأمر وكَون الغَلَبة للمُشركين واليَهُود.

قيل:إنّ هذا كان في قُلوبهم، وأمّا في الظاهر كانوا يقولون: إنّا نخاف أن يُصيبنا مَكروة مِن مَكاره الزّمان كالجَدْب والقَحْط، فلا يُعطونا المِيرة والقَرض[1].

فرَدّ الله عليهم بقوله: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ﴾ ويُرجى مِن فَضله ﴿أَن يَأْتِىَ بِالْفَتْحِ﴾ هُو فَتح مكة، أو فتح قِلاع خَيبر لرَسُوله ﷺ ﴿أَوْ أَمْرٍ﴾ آخر فيه استئصال اليَهُود وغيرهم مِن الكفّار، وإعزاز المُؤمنين، كائنٍ ﴿مِّنْ عِندِهِ﴾ وبقُدْرته على خلاف العادة ﴿فَيُصْبِحُوا﴾ أُولئك المُنافقون المُعتذرون ﴿عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا﴾ وأخفَوا ﴿فِى أَنفُسِهِمْ﴾ مِن الكُفْر والشَكّ في أمر الرّسُول ﴿نَادِمِينَ﴾.

عن الصادق عليه السلام، في تأويل الآية: «أذِن في هَلاك بني أُميّة بعدَ إحراق زيد بسبعة أيّام»[2].

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا أَهَٰؤُلَاءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ [٥٣]

ثمّ بيّن الله تعالىٰ سُوء عاقبة المُنافقين المُتعذّرين بقوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ لليَهُود عند ظُهور نَدامة المُنافقين تَعجُّباً أو تَعريفاً ﴿أَهَٰؤُلَاءِ﴾ المُنافقون هُم ﴿ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا﴾ وحَلفوا ﴿بِاللهِ﴾ لكُم، حالَ كَونهم يجهَدون ﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ ويُبالغون في تَغليظها ﴿إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾ بالنُّصْرة والمَعونة، فلمّا ظهَرت شَوكة الإسلام ودَولته بحيث لا يُرجىٰ لغيره دَولة، وذلّت رِقابكم للمُؤمنين ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ وبطَلت مَساعيهم في حِفظ مُوالاة أعداء الله ﴿فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾ مَغبونين بتحمّل المَشاقّ وعدَم الثّمرة، واسْتحقاق القَتل والهَوان في الدُّنيا والعَذاب في الآخرة.

---

١. تفسير أبي السعود ٣: ٤٩، تفسير روح البيان ٢: ٤٠٣.

٢. تفسير العياشي ٢: ١٢٩٣/٥٤، تفسير الصافي ٢: ٤٢.

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لاَئِمٍ ذٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَٱللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ[٥٤]

ثمّ لمّا كان تَولّي الكُفّار أمارة الارْتِداد وفي حُكمه، هدّد الله تعالىٰ المُرتدّين بقوله: ﴿**يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ**﴾ ويرجع ﴿**مِنْكُمْ**﴾ بتولّي الكُفّار ﴿**عَن دِينِهِ**﴾ الحقّ؛ وهُو الإسلام، إلىٰ الكُفْر، فلَن يضُرّ الله شيئاً، فإنّ دِين الله لا يخلُو مِن أنصار يحمونه ﴿**فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ**﴾ آخَرين ﴿**يُحِبُّهُمْ**﴾ الله ويُكرِمهم بألطافه ﴿**وَيُحِبُّونَهُ**﴾ ويُطيعونه حَقّ طاعته ﴿**أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ**﴾ خاضعين لهم رُحماء بيْنهم ﴿**أَعِزَّةٍ**﴾ وأشدّاء ﴿**عَلَى ٱلْكَافِرِينَ**﴾ ومِن شِدّتهم أنّهم ﴿**يُجَاهِدُونَ**﴾ ويُقاتلون الكُفّار ﴿**فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ**﴾ ولطَلَب مَرضاته، وإعلاء كلمته، وتَقوية دِينه ﴿**وَلاَ يَخَافُونَ**﴾ لغاية تصلُّبهم في الدِّين، وحِرصهم علىٰ نُصرة الحَقّ ﴿**لَوْمَةَ**﴾ أيّ ﴿**لاَئِمٍ**﴾ وطَعن أيّ طاعن في ما يأتونه مِن الجِهاد، وطاعة أمر الله ﴿**ذٰلِكَ**﴾ الأوصاف الحَميدة والأخلاق الكريمة ﴿**فَضْلُ ٱللَّهِ**﴾ ولُطفه وإنعامه تعالىٰ ﴿**يُؤْتِيهِ**﴾ ويُعطيه ﴿**مَن يَشَاءُ**﴾ إيتاءه وإعطاءه إيّاه مِن النُّفوس الزكيّة والذّوات المُستعدّة، لا أنّهم مُستقلّون بكَسبه وتَحصيله مِن غير حاجة إلىٰ تَوفيقه وتأييده ﴿**وَٱللَّهُ وَاسِعٌ**﴾ فضلاً وإنعاماً علىٰ العِباد ﴿**عَلِيمٌ**﴾ بقَابليّتهم واسْتِعداداتهم.

عن السُّدّي: أنّها نزلت في الأنصار لأنّهم [هم] الذين نَصروا الرّسُول، وأعانوه علىٰ إظهار الدِّين[1].

وعن مُجاهد: أنّها نزلت في أهل اليَمن[2].

ورُوي مِن طُرق العامّة: أنّها لما نزلت أشار النبيّ ﷺ إلىٰ أبي مُوسى الأشعري وقال: «هُم قوم هذا»[3].

ورَووا أيضاً: أنّ النبيّ ﷺ لمّا سُئل عن هذه الآية، ضرب بيده علىٰ عاتق سَلمان وقال: «هذا وذَوُوه» ثمّ قال: «لَو كان الدِّين مُعلّقاً بالثُّريّا لناله رِجالٌ مِن أبناء فارس»[4].

وعن الباقر والصادق عليهما السلام: «هُم أمير المُؤمنين صَلَوات الله عليه، وأصحابه حينَ قاتل مَن قاتله مِن النّاكثين والقاسِطين والمارِقين»[5].

وعن أمير المؤمنين صلَوات الله عليه، قال يومُ البَصرة: «والله ما قُوتل أهلُ هذه الآية حتّى اليوم»، وتلا هذه الآية[6].

---

١ و٢. تفسير الرازي ١٢: ١٩.

٣ و٤. تفسير الرازي ١٢: ١٩، تفسير أبي السعود ٣: ٥١.

٥. مجمع البيان ٣: ٣٢١، تفسير الصافي ٢: ٤٣.

٦. مجمع البيان ٣: ٣٢٢، تفسير الصافي ٢: ٤٣.

عن القُمّي: «أنّها نزلت في مَهديّ هذه الأمّة وأصحابه»[١].

في نقل كلام الفخر الرازي ورده

قال الفخر الرازي: وقال قومٌ: إنّها نزلت في عليّ عليه السلام، ويدلّ عليه وجهان:

الأوّل: أنّه صلى الله عليه وآله لمّا دفع الرّاية إلى عليّ يومَ خَيبر قال: «لأدفعَنّ الرّاية غداً إلى رَجُلٍ يُحِبّ اللهَ ورَسولَه، ويُحبّه اللهُ ورَسُولُه»، وهذا هُو الصِّفة المَذكورة في الآية.

الوجه الثاني: أنّه تعالى ذكَر بعدَ هذه الآية قوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ﴾ الى آخره، وهذه الآية في حقّ عليّ، فكان الأولى نُزول ما قَبلها أيضاً في حقّه.

إلى أن قال: المَقام الأوّل: أنّ هذه الآية مِن أدَلّ الدّلائل على فَساد مذهب الإماميّة مِن الرّوافض، وتَقرير مَذهبهم: أنّ الذين أقرّوا بخِلافة أبي بكر وإمامته كُلّهم كفرُوا وصاروا مُرتدّين؛ لأنّهم أنكروا النّصّ الجَليّ على إمامة عليّ عليه السلام.

فنقول: لَو كان الأمر كذلك لجاء الله بقومٍ يُحاربهم ويقهَرهم ويرُدّهم إلى الدِّين الحَقّ بدَليل قوله: ﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِى اللهُ بِقَوْمٍ﴾ إلى آخر الآية، وكلمة (من) شَرطيّة للعُموم، فهي تدلّ على أنّ كُلّ مَن صار مرتدّاً عن دِين الإسلام، فإنّ الله يأتي بقومٍ يقهَرهم ويرُدّهم ويُبطِل شَوكتهم، فلَو كان الّذين نصَبوا أبا بكر للخلافة كذلك، لوَجب بحُكم الآية أن يأتي الله بقومٍ يقهرهم ويُبطِل مَذهبهم، ولمّا لَم يكُن [الأمر] كذلك، بَل الأمر بالضِدّ، فإنّ الرّوافِض هُم المَقهورون المَمنوعون عن إظهار مذاهبهم[٢] الباطلة [أبداً] منذُ كانوا، عَلِمنا فَساد مَقالتهم ومَذهبهم، وهذا كلامٌ ظاهر لمَن أنصف[٣].

أقول: ظاهِر الآية أنّ الخَلْق إذا كفرَوا وارْتدّوا، فلَن يضُرّوا الله شيئاً، وأنّ دِينه لا يخلُوا مِن أنصار - كما ذكَرنا سابقاً - وليس في الآية وَعْد بإتيان قومٍ يُجاهدون المُرتدّين حتّى يقهَروهم ويرُدّوهم عن دِينهم الباطل، كما ادّعاه النّاصب، ولَو كان معنى الآية كما ذكَره، لكان كَذِباً - نعوذُ بالله - لوُضوح أنّه حدَث بعدَ النبيّ صلى الله عليه وآله مذاهِبٌ فاسدة، وارْتدّ القائلون بها قطعاً؛ كمذهب التجسُّم والنصب وغيرهما، ولَم يُقاتَلوا ولَم يُقهَروا، ولم يُرَدّوا عن مذهبهم، بَل لازم ذلك أن لا يبقى مُرتدٌّ على وجَه الأرض إلى يوم القيامة لعُموم الآية، وهُو خِلاف الحِسّ والضّرورة.

وقد رَوَوا أنّ جَبَلة بن الأيهم أسلم على يد عُمر، وكان يطُوف يوماً جارّاً رِداءه، فوطأ رَجُلٌ طَرفَ رِدائه، فغضِب فلطَمه، فتظَلّم الرّجل إلى عُمر، فقضى له بالقِصاص عليه إلّا أن يعفو عنه، فقال جَبَلة:

---

١. تفسير القمي ١: ١٧٠، تفسير الصافي ٢: ٤٣.
٢. في المصدر: مقالاتهم.
٣. تفسر الرازي ١٢: ٢٠.

أنا أشتريها بألف، فأبىٰ الرَّجُل، فلم يزَل يزيد في الفِداء إلىٰ أن بـلَغ عشـرة آلاف، فأبـىٰ الرَّجـل إلّا القِصاص، فاسْتنظر عُمر فأنظره، فهرب إلى الرُّوم وارْتدَّ[1]. ولَم يقتُله أحد.

والقول بأنّ حُكم الواحد ليسَ حُكم الجَماعة شَطَطٌ مِن الكلام، نعم لا يبعُد دَلالتُها علىٰ أنّه يكون في كُلّ زَمان جَماعة مُتّصفة بالصّفات الكريمة المذكورة في الآية، وقد كان بعدَ النبيّ ﷺ ـ وحينَ ارْتِداد المُسلمين بإنكارهم النّص الجَلِيّ ـ جماعةٌ مُتّصفة بالصّفات كأمير المؤمنين، وسَلمان، وأبـي ذَرّ، والمِقداد، وعمّار، ولكِن لَم يكُن صَلاح الإسلام في جِهادهم، وإلّا كانوا يُجاهدون ولا يَخافون في الله لَومة لائم، كما لَم يكُن صَلاح الدِّين في إقدام النبي ﷺ في جِهاد المُنافقين معَ كَثْرتهم في زَمانه، بَل في جِهاد المُشركين قبلَ الهِجرة.

ثم قال النّاصب: هذه الآية مُختصّة بمُحاربة المُرتدّين، وأبو بكر هُو الّذي تولّىٰ مُحاربة المُرتدّين[2].

أقول: لم يُجاهد أبو بكر أحداً مِن المُرتدّين، وإنّما حارَبهم جيشُ المُسلمين بأمر أبي بكر، ولَـم يكُن هُو في الجَيش، بَل لَم يكُن مَن حارَب جيشَ أبي بكر مِن المُرتدّين، بَل كانوا مُنكرين لخِلافته، وإنّما منَعوه مِن الزّكاة بدَعوىٰ عدَم أهلِيّته لأخذها، فاتّهمَهم بالارْتِداد وإنكار وُجوبها، حيثُ نُقل أنّهم قالوا: أمّا الصّلاة فنُصلّي، وأمّا الزّكاة فلا تُغصَب أموالُنا.

رُوي عن أنس بن مالك أنّه قال: كرِهتْ الصّحابة قِتال مانعي الزّكاة، وقالوا: هُم أهل القِبلة، فتقلّد أبو بكر سَيفه وخرج وَحده، فلَم يجِدوا بُدّاً مِن الخُروج علىٰ أثَره[3].

نعَم بعثَ خالدَ بن الوليد في جيشٍ كثير إلىٰ مُسيلمة حتّىٰ أهلكه الله علىٰ يد وَحشي قاتل حَمزة سيّد الشُّهداء، وكان يقول: قتلتُ خيرَ النّاس في الجاهليّة، وشرَّهم في الإسلام[4].

فكان الأولىٰ أن يقول النّاصب: إنّ الآية نزلَتْ في خالد بن الوليد، ووَحشي ـ وهُو مِمّا يُضحك به الثّكلىٰ، لوُضوح أنّ خالداً كان مِمّن يبغُضه الله[5] ـ لأنّ صِدق المُجاهد عليهما حقيقةٌ، وعلىٰ أبي بكر مَجازٌ بعَلاقة السّببيّة، كما أنّ صِدقه علىٰ أميرُ المُؤمنين صَلَواتُ الله عليه وأصحابه ـ عندَ مُحاربتهم الفِرق الثّلاث المُنكرين للنّص الجَلِيّ علىٰ وُجوب مـوالاة علـيّ ﷺ وأشـياعه ـ حـقيقةٌ، وعلىٰ الرّسول ﷺ الآمر له بجِهادهم مَجازٌ.

ثمّ قال النّاصب: ولا يُمكن أن يكون المُراد هُو الرّسول؛ لأنّه لم يتّفق له مُحاربة المُرتدّين[6].

---

١. تفسير الرازي ١٢: ١٩.

٢. تفسير الرازي ١٢: ٢٠.

٣ و ٤. تفسير روح البيان ٢: ٤٠٥.

٥. زاد في النسخة: ويبغضه.

٦. تفسير الرازي ١٢: ٢٠.

أقول فيه: إنَه ﷺ قد جاهد الأسود العنسي المُرتدّ بالمعنىٰ الذي ذكَره و[كما] اتّفق لأبي بكـر، لأنه ﷺ علىٰ ما نقله هُو في تفسيره، وغيرُه مِن العامّة، قالوا: إنّ بني مُدلج ارتدّوا في زمَانه، وكـان رَئيسهم ذُو الحِمار، وهُو الأسود العنسي، وكان كاهناً ادّعىٰ النُبوّة في اليَمن، واسْتولىٰ على بـلادها، وأخرج عُمّال رَسُول الله ﷺ، فكتب ﷺ إلىٰ مَعاذ بن جَبل وسادات اليَمن، فأهلكه الله علىٰ يَـد فَيرُوز الدَيلمي؛ دخل بيته فقتَله، وأخبر رَسُول الله بقَتله ليلَة قُتِل، فسُرّ المُسلمون، وقُـبض رَسُـول الله ﷺ مِن الغَد، وأتىٰ خبرُه في آخر شَهر رَبيع الأول[١].

ثمّ قال الناصب: ولأنه تعالىٰ قال: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ﴾، وهذا للاسْتِقبال لا للحَال، فوجَب أن يكون هؤلاء القوم غيرَ مُوجودين في وقت نُزول هذا الخِطاب، فإن قيل: هذا لازم عليكم لأنّ أبا بكر كان مَوجوداً في ذلك الوقت، قُلنا: الجَواب مِن وَجهين؛ الأوّل: أنّ القَوم الّذِين قاتل بهم أبو بكر أهلَ الرِدّة ما كانوا مَوجودين في الحَال[٢].

أقول فيه: إنّه لا شُبهة أنّ نزُول هذه السّورة والآية كان في أواخر عُمر النبي ﷺ، وكانت مُدّة خِلافة أبي بكر سَنتين وسِتّة أشهر تقريباً، فلابُدّ مِن أن يكون عامّة جيش أبي بكـر مَـوجودين فـي زَمـان النُزول. وأمّا جِهاد أمير المُؤمنين عليه السلام مَعَ المُرتدّين فإنّه كان بعدَ أزيـد مِـن ثـلاثين سـنة مِـن زمـان الخِطاب، فيُمكن أن يُقال أنّ أغلب جَيشه عليه السلام لَم يكونوا مَوجودين في زَمان نُزول الآية، فظهر مِمّا ذُكِر أنّه لا يُمكن أن يُقال بصدْق الآية علىٰ جَيش أبي بكر ونُزولها في شأنه.

ثمّ قال: والثاني: أنّ معنىٰ الآية: فسَوف يأتي الله بقومٍ قادرين مُتمكّنين مِن هذا الحِراب، وأبو بكر وإن كان مَوجوداً في ذلك الوقت إلّا أنّه ماكان مُستقلاً في ذلك الوقت بالحِراب والأمر والنّهي، فزال السُؤال[٣].

أقول: كان الأولىٰ أن يقول: إن المُراد مِن الآية: فسَوف يبعثُ [الله] قوماً يُحِبُّهم ويُحِبّونه، لا سَوف يُوجِد قوماً، معَ أن الآية ـ علىٰ تَقدير دَلالتها علىٰ قِيام قومٍ تكون لهم تِلك الصِّفات بجِهاد خُصوص المُرتدّين، وعلىٰ تَقدير تَسليم كَون الأمر بالجِهاد، ولَو لَم يلتبس به مُجاهدٌ حقيقةً ـ لا تدُلّ علىٰ كَون كُلّ مَن جاهدهم واجداً لتِلك الصّفات، بحيثُ لا يكون معَهم غيرُهم، بَل الظّاهر إرادة أن جَماعة مِمّن لهم هذه الصّفات يُجاهدونهم، وإن كان معَهم غيرُهم مِمّن كان مُتّصفاً بضِدّ تِلك الصّفات.

فلا تدُلّ الآية علىٰ اتِّصاف كُلّ فَرد مِن أفراد جَيش أبي بكر حتّىٰ خالد بن الوليد الذي نكَح زوجة

---

١. تفسير الرازي ١٢: ١٨.
٢. تفسير الرازي ١٢: ٢٠.
٣. تفسير الرازي ١٢: ٢٠.

مالك بن نُويرة بعدَ قَتله، أو الأمر بالجِهاد لتِلك الصِّفات، فلابُدّ مِن تَعيين المُتَصفين بالصِّفات مِن دَليلٍ آخر، وإنّما قُلنا أنّ أمير المُؤمنين صلواتُ الله عليه مُتَصفٌ بتِلك الصِّفات لدَلالة (رِواية الرّاية) المُتواترة بيْن الفَريقين وغيرها عليه، وإن قال هذا المُتعصِّب إنّها مِن الآحاد[١].

فتحصَّل مِن جميع ما ذكَرنا أنّه لَم يثبُت أنّ أبا بكر بعَث جيشاً نَحو المُرتدِّين؛ لأنّ المُرتدّ هُو الذي كفَر بعدَ إيمانه. ولَم يثبُت أنّ مُسيلمة وأصحابه كانوا مُسلمين ثمّ كفَروا، وأمّا غيرهم مِن سائر الطَّوائف الذين[٢] نسَبوهم إلىٰ الارْتِداد، فالظّاهر أنّهم كانوا مُمتنعين مِن دَفع زَكاتهم إلىٰ أبي بكر لإنكارهم خِلافته، لا لإنكارهم وجُوب الزّكاة.

ويُؤيّده ما رَواه العامّة مِن أنّ أبا بكر قال: والله، لَو منعوني عَتُوداً[٣] مِمّا أدَّوا إلىٰ رَسُول الله لقاتلتهم عليه[٤]، ولَم يقُل: لَو جحَدوا الزّكاة لقاتلتهم. وأمّا الّذِين قاتلهم أميرُ المُؤمنين صلواتُ الله عليه فكانوا مِن أظهر مَصاديق المُرتدِّين؛ لأنّ وُجوب حُبّ أمير المُؤمنين[٥] وكَونه معَ الحَقِّ والحقّ معَه[٦]، كان مُتواتراً ضَرورياً بيْن الأمّة، وكَذا قوله ﷺ: «حربُك حَربي، وسِلْمُك سِلمي»[٧]، وغيره مِن النُّصوص الجَليّة.

ولَو سُلّم ذلك نقول: لَم يُجاهد أبو بكر أحداً مِنهم؛ لأنّ الظّاهر مِن قوله: **﴿يُجَاهِدُونَ﴾** مُباشرة الجِهاد؛ كما باشَر أميرُ المُؤمنين عليه السلام جِهاد الفِرق الثّلاث، لا القعُود في البَيت والرّاحة، والأمر به؛ كما فعله أبو بكر.

وعلىٰ تقَدير التّسليم لا دَلالة في الآية علىٰ اتِّصاف جميع المُجاهدين بتِلك الصِّفات حتّىٰ تكون الآية مَدْحاً لجميع أفراد الجَيش، بَل تدُل علىٰ أن جَماعة مِمّن لهم تِلك الصفات يُجاهدونهم، وإن كان معَهم أو كان رَئيسهم غير مُتّصف بها، بَل متّصفاً بضِدّها. فإثبات تِلك الصِّفات لشَخص مُعيّن مُحتاجٌ إلىٰ دَليل خارج.

ثمّ قال النّاصب المُتعصِّب: فثبَت أنّه لا يُمكن أن يكون المُراد هُو الرّسُول، ولا يُمكن أن يكُون المُراد هُو عليّ أيضاً؛ لأنّه لَم يتّفق له قِتالٌ معَ أهل الرِدّة، فكيف يُمكن حَمل هذه الآية عليه؟[٨]

---

١. تفسير الرازي ١٢: ٢٣.
٢. في النسخة: التي.
٣. العَتُود: ما قَوِيَ وأتى عليه حَوْلٌ مِن أولاد المِعزى.
٤. تفسير روح البيان ٢: ٤٠٥.
٥. راجع: فضائل الصحابة/أحمد بن حنبل ٢: ١١٤١/٦٦٩، مستدرك الحاكم ٣: ١٧٢، الدر المنثور ٦: ٧، الصواعق المحرقة: ١٧٠، الكشاف ٤: ٢١٩.
٦. راجع: تاريخ بغداد ١٤: ٣٢١، ترجمة علي عليه السلام من تاريخ دمشق ٣: ١١٧٢/١٥٣.
٧. شرح نهج البلاغة/لابن أبي الحديد ٢: ٢٩٧.
٨. تفسير الرازي ١٢: ٢١.

أقول: قد ظهَر وثبَت مِمّا ذكَرنا أنّ عليّاً عليه السلام وجَماعة مِن أصحابه كانوا مِن أظهر المُتّصفين بالصّفات المَذكورة في الآية، وأنّ الفِرق الثّلاث الّذِين قاتلهم صَلَواتُ الله عليه مِن أظهر مَصاديق المُرتدّين، ولَم يثبُت للآية مَورد انطِباق [على] غيرهم.

ثمّ قال النّاصب: فإن قالوا: بَل كان قِتاله معَ أهل الرِّدّة؛ لأنّ كُلّ مَن نازعه في الإمامة كان مُرتدّاً.

قُلنا: هذا باطل مِن وَجهين؛ الأوّل: أنّ اسْم المُرتدّ إنّما يتَناول مَن كان تاركاً للشّرائع الإسلاميّة، والقوم الّذِين نازعوا عليّاً ما كانوا كذلك في الظّاهر، وما كان أحد يقول إنّه يُحاربهم لأنّهم خرَجوا مِن دِين الإسلام، وعليّ لَم يُسمّهم البتّة بالمُرتدّين، فهذا الذي يقوله الرّوافض (لعنهم الله) بُهت علىٰ جميع المُسلمين، وعلىٰ عليّ أيضاً[١].

أقول: إن كان المُراد مِن تارك الشّرائع: جميعَها، فلَم يكُن تارك الزّكاة وَحْدها مُرتدّاً، مع أنّه وأصحابه سَمّوا مانعي الزّكاة مُرتدّين. وإن كان المُراد: تاركَ بعضِها، فتارك طاعة الإمام، وتارك حُبّ عليّ، ومُستحِلّ قِتاله يكون مُرتدّاً.

وأمّا قوله: إنّ عليّاً لَم يُسمّهم بالمُرتدّين[٢]، ففيه: أنّ النّاصب معَ طُول باعه لَم يفهَم تَرادُف لَفظ المُرتدّ والمَارق مِن الدِّين؛ لأنّ الله طبَع علىٰ قَلبه، أو لعدَم اطّلاعه علىٰ أنّ الرّسُول صلى الله عليه وآله وعليّاً وعامّة المُسلمين سَمّوا الخَوارج مارقين؛ لأنّهم مَرقوا، أي خرَجوا مِن دِين الله، واسْتحلّوا قِتال خَليفة رَسُول الله. فإنكار النّاصب (لعنَه الله) ارْتِدادهم ـ بَل ارتِداد الفِرَق الثّلاث الّذِين دَانوا ببُغْض عليّ عليه السلام ـ مُكابرةٌ وإنكارٌ للضّروري بيْن المُسلمين.

ثمّ قال النّاصب: [الثاني: أنّه] لَو كان كُلّ مَن نازعه في الإمامة كان مُرتدّاً، لزِم في أبي بكر وفي قومه أن يكونوا مُرتدّين، ولَو كان كذلك لوجَب بحُكمِ ظاهِر الآية أن يأتي الله بقوم يقهَرونهم ويرُدّونهم إلىٰ الدِّين الصّحيح، ولمّا لَم يُوجد ذلك البتّة، عِلمنا أنّ مُنازعة عليّ في الإمامة لا تكون رِدّةً، وإذا لَم تكن رِدّة، لَم يُمكن حَمل الآية علىٰ عليّ؛ لأنّها نازلة في مَن يُحارب المُرتدّين[٣].

أقول: نحنُ نلتزم باللازم الذي ذكَره، بَل نقول: إنّه وأخوه لَم يُؤمنا بالله طرفة عَين، كما أن عليّاً عليه السلام لَم يكفُر بالله طَرفة عَين، وأمّا قوله: لَو كان كذلك...الى آخره، ففيه: أنّ الآية لا تدُلّ علىٰ وجُوب إتيان قوم يرُدّونهم إلىٰ الدِّين، وإلّا لمَا وُجِد مُرتدٌّ في العالم، وهُو خِلاف الوِجدان ـ كما ذكَرنا سابقاً ـ معَ أنّه نسَب ابنُ أبي الحديد إلىٰ المُعتزلة أنّهم يقولون: إنّ عليّاً عليه السلام رَضي بخِلافة الثّلاثة، ولَم يُنازعهم

---

١ و٢. تفسير الرازي ١٢: ٢١.

٣. تفسير الرازي ١٢: ٢١.

فيها، ولَو نازعوا علياً فيها لكان دَمُهم هدْراً[١]، وقد تكلّف في تَوجيه الخُطبة الشَّقْشقيَة بما لا يرضىٰ به صاحبُها. وإنّما أطلنا في المَقام المقالَ لتظهَر شِدّة عصبيّة إمام الضَّلال، عليه أشدُّ العَذاب والنَّكال، وليعلَم أنّ الهِداية إلىٰ الحَقّ لا تحصُل بكثْرة الفَضْل وزيادة الاطّلاع علىٰ كلمات الرِّجال، وإنّما هي مَوهبة مِن الله المُتعال.

إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ[٥٥]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ المُبالغة في النّهي عن مُوالاة الكُفّار، وتَنزيل أوليائهم مَنزلتهم، وتَسميتهم باسْم المُرتدّين، وإظهار غَنائه عنهم في نُصْرة دِينه، حثّ المُؤمنين إلىٰ مُوالاة ذاته المُقدّسة، ومُوالاة أوليائه بقوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ﴾ والحافظ لصَلاحكم، ومُدبّر اُموركم، ومُربّي نُفوسكم، وسائق جميع الخَيرات إليكم ﴿ٱللَّهُ﴾ جَلّ جَلالُه ﴿وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وأخلصوا فيه، فاختصُّوهم أيضاً أنتم بالمُوالاة، ولا تُخطئوهم إلىٰ غيرهم.

عن الصادق عليه السلام: «يعني: أولىٰ بكم، أي أحقّ بكم وباُموركم مِن أنفسكم»[٢].

ثمّ عرّف المُؤمنين المُخلصين بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ لله مِن غيرِ رِياءٍ وكَسَل ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ والصَّدَقة إلىٰ الفُقراء، بِلا مَنٍّ ولا أذىً ﴿وَهُمْ﴾ في حَال الإيتاء ﴿رَٰكِعُونَ﴾ في الصَّلاة. وقيل: خاضعون لله مُتواضعون له[٣].

في تصدّق أمير المؤمنين بخاتمه على الفقير

عن الصادق عليه السلام: «يعني علياً وأولاده الأئمّة إلىٰ يوم القِيامة، ثمّ وصَفهم الله فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾، وكان أميرُ المُؤمنين في صَلاة الظُّهر، وقد صلّىٰ رَكعتين، وهُو راكع، وعليه حُلّة قيمتها ألف دِينار، وكان النبيّ صلى الله عليه وآله أعطاها إيّاه، وكان النّجاشي أهداها له، فجاء سائلٌ فقال: السّلام عليك يا وَليّ الله، وأولىٰ بالمُؤمنين مِن أنفسهم، تصدّق علىٰ مِسكين، فطرَح الحُلّة إليه [وأومأ بيده إليه] أن احْمِلْها، فأنزل الله عزّ وجلّ فيه هذه الآية، وصيّر نِعمة أولاده بنعمته ...» إلىٰ أن قال: «والسّائل الذي سأل أمير المؤمنين عليه السلام مِن الملائكة»[٤].

---

١. لم نجده في شرح ابن أبي الحديد لنهج البلاغة.
٢. الكافي ١: ٣/٢٢٨ وفيه: وأنفسكم، تفسير الصافي ٢: ٤٤.
٣. تفسير أبي السعود ٣: ٥٢، تفسير روح البيان ٢: ٤٠٧.
٤. الكافي ١: ٣/٢٢٨، تفسير الصافي ٢: ٤٤.

وعنه عليه السلام أنه سُئل: الأوصياء طاعتهم مفروضة؟ قال: «نعم، هُم الّذين قال الله: **﴿أَطِيعُوا اللهَ وأَطِيعُوا الرَّسُولَ وأُولِي الأَمرِ مِنكُم﴾**[١] وهُم الّذين قال الله: **﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾** الآية[٢].

وعن (الخصال)، في احتِجاج عليّ عليه السلام علىٰ أبي بكر، قال: «فأنشدك بالله، ألي الوِلاية مِن الله مَعَ وِلاية رَسُوله في آية زَكاة الخاتَم أم لك؟» قال: بل لك[٣].

وفيه في تَعداد مَناقب أمير المُؤمنين عليه السلام، قال عليه السلام: «وأمّا الخامسة والسّتُّون: فإنّي كنتُ أُصلّي في المَسجد فجاء سائل وأنا راكع، فناولته خاتَمي مِن إصبعي، فأنزل الله: **﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ﴾** الآية»[٤].

وفيه عنه صلَواتُ الله عليه ـ في حديثٍ ـ قال: «وليس بين الأُمّة خِلاف أنه لم يُؤتِ الزّكاة أحدٌ وهُو راكع غير رَجُلٍ»[٥].

فـي نـقل كـلمات الفخر الرازي وردّه

قال الفخر الرازي في تفسيره: رَوىٰ عِكرمة أنّ هذه الآية نزلت في أبي بكر. ورَوىٰ عطاء عن ابن عبّاس رضي الله عنه أنّها نزلَت في عليّ بن أبي طالب، [و] رُوي أن عبدَالله بن سَلام قال: لمّا نزلَت هذه الآية قلتُ: يا رَسُول الله، أنا رأيت عليّاً تصَدّق بخاتَمه علىٰ مُحتاج وهُو راكع، فنحن نتولاه؟

ورُوي عن أبي ذَرّ رضي الله عنه، أنّه قال: صليتُ معَ رَسُول الله صلى الله عليه وآله يوماً صلاةَ الظُّهر، فسأل سائلٌ في المَسجد فلَم يُعطِه أحدٌ، فرفع السّائل يدَه إلىٰ السّماء وقال: اللّهُمّ اشهَد أنّي سألتُ في مَسجد الرّسُول فما أعطائي أحدٌ شيئاً؛ وعليٌ كان راكعاً فأومأ إليه بخِنْصره اليُمنىٰ، وكان فيها خاتَم، فأقبل السّائل حتّىٰ أخذ الخاتَم بمَرأىٰ النبيّ صلى الله عليه وآله فقال: «اللّهُمّ إنّ أخي مُوسىٰ سألك فقال: رَبّ اشْرَح لي صَدري ويسّر لي أمري وأحْلُل عُقْدة مِن لِساني ـ إلىٰ قوله: ـ واشْرِكه في أمري، فأنزلتَ قرآناً ناطقاً: **﴿سَنشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ونجعَلُ لَكُمَا سُلطَاناً﴾**[٦] اللّهمّ وأنا محمّد نبيّك وصفيّك، فاشرَح لي صدري، ويسّر لي أمري، واجْعَل لي وزيراً مِن أهلي عليّاً أخي اشدُدْ به ظهري».

قال أبو ذَرّ: فوَالله، ما أتمّ رَسُول الله هذه الكلمة حتّىٰ نزل جَبْرئيل فقال: يا محمّد، اقرأ **﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ﴾** إلىٰ آخر الآية[٧].

ثمّ قال الفخر: قالت الشيعة: إنّ هذه الآية دالّة علىٰ أنّ الإمام بعد رَسُول الله صلى الله عليه وآله هُو عليّ بن أبي

---

١. النساء: ٤/٥٩. ٢. الكافي ١: ١٤٦/١٦، تفسير الصافي ٢: ٤٥.
٣. الخصال: ٣٠/٥٤٩، تفسير الصافي ٢: ٤٥. ٤. الخصال: ١/٥٨٠، تفسير الصافي ٢: ٤٥.
٥. الاحتجاج: ٢٥٥، تفسير الصافي ٢: ٤٥. ٦. القصص: ٣٥/٢٨. ٧ و٧. تفسير الرازي ١٢: ٢٦.

طالب عليه السلام[1].

بيان المَقام الأوّل: أنّ الوَليّ في اللُّغة جاء بمعنىٰ النّاصر، والمُحبّ، كما في قوله تعالى: ﴿وَالمُؤمِنُونَ وَالمُؤمِنَاتُ بعضُهُم أولِيَاءُ بَعْضٍ﴾[2]، وجاء بمعنىٰ المُتصرّف، قال عليه السلام: «أيّما امرأة نُكِحت بغير إذْن وَليّها...»، فنقول: هَا هُنا وجهان:

الأوّل: أنّ لفظ الوليّ جاء بمعنيين[3]، ولَم يُعيّن الله مُراده، ولا منافاة بين المَعنَيين، فوجَب حَمله عليهما، فوجَب دَلالة الآية علىٰ أنّ المُؤمنين المَذكورين في الآية مُتصرّفون في الأُمّة.

الثاني: أن نقول: الوَليّ في هذه الآية لا يجُوز أن يكون بمعنىٰ النّاصر، فوجب أن يكون بمعنىٰ المُتصرّف، وإنّما قُلنا أنّه لا يجُوز أن يكون بمعنىٰ النّاصر؛ لأنّ الوِلاية المَذكورة في [هذه] الآية غير عامّة في كُلّ المُؤمنين، بدَليل أنّه تعالىٰ ذكَر بكلمة (إنّما)، وكلمة (إنّما) للحَصْر كقوله تعالىٰ: ﴿إنّما الله إلٰهٌ واحدٌ﴾[4]، والوِلاية بمعنىٰ النُّصْرة عامّة لقوله تعالىٰ: ﴿المُؤمِنُونَ وَالمُؤمِنَاتُ بَعضُهُم أولِيَاءُ بَعْضٍ﴾، وهذا يُوجب القَطع بأنّ الوِلاية المَذكورة في هذه [الآية] ليست بمعنىٰ النُّصرة، وإذا لَم تكُن بمعنىٰ النُّصْرة كانت بمعنىٰ التّصرُّف؛ لأنه ليس للوَليّ معنىً غير هذين المَعنيين، فصار تفسير[5] الآية: إنّما المُتصرّف فيكم أيُّها المُؤمنون هُو الله ورَسُوله والمؤمنون المَوصوفون بالصِّفة الفُلانية، وهذا يقتضي أنّ المُؤمنين المَوصوفين بالصِّفات المَذكورة في الآية مُتصرّفون في جميع الأُمّة، ولا معنىٰ للإمام إلّا الإنسان الذي يكون مُتصرّفاً في كُلّ الأُمّة، فثبت بما ذكَرنا دَلالة الآية علىٰ أنّ الشّخص المَذكور فيها يجب أن يكون إمام الأُمّة.

أمّا بَيان المَقام الثّاني: وهُو أنّه لمّا ثبَت ما ذكَرنا، وجَب كَون ذلك الإنسان هُو عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وبَيانه مِن وجُوه:

الاول: أنّ كُلّ مَن أثبت بهذه الآية إمامة شخص قال: [إن] ذلك الشّخص [هو] عليّ بن أبي طالب، وقد ثبَت بما ذكرنا دَلالة هذه الآية علىٰ إمامة شَخْصٍ، فوجَب أن يكون ذلك الشّخص هُو عليّ، ضرورة أنّه لا قائل بالفَرْق.

الثاني: أنّه تظافرت الرّوايات علىٰ أنّ هذه الآية نزلت في [حق] عليّ، ولا يُمكن المَصير إلىٰ قول مَن يقول أنّها نزلت في أبي بكر؛ لأنّها لَو نزلت في حقّه لدلّت علىٰ إمامته، وأجمعت الأُمّة علىٰ أنّ هذه الآية لا تدُل علىٰ إمامته، فبطَل هذا القول.

---

١. تفسير الرازي ١٢: ٢٦.
٢. التوبة: ٧١/٩.
٣. في المصدر: جاء بهذين المعنيين.
٤. النساء: ١٧١/٤.
٥. في المصدر: تقدير.

والثالث: أنّ قوله: ﴿ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ لا يجُوز جَعْله عطفاً علىٰ ما تقدَم؛ لأنّ الصّلاة قد تقدّمت، والصّلاة مُشتملة علىٰ الرُّكوع، وكانت إعادة ذلك الرُّكوع تَكراراً، فوجَب جَعله حالاً، أي يُؤتون الزّكاة حالَ كَونهم راكعين، وأجمعوا علىٰ أنّ إيتاء الزّكاة حالَ الرُّكوع لَم يكُن إلّا في حَقّ عليّ، فكانت الآية مَخصوصة به، ودالّة علىٰ إمامته مِن الوَجه الذي قرّرناه[1].

ثمّ تجشّم المُتعصّب العَنود في الجَواب ـ تعصُّباً علىٰ مَذهبه الباطل، وبُغضاً لعليّ عليه السلام وشِيعته ـ بأجوبةٍ أوهن مِن نَسْج العَنكبوت، ولمّا كان مُبالغاً في إطناب العِبارة في الكِتاب بحيث يكون نَقلُها مُمِلّاً، لخّصتُها ونقلتُ حاصِل مَضمونها غالباً.

قال: والجَواب: أمّا حَمل لفظ الوليّ علىٰ النّاصر والمُتصرّف فغير جائز، لِما ثبَت في الأُصول مِن عدَم جَواز استِعمال اللّفظ المُشترك في أكثر مِن معنىً واحد[2].

أقول فيه: أنّه علىٰ تقدير التّسليم، ليس مِن المُشترك اللّفظي، بَل الأظهر أنّه مَوضوعٌ للجامع، وهُو المُتصدّي لِما هُو صَلاح المُولّىٰ عليه، مِن دَفع خُصومة، والتّصرُّف في نفسه وماله علىٰ الوَجه الأحسن، ولمّا كان لازم ذلك المَحبّة، قد يُراد مِنه المُحبّ، علىٰ سَبيل الكِناية، فقوله: ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[3] معناه: الله هُو المُتولّي لجَميع أُمورهم علىٰ وَفق الصّلاح مِن نُصْرتهم علىٰ الأعداء، وحِفظهم مِن الهَلاك الدُّنيوي والأُخروي، وتَربيتهم وتَكميلهم وتنظيم أُمورهم، ثمّ رتّب علىٰ وِلايته لهم، تَصدّيه لأهمّ مَصالحهم مِن إخراجهم مِن الظُّلمات إلىٰ النُّور، بقوله: ﴿يُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾[4] الآية، كما رتّب علىٰ قوله: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾[5] قوله: ﴿فَانصُرنَا عَلَىٰ القَومِ الكَافِرِينَ﴾[6] لوَضوح أنّ المُراد مِن الوَلي ليسَ خُصوص النّاصر أو المُحبّ أو المُتصرّف، لرَكاكة قولك: أنت ناصِرُنا فانصُرنا، وأنت مُحبّنا، وأنت المُتصرّف في أموالنا فانصُرنا، بَل المُراد: أنت المُتولّي لِما فيه خيرنا وصَلاحنا، ومِن المَصالح المُهمّة نُصرتنا علىٰ الكُفّار، فانصُرنا عليهم.

ثمّ استدلّ علىٰ كَون المُراد مِن الوَليّ: المُحبّ والنّاصر بوُجوه:

الأوّل: أنّ اللّائق ـ بما قَبل الآية مِن قوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا اليَهُودَ وَالنَّصَارَى أَولِيَاءَ﴾[7]، وبما بعدَ الآية مِن قوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتّخذُوا دِينَكُم هُزُواً وَلَعِباً﴾[8] إلىٰ آخره ـ أن يكون الوَليّ بمعنىٰ المُحبّ والنّاصر، لكَون لَفظ الأولياء فيما قَبل وفيما بعَد بمعنىٰ الأحبّاء والأنصار، لا أئمّة مُتصرّفين في

---

١. تفسير الرازي ١٢: ٢٦.
٢. تفسير الرازي ١٢: ٢٧.
٣. البقرة: ٢/٢٥٧.
٤. البقرة: ٢/٢٥٧.
٥. الأعراف: ٧/١٥٥.
٦. البقرة: ٢/٢٨٦.
٧. المائدة: ٥/٥١.
٨. المائدة: ٥/٥٧.

أرواحكم وأموالكم، لضرورة بُطلانه، فإذا كان معنىٰ لَفظ الأولياء في الآيتين ذلك، كان لَفظ الوَليّ الواقع بيْنهما ذلك، لا الإمام، وإلّا لزِم وقُوع الكلام الأجنبي فيما بيْن كَلامين سِيقا لغَرضٍ واحد[١].

أقول فيه: أنّه قد ذكَرنا أنّ المَحبّة والنُّصرة مِن لَوازم الوِلاية المُطلقة المُناسبة لله ولرَسُوله، المُقتضية لتَخصيص المَحبّة والاعتماد بهما، وصَرف التَوجُّه مِن غيرهما حتّىٰ مِن المُؤمنين إليهما، إلّا المُؤمنين الّذِين هُم بمَنزلة الرَسُول والقائمين مَقامه.

ثمّ قال: إنّ ظاهر الآية اتّصاف المُؤمنين حالَ نُزول الآية بالوِلاية، وأمير المُؤمنين لَم يكُن حالَ نزُولها إماماً مُتصرّفاً، فلا بُدّ مِن حَملها علىٰ المَحبّة والنَصْرة الحاصِلتين في الوقت[٢].

أقول فيه: إنّا نمنَع عدَم اتّصاف أميرِ المُؤمنين عليه السلام في الوقت بالوِلاية بمعنىٰ أولويّة التّصرُّف، بَل نقول: إنّه كان إماماً مُفترَض الطّاعة نافِذ التَصرُّف، ولكِن في طُول الرَسُول صلى الله عليه وآله لا في عَرْضه، كما كان هارون كذلك في زَمان مُوسىٰ، وإليه أشار النبيّ صلى الله عليه وآله، في الرِّواية المُسلَمة بيْن الفَريقين مِن قوله: «عليٌّ مِنّي بمنزلة هَارون مِن موسىٰ»[٣].

ثمّ قال النّاصب: إنّ لفَظ المُؤمنين جَمع، وإطلاقه علىٰ الواحد مَجاز، فيجب حَمله علىٰ العُموم لأصالة الحَقيقة[٤].

أقول: إنّ لفظ الجَمع مُستعمل في المَفهوم العامّ المُتّصف بالصِّفات المَذكورة في الآية، ولا يلزَم مِن وحدة المِصْداق الخارجي استِعمال اللّفظ فيه، كما تقول: العُلماء العُدول قولهم حُجّة، وكان العالِم في عَصْرك مُنحصراً في شَخصٍ واحد، فلا يلزَم مَجاز.

ثمّ قال الناصب: إنّا بينّا بالبُرهان البيِّن أنّ الآية المتقدّمة وهِي قوله: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرتَدَّ مِنكُم عَن دِينِهِ﴾**[٥] مِن أقوى الدّلائل علىٰ صِحّة إمامة أبي بكر، فلَو دلّت [هذه] الآية علىٰ إمامة عليّ بعدَ الرَسُول، لزِم التّناقض بيْن الآيتين، فوَجب القَطع بأنّ هذه الآية لا دَلالة فيها علىٰ إمامة عليّ بعدَ الرَسُول[٦].

أقول فيه: إنّه بعدَ ما ثبَت دَلالة هذه الآية علىٰ إمامة عليّ عليه السلام وجب القطع بأنّ الآية السّابقة لا دَلالة فيها علىٰ إمامة أبي بكر، مع أنّه قد بيّنا أنّه لا رَبط للآية السابقة بأبي بكر أصلاً ولَو لَم تكُن هذه المُعارضة، وليس هُو مِمّن يُحبّه الله ورَسُوله ويُحبّهما، ويشهَد علىٰ ما ذكَرنا أنّه لَم يتمسّك عامّة

---

١. تفسير الرازي ١٢: ٢٧.
٢. تفسير الرازي ١٢: ٢٨.
٣. صحيح البخاري ٥: ٢٠٢/٨٩، صحيح مسلم ٤: ٢٤٠٤/١٨٧٠، سنن الترمذي ٥: ٣٧٣٠، مستدرك الحاكم ٢: ٣٣٧.
٤. تفسير الرازي ١٢: ٢٨.
٥. المائدة: ٥٤/٥.
٦. تفسير الرازي ١٢: ٢٨.

شيعة أبي بكر علىٰ خِلافته بالنَص، وإنّما كان تمسُّكهم بالإجماع، واتّفاق أهل الحَلّ والعَقْد، واتّهموا عليّاً عليه السلام بالموافقة. نعم قالوا بتطبيق الآية السّابقة علىٰ أبي بكر، وكُلّ مَن حارب المُرتدّين إلىٰ يوم القِيامة، ويلزَمهم دخُول خالد بن الوليد، والحجّاج بن يوسف فيها، وهُو في غاية الفَضاحة.

ثمّ قال الناصب: الحُجة الخامسة: أنّ عليّاً كان أعرف بتَفسير القُرآن مِن هؤلاء الرّوافض، فلو كانت [هذه] الآية دَالّة علىٰ إمامته لاحْتجّ بها في محَفل مِن المَحافل، ولَم يتَمسّك بها البتة، وذلك يُوجب القَطع بسُقوط قوَل الرّوافض (لعنَهم الله)[1].

أقول فيه: إنّه قد تظافرت الرّوايات في احْتِجاجه عليه السلام بهذه الآية علىٰ إمامته في كثيرٍ مِن المَحافل[2]، وقد نقَلنا بعضَها، ومِن المَعلوم أنّ إنكار هذا النّاصب وأضرابه (لعنَهم الله) ليس بأنكر وأقبح مِن إنكارهم النُّصوص الجَليّة التي هي أجلىٰ مِن الآية في إمامته عليه السلام.

ثمّ قال الناصب: لَو سلّمنا دَلالة الآية علىٰ إمامة عليّ ونُفوذ تصرُّفاته، نقول: إنّه لَم يكُن نافِذ التَصرُّف في وقت النُّزول وزَمان الرّسُول، فلابُدّ مِن القول بدَلالتها علىٰ أنّه سيصير إماماً بعدَ الرّسُول، ونحنُ نقول بمُوجبه، ونحمِله علىٰ إمامته بعدَ الثّلاثة، إذ ليس فيها تَعْيين الوقت، فإن قالوا: الأُمّة فيها على قَولين؛ وكُلّ مَن قال بدَلالتها علىٰ إمامته قال بإمامته بعدَ الرّسُول بِلا فَصل، فالقولُ بدَلالتها علىٰ إمامته معَ الفَصل قولٌ ثالث، قُلنا: الظّاهر أنّه كان هذا الاحْتِمال مَقروناً بهذا الاسْتدلال[3].

أقول: قد ذكَرنا أنّه عليه السلام كان في زَمان الرّسُول ونزُول الآية نافِذ التَصرُّف كما كان هَارون في زَمان مُوسىٰ، فالحُجَة داحِضة، والسُّؤال ساقط، ويظهر جَواب حُجّته السّابعة والثّامنة مِمّا ذكَرنا فلا نُطيل بذِكْرهما.

في نقل اعتراضات الفخر الرازي وردّه

ثمّ قال: وأمّا الوَجه الذي عوّلوا عليه من أنّ الوِلاية بمعنىٰ النُصرْة عامّة، بخِلاف الوِلاية في الآية فإنّها مُختصّة بالمُؤمنين المَوصُوفين فيها، فجوابُه مِن وَجهين:

الأوّل: مَنع اخْتِصاص الوِلاية في الآية، ومَنع دَلالة (إنّما) علىٰ الحَصْر، والدّليل عليه قوله تعالىٰ: **﴿إِنَّمَا مَثَلُ الحَيَاةِ الدُّنيَا كَمَاءٍ أنزَلنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾**[4] وقوله: **﴿إِنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنيَا لَعِبٌ وَلَهوٌ﴾**[5]، ومِن المَعلوم عدَم انْحِصار مَثَل الدُّنيا بالمَثَل المَذكور، وحُصول اللّعِب واللّهْو في غير الحياة الدُّنيا[6].

---

١. تفسير الرازي ١٢: ٢٨ و٢٩.
٢. راجع: أمالي الطوسي: ١١٦٨/٥٤٩.
٣. تفسير الرازي ١٢: ٢٩.
٤. يونس: ٢٤/١٠.
٥. محمّد صلى الله عليه وآله: ٣٦/٤٧.
٦. تفسير الرازي ١٢: ٣٠.

أقول فيه: إنّ إنكار دَلالة (إنّما) علىٰ الحَصر إنكارٌ للضّرورة، وأمّا آية ﴿**إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنيَا**﴾ دالّة علىٰ حَصر المَثل الكامل في المِثْليّة، والآية الثانية دَالّة علىٰ حَصر الحياة الدّنيا في اللّعب، لا حَصر اللّعب واللّهو فيها.

ثمّ قال: والثّاني: أنّا نُسلّم الاخْتصاص، ونقول: إنّ الله قسّم المُؤمنين قِسمين؛ أحدُهما: الّذِين جعلهم مُولّىً عليهم، والثاني: الأولياء؛ وهُم المُؤمنين المَوصوفون في الآية، فالمعنىٰ: أنّ الله جعل أحدَ القِسمين أنصاراً للقسم الآخر، ولا يُمكن أن يكونوا أنصاراً لجميع المُؤمنين حتّىٰ أنفسهم، فثبَت أنّ نُصرة أحد القِسمين مِن الأمّة غير ثابتة لكُلّ الأمّة، بَل مَخصوصة بالقِسم الثّاني مِن الأمّة، فلَم يلزَم مِن كَون الوِلاية في الآية خاصّة أن لا تكون بمعنىٰ النّصرة، وهذا جَوابٌ حَسَن دَقيق لابُدّ مِن التّأمُّل فيه[1].

أقول: معنىٰ كَون النُّصرة عامّة أنّ كُلّ مُؤمن يكون ناصراً لغيره مِن المؤمنين، ولا يختصّ بخُصوص المُؤمنين المَوصُوفين بالوَصفين في الآية، فظهر أنّ بُطلان جَوابه مِن شِدّة الوُضوح غير مُحتاج إلىٰ التّأمُّل.

ثمّ قال: وأمّا استِدلالهم بأنّ هذه الآية نزلَت في [حق] عليّ، فهُو مَمنوع، فقد بيّنا أنّ أكثر المُفسّرين زَعموا أنّه في حقّ الأمّة، ومِنهم مَن يقول أنّها نزلت في حقّ أبي بكر.

أقول: قال البيضاوي في تفسيره: ﴿**وهُمْ رَاكِعُونَ**﴾ مُتخشّعون في صَلاتهم وزكاتهم، وقيل: هُو حَال مَخصوصة بـ(يؤتون)، أي يُؤتون الزكّاة في حَال رُكوعهم في الصّلاة حِرصاً علىٰ الإحسان ومسارعةً إليها، فإنّها نزلَت في عليّ عليه الصّلاة والسّلام حينَ سأله سائلٌ وهُو راكع في صلاته، فطَرح له خاتَمه[2].

وقال آية الله العلامة الحِلّي في (نهج الحق)، بعد ذكِر الآية: أجمعوا على نُزولها في عليّ عليه السلام، وهُو مَذكور في الصحاح السِتّة، لمّا تصدّق بخاتمَه علىٰ المسكين في الصلاة بمَحضرٍ مِن الصّحابة[3].

وقرّره فَضل بن روزبهان مَع شِدّة تعصُّبه وكمال اهْتِمامه في الرّدّ عليه علىٰ دَعوىٰ الإجماع، ولَم يُنكِر عليه، ولَم يُناقش في سَند الرِّواية[4].

ثمّ قال الفخر النّاصب: أمّا استِدلالهم بأنّ الآية مُختصّة بمَن أدّىٰ الزّكاة في الرُّكوع وهُو عليّ بن أبي طالب، فنقول: هذا أيضاً ضَعيف مِن وُجوه:

---

١. تفسير الرازي ١٢: ٣٠.
٢. تفسير البيضاوي ١: ٢٧٢.
٣. نهج الحق: ١٧٢، جامع الأصول ٩: ٤٧٨.
٤. راجع: إحقاق الحق ٢: ٤٠٨.

الأوّل: أنّ الزّكاة اسم للواجب لا للمندوب، لقوله تعالىٰ: ﴿وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ [١] فلو أنّه أدّىٰ الزّكاة في الرُّكوع لكان قد أخّر [أداء] الزّكاة الواجب عن أول أوقات الوُجوب، وذلك عندَ أكثر العُلماء معَصية، ولا يجُوز إسناده إلىٰ عليّ، وحَمل الزّكاة علىٰ الصّدَقة النّافلة خِلاف الأصل، لِما بيّنا أنّ قوله: ﴿وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ ظاهِر في أنّ كُلّ ما كان زَكاة فهُو واجب [٢].

أقول: الزّكاة في اللُّغة: النُّمُوّ، وإنّما سُمّيت الصّدَقة زكاةً لكَونها سَبباً لنُموّ المال، كما قال الله تعالىٰ: ﴿يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ [٣] ولَم يثبُت للَفظ الزّكاة حَقيقة شرعيّة حال نُزول الآية، وليس في قوله: ﴿آتَوُا الزَّكَاةَ﴾ دَلالة عليها، ولو فُرض ظُهوره في خُصوص الواجبة كان ظُهور الرُّكوع في رُكوع الصّلاة أقوىٰ، كما أنّ ظُهور الرّمْي في رَمي السّهم أقوىٰ مِن ظُهور لفظ الأسد في الحَيوان المُفترس، فيصَير قَرينة علىٰ صَرفه عن المعنىٰ الحَقيقي إلىٰ المَجازي، فيُحمل لَفظ الزّكاة علىٰ المَندوبة بالقَرينة المُقارنة له.

والحاصِل أنّه لاشَكّ أنّ الآية في بَيان مدَح المُؤمنين، وحَمل لَفظ الزّكاة والرُّكوع علىٰ مَعناهما الحَقيقي لا يناسب المَدح، فلابُدّ مِن صَرف أحد اللّفظين إلىٰ المعنىٰ المَجازي، وصَرف لفظ الزّكاة أولىٰ، مُضافاً إلىٰ دَلالة الرِّوايات الكثيرة مِن طُرق الخاصّة والعامّة علىٰ أنّ الزّكاة في الآية خُصوص المَندوبة.

ثمّ قال الناصب: الثّاني: أنّ اللّائق بعليّ أن يكون مُستغرِق القَلب بذِكْر الله حال الصّلاة، ومَن كان كذلك لا يتفرّغ لاسْتِماع كَلام الغير وفَهمه، ولهذا قال الله تعالىٰ: ﴿الَّذِين يَذْكُرُونَ اللهَ قِياماً وقُعُوداً﴾ [٤] إلىٰ آخر الآية [٥].

أقول فيه: إنّ مَقام الوِلاية المُطلقة مَقام الجَامعيّة، لا يشغَله شأنٌ عن شأن، فالتوجُّه إلىٰ كَلام الفقير تَوجُّهٌ إلىٰ الله، ويشهَد له أنّ الرّسُول ﷺ مَع كَونه أكمل مِن عليّ عليه السلام كان مُلتفِتاً لرُكوب الحَسَن علىٰ ظهره في سُجود الصّلاة المَفروضة، فأطال سُجوده حتّىٰ ينزِل الحَسن مِن ظهره لئلا يسقُط ولَده علىٰ الأرض.

ثمّ قال الناصب: الثالث: أنّ دَفع الخاتَم إلىٰ المِسكين في الصّلاة عمَلٌ كثيرٌ، واللّائق بحال عليّ أن لا يفعل ذلك [٦].

أقول فيه: إنّه مَمنوع، معَ أنّ في الرِّواية أنّه عليه السلام أومأ بخِنصره، فأخرجه الفقير مِن خِنصره، مَع أنّه

---

١. البقرة: ٢/٢٧٧.
٢. تفسير الرازي ١٢: ٣٠.
٣. البقرة: ٢٧٦/٢.
٤. آل عمران: ١٩١/٣.
٥. تفسير الرازي ١٢: ٣٠.
٦. تفسير الرازي ١٢: ٣١.

قال النّاصب بعدَ ذلك بقليل: إنّ العُلماء احتجُّوا بالآية علىٰ أنّ العَمل القَليل لا يقطع الصلاة[١]. ومِمّا ذكرنا يُعلم فَساد سائر ما لفّقه النّاصب.

﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾[٥٦]

ثمّ بالغ سُبحانه في الحَثّ علىٰ تولّي الرّسُول وخُلفائه بقوله: **﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾** ويتّخذهم أولىٰ بنفسه مِن نفسه، ويعتقِد أنّهم مُتصرّفون في اُموره، فهُو مِن حِزب الله وجُنوده، وغالب علىٰ أعدائه **﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ﴾** وأولياءه **﴿هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾** علىٰ حِزب أعداء الله، وجُند الشّيطان، وأعوان الجَهل.

عن الباقر عليه السلام، في قوله: **﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ﴾** الآية، قال: «إنّ رَهطاً مِن اليَهُود أسلموا، مِنهم عبدالله بن سلام، وأسيد[٢]، وثَعلبة، وابن امين[٣]، وابن صُوريا، فأتوا النبيّ صلى الله عليه وآله فقالوا: يانبيّ الله، إنّ مُوسىٰ أوصىٰ إلىٰ يُوشَع بن نُون، فمَن وصيُّك يا رَسُول الله، ومَن وليُّنا بعدَك؟ فنزلَت هذه الآية **﴿إِنَّما وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾** الآية.

[ثمّ] قال رَسُول الله صلى الله عليه وآله: قوموا، فقاموا فأتوا المَسجد فإذا سائل خارج، فقال: يا سائل، أما أعطاك أحدٌ شيئاً؟ قال: نعَم، هذا الخاتَم، قال: مَن أعطاكه؟ قال: أعطانيه ذلك الرّجُل الذي يُصلّي، قال: علىٰ أيِّ حالٍ أعطاك؟ قال: كان رَاكعاً، فكبّر النبيّ صلى الله عليه وآله، وكبّر أهلُ المَسجد، فقال النبيّ صلى الله عليه وآله: عليٌّ بن أبي طالب وليُّكم [بعدي]، قالوا: رضِينا بالله رَبّاً وبالإسلام دِيناً، وبمحمّد نبيّاً، وبعليّ بن أبي طالب وليّاً، فأنزل الله: **﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾**»[٤].

وفي (الاحتجاج): عن أمير المؤمنين صلَواتُ الله عليه: «**﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾** في هذا الموضع: المُؤتمنون علىٰ الخَلائق مِن الحُجَج والأوصياء في عصر بعدَ عَصر»[٥].

وفي (التوحيد): عن الصادق عليه السلام: «يجيء رَسُول الله صلى الله عليه وآله يومَ القِيامة آخذاً بحُجزة ربّه، ونحنُ آخذون بحُجزة نبيّنا، وشيعتُنا آخذون بحُجزتنا، فنحنُ وشيعتُنا حِزب الله، وحِزب الله هُم الغالبون، والله لا يُزعَم أنّها حُجزة الإزار ولكنّها أعظم مِن ذلك، يجيء رَسُول الله آخذاً بدِين الله ونجيء [نحن] آخذين بدِين نبيّنا، وتجيء شيعتُنا آخذين بدِيننا»[٦].

---

١. تفسير الرازي ١٢: ٣١.
٢. في الأمالي: وأسد.
٣. في الأمالي: وابن يامين.
٤. أمالي الصدوق: ١٨٦/١٩٣، تفسير الصافي ٢: ٤٦.
٥. الاحتجاج: ٢٤٨، تفسير الصافي ٢: ٤٧.
٦. التوحيد: ١٦٦/٣، تفسير الصافي ٢: ٤٧.

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَٱتَّقُوا ٱللهَ إِن كُنتُم مُؤْمِنِينَ[٥٧]

ثمَ أنه تعالىٰ بعدَ النَهي عن مُولاة أهل الكِتاب، بالغ سُبحانه في تأكيده، وعمّمه إلىٰ جميعَ الكُفّار بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا﴾ ولا تَختاروا ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً﴾ وتعاملوا[١] مَع شريعتكم الغَرّاء مُعاملة السّاخر والعَائب ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ﴾ الّذِين لَم يُؤمنوا بكِتابِ ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ لأنفسكم.

قيل: كان رِفاعة بن زيد، وسُويد بن الحارث أظهرا الإيمان ثم نافقا، وكان رِجالٌ مِـن المُسـلمين يُوادّونهما[٢]. فأنزل الله تعالىٰ فيهم هذه الآية.

ثمَ حذّرهم عن مُخالفة نَهيه بقوله: ﴿وَٱتَّقُوا ٱللهَ﴾ وخافوا عَذابه في مُوالاتهم ﴿إِن كُنتُم مُؤْمِنِينَ﴾ عن صَميم القَلب بالله واليَوم الآخر، فإنّ حقيقة الإيمان تُلازم الاتّقاء عن مُخالفة أحكام الله ومُوالاة أعدائه.

وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَاةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُواًوَلَعِباً ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ[٥٨]

ثمَ ذكَر الله سُبحانه اسْتِهزاءهم بالصَلاة التي هِي أعظم العِبادات ورُكن دِين الإسلام ازْدياداً لتَنْفير قُلوب المُسلمين مِنهم، بقوله: ﴿وَإِذَا نَـادَيْتُمْ﴾ المُسـلمين ودَعـوتُموهم ﴿إِلَـىٰ ٱلصَّـلَاةِ﴾ بأن أذَن المُؤذنون ﴿ٱتَّخَذُوهَا﴾ فيما بينهم، أو عندَ أنفسهم ﴿هُزُواً﴾ وسُخْرية ﴿ وَلَعِباً﴾ وعبثاً لاعْتِقادهم بأنَه لا فائدة فيها، و﴿ذٰلِكَ﴾ الاستهزاء واللّعب مُعلّل ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ حُسْن عِبادة الله والخُضوع له، وقَباحة الهَزء بها، ولَو كان لهم عَقل لَما اجْترأوا علىٰ تِلك العَظيمة.

قال بعضُ الحُكماء: أشرف الحَركات الصّلاة، وأنفع السّكنات الصوم[٣].

في استهزاء اليـهود بدين الإسلام

قيل: كان المؤذنون إذا أذّنوا للصّلاة تَضاحكت اليَهود فيما بـينهم، وتَـغامزوا سَـفَهاً واسْتِهزاءً بالصّلاة، وتَجهيلاً لأهلها، وتَنفيراً للنّاس عنها[٤].

وقيل: كان مُنادي رَسُول الله ﷺ يُنادي للصّلاة، وقام المُسلمون إليها، فقالت اليَهود: قاموا لا قاموا، صلّوا لا صلّوا؛ علىٰ طَريق الاستِهزاء، فنزلت الآية[٥].

---

١. في النسخة: وعاملوا. ٢. مجمع البيان ٣: ٣٢٨، تفسير الصافي ٢: ٤٧. ٣. تفسير الرازي ١٢: ٣٣.
٤. تفسير روح البيان ٢: ٤٠٨. ٥. تفسير الرازي ١٢: ٣٣.

وقيل: كان المنافقون يتضاحكون عندَ القِيام إلىٰ الصَّلاة تنفيراً للنّاس عنها[١].

وقيل: قالوا: يا محمّد، لقد أبدعتَ شيئاً لَم يُسمَع فيما مضىٰ، فإن كنتَ نبيّاً فقد خالفتَ فيما أبدعتَ جميعَ الأنبياء، فمِن أين لك صياح كصِياح العيرِ! فأنزل الله تعالى هذه الآية[٢].

وقيل: كان رَجُل مِن النصارىٰ بالمدينة إذا سمع المُؤذّن يقول: أشهدُ أنّ محمّداً رَسُولُ الله، يقول: أُحرِق الكاذب فدخَلَتْ خادِمته بنارٍ ذاتَ ليلة، فتطايرَتْ مِنها شَرارة في البيت، فاحترق البيت، واحترق هُو وأهله[٣].

قُلْ يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ[٥٩]

ثمّ لمّا حكىٰ الله عزّ وجلّ اسْتِهزاء أهل الكِتاب بالدِّين أمر نبيّه ﷺ بتَوبيخهم بقوله: **﴿قُلْ يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ﴾** وتكرَهون **﴿مِنَّا﴾** وتسخَطون علينا بسببٍ مِن الأسباب **﴿إِلَّا﴾** بسَبب **﴿أَنْ آمَنَّا بِاللهِ﴾** وبوَحْدانيّته وكَمال صفاته **﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾** مِن القُرآن **﴿وَمَا أُنزِلَ﴾** علىٰ سائر الأنبياء **﴿مِن قَبْلُ﴾** نُزول القُرآن مِن التّوراة والإنجيل وغيرهما مِن الكُتب السّماويّة **﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾** مُتمرّدون عن قَبُول الحَقّ، كافرون بجَميع الكُتب، حيثُ إنّكم إن كُنتم مُؤمنين بكُتبكم النّاطقة بصحة القُرآن لآمنتُم به.

وقيل: إنّ المُراد: ولأجل أنّكم فاسقون، ولَسنا مِثلكم[٤]، أو لأجل اعتِقادنا بأنّكم فاسقون[٥].

قيل: إنّما قال: **﴿أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾** لأن أكثرهم كانوا مُتمرّدين طلباً للرّئاسة والجَاه والحُطام، لا للشُّبهة في الرِّسالة والدِّين، أو لئلا يظُنّ مَن آمن مِنهم [أنه] داخل في ذلك[٦].

عن ابن عبّاس رضي الله عنه: أنّ نَفراً مِن اليَهود أتَوا رَسُول الله ﷺ فسألوه عمن يؤمن به من الرسل وسألوه عن دِينه، فقال: «أُومنُ بالله، وما أُنزل إلينا، وما أُنزل إلىٰ إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وما أُوتي مُوسىٰ وعيسىٰ والنّبيُّون مِن رَبّهم، لا نُفرّق بيْن أحدٍ مِنهم، ونحنُ له مُسلمون»، فحينَ سِمعوا ذِكْر عيسىٰ قالوا: لا نعلَمُ أهلَ دِينٍ أقلّ حَظّاً في الدُّنيا والآخرة مِنكم، ولا دِيناً شرّاً مِن دِينكم. فأنزل الله هذه الآية[٧].

قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِن ذٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللهِ مَن لَعَنَهُ ٱللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ

---

١ -٣. تفسير الرازي ١٢: ٣٣.
٤. تفسير الرازي ١٢: ٣٤.
٥ و٦. تفسير الرازي ١٢: ٣٥.
٧. مجمع البيان ٣: ٣٣٠.

مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ ٱلسَّبِيلِ[٦٠]

ثمّ أنّهم لمّا زَعموا أنّ دِين الإسلام شرّ الأديان، وأهله شرّ النّاس، أمر الله نبيّه ﷺ بتبكيتهم وتَقْريعهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمّد: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُم﴾ وأخبركم يا أهل الكِتاب ﴿بِشَرٍّ مِن ذَٰلِكَ﴾ الذي زعَمتُم شرّه، ونقَمتُم مِنه ﴿مَثُوبَةً﴾ وجَزاءً ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ وفي حُكمه.

ثمّ كأنهم قالوا: مَن هُو؟ فأجاب سُبحانه بقوله: ﴿مَن لَعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ وقيل: إنّ المُراد: دِين مَن لعَنه الله وأبعده عن رَحمته[١] ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ بكُفره، وسُوء سَريرته، وانْهماكه في المَعاصي بعَد وضوح الآيات ﴿وَجَعَلَ﴾ جَماعة ﴿مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ﴾ في زمان دَاود بدُعائه عليهم حين اعْتَدوا في السَّبت، ﴿وَ﴾ جماعة ﴿ٱلْخَنَازِيرَ﴾ في زَمان عيسىٰ حين كفَروا بعدَ نُزول المائدة وأكْلها، ﴿وَ﴾ بعضاً ﴿عَبَدَ ٱلطَّاغُوتَ﴾ وأطاع الشّيطان.

ورُوي أنّ المَسْخَين كانا في أصحاب السّبت، فإن شُبّانهم مُسخوا قِردة، ومشايخهم مُسخوا خَنازير[٢].

قيل: لمّا نزلت هذه الآية قال المُسلمون لليَهُود: يا أُخوة القِردة والخَنازير، فنكّسوا رُؤوسهم وافتَضحوا[٣].

وقيل: إنّ المُراد بالطاغوت: العجل[٤]، وقيل: الأحبار الّذين أطاعوهم في معَصية الله[٥].

ثمّ قرّر شَرّ مَثوبتهم بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ المَلعونون المَمسوخون مِن اليَهُود ﴿شَرٌّ مَكَاناً﴾ وأسوأ مَقرّاً مِن جميع الكُفّار في الآخرة، عن ابن عبّاس رضي الله عنه: مكانهم سَقَر، ولا مكان أشدّ شراً مِنه[٦] ﴿وَ﴾ هُم ﴿أَضَلُّ﴾ النّاس في الدُّنيا ﴿عَن سَوَاءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ وقَصْد الطريق والنهج المُستقيم الذي لا انْحِراف فيه عن الحَقّ إلىٰ غُلُوّ اليَهُود والنّصارى. ومِن المَعلوم أنّ صِفتَي التّفضيل للزّيادة، لا بالإضافة إلىٰ المُؤمنين.

وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ[٦١]

---

١. مجمع البيان ٣: ٣٣٢، تفسير الصافي ٢: ٤٨.
٢. مجمع البيان ٣: ٣٣٣، تفسير الصافي ٢: ٤٨.
٣. مجمع البيان ٣: ٣٣٣، تفسير الرازي ١٢: ٣٧.
٤. مجمع البيان ٣: ٣٣٣، تفسير الرازي ١٢: ٣٧.
٥ و٦. تفسير الرازي ١٢: ٣٧.

ثمَ وبّخ الله تعالىٰ اليَهُود بنِفاقهم وقَساوة قُلوبهم وعدَم تأثُّرهم بالمَواعظ والآيات بقوله: ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ﴾ وحضَروا عندَكم ﴿قَالُوا﴾ لكُم نِفاقاً: ﴿آمَنَّا﴾ بما آمنتُم، واتّبعنا الرّسُول، ﴿وَ﴾ الحالُ أنّهم ﴿قَد دَخَلُوا﴾ مجَلسكم مُلابسين ﴿بِالْكُفْرِ﴾ مُلازمين له ﴿وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا﴾ مِن ذَلك المَجلس مُتلبّسين ﴿بِهِ﴾ لَم يُؤثّر فيهم ما سمِعوا وشهِدوا مِن المَواعظ والآيات ﴿وَاللهُ أعلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ ويستُرون مِنكم مِن الكُفْر والحَسَد، والاجْتِهاد في المَكر بالمُسلمين، والبُغض والعَداوة.

قالوا: نزلت في ناسٍ مِن اليَهُود كانوا يدخُلون علىٰ رَسُول الله ﷺ يُظهرون له الإيمان نِفاقاً، فأخبره الله بشأنهم، فإنّهم يخرُجون مِن مَجلسه كما دخَلوا، لَم يتعلّق بقَلبهم شيءٌ مِن الدّلائل والنّصائح والتذكيرات[١].

وقيل: ضمير الخِطاب في الجَمع راجع إلىٰ الرّسُول ﷺ، والجَمع للتّعظيم[٢].

وعن القُمّي: «نزلت في عبدِالله بن أُبَيّ»[٣].

وَتَرَىٰ كَثِيراً مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لَوْلَا يَنْهَاهُمُ ٱلرَّبَّانِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْـمَ وَأَكْـلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ[٦٢ و ٦٣]

ثمَ استشهد الله علىٰ نِفاقهم بسُوء أعمالهم بقوله: ﴿وَتَرَىٰ﴾ يا محمّد وتُبصر ﴿كَثِيراً مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ﴾ غير مُستحيين مِنك، ويشرَعون بالعَجَلة شوقاً ورغبةً ﴿فِى ٱلْإِثْمِ﴾ وقول الكَذِب ﴿وَٱلْعُدْوَانِ﴾ والظُّلم علىٰ الخَلق ﴿وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾ وأخذ الرّشوة، والله ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ مِن تِلك المَعاصي العِظام.

ثمَ وبّخ سُبحانه الزُّهاد والعُلماء علىٰ تَرك نَهيهم عن المُنكرات بقوله: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ﴾ ويردَعهم ﴿ٱلرَّبَّانِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾ مِن اليَهُود ﴿عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ﴾ وكَلامهم الكَذِب ﴿وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾ والمَال الحَرام، معَ عِلمهم بقُبحها وحُرمتها، ومُشاهدتهم مُباشرتهم لها، بالله ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ مِن المُداراة مع العُصاة، وترك نَهيهم عن المنكر.

قيل: الرّبّانيّون عُلماء أهل الإنجيل، والأحبار عُلماء اليَهُود، وقيل: كُلّهم في اليَهُود[٤].

في ذم تارك النهي عن المنكر

قيل: في الآيتين دَلالة علىٰ أن تارك النّهي عن المُنكر بمَنزلة مُرتكبه؛ لأنّه تعالىٰ

---

١. تفسير الرازي ١٢: ٣٨.
٢. تفسير أبي السعود ٣: ٥٦، تفسير روح البيان ٢: ٤١٢.
٣. تفسير القمي ١: ١٧٠، تفسير الصافي ٢: ٤٨.
٤. مجمع البيان ٣: ٣٣٥، تفسير الرازي ١٢: ٣٩.

ذمّهما بلفظ واحد، بَل قيل: إنّ ذَمّ تارك النَّهي عن المُنكر أقوى مِن ذَمّ مرتكبه؛ لأنّ الله تعالىٰ قال في ذَمّ تاركِ النّهي عن المُنكر: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ والصُّنع أقوىٰ مِن العمَل؛ لأنّ الصُّنع هُو العمَل إذا صار راسِخاً، فجعَل ذَنْب تارك النّهي ذَنباً راسخاً[1].

عن ابن عبّاس رضي الله عنه: هِي أشدّ آية في القُرآن. وقال الضَحّاك: ما في القُرآن آية أخْوف عندي مِنها[2].

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُم مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللهُ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَاداً وَٱللهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ [٦٤]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ ذَمّهم وتَقريعهم بأعمالهم السيئة، ذَمّهم بعقائدهم السّخيفة الفاسدة بقوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللهِ مَغْلُولَةٌ﴾ مَقبوضة مُمسِكة عن العَطاء.

قال بعضُ المُفسّرين مِن العامّة: إنّ اليَهُود كانوا أكثر النّاس مالاً وأخصبَهم ناحيةً، فلمّا بعث الله محمّداً صلى الله عليه وآله وكذّبوه ضيّق الله عليهم المَعيشة، فوصَفوا الله بالبُخْل[3].

وعن الحَسن: أنّهم عبّروا عن عدَم تَعذيبهم في الآخرة إلّا أيّاماً قليلة بهذه العِبارة الدّالّة علىٰ العَجز[4].

وعن القُمّي: [قالوا:] قد فرغ الله مِن الأمر، لا يُحدث الله [غيرَ ما قدّره] في التّقدير الأوّل[5].

وفي (التوحيد): عن الصادق عليه السلام، في هذه الآية: «لَم يعنوا أنّه هكذا، ولكنّهم قالوا: قد فرَغ مِن الأمر فلا يزيد ولا يَنقِص»[6].

وعن الرضا عليه السلام، في كلامٍ له في إثبات البَداء مع سُليمان المَرْوزي وقد كان يُنكره، فقال عليه السلام: «أحسبُك ضاهيتَ اليَهُود في هذا الباب؟»، قال: أعوذُ باللهِ من ذلك، وما قالت اليَهُود؟ قال: «[قالت:] يدُ الله مَغلولة، يعنُون أنّ الله قد فرَغ مِن الأمر، فليس يُحدِث شيئاً».[7] الحديث.

ثمّ دَعا سُبحانه عليهم بقوله: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ في نار جهنّم، أو المُراد: ألبسهم الله الفَقر حتّىٰ عجَزوا عن الإنفاق والإعطاء ﴿وَلُعِنُوا﴾ وأُبعدوا عن الرّحمة ﴿بِمَا قَالُوا﴾ مِن الكلمة الشّنيعة، وبما

---

١. تفسير الرازي ١٢: ٣٩.
٢. تفسير الرازي ١٢: ٤٠.
٣. تفسير الرازي ١٢: ٤١، تفسير روح البيان ٢: ٤١٤.
٤. تفسير الرازي ١٢: ٤١.
٥. تفسير القمي ١: ١٧١، تفسير الصافي ٢: ٤٩.
٦. التوحيد: ١/١٦٧، تفسير الصافي ٢: ٤٩.
٧. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١/١٨٢، تفسير الصافي ٢: ٥٠.

اعْتقدوا مِن العَقائد السخيفة.

ثم ردّهم بقوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ وقُدرته ورَحمته واسِعتان، وخَزائنه غير نافذة ﴿يُـنفِقُ﴾ مِنها ﴿كَيْفَ يَشَاءُ﴾ ويَختار علىٰ مَن يشاء، يُوسع تارةً ويُضيّق أُخرىٰ، علىٰ حَسَب ما تقتضيه حِكْمته. فاليَدان كِناية عن القُدْرة، والجُود وإسناد البَسْط إليهما كِناية عن غاية الجُود، حيثُ إنّ مَـن له غـاية الجُود يُعطي بيدَيه جميعاً.

ثمّ ذمّهم بازدِياد كُفْرهم بنُزول الآيات، بقوله: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُم﴾ وهُم علماؤهم ورُؤساؤهم - علىٰ ما قيل[1] - ﴿مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ﴾ مِن القُرآن ﴿طُغْيَاناً﴾ علىٰ طُغيانهم ﴿وَكُفْراً﴾ علىٰ كُفْرهم السّابقين.

ثمّ ذكَر ابْتلاءهم بالعُقوبات الدُّنيويّة بقوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا﴾ وأوقعنا ﴿بَيْنَهُمُ﴾ وفي فِـرَقهم ﴿ٱلْـعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَاءَ﴾ المُستمرّتين ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلقِيَامَةِ﴾ حيثُ إنّهم لمّا أنكروا الحَقّ وعارَضوا الرّسُول طلباً للرّاحة، وحِفظاً للجَاه والرّئاسة، ابْتلاهم الله بسَبب اخْتِلاف العَقائد والأهـواء بـالمَشقّات الكـثيرة، والغُموم الوفيرة، فحُرِموا عن نَيل مَقاصدهم، وفـاتتهم سَعادة الدُّنـيا والآخـرة، ولذلك التّـخالُف والتّباغُض بينهم ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا﴾ وأشعلوا ﴿نَاراً لِـلحَرْبِ﴾ مـعَ الرّسُـول ﷺ، وأثـاروا فِـتنةً بـيْن المُسلمين ﴿أَطْفَأَهَا ٱللهُ﴾ وأخمدها بإيقاع المُنازعة والمُعاداة فيهم، فلا يَتّفقون عـلىٰ رأي، فـيكون ذلك سبباً لانْصِرافهم عن الحَرب، ومَقهوريّتهم للمُسلمين.

قيل: كان اليهود في أشدّ بأسٍ وأمنع دار، حتّىٰ إنّ قريشاً كانت تعتضِد بهم، وكان الأوس والخَزرج تتكثّر بمُظاهرتهم، فذَلّوا وقُهروا، وقَتَلَ النبيُّ ﷺ بني قُريظة، وأجلىٰ بني النّضير، وغلَب علىٰ خَيبر وفَدَك، فاسْتأصل الله شأفَتهم حتّىٰ إنّ اليوم تجِدُ اليَهُود أذَلّ النّاس[2].

ثمّ ذكَر الله سُبحانه غاية جُهدهم في اسْتِخراج أنواع الحِيَل والمَكر في تَضعيف الإسلام، مَع غاية ذُلّهم وضَعفهم، بقوله: ﴿وَيَسْعَوْنَ﴾ مع الوصَف ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ليُوقعوا ﴿فَسَاداً﴾ بيْن المُسلمين.

قيل: إنّهم لمّا خالفوا حُكم التّوراة سلّط الله عليهم بُخت نصّر، ثمّ أفسدوا فسلّط عـليهم بُـطرس الرّومي، ثمّ أفسدوا فسلّط عليهم المَجوس، ثمّ أفسدوا فسلّط عليهم المُسلمين.

﴿وَٱللهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ في الأرض والسّاعين فيها لإثارة الفِتن، بَل هُو ممَقوت عندَه[3].

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَابِ آمَنُوا وَٱتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ

---

١. تفسير روح البيان ٢: ٤١٤. ٢. تفسير الصافي ٢: ٥٠.
٣. تفسير الرازي ١٢: ٤٥.

ٱلنَّعِيمِ[٦٥]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ ذمّ أهل الكِتاب اعتقاداً وعملاً، وتَهجين طَريقتهم، وبَخهم علىٰ سَفَههم وخطأهم في الرأي بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَابِ﴾ نزّهوا أنفسهم عن الرّذائل، وأنصرفوا عن الكُفر والعِناد، و ﴿آمَنُوا﴾ بالرّسُول، وبما أُنزل إليه ﴿وَٱتَّقَوْا﴾ الكُفر والظُّلم والإفساد وسائر المَعاصي، والله ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ ولستَرنا عليهم بالعَفو خَطيئاتهم ﴿وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ﴾ يومَ القِيامة ﴿جَنَّاتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ وخلّدناهم في العِلّيّين؛ لأنّ الإسلام يَجُبُّ ما قبلَه وإن جَلّ.

وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا ٱلتَّوْرَاةَ وَٱلْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِم مِن رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ[٦٦]

ثمّ ذكَر الفَوائد الدُّنيويّة للإيمان بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا ٱلتَّوْرَاةَ وَٱلْإِنْجِيلَ﴾ وعمِلوا بأحكامهما، وحفِظوهما مِن التّحريف والتّغيير، ووفَوا بما فيهما مِن العَهد عليهم بالإيمان بمحمد ﷺ ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِم مِن رَبِّهِمْ﴾ من سائر الكُتب السّماويّة، أو القُرآن العظيم المُصدِّق لكتُبهم، والله[١] ﴿لَأَكَلُوا﴾ وارْتزقوا مِن البَركات السّماويّة التي تنزِل عليهم ﴿مِن فَوْقِهِمْ وَ﴾ مِمّا يخرُج ﴿مِن﴾ الأرض التي ﴿تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ مِن الحُبوب والفَواكه والنّباتات.

وفيه تَنبيه علىٰ أنّ ما أصابهم مِن الضَّنك والضِّيق إنّما هُو مِن شؤم جِناياتهم وَسيّئات أعمالهم، ولو ترَكوها لوجدوا سَعادة الدُّنيا مِن سَعَة الرِّزق والعِزّ والجَاه، وسَعادة الآخرة مِن النّجاة مِن العَذاب والفَوز بالجنّة والنِّعم الدّائمة، فلا قُصور في فَيض الفيّاض.

ومعَ ذلك كان محَلّ الأسف أنّ قليلاً ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ﴾ وجَماعة ﴿مُقْتَصِدَةٌ﴾ عادلة غير مائلة إلىٰ طُرق الإفراط والتّفريط، وغير مُنحرفة عن نَهج الحقّ والطَريق المُستقيم إلىٰ الغُلوّ والتّقصير.

عن القُمّي ﷺ: قومٌ مِن اليَهود دخَلوا في الإسلام فسمّاهم الله مُقتصدة[٢].

﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ قيل: فيه معنىٰ التّعجُّب. والمعنىٰ: ما أسوأ عمَلهم! وهُم الّذين أقاموا علىٰ الجُحود، وأصرّوا علىٰ الكُفر[٣] والضّلال، وعارَضوا الرّسُول ﷺ.

يَا أَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ وَإِن لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَٱللهُ

---

١. قوله: (والله) يشير إلى وجود قَسَم، وليس ثمّة قَسَم في الآية.

٢. تفسير القمي ١: ١٧١، تفسير الصافي ٢: ٥١.

٣. تفسير الصافي ٢: ٥١.

يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَافِرِينَ[٦٧]

ثمّ لمّا وصَف الله سُبحانه المُقتصدين مِنهم بالقِلّة، والجَاحدين المُتمرّنين مِنهم علىٰ الكُفْر والعِناد بالكثْرة، حثّ الرّسُول ﷺ بالتّبليغ وعدَم المُبالاة بكثْرة الأعداء الجَاحدين، مَع وَعْده بالعِصمة مِن شَرّ الأعداء بقوله: ﴿**يَا أَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ**﴾ إلىٰ النّاس ﴿**مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ**﴾ في عليّ، علىٰ ما تضافر عنهم عليهم السلام وقالوا: «كذا نزلت»[1].

ثمّ هدّد نبيّه ﷺ علىٰ تَرك التّبليغ إعذاراً له وإظهاراً للاهْتِمام بالأمر بقوله: ﴿**وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ**﴾ ما أمرتُك مِن تَبليغ هذا الذي اُنزل في عليّ ﷺ وكتَمْتَه ﴿**فَمَا بَلَّغْتَ**﴾ مِن قِبَل الله إلىٰ النّاس ﴿**رِسَالَتَهُ**﴾ وما اُمرتَ مِن أوّل بِعثتك بتَبليغه؛ لعدَم ترتُّب الفائدة علىٰ سائر الأحكام التي بلّغتَها بدُون تَبليغ هذا الأمر، فتكون بتَرك تَبليغ وِلاية عليه السلام عليّ بمَنزلة تَارك التّبليغ رأساً، ويكون عِقابُك عقابه ﴿**وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ**﴾ ويحفَظك ﴿**مِنَ**﴾ شرّ ﴿**ٱلنَّاسِ**﴾ وضَرّهم، فلا تخَف مِنهم ولا تُبال بهم.

ثمّ أكّد سُبحانه وَعده بعِصمته وحِفظه بقوله: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي**﴾ إلىٰ نَيل المَقاصد ﴿**ٱلْقَوْمَ ٱلْكَافِرِينَ**﴾ ولا يُمكّنهم مِن إنفاذ مَرامهم.

قيل: بنُزولها في قضيّة الرَّجْم والقِصاص[2]. وقيل: في قضيّة أخذ الأعرابي سَيف النبيّ ﷺ، وإرادته قَتْله فسقط مِن يده[3]. وقيل: في أمر زيد وزَينَب بِنت جَحش[4]. وقيل: في حُقوق المسلمين[5]. وقيل: في استِهزاء اليَهود وسُكوت النبيّ ﷺ عنهم[6]. وقيل: في سُكوت النبيّ عن تعييب الأصنام[7]. وقيل: في تَبليغ حُكم الجِهاد[8]. وقيل: لرَفْع مَهابة قُريش وأهل الكِتاب مِن قَلب النبيّ ﷺ حينَ عابهم[9].

أقول: لا شُبهة في نُزولها في حجّة الوَداع، فتِلك الوُجوه التي ذكَرها مُفسّرو العامّة غير مُناسبة لنُزولها في الوَقت المذكور.

ثمّ أنّ الفَخر الرازي بعدَ نَقل الوُجوه المَذكورة عن العامّة في تَفسيره قال: العاشر -أي مِن الوُجوه- : أنها نزلَت في فَضل عليّ بن أبي طالب عليه السلام، ولمّا نزلَتْ هذه الآية أخذ بَيده وقال: «مَن كنتُ مَولاه فعليٌّ مَولاهُ، اللّهمّ والِ مَن وَالاه، وعادِ مَن عاداه»، فلقِيه عُمر فقال: هنيئاً لك يا بن أبي طالب، أصبحتَ مَولاي ومَولىٰ كُلّ مُؤمنٍ ومُؤمنةٍ. وهُو قول ابن عبّاس، والبرّاء بن عازب، ومحمّد بن علي[10].

أقول: قال آيةُ الله العلّامة الحِلّي في (نَهج الحَقّ) بعدَ ذِكر الآية الشّريفة: نقل الجُمهور أنّها نزلَت في فَضل عليّ عليه السلام يوم غَدير خُمّ، فأخذ رَسُول الله ﷺ بيد عليّ عليه السلام وقال: «أيُّها النّاس، ألستُ أولىٰ

---

١. تفسير الصافي ٢: ٥١.
٢. تفسير الرازي ١٢: ٤٩.
٣ - ١٠. تفسير الرازي ١٢: ٤٩.

مِنكم بأنفسكم؟». قالوا: بلىٰ يا رَسُول الله. قال: «مَن كنتُ مَولاه فهذا عليٌ مَولاه، اللّهمّ وَالِ مَن وَالاه، وعادِ مَن عاداه، وانصُرْ مَن نصَرَه، وأخذُلْ مَن خذَله، وأدِرْ الحَقّ معه كيفما دَار»[١].

وقال فَضل بن روزبهان رَدّاً علىٰ العلّامة: أمّا ما ذَكره مِن إجماع المُفسرين علىٰ أنّ الآية نزلت في عليّ فهُو باطِل، فإنّ المُفسّرين لَم يجتمعوا[٢] علىٰ هذا، وأمّا ما رُوي [من] أنّ رَسُول الله ﷺ ذكره يومَ غدير [خُمَ] حينَ أخذ بيَد عليّ قال: «ألستُ أولىٰ»، فقد ثبَت هذا في الصِّحاح[٣].

وقال القاضي نُور الله التُّستري (نوّر الله مضجعه)، في ردّ النّاصب ابن رُوزبهان، وإثبات رِواية العلّامة (أعلىٰ الله في الخُلد مقامه): رُوي الحديث ـ يعني ما ذكَره العلّامة ـ في صِحاح القَوم كالبُخاري، ورَواه أحمد بن حَنبل إمامهم في مُسنده بطُرق مُتعدّدة علىٰ الوَجه الذي ذكره المصنّف، وكذا رَواه الثّعلبي في تفسيره، وابن المَغازلي الشّافعي في كتاب (المَناقب) مِن طُرق شتّىٰ، وابن عُقدة في مائة وخمسة طُرق، وذكر الشّيخ ابن كثير الشّامي الشّافعي عندَ ذِكر أحوال محمّد بن جرير الطّبري: أنّي رأيتُ كِتاباً جمعَ فيه أحاديث غدير خُم في مُجلّدين ضَخمين، ونقل عن ابن أبي المعالي الجُويني أنّه كان يتعجّب ويقول: شاهدتُ مُجلّداً ببغداد في يدِ صحّاف فيه رِوايات هذا الخبر مكتوباً عليه: المجلّد الثامن والعِشرون مِن طُرق «مَن كنتُ مَولاه فعليٌ مَولاه» ويتلُوه المجلّد التاسع والعِشرون، وأثبت الشّيخ ابن الجوزي الشافعي في رسالته المَوسومة بـ(أسنىٰ المَطالب في مَناقب عليّ بن أبي طالب) تواتُر هذا الحديث.

إلىٰ أنْ قال القاضي: وبالجُملة قد بلَغ هذا الخبر في الاشْتِهار إلىٰ حَدٍّ لا يُوازىٰ به خبر مِن الأخبار، وتلقّته محقّقو الأُمّة بالقَبُول، أنتهى[٤].

وفي (الجوامع)، عن ابن عبّاس، وجابر بن عبد الله: أنّ الله أمر نبيّه ﷺ أن ينصِب عليّاً للنّاس ويُخبرهم بوِلايته، فتخوّف أن يقولوا: حامىٰ ابن عمّه، وأنْ يشُقّ ذلك علىٰ جَماعةٍ مِن أصحابه. فنزلت هذه الآية، فأخذ بيده يومَ غَدير خُمّ وقال: «مَن كنتُ مَولاه فهذا عليٌ مَولاه» وقرأها[٥].

وفي (الكافي): عن الباقر عليه السلام ـ في حديثٍ ـ: «ثمّ نزلت الولاية، وإنّما أتاه ذلك يومَ الجُمعة بعرَفة، أنزل الله تعالىٰ: ﴿اليَومَ أكمَلتُ لَكُم دِينَكُم وأَتمَمْتُ عَلَيكُم نِعمَتِي﴾[٦]، وكان كَمال الدِّين بوِلاية عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فقال عندَ ذلك رَسُول الله ﷺ: أُمّتي حَديثو عَهدٍ بالجاهليّة، ومتىٰ أخبرتُهم بهذا

---

١. نهج الحق: ١٧٣.
٢. في المصدر: لم يجمعوا.
٣. إحقاق الحق ٢: ٤٨٢.
٤. إحقاق الحق ٢: ٤٨٥.
٥. جوامع الجامع: ١١٤، تفسير الصافي ٢: ٥١.
٦. المائدة: ٣/٥.

في ابن عمّي يقول قائلٌ، ويقول قائل، فقلتُ في نفسي من غير أن ينطِقَ لِساني، فأتتني عزيمةٌ من الله بتلة[١]، أوعدني إنْ لَم أُبلّغ أن يُعذّبني، فنزلَت: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغ﴾ الآية، فأخذ رَسُول الله ﷺ بيَد عليّ عليه السلام فقال: أيُّها النّاس، إنّه لَم يكُن نبيٌّ مِن الأنبياء مِمّن كان قَبلي إلّا وقد عمّره الله ثمّ دَعاه فأجابه، فأوشِكُ أن أُدعىٰ فأُجيب، وأنا مسؤول وأنتم مَسؤولون، فماذا أنتُم قائلون، فقالوا: نشهدُ أنّك قد بلّغتَ ونصَحتَ وأدّيتَ ما عليك، فجزاكَ الله أفضل جَزاء المُرسَلين، فقال: اللّهُمّ اشْهَد ـ ثلاثَ مرّات ـ ثمّ قال: يا معشَر المُسلمين، هذا وليُّكم مِن بعدي، فليبلّغ الشّاهد منكم الغائب»[٢].

وقال أبو جعفر عليه السلام: «كان والله، أمين الله علىٰ خَلقه وغَيبه ودِينه الذي ارْتضاه لنفسه»[٣].

وعنه عليه السلام: «أمر الله عزّ وجلّ رَسُوله بوِلاية عليّ عليه السلام وأنزل عليه: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ ورَسُولُهُ﴾[٤] الآية، وفرض ولاية أُولي الأمر، فلَم يدرُوا ما هِي، فأمر الله محمّداً، أن يُفسّر لهم الوِلاية كما فسّر لهم الصّلاة والزّكاة والصّوم والحَجّ، فلمّا أتاه ذلك مِن الله ضاقَ بذلك صَدرُ رَسُول الله ﷺ، وتخوّف أن يرتدّوا عن دِينهم وأن يُكذّبوه، فضاق صَدرُه وراجَع ربّه عزّ وجلّ، فأوحىٰ الله إليه: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُول﴾ الآية، وصدع بأمر الله تعالىٰ ذِكْرُه، فقام بوِلاية عليّ عليه السلام يومَ غَدير خُمّ، فنادىٰ: الصّلاة جامعة، وأمر النّاس أن يُبلّغ الشّاهدُ الغائب».

قال عليه السلام: «وكانت الفريضة تنزِل بعدَ الفَريضة الأُخرىٰ، وكانت الوِلاية آخِر الفَرائض، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُم دِينَكُم وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُم نِعمَتِي﴾ قال: يقول الله عزّ وجلّ: لا أُنزِل عليكم بعدها فريضةً، قد أكملتُ لكم الفَرائض»[٥]. الخبر، إلىٰ غير ذلك مِن الرِّوايات.

ومع ذلك قال الفَخر الرازي: واعْلَم أنّ الرِّوايات وإن كثُرت إلّا أنّ الأولىٰ حَمله علىٰ أنّه تعالىٰ آمنه مِن اليَهُود والنّصارىٰ، وأمره بإظهار التّبليغ مِن غير مُبالاة مِنه بهم وذلك لأنّ ما قَبل هذه الآية بكثير وما بعدَها بكثير لمّا كان كلاماً معَ اليَهُود والنّصارىٰ، امتنعَ إلقاء هذه الآية الواحدة في البَيْن علىٰ وَجهٍ تكون أجنبيّة عمّا قبلَها وما بعدَها[٦].

وفيه: أنّ الظّاهر أن الله آمنه مِن ضَرَر جميع الكُفّار سَواءً أكانوا يَهُوداً أو نصارىٰ أو غيرهم مِن المَجوس والمُشركين، والمُرتدّين في زَمانه، والمُنافقين، كأصحاب الصّحيفة المَلعونه والعَقَبة. ومِن المعلوم أنّ العامّ ليس أجنبيّاً عن الخاصّ، مع أن الظّاهر بَل المُتيقّن أنّ الآية نزلَتْ بعدَ تبليغ غالب

---

١. أي قاطعة.
٢. الكافي ١: ٢٢٩/٦، تفسير الصافي ٢: ٥٢.
٣. الكافي ١: ٢٣٠/٦، تفسير الصافي ٢: ٥٢.
٤. المائدة: ٥٥/٥.
٥. الكافي ١: ٢٢٩/٤، تفسير الصافي ٢: ٥٢.
٦. تفسير الرازي ١٢: ٥٠.

الأحكام، بَل بعدَ تَكميل الدِّين، فلَو كان المَقصود تأمينه في تَبليغ مُطلق الأحكام كان الأنسب نُزولها في أوائل البِعْثة، أو في أوائل الهِجْرة، والحال أنه ﷺ كسَر الأصنام ووبّخ المُشركين معَ غاية شَوكتهم وحِرْصهم علىٰ عبادتها، ولعَن اليَهُود والنَصارى علىٰ رُؤوس الأشهاد، وحوّل القِبلة مِن البيت المُقدّس إلىٰ الكَعبة، وقاتَل المُشركين واليَهُود، ولَم ينُقل مِنه ﷺ خَوفٌ في مَوردٍ مِن المَوارد.

والحاصِل: أنه لَم يكُن للنبيّ ﷺ خَوف في تَبليغ الأحكام وتَعليم العَقائد سيّما بعدَ تذليل اليَهُود، وقَتل بني قُريظة، وإجلاء بنَي النَضير، وفَتح قِلاع خَيبر وفَدَك، معَ أنه ليس مِن شأن النبيّ ﷺ الخَوف مِن الأعداء في التَبليغ لعِلمه بأنّ الله يَحْفَظه حتّىٰ يُتمّ الحُجّة.

وبعدَ تكميل الدِّين وإتمام الحُجّة علىٰ العالَمين، يكون مَجال الخَوفِ مِن القَتل عندَ تَبليغ آخر الأحكام، وهُو وُجوب طاعة الإمام والخَليفة بعدَه، فاحْتاج إلىٰ التأمين فيه مِن العَدُوّ فأمنه بقوله: ﴿وَٱللهُ يَعْصِمُكَ﴾ ويشهَد لذلك مارواه كثيرٌ مِن العامّة في شأن نزول آية ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعذَابٍ وَاقِعٍ﴾[1].

قُلْ يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا ٱلتَّوْرَاةَ وَٱلْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِن رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُم مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَافِرِينَ[٦٨]

ثمّ أنه تعالىٰ بعدَ تَسفيه أهل الكِتاب في تَرك العمَل بما أنزل الله، وتخطِئتهم في عدَم الإيمان بالقُرآن، وتأمين الرَسُول مِن ضَرَر الكُفّار، أمره بتَغْليظ القول عليهم في ترك العمَل بالكُتب السَماويّة بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد، لليَهُود والنَصارىٰ تحَقيراً لهم، وتَصْغيراً لشأنهم: ﴿يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ مِن الدِّين، ولا يكون في قولكم وفِعلكم شيءٌ مِن الحَقّ والصَواب ﴿حَتَّىٰ تُقِيمُوا ٱلتَّوْرَاةَ وَٱلْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِن رَبِّكُمْ﴾ مِن سائر الكُتب السَماويّة، أو مِن القُرآن العظيم، وتُؤمنوا بجميعها، وتُوفُوا بعَهد الله الذي فيها مِن وجُوب الإيمان بمحمّد ﷺ وبكِتابه، وتلتزموا بما فيها.

ثمّ بيّن غاية خُبْثهم وشِدّة عدَاوتهم بقوله: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُم مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ﴾ مِن الآيات الدَالّة علىٰ صِدْقك في النُبوّة ﴿طُغْيَاناً﴾ وعُتوّاً ﴿وَكُفْراً﴾ وجُحوداً، فإذا كانوا بهذه المَرتبة مِن الخَباثة والعِناد ﴿فَلَا تَأْسَ﴾ ولا تحزَن ﴿عَلَى﴾ زِيادة كُفر ﴿ٱلْقَوْمِ ٱلْكَافِرِينَ﴾ فإنّ ضَرَر ذلك

---

١. المعارج: ١/٧٠، راجع: تفسير القرطبي ١٨: ٢٧٨، وتفسير أبي السعود ٩: ٢٩، والدر المنثور ٨: ٢٧٧، والغدير ١: ٢٣٠.

راجِع إليهم، لا إليك ولا إلىٰ المُسلمين.

إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَٱلَّذِينَ هَادُوا وَٱلصَّابِئُونَ وَٱلنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِـاللهِ وَٱلْـيَوْمِ ٱلآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاًفَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ[٦٩]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ تَغليظ القَول علىٰ الكافرين مِن أهل الكِتاب، أظهر اللُّطف بالمُؤمنين مِنهم بقوله: **﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾** بالله وكُتبه ورُسله **﴿وَٱلَّذِينَ هَادُوا وَٱلصَّابِئُونَ﴾** الَذِين هُم أشدّ الفِرَق كُفراً وضَلالاً **﴿وَٱلنَّصَارَىٰ﴾** خُصوص **﴿مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾**، قد مرّ تفسيره في البقرة[١].

قيل: فيها تَنبيه علىٰ أن لا فَضيلة لأحدٍ إلّا بالإيمان والعمل الصّالح مِن غيرِ فَرق بيْن مَن آمن أوّلاً، أو بعد الكُفْر، فمَن اتّصف بالوَصفين كان له الأمن في القِيامة[٢].

أقول: لاشَكّ في فَضيلة الأوّل على الثّاني.

لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَاءِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُواوَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ[٧٠]

ثمّ سلّىٰ سُبحانه نبيّه ﷺ بتذكُّر أنّ خُبث ذات طائفة بني إسرائيل وعُتوّهم بنقَض عَهد الله، وقَتل الأنبياء واتباع الهوى، ليس مُختصّاً بزمانه بقوله: **﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَاءِيلَ﴾** بالتوحيد والإيمان، والعمل بأحكام التّوراة **﴿وَأَرْسَلْنَا﴾** معَ ذلك العهد **﴿إِلَيْهِمْ﴾** بعدَ مُوسى **﴿رُسُلاً﴾** كثيرة ليُذكّروهم العهد، ويُبيّنوا أحكام دِينهم.

ثمّ كأنّه قيل: فما عاملوا[٣] مع الرسل؟ فأجاب بقوله: **﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ﴾** مِن قِبَل الله **﴿رَسُولٌ﴾** مِن أولئك الرُّسل **﴿بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُهُمْ﴾** ولا يُوافق شَهواتهم مِن التّكاليف الشّاقّة عليهم، والأحكام غير المرضيّة لهم، خَالفوه وعَادَوه.

ثمّ كأنّه قيل: كيف خالفوا الرُّسُل، وما عاملوا[٤] معهم؟ فأجاب سُبحانه بقوله: **﴿فَرِيقاً﴾** مِنهم **﴿كَذَّبُوا﴾** هُم مِن غير أن يتعرّضوا لهم بالإضرار والقَتل **﴿وَفَرِيقاً﴾** آخَر مِنهم كانوا **﴿يَقْتُلُونَ﴾** هُم كزكَريّا ويحيىٰ.

---

١. سورة البقرة: ٦٢/٢. ٢. تفسير روح المعاني ٦: ٢٠٣.

٣ و ٤. كذا، والظاهر: كيف تعاملوا.

وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَٱللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ[٧١]

ثمّ أشار سُبحانه إلىٰ عِلّة جُرأتهم علىٰ الأنبياء بقوله: ﴿وَحَسِبُوا﴾ وظنّوا لغُرورهم بكَونهم أولاد الأنبياء، وأنّهم بشَفاعتهم يدفعون عنهم العَذاب ﴿أَلَّا تَكُونَ﴾ لهم بمَعاصيهم ﴿فِتْنَةٌ﴾ وبَلاء مِن الله ﴿فَعَمُوا﴾ عن رُؤية الآيات، وكُفّ بصَرُهم عن إدراك المُعجزات ﴿وَصَمُّوا﴾ عن استِماع الحَقّ الذي ألقىٰ إليهم الرُّسُل.

قيل: كانت تِلك الحالة إلىٰ زمان داود وسُليمان عليهما السلام ﴿ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾[1] بسَبب إيمانهم بهما، وانقِيادهم لهما ﴿ثُمَّ عَمُوا﴾ عن الدِّين وطَريق الهِداية ﴿وَصَمُّوا﴾ عن استِماع مَواعظ الأنبياء مرّة أُخرىٰ، ولكن لا كُلّهم بل ﴿كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾ بعدَ بعثة عيسىٰ عليه السلام وخاتَم الأنبياء صلّى الله عليه وآله؛ لأنّ قليلاً مِنهم آمنوا بهما.

قيل: إنّهم أفسدوا حتّىٰ سلّط الله عليهم بُخت نَصّر، فقَتل مِن أهل بَيت المَقدس أربعين ألفاً مِمّن يقرأ التّوراة، وذهب بالبقيّة إلىٰ أرضه، فبقُوا هُنالك علىٰ أقصىٰ ما يكون مِن الذُّل والنَّكَد إلىٰ أن أحدثوا تَوبة صَحيحة، فردّهم الله إلىٰ أحسن حال، ثمّ أفسدوا مرّة أُخرىٰ فسلّط الله عليهم مَلك بابل[2].

ثمّ هدّدهم علىٰ سيّئاتهم بقوله: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌ﴾ وخبير ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ مِن تَكذيب الرُّسُل وقتلهم، وسائر مَعاصيهم.

لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَابَنِي إِسْرَاءِيلَ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ[٧٢]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ الفَراغ مِن ذمّ اليَهود، شرَع في ذَمّ النَصارىٰ وبَيان غاية كُفْرهم وضَلالهم، فبدأ بذِكْر الفِرقة التي هي أضلّ فِرَقهم بقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ﴾ القوم ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا﴾ واعتقَدوا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ وهُم اليَعقوبيّة القائلون بحُلول الله في عيسىٰ، واتّحاده معه، ﴿وَ﴾ الحال أنّه ﴿قَالَ ٱلْمَسِيحُ﴾ حينَ كَونه فيهم ﴿يَابَنِي إِسْرَاءِيلَ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ﴾ ولا تُشركوا به شيئاً، وخُصُّوه بالخُضوع والطّاعة لكَونه ﴿رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ وخَالقي وخَالقكم.

---

١. تفسير الرازي ١٢: ٥٨.

٢. تفسير روح البيان ٢: ٤٢١.

واعلَموا أنّه قد أُوحي إليّ ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللهِ﴾ شيئاً في الألوهيّة والعُبوديّة ﴿فَقَدْ حَرَّمَ ٱللهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾ فلَن يدخُلها أبداً لأنّها دَار المُوحّدين ﴿وَمَأْوَاهُ﴾ ومَسكنه في الآخرة هُو ﴿ٱلنَّارُ﴾ لأنّها مُعدّة للمُشركين ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ علىٰ أنفسهم باختيار الشِّرْك ﴿مِنْ أَنْصَارٍ﴾ ينصُرونهم ويدفعون عنهم العَذاب بالغَلَبة أو الشّفاعة.

لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا إِنَّ ٱللهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلٰهٍ إِلَّا إِلٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَـمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ[٧٣]

ثمّ ذَمّ سُبحانه الفِرقة الأخرىٰ مِنهم، وهُم المَلكانيّة أو النّسطوريّة ـ علىٰ ما قيل[١] ـ وحكَم بكُفرهم أيضاً بقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا إِنَّ﴾ عيسىٰ وأمّه إلٰهان، وإنّ ﴿ٱللهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ﴾ آلهة، ﴿وَ﴾ الحالُ أنّه ﴿مَا مِنْ إِلٰهٍ﴾ ومَعبود مُستحقّ بالذّات للعُبوديّة ﴿إِلَّا إِلٰـهٌ وَاحِـدٌ﴾ ومَعبود فـارِد، هُـو الواجب الوُجود، الكامل الصِّفات.

ثمّ هدّد الفَريقين بقوله: ﴿وَإِن لَمْ يَنْتَهُوا﴾ ولَم يرتَدعوا ﴿عَمَّا يَقُولُون﴾ ويعتقدون مِن الشِّرْك بالله ﴿لَيَمَسَّنَّ﴾ وليُصيبنّ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وثبَتوا علىٰ الشِّرْك ﴿مِنْهُمْ﴾ فـي الآخـرة ﴿عَـذَابٌ﴾ بـالنّار ﴿أَلِيمٌ﴾ في الغاية.

أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَٱللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ[٧٤]

ثمّ أنشأ معنىٰ التّعجُّب مِن اختيارهم هذه الأقاويل الفاسدة، وإصرارهم عليها، وأنكر عليهم تَـرك التّوبة حثّاً عليها بقوله: ﴿أَفَلا يَتُوبُونَ﴾.

قيل: إنّ التّقدير: أيصِرّون علىٰ الكُفر، فـلا يـتُوبون[٢]؟! ﴿إِلىٰ ٱللهِ﴾ حتّىٰ يـتُوب عـليهم ﴿وَ﴾ لا ﴿يَسْتَغْفِرُونَهُ﴾ حتّىٰ يغفِر لهم ﴿وَٱللهُ غَفُورٌ﴾ لمَن عَصاه بالكُفْر أو غيره مِن المَعاصي إن آمن وتاب ﴿رَحِيمٌ﴾ بمَن استَرحمه.

مَا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَـانَا يَأْكُلانِ ٱلطَّعَامَ ٱنْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلآيَاتِ ثُمَّ ٱنْظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ[٧٥]

ثمّ بيّن سُبحانه غاية شأن عيسىٰ وأمّه بقوله: ﴿مَا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ الذي تَغلون في شأنه ﴿إِلَّا﴾

---

١. تفسير روح البيان ٢: ٤٢٢.

٢. تفسير روح البيان ٢: ٤٢٣.

رَجُل مَخلوق لله، ومَربوب له، وإنّما امتاز عن غيره بأنه ﴿رَسُولٌ﴾ ومُبلِّغ عن الله شرائعه وأحكامه، وله مُعجزات باهرة ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ ومضَت في العالَم ﴿مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ الكثيرة، خصّهم بالمَعاجز العظيمة؛ كاليَد البيضاء، وإحياء العَصا وجَعلها ثُعباناً، وفَلْق البَحر، وغير ذلك، ولَم يدَعِ أحدٌ أُلوهيّتهم بظُهور المُعجزات مِنهم، هذا شأن عيسىٰ عليه السلام، ﴿وَ﴾ أمّا ﴿أُمُّهُ﴾ مَريم فإنّها أيضاً امرأة مَخلوقة، غاية شأنها أنها ﴿صِدِّيقَةٌ﴾ مُوقنة، مُصدّقة بكلمات ربّها وكُتُبه كسائر الصِدِّيقات، مِثل حَوّاء وآسية. وأدلُّ الدّليل علىٰ عدَم كونهما إلٰهَين أنّهما ﴿كَانَا﴾ في الدُّنيا ﴿يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ والإلٰه الخالق مُنزّه عن الحَاجة إلىٰ الطّعام والشّراب.

في (العيون): عن الرضا عليه السلام: «معناه: أنّهما كانا يتغوّطان»[1].

والقُمّي: «كانا يُحدِثان، فكنّىٰ عن الحَدَث، وكُلّ مَن أكل الطّعام يُحدِث»[2].

أقول: عليه بعضُ مُفسّري العامّة[3].

عن (الاحتجاج): عن أمير المُؤمنين صَلَواتُ الله عليه، في جَواب الزّنديق، قال: «وأمّا هَفوات الأنبياء وما بيّن الله في كِتابه، فإنّ ذلك مِن أدلّ الدلائل علىٰ حِكْمة الله الباهرة» إلىٰ أن قال: «ألم تسمَع إلىٰ قوله في صِفة عيسىٰ، حيثُ قال فيه وفي أُمّه: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ يعني: أنّ مَن أكل الطّعام كان له ثِقْل[4]، ومَن كان له ثقْل فهُو بعيدٌ مِمّا أدّعتْه النّصارىٰ لابن مَريم»[5].

ثمّ باهىٰ سُبحانه بإبطال عقيدتهم بأحسن بَيان بقوله: ﴿ٱنظُرْ﴾ يا محمّد ﴿كَيْفَ نُبَيِّنُ﴾ ونوضّح ﴿لَهُمُ ٱلْآيَاتِ﴾ ونُقيم البَراهين المُحكمات علىٰ بُطلان عقائدهم.

ثمّ بالغ سُبحانه في الإعلان بغاية ضَلالتهم وبُعدهم عن الحَقّ بقوله: ﴿ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ وكيف يُصرفون عن الحَقّ واستِماع الآيات والتّأمّل فيها.

قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ[٧٦]

ثمّ أمر سُبحانه النبيّ صلى الله عليه وآله بتَوبيخهم، وإقامة البُرهان علىٰ فَساد عقيدتهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد لهؤلاء النصارىٰ: ﴿أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ومِمّا سِواه ﴿مَا لَا يَمْلِكُ﴾ بنفسه وبذاته ﴿ضَرّاً﴾ مِن

١. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١/٢٠١، تفسير الصافي ٢: ٧٣.
٢. تفسير القمي ١: ١٧٦، تفسير الصافي ٢: ٧٣.
٣. راجع: تفسير القرطبي ٦: ٢٥٠.
٤. كذا في المصدر والنسخة، والظاهر: ثفل، كما في تفسير الصافي، والثفل: ما سفل أو رسب من كل شيء.
٥. الاحتجاج: ٢٤٩، تفسير الصافي ٢: ٧٣.

الآلام والأسقام والفقر ﴿وَلَا نَفْعاً﴾ مِن الصِحّة والغِنىٰ والعِزّ.

ثمّ هدّدهم بقوله: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالهم ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بعقائدهم، فيُجازيهم عليها أسوأ الجَزاء.

قُلْ يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراًوَضَلُّوا عَن سَوَاءِ ٱلسَّبِيلِ [٧٧]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ تفضيح أهل الكِتاب وذمّهم وتَوبيخهم، أمر النبيَ ﷺ بنُصْحهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد، مُخاطباً للفَريقين: ﴿يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ لَا تَغْلُوا﴾ ولا تجاوزوا ﴿فِى دِينِكُمْ﴾ وعقائدكم عن الحَدّ غلوّاً وتجاوُزاً ﴿غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ كادِّعاء اُلوهيّة عيسىٰ واُمّه، وبُنُوة عُزير لله ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا﴾ في العقائد والأعمال ﴿أَهْوَاءَ قَوْمٍ﴾ ومُيول أنفس جَمعٍ جَمَعوا جميعَ مَراتب الضَّلال، وهُم أسلافهم وأئمّتهم الّذين ﴿قَدْ ضَلُّوا﴾ عن الحَقّ ﴿مِن قَبْلُ﴾ وفي الأزمنة السّابقة علىٰ بِعثة خاتم الرُّسُل ﴿وَأَضَلُّوا كَثِيراً﴾ مِمّن تابعهم علىٰ ضَلالهم وبِدَعهم ﴿وَضَلُّوا﴾ بعد ظُهور نُور الإسلام ﴿عَن سَوَاءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ والنّهج الحَقّ المُستقيم الذي دَعَوا إليه.

لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِى إِسْرَاءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ [٧٨و ٧٩]

ثمّ لمّا نهاهم الله عن اتّباع الأسلاف لكَونهم في غاية الضَّلال والإضلال، وكانوا مُفتخرين بأنّهم كانوا مِن أولاد الأنبياء، بالغ سُبحانه في ذَمّهم بكَون أسلافهم مَلعونين في ألسنة الأنبياء بقوله: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِى إِسْرَاءِيلَ﴾ مَع كَونهم أقرب مِنكم إلىٰ الأنبياء، وقد كان لَعنهم ﴿عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾.

في ذكر مسخ بني إسرائيل قردة وخنازير

عن الباقر عليه السلام: «أمّا دَاود فإنّه لعَن أهل أيلة[١] لمّا اعْتدوا في سَبتهم، وكان اعْتداؤهم في زمانه، فقال: اللّهمّ ألبسهم اللّعنة مِثل الرّداء علىٰ المنكبين، ومِثل المِنْطقة[٢] علىٰ الحَقْوين[٣]، فمسَخهم الله قِردةً، وأمّا عيسىٰ عليه السلام فإنّه لعَن الّذين اُنزلت عليهم المائدة ثمّ كفروا بعدَ ذلك»[٤].

---

١. أيلَة: مدينة على ساحل بحر القُلْزُم مما يلي الشام، وهي مدينة لليهود الذين حرّم الله عليهم صيد السمك يوم السبت فخالفوا، فمسخوا قِردةً وخنازير.

٢. المِنْطقة: ما يُشدّ في الوسط.

٣. الحَقْو: الخَصر.

٤. مجمع البيان ٣: ٣٥٧؛ تفسير الصافي ٢: ٧٤.

وزاد في (الجوامع): «فقال عيسىٰ عليه السلام: اللّهمّ عذّب مَن كَفَر بعدما أكل مِن المائدة عذاباً لا تُعذّبه أحداً مِن العالمين، والعنهم كما لعَنتَ أصحاب السَّبْت فصاروا خَنازير، وكانوا خَمسة آلاف رَجُل»[١].

وفي رِوايةٍ عن الصادق عليه السلام: «الخنازير علىٰ لِسان داود، والقِردة على لِسان عيسىٰ بن مريم»[٢]. وبه قال أكثر المُفسّرين، علىٰ ما قيل[٣].

ثمّ كأنّه قيل: بأيّ سَبب وقع ذلك؟[٤] فأجاب بقوله: **﴿ذَٰلِكَ﴾** اللّعن والمَسخ وقع **﴿بِمَا عَصَوا﴾** الله.

القُمّي رحمه الله: كانوا يأكلون لَحم الخِنزير، ويشرَبون الخَمر، ويأتون النِّساء أيام حيضهنّ[٥] **﴿وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾** علىٰ النّاس، أو يُبالغون في العِصيان، وفي ارتِكاب ما حرّم الله عليهم.

ثمّ بيّن كيفيّة مُبالغتهم في المعصية بقوله: **﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ﴾** ولا يرتدعون **﴿عَن مُنكَرٍ﴾** وإثم **﴿فَعَلُوهُ﴾**.

وقيل: إنّ المعنىٰ: لا ينهىٰ بعضُهم [بعضاً] عن قبيحٍ يعمَلونه، وتصالحوا علىٰ السُّكوت والكَفّ عن النهي[٦].

عن أمير المُؤمنين صلواتُ الله عليه: «لمّا وقع التّقصير في بني إسرائيل جعَل الرّجُل [منهم] يرىٰ أخاه في الذّنب فينهاه فلا ينتهي، فلا يمنَعْه ذلك من أن يكون أكيله وجَليسه وشريبه، حتىٰ ضرب الله قُلوب بعضِهم ببعضٍ، ونزل فيهم القرآن يقول جلّ وعزّ: **﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾** الآية»[٧].

وعن الصادق عليه السلام: «لَم يكونوا يدخُلون مَداخلهم، ولا يجلِسون مَجالسهم، ولكن إذا لقوهم[٨] أنِسوا بهم»[٩].

ثمّ قال سُبحانه تَعجيباً مِن سُوء فِعْلهم مُؤكّداً له بأنفسهم بقوله: **﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾**.

القُمّي رحمه الله، عن الصادق عليه السلام أنّه سُئل [عن] قومٍ مِن الشّيعة يدخُلون في أعمال السُّلطان، ويعمَلون لهم، ويَحِبُّون لهم ويُوالونهم؟ قال: «ليس هُم مِن الشّيعة، ولكنّهم مِن أُولئك، ثمّ قرأ: **﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا...﴾**»[١٠].

---

١. جوامع الجامع: ١١٦، تفسير الصافي ٢: ٧٤.
٢. تفسير القمي ١: ١٧٦، الكافي ٨: ٢٠٠/٢٤٠، تفسير الصافي ٢: ٧٤.
٣. راجع: تفسير الرازي ١٢: ٦٣.
٤. تفسير روح البيان ٢: ٤٢٥.
٥. تفسير القمي ١: ١٧٦، تفسير الصافي ٢: ٧٥.
٦. تفسير روح البيان ٢: ٤٢٥.
٧. ثواب الأعمال: ٢٦٢، تفسير الصافي ٢: ٧٥.
٨. في تفسير العياشي: ولكن كانوا إذا لقوهم ضحكوا في وجوههم و.
٩. تفسير العياشي ٢: ١٣٢٢/٦٧، تفسير الصافي ٢: ٧٥.
١٠. تفسير القمي ١: ١٧٦، تفسير الصافي ٢: ٧٥.

أقول: أظنّ أن ذِكر الآية سَهو مِن الرّاوي، فإنّ المُناسب قوله: ﴿تَرَىٰ كَثِيراً مِنهُم يَتَوَلَّونَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[١].

تَرَىٰ كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ[٨٠]

ثمّ لمّا وصف الله تعالىٰ أسلافهم بفَساد العَقائد والأعمال، ذَمّ الحَاضرين مِنهم بمُوالاة الكُفّار بقوله: ﴿تَرَىٰ﴾ يا محمّد ﴿كَثِيراً مِنْهُمْ﴾ وهُم كَعب بن اشرف وأصحابه، علىٰ ماقيل[٢]. ﴿يَتَوَلَّوْنَ﴾ ويتَصادقون [مع] ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالإشراك بالله، والله ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ وهيّأوا لسَفر آخرتهم مِن الزّاد وهُو ﴿أَن سَخِطَ ٱللهُ﴾ وغضِب ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بتَوليّهم الكُفّار، وبُغضهم الرّسُول والمُؤمنين ﴿وفِى ٱلعَذَابِ﴾ بالنّار ﴿هُمْ﴾ في الآخرة ﴿خَالِدُونَ﴾ مُقيمون أبداً.

وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلٰكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ فَاسِقُونَ[٨١]

ثمّ بيّن سُبحانه أنّهم ليسُوا علىٰ دِين مُوسىٰ عليه السلام أيضاً بقوله: ﴿وَلَوْ كَانُوا﴾ هؤلاء اليَهود الّذِين يتولّون المُشركين ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ عن صَميم القَلب ﴿بِاللهِ وَالنَّبِيِّ﴾ الذي يدّعون أنّهم علىٰ دِينه، ويعترفون بنُبوّته، وهُو مُوسىٰ عليه السلام ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ﴾ مِن التّوراة، ما تصادقوا [مع] المُشركين، و﴿مَا ٱتَّخَذُوهُمْ﴾ لأنفسهم ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ وأحبّاء؛ لأنّ حُرمة مُولاة المُشركين مُتأكّدة في التّوراة وفي شَرع مُوسىٰ عليه السلام ﴿وَلٰكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ خارجون عن دِين مُوسىٰ وحُكم التّوراة، وإنّما غرَضهم مِن إظهار التّديُّن بأحكام التّوراة ودِين مُوسىٰ عليه السلام حِفظ الجَاه والرئاسة، كذا قيل[٣].

وقيل: إنّ المُراد أنّ المُشركين لَو كانوا مُؤمنين بالله وبمحمّد وكِتابه ما اتّخذهم هؤلاء اليَهود أولياء[٤]. وذلك بعيد في الغاية.

لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا ٱلَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ[٨٢]

---

١. المائدة: ٥/٨٠.   ٢. تفسير الرازي ١٢: ٦٥.   ٣ و٤. تفسير الرازي ١٢: ٦٥.

ثمَ أنّه تعالىٰ بعدَ ذَمّهم بمُوالاة المُشركين، ذَمّهم بمُعاداة المُؤمنين كُمعاداة المُشركين لهم بقوله: ﴿لَتَجِدَنَّ﴾ بالله يا محمّد ﴿أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَاوَةً﴾ وأكثرهم بُغضاً ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بك واتّبعوك ﴿ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ مِن العَرب لشِدّة حِرص الفَريقين علىٰ الدُّنيا والجاه.

قيل: إنّ مَذهب اليَهود وُجوب الإضرار بمَن خالفهم في الدِّين، وأمّا النَصارىٰ فمذهبهم كَفّ الأذىٰ عن الغير مُطلقاً[١]، ولذا قال سبحانه: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا ٱلَّذِينَ قَالُوا﴾ وادّعَوا ﴿إِنَّا نَصَارَىٰ﴾.

عن ابن عبّاس رضي الله عنه: المُراد به النَجاشي وقومه الّذين قدموا مِن الحَبشة علىٰ رَسُول الله صلى الله عليه وآله وآمنوا به، ولَم يُرد جميعَ النَصارىٰ معَ ظُهور عَداوتهم للمُسلمين[٢].

قيل: إنّ الغرَض مِن بَيان التَفاوُت تَخفيف أمر اليَهُود علىٰ الرَّسُول صلى الله عليه وآله[٣]، وتَفريغ خاطره عنهم، وعدَم مُبالاته بهم.

قيل: كان جَعفر يومَ وصَل المدينة إلىٰ رَسُول الله صلى الله عليه وآله وصَل في سبعين رَجُلاً عليهم ثِياب صوف، مِنهم اثنان وستّون رَجُلاً مِن الحَبشة، وثمانية مِن أهل الشّام مِنهم بحيرا الرّاهب، فقرأ رَسُول الله صلى الله عليه وآله عليهم سُورة يسٓ إلىٰ آخرها، فبكَوا حين سمِعوا القُرآن، فآمنوا وقالوا: ما أشبه هذا بما كان ينزِل علىٰ عيسىٰ. فأنزل الله هذه الآية[٤].

ثمّ كأنّه قيل: ما سبب كَونهم أقرب مَودّة؟[٥] فأجاب بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الأقربيّة التي قُلنا ﴿بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ﴾ وعُلماء، ﴿وَ﴾ مِنهم ﴿رُهْبَاناً﴾ وعُبّاداً ﴿وَأَنَّهُمْ﴾ بسَبب عِلمهم وزُهدهم ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن قَبُول الحَق، ولا يتأنّفون مِن الإيمان بك كاليَهُود.

قيل: كان الّذين آمنوا به أصحاب الصَوامع[٦].

وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّاهِدِينَ * وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّالِحِينَ * فَأَثَابَهُمُ ٱللهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ ٱلْمُحْسِنِينَ [٨٣-٨٥]

١-٣. تفسير الرازي ١٢: ٦٦.
٤. تفسير روح البيان ٢: ٤٢٨.
٥ و٦. تفسير روح البيان ٢: ٤٢٨.

ثمّ وصف شِدّة تأثُّرهم باسْتِماع الحَقّ بقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ﴾ مِن آيات القُرآن ﴿تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ﴾ عندَ استماعه ﴿تَفِيضُ﴾ وتصِبّ ﴿مِنَ الدَّمْعِ﴾ لامْتِلائها مِنه ﴿مِمَّا عَرَفُوا﴾ ما اُنزل علىٰ الرّسُول ﴿مِنَ الْحَقِّ﴾.

عن ابن عبّاس: يُريد النّجاشي وأصحابه، وذلك أنّ جعفر الطَّيّار قرأ عليهم سُورة مريم، فأخذ النّجاشي تِبْناً مِن الأرض وقال: والله ما زاد علىٰ ما قال الله في الإنجيل مِثل هذا، وما زالوا يبكُون حتّىٰ فرَغ جعفر بن القراءة[1].

ثمّ كأنّه قيل: ما كانوا يقولون عندَ استِماع القُرآن؟[2] فأجاب بقوله: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا﴾ بأنّ ما سمِعناه هُو الحَقّ، وشهِدنا به، إذَن ﴿فَاكْتُبْنَا﴾ وأثبِتْ أسماءنا ﴿مَعَ﴾ أسماء ﴿الشَّاهِدِينَ﴾ علىٰ أنّ ما أنزلتَه هُو الحقّ، واجْعَلنا في زُمْرتهم ﴿وَمَا﴾ العُذْر ﴿لَنَا﴾ ولأيّ عِلّة ﴿لاَ نُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا جَاءَنَا﴾ مَع وُضوح أنّ ﴿مِنَ الْحَقِّ﴾ الثّابت مِن عندِ الله، ﴿وَ﴾ الحالُ أنّا ﴿نَطْمَعُ﴾ ونتوقّع ﴿أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا﴾ في جنّته ﴿مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ ويرزُقنا مُرافقتهم وصُحبتهم ﴿فَأَثَابَهُمُ اللهُ﴾ وجَازاهم ﴿بِمَا قَالُوا﴾ مِن الاعْتِراف بالحَقّ، والشّهادة عليه، وإظهار الإيمان عن صَميم القَلب.

عن ابن عبّاس [قال: قوله: ﴿بِمَا قَالُوا﴾ يريد بما سألوا]، يعني قولهم: ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾[3].

﴿جَنَّاتٍ﴾ وبَساتين ذَات أشجار مُلتفّة، وغُرَف عالية ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الكثيرة، حالَ كَونهم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أبداً ﴿وَذَلِكَ﴾ الجَزاء الأوفىٰ مِن الله ﴿جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ في عقائدهم وأقوالهم وأعمالهم.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ [٨٦]

ثمّ ردف الله سُبحانه وَعد المُحسنين بالثّواب بإيعاد الكافرين بالعِقاب بقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله وَرسُوله ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ مِن القُرآن بعدَ ما سمِعوها، وجحَدوا المُعجزات بعدَما شاهدوها ﴿أُولَئِكَ﴾ في الآخرة ﴿أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ ومُلازموها.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ [٨٧]

---

١. تفسير رازي ١٢: ٦٨.

٢. تفسير أبي السعود ٣: ٧٢.

٣. تفسير الرازي ١٢: ٦٩.

ثمّ لمّا ناظر الله سُبحانه[1] اليَهود والنّصارىٰ، وأبطل عقائدهم الفاسدة بالحُجَج القاطعة، ومدَح النّصارىٰ وقِسّيسيهم ورُهبانهم بمَودّة المُؤمنين، وعدَم الاستِنكاف عن التّسليم للحَقّ، وكان مجال توهُّم حُسن الرّهبانيّة ومَشروعيتها في دِين الإسلام، بيّن حُرمتها في هذا الدِّين، وإباحة المأكولات والمَشروبات الطيِّبة، بقوله: ﴿يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا﴾ علىٰ أنفسكم ﴿طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ ٱللهُ لَكُمْ﴾ ولذائذ ما أباحه مِمّا لا ضَرَر فيه عليكم ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ ولا تَجاوزوا عن الحُدود المُقرّرة في دِينكم ﴿إِنَّ ٱللهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ عن حُدوده، المُجاوزين عن شرائعه.

في التزام بعض الصحابة بترك الطيّبات

عن الصادق عليه السلام: «نزلت في أمير المُؤمنين صَلواتُ الله عليه وبِلال وعُثمان بن مظعون، فأمّا أمير المؤمنين فحلف أن لا ينام بالليل أبداً، وأمّا بِلال فإنّه حلَف أن لا يُفطِر بالنّهار أبداً، وأمّا عُثمان بن مظعون فإنّه حلَف أن لا ينكِح أبداً».

وزاد القُمّي: «فدخلت امرأة عُثمان علىٰ عائشة وكانت امرأة جميلة، فقالت عائشة: مالي أراك متعطلة[2]؟ فقالت: لمَن أتزيّن، فوَالله ما قربني زوجي منذُ كذا وكذا، فإنّه قد ترهّب ولبس المُسُوح[3] وزهَد في الدُّنيا، فلمّا دخَل رَسُول الله صلى الله عليه وآله أخبرته عائشة بذلك، فخرج فنادىٰ: الصَلاة جامعة، فاجْتمع النّاس فصَعِد المِنبر، فحمَد الله وأثنىٰ عليه، ثمّ قال: ما بالُ أقوامٍ يُحرّمون علىٰ أنفسهم الطَيِّبات؟! [ألا] إنّي أنام باللّيل، وأنكِح وأُفطِر بالنّهار، فمَن رغِب عن سُنّتي فليس مِنّي، فقام هؤلاء فقالوا: يا رَسُول الله، فقد حلَفنا علىٰ ذلك. فأنزل الله ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللهُ بِاللَّغْوِ فِى أَيمَانِكُمْ﴾»[4].

وفي (الاحتجاج): عن الحسَن بن علي عليهما السلام ـ في حديثٍ ـ أنّه قال لمُعاوية وأصحابه: «أنشدُكم الله، أتعلمون أنّ علياً أوّل مَن حرّم الشهوات علىٰ نفسه مِن أصحاب رَسُول الله صلى الله عليه وآله، فأنزل الله: ﴿يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ ٱللهُ لَكُمْ﴾»[5].

في نهي النبيّ صلى الله عليه وآله عن التّرهب

وعن بعضِ مُفسّري العامّة أنّه ذكَر النبيُّ صلى الله عليه وآله يوماً النّارَ، ووصَف القِيامة، وبالغ في الإنذار، فرَقّ له النّاس وبكَوا، فاجْتمع عشرةٌ مِن الصّحابة في بَيت عُثمان بن مَظعون الجُمَحي، وتَشاوروا واتّفقوا علىٰ أن يترهَّبوا ويلبَسوا المُسُوح، ويُجبّوا مَذاكيرهم[6]، ويصُوموا الدّهر، ويقوموا اللّيل ولا يناموا علىٰ الفِراش، ولا يأكلوا اللّحم والوَدَك[7]، ولا يقرَبوا النِّساء

---

١. زاد في النسخة: مع. ٢. أي غير متزينة بالحُلي.
٣. المُسُوح: جمع مسح، وهو كساء من شعر، ولباس الراهب.
٤. مجمع البيان ٣: ٣٦٤، تفسير القمي ١: ١٧٩، تفسير الصافي ٢: ٧٩، والآية من سورة المائدة: ٨٩/٥.
٥. الاحتجاج: ٢٧٣، تفسير الصافي ٢: ٨٠. ٦. جَبُّ المذاكر: قطعُها.
٧. الوَدَك: الدَّسَم والشحم.

والطِّيب، ويسيحوا في الأرض، فبلغ ذلك رَسُول الله ﷺ، فأتىٰ دار عُثمان بن مظعون فلَم يُصادفه، فقال لامرأته أُمّ حَكيم بِنت أُميّة، واسْمها خَولة، وكانت عطّارة: «أحَقٌّ ما بلغني عن زوجك وأصحابه»، فكرِهت أن تُكذّب علىٰ رَسُول الله ﷺ، وكرِهت أن تُبدي خبرَ زوجها، فقالت: يا رَسُول الله، إن كان قد أخبرك عُثمان فقد صدَق.

فرَجع رَسُول الله ﷺ، فلمّا جاء عُثمان أخبرته زوجته بذلك، فمضىٰ إلىٰ رَسُول الله ﷺ، فسأله النبيّ عن ذلك، فقال: نعم، فقال ﷺ: «أما إنّي لَم آمر بذلك، إنّ لأنفسكم [عليكم] حقّاً، فصُوموا وأفطِروا، وقُوموا وناموا، فإنّي أقوم وأنام، وأصوم وأُفطر، وآكل اللّحم والدَّسَم، وآتي النِّساء، فمَن رغِب عن سُنّتي فليس مِنّي».

ثمّ جمع النّاس وخطَبهم وقال: «ما بالُ أقوامٍ حرّموا النِّساء والطَّعام والطِّيب والنَّوم وشَهوات الدُّنيا؟! أمَا إنّي لا آمركم أن تكونوا قسّيسين ولا رُهباناً، فإنّه ليس مِن دِيني تَرك اللّحم والنِّساء، ولا اتِّخاذ الصَوامع، وإنّ سِياحة أُمّتي الصَّوم، ورهبانيتهم الاجْتِهاد، فاعبُدوا الله ولا تُشركوا به شيئاً، وحُجّوا واعْتمروا، وأقيموا الصّلاة وآتوا الزّكاة، وصُوموا رمَضان، واسْتقيموا يُستقم لكم، فإنّما هلَك مَن هلَك قَبلكم بالتّشديد، شدّدوا على أنفسهم فشدّد الله عليهم، فأُولئك بَقاياهم في الدِّيارات والصوامع»، فأنزل الله هذه الآية[1].

ورُوي أنّ عُثمان بن مَظعون جاء إلىٰ رسُول الله ﷺ وقال: إنّ نفسي تُحدّثني بأن أختصي، فأذَنْ لي في الاخْتصاء. قال: «مَهلاً يا عُثمان، فإنّ اخْتِصاء أُمّتي الصِّيام».

قال: يا رَسُول الله، إنّ نفسي تحدّثني بأن أترهَّب في رُؤوس الجِبال؟ قال: «مهلاً يا عُثمان، فإنّ ترهُّب أُمّتي الجُلوس في المَساجد لانْتِظار الصّلاة».

قال: يا رَسُول الله، إنّ نفسي تُحدّثني بأن أخرُج مِن مالي كُلّه؟ قال: «مهلاً يا عُثمان، فإن صَدَقتكم يوماً بيوم، وتُعِفّ نفسَك وعيالَك، وترحَم المَساكين واليَتيم فتُعطيهم، أفضل مِن ذلك».

قال: يا رَسُول الله، إنّ نفسي تُحدثني أن أُطلّق زوجتي خَولة؟ قال: «مهلاً يا عُثمان، فإنّ الهِجْرة في أُمّتي مَنْ هجَر ما حرّم الله عليه، أو هاجر [إليّ] في حياتي، أو زار قبري بعدَ وَفاتي، أو مات وله امرأة أو امرأتان أو ثلاث أو أربع».

قال: يا رَسُول الله، فإن نهَيتني أن لا أُطلّقها، فإنّ نفسي تُحدّثني أن لا أغشاها؟ قال: «مهلاً يا عُثمان، فإنّ المُسلم إذا غَشي امرأته أو ما ملكت يمينُه، فلَم يُكن [له] مِن وَقعته تِلك ولدٌ، كان له وَصيف في

---

١. تفسير روح البيان ٢: ٤٣١.

الجنّة، وإن كان له مِن وَقعته تِلك ولدٌ فماتَ قبله، كان له فَرَطاً وشفيعاً يومَ القِيامة، وإن مات بعدَه كان له نوراً يومَ القيامة».

قال: يا رَسُول الله، إنّ نفسي تُحدّثني أن لا آكل اللّحم؟ قال: «مهلاً يا عُثمان، فإنّي أُحِبّ اللّحم وآكله إذا وجَدتُه، ولَو سألتُ ربّي أن يُطعمنيه في كُلّ يوم لأطعَمَنيه».

قال: يا رَسُول الله، إنّ نفسي تُحدّثني أن لا أمسّ الطِّيب؟ قال: «مهلاً يا عُثمان، فإنّ جَبْرئيل أمرني بالطِّيب غِباً[1] وقالَ: يوم الجُمعة لا مَترَك له، يا عُثمان لا ترغَب عن سُنّتي، فمَن رغِب عن سُنّتي ثمّ ماتَ قبلَ أن يتُوب، صرفَتْ المَلائكة وَجْهَه عن حَوضي يومَ القِيامة»[2].

وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللهُ حَلالاً طَيِّباً وَٱتَّقُوا ٱللهَ ٱلَّذِى أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ[٨٨]

ثمّ صرّح سُبحانه بإباحة المأكولات والمشروبات الطيّبة بقوله: ﴿وَكُلُوا﴾ أيّها المُؤمنون ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللهُ﴾ حالَ كَونه ﴿حَلَالاً طَيِّباً﴾ ومُباحاً لذيذاً ﴿وَٱتَّقُوا ٱللهَ ٱلَّذِى أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ في تَحريم ما حَلّل، وتَحليل ما حرّم، فإنّ الإيمان مُوجبٌ للالْتِزام بأحكام الله والاجْتِناب عن مُخالفتها والتّجاوز عن حُدوده.

لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللهُ بِاللَّغْوِ فِى أَيْمَانِكُمْ وَلٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَٱحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ[٨٩]

ثمّ لمّا كان نُزول الآية في شأن بعضِ كبار الصّحابة الّذين حلَفوا علىٰ تَرك الطّيِّبات وقالوا: يا رَسُول الله، ما نصنَع بأيماننا؟ بيّن الله حُكم اليَمين وكَفّارته بقوله: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللهُ﴾ بالكَفّارة في الدُّنيا، وبالنّار في الآخرة ﴿بِاللَّغْوِ فِى أَيْمَانِكُمْ﴾ وحَلفكم غير المَقصود به الجِدّ ﴿وَلٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ﴾ ووثّقتُم ﴿ٱلْأَيْمَانَ﴾ بألستكم وقُلوبكم إذا حنِثتُم، فمَن حلَف وحنِث ﴿فَكَفَّارَتُهُ﴾ وما يستُر به ذَنْبه ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ﴾ وتَغذيتهم مُشبعاً، أو إعطاء كُلٍّ مُداً ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ وأقصد ما ترزُقون عِيالكم.

---

١. الطِّيب غِباً: أي يومٌ يتطيب ويوم لا.

٢. تفسير روح البيان ٢: ٤٣١.

في كفارة اليمين

في (الكافي): عن الصادق عليه السلام: «الوَسط: الخَلّ والزيتون[١]، وأرفعه الخُبز واللّحم، والصَّدَقة مُدٌّ[٢] مِن حِنطة لكُلّ مِسكين»[٣].

وعنه عليه السلام: «كما يكون في البيت، فمنهم مَن يأكل أكثر مِن المُدّ، ومِنهم مَن يأكُل أقلّ مِن المُدّ فبَيْن ذلك، وإن شِئت جعلت [لهم] أُدْماً[٤]، والادْم أدناه المِلح، وأوسَطه الخَلّ والزّيت، وأرفعه اللّحم»[٥].

عن الباقر عليه السلام: «ما تقوتَنّ به عِيالك مِن أوسط ذلك.[قيل: وما أوسط ذلك؟] فقال: الخَلّ والزّيت والتّمر والخُبز تُشبِعهم به مرّة واحدة»[٦].

﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾، عنه عليه السلام، قال: «ثوبٌ واحد»[٧].

وفي رِوايةٍ: «ثوبٌ يُواري [به] عَورته»[٨].

وعن الصادق عليه السلام: «الكِسْوة ثوبان»[٩].

أقول: هذا محمولٌ على ما إذا لَم يُواره واحدٌ.

﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ وإعتاق نَسَمة ذكَراً كانت أو أُنثىٰ، صَغيراً أو كبيراً، لإطلاق الآية والرِّواية.

وعن الصادق عليه السلام: «كُلّ شيءٍ في القُرآن (أو) فصاحبه [فيه] بالخِيار، يختار مايشاء»[١٠].

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ شيئاً مِن الأُمور المذكورة، عن الكاظم عليه السلام، أنّه سُئل عن كَفّارة اليَمين، ما حَدّ مَن لَم يجِد، وإن الرّجُل يسأل في كفّه وهُو يجِد؟ فقال: «إذا لَم يكُن عندَه فَضل مِن قُوت عِياله فهُو مِمّن لا يجد»[١١] ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ يكون كَفّارتُها.

عن الصادق عليه السلام: «كُلّ صَومٍ يُفرّق فيه، إلّا ثلاثة أيّام في كَفّارة اليَمين»[١٢].

وعنه عليه السلام: «صِيام ثلاثة [أيام] في كفّارة اليمين [مُتتابعات] لا يُفصل بينهنّ»[١٣].

وقرأ ابنُ مسعود: ثلاثة أيّام مُتتابعات[١٤].

﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكَر وأمر به ﴿كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ وحِنثتم ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ مِن أن تُكثروا ومِن أن يُحنَث فيها، أو بالتّكفير بعد حِنثها ﴿كَذَٰلِكَ﴾ البَيان الواضح ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ﴾ ويُوضح ﴿لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ وحُجَجه الدالّة علىٰ مَعارفه وسائِر أحكامه ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نِعمة تَعليمه وتَبيينه

---

١. في المصدر: والزيت.
٢. زادَ في المصدر: مُدّ.
٣. الكافي ٧: ٥/٤٥٢، تفسير الصافي ٢: ٨٠.
٤. الأدم: مايُستمرأ به الخبز.
٥. الكافي ٧: ٧/٤٥٣، تفسير الصافي ٢: ٨١.
٦ و٧) الكافي ٧: ١٤/٤٥٤، تفسير الصافي ٢: ٨١.
٨. الكافي ٧: ٤/٤٥٢، تفسير الصافي ٢: ٨١.
٩. الكافي ٧: ٣/٤٥٢، تفسير الصافي ٢: ٨١
١٠. تفسير العياشي ٢: ١٣٣٦/٧١، تفسير الصافي ٢: ٨١.
١١. الكافي ٧: ٢/٤٥٢، تفسير الصافي ٢: ٨١.
١٢. الكافي ٤: ١/١٤٠، تفسير الصافي ٢: ٨١.
١٣. الكافي ٤: ٢/١٤٠، تفسير الصافي ٢: ٨١.
١٤. تفسير الرازي ١٢: ٧٧.

جميعَ ما تحتاجون إليه.

في أقسام اليمين

عن الصادق عليه السلام: «الأيمان ثلاثة: [يمين] ليس فيها كفّارة، ويَمين فيها كفّارة، ويمين غَمُوس تُوجب النّار، فاليمين التي ليس فيها كفارة: الرّجُل يحلِف [بالله] علىٰ باب برٍّ أن [لا] يفعله [فكفارته أن يفعله]، واليمين التي تجِب فيها الكفارة: الرّجُل [يحلِف] علىٰ باب معصية أن لا يفعَله فيفعله، فتجِب عليه الكفّارة، واليمَين الغَمُوس التي تُوجب النّار: الرّجُل يحلِف علىٰ حقّ امرئ مُسلم و[1] علىٰ حَبْس ماله»[2].

وعنه عليه السلام: «مَن حلَف علىٰ يمينٍ فرأىٰ غيرها خيراً منها فأتىٰ ذلك، فهُو كفّارة يمينه»[3].

وعنه عليه السلام: «ما حلَفت عليه مِمّا فيه البِرّ فعليك الكَفّارة إذا لَم تَفِ به، وما حلَفتَ عليه مِمّا فيه المَعصية فليسَ عليك فيه الكَفّارة إذا رجَعتَ عنه، وما كان سِوىٰ ذلك مِمّا ليس فيه بِرّ ولا معَصية فليسَ بشيء»[4].

وعنه عليه السلام: «لا حِنْث ولا كَفّارة علىٰ مَن حلَف تقيّةً، يدفع بذلك ظُلماً عن نفسه»[5].

وعن أمير المُؤمنين صلَواتُ الله عليه: «لا يَمين لولَد مع وَالده، ولا للمرأة معَ زوجها»[6].

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنْصَابُ وَٱلْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَاءَ فِي ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللهِ وَعَنِ ٱلصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ[٩٠و ٩١]

ثمّ لمّا نهىٰ الله تعالىٰ عن تَحريم طَيِّبات ما أحلّ، بيّن أنّ الخَمر وما أردفها ليسَ مِنها، بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ﴾ الذي يدخُل فيه كُلّ مُسكِر ﴿وَٱلْمَيْسِرُ﴾ وما يُقامر به ﴿وَٱلْأَنْصَابُ وَٱلْأَزْلَامُ﴾ - وقد مرّ تفسيرُهما[7] - كُلّ ذلك ﴿رِجْسٌ﴾ وقَذَر تتنفَر مِنه العُقول السَليمة، كائنٌ ﴿مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَانِ﴾ وتَزيينه الدّاعي إليه، وهُو كِناية عن نِهاية قُبْحه. فإذا كان كذلك ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ واحترِزوا عنه ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ باجْتنابه ﴿تُفْلِحُونَ﴾ وتفوزون بسَعادة الدّارين.

عن الباقر عليه السلام: «لمّا نزلَتْ هذه الآية قيل: يا رَسُول الله ما المَيسر؟ فقال: كُل ما تُقومِر عليه حتّىٰ

---

١. (و) ليست في الكافي.

٢. الكافي ٧: ١/٤٣٨، تفسير الصافي ٢: ٨١.

٣. الكافي ٧: ٢/٤٤٣، تفسير الصافي ٢: ٨٢.

٤. الكافي ٧: ٥/٤٤٦، تفسير الصافي ٢: ٨٢.

٥. الخصال: ٩/٦٠٧، تفسير الصافي ٢: ٨٢.

٦. الخصال: ١٠/٦٢١، تفسير الصافي ٢: ٨٢.

٧. تقدم في تفسير الآية ٢١٩ من سورة البقرة.

الكِعاب والجَوز، قيل: فما الأنصاب؟ قال: ما ذبحوا لآلهتِهم، قيل: فما الأزلام؟ قال: قِداحهم التي يستقسمون بها»[١].

وعنه عليه السلام، في هذه الآية: «أمّا الخَمر، فكُلّ مُسكرٍ مِن الشّراب إذا خَمِر فهو خَمْرٌ، وما أسكَر[٢] كثيرُه فقليلُه حَرام، وذلك أنّ أبا بكر شرِب قبل أن يُحرّم الخَمر، فسكر فجعَل يقول الشِّعر ويبكي على قَتلىٰ المُشركين مِن أهل بَدْر، فسمع النبيّ صلى الله عليه وآله فقال: اللّهمّ فامسِك علىٰ لِسانه، فلَم يتكلّم حتّىٰ ذهَب عنه السُّكْر، فأنزل الله تَحريمها بعدَ ذلك، وإنّما كانت الخَمر يومَ حُرّمت بالمدينة فَضيخ[٣] البُسْر والتَمر، فلمّا نَزل تَحريمُها خرَج رَسُول الله صلى الله عليه وآله فقعَد بالمَسجد ثمّ دَعا بآنيتهم التي كانو ينبِذون فيها فأكفاها كُلّها وقال: هذه كُلّها خَمر، وقد حرّمها الله، فكان أكثر شيءٍ كُفئ في ذلك اليوم مِن الأشربة الفَضيخ، ولا أعلم أكفِئ يومئذٍ مِن خَمر العِنب شيء، إلّا إناء واحد كان فيه زَبيب وتَمر جميعاً. وأما عَصير العِنب فلَم يكُن يومئذٍ بالمدينة مِنه شيء، حرّم الله الخَمر قليلَها وكثيرَها، وبَيعها وشِراءها، والانْتِفاع بها.

في عقاب شارب الخمر وحدّه

وقال رَسُول الله صلى الله عليه وآله: مَن شرِب الخَمر فاجْلِدوه، فإن عاد فاجْلِدوه، فإن عاد فاجْلِدوه، فإن عاد في الرّابعة فاقتلوه.

وقال: حَقٌّ علىٰ الله أن يسقي مَن شرِب الخمر مِمّا يخرُج مِن فُروج المُومِسات. والمُومسات: الزّواني يخرُج مِن فُروجهنّ صَديد؛ والصّديد: قَيحٌ ودَم غليظ مُختلط يُؤذي أهل النّار حرُّه ونَتْنُه.

وقال رَسُول الله صلى الله عليه وآله: مَن شرِب الخَمر لَم تُقبل صلاتُه أربعين ليلة، فإن عاد فأربعين ليلة مِن يوم شربها، فإن مات في تِلك الأربعين مِن غير تَوبة، سقاه الله يومَ القيامة مِن طينة خَبال.

وسُمّي المَسجدُ الذي قعد فيه رَسُول الله صلى الله عليه وآله يومَ أكفئت الأشربة مَسجد الفَضيخ مِن يومئذٍ، لأنّه كان أكثرَ شيءٍ أكفِئ مِن الأشربة الفضيخُ.

وأما المَيسِر، فالنَّرْد والشِّطْرنج، وكُلّ قِمار ميَسِر، وأمّا الأنصاب فالأوثان التي كان يعبُدها المُشركون، وأمّا الأزلام فالأقداح التي كان يستقسم بها مُشركو العَرب في الأمور في الجاهليّة، كُلّ هذا بيعُه وشراؤه والانتِفاع بشيءٍ مِنه حَرام مِن الله، وهُو رِجْس مِن عمَل الشّيطان، فقرن الله الخَمر والمَيسِر معَ الأوثان»[٤].

وعن الباقر عليه السلام: «لعَن رَسُول الله صلى الله عليه وآله في الخَمر عشرة: عارِسها، وحارسها، وعاصرها، وشاربها،

---

١. الكافي ٥: ٢/١٢٢، تفسير الصافي ٢: ٨٢.
٢. في تفسير القمي: فهو حرام وأما المسكر.
٣. الفضيخ: شراب البُسر من غير أن تمسّه النار.
٤. تفسير القمي ١: ١٨٠، تفسير الصافي ٢: ٨٢.

وساقيها، وحاملها، والمحمول إليه، وبائعها، ومشتريها، وآكل ثمنها»[1].

في بيان حكمة حرمة الخمر والميسر

ثمَ أنّه تعالىٰ بعدَ الجَمع بيْن الخَمر والمَيسِر والأنصاب والأزلام في النّهي مُبالغةً في قُبح تَعاطيهما، أفردهما بذِكْر مَفاسدهما الدُّنيويّة والأُخرويّة، فبدأ بذِكْر مَفاسدهما الدُّنيويّة بقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَانُ﴾ بسبَب تَعاطيهما ﴿أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ﴾ معَ غاية ائتِلافكم ﴿ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَاءَ﴾ والتّنازُع والتّحاقُد ﴿فِى﴾ شُرب ﴿ٱلْخَمْرِ وَ﴾ عمَل ﴿ٱلْمَيْسِرِ﴾ وبسَببهما، لوضُوح أنّ ذَهاب العَقل والمال مُوجبان لهَيجان الغضَب علىٰ مَن خالف هَوىٰ السّكران، وذهب بمال المَغلوب في المُقامرة، فتقَع المُنازعة بين المَخمورين فيُضاربون ويُقاتلون، والعَداوة الشّديدة بين الغالب والمَغلوب في المُقامرة.

ثمَ ذكَر المَفاسد الأُخروية بقوله: ﴿وَيَصُدَّكُمْ﴾ الشّيطان ويمنعَكم ﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ والتَوجُّه إليه بالقَلب.

ثمَ خصّ الصّلاة بالذِّكر معَ أنّها مِن الذِّكر بقوله: ﴿وَعَنِ ٱلصَّلَاةِ﴾ تعظيماً لشأنها بين العِبادات، وإشعاراً بأنّ الصّدّ عنها كالصّدّ عن الإيمان لأنّها عِماده ورُكنه.

ثمَ بالغ سُبحانه بعدَ ذِكر مَفاسدهما في الرّدع عنهما بإنشاء الاستِفهام التّقريري عن انتِهائهم عنها بقوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم﴾ أيُّها المُسلمون بعدَ هذا النّهي الأكيد والاطِّلاع بمَفاسدهما ﴿مُّنتَهُونَ﴾ عنهما، مُرتدعون عن ارْتِكابهما أم لا؟!

رُوي أنّ عُمر لما سمِعها قال: قد انْتهينا يا رَبّ[2].

في بيان وجوه التأكيد في حرمة شرب الخمر

ففي الآيتين وُجوه مِن التّأكيد في تَحريم الخَمر والمَيسِر:

الأوّل: حَصر الرِّجْس فيهما وفي قَرينتيهما بكلمة (إنّما).

والثاني: تَقرينهما بعِبادة الأوثان.

والثالث: الأمر باجْتِنابهما.

والرابع: تَرتيب الفلاح علىٰ تَركهما.

والخامس: شَرح مَفاسدهما الدُّنيويّة والأُخرويّة.

والسّادس: المُبالغة في الرّدع عنهما والحَثّ علىٰ اجْتِنابهما بالاسْتِفهام التّقريري عن انْتهائهم عنهما، فإنّه أمرٌ بالانْتِهاء مَقروناً بأخذ الإقرار مِن المُكلّفين بامْتِثاله.

---

١. الخصال: ٤١/٤٤٤، تفسير الصافي ٢: ٨٣.

٢. تفسير الرازي ١٢: ٨١.

وَأَطِيعُوا ٱللهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَاغُ ٱلْمُبِينُ[٩٢]

ثمّ زاد سُبحانه في التّأكيد بقوله: ﴿وَأَطِيعوا ٱللهَ﴾ في نَهيه عنهما ﴿وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وأحْذَرُوا﴾ عن مُخالفتهما.

ثمّ هدّد علىٰ المُخالفة بقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ وأعرضتُم عن الامْتِثال والطّاعة ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَاغُ ٱلْمُبِينُ﴾ والرّسالة بالبَيان الواضح حتّىٰ تتِمَ الحُجّة عليكم، وقد فعَل بما لا مزَيد عليه، وأتمَ الحُجّة بحيث لَم يبقَ لكُم مَجال العُذر، فليسَ في مُخالفتكم إلّا اسْتِحقاق العِقاب الشّديد، وهُو إلينا لا إليه.

عن الصادق عليه السلام، في هذه الآية: «أما والله، ما هلَك مَن كان قَبلكم، وما هلك مَن هلَك حتىٰ يقوم قائمُنا إلّا في تَرك وِلايتنا وُجحود حقّنا، وما خرَج رَسُول الله صلى الله عليه وآله مِن الدُّنيا حتّىٰ ألزم رِقاب هذه الأمّة حَقّنا، والله يهدي مَن يشاء إلىٰ صِراط مُستقيم»[١].

لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا ٱتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ ثُمَّ ٱتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ ٱتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَٱللهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ[٩٣]

عن القُمّي رحمه الله: لمّا نزل تَحريم الخَمر والمَيسِر والتّشديد في أمرهما، قال النّاس مِن المُهاجرين والأنصار: يا رَسُول الله، قُتل أصحابُنا وهُم يشرَبون الخَمر، وقد سمّاه الله رِجْساً وجعله مِن عَمل الشّيطان، وقد قُلت ما قُلت، أفيضُرَ أصحابنا ذلك شيئاً بعدَ ما ماتوا؟

فأنزل الله سُبحانه قوله: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ﴾[٢] مِن فِعْل الوَاجبات وتَرك المُحرّمات ﴿جُنَاحٌ﴾ وبأس ﴿فِيمَا طَعِمُوا﴾ وأكلو واسْتلذّوا به مِن المأكولات والمَشروبات.

في (المجمع): في تَفسير أهل البيت عليهم السلام: «فيما طعِموا مِن الحَلال»[٣].

﴿إِذَا مَا ٱتَّقَوْا﴾ عن الكُفر ﴿وَآمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ ثُمَّ ٱتَّقَوْا﴾ جميعَ الكبائر ﴿وَآمَنُوا﴾ بالله ورَسُوله ﴿ثُمَّ ٱتَّقَوا﴾ الصَغائر ﴿وَأَحْسَنُوا﴾ إلىٰ الخَلق.

وقيل: التّكرار للتّأكيد.

---

١. الكافي ١: ٧٤/٣٥٣، تفسير الصافي ٢: ٨٤.
٢. تفسير القمي ١: ١٨١، تفسير الصافي ٢: ٨٤.
٣. مجمع البيان ٣: ٣٧٢.

ثمّ بيّن سُبحانه أنّ فائدة الإحسان ليسَ مُنحصرة في نَفي الجُناح، بَل له فائدة عظيمة بقوله: **﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾** فإنّ حُبّ الله عبده أعظم الفَوائد في الدُّنيا والآخرة، وأعلىٰ المَقامات للمُؤمن، ولِذا سُمّي رَسُول الله مِن بَيْن الرُّسُل بحَبيب الله.

عن القُمّي: هذا لمَن مات قبلَ تَحريم الخَمر، والجُناح هُو الإثم، وهو علىٰ مَن شربها بعدَ التّحريم[١].

وقيل: **﴿فِيمَا طَعِمُوٓا﴾** [أي] مِمّا لَم يُحرَم عليهم **﴿إِذَا مَا اتَّقَوا﴾** أي المُحرّم **﴿وَّءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ﴾** أي ثبَتوا علىٰ الايمان والأعمال الصّالحات **﴿ثُمَّ ٱتَّقَوا﴾** أي ما حُرّم عليهم بعدُ كالخَمر **﴿وءَامَنُوا﴾** بتحريمه **﴿ثُمَّ ٱتَّقَوا﴾** أي استمرّوا وثبَتوا علىٰ اتّقاء المَعاصي **﴿وَّأَحْسَنُوا﴾** أي وتحرّوا الأعمال الجَميلة واشتغلوا بها[٢].

وروىٰ البَهائي (أعلىٰ الله مقامه) في (حاشية أسرار التنزيل) عن (مصباح الشريعة): عن الباقر[٣] عليه السلام: «التّقوى علىٰ ثلاثة أوجه: تقوىٰ في الله[٤]؛ وهي تَرك الحَلال[٥] فضلاً عن الشُّبهة، وهِي تقوىٰ خاصّ الخاصّ، وتقوىٰ مِن الله؛ وهِي تَرك الشُّبهات فضلاً عن الحَرام، وهِي تقوى الخاصّ، وتقوىٰ مِن خَوف النّار والعِقاب؛ وهِي تَرك الحَرام، وهي تقوىٰ العامّ.

ومَثَل التّقوىٰ كماءٍ يجري في نهر، ومَثَل هذه الطّبقات الثّلاث في معنىٰ التّقوىٰ كأشجارٍ مَغروسة علىٰ حافّة ذلك النّهر [من] كُلّ لَون وجِنس، وكُلّ شجر يمتص الماء مِن ذلك النَهر علىٰ قَدْر جَوهره وطَبعه ولَطافته وكَثافته، ثمّ مَنافع الخَلق مِن تلك الأشجار والثّمار علىٰ قَدرها وقيمتها، قال الله تعالى **﴿صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ﴾**[٦].

فالتّقوىٰ في الطّاعات[٧] كالماء للأشجار، ومَثل طبائع الأشجار [والأثمار] في لَونها وطَعمها مَثَل مَقادير الإيمان، فمَن كان أعلىٰ دَرَجة في الإيمان وأصفىٰ جوهراً بالرُّوح كان أتقىٰ، ومَن كان أتقىٰ كانتِ عِبادته أخصّ وأظهر[٨]، ومَن كان كذلك كان مِن الله أقرب، وكُلّ عِبادة غير مُؤسّسة علىٰ التّقوىٰ فهِي هَباء مَنثور، قال الله تعالىٰ: **﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾**[٩]. انتهىٰ كلامُه صلوات الله عليه.

ثمّ قال الشّيخ رحمه الله: فنقول في بَيان ذلك: إنّ أوائل [درجات] الإيمان تصديقات مَشوبة بالشُّكوك

---

١. تفسير القمي ١: ١٨٢، تفسير الصافي ٢: ٨٤.
٢. تفسير الصافي ٢: ٨٤.
٣. في المصباح: الصادق.
٤. في المصباح: بالله.
٥. في المصباح: الخلاف.
٦. الرعد: ٤/١٣.
٧. في المصباح: للطاعات.
٨. في المصباح: أخلص وأظهر.
٩. مصباح الشريعة: ٣٨، تفسير الصافي ٢: ٨٥، والآية من سورة التوبة: ١٠٩/٩.

والشُّبهات علىٰ اختِلاف مَراتبها، ويُمكن معها الشِّرك، كما قال سُبحانه: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللهِ إِلَّا وَهُم مُشْرِكُونَ﴾[١]، ويُعبَر عنها بالإسلام، كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَمْ تُؤْمِنُوا وَلٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَانُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾[٢]، والتقوىٰ المُتقدّمة عليها [هي] تقوىٰ العامّ.

وأوسطها تَصديقات لا يشوبها شَكّ ولا شُبهة، كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾[٣]، وأكثر إطلاق الإيمان عليها خاصّة؛ كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿إنّما المُؤمنون الّذين إذا ذُكر الله وَجِلتْ قُلوبُهم وإذا تُليت عليهم آياتُه زادَتْهُم إيماناً وعلىٰ رَبّهم يتوكّلون﴾[٤]، والتقوىٰ المُتقدّمة عليها [هي] تقوىٰ الخاصّ.

وآخرها تَصديقات كذلك، معَ شُهود وعِيان، ومَحبّة كامِلة لله عزّ وجلّ، كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥ﴾[٥]، ويُعبَر عنها تارةً بالإحسان؛ كما ورد في الحديث النبوي: «الإحسان أن تعبُد الله كأنّك تَراه»[٦]، وأُخرىٰ بالإيقان، كما قال الله: ﴿وَبِالآخِرَةِ هُم يُوقِنُونَ﴾[٧]، والتَقوىٰ المُتقدّمة عليها [هي] تقوىٰ خاصّ الخاصّ.

وإنّما قُدّمت [التقوىٰ] علىٰ الإيمان لأنّ الإيمان [إنما] يتحصّل ويتقّوىٰ بالتّقوىٰ، لأنّها كُلّما ازْدادت ازداد الإيمان بحَسَب ازْديادها، وهذا لا يُنافي تقدُّم أصل الإيمان علىٰ التّقوىٰ، بَل ازْديادها بحَسَب ازْدياده، وأيضاً لأنّ الدّرَجة المُتقدّمة لكُلٍّ مِنها غير الدّرَجة المُتأخرة، ومثل ذلك مثل مَن يمشي بسِراجٍ في ظُلمة، فكُلّما أضاء له مِن الطّريق قِطْعة مشىٰ فيها، فيصير ذلك المَشيُ سبباً لإضاءة قِطعة اُخرىٰ، وهكذا[٨].

أقول: مَقصود الشيخ مِن ذِكر الرِّواية وتَوضيحها تَوجيه تَكرار الأمر بالتّقوىٰ في الآية بالمَراتب الثّلاث المَذكورة في الرِّواية.

وعن الصادق عليه السلام قال: «أُتي عُمر بقُدامة بن مظعون وقد شرِب الخَمر وقامت عليه البيّنة، فسأل أميرَ المُؤمنين صلواتُ الله عليه، فأمره أن يُجلَد ثمانين جلدة، فقال قُدامة: يا أمير المؤمنين، ليسَ عليَّ حَدٌّ، أنا مِن أهل هذه الآية ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾، قال أميرُ المؤمنين عليه السلام: لستَ مِن أهلها، إنّ طَعام أهلها لهم حَلال، ليسَ يأكُلون ولا يشربون إلّا ما أحلّه الله لهم. ثمّ قال عليّ عليه السلام: إنّ الشّارب إذا شرِب لَم يدْرِ ما يأكُل ولا ما يشرَب، فاجْلِدوه ثمانين جَلدة»[٩].

---

١. يوسف: ١٢/١٠٦. ٢. الحجرات: ٤٩/١٤. ٣. الحجرات: ٤٩/١٥. ٤. الأنفال: ٨/٢.
٥. المائدة: ٥/٥٤. ٦. مجمع البيان ٣: ١٧٨. ٧. البقرة: ٢/٤.
٨. تفسير الصافي ٢: ٨٥. ٩. الكافي ٧: ٢١٥/١٠، تفسير الصافي ٢: ٨٦.

ثمَ قال الشَيخ بعدَ نقل الرِّواية: أقول: في قوله: (إلّا ما أحلّه الله لهم) تَنبيهٌ علىٰ أنّهم يحترزون عن الشُّبهات، بَل [عن] كُلّ ما يمنَعهم عن الشُّهود مع الله. والجُناح في الآية نَكِرة في سِياق النَفي يعُمّ كُلّ مَراتبه، كاسْتِحقاق العِتاب[١]، والسِرُّ فيه أنّ شُكر نِعَم الله تعالىٰ أن تُصرف في طَاعة الله سُبحانه علىٰ وَجهها، فليُتدبّر فيه.

وعلىٰ ما حقّقناه إن صَحّ [أنّ] نزول [هذه] الآية ما ذكَره القُمّي وِفاقاً لطائفة مِن المُفسّرين، فمعنىٰ الآية: أنّ الّذِين كانوا يشرَبون الخَمر قبل نُزول تَحريمها، إذا كانوا بهذه المثابة مِن الإيمان والتّقوىٰ والعمَل الصّالح، فلا جُناح عليهم في شُربها[٢].

أقول: حَمل الآية علىٰ المعنىٰ الذي ذكَره غيرُ مُمكن، لوُضوح عدَم إمكان كَون الجُناح علىٰ شَاربها قبلَ نُزول تَحريمها لقُبح العِقاب بِلا بَيان عقلاً وإن لَم يكونوا واجدين لأوّل مَراتب التَقوىٰ. نعم إذا كان المُراد مِن قوله: ﴿فِيمَا طَعِمُوٓا﴾ جميع المأكولات والمَشروبات، يصِحّ اشْتِراط نَفي الجُناح علىٰ الإطلاق، وبجميع مَراتبه بما إذا اتّقىٰ جميع مُحرّماتها ومُشتبهاتها، ويكون غرَضهم مِن أكلها القِيام بالأعمال الصّالحة، وأنّهم لا يشبَعون مِن الطّعام وهُم مُطّلعون علىٰ بُطونٍ غرثىٰ وأكبادٍ حَرّىٰ، بَل يُحسنون إليهم بالزّائد مِمّا يحفَظون به رَمَقهم وأنفسهم.

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِٱلْغَيْبِ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ[٩٤]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ بَيان حُرمة الخَمر مِن المَشروبات، ذكَر حُرمة لَحم الصَيد من المأكولات علىٰ خُصوص المُحرِم بقوله: ﴿يَـا أَيُّـهَا ٱلَّـذِينَ ءَامَـنُوا لَـيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ﴾ ويمتحنكم ويختبرَنّ طَاعتكم وعِصيانكم ﴿بِشَىْءٍ﴾ قليلٍ، وبَلاء يسير بالنّسبة إلىٰ سائر البَليّات الشّاقّة العظيمة، كبَذل النّفس والمال، ثمّ فسّر ذلك الشيء بقوله: ﴿مِنَ ٱلصَّيْدِ﴾ وهُو ابتِلاء سَهل يسير[٣].

وقيل: إنّ المُراد: بعض الصَيد، وهُو صَيد البَرّ[٤].

قيل: إنّ الله امتحَن اُمّة محمّد بصَيد البَرّ، كما امْتحن اُمّة مُوسىٰ بصَيد البَحر[٥].

أمّا كَيفيّة الابْتِلاء فإنّه قرّبه مِنكم بحيث ﴿تَنَالُهُ﴾ وتصِل إليه ﴿أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ فيسهل عليكم أخذُه وطَعنه.

---

١. في الصافي: العقاب. ٢. تفسير الصافي ٢: ٨٦. ٣ ـ ٥. تفسير الرازي ١٢: ٨٥.

عن القُمي: نزلت في غزوة الحُدَيبية، جمع الله عليهم الصَيد، فدخل بيْن رِحالهم[١].

وفي (الكافي): عن الصادق عليه السلام: «حُشر عليهم الصَيد في كُلّ مَكان حتّىٰ دَنا مِنهم ليَبلُوهم الله به»[٢].

وعنه عليه السلام: «حُشر لرَسُول الله صلى الله عليه وآله في عُمرة الحُديبية الوُحوش حتّىٰ نالتها أيديهم ورِماحهم»[٣].

وفي رِوايةٍ: «ما تَناله الأيدي الفِراخ أو البَيض، وما تَناله الرِّماح فهُو ما لا تصل إليه الأيدي»[٤].

وفي (المجمع): عنه عليه السلام: «الذي تَناله الأيدي فِراخ الطَير وصِغار الوَحش والبَيض، والذي تَناله الرِّماح الكِبار مِن الصَيد»[٥].

ثمّ أشار سُبحانه إلىٰ عِلّة الابْتِلاء بقوله: ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ﴾ ويُميز بين النّاس ﴿مَن يَخَافُهُ﴾ ويخاف عِقابه، وهُو ﴿بِالْغَيْبِ﴾ عن الأنظار، ومستور عن الأبصار، فيتّقي الصَيد مِمَن لا يخافه.

وقيل: في الآية حَذفٌ، والتقدير: ليعلمَ أولياء الله مَن يَخافه حال إيمانه بالغَيب[٦].

ثمّ هدّد مَن يتّقي الصَيد بعدَ تحريمه بقوله: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ﴾ علىٰ نفسه، وتعرّض للصَيد ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ التّحريم وتَوضيح عِلّته ﴿فَلَهُ﴾ في الآخرة ﴿عذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وفي الدُّنيا التّعزير المُوجِع.

وعن ابن عبّاس رضي الله عنه: هذا العَذاب هُو أن يُضرَب بَطنه وظَهره ضرباً وَجيعاً وينزع ثِيابه[٧].

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا ٱلصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُتَعَمِّداً فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوا عَدْلٍ مِنكُمْ هَدْياً بَالِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذٰلِكَ صِيَاماً لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَن عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ[٩٥]

ثمّ أكّد سُبحانه حُرمة الصَيد في حَال الإحرام بالتّصريح بالنّهي عنه بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله وأحكامه ﴿لَا تَقْتُلُوا ٱلصَّيْدَ﴾ والحَيوان الوَحشي [سواءً أ] كان مِمّا يُؤكل أم لا ﴿وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ مُحرمون بإحرام الحَجّ أو العُمرة.

عن الصادق عليه السلام: «فاتّق[٨] قتل الدَواب كُلّها إلّا الأفعىٰ والعَقرب والفأرة، [فأمّا الفأرة] فإنّها تُوهي السِّقاء وتُضرِم علىٰ أهل البيت [البيت]، وأمّا العَقرب فإنّ نبيّ الله مَدّ يَده إلىٰ الحجَر فلسعَتْه عقرب فقال: لعنَك الله، لا تدَعين بَرّاً ولا فاجراً، والحَيّة إذا أرادَتْك فاقتُلها، وإن لَم تُرِدْكَ فلا تُردها، والكلب

---

١. تفسير القمي ١: ١٨٢، تفسير الصافي ٢: ٨٧.
٢. الكافي ٤: ٢/٣٩٦، تفسير الصافي ٢: ٨٧.
٣. الكافي ٤: ١/٣٩٦، تفسير الصافي ٢: ٨٧.
٤. الكافي ٤: ٤/٣٩٧، تفسير الصافي ٢: ٨٧.
٥. مجمع البيان ٣: ٣٧٧، تفسير الصافي ٢: ٨٧.
٦. تفسير الرازي ١٢: ٨٦.
٧. تفسير الرازي ١٢: ٨٦.
٨. في تفسير الصافي: إذا أحرمت فاتق.

العَقور والسَّبع إذا أراداك فاقْتُلهما، فإن لم يُريداك فلا تُردهما، والأسود[١] الغَدِر فاقتُله علىٰ كُلّ حالٍ، وارْمِ الغُراب والحِدأة رمياً علىٰ ظَهر بعَيرك»[٢].

وعنه عليه السلام: «المُحرِم يقتُل الزُّنبور والنَّسر والأسود الغَدِر والذِّئب وما خاف أن يعدو عليه» وقال: «الكلب العَقور هُو الذِّئب»[٣].

وعنه عليه السلام: «كُلّ ما خاف المُحرِم علىٰ نفسه مِن السِّباع والحيّات[٤] فيقتُله، وإنْ لَم يُردك فلا تُرِده»[٥].

وعن النبيّ صلى الله عليه وآله بطريقٍ عامّي: «خمس فَواسق لا جُناح علىٰ المُحرم أن يقتُلهُنّ في الحِلّ والحَرَم: الغُراب، والحِدأة، والحَيّة، والعَقرب، والكَلب العَقور»[٦].

وفي روايةٍ: «والسَّبع الضّاري»[٧].

أقول: الظّاهر مِن مَجموع الرِّوايات جَواز قَتل كُلّ مُؤذٍ لا يأمَن المُحرِم مِنه علىٰ نفسه.

ثمّ بيّن الله سُبحانه كَفّارة الصّيد في حَال الإحرام بقوله: ﴿وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم﴾ أيُّها المُجرمون حالَ كَونه ﴿مُتَعَمِّداً﴾ في قَتله بأيّ نَوعٍ مِن أنواع القَتل.

ثمّ اعْلَم أنّ ظاهر الآية وإن كان اشْتِراط العَمْد في وُجوب كَفّارة الصّيد، وبه قال بعضُ العامّة، إلّا أنّه نُسب إلىٰ أكثرهم، وعامة أصحابنا عدَم الاشْتِراط، بَل قالوا بوُجوبها وإن كان القَتل خَطأً أو نِسياناً، وقالوا: وَجْه التَقييد في الآية أنّ سَبب نُزولها في مَن تعمّد[٨].

رُوي أنّه عَنّ[٩] لهم في عُمرة الحُدَيبية حِمار وَحْش، فحمَل عليه أبو اليُسر فطعَنه بُرمحه فقتله، فقيل: إنّك قتلتَ الصّيد وأنت مُحرِم. فنزلت[١٠].

وقال بعضٌ: نزل الكِتاب بالعَمْد، ووردَتْ السُّنّة بالخطأ[١١].

وعلىٰ أي تَقدير ﴿فَجَزَاءٌ﴾ واجب علىٰ قاتل الصّيد، وفِدية ثابتة؛ حيوان ﴿مِّثْلُ مَا قَتَلَ﴾ وشَبيه ما صَاد، ولكِن لابُدّ أن يكون الحَيوان المُماثل ﴿مِنَ﴾ جِنس ﴿ٱلنَّعَمِ﴾ الثّلاث: الإبِل والبَقر والغَنم، ويدخُل فيه المَعز.

عن الصادق عليه السلام، في تفسيرها: «في الظّبي شَاة، وفي حِمار الوَحش بقرة، وفي النّعَامة جَزور»[١٢].

---

١. الأسود: العظيم من الحيات.
٢. التهذيب ٥: ١٢٧٣/٣٦٥، تفسير الصافي ٢: ٨٧.
٣. الكافي ٤: ٤/٣٦٣، تفسير الصافي ٢: ٨٨.
٤. زاد في الكافي : وغيرها.
٥. الكافي ٤: ١/٣٦٣، تفسير الصافي ٢: ٨٨.
٦ و٨. تفسير الرازي ٢: ٨٧.
٨. راجع: تفسير أبي السعود ٣: ٧٩، كنز العرفان ١: ٤/٣٢٤.
٩. عَنّ: أي ظهر أمامه واعترض.
١٠. كنز العرفان ١: ٤/٣٢٤.
١١. تفسير أبي السعود ٢: ٧٩.
١٢. التهذيب ٥: ١١٨٠/٣٤١، تفسير الصافي ٢: ٨٨.

قيل: الجَزور والبَدَنة واحد، والفَرق أن البَدَنة ما يُحرَز للهَدْي، والجَزور أعمّ[١].

وفي صحيح سليمان: في البَقرة بقرة، وفي الحِمار بَدَنة، وفي النَعامَة بَدَنة، وفي ما سِوىٰ ذلك قِيمته[٢].

ثمّ وصَف سُبحانه الجَزاء بكَونه ممّا ﴿يَحْكُمُ بِهِ﴾ وبمُماثلته للصَيد المقتول رَجُلان ﴿ذَوَا عَدْلٍ﴾ ولكِن لا في دِينه، وإن كان مِن غيركم، بَل لابُدّ مِن أن يكونا ﴿مِنكُمْ﴾ وأهل دِينكم.

قال بعضُ العامّة: لَو كان أحدُهما القاتل، جاز إذا كان القَتل خطأً لا عمداً؛ لأنّه فاسِق[٣].

في (المجمع): عن الباقر والصادق عليهما السلام: «ذُو عدل»[٤].

وفي (الكافي): عنهما عليهما السلام: وعن العَيّاشي: عن الباقر عليه السلام: «العَدْل: رَسُول الله صلى الله عليه وآله، والإمام مِن بعدِه» ثمّ قالا: «هذا مِمّا أخطأت به الكُتّاب»[٥].

والعيّاشي: «يعني رَجُلاً واحداً» يعني الإمام[٦].

وعن الباقر عليه السلام: «العَدْل رَسُول الله صلى الله عليه وآله، والإمام مِن بعدِه يحكُم به وهُو ذُو عَدْل، فإذا علِمتَ ما حكم به رَسُول الله والإمام فحسبُك، ولا تسأل عنه»[٧].

أقول: لعلّ المُراد مِن ﴿ذَوا عَدلٍ﴾ النبيّ والإمام، علىٰ معنىٰ الاجْتِزاء بحُكم أحدهما، وأنّ المُراد مِن الحُكم بَيان المِثْل للمَقتول، فيُحتاج في تَعيين المِثل إلىٰ النَص مِن النبيّ أو الإمام، لا أنّه ينظُر العَدليين مِن سائر النّاس، كما عليه العامّة.

ورُوي أنّ رَجُلاً سأل أبا حَنيفة عن كَفّارة الصَيد فأجاب، فقال: مَن يحكُم بها؟ قال: ذَوا عَدل، قال: إن اخْتلفا؟ قال: يتوقّف عن الحُكم حتّىٰ يتّفِقا، قال: إنّك لا تحكُم وَحدك في الصَيد حتّىٰ يتّفق معَك آخر، وتحكُم في الدِّماء والفُروج والأموال برأيك![٨]

ثمّ وصَف سُبحانه الجَزاء ثانياً بكَونه ﴿هَدْياً﴾ ومُرسلاً بقَصد التَقرُّب إلىٰ الله، ولابُدّ مِن كَونه ﴿بَالِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ وواصلاً إليها.

عن الصادق عليه السلام: «مَن وجَب عليه هَدي في إحرامه، فله أن ينحَره حيثُ شاء إفِداء الصَيد، فإنّ الله

---

١. جواهر الكلام ٢٠: ١٩١.
٢. التهذيب ٥: ١١٨٢/٣٤١.
٣. تفسير الرازي ١٢: ٩٢.
٤. مجمع البيان ٣: ٣٧٥، تفسير الصافي ٢: ٨٨.
٥. تفسير العياشي ٢: ١٣٦٠/٧٨، الكافي ٤: ٣/٣٩٦ و: ٥/٣٩٧، تفسير الصافي ٢: ٨٨.
٦. تفسير العياشي ٢: ١٣٦١/٧٨، تفسير الصافي ٢: ٨٨.
٧. التهذيب ٦: ٨٦٧/٣١٤، تفسير الصافي ٢: ٨٨.
٨. دعائم الإسلام ١: ٣٠٦.

يقول: ﴿هَدْياً بَالِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾»[١].

وعنه عليه السلام: «مَن وجَب عليه فِداء صَيدٍ أصابه وهُو مُحرِم، فإن كان حاجّاً نحَر هَديه الذي يجِب عليه بمِنىٰ، وإن كان مُعتمراً نحرَ بمكّة قبالةَ الكَعبة»[٢].

ثمّ وسّع الله تعالىٰ علىٰ عِباده بجَعل البَذل للجَزاء المَذكور بقوله: ﴿أَوْ كَفَّارَةٌ﴾ معيّنة؛ وهِي ﴿طَعَامُ مَسَاكِينَ﴾ وإطعام للفُقراء ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ﴾ الطَعام ومُساويه، وهُو يكون ﴿صِيَاماً﴾.

عن الصادق عليه السلام أنّه سُئل عن مُحرِم أصاب نَعامة أو حِمار وَحْش، قال: «عليه بَدَنة». قيل: فإن لَم يقدر علىٰ بَدَنة؟ قال: «فليُطعِم ستّين مِسكيناً». قيل: فإن لَم يقدر علىٰ أن يتصدّق؟ قال: «فليصُم ثَمانية عشَر يوماً، والصَدقة مُدّ علىٰ كُلّ مِسكين».

وسُئل عن مُحرِم أصاب بقَرة، قال: «عليه بقَرة». قيل: فإن لَم يقدِر علىٰ بقَرة؟ قال: «فليُطعم ثَلاثين مِسكيناً». قيل: فإن لَم يقدِر علىٰ أن يتصدّق؟ قال: «فليصُم تِسعة أيّام». قيل: فإن أصاب ظَبياً؟ قال: «عليه شاة». قيل: فإن لَم يقدِر؟ قال: «فإطعام عشرة مَساكين، فإن لَم يجِد ما يتصدّق به فعلَيه صِيام ثلاثةَ أيّام»[٣].

عن السجاد عليه السلام، في حديث الزُهْري: «أوَ تدري كيف يكون عَدل ذلك صِياماً يا زهري؟»، قال: [قلتُ:] لا أدري. قال: «يُقوّم الصَيد قيمةً، ثمّ تُفضّ تِلك القيمة علىٰ البُرّ، ثمّ يكال ذلك البُرّ أصواعاً، فيصوم لكُلّ نِصف صاع يوماً»[٤].

وفي الصحيح عن أبي عبدالله عليه السلام: «إذا أصاب المُحرِم الصَيد ولَم يجِد ما يُكفّر في مَوضعه الذي أصاب فيه الصَيد قُوّم جزاؤه مِن النَّعَم دَراهم، ثمّ قُوّمت الدّراهم طَعاماً لكُلّ مِسكين نِصف صَاع، فإن لَم يقدِر علىٰ الطَعام صام لكُلّ نِصف صاع يوماً»[٥].

وعنه عليه السلام، في مُحرِم قَتل نَعامة، قال: «عليه بَدَنة، فإن لَم يجِد فإطعام سِتّين مِسكيناً» [وقال: إن كان قيمة البَدَنة أكثر مِن إطعام ستّين مسكيناً لم يزد على إطعام ستّين مسكيناً، وإن كان قيمة البدنة أقل مِن إطعام ستّين مسكيناً] لَم يكُن عليه إلّا قيمة البَدَنة»[٦].

وإنّما فرَض الله الكَفّارة علىٰ قاتل الصَيد حالَ الإحرام ﴿لِيَذُوقَ﴾ ذلك القاتل ﴿وَبَالَ أَمْرِهِ﴾ وسُوء عاقبة فِعْله مِن هَتْكه حُرمة الإحرام.

---

١. الكافي ٤: ٢/٣٨٤، تفسير الصافي ٢: ٨٨
٢. الكافي ٤: ٣/٣٨٤، تفسير الصافي ٢: ٨٨.
٣. الكافي ٤: ١/٣٨٥، تفسير الصافي ٢: ٨٨.
٤. تفسير القمي ١: ١٨٦، من لا يحضره الفقيه ٢: ٢٠٨/٤٧، تفسير الصافي ٢: ٨٩.
٥. الكافي ٤: ١٠/٣٨٧.
٦. الكافي ٤: ٥/٣٨٦.

ثمّ نبّه سُبحانه علىٰ أنّ هذه الكفّارة إنّما هي إذا كان القتل بعدَ تحريم الصّيد بقوله: ﴿عَفَا اللّهُ﴾ وتَجاوز ﴿عَمَّا سَلَفَ﴾ مِنكم مِن قتل الصّيد قبلَ تحريمه، أو مِن الدُّفعة الأُولىٰ ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إلىٰ قتله في حالِ إحرامه بعدَ التّحريم وعِلْم القاتل به، أو بعدَ التعمُّد في الدُّفعة الأُولىٰ ﴿فَيَنتَقِمُ اللّهُ مِنْهُ﴾ ويُعذِّبه في الآخرة بالنّار ﴿وَاللّهُ عَزِيزٌ﴾ وغالب لا يُغالب ﴿ذُو انتِقَامٍ﴾ شديد مِمّن أصرّ علىٰ عِصيانه.

عن ابن أبي عُمير مُرسلاً: «إذا أصاب المُحرِم الصيّد خطأً فعليه أبداً في كُلّ ما أصاب الكفّارة[1]، فإن عاد فأصاب ثانياً مُتعمّداً فليسَ عليه فيه الكفّارة، وهُو مِمّن قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللّهُ مِنْهُ﴾»[2].

وعن الصادق عليه السلام، في الصحيح: «المُحرِم إذا قتَل الصّيد، فعليه جزاؤه ويتصدّق بالصيد علىٰ مِسكين، فإن عاد فقَتل صَيداً آخر، لم يكُن عليه جزاؤه، وينتقِم الله مِنه، والنِّقمة في الآخرة»[3].

وعليه أكثرُ الأصحاب ـ كما قيل[4] ـ والأظهر اعتِبار العَود في إحرامٍ واحد، وكَون الدُّفعة الأُولىٰ أيضاً عن عَمْد، وإن أمكن دَعوى الإطلاق، إلّا أنّه مَمنوع.

أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُماً وَاتَّقُوا اللّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ[٩٦]

ثمّ لمّا حرّم الله تعالىٰ الصّيد وكان مَظنّة فَهم العُموم، صرّح بتخصيصه بصَيد البَرّ، وإباحة صَيد البَحر بقوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ﴾ مِن السّمك الذي له فَلْس، سَواء أُخذ مِن الماء بعِلاجٍ، أو لفظه البَحْر ونضَب عنه الماء وأُخذ مِن غير حِيلة وعِلاج ﴿وَطَعَامُهُ﴾ والمَملوح مِنه ـ كما عن ابن عبّاس رضي الله عنه[5]، وقيل: إنّه مَذهبُ أهلِ البَيت[6]، وقيل: إنّه أعمّ مِن الطّريّ والمَملوح ـ ليكون ﴿مَتَاعاً﴾ وانتِفاعاً ﴿لَكُمْ﴾ أيُّها المُقيمون ﴿وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ والمُسافرين بأن يتزوّدوا به.

عن (الكافي): عن الصادق عليه السلام: «لا بأس بصَيد المُحرم السّمك ويأكله؛ مالِحه وطَريّه، ويتزوّد». وقال: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ قال: «مالحه الذي يأكلون»[7].

﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ﴾ اصْطِياداً وقتلاً وإشارةً ودَلالةً وإغلاقاً وإغراءً للحَيوان به، وبَيعاً وشِراء وتملُّكاً وإمساكاً وأكلاً ﴿مَا دُمْتُمْ حُرُماً﴾ وعليه يكون نَهيُ الآية أعمَّ من النّهي السّابق لا تأكيداً له.

---

١. زاد في الكافي: وإذا أصابه متعمداً فإن عليه الكفارة.
٢. الكافي ٤: ٣/٣٩٤.
٣. التهذيب ٥: ١٢٩٧/٣٧٢.
٤. كنز العرفان ١: ١٢/٣٢٧.
٥. مجمع البيان ٣: ٣٨٠.
٦. مجمع البيان ٣: ٣٨٠.
٧. الكافي ٤: ١/٣٩٢، تفسير الصافي ٢: ٩٠.

عن الصادق عليه السلام: «كُلّ طَيرٍ يكون في الآجام يَبيض في البرّ ويفرّخ في البرّ فهُو مِن صَيد البرّ، وما كان مِن صَيد البرّ يكون في البرّ ويَبيض في البَحر فهُو مِن صَيد البَحر»[١].

وعنه عليه السلام: «كُلّ شيءٍ يكون أصلُه في البَحر ويكون في البرّ والبَحر، فلا ينبغي للمُحرِم أن يقتُله، فإن قَتله فعليه الجَزاء، كما قال [الله عزّ وجلّ]»[٢].

وعن أحدهما عليهما السلام: «لا يأكُل المُحرم طيرَ الماء»[٣].

ثمّ بالغ سُبحانه في التّأكيد والوَعيد بقوله: ﴿وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ٱلَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ في القِيامة ـ لا إلىٰ غيره ـ في ما نَهاكم عنه مِن المَعاصي التي مِن جُملتها الصَّيد في حالِ الإحرام، فيُجازيكم علىٰ المُخالفة.

جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَائِدَ ذٰلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ[٩٧]

ثمّ أنَه تعالىٰ بعدَ بَيان حُرمة الإحرام والحَرَم، وكَونهما سَبباً لأمن الحَيواناتِ من ضَرَر الإنسان، بيّن أنّ الكَعبة والحَرَم، والأشهُر الحُرُم، وهَدْي الكَعبة أسباب لأمن الإنسان مِن جميع المَخُوفات والآفات، ولَنيلهم بالخَيرات والسّعادات، بقوله: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ﴾ وصيّر ﴿ٱلْكَعْبَةَ﴾ التي تكون لكَمال حُرمتها عندَه وعندَ أنبيائه ﴿ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ المُحترم ﴿قِيَاماً لِلنَّاسِ﴾ وقِواماً لهم، وما به صَلاح أُمورهم.

في بيان وجوه كون الكعبة قياماً للناس

قيل في وَجه كَونها قِواماً للنّاس أُمورٌ:

الأوّل: أنّ مكّة بَلدة لا ضَرع فيها ولا زَرع، ولا يُوجد فيها غالب ما يحَتاج إليه أهلُها، فجعل الكَعبة مُعظَمة في القُلوب حتّىٰ صار أهلُ الدُّنيا راغبين في زِيارتها، فيُسافرون إليها مِن كُلّ فَجٍّ عميق، ويأتون بجميع ما يُحتاج إليه، فصار سَبباً لإسباغ النِّعم علىٰ أهلها.

الثاني: أنّ العَرب كانت عادتهم القَتل والغَارة، وكان أهلُ الحَرَم آمنين علىٰ أنفسهم وأموالهم حتّىٰ أنّ الرَّجُل لَو رأىٰ قاتل أبيه أو ابنه التجأ بالحَرَم ما كان يتعرّض له.

الثالث: أنّ أهلَ مكّة صاروا بسَبب الكَعبة أهلَ الله وخاصّته، وسادات الخَلق إلىٰ يوم القيامة.

---

١. الكافي ٤: ١/٣٩٢، تفسير الصافي ٢: ٩٠.
٢. الكافي ٤: ٢/٣٩٣، تفسير الصافي ٢: ٩٠.
٣. الكافي ٤: ٩/٢٩٤، تفسير الصافي ٢: ٩٠.

الرابع: أنّ الله تعالىٰ جعلَ الكَعبة قِياماً للنّاس في دِينهم بسَبب ما جعَل الله فيها [من] المَناسك العَظيمة والطّاعات الشّريفة، وجعل تِلك المَناسك سبباً لحَطّ السَيّئات ورَفع الدّرَجات وكَثْرة الكَرامات[١].

وعن الصادق سلام الله عليه: «مَن أتىٰ هذا البيت يُريد شيئاً في الدُّنيا والآخرة أصابه»[٢].

وعن القُمّي ﷺ، قال: ما دامت الكَعبة قائمة ويحُجّ النّاس إليها لَم يهلِكوا، فإذا هُدِمت وترَكوا الحَجّ هلَكوا[٣].

﴿وَ﴾ جعَل ﴿ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ الذي يُؤدّىٰ فيه الحَجّ ﴿وَالهَدْىَ﴾ الذي يُهدىٰ إلىٰ البيت ويُذبح عندَه ﴿وَالقَلائِدَ﴾ التي يُقلّدون الهَدْي بها قِياماً للنّاس مِن العَرب وأمثالهم، وسَبباً لراحتهم والسَّعَة في مَعائشهم.

أمّا الشّهر الحَرام فلتَرك العرب فيه القِتال والغَارة، فلِذا كان الخَوف يزُول عنهم، وكانوا يُسافرون للحَجّ والتّجارة، ويشتغلون باكتِساب مَنافع الدِّين والدُّنيا، وإصلاح المَعاش والمَعاد.

وأمّا الهَدْي فكانوا يذبَحونه هُناك ويفرّقون لَحمه بين الفُقراء، فيُصلَح به مَعيشتهم، ويقوم به أمرُ دِينهم ودُنياهم.

وأمّا القلائد ـ وهِي الناقة والبقَرة وكُلّ ما يجُوز في الهَدي ـ فإنّ العرَب كانوا مُبالغين في التّحرُّز عن التَعرُّض لها، حتىٰ إنّهم كانوا يُقلّدون رَواحلهم عندَ رُجوعهم مِن مكّة مِن لِحاء شجرة الحَرَم فيأمنون بذلك، وكانوا يمُوتون مِن الجُوع ولا يتعرضون لها: وهِي أفضل الهدايا، ولذا خصّها بالذِّكْر.

ثمّ ذكَر سبحانهُ عِلّة جعل الأمور المَذكورة قِياماً للنّاس بقوله: ﴿ذٰلِكَ﴾ الجَعل المَذكور، أو التّنبيه بذلك ﴿لِتَعْلَمُوا﴾ بالنّظر إلى المصالح والمَنافع الدِّينيّة والدُّنيويّة ﴿أَنَّ ٱللهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّماوَاتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وحَقائق جميع الموجودات، ومصالحها ومفَاسدها.

ثمّ أكّد سَعَة عِلمه بقوله: ﴿وأَنَّ ٱللهَ﴾ بذاته ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ﴾ مِن الأشياء ﴿عَلِيمٌ﴾ فعَلِم أنّ طِباع العَرب مَجبولة علىٰ الحِرص الشّديد بالمال والقَتل والغَارة، وعلِم أنّه لَو دامت بهم هذه الحالةُ لأدّىٰ ذلك إلىٰ فَنائهم وانْقِطاعهم بالكُلّية، فشرَع لهم حُرمة القِتال في الأشهُر الحُرُم وفي الحَرَم، وألزمهم بحُرمة البيت الحَرام حتّىٰ يقدِروا علىٰ تَحصيل ما يحتاجون إليه، وإصلاح مَعاشهم في الأشهر المُعيّنة والمَكان المُعيّن؛ كذا قيل[٤].

---

١. تفسير الرازي ١٢: ١٠٠.

٢. مجمع البيان ٣: ٣٨٢، تفسير الصافي ٢: ٩٠.

٣. تفسير القمي ١: ١٨٧، تفسير الصافي ٢: ٩٠.

٤. تفسير الرازي ١٢: ١٠١.

ٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ[٩٨]

ثمّ أنّه تعالى بعدَ الإعلام بغاية لُطفه، أعلمهم بشِدّة عِقابه على مَن عَصاه بقوله: **﴿ٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾** على مُخالفة أحكامه وهَتك حُرُماته؛ فلا تغترّوا بسَعَة لُطفه ورَحمته، ولا تأمنوا مِن أخذه.

ثمّ بعد تربيته المَهابة والخَوف في القُلوب، أعلن بسَعَة غُفرانه ورَحمته تربيةً للرّجاء في قُلوب العُصاة بقوله: **﴿وَ﴾** اعلَموا أيها المُؤمنون **﴿أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾** للذُّنوب **﴿رَحِيمٌ﴾** بالعِباد، فلا تيأسوا بكَثرة المَعاصي مِن رَوح الله ورَحمته.

عن النبيّ ﷺ: «لَو وُزِن خَوفُ المُؤمن ورَجاؤه لاعتَدلا»[١].

عن الصادق، عن آبائه عليهم السلام، عن رَسُول الله ﷺ، عن جَبْرَئيل، قال: «قال الله تعالى: مَن أذنب [ذنباً] صغيراً أو كبيراً، وهُو يعلَم أنّ لي أن أعذّبه وأن أعفو عنه، عَفوتُ عنه»[٢].

مَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَاغُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ[٩٩]

ثمّ أنّه سُبحانه بعدَ التّرهيب والتّرغيب حَثّ على طاعَة أحكامه، والزّجْر عن العِصيان مُبالغاً في الوَعيد عليه بقوله: **﴿مَا عَلَى ٱلرَّسُولِ﴾** وليسَ في عُهدته **﴿إِلَّا ٱلْبَلَاغُ﴾** وقد بلّغ الأحكام والوَعد بالثّواب والوَعيد بالعِقاب، وبالَغ في بَيانها، وخرَج عمّا في عُهدته مِن الرِّسالة، وبقي عليكم مِن الطّاعة والامْتِثال **﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾** مِن الأقوال والأعمال الحَسَنة والسَيِّئة **﴿وَمَا تَكْتُمُونَ﴾** وتُخفُون مِن الضَمائر والنيّات، والخُلوص والنِّفاق، ويُجازيكم بحَسَبها.

قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ يَٰٓأُولِى ٱلْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ[١٠٠]

ثمّ لمّا نهىٰ عن تَحريم الطيِّبات مِن الأغذية والأعمال، وبيّن أنّ الخَمر ولَحم صَيد المُحرِم مِن الخَبائث، حَثّ على الالتِزام بالطَّيِّبات واجْتِناب الخَبائث بقوله: **﴿قُل﴾** يا محمّد، للنّاس **﴿لَّا يَسْتَوِى﴾** عندَ الله وأوليائه، وفي حُكم العَقل السّليم **﴿ٱلْخَبِيثُ﴾** الرّذيل الرُّوحاني مِن الجَهل بالله وعصيانه **﴿وَٱلطَّيِّبُ﴾** المُستحسن الرُّوحاني مِن المَعارف الإلهيّة وطاعته، كما لا يستوي الخَبيث والطيِّب الجِسمانيّان في أنظار النّاس وطِباعهم، **﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ﴾** وسرّك **﴿كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾** وشُيوعه

---

١. تفسير الرازي ١٢: ١٠٢.

٢. التوحيد: ١٠/٤١٠، تفسير الصافي ٢: ٩٠.

وتداوله بين النّاس، فإنّ العِبْرة بالجُود والحُسن والرّداءة والقُبح، دُون القِلّة والكثْرة، والتّعارف بين النّاس وعدَمه، فإنّ المَحمود القَليل خيرٌ مِن المَذموم الكَثير.

فإذا كان كذلك **﴿فَاتَّقُوا اللهَ﴾** في مُخالفة أوامره ونَواهيه **﴿يَاأُولِى الْأَلْبَابِ﴾** وذوي العُقول السّليمة والإدراكات الصّافية عن كُدورات الشّهوات **﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾** وتفُوزون بأعلىٰ المَقاصد من الخَيرات الدُّنيوية والنِّعَم الأُخرويّة.

قيل: نزلَتْ في حُجّاج اليَمامة لمّا هَمّ المُسلمون أن يُوقِعوا بهم، بسَبب أنّه كان فيهم الحُطيم، وقد أتىٰ المدينة في السّنة السّابقة، واسْتاق سَرْح[1] المدينة، فخرَج في العام القابِل ـ وهُو عام عُمرة القضاء ـ حاجاً، فبلَغ ذلك أصحاب السَّرْح، فقالوا للنبيّ ﷺ: هذا الحُطيم خرَج حاجاً معَ حُجّاج اليَمامة، فخَلِّ بيْننا وبيْنه؟ فقال ﷺ: «[إنه] قلّد الهَدْي». ولَم يأذن لَهم في ذلك، بسَبب اسْتِحقاقهم الأمْن بتَقليد الهَدايا. فنزلت الآية تَصْديقاً له ﷺ في نَهيه إيّاهم[2].

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْئَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْئَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللهُ عَنْهَا وَاللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ[١٠١]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ بَيان أنّ النبيّ وظيفته التّبليغ وبَيان الأحكام، وكان المُسلمون يسألونه عمّا لا يعنيهم مِن المَسائل، نَهاهم عن إكْثار السُّؤال عمّا يُوجب التّشديد عليهم بقوله: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْئَلُوا﴾** الرّسُول **﴿عَنْ أَشْيَاءَ﴾** ومَطالب وأحكام **﴿إِن تُبْدَ﴾** وتظهَر **﴿لَكُمْ﴾** تِلك الأُمور ببَيان الرّسُول **﴿تَسُؤْكُمْ﴾** وتغُمّكم لِمَا تَرَوْن مِن مُخالفتها لطِباعكم.

رَوىٰ أنس أنّهم سألوا النبيّ ﷺ فأكثروا المَسألة، فقام علىٰ المِنْبر فقال: «سلوني، فوَالله لا تسألوني عن شيء ما دُمتُ في مَقامي هذا إلّا حدّثْتُكم به»، فقام عبدُالله بن حُذافة ـ وكان يُطعَن في نَسبه ـ فقال: يا نبيّ الله، مَن أبي؟ فقال: «أبوك حُذافة بن قيس»[3].

في ذكر سؤال عكاشة

وقال سُراقة بن مالك ـ ويُروىٰ عُكاشة بن مُحصن ـ يا رَسُول الله، الحَجّ علينا في كُلّ عام؟ فأعرض عنه رَسُول الله ﷺ، حتّىٰ أعاد مرّتين أو ثلاثة، فقال ﷺ: «وَيحك وما يُؤمنك أن أقول نعَم، والله لَو قُلتُ نعَم لوَجبَتْ، ولَو وَجبَتْ لتركتُم، ولَو تركتُم لكفَرتُم، فاترُكوني ما تركتكم، فإنّما هلَك مَن كان قبلَكم بكَثْرة سُؤالهم، فإذا أمرتُكم بشيءٍ فأتوا مِنه ما آستطعتُم، وإذا نَهيتُكم عن شيءٍ فاجْتنِبوه».

---

١. السَّرْح: الماشية. ٢. تفسير روح البيان ٢: ٤٤٧. ٣. تفسير الرازي ١٢: ١٠٦.

وقام آخرُ فقال: يا رَسُول الله، أين أبي؟ فقال: «في النّار». ولمّا أشتدّ غضَبُ الرّسُول قام عُمر وقال: رَضينا بالله رَبّاً، وبالإسلام دِيناً، وبمحمّد نبيّاً، فأنزل الله هذه الآية[١].

﴿وَ﴾ لا عن أشياء ﴿إِن تَسْـَٔلُوا﴾ الرّسُول ﴿عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ﴾ وفي زَمان إتيان الوَحي ﴿تُبْدَ لَكُمْ﴾ تِلك المَسألة وتظهَر.

وقيل: إنّ المُراد: إن تسألوا عن شيءٍ نزَل به القُرآن لكنكم ما فهمتُم المُراد مِنه، فهذا السُّؤال جائز، ويظهَر لكم جَوابه.

عن القُمّي رحمه الله: عن الباقر عليه السلام: «أنّ صَفيّة بِنت عبدالمُطّلب مات ابنٌ لها فأقبلت إلى النبيّ صلى الله عليه وآله، فقال لها عُمر: غَطّي قُرْطك[٢]، فإنّ قَرابتك مِن رَسُول الله لا تنفعُك شيئاً، فقالت له: هَل رأيتَ لي قُرطاً يا بن اللَّخناء[٣]، ثُم دخلت على رَسُول الله صلى الله عليه وآله فأخبرته بذلك وبكَتْ، فخرَج رَسُول الله فنادى: الصّلاة جامعة، فاجتمع النّاس فقال: ما بالُ أقوامٍ يزعُمون أنّ قَرابتي لا تنفع! لو قد قمتُ المقام المَحمود لشفَعتُ في خارجكم[٤]، لا يسألني اليومَ أحدٌ مَن أبوه إلّا اخبرته، فقام إليه رَجُل فقال: مَن أبي يا رَسُول الله؟ فقال: أبوك غيرُ الذي تُدعى له، أبوك فلان بن فلان، فقام آخر فقال: مَن أبي يا رَسُول الله؟ قال: أبوك الذي تُدعى له. فقال رَسُول الله صلى الله عليه وآله: «ما بالُ الذي يزعُم أنّ قَرابتي لا تنفَع لا يسألني عن أبيه؟ فقام إليه عُمر فقال له: أعوذ بالله يا رَسُول الله مِن غَضَب الله وغَضب رَسُول الله، اعْفُ عنّي عفا الله عنكَ. فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية»[٥].

عن أمير المؤمنين صلَواتُ الله عليه: «أنّ الله افترض عليكم فَرائض فلا تُضيّعوها، وحَدّ لكم حُدوداً فلا تَعتدوها، ونهَاكم عن أشياء فلا تَنتهكوها، وسكت عن أشياءٍ ولَم يدَعْها نِسياناً فلا تتكلّفوها»[٦].

ثمّ أشار سُبحانه إلى أنّ حِكمة النّهي عن السُّؤال ليسَتْ مُنحصرة في الصِّيانة عن مَسألة المُؤمنين، بَل لكَونه إيذاءً للنبيّ ومَعصيةً لله، بقوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ﴾ عن مَسائلكم السّابقة وإيذائكم للرّسُول، وتَجاوز ﴿عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾، وفيه الحَثّ على الانْتِهاء عن المَسألة وعدَم العَود إلى إكثارها.

قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ[١٠٢]

---

١. تفسير الرازي ١٢: ١٠٦.

٢. القُرط: ما يُعلّق في شحمة الأُذن من ذهب أو فضة أو نحوهما.

٣. اللَّخناء: المرأة المُنتنة.

٤. في المصدر: أحوجكم.

٥. تفسير القمي ١: ١٨٨، تفسير الصافي ٢: ٩١.

٦. نهج البلاغة: ٤٨٧ الحكمة ١٠٥، تفسير الصافي ٢: ٩٢.

ثمّ بالغ سُبحانه في الزَجْر عنه حيثُ وعَظهم بأنّ أمثال هذه السُؤالات سُؤالات ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ﴾ كانوا ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ مِن أنبيائهم، فأجيبوا عنها ﴿ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ حيثُ جَحدوا بالأجوبة، ولَم يعمَلوا بها.

قيل: إنّ بني إسرائيل كانوا يستفتون أنبياءهم في أشياء، فإذا أُمروا تركوها، فهلَكوا[1].

مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ[١٠٣]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ النَهي عن السّؤال عمّا يُحتمل أن يكون في جَوابه فَضيحتهم، أو المشَقّة عليهم، نهاهم عن التّكليف بما لَم يُكلّفهم الله به بقوله: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ﴾ وما شرَع شيئاً ﴿مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾.

عن (المعاني): عن الصادق عليه السلام: «أنّ أهل الجاهليّة كانوا إذا ولدَتْ النّاقة ولدَين في بَطن واحد قالوا: وصلَتْ، فلا يستحلّون نحرها ولا أكلها، فإذا ولدَت عشراً جَعلوها سائبة ولا يستحلّون ظهَرها ولا أكلها، والحَام: فَحْل الإبل لَم يكونوا يستحلّونه، فأنزل الله عزّ وجلّ أنّه لَم يُحرّم شيئاً مِن ذلك».

وقد رُوي أنّ البَحِيرة: النّاقة إذا أنتجَت خمسةَ أبطُن، فإذا كان الخامس ذكراً نحَروه وأكله الرّجال والنّساء، وإن كان الخامس أُنثى بحَروا أُذنها ـ أي شَقّوها ـ وكانت حَراماً علىٰ النِّساء[2]؛ لَحمها ولَبَنها، فإذا ماتت حَلّت للنساء.

والسّائبة: البَعير يُسَيَّب بنَذْرٍ يكون علىٰ الرّجُل إنْ سَلّمه الله مِن مَرضٍ، أو بلَغ منزله أن يفعَل ذلك.

والوَصيلة: مِن الغَنم، كانوا إذا ولدَت الشاة سَبعة أبطُن، فإذا كان السّابع ذكراً ذُبح وأكل مِنه الرّجال والنِّساء، [وإن كانت أُنثى تركت في الغنم] وإن كان ذكراً وأُنثىٰ قالوا: وصلَتْ أخاها فلَم تُذبح، وكان لحومهما[3] حَراماً علىٰ النّساء إلّا أن يمُوت مِنها شيء فيحِلّ أكلُها للرِّجال والنِّساء.

والحام: الفَحل إذا رُكب وَلد وَلده قالوا: قد حمىٰ ظهره.

ويُروىٰ أن الحَام هُو مِن الإبل، إذا أنتج عشرة أبطُن قالوا: قد حمىٰ ظهره، فلا يُركَب ولا يُمنع مِن كلأ ولا ماء[4].

قيل: إنّ عمر بن لُحَي الخُزاعي كان قد ملَك مكّة، وكان أوّل مَن غيّر دِين إسماعيل، فاتّخذ الأصنام،

---

١. تفسير روح البيان ٢: ٤٤٩.

٢. زاد في المصدر: والرّجال.

٣. في المصدر: لحومها.

٤. معاني الأخبار: ١/١٤٨، تفسير الصافي ٢: ٩٢.

ونصَب الأوثان، وشَرع البَحيرة والسّائبة والوَصيلة والحَام، وقال النبيّ ﷺ: «ولقد رأيته في النّار يؤذي أهل النّار بريح قَصْبه[١]». ويُروىٰ يجرّ قُصْبَه في النّار[٢].

وقال ابن عباس: قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللهِ ٱلْكَذِبَ﴾ يُريد عمر بن لُحَي وأصحابه، يقولون علىٰ الله هذه الأكاذيب والأباطيل في تَحريم هذه الأنعام[٣].

وقيل: إنّ الرُّؤساء يفترون على الله الكَذِب، فأمّا الأتباع والعَوام فهُم المَعنيون بقوله: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[٤] أنّه افتِراءٌ على الله حتّىٰ يُخالفوهم ويهتدوا إلى الحقّ بأنفسهم.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ ٱللهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ[١٠٤]

ثمّ نبّه سُبحانه علىٰ غاية قُصور عَقلهم، وانْهماكهم في التّقليد بقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ علىٰ سَبيل الارشاد والهِداية ﴿تَعَالَوْا إِلَىٰ﴾ قَبول ﴿مَا أَنْزَلَ ٱللهُ﴾ مِن الكِتاب المُبيِّن للحَلال والحَرام ﴿وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ المُبلِّغ عنه، حتّىٰ تقِفوا علىٰ الحَقّ ﴿قَالُوا﴾ عِصياناً وعِناداً: ﴿حَسْبُنَا﴾ وكَفانا دَليلاً علىٰ الحَقّ ﴿مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ مِن الاعْتِقاد والأعمال.

ثمّ ردّهم الله بقوله: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئاً﴾ مِن الدِّين، ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ إلىٰ شيءٍ مِن الحَقّ والصّواب.

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ إِلَى ٱللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ[١٠٥]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ بَيان انْهماك كثيرٍ مِن الكُفّار في الضّلال، وإصرارهم علىٰ الكُفْر، أمر المُؤمنين بالثّبات علىٰ الإيمان، والعمَل بأحكام الإسلام، وعدَم المُبالاة بضَلالة أهل الضّلال بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ والتزِموا بحِفظها مِن الضّلال والعِصيان، واهتمّوا بتَكميلها بحُسْن الأخلاق، ولا تغتمّوا بانْحِراف النّاس عن الحقّ، فإنّه ﴿لَا يَضُرُّكُم﴾ بوَجْهٍ مِن الوُجوه ﴿مَن ضَلَّ﴾ عن الحَقّ بضَلالةٍ ﴿إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ بتَوفيق الله إلىٰ دِينه ومَرضاته.

عن القُمّي قال: أصلِحوا أنفسكم، ولا تتّبِعوا عَورات النّاس ولا تذكُروهم، فإنّه لا يضُرّكم ضَلالتهم

---

١. القُصب: المِعَى، وجمعه أقصاب، وقيل: القُصب: اسم للأمعاء كلها، وقيل: هو ما كان أسفل البطن منها.
٢ و٣. تفسير الرازي ١٢: ١١٠.
٤. تفسير الرازي ١٢: ١١٠.

إذا كنتُم صالحين[١].

عن (المجمع): أنّ أبا بكر سأل رَسُول الله ﷺ عن هذه الآية، فقال: «ائتمِروا بالمَعروف وتَناهَوا عن المُنكر، فإذا رأيت دُنياً مُؤثرة، وشُحّاً مُطاعاً، وهَوىً مُتبعاً، وإعجاب كُلّ ذي رأي بَرأيه، فعليك بخُوَيصّة[٢] نفسك»[٣].

ثمّ وَعد سُبحانه وأوعد الفَريقين بقوله: ﴿إلىٰ اللهِ﴾ وحدَه ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ في القِيامة ﴿جَمِيعاً﴾ ضالّكم ومُهتديكم ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ﴾ في الدُّنيا ﴿تَعْمَلُونَ﴾ مِن الهداية والضَلالة؛ فيُجازيكم علىٰ حَسَب ما تستحقّون.

عن ابن عبّاس: أنّ النبيّ ﷺ لمّا قَبِل مِن أهل الكِتاب الجِزْية ولَم يقبَل مِن العرَب إلّا الإسلام أو السّيف، عيّر المُنافقون المُؤمنين بقَبُول الجِزية مِن بعض الكُفّار دُون بعض. فنزلَت هذه الآية، أي لا يضُرّكم مَلامة اللّائمين، إذا كنتُم علىٰ الهُدى[٤].

وقيل: نزلَت لمّا أشتدّ علىٰ المُؤمنين بَقاء الكُفّار في كُفْرهم وضَلالهم[٥].

وقيل: نزلَت لمّا اغتّم المُؤمنون لعَشائرهم الذين ماتُوا علىٰ الكُفْر، فنُهوا عن ذلك[٦].

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ ٱلصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ ٱللهِ إِنَّا إِذاً لَمِنَ ٱلْآثِمِينَ * فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّا إِثْماً فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذاً لَمِنَ ٱلظَّالِمِينَ[١٠٦ و ١٠٧]

ثمّ لمّا أمَر الله سُبحانه المُؤمنين بحِفظ أنفسهم مِن الضَلال والعِصيان، أردفه بالأمر بحِفظ أموالهم مِن التّلف والضّياع، وتَعليم طَريقه بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾ وعندَ تَنازُعكم ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ وأشرف عليه ﴿حِينَ ٱلوَصِيَّةِ﴾ هِي أن يشهد عليها ﴿ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ﴾

---

١. تفسير القمي ١: ١٨٨، تفسير الصافي ٢: ٩٤.

٢. خُوَيْصَّة الانسان: الذي يختصّ بخدمته، ويعني عليك بما يتصل بك من خدمك ومواليك ودع ما سواهم. وتطلق على حادثة الموت التي تخصّ كلّ إنسان، ويعني عليك بمبادرتها بالأعمال الصالحة والاهتمام بها قبل وقوعها.

٣. مجمع البيان ٣: ٣٩٢، تفسير الصافي ٢: ٩٤. ٤ ـ ٦. تفسير الرازي ١٢: ١١٢.

وصَلاح ﴿مِنكُمْ﴾ ومِن أهل دِينكم، [سواءً أ] كان المُوصي في الحَضر أو في السَّفر ﴿أَوْ﴾ رَجُلان ﴿آخَرَانِ﴾ كائِنان ﴿مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ ومِمَن خالفكم في الدِّين، وإنَّما تُقبل شَهادتهما ﴿إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ﴾ وسِرتُم ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ و سافرتُم فيها ﴿فَأَصَابَتْكُم﴾ ونالتكُم ﴿مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ وقارَبكم الأجل.

ثمّ كأنّه قيل: كيفَ يُقيمان الشّهادة؟ فأجاب بقوله: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا﴾ وتُصبِّرونهما للتَحليف ﴿مِنْ بَعْدِ الصَّلاةِ﴾ لتَغليط اليَمين بشَرف الوَقت، كما رُوي عن النبيّ ﷺ: «أنّه وقتئذٍ حلف من حلف»[1]، ولأنّه وقت اجتِماع النّاس فيثقُل على النُّفوس الأبيّة الكَذِب في مَشهد النّاس، فيُستحلَف حينئذٍ الآخران ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ﴾ ولكِن هذا ﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ أيُّها الوُرّاث فيهما بخِيانةٍ في التَّركة.

ثمّ يقولون بعدَ الشّهادة والقَسَم: إنّا ﴿لَا نَشْتَرِى﴾ بالقَسَم، أو بالله ولا نطلُب ﴿بِهِ﴾ لأنفسنا ﴿ثَمَناً﴾ وعِوضاً مِن مَتاع الدُّنيا ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ المُقسَم له وهُو المَيِّت ﴿ذا قُرْبَى﴾ ومُتَصلاً بالرَّحم ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللهِ﴾ التي أمرنا الله بها وبحِفظها، ونهانا عن كِتمانها وتَضييعها، فإن كَتَمْناها أو ضيّعناها ﴿إِنَّا إِذاً﴾ بالله ﴿لَمِنَ الآثِمِينَ﴾ والعَاصين.

رُوي مِن طَريق العامّة أنّ تَميم بن أوس الدّاري وعَدي بن زيد خرَجا إلىٰ الشّام للتِّجارة، وكانا حينئذٍ نَصْرانيّين، ومعَهما بُديل بن أبي مريم[2] مَولىٰ عمرو بن العاص وكان مُسلماً مُهاجراً، فلمّا قدِما إلىٰ الشّام مرِض بُديل، فكتَب كِتاباً فيه أسماء جميع ما معَه وطرَحه في دَرج الثِّياب، ولَم يُخبرهما بذلك، وأوصىٰ إليهما بأن يدفعا متاعه إلىٰ أهله فمات، ففتّشاه فوجَدا فيه إناءً مِن فِضّة وزنه ثلاثمائة مِثقال مَنقوشاً بالذّهب، فغيّباه ودفَعا المَتاع إلى أهله، فأصابوا فيه الكِتاب فقالوا لهما: هَل باع صاحبكما شيئاً مِن مَتاعه؟ قالا: لا، قالوا: فهَل طال مرضُه فأنفق شيئاً علىٰ نفسه؟ قالا: لا، إنّما مَرِض حينَ قدِم البلَد، فلَم يلبَث أن مات. قالوا: فإنّا وجَدنا في مَتاعه صَحيفةً فيها تَسْمية مَتاعه، وفيها إناء مَنقوش مُموّه بالذّهب وَزنه ثلاثمائة مِثقال. قالا: ما ندري، إنّما أوصىٰ إلينا بشيءٍ وأمرنا أن ندفَعه إليكم ففعلنا، وما لنا بالإناء مِن عِلم. فرفعوهما إلىٰ رَسُول الله ﷺ فنزلت: ﴿يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فاسْتحلفهما بعدَ صَلاة العَصر عندَ المِنْبر بالله الذي لا إلهَ إلّا هُو، أنهما لَم يخونا شيئاً مِما دفع، ولا كَتما، فحلَفا علىٰ ذلك، فخلّىٰ رَسُول الله ﷺ سَبيلهما.

ثمّ أنّه وُجد الإناء في مكّة، فقال مَن بيَده: اشْتريتُه مِن تَميم وعَديّ ـ وقيل: لمّا طالَت المُدّة أظهراه ـ

---

١. تفسير روح البيان ٢: ٤٥٥.

٢. كذا في النسخة وروح البيان أيضاً، لكن في اسد الغابة ١: ١٦٩ بديل بن مارية.

فبلَغ ذلك بني سهم[١] أولياء بُديل، فطلبوه مِنهما، فقالا: كُنّا آشتريناه مِن بُديل، فقالوا: ألم نقُل لكُما: هَل باع صاحبُنا مِن متاعه شيئاً؟ فقلتُما: لا. قالا: ما كان لنا بيّنة، فكرهنا أن نُقِرّ به، فرفعُوهما الى رَسُول الله ﷺ فنزَل قوله تعالى: ﴿فَإِنْ عُثِرَ﴾ الآية[٢].

وعن (الكافي)، مرفوعاً: «خرَج تَميم الدّاري وابن بيدي وابن أبي مارية في سَفرٍ، وكان تميم الداري مُسلماً وابن بيدي وابن أبي مارية نَصْرانيّين، وكان مع تميم الدّاري خُرْج له فيه مَتاع وآنية مَنقوشة بالذّهب وقِلادة أخرجها إلى أسواق بعض العرَب للبيع، فاعتل تَميم الداري عِلّة شديدة، فلما حضَره المَوت دفع ما كان معه إلىٰ ابن بيدي وابن أبي مارية، وأمرهما أن يُوصلاه إلىٰ وَرثته، فقدِما المدينة، وقد أخذا مِن المَتاع الآنية والقلادة، وأوصلا سائر ذلك إلى ورثته، فافتقد القومُ الآنية والقِلادة، فقال أهلُ تميم [لهما]: هل مَرِض صاحبُنا مرضاً طويلاً أنفق فيه نَفقَة كثيرة؟ فقالا: لا، ما مَرِض إلّا أيّاماً قلائل. قالوا: فهَل سُرِق مِنه شيء في سَفره هذا؟ قالا: لا، قالوا: فهَل اتّجر تِجارة خسِر فيها؟ قالا: لا، قالوا: [فقد] آفتقدنا أفضل شيء كان معه؛ آنية مَنقوشة مُكلّلة بالجَوهر، وقِلادة؟. فقالا: ما دفَع إلينا فقد أدّيناه إليكم، فقدّموهما إلىٰ رَسُول الله ﷺ، فأوجب عليهما اليَمين فحلَفا، فخلّا عنهما»[٣].

عن الصادق عليه السلام، في تفسير الآية: «اللّذان مِنكم مُسلمان، واللّذان مِن غيركم [من] أهل الكِتاب، فإن لَم تجدوا مِن أهل الكِتاب فمِن المَجوس؛ لأنّ رَسُول الله ﷺ سَنّ في المَجوس سُنّة أهل الكِتاب في الجزية، وذلك إذا مات الرّجُل في أرض غُربة فلَم يجِد مُسلمين، أشهد رجُلين مِن أهل الكِتاب يُحبسان بعدَ العصر[٤]، فيُقسمان بالله لا نشتري به ثمناً ولَو كان ذا قُربىٰ، ولا نكتُم شهادةَ الله، إنّا إذاً لمَن الآثمين. قال: وذلك إن آرْتاب وليُّ المَيت[٥].

﴿فَإِنْ عُثِرَ﴾ واطُّلِع بعدَ حَلف الوَصيّين ﴿عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا﴾ بشَهادتهما بالباطل، وحِنثهما في اليَمين بالكَذِب في القول أو الخِيانة في المال ﴿ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا﴾ وارتكبا ذَنْباً، فلا ينقض الحاكم شَهادتهما لاحتمال شِرائهما المال مِن الميّت، فإن ادّعياه وأنكر الوارِث ﴿فَـَٔاخَرَانِ﴾ يجيئان بعدَ ظُلم الشّاهدين الأولين، و﴿يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾ في الحَبس إلىٰ بَعد الصّلاة والحَلف، ولكِن يُشترط أن يكون الآخران ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ﴾ الحَلف.

---

١. في تفسير روح البيان: بني سهل.
٢. تفسير روح البيان ٢: ٤٥٤.
٣. الكافي ٧: ٥/٧، تفسير الصافي ٢: ٩٥.
٤. في الكافي: الصلاة.
٥. الكافي ٧: ٤/٦، تفسير الصافي ٢: ٩٥.

ثمَ كأنّه قيل: من الذين استحق الكِتابيّان المَدّعيان للشراء عليهم الحَلف؟ قيل: هُما ﴿ٱلْأَوْلَيَانِ﴾ بالميّت والأقربان إليه ﴿فَيُقْسِمَانِ﴾ كلا الآخرين ﴿بِاللهِ لَشَهَادَتُنَا﴾ وحَلفنا ﴿أَحَقُّ﴾ بالقَبُول وأولىٰ ﴿مِن﴾ حَلف الكِتابيّين و ﴿شَهَادَتِهِمَا﴾ معَ كَونها كاذبة ﴿وَمَا ٱعْتَدَيْنَا﴾ وما تجاوزنا في شَهادتنا، وما ظَلمنا علىٰ الكِتابيّين بإبطال حقّهما ﴿إِنَّا إِذاً لَّمِنَ ٱلظَّالِمِينَ﴾ علىٰ أنفسنا بتَعريضها لسَخَط الله بهَتْك حُرمة آسمه المُبارك، أو لمِن الواضعين للحَقّ في غير مَوضعه.

فتحصّل مِن الآيتين الشّريفتين أنّ مِن أشرَف على الموت ينبغي أن يُوصي ويُشهِد على وصيّته شَاهدين عَدلين مِن أهل الإيمان، فإنّ لَم يُوجدا بأن كان في سفرٍ فيُشهد رجلين مِن أهـل الكِتاب عَدلَين في دِينهما، فإنّ آرْتاب الوارث فيهما يُومران بأن يحلِفا بعدَ صلاة العصر أنّهما ما كتما الشّهادة وما خانا في التّركة شيئاً، فإن اطّلع علىٰ كَذِبهما في الشّهادة أو خِيانتهما في التّركة بأن ظهر بأيديهما شيءٌ مِنها، وادّعيا أنّ الميّت ملّكهما إيّاه، وأنكره الوَرثة، حَلف اثنان مِنهم وعمِل بحَلفهما.

رُوي أنّ رَسُول الله ﷺ بعدَ نُزول: ﴿فَإِنْ عُثِرَ﴾ إلىٰ آخِر الآية أمر أولياء تَميم الدّاري أن يحلِفوا بالله علىٰ ما أمرهم به فحلَفوا، فأخذ رَسُول الله ﷺ القِلادة والآنية مِن ابن بيدي وأبـن أبـي مـارية وردّهما إلىٰ أولياء تميم الدّاري[1].

وفي روايةٍ بعض العامّة: كان تميم الدّاري يقول بعدما أسلم: صدَق الله ورَسُوله، أنا أخذتُ الإناء، فأتوبُ الىٰ الله[2].

وعن ابن عبّاس ﷺ: أنّه بقيتْ تِلك الواقعة مَخفيّة إلىٰ أن أسلم تَميم الدّاري، فلمّا أسـلم أخـبر بذلك وقال: حلفتُ كاذباً، وأنا وصاحبي بِعنا الإناء بألف وقسَمنا الثّمن، ثمّ دفَع خَمسمائة دِرْهم مِن نفسه، ونزَع مِن صاحبه خَمْسمائة أُخرىٰ ودفع الألف إلى مَوالي الميت[3].

قيل اتّفق العُلماء علىٰ أنّ هذه الآية أشكل ما في القُرآن إعراباً ونظماً وحُكماً[4].

ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَٱتَّقُوا ٱللهَ وَٱسْمَعُوا وَٱللهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَاسِقِينَ[١٠٨]

ثمّ بيّن سُبحانه حِكمة تَشريع هذه الكَيفيّة مِن الشّهادة بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الحُكم الذي ذكَرناه، والطّريق الذي شرَعناه ﴿أَدْنَىٰ﴾ وأقرب إلى ﴿أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ﴾ وأن يُؤدّيها الشّهود ﴿عَلَىٰ

---

١. الكافي ٧: ٦/٧، تفسير الصافي ٢: ٩٦.
٢ و٣. تفسير الرازي ١٢: ١٢٠.
٤. تفسير روح البيان ٢: ٤٥٤.

﴿وَجْهِهَا﴾ ونَحوه الذي تحمّلوها علىٰ الميّت مِن غير تَحريف وخِيانة، مِن جِهة أنّ الشُّهود إمّا أن يخافوا بسَبب الحَلْف والتَغليظ فيه مِن عَذاب الله **﴿ أَوْ يَخَافُوا﴾** مِن **﴿أَن تُرَدَّ﴾** مِن قِبَل الحاكم **﴿أَيمَانٌ﴾** علىٰ الوَرَثة، فيحلِفوا علىٰ خِيانة الشُّهود **﴿بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾** فيفتضحوا بإبطال أيمانهم علىٰ رؤوس الأشهاد والعمَل بأيمان الوَرَثة، فأيّ الخَوفين حصَل، حصل المقصود، وهُو الإتيان بالشّهادة علىٰ وجهها.

ثمّ حثّ الله سُبحانه النّاس علىٰ العمَل بأحكامه، وحِفظ الأمانات وردّها بقوله: **﴿وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾** أيُّها النّاس في شَهاداتكم مِن أن تُحرّفوها، وفي أيمانكم مِن أن تُكذّبوا فيها، وفي أماناتكم مِن أن تخُونوها، وفي أحكام دِينكم مِن أن تُخالفوها **﴿وَٱسْمَعُوا﴾** مَواعظ الله سَمْعَ طاعةٍ وقَبُول، ولا تكونوا مِن الفُسّاق **﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى﴾** إلى طريق الجنّة، ولا يُوفّق لعمَل الخَير **﴿ٱلْقَوْمَ ٱلْفَاسِقِينَ﴾** والفَريق الخارجين عن حُدود الشّرع والعَقل.

يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ ٱلْغُيُوبِ[١٠٩]

في بيان بعض أهوال القيامة

ثمّ لمّا كان دأبُه سُبحانه في كِتابه العَزيز بعدَ ذِكر جُملة مِن الأحكام العمَليّة إمّا بيَان مِقدارٍ مِن المَعارف الالهيّة تَنشيطاً للقُلوب، أو شَرح قِصّة مِن قِصَص الأنبياء وأُمَمهم آعتباراً ومَوعظةً للنّاس وبعثاً لهم إلىٰ امتِثال الأحكام، أو ذِكر أحوال القِيامة رَدعاً لهم عن مُخالفتها، أردف الأحكام المَذكورة بِذكر أهوال القِيامة بقوله: **﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾** وأُمَمهم فيه، اذكُروا أيُّها المُؤمنون، وهُو يَوم القِيامة **﴿فَيَقُولُ﴾** لهم تَوبيخاً لأُمَمهم: **﴿مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾** مِن قِبَل أُمَمكم حينَ دَعوتُموهم إلىٰ توحيدي وطاعة أحكامي؟ أكانت إجابتهم إجابة إقرار وتَسليم، أم إجابة إنكار وجُحود؟ **﴿قَالُوا﴾** تَشكّياً مِن أُمَمهم: ربّنا **﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾** بما أنت تَعلم مِن ضمائرهم وبَواطن قُلوبهم **﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ ٱلْغُيُوبِ﴾** ونحنُ لا نعلَم إلّا ما أظهروه مِن الجُحود والعِصيان.

قيل: إنّ المُراد: إنّ عِلمك مُحيط بجَميع الأشياء، وعِلمنا في جَنْب عِلمك كالمَعدوم، فتعلَم ما ابْتُلينا مِن قِبَلهم، وكابَدنا مِن سُوء إجابتهم، فنلتجئ إليك في الانْتِقام مِنهم[١].

عن ابن عبّاس ﷺ: أنّ هذا الجَواب إنّما يكون في بعض مَواطن القِيامة وذلك عندَ زَفرة جهنّم وجُثُوّ الأمَم علىٰ رُكَبهم، لا يبقىٰ مَلك مُقرّب ولا نبيّ مُرسَل إلّا قال: نفسي نفسي، فعندَ ذلك تطِير

---

١. تفسير روح البيان ٢: ٤٥٨.

القُلوب مِن أماكنها، فيقول الرُّسُل مِن شِدّة هَول المسألة وهَول المَوطن: لا علم لنا إنّك أنت علّام الغُيوب، ثمّ ترجِع إليهم عُقولُهم، فيشهَدون علىٰ قومهم أنّهم بلّغوا الرِّسالة، وأنّ قومهم كيف ردّوا عليهم[١].

وفي (المعاني): عن الصادق عليه السلام: «يقولون: لا عِلم لنا بسِواك».

وقال: «القرآن كُلّه تَقْريع، وباطِنه تَقريب»[٢].

وفي (الكافي): عن الباقر عليه السلام: «أنّ لهذا تأويلاً، يقول: ماذا أُجبتم في أوصيائكم الّذِين خلّفتُموهم علىٰ أُمَمكم؟ فيقولون: لا عِلم لنا بما فعَلوا مِن بعدنا»[٣] الخبر.

إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَاعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَاةَ وَٱلإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْئَةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونَ طَيْراً بِإِذْنِى وَتُبْرِئُ ٱلأَكْمَهَ وَٱلأَبْرَصَ بِإِذْنِى وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِى إِسْرَاءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ * وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِى وَبِرَسُولِى قَالُوا آمَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ * إِذْ قَالَ ٱلْحَوارِيُّونَ يَاعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ ٱلسَّماءِ قَالَ ٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُؤْمِنِينَ * قَالُوا نُرِيدُ أَن نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّاهِدِينَ [١١٠ـ١١٣]

ثمّ لمّا ذكَر في أوائل السُّورة سُوء اعْتِقاد النّصارىٰ في حَقّ عيسى وأُمّه، وكانوا أحقّ الأُمَم بالتّوبيخ حيثُ إنّهم تعدّوا مِن إساءة الأدب بسَاحة الأنبياء التي كانت لسائر الأُمَم إلىٰ إساءة الأدب بسَاحة جَلال الله وكِبريائه بقولهم بحُلول الله تعالى في عيسىٰ، أو أنّه ابنه، شرَع في إثبات عُبوديّة عيسىٰ بَحَضرة الرُّسُل في القِيامة، أولاً بإظهار المنّة عليه بنعمته بقوله: ﴿**إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَاعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ**﴾ مَريم. وفي ذِكر والدته تَقريعٌ علىٰ مَن تكلّم في نَسَبه بما تكلّم، وعلىٰ مَن ادّعىٰ أُلوهيّته معَ كَونه مُتولّداً مِن أُمّ.

---

١. تفسير روح البيان ٢: ٤٥٨.

٢. معاني الأخبار: ١/٢٣٢، تفسير الصافي ٢: ٩٧.

٣. الكافي ٨: ٥٣٥/٣٣٨، تفسير الصافي ٢: ٩٧.

ثمّ شرَع في تَعداد نِعمه التي أنعمها عليه بالأصالة وعلىٰ اُمّه بالتّبَع بقوله: ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ﴾ وأعنتُك ﴿بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ ووَاسطة إفاضة العُلوم، وهُو جَبرئيل، ولذا كُنت ﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ﴾ بكَلام الأنبياء، حالَ كَونك طِفلاً كائناً ﴿فِي ٱلْمَهْدِ﴾ وفي حِجر اُمّك ﴿وَ﴾ كَونك ﴿كَهْلاً﴾ مِن غير تفاوُت في كَلامك بين الوَقتين والحَالتين ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَابَ﴾ السّماوي كُلّه، أو الكِتابة والخَط[1] - كما قيل[2] - ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ مِن المَعارف والأحكام ﴿وَٱلتَّوْرَاةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ الّذين هُما أفضل الكُتب، وألهمتُك الأسرار المُودعة فيهما ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ﴾ وتُسوّي ﴿مِنَ ٱلطِّينِ﴾ هيئته ﴿كَهَيْئَةِ ٱلطَّيْرِ﴾ والخَفافيش ﴿بِإِذْنِى﴾ وإقداري وتَعليمي ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا﴾ بعدَ تصويرها ﴿فَتَكُونُ﴾ تِلك الهَيئة ﴿طَيْراً﴾ كسائر الطُّيور ﴿بِإِذْنِى﴾ وإيجادي.

رُوي أنّ اليَهُود سألوا منه عليه السلام علىٰ وَجه التَعنُّت، فقالوا له: اخْلُق لنا خَفّاشاً، واجعَل فيه رُوحاً إن كُنت صادقاً في مقالك، فأخذ طِيناً وجعَل مِنه خَفّاشاً، ثمّ نفَخ فيه فإذا هُو يطِير بيْن السّماء والأرض.

في ذكر عجائب الخفّاش

قيل: إنّما طلَبوا مِنه خَلق الخَفّاش لأنّه أعجب مِن سائر الخَلق، ومِن عَجائبه أنّه لَحم ودَم يطِير بغير رِيش، ويلِد كما يلِد الحَيوان ولا يبيض كما يبيض سائِر الطُّيور، وله ضَرْع يجري مِنه اللّبَن، ولا يُبصِر في ضَوء النّهار ولا في ظُلمة اللّيل، وإنّما يرىٰ في ساعتين، بعَد غُروب الشّمس ساعة، وبعد طُلوع الفَجر ساعة قبلَ أن يُسفِر جداً، ويضحَك كما يضحَك الإنسان، ويحيض كما تحيض المرأة. فلمّا رأوا ذلك مِنه ضحِكوا وقالوا: هذا سِحْر[3].

﴿وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ﴾ والأعمىٰ الخَلْقي ﴿وَٱلْأَبْرَصَ﴾ معَ عَجز جميع الأطبّاء عن إبرائهما وعِلاجهما ﴿بِإِذْنِي﴾ وإجابتي لدُعائك ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ مِن قُبورهم بعدَ إحيائهم فيها ﴿بِإِذْنِى وَإِذْ كَفَفْتُ﴾ ومنعتُ ﴿بَنِى إِسْرَاءِيلَ عَنكَ﴾ وعن التَعرُّض لك ﴿إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ وأتيتَهم بالمُعجزات البَاهرات، وقصَدوك بالسُّوء، وعارضوك بالجُحود ﴿فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾ وجَحدوا نُبوّتك: ما هذا بإعجاز بل ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ وشَعْبذةٌ ظاهرةٌ.

﴿وَ﴾ اذكُر ﴿إِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّينَ﴾ وألقيتُ في قُلوبهم حيَن دَعوتَهم إلىٰ الإيمان ﴿أَنْ ءَامِنُوا بِى وَبِرَسُولِى﴾، قد مرَ ذِكْر عَدَد الحَواريّين، ووَجْه تَسميتهم بهذا الاسْم في سُورة آل عِمران[4].

فهُم بعدَ إلقاء الله في قُلوبهم الإيمان ﴿قَالُوا﴾: يا عيسىٰ ﴿ءَامَنَّا﴾ بالله وبوَحدانيّته ﴿وَٱشْهَدْ﴾ عندَه يومَ القِيامة ﴿بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ له، مُنقادون لأوامره ونَواهيه، و ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾ مُخاطبين لك ﴿يَا

---

١. في تفسير الرازي: وهي الخط.
٢. تفسير الرازي ١٢: ١٢٥.
٣. تفسير روح البيان ٢: ٤٦٠.
٤. تقدّم في تفسير الآية (٥٢) من سورة آل عمران.

عِيسَى ٱبنَ مَرْيَمَ﴾.

قيل: كان ذلِك مِنهم في بَدْو أمرهم وحالَ عدَم اسْتِحكام مَعرفتهم بالله ويقِينهم برِسالة عِيسىٰ، ولذا أساءوا الأدب بخِطابه باسْمه ونِسْبته إلىٰ أمّه، وكان حَقّهم أن يقولوا: يا رَسُول الله، ويارُوح الله[1].

﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ﴾ ويقدِر ﴿رَبُّكَ﴾ علىٰ ﴿أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً﴾ وخِواناً[2] عليه الطّعام ﴿مِنَ ٱلسَّمَاءِ﴾ قيل: إنّ المُراد: هَل جائز في حِكمة الله إنزال المائدة مِن السّماء؟ وهَل يُعطيك رَبّك إن تسأله ذلك؟![3]

أقول: هذان التوجيهان مُنافيان لِما حَكاه الله عن عيسىٰ عليه السلام في جوابهم بقوله: ﴿قَالَ﴾ عيسىٰ: ﴿ٱتَّقُوا ٱللهَ﴾ مِن أمثال هذا السُّؤال الكاشِف عن شكّكم في قُدرته ﴿إِن كُنتُم مُؤْمِنِينَ﴾ بكَمال قُدرته ومُوقنين به ﴿قَالُوا﴾ لعيسىٰ اعْتِذاراً: إنّه ما دَعانا إلىٰ هذا السُّؤال الشّكُّ في قُدرته تعالى، بَل إنّا ﴿نُرِيدُ أَن نَأْكُلَ مِنْهَا﴾ للاسْتِشفاء مِن أمراضنا علىٰ قولٍ، أو لسَدّ الرّمَق علىٰ قولٍ آخر، حيثُ قيل: إنّ السُّؤال كان في زَمن المَجاعة[4].

﴿وَتَطْمَئِنَّ﴾ بُمشاهدتها ﴿قُلُوبُنَا﴾ ويتقوّىٰ عِلمُنا الاسْتِدلالي بالعِلم الشُّهودي ﴿وَنَعْلَمَ﴾ بعَين اليَقين ﴿أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ في ادِّعاء الرِّسالة، لكَون هذه المُعجزة أتمّ الأدلّة عليه ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا﴾ عندَ أهلِ العالَم ﴿مِنَ ٱلشَّاهِدِينَ﴾ حتّىٰ يَزداد المُؤمنون برِسالتك إيماناً، ويُؤمن الكافرون بك باطّلاعهم عليها.

قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ ٱلسَّمَاءِ تَكُونَ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ ٱلرَّازِقِينَ * قَالَ ٱللهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لَا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ ٱلْعَالَمِينَ [١١٤ و ١١٥]

في كيفية نزول المائدة

فلمّا أظهروا أغراضاً ظاهِرة الصِّحّة لسُؤالهم ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ مُتضرّعاً إلىٰ الله: ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَا﴾ اللّطيف بنا، المُكمّل لنفُوسنا ﴿أَنزِلْ عَلَيْنَا﴾ بجُودك وتَفضُّلك ﴿مَائِدَةً﴾ وخِواناً مِن الطّعام ﴿مِنَ ٱلسَّمَاءِ﴾ كَي ﴿تَكُونُ لَنَا﴾ تِلك المائدة ويوم نُزولها ﴿عِيداً﴾ وسُروراً، ويومَ سُرورٍ ﴿لأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ وسابقنا ولاحقنا إلىٰ يوم القِيامة ﴿وَ﴾ تكون

---

١. تفسير روح البيان ٢: ٤٦٢.

٢. الخوان: ما يؤكل عليه.

٣. تفسير الرازي ١٢: ١٢٩.

٤. تفسير روح البيان ٢: ٤٦٢.

﴿آيَةً﴾ ودَلالة ﴿مِنكَ﴾ علىٰ كمال قُدرتك، وصِحَة نُبوّتي ﴿وَٱرْزُقْنَا﴾ المائدة والشُّكر عليها، فإنّك خَير المَسؤولين ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّازِقِينَ﴾ تخلُق الرِّزق وتُعطيه بِلا مَنٍّ ولا عِوَض.

﴿قَالَ ٱللَّهُ﴾ بطَريق الوَحي لعيسىٰ، إجابةً لمَسؤوله مِن إنزال المائدة: ﴿إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ ومُجيب لسُؤلكم ﴿فَمَن يَكْفُرْ﴾ بتَوحيدي ورِسالة رَسُولي ﴿بَعْدُ مِنكُمْ﴾ يا بَني إسرائيل مع مُشاهدة الآية العظيمة الباهرة ﴿فَإِنِّى أُعَذِّبُهُ﴾ بسَبب إصراره علىٰ الكُفر، وتَمرُّنه في الضَّلال ﴿عَذَاباً﴾ شديداً ﴿لَّا أُعَذِّبُهُ﴾ ولا أبتلي بمِثله ﴿أَحَداً مِنَ ٱلْعَالَمِينَ﴾.

في (المجمع): عن الباقر عليه السلام: «أنّ عيسىٰ عليه السلام قال لبني إسرائيل: صُوموا ثلاثين يوماً، ثمّ اسألوا الله ما شِئتُم يُعطِكُموه، فصاموا ثلاثين [يوماً]، فلمّا فرَغوا قالوا: [يا عيسىٰ] إنّا لو عمِلنا لأحدٍ مِن النّاس فقضَينا عملَه لأطعمنا طَعاماً، وإنّا صُمنا وجعنا، فادْعُ الله أن يُنزّل علينا مائدةً مِن السّماء، فأقبلت المَلائكةُ بمائدةٍ يحمِلونها، عليها سَبعة أرغفة، وسَبعة أحوات[1] حتّىٰ وَضَعَتْها بين أيديهم، فأكل مِنها آخر النّاس كما أكل أوّلهم»[2].

وعن عمّار بن ياسر، عن النبيّ صلى الله عليه وآله [قال]: «نزلت المائدة خُبزاً ولَحماً، وذلك أنّهم سألوا عيسىٰ طَعاماً لا ينفَد يأكُلون مِنه» قال: «فقيل لَهم: فإنّها مقيمةٌ لكم مالَم تخُونوا وتُخبّأوا وترفعوا، فإن فعلتُم ذلك عُذّبتم» قال: «فما مضىٰ يومُهم حتى خبّأوا وترفّعوا وخانوا»[3].

وعن سلمان الفارسي رضي الله عنه، قال: والله، ما تبع عيسىٰ شيئاً مِن المَساوئ قطّ، ولا انتهر يتيماً[4]، ولا قَهْقَه ضِحْكاً، ولا ذَبّ ذُباباً عن وَجهه، ولا أخذ علىٰ أنفه مِن نَتْن شيءٍ قَطّ، ولا عَبث قَطّ.

ولمّا سأله الحَواريّون أن يُنزّل عليهم المائدة لبِس صُوفاً وبكىٰ وقال: ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ ٱلسَّمَاءِ﴾ الآية، فنزلت سُفْرة حَمراء بين غَمامتين وهُم ينظُرون إليها وهي تَهوي مُنقضَة حتّىٰ سقطت بين أيديهم، فبكىٰ عيسىٰ عليه السلام وقال: اللّهمّ اجْعَلني مِن الشّاكرين، اللّهمّ اجْعَلها رَحمةً ولا تجعَلها مُثلَةً وعُقوبةً. واليَهود ينظُرون إليها، ينظُرون إلىٰ شيءٍ لَم يرَوا مِثله قَطّ، ولَم يجِدوا رِيحاً أطيب مِن ريحه.

فقام عيسىٰ عليه السلام فتوضّأ وصلّىٰ صَلاةً طويلة، ثمّ كشَف المِنديل عنها وقال: بِسم الله خَير الرّازقين. فإذا هُو سَمكة مَشويّة ليس عليها فُلوسها، تَسيل سيلاً مِن الدَّسَم، وعندَ رأسها [ملح] وعندَ ذَنَبها خَلّ، وحَولها أنواع البُقول ما عدا الكُرّاث، وإذا خمسة أرغفة: علىٰ واحد منها زَيتون، وعلىٰ الثّاني عسَل،

---

١. في النسخة: خوان، تصحيف، صوابه من مجمع البيان، والأحوات: جمع حوت.

٢ و٣. مجمع البيان ٣: ٤١٠، تفسير الصافي ٢: ٩٨.   ٤. في النسخة: ولا انتهز شيئاً.

وعلىٰ الثّالث سَمْن، وعلىٰ الرّابع جُبن، وعلىٰ الخامس قَديد، فقال شَمعون: يا رُوح الله أمِن طَعام الدُّنيا هذا أم مِن طَعام الآخرة؟ فقال عيسىٰ: ليسَ شيءٌ مِمّا ترَون مِن طَعام الدُّنيا، ولا مِن طَعام الآخرة، ولكنّه شيءٌ افتعلَه الله بالقُدرة الغالبة، كلوا ما سألتُم، يمددكم ويرزُقكم[1] مِن فضله.

فقال الحَواريُّون: يا رُوح الله، لو أريتنا مِن هذه الآية اليومَ آيةً اُخرىٰ؟ فقال عيسىٰ عليه السلام: يا سمكة، احْيِي بإذن الله تعالىٰ، فاضطربت السّمكة وعاد عليها فُلوسها وشَوكُها ففرِقوا مِنها، فقال [عيسىٰ]: ما لكم تسألون أشياء إذا أعطيتُموها كرِهتُموها! ما أخوفني عليكم أن تُعذّبوا! يا سمكة، عُودي كما كنتِ بإذن الله، فعادَتْ السّمكةُ مشوَيّةً كما كانت، فقالوا: يا رُوح الله، كُن أوّل مَن يأكُل مِنها ثمّ نأكُل نحنُ، فقال عيسىٰ: مَعاذ الله أن آكل مِنها، ولكن يأكُل مِنها مَن سألها، فخافوا أن يأكُلوا مِنها، فدعا أهلَ الفَاقة والزُّمناء والمَرضىٰ والمُبتَلين فقال: كلُوا مِنها، ولكم الهَناء ولغيركم البَلاء، فأكل مِنها ألفٌ وثلاثمائة رَجُل وامرأة مِن فَقيرٍ ومَريضٍ ومُبتلىً، وكُلّهم شَبعان يتجشأ[2].

فـي ذكـر مسـخ أصحاب المائدة

ثمّ نظر عيسىٰ إلىٰ السّمكة فإذا هي كهيئتها حينَ نزلَت مِن السّماء، ثمّ طارت المائدة صُعداً وهُم ينظُرون إليها حتّىٰ تَوارت عنهم، فلَم يأكُل يومئذٍ مِنها زَمِنٌ[3] إلّا صَحّ، ولا مَريضٌ إلّا برِئ، ولا فقيرٌ إلّا استغنىٰ، ولَم يزَل غنيّاً حتّىٰ مات، وندِم الحَواريُّون ومَن لَم يأكُل مِنها، وكانت إذا نزلت اجتمعت الأغنياء والفُقراء والصِّغار والكِبار يتزاحَمون عليها، فلمّا رأىٰ ذلك عيسىٰ جعَلها نَوْبةً بينهم، فلبِثتْ أربعين صباحاً تنزل ضُحىً، فلا تزال مَنصوبة يُؤكل مِنها حتّىٰ إذا فاء الفيئ طارَت صُعداً وهُم ينظُرون في ظِلّها حتّىٰ تَوارت عنهم، وكانت تنزِل غِبّاً يوماً ويوماً.

فأوحىٰ الله إلىٰ عيسىٰ عليه السلام: اجْعَل مائدتي للفُقراء دُون الأغنياء، فعظُم ذلك علىٰ الأغنياء حتّىٰ شكَوا وشكّكوا النّاس فيها، فأوحىٰ الله إلىٰ عيسى عليه السلام: إنّي شرَطتُ علىٰ المُكذّبين شَرطاً أنّ مَن كفَر بعدَ نُزولها اُعذّبه عذَباً لا اُعذبّه أحداً مِن العالَمين. فقال عيسىٰ عليه السلام: إن تُعذّبهم فإنّهم عِبادُك، وإن تغفِر لهم فإنك أنت العَزيز الحَكيم، فمسَخ مِنهم ثلاثمائة وثلاثة وثلاثون رَجُلاً، باتُوا ليلتهم علىٰ فِراشهم معَ نِسائهم في دِيارهم، فأصبحوا خَنازير يسعَون في الطُّرقات والكُناسات، ويأكُلون العَذِرة والحُشوش، فلمّا رأىٰ النّاس ذلك فزِعوا إلىٰ عيسىٰ عليه السلام وبكَوا، وبكىٰ علىٰ المَمسوخين أهلُوهم، فعاشوا ثلاثة أيّام ثم هلَكوا[4].

وفي (المجمع): وفي تفسير أهل البيت عليهم السلام: «كانت المائدة تنزِل عليهم فيجتمعون عليها ويأكُلون

---

١. في المصدر: ويزدكم. ٢. تجشأت المعدة: تنفست من امتلاء.
٣. الزَمِن: المبتلى بمرض مزمن طالت مدته. ٤. مجمع البيان ٣: ٤١٠، تفسير الصافي ٢: ٩٨.

مِنها ثمّ ترتفع، فقال كُبراؤهم ومُترفوهم: لا ندَع سَفِلتنا يأكُلون مِنها، فرفَع الله المائدة ببَغيهم، ومُسِخوا قِرَدة وخَنازير»[1].

وعن العيّاشي: عن الباقر عليه السلام [قال]: «المائدة التي نزلَت علىٰ بني إسرائيل كانت مُدلّاةً بسَلاسِل مِن ذَهَب، عليها تِسعة أخونة[2] وتِسعة أرغفة»[3].

وفي روايةٍ: «تِسعة ألوان أرغفة»[4].

وفي (المجمع): عن الكاظم عليه السلام: «أنّهم مُسِخوا خَنازير»[5].

وعن الرضا عليه السلام: «والجِرّيث والضبّ فِرقة مِن بني إسرائيل، حيثُ نزلَت المائدة علىٰ عيسىٰ بن مريم، لَم يُؤمنوا فتاهُوا، فوقعَتْ فِرقة في البَحر، وفِرقة في البَرّ»[6].

وعن (الخصال): عن النبيّ صلّى الله عليه وآله، في حديث المُسوخات: «وأمّا الخَنازير فقوم من النصارىٰ سألوا ربّهم إنزال المائدة عليهم، فلمّا نزلت عليهم كانوا أشدّ ما كانوا كُفْراً وأشدّ تَكذيباً»[7].

قيل: نزلت المائدة يوم الأحد، فاتّخذه النّصارىٰ عيداً[8].

وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَاعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَا أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ ٱلْغُيُوبِ[١١٦]

ثمّ بالغ سُبحانه في تَقريع النّصارىٰ علىٰ اتّخاذ عيسىٰ وأُمّه إلٰهين بحِكاية خِطابه في القِيامة بما فيه تَقريع مِنه بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ﴾ في القِيامة بمشهدٍ مِن النّصارىٰ: ﴿يَا عِيسىٰ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾.

عن العيّاشي: عن الباقر عليه السلام: «لَم يقُل، وسَيقول؛ لأنّ[9] الله إذا عَلِم شيئاً هُو كائن أخبر عنه خبرَ ما قد كان»[10].

وعن بعضِ المُفَسّرين أنّه تعالىٰ خاطب عيسىٰ حينَ رفَعه إلىٰ السّماء بقوله: ﴿ءَأَنْتَ قُلْتَ

---

١. مجمع البيان ٣: ٤١٢، تفسير الصافي ٢: ١٠٠.
٢. الأخوِنَة. جمع خِوان، وهو ما يوضع عليه الطعام ليؤكل، وفي نسخة من المصدر: أحوتة.
٣. تفسير العياشي ٢: ١٣٨٧/٨٥، تفسير الصافي ٢: ١٠٠.
٤. تفسير العياشي ٢: ١٣٨٩/٨٦، تفسير الصافي ٢: ١٠٠.
٥. مجمع البيان ٣: ٤١٠، تفسير الصافي ٢: ١٠٠.
٦. التهذيب ٩: ١٦٦/٣٩، تفسير الصافي ٢: ١٠١.
٧. الخصال: ٢/٤٩٤، تفسير الصافي ٢: ١٠١.
٨. تفسير الرازي ١٢: ١٣١.
٩. في المصدر: لم يقله وسيقوله إن.
١٠. تفسير العياشي ٢: ١٣٩٢/٨٦، تفسير الصافي ٢: ١٠١.

لِلنَّاسِ﴾[1] المؤمنين بك: ﴿اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ﴾ ومَعبودَين لأنفسكم ﴿مِن دُونِ اللهِ﴾ وفي قِباله، فعمِل القائلون بالأقانيم بقولك، وادَّعَوا أنّ الله ثالثُ ثلاثة؟ ﴿قَالَ﴾ عيسىٰ خُضوعاً وتَواضعاً: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ وأنزِّهك مِن أن يكون لك شَريك في شيءٍ تنزيهاً ﴿مَا يَكُونُ﴾ وما ينبغي ﴿لِي﴾ معَ مَعرفتي وتمحُّضي في عُبوديّتك والانقياد لأوامرك ﴿أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ وأن أدّعي لنفسي غير العُبوديّة.

ثمّ فوّض الصِّدق والكَذِب إلىٰ عِلمه المُحيط بكُلّ شيء حِفظاً للأدب بقوله: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُ﴾ وتفوّهتُ به ﴿فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ حيثُ إنّك بإحاطتك بي ﴿تَعْلَمُ مَا﴾ أخفي ﴿فِي نَفْسِي﴾ وضميري مِن المَعلومات ﴿وَلَا أَعْلَمُ مَا﴾ خَفِي ﴿فِي نَفْسِكَ﴾ وغَيبك مِن مَعلوماتك. وإنّما عبّر عن خفيّات عِلمه تعالىٰ بما في نفسه للمُشاكلة والازدِواج.

ثمّ أكّد سَعَة عِلمه تعالىٰ بقوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ مِمّا كان ومِمّا يكون.

في ذكر عدد حروف الاسم الأعظم

عن العيّاشي: عن الباقر عليه السلام، في تفسيرها: «أنّ الاسم الأكبر ثلاثة وسبعون حَرفاً، فاحْتجَب الربُّ تعالىٰ بحرفٍ، فمِن ثَمّ لا يعلَم أحدٌ ما في نفسه عزّ وجلّ، أعطىٰ آدم اثنين وسبعين حَرفاً فتَوارثها الأنبياء حتّى صارت إلىٰ عيسىٰ عليه السلام، فلذلك قال: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾، يعني اثنين وسبعين حَرفاً مِن الاسم الأكبر، يقول: أنتَ علّمتنيها، فأنت تَعلَمُها ﴿وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾، يقول: لأنّك احتجبتَ مِن خَلقك بذلك الحَرف، فلا يعلَمُ أحدٌ ما في نفسك»[2].

مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ [١١٧]

ثم بالغ في تنزيه نفسه مِن القول الشّنيع بقوله: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ﴾ من قبلي ولا مِن قِبَلك قولاً ﴿إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ مِن القول الحق. ثمّ فسّره بقوله: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللهَ﴾ الذي يكون ﴿رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ وخالقي وخالقكم ﴿وَكُنتُ﴾ بحسب وظيفةالرِّسالة ﴿عَلَيهِم شَهِيداً﴾ ورَقيباً ﴿مَا دُمْتُ﴾ مُقيماً ﴿فِيهِمْ﴾ أراعي أحوالهم وأحمِلهم على قول الحَقّ والعمل الصالح، وأمنعُهم عن الضلال والعصيان، أو كنتُ مُشاهداً لأحوالهم مِن الكُفر والإيمان ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ وقطعتَ عَلاقتي مِن الأرض، ورفعتَني إلىٰ

---

١. تفسير الرازي ١٢: ١٣٦.

٢. تفسير العياشي ٢: ١٣٩٤/٨٧، تفسير الصافي ٢: ١٠١.

السّماء ﴿كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ﴾ والحافظ المُقتدِر ﴿عَلَيْهِمْ﴾ الناظر في أحوالهم وأعمالهم.

ثمّ لأجل دَفع توهُّم الاختصاص بيَن إحاطته بجَميع المَوجودات بقوله: ﴿وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ مِن الأشياء وكُلّ مَوجود مِن المَوجودات ﴿شَهِيدٌ﴾ ورَقيب، لا يخرُج مِن سُلطانك ونُفوذ إرادتك شيء.

إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ[١١٨]

ثمّ أنّه عليه السلام بعدَ تَنزيه نفسه مِن الدّخل[١] في عقائدهم الفاسدة وأعمالهم السيّئة، تبرأ مِن الدّخل في مُجازاتهم بالشّفاعة وغيرها بقوله: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ﴾ علىٰ كُفْرهم وعِصيانهم ﴿فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ مَقهُورون تحتَ قُدرتك مَملوكون لك لا تُعاملهم إلّا بالعَدل ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ وتعفو عن سَيّئاتهم ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب في إرادتك ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في أفعالك لا تعفو إلّا عمّن هُو أهل له.

قَالَ ٱللهُ هٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ[١١٩]

ثمّ بيّن سُبحانه نَفع قَول الحَقّ والصِّدق إشعاراً بتصَديق عيسىٰ عليه السلام بقوله: ﴿قَالَ ٱللهُ هٰذَا﴾ اليوم ﴿يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّادِقِينَ﴾ في الدُّنيا ﴿صِدْقُهُمْ﴾ في القَول والاعتِقاد والنِيّة والعمَل.

ثمّ شرَح النَفع بقوله: ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ﴾ وبَساتين مُلتفّة الأشجار ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ﴾ الكثيرة حالَ كَونهم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾ ليسَ لهم خَوف الخُروج عنها.

ثمّ بشّرهم بأعلى المَنافع والحُظوظ بقوله: ﴿رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُمْ﴾ بطاعتهم وصِدقهم في القَول والعمَل ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بنَيلهم أعلىٰ الكَرامات، وهُو مَقام الرِّضوان و ﴿ذٰلِكَ﴾ المَقام هو ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ والنَجاح بأعلىٰ المَقاصد.

عن القُمّي رحمه الله: الدّليل علىٰ أنّ عيسىٰ لَم يقُل [لهم] ذلك، قولُه: ﴿هٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾[٢].

وعنه باسناده عن الباقر عليه السلام، في هذه الآية: [قال]: «إذا كان يومُ القِيامة وحشُر النّاس للحِساب، فيمُرّون بأهوال يوم القِيامة، ولا ينتَهون إلىٰ العَرَصة حتّىٰ يجهَدوا جُهداً شديداً».

---

١. كذا، والظاهر: الدخول أو التدخّل.

٢. تفسير القمي ١: ١٩١، تفسير الصافي ٢: ١٠٢.

قال: «ثمّ يقِفون بفِناء العرش[1]، ويشرف الجبّار عليهم وهُو علىٰ عرشه، فأوّل مَن يُدعىٰ بنداءٍ يُسمِع الخلائق أجمعون أن يُهتَف باسْم محمّد بن عبدالله ﷺ النبيّ القَرشيّ العرَبي» قال: «فيتقدّم حتّىٰ يقِف علىٰ يمين العَرش».

قال: «ثمّ يُدعىٰ بصاحِبكم [علي عليه السلام] يتقدّم حتّىٰ يقِف علىٰ يَسار رَسُول الله ﷺ، ثمّ يُدعىٰ بأمّة محمّد فيقِفون علىٰ يَسار عليّ عليه السلام، ثمّ يُدعىٰ بنبيٍّ نبيّ وأمّته معَه، مِن أوّل النبيّين إلىٰ آخِرهم وأمّتهم معهَم فيقِفون علىٰ يَسار العَرش.

قال: «ثمّ أوّل مَن يُدعىٰ للمُسائلة القلم»، قال: «فيتقدّم فيقِف بيْن يدَي الله في صُورة الآدميِّين فيقول [الله]: هل سطَرت في اللَوح ما ألهمتُك وأمرتُك به [من الوحي]؟ فيقول القلمُ: نعَم يا رَبّ، قد عَلِمتَ أنّي سطَرتُ في اللَوح ما أمرتني وألهمتني به مِن وَحْيك. فيقول الله: فمَن يشهَد لك بذلك؟ فيقول: يا رَبّ، هَل اطّلع علىٰ مَكنون سِرّك غيرُك؟ فيقول له [الله]: أفلحَتْ حُجّتُك.

ثمّ يُدعىٰ باللَوح فيتقدّم في صُورة الآدميّين حتّىٰ يقِف معَ القَلَم، فيقول له: هلَ سطّر فيكَ القَلَم ما ألهمتُه وأمرتُه به مِن وَحيي؟ فيقول اللَوح: نعَم يا رَبّ، وبلّغتُه إسرافيل، ثمّ يُدعىٰ بإسرافيل، فيتقدّم إسرافيل، معَ اللَوح والقَلَم في صُورة الآدميّين فيقول الله: هَل بلّغك اللَوح ما سطّر فيه القَلم مِن وَحيي؟ فيقول: نعم يا رَبّ، وبلّغتُه جَبْرائيل، فيُدعىٰ بجَبْرائيل [فيتقدم] حتّىٰ يقِف معَ إسرافيل فيقول الله له: هَل بلّغك إسرافيل ما بُلّغ؟ فيقول: نعم يا رَبّ، وبلّغتُه جميعَ أنبيائك، وأنفذتُ إليهم جميع ما انتهىٰ إليّ مِن أمرك، وأديتُ رِسالاتك إلىٰ نبيٍّ نبيّ ورَسُولٍ رسول، وبلّغتُهم كُلّ وَحيك وحِكمتك وكُتُبك، وإنّ آخِر مَن بلّغتُه رِسالتك ووَحيك وحِكمتك وعِلمك وكِتابك وكَلامك محمّد بن عبدالله العَربيّ القَرشيّ الحَرميّ حَبيبك».

قال أبو جعفر عليه السلام: «فأوّل مَن يُدعىٰ للمُسائلة مِن وُلد آدم محمّد بن عبدالله ﷺ، فيُدنيه الله حتّىٰ لا يكون خَلق أقرب إلىٰ الله يومئذٍ مِنه، فيقول الله: يا محمّد، هَل بلّغك جَبرئيل ما أوحيتُ إليك وأرسلتُه به إليك مِن كِتابي وحِكمتي وعِلمي، وأوحاه إليك؟ فيقول رَسُول الله ﷺ: نعَم يارَبّ، قد بلّغني جَبرئيل جميعَ ما أوحيتَه إليه وأرسلتَه به مِن كِتابك وحِكمتك وعِلْمك، وأوحاه إليّ. فيقول الله لمحمّد ﷺ: هَل بلّغتَ أمّتك ما بلّغك جَبْرئيل مِن كِتابي وحِكمتي وعِلمي؟ فيقول رَسُول الله ﷺ: نعَم يا رَبّ، قد بلّغتُ أمّتي جميع ما أُوحي إليّ مِن كِتابك وحِكمتك وعِلمك، وجاهدتُ في سَبيلك.

فيقول الله لمحمّد ﷺ: فمَن يشهَد لك بذلك؟ فيقول محمّد ﷺ: يا رَبّ، أنت الشّاهد لي بتَبليغ

---

١. في المصدر: العرصة.

الرِّسالة، ومَلائكتك، والأبرار مِن اُمّتي، وكفىٰ بك شهيداً. فيُدعىٰ بالمَلائكة فيشهدون لمحمّد ﷺ بتَبليغ الرِّسالة [ثمّ يُدعي بأُمه محمّد فيسألون: هل بلّغكم محمد رسالتي وكتابي وحكمتي وعلمي وعلّمكم ذلك؟ فيشهدون لمحمّد بتبليغ الرسالة] والحِكمة والعِلم.

فيقول الله لمحمّد ﷺ: هل استخلفتَ في اُمّتك مِن بعدِك مَن يقوم فيهم بحِكمتي وعِلمي، ويُفسّر لهم كِتابي، ويُبيّن لهم ما يختلفون فيه مِن بعدِك حُجّةً لي، وخَليفةً في الأرض؟ فيقول محمّد: نعَم يارَبّ، قد خلّفت فيهم عليّ بن أبي طالب أخي ووَزيري ووَصِيّي وخَير اُمّتي، ونصبته لهم عَلَماً في حَياتي، ودَعوتُهم إلىٰ طاعته، وجَعلتُه خليفتي في اُمّتي [وإماماً] تَقتدي به الاُمّة بعدي إلى يوم القِيامة، فيُدعىٰ بعَلِيّ بن أبي طالب».

إلىٰ أن قال: «فيُدعىٰ بإمامٍ إمام، وبأهلِ عالَمه، فيحتجّون بحُجّتهم، فيقبَل الله عُذرَهم، ويُجيز حُجّتهم. قال: ثمّ يقول الله: **﴿هٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾**»[1].

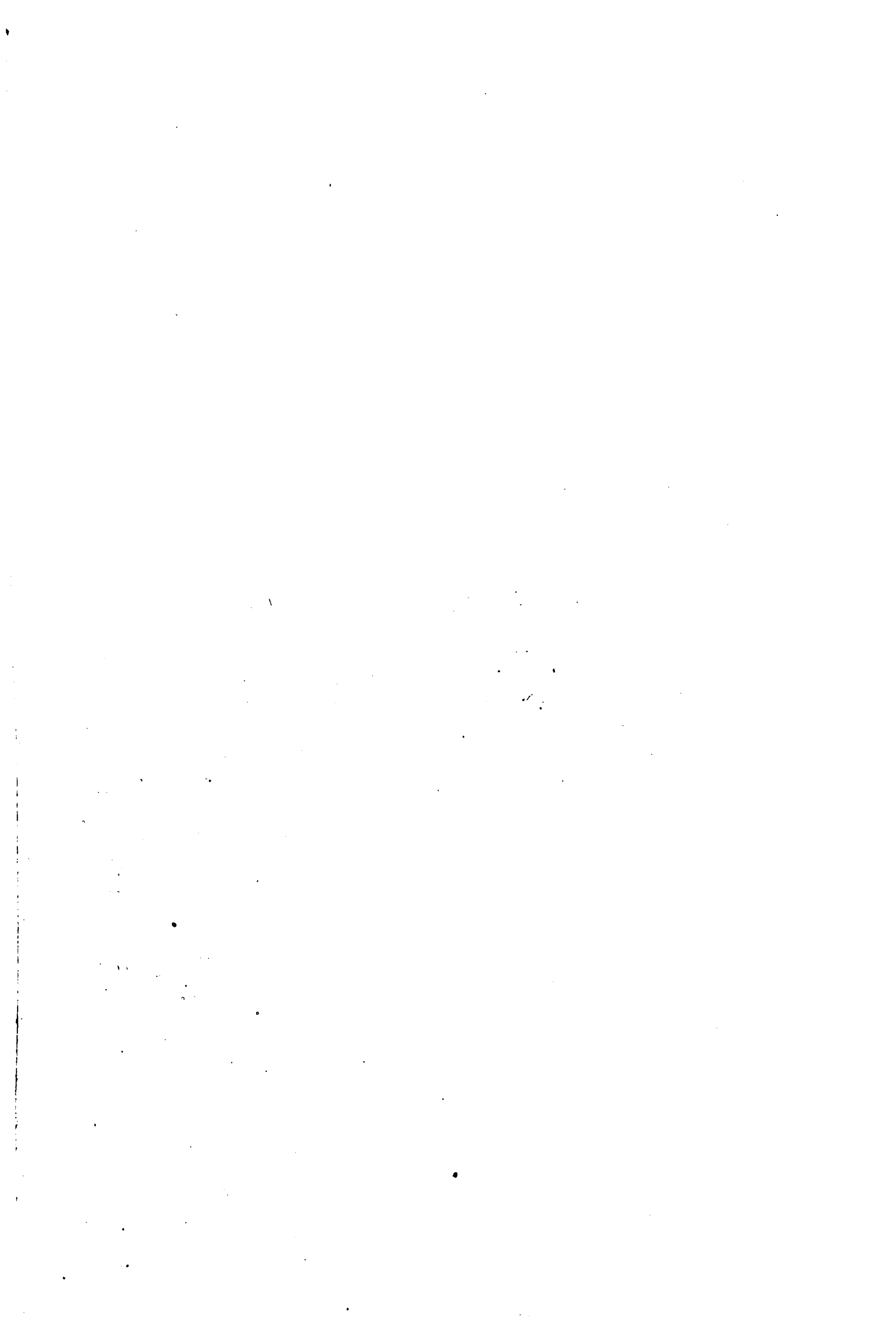
﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [١٢٠]

ثمّ بيّن الله سَعَةَ ملكه، وعِظَم سُلطانه، وكَمال قُدرته، إبطالاً لدَعاوىٰ النّصارىٰ، وتَقريراً لِمَا وعَد الصّادقين بقوله: **﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾** مِن المَوجودات يتصرّف فيها كيف يشاء **﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾**، وفي قوله: **﴿وَمَا فِيهِنَّ﴾** تَنبيهٌ علىٰ أنّ جميع المَوجودات، لكَونها مَقهورة تحتَ قُدرته وقَضائه، بمَنزلة الجَمادات التي لا قُدرة لها علىٰ شيء.

الحمدُ لله الذي أيّدني لإتمام سُورة المائدة، وأسأله الإنعام علَيّ بالتّوفيق لإتمام ما يتلُوها مِن سُورة الأنعام.

---

١. تفسير القمي ١: ١٩١، تفسير الصافي ٢: ١٠٢.



في تفسير سورة الأنعام

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَاتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ[١]

في بيان وجه نظم سورة الأنعام

ثمّ لمّا تمّت السُّوَر التي كان أهمّ المَقاصد فيهِنّ مُحاجّة اليَهُود والنصارىٰ الّذين هُم أعلم المِلَل الباطلة، وإبطال شُبُهاتهم وعقائدهم الفاسدة، وبَيان ما يـنتظِم بـه أُمـور المَعاد والمَعاش، مِن أحكام العِبادات والسِّياسات، وحُقوق النّاس، والمُحلّلات والمُحرّمات مِن الأطعمة والأشربة والمَناكِح، والمِنّة علىٰ المُسلمين بتكميل الدِّين وإتـمام النِّعمة بنَصْب الحُجّة علىٰ العالَمين، ثمّ ختَم المائدة ببَيان كَمال قُدرته وعَـظَمة سَلْطنته، انـتْظمت سُورة الأنعام المُبتدأ فيها بالحَمد علىٰ نَعمائه، وتأكيد ما في آخر السُّورة السّابقة بإعادة بَيان كَمال قُدرته، وشَرح ملكيّته بالملكيّة الإشراقية الإيجاديّة المُشتملة علىٰ مُحاجّة المُشركين الّذين هُم أجهل المِلَل، وإبطال بِدَعهم، وبَيان بعض أحكام الأطعمة، وغير ذلك مِن الوُجوه المُوجبة لحُسْن النَّظم.

فابْتدأ فيها بقوله: بِسم الله الرّحمن الرّحيم، وقـد مـرّ تَـفسيره، ثـمّ بـحَمد ذاتـه المُـقدّسة بـقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ بجميع أنواعه وأفراده، والثّناء الجَميل بأيّ نَحوٍ وُجِد مُلْك ﴿لِلَّهِ﴾ ومُختصٌ بـالواجب المُستجمع لجميع الكمالات لا يشركه فيه غيرُه حُمِد أم لَم يُحمَد.

ثمّ عرّف ذاته المُقدّسة بكَمال القُدرة وسَعَة الإنعام تَقريراً لاختِصاصه به وحثّاً عليه بقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ وسوّىٰ بقُدرته وحِكْمته ﴿ٱلسَّمَاوَاتِ﴾ وما فيها مِن الكَواكب والمَلائكة ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ وما عليها وفيها مِن الحَيوانات والنّباتات وغيرها.

وتَخصيصهما بالذّكر لكَونهما أعظم المَخلوقات الجِسمانيّة فـي الأنـظار. وقـد مَـرّ وَجْـهُ جمع السّماوات وإفراد الأرض مع كونها مِثلهنّ. وإنّما قدّم ذِكْر السّماوات معَ تأخُّرهِنّ في الوُجـود مِـن الأرض، لكَونهِنّ أعظم وأشرف في الأنظار، ولنُزول البَرَكات مِنهنّ، وكَونهنّ بمَنزلة الآباء للمَواليد،

والأرض بمَنزلة الأمّ.

عن الصادق عليه السلام: «أنّه لمّا قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ كان ردّاً على الدّهريّة الّذين قالوا: إنّ الأشياء لا بَدْوَ لها وهي قائمة»[١].

﴿وَجَعَلَ﴾ وأنشأ ﴿ٱلظُّلُمَاتِ﴾ إنّما جَمَعها لكثرة أسبابها ﴿وَٱلنُّورَ﴾ أفرَده لأنّه بسَببٍ واحد، قيل: هُو النّار، وإنّما قُدِّمت الظُّلمات في الذِّكر لكونها عدَميّة، ومُقدَّمة على النُّور الذي هُو وُجودي[٢].

رُوي أنّ الله تعالى خلق الخَلق في ظُلمةٍ، ثمّ رَشّ عليهم مِن نُوره[٣].

ورُوي أنّها نزلت تكذيباً للمَجوس في قولهم: الله خالق النُّور، والشّيطان خالق الظُّلمات[٤].

وقيل: علىٰ ذلك خُلِق الخَيرُ والشّرُّ[٥].

عن ابن عباس رضي الله عنه، قال: ﴿جَعَلَ ٱلظُّلُمَاتِ وَٱلنُّورَ﴾ أي ظُلمة الشِّرك والنِّفاق والكُفر، والنُّور يُريد نُورَ الإسلام[٦]. وعليه يكون إفراد النُّور لأنّ الحَقّ واحد، وجَمع الظُّلمات لأنّ الباطل كَثير.

ثمّ وبّخ الله سُبحانه المُشركين وآستبعد معَ ذلك مِن عَقلهم الشّرك بقوله: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ باعْتِقاد الشّرْك ﴿بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ ويُشركون معَ دَلالة جَميع المَوجودات علىٰ وحدانيّته.

هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلاً وَأَجَلٌ مُسَمّىً عِندَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ[٢]

ثمّ اسْتدلّ بأوضح الأدلة عندَ الإنسان علىٰ كَمال قُدرته وأتمّ النِّعْمة عليه بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم﴾ وأوجدكم ﴿مِن طِينٍ﴾ لأنّ مَبدأ وُجود البشَر آدم، وهُو مَخلوق مِن طِين، أو لأنّ مَبدأ وُجودهم النُّطفة، وهِي مُتكوّنة مِن الأغذية النّباتيّة المُتولّدة مِن طِين ﴿ثُمَّ﴾ بعدَ الخَلق ﴿قَضَىٰ﴾ وقدّر لكُلّ واحدٍ ﴿أَجَلاً﴾ خاصّاً به، وأمداً مُعيّناً يُؤخّر إليه موتُه، ﴿وَ﴾ له ﴿أَجَلٌ﴾ آخر ووَقت مَضروب ﴿مُسَمّىً﴾ ومُعيّن ﴿عِندَهُ﴾ مُثبَت في اللّوح المَحفوظ، لا يطّلِع عليه غيرُه.

في أنّ لكلّ إنسان أجلين محتوم ومسمىٰ

عن القُمّي: عن الصادق عليه السلام: «الأجل المَقضيّ هو المَحتوم الذي قضاه الله وحتَمه، والمسمىٰ هُو الذي فيه البَداء، يُقدّم ما يَشاء ويُؤخّر ما يشاء، والمَحتوم ليس فيه تَقديم ولا تأخير»[٧].

حُكي عن حُكماء الإسلام أنّ لكُلّ إنسان أجلَين: الأجل الطّبيعي، والأجل الاختِرامي. أمّا الطّبيعي؛

---

١. الاحتجاج: ٢٨، تفسير الصافي ٢: ١٠٦، وفي الاحتجاج: وهي دائمة.
٢. تفسير الرازي ١٢: ١٥١.
٣. تفسير الرازي ١٢: ١٥١.
٤ و٥. تفسير روح البيان ٣: ٣.
٦. تفسير الرازي ١٢: ١٥١.
٧. تفسير القمي ١: ١٩٤، تفسير الصافي ٢: ١٠٧.

فهُو الذي لَو بقي ذلك المِزاج ولَم تعترضه العَوارض الخارجيّة، لانْتهَتْ مُدّةُ بقائه إلىٰ أنْ تتحلّل رُطوبتُه وتَنطفئ حرارتُه الغَريزيّتان. وأمّا الاخْتِرامي: فهُو الذي يحصُل بالعَوارض كالغَرَق والحَرْق وغيرهما مِن المُهلكات[١].

وقيل: إنّ المُراد مِن الأجل المَقضيّ: مُدّة عُمره في الدُّنيا، ومِن الأجل المُسمّىٰ: مُدّة عُمره في الآخرة، فإنّه لا آخِر لها، ولا يُعلم كَيفيّة الحال فيها إلّا الله[٢].

وقيل: إنّ الأوّل مُدّة حَياة الدُّنيا، والثّاني مُدّة البَرزَخ[٣].

ثمّ بالغ سُبحانه في آستبعاد الشّرك مِنهم معَ ذلك، أو في استبعاد إنكارهم البعث بقوله: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ﴾ أيُّها المُشركون ﴿تَمْتَرُونَ﴾ وتشكُّون في تَوحيد الله، أو البعث معَ كَون الإعادة أهون مِن الابتداء.

وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَاوَاتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ[٣]

ثُمّ أنّه تعالىٰ بعدَ تخصيص خلق العَالم بنفسه خَصّ اسْتِحقاق العبادة بذاته المُقدّسة بقوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ﴾ والمَعبود المُطلق ﴿فِى ٱلسَّمَاوَاتِ﴾ والمَلكوت الأعلىٰ ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ وعالَم المُلك.

عن الصادق عليه السلام: «كذلك هُو في كُلّ مَكان»[٤].

ثم لمّا كانت مَعرفته باستِحقاق العِبادة لا تُوجب الانْبعاث إليها إلّا بعدَ مَعرفته بالعِلم الكامل بضَمائر العِباد وأعمالهم، عرّف ذاته المُقدّسة بسَعَة العِلم بقوله: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ﴾ وخَفيّاتكم مِن العقائد والنِيّات ﴿وَجَهْرَكُمْ﴾ وإعلانكم مِن الأقوال والأعمال ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ وتُحصّلون لأنفسكم مِن الخَير والشّرّ، والطّاعة والعِصيان، فيُجازيكم علىٰ جميع ذلك بما تستحقّون.

عن الصادق عليه السلام، في رِوايةٍ: «ولكن هُو بائن من خَلقه، مُحيط بما خلَق عِلماً وقُدرةً وإحاطةً وسُلطاناً، ليس عِلمه بما في الأرض بأقلّ مِمّا في السّماء، لا يبعُد مِنه شيءٌ، والأشياء عندَه سَواء عِلماً وقُدرةً وسُلطاناً ومُلكاً وإحاطةً»[٥].

وَمَا تَأْتِيهِم مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ * فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاؤُا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ[٤ و ٥]

---

١. تفسير روح البيان ٣: ٥.
٢ و٣. تفسير الرازي ١٢: ١٥٣.
٤ و٥. التوحيد: ١٥/١٣٣، تفسير الصافي ٢: ١٠٧.

ثمَ لمَا كان بَيان هذه المَعارف مِن النبيِ الأميِ بالعِبارات التي فيها الإعجاز مِن الأدلَة الواضحة علىٰ صِدق نُبوَته، وبَخ سُبحانه المُشركين علىٰ عدَم الالْتِفات إليها، وترك التَأمُل فيها والاعتِناء بها بقوله: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم﴾ وما ينزل عليهم ﴿مِنْ آيَةٍ﴾ وحُجَة واضحة ﴿مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ وحُجَجه الباهرة علىٰ صِدق نُبوَته ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ وبها غير مُعتَنين، بَل إلىٰ تَكذيبها مُسارعين، بَل بها مُستهزئين ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ﴾ والقرآن المُقترن بدَلائل الصِّدق، أو بمحمَد ﷺ ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ وأنزل إليهم، أو بعث فيهم، واستهزؤوا به ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ﴾ ويُبيَن لهم ﴿أَنْبَاؤُا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وصِدق ما أخبروا به مِن العَذاب في الدُّنيا بقَتلهم بأيدي المُسلمين، وفي الآخرة بتَصْليتهم في نَار الجَحيم.

أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِمْ مِن قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَاءَ عَلَيْهِم مِدْرَاراً وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَارَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ [٦]

ثمَ أشهد علىٰ صِدق وَعيده بما نزَل مِن العَذاب علىٰ الأمَم الماضية ووعَظهم به بقوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ أُولئك المُكذِّبون، ولَم يعلَموا عِلماً يكون بمَنزلة الرُّؤية ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ بعَذاب الاستِئصال ﴿مِن قَبْلِهِمْ مِن قَرْنٍ﴾ وأهل عَصر، كقَوم عَاد وثَمود، وقَوم نُوح ولُوط وأضرابهم.

ثمَ كأنَه قيل: كيف كان حالُهم؟ فأجاب بقوله: ﴿مَكَّنَّاهُمْ﴾ وأقدرناهم ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وأعطيناهم مِن البَسْطة في الجِسْم والسَّعَة في المال ﴿مَا لَمْ نُمَكِّن لَكُمْ﴾ ومِقداراً لَم نُعطِكُموه ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَاءَ﴾ وأنزلنا ﴿عَلَيْهِم﴾ مَطراً ﴿مِدْرَاراً﴾ غزيراً مُتتابعاً ﴿وَجَعَلْنَا﴾ وصيَرنا ﴿ٱلْأَنْهَارَ﴾ الكثيرة ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ﴾ في مَساكنهم وبَساتينهم، فهُم لَم يشكروا تِلك النِّعَم، بَل قابلوها بالكُفْر والتَكذيب للرُّسُل والاستِهزاء بالآيات ﴿فَأَهْلَكْنَاهُم﴾ بعَذاب الاستئصال ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ وسَيئات عقائدهم وأعمالهم، ولَم يعظُم علينا إهلاكُهم، لأنَا عمَرنا الأرض بغيرهم ﴿وَأَنْشَأْنَا﴾ وخلَقنا ﴿مِن بَعْدِهِمْ﴾ بدلاً مِنهم ﴿قَرْناً آخَرِينَ﴾ فاعْتَبِروا أيُها المُشركون بهم، واحْذروا أن تكونوا مِثلهم، ويُعاملكم الله مُعاملتهم بكُفْركم وطُغيانكم.

وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ [٧]

ثمَ قطَع الله رَجاء رَسُوله عن إيمانهم بعدَ التَهديد والوَعظ ورُؤية الآيات بقوله: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ﴾

مِن السّماء ﴿كِتَاباً﴾ تَماماً كالتّوراة، وكان مَكتوباً ﴿فِى قِرْطَاسٍ﴾ ووَرق كما اقترحوه وشاهدوا نُزوله بأعينهم ﴿فَلَمَسُوهُ﴾ بعدَ نُزوله ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ كَي لا يبقىٰ لهم شَكّ في كَونه كِتاباً نازلاً مِن السّماء، والله ﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وأصرّوا علىٰ الكُفر طَعناً فيه، وعِناداً للحَقّ: ﴿إِنْ هَذَا﴾ الكتاب، وما هُو ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ وشَعبذة ظاهرة لكُلّ أحدٍ.

رُوي أنّ بعضَ المُشركين قالوا: يا محمّد، لَن نُؤمن لك حتّىٰ تأتينا بكِتاب مِن عند الله، معَه أربعة مِن المَلائكة يشهَدون أنّه مِن عندِ الله، وأنّك رَسُوله، فأنزل الله: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ﴾ الآية[1].

وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكاً لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ * وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَا يَلْبِسُونَ[٨و ٩]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ حِكاية بعض اقتراحات المُشركين، حكىٰ بعض اعتِراضاتهم علىٰ النبيّ صلّى الله عليه وآله بقوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ يشهد بصِدق نُبوّته، فإنّه أقرب إلىٰ قَبول قوله؛ لأنّ كُلّ مَن يرىٰ المَلَك يقبَل قولَه، ويُؤمن به، فرَدّ الله ذلك بقوله: ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا﴾ مِن السّماء ﴿مَلَكاً﴾ بصُورته الأصليّة ﴿لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ وانقطع صحّة التّكليف، لكَون إيمانهم بالإلجاء كما في القِيامة، فحَقّ إهلاكهم ﴿ثُمَّ﴾ إذَن ﴿لَا يُنظَرُونَ﴾ ولا يُمهلون، فيُفاجأهم عَذابُ الاستِئصال؛ لكَون رُؤية المَلَك كرُؤية الآخرة لا ينفَع الإيمان بعدَها، ﴿وَ﴾ لِذا ﴿لو جَعَلْنَاهُ مَلَكاً﴾ يُعاينوه ﴿لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً﴾ وصَوّرناه بصُورة البشَر كضِيفان إبراهيم ولُوط، وكالمَلكين المُتخاصمين عندَ داود، وكجَبرئيل المُتصوّر عندَ النبيّ بصُورة دِحية الكَلبي؛ لأنّ الأبصار لا تقوىٰ لرُؤية المَلَك في هذا العالَم الجِسماني، ﴿وَ﴾ إذَن ﴿لَلَبَسْنَا﴾ وشبّهنا[2] الأمر ﴿عَلَيْهِم﴾ نحو ﴿مَا يَلْبِسُونَ﴾ ويشبّهون[3]؛ لأنّهم يظُنّون أنّه بشَر، فيعود اعتِراضهم بقولهم: ﴿مَا هٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ ٱللهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً﴾[4]، ولِذا استَحال أن يُجعل الرُّسُل مَلائكة لعدَم الفائدة فيه.

في محاجة النبيّ صلّى الله عليه وآله مع المشركين

عن العسكري عليه السلام، قال: «قلتُ لأبي عليّ بن محمّد: هَل كان رَسُول الله صلّى الله عليه وآله يُناظر اليَهُود والمُشركين إذا عاتبوه ويُحاجّهم؟ قال: [بلىٰ] مِراراً كثيرةً، إنّ رَسُول الله صلّى الله عليه وآله كان قاعداً ذات يوم بفناء الكعبة، إذ ابتدأ عبدُ الله بن [أبي] أُميّة المَخزومي فقال: يا محمّد، لقد ادّعيت دَعوىً عظيمة، وقلتَ مَقالاً هائلاً، زعمتَ أنّك رَسُول رَبّ العالَمين، ولا ينبغي

---

١. تفسير روح البيان ٣: ١١.
٢. في النسخة: واشتبهنا.
٣. في النسخة: يشتبهون.
٤. المؤمنون: ٢٣/٢٤.

لرَبّ العالَمين وخالق الخَلق أجمعين أن يكون مثلك رَسُوله بشراً مِثلنا، ولَو كنتَ نبيّاً لكان معك مَلَك يُصدّقك ونُشاهده، بَل لَو أراد الله أن يبعَث إلينا نبيّاً لكان يبعَث إلينا مَلَكاً لا بشراً مِثلنا، ما أنت يا محمّد إلّا [رجلاً] مَسحوراً ولستَ بنبيّ. فقال رَسُول الله ﷺ: اللّهمّ أنت السّامع لكُلّ صَوت، والعالِم بكُلّ شيء، تعلَم ما قاله عِبادُك، فأنزل [الله] عليه: ﴿وَقَالُوا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ إلىٰ قوله: ﴿مَا يَلْبِسُونَ﴾.

ثمّ قال رَسُول الله: وأمّا قولك: ولَو كنتَ نبيّاً لكان معك مَلَك يُصدّقك ونُشاهده، بَل لَو أراد [الله] أن يبعَث إلينا نبيّاً، لكان إنّما يَبعث إلينا مَلَكاً لا بشراً مِثلنا، فالمَلَك لَم تُشاهده حواسُّك لأنّه مِن جِنس هذا الهَواء، لا عِيان مِنه، ولَو شاهدتُّموه بأن يُزاد في قُوىٰ أبصاركم لقُلتُم: ليسَ هذا مَلَكاً، بَل هذا بشر؛ لأنّه إنّما يظهَر لكُم بصُورة البشَر الذي ألِفتُموه، لتفهموا عنه مَقاله، وتعرِفوا خِطابه ومُراده، وكيف كنتُم تعلَمون صِدْق المَلَك وأن ما يقوله حَق، بَل إنّما بعثَ الله بشراً، وأظهر علىٰ يده المُعجزات التي ليسَت في طِباع البشَر الّذين قد عَلمتُم ضمائر قلوبهم، فتعلَمون بعَجْزكم عمّا جاء به أنّه مُعجز، وأنّ ذلك شَهادةٌ مِن الله بالصّدق له، ولَو ظَهَر لكُم مَلَك وظهر علىٰ يده ما يَعْجِز عنه البشَرُ، لَم يكُن في ذلك ما يدُلّكم أن ذلك ليس في طبائع سائر أجناسه مِن الملائكة حتّى يصير ذلك مُعجزاً، ألا ترَون الطُّيور التي تطير، ليس ذلك مِنها بمُعجز؛ لأنّ لها أجناساً يقع مِنها مِثل طَيرانها، ولَو أنّ آدميّاً طار كطَيرانها كان ذلك مُعجزاً، فالله عزّ وجلّ سهّل عليكم الأمر وجعَله مِثلكم بحيث تقوم عليكم حُجّته، وأنتُم تقترحون عمَل الصّعب الذي لا حُجّة فيه»[1] الحديث.

وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ[١٠]

ثمّ لمّا حكىٰ الله تعالىٰ إعراض المُشركين عن المُعجزات، واسْتِهزاءهم بها، وإصرارهم علىٰ الكُفر، وعدَم تأثُّر قلُوبهم بالنُّصح، وكانت كُلّها سَبباً لحُزن النبيّ ﷺ، سلّىٰ قَلب حبيبه بقوله: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ﴾ كثيرة ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ وفي الأزمنة السّابقة علىٰ بِعْثتك، وهُم صَبروا علىٰ اسْتِهزائهم ﴿فَحَاقَ﴾ وأحاط، أو حَلّ ﴿بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم﴾ عقيب اسْتِهزائهم وسُخريتهم ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ مِن الدِّين، أو العَذاب الذي كان النبيّ يُخبرهم به وهُم يستهزءون به. وفيه وَعد النبيّ بإهلاك المُستهزئين به، فأنجز الله وَعده يومَ بَدْر.

---

١. الاحتجاج: ٢٩، تفسير الصافي ٢: ١٠٩.

قُل سِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ[١١]

ثمّ لمّا ذكَر الله في تَسلية النبيّ ﷺ اسْتِهزاء قومه به، أمره بتَهديدهم وإنذارهم بقوله: ﴿قُل﴾ يا محمّد، للمُشركين المُكذّبين بك: ﴿سِيرُوا﴾ وسافروا ﴿فِي﴾ أقطار ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ لتعرِفوا أحوال الأُمَم الماضية ﴿ثُمَّ ٱنظُرُوا﴾ بأبصاركم، وتفكَّروا بقُلوبكم في أنّه ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ بالرُّسُل وإلىٰ ما صار مَآل إعراضهم عن الآيات الإلٰهيّة، فاعتبِروا مِمّا نزَل بهم مِن عَذاب الاسْتئصال، ولا تغترُّوا بما أنتم فيه مِن الصِحّة والقُوّة والنَشاط والسَّعَة.

قُل لِمَن مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِلّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ٱلَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ[١٢]

ثمّ أمر نبيّه ﷺ بعدَ تَهديد المُشركين ونُصحهم بإلزامهم بالتّوحيد بقوله: ﴿قُل﴾ يا محمّد، للمُشركين واسألهم عن أنّه: ﴿لِمَن﴾ يكون ﴿مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مِن المَوجودات خَلقاً ومُلكاً وتصرّفاً؟

فلمّا كان الجَواب مِن أبدَه البَديهيّات عندَ العُقلاء بحَيث لا ينبغي الخِلاف فيه، أمر نبيّه ﷺ بالمُبادرة إليه بقوله: ﴿قُل﴾ كُلّها ﴿لِلّهِ﴾ وَحده لا شَريك له، إيماءً إلىٰ أنّ هذا السُّؤال ليسَ مِن حقّه الانْتِظار في الجَواب، بَل حقّهُ أن يُبادر إلى جَوابه بالاعْتِراف بأنّ الكُلّ لله؛ لظُهور آثار الحُدوث والإمكان في الأجسام، واحْتِياج الحادث إلى الصّانع الواجب مِن أبدَه البَديهيّات.

ثمّ بشَّر برَحمته علىٰ عِباده معَ كَمال عَظَمته وقُدرته تربيةً للرّجاء في القُلوب بقوله: ﴿كَتَبَ﴾ وحتَم ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ وذاته المُقدّسة ﴿ٱلرَّحْمَةَ﴾ والعُطوفة علىٰ العِباد، ولِذا لا يعجَل علىٰ مَن أشرك به وعَصاه بالعُقوبة، ويقَبل مِنهم التَوبة.

وقيل: إنّ المُراد بالرّحمة: الهِداية إلى معرفته بنَصْب الدّلائل على تَوحيده[١] وكَمال صِفاته.

عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «لمّا فرَغ الله مِن الخَلق كتَب كِتاباً: إنّ رَحمتي سبقت غَضبي»[٢].

أقول: الظّاهِر مِن سَبْق الرّحمة هُو الغَلبة والكَثْرة، لا السَّبق الزّماني.

وعن سَلمان الفارسي ﷺ: أنّه تعالىٰ لمّا خلَق السّماء والأرض خلَق مائة رَحمة، كُلّ رَحمة مِلء ما بين السّماء والأرض، فعندَه تِسع وتِسعون رَحمة وواحدة بين الخَلائق فيها يتَعاطفون ويتَراحمون، فإذا كان آخر الأمر قَصَرها علىٰ المُتّقين[٣].

---

١. جوامع الجامع: ١٢٣. ٢. تفسير الرازي ١٢: ١٦٥. ٣. تفسير الرازي ١٢: ١٦٥.

ثمَ أردف البِشارة بالرَحمة بالتَهديد بالعقوبة تربيةً للخوف بقوله: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ الله ويبعثكم مِن القُبور ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ﴾ الذي ﴿لَا رَيْبَ﴾ لعاقل ﴿فِيهِ﴾.

وقيل: إنّ مِن شؤون رَحمته بالعِباد جَمع النّاس في يوم القِيامة، وجَعل دار الجَزاء والوَعيد بها، وإلّا لحصَل الهَرج والمَرج، ولارتفع الضَبط وكثُر الخَبط[1]، واختلّ النِّظام.

ثمَ نبّه الله سُبحانه علىٰ أنّ ترك الإيمان بالتَوحيد معَ سَعَة رَحمته تعالىٰ، والوَعيد بالعِقاب علىٰ الشّرك غاية الخُسران بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ﴾ وغبَنوا ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ وأصرّوا عليها بتَضييع رأس المال مِن الفِطرة الأصليّة والعَقل السَليم، باتّباع الهوىٰ والانهماك في الشّهوات ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بوَحدانيّة الله، بل يُصِرّون علىٰ الشِّرك والعِصيان، ولِذا يخرُجون عن قابليّة شُمول الرَحمة الواسعة، ويستحقّون العَذاب الدّائم.

وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ * قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِـرِ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ[١٣ و ١٤]

ثمَ أنّه تعالىٰ بعدَ ذِكر كَونه مالِك المَكان والمكانيّات مِن السّماوات والأرض وما فيهما، ذكَر أنّه مالِك الزّمان والزّمانيّات بقوله: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ﴾ واستقرّ ﴿فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ واشتملا عليه مِن المَوجودات، أو ما سكَن وتحرّك فيهما.

رُوي أنّ كُفّار مكّة أتَوا رَسُول الله ﷺ فقالوا: يا محمّد، قد علِمنا أنّه ما يحمِلك علىٰ ما تدعونا إليه إلّا الفَقر والحاجة، فنحن نجمع لك مِن القبائل أموالاً تكون أغنانا رَجلاً، وترجِع عمّا أنت عليه مِن الدّعوة، فأنزل الله تعالىٰ هذه الآية[2].

ثمَ أنّه تعالىٰ بعدَ التّنبيه علىٰ كَونه مالِك جَميع المَوجودات، نبّه علىٰ إحاطته بها عِلماً بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لكُلّ المَسموعات ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بجميع المَعلومات، فيسمع نِداء المُضطرّين، ويعلَم حاجات المُحتاجين.

ثمَ أنّه تعالىٰ بعدَ بَيان سَعَة مُلكه ورَحمته، وكَمال غِناه وإحاطته، أمر نبيّه ﷺ بأن يُعلِن بتَخصيصه بوِلايته، وإعراضه عن وِلاية غيره بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد، للمُشركين إنكاراً علىٰ نفسك: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾ مِن مَخلوقاته ﴿أَتَّخِذُ﴾ وأختار لنفسي ﴿وَلِيّاً﴾ وكافلاً ومَعبوداً؟! حاشاي مِن ذلك، مع أنّه تعالىٰ

---

١. تفسير الرازي ١٢: ١٦٦.
٢. تفسير روح البيان ٣: ١٥.

بكَمال قُدرته كان ﴿فَاطِرِ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ومُبدعهما مِن غير مِثال، ﴿وهُوَ﴾ بجُوده وغِناه ﴿يُطْعِمُ﴾ ويرزُق جميعَ المَوجودات، ويُوصل إليها ما تحتاج إليه ﴿وَلَا يُطْعَمُ﴾ ولا يُرزَق، ولا يَحتاج إلىٰ شيءٍ، ولا ينتفع بشيءٍ، فهُو تعالىٰ جَوادٌ بالذّات غنيٌ بالذّات، وغيره عاجِزٌ فَقيرٌ مُحتاج. فالعُدول عن وِلاية القادر الغَنيِ الجَواد إلىٰ وِلاية العَاجز الفَقير المُحتاج غاية الجَهل، وعَين السَّفَه.

ثمّ بعدَ إقامة البُرهان العَقلي علىٰ عدَم جَواز العُدول عن الله إلىٰ غيره في الوِلاية والعِبادة، أمر الله نبيّه ﷺ بإعلام النّاس بوجُوب وِلايته والتَمحُّض بعُبوديّته بقوله: ﴿قُلْ﴾ للنّاس: ﴿إِنِّي أُمِرْتُ﴾ مِن قِبَل ربّي ﴿أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ وَجْهه ونفسه، وخَصّ وِلايته وعِبادته به، وأمر غيري أن يكون تابعاً في ذلك، ونُهيتُ عن التَوجُّه إلىٰ غيره حيثُ خاطبني الله بقوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ﴾ يا محمّد ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ بي وبعِبادتي ووِلايتي.

قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ[١٥]

ثمّ لمّا أمر النّاس بتَخصيص الله بالولاية والعبُوديّة، ونَهاهم عن الشِّرك بأبلغَ بيان، وكان مِن لَوازم مَخالفة أمر الله ونَهيه العُقوبة، أمر بإظهار الخَوف مِن المُخالفة تَخويفاً للنّاس مِن العَذاب، ورَدعاً لهم عن العِصيان بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد، لعُموم النّاس وخُصوص المُشركين: ﴿إِنِّي﴾ مع قُربي ورِسالتي ﴿أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ وخالفتُ نَهيه في اخْتيار الشِّرك ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أهواله وعَذابه، وهُو يوم القِيامة.

عن الصادق عليه السلام: «ما ترك رَسُول الله ﷺ قول: ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ حتّىٰ نزلتْ سُورة الفَتح، فلم يعُد إلىٰ ذلك الكلام»[١].

مَن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ[١٦]

ثمّ أشار إلىٰ آثار رَحمته وولايته بقوله: ﴿مَن يُصْرَفْ﴾ ويُدفع ﴿عَنْهُ﴾ العَذاب ﴿يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ الله، وتفضّل عليه بأن وفّقه في الدُّنيا للتبرُّؤ عن الشِّرك والسَيّئات، وللقِيام بالأعمال الصّالحات ﴿وَذٰلِكَ﴾ الصّرف أو الرَّحْم هُو ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ والنَجاح بأعلىٰ المَقاصد.

عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «والذي نفسي بيَده ما مِن النّاس أحد يدخُل الجنّة بعَمله». قالوا: ولا أنت يا رسُول الله، قال: «ولا أنا، إلّا أن يتغمّدني الله برَحمته». ووضع يدَه فوق رأسه، وطوّل بها صوته[٢].

---

١. تفسير العياشي ٢: ١٧٥/١٩٤٧، تفسير الصافي ٢: ١١١.

٢. تفسير الرازي ١٢: ١٧١.

وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ[١٧]

ثمّ أنه تعالىٰ بعدَ ذِكر البُرهان العَقلي والأمر الإلٰهي عِلَةً لوُجوب اختِصاص وِلايته بالله، ذكَر عِلَة ثالثة له بقوله: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ﴾ ويَبتليك ﴿بِضُرٍّ﴾ وبَلاء كالمَرض والفَقر ونَحوهما ﴿فَلَا كَاشِفَ﴾ ولا دافع ﴿لَهُ﴾ بقُدرته ﴿إِلَّا هُوَ﴾ تعالىٰ وَحده ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ﴾ ويُصبْك ﴿بِخَيْرٍ﴾ ونَفع مِن سُرورٍ وصِحّة وغِنىً وأمثالها، فلا قادر علىٰ مَنعه ﴿فَهُوَ﴾ تعالىٰ ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ مِن الضَّرّ والخَير وإبقائهما ورَفعهما، وغير ذلك مِن الأمور ﴿قَدِيرٌ﴾ لا يمنعه عن إنفاذ إرادته مانع.

عن ابن عبّاس رضي الله عنه، أنه [قال]: أُهدي إلىٰ النبيّ صلى الله عليه وآله بَغْلة، أهداها كسرىٰ، فركِبها بحَبل مِن شَعر، ثمّ أردفني خلفه، ثمّ سار بي مَليّاً، ثمّ التفتَ إليّ فقال: «يا غُلام»، فقلتُ: لبّيك يا رَسُول الله، فقال: «آحفَظ الله يحفَظْك، آحفَظ الله تجِده أمامك، تعرّف إلىٰ الله في الرّخاء يعرفْك في الشِدّة، وإذا سألتَ فاسْأل الله، وإذا استعنتَ فاستَعِنْ بالله، فقد مضىٰ القَلَم بما هُو كائن، فَلو جَهَد الخَلائقُ أن ينفعوك بما لَم يقضِه الله لكَ لَم يقدِروا عليه، ولَو جَهَدوا أن يضُرّوك بما لَم يكتُب الله عليك ما قدِروا عليه، فإن آستطعتَ أن تعمَل بالصبْر معَ اليَقين فافعلْ، فإن لَم تستطِعْ فاصْبِر، فإنّ في الصَّبر علىٰ ما تكرَه خيراً كثيراً»[١].

وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ[١٨]

ثمّ قرّر سُبحانه كَمال قُدرته وعِلمه وحِكمته، المُوجب علىٰ العاقل تَخصيص ولايته بـه، وعدَم العُدول عنه إلىٰ غيره، بقوله: ﴿وَهُوَ﴾ تعالىٰ ﴿ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ والغَالب عليهم بقُدرته ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ المُتقِن في صُنعه، الحافظ للمَصالح في أفعاله، و﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ والعليم بما صَحّ أن يُخبر عنه، فإذا كان الله مُستجمعاً لجميع الصِّفات الكَماليّة التي مَرجِع جميعها إلىٰ العِلم والقُدرة، كان حقيقاً بأن يُعوّل عليه في جَميع الأمور، ويُرجَع إليه في كُلّ المَطالب، ويُعرَض عمّا سِواه.

قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ[١٩]

---

١. تفسير روح البيان ٣: ١٦.

ثمّ لمّا لَم يقنَع المُشركون بالبَراهين القاطِعة علىٰ تَوحيد الله وصِدق دَعوىٰ رِسالته، ولَم يرتدعوا بالوَعد والوَعيد عمّا كانوا عليه مِن الشِّرك والجُحود، وَطلَبوا مِنه الشّاهد على صِدق دَعواه مع أنّ مُعجزاته شَهادة الله علىٰ صِدقه، أمر الله نبيّه ﷺ بجَوابهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد، لمَن طلَب مِنك الشّاهد: ﴿أَيُّ شَيْءٍ﴾ مِن الأشياء، وأيّ مَوجودٍ مِن المَوجودات ﴿أَكْبَرُ﴾ وأعظم ﴿شَهَادَةً﴾ علىٰ المُدّعىٰ بحيثُ لا يُدانيها شَهادةُ غيره.

ولمّا كان الجواب مِن البَداهة بحيث لا ينبغي التّأمُّل والانتِظار فيه، أمره الله بالمُبادرة إليه بقوله: ﴿قُلِ اللهُ﴾ أكبر شَهادةً مِن جَميع المَوجودات، فإذا كان كذلك وتَسالمتُم عليه، فهُو ﴿شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾.

عن القُمّي عن الباقر عليه السلام: «أنّ مُشركي أهل مكّة قالوا: يامحمّد، ما وجَد الله رَسُولاً يُرسله غيرك؟ ما نرىٰ أحداً يُصدّقك بالذي تقول. وذلك في أوّل ما دَعاهم وهُو يومئذٍ بمكّة، قالوا: وقد سألنا عنك اليَهُود والنّصارىٰ، فزعَموا أنّه ليسَ لك ذِكْر عندهم، فأتِنا بامرئ[١] يشهَد أنّك رَسُول الله. قال رَسُول الله ﷺ: اللهُ شهيدٌ بَيني وبَينكم»[٢].

ثمّ شرَح شَهادة الله بصِدقه بقوله: ﴿وَأُوحِيَ﴾ من قِبَل الله ﴿إِلَيَّ هٰذَا ٱلْقُرْآنُ﴾ الذي يكون لَفظاً ومعنىً مِن أعظم المُعجزات، ومِن أوضح الشّواهد علىٰ صِدقي ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِ﴾ وأُخوّفكم مِن الله بما فيه مِن الوَعيد أيُّها المَوجودون في وقت نُزوله ﴿وَ﴾ أُنذر ﴿مَن بَلَغَ﴾ ووَصل إليه هذا القُرآن وسمِعه مِن الإنس والجِن والعرَب والعجَم إلىٰ يوم القِيامة.

قال بعضٌ: مَن بلَغه القُرآن فكأنّما رأىٰ محمّداً ﷺ وسمِع منه[٣].

وعن الصادق عليه السلام: «ومَن بلَغ أن يكون إماماً مِن آل محمّد، فهو يُنذر بالقُرآن كما أنذر به رَسُول الله ﷺ»[٤].

ثمّ وبّخ المُشركين وأنكر عليهم القَول بتعدُّد الآلِهة بِلا دَليل ولا شاهد، بقوله: ﴿أَئِنَّكُمْ﴾ أيُّها المُشركون ﴿لَتَشْهَدُونَ﴾ وتدّعون ﴿أَنَّ مَعَ ٱللهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ﴾ مِن الأصنام الكثيرة والكَواكب وغيرها ﴿قُل﴾: أنا ﴿لَا أَشْهَدُ﴾ بما تدّعون مِن الشُّركاء لله لعدَم الشاهد عليه، بَل ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ﴾ ومَعبود ﴿وَاحِدٌ﴾ لا شَريك له، للبَراهين القاطعة علىٰ وَحدانيّته، وامتِناع الشّريك له، ﴿وَ﴾ لِذا ﴿إِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ به مِن الأصنام وغيرها.

ٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوا

---

١. في المصدر: فتأتينا من.

٢. تفسير القمي ١: ١٩٥، تفسير الصافي ٢: ١١٢.

٣. تفسير روح البيان ٣: ١٧.

٤. مجمع البيان ٤: ٤٣٧، تفسير الصافي ٢: ١١٢.

أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ[٢٠]

ثمّ لمّا أنكر اليَهود والنّصارىٰ ثبوت ذِكر لمحمّد ﷺ في كُتبهم، كذّبهم الله تعالىٰ بقوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ مِن اليَهود والنّصارى ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ بحِلْيته ونُعوته المَذكورة في كُتبهم ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ﴾ بحِلاهم المُعيّنة.

عن القُمّي ﵀: نزلت في اليَهود والنّصارىٰ، لأنّ الله قد أنزل عليهم في التّوراة والإنجيل والزّبور صِفة محمّد ﷺ وصِفة أصحابه ومهاجره[١]، وهُو قوله تعالىٰ: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ﴾ إلىٰ قوله: ﴿ذٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ﴾[٢] فلمّا بعثه الله عزّ وجلّ عرَفه أهلُ الكِتاب، كما قال جلّ جَلالُه: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾[٣].

رُوي أنّ رَسُول الله ﷺ لمّا قدِم المَدينة قال عُمر لعَبدالله بن سَلام: أنزل الله تعالىٰ علىٰ نبيّه هذه الآية، فكيف هذه المعرفة؟ فقال: يا عُمر، لقد عَرَفتُه فيكم حينَ رأيتُه كما أعرِف ابْني، ولأنا أشدّ معرِفةً بمحمّد ﷺ مِنّي بابْني؛ لأنّي لا أدري ما صَنع النّساء، وأشهدُ أنّه حَقّ مِن الله تعالىٰ[٤].

ثمّ ذمّهم الله بغاية الخُسران وعدَم الإيمان بقوله: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا﴾ وغبَنوا ﴿أَنْفُسَهُمْ﴾ بإعراضهم عن ما في كُتبهم مِن البيّنات علىٰ أنّ محمّداً ﷺ هُو النبيّ المنعوت فيها ﴿فَهُمْ﴾ لأجل الخُسران والطّبع علىٰ القُلوب ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بنُبوّة محمّد ﷺ.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ[٢١]

ثمّ نبّه سُبحانه بأنّ المفترين على الله بنِسْبة ما ليس في كِتابه إليه، أو نِسبة الشّريك إليه والمُكذّبين للمُعجزات، أظلم النّاس بقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ علىٰ نفسه ﴿مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِباً﴾ بأن قال: إنّ صِفات النبيّ المَوعود في الكِتابين غير الصِّفات التي تكون لمُحمّد، أو قال: إنّ المَلائكة بَناتُ الله، وإنّ الأصنام شُفعاؤنا عندَ الله ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ مِن القُرآن وسائر مُعجزات النبيّ.

ثمّ هدّدهم بقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ ولا يفوزون بمَطلوبٍ مِن النّجاة مِن النّار، والدُّخول في الجنّة، فكيف يُحتمل الفَلاح في حَقّ مَن هُو أظلم النّاس؟

---

١. في المصدر: أصحابه ومبعثه وهجرته.
٢. الفتح: ٢٩/٤٨.
٣. تفسير القمي ١: ٣٣، تفسير الصافي ٢: ١١٢، والآية من سورة البقرة: ٨٩/٢.
٤. تفسير الرازي ١٢: ١٧٩.

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ * ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَٱللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ[٢٢ و ٢٣]

ثمّ بالغ سُبحانه في تَهديد المُشركين وتَهويلهم بقوله: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ في عَرَصةٍ واحدةٍ ﴿جَمِيعاً﴾ يكون لهم مِن الأحوال والأهوال ما لا يُحيط به المقال. وقيل: إنّ التّقدير: واذكُروا يَومَ نَحشُرهُمْ جَميعاً[١] ﴿ثُمَّ نَقُولُ﴾ بلِسان المَلائكة ﴿لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ علىٰ رؤوس الأشهاد تَوبيخاً وتَقريعاً: ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ﴾ وأندادكم ﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أنّهم آلهتُكم أو شُفعاؤكم عندَ الله ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾ ـ عن الصادق عليه السلام: «يعني: مَعذرتُهم»[٢]. وقيل: يعني: جَوابُهم[٣]. وقيل: يعني إشراكهم في الدُّنيا مِن حيثُ العاقبة[٤] ـ شيئاً ﴿إِلَّا أَن قَالُوا﴾ في الجَواب تَبرُّؤاً مِنهم: ﴿وَٱللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا﴾ في الدُّنيا ﴿مُشْرِكِينَ﴾ بك.

قيل: وَجه التّعبير عن الجَواب بالفِتنة، أنّه يكون كَذِباً معَ عِلْمهم بأنّه لا ينفعُهم أصلاً، وكان مِن كَثرة الدَّهْشة والوَحشة[٥].

ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ[٢٤]

ثمّ أظهر التّعجُّب مِن كَذِبهم في المَقام وحِرمانهم مِن نَفع آلهتهم بقوله: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا﴾ هؤلاء المُشركون ﴿عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴾ بإنكار إشراكهم في الدُّنيا، ﴿وَ﴾ كيف ﴿ضَلَّ﴾ وغاب ﴿عَنْهُم﴾ وبطَل ﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ علىٰ الله بِنِسْبة قَبول شَفاعة الأصنام إليه.

عن (الاحتجاج): عن أمير المُؤمنين صلَواتُ الله عليه ـ في حديثٍ يذكُر فيه أهوال القِيامة ـ: «ثمّ يجتمعون في مَواطن أُخَر يُستنطقون فيه، فيقولون: ﴿والله ربّنا ما كنا مشركين﴾، وهؤلاء خاصّة هُم المُقرّون في الدُّنيا بالتّوحيد، فلَم ينفَعهم إيمانُهم بالله معَ مُخالفتهم رُسُله، وشكّهم في ما أتَوا به عن ربّهم، ونَقضهم عُهودهم في أوصيائهم، واستِبدالهم الذي هُو أدنىٰ بالذي هُو خير، فكذّبهم الله في ما انتَحلوه مِن الإيمان بقوله: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴾»[٦].

والقُمّي رحمه الله قال: إنّها في قَدَريّة هذه الأمة، يحشُرهم الله يومَ القيامة معَ الصّابئين والنّصارىٰ والمَجوس، فيقولون: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾، يقول الله ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ

---

١. تفسير الرازي ١٢: ١٨١.
٢. مجمع البيان ٤: ٤٤٠، تفسير الصافي ٢: ١١٣.
٣. مجمع البيان ٤: ٤٤٠.
٤. تفسر روح البيان ٣: ١٨.
٥. تفسير روح البيان ٣: ١٩.
٦. الاحتجاج: ٢٤٢، تفسير الصافي ٢: ١١٣.

عَنهُم مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾، قال: وقال رَسُول الله ﷺ: «إنّ لكُلّ أمّة مَجوساً، ومَجوس هذه الأمّة الّذِين يقولون: لا قدَر، ويزعُمون [أنّ] المَشيئة والقُدرة إليهم ولهم».[١]

وَمِنْهُم مَن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِى ءَاذَانِهِمْ وَقْراً وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ [٢٥]

ثمّ لما بيّن الله سُوء حال المُشركين في الآخرة، ذكَر سُوء حالهم في الدُّنيا، وشِدّة قَساوة قُلوبهم، وعدَم تأثُّرهم بالآيات [بقوله:] ﴿وَمِنْهُم مَن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ حين تقرأ القُرآن.

عن ابن عبّاس رضي الله عنه قال: حضر عند رَسُول الله ﷺ أبو سُفيان، والوليد بن المُغيرة، والنَّضْر بن الحارث، وعقبة وعتبة وشيبة أبناء ربيعة، وأُميّة وأُبَيّ ابنا خلَف، والحارث بن عامر، وأبو جَهل، واستمعوا إلىٰ حديث رَسُول الله ﷺ، فقالوا للنَّضْر: ما يقول محمّد؟ فقال: لا أدري ما يقول، لكنّي أراه يُحرّك شَفتيه ويتكلّم بأساطير الأولين كالذي كنتُ أُحدّثكم به عن أخبار القُرون الأُولىٰ، وقال أبو سُفيان: إنّي لأرىٰ بعضَ ما يقول حَقّاً. فقال أبو جهل: كَلّا، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَمِنْهُم مَن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾[٢].

﴿وَجَعَلْنَا﴾ وأنشأنا ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ مِن الكِبْر والحَسَد وحُبّ الدُّنيا، وسائر الأخلاق الذَّميمة ﴿أَكِنَّةً﴾ وأغطيةً مانعةً مِن دُخول الآيات فيها وتأثُّرها بها كَراهة ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ ويفهموه حَقّ الفَهم، ﴿وَ﴾ جَعلنا ﴿فِى ءَاذَانِهِمْ وَقْراً﴾ وصَمَماً كراهةَ أن يسمَعوها حقّ الاستِماع.

وفيه مُبالغة في غاية جَهلهم بشؤون القُرآن، وتأبّيهم عن قَبُول الحَقّ، وبُعدهم عن الهِداية.

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ ذِكر طَبع قُلوبهم، وصَمَم آذانهم، أشار إلىٰ عمىٰ أعينهم بقوله: ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ﴾ مِن آيات رَبّهم ومُعجزة مِن مَعاجزك ﴿لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ ولا يُصدّقوا إعجازها، لفَرط عِنادهم وعُتُوّهم عن قَبُول الحَقّ، بَل لا يكتفون بعدَم الإيمان، ويُشاقّون الله ﴿حَتَّىٰ﴾ إنّهم ﴿إِذَا جَاءُوكَ﴾ وحضَروا عندَك وسمِعوا مِنك القُرآن ﴿يُجَادِلُونَكَ﴾ ويُخاصمونك في أنّه كَلام الله و﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وأصرّوا علىٰ معاندة الحقّ: ﴿إِنْ هَٰذَا﴾ القُرآن، وما هُو ﴿إِلَّا أَسَاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ والتُّرّهات التي سُطّرت في كُتب السّابقين، مَع وُضوح أنّه أصدق الحَديث وأحسنه عندَهم.

---

١. تفسير القمي ١: ١٩٩، تفسير الصافي ٢: ١١٤.
٢. تفسير الرازي ١٢: ١٨٥.

وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْئَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ[٢٦]

ثمّ بعدَ ذِكر طَعنهم في القُرآن، وتَكذيبهم أنّه كَلام الله، ذكَر مُعاملتهم معه بقوله: **﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ﴾** النّاس **﴿عَنْهُ﴾** ويمنَعونهم عن الإيمان به **﴿وَيَنْئَوْنَ﴾** ويتباعدون **﴿عَنْهُ﴾** بأنفسهم إظهاراً لغاية نُفورهم مِنه، وتأكيداً لنَهيهم عنه وقيل: إنّ الضَميرين راجعان إلى الرّسُول ﷺ[١]. **﴿وَ﴾** الحال **﴿إِن يُهْلِكُونَ﴾** هَلاك الأبد **﴿إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾** بسَعيهم في إطفاء نُور الحَقّ، ولا يتعدّىٰ ضَرَره إلىٰ غيرهم، **﴿وَ﴾** لكن **﴿مَا يَشْعُرُونَ﴾** ولا يُدركون هذا الأمر الواضح لغاية غباوتهم.

وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا يَالَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ[٢٧]

ثمّ بيّن كيفيّة هَلاكهم بقوله: **﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾** يا محمّد، أو أيّها الرّائي أُولئك الكُفّار **﴿إِذْ وُقِفُوا﴾** وأشرفوا **﴿عَلَى النَّارِ﴾** والدُّخول فيها، لرأيت أمراً هائلاً عظيماً لا يُمكن بَيانه. وقيل: إنّ جَواب (لو) ما يُفهم مِن قوله: **﴿فَقَالُوا﴾**، قيل: التّقدير: إنّهم ينوحون ويقولون تمنّياً: **﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ﴾** ونُرجَع الى الدُّنيا وعالَم التّكليف، ونتَدارك سيّئاتنا، **﴿وَ﴾** أن **﴿لَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾** وأدلّة تَوحيده، ورِسالة رَسُوله **﴿وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾** به وبنبيّه.

بَلْ بَدَا لَهُم مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ[٢٨]

ثمّ ردّهم الله سُبحانه بأنّ هذا التّمنّي ليسَ للرّغبة في الإيمان، وتَرك التّكذيب **﴿بَلْ﴾** لأجل أنّه **﴿بَدَا﴾** وظهر **﴿لَهُم﴾** بشَهادة الجَوارح، أو تجسّم العقائد والأعمال **﴿مَا كَانُوا يُخْفُونَ﴾** مِن الكُفر والجُحود، وبُغض الرّسُول، وسيّئات الأعمال **﴿مِن قَبْلُ﴾** وفي دار الدُّنيا، أو في مَوطن قالوا: **﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾** فخافوا مِن الوُقوع في النّار [حين] وُقِفوا عليها **﴿وَلَوْ رُدُّوا﴾** وأُرجِعوا إلىٰ الدُّنيا فرضاً، واطْمأنّوا بالخَلاص مِن العَذاب، والله **﴿لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾** ورجَعوا إلىٰ الكُفر والطُّغيان، واستمرّوا علىٰ الطّريقة لغفلتهم عن ما رأوا في القِيامة وغَلَبة حُبّ الدُّنيا والشّهوات عليهم **﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾** في التّمنّي المُتضمّن للإخبار بإيمانهم، وإصلاح أعمالهم بعدَ الرُّجوع إلىٰ الدُّنيا.

عن القُمّي رحمه الله: نزلت في بني أُميّة[٢].

---

١. تفسير الرازي ١٢: ١٨٩.

٢. تفسير القمي ١: ١٩٦، تفسير الصافي ٢: ١١٥.

وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ * وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ[٢٩ و ٣٠]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ حِكاية تكذيبهم لآيات الله، حكىٰ عنهم إنكار المعاد بقوله: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ وتعيّشنا فيها، ثمّ نموتُ بعدَه ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ مِن القُبور، ومُخرجين مِنها إلىٰ النُّشور.

ثمّ بيّن الله أنّ إنكارهم سَيعود إلىٰ الإقرار، بقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ وحُبسوا للسُّؤال في محضَر عَدله كما يُحبَس العَبدُ الجاني بين يدي مَولاه للعِتاب، أو المُراد: إذا اطّلعوا علىٰ جَزاء ربّهم لترىٰ لهم حالة فَضيعة.

ثمّ ﴿قَالَ﴾ ربّهم مُشافهةً أوبلِسان المَلَك توبيخاً لهم: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا﴾ البَعث مُلابساً ﴿بِالحَقِّ﴾ والواقع؟ ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ﴾ الله: إذَن ﴿فَذُوقُوا﴾ واطْعَموا ﴿ٱلعَذَابَ﴾ طَعْماً ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾ في دَار الدُّنيا ﴿تَكْفُرُونَ﴾ بالبعث وتجحَدونه.

قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ ٱللهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَاحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَافَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَايَزِرُونَ[٣١]

ثمّ أنّ الله تعالى بعدَ الإعلان بغاية خُسران المُنكرين للتَوحيد والرِّسالة، أعلن بغاية خُسران المُنكرين للمَعاد بقوله: ﴿قَدْ خَسِرَ﴾ وغُبِن في التِّجارة ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ ٱللهِ﴾ وأنكروا الرُّجوع إليه في الدّار الآخرة لجزاء الأعمال، حيثُ ضيّعوا رأس مالهم مِن العَقل السّليم والفِطرة الأصليّة، وآشْتروا لأنفسهم العَذاب الأليم الدّائم، وفوّتوا عليها الثّواب العظيم، وهُم مُستمرّون علىٰ التّكذيب ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ﴾ وظهرت عليهم ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾ التي لا يعلَم وقتَها إلّا الله ﴿بَغْتَةً﴾ وفَجأة.

قيل: سُميّت القِيامة بالسّاعة لسُرعة الحِساب فيها[1] كأنّ وقتَه مِقدار ساعة، أو لسُرعتها إلىٰ الوُقوع لكَون مَسافتها الأنفاس. وإنّما جعلها الله غايةً لتكذيبهم معَ أنّ الموت غايته، ازْدِياداً للتّهويل، وإلحاقاً للمَوت وعالَم البَرزخ بالقِيامة. وقد رُوي «أنّ مَن مات فقد قامَتِ قِيامتُه»[2].

ثمّ بيّن الله سُبحانه أنّه يحصُل لهم حالتان سيّئتان؛ إحداهما: شِدّة الحَسرة بقوله: ﴿قَالُوا﴾ حينَ رأوا

---

١. تفسير الرازي ١٢: ١٩٨.

٢. تفسير الرازي ١٢: ١٩٨، تفسير روح البيان ٣: ٢٢.

السّاعة وشِدّة أهوالها، عن النبي ﷺ: «يرىٰ أهلُ النّار مَنازلهم مِن الجنّة فيقولون: ﴿يَا حَسْرَتَنَا﴾»[١] ونَدامتنا ﴿عَلَىٰ مَافَرَّطْنَا﴾ وقصّرنا ﴿فِيهَا﴾ وفي مُراعاة حقّها، وتَهيئة ما يُوجب السّلامة فيها مِن العَذاب مِن الإيمان بالله وبهذا اليوم، وتَحصيل الأعمال الصّالحة.

عن ابن عبّاس رضي الله عنه: علىٰ ما فرّطنا في الدُّنيا[٢].

ثمّ بيّن الحالة الأخرىٰ بقوله: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ﴾ حينَ خُروجهم مِن القُبور ﴿أَوْزَارَهُمْ﴾ وأثقال ذُنوبهم ﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا﴾ أيُّها النّاس تنبّهوا أنّه ﴿سَاءَ﴾ وبئس الشيء ﴿مَا يَزِرُونَ﴾ ويحمِلون مِن الثِّقل في ذلك اليوم.

قال بعضُ المُفسّرين: رُوي أنّ المُؤمن إذا خرج مِن قبره آستقبله شيءٌ هُو أحسن الأشياء صُورةً وأطيبها ريحاً، ويقول: أنا عملُك الصّالح، طالما ركِبتُك في الدُّنيا فاركَبني أنت اليوم، فذلك قوله: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾[٣]، قالوا: رُكباناً. وأنّ الكافر إذا خرج مِن قبره آستقبله شيءٌ هُو أقبح الأشياء صُورة وأخبثها ريحاً، فيقول: أنا عملُك الفاسد طالما ركِبتَني في الدُّنيا، فأنا أركبُك اليوم، فذلك قوله: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾[٤].

وَمَا ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ[٣٢]

ثمّ لمّا كان حُبّ الدُّنيا ولذّاتها مانعاً عن التّفكير في الآيات الدّالّة علىٰ البَعث وعن الاعْتِراف به وباعثاً علىٰ إنكاره، بيّن الله غاية خَساسة الدُّنيا ولذّاتها، وكمال شَرف الآخرة بقوله: ﴿وَمَا ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا﴾ والتَعيُّش فيها، والتَلذُّذ بما فيها ﴿إِلَّا لَعِبٌ﴾ وإلتِذاذ سَفهي سَريع الانْقِضاء ﴿وَلَهْوٌ﴾ وشاغل عن ذِكر الله وتَكميل النّفس، وهُما لا يصلُحان إلّا للصِّبيان والجُهّال، ﴿وَ﴾ بالله ﴿لَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾ ونِعَمها لشَرفها ودَوامها وخُلوصها عن الكُدورات ـ عن ابن عبّاس رضي الله عنه: هي الجنّة[٥] ـ ﴿خَيْرٌ﴾ وأفضل وأصلح في حُكم العَقل ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الله ويجتنِبون المُوبقات ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أيُّها النّاس وتفهمون ذلك؛ حتّىٰ تعلَموا ما تنالون به ما هُو خَير وأبقىٰ.

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِآيَاتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ[٣٣]

---

١. مجمع البيان ٤: ٤٥٣، تفسير الصافي ٢: ١١٥. ٢. تفسير الرازي ١٢: ١٩٨.
٣. مريم: ٨٥/١٩. ٤. تفسير الرازي ١٢: ١٩٩. ٥. تفسير الرازي ١٢: ٢٠٣.

ثمَ لمَا كان النبيّ ﷺ يدعو النّاس إلىٰ تَوحيد الله والاعْتِقاد بالمَعاد، والأشقياء مِنهم يُسفّهونه وينسِبون أخباره الغيبيّة إلىٰ الكهانة، ومُعجزاته إلىٰ السِّحر، ودَعواه النُّبوّة إلىٰ الكَذِب، وكان ذلك سبباً لحُزن النبيّ ﷺ وتكدُّر خاطره الشّريف، سلّىٰ سُبحانه قَلب حَبيبه بقوله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾ مِن الخُرافات وإساءة الأدب في شأنك؛ فلا تحزَن ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ في الواقع ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ على أنفسهم بالكُفر، وعليك بالإساءة والتّكذيب ﴿بِآيَاتِ ٱللَّهِ﴾ والمُعجزات التي أجراها علىٰ يدك ولِسانك ﴿يَجْحَدُونَ﴾ ويُكذّبون، فتكذيبهم راجع إلىٰ الله لا إليك. وفيه دَلالة علىٰ كَمال مَحبوبيّته عندَ الله.

وقيل: إنّ المعنىٰ: أنّهم لا يُكذّبونك في الباطن والسِّر؛ فإنّهم مُعتقدون بصِدقك، ولكنّهم يُكذّبونك في الظّاهر والعَلانية[١].

رُوي أن الأخنس بن شُريق قال لأبي جَهل: يا أبا الحَكَم، أخبرني عن محمّد أصادقٌ هُو أم كاذب؟ فإنه ليس عندنا أحدٌ غيرُنا، فقال له: والله، إنّ محمّداً لصادق، وما كذَب قَطّ، ولكِن إذا ذهَب بنُو قُصَيّ باللِّواء والسِّقاية والحِجابة والنُّبوّة، فماذا يكون لسائر قُريش؟ فنزلت هذه الآية[٢].

ورُوي أنّ حارث بن عامر مِن قُريش قال: يا محمّد، والله ماكذبتنا قطّ، ولكِنّا إن اتّبعناك نُتخطّف مِن أرضنا، فنحنُ لا نؤمن بك لهذا السّبب[٣].

ورُوي أنّ رَسُول الله ﷺ لقي أبا جَهل فصافحه [أبو جهل]، فقيل له في ذلك، فقال: والله، إنّي لأعلم أنّه صادق، ولكنّا متىٰ كُنّا تَبَعاً لعبد مناف، فأنزل الله الآية[٤].

وفي (الكافي): عن الصادق عليه السلام: «أنّه قرأ رجُلٌ علىٰ أمير المؤمنين صلوات الله عليه: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾، فقال: بلىٰ والله، لقد كذّبوه أشدّ التّكذيب، ولكنّها مُخفّفة ﴿لَا يُكْذِبُونَكَ﴾ أي لا يأتون بباطلٍ يُكذّبون به حَقّك»[٥].

وفي روايةٍ أُخرىٰ، قال: «لا يأتون بحَقٍّ يُبطلون حَقّك»[٦].

وعن العيّاشي: عنه عليه السلام: «أي لا يستطيعون إبطال قولِك»[٧].

وفي (المجمع): عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه أنّه كان يقرأ: ﴿لَا يُكْذِبُونَكَ﴾ أي[٨] لا يأتون

---

١ ـ ٣. تفسير الرازي ١٢: ٢٠٥.
٤. مجمع البيان ٤: ٤٥٥، تفسير الصافي ٢: ١١٦.
٥. الكافي ٨: ٢٤١/٢٠٠، تفسير الصافي ٢: ١١٦.
٦. تفسير القمي ١: ١٩٦، تفسير الصافي ٢: ١١٦.
٧. تفسير العياشي ٢: ١٤١٦/٩٧، تفسير الصافي ٢: ١١٦.
٨. في المصدر: كان يقرأ ﴿لا يكذبونك﴾ ويقول: إن المراد بها أنهم.

بَحقٍّ أحقّ مِن حقّك[1].

وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَاكُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ ٱللهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ [٣٤]

ثمّ بالغ سُبحانه في تَسلية نبيّه صلى الله عليه وآله ببَيان ابتِلاء عُموم الرُّسُل بتَكذيب اُمَمهم بقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ﴾ كثيرة وذَوو معَاجز باهرة، بُعثوا إلىٰ النّاس ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ وفي القُرون السّابقة علىٰ بِعثتك ﴿فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَاكُذِّبُوا﴾ وأنت أولىٰ مِنهم بالصّبر ﴿وَأُوذُوا﴾ بأنواع الأذيّة مِن الضرب والشّتم وغير ذلك، واستمرّوا علىٰ ذلك مُدّة طَويلة ﴿حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ والظّفَر مِنّا، وأنت أحقّ بالنّصر والظّفَر على قومك.

ثمّ أكّد وَعد النّصر بقوله: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ﴾ ولا مُغيّر ﴿لِكَلِمَاتِ ٱللهِ﴾ وعِداته، ولا مُوجب للخُلف فيها، ولِذا لَم يتّفق ذلك في وَعد سائر الرُّسُل ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ﴾ فى القُرآن، وبلغَك بالوَحي كثيرٌ ﴿مِن نَبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ السّابقين، أنّهم كيف كُذِّبوا واُوذوا وصبرَوا أوّلاً، ثمّ نُصِروا على قومهم آخِراً، فيكون حالُك كحالهم.

وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِى ٱلسَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ ٱللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَاهِلِينَ [٣٥]

ثمّ نبّه سُبحانه علىٰ أنّه لا حِيلة له إلّا الصّبر تَسكيناً لحِرصه البالغ علىٰ إيمان قومه، بقوله: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ﴾ وشَقّ ﴿عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ عن الإيمان بك وبكِتابك ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ﴾ وقدرت علىٰ ﴿أَن تَبْتَغِيَ﴾ وتطلُب ﴿نَفَقاً﴾ ومَنفذاً ﴿فِى الْأَرْضِ﴾ تنفُذ فيه إلىٰ جَوفها ﴿أَو سُلَّماً﴾ ومصعداً ﴿فِى ٱلسَّمَاءِ﴾ فتصعَد إليها ﴿فَتَأْتِيَهُم﴾ مِن جَوف الأرض أو مِن فوقَ السّماء ﴿بِآيَةٍ﴾ يخضَعوا لها ويلجأوا إلىٰ الإيمان بها، فافعَل، ولا تقدِر علىٰ ذلك.

عن القُمّي رحمه الله: عن الباقر عليه السلام [قال]: «كان رَسُول الله صلى الله عليه وآله يُحب إسلام الحارث [بن عامر] بن نَوفل بن عبدمَناف، ودعَاه وجهَد به أن يُسلم، فغلَب عليه الشّقاء، فشقّ ذلك علىٰ رَسُول الله صلى الله عليه وآله، فأنزل الله هذه الآية»[2].

---

١. مجمع البيان ٤: ٤٥٥، تفسير الصافي ٢: ١١٦.
٢. تفسير القمي ١: ١٩٨، تفسير الصافي ٢: ١١٧.

وعن ابن عبّاس رضي الله عنه: أنّ الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مَناف أتىٰ النبيّ صلى الله عليه وآله في نفر مِن قُريش، فقالوا: يا محمد، آتِنا بآية مِن عند الله كما كانت الأنبياء تفعَل، فإنّا نُصدّق بك، فأبىٰ الله أن يأتيهم بها، فأعرضوا عن رَسُول الله صلى الله عليه وآله، فشقّ ذلك عليه فنزلت هذه الآية[1].

ثمّ أشار سُبحانه إلىٰ علّة عدَم إنزال ما اقترحوه مِن الآية بقوله: **﴿وَلَو شَاءَ اللهُ﴾** هِدايتهم إلىٰ الحَقّ **﴿لَجَمَعَهُم﴾** وألزمهم **﴿عَلَىٰ الهُدَىٰ﴾** ودِين الحَقّ، ولكِن لَم يشأ ذلك لخُبث ذَاتهم، وغاية فساد أخلاقهم، فمنعهم التّوفيق، وشَملهم الخِذلان **﴿فَلا تَكُونَنَّ﴾** البتّة **﴿مِنَ الجَاهِلِينَ﴾** بقُدرة الله وحِكمته، وبخُبث المُشركين وعدَم قابليّتهم للهِداية.

عن القُميّ رحمه الله: مُخاطبة للنبيّ صلى الله عليه وآله والمَعنِيّ النّاس[2].

عن النبيّ صلى الله عليه وآله: «يا علي، إنّ الله قد قضى الفُرقة والاختِلاف على هذه الأُمّة، ولو شاء الله لجَمعهم علىٰ الهُدىٰ حتّىٰ لا يختلف اثنان مِن هذه الأُمّة ولا يُنازع في شيءٍ مِن أمره، ولا يجحَد المفضولُ لذي الفَضل فَضْلَه»[3].

إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ[٣٦]

ثمّ نبّه الله سُبحانه علىٰ عِلّة عدَم هِدايتهم، وعدَم تأثُرهم بالآيات والمَواعظ بقوله: **﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ﴾** دَعوتك إلىٰ التّوحيد والإيمان بك **﴿ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾** مَواعظك سَمع القَبول، ويفهَمون كلامك فَهم تدبُّر، لا الّذِين لا يسمَعون دَعوتك، ولا يفهَمون كلامك؛ فإنّهم بمَنزلة المَوتىٰ لا سَمع لهم ولا فَهم، حتّىٰ يتأثّروا بمَواعظك، ويهتَدوا بِهدايتك **﴿وَ﴾** هؤلاء **﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾** سوف **﴿يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾** ويُخرجهم أحياء مِن قُبورهم **﴿ثُمَّ إِلَيْهِ﴾** وإلىٰ حُكمه **﴿يُرْجَعُونَ﴾** فِي القِيامة؛ فيُجازيهم علىٰ كُفرهم، فحينئذٍ يسمَعون ويستجيبون ولكِن لا ينفَعهم.

قيل: إنّما سَمّىٰ الله الكُفّار مَوتىٰ؛ لأنّ العَقل والمَعرفة حياةُ الرُّوح، والرُّوح حَياة الجَسَد، فكما أنّ الجَسَد إذا فارقه الرُّوح يكون ميتاً، فكذا الرُّوح إذا فارقه العَقل والمعرفة يكون ميتاً، فموتُهم يكون رُوحانيّاً.

وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِن رَبِّهِ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ[٣٧]

---

١. تفسير الرازي ١٢: ٢٠٧.
٢. تفسير القمي ١: ١٩٨، تفسير الصافي ٢: ١١٨.
٣. كمال الدين: ٢٦٤/١٠، تفسير الصافي ٢: ١١٧.

ثمّ حكىٰ الله لَجاج المُشركين معَ النبيّ ﷺ باقْتِراحهم، بقوله: ﴿وَقَالُوا﴾ عِناداً وتعنُّتاً، لا طلَباً لوُضوح الحَقّ: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ﴾ ومُعجزة غير الذي جاء به ﴿مِن رَبِّهِ﴾ كناقة صالح، وعصَا مُوسىٰ ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً﴾ عظيمة حَسبما اقْترحتُموه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنّ نُزول الآية يكون وَبالاً عليهم؛ حيثُ إنّهم إذا لَم يؤمنوا بها لهَلَكوا كما عن القُمّي ﷺ[1]. أوَ لا يعلَمون أنّ إجابة مَسؤولهم مُنافية للحِكمة؟ أو لا يعلمون أنّه لا يحسُن إجابة السُّؤالات التَعنُّتيّة عندَ العقل.

عن الباقر عليه السلام، في هذه الآية: «سيُريكم في آخر الزّمان آياتٍ مِنها دابّة الأرض، والدّجال، ونُزول عيسىٰ بن مَريم، وطُلوع الشّمس مِن مَغربها»[2].

وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ[٣٨]

ثمّ لمّا بيّن سُبحانه قُدرته علىٰ إنزال كُلّ آية، وأنّ حِكمته مانعة عنه، اسْتشهَد علىٰ كَمال قُدرته وحكمته بخَلق جَميع الحَيوانات، وتنظيم أُمورها علىٰ وَفق الحِكمة بقوله: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ﴾ وحَيوان مُتحرّك يدُبّ ويتحرّك ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ وقُطر مِن أقطارها ﴿وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ﴾ في الجَوّ ﴿بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ﴾ وجَماعات ﴿أَمْثَالُكُمْ﴾ مَحفوظة أحوالها، مُقدّرة أرزاقها وآجالها، مَفطورة علىٰ مَعرفة خالقها. ومَعلومٌ أنّ القادر علىٰ خَلقها وتَدبير جَميع أمورها قادرٌ علىٰ إنزال آية.

وإنّما ذكَر (جناحيه) لدَفع احْتِمال إرادة السُّرعة مِن الطَّيران.

ثمّ نبّه سُبحانه بعدَ بَيان هذه المَعارف علىٰ وُفور ما في القُرآن مِن العُلوم بقوله: ﴿مَا فَرَّطْنَا﴾ وما ترَكنا ﴿فِي﴾ هذا ﴿الْكِتَابِ﴾ المُنزَل إليكم ﴿مِن شَيْءٍ﴾ مِن العُلوم المُحتاج إليها.

ثمّ بيّن أنّ سائر الحَيَوانات مِثْلكم في الحَشر إلى القيامة بقوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ يومَ القِيامة ﴿يُحْشَرُونَ﴾ ويُبعثون لإحقاق حقّهم مِن ظالميهم، ولاسْتِيفاء جَزائهم علىٰ ما صدَر مِنهم مِن الخَيرات.

عن النبيّ ﷺ، قال: «يُقتصّ للجَمّاء مِن القَرناء»[3].

وعنه ﷺ، أنّه أبصر ناقةً معقُولة وعليها جَهازها، فقال: «أين صاحبُها؟ مُروه فليستعد [غداً] للخُصومة»[4].

---

١ و٢. تفسير القمي ١: ١٩٨، تفسير الصافي ٢: ١١٨. ٣. تفسير الرازي١٢: ٢١٤.

٤. من لا يحضره الفقيه ٢: ١٩١/٨٦٧، تفسير الصافي ٢: ١١٩.

وعن الصادق عليه السلام: «أي بعير حُجّ عليه ثلاث سِنين، جُعل مِن نَعَم الجنّة»[١]، وفـي روايـة: «سبعَ سِنين»[٢].

وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ ٱللهُ يُضْلِلْهُ وَمَـن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ[٣٩]

ثمّ أنه تعالى بعدَ بَيان كمَال قدرته، و دفع اعْتِراض المُشركين في النّبوّة، ذمّ المُكـذّبين، بـقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ مِن القرآن العَظيم وسائر المُعجزات ﴿صُمٌّ﴾ عن اسْتِماع دَعـوة النـبي إلىٰ التّوحيد، ودِين الحقّ، والمَواعظ الإلهيّة ﴿وَبُكْمٌ﴾ عن الإقرار بالتّوحيد والنّبوّة، والنُّطق بالخير، عُميٌ لكَونهم خائضين ﴿فِى﴾ أنواع ﴿ٱلظُّلُمَاتِ﴾ مِن الجَهل والكُفْر وحُبّ الدُّنيا والشّهوات، بـحيث لا يرَون المُعجزات والآيات.

ثمّ نبّه سُبحانه علىٰ أنّ الكُفْر والضَلال يكون بسبَب خِذلانه، والهِداية بتَوفيقه بقوله: ﴿مَن يَشَـاءِ ٱللهُ﴾ ضَلالته لأجل خُبث طِينته ورَذالة أخلاقه ﴿يُضْلِلْهُ﴾ عن طَريق الحَقّ والصَواب ألبتّة بخِذلانه وإيكاله إلى نفسه ﴿وَمَن يَشَأْ﴾ هدايته وخَيره ﴿يَجْعَلْهُ﴾ ويضعْه ﴿عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ يُوصله إلىٰ كُلّ خيرٍ، ويوفّقه للسُّلوك في الدِّين القوَيم والعمَل به.

عن القُمّي رحمه الله: عن الباقر عليه السلام: «نزلت في الّذِين كذّبوا الأوصياء، هُم صُمٌّ وبُكم كما قال الله: ﴿فِى الظُّلُمَاتِ﴾، [مَن كان] مِن وُلدْ إبليس فإنّه لا يُصدّق بالأوصياء، ولا يُؤمن أبداً، وهُم الّذِين أضـلّهم الله، ومَن كان مِن وُلد آدم آمن بالأصياء فهم علىٰ صِراطٍ مُستقيم»[٣].

قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ ٱللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللهِ تَدْعُونَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ * بَـلْ إِيَّـاهُ تَـدْعُونَ فَـيَكْشِفُ مَـا تَـدْعُونَ إِلَـيْهِ إِن شَـاءَ وَتَـنْسَوْنَ مَاتُشْرِكُونَ[٤٠ و ٤١]

ثمّ أمر الله تعالىٰ نبيّه صلى الله عليه وآله بالاسْتِفهام التّقريري مِن المُشركين والسُّؤال التّبكيتي عنهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد لهم: ﴿أَرَءَيْتَكُمْ﴾ وأخبِروا في ﴿إِنْ أَتَاكُمْ﴾ ونَزل عليكم ﴿عَذَابُ ٱللهِ﴾ في الدُّنيا، كما نزل علىٰ الّذِين مِن قبلكم مِن الأمَم ﴿أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ وجاءتكم القِيامة التي فيها العَذاب والأهـوال

---

١. من لا يحضره الفقيه ٢: ٨٧٢/١٩١، تفسير الصافي ٢: ١١٩.
٢. من لا يحضره الفقيه ٢: ٨٧٣/١٩١، تفسير الصافي ٢: ١١٩.
٣. تفسير القمي ١: ١٩٩، تفسير الصافي ٢: ١١٩.

﴿أَغَيْرَ ٱللهِ تَدْعُونَ﴾ وهَل إلىٰ ما سِواه مِن الأصنام تلتجِئون لكَشف العَذاب والتَخلُّص مِن الأهوال؟ أم إليه تعالىٰ **﴿إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾** في دَعوىٰ اُلوهيّة أصنامكم، ومن المعلوم أنكم لا تدعُون غيرَ الله **﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾** وإليه خاصّة تلتجِئون لكَشف العَذاب عنكم في الدُّنيا والآخرة، لمَعرفتكم بالفِطرة أنّه لا قُدرة لغيره علىٰ كَشفه **﴿فَيَكْشِفُ﴾** إثْر دُعائكم **﴿مَا تَدْعُونَ﴾** الله **﴿إِلَيهِ﴾** مِن العَذاب **﴿إِن شاءَ﴾** كَشفه، واقتضَتْ حِكْمتُه الإجابة **﴿وتَنسَوْنَ﴾** وتترُكون **﴿مَا﴾** كُنتم **﴿تُشْرِكُونَ﴾** به مِن الأصنام.

عن ابن عبّاس ﷺ: المُراد: تترُكون الأصنام ولا تدعونهم لعِلْمكم بأنها لا تضُرّ ولا تنفَع[1].

وقيل: إنّ المُراد: لا تذكُرونها في ذلك الوقت مِن شدّة الهَول والوَحشة[2].

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَٱلضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ[٤٢]

ثمّ لمَا ذكَر سُبحانه أنّهم عندَ مُعاينتهم العَذاب الشدّيد يدعُونه دُون غيره، نبّه علىٰ أنّه قد يبتليهم بالبَليّات الدُّنيوية العاديّة لتأديبهم، وصَرف قُلوبهم إلىٰ ذاته المقدّسة وارْتِداعهم عن الكُفر والعِصيان بقوله: **﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾** رُسُلاً **﴿إِلىٰ أُمَمٍ﴾** كانوا **﴿مِن قَبْلِكَ﴾** وقبلَ عَصرك، فكذّبوهم وخالَفوهم **﴿فَأَخَذْنَاهُم﴾** وآبْتليناهم **﴿بِالْبَأْسَاءِ﴾** والشّدائد، كالفقر والقَحط **﴿وَٱلضَّرَّاءِ﴾** كالأمراض والأوجاع، ونُقصان الأموال والأنفس **﴿لَعَلَّهُمْ﴾** ولأجل أنّهم **﴿يَتَضَرَّعُونَ﴾** إلينا، ويخشَعون لنا، وينقادون للرُّسُل.

فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُبْلِسُونَ * فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا وَٱلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ[٤٣-٤٥]

ثمّ لام المُصرّين مِنهم علىٰ الكُفر، ووبّخهم بعدَم تأثُّرهم بتِلك البَليّات بقوله: **﴿فَلَوْلَا﴾** وهَلّا **﴿إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا﴾** وعَذابُنا **﴿تَضَرَّعُوا﴾** إلينا في دَفعه والتَخلُّص مِنه معَ انْحِصار طَريقه فيه، وعدَم العُذر في تَركه، ثمّ ذمّهم ببَيان مانِعهم عنه بقوله: **﴿وَلٰكِن قَسَتْ﴾** وصلُبت **﴿قُلُوبُهُمْ﴾** بحيث لم يكُن فيها رِقّة وخَوف **﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ﴾** وحسّن في نظَرهم **﴿ٱلشَّيْطَانُ﴾** بتَسْويلاته **﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** مِن عِبادة

---

١. تفسير الرازي ١٢: ٢٢٣.

٢. تفسير الصافي ٢: ١٢٠.

الأصنام، ومُعارضة الرُّسُل، وتَوغُّلهم في المَعاصي، وانْهِماكهم في الشَّهوات ﴿فَلَمَّا نَسُوا﴾ لذلك ﴿مَا ذُكِّرُوا﴾ ووُعظوا ﴿بِهِ﴾ مِن البَليّات اللّاتي كانت، أخذهم بها لاجل اتّعاضهم بها وتَوبتهم مِن الشِّرك والمَعاصي، استدرجناهم بأن ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِم﴾ مِن جميع الجِهات ﴿أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ مِن المَنافع التي كانت مُغلقة عنهم، وكثّرنا عليهم النِّعَم من الصِحة والقُوّة والسَّعَة ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا﴾ وبَطِروا ﴿بِمَا أُوتُوا﴾ مِن النِّعَم، وآشْتغلوا باللّذات، وآنْهَمكوا في الشَّهوات ﴿أَخَذْنَاهُمْ﴾ بعَذاب الاستئصال ﴿بَغْتَةً﴾ وفَجاءةً ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ آيسون مِن النّجاة، مُتحسّرون علىٰ ما فاتهم مِن النِّعَم الدُّنيويّة والأُخرويّة.

قيل: إنّ عَذاب الاسْتِدراج أشدّ، لكَون التَحسُّر فيه أشدّ[1].

عن الباقر[2] عليه السلام: «إذا رأيت الله يُعطي علىٰ المَعاصي، فإنّ ذلك اسْتِدراج مِنه» وتَلا هذه الآية[3].

وفي الحديث: «إذا أراد الله بعبدٍ خيراً فأذنب ذَنْباً أتبعه بنِقْمة، ويُذكّره الاسْتِغفار، وإذا أراد الله تعالىٰ بعبدٍ شرّاً فأذنب ذَنْباً أتبعه بنِعْمة ليُنسيه الاستِغفار، ويتمادىٰ بها»[4].

وعن القُمّي رحمه الله: عن الباقر عليه السلام: «﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ يعني: [فلما] تركوا وِلاية عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وقد اُمروا بها ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ دُونهم[5] في الدُّنيا، ومابسَط لهم فيها ﴿أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً﴾ يعني: بذلك قِيام القائم، حتّىٰ كأنّهم لَم يكُن لَهم سُلطان قَطّ»[6].

وقيل: إنّ المَقصود أنّه تعالىٰ عاملهم بتَسليط المَكاره والشّدائد عليهم تارةً، فلَم ينتفِعوا به، فنقَلهم مِن تِلك الحالة إلىٰ ضِدّها وهُو فَتح أبواب الخَيرات عليهم، وتسهيل مُوجبات المَسرّات والسّعادات لديهم، فلم ينتفعوا [به] أيضاً، وهذا كما يفعله الأب الشّفيق بوَلده، يُخاشنه تارةً، ويُلاطفه اُخرىٰ طَلَباً لصَلاحه ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾ مِن الخَيرات والنِّعَم، لَم يزيدوا علىٰ الفرَح والبَطَر مِن غير آنْتداب لشكر، ولا إقدام علىٰ اعْتِذار وتَوبة، فلا جَرَم ﴿أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً﴾[7].

﴿فَقُطِعَ﴾ واسْتُؤصل ﴿دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم، وفَنَوا مِن أوّلهم إلىٰ آخرهم، ثمّ لمّا كان إهلاكهم تَطهيراً للأرض، ونِعمةً علىٰ الرُّسُل والمُؤمنين، حمِد ذاته المُقدّسة بقوله: ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ علىٰ إهلاكهم، وتَطهير الأرض مِنهم، وإراحة أوليائه مِن شرّهم.

---

١. تفسير الرازي ١٢: ٢٢٦.

٢. في مجمع البيان وتفسير الصافي: عن النبي صلى الله عليه وآله.

٣. مجمع البيان ٤: ٤٦٧، تفسير الصافي ٢: ١٢٠.

٤. علل الشرائع: ١/٥٦١.

٥. في المصدر: يعني دولتهم.

٦. تفسير القمي ١: ٢٠٠، تفسير الصافي ٢: ١٢١.

٧. تفسير الرازي ١٢: ٢٢٦.

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ[٤٦]

ثمَ أمر سُبحانه نبيّه ﷺ بإقامة البُرهان علىٰ تَوحيده للمُشركين، وأخذ الإقرار مِنهم به بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ وأخبروني ﴿إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ﴾ وسلَب عنكم ﴿سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ﴾ اللّذين هُما أشرف القُوىٰ الظّاهِريّة ﴿وَخَتَمَ﴾ وطبَع ﴿عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾ وأزال عُقولكم التي هِي أشرف القُوىٰ الباطنيّة.

عن ابن عبّاس ﷺ، معناه: وطَبع علىٰ قُلوبهم فلَم يعقِلوا الهُدىٰ[1].

القُمّي: عن الباقر عليه السلام «إذا أخذ الله مِنكم الهُدىٰ»[2].

﴿مَنْ إِلَٰهٌ﴾ قادر ﴿غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ العَزيز المُقتدر ﴿يَأْتِيكُم﴾ ويرُدّ إليكم ما أخذ مِنكم، ويُنعِم عليكم ﴿بِهِ﴾ فبالبَديهة لا قادر عليه إلّا الله، فهُو المُستحقّ للعِبادة دُون الأصنام وغيرها.

﴿ٱنظُرْ﴾ يا محمّد وتعجَب ﴿كَيْفَ نُصَرِّفُ﴾ ونُقرّر ﴿ٱلْآيَاتِ﴾ والبَراهين والإنذرات والتّبشيرات بأساليب مُتفاوتة وبَيانات مُختلفة ﴿ثُمَّ﴾ المُشركون ﴿هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ ويُعرِضون عنها، ولا يُؤمنون بها.

وفي لَفظ (ثمّ) إشارةٌ لغاية بُعد ذلك مِن العاقل.

قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّالِمُونَ[٤٧]

ثمَ أمر سُبحانه النبيّ ﷺ بسُؤال فيه تَهديدهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد لهم: ﴿أَرَءَيْتَكُمْ﴾ وأخبروني ﴿إِنْ أَتَاكُمْ﴾ ونَزل عليكم ﴿عَذَابُ ٱللَّهِ﴾ في هذه الدُّنيا ﴿بَغْتَةً﴾ وبغَير سَبق أمارة تدُلّكم علىٰ إتيانه ـ وقيل: يعني: ليلاً[3] ـ ﴿أَوْ جَهْرَةً﴾ ومَع سِبق الأمارة عليه ـ وقيل: يعني: نهاراً[4] ـ ماذا يكون حالُكم؟

ثمَ بيّن الحال بقوله: ﴿هَلْ يُهْلَكُ﴾ به هَلاك السُّخط والأبد ﴿إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّالِمُونَ﴾ على أنفسهم بالشِّرك والمَعاصي، وأنتُم هُم.

عن القُمي ﷺ: نزلَت لمّا هاجر رَسُول الله ﷺ إلىٰ المدينة، وأصاب أصحابه الجَهد والعِلَل

---

١. تفسير الرازي ١٢: ٢٢٧.
٢. تفسير القمي ١: ٢٠١، تفسير الصافي ١: ١٢١.
٣ و ٤. تفسير الرازي ١٢: ٢٢٨، تفسير أبي السعود ٣: ١٣٥.

والمَرض فشكَوا ذلك إليه، يعني لا يُصيبكم[١] إلّا الجَهد والضّرَ في الدُّنيا، فأمّا العَذاب الأليم الذي فيه الهَلاك، فلا يُصيب إلّا القوم الظالمين[٢].

وعن الصادق عليه السلام: «يُؤخذ بنو اُميّة بَغتةً، وبنو العبّاس جَهرةً»[٣].

وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَاتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ[٤٨ و ٤٩]

ثمّ لمّا كان المُشركون يُعارضون النبيّ صلى الله عليه وآله باقتِراحهم، كما حكىٰ الله عنهم قولهم: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِن رَبِّهِ﴾، ويقدَحون في نُبوّته بعدَم إجابة مَسؤولهم، رَدّهم الله بقوله: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ لأن يُقتَرح عليهم المُعجزات، فإنّها بيد الله يُظهرها علىٰ مُقتضىٰ حِكمته، بَل ليسَ الغَرض مِن إرسالهم ﴿إِلَّا﴾ أن يكونوا ﴿مُبَشِّرِينَ﴾ للنّاس بالجنّة والمَغفرة علىٰ الإيمان والعمَل الصّالح ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ لهم بالعذاب علىٰ الكُفر والعِصيان.

هذه وظيفة الرّسُول وشأن الرّسالة، وأمّا النّاس ﴿فَمَنْ ءَامَنَ﴾ بما يجب الإيمان به ﴿وَأَصْلَحَ﴾ عمَله وأخلاقه ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ مِن الهَلاك والعَذاب ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ في الآخرة علىٰ ما فاتهم مِن الدُّنيا، وما لَم ينالوا مِن أعلىٰ الدّرجات في الجنة ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَاتِنَا﴾ وأنكروا بَراهين التّوحيد ومُعجزات الأنبياء ﴿يَمَسُّهُمُ﴾ ويُصيبهم ﴿ٱلْعَذَابُ﴾ الشّديد في الآخرة ﴿بِمَا كَانُوا﴾ في الدُّنيا ﴿يَفْسُقُونَ﴾ مِن الشِّرك والتّمرُّد عن طَاعة الله ورَسُوله.

قُل لَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَائِنُ ٱللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ[٥٠]

ثمّ أمر النبيّ صلى الله عليه وآله بالجواب عن اقتِراحاتهم بقوله: ﴿قُل لَا أَقُولُ لَكُمْ﴾ وما أدّعي أنّ ﴿عِندِى خَزَائِنُ ٱللَّهِ﴾ أن لي قُدرته الكاملة علىٰ إيجاد المُمكنات والتّصرُّف فيها كيف أشاء، حتّىٰ تقترحوا عَليّ إنزال الكِتاب مِن السّماء، أو قَلب الجِبال ذَهباً، أو غيرها ﴿وَلَا أَعْلَمُ﴾ بنفسي ﴿ٱلْغَيْبَ﴾ الذي خَصّ ذاته المُقدّسة به حتّىٰ تسألوني عن وَقت السّاعة، أو وقت نُزول العَذاب، أو نحوهما ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى

---

١. في المصدر: فشكوا ذلك الى رسول الله صلى الله عليه وآله، فأنزل الله عزّ وجلّ ﴿قل﴾ لهم يا محمّد: ﴿أرأيتم... الظالمون﴾ أي أنهم لا يُصيبهم. ٢. تفسير القمي ١: ٢٠١، تفسير الصافي ٢: ١٢١.

٣. تفسير العياشي ٢: ١٤١٩/٩٨، تفسير الصافي ٢: ١٢١.

مَلَكٌ﴾ مِن المَلائكة حتّىٰ تُكلّفوني الرُّقِيّ إلىٰ السّماء، أو تتوقّعوا مِنّي أن لا آكل الطّعام ولا أمشي بين النّاس.

قيل: إنّ المُشركين قالوا: إن كُنت رَسُولاً مِن عندِ الله فاطلُب مِن الله أن يُوسّع علينا مَنافع الدُّنيا وخَيراتها، ويفتّح علينا أبواب السّعادات[1]. وكانوا يقولون: إن كُنت رَسولاً فأخبِرنا عمّا يقَع في المُستقبل مِن المَصالح والمَضارّ، حتّىٰ نستعدّ لتحصيل تِلك المَصالح، ولدَفع المَضارّ[2]. وكانوا يقولون: ما لهذا الرّسُول يأكُل الطّعام[3].

وقيل: إنّ المَقصود مِن القضية التّبرّي مِن دَعوىٰ الأُلوهيّة[4].

ثمّ أنه ﷺ بعدَ التّبرّي عن الدّعاوىٰ الثّلاث، أثبت لنفسه النُّبوّة التي هِي أعلىٰ الكمَالات البَشريّة، وامتيازه عن سائر النّاس بمَنْصِب الرّسالة، بقوله: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ﴾ في قولي وعَملي ﴿إِلَّا مَايُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ مِن ربّي، دُون رأيي واجْتِهادي، ولا أُؤدّي إليكم إلّا مِن قِبَل الله تعالىٰ. وهي مِن الكَمالات المُمكنة للبشَر، لا مَجال لاسْتِبعاد ثُبوتها له، فضلاً عن الجَزم بعدَمها.

عن الرضا عليه السلام، أنّه سُئل يوماً وقد آجتمع عنده قومٌ مِن أصحابه، وقد كانوا تنازعوا في الحَديثَين المُختلفين عن رَسُول الله ﷺ في الشيء الواحد، فقال عليه السلام «إنّ الله عزّ وجلّ حرّم حراماً وأحلّ حلالاً وفرَض فرائض، فما جاء في تَحليل ما حرّم الله، أو تَحريم ما أحلّ الله، أو رَفع فريضة في كِتاب الله رَسْمها [بيّن] قائم بلا نَاسخ[5] نسَخَ ذلك، فذلك شيءٌ لا يسَع الأخذ به؛ لأنّ رَسُول الله ﷺ لَم يكُن ليُحرّم ما أحلّ الله، ولا ليُحلّ ما حرّم الله، ولا ليُغيّر فَرائض الله وأحكامة، وكان في ذلك كُلّه مُتبِعاً مُسلِّماً مُؤدِّياً عن الله عزّ وجلّ، وذلك قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَايُوحَىٰ إِلَيَّ﴾، فكان عليه السلام مُتبِعاً لله مُؤدِّياً عن الله ما أُمر به مِن تَبليغ الرّسالة»[6].

ثمّ أكّد عدَم تَساويه لسائر النّاس بوجود مَلاك الرّسالة فيه مِن البَصارة في قَلبه، ومعرفته الكاملة بالله بقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ والجَاهل والعالِم بالله وبحَقائق الأُمور، والضَالّ والمُهتدي إلىٰ الحقّ وإلىٰ كُلّ خَير، لا يستوون عندَ الله ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ قيل: إنّ التّقدير: ألا تسمَعون كَلامي الحقّ فتتفكّرون فيه[7] حتّىٰ تعرِفوا الفَرق بين الأُلوهيّة، والنّبوّة، والبشَريّة، وبين الجاهل بكُلّ شيء والعالِم بجَميع الأشياء.

---

١ ـ ٣. تفسير الرازي ١٢: ٢٣٠.
٤. تفسير البيضاوي ١: ٣٠٢.
٥. في النسخة: نسخ.
٦. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٢٠/٤٥، تفسير الصافي ٢: ١٢٢.
٧. تفسير أبي السعود ٣: ١٣٧، تفسير روح البيان ٣: ٣٤.

وَأَنْذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ[٥١]

ثمّ أمره الله سُبحانه بإنذار النّاس علىٰ حسَب وَظيفة الرّسالة بقوله: ﴿وَأَنْذِرِ﴾ بالقرآن أو بما يُوحىٰ إليك، وخوّف ﴿بِهِ﴾ مِن عِقاب الله ﴿ٱلَّذِينِ﴾ يعتقدون بالمَعاد كالمُؤمنين وأهل الكِتاب، والذين يتردّدون فيه من أهل الشِّرك ﴿يَخَافُونَ﴾ مِن ﴿أَن﴾ يُحيَوا، و ﴿يُحْشَرُوا﴾ مِن قُبورهم، ويُساقوا ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ وحُكمه لجَزاء أعمالهم، في حَالِ ﴿لَيْسَ لَهُم مِن دُونِهِ﴾ ومِمّن سِواه ﴿وَلِيٌّ﴾ وناصر يدفَع عنهم العذَاب بالقُوّة والقَهر ﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾ يشفَع لهم في أن يُعفىٰ عن عُقوبتهم ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ ولأجل أنّهم ﴿يَتَّقُونَ﴾ ويحترِزون عن العقائد الفاسدة والأعمال السّيّئة، ويتوبون مِن ذنوبهم المُوبقة.

عن ابن عبّاس رضي الله عنه، قال: معناه: إنذارهم لكي يخافوا في الدُّنيا، وينتَهوا عن الكُفر والمَعاصي[١].

وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِن شَيْءٍ وَمَا مِن حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّالِمِينَ[٥٢]

ثمّ لمّا بيّن سُبحانه مَهانة المُشركين عندَه واستِحقاقهم عذابه، نهىٰ نبيّه صلى الله عليه وآله عن إهانة المُؤمنين وتَبعيدهم عن مَجلسه بقوله: ﴿وَلَا تَطْرُدَ﴾ ولا تُبعد عن مَحضرك المُؤمنين ﴿ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ ويعبُدون ﴿رَبَّهُم﴾ ويُصلّون ﴿بِالْغَدَاةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ صلاة الصُّبح والعَصر، أو يذكرونه في كُلّ حال، وهُم ﴿يُرِيدُونَ﴾ بعِبادَتهم ودُعائهم وذِكرهم ﴿وَجْهَهُ﴾ ومَرضاته، لا الرِّياء والسُّمعة وسائر الأعراض الدُّنيويّة.

ثم أكّد النّهي ببَيان عدَم العِلّة لطَردهم بقوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِن شَيْءٍ﴾ حتّىٰ تَملّهم.

قيل: إنّ المُشركين قالوا: يا محمّد، إنّهم اجْتمعوا عندَك وقبِلوا دِينك لأنّهم يجِدون بهذا السّبب مأكولاً ومَلبوساً عندَك، وإلّا فهُم فارغون عن دِينك[٢].

فقال الله: ليسَ عليك ضَرر عقائدهم الباطنية، وأعمالهم السيّئة الخَفيّة حتّى تستحقهرهم، وتطعَن في إيمانهم فيسُوغ لك طَردهم، وإنّما عليك الاعتبار بظاهِر حالهم وهُو اتّسامهم بسمة المُتّقين ﴿وَمَا مِن حِسَابِكَ﴾ وجَزاء أعمالك ﴿عَلَيْهِم﴾ وبيَدهم ﴿مِن شَيءٍ﴾ حتّىٰ تخافهم وتتنفّر مِنهم.

---

١. تفسير الرازي ١٢: ٢٣٣.
٢. تفسير الرازي ١٢: ٢٣٦، تفسير روح البيان ٣: ٣٦.

وقيل: إنّ المعنى: أنّ ضَرَر أعمالهم لا يرجع إليك، كما أن ضَرَر أعمالك لا يعود إليهم [١].

وقيل: إنّ رِزقهم ليسَ عليك، كما أنّ رِزقك ليس عليهم [٢] ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾ عنك، لذلك إذَن فلا تطرُدهم ﴿فَتَكُونَ﴾ بسَبب طَردهم ﴿مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ على نفسك بحِرمان الأجر، وعليهم بمَنعهم ممّا يستحقّون مِن مَزيد التقرّب والإلطاف.

في بيان حال أصحاب الصُفّة

عن القُمّي ﷺ قال: كا ن سَبب نُزولها أنّه كان بالمدينة قومٌ فُقراء مُؤمنون يُسمّون أصحاب الصُفّة [٣]، وكان رَسُول الله ﷺ أمرهم أن يكونوا في صُفّةٍ يأوون إليها، وكان رَسُول الله ﷺ يتَعاهدهم بنفسه، ورُبّما يحمل إليهم ما يأكُلون، وكانوا يختلفون إلىٰ رَسُول الله ﷺ فيُقرّبهم ويقعُد معهم ويُؤنسهم، وكان إذا جاء الأغنياء والمُترفون مِن أصحابه يُنكرون عليه ذلك ويقولون: اطرُدهم عنك، فجاء يوماً رَجلٌ مِن الأنصار إلىٰ رَسُول الله ﷺ وعنده رَجلٌ مِن أصحاب الصُفّة قد لزِق برَسُول الله ﷺ يُحدّثه، فقعَد الأنصاري بالبُعد مِنهما، فقال له رَسُول الله ﷺ: «تقدّم»، فلَم يفعل، فقال رَسُول الله ﷺ: «لعلّك خِفت أن يلزَق فَقرُه بك ؟!». فقال الأنصاري: اطرُد هؤلاء عنك. فأنزل الله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ الآية [٤].

وعن عبدالله بن مسعود، أنّه قال: مَرّ المَلأ مِن قُريش علىٰ رَسُول الله ﷺ وعندَه صُهيب وخَبّاب وبِلال وعمّار وغيرهم مِن ضُعفاء المُسلمين، فقالوا: يا محمّد، أرضِيت بهؤلاء عن قومك؟ أفنحنُ نكون تَبعاً لهؤلاء؟ فاطرُدهم عن نفسك، فلعلّك إن طرَدتهم اتّبعناك، فقال ﷺ: «ما أنا بطارد المُؤمنين»، فقالوا: فأقِمهُم عنّا إذا جئنا، فإذا قُمنا فاقعِدهم معك إن شئت، فقال: «نعَم» طمعاً في إيمانهم [٥].

ورُوي أنّ عُمر قال له: لَو فعلتَ حتّىٰ ننظُر إلىٰ ماذا يصيرون، ثم ألحَوا وقالوا للرَسُول ﷺ: اكتُب لنا بذلك كِتاباً، فدعا بالصَحيفة وبعليّ ﷺ ليكتُب، فنزلت هذه الآية، فرمىٰ الصَحيفة، وأعتذر عُمر عن مَقالته، فقال سلمان وخَبّاب: فينا نزلت، فكان رَسُول الله ﷺ يقعُد معنا وندنُو مِنه حتّىٰ تمَسّ رُكبتُنا رُكبته، وكان يقوم عنّا إذ أراد القِيام، فنزل قولهُ: ﴿واصبر﴾ [٦] الخبر.

وفي رِوايةٍ: أنّ رُؤساء قُريش قالوا لرَسُول الله ﷺ حين رأوا في مَجلسه [الشريف] فُقراء المُؤمنين مِثل [صُهيب و] عمّار وخبّاب وبِلال وسَلمان وغيرهم: لَو طردتَ هؤلاء الأعبُد وأرواح

---

١. تفسير روح البيان ٣: ٣٦.   ٢. تفسير الرازي ١٢: ٢٣٧.
٣. الصُفّة: وهو مكان مظلّل في مسجد المدينة يأوي إليه فقراء المهاجرين ويرعاهم الرسول ﷺ.
٤. تفسير القمي ١: ٢٠٢، تفسير الصافي ٢: ١٢٣.   ٥. تفسير الرازي ١٢: ٢٣٤.
٦. تفسير الرازي ١٢: ٢٣٤.

جِبابهم ـ وكان عليهم جِباب صُوف لا غير ـ لجالسناك وحادثناك، فقال ﷺ: «ما أنا بطارد المؤمنين»، فقالوا: فإذا نحنُ جِئناك فأقِمهم عنّا حتّىٰ يعرف العرَب فَضلَنا، فإنّ وُفود العرَب تأتيك فنستحي أن ترانا معَ هؤلاء، فإذا قُمنا عن مَجلسك فأقعدهم معك إن شئت، فهمّ ﷺ أن يفعل ذلك طمعاً في إيمانهم، فأنزل الله هذه الآية[1].

وقد غلط مَن استدلّ بالآية علىٰ عدَم عِصمة الأنبياء عليهم السلام.

وَكَذٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهٰؤُلَاءِ مَنَّ ٱللهُ عَلَيْهِم مِن بَيْنِنَا أَلَيْسَ ٱللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ[٥٣]

ثمّ بيّن سُبحانه أنّ فَقر المُؤمنين فتنة للأغنياء مِن المُشركين بقوله: ﴿وَكَذٰلِكَ﴾ الفِتن والابتِلاء ﴿فَتَنَّا﴾ وابتلينا ﴿بَعْضَهُم﴾ الأغنياء ﴿بِبَعْضٍ﴾ الفُقراء مِن المُؤمنين، بأن قدّمناهم وفضّلناهم معَ فَقرهم علىٰ أشراف قُريش في أمر الدِّين ﴿لِيَقُولُوا﴾ في العاقبة؛ لجَهلهم بمَناط الفَضل عند الله، مُشيرين إلى فُقراء المُؤمنين، مُحقّرين لهم: ﴿أَهٰؤُلَاءِ﴾ الفُقراء الأذِلّاء ﴿مَنَّ ٱللهُ﴾ وأنعم ﴿عَلَيْهِم﴾ بالهِداية والتّوفيق لإصابة الحقّ ﴿مِن بَيْنِنَا﴾ ونحنُ الأشراف والرُّؤساء.

قيل: إنّ رُؤساء الكُفّار وأغنياءهم كانوا يحسُدون فُقراء الصّحابة علىٰ كَونهم سابقين في الإسلام، مسارعين إلىٰ قبوله، فقالوا: لَو دخلنا في الإسلام لوجَب علينا أن ننقاد لهؤلاء المَساكين، وأن نعترف لهم بالتّبعيّة، فكان ذلك يشُقّ عليهم[2]. فردّهم الله بقوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ لنِعمة هِدايته، والتّوفيق للإيمان والعمَل الصّالح.

ففيه تَنبيهٌ علىٰ أنّ عِلّة تَقريبهم والإنعام عليهم شُكرهم لنِعمة الرّسُول والقُرآن، والتّسليم لحُكمهما، وهؤلاء المشركون بمعزِل مِن ذلك.

وَإِذَا جَاءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ[٥٤]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ النّهي عن إهانة المُؤمنين أمر نبيّه ﷺ بإكرامهم بقوله: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا﴾ ويُسلّمون لدَلائل توحيدنا وإعجاز كِتابنا ﴿فَقُلْ﴾ تكريماً لهم وتعطُّفاً بهم: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾

---

١. تفسير روح البيان ٣: ٣٦.
٢. تفسير الرازي ١٢: ٢٣٧.

مِن كُلّ آفةٍ ومكروهٍ جِسماني ورُوحاني.

ثمّ بشّرهم بأنّه ﴿كَتَبَ﴾ وحتَم ﴿رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ والتَفضُّل عليكم.

ثمّ فسّر ﴿أَنَّهُ﴾ رَحمته بقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ﴾ عملاً ﴿سُوءًا﴾ وارْتكب ذَنْباً كبيراً أو صغيراً ﴿بِجَهَالَةٍ﴾ وغَفلةٍ عن قُبحه وسُوء عاقبته ﴿ثُمَّ تَابَ﴾ وندِم علىٰ عمله ﴿مِن بَعْدِهِ﴾ وسأل الله العَفو عن عُقوبته ﴿وَأَصْلَحَ﴾ ما أفسده قبلَ أن يغفِر الله له ويرحمه ﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ﴾ للذُّنوب ﴿رَحِيمٌ﴾ بعِباده بإعطائهم الثّواب.

قيل: نزلت في أصحاب الصُّفَة الّذِين نهىٰ الله عن طردهم[١].

عن عِكرمة: كان النبيّ ﷺ إذا رآهم بدأهم بالسّلام ويقول: «الحمد لله الذي جعل في اُمتي من أمرني أن أبدأه بالسلام»[٢].

وعن ابن عبّاس رضي الله عنه: أنّ عُمر لمّا اعتذر مِن مَقالته وأستغفر الله مِنها، وقال للرّسُول ﷺ: ما أردتُ بذلك إلّا الخير، نزلت هذه الآية[٣].

وقيل: نزلت في قومٍ أقدموا على ذُنوب، ثمّ جاءوا النبيّ ﷺ مُظهرين للنّدامة، فنزلت الآية فيهم[٤].

عن (المجمع): عن الصادق عليه السلام: «أنّها نزلت في التّائبين»[٥].

وقيل: نزلت في حَمزة، وجَعفر، وعمّار، ومُصعَب بن عُمير، وغيرهم[٦].

وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ[٥٥]

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ التّفصيل والتّبيين الواضح لدَلائل التّوحيد والنُبوّة والوَعد والوَعيد ﴿نُفَصِّلُ ٱلْآيَاتِ﴾ ونُبيّن جميع ما يحتاج إليه النّاس مِن المَعارف والأحكام ليظهَر الحقّ كُلّه ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ وتظهَر لك ﴿سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ والمُشركين، وسَبيل المُؤمنين المُوحّدين، ويمتاز طَريقُهما.

قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ[٥٦]

ثمّ لمّا بيّن سُبحانه أنّ تفصيل الآيات لاسْتبانة سَبيل المُجرمين، نهىٰ النّاس عن سُلوك سبيلهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد لهؤلاء المُشركين: ﴿إِنِّى﴾ بحُكم عَقلي السّليم، ودَلالة الآيات والبَراهين علىٰ

---

١. تفسير الرازي ١٣: ٢، تفسير الصافي ٢: ١٢٤. ٢ ـ ٤. تفسير الرازي: ١٣: ٢.

٥ و٦. مجمع البيان ٤: ٤٧٦، تفسير الصافي ٢: ١٢٤.

التّوحيد ﴿نُهِيتُ﴾ ومُنِعتُ مِن قِبَل ربّي ﴿أَنْ أَعْبُدَ﴾ الأصنام ﴿ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ وتعبُدون ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وممّا سِواه ﴿قُل﴾ لهم قَطعاً لأطماعهم: إنّي ﴿لَآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ﴾ التي دَعتْكم إلىٰ عِبادة الأحجار والأخشاب وسائر ما عملته أيديكم، معَ وضُوح عدَم قابليّة شيءٍ مِنها لعِبادة الإنسان الذي هُو أشرف مِنها ومِن سائر المَوجودات، وعدَم الدّاعي إليها إلّا مَحْض الهوىٰ، بَل أتّبع عَقلي النّاهي عنها والحاكم بأنّ شيئاً ممّا سوىٰ الله لا يضُرّ ولا ينفع، فإن وافقتُكم في عِبادة الأصنام فإنّي ﴿قَدْ ضَلَلْتُ﴾ عن طَريق الحقّ والصّواب ﴿إِذاً﴾ كما ضلَلْتُم بحُكم العَقل الفِطري ﴿وَمَآ أَنَا مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ إلىٰ شيءٍ مِن خَير الدُّنيا والآخرة كما أنتم لا تهتدون إليه. قيل: إنّ كُفّار قُريش كانوا يدعُونه ﷺ إلىٰ دِينهم[١].

قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَاصِلِينَ[٥٧]

ثمّ لمّا تبرّأ عن الشّرك واتّباع الهَوىٰ، أمره سُبحانه بدَعوة النّاس إلىٰ اتّباع البُرهان بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد ﴿إِنِّى﴾ في ما أنا عليه مِن التوحيد والتّبرّي مِن الشّرك ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ عظيمة، وحُجّة واضحة كائنة ﴿مِن﴾ قِبَل ﴿رَّبِّى﴾ علىٰ توحيده وسائر مَعارفه وصفاته. وهِي كِتابه النّاطق بالحقّ، ﴿وَ﴾ أنتُم ﴿كَذَّبْتُم بِهِ﴾ وبما فيه مِن الآيات، فاستعدّوا للعَذاب الذي أوعده الله علىٰ الشّرك وتَكذيب القُرآن، ولا تطلُبوا مِنّي التّعجيل في نُزوله، فإنّه ﴿مَا عِندِى﴾ وليسَ بإرادتي ﴿مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ مِن العَذاب، ولا حُكم لي فيه ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ﴾ في تَعجيله وتأخيرهما مِن الأمور لأحدٍ ﴿إِلَّا لِلَّهِ﴾ وحدَه، وكُلّما يقُصّ ويُخبر بالعَذاب أو بغيره ﴿يَقُصُّ﴾ ويُخبِر ﴿ٱلْحَقَّ﴾ والصّدق لا خُلف فيه ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَاصِلِينَ﴾ والحاكمين بَين عِباده.

قيل: إنّ رُؤساء قُريش كانوا يستعجلون العَذاب ويقولون: متىٰ هذا الوعد؟ استِهزاءً وإلزاماً، حتّىٰ قام النّضر بن الحارث في الحطيم وقال: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[٢].

قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ[٥٨]

---

١. تفسير روح البيان ٣: ٤٠.

٢. تفسير روح البيان ٣: ٤١، والآية من سورة الأنفال: ٣٢/٨.

ثمَ أمره الله سُبحانه بتأكيد عدَم اختياره في تَعذيبهم بقوله: ﴿قُل﴾ لهم: ﴿لَوْ أَنَّ عِندِي﴾ وفي قُدرتي واختياري ﴿مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ مِن العَذاب بالله لعذَبتكم وأهلكتُكم عقيب اسْتِعجالكم غضباً لربّي، و﴿لَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ وانقطع التّنازُع والكلام ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ ولكِنّ الله لَم يكِل الأمر إليّ، بَل إلى إرادته وحِكمته ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ وبأحوالهم، وبصَلاح التّعجيل في تَعذيبهم، أو إمهالهم بطَريق الاستِدراج، ليكون عَذابهم أشدّ.

وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ[٥٩]

ثمَ لمّا أخبر سُبحانه بعِلْمه بأحوال الظّالمين، أخبر بعِلمه المُحيط بجميع المَوجودات بقوله: ﴿وَعِندَهُ﴾ تعالىٰ خاصّةً، وتحت قُدرته الكاملة ﴿مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ وخَزائنه.

وقيل: إنّ المُراد بالغَيب: جميع المُمكنات[١]، فإنّها مِن آثاره وصَنائعه، ولازم ذلك إحاطته بها وحُضورها عنده.

وقيل: إنّ المُراد بالمَفاتح: ما يتُوصَل به إلى مَعرفة المَوجودات، وهُو عِلَل وجُودها المُنتهية إلى ذاته المُقدّسة التي هِي عِلّة عِلَلها، والعِلم بالعِلّة مُستلزِم للعِلم بالمَعلولات[٢]، ولذا ﴿لَا يَعْلَمُهَا﴾ أحدٌ ﴿إِلَّا هُوَ﴾.

وقيل: إنّ المُراد بالغَيب: خُصوص ما غاب مِن الحَواسّ ممّا في عَوالِم المَلكوت والجَبروت[٣].

وقيل: إنّ المُراد: الخَمسة التي خصّ الله عِلمها بذاته المُقدّسة.

عن النبيّ ﷺ قال: «مَفاتِح الغيب خمسٌ لا يعلَمها إلّا الله: لا يعلَم ما في الأرحام إلّا الله، ولا يعلَم ما في الغَد إلّا الله، ولا يعلَم متىٰ يأتي المطر إلّا الله، ولا يعلَم بأيّ أرض تموتُ النّفس إلّا الله، ولا يعلَم متىٰ تقومُ السّاعةُ إلّا الله»[٤].

ثمَ أنّه تعالىٰ بعدَ التنبيه علىٰ عِلمه بجَميع المَوجودات، أو خُصوص ما غاب مِنها عن الحَواسّ، قرّر سَعَة عِلمه بجَميع المَحسوسات بقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ مِن الحَيوانات والنّباتات والجَمادات على اختِلاف أجناسها وأنواعها وأفرادها.

ثمَ أشار إلى عِلمه بأحوال الموجودات بقوله: ﴿وَمَا تَسْقُطُ﴾ علىٰ الأرض ﴿مِن وَرَقَةٍ﴾ مِن أوراق

---

١ ـ٤. تفسير الرازي ١٣: ٩.

٤. تفسير روح البيان ٣: ٤٢.

الأشجار ﴿إِلَّا﴾ وهُو ﴿يَعْلَمُهَا﴾ قيل: إنّ المُراد: أنّه تعالىٰ يعلَم عدَد أوراق الأشجار ثابتَها وساقطها[١] ﴿وَلَا حَبَّةٍ﴾ صَغيرة تكون ﴿فِى ظُلُمَاتِ ٱلْأَرْضِ﴾ وبُطونها وتُخومها إلّا يعلَمها.

ثمّ قرّر إحاطته بجميع ذرّات عالَم الأجساد بقوله: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾ مِن المَوجودات ﴿إِلَّا﴾ وهُو مَكتوب ﴿فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ واللّوح المَحفوظ.

في بيان فائدة كتابة الأشياء في اللوح المحفوظ

قيل: فائدةِ كِتابة الأشياء في اللّوح المَحفوظ، معَ أنّ الله مُنزّه عن الجَهل والنِّسيان، أن الحَوادث إذا كانت مُوافقة للمَكتوب ازْدادت الملائكة بذلك عِلماً ويقيناً بعَظيم صِفات الله واعترِض عليه بأنّ الملائكة ليستْ مِن أهل التَرقّي والتنزُّل، فقَصْر الفائدة علىٰ ذلك ممّا لا معنى له[٢].

وفيه: أنّ زِيادة المَعرفة حَظٌّ عظيم للمَلائكة، وإن لَم يحصُل لهم بذلك عُلوٌّ في المَقام، لكَون مَعرفتهم ضَرورية.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّاكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٦٠]

ثمّ بالغ سُبحانه في تَوضيح كَمال قُدرته وسَعة عِلمه بأحوال العباد بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّاكُم﴾ ويمنع أرواحكم عن التَصرُّف الكامل في أبدانكم ﴿بِٱلَّيْلِ﴾ ويجعَلكم فيها بالنوم كالميت، كما رُوي أنّ النَوم أخُ الموت[٣].

عن أمير المؤمنين صلَوات الله عليه: «يخرُج الرُّوح عندَ النَوم ويبقىٰ شُعاعُه في الجَسد، فبذلك يرى الرُّؤيا، فإذا انْتبه مِن النَوم عادت الرُّوح إلى الجسَد بأسرع مِن لَحظة»[٤].

﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم﴾ وكسبتُم بجَوارِكم مِن الحَسَنات والسَيئات ﴿بِٱلنَّهَارِ﴾ وفي تَخصيص النَوم بالليل والاكتساب بالنَهار جَرْيٌ علىٰ العَادة ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ﴾ ويُوقظكم ﴿فِيهِ﴾ مِن النَوم معَ عِلمه بما يصدُر عنكم مِن السيِّئات ليُمهلكم و﴿لِيُقْضَىٰٓ﴾ وينقضي ﴿أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ وتَستوفوا مُدّة حَياتكم المُقدَّرة في الدُّنيا.

عن القُمي ﷺ: عن الباقر ﷺ، في قوله: ﴿لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ قال: «هُو الموت»[٥].

﴿ثُمَّ إِلَيْهِ﴾ بالمَوت ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ لمُجازاة أعمالكم ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم﴾ ويُخبركم ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾ في

---

١. تفسير الرازي ١٢: ٢٣٤.
٢. تفسير روح البيان ٣: ٤٣.
٣ و ٥. تفسير روح البيان ٣: ٤٤.
٥. تفسير القمي ١: ٢٠٣، تفسير الصافي ٢: ١٢٦.

الدُّنيا ﴿تَعْمَلُونَ﴾ بالثّواب على الطّاعة، والعِقاب على المعصية.

وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَايُفَرِّطُونَ * ثُمَّ رُدُّوا إِلَى ٱللهِ مَوْلَاهُمُ ٱلْحَقِّ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَاسِبِينَ[٦١ و ٦٢]

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ﴾ والمُستولي ﴿فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ والمُقتدر عليهم، والمُتصرّف فيهم كيف يشاء تصحيحاً وتَسقيماً، وإحياءً وإماتةً، وتَعذيباً وإثابةً، ﴿وَ﴾مِن قهاريّته أنّه ﴿يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ﴾ أيُّها النّاس مَلائكة ﴿حَفَظَةً﴾ يحفَظونكم مِن الآفات والعَاهات والبَليّات، ويَحْفظون أعمالكم.

في كتابة الملائكة أعمال النّاس وبيان حكمتها

عن أمير المُؤمنين صلوات الله عليه، في تفسير (المُعقّبات): «أنّهم مَلائكة يَحْفَظونه مِن المَهالك حتّى ينتهوا [به] إلى المقادير فيُخَلُّون[1] بينه وبين المَقادير»[2].

عن ابن عبّاس رضي الله عنه: أنّ معَ كُلّ إنسان مَلَكين؛ أحدُهما عن يَمينه، والآخر عن يَساره، فإذا تكلّم الإنسان بحسَنة كتَبها مَن على اليَمين، وإذا تكلّم بسيّئة قال مَن على اليَمين لمَن على اليَسار: انتظِره لعلّه يتُوب مِنها، فإن لَم يتُب كتَب عليه[3].

ورُوي أنّ على كُلّ واحدٍ مَلَكين باللّيل، ومَلَكين بالنّهار، يكتُب أحدُهما الحسَنات والآخر السّيئات، وصاحبُ اليَمين أميرٌ على [صاحب] الشِّمال، فإذا عمِل العبدُ حسنةً كُتبت له بعَشر أمثالها، وإذا عمِل سيّئةً فأراد صاحبُ الشِّمال أن يكتُب قال له صاحبُ اليَمين: أمسِك، فيُمسِك عنه سِتّ ساعات أو سَبع ساعات، فإن هُوَ آستغفر الله لَم يكتُب عليه، وإن لَم يستغفِر كتَب سيئةً واحدة[4].

قيل: إنّ العبد إذا همّ بحسنة فاحَ مِن فيه رائحةُ المِسْك، فيعلَمون بهذه العَلامة فيكتُبونها، وإذا همّ بسيّئة فاحَ مِن فيه رائحةُ النّتْن[5].

قيل: إنّ الحِكمة في كِتابة الأعمال أنّ المُكلّف إذا عَلِم أنّ أعماله تُكتب عليه وتُعرض على رؤوس الأشهاد كان أزجر عن المَعاصي، وإنّ العبدَ إذا وثِق بلطف سيّده واعْتمد على عَفوه وسَتره، لَم يحتشِم مِنه احْتِشامه مِن خَدَمه المُطّلعين عليه[6].

ثمّ بيّن أنّ حِفظ الأعمال يكون مُستمرّاً ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ وانْتهت مُدّة حيَاتكم ﴿تَوَفَّتْهُ﴾ وقبَضت رُوحه ﴿رُسُلُنَا﴾ المأمورون بقَبض الأرواح، وهُم عزرائيل وأعوانه ﴿ وَهُمْ لَا

---

١. في مجمع البيان: فيحيلون.
٢. مجمع البيان ٦: ٤٣١.
٣. تفسير الرازي ١٣: ١٤.
٤. تفسير روح البيان ٣: ٤٥.
٥. تفسير روح البيان ٣: ٤٥.
٦. تفسير البيضاوي ١: ٣٠٥.

﴿يُفَرِّطُونَ﴾ ولايقصّرون في ما يُؤمرون، ولا يُؤخّرونه طَرفة عين ﴿ثُمَّ﴾ إنّهم بعدَ المَوت ﴿رُدُّوا﴾ وأُرجِعوا ﴿إِلَى اللهِ﴾ الذي هُو ﴿مَوْلاهُمُ﴾ ومالكهم المُتولّي لاُمورهم، وهُو ﴿الحَقِّ﴾ الثّابت، أو العَدلُ في حُكمه وقَضائه ﴿أَلَا﴾ تنبّهوا أنّ ﴿لَهُ الْحُكْمُ﴾ بيْن عِباده في ذلك اليوم لا لغيره، يحكُم للمُطيع بالثواب وللعاصي بالعِقاب ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾.

في الاعتِقادات: أنّ الله تعالىٰ يُخاطب عِباده مِن الأوّلين والآخرين يومَ القِيامة بمُجمل[1] حِساب عمَلهم مُخاطبةً واحدة، يسمَع مِنها كُلُّ واحدٍ قضيّته دُون غيره[2]، ويظُنّ أنّه المُخاطب دُون غيره، لا يشغَله عزّ وجلّ مُخاطبة عن مخاطبة، ويفرَغ مِن حِساب الأوّلين في مِقدار نِصف ساعة مِن ساعات الدُّنيا[3].

قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِن هٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُم مِنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ[٦٣ و ٦٤]

ثمّ لمّا أستدلّ سُبحانه بسَعَة عِلمه بجميع ما في البَرّ والبَحر مِن المَوجودات وأحوالها علىٰ تَوحيده، استدلّ عليه بكَمال قُدرته علىٰ إنجاء مَن في البَرّ والبَحر مِن مَهالكهما، وغاية رأفته بعِباده، بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد، للمُشركين: ﴿مَن يُنَجِّيكُم﴾ ويُخلّصكم ﴿مِن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ والمهالك والأهوال التي تتّفق لكم فيهما في أسفاركم؛ بحيث يُظلِم عليكم طريقُ الخَلاص مِنها.

وقيل: إنّ المُراد مِن الظُّلمات: ظُلمة اللّيل، وظُلمة السَّحاب، وظُلمة الرِّياح الشديدة، وظُلمة الأمواج الهائلة[4].

وممّن ترجُون النجاة بمقتضىٰ العَقل السّليم والفِطرة الأصليّة، ومَن ﴿تَدْعُونَهُ﴾ بخُلوص النيّة، وتسألونه ﴿تَضَرُّعاً﴾ باللِّسان ﴿وَخُفْيَةً﴾ وفي السِّر، وتلتزمون بالقِيام بوَظائف عُبوديّته، وتقولون: بالله ﴿لَئِنْ أَنْجَانَا مِن هٰذِهِ﴾ المَهالك والشدائد ﴿لَنَكُونَنَّ﴾ البتة بعدَ النَّجاة مِنهما ﴿مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ لنِعمته، المُطيعين لأوامره، والثّابتين علىٰ عُبوديّته، فإن مَنعهم العِنادُ والعَصبيّة مِن الاعتِراف بمُنجيهم، معَ وُضوحه عندَهم، فلا تنتظِر لجَوابهم، و﴿قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُم مِنْهَا﴾ بفَضله، بَل ﴿وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾ وغمّ شديد ينزِل بكم ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ﴾ بعدَ مُشاهدة النِّعمة واطْمِئنانكم بالنَّجاة تنقُضون العَهد ولا

---

١. في النسخة: بمحلّ. ٢. في المصدر: غيرها. ٣. الاعتقادات للصدوق: ٧٥، تفسير الصافي ٢: ١٢٧.
٤. تفسير الرازي ١٣: ٢١.

تشكرونه، بَل تكفُرونه بأن ﴿تُشْرِكُونَ﴾ غيره في الألوهيّة والعِبادة، وهذا مِن أقبح القبائح.

قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُـذِيقَ بَـعْضَكُم بَأْسَ بَـعْضٍ ٱنـظُرْ كَـيْفَ نُـصَرِّفُ ٱلآيَـاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ[٦٥]

ثمّ أمر نبيّه ﷺ بتَهديدهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ لهم: لا تأمنوا بعدَ النّجاة مِن عَذاب الله، فإنّه ﴿هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ﴾ لأجل إشراككم وكُفرانكم ﴿عَذَاباً﴾ عظيماً نازلاً ﴿مِن فَوْقِكُمْ﴾ مِن المَطر، والطُّوفان، والصّاعقة، والحِجارة، والرِّياح الهائلة والصَّيحة، كما فعل بقوم نُوح وقوم لُوط وأصحاب الفيل، ﴿أَوْ﴾ ظاهراً ﴿مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ ومِن أسفل مِنكم كالغَرَق، والخَسْف، والرَّجفة، كما فعل بفِرعون وقومه، وقارون، وأصحاب الأيكة ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ﴾ ويخلِطكم ﴿شِيَعاً﴾ وفِرقاً مُتخالفين بالأهواء والمَذاهب، بحيث يشِبّ بينكم الحَرب ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ ويقتُل بعضُكم بعضاً.

عن القُميّ رحمه الله: عن الباقر عليه السلام: «﴿عَذَاباً مِن فَوْقِكُمْ﴾ هُو الدُّخان والصَّيحة ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ هُو الخَسف ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً﴾ هُو الاختِلاف في الدِّين، وطَعن بعَضِكم علىٰ بعضٍ ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ هُو أن يقتُل بعضُكم بعضاً، وكُلّ هذا في أهل القِبلة» الخبر[1].

وفي (المجمع): عن الصادق عليه السلام: «﴿مِن فَوْقِكُمْ﴾ مِن السّلاطين الظَّلَمة، ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ العَبيد السُّوء، ومَن لا خير فيه ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً﴾ يضرِب بعضكم ببعضٍ بما يُلقيه بينكم مِن العَداوة والعصبيّة ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ هُو سُوء الجِوار»[2].

وعن ابن عبّاس رضي الله عنه، قال: ﴿عَذَاباً مِن فَوْقِكُمْ﴾ أي مِن الأمراء، ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ أي مِن العَبيد والسَّفِلة[3].

عن ابن عبّاس: لمّا نزل جَبْرئيل بهذه الآية شَقّ ذلك على الرَسُول ﷺ وقال: «ما بقاء أُمّتي إن عوملوا بذلك!» فقال له جَبرئيل: إنّما أنا عبدٌ مِثلك، فادْعُ ربّك لأُمّتك، فسأل ربّه أن لا يفعل بهم ذلك، فقال جَبْرئيل: إنّ الله قد أمّنهم مِن خَصْلتين: أن لا يبعَث عليهم عذاباً مِن فوقهم كما بعثَه على قوم نُوحٍ ولُوط، ولا مِن تحت أرجُلهم كما خسَف بقارون، ولَم يُجِرهم مِن أن يُلبسهم شِيعاً بالأهواء

---

١. تفسير القمي ١: ٢٠٤، تفسير الصافي ٢: ١٢٧.
٢. مجمع البيان ٤: ٤٨٧، تفسير الصافي ٢: ١٢٧.
٣ و٢. تفسير الرازي ١٣: ٢٢.

المُختلفة، ويُذيق بعضَهم بأس بعضٍ بالسّيف»[١].

وعن النبيّ ﷺ: «سألتُ ربّي أن لا يُظهر علىٰ أمّتي أهلَ دِينٍ غيرَهم فأعطاني، وسألته أن لا يُهلكهم جَوعاً فأعطاني، وسألته أن لا يجمَعهم علىٰ ضَلالٍ فأعطاني، وسألته أن لا يَلبسهم شِيعاً فمنعني»[٢].

ثمّ بيّن سُبحانه أنّ مَحلَ التّعجّب عدَم تأثُر المُشركين بالآيات، بقوله: ﴿ٱنظُرْ﴾ يا محمّد، وتعجّب أنا ﴿كَيْفَ نُصَرِّفُ﴾ ونُبيّن ﴿ٱلْآيَاتِ﴾ والدّلائل على التّوحيد والوَعيد ببَيانات مُختلفة ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ ولأجل أنّهم ﴿يَفْقَهُونَ﴾ الآيات ويفهمونها فيرجِعوا عمّا هُم عليه مِن الكُفر والعِناد، وهُم لا يتأثّرون بها، ولا يرتدِعون مِن عقائدهم الباطلة وأهوائهم الزّائغة.

وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ * لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ[٦٦ و ٦٧]

ثمّ ذمّ الله المُشركين بتكذيبهم ما وَعَدهم مِن العَذاب أو القُرآن بقوله: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ﴾ المُشركون المُصرّون علىٰ الشِّقاق، ﴿وَ﴾ الحَال أنّ العَذاب ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ الواقع، أو القُرآن هُو الصِّدق الثّابت ﴿قُل﴾ لهم: إنّي ﴿لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ وحَفيظ مِن الكُفر والضّلال بالقَهر، حتّى أمنعكم مِن التّكذيب، وأجبُركم على التّصديق، وإنّما عليّ تبليغ وَعد الله المُشركين بالعَذاب، وقد بلّغتُ، و﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ﴾ وخبرٍ مِن أخبار الله ﴿مُّسْتَقَرٌّ﴾ ووقت وُقوع يقَع فيه من غير خُلف وتأخير ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ صِدق خبره ووَعيده عندَ وُقوعه في الدُّنيا، أو في الآخرة، أو فيهما.

وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ * وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ[٦٨ و ٦٩]

ثمّ أمر الله سُبحانه نبيّه ﷺ بالإعراض عن مَجلس المُكذّبين إذا أضافوا إلى تَكذيبهم الاستِهزاء بالآيات، بقوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ﴾ المُكذّبين ﴿ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ﴾ ويشرَعون في الطّعن ﴿فِىٓ ءَايَاتِنَا﴾ ويستهزئون بها ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ واخرُج مِن مَجلسهم، واستمرّ على مُفارقتهم ﴿حَتَّىٰ﴾ ينصِرفوا

---

٢. مجمع البيان ٤: ٤٨٧، تفسير الصافي ٢: ١٢٨.

عن الاستِهزاء بالآيات، و﴿يَخُوضُوا﴾ ويشرَعوا ﴿فِي حَدِيثٍ﴾ وكلام ﴿غَيْرِهِ﴾.

قيل: إنّ الخِطاب للنبيّ ﷺ، والمُراد غيرهُ[١]، وقيل: الخطاب لغيرِه، والمُراد: إذا رأيتَ أيُّها السّامع[٢].

نُقِل أنّ المُشركين كانوا إذا جالسوا المُؤمنين وقَعوا في رَسُول الله ﷺ وفي القُرآن فشتَموا واستَهزءوا، فأمرهم الله أن لا يقعُدوا معهم حتّىٰ يشتغِلوا بحَديث غيره[٣].

ثمَ عذَرهم في حال النِّسيان بقوله: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَانُ﴾ أمرنا بتَرك مُجالستهم وقعَدتَ معهم، فلا بأس عليك إذَن ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ والالْتِفات إلى أمرنا ﴿مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ﴾ حيث وضعوا التّكذيب والاستِهزاء مَوضع التّصديق والاستِعظام، أو على أنفسهم بذلك.

عن ابن عبّاس ﵁، قال المُسلمون: لئن كُنّا كُلّما استهزأ المُشركون بالقُرآن وخاضوا فيه قُمنا عنهم، لَمَا قدَرنا على أن نجلُس في المَسجد الحَرام، وأن نطُوف بالبيت[٤]؛ لأنّهم يخوضون أبداً.

فرخّص الله المُؤمنين في مُجالستهم عندَ ذلك معَ الوَعظ والتّذكير بقوله: ﴿وَمَا عَلَى﴾ المُؤمنين ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ ويجتنِبون قبائح أعمال الخائضين وأقوالهم ﴿مِنْ حِسَابِهِم﴾ وجُرمهم ﴿مِن شَيْءٍ﴾ يَسير ﴿وَلَٰكِن﴾ عليهم ﴿ذِكْرَىٰ﴾ هُم ووعظهم والتّنبيه علىٰ قبائح أعمالهم وأقوالهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الخَوض حياءً، أو كراهةً لمساءتهم.

وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ[٧٠]

ثمّ أكّد الله سُبحانه أمره بالإعراض عن المُستهزئين بقوله: ﴿وَذَرِ﴾ المُشركين ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً﴾ وسُخريةً وهُزُواً بآيات الله، أو جعَلوا دينهم اتّباع الهَوىٰ والشّهوات بعبادتهم الأصنام، أو جعَلوا عِيدَهم ـ الذي هُو يوم العِبادة ـ يومَ لَعِبهم ولَهوهم، كما عن ابن عبّاس ﵁[٥].

﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا﴾ وألهتْهم شَهواتُها عن التّفكُّر في عاقبة أمرهم، وأعرض عن مُجالستهم ومُلاطفتهم، ولا تشغَل قَلبك بهمّهم، ولا تُبال بتَكذيبهم، بَل أنذِرْهم بالقُرآن ﴿وَذَكِّرْ﴾ هُم ﴿بِهِ﴾ مَخافَة ﴿أَن تُبْسَلَ﴾ وتُسلَم ﴿نَفْسٌ﴾ إلى الهَلاك والعَذاب ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ وعمِلت مِن القبائح

---

١. تفسير الرازي ١٣: ٢٤.
٢ و٣. تفسير الرازي ١٣: ٢٥.
٤. تفسير الرازي ١٣: ٢٦.
٥. تفسير الرازي ١٣: ٢٧.

والسّيئات.

وعن ابن عبّاس رضي الله عنه: أي ترتهن في جهنّم بما كسَبت في الدُّنيا[1].

والحالُ أنّ النّفس ﴿لَيْسَ لَهَا﴾ عندَ ابْتِلائها بالعَذاب ﴿مِن دُونِ ٱللهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ يدفَعه عنها ﴿وَإِن تَعْدِلْ﴾ تِلك النّفس وتَفدِ ممّا في الأرض ﴿كُلَّ عَدْلٍ﴾ وفِداء، لا يُقبَل و﴿لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا﴾ ذلك الفِداء، فجميع طُرق الخَلاص مُنسدة عليها.

ثمّ أثبت الإبسال والتّسليم للعَذاب علىٰ المُستهزئين بقوله: ﴿أُولَـٰئِكَ﴾ اللاعبون اللاهون المَغرُورون بالدُّنيا هُم ﴿ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا﴾ وسُلّموا إلى ملائكة العَذاب ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ وحصّلوا لأنفسهم مِن العقائد والأعمال.

ثمّ كأنّه قيل: ما يكون له إذا سُلّموا الى العَذاب أو إلى ملائكته؟ فأجاب بقوله: ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ﴾ ماء ﴿حَمِيمٍ﴾ مَغليّ يتجرْجَر في بُطونهم، وتتقطّع به أمعاؤهم ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بنار تشتعِل بها أبدانُهم ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ بالله وبآياته.

قُلْ أَنَدْعُوا مِن دُونِ ٱللهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا ٱللهُ كَالَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَاطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ * وَأَنْ أَقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ وَٱتَّقُوهُ وَهُوَ ٱلَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ[٧١ و ٧٢]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ بَيان إصرار المُشركين علىٰ شِركهم، وتَكذيبهم بالقُرآن النّاطق بالتّوحيد، واستِهزائهم بآياته، أمر نبيّه صلى الله عليه وآله بتَوضيح بُطلان دِينهم، وأنّه مِمّا يُنكِره العَقلُ بقوله: ﴿قُلْ﴾ لهم إنكاراً على نفسك، وعلىٰ كُلّ عاقل: ﴿أَنَدْعُوا﴾ ونعبُد ﴿مِن دُونِ ٱللهِ﴾ القادر علىٰ كُلّ نَفع وضَرٍّ ﴿مَا لَا يَنفَعُنَا﴾ شيئاً إن عَبدناه ﴿وَلَا يَضُرُّنَا﴾ إن ترَكناه ﴿وَ﴾ هَل ﴿نُرَدُّ﴾ ونرجِع مِن مَقام العِلم وكمال العَقل، ومِلّة التّوحيد ودِين الإسلام ﴿عَلَى أَعْقَابِنَا﴾ وجَهلنا الذّاتي وضَلالنا الجِبلّي الباعثين الى الإشراك ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَانَا ٱللهُ﴾ وأرشدنا بوَساطة العقل السّليم، ودَلالة الآيات، ومُساعدة توفيقه إلى التّوحيد ودِين الإسلام، إذَن نكون ﴿كَالَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ﴾ وذهبَتْ به ﴿ٱلشَّيَاطِينُ﴾ ومرَدة الجِنّ والغِيلان، وأضلّته ﴿فِى﴾ مَفاوز ﴿ٱلْأَرْضِ﴾.

قيل: إنّه مَبنيّ علىٰ ما زعَمتْه العَرب مِن أنّ الغِيلان تستهوي الانسان[2]، وقيل: إنّ المعنىٰ: كالذي

---

١. تفسير الرازي ١٣: ٢٨.

٢. تفسير الصافي ٢: ١٣٠.

ألقته الشَياطين في وهْدة عَميقة في الأرض،[1] حالَ كَونه ﴿حَيْرَانَ﴾ لا يدري ما يصنَع، ولا يهتدي إلىٰ طَريق السَلامة والنَجاة، وفي تِلك الحَالة يكون ﴿لَهُ أَصْحَابٌ﴾ ورُفقاء ﴿يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى﴾ ويَهدونه إلى الطَريق المُستقيم قائلين له: ﴿ائْتِنَا﴾ وتعال إلينا حتّىٰ نُوصِلك إلى المأمن والمقصود، وهُو لا يُجيبهم ولا يترُك مُتابعة الغِيلان فيهلَك ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ﴾ والدِّين الحقّ الذي أرشدنا إليه وأمرنا باتِّباعه ﴿هُوَ﴾ وحَده ﴿ الْهُدَىٰ﴾ المَحْض، وما سِواه هُو الضَلال البَحْت.

ثمَ شرَح الدِّين الذي هُو هُدىٰ الله بقوله: ﴿وَأُمِرْنَا﴾ وأُلزمنا بحُكم عُقولنا ﴿لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ونَنقاد لإرادته وحُكمه، وهذا رأس الأعمال القَلبيّة، ﴿وَ﴾ أُمرنا أيضاً ﴿أَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ التي هِي رأس الطّاعات الجَوارحيّة، وأفضل الواجِبات البَدنيّة ﴿وَاتَّقُوهُ﴾ تعالىٰ في مُخالفته، وعِصيان نَواهيه.

ثمَ أشار سُبحانه إلى وَقت ظُهور عُمَد مَنافع تِلك الأعمال حثّاً عليها بقوله: ﴿وَهُوَ﴾ تعالىٰ ﴿الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ مِن قُبوركم، وفي القِيامة تُجمَعون للحِساب والجَزاء؛ فيُجازيكم على أعمالكم إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشرّ.

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ[٧٣]

ثمَ لمّا استدلّ على عدَم قابليّة[2] الأصنام للعِبادة بعَجْزهم عن النَفع والضُر، بيّن كمال قُدرته حثّاً على تَخصيصه بالعِبادة، وإثباتاً للمَعاد بقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ﴾ وما فيها مِن العُلويّات ﴿وَالْأَرْضَ﴾ وما فيها مِن السُفليّات، قائماً ﴿بِالْحَقِّ﴾ والحِكمة الكامِلة والنِّظام الأتمّ، لا بالباطل والعَبَث ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ﴾ وحينَ يُريد إيجاد شيء فيُوجد بِلا رَيْث.

﴿قَوْلُهُ﴾ وإرادته ﴿ الْحَقُّ﴾ الثّابت النّافذ، وقيل: إنّ المُراد: وخلق يومَ يقول، أو واتّقوا يومَ يقول[3]، وعلىٰ التَقديرين هُو يوم القيامة، ﴿وَلَهُ﴾ تعالىٰ خاصّة ﴿الْمُلْكُ﴾ والسَلطنة التّامّة الظّاهِرية والواقعيّة ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾ لا مُلك فيه لغيره، كما كان في الدُّنيا بحَسَب الظّاهر.

عن أبي هُريرة، قال: قلتُ: يا رَسُول الله، ما الصُّور؟ قال: القَرْن، قلت: كيف هُو؟ قال: عظيم، والذي نفسي بيَده، إنّ أعظم دائرة فيه كعَرض السّماء والأرض[4]. قيل: إنّ فيه مِن الثُّقَب علىٰ عدَد أرواح

---

١. تفسير الرازي ١٣: ٢٩.
٢. يريد عدم استحقاق.
٣. مجمع البيان ٤: ٤٩٥.
٤. تفسير روح البيان ٣: ٥٣.

الخَلائق[١].

ثمّ لمّا لَم يكُن كَمال قُدرته باعثاً علىٰ القيام بعُبوديّته، ومُثبتاً للمَعاد لكُلّ أحد، إلّا بعدَ مَعرفة كمال عِلمه بمَن أطاعه وعَصاه ومَن أماته وأحياه، عرّف ذاته المُقدّسة بكمال العِلم بقوله: ﴿عَالِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ وما لا تُدركه الحَواسّ ﴿ وَٱلشَّهَادَةِ﴾ وما يُدركه ﴿ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ في أفعاله ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ بجميع الأمور.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّى أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ [٧٤]

ثمّ لمّا كان إبراهيم عليه السلام مَعروفاً بين جميع المِلَل بكمال العَقل والعِلم، واستِقامة الرّأي، وإصابة النّظر، وحُسن العقائد والأعمال، وعِظَم الشّأن، وكان أهلُ الكِتاب ومُشركو العرَب مُفتخرين بأنهم ذُرّيّته، مُعترفين بعُلُوّ مَقامه، احتجّ الله سُبحانه عليهم بإقراره بالتّوحيد، وإعراضه عن الشّرك، وتَوبيخه وإنكاره علىٰ النّاس عِبادة الأصنام، بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ﴾ مُوبّخاً له، وإنكاراً عليه: ﴿أَتَتَّخِذُ﴾ وتَختار لنفسك ﴿أَصْنَاماً آلِهَةً﴾ ومَعبودين مِن دُون الله، وفي تَنكير الأصنام إشعارٌ بتَحقيرها ﴿إِنِّى﴾ بعَين عقلي، وبَصيرة قَلبي ﴿أَرَاكَ وَقَوْمَكَ﴾ الّذين وافَقوك في عبادتها راسخين ﴿فِى ضَلَالٍ﴾ عن الحَقّ، وبُعدٍ عن الصّواب ﴿مُبِينٍ﴾ وواضح عندَ العَقل والعُقلاء.

في أنّ آزر كان جدّ إبراهيم لأمّه

ثمّ اعْلَم أنّه ادُّعي الإجماع علىٰ أنّ اسْم أبي إبراهيم تارخ، وإنّما الخِلاف في أنّ آزر كان لقَبه، أو كان له اسْمان، أو كان آزر عمّه، وإنّما أُطلِق عليه الأب؛ لأنّ العَمّ صِنْو الأب؟ أو كان جدّه لأمّه وهُو الحَق؛ لأنّ إطلاق الأب عليه حقيقةٌ وعلىٰ العَم مَجاز، واتّفاق أصحابنا ظاهراً علىٰ أنّ آباء النبيّ صلى الله عليه وآله كُلّهم كانوا مُوحّدين لقوله تعالىٰ: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّاجِدِينَ﴾[٢].

عن القُمّي عن الباقر عليه السلام، قال: «في أصلاب النّبيّين»[٣].

وفي (المجمع): عنهما عليهما السلام، قالا: «في أصلاب النّبيّين؛ نبيّ بعدَ نبيّ، أخرجَه من صُلب أبيه من نكاح غير سِفاح، مِن لَدُن آدم»[٤].

وروي عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال: «لَم يزَل ينقُلني الله تعالىٰ مِن أصلاب الطّاهرين إلىٰ أرحام

---

١. تفسير روح البيان ٣: ٥٣.
٢. الشعراء: ٢١٩/٢٦.
٣. تفسير القمي ٢: ١٢٥، تفسير الصافي ٤: ٥٤.
٤. مجمع البيان ٧: ٣٢٤، تفسير الصافي ٤: ٥٤.

المُطهَرات، حتّىٰ أخرجني في عالَمكم هذا لم يُدنّسني بدَنَس الجاهلية»[١].

وعنه عليه السلام: «لمّا خلَق الله تعالى آدم أهبطني في صُلْبه إلىٰ الأرض، وجعَلني في صُلب نُوح في السّفينة، وقذَفني في صُلب إبراهيم، ثمّ [لَم يَزل] تعالىٰ ينقُلني مِن الأصلاب الكَريمة والأرحام حتّىٰ أخرجني بين أبوَي لَم يلتقيا علىٰ سِفاح قَطّ»[٢]. ولَو كان في آبائه كافر لَم يصِف أصلابهم بالطّهارة والكَرامة.

ورُوي أنّ حَوّاء لمّا وضعَتْ شيثاً انتقل النُّور المُحمّدي مِن جَبهتها إلىٰ جَبهته، فلمّا كبِر وبلَغ مَبلغ الرِّجال أخذ آدم عليه العُهود والمَواثيق أن لا يُودِع هذا السِرّ إلّا في المُطهّرات المُحصَنات مِن النِّساء، ليصِل إلىٰ المُطهّرين[٣].

وحمَل الفَخرُ الرازي وبعضٌ آخر مِن العامّه الرِّوايات النبويّة علىٰ أنّه لَم يكُن في آبائه ولَدُ زنا، واستشهدوا عليه بقوله عليه السلام: «وُلدتُ مِن نِكاح، لا مِن سِفاح»[٤].

وفيه: أنّه لا شَهادة فيه لظُهور كَونه فَخراً آخراً، مَع بُعْد حَمْل الأصلاب الطّاهرين علىٰ ذلك، ويُؤيّده فَحوىٰ قوله تعالى: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ الآية، كما ذكرناه في البَقرة[٥]، وأنّه كان صلّى الله عليه وآله جامِعاً لجَميع المَفاخر، ومِن المَعلوم أن كَون بعض آبائه مُشركاً لا يَخلو مِن شَيْن عليه.

وَكَذَٰلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ [٧٥]

ثمّ بيّن الله تعالىٰ كَمال عِرفان إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ الذي أريناه مِن قُبح عِبادة الأصنام، وبصّرناه بفَساد الإشراك بتَقوية بصيرته، كُنّا ﴿نُرِى﴾ ونُبصّر ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ بتَقوية نُور بَصَره ﴿مَلَكُوتَ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ليُشاهد عَجائب مَخلوقاتنا، ويطّلع علىٰ سَعَة ملكنا وعَظَمة سُلطاننا ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ بوَحدانيّتنا وقُدرتنا وحِكمتنا.

عن الباقر عليه السلام: «كُشطِ له عن الأرضين حتّىٰ رآهُنّ وما تحتهُنّ، وعن السّماوات حتّىٰ رآهنّ وما فيهنّ مِن المَلائكة وحَملة العَرش»[٦].

وعن الصادق عليه السلام: «كُشطِ له عن الأرض ومَن عليها، وعن السّماء ومَن فيها، والمَلَك الذي يحمِلها، والعَرش ومَن عليه»[٧].

---

١. مجمع البيان ٤: ٤٩٧، تفسير الصافي ٢: ١٣١.
٢. تفسير روح البيان ٣: ٥٤.
٣. تفسير روح البيان ٣: ٥٤.
٤. تفسير روح البيان ٣: ٥٤.
٥. في تفسير الآية (١٢٥) من سورة البقرة.
٦. مجمع البيان ٤: ٤٩٨، تفسير الصافي ٢: ١٣١.
٧. تفسير القمي ١: ٢٠٥، تفسير الصافي ٢: ١٣١.

وعن الباقر عليه السلام قال: «أعطي بصَرُه مِن القُوَة ما نفذ السّماوات، فرأىٰ ما فيها، ورأىٰ العَرش وما فَوقه، ورأىٰ ما في الأرض وما تحتها»[1].

وعن الصادق عليه السلام: «لمَا رأى إبراهيم مَلكوت السّماوات والأرض، رأىٰ رَجُلاً يـزني فـدَعا عـليه فمات، ثمّ رأىٰ آخر فدَعا عليه فمات، ثمَ رأىٰ ثلاثةً فدَعا عليهم فماتوا، فأوحىٰ الله إليه: يا إبراهيم، إنّ دَعوتَك مُستجابة، فلا تَدْعُ علىٰ عِبادي، فإنّي لَو شِئتُ أن اُميتهم [لدعائك] ما خلقتُهم، فإنّي خلقتُ خَلقي علىٰ ثلاثةِ أصنافٍ: صِنْف يعبُدني لا يُشرك بي شيئاً فأُثيبه، وصِنْف يعبُد غيري فليسَ يفوتني، وصِنْف يعبُد غيري فأُخرِج مِن صُلبه مِن يعبُدني»[2].

قيل: إنّ مَلكوت كُلّ شيء باطِنه ورُوحانيّته، وهُو مِن الأوّليّات التي خَلقها الله تعالىٰ مِن لا شيء بأمر (كُن)، فالمُلْك قائمٌ بالمَلكوت، والمَلكوت قائمٌ بقُدرة الله، فأرىٰ سُبحانه إبـراهـيمَ مَـلكوتَ الأشياء، والآيات المُودعة فيها الدّالّة علىٰ تَوحيده وكمَال صِفاته.

فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَباً قَالَ هٰذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَاأُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ * فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هٰذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّالِّينَ* فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هٰذَا رَبِّى هٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ[٧٦ـ٧٨]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ بَيان إنكار إبراهيم عليه السلام علىٰ آزر وقومه عِبادة الأصنام، وحُكمه بضَلالتهم، احْتجَ علىٰ مُشركي العرَب بما احْتجَ به إبراهيم عليه السلام علىٰ بُطلان عِبادة الأصنام بقوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ﴾ وأظلم ﴿عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾ وسَتَره بظَلامه، وظهَرت الكَواكب ﴿رَءَا﴾ بينها ﴿كَوْكَباً﴾ مِن الكَواكب السّبعة، قيل: كان الزُّهَرة[3]، وقيل: كان المُشتري[4] ﴿قَالَ﴾ استهزاءً بقومه، أو إنكاراً عليهم، أو حِكايةً لمَقالهم لينكر[5] عليهم بإبطاله، أو إظهاراً لمُماشاته معهم كَي يكـون أدعـىٰ إلىٰ اسْتماع حُـجَته: ﴿هٰـذَا﴾ الكَـوكب ﴿رَبِّى﴾.

قيل: لمَا كان مَرجِع عِبادة الأصنام إلىٰ عِبادة الكَواكب؛ حيثُ إنّ النّاس رأوا أنّ الفُـصول الأربـعة تكون بقُرب الشّمس وبُعدها، وبهما تـحدُث الأحـوال المُـختلفة فـي العـالَم، وتكـون السّـعادات

---

١. تفسير العياشي ٢: ١٤٣١/١٠٢، تفسير الصافي ٢: ١٣٢.

٢. تفسير العياشي ٢: ١٤٣٢/١٠٢، تفسير القمي ١: ٢٠٦، الكافي ٨: ٤٧٣/٣٠٥، مجمع البيان ٤: ٤٩٨، تفسير الصافي ٢: ١٣٢.

٣ و٤. تفسير أبي السعود ٣: ١٥٣، تفسير روح البيان ٣: ٥٦.

٥. كذا الظاهر، وفي النسخة: ليكن.

والنُّحوسات بوُقوع الكَواكب في طَوالعهم علىٰ أحوالٍ مُختلفة، غلَب علىٰ ظَنّ أغلبهم أنّ مَبدأ الحَوادث هُو الكَواكب، فبالَغوا في تَعظيمها حتّىٰ اشْتغلوا بعِبادتها.

ثمّ لمّا رأوا أنّها تَغيب في كثيرٍ مِن الأوقات، اتّخذوا لكُلّ كَوكب صَنَماً مِن الجَوهر المَنسوب إليه، فصنَمُ الشّمس مِن الذّهب المُزيّن بأحجارٍ مَنسوبة إليها كالياقوت والألماس، وصنَم القَمر مِن الفِضة[1] ... وهكذا.

ولِذا اسْتدلّ إبراهيم عليه السلام علىٰ بُطلان عِبادة الأصنام ببُطلان رُبوبيّة الكَواكب بقوله: ﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾ الكَواكب وغرَب ﴿قَالَ لَا أُحِبُّ﴾ الأرباب ﴿الْآفِلِينَ﴾ الغائبين عن مَربُوبهم، للقَطع بعدم صُلوح الزّائل المُتغيّر للرُّبوبيّة.

ثمّ طلَع القَمر ﴿فَلَمَّا رَءَا الْقَمَرَ بَازِغاً﴾ وطالعاً ﴿قَالَ هٰذَا﴾ الجُرم المُضيء ﴿رَبِّى﴾ وخالقي ﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾ وغاب ﴿قَالَ﴾ تنبيهاً لقومه علىٰ عدَم صُلوحه أيضاً للرُّبوبيّة بعِلّة اُفوله وتغيُّره المُلازم للحُدوث، وتَذكيراً لهم بعَجزهم عن مَعرفة رَبّهم إلّا بهِدايته وتَوفيقه: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى﴾ إلىٰ معَرفته بتَوفيقه، ولَم يُنوّر قلبي لإدراك الحقّ ﴿لَأَكُونَنَّ﴾ البتّة ﴿مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ عن طَريق الحقّ، المُنحرفين عن نَهج الصّواب. وفيه تعريضٌ بضَلال قومه في عِبادتهم المُتغيّر المَقهور بإرادة غيرِه.

عنهما عليهما السلام: «﴿لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ أي ناسياً للمِيثاق»[2].

أقول: أي المِيثاق علىٰ التّوحيد في عالَم الذَّرّ.

ثمّ ذهب اللّيل وطلَعت الشّمس ﴿فَلَمَّا رَءَا الشَّمْسَ بَازِغَةً﴾ وطالعة ﴿قَالَ هٰذَا﴾ الجُرم المَشهود ﴿رَبِّى﴾.

ثمّ أشار إلىٰ رُجحان القول بأُلوهيّة الشّمس علىٰ القول بأُلوهيّة الكوكب والقَمر بقوله: ﴿هٰذَا﴾ الطّالع ﴿أَكْبَرُ﴾ مِن الكَوكب والقَمر جُرماً، وأقوىٰ مِنهما ضِياءً، فهُو أولىٰ بالرُّبوبيّة، قيل: في تَذكير اسْم الإشارة رعايةٌ للأدب وتَنْزيهٌ للرَّبّ عن الأنوثيّة[3] ﴿فَلَمَّا أَفَلَتْ﴾ الشّمس كسائر الكَواكب، وثبَت امْتِناع رُبوبيّتها أيضاً لأجل الأفول والتَغيُّر وأُلزِم الفَرق بالحُجّة القاطعة ﴿قَالَ﴾ مُخاطباً لجميعهم، صادعاً بالحقّ: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ بالله تعالىٰ مِن الكَواكب والأصنام وغيرها.

إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ

---

١. تفسير الرازي ١٣: ٣٦.

٢. تفسير العياشي ٢: ١٤٣٤/١٠٣ عن الباقر عليه السلام، تفسير الصافي ٢: ١٣٣.

٣. تفسير الرازي ١٣: ٥٦.

ٱلْمُشْرِكِينَ [٧٩]

ثمّ بعد التبرّؤ ممّا سِوىٰ الله أعلن بخُلوصه لعِبادة مُوجد الكَواكب وغيرها بقوله: **﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ﴾** وصرَفتُ قلبي، وأخلصتُ عِبادتي **﴿لِلَّذِى﴾** بقُدرته الكاملة وحِكمته البالغة **﴿فَطَرَ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضَ﴾** وما فيهما مِن الكَواكب وغيرها، وأخرج الكُلّ مِن كَتْم العَدم إلىٰ الوُجود، وفوّضتُ جميعَ أموري إليه، حالَ كَوني **﴿حَنِيفاً﴾** ومائلاً عن كُلّ مَعبودٍ غيره، ومُعرضاً عن كُلّ دِينٍ غير دِينه **﴿وَمَا أَنَا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾** به شيئاً في جِهةٍ مِن الجِهات، وأمرٍ مِن الأمور.

في (العيُون): عن الرضا عليه السلام أنّه سأله المأمون فقال له: يا بن رَسُول الله، أليس مِن قولك أنّ الأنبياء معصومون؟ قال: «بلى»، قال: فأخبِرني عن قول الله عزّ وجلّ: **﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَاكَوْكَباً قَالَ هٰذَا رَبِّى﴾**[1].

فقال الرضا عليه السلام: «إن إبراهيم عليه السلام وقع علىٰ ثلاثة أصناف: صِنف يعبُد الزُّهَرة، وصِنف يعبُد القمَر، وصِنف يعبُد الشّمس، وذلك حينَ خرَج مِن السَّرَب[2] الذي أُخفي فيه، فلمّا جنّ عليه اللّيل رأىٰ الزُّهَرة، قال: هذا ربّي؛ علىٰ الإنكار والاستِخبار، فلمّا أفل الكَوكب قال: لا أُحبّ الآفلين؛ لأنّ الأفول مِن صِفات المُحدَث لا مِن صِفات القَديم، فلمّا رأىٰ القمَر بازغاً قال: هذا ربّي، علىٰ الإنكار والاستِخبار، فلمّا أفل قال: لَئِن لَم يهدِني ربّي لأكوننّ مِن القوم الضّالين، فلمّا أصبح ورأىٰ الشّمس بازغةً قال: هذا ربّي، هذا أكبر مِن الزُّهَرة والقَمر، علىٰ الإنكار والاستِخبار، لا علىٰ الإخبار والإقرار، فلمّا أفلَتْ قال للأصناف الثّلاثة مِن عَبَدة الزُّهَرة والقَمر والشّمس: يا قوم إنّي بريءٌ مِمّا تُشركون، إنّي وَجّهتُ وَجهي للذي فطَر السّماوات والأرض حنيفاً وما أنا مِن المُشركين. وإنّما أراد إبراهيم عليه السلام بما قال أن يُبيّن لهم بُطلان دِينهم، ويُثبِت عندَهم أنّ العِبادة لخالقها وخالق السّماوات والأرض» الخبر[3].

أقول: عليه جمعٌ مِن مُفسّري العامّة، وحُكي عن أكثرهم أنّه قال ذلك طلباً لمَعرفة الرَبّ، ورَووا أنّ نمرود رأىٰ رُؤياً فعبّرها الحُكماء والكَهَنة بأنّه يُولد غُلام يُنازعه في مُلكه، فأمر بذَبْح كُلّ غُلام يُولد، فحبِلت أمّ إبراهيم به وما أظهرت حَبَلها، فلمّا جاءها الطَّلْق ذهبتْ إلىٰ كَهفٍ في جَبل ووضعت إبراهيم وسدّت الباب بحَجر، فجاء جَبرئيل عليه السلام ووضع إصبَعه في فَمه فمصّه فخرَج مِنه رِزقه، وكان جَبرئيل يتعهّده، وكانت أمّه تأتيه أحياناً وتُرضِعه، فبقي علىٰ هذه الحالة حتّىٰ كبر وعَقَل وعَرَف أن له ربّاً، فسأل أمّه وقال: مَن ربّي؟ فقالت: أنا. فقال: ومَن ربُّك؟ قالت: أبوك. فقال: مَن ربُّه؟ فقالت: مَلِك

---

١. الأنعام: ٧٦/٦.   ٢. السَّرَب: حفير تحت الأرض لا منفذ له.

٣. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١/١٩٧، تفسير الصافي ٢: ١٣٣.

البَلد. فقال: مَن ربُّه؟ فقالت: لا تسأل عن هذا، فإنّ عليك فيه خَطراً عظيماً، فنظَر مِن باب الغَار، فرأىٰ النَجْم الذي هُو أضوأ النُّجوم، فقال: هذا رَبّي... إلىٰ آخر القِصّة[1].

وعن القُمّي: عن الصادق عليه السلام: «أنّ آزر أبا إبراهيم كان مُنجّماً لنمرود بن كنعان فقال له: إنّي أرىٰ في حِساب النُّجوم أنّ هذا الزّمان يُحدث رَجلاً، فينسَخ هذا الدِّين ويدعو إلىٰ دِين آخر. فقال له نمرود: في أيّ بِلاد يكون؟ قال: في هذه البِلاد. وكان مَنزل نمرود كوثى ربّا[2]، فقال له نمرود: قد خرَج إلىٰ الدُّنيا؟ قال آزر: لا. قال: فينبغي أن يُفرّق بين الرِّجال والنِّساء، ففرّق بين الرِّجال والنِّساء، وحملت اُمّ إبراهيم عليه السلام ولم يتبيّن حملُها.

فلمّا حانت ولادتُها قالت: يا آزر، إنّي قد اعتللْتُ واُريد أن اعتزِل عنك. وكان في ذلك الزّمان [أن] المرأة إذا اعتلّتْ اعتزلت عن زَوجها، فخرَجت واعتزلَت في غارٍ ووضعتْ إبراهيم وهيّئته وقمّطته ورجَعت إلى مَنزلها وسدّت باب الغار بالحِجارة، فأجرىٰ الله لإبراهيم عليه السلام لَبَناً مِن إبهامه، وكانت اُمّه تأتيه، ووكّل نمرود بكُلّ امرأة حامل، وكان يذبَح كُلّ ولَد ذكَر، فهربَتْ اُمّ إبراهيم بإبراهيم مِن الذبح، وكان يشِبّ إبرهيم في الغار يوماً كما يشِبّ غيرُه في الشّهر، حتّىٰ أتىٰ [له] في الغار ثلاث عشرة سنة.

فلمّا كان بعدَ ذلك زارته اُمّه، فلمّا أرادت أن تُفارقه تشبّث بها فقل: يا اُمّي، لَو أخرَجْتني؟ فقالت له: يا بُني، إن عَلِم أنّك وُلدت في هذا الزّمان قتَلك. فلمّا خرجَت اُمّه وخرَج مِن الغار وقد غابت الشّمس، نظَر الىٰ الزُّهَره في السّماء فقال: هذا ربّي. فلمّا غابت الزُّهَرة قال: لَو كان [هذا] ربّي ما تحرّك وما برِح، ثمّ قال: لا اُحب الآفلين ـ والآفل: الغائب ـ فلمّا رأى القمر بازغاً قال: هذا رَبّي هذا أكبر وأحسن، فلمّا تحرّك وزال قال: لَئِن لم يهدِني ربّي لأكونَنّ مِن القوم الضّالين، فلمّا أصبح وطلعَتْ الشّمس ورأىٰ ضوءَها وقد أضاءت الدُّنيا لطُلوعها قال: هذا ربّي هذا أكبر وأحسن، فلمّا تحرّكت وزالت كشط الله له عن السّماوات حتّىٰ رأىٰ العَرش ومَن عليه، وأراه الله مَلكوت السّماوات والأرض، فعندَ ذلك قال: يا قوم إنّي بَريء مِمّا تُشركون، إنّي وجّهت وَجهي للّذي فطَر السّماوات والأرض حَنيفاً وما أنا مِن المُشركين، فجاء إلىٰ اُمّه وأدخلتْه إلىٰ دارها وجعلتْه بين أولادها»[3].

قال: وسُئل أبو عبدالله عليه السلام عن قول إبراهيم عليه السلام: هذا ربّي، أشرك في قوله: هذا ربي؟ قال: «من قال هذا اليوم فهُو مُشرك، ولَم يكُن مِن إبراهيم بشِرْك، وإنّما كان في طلَب رَبّه، وهُو مِن غيره شِرك»[4].

---

١. تفسير الرازي ١٣: ٤٧، تفسير القرطبي ٧: ٢٤، الدر المنثور ٣: ٣٠٤.

٢. كوثى ربّا: من أرض بابل بالعراق، فيها مولد إبراهيم عليه السلام وفيها مشهده.

٣. تفسير القمي ١: ٢٠٦، تفسير الصافي ٢: ١٣٤.

٤. تفسير القمي ١: ٢٠٧، تفسير الصافي ٢: ١٣٥.

أقول: يُمكن الجَمع بين الرِّوايتين بأنّ الاستِدلال بالأفول وقَع مِنه عليه السلام مرّتين؛ المرّة الأولىٰ طلَباً لمَعرفة نفسه، والثّانية احتِجاجاً علىٰ قومه، مَع أنّ الرِّواية الأخيرة مُتضمّنة لما لا يقول به الشّيعة مِن كَون أبي إبراهيم آزر، مُضافاً إلىٰ بُعْد أنّه مَن كان يرتضع مِن إصبعه أو مِن إصبع جَبْرئيل، أن يحتمِل كَون الكَوكب المَحدود المُتحرّك ربّاً له.

وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّى فِى ٱللهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَاتُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّى شَيْئاً وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْماً أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ[٨٠]

ثمّ حكىٰ سُبحانه مُحاجّة قوم إبراهيم معه بقوله: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ﴾ وأقاموا له بَراهين واهية علىٰ صِحّة ما زعَموه مِن رُبوبيّة الكَوكب وعِبادة الأصنام كَوجوب تَقليد الآباء وغيره بعدَ احْتِجاج إبراهيم عليه السلام علىٰ فَساده بامْتِناع كَون الحادث المُتغيّر خالقاً وربّاً، إذَن ﴿قَالَ﴾ لهم إبراهيم إنكاراً عليهم واستِعجاباً مِنهم: يا قوم ﴿أَتُحَاجُّونِّى﴾ وتُجادلونني ﴿فِى﴾ شأن ﴿ ٱللهِ﴾ وتَوحيده ﴿وَ﴾ الحالُ أنّه تعالىٰ ﴿قَدْ هَدَانِ﴾ وأرشدني إلىٰ الحقّ بتَقوية عَقلي، وإنارة قَلبي، ونَصب الآيات عليه.

ثمّ قيل: إنّ القوم خوّفوه مِن ضَرَر آلهتهم حينَ طعَن فيهم، وقالوا: أما تخاف أن يُخبّلك آلهتُنا لأجل أنّك تشتِمهم؟ فأجابهم بقوله: ﴿وَلَا أَخَافُ مَاتُشْرِكُونَ بِهِ﴾[١] في الرُّبوبيّة والعِبادة كوكباً كان أو صنماً مِن أن يضُرّني بسَبب طَعني فيه، لُوضوح كَون جَميع الأجرام الفَلَكيّة، والأجسام العُنصريّة مَقهورة بقُدرة الله وإرادته، لا يقدِر شيءٌ منها علىٰ نَفع أو ضَرَر ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّى شَيْئاً﴾ مِن الضَّرَر علَيَّ، فعندَ ذلك يضُرّني هُو بتوسّط شيء مِن مَخلوقاته ولَو كان جماداً، فهُو تعالىٰ حَقيق بأن يُخاف مِنه لقُدرته علىٰ كُلّ شيء، ولكن لا يشاء ضَرَراً علىٰ عَبده إلّا إذا علم صَلاحه فيه، أو اسْتِحقاقه له، فإنّه ﴿وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْماً﴾ وأحاط بجَميع خلقه خَبراً، ومِن المَعلوم أنّه لا يستحقّ ضَرَره وعَذابه مَن يُوحّده ويُنزّهه عن المِثْل والشّريك، بَل يستحقّ حفظه وثَوابه وإكرامه ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ ذلك، ولا تتنبّهون أنّ الله هُو الضّارّ النّافع دُون آلهتكم، وأنّ المُستحقّ للضَرَر والعَذاب هُو المُشرك دُون المُوحّد.

قيل: إنّ التقدير: أتُعرضون عن التّأمّل في ما أقول، فلا تتذكّرون أنّ آلهتكم عَجَزة؟[٢]

وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللهِ مَالَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ

---

١. تفسير الرازي ١٣: ٦١.

٢. تفسير أبي السعود ٣: ١٥٥، تفسير روح البيان ٣: ٥٨.

سُلْطَانًا فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ[٨١]

ثمّ أنكر على قومه توقّعهم خوفه في مَورد الأمن بقوله: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ﴾ مِن الأصنام التي لا قُدرة لها على شيء، ﴿وَ﴾ أنتم ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ مِن ﴿أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ﴾ القادر على كُلّ شيء ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ﴾ وبإشراكه ﴿عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً﴾ وبُرهاناً قاطعاً معَ امْتِناع وُجود البُرهان على رُبوبيّة الحادث المُتغيِّر المُحتاج ﴿فَأَيُّ﴾ فَريق مِن ﴿ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ أفريق المُوحّدين أم فَريق المُشركين ﴿أَحَقُّ﴾ وأولى ﴿بِالْأَمْنِ﴾ مِن الضَّرَر والعَذاب مِن قِبَل الله ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الأحقّ مِنهما، أخبروني به؟ وإنّما لَم يقُل: فأيُّنا أحقّ، ليحترِز عن تَزكية نفسه.

ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ[٨٢]

ثمّ بادر تعالى إلى الجَواب تنبيهاً على وضُوحه عندَ العَقل، وبَداهته لدى العُقلاء بحيث لا يَحتاج إلى التأمُّل، بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله وبَوحدانيّته ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا﴾ ولَم يخلِطوا ﴿إِيمَانَهُم﴾ ذلك ﴿بِظُلْمٍ﴾ وعِصيان مِن الإشراك به في العِبادة ـ كما فعله الذين قالوا: إنّما نعبُد الأصنام ليُقرّبونا إلى الله ـ وارْتِكاب القَبائح المُوبقة ﴿أُوْلَٰئِكَ﴾ الفَريق فقط ﴿لَهُمُ ٱلْأَمْنُ﴾ مِن كُلّ عُقوبة، دُون فريق المُشركين الّذين ظلَموا أنفسهم بارْتِكاب أعظم الذُّنوب والقَبائح ﴿وَهُم﴾ خاصّة ﴿مُهْتَدُونَ﴾ إلى الحقّ، مُرشَدون إلى كُلّ خيرٍ دُون المُشركين الّذين هُم في ضَلال مُبين.

في (المجمع): عن أمير المُؤمنين صلَواتُ الله عليه: «أنه مِن تَمام قول إبراهيم عليه السلام»[١].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه: لمّا نزلت هذه الآية شَقّ على النّاس وقالوا: يا رَسُول الله، وأيّنا لَم يظلِم نفسه؟ فقال صلى الله عليه وآله: «إنّه ليسَ الذي تعنُون، ألم تستمعوا إلى ما قال العبدُ الصّالح: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾؟»[٢].

وعن الصادق عليه السلام، في هذه الآية قال: «الظُّلم الضّلال فما فوقه»[٣].

وعنه عليه السلام أنه سُئل ﴿ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ الزنا مِنه؟ قال: «أعوذُ بالله مِن اُولئك، لا، ولكنّه ذَنب إذا تاب تابَ الله عليه». وقال: «مُدمن الزِّنا والسَّرقة وشارِب الخَمر كعابد الوَثن»[٤].

---

١. مجمع البيان ٤: ٥٠٦ منسوب إلى القيل، ولم ينسبه إلى أمير المؤمنين عليه السلام، تفسير الصافي ٢: ١٣٦.
٢. مجمع البيان ٤: ٥٠٦، تفسير الصافي ٢: ١٣٦، والآية من سورة لقمان: ١٣/٣١.
٣. تفسير العياشي ٢: ١٤٤٢/١٠٥، تفسير الصافي ٢: ١٣٦.
٤. تفسير العياشي ٢: ١٤٤١/١٠٥، تفسير الصافي ٢: ١٣٦.

وفي رِوايةٍ قال: «أوْلئك الخَوارج وأصحابهم»[1].

وعنه عليه السلام: «أنّ الظُّلم هُنا الشَك»[2].

وعنه عليه السلام ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ قال: «آمنوا بما جاء به محمّد صلى الله عليه وآله من الولاية، ولم يخلِطوها بولاية فلان وفُلان»[3].

وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ[٨٣]

ثمّ نبّه سُبحانه علىٰ أنّ عِلم إبراهيم عليه السلام وإصابته الحقّ كان بإفاضته تعالىٰ وتَوفيقه بقوله: ﴿وَتِلْكَ﴾ الحُجَج التي حَكيناها إنّما هِي ﴿حُجَّتُنَا﴾ وبَراهيننا التي ﴿آتَيْنَاهَا﴾ وألهمناها ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ بتَقوية بَصيرته وإنارة قلبه ليُقيمها ﴿عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾.

ثمّ قرّر سُبحانه ذلك بالتّنبيه علىٰ أنّ جميع الكَمالات الجِسمانيّة والرُّوحانيّة مِنه تعالىٰ بقوله: ﴿نَرْفَعُ﴾ ونُعلّي ﴿دَرَجَاتٍ﴾ كثيرة ومَراتب عظيمة مِن العَقل والعِلم، والحِكمة والنُبوّة، والصِّفات الكَريمة، والفَضائل الجسيمة، والسّعادات الدُّنيويّة والأُخرويّة ﴿مَن نَشَاءُ﴾ رَفعه وتَعليته فيها، بمُقتضىٰ الحِكمة والعِلم، والاستِعدادات والقابليّات في خَلْقه ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾ في فِعاله مِن الرَّفع والخَفْض وغيرهما ﴿عَلِيمٌ﴾ باستِعدادات الخَلْق وقابليّاتهم علىٰ كَثرة مَراتبها المتفاوتة.

وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاً هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ ٱلصَّالِحِينَ[٨٤و٨٥]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ بَيان تَفضيله بنِعمة الهِداية والعِلم والحِكمة، وإراءته مَلكوت المَوجودات، بيّن تَفضيله بكَرامة النَّسْل وشَرافة الأصل بقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ﴾ مِن رَحمتنا ﴿إِسْحَاقَ﴾ ابنه مِن صُلبه ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ مِن إسحاق ﴿كُلاً﴾ مِنهما أو مِنهم ﴿هَدَيْنَا﴾ إلىٰ الحقّ، وأرشدنا إلىٰ المَقامات العالية مِن العِلم والعَمَل ومَكارم الأخلاق، ﴿وَ﴾ كذلك ﴿نُوحاً﴾ وهُو كان مِن أجداده ﴿هَدَيْنَا﴾ إلىٰ كمال المَعرفة والحِكمة ومَقام الرِّسالة ﴿مِن قَبْلُ﴾ وفي الأزمنة السّابقة مِن زَمان إبراهيم عليه السلام.

---

١. تفسير العياشي ٢: ١٠٦/١٤٤٥، تفسير الصافي ٢:١٣٦.

٢. تفسير العياشي ٢: ١٠٥/١٤٤٣، تفسير الصافي ٢: ١٣٦.

٣. تفسير العياشي ٢: ١٠٥/١٤٤٤، تفسير الصافي ٢: ١٣٦.

قيل: كان بين إبراهيم ونُوح عليهما السلام أحد عشر أباً، أوّلهم سام بن نُوح وآخرهم تارخ أبو إبراهيم.

عن الباقر عليه السلام: «يعني هدّيناهم ليجعَلوا الوَصيّة في أهل بيتهم»[1].

ثمّ بيّن سُبحانه أنّه أنعم علىٰ نُوح أيضاً نِعمة كَرامة النّسل بقوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ﴾ ونَسله هدينا ﴿دَاوُدَ﴾ بن إيشا ﴿وَسُلَيْمَانَ﴾ بن داود اللذين خصّهما الله بالمُلْك العَظيم معَ النُبوّة ﴿وَأَيُّوبَ﴾ بن أموص الذي خصّه الله بالبَلاء العَظيم، وكمال الصّبر عليه مَع النُبوّة ﴿وَيُوسُفَ﴾ بن يعقوب الذي جمَع الله له عَظيم البلاء، وكمال الصّبر، والمُلك معَ النُبوّة ﴿وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ ابني عُمران بن يصهر اللذين خصّهما الله بكَمال المَهابة، والمُعجزات العَظيمة القاهرة ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ الإنعام بالنِّعَم العظيمة ﴿نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ علىٰ أعمالهم الحَسَنة.

﴿وَ﴾ هدينا ﴿زَكَرِيَّا﴾ بن أذن مِن سِبط يَهودا ﴿وَيَحْيَىٰ﴾ ابنه ﴿وَعِيسَىٰ﴾ بن مَريم بِنت عِمران بن ماثان ﴿وَإِلْيَاسَ﴾ بن هارون أخي مُوسىٰ الّذين خصّهم الله بغاية الزُّهد والإعراض عن الدُّنيا ﴿كُلٌّ﴾ مِنهم ﴿مِّنَ ٱلصَّالِحِينَ﴾ والكاملين في مَكارم الأخلاق وحُسن الأعمال.

في أن الحسنين عليهما السلام ابنا رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم

قال الفخرُ الرازي في تفسيره: الآيَةُ تدُلّ علىٰ أنّ الحسَن والحُسين مِن ذُرِّيّة رَسُول الله صلّى الله عليه وآله، لأنّ الله جعَل عيسىٰ مِن ذُرِّيّة إبراهيم معَ أنّه لا ينتسب إلىٰ إبراهيم إلّا بالأمّ، فكذلك الحسَن والحُسين عليهما السلام مِن ذُرِّيّة رَسُول الله صلّى الله عليه وآله وإن انتَسبا إلىٰ رَسُول الله بالأمّ[2].

ويُقال: إنّ أبا جعفر الباقر استَدلّ بهذه الآية عندَ الحَجّاج بن يُوسف[3].

أقول: رُوي عن الصادق عليه السلام أيضاً أنّه قال: «والله لقد نسَب الله عيسىٰ بن مريم في القُرآن إلىٰ إبراهيم عليه السلام مِن قِبَل النِّساء» ثمّ تلا هذه الآية[4].

وعن الكاظم عليه السلام: «إنّما ألحِق عيسىٰ عليه السلام بذَراري الأنبياء مِن طَريق عليها السلام مَريم، وكذلك ألحِقنا بذَراري النبي صلّى الله عليه وآله مِن قِبَل اُمّنا فاطمة عليها السلام»[5].

وَإِسْمَاعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلاً فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَالَمِينَ * وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ[٨٦و ٨٧]

---

١. الكافي ٨: ٩٢/١١٦، كمال الدين: ٢/٢١٦، تفسير الصافي ٢: ١٣٦.

٢ و٣. تفسير الرازي ١٣: ٦٦.

٤. تفسير العياشي ٢: ١٤٤٧/١٠٦، تفسير الصافي ٢: ١٣٦.

٥. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٩/٨٤، تفسير الصافي ٢: ١٣٧.

﴿وَ﴾ هدينا **﴿إِسْمَاعِيلَ﴾** بن إبراهيم **﴿وَٱلْيَسَعَ﴾** بن أخطوب **﴿وَيُونُسَ﴾** بن مَتىٰ **﴿وَلُوطاً﴾** ابن أخي إبراهيم **﴿وَكُلاً﴾** مِنهم **﴿فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَالَمِينَ﴾** بالكمالات النفسانيّة والرِّسالة.

وقد استدلّ كثيرٌ مِن المُفسّرين علىٰ رُجوع ضمير (ومِن ذُرّيته) إلىٰ نُوح بعدَم كَون يُونس ولُوط مِن ذَراري إبرهيم عليه السلام، وعدَم إطلاق الذُّرّيّة علىٰ وَلَد الصُّلب، وقد عَدّ إسماعيل بن إبراهيم مِن الذُّرّيّة[1].

وقيل برُجوع الضّمير إلىٰ إبراهيم عليه السلام؛ لأنّ الآيات في بَيان رِفعة إبراهيم، وأنّ يُونس كان مِن الأسباط، ولا بُعْد في عَدّ لُوط مِن ذُرّيّته تنزيلاً لابن أخيه مَنزلة ابنه، لكَونه في تَربيته[2].

ويدلّ عليه استِدلال الصادِقين عليهما السلام بعَدّ عيسىٰ في الآية مِن ذُرّيّة إبراهيم عليه السلام في الرِّوايتين السّابقتين.

وقيل برُجوع ضمير (وذُرّيته) إلىٰ إبراهيم عليه السلام، وكون قوله: (واسماعيل) وما بعدَه عطفاً علىٰ قوله: (ونوحاً). ثمّ أنّه ذكَر لتأخير ذِكْر إسماعيل معَ كَونه ابن إبراهيم لصُلبه وُجوهاً غير وَجيهة[3].

ويُحتمل كَون لَفظ إسماعيل في الآية مُعرّب شَموئل، وهُو النبيّ الذي نصَب طَالوت مَلِكاً لبني إسرائيل، فعلىٰ هذا لَم يذكر إسماعيل بن إبراهيم في الآية، لكون المَقصود في المَقام الاحتِجاج علىٰ المُشركين بعُلُوّ مَقام الأنبياء المَذكورين بسبَب هِدايتهم إلىٰ التّوحيد، وإنعام الله عليهم بكَرامة أُصولهم وفُروعهم وفُروع أُصولهم، ولَم يكُن مِن فُروع إسماعيل نبيّ غيره صلى الله عليه وآله.

قيل: في قوله تعالىٰ: **﴿وَكُلاً فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَالَمِينَ﴾** دَلالة علىٰ أفضلية الأنبياء علىٰ المَلائكة[4]؛ لأنّ المُراد مِن العالَمين جَميع ما سِوىٰ الله تعالىٰ مِن المَخلوقات، فيدخُل فيه المَلائكة. وفيه نظرٌ، وإنّ كان المُدّعىٰ مُسلّماً عندنا، بَل الظّاهر أنّه مِن ضروريات الإماميّة، ثمّ مِن المَعلوم أنّ المُراد مِن العالَمين: هُو عالَم[5] زَمانهم لُوضوح عدَم أفضليّتهم علىٰ خاتَم النّبيّين صلى الله عليه وآله.

﴿وَ﴾ هدينا بعضاً **﴿مِنْ آبَائِهِمْ﴾** وأُصولهم **﴿وذُرِّيَّاتِهِمْ﴾** وفُروعهم **﴿وَإِخْوَانِهِمْ﴾** الّذين هُم فُروع أُصولهم ـ كإخوة يُوسُف علىٰ ما قيل ـ إلىٰ المَعارف الحقّة والكَمالات النّفسانيّة **﴿وَٱجْتَبَيْنَاهُمْ﴾** بالنُّبوّة، واصْطَفيناهُم بالرِّسالة **﴿وَهَدَيْنَاهُمْ﴾** وأرشدناهم **﴿إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾** لا ضَلال فيه أبداً.

قيل: في الآية إشعارٌ بأنّ شَرط الرِّسالة الرُّجوليّة، فلا يجُوز أن تكون المرأة رَسُولاً ولا نبيّاً[6].

---

١ و٢. تفسير الرازي ١٣: ٦٤، تفسير أبي السعود ٣: ١٥٧.

٣. راجع: تفسير الرازي ١٣: ٦٤ ـ ٦٥.

٤. تفسير الرازي ١٣: ٦٦.

٥. في النسخة: عالمي.

٦. تفسير الرازي ١٣: ٦٧.

قيل: في قوله: ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ﴾ دَلالةٌ علىٰ كَون بعض آباء هؤلاء الأنبياء غير مؤمن[١].

أقول: فيه مَنع لاحْتِمال كَون المُراد مِن هِدايتهم: الهِداية إلىٰ كمال المَعرفة واليَقين لا الإيمان، مَع احْتِمال أن يكُون المُراد مِن بعض آبائهم: الأجداد الأبي[٢]، ومِن البعض الآخر الأجداد الأمّي[٣]، لإمكان كونهم غير مؤمنين.

ذٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[٨٨]

ثمّ عظّم الله شأن الهِداية التي هَداهم بها بقوله: ﴿ذٰلِكَ﴾ الهُدى الذي كان للأنبياء المَذكورين، أو لهم ولبعض آبائهم و ذُرِّيّاتهم وإخوانهم، إلىٰ الحقّ وحَقائق الأشياء ﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾ الكامل وفَيضة التامّ ﴿يَهْدِى بِهِ﴾ إلىٰ أعلىٰ مَراتب الكمالات الإمكانيّة ودَرجات القُرب ﴿مَن يَشَاءُ﴾ هِدايته الكاملة ﴿مِنْ عِبَادِهِ﴾ الطَيِّبين بالفِطرة، الطّاهرين مِن رَذائل الأخلاق.

ثمّ بالغ سُبحانه في عَظَمة ذَنب الشِّرك بقوله: ﴿وَلَوْ﴾ أنّ هؤلاء الأنبياء معَ عُلُوّ مَقامهم، وكَمال قُربهم ﴿أَشرَكُوا﴾ بالله شيئاً في الألوهيّة أو العِبادة علىٰ فَرض المحال، والله ﴿لَحَبِطَ﴾ وذهَب ﴿عَنْهُم﴾ وبطَل ﴿مَا كَانُوا﴾ مُدّة أعمارهم ﴿يَعْمَلُونَ﴾ مِن الطّاعات والحَسنات، فلا يُثابون علىٰ شيءٍ مِنها، فكيف بمَن دُونهم لو أشرك! وفيه غاية التّرهيب.

أُولٰئِكَ ٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ[٨٩]

ثمّ بالغ سُبحانه في عِظَم شأن هؤلاء الأنبياء الثّمانية عشر بقوله: ﴿أُوْلٰئِكَ﴾ الأنبياء المُكرَمون هُم ﴿ٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ﴾ وفَهم حقائقه ودقائقه ﴿وَ﴾ علّمناهم ﴿ٱلْحُكْمَ﴾ والفَصل بين النّاس بالحَق، أو الحِكمة، ﴿وَ﴾أعطيناهم ﴿ٱلنُّبُوَّةَ﴾ ومَنصِب هِداية الخَلق.

ثمّ بشّر سُبحانه بنُصرة دِينه، وأعلن بغِناه عن إيمان المُشركين بالنّبوّة، أو بالثّلاثة المَذكورة بقوله: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هٰؤُلَاءِ﴾ المُشركون فقد ﴿وَكَّلْنَا بِهَا﴾ ووفّقنا لحِفظها ورِعاية حقّها ﴿قَوْماً﴾ آخرين ﴿لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ قيل: هُم الأنبياء الثّمانية عشر[٤]، وقيل: هُم الأنصار[٥]، وقيل: هُم المُهاجرون[٦].

---

١. تفسير الرازي ١٣: ٦٦.

٢. كذا، والظاهر: الأجداد الأبويين.

٣. كذا، والظاهر: الأجداد الأُمّيون.

٤ ـ ٣. تفسير الرازي ١٣: ٦٨.

وعن الصادق عليه السلام: «قوماً يُقيمون الصّلاة، ويؤتون الزّكاة، ويذكُرون الله كثيراً»[1].

أُولٰئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللهُ فَبِهُدَاهُمُ ٱقْتَدِهْ قُل لَاأَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ [٩٠]

ثمّ بالغ سُبحانه في تَحسين طَريقة الأنبياء المذكورين بقوله: ﴿أُولٰئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَا﴾ هُم ﴿ ٱللهُ﴾ إلىٰ كُلّ حقّ وخير، ووفّقهم لسُلوك الطّريق المُستقيم ﴿فَبِهُدَاهُمُ﴾ وطَريقتهم في المَعارف والأخلاق الحسَنة ﴿ٱقْتَدِهْ﴾ واتّبع.

في أفضلية خاتم النبيين صلى الله عليه وآله على جميع الأنبياء

قيل: فيه دَلالة علىٰ أفضليّته صلى الله عليه وآله مِن جميع الأنبياء؛ لأنّ خِصال الكَمال وصِفات الشّرف كانت مُتفرّقة فيهم، فدَاود وسُليمان كانا مِن أصحاب الشُّكر علىٰ النِّعمة، وأيّوب كان مِن أهل الصبْر علىٰ البَليّة، ويُوسف كان جامعاً بينهما، ومُوسىٰ كان صاحب المُعجزات القاهرة والتّواضُع والوَقار، وزكريّا كان كثير الذِّكْر، ويحيىٰ كان كثير الخَوف والبُكاء، وعيسىٰ كان كثير الزُّهد، وإسماعيل كان صاحب الصِّدق. وبالجملة قد غلَب علىٰ كُلٍّ مِنهم خَصلة مُعيّنة، فجَمع الله في حبيبه صلى الله عليه وآله جميع خِصالهم بأمره بالاقتداء بهم، ومَعلوم أنّه لَم يُقصّر في الامْتِثال[2].

ثمّ لمّا كان مِن أخلاق الأنبياء عدَم الطّمع في أموال النّاس، وتَرك سُؤال الأجر علىٰ تَبليغ الرِّسالة، أمره سُبحانه بإعلام النّاس بعدَم طَمعه في الأجر علىٰ تَبليغ المَعارف والأحكام التي جميعها في القُرآن بقوله: ﴿قُل لَاأَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً﴾ ولا أطلُب مِنكم علىٰ تَبليغ القُرآن جُعْلاً، كما لَم يسأله الأنبياء مِن قَبلي علىٰ تَبليغ الكُتب السّماويّة.

ثمّ نبّه علىٰ عِلّة عدم سُؤال الأجر علىٰ تَبليغ كِتابه بقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ﴾ وعِظةٌ مِن الله ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ والخَلق أجمعين مِن الإنس والجِنّ، والعرَب والعجَم، والأبيض والأسود، ولا ينبغي سُؤال الأجر علىٰ المَوعظة والتّذكير، لوجُوب كَون غرَض المُذكّر الآخرة، وفيه دَلالة علىٰ عُموم رِسالته، وعدَم اخْتِصاصها بقومٍ دُون قوم.

وَمَا قَدَرُوا ٱللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ ٱللهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ ٱلْكِتَابَ ٱلَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُوراً وَهُدىً لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا

---

١. المحاسن: ٨٨/٥٨٨، تفسير الصافي ٢: ١٣٧.

٢. تفسير الرازي ١٣: ٧٠، تفسير روح البيان ٣: ٦٢.

وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلِّمْتُم مَالَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ ٱللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ[٩١]

ثمّ لمّا أمر الله نبيّه ﷺ بترك سؤال الأجر على تبليغ القرآن، وأخبر بأنّه نزل مِن الله تذكرةً لجميع النّاس، وكان المُشركون وأهلُ الكِتاب مُنكرين لرِسالته وكِتابه، قائلين له: ما نزّل الله عليك كِتاباً ودِيناً، ردّهم الله تعالىٰ بقوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا ٱللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ وما عَرفوه حقّ مَعرفته.

في وجوب ارسال الرسول وانزال الكتاب على الله تعالىٰ عقلاً

وعن ابن عبّاس: ما عظّموه حقّ تَعظيمه[١]، حيثُ إنّهم طعَنوا في حِكْمته ولُطفه، وحَسَبوه لاعباً عابثاً بخَلقه العالَم ﴿إِذْ قَالُوا﴾ إنكاراً لِرسالتك وكِتابك، وكُفراناً لأعظم نَعمائه عليهم: ﴿مَا أَنزَلَ ٱللهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِن شَىْءٍ﴾ مِن الوَحي والكِتاب، مَع وُضوح أنّه مُنافٍ لحِكمته البالغة وتنزُّهه مِن العبث، فإنّه لا حِكمة في خَلق العالَم إلّا تَكميل النُّفوس البشريّة، وفِعليّة استِعداداتهم للفُيوضات الأبديّة بسَبب كمال مَعرفتهم، وصَلاح أخلاقهم، وحُسن أعمالهم، وذلك لا يتِم إلّا ببَعث الرّسول، وإنزال الكِتاب، وجَعل القَوانين والأحكام والثّواب والعِقاب والوَعظ والتّذكير، فالاعْتِراف بحِكمته تعالىٰ مُلازم للاعتِراف بجَميع ذلك.

رُوي أنّ مالك بن الصّيف مِن أحبار اليَهود ورُؤسائهم، خرَج معَ نفرٍ إلىٰ مكّة مُعاندين، ليسألوا رَسُول الله ﷺ «عن أشياء، وكان رَجلاً سميناً، فأتىٰ رَسُول الله ﷺ بمكّة فقال [له] ﷺ: أنشدك بالذي أنزل التّوراة علىٰ مُوسىٰ، هَل تجِد فيها أنّ الله يبغُض الحَبْر السّمين؟» قال: نعم. قال: «فأنت الحَبْر السّمين، وقد سمِنت مِن مكأكلتك[٢] التي تُطعِمك اليَهود ولستَ تصوم»[٣]. فضحِك القوم، فخجِل مالك بن الصّيف، فقال[٤]: ما أنزل الله علىٰ بشر مِن شيء، فلمّا رجَع مالك إلىٰ قومه قالوا له: [ويلك، ما هذا الذي بلغنا عنك، أليس أن الله أنزل التّوراة على موسى، فلِمَ قلت ما قلتَ؟ قال: أغضبني محمّد، فقلتُ ذلك، قالوا له:] وأنت إذا غضِبتَ تقول علىٰ الله غير الحقّ وتترُك دِينك، فأخذوا الرِّئاسة والحَبْريّة مِنه. وجعَلوهما إلىٰ كَعب بن الأشرف. فنزلت هذه الآية[٥].

وأمر الله نبيّه ﷺ بتَبكيتهم ونَقض قولهم بقوله: ﴿ قُلْ﴾ يا محمّد لهم: ﴿مَن أَنزَلَ﴾ مِن السّماء ﴿ٱلْكِتَابَ ٱلَّذِى جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ﴾ حالَ كَون ذلك الكِتاب ﴿نُوراً﴾ وظاهراً بنفسه، أو مظهراً لِما خَفي مِن العُلوم والمَعارف ﴿وَهُدىً﴾ ورَشاداً ﴿لِلنَّاسِ﴾ إلىٰ طَريق الفَلاح ومَقام القُرب مِن الله، أو إلىٰ

---

١. تفسير الرازي ١٣: ٧٢.

٢. المأكلة: ما يؤكل، والطُّعمة والمرتزق.

٣. زاد في تفسير روح البيان: أي تمسك.

٤. زاد في تفسير روح البيان: غضباً.

٥. تفسير روح البيان ٣: ٦٣.

نُبوّة محمّد ﷺ وصِدق كِتابه.

ثمّ أنتم أيُّها اليَهود معَ عِظَم شأن هذا الكِتاب ﴿تَجْعَلُونَهُ﴾ في ﴿قَرَاطِيسَ﴾ وتكتُبونه في أوراق مُتفرّقة، لكَي تستدلّوا بالأوراق التي ﴿تُبْدُونَهَا﴾ وتُظهرون للعَوامّ ما تُريدون إظهاره مِنها ﴿وَتُخْفُونَ﴾ مِنهم ﴿كَثِيراً﴾ مِن تِلك الأوراق مِمّا فيه [من] نُعوت محمّد وكِتابه، وصِفات أصحابه، وبعض الأحكام الذي تُحبّون إخفاءه[١] كحُكم رَجْم المُحصَن وحُكم القِصاص، وغيرهما ﴿وَعُلِّمْتُم﴾ بسبَب تَفسير محمّد ﷺ آيات ذلك الكِتاب، مِن العُلوم ﴿مَالَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾ مِن قَبل.

قيل: إنّ اليَهود كانوا يقرأون الآيات المُبشّرة بمَقدم النبيّ ﷺ وبِعثته، وما كانوا يفهَمون المُراد مِنها، فلمّا بُعث ﷺ فسّرها لهم[٢].

ثمّ أمر الله سُبحانه نبيّه ﷺ بالمُبادرة إلىٰ الجَواب عن السُّؤال عن مُنزل كِتاب التَوراة بقوله: ﴿قُلْ﴾ أنزله ﴿اللهُ﴾ تَنبيهاً علىٰ غاية وضُوحه بحيث لا شُبهة لأحدٍ فيه، وتعيُّنه بحيث لا يُمكن غيره، أو علىٰ بَهْتهم بحيث لا يقدِرون عليه.

ثمّ هدّدهم سُبحانه بعدَ إصرارهم علىٰ الكُفر وعدَم ارتِداعهم عنه بالحُجَج القاهرة بقوله: ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ ودَعْهم ﴿فِى خَوْضِهِمْ﴾ وباطِلهم - عن القمّي: [يعني] في ما خاضوا فيه مِن التَكذيب[٣] - ﴿يَلْعَبُونَ﴾ فإنّه ليسَ عليك إلّا التَبليغ، وإقامة الحُجَج، وإنّما علينا حِسابهم وعِقابهم.

وَهٰذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ[٩٢]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ بَيان فَساد قولهم: (ما أنزل الله علىٰ بشَرٍ مِن شيء) أعلن بنُزول القُرآن من عندِه تعالىٰ بقوله: ﴿وَهٰذَا﴾ القرآن ﴿كِتَابٌ﴾ عظيم الشّأن، فيه دَلائل علىٰ أنّا ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ بالوَحي وبوَساطة جَبْرئيل، وتَولّينا تَركيب ألفاظه وعِباراته، بِلا دَخل بشر فيه، مِنها أنّه ﴿مُبَارَكٌ﴾ كثيرٌ خَيره، دائمٌ نَفعه. وقد مَرّ في بعض الطّرائف أنّه ما مِن عِلم إلّا وأصله فيه، وأنّ لِتلاوته آثاراً دُنيويّة وأُخرويّة[٤].

قيل: إنّه مُبارك علىٰ العَوامّ بأن يدعُوهم إلىٰ ربّهم، وعلىٰ الخَواصّ بأن يهدِيهم إليه، وعلىٰ خَواصّ الخَواصّ بأن يُوصِلهم إليه، ويُخلّقهم بأخلاقه[٥].

ومنها أنّه ﴿مُصَدِّقُ﴾ ومُوافق للكِتاب ﴿ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ مِن التَوراة والإنجيل في العُلوم

---

١. كذا، والظاهر: التي تحبّون إخفاءها.
٢. تفسير الرازي ١٣: ٧٩.
٣. تفسير القمي ١: ٢١٠، تفسير الصافي ٢: ١٣٨.
٤. راجع: الطرفة (٢٧) و(٣٠) من المقدمة.
٥. تفسير روح البيان ٣: ٦٤.

والمَعارف، معَ اُمّيّة مَن جاء به، أو أنّه نازِلٌ حسَب ما وصف في الكُتب، وكان إنزاله ليتبرّك النّاس به ﴿وَلِتُنذِرَ﴾ به يا محمّد مَن يسكُن ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ﴾ يكون ﴿حَوْلَهَا﴾ وأطرافها مِن أهل الشّرق والغَرب.

عن ابن عبّاس رضي الله عنه: سُمّيت مكّة بأمّ القُرىٰ؛ لأنّ الأرض دُحِيت مِن تحتها[١].

وقيل: لأنّها قِبلة أهل الدُّنيا[٢] ومحَجّهم، فصارت كالأصل، وسائر البِلاد والقُرىٰ تابعة لها، ويجتمع الخَلق إليها كما يجتمع الأولاد إلىٰ الأمّ، أو لأنّ الكعبة أوّل بيت وُضع للنّاس، أو لأنّ بكّة أوّل بَلدة شُكنت.

قيل: احتجّت طائفةٌ مِن اليَهود بقوله: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ على أنه صلّى الله عليه وآله كان رَسُولاً إلىٰ العرَب[٣]. وفيه ما لا يخفىٰ مِن الوَهن.

ثمّ نبّه سُبحانه بأنّ عدَم الإيمان بالقُرآن لا يكون إلّا للعِناد، بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ ويخافون عَذاب الله، وطهُرت قُلوبُهم مِن حُبّ الدُّنيا ودَنَس العصبيّة والعِناد، ككثيرٍ مِن الأحبار والرُّهبان، بمُجرّد سَماع القُرآن ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ بِلا حاجة إلىٰ دَلالة أمر خارج علىٰ صِدقه؛ لأنّ خَوف الآخرة يحمِلهم علىٰ النّظر والتّدبُّر فيه، فيظهَر لهم ما يصدّقه مِن كَونه بجِهة الفَصاحة والبَلاغة في أعلىٰ دَرجة الإعجاز، وكَونه مُشتملاً علىٰ الأخبار الغيبيّة، وكَونه مُوافقاً للكُتب السّماويّة في العُلوم والمَعارف، معَ كَون مَن جاء به اُمّيّاً، إلىٰ غير ذلك مِن شَواهد صِدقه.

ثمّ بين سُبحانه أنّ خَوف الآخرة كما يحمِل علىٰ الإيمان بمحمّد صلّى الله عليه وآله وكِتابه، يحمِل علىٰ العِبادات التي أهمّها وأفضلها الصّلَوات الخَمس، بقوله: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ﴾ الخَمس بعدَ الإيمان بمحمّد صلّى الله عليه وآله وكِتابه ﴿يُحَافِظُونَ﴾ ويُداومون.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَاأَنْزَلَ ٱللهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ ٱلظَّالِمُونَ فِى غَمَرَاتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ[٩٣]

ثمّ لمّا كان العِلم بقَباحةِ أمرٍ مِن أقوىٰ الرّوادع عن ارْتِكابه، أكّد صِدق القُرآن بأنّ الافتِراء علىٰ الله في دَعوىٰ الرّسالة ونِسبة القُرآن إليه، مِن أشنع الظُّلم، بقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ علىٰ نفسه وأقبح قولاً

---

١ ـ٣. تفسير الرازي ١٣: ٨١.

﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ واختلق ﴿عَلَى ٱللَّهِ كَذِباً﴾ بادِّعاء أنّ القرآن مِنه معَ عدَم كَونه مِنه ﴿أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ﴾ من قِبَله دِين وشرع ﴿وَ﴾ الحالُ أنّه ﴿لَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ﴾ مِن الدِّين ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ﴾ وأخترع مِن نفسي كِتاباً ﴿مِثْلَ مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ مِن الكِتاب.

قيل: إنّ الفقَرة الأُولىٰ في مُسيلمة الكذّاب ـ صاحب اليَمامة، فإنّه كان يقول: محمّد رَسُول قُريش، وأنا رَسُول بني حنيفة ـ والأسود العَنْسي[١].

والثّانية في عبدالله بن سعد بن أبي سَرح، رُوي أنّه كان يكتُب الوحي، فلمّا نزَل قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِن طِينٍ﴾ إلىٰ قوله ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ﴾[٢] وأملاه الرَّسُول ﷺ عليه، عجِب عبدُ الله منه فقال: فتبارك الله أحسن الخالقين، فقال الرَّسُول ﷺ: «هكذا نزلَتْ الآية» فسكَت عبدُ الله، وقال: إن كان محمّد صادقاً، فقد أُوحي إليَّ مثله، وإن كان كاذباً فقد عارضته[٣].

والثّالثة في النّضر بن الحارث، فإنّه قال: لَو نشاء لقُلنا مثل هذا[٤].

في (الكافي): عن أحدهما عليهما السلام: «أنّها نزلت في ابن أبي سرح الذي كان عُثمان استعمله علىٰ مِصر، وهُو مِمّن كان رَسُول الله ﷺ يوم فتح مكّة هدَر دَمه، وكان يكتُب لرَسُول الله ﷺ، فإذا أنزل الله عزّ وجلّ ﴿إنّ الله عزيز حكيم﴾ كتب: إن الله عليم حكيم، فيقول له رَسُول الله ﷺ: «دَعْها، فإنّ الله عليم حكيم» وكان ابن أبي سرح يقول للمُنافقين: إنّي لأقول مِن نفسي مِثل ما يجيء به فما يُغيِّر عليّ، فأنزل الله تَبارك وتعالىٰ فيه الذي أنزل[٥].

في ارتداد عبدالله بن أبي سرح

وعن القُمّي رحمه الله: عن الصادق عليه السلام قال: «إنّ عبدَالله بن سعد بن أبي سرح أخا عُثمان [بن عفان] مِن الرّضاعة أسلم وقدِم المَدينة، وكان له خَطّ حَسَن، وكان إذا نزَل الوَحي علىٰ رَسُول الله ﷺ دَعاه فكتَب ما يُمليه عليه رَسُول الله ﷺ [من الوحي]، فكان إذا قال رَسُول الله ﷺ. ﴿سميعٌ بصير﴾ يكتُب: سمَيع عليم، وإذا قال: ﴿والله بما تعملون خبير﴾ يكتُب: بصير، ويُفرّق بَين التّاء واليَاء، وكان رَسُول الله ﷺ يقول: هُو واحد، فارْتدّ كافراً ورجَع إلىٰ مكّة وقال لقُريش: والله ما يدري محمّد ما يقول، أنا أقول مِثل ما يقول فلا يُنكِر عليَّ ذلك، فأنا أُنزل مِثل ما أنزل [الله]، فأنزل الله علىٰ نبيّه ﷺ في ذلك: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾.

---

١. تفسير الرازي ١٣: ٨٣. ٢. المؤمنون: ١٢/٢٣ ـ ١٤.
٣. تفسير الرازي ١٣: ٨٤، أسباب النزول للواحدي: ١٢٥، مجمع البيان ٤: ٥١٨. ٤. تفسير الرازي ١٣: ٨٤.
٥. الكافي ٨: ٢٤٢/٢٠٠، تفسير الصافي ٢: ١٣٩.

فلمّا فتَح رَسُول الله ﷺ مكّة أمر بقتله، فجاء به عُثمان، قد أخذ بيده ورَسُول الله ﷺ في المَسجد، فقال: يارَسُول الله اعْفُ عنه، فسكَت رَسُول الله ﷺ، ثمّ أعاد، فسكت[رسول الله ﷺ]، ثمّ أعاد، فقال: هُو لك، فلمّا مَرّ قال رَسُول الله ﷺ لأصحابه: ألم أقُل مَن رآه فليقتُلْه. فقال رَجُلٌ: كانت عيني إليك يا رَسُول الله أن تُشير إليّ فأقتُله، فقال رَسُول الله ﷺ: إنّ الأنبياء لا يقتُلون بالإشارة، فكان مِن الطُّلَقاء»[1].

وعن العَيّاشي رحمه الله: عن الباقر عليه السلام في تأويله: «مَن ادّعىٰ الإمامة دُون الإمام»[2].

ثمّ هدّد الله تعالىٰ الفِرَق الثّلاث بسُوء حالهم عندَ المَوت بقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ يا محمّد ﴿إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ مِن الفِرَق الثّلاث وغيرهم مِن الكُفّار خائضون ﴿فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾ وسَكَراته وشدائده، لرأيتَ أمراً هائلاً ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ المُوكّلون بقَبض الأرواح ﴿بَاسِطُوٓاْ﴾ ومادّوا ﴿أَيْدِيهِمْ﴾ لقبض أرواحهم ـ كالغَريم المُلِحّ الذي يبسُط يده إلىٰ مَن عليه الحقّ، ويعنُف عليه في المُطالبة، ولا يُمهِله ـ قائلين لهم تغليظاً وتعنيفاً: ﴿أَخْرِجُوٓاْ﴾ إلينا ﴿أَنفُسَكُمُ﴾ وأرواحكم مِن أجسادكم.

وقيل: إنّ المُراد مِن الملائكة: ملائكة العَذاب وهُم باسِطو أيديهم لتَعذيبهم[3]، يقولون: أخرجوا أنفسكم مِن أيدينا وخلّصوها مِن العَذاب إن قدَرتُم.

﴿ٱلْيَوْمَ﴾ وفي هذه السّاعة، أو في الزّمان المُمتدّ بعدَ الموت ﴿تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ وتُعاقبون عِقاباً مُتضمّناً لغاية الذُّل والتّحقير.

عن الباقر عليه السلام: «العَطش يومَ القِيامة»[4].

﴿بِمَا كُنتُمْ﴾ في الدُّنيا ﴿تَقُولُونَ﴾ وتفترون ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ قولاً ﴿غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ مِن اتِّخاذه الوَلد، أو كَون الشّريك له في المُلك، أو ادِّعاء النُّبوّة والوَحي ﴿وَكُنتُمْ﴾ تعْرضون ﴿عَنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ القُرآنية، وبَراهين تَوحيده، و﴿تَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن الإقرار بها والتّسليم لها.

وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ[٩٤]

ثمّ لمّا كان المُشركون يفتخِرون بالمال والأولاد والعَشيرة، حكىٰ سُبحانه مُخاطبته إيّاهم يومَ القِيامة

---

١. تفسير القمي ١: ٢١٠، تفسير الصافي ٢: ١٣٩.
٢. تفسير العياشي ٢: ١٤٥٦/١٠٩، تفسير الصافي ٢: ١٤٠.
٣. تفسير الرازي ١٣: ٨٥.
٤. تفسير العياشي ٢: ١٤٥٧/١١٠، تفسير الصافي ٢: ١٤٠.

تَرهيباً لهم بقوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ مِن الدُّنيا ﴿فُرَادَىٰ﴾ ومُنقطعين عن الأموال والأولاد والعَشيرة ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وعلىٰ الهَيئة التي وُلدتم عليها في الدُّنيا.

عن النبي ﷺ: «أنهم يُحشرون عُراةً حُفاةً غُرلاً»[١]، قالت عائشة: واسَوأتاه! الرَّجُل والمرأة كذلك، فقال ﷺ: «﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾»[٢].

وعنه ﷺ أنّه قرأ علىٰ فاطمة بِنت أسد هذه الآية، فقالت: وما فُرادىٰ؟ فقال: «عُراة»، قالت: واسوأتاه، فسأل الله أن لا يُبدي عَورتها، وأن يحشُرها بأكفانها[٣].

وعن الصادق عليه السلام: «تنوَّقوا في الأكفان، فإنّكم تُبعثون بها»[٤].

ثمّ وبّخهم علىٰ عدَم تَقديم شيءٍ مِنها إلىٰ الآخرة بصَرفه في سبيل الله بقوله: ﴿وَتَرَكْتُم﴾ وخلّفتم ﴿مَا خَوَّلْنَاكُمْ﴾ وتفضّلنا عليكم بما كنتُم تفتخِرون به، وتُؤثرونه علىٰ الآخرة مِن الحُطام ﴿وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ وفي الدُّنيا التي انتقلتُم مِنها إلىٰ هذه الدّار، وما قدّمتم مِنه إليها شيئاً، وما حَملتم معكم مِنه نقيراً، وحرَمتُم أنفسكم مِن الانتِفاع به.

ثمّ وبّخهم علىٰ عِبادة الأوثان بزَعم أنّهم شُفعاؤهم بقوله: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ﴾ اليوم ﴿شُفَعَاءَكُمُ﴾ مِن الأصنام ﴿ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ مُضافاً إلىٰ الرّجاء بشَفاعتهم ﴿أَنَّهُمْ فِيكُمْ﴾ وفي خَلقكم وعِبادتكم ﴿شُرَكَاؤُا﴾ لله ﴿لَقَد تَقَطَّعَ﴾ الوَصْل الذيكان ﴿بَيْنَكُمْ﴾ وبينهم، وآنفصم حَبلُ مَودّتكم، وتشتّت جَمعُكم، ﴿وَضَلَّ﴾ وضاع ﴿عَنكُم﴾ اليومَ ﴿مَا كُنتُمْ﴾ في الدُّنيا ﴿تَزْعُمُونَ﴾ وتتوهّمون مِن شَفاعتهم ونَفعهم.

عن الصادق عليه السلام: «نزلتْ هذه الآية في مُعاوية وبني أُميّة وشُركائهم و أئمّتهم[٥] ﴿لَقَد تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ يعني المودّة».

إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ[٩٥]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ بَيان التّوحيد وجُملة مِن دَلائله، وإثبات النّبوّة وصِدق القُرآن تبعاً واستِطراداً، عاد إلىٰ إقامة البُرهان علىٰ وجود الصّانع القادر الحَكيم، ووَحدانيّته تَنبيهاً علىٰ أنّه المَقصود الأهمّ في

---

١. غُرلاً: جمع أغرل، وهو الذي لم يُختَن.
٢. مجمع البيان ٤: ٥٢١، تفسير روح البيان ٣: ٦٩، والآية من سورة عبس: ٨٠/٣٧.
٣. الخرائج والجرائح ١: ٩١/١٥٠، تفسير الصافي ٢: ١٤٠.
٤. الكافي ٣: ١٤٩/٦، تفسير الصافي ٢: ١٤٠.
٥. تفسير القمي ١: ٢١١، تفسير الصافي ٢: ١٤١.

السُّور المُباركة بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ﴾ كالحِنطة والشّعير وغيرهما وخالقه ﴿وَ﴾ فالق ﴿ٱلنَّوَىٰ﴾ التي تكون في جَوف الثّمرات كالتّمر والمِشمش وأمثالهما، وخالقها، كما عن ابن عبّاس [1]. أو شاقّهما بالنباتات والأشجار، كما عن أكثر المُفسّرين [2]. فإنّ الحَبّة والنّواة إذا وقعتا في الأرض الرّطبة، ومرّت بهما مُدّة، يشُقّهما [3] الله تعالىٰ شُقّتين: إحداهما في أعلاهما، والأُخرىٰ في أسفلهما.

ثمّ ﴿يُخْرِجُ﴾ النّبات أو الشّجر ﴿ٱلْحَيَّ﴾ بالرُّوح النّباتي، والقُوّة النّامية مِن الشّقّ الأعلىٰ ﴿مِنَ﴾ الحَبّ والنّوىٰ ﴿ٱلْمَيِّتِ﴾ لعدَم تِلك الرُّوح فيهما، والعِرق الحَيّ بالرُّوح النّباتي مِن الشّقّ الأسفل منهما، ﴿وَ﴾ هُو تعالىٰ ﴿مُخْرِجُ﴾ الحَبّ أو النّوىٰ ﴿ٱلْمَيِّتِ مِنَ﴾ النّبات أو الشّجر ﴿ٱلْحَيِّ﴾.

وفي (الكافي): عن الصادق عليه السلام، في حديث الطِّينة: «تأويل الحَبّ بطِينة المُؤمنين [التي] ألقىٰ الله تعالىٰ عليها محبّته، وتأويل النّوىٰ بطِينة الكافرين الذِين نأوا عن كُلّ خير» قال: «وإنّما سُمّي النّوىٰ مِن أجل أنه نأىٰ عن كُلّ خَير وتَباعد منه» [4].

وعن القُمّي رحمه الله قال: «الحَبّ ما أحبّه، والنّوىٰ ما نأىٰ عن الحقّ».

وقال أيضاً: «فالق الحَبّ أي يفلِق العِلم من الأئمّة، والنّوى ما بعُد عنه» [5].

وعن الصادق عليه السلام، في حديث الطِّينة [6]: فقال الله: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾ فالحَيّ: المُؤمن الذي تخرُج طِينتُه مِن طينة الكافر، والميّت الذي يخرُج مِن الحَيّ هُو الكافر الذي يخرُج مِن طِينة المُؤمن» [7].

وعن ابن عبّاس رضي الله عنه، قال: يُخرج المُؤمن مِن الكافر، ومُخرج الكافر مِن المُؤمن [8].

وعنه رضي الله عنه، في روايةٍ أُخرىٰ: أنّ المُراد مِن إخراج الحَيّ مِن الميّت إخراج الحَيوان مِن النّطفة أو البيضة، ومن إخراج الميّت مِن الحَيّ إخراج النّطفة أو البيضة مِن الحَيوان [9].

قيل: لمّا كان الاعْتِناء بإخراج الحَيّ مِن الميّت أكثر مِن إخراج الميّت مِن الحيّ، أتىٰ سُبحانه في بَيان الأوّل بالجُملة الفِعليّة للدّلالة علىٰ اعْتِناء الفاعل بفِعله [10]، وفي بَيان الثّاني بالجُملة الاسْميّة غير الدّالّة عليه [11].

---

١. تفسير الرازي ١٣: ٨٩.
٢. مجمع البيان ٤: ٥٢٣، عن الحسن وقتادة والسدّي.
٣. في النسخة: يشق.
٤. الكافي ٢: ٤/٧، تفسير الصافي ٢: ١٤١.
٥. تفسير القمي ١: ٢١١، تفسير الصافي ٢: ١٤١.
٦. في النسخة: الغيبة.
٧. الكافي ٢: ٤/٧، تفسير الصافي ٢: ١٤١.
٨. تفسير الرازي ١٣: ٩٢، تفسير روح البيان ٣: ٧٠.
٩. تفسير الرازي ١٣: ٩٢.
١٠. تفسير الرازي ١٣: ٩٣.
١١. تفسير الرازي ١٣: ٩٣.

ثمّ لمّا أثبت سُبحانه كمال قُدرته وحِكمته، خَصّ استِحقاق العِبادة بذاته المُقدّسة بقوله: ﴿ذٰلِكُمُ﴾ القادر المُدبّر الحَكيم ﴿ٱللَّهُ﴾ المُستحقّ للعِبادة دُون غيره ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ وكيف تُصرَفون عنه إلىٰ غيره، وتترُكون عِبادته، وتشتغلون بعِبادة خلقه؟!

وقيل: إنّ المراد: لمّا أنّه تعالىٰ يُخرج الحَيّ مِن الميّت، والميّت مِن الحَيّ، كيف تُنكرون المَعاد والإحياء بعدَ الموت[1]؟

فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَناً وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَاناً ذٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ * وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُمَاتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ[٩٦ و ٩٧]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ الاستِدلال علىٰ تَوحيده بفَلْقه الحَبّ والنوىٰ، وعَجيب تصرُّفه في الأرضيّات، استدلّ بما هُو أعجب مِنه، مِن ظُهور كَمال قُدرته بتصرُّفه في الفَلَكيّات، وفَلَقه الفَجر، بقوله: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ وخالق عَمود الفَجر، أو شاقّ ظُلمة اللّيل بنُور الصُّبح، أو شاقّ الصُّبح ببَياض النّهار ﴿وَجَعَلَ﴾ بقُدرته الكاملة وحِكمته البالغة ﴿ٱلَّيْلَ﴾ لأن يكون للنّاس وعامّة الحَيوانات ﴿سَكَناً﴾ وزَمان وُقوف عن الحرَكة، أو وَقت راحة لاحْتِياجهم إلىٰ الرّاحة والسُّكون.

في (نهج البلاغة): «ولا تسِرْ أوّل اللّيل فإنّ الله جعَله سَكَناً، وقدّره مُقاماً لا ظَعْناً، فأرِحْ فيه بَدَنك وروِّح ظَهرك»[2].

وعن الباقر عليه السلام: «تزوّج باللّيل، فإنّ الله جعَله سَكَناً»[3].

وفي (الكافي): كان عليُّ بن الحُسين عليهما السلام يأمُر غِلمانه أن لا يَذْبَحوا حتّىٰ يَطْلُع الفَجر، ويقول: «إنّ الله جعَل اللّيل سَكَناً لكُلّ شيء»[4].

﴿وَ﴾ جعل ﴿ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ علىٰ أدوارٍ مُختلفة ليكُونا ﴿حُسْبَاناً﴾ ومِقداراً للأوقات، فإنّه تعالىٰ قدّر حرَكة الشّمس والقمر بمِقدار مِن السُّرعة والبُطء لا يتجاوزانه إلىٰ أقصىٰ مَنازلهما، فتُتِمّ الشّمس جميعَ البُروج الاثني عشر في ثلاثمائة وخمسة وستّين يوماً ورُبع يوم، ويُتِمّ القمر في ثمانية وعشرين يوماً، وبهذا التّقدير تنتظم مَصالح العالَم المُتعلّقة بالفُصول الأربعة مِن نَضْج الثّمار وأُمور الحَرث والنسل، ونحو ذلك مِمّا يتوقّف عليه النِّظام ﴿ذٰلِكَ﴾ التّقدير والتّسيير بالحِساب المُعيّن

---

١. تفسير الرازي ١٣: ٩٤.
٢. نهج البلاغة: ٣٧٢ الرسالة ١٢، تفسير الصافي ٢: ١٤١.
٣. الكافي ٥: ٣/٣٦٦، تفسير الصافي ٢: ١٤١.
٤. الكافي ٦: ٣/٢٣٦، تفسير الصافي ٢: ١٤٢.

﴿تَقْدِيرُ﴾ المُدبّر ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ المُقتدر الذي قهرهما بإرادته ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ بتَدبيرهما وتَنظيم أُمور خَلقه.

﴿وَهُوَ﴾ القادر ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ﴾ وأنشأ بقدرته ﴿لَكُمُ﴾ ولأجل انْتِفاعكم ﴿ٱلنُّجُومَ﴾ المُختلفة في المَواضع المُتفرّقة مِن الشِّمال والجنوب والمَشرق والمَغرب ﴿لِتَهْتَدُوا﴾ وتعرِفوا ﴿بِهَا﴾ الطُّرق إلى البلاد ﴿فِى ظُلُمَاتِ﴾ اللّيالي في ﴿ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ والمَفاوز واللُّجَج. وفي تَخصيص هذه المَنفعة بالذِّكر بعدَ ذِكر مَنافعها إجمالاً إشعارٌ بعَظَمة نِعمة الاهْتِداء.

وعن القمّي ﷺ: «النُّجوم آلُ محمّد»[1].

ثمّ مَنّ سُبحانه علىٰ النّاس بتَعليمهم دَلائل تَوحيده بقوله: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا﴾ وشرَحنا ﴿الآيَاتِ﴾ والحُجَج البيِّنات علىٰ التّوحيد ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ويتدبّرون الآيات، ويستدلّون بالمَحسُوسات علىٰ المَعقولات، وينتقِلون مِن المَشهودات إلىٰ المُغيّبات، فإنّهم المُنتفعون بها.

وَهُوَ ٱلَّذِى أَنْشَأَكُمْ مِن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ[٩٨]

ثمّ استدلّ سُبحانه علىٰ تَوحيده وكمال قُدرته وحِكمته بخَلق الإنسان واخْتِلاف حالاته بقوله: ﴿وَهُوَ﴾ الله ﴿ٱلَّذِى أَنشَأَكُمْ﴾ وأوجدكم معَ كَثْرتكم ﴿مِن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ هِي أبوكم آدم، فإنّ حَوّاء خُلقت مِن ضِلعه، وعيسىٰ وإن كان خُلق مِن نَفخ رُوح القُدُس إلّا أنّه مِن قِبَل أُمّه مَريم ينتهي إليه وُجوده، فالكُلّ مُنتهون إلىٰ أبٍ واحد، وذلك معَ دَلالته علىٰ كَمال القُدرة مِنّة عظيمة، لكَونه سبباً للألفة.

ثمّ ذكَر سُبحانه اخِتلاف حالاتهم بقوله: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾ وثَبات مُستمرّ لكم في الأصلاب، أو في الأرحام، أو فَوق الأرض ﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ وثَبات غير مُستمرّ في الأصلاب، أو في الرَّحم، أو في القُبور. وإنّما عبّر عنه بالاسْتِيداع تَشبيهاً له بالوَديعة عندَ الوَدَعيّ في سُرعة الزّوال، أو في كَون الثُّبوت في الرَّحم، أو في القُبور مِن قِبَل الأب، أو مِن سائر النّاس.

وقيل: إنّ المُراد مِن المُستقرّ والمُستودَع مَكان الاسْتِقرار والاسْتِيداع[2].

عن الباقر عليه السلام أنّه قال لأبي بصير حين سأله عن هذه الآية: «ما يقول أهلُ بَلَدك الذي أنت فيه؟»، قال: [قلت:] يقولون مُستقرّ في الرَّحم، ومُستودَع في الصُّلب، فقال: «كذَبوا، المُستقَرّ مَن استقرّ الإيمان في قَلبه فلا يُنزَع مِنه أبداً، والمُستودَع الذي يُستودع الإيمان زماناً ثمّ يُسلبه، وقد كان الزُّبير

---

١. تفسير القمي ١: ٢١١، تفسير الصافي ٢: ١٤٢.
٢. تفسير الرازي ١٣: ١٠٣.

مِنهم»[١].

وعن الصادق عليه السلام أنّه سُئل عنها فقال: «مُستقرّ في الرّحم، ومُستودَع في الصُّلب، وقد يكون مُستودَع الإيمان ثمّ يُنزع مِنه، ولقد مشىٰ الزُّبير في ضوء الإيمان ونُوره حينَ قُبض رَسُول الله صلى الله عليه وآله حتّىٰ مشىٰ بالسّيف وهُو يقول: لا نُبايع إلّا عليّاً»[٢].

وفي رِوايةٍ قال: «المُستقرّ الثّابت، والمُستودَع المُعار»[٣].

وعن الكاظم عليه السلام، في هذه الآية: «ما كان مِن الإيمان المُستقرّ فمُستقرّ إلىٰ يوم القِيامة وأبداً، وما كان مُستودَعاً سلَبه الله قبل المَمات»[٤].

وفي (الكافي): عنه عليه السلام: «أنّ الله خلَق النّبيّين علىٰ النُّبوّة فلا يكونون إلّا أنبياء، وخلَق المؤمنين على الإيمان فلا يكونون إلّا مؤمنين، وأعار قوماً إيماناً، فإن شاء تمّمه لهم، وإن شاء سلَبهم إيّاه» قال: «وفيهم جرت ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾».

وقال: «إنّ فُلاناً كان مُستودعاً إيمانه، فلمّا كذَب علينا سلب إيمانه ذلك»[٥].

وقيل: إنّ المُستقرّ حالُ الإنسان بعدَ الموت، فإنّ السّعادة والشّقاوة تبقىٰ بعدَ الموت أبداً، والمُستودَع حالةُ قبلَ الموت، فإنّه يتبدّل، فقد يكون الكافر مُؤمناً، والمُؤمن قد يكون زِنديقاً، فلكون حالاته في شَرَف الزّوال شُبّهت بالوَديعة.

وعلىٰ أيّ تقدير، فإنّ اختِلاف الحالات معَ اشتِراك جَميع أفراد الإنسان في الجِسميّة ولَوازمها، دالٌّ علىٰ أنّه بإرادة القادر المُختار الحَكيم[٦].

ثمّ أظهر سُبحانه علىٰ النّاس بتوضيح دَلائل تَوحيده بقوله: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا﴾ وشرَحنا ﴿الْآيَاتِ﴾ وأدلّة التّوحيد ﴿لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ ويفهمون دَقائق الأُمور. وإنّما ذكَر في الآية السّابقة ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، وفي هذه الآية ﴿لِقَومٍ يَفْقَهُونَ﴾ لأن دَلالة النُّجوم ومَنافعها علىٰ قُدرته تعالىٰ وحِكمته أوضح مِن دَلالة إيجاد نُفوس كثيرة مِن نفسٍ واحدة واختِلاف حالاتها، فإنّها مُحتاجة إلىٰ التأمُّل والدِقّة.

وَهُوَ ٱلَّذِى أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّماءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ

---

١. تفسير العياشي ٢: ١٤٦٤/١١١، تفسير الصافي ٢: ١٤٢.
٢. تفسير العياشي ٢: ١٤٦٦/١١١، تفسير الصافي ٢: ١٤٢.
٣. تفسير العياشي ٢: ١٤٧٠/١١٣، تفسير الصافي ٢: ١٤٢.
٤. تفسير العياشي ٢: ١٤٦٧/١١١، تفسير الصافي ٢: ١٤٢.
٥. الكافي ٢: ٤/٣٠٦، تفسير الصافي ٢: ١٤٣.
٦. تفسير الرازي ١٣: ١٠٣.

خَضِراً نُخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُتَرَاكِباً وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِن أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ٱنْظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِى ذٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ[٩٩]

ثمّ استدلّ سُبحانه علىٰ تَوحيده وقُدرته بإنزال الأمطار، وإنبات الزُّروع والأشجار مِن الحَبّ والنَّوىٰ، وإخراج الحُبوب والأثمار واخْتِلاف حالاتها، بقوله: ﴿وَهُوَ﴾ القادر ﴿ٱلَّذِى أَنزَلَ﴾ بقُدرته ﴿مِنَ ٱلسَّمَاءِ﴾ المعروف[١]، أو مِن جِهة العُلُوّ بالأمطار ﴿مَاءً﴾ مُباركاً.

ثمّ بيّن سُبحانه أعظم فوائد الإنزال بتَلوين الخِطاب إعظاماً لنفسه بقوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ مِن الأرض ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ مِن الزّرع والشّجر وغيرهما مِمّا له نَبات.

ثمّ لمّا أشار في قوله: ﴿فالق الحَبّ والنّوىٰ﴾[٢] إلىٰ ما ينبُت مِن الحَبّ وهُو الزّرع، وإلىٰ ما ينبُت مِن النّوىٰ وهُو الشّجَر، ذكَر القِسمين المَذكورين وبدأ بذِكر ما يخرُج مِن نَبات الزّرع بقوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ﴾ نَبتاً غضاً ﴿خَضِراً﴾ مُتشعّباً مِن أصل النّبات الخارج مِن الحَبّ، ثمّ ﴿نُخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُتَرَاكِباً﴾ مُنضَداً بَعضه فَوق بَعض كسُنبل الحِنطة والشّعير وأمثالهما.

ثمّ ذكَر الشّجر وما يخرُج مِنه، وبدأ بذِكْر النّخل لكونها أعظم نَفعاً بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ﴾ لا مِن جَميعها، بَل ﴿مِن﴾ خُصوص ﴿طَلْعِهَا﴾ وهُو شيء يخرُج مِنها كأنّه نَعْلان مُطبَقان، يخرُج ﴿قِنْوَانٌ﴾ وأعذاق شِبْه عنَاقيد العِنب، يخرُج مِنها التّمر ﴿ دَانِيَةٌ﴾ مُلتفّة مُتقاربة، أو بعضُها قريبة مِن المُجتني، سَهلة المُجتنىٰ، وبعضُها بعيدة لَم تُذكر اخْتِصاراً.

ثمّ ذكَر أنفع الأشجار بعدَ النّخل بقوله: ﴿وَجَنَّاتٍ﴾ وبَساتين ﴿مِنْ أَعْنَابٍ﴾ مُختلفة بالصِّنف ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴾ أخرجنا مِن الأرض بذلك الماء الواحد بالطَّبع، حالَ كَون كُلٍّ مِن الأنواع الثّلاثة ﴿مُشْتَبِهاً وَ﴾ مُتماثلاً في الأوراق ﴿غَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ في الثّمَر طعماً وشكلاً، فإنّ بعضَه حُلوٌ وبعضَه حامَضٌ، وبعضَه حُلوٌ حامِض.

وقيل: إنّ بعضَ الثّمرات مُتشابه في الهَيئة واللّون والطّعم، وبعَضَها غيرُ مُتشابه[٣].

﴿ٱنْظُرُوا﴾ أيُّها النّاس بنظَر الاعْتِبار إلىٰ كُلّ شَجر، و﴿إِلَىٰ ثَمَرِهِ﴾ الحاصل مِنه ﴿إِذَا أَثْمَرَ﴾ وحينَ أظهر أُكُلَه، كيف يكون صغيراً ضَئيلاً لا يُنتفع به ﴿وَ﴾ إلىٰ ﴿يَنْعِهِ﴾ ونَضجه، أو حالَ نَضجه، كيف يصير كبيراً لذيذاً نافعاً مَع كَونه مِن أرضٍ واحدة وماء واحد! ﴿إِنَّ فِى ذٰلِكُمْ﴾ الأثمار والأحوال

---

١. لفظ السماء مؤنث، وقد يذكّر.
٢. الأنعام: ٩٥/٦.
٣. تفسير الصافي ٢: ١٤٣.

المُختلفة لها، والله ﴿لَآيَاتٍ﴾ عظيمة، ودَلالات واضحة علىٰ وُجود الصَانع القادر الحَكيم ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بالله وبوَحدانيّته، أو للّذِين يطلّبون الإيمان بالله، فإنّهم المُنتفعون بالاعْتِبار والاسْتِدلال بها.

وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ * بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ[١٠٠ و ١٠١]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ إبطال مذهب عَبدة الأصنام مِن المُشركين بالبَراهين المُتقنة، وبّخ عَبدة المَلائكة مِنهم بقوله: ﴿وَجَعَلُوا﴾ في اعتقادهم ﴿لِلَّهِ﴾ الواحد القادر الحكيم بعدَ وُضوح وَحدانيّته ﴿شُرَكَاءَ﴾ وأنداداً، أعني بهم ﴿الْجِنَّ﴾ وإنّما سمّىٰ الملائكة بالجِنّ؛ لسَتْرهم عن الأنظار، وتَحقيرهم [بالنسبة إلى مقام الألوهية][1]، ﴿وَ﴾ الحال أنّه تعالى ﴿خَلَقَهُمْ﴾ بقدرته الكاملة، ولا يكون المَخلوق شَريكاً لخالقه.

وقيل: إنّ المُراد بالجِنّ الشّياطين الّذِين دعوهم إلىٰ عِبادة الأصنام[2].

وقيل: إنّ المُراد أهْرِمَن[3] وجُنده مِن الأبالسة[4].

عن ابن عبّاس ﷺ: نزلت الآية في الزّنادقة الذِين قالوا: إنّ الله وإبليس أخوان؛ فالله خالق النّاس والدواب الأنعام والخَيرات، وإبليس خالق السِّباع والحَيّات والعَقارب والشُّرور[5].

ثمّ وبّخ سُبحانه المُشركين القائلين بأنّ له الولد بقوله: ﴿وَخَرَقُوا﴾ واختلقوا ﴿لَهُ﴾ بهَوىٰ أنفسهم ﴿بَنِينَ﴾ كاليَهود القائلين بأنّ عُزير ابنُ الله، والنّصارىٰ القائلين بأنّ المسيح ابنُ الله ﴿وَبَنَاتٍ﴾ كمُشركي العرَب القائلين بأنّ المَلائكة بناتُ الله ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ لهم بعَظمة الله وشَناعة هذا الزّعم لوضُوح امتِناع الوِلادة مِن واجب الوُجود.

ثمّ نزّه ذاته المُقدّسة عن كُلّ ما لا يليق به مِن الشّريك والولَد وغيرهما بقوله: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ربّهم وينسُبون إليه مِن النِدّ والولَد وسائر النّقائص.

ثمّ شرَع سُبحانه في إقامة البَراهين علىٰ بُطلان القول باتّخاذه الولد بقوله: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ومُوجدهما بِلا سَبق مِثال واستِعانة بشيء هُو الله، فإذا كان كذلك فهُو غنيٌّ عن الولَد.

ثمّ مِن البَديهيّات أنّ الوِلادة لا يُمكن بدُون الزّوجة والصّاحبة، فإذَن ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾ وكيف

---

١. الزيادة من تفسير أبي السعود ٣: ١٦٧.
٢. تفسير الرازي ١٣: ١١٥.
٣. وهو إله الشرّ عند المجوس.
٤. تفسير الرازي ١٣: ١١٣.
٥. تفسير الرازي ١٣: ١١٣.

يُوجد له نَسل ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ﴾ تعالىٰ ﴿صَاحِبَةٌ﴾ يُلقي في رَحْمها نُطفةً؟!

ثمّ أشار إلىٰ البُرهان الثّالث بقوله: ﴿وَخَلَقَ﴾ سُبحانه ﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾ مِمّا يُرىٰ وما لا يُرىٰ، والمَخلوق يمتنع أن يكون ولداً لخالقة.

ثمّ أشار إلىٰ البُرهان الرّابع بقوله: ﴿وَهُوَ﴾ تعالىٰ ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ﴾ ممّا يُمكن وُجوده وما لا يُمكن ﴿عَلِيمٌ﴾ أزلاً وأبداً بحيث لا تخفىٰ عليه خافية، فإذا عِلم أن لاكمال له ولا نَفع في اتّخاذه الولَد يمتنِع عليه اتّخاذه.

ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ[١٠٢]

ثمّ بعدَ إبطال دَعوىٰ الشِّرك بُوجوهه المُختلفة، صرّح سُبحانه بتَوحيده في جميع الجِهات بقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ المُتّصف بالصِّفات الجَلاليّة والجَماليّة هُو ﴿ٱللَّهُ﴾ المُستحقّ للعِبادة، وهُو ﴿رَبُّكُمْ﴾ ومُدبّر أُموركم دُون غيره ﴿لَا إِلَٰهَ﴾ ولا مَعبود في الوُجود ﴿إِلَّا هُوَ﴾ لعدَم إمكان التَعدُّد لواجب الوُجود، وهُو ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ مِن الأشياء، لا خالق غيره في عَرْضه، لامْتناع تعدُّد الخالق؛ لأنّه إن أراد أحدُ الخالقين مثلاً خَلق شيءٍ وأراده الآخر وتكافئا، يحصَل التّمانع والتّعطيل في الوُجود، وإن لَم يُرد أحدُهما إيجاد شيءٍ لزَم التعطيل في واجب الوُجود، وهُو نَقص لا يليق به، وإن أراد ولَم يقدِر علىٰ مُزاحمة الآخر، لزِم عَجزه مِن إنفاذ إرادته، وهُو أيضاً نَقص لا يليق بالواجب.

فإذا ثبَت تفرُّده في خَلق العالَم، وتَربية المَوجودات، واستِحقاق العِبادة ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ أيُّها النّاس ولا تعبُدوا غيره.

ثمّ قرّر تفرُّده تعالىٰ بتَدبير الأمور وإنجاح حَوائج النّاس، لصَرف قُلوبهم إلىٰ نفسه، وقَطع تعلُّقها بالأسباب بقوله: ﴿وَهُوَ﴾ تعالىٰ معَ كَمال جُوده ورأفته، وسَعَة قُدرته وحِكمته ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ مِن الأشياء، وكُلّ أمرٍ مِن الأمور ﴿وَكِيلٌ﴾ ورَقيب يُراقب أُموركم ويُدبّرها، فكِلُوها إليه وتَوسّلوا به في إنجاح مَطالبكم، فإنّه هُو القادر علىٰ القِيام بها، الوافي بإتمامها، لا مُنجِح للمَقاصد ولا مُصلِح للمُهمّات إلّا هُو.

لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ[١٠٣]

ثمّ بعدَ التّنبيه بوجُوب رَفع الحاجات إليه، وكان لرؤية مَن يتوسّل به في قضائها وعِلمه بها دَخلٌ

في السُّؤال مِنه والتَوكُّل عليه، نفىٰ سُبحانه إمكان رُؤية ذاته المُقدَّسة بحِسّ البَصر بقوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ﴾ ولا تصِل إليه تعالىٰ ﴿ٱلْأَبْصَارُ﴾ الظّاهريّة.

ثمّ أثبت عِلمه وإحاطته بقوله: ﴿وَهُوَ﴾ تعالىٰ ﴿يُدرِكُ﴾ ويرىٰ ﴿ٱلْأَبْصَارَ﴾ الرّافعة إليه للطّلَب، والأعين المادّة إليه للسُّؤال.

ثمّ وصف نفسه بما هُو عِلّة للقضيّتين بقوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ﴾ والغامض الذي لا تُدركه العُقول، والعَميق الذي لا تَناله الأوهام وقيل: هُو اللَطيف في صُنعه وألوهيّته، أو بعباده[١] ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ المُطّلع على دقائق الأشياء وخَفيّات الأمور، لا يعزُب عنه شيء.

عن الرضا عليه السلام، في روايةٍ قال: «﴿لَاتُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَارُ﴾ وهذه الأبصار ليست هذه[٢] الأعيُن، إنّما هِي الأبصار التي في القُلوب، لا تقع عليه الأوهام، ولا يُدرَك كيف هُو»[٣].

وعن أمير المُؤمنين عليه السلام، في روايةٍ: «وأمّا قوله: ﴿لَاتُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَارَ﴾ فهُو كما قال: ﴿لَا تُدرِكُهُ ٱلأَبصَارُ﴾ [يعني لا تُحيط به الأوهام ﴿وَهُوَ يُدرِكُ الأبصَارَ﴾ يعني] يحيط بها»[٤].

وعن الصادق عليه السلام، في هذه الآية: «يعني إحاطة الوَهم، ألا ترىٰ إلىٰ قوله: ﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَبِّكُمْ﴾[٥]، ليس يعني بصَر العين ـ إلىٰ أن قال: ـ إنّما عنىٰ إحاطة الوَهم، كما يُقال: فُلانٌ بصير بالشِّعر، وفلان بصير بالفِقْه، وفُلان بصير بالدَّراهم، وفُلان بصير بالثِّياب، الله أعظم مِن أن يُرىٰ بالعين»[٦].

وعن الباقر عليه السلام، في هذه الآية: «أوهام القُلوب أدقّ مِن أبصار العُيون، أنت قد تُدرك بوَهمك السِّنْد والهِنْد والبُلدان التي لَم تدخُلها ولم تُدركها ببَصرك، وأوهام القُلوب لا تُدركه، فكيف أبصار العُيون؟!»[٧].

وعن الرضا عليه السلام: «وأمّا اللّطيف فليسَ علىٰ قِلّة وقَضافة[٨] وصِغَر، ولكن ذلك علىٰ النَفاذ في الأشياء، والامتِناع مِن أن يُدرك [كقولك للرجل]: لطُف عنّي هذا الأمرُ، ولطُف فُلان في مَذهبِه وقولِه، يُخبِرُك أنّه غمَض فيه العَقل، وفاتَ الطَّلبُ، وعادَ مُتعمّقاً مُتلطّفاً لا يُدركه الوَهمُ، فكذلك لَطُف الله تَبارك وتعالىٰ عن أن يُدرك بحَدٍّ، أو يُحدّ بوَصفٍ، واللّطافة مِنّا الصِّغَر والقِلّة، فقد جَمعنا الاسم

---

١. تفسير الرازي ١٣: ١٣٣.
٢. في العياشي والمجمع: هي.
٣. تفسير العياشي ٢: ١٤٧٤/١١٤، مجمع البيان ٤: ٥٣٣.
٤. التوحيد: ٥/٢٦٢، تفسير الصافي ٢: ١٤٥. وفي النسخة: لا تدركه الأبصار، ولا تحيط بها.
٥. الأنعام: ١٠٤/٦.
٦. الكافي ١: ٩/٧٦، التوحيد: ١٠/١١٢، تفسير الصافي ٢: ١٤٥.
٧. الكافي ١: ١١/٧٧، تفسير الصافي ٢: ١٤٥.
٨. القضافة: مِن قضُف يقضُف، إذا دَقّ ونحُف لا عن هُزال.

واختلفَ المعنىٰ».

قال: «وأمّا الخبير فالذي لا يعزُب عنه شيءٌ ولا يفوته، ليسَ للتّجربة ولا للاعتبار بالأشياء فتفيده التّجربة والاعْتِبار عِلماً، ولَولاهما ما علِم؛ لأنّ مَن كان كذلك كان جاهلاً، والله لَم يـزل خـبيراً بـما يخلُق، والخَبير مِن النّاس المُستخبِر عن جَهل المُتعلّم، فقد جمَعنا الاسْم واختلَف المعنىٰ»[١].

قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ[١٠٤]

ثمّ أنّه تعالى بعدَ إثبات التّوحيد والرِّسالة، نبّه النّاس عن لِسان رَسُوله ﷺ علىٰ تَـماميّة الحُـجّة عليهم بقوله: ﴿قَدْ جَاءَكُم﴾ أيُّها النّاس آياتٌ فيها ﴿بَصَائِرُ﴾ وعُلوم، أو بَراهين ﴿مِن رَبِّكُمْ﴾ تُبصّركم الحقّ وتُعرّفكم الصّواب، وتمّ ما عليّ مِن تَبليغها، وبقي ما عليكم مِن التّبصُّر والإيمان بـها ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ﴾ بها الحقّ وآمن به ﴿فَلِنَفْسِهِ﴾ أبصر، وإيّاها نفَع ﴿وَمَنْ عَمِيَ﴾ عن رُؤيـة الحـقّ وكـفَر بـه ﴿فَعَلَيْهَا﴾ ضَرٌّ ﴿وَمَا أَنَا﴾ مِن قِبَل ربّي ﴿عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ حتّىٰ أُجبركم علىٰ قَبُول الحقّ والإيمان به، بَل إنّما أنا نذير، والله مُجازيكم بما تستحقّون.

وَكَذٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ[١٠٥]

ثمّ لمّا ادّعى النّبوّة استدلّ سُبحانه عليها بـقوله: ﴿وَكَـذٰلِكَ﴾ التّـصريف البَـديع، وبَـيان الحُـجَج الواضحة بعِبارات مُختلفة بالغة أعلىٰ دَرجة الإعجاز ﴿نُصَرِّفُ ٱلآيَاتِ﴾ الدّالّة علىٰ جَميع المَعارف والمَواعظ والأحكام، ونأتي بها حالاً بعد حال، لتتِمّ الحُجّة علىٰ المُعاندين ﴿وَلِيَقُولُوا﴾ في عـاقبة الأمر، أو لِئلّا يقولوا: ﴿دَرَسْتَ﴾ وقرأت يا محمّد هذه العُلوم علىٰ غيرك وتقرأهـا عـلينا، وتـدّعي الوَحي بها إليك ﴿وَلِنُبَيِّنَهُ﴾ ونُوضّحه ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ويفهمون، أو يكونوا بتَبيينه عالمين بما فيه مِن المَعارف والعُلوم. وانّما كنّىٰ عن الآيات بالضّمير المُفرد المُذكّر باعتِبار القُرآن.

ٱتَّبِعْ مَاأُوْحِيَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ * وَلَوْ شَاءَ ٱللهُ مَاأَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ[١٠٦ و ١٠٧]

ثمّ لمّا أشار سُبحانه إلىٰ قَدح المُشركين في القُرآن بأنّه مَطالبُ مأخوذةٌ مِـن أهـل الكِـتاب، وإلىٰ

---

١. الكافي ١: ٢/٩٥، تفسير الصافي ٢: ١٤٥.

تَكذيب النبيّ ﷺ في ادّعاء نُزول الوَحي إليه، وكان مَجال فتور النبيّ ﷺ في التّبليغ وتكدُّر خاطره الشّريف، أمره سُبحانه بالقِيام بوَظيفة الرِّسالة، وعدم الاعتِناء بتُرّهات المُشكرين بقوله: ﴿ٱتَّبِعْ﴾ يا محمّد ﴿مَآأُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ مِن القُرآن، ودُمْ علىٰ ما أنت عليه مِن تَبليغه والتَدَيُّن بأحكامه التي عُمْدَتها وُجوب التّوحيد، و﴿ٱلْإِيمان بأنه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ تعالىٰ، وَحده لا شَريك له ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ﴾ أباطيل ﴿ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ولا تعتنِ بها، ولا يكُن قَدحُهم في القُرآن سَبب فتُورك في تَبليغ رِسالتك، ولا يُثقِلن عليك إصرارُهم علىٰ ضَلالهم، فإنّه بإرادة الله حيثُ خلّىٰ بينهم وبين أنفسهم والشّيطان المُغوي لهم ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ بالمشيئة التّكوينيّة إيمانهم بالتّوحيد، وتَركهم الشِّرك ﴿مَآ أَشْرَكُواْ﴾ أبداً، ولكن تركَهم واختيارهم حتّىٰ يظهر خُبث طِينتهم وسُوء سَريرتهم.

وعن (المجمع)، في تفسير أهل البيت عليهم السلام: «ولوَ شاء الله أن يجعَلهم كُلّهم مُؤمنين مَعصومين حتّىٰ لا يعَصية أحدٌ ماكان يُحتاح إلىٰ جنّة ونار، ولكنّه أمرهم ونَهاهم وامتحنهم وأعطاهم ماله عليهم به الحُجّة مِن الآلة والاستِطاعة، ليستحقّوا الثّواب والعِقاب»[1].

وإنّما بعثناك إليهم نذيراً ﴿وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً﴾ حتّىٰ يجب عليك إجبارُهم بالإيمان بالتّوحيد والنُبوّة، وقَهرهم علىٰ تَرك الشّريك ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم﴾ مِن قِبَل ربّك ﴿بِوَكِيلٍ﴾ وقَيِّم حتّىٰ يجب عليك تَدبيرُ أُمورهم، والنَظر في مَصالحهم.

قيل: الحافظ للشيء مَن يصُونه عمّا يضُرّه، والوكيل عليه مَن يجلُب الخيرَ له[2].

وَلَا تَسُبُّوا ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا ٱللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[١٠٨]

ثمّ قيل: إنّه لمّا طعَن المُشركون في القُرآن بقولهم للرّسُول ﷺ: إنّما درَسْتَ على عُلماء أهل الكتاب، غضِب المُؤمنون وشتَموا الأصنام، فنهىٰ الله عن ذلك[3] بقوله: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ﴾ ولا تشتُموا أيُّها المُؤمنون آلهتهم ﴿ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ ويعبُدون ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وممّا سِواه ﴿فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ﴾ بسَبب سبّكم آلهتهم ﴿عَدْواً﴾ وغضباً، أو تَجاوزاً عن الحقّ إلىٰ الباطل ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ وعن سَفَةٍ وجَهالة، حيثُ إنّهم ما قَدَروا الله حَقّ قَدره.

عن ابن عبّاس رضي الله عنه أنّه قال: لمّا نزل ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾[4] قال

---

١. مجمع البيان ٤: ٥٣٦، تفسير الصافي ٢: ١٤٧.
٢. تفسير روح البيان ٣: ٨٢.
٣. تفسير الرازي ١٣: ١٣٩.
٤. الأنبياء: ٢١/٩٨.

المشركون: لَئن لَم تنته عن سَبّ آلهتنا وشَتْمها لنهجونّ إلهك، فنزلَت[١].

وعن السُّدي: أنَه لمّا قرُبت وفاة أبي طالب قالت قُريش: ندخُل عليه ونطْلب مِنه أن ينهىٰ ابن أخيه عنّا، فإنّا نستحي أن نقتُله بعدَ وفاته، فيقول العرَب: كان يمنعه فلمّا مات قتلوه، فانْطلق أبو سُفيان وأبو جَهل والنّضر بن الحارث معَ جمَاعة إليه وقالوا له: أنت كبيرُنا، وخاطبوه بما أرادوا، فدعا محمّداً ﷺ وقال: هؤلاء قومُك وبنو عمّك يطلُبون مِنك أن تترُكهم علىٰ دِينهم ويترُكوك علىٰ دِينك. فقال ﷺ: «قولوا: لا إلَهَ إلّا الله». فأبَوا، فقال أبو طالب: قُل غيرَ هذه الكلمة، فإنّ قومَك يكرهونها، فقال ﷺ: «ما أنا بالذي أقول غيرَها حتّىٰ تأتوني بالشّمس فتَضعوها في يدي». فقالوا له: اترُك شَتْم آلهتنا، وإلّا شتَمْناك ومَن يأمُرك بذلك[٢].

عن الصادق عليه السلام أنّه سُئل عن قول النبيّ ﷺ: «إنّ الشّرك أخفىٰ مِن دَبيب النّملة علىٰ صَخرة سَوداء في لَيلة ظَلماء». فقال: «كان المُؤمنون يسبُّون ما يعبُد المُشركون مِن دُون الله، فكان المُشركون يسبُّون ما يعبُد المُؤمنون، فنهىٰ الله المُؤمنين عن سَبّ آلهتهم، لكَيلا يسُبّ الكُفّار إلٰهَ المُؤمنين، فيكون المُؤمنون قد أشركوا بالله مِن حيث لا يعلمون»[٣].

وقيل: إنّ الله أجرىٰ شَتم الرّسُول مَنزلة شَتمه[٤]؛ لأنّ العرَب كانوا مُعتقدين بالله، ويقولون: إنّ الأصنام شفعاؤنا عنده، فلَم يُمكن إقدامُهم علىٰ سَبّ الله.

عن الصادق عليه السلام أنّه سُئل عن هذه الآية فقال: «أرأيت أحداً يسُبّ الله؟». فقيل: لا، وكيف قال ذلك؟ قال: «مَن سَبّ وليّ الله فقد سَبّ الله»[٥].

وعنه عليه السلام أنّه قيل له: إنّا نرىٰ في المَسجد رَجُلاً يُعلِن بسَبّ أعدائكم ويسُبّهم. فقال: «ما له لعَنه الله، يعرِّض بنا، قال الله: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ الآية».

وقال عليه السلام: «لا تسُبّوهم فإنّهم يسُبّوكم».

وقال: «مَن سَبّ وليّ الله فقد سَبّ الله».

قال النبيّ ﷺ لعليّ عليه السلام: «مَن سَبّك فقد سبّني، ومَن سبّني فقد سَبّ الله، ومَن سَبّ الله فقد أكبّه الله علىٰ مَنخَريه في نار جهنّم»[٦].

﴿كَذَٰلِكَ﴾ التزيين الذي يكون لسَبّ الله في نظَر المُشركين ﴿زَيَّنَّا﴾ وحسّنّا ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ وطائفة

---

١. تفسير الرازي ١٣: ١٣٩.
٢. تفسير الرازي ١٣/١٤٠.
٣. تفسير القمي ١: ٢١٣، مجمع البيان ٤: ٥٣٧، تفسير الصافي ٢: ١٤٧.
٤. تفسير الرازي ١٣: ١٤٠.
٥. تفسير العياشي ٢: ١٤٧٥/١١٤، تفسير الصافي ٢: ١٤٧.
٦. الاعتقادات للصدوق: ١٠٧، تفسير الصافي ٢: ١٤٧.

مِن الكفّار ﴿عَمَلَهُمْ﴾ السيّء.

قيل: يعني في زَعمهم حيثُ قالوا: إنّ الله أمرنا بها[١].

وقيل: يعني: أمهلناهم وخلّيناهم وشأنهم حتّىٰ حسُن عندهم سُوءُ عملهم، أو أمهلنا الشّيطان حتّىٰ زيّن لهم[٢].

وقيل: إنّ المُراد: زيّنا لكُلٍّ مِن المُؤمنين والكافرين عملهم مِن الخَير والشّرّ، والطاعة والعِصيان، بإيجاد ما يُمكّنهم مِنه تَوفيقاً وخِذلاناً[٣].

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ والمالك لأمرهم ﴿مَرْجِعُهُمْ﴾ بعدَ الموت، أو البَعث يومَ القِيامة ﴿فَيُنَبِّئُهُمْ﴾ ويُخبرهم ﴿بِمَا كَانُوا﴾ في الدُّنيا ﴿يَعْمَلُونَ﴾ مِن الحسَنات والسيّئات بإعطائهم الجَزاء المُستحَقّ.

وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ[١٠٩]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ حِكاية طَعن المُشركين في القرآن بكَونه مِن تَعليمات أهل الكِتاب، حكىٰ طَعنهم في نُبوّة ﷺ النبي بأنّه لا يقدِر علىٰ ما اقترحنا عليه مِن المُعجزة، بقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا﴾ وحلَفوا ﴿بِاللهِ﴾ وكان يَمينهُم ﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ وأغلظها وأشدّها ﴿لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾ مِمّا اقترحوه ﴿لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾.

رُوي أنّ قُريشاً قالوا: يا محمّد، إنّك تُخبرنا أنّ مُوسىٰ كانت معه عصاً، فيضرِب بها الحجَر فتنفجر مِنه اثنتا عشرةَ عيناً، وتُخبرنا أنّ عيسىٰ كان يُحيِي المَوتىٰ، وأنّ صالحاً أخرج النّاقة مِن الجبل، فأتنا أنت أيضاً بآية بيّنة، فإن فعلتَ ذلك لنُصدقنّك ونُؤمن لك، وحلَفوا علىٰ ذلك وبالغوا في تأكيد الحَلف، فقال ﷺ: «أيّ شيءٍ تُحبّون؟». قالوا: تجعل لنا الصّفا ذهباً، أو ابعَث لنا بعض مَوتانا حتّىٰ نسأله عنك أحقٌّ ما تقول أم باطل، أو أرِنا الملائكة يشهدون لك. فقال ﷺ: «فإن فعلتُ بعض ما تقولون تُصدّقونني؟»، قالوا: نعم، والله لَئِن فعلتَ لنتبعنّك أجمعين، وسأل المسلمون رَسُول الله ﷺ أن يُنزلها عليهم حتّىٰ يُؤمنوا، فهَمّ عليه السلام بالدُّعاء فجاء جَبْرئيل عليه السلام فقال: إن شِئتَ كان ذلك، ولَئِن كان فلم يُصدّقوك عنده ليُعذّبنّهم بعذاب الاستِئصال، ولَئِن شِئتَ تركتَهم حتّىٰ يتوب تائبُهم، فأنزل الله تعالىٰ هذه الآية[٤].

---

١ و٢. تفسير الرازي ١٣: ١٤١.
٣. تفسير روح البيان ٣: ٨٤.
٤. تفسير روح البيان ٣: ٨٥.

ثمَ أمر الله تعالى نبيّه ﷺ بأن يُجيبهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿إِنَّمَا ٱلْآيَاتُ﴾ وخَوارق العادات كُلّها ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ وبقُدرته وإرادته، لا بقُدرتي وإرادتي، وهُو يُظهر مِنها ما يشاء وتقتضيه حِكمته.

ثمَ بيّن سُبحانه حِكمة عدَم إجابتهم مُخاطباً للمُسلمين المُشتاقين إلىٰ إيمانهم بقوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ وأيّ شيءٍ يُعلِمكم أيُّها المُؤمنون حينَ سألوا الآية ﴿أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ﴾ يؤمنون بها، فإنّا نعلَم أنّهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بها ويُصرّون علىٰ كُفرهم، فينزِل عليهم عذابُ الاسْتِئصال، كما نزل علىٰ أصحاب المائدة، فيكون في تَرك إجابتهم إمهالهم، ورحمةٌ بمَن في أصلابهم.

قيل: كلمة (أنّ) في ﴿أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ﴾ بمعنىٰ (لعلّ)، والمعنىٰ لعلّها إذا جاءت لا يُؤمنون[1]. وقيل: إنّ (لا) في ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ زائدة[2].

وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ[١١٠]

ثمَ بيّن سُبحانه عِلّة عدَم إيمانهم بالآيات بقوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ﴾ ونُحوّل قُلوبهم عن قَبول الحقّ إلىٰ إنكاره، أو نطبَع عليها فلا يفهمون وَجه الإعجاز في الآيات، ﴿وَ﴾ نُحوّل ﴿أَبْصَارَهُمْ﴾ ونُعْميها عن رُؤية ما اُنزل لفساد استِعدادهم، وخَباثة طِينتهم، وسُوء أخلاقهم، فلا يُؤمنون به ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ﴾ مَع كمال ظُهوره ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وفي بَدْو الأمر. عن القُمّي: يعني في الذَر والميثاق[3].

عن الباقر عليه السلام «﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ﴾، يقول: نقلّب[4] قُلوبهم، فيكون أسفل قُلوبهم أعلاها، ونُعمي أبصارهم فلا يُبصرون الهُدىٰ.

وقال عليّ بن أبي طالب عليه السلام: أوّل ما يُقلَبون عنه مِن الجِهاد الجهاد بأيديكم، ثمَ الجِهاد بألسنتكم، ثمَ الجِهاد بقُلوبكم، فمَن لَم يعرِف قلبُه مَعروفاً ولَم ينكِر منكراً، نُكّس قلبُه وجُعل أعلاه أسفله، ولم يقبَل خيراً أبداً»[5].

﴿وَنَذَرُهُمْ﴾ ونترُكهم ﴿فِى طُغْيَانِهِمْ﴾ وعُتُوّهم عن قَبول دِينك حالَ كونهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ عن الحقّ، ويتحيّرون فيه، عُقوبةً لهم علىٰ تَرك إيمانهم بك في أوّل بعثتك.

وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَا

---

١. تفسير الرازي ١٣: ١٤٤.
٢. مجمع البيان ٤: ٥٣٩.
٣. تفسير القمي ١: ٢١٣، تفسير الصافي ٢: ١٤٩.
٤. في تفسير القمي وتفسير الصافي: نُنكّس.
٥. تفسير القمي ١: ٢١٣، تفسير الصافي ٢: ١٤٩.

كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ ٱللَّهُ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ[١١١]

ثمّ بالغ سُبحانه في توضيح شِدّة إصرارهم علىٰ الكُفر والعِناد، وعدَم إيمانهم بأعظم الآيات بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَائِكَةَ﴾ شاهدين علىٰ صِدقك كما اقترحوه ﴿وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ بعدَ إحيائهم بدُعائك في صِدقك ووُجوب الإيمان بك، بَل ﴿وَ﴾ لو ﴿حَشَرْنَا﴾ وجمَعنا ﴿عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ مِن مَوجودات هذا العالَم مِن الجَمادات والنَباتات والحَيوانات، أو مِمّا يدِبّ في الأرض، حالَ كَونهم ﴿قُبُلاً﴾ وأفواجاً، أو كفَلاء بصِدق دَعوتك، وصِحّة نُبوّتك، وعن القُمّي ﷺ: أي عِياناً[1] ﴿مَا كَانُوا﴾ مع مُشاهدة تِلك الآيات ﴿لِيُؤْمِنُوا﴾ بك بالطَوع والرَغبة أبداً ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ ٱللَّهُ﴾ إيمانهم بالقَهر والإجبار، فلا فائدة في إجابة مَسؤولهم مِن إنزال الآيات، إذ ليس غرَضهم مِن سُؤالها إلاّ التَهكُّم والتعنُّت، كما هُو مَعلوم عندَك وعنَد قليلٍ مِن المُؤمنين كعليّ عليه السلام ﴿وَلٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ لقُصورهم ﴿يَجْهَلُونَ﴾ هذه الدَرجة مِن خُبث ذاتهم ورَذالة أخلاقهم، فيطمَعون في إيمانهم، أو المُراد: أنّ أكثر المُشركين الّذين يسألون الآيات، يجهلون أنّها لَوجاءتهم لا يُؤمنون.

وَكَذٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ ٱلْإِنْسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ[١١٢]

ثمّ لمّا كان لَجاج القوم سَبباً لمَلالة النبيّ ﷺ، سلّىٰ سُبحانه قلبه الشّريف ببيان كون هذه البلَيّة عامّة بقوله: ﴿وَكَذٰلِكَ﴾ التّزيين الذي جعلناه لأعمال الأُمَم، أو كذلك العَدُوّ الذي جعلناه لك ﴿جَعَلْنَا﴾ في كُلّ عصر ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ﴾ مِن الأنبياء ﴿عَدُوّاً﴾ ومُبغضين، كانوا هُم ﴿شَيَاطِينَ ٱلْإِنْسِ وَٱلْجِنِّ﴾ ومَرَدتهما. كما عن ابن عبّاس[2].

وعن الصادق عليه السلام: «مَن لَم يجعله الله مِن أهل صِفة الحقّ، فأولئك شَياطين الإنس والجَنّ»[3].

عن الصادق عليه السلام: «ما بعَث الله نبيّاً إلّا وفي أُمّته شيطانان يُؤذيانه ويُضلّان النّاس بعدَه، فأما صاحِبا نُوح فنيطيفوس وخرّام، وأمّا صاحِبا إبراهيم فمكثل ورزام، وأمّا صاحِبا مُوسىٰ فالسّامري ومرعقيبا، وأمّا صاحِبا عِيسىٰ فبولس ومرينون، وأمّا صاحِبا محمّد فحبتر وزُريق»[4].

قيل: حبتر كثعلب وزناً ومعنىً، كنّى به عن رَجُلٍ كثير الحِيلة، وبزريق عن آخر في عَينه زُرقة[5].

---

١. تفسير القمي ١: ٢١٣، تفسير الصافي ٢: ١٤٩.
٢. مجمع البيان ٤: ٥٤٤ عن الحسن وقتادة ومجاهد.
٣. الكافي ٨: ١/١١، تفسير الصافي ٢: ١٥٠.
٤. تفسير القمي ١: ٢١٤، تفسير الصافي ٢: ١٤٩.
٥. تفسير الصافي ٢: ١٥٠.

ثمّ بيّن سُبحانه كيفيّة عَداوتهم بقوله: ﴿يُوحِى﴾ ويُسرّ ﴿بَعْضُهُمْ إِلىٰ بَعْضٍ﴾ لتخريب أمر النبيّ ﷺ ﴿زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ﴾ والمُزيّن مِن الكَلام الكَذِب والباطل ليغرّه إلىٰ إهلاك نفسه ﴿غُرُوراً﴾.

قيل: إنّ مِن الجِنّ شَياطين ومِن الإنس شَياطين، وإنّ الشّيطان مِن الجنّ إذا أعياه المُؤمن ذَهب إلىٰ مُتمرّد مِن الإنس [وهو شيطان الإنس]، فأغراه بالمُؤمن ليفتنه[١]، وذلك بمشيئة الله لحِكمة الامتِحان، وبُروز الاستِعدادات.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾ عدَم العَداوة، أو عدَم الإيحاء، أو عدَم التّزيين للكلام ﴿مَا فَعَلُوهُ﴾ البتّة، فإذا كان فِعلهم بمشيئة الله ﴿فَذَرْهُمْ﴾ يا محمّد ﴿وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ مِن الكُفر، أو دَعْهم مع ما زيّن لهم إبليس وغرّهم به ـ كما عن ابن عبّاس[٢] ـ فإنّ لهم عندَنا عُقوبات شديدة، ولك علىٰ تحمُّل الأذىٰ مِنهم مَثوبات عظيمة. وفيه غاية التّهديد. وقيل: مَنسوخ بآية السّيف[٣].

وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُقْتَرِفُونَ * أَفَغَيْرَ ٱللهِ أَبْتَغِى حَكَماً وَهُوَ ٱلَّذِى أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِن رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ [١١٣ و ١١٤]

ثمّ بعدَ بَيان عِلّة إيحائهم الأباطيل، بيّن سُبحانه عِلّة تَزيينها بقوله: ﴿وَلِتَصْغَىٰ﴾ وتميل ﴿إِلَيهِ أَفْئِدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ وترغَب إلىٰ استِماعه قُلوبُهم ﴿وَلِيَرْضَوْهُ﴾ لأنفسهم ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا﴾ ويكتسبوا ﴿مَا هُم مُقْتَرِفُونَ﴾ ومُكتسبون مِن السّيّئات، وأمّا الّذين يُؤمنون بالآخرة فإنّهم لا يميلون إلى استِماعه ولا يرضَون به لعِلمهم ببُطلانه وسُوء عاقبته.

ثمّ رُوي أنّ مُشركي مكّة بعد اقتراحهم الآيات قالوا: يا محمّد، اجعَل بيننا وبينك حَكَماً مِن أحبار اليَهود، أو مِن أساقفة النصارى يفصِل بيّن المُحقّ والمُبطل، فإنّهم قرأوا الكُتب قبلَك[٤]، فأمر الله نبيّه ﷺ بأن يُنكر عليهم ما سألوه بقوله: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللهِ﴾ قيل: إنّ التّقدير: أميل إلىٰ قولكم، فغير الله ﴿أَبْتَغِى﴾ وأطلُب ﴿حَكَماً﴾ وقاضياً بالحقّ بيني وبينكم[٥]، يحكُم بصِحّة نُبوّتي ﴿وَهُوَ﴾ تعالىٰ ﴿ٱلَّذِى﴾ حكَم بها حيثُ إنّه ﴿أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَابَ﴾ السّماوي المُشتمل علىٰ وجُوهٍ مِن الإعجاز، حالَ كَونه ﴿مُفَصَّلاً﴾ ومبيّناً فيه المُحقّ والمُبطل، ومعَ ذلك لا حاجة إلىٰ حُكومة أهل الكِتاب.

---

١. تفسير الرازي ١٣: ١٥٤.
٢. تفسير الرازي ١٣: ١٥٦.
٣. ناسخ القرآن العزيز ومنسوخه: ٣٣.
٤ و٥. تفسير روح البيان ٣: ٩٠.

ثمَ بيَن الله عدَم أهليَة أهل الكِتاب للحَكَميَة لشِدَة عَداوتهم معَ النبيّ ﷺ وكِتمانهم الحقّ بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ﴾ وفهَمناهم ما فيه مِن علائم النبيّ وصِفات كِتابه ﴿يَعْلَمُونَ﴾ بسَبب شهادة كُتبهم بصِدق كِتابك ﴿أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِن رَبِّكَ﴾ مُتلبّساً ﴿بِالْحَقِّ﴾ والصِدق، ومَع ذلك يكتُمون الشَهادة علىٰ أنه مُنزَل مِنه ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾ يا محمّد ﴿مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ والشاكّين في عِلمهم بصِدق كِتابك، وفيه تَوبيخهم. أو مِن المُمترين في أنّه مُنزَّل مِن ربّك بسَبب جُحودهم، وفيه تَهييج للنبيّ ﷺ علىٰ الثَّبات علىٰ يقينه. وقيل: إنّ الخطاب للنبيّ ﷺ والمُراد غيره[1].

وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ * وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ[١١٥ و ١١٦]

ثمَ أكَد سُبحانه كَون القُرآن أعظم شَهادة مِنه تعالىٰ علىٰ صِدق نُبوّته بقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ وآياته النّازلة إليك في الإعجاز والشهادة علىٰ صِدق دَعواك، وبَيان جميع ما يحتاج إليه النّاس إلىٰ يوم القيامة، حالَ كَونها ﴿صِدْقاً﴾ في إخبارها ﴿وَعَدْلاً﴾ مُستقيماً في حُكومتها؛ لا كَذِب فيها، ولا تَجاوُز عن الحقّ ﴿لَا مُبَدِّلَ﴾ ولا مُغيّر من خَلق الله ﴿لِكَلِمَاتِهِ﴾.

قيل: إنّ المُراد: لا يأتي أحدٌ بما هُو أصدق وأعدل مِنها، بَل ولا بما يُساويها في الصِّدق والعَدالة، فكيف يجُوز ابتغاء حُكم غيره تعالىٰ؟![2]

وقيل: إنّ المعنىٰ: لا خُلف فيها ولا نَقص، أو لا تأثير لشُبهات الكُفّار في دَلالتها علىٰ صِدقك[3].

ثمَ هدّد المُبتغين للتحكيم بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لمَقال المُتحاكمين ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بخُبث ذاتهم وسُوء أعمالهم، فيُعاقبهم عليها.

عن الصادق عليه السلام: «أنّ الإمام يسمَع في بَطن أمّه، فإذا وُلد خُطّ بَين كَتِفيه»[4] وفي رِواية: «بين عَينيه»[5] وفي أُخرىٰ: «علىٰ عضُده الأيمن: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً﴾ الآية[6]، فإذا صار الأمر إليه جعل الله له عَموداً مِن نُور يُبصر به ما يعمَل أهلُ كُلّ بَلدة»[7]. وفي رِواية: «فبهذا يحتجُّ الله علىٰ خلقه»[8].

---

١. تفسير الرازي ١٣: ١٥٩.
٢. تفسير أبي السعود ٣: ١٧٨، تفسير روح البيان ٣: ٩١.
٣. تفسير الرازي ١٣: ١٦٢.
٤. الكافي ١: ٤/٣١٨، تفسير الصافي٢: ١٥١.
٥. الكافي ١: ٦/٣١٩، تفسير الصافي ٢: ١٥١.
٦. الكافي ١: ٣/٣١٨، تفسير الصافي ٢: ١٥١.
٧. الكافي ١: ٤/٣١٨، تفسير الصافي ٢: ١٥١.
٨. الكافي ١: ٢/٣١٨، تفسير الصافي ٢: ١٥١.

ثمّ لمّا بيّن سُبحانه أنّ القرآن الذي هُو مُعجزة باهرة حكَم الله بصِدق نُبوّتك فلا حاجة بعدَه إلىٰ تَحكيم غيره في ذلك، بيّن أنّ مُوافقة الكُفّار في ما يطلُبونه مِن التحكيم وغيره صِرْف الضّلال، بقوله مُخاطباً لنبيّه ﷺ بطَريق (إيّاك أعني واسمعي يا جارة): ﴿وَإِن تُطِعْ﴾ الكُفار يا محمّد في ما يطلُبونه ويشتهون، نظراً إلىٰ كونهم ﴿أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ﴾ ويُحرفوك ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ودِينه الحقّ، حيثُ إنّهم معَ إصرارهم علىٰ دِينهم الباطل غيرُ قاطعين به، بَل ﴿إِن يَتَّبِعُونَ﴾ في عَقائدهم ومُجادلتهم في التّوحيد وأعمالهم ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ بصِحّة ما وجَدوا عليه آباءهم، لا القَطع الحاصل مِن البُرهان ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ ويكذِبون في ادّعاء القَطع، أو يقولون عن تخمينٍ واستِحسان.

قيل: إنّ أهل مكّة كانوا يستحِلّون [أكل] المَيْتة ويدعُون المُسلمين إلىٰ أكلها، وكانوا يقولون: إنّما ذلك ذَبَح الله، فهُو أحَلُّ مِمّا ذبحتُم بسكاكينكم، فأنزل الله هذه الآية[1].

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ * فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ [١١٧ و ١١٨]

ثمّ بعدَما بيّن سُبحانه ضَلالة أكثر النّاس، بيّن عِلمه بأحوال جميعهم بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ﴾ وأيّ شَخصٍ ينحرِف ﴿عَن سَبِيلِهِ﴾ ودِينه الحقّ وقيل: أعلم بمعنىٰ: يعلم[2] ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالمُهتَدِينَ﴾ إلى الحقّ.

ثمّ لمّا كان مِن ضَلالة المُشركين تَحليل المَيْتة وما لَم يُذكر عليه اسم الله، أمر الله المُؤمنين بعدَ تَحذيرهم مِن اتّباع المُضلّين بتَخصيصهم المُذكّىٰ بالأكل بقوله: ﴿فَكُلُوا﴾ أيُّها المُؤمنون ﴿مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللهِ عَلَيْهِ﴾ حينَ ذَبحه خاصّة دُون ما مات حَتْف أنفه، أو ذُكر اسمُ الأصنام عليه ﴿إِن كُنتُم﴾ بكِتاب الله و﴿بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ فإنّ الإيمان بالله وكِتابه مُوجب للاحتِراز عن غير ما أحلّه. ويُحتمل أن يكون المُراد الأمر بتَعميم الأكل بكُلّ ما ذُكّي علىٰ اسم الله، وإن كان سائبةً وأخواتها.

وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيراً لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ [١١٩]

---

١. تفسير روح البيان ٣: ٩٢.

٢. تفسير روح البيان ٣: ٩٢.

ثمّ أنكر عليهم الاحتِراز عن أكل ما حرّمه المُشركون علىٰ أنفسهم، وإن ذُكر اسم الله عليه، بقوله: ﴿وَمَالَكُمْ﴾ مِن العُذر في ﴿أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اَسْمُ اَللهِ عَلَيْهِ﴾ حينَ ذَبحه أو نَحره، ﴿وَ﴾ الحَال أنه ﴿قَدْ فَصَّلَ﴾ وشرَح ﴿لَكُم﴾ في كِتابه بقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ اَلْمَيْتَةُ﴾ [١] الآية، أو قوله: ﴿قُل لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ [٢] الآية، أو بالوَحي علىٰ لِسان نبيه ﷺ ﴿مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ مِن الحَيوانات ﴿إِلَّا مَااَضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ مِن المُحرّمات، فإنّ الضّرورات تُبيح المَحذورات ﴿وَإِنَّ كَثِيراً﴾ مِن النّاس كعَمرو بن لُحَي الذي غيّر دِين إسماعيل، وحرّم كثيراً مِن الأنعام، وأباح المَيْتة، ومن بعده مِن المُشركين ﴿لَيُضِلُّونَ﴾ الضُّعفاء عن طَريق الحقّ بتَرغيبهم إلىٰ عِبادة الأصنام، وأكل المَيْتة، والتَحرُّج عن أكل السائبة والوَصيلة وأخواتهما وإن ذُكر اسمُ الله عليها، والاحتِجاج بالاعتبارات السَخيفة ﴿بِأَهْوَائِهِم﴾ الزائغة والشُّبُهات الفاسدة، و﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ وحُجَة قاطعة، واقتِباس مِن الشّريعة.

ثمّ هدّدهم بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ والمُتجاوزين عن حُدود الله بتَحليل ما حرّم وتَحريم ما أحلّ، فيُعاقبهم في الآخرة أشدّ العِقاب.

وَذَرُوا ظَاهِرَ اَلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ اَلَّذِينَ يَكْسِبُونَ اَلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ[١٢٠]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ الإشارة إلىٰ حُرمة المَيْتة، وتَفصيل المُحرّمات مِن الحَيوان، نهىٰ عن مُطلق مَعاصيه بقوله: ﴿وَذَرُوا﴾ واترُكوا أيُّها المُؤمنون ﴿ظَاهِرَ﴾ الذّنب وعَلَنه مِمّا يُعمَل بالجَوارح، فإنّه سَبب ﴿اَلْإِثْمِ﴾ والعِقاب ﴿وَبَاطِنَهُ﴾ وسِرّه مِمّا يُفعَل في القَلب، كإرادة السُّوء، والكِبْر، والحَسَد، وغيرها.

وقيل: إنّ أهل الجاهلية كانوا يَرون الزِّنا في السِرّ حَلالاً، فحرّم الله تعالىٰ بهذه الآية السِرّ مِنه والعَلانية [٣].

ثمّ هدّد سُبحانه المُرتكبين للذّنب بقوله: ﴿إِنَّ اَلَّذِينَ يَكْسِبُونَ﴾ ويرتكبون ﴿اَلْإِثْمَ﴾ والعِصيان ﴿سَيُجْزَوْنَ﴾ ويُعاقبون في الآخرة ﴿بِمَا كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿يَقْتَرِفُونَ﴾ ويرتكبون.

وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اَسْمُ اَللهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ اَلشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ[١٢١]

---

١. المائدة: ٥/٣. ٢. الأنعام: ٦/١٤٥. ٣. تفسير الرازي ١٣: ١٦٧.

ثمّ بعدَ الإشارة إلىٰ حُرمة ما لَم يُذكر اسمُ الله عليه، صرّح سُبحانه بها بقوله: **﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾** حالَ ذَبحه أو نَحره.

ثمّ أكّد سُبحانه حُرمة أكله بقوله: **﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾** وخُروج عن حُدود الله **﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ﴾** مِن إبليس وجُنده **﴿لَيُوحُونَ﴾** وليُوسوسُون **﴿إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ﴾** وأتباعهم مِن المُشركين **﴿لِيُجَادِلُوكُمْ﴾** ويُعارضوكم في تَحليل المَيْتة، بأن يقولوا: إنّكم تأكُلون مِمّا قتلتُم، ولا تأكُلون مِمّا قتلَه الله **﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾** في استِحلال الحَرام، وساعدتُموهم علىٰ باطلهم **﴿إِنَّكُمْ﴾** إذَن **﴿لَمُشْرِكُونَ﴾** بالله غيره في طاعته.

وعن عِكرمة: يعني بالشّياطين مَرَدة المَجوس، ليُوحون إلىٰ أوليائهم مِن مُشركي قُريش، وذلك لأنّه لمّا نزَل تَحريم المَيْتة سمِعه المَجوس مِن أهل فارس فكتبوا إلىٰ قُريش، وكانت بينهم مُكاتبة: إنّ محمّداً وأصحابه يزعُمون أنّهم يتّبعون أمرَ الله، ثمّ يزعُمون أنّ ما يذبحونه حَلال وما يذبَحه الله حَرام، فوقع في أنفس ناسٍ مِن المُسلمين [من] ذلك [شيء]، فأنزل الله تعالىٰ هذه [الآية][1].

عن أبي عبدالله عليه السلام: «مَن لَم يُسَمِّ إذا ذبَح فلا تأكُله»[2].

عن الورد بن زيد ـ في حديثٍ ـ قال لأبي جعفر عليه السلام: مُسلمٌ ذبَح ولَم يُسَم؟ فقال: «لا تأكُل، إنّ الله يقول: **﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾**[3]، **﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾**»[4].

عن الحلَبي: عن أبي عبدالله عليه السلام ـ في حديثٍ ـ أنّه سأله عن الرّجُل يذبَح فينسىٰ أن يُسمّي، أتُؤكل ذَبيحتُه؟ قال: نعَم، إذا كان لا يُتّهم، وكان يُحسِن الذّبح قبل ذلك»[5].

عن محمّد بن مُسلم، قال: سألتُه عن رَجُلٍ ذبَح فسبّح أو كبّر أو هلّل أو حمِد الله عزّ وجلّ، قال: «هذا كُلّه مِن أسماء الله تعالىٰ، لا بأس به»[6].

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[١٢٢]

ثمّ لمّا ذكَر أنّ المُؤمنين يُساوون المشركين في صُورة مُوافقتهم في استِحلال الحَرام، أنكر عليهم ذلك التّساوي معَ كَثرة ألطافه بهم بقوله: **﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتاً﴾** لا حَياة له، قيل: إنّ التقدير: أنتُم أيُّها

---

١. تفسير الرازي ١٣: ١٧٠.
٢. من لا يحضره الفقيه ٣: ٢١١/٩٨٠.
٣. الأنعام: ١١٨/٦.
٤. من لا يحضر الفقيه ٣: ٢١٠/٩٧٣.
٥. من لا يحضره الفقيه ٣: ٢١١/٩٧٩.
٦. من لا يحضره الفقيه ٣: ٢١١/٩٧٨، تفسير الصافي ٢: ١٥٣.

المؤمنون مِثل المُشركين، ومَن كان مَيّتاً[1] ﴿فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ بنَفخ الرُّوح فيه، وأعطيناه القُوىٰ المُتحرّكة والمُدركة ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ﴾ مع ذلك مِن الخارج ﴿نُوراً﴾ عظيماً ﴿يَمْشِي بِهِ﴾ ويَسير بسَببه ﴿فِي ٱلنَّاسِ﴾ آمناً مَحموداً، يُمكن أن يكون ﴿كَمَن مَثَلُهُ﴾ وصِفته العَجيبة أنّه ثابت أو مُستقرّ ﴿فِي ٱلظُّلُمَاتِ﴾ العَديدة، و﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ﴾ وناجٍ ﴿مِنْهَا﴾ في وقت مِن الأوقات وحالٍ مِن الأحوال، حاشاه مِن أن يكون مَثَله ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الزَّين الذي يكون للإيمان في قُلوبكم مِن جانب الله ﴿زُيِّنَ﴾ وحُسّن مِن قِبَل الشَيطان وبتَسويلاته ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ خُصوصاً المُشركين مِنهم ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ مِن الكُفر والمَعاصي.

فقوله: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتاً﴾ تمثيلٌ لمَن هَداه الله وأنقذه مِن الضَلالة، وجعل له نُور الحُجَج والآيات يتأمّل بها في الأشياء، فيُميّز بين الحقّ والباطل وأهلهما، وقوله: ﴿كَمَن مَثَلُهُ فِي ٱلظُّلُمَاتِ﴾ تمثيلٌ لمَن بقي في الضَلالة لا يُفارقها.

عن ابن عبّاس رضي الله عنه: نزلت في حَمزة و أبي جهل، قال: إنّ أبا جَهل رمىٰ النبيّ ﷺ بفَرْث، فأخبر حمزة بما فعل أبو جَهل وهُو راجِع من الصَيد وبيَده قَوس، وكان يومئذٍ لم يُؤمن [بعد]، فلقي أبا جَهل، فضرب رأسه بالقَوس، فقال أبو جَهل: أما ترىٰ ما جاء به! سَفَّه عُقولَنا وسَبَّ آلهتنا. فقال حمزة: وأنتم أسفه النّاس، تعبُدون الحِجارة مِن دُون الله، أشهد أن لا إله إلّا الله، وَحده لا شريك له، وأنّ مُحمّداً عبدُه ورَسُولُه. فنزلَتْ الآية[2].

وقال مُقاتل: نزلت في النبيّ ﷺ وأبي جَهل، وذلك أنّه قال: زاحمَنا بنو عبد مَناف في الشّرف حتّىٰ إذا صِرنا كفَرَسي رِهان قالوا: مِنّا نبيٌّ يُوحىٰ إليه، والله لا نُؤمن به إلّا أن يأتينا وَحيٌ كما يأتيه[3].

وعن عكرمة: أنّها نزلت في عمّار وأبي جَهل[4]، ورواه في (المجمع) عن الباقر عليه السلام[5].

وفي (الكافي): عنه عليه السلام: «﴿مَيتاً﴾ لا يعرِف شيئاً، و﴿نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي ٱلنَّاسِ﴾ إماماً يُؤتَمّ به، ﴿كَمَن مَثَلُهُ فِي ٱلظُّلُمَاتِ﴾ الذي لا يعرِف الإمام»[6].

وعنه عليه السلام: «المَيْت الذي لا يعرف هذا الشأن، يعني هذا الأمر، ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً﴾ إماماً يأتَمّ به، يعني عليّ بن أبي طالب عليه السلام، ﴿كَمَن مَثَلُهُ فِي ٱلظُّلُمَاتِ﴾ قال بيده [هكذا]: هذا الخَلق الذين لا يعرفون شيئاً»[7].

---

١. تفسير روح البيان ٣: ٩٦.
٢. تفسير روح البيان ٣: ٩٦.
٣ و٤. تفسير الرازي ١٣: ١٧٣.
٥. مجمع البيان ٤: ٥٥٥، تفسير الصافي ٢: ١٥٤.
٦. الكافي ١: ١٣/١٤٢، تفسير الصافي ٢: ١٥٣.
٧. تفسير العياشي ٢: ١٤٨٥/١١٧، تفسير الصافي ٢: ١٥٣.

وعن الصادق عليه السلام: «﴿كَانَ مَيْتاً﴾ عنّا، ﴿فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ بنا»[١].

وعن القُمّي قال: جاهلاً عن الحقّ والولاية، فهدَيناه إليها[٢]. قال: النُّور: الوِلاية، و﴿فِى الظُّلُمَاتِ﴾ يعني وِلاية غير الأئمّة عليهم السلام[٣].

وعنه عليه السلام ـ في حديثٍ ـ: «قال الله تعالىٰ: ﴿يُخرِجُ ٱلحَىَّ مِنَ ٱلمَيِّتِ وَيُخرِجُ ٱلمَيِّتَ مِن ٱلحَىِّ﴾[٤] فالحَيّ: المُؤمن الذي تخرُج طينته مِن طينة الكافر، والميت: الذي يخرُج مِن الحَيّ [هو] الكافر الذي يخرُج مِن طينة المُؤمن، فالحَيّ: المُؤمن، والمَيت: الكافر، وذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿أوَ مَن كَانَ مَيتاً فأحْيَيْنَاهُ﴾ فكان موتُه اختِلاط طينته مع طينة الكافر، وكانت حياتُه حينَ فرّق [الله] بينهما بكلمته، وكذلك يُخرج الله عزّ وجلّ المُؤمن في الميلاد مِن الظُّلمة بعدَ دُخوله فيها إلىٰ النُّور، ويُخرج الكافر مِن النُّور إلىٰ الظُّلمة بعدَ دُخوله في النُّور، وذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّاً وَيَحِقَّ ٱلقَولُ عَلَىٰ ٱلكَافِرِينَ﴾»[٥].

وَكَذٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَاأُوتِىَ رُسُلُ ٱللهِ ٱللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ ٱللهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ[١٢٣ و ١٢٤]

ثمّ لمّا كان أبو جهل مِن أكابر قُريش، وكان يفتخر بعَظَمته بينهم، نبّه سُبحانه على أنّ العَظمة والرِّئاسة مِن مُوجبات الفِتنة والخِذلان بقوله: ﴿وَكَذٰلِكَ﴾ النّحو الذي فعلنا في مكّة مِن جَعل أكابرها وصَناديدها مُجرمين ماكرين في إطفاء نُور الهِداية ﴿جَعَلْنَا﴾ في القُرون السالفة ﴿فِي كُلِّ قَرْيَةٍ﴾ وبلدة ﴿أَكَابِرَ﴾ ها وأعاظمها ﴿مُجرمِيها﴾ ومُذنبيها وماكريها في الإخلال بأمر نبيّها، وقيل: إنّ المُراد: كما زينا للكافرين أعمالهم، جعَلنا مجرمي كُلّ قرية أكابرها، بأن خلّيناهم وأنفسهم ﴿لِيَمْكُرُوا﴾ ويغدِروا ﴿فِيهَا﴾ ويحتالوا في إضلال أهلها، ومُعارضة الأنبياء كِبْراً وحَسَداً عليهم وحِفظاً لرِئاستهم[٦].

قيل: إن صناديد قُريش أجلسوا علىٰ كُلّ طريق مِن طُرق مكّة أربعةَ نَفرٍ ليصرِفوا النّاس عن الإيمان

١. مناقب ابن شهر آشوب ٣: ٢٧٠، تفسير الصافي ٢: ١٥٣.
٢. في النسخة: إلينا.
٣. تفسير القمي ١: ٢١٥، تفسير الصافي ٢: ١٥٣.
٤. يونس: ٣١/١٠.
٥. الكافي ٢: ٧/٤، تفسير الصافي ٢: ١٥٤، والآية من سورة يس: ٧٠/٣٦.
٦. تفسير الرازي ١٣: ١٧٤.

بمحمّد ﷺ، وكانوا يقولون لكلّ مَن يقدم: إيّاك وهذا الرّجل، فإنّه كاهنٌ ساحرٌ كذّاب[١].

ثمّ سلّىٰ سُبحانه نبيّه ﷺ بقوله: ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ لأنّ وَبال مَكرهم يحيق بهم ولا يتعدّاهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ بذلك أصلاً، بَل يزعُمون أنّهم يمكُرون بك وبالمُؤمنين.

ثمّ بيّن سُبحانه بعضَ جُرم الأكابر بقوله: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ﴾ مِن عندِ الله ﴿آيَةٌ﴾ ومُعجزة دالّة علىٰ صِدق نُبوّتك ﴿قَالُوا﴾ عِناداً ولَجاجاً: ﴿لَن نُؤْمِنَ﴾ بك وبهذه الآية ﴿حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ﴾ مِن جَانب الله ﴿مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ﴾ مِن الوَحي ومَنصِب الرّسالة، فتكون متبوعاً لا تابعاً. ففيه دَلالة علىٰ أنّ إصرارهم علىٰ الكُفر كان لغاية الحَسَد لا لطلَب الحُجّة.

رُوي أنّ الوَليد بن المُغيرة قال: والله، لَو كانت النُّبوّة حقّاً لكنتُ أحقُّ بها[٢]. وقد مَرّ ما حُكي عن أبي جهل مِن قوله: زاحمَنا بنُو عبد مَناف في الشّرف حتّىٰ إذا صِرنا كفَرَسي رِهان قالوا: مِنّا نبيٌ اُوحي إليه[٣].

قيل: إنّ المُراد برُسُل الله: خُصوص النبيّ ﷺ، والجَمع للتّعظيم[٤].

ثمّ ردّهم الله بقوله: ﴿اللهُ أَعْلَمُ﴾ مِن كُلّ شيء ﴿حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ فإنّ استِحقاقها ليسَ بكَثرة المال والجَاه الدُّنيوي، بَل إنّما هُو بالفَضائل النّفسانيّة، ولِذا خصّها بمحمّد ﷺ دُون غيره مِن أكابر مكّة الفاقدين لها.

ثمّ هدّد سُبحانه الأكابر المُتكبّرين بقوله: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ وعصَوا الله بالاستِكبار والحَسَد للنبيّ ﷺ[٥] ﴿صَغَارٌ﴾ وذُلّ وحَقارة ﴿عِندَ اللهِ﴾ في الآخرة، أو مِن عندِ الله، مَكان ما تمنّوا مِن عِزّ النُّبوّة وشَرف الرّسالة في الدُّنيا، ﴿وَعَذَابٌ﴾ بالنّار ﴿شَدِيدٌ﴾ غايته ﴿بِمَا كَانُوا﴾ في الدُّنيا ﴿يَمْكُرُونَ﴾ بالنبيّ ﷺ ويحسُدونه.

عن القُمّي ﵀: «أي يعصُون الله في السِرّ»[٦].

فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذٰلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَهٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ[١٢٥ و ١٢٦]

---

١. تفسير روح البيان ٣: ٩٨.
٢. تفسير الرازي ١٣: ١٧٥.
٣. تفسير روح البيان ٣: ٩٩، تفسير الصافي ٢: ١٥٤.
٤. تفسير روح البيان ٣: ٩٩.
٥. في النسخة: والحسد على النبيّ.
٦. تفسير القمي ١: ٢١٦، تفسير الصافي ٢: ١٥٥.

ثمّ نبّه سُبحانه علىٰ كَمال سَلطنته ببَيان أنّ إيمان المُؤمن وكُفْر الكافر بإرادته وتَوفيقه وخِذلانه بقوله: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ﴾ إلىٰ السّعادة الأبديّة ومَقام قربه ورَحمته بتَعريفه وتَوفيقه للإيمان ﴿يَشْرَحْ﴾ ويُوسّع ﴿صَدْرَهُۥ﴾ وقَلبه ﴿لِلْإِسْلَـٰمِ﴾ بتَجليته من الأخلاق الرّذيلة، وتَجلية عَين بصيرته بنُور العَقل، فيرىٰ الحقّ ويُبادر إلىٰ قَبُوله بسُهولةٍ ورَغبة.

رُوي أنه لمّا نزلَتْ هذه الآية سُئل رَسُول الله ﷺ عن شَرْح الصّدر [ما هو]. فقال: «[نور] يقذِفه الله في قَلب المُؤمن، فينشرِح له [صدره] وينفسح». فقالوا: هَل لذلك أمارة يُعرَف بها؟ فقال: «نعم، الإنابة إلى دَار الخُلود، والتّجافي عن دَار الغُرور، والاسْتِعداد للموت قبلَ نُزوله»[١].

﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ﴾ ويحرِفه عن طَريق الحقّ ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ﴾ بسبَب تَراكُم الأخلاق السَيِّئة كالكِبْر والحَسَد وحُبّ الجَاه والمال فيه ﴿ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ شَديد الضِّيق بحيث لا يبقىٰ فيه مَجال لتمكُّن الحقّ، أو مُنسَدّ المَنافذ بحيث لا تدخُل فيه المَواعظ والمَعارف.

عن الصادق عليه السلام، [أنه] قال لمُوسىٰ بن أسمر[٢]: «أتدري ما الحَرَج؟» قال: قلتُ: لا، فقال بيَده وضَمّ أصابعه، كالشيء المُصمَت الذي لا يدخُل فيه شيء، ولا يخرُج مِنه شيء[٣].

وعنه عليه السلام، في هذه الآية، قال: «قد يكون ضيّقاً وله مَنفَذ يسمَع مِنه ويُبصر، والحَرَج هُو المُلتئِم الذي لا مَنفذ لَه يسمَع به ولا يُبصر مِنه» الخبر[٤] ولِذا ينبو عن قَبُول الحَقّ، ويكون إيمانُه في امْتِناعه مِنه وثِقْله عليه ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ ويعرُج إليها ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الضِّيق الذي جعَل الله لصَدر الكافر ﴿يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ﴾ والشَكّ. كما عن الصادق عليه السلام[٥]. أو العَذاب، أو اللّعنة في الدُّنيا والعَذاب في الآخرة. وعن ابن عبّاس رضي الله عنه: هُو الشّيطان، أي يُسلّطه[٦] ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ﴾ يعلَم أنهم بسَبب خُبث ذاتهم وسُوء اخْتيارهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بمحمّد ﷺ ودِين الإسلام أبداً.

عن الرضا عليه السلام أنّه سُئل عن هذه الآية فقال: «﴿مَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ﴾ بإيمانه في الدُّنيا إلى جنّته ودَار كرامته [في الآخرة] ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ﴾ للتّسليم لله والثّقة به، والسُّكون إلىٰ ما وَعده مِن ثَوابه حتّىٰ يطمئنّ إليه ﴿وَمَن يُرد أن يُضلّه﴾ عن جنّته ودَار كرامته في الآخرة لكُفره به وعِصيانه له في الدُّنيا ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ حتّىٰ يشُكّ في كُفره، ويضطرب مِن اعْتقاده قلبُه حتّىٰ يصير ﴿كَأَنَّمَا

---

١. مجمع البيان ٤: ٥٦١، تفسير الصافي ٢: ١٥٥.
٢. في تفسير العياشي: لموسى بن أشيم.
٣. تفسير العياشي ٢: ١٤٩٠/١١٩، تفسير الصافي ٢: ١٥٥.
٤. معاني الأخبار: ١/١٤٥، تفسير الصافي ٢: ١٥٥.
٥. تفسير العياشي ٢: ١٤٩١/١١٩، تفسير الصافي ٢: ١٥٦.
٦. تفسير الرازي ١٣: ١٨٤.

يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّماءِ كَذٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾»[١].

وعن الصادق عليه السلام - في حديثٍ - «واعْلَموا أنّ الله إذا أراد بعبدٍ خيراً شرَح صَدره للإسلام، فإذا أعطاه ذلك نطق لسانُه بالحقّ، وعقَد قلبَه عليه فعمل به، فإذا جمع الله له ذلك تمّ له إسلامهُ، وكان عندَ الله إن مات علىٰ ذلك الحال مِن المُسلمين حقّاً، وإذا لَم يُرد الله بعبدٍ خيراً، وكله إلىٰ نفسه فكان صَدره ضيّقاً حَرجاً، فإن جرىٰ علىٰ لِسانه [حقّ] لَم يعقِد قلبَه عليه، وإذا لَم يعقِد قلبَه عليه لَم يُعطِه الله العمَل به، فإذا اجتمع ذلك عليه حتّىٰ يموت وهُو علىٰ تِلك الحال، كان عندَ الله مِن المُنافقين، وصار ما جرىٰ علىٰ لِسانه مِن الحَقّ الذي لَم يُعطه الله أن يعقِد عليه قلبه ولَم يُعطِه العَمل به حُجّة عليه، فاتّقوا الله وسَلوه أن يشرَح صُدوركم للإسلام، وأن يجعَل ألسنتكم تنطِق بالحِكمة[٢] حتّىٰ يتوفّاكم وأنتم علىٰ ذلك»[٣].

وعنه عليه السلام: «أنّ الله عزّ وجلّ إذا أراد بعبدٍ خيراً نكَت في قلبه نُكتة مِن نُور، فأضاء لها سَمعه وقَلبه حتّىٰ يكون أحرص علىٰ ما في أيديكم منكم، وإذا أراد بعبدٍ سُوءاً نكَت في قَلبه نُكتة سوداء فأظلم لها سَمعه وقَلبه» ثم تلا: **﴿فمَن يُرد ٱلله أن يهديه﴾** الآية[٤].

وعنه عليه السلام: «أنّ الله تَبارك وتعالىٰ إذا أراد بعبدٍ خيراً نكَت في قَلبه نُكتة مِن نُور[٥]، وفتَح مسامع قَلبه، ووكّل به مَلَكاً يُسدِّده، وإذا أراد بعبدٍ سُوءاً نكَت في قَلبه نُكتة سَوداء، وسَدّ مسَامع قلبه، ووكّل به شيطاناً يُضلّه»، ثمّ تلا هذهِ الآية[٦].

﴿وَهٰذَا﴾ التّشريح لصُدور المؤمنين، والتّضييق لقُلوب الكافرين، وجَعل الرِّجس عليهم **﴿صِرَاطُ رَبِّكَ﴾** ودأبه الذي يستمرّ عليه **﴿مُسْتَقِيماً﴾** لا عِوج فيه ولا انْحراف عنه، أو هذا البَيان الذي يكون في القُرآن صِراط ربّك؛ كما عن ابن مَسعود[٧].

وعن ابن عبّاس رضي الله عنه: هذا الذي أنت عليه يا محمّد دِين رَبّك مُستقيماً[٨].

وعن القُمي: «يعني الطّريق الواضح»[٩].

﴿قَدْ فَصَّلْنَا﴾ وشرَحنا **﴿الآيَاتِ﴾** والمَطالب الكثيرة واحداً بعد واحد **﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾** ويتنبّهون بالآيات والنُّذُر، فانّهم المُنتفعون بها.

---

١. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٧/١٣١، التوحيد: ٤/٢٤٢.
٢. في الكافي: بالحق.
٣. الكافي ٨: ٤٠٨، تفسير الصافي ٢: ١٥٦.
٤. الكافي ٢: ٦/١٧٠، تفسير الصافي ٢: ١٥٦.
٥. في تفسير العياشي: نكتة بيضاء.
٦. الكافي ١: ٢/١٢٦، تفسير العياشي ٢: ١٤٨٩/١١٨، تفسير الصافي ٢: ١٥٦.
٧. مجمع البيان ٤: ٥٦٢.
٨. تفسير الرازي ١٣: ١٨٧.
٩. تفسير القمي ١: ٢١٦، تفسير الصافي ٢: ١٥٧.

لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[١٢٧]

ثمّ بشّر سُبحانه المُتذكّرين بقوله: ﴿**لَهُمْ**﴾ في الآخرة ﴿**دَارُ ٱلسَّلَامِ**﴾ ومَنزل مَصون مِن جَميع المَكاره والآفات، قيل: إنّ السّلام اسمٌ مِن أسماء الله[١]. وإضافة الدّار إليه تعالىٰ مُبالغة في تَشريفها وتَعظيمها، والمُراد الجنّة.

وعن القُمّي: «يعني: [في] الجَنّة، والسلام الأمان والعَافية والسُّرور»[٢].

وهي مُعدّة ﴿**عِندَ رَبِّهِمْ**﴾ اللّطيف بهم حاضرة لديه، أو المُراد أنّه تعالىٰ مُتكفّل بها، وقيل: عندَ رَبّهم كِناية عن غاية شَرفها وكَرامتها[٣].

ثمّ بالغ سُبحانه في التّبشير بقوله: ﴿**وَهُوَ وَلِيُّهُم**﴾ ومُحبّهم، أو النّاظر في صَلاحهم، وعن القُمّي عليه السلام: «يعني: أولىٰ بهم»[٤] جزاء ﴿**بِمَا كَانُوا**﴾ في الدُّنيا ﴿**يَعْمَلُونَ**﴾ مِن الخَيرات والحَسَنات.

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَامَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِنَ ٱلْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِنَ ٱلْإِنْسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا ٱلَّذِى أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ ٱلنَّارُ مَثْواكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَاشَاءَ ٱللهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَكَذٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ[١٢٨ و ١٢٩]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ البِشارة بغَاية لُطفه بالمُؤمنين، أوعد بعِتابه وشِدّة عَذابه للمُشركين بقوله: ﴿**وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ**﴾ إلىٰ القِيامة ﴿**جَمِيعاً**﴾ ويقول عِتاباً وتَوبيخاً لهم: ﴿**يَا مَعْشَرَ ٱلجِنِّ**﴾ وجَماعة الشّياطين، أنتُم ﴿**قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم**﴾ وأضفتم إلىٰ جَماعتكم كثيراً ﴿**مِنَ ٱلْإِنْسِ**﴾ بإغوائكم وتَسويلاتكم، وصيّرتمُوهم أولياءكم وأتباعكم.

عن القُمّي عليه السلام: «مَن والىٰ قوماً فهُو مِنهم، وإن لَم يكُن مِن جِنسهم»[٥].

﴿**وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم**﴾ وأتباعهم ﴿**مِنَ ٱلْإِنْسِ**﴾ بعدَ استِماع العِتاب والتّوبيخ إظهاراً للنّدامة: ﴿**رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ**﴾ وانْتفع ﴿**بَعْضُنَا بِبَعْضٍ**﴾ أمّا انْتِفاع الجنّ بالإنس فبإغوائهم وطاعتهم إيّاهم، وأمّا انْتِفاع الإنس مِن الجنّ فباعانتهم إيّاهم علىٰ نَيل الشّهوات ﴿**وَبَلَغْنَا**﴾ الآن ﴿**أَجَلَنَا ٱلَّذِى أَجَّلْتَ لَنَا**﴾ وأدركنا الوقت الذي وقّته لنا مِن يومِ القِيامة، بعدَما كُنّا مُكذّبين به طاعةً للشّياطين واتّباعاً للشّهوات.

---

١. تفسير الرازي ١٣: ١٨٨.

٢. تفسير القمي ١: ٢١٦، تفسير الصافي ٢: ١٥٧.

٣. تفسير الرازي ١٣: ١٨٩.

٤. تفسير القمي ١: ٢١٦، تفسير الصافي ٢: ١٥٧.

٥. تفسير القمي ١: ٢١٦، تفسير الصافي ٢: ١٥٨.

ثمَ كأنّهم قالوا: ماذا تُعامل معنا بعدَ إفراطنا في عِصيانك؟ ﴿قَالَ﴾ آلله لهم وللشياطين الّذين وَالوهم: ﴿ٱلنَّارُ مَثْوَاكُمْ﴾ ومَنزل إقامتكم، حالَ كَونكم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أبداً ﴿إِلَّا مَاشَاءَ ٱللَّهُ﴾ عدَم كَونكم فيها.

قيل: هُو وَقت المُحاسبة[1]، وقيل: هِي الأوقات التي يخرُجون مِنها لشَوبٍ مِن حَميم، ثمَ يكون مَرجعهم إلىٰ الجَحيم[2]، وقيل: هُو وقت الانْتِقال مِن النّار إلى الزّمهرير[3].

رُوي أنّهم يدخُلون وادياً فيه برَد شديد، فهُم يطلُبون الرّدّ مِن ذلك البَرد إلىٰ الجَحيم[4].

و يُحتمل أن يكون المُراد مِن المُستثنىٰ: العُصاة مِن المُؤمنين؛ فإنّهم مِن أولياء الشّيطان، ولا خُلود لهم.

وعن ابن عبّاس رضي الله عنه: استثنىٰ الله قوماً سبَق في عِلمه أنّهم يُسلِمون ويُصدّقون النبيّ صلى الله عليه وآله[5].

ثمَ لمّا كان مَجال تَوهُّم الظُّلم في تَخليد الكُفّار في النّار، دفَعه سُبحانه بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾ في فِعاله لا يصدُر مِنه الظُّلم، وإنّما يُعاقب علىٰ حَسَب الاسْتِحقاق ﴿عَلِيمٌ﴾ بأحوال الثّقلين وأعمالهم، وبما يستحقّون مِن الجَزاء ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ التَولّي الذي كان بين الجِنّ والإنس، أو الذي بين الله تعالىٰ وبين المُؤمنين ﴿نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضاً﴾ آخر مِنهم.

قيل: يعني نجعَل المَحبّة والنُّصرة بينهم[6]، وقيل: نَكِل بعضَهم إلىٰ بعضٍ في القِيامة[7]، وقيل: نُقرِن بينهم في النّار؛ كُلّ ذلك للسّنخيّة التي تكون بينهم طِينةً وأعتقاداً وأخلاقاً وعملاً، وقيل: يعني نُسلّط بعضَهم علىٰ بعضٍ، فنأخُذ مِن الظالم بالظّالم[8].

عن (الكافي): عن الباقر عليه السلام: «ما انْتصر الله مِن ظالمٍ إلّا بظالم، وذلك قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضاً﴾»[9].

وعن القُمّي رحمه الله قال: «نُولّي كُلّ مَن تولّىٰ أولياءهم فيكونون معهم»[10] جزاءً ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ويرتكبون مِن الظلم والقَبائح.

قيل: إنّ الآية تدُلّ على أنّ الرّعيّة إذا كانوا ظالمين، سلّط الله عليهم ظالماً مِثلهم، وأيضاً تدُلّ علىٰ أنّه لابُدّ في الخَلق مِن أمير؛ لأنّه تعالىٰ إذا لَم يُخلِ أهل الظُّلم مِن أميرٍ ظالم، فبأن لا يُخلي أهل

---

١. تفسير الرازي ١٣: ١٩٢.
٢. تفسير روح البيان ٣: ١٠٣.
٣. تفسير الرازي ١٣: ١٩٢، تفسير روح البيان ٣: ١٠٣.
٤. تفسير الرازي ١٣: ١٩٢.
٥. تفسير الرازي ١٣: ١٩٢.
٦. تفسير الرازي ١٣: ١٩٣.
٧. مجمع البيان ٤: ٥٦٥.
٨. تفسر روح البيان ٣: ١٠٤.
٩. تفسير العياشي ٢: ١٤٨٧/١١٨، الكافي ٢: ١٩/٢٥١، تفسير الصافي ٢: ١٥٨.
١٠. تفسير القمي ١: ٢١٦، وزاد فيه: يوم القيامة، تفسير الصافي ٢: ١٥٨.

الصَلاح مِن أمير يحمِلهم علىٰ زِيادة الصَلاح، كان أولىٰ[١].

في لزوم وجود السلطان في الأرض ولو كان جائراً والنهي عن سبّ السلطان

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «لا يصلُح للنّاس إلّا أميرٍ عادل أو جائر»، فأنكروا قوله: «أو جائر» فقال: «نعم، يُؤمِّن السَبيل، ويُمكِّن مِن إقامة الصَلاة وحَجّ البيت»[٢].

وعن مالك بن دينار، [جاء] في بعض كُتب الله تعالى: أنا الله مالك المُلوك، قُلوب المُلوك ونَواصيهم بيدي، فمَن أطاعني جعلتُهم عليه رَحمةً، ومَن عَصاني جعلتُهم عليه نقمةً، لا تشغلوا أنفسكم بسَبّ المُلوك، لكن توبوا إليّ أُعطِّفهم عليكم[٣].

يَا مَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هٰذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ [١٣٠]

ثمّ نبّه سبحانه على أنّ العَذاب في القِيامة لا يكون إلّا بعدَ إتمام الحُجّة بقوله: **﴿يَا مَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾** وجَماعة الثَقلين المُنكرين للبَعث **﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾** في الدُّنيا مِن قِبَلنا **﴿رُسُلٌ مِنكُمْ﴾** وأنبياء يُجانسونكم حتّىٰ تميلوا إليهم، وتَستفيدوا مِنهم، وهُم كانوا **﴿يَقُصُّونَ﴾** ويتلون **﴿عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾** وكِتابي **﴿وَيُنذِرُونَكُمْ﴾** ويُخوّفونكم **﴿لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هٰذَا﴾** وشِدّة أهواله وعذابه؟

قيل: إنّ الله كما أرسل رُسُلاً مِن الإنس، أرسل رُسُلاً مِن الجِنّ، واُستُدِلّ بهذه الآية وبقوله: **﴿وإِن مِن أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾**[٤] والأكثر علىٰ أنّه ما كان مِن الجِنّ رَسُولٌ، وإنّما كان الرَسُول مِن الإنس خاصّة.

وضمير (منكم) راجع إلىٰ مَجموع الثَّقَلين، فيكفي كَونه مِن الإنس، أو إلىٰ أحد الثَقلين لا كُلّ مِنهما، أو إلىٰ كُلٍّ مِنهما، أو كان رُسُل الجِنّ رُسُل الإنس؛ للإجماع علىٰ اختِصاص الرُسُل بالإنس، وما رُوي مِن أنّ الله بعَث نبياً إلىٰ الجِنّ يُقال له يُوسف فقتلوه[٥]، وأرسل محمّداً صلّى الله عليه وآله إلىٰ الثَقلين، لا دَلالة فيه علىٰ أنّ ذلك النبيّ كان مِن الجِنّ.

ثمّ لمّا لَم يجدوا بُدّاً مِن الاعتِراف بالرُسُل وتَبليغاتهم **﴿قَالُوا﴾** مُجيبين: بَلىٰ **﴿شَهِدْنَا﴾** واعتَرفنا **﴿عَلَىٰ أَنفُسِنَا﴾** بالكُفر واستِحقاق العَذاب.

ثمّ بيّن سُبحانه عِلّة كُفرهم وشِقاقهم معَ الرُسُل بقوله: **﴿وَغَرَّتْهُمُ﴾** وفتَنَتْهم **﴿ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا﴾**

---

١ ـ٣. تفسير الرازي ١٣: ١٩٤.

٤. تفسير الرازي ١٣: ١٩٥، والآية من سورة فاطر: ٢٤/٣٥.

٥. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١/٢٤٢، تفسير الصافي ٢: ١٥٨.

وشَهواتها، فلَم يُؤمنوا بالرُّسُل ﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ في القِيامة ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا﴾ في الدُّنيا ﴿كَافِرِينَ﴾ بالبَعث ودَار الجَزاء.

قيل: تشهد جَوارحُهم عليهم بالشِّرك[1] وإنكار الحَشر.

ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ[١٣١]

ثمّ أشار سُبحانه إلىٰ حِكمة بَعث الرُّسُل بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ المَذكور مِن إرسال الرُّسُل، والتَبليغ والإنذار، لأجل ﴿أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ﴾ معَ كَمال عَدله وحِكمته ﴿مُهْلِكَ﴾ أهل ﴿ٱلْقُرَىٰ﴾ ومُعذِّبهم بعَذاب الاستِئصال ﴿بِظُلْمٍ﴾ صادر مِنهم، أو مُتلبِّساً بظلم مِنه علىٰ القُرىٰ ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿أَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ عمّا يُسخِطه ويُرضاه، مَعذورون في عِصيان أوامره ونَواهيه لجَهلهم بها حتّىٰ يكون لَهم علىٰ الله حُجّة، ويصِحّ قولُهم: ﴿رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

وحاصل الآية أنّ إرسال الرّسول وإنزال الكِتاب، إنّما كان لإتمام الحُجّة علىٰ النّاس، ولَولاه كان تَعذيبهُم علىٰ مُخالفة الأحكام مَع جَهلهم بها ظُلماً مُمتنعاً صدُورُه مِن الله؛ لمُنافاته لرُبوبيّته وأُلوهيّته.

وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ[١٣٢]

ثمّ لمّا كان بعدَ إرسال الرُّسُل وإتمام الحُجّة علىٰ النّاس تَفاوُتٌ فاحشٌ بينهم في الإيمان والكُفر والطّاعة والعِصيان، نبّه سُبحانه بعِلمه بمَراتب اسْتِحقاقاتهم المُختلفة بقوله: ﴿وَلِكُلٍّ﴾ مِن مُكلّفي الجِنّ والإنس؛ كُفّارهم ومُؤمنيهم ﴿دَرَجَاتٌ﴾ ومَراتب مُتفاوتة في القُرب مِن الله والبُعد عنه، وفي مِقدار اسْتِحقاق المَثوبة والعقوبة، حاصلة تِلك الدّرجات لهم ﴿مِّمَّا عَمِلُوا﴾ مِن الحسَنات والسَّيِّئات ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ وجاهل بما يرتكبون مِن الطّاعة والعِصيان، وبمَراتب اسْتِحقاقاتهم؛ فيجزي كُلّ عاملٍ علىٰ حَسَب اسْتِحقاقه.

وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ[١٣٣]

ثمّ أعلن سُبحانه بغِناه عن طاعة الخَلق بقوله: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ﴾ المُطلق بذاته لا حاجة له إلىٰ طاعة

---

١. تفسير الرازي ١٣: ١٩٦.

٢. القصص: ٤٧/٢٨.

المُطيعين، ولا ضَرر عليه مِن مَعصية العاصين، وإنّما كلّف الثّقلين لأنّه ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ الواسعة علىٰ خلقه، ومِن رَحمته عليهم أن يُكلّفهم بما يُوجب تكميل نُفوسهم واسْتِعدادهم للفُيوضات الأبديّة والنِّعم الدّائمة، وتَعاليهم إلىٰ الدّرجات العالية، وسَعادتهم بالقيام إلىٰ الطّاعة والتّحرُّز عن القبائح.

ثمّ لمَا أعلن سُبحانه بغناه وسَعَة رَحمته، أردفه بإظهار كمال قُدرته ببَيان فيه تَرهيب للقُلوب بقوله: ﴿إِن يَشَأْ﴾ الله أيُّها النّاس ﴿يُذْهِبْكُمْ﴾ مِن وَجه الأرض ويُهلككم ﴿وَيَسْتَخْلِفْ﴾ ويخلُق بَدلاً مِنكم ﴿مِنْ بَعْدِكُم﴾ وبعد إهلاككم ﴿مَا يَشَاءُ﴾ خَلقه مِن قومٍ يكونون أطوع مِنكم له تعالىٰ ﴿كَمَا أَنشَأَكُم﴾ وأوجدكم ﴿مِن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ ومِن نَسلهم معَ عدَم كَونهم مِثلكم في العِصيان، بَل كانوا مُطيعين كأصحاب سَفينة نُوح، ولكنّه تعالىٰ لم يشأ إذهابكم، ولَم يعجل في إهلاككم رحمةً عليكم.

إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُم بِمُعْجِزِينَ * قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ[١٣٤و١٣٥]

ثمّ بالغ سُبحانه في تَرهيب العُصاة بقوله: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ﴾ مِن العَذاب علىٰ الكُفر والعِصيان، والله ﴿لَآتٍ﴾ وكائن لوجُود المُقتضي وهُو الاسْتِحقاق، والوعد الذي لا خُلف فيه، وعدَم فرض المانع عنه إلّا قُدرتكم علىٰ تَعجيز الله ﴿وَمَا أَنْتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ له تعالىٰ، وفائتين مِنه، وهاربين مِن سُلطانه.

ثمّ أمر الله سُبحانه نبيّه ﷺ بتَهديدهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد، تَهديداً لقومك العُصاة: ﴿يَا قَوْمِ اعْمَلُوا﴾ ما تُريدون مِن الطُّغيان والعِصيان مُجدّين فيه ﴿عَلَىٰ﴾ غاية ﴿مَكَانَتِكُمْ﴾ ومُنتهىٰ قُدرتكم واسْتِطاعتكم، أو اثْبُتوا علىٰ ما أنتم عليه مِن الكُفر والطُّغيان وَعداوة الرّسُول، ولا تنحرفوا عنه، و﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ أيضاً بما اُمرت به مِن الصّبر علىٰ عَداوتكم، والجِدّ في تَبليغ رسالتي علىٰ مَكانتي ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ في الآخرة ﴿مَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ﴾ هذه ﴿الدّارِ﴾ الفانية التي خُلقت لتِلك العاقبة، والنتيجة مِن الفَلاح والنِّعمة والرّاحة الدّائمة، ومَن لا تكون له.

ثمّ صرّح بحِرمان المُشركين مِن العاقبة المَحمودة بقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ﴾ المُشركون الّذين هُم ﴿الظَّالِمُونَ﴾ علىٰ أنفسهم بالكُفر والعِصيان، ولا ينجُون أبداً مِن العَذاب، ولا يفوزون بمَقاصدهم.

وَجَعَلُوا لِلّٰهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُوا هٰذَا لِلّٰهِ بِزَعْمِهِمْ وَهٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللهِ وَمَا كَانَ لِلّٰهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ[١٣٦]

ثمَ لمّا أمرهم تَهديداً بالثّبات علىٰ أعمالهم، شرَع في ذِكر بعض أعمالهم القبيحة بقوله: **﴿وَجَعَلُوا﴾** هؤلاء المُشركون **﴿لِلَّهِ﴾** تعالىٰ **﴿مِمَّا ذَرَأَ﴾** وخلَق بقُدرته الكاملة في الأرض **﴿مِنَ الْحَرْثِ﴾** والزَرع **﴿وَ﴾** من **﴿الْأَنْعَامِ﴾** الثّلاثة: الإبل والبَقر والغَنم **﴿نَصِيباً﴾** وسَهماً، معَ أنّ الكُلّ له، ولأصنامهم التي جعَلوها شُركاء أنفسهم في أموالهم نَصيباً **﴿فَقَالُوا﴾** مُشيرين إلىٰ نَصيب الله: **﴿هَذَا﴾** النَصيب **﴿لِلَّهِ﴾** خاصّة، وذلك كان **﴿بِزَعْمِهِمْ﴾** الفاسد وادّعائهم الباطل، لا بالحُجّة والبُرهان **﴿وَهَذَا﴾** النَصيب الآخر **﴿لِشُرَكَائِنَا﴾** في أموالنا مِن الأصنام **﴿فَمَا كَانَ﴾** مِن النَصيب **﴿لِشُرَكَائِهِمْ﴾** وأصنامهم **﴿فَلَا يَصِلُ﴾** ولا يُدفع شيء مِنه **﴿إِلَى اللَّهِ﴾** بَل يُدفع إلىٰ سَدَنة[1] الأصنام **﴿وَمَا كَانَ﴾** مِن النَصيب **﴿لِلَّهِ﴾** تعالى **﴿فَهُوَ يَصِلُ﴾** ويُدفع **﴿إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ﴾** بصَرفه في سَدَنتها، وذَبح النَسائك[2] عندها.

ثمَ ذمّهم سُبحانه علىٰ ذلك التَقسيم، معَ أنّ الجميع لله، ثم صَرفهم نَصيب الله في مَصارف الأصنام، بقوله: **﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾** بشِركة الجَمادات في ما خلَقه الله، ثمَ ترجيحها عليه تعالىٰ.

عن ابن عبّاس رضي الله عنه: كان المُشركون يجعَلون لله مِن حُروثهم وأنعامهم نصيباً وللأوثان نصيباً، فما كان للصَنم أنفقوه عليه، وما كان لله أطعموه الصِّبيان والمَساكين، ولا يأكُلون مِنه البتّة، ثمَ إن سقَط مِمّا جعلوه لله في نَصيب الأوثان ترَكوه وقالوا: إنّ الله غَنيّ، وإن سقَط مِمّا جعَلوه للأوثان في نَصيب الله أخذوه ورَدّوه إلىٰ نَصيب الصَنم وقالوا: إنّه فقير[3].

وقيل: كانوا إذا هلَك ما لأوثانهم أخذوا بَدَله مِمّا لله، ولا يفعلون مثل ذلك في ما لله عَز وجلّ[4]

وقيل: إنّه إذا انفجر مِن سَقْي ما جعَلوه للأصنام في نَصيب الله سَدّوه، وإن كان علىٰ ضِدّ ذلك ترَكوه[5].

وقيل: إنّهم كانوا إذا أصابهم القَحط استعانوا بما لله، ووفّروا ما جعلوا لشُركائهم[6].

وقيل: إنْ زكا ونما نَصيبُ الآلهة جعَلوه لها وقالوا: لَو شاء الله زكّا نَصيب نفسه، وإن زكا نصيبُ الله ولَم يزكُ نَصيب الآلهة قالوا: لابُدّ لآلهتنا مِن نَفَقة، فأخذوا نَصيب الله وأعطَوه السَدَنة[7].

أقول: لا تَنافي بين الوُجوه لإمكان أنّ جميعها كان عمَلهم، وبعض الوُجوه مَرويّ عن أئمّتنا[8].

وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ[١٣٧]

---

١. أي خدمة الأصنام. ٢. النَسائك والنُسُك: جمع النَسيكة، وهي الذبيحة.

٣ـ٧. تفسير الرازي ١٣: ٢٠٤. ٨. راجع: مجمع البيان ٤: ٥٧١، تفسير الصافي ٢: ١٦٠.

ثمّ حكىٰ سُبحانه عن مُشركي العرَب مَذهباً آخر أقبح مِن الأول إظهاراً لخِفّة عُقولهم، وتَحقيراً لهم في أنظار العُقلاء بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ التزيين الذي يكون في أنظارهم للتّشريك بين الله وبين الأصنام في ما خلَقه سُبحانه مِن الحَرث والأنعام ﴿زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ﴾ الإناث بدَفْنهنَ أحياء في الأرض خَوفاً مِن الفَقر، أو السَّبْي، أو عاراً مِن التّزويج، والذُّكور بنَحرهم للحَلف عليه ﴿شُرَكَاؤُهُمْ﴾ وأولياؤهم مِن الشّيطان ﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾ ويُهلكوهم إلىٰ الأبد.

وعن ابن عبّاس ﵁: ﴿لِيُرْدُوهُم﴾ في النّار[١]، بالإغواء إلىٰ الأعمال القبيحة ﴿وَلِيَلْبِسُوا﴾ ويخلِطوا ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بالتّسويلات ﴿دِينَهُمْ﴾ الحقّ الذي كان عليه إسماعيل، ويُضلّوهم عنه.

وقيل: إنّ المُراد مِن شركائهم: سَدَنة آلهتهم[٢]، وعليه يكون المُراد: أنّ عاقبة تَزيينهم إهلاكهم وتَشويش دِينهم عليهم، لظُهور أنّه لَم يكُن قَصد السَّدَنة مِن التّزيين ذلك، وإنّما هُو قَصد الشّياطين.

ثمّ لمّا كان شُيوع تِلك القبائح في أولاد إسماعيل ثقيلاً علىٰ النبيّ ﷺ، سلّى سُبحانه قلبَه الشّريف بأنّ صُدور هذا القبيح مِنهم إنّما كان بمشيئة الله لأنّه خلّاهم وأنفسهم، وسلّط عليهم الشّياطين ﴿وَلَوْ شَاءَ ٱللهُ﴾ عدَم صُدوره مِنهم ألجأهم علىٰ تَركه، أو قوّىٰ عُقولهم وصَرف قُلوبهم عنه، إذَن ﴿مَا فَعَلُوهُ﴾ البتّة، فإذا علِمتَ أنّ الله شاء عِصيانهم، وأنّه معَ كَمال قُدرته علىٰ أخذهم ترَكهم علىٰ ما هُم عليه ليَزدادوا إثماً ﴿فَذَرْهُمْ﴾ واترُكهم أنت أيضاً ﴿وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ علىٰ الله وكِذْبهم عليه مِن قولهم: إنّ الله أمرنا به، فإنّ لهم في الآخرة عذاباً عظيماً.

وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ[١٣٨]

ثمّ حكىٰ سُبحانه أنّهم قسّموا أنعامهم ثلاثة أقسام؛ فجعَلوا قِسماً مِنها ومِن حَرثهم لآلهتهم ﴿وَقَالُوا﴾ مُشيرين إلىٰ هذه القِسمة: ﴿ هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ﴾ لآلهتنا ﴿حِجْرٌ﴾ ومَمنوعة مِن التّصرُّف فيها ﴿لَا يَطْعَمُهَا﴾ ولا يذُوق مِنها أحدٌ ﴿إِلَّا مَن نَشَاءُ﴾ أن يطعَمها، وهُم خَدَمة الآلهة، وخُصوص الرِّجال دُون النِّساء، وهذا الحُكم يكون ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾ الباطل وهوىٰ أنفسهم الفاسد، لا بالحُجّة والأخذ مِن الشّريعة، وقِسمة مِنها جعَلوها بَحيرة وسَائبة وحام، وقالوا مُشيرين إليها: ﴿وَ﴾ هذه ﴿أَنْعَامٌ حُرِّمَتْ﴾ علىٰ النّاس ﴿ظُهُورُهَا﴾ ورُكوبها، وقِسمة مِنها جعلوها للذّبح علىٰ النُّصب، وقالوا مُشيرين

---

١ و٢. تفسير الرازي ١٣: ٢٠٦.

إليها: ﴿وَ﴾ هذه ﴿أَنْعَامٌ﴾ للذّبح للأصنام، وهُم ﴿لَا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾ حينَ ذَبحها أو نَحرها، بَل يذكُرون عليها اسْم الأصنام، وقيل: يعني لا يحُجّون ولا يُلبّون عليها، وهُم نَسَبوا ذلك التّقسيم إلىٰ الله ﴿ٱفْتِرَاءً عَلَيْهِ﴾ تعالىٰ[1].

ثمّ هدّدهم بقوله:﴿سَيَجْزِيهِم﴾ الله ويُعاقبهم في الآخرة﴿بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ عليه فيما ينسُبون إليه.

وَقَالُوا مَا فِى بُطُونِ هٰذِهِ ٱلْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ[١٣٩]

ثمّ حكىٰ سُبحانه حُكمهم الباطل في أجِنّة البَحائر والسّوائب والحَوامي بقوله: ﴿وَقَالُوا مَا فِى بُطُونِ هٰذِهِ ٱلْأَنْعَامِ﴾ مِن الأجِنّة ﴿خَالِصَةٌ﴾ ومُحلّلة ﴿لِذُكُورِنَا﴾ خاصّة وقيل: إن تاء (خالصة) للمُبالغة كرَاوية[2].

﴿وَمُحَرَّمٌ﴾ أكلُها مِن قِبَل الله ﴿عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا﴾ وإناثنا، إن ولدَتْ مِن اُمّها حَيّةً ﴿وَإِن يَكُن﴾ ما في البُطون ﴿مَيْتَةً﴾ حينَ ولادته ﴿فَهُمْ﴾ جميعاً ذُكورهم وإناثهم ﴿فِيهِ شُرَكَاءُ﴾ مُتساوون لا تفاوُت بين ذُكورهم وإناثهم في حِلّية أكله.

ثمّ هدّدهم بقوله: ﴿سَيَجْزِيهِمْ﴾ الله في الآخرة ﴿وَصْفَهُمْ﴾ وكَذِبهم عليه في التّحليل والتّحريم ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ﴾ في فِعاله، عامل معَ خلقه علىٰ حَسَب ما يستحقّون ﴿عَلِيمٌ﴾ بأقوالهم وأفعالهم وبمِقدار استحِقاقهم.

قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَاءً عَلَى ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ[١٤٠]

ثمّ أشار سُبحانه إلىٰ مَفسدة قتل الأولاد وتَحريم الانْتِفاع بالأنعام بقوله: ﴿قَدْ خَسِرَ﴾ وتضرّر أو هلَك المُشركون ﴿ٱلَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ﴾ وفوّتوا علىٰ أنفسهم النّعمة العظيمة وأعلىٰ الحُظوظ البشريّة، وارْتكبوا أعظم الذُّنوب وأقبح الظُّلم بالتَوهُّمات السّخيفة لأجل أنّ لهم ﴿سَفَهاً﴾ وخِفّة عَقل، وكونهم مُلابسين ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ وغاية جَهالة، بشَناعة هذا العمَل ومَضارّه في الدُّنيا والآخرة ﴿وَحَرَّمُوا﴾ علىٰ أنفسهم الانْتِفاع بالأنعام التي جعلوها سائبة وحامياً، معَ كَونها [من] ﴿مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ﴾ وأشياء تفضّل عليهم بإيجادها، وتَسْليطهم عليها، وإباحة الانْتِفاع بها أكلاً ورُكوباً وحَملاً، وهُم

---

١. جوامع الجامع: ١٣٧. ٢. تفسير الرازي ١٣: ٢٠٨، جوامع الجامع: ١٣٧.

بنِسبة تحريمها إلىٰ الله يفترون ﴿ٱفْتِرَآءً﴾ عظيماً ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾، فهُم ﴿قَدْ ضَلُّوا﴾ وانحرفوا عن طَريق الرُّشْد إلىٰ مَصالحهم الدُّنيويّة والأخرويّة ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ إليه أبداً، وإن بالغتَ في هِدايتهم.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [١٤١]

ثمَ لمّا وبّخ الله سُبحانه المُشركين علىٰ جَعل نَصيبٍ مِن الحَرث والأنعام للأصنام، وتَحريم ما رزَقهم الله، عاد سُبحانه إلىٰ الاستِدلال علىٰ تَوحيده الذي هُو المَقصود الأصلي في السُّورة المُباركة بكَونه خالق الزّرع والأشجار والأنعام؛ بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي أَنْشَأَ﴾ وأخرج مِن العدَم إلىٰ الوُجود ﴿جَنَّاتٍ﴾ ذَوات كُروم ﴿مَعْرُوشَاتٍ﴾ ومَحمولات علىٰ ما يحمِلها مِن الأخشاب وغيرها ﴿وَ﴾ جنات ﴿غَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾.

قيل: هي الجَنّات التي لا غَرس لها، بَل يكون فيها ما ينبُت مُنبسطاً علىٰ وَجه الأرض كالقَرع والبِطّيخ وأمثالهما[١]، وقيل: هي التي فيها الكُروم المُنبسطة على الأرض[٢]، وقيل: هِي التي فيها الأشجار المُستغنية عن العَريش لاستِوائه وذَهابه إلىٰ العُلوّ بقُوّة ساقه[٣].

﴿وَ﴾ أنشأ ﴿ٱلنَّخْلَ﴾ بأصنافها المُختلفة ﴿وَٱلزَّرْعَ﴾ مِن الحُبوب التي يُقتات بها ـ كما عن ابن عبّاس[٤] ـ حالَ كَون كُلّ مِن النّخل والزّرع ﴿مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ﴾ وثَمره، ومُتفاوتاً بعضُه معَ بعضٍ في الطَّعم والهَيئة، لِكلّ صِنف مِن ثَمرهما طَعم غير الآخر، وهَيئة غير هَيئة الآخر، ﴿وَ﴾ أنشأ ﴿ٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴾ حالَ كَون بعض ثَمرهما ﴿مُتَشَابِهاً﴾ معَ بعضٍ في الطَّعم والهَيئة واللّون والجَودة والرّداءة، ﴿وَ﴾ بَعضه ﴿غَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ مِن جميع الجِهات أو مِن بعضها؛ كالرُّمانتين اللّتين لَونهما واحد وطَعمهما مُختلف.

ثمَ أنّه تعالىٰ بعدَ بَيان ما لكيّته لجميع النباتات، أذِن للنّاس بالانْتِفاع بكُلّ واحد مِنها بقوله: ﴿كُلُوا﴾ وانتَفعوا أيُّها النّاس ﴿مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ وصلُح للانْتِفاع، وإن لَم يُدرك ولَم يَيْنَع لأنّه خُلِق لكم، ولا تُحرّموا علىٰ أنفسكم مِنه شيئاً، ولا تجعلوا للأصنام مِنه نصيباً ﴿وَ﴾ لكن ﴿آتُوا﴾ الفُقراء وأعطوهم ﴿حَقَّهُ﴾ وما ثبَت عليكم فيه مِن الضِّغث[٥] والحِصّة ﴿يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ وحينَ جُذاذه.

---

١. تفسير الرازي ١٣: ٢١١.
٢. تفسير الرازي ١٣: ٢١٢.
٣. تفسير الرازي ١٣: ٢١١.
٤. تفسير الرازي ١٣: ٢١٢.
٥. الضِّغث: هو قبضة الحشيش المختلط من الأخضر واليابس.

قيل: اُريد بالحقّ ما يُتصدّق به يومَ الحَصاد لا الزكاة المُقدّرة؛ لأنّ الزّكاة فُرضت بالمدينة، والآية مكيّة[١]. وقيل: بَل هُو الزّكاة، أي لا تُؤخّروها عن أوّل وقتٍ يُمكن فيه الإيتاء، والآية مَدنيّة[٢].

وفي (الكافي): عن الصادق عليه السلام: «في الزّرع حقّان: حَقٌّ تُؤخذ به، وحقٌّ تُعطيه، أمّا الذي تُؤخذ به فالعُشر ونصِف العُشر، وأمّا الذي تُعطيه فقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ فالضِّغْث تُعطيه ثمّ الضِّغث حتّى تفرَغ»[٣].

وعن الباقر عليه السلام: «هذا مِن الصّدقة تعطي المِسكين القَبضة بعد القَبضة، ومن الجُذاذ الحَفنة بعدَ الحَفنة»[٤].

والقُمّي: عن الصادق عليه السلام في هذه الآية، قال: «الضِّغث مِن السُّنبل، والكَفّ مِن التّمر إذا خُرص»[٥].

وعنه عليه السلام فيها قال: «أعطِ مَن حضرَك مِن مُشركٍ وغيره»[٦].

وعنه عليه السلام: «لا تصرِم باللّيل، ولا تحصُد باللّيل ـ إلىٰ أن قال: ـ وإن حصَدتَ باللّيل لَم يأتك السُّؤال، وهُو قول الله: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ يعني القَبضة بعدَ القَبضة إذا حصَدتَه، فإذا خرَج فالحَفنة [بعدَ الحفنة]، وكذلك عند الصِّرام». الخبر[٧].

وعن الرضا عليه السلام، سُئل: إن لَم يحضُر المَساكين وهُو يحصد؟ قال: «ليسَ عليه شيءٌ»[٨].

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ الأمر بالانتِفاع والصّدقة، نهىٰ عن الإسراف بقوله: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ ولا تتجاوزوا الحَدّ في الصّدقة، أو في مَنعها وقيل: يعني لا تُضيّعوا ثَمرتكم بأن تجعَلوا[٩] للأصنام فيها نصيباً، أو لا تُنفقوها في مَعصية الله[١٠] ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ ولا يرضىٰ عنهم.

عن الرضا عليه السلام أنّه سُئل عن هذه الآية، فقال: «كان أبي يقول: مِن الإسراف في الحَصاد والجُذاذ أن يتصدّق الرّجُل بكَفّيه جميعاً، وكان أبي إذا حضَر شيئاً مِن هذا فرأىٰ أحداً مِن غِلمانه يتصدّق بكَفّيه صاح به: أعطِ بيَدٍ واحدة، القَبضة بعدَ القَبضة، والضِّغث بعدَ الضِّغث مِن السُّنبل»[١١]

وعن الصادق عليه السلام أنّه سُئل عن هذه الآية فقال: «كان فُلان بن فلان الأنصاري ـ وسمّاه ـ كان له

---

١. تفسير أبي السعود ٣: ١٩٢.
٢. تفسير أبي السعود ٣: ١٩٢.
٣. تفسير العياشي ٢: ١٤٩٦/١٢٠، الكافي ٣: ١/٥٦٤، تفسير الصافي ٢: ١٦٢.
٤. الكافي ٣: ٢/٥٦٥، تفسير الصافي ٢: ١٦٢.
٥. تفسير القمي ١: ٢١٨، تفسير الصافي ٢: ١٦٢.
٦. تفسير العياشي ٢: ١٤٩٤/١١٩، تفسير الصافي ٢: ١٦٢.
٧. الكافي ٣: ٣/٥٦٥، تفسير الصافي ٢: ١٦٣.
٨. تفسير القمي ١: ٢١٨، تفسير الصافي ٢: ١٦٣.
٩. في النسخة: تجعلوها.
١٠. تفسير الرازي ١٣: ٢١٤.
١١. تفسير العياشي ٢: ١٥٠١/١٢١، الكافي ٣: ٦/٥٦٦، تفسير الصافي ٢: ١٦٣.

حَرث،وكان إذا أخذه تصدّق به ويبقىٰ هُو وعِياله بغير شيء، فجعَل الله عزَ وجلّ ذلك سَرَفاً»[١].

وعنه عليه السلام ـ في حديثٍ ـ قال: «وفي غير آية مِن كِتاب [الله] يقول: ﴿إِنَّهُ لَايُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ فنَهاهم عن الإسراف ونَهاهم عن التّقتير، ولكن أمرٌ بين أمرين، لا يُعطي جميع ما عنده ثمّ يدعو الله أن يرزُقه فلا يَستجيب له»[٢].

رُوي أنّهَا نزلت في ثابت بن قيس بن شمّاس، عَمَد إلىٰ خمسمائة نَخلة فجذّها ثم قسَمها في يوم واحد، ولَم يُدخِل مِنها إلىٰ مَنزله شيئاً[٣].

﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ ٱلشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾[١٤٢]

ثمّ استدَلّ سُبحانه بأنّه خالق الأنعام ومالكها بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَامِ﴾ أنشأ ما تكون ﴿حَمُولَةً﴾ تُحمَل عليها الأثقال، أو ما تكون صالحة للحَمل عليها لطُول قوائمها وعِظَم جُثّتها، ﴿وَ﴾ يكون ﴿فَرْشاً﴾ علىٰ الأرض، شبّه قِسمٌ مِنها به لِقَصر قوائمها ودُنوّها مِن الأرض، أو فَرشاً يُفرَش للذّبح، أو يُفرَش ما يُنسَج مِن صُوفها ووَبَرها.

ثمّ لمّا بيّن سُبحانه أنّه مالكها، أذِن في الانتِفاع بها بقوله: ﴿كُلُوا﴾ أيُّها النّاس وانْتفِعوا مِن الأنعام الحَمُولة والفَرش لكونها ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللهُ﴾ وأنعم به عليكم ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ ٱلشَّيْطَانِ﴾ ولا تُطيعوه في تَسويلاته بجَعل الأصنام شريكاً فيها، وتَحريم الانتِفاع ببعضها بجَعله سائبةً أو بَحيرة أو حامياً ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ظاهر العَداوة.

﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحامُ ٱلْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِى بِعِلْمٍ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ * وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيهِ أَرْحامُ ٱلْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ ٱللهُ بِهٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللهِ كَذِباً لِيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللهَ لَايَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ﴾[١٤٣ و ١٤٤]

---

١. الكافي ٤: ٥/٥٥، تفسير الصافي ٢: ١٦٣.
٢. الكافي ٥: ١/٦٧، تفسير الصافي ٢: ١٦٣.
٣. تفسير الرازي ١٣: ٢١٤.

ثمَ بيَن الله سُبحانه أصناف الأنعام التي رزقها الله عِباده بقوله: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ وأصناف مُتصاحبات، ثمَ فسَرها بقوله: ﴿مِنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ الكَبش والنَعجة، أو الأهلي والوَحشي ﴿وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾ التَيس والعَنز، أو الأهلي والوَحشي.

ثمَ أمر سُبحانه النبيَ ﷺ بأن يُنكر علىٰ المُشركين تَحريم ما زعَموه حراماً بقوله: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمَد: ﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ﴾ مِن الضَأن والمَعز ﴿حَرَّمَ﴾ الله عليكم ﴿أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ مِنهما ﴿أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ مِنهما مِن الأجِنَة، ذكراً كانت الأجِنَة أم أُنثىٰ، معَ أنكم لا تُقرَون برَسُولٍ مِن الله إليكم حتَىٰ تَدَعوا أنَه أخبركم بها.

ثمَ أمره بمُطالبة الحُجَة علىٰ الحُرمة بقوله: ﴿نَبِّـُٔونِى﴾ وأخبروني ﴿بِعِلْمٍ﴾ وحُجَة قاطعة علىٰ تَحريم الله شيئاً من ذلك ﴿إِن كُنتُمْ﴾ أيُها المُشركون ﴿صَادِقِينَ﴾ في نسبة التَحريم إليه سُبحانه.

﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ﴾ الجَمل والنَاقة، أو العِراب والبَخاتيَ[1] ﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ﴾ الذَكر والأُنثى، أو الأهلي والوَحشي ﴿قُلْ﴾ يا محمَد، إنكاراً عليهم وإفحاماً لهم: ﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ﴾ مِن الأصناف الأربعة ﴿حَرَّمَ﴾ الله عليكم ﴿أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ مِنها ﴿أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾.

ثمَ أنكر عليهم وُجود الحُجَة علىٰ ما أدَعوه مِن الحُرمة بعدَ عدم اعتِرافهم برَسُولٍ وعدَم حُكم العقل القاطع بها، بقوله: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ﴾ وحُضاراً ﴿إِذْ وَصَّاكُمُ ٱللَّهُ﴾ وحكَم عليكم ﴿بِهَٰذَا﴾ الحُكم.

وحاصل الاحتِجاج: أنَ طَريق مَعرفة حُكم الله مُنحصر ببَيان الرَسُول وحُكم العَقل والمُشاهدة والسَماع مِن الله، وأنتُم لا تُؤمنون برَسُولٍ، وليسَ لكُم بُرهان عَقليَ علىٰ التَحريم، ولَم تَسمعوا مِن الله هذا الحُكم، فثبَت أنَ القول بتَحريم الله هذه الأنعام وما في بُطونها افتراءٌ عليه.

في (الكافي) عن الصادق عليه السلام [قال]: «حمل نُوح عليه السلام في السَفينة الأزواج الثمانية التي قال الله عزَ وجلَ: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ الآية، فكان مِن الضَأن [اثنين]: زَوج دَاجنة يُربَيها النَاس، والزَوج الآخر الضَأن التي تكون في الجِبال الوَحشيَة، أُحِلَ لهم صَيدُها، ومِن المَعز اثنين: زَوج دَاجنة يُربَيها النَاس، والزَوج الآخر الظِّباء التي تكون في المَفاوز، ومِن الإبل اثنين: البَخاتي والعِراب، ومِن البَقر اثنين: زوج دَاجنة للنَاس، والزَوج الآخر الوَحشية، وكُلّ طير طيّب وَحشي وإنسيَ»[2].

وفي (الفقيه): عن داود الرقّي، قال: سألني الخَوارج عن هذه الآية ﴿مِنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ الآية، ما الذي أحلَ الله مِن ذلك، وما الذي حرَم؟ فلَم يكُن عندي فيه شيء، فدخلتُ علىٰ أبي عبدالله عليه السلام وأنا

---

١. العِراب: الإبل العربية، والبَخاتي: الإبل الخراسانية. ٢. الكافي ٨: ٤٢٧/٢٨٣، تفسير الصافي ٢: ١٦٥.

حاجَ، فأخبرته بما كان، فقال: «إنّ الله تعالىٰ أحلّ في الأضحِيَة [بمنى الضأن والمعز الأهلية، وحرم أن يضحى فيه بالجبلية، وأمّا قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ﴾ فإنّ الله تعالى أحلَّ في الأضحية بمنى] الإبل العِراب وحرّم مِنها البَخاتي، وأحلّ البقر الأهليّة أن يُضحَىٰ بها وحرّم الجَبليّة».

فانصرفتُ إلىٰ الرّجُل وأخبرته بهذا الجَواب، فقال: هذا شيءٌ حملَتْه الإبل مِن الحِجاز[1].

أقول: الظّاهر أنّ الخارجي كان عالِماً بالحُكم، وأراد أن يمتحِن دَاود بمَعرفته. وفي الآية دَلالة علىٰ أنّ عدَم وِجدان الدّليل علىٰ الحُرمة كافٍ في القول بإباحة مَشكوك الحُرمة.

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ إثبات كون المُشركين في القول بحُرمة بعض الأنعام مُفترين عليه، ذمّهم بكونهم لأجل افتِرائهم عليه أظلم النّاس علىٰ أنفسهم بقوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ علىٰ نفسه بإهلاكها الأبديّ، وعلىٰ ربّه بتضييع حقّه ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللهِ﴾ بنِسبة تَحريم ما أحلّه إليه ﴿كَذِباً﴾ ليغير دِينه الحقّ، كعَمرو بن لُحَيّ المُغيّر لدِين إسماعيل حيثُ إنّه بحَر[2] البَحائر وسيّب السّوائب، وككُبرائهم المُقرّرون لذلك، و﴿لِيُضِلَّ﴾ ويحرِف ﴿ٱلنَّاسَ﴾ عن الصّراط المُستقيم ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ بسُوء عاقبة هذا التّغيير والإضلال. وقيل: إن لام (ليضل) لام العاقبة[3].

ثمّ هدّد سُبحانه المُفترين بقوله: ﴿إِنَّ ٱللهَ لَا يَهْدِى﴾ إلىٰ الحقّ، أو إلىٰ ثَوابه وطَريق الجنّة ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ﴾ فكيف بقومٍ هُم أظلم النّاس!

قُل لَا أَجِدُ فِى مَاأُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّماً عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللهِ بِهِ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ[١٤٥]

ثمّ أنّهُ تعالىٰ بعدَ أمر نبيّه ﷺ بمُطالبة الحُجّة مِن المُشركين علىٰ ما زعَموه مِن حُرمة بعض الأنعام وما في بُطونها، وظُهور عجزهم عن إقامتها، أمر نبيّه ﷺ بإقامة الحُجّة علىٰ حِلّية جميع الأنعام بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد ﴿لَا أَجِدُ فِى مَا أُوحِىَ إِلَىَّ﴾ مِن ربّي مِن الأحكام طَعاماً يكون ﴿مُحَرَّماً﴾ مِن قِبَله ﴿عَلَىٰ طَاعِمٍ﴾ وآكل ﴿يَطْعَمُهُ﴾ ويأكُله، [سواء أ]كان ذكراً أو أنثىٰ ﴿إِلَّا أَن يَكُونَ﴾ ذلك الطّعام ﴿مَيْتَةً﴾ وحَيواناً خرَج رُوحه بغير التّذكية الشّرعيّة ﴿أَوْ دَماً مَسْفُوحاً﴾ ومَصبوباً مِن العُروق بعدَ

---

١. من لا يحضره الفقيه ٢: ١٤٥١/٢٩٣، تفسير الصافي ٢: ١٦٥.
٢. بَحَر الناقة: شقّ أُذنها.
٣. تفسير روح البيان ٣: ١١٣.

الذَبح أو النَحر دُون الدَم المُتخلَف بعدَ الذَبح، كما في الكَبِد والطَحال واللَحم ﴿أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾ وقَذَر، وكُلّ قَذَرٍ نَجِس وحَرام، وإنّما خصّ حُرمة لَحمه بالذُكر معَ أنّ شَحمه أيضاً حَرام لكونه أهمّ ما فيه وعُمدة مايُقصد مِنه بالأكل ﴿أَوْ فِسْقاً﴾ وهُو الحَيوان الذي ﴿أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ ورَفع الصَوت عند ذَبحه أو نَحره باسْم الأصنام، وإنّما سمّاه فِسقاً لتَوغُّله فيه.

عن القُمّي ﷺ: قد احْتجَ قومٌ بهذه الآية علىٰ أنه ليسَ شيءٌ محرَماً إلّا هذا، وأحلّوا كُلّ شيء مِن البَهائم؛ القِردة والكِلاب والسِّباع والذِّئاب والأسْد والبِغال والحَمير والدَواب، وزعَموا أنّ ذلك كُلّه حلال وغلَطوا في هذا غلطاً مُبيناً[1]، وإنّما هذه الآية رَدٌ علىٰ ما أحلّت العَربُ وحرَمت؛ لأنّ العرب كانت تُحلّل علىٰ نفسها [أشياء] وتُحرّم أشياء، فحكىٰ الله ذلك لنبيّه ﷺ ما قالوا[2].

وقال الفاضل المِقداد: وهُنا سُؤال، وهُو أنّه قد وُجد كثيرٌ مِن المُحرّمات، وهُو غير مَذكور في الآية، فكيف يقول: لا أجد إلّا كذا ... الدّال علىٰ الحَصْر؟ وكذا في قوله: ﴿إنّما حرم﴾ و(إنّما) للحَصْر.

والجواب: أنّ (أوحي) فِعل ماضٍ، و(أجد) للحال، فمنطوقها: لا أجد في ما أُوحي إليّ في الماضي غير هذه الأربعة، وليسَت هذه الآية آخر ما نزَل عليه ﷺ، فجاز أن يكون جاءه تَحريم أشياء بعدَ نُزولها، وكذا الكلام في (إنّما)، فإنّ الحصر فيها للحُكم الحالي[3].

تحقيق في دفع إشكال

أقول: حُكي الوَجهان المَذكوران لدَفع الإشكال عن بعض العامّة أيضاً، وفيهما ما لا يخفىٰ مِن الضّعْف، مَع أنّهما مُنافيان للأخبار العاميّة والخاصيّة. وقد رَوىٰ العامّة أن ابن عبّاس وعائشة استدلّا بالآية علىٰ حِلّية لَحم الحِمار[4].

وروىٰ أصحابُنا عن الصادقين ﷺ أنّهما قالا: «ليسَ الحَرام إلّا ما حرّم الله»، وتلَيا هذه الآية[5].

فالحقّ في الجَواب: أنّ جميع ما في آية المائدة داخلٌ في المَيتة، وجَميع النّجاسات داخل في عُموم الرِّجس، فإنّ عُموم العِلّة مِن قوله: ﴿فإِنَّهُ رِجْسٌ﴾ يُوجب عُموم الحُكم لكُلّ رِجس، وأمّا حُرمة كلّ ذي نابٍ من الوحش، وكُلّ ذي مِخْلَب مِن الطَير، وكُلّ ما لا فَلْس له مِن السّمك، فإن قُلنا: بأنّ المُراد مِن الرِّجس: الخَبيث، وأنّه ما اسْتخبثه الشّارع، فبأدلّة حُرمة الأشياء المذكورة نعلَم دُخولها في الآية، لعُموم العِلّة، وإن قُلنا: إنّ الرِّجس هُو القَذَر، فيختَصّ بالنّجاسات، وحينئذٍ لابُدّ مِن الالتِزام بتَخصيص مَفهوم الآية بتِلك الأدلّة، أو كونها قَرينةً علىٰ إرادة الحَصر الإضافي أو الحَصر الحقيقي، وتَنزيل حُرمة غير هذه الأربعة مَنزلة المُباح إعظاماً لحُرمة هذه الأربعة.

---

١. في المصدر: بيّناً. ٢. تفسير القمي ١: ٢١٩، تفسير الصافي ٢: ١٦٦. ٣ و٤. كنز العرفان ٢: ٣٠٣.
٥. تفسير العياشي ٢: ١٥١٣/١٢٥ و١٥١٤، تفسير الصافي ٢: ١٦٧.

ثمّ بيّن أنّ هذه الأربعة أيضاً مُباحةٌ عندَ الضّرورة مِنّةً علىٰ العِباد بقوله: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ وألجأته الضّرورة إلىٰ أكل شيءٍ مِن تِلك المُحرّمات، وكان ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ لَذّة، أو غير مُتعدٍّ علىٰ مُضطرٍّ آخر مِثله ﴿وَلَا عَادٍ﴾ ومُتجاوز في الأكل علىٰ قَدر الضّرورة ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ﴾ له لا يُؤاخذه بأكله ﴿رَحِيمٌ﴾ به لا يرضىٰ بضَرَره ومَشقّته.

وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ ٱلْحَوَايَا أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ[١٤٦]

ثمّ بيّن سُبحانه أنّه حُرّمت أشياء أُخَر علىٰ خُصوص اليَهود بسَبب كَثرة عِصيانهم بقوله: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ﴾ حَيوان ﴿ذِى ظُفُرٍ﴾ وإصبع كالإبل والطُّيور.

وعن ابن عبّاس ﷺ: أنّه الإبل والنّعامة[١]. وفي روايةٍ أُخرى: إنّه الإبل فقط[٢].

﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا﴾ وثُروبهما ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ﴾ واشتملت به ﴿ظُهُورُهُما﴾ مِن شَحم الكتِفين إلىٰ الوِركين مِن داخل وخارج. كما قيل[٣].

وعن ابن عبّاس ﷺ: إلّا ما عَلِق بالظّهر مِن الشّحم[٤].

وعن قَتادة: إلّا ما علِق بالظّهر والجَنْب مِن داخل بُطونها[٥].

﴿أَوِ ٱلحَوَايَا﴾ وما التصَق بالمَباعر[٦] والمَصارين مِن الشُّحوم ﴿أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ﴾ والتصَق ﴿بِعَظْمٍ﴾ كشَحم الإليَة، وكان ﴿ذٰلِكَ﴾ التّحريم عليهم جَزاءً ﴿جَزَيْنَاهُم بِبَغيِهِم﴾ وظُلمهم علىٰ أنفسهم بارْتِكاب المَعاصي مِن أكل الرِّبا، وأخذ أموال النّاس بالإثم، وقَتل الأنبياء.

قيل: إنّهم كُلّما أتَوا بمَعصية عُوقبوا بتَحريم شيءٍ مِمّا أُحلّ لهم. وفيه رَدٌّ علىٰ ما ادّعَوا مِن أنّ كُلّ ذلك لَم يزل محرّماً علىٰ الأُمَم الماضية، وكانوا مُصرّين عليه؛ ولِذا أكّد سُبحانه كَذِبهم في الدّعوىٰ بقوله: ﴿وإنَّا لصادقُونَ﴾[٧] في إخبارنا بتَخصيص حُرمة تِلك الأشياء بعِلّة بَغْيهم، وإنّهم لكاذبون في أنّها لَم تَزل مُحرّمة.

---

١ و٢. تفسير الرازي ١٣: ٢٢٣.

٣. تفسير روح البيان ٣: ١١٥.

٤. تفسير الرازي ١٣: ٢٢٣.

٥. تفسير الرازي ١٣: ٢٢٣.

٦. المَباعر: جمع مِبْعَر، وهو مكان خروج البَعر مِن الأمعاء، أو المصران الحاوي للبَعر.

٧. تفسير روح البيان ٣: ١١٥.

فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ[١٤٧]

ثمّ أمر سُبحانه النبيّ ﷺ بتهديدهم على تكذيبه بقوله: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ يا محمّد، مَع شهادتنا بصِدقك في اختِصاص حُرمة الأشياء المَذكورة بهم، أو فيه وفي دَعوىٰ الرّسالة وتبلغ الأحكام ﴿فَقُل﴾ للمُكذّبين: حَقّ عليكم العَذاب، ولكن ﴿رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ للمؤمن والكافر، ولذا لا يعجّل في عقُوبتكم علىٰ تكذيبكم رَسُوله، فلا تغترّوا بإمهاله فإنّه يُعذّبكم ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ﴾ وعذابُه إذا جاء وقتُه ﴿عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ والعاصين بتَكذيب الرُّسُل، والإصرار علىٰ الكُفر، والعِناد مَعَ الحقّ.

سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ[١٤٨]

ثمّ حكىٰ سُبحانه احْتِجاج المشركين علىٰ صِحّة قولهم بالشِّرك وحُرمة السَوائب وأخواتها بقوله: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ بالله احتِجاجاً علىٰ صِحّة قولهم: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ وأراد مِنّا أن لا نُشرك به شيئاً ولا نُحرّم شيئاً ﴿مَا أَشْرَكْنَا﴾ نحن ﴿وَلَا آبَاؤُنَا﴾ الأقدمون ﴿وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ لقُدرته علىٰ منعنا عمّا لا يرضاه، وعدَم تمكُّننا مِن التَخلّف عن إرادته، وكوننا مَجبورين فيما يصدُر مِنّا ـ كما يقول الأشاعرة ـ وحيثُ رأينا أنّه صدَر مِنّا الشِّرك والتّحريم ولَم يمنعنا عنهما، علِمنا، أنّه أراد مِنّا ذلك ورضي بما نحنُ عليه مِن الاعتِقاد والعمَل، وأنت كاذب عليه فيما تدّعيه مِن بُغضه إيّاه ونَهيه عنه.

ثمّ ردّهم سُبحانه بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ التّكذيب الذي صدَر مِنهم بك علىٰ تِلك الحُجّة ﴿كَذَّبَ﴾ المُشركون ﴿الَّذِينَ﴾ كانوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ رُسُلهم ولَم يؤمنوا بهم ﴿حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ وطعِموا طَعم عذاب الاستئصال، فكان تَعذيبُهم علىٰ تَكذيب الرُّسُل وبَقائهم علىٰ الشِّرك حُجّةً قاطعة علىٰ عدَم رِضائنا بما هُم عليه.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمّد: بعدَما ثبَت أنّ حُجّتكم ضعيفة ظنيّة ﴿هَلْ عِندَكُم﴾ غيرها دَليل يُفيد مَرتبة ﴿مِّنْ عِلْمٍ﴾ برضا الله بما أنتُم عليه مِن الشِّرك وسائر الأباطيل ﴿فَتُخْرِجُوهُ﴾ وتُظهروه ﴿لَنَا﴾ حتّىٰ نتّبعه؟ ليسَ لكم ذلك، بَل ﴿إِن تَتَّبِعُونَ﴾ فيما تدّعون شيئاً ﴿إِلَّا الظَّنَّ﴾ الحاصل لكم مِن عدَم صَرف الله قُلوبكم مِن الشِّرك، وعدَم قَهره إيّاكم علىٰ التّوحيد ﴿وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ وتُخمّنون، أو

تُكذّبون أقبح أنواع الكَذِب.

﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[١٤٩]

ثمّ أمر الله تعالىٰ نبيّه ﷺ بتأكيد الحُجَة عليهم بقوله: **﴿قُلْ﴾** يا محمّد، لهؤلاء المُشركين: وإن ثبتَ أنَ حُجَتكم علىٰ صِحَة الشِّرك دَاحضة **﴿فَلِلَّهِ﴾** علىٰ تَوحيده وعدَم رِضاه بالشِّرك **﴿ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَالِغَةُ﴾** غاية المَتانة، والبيّنة الواضحه مِن تَعذيبه المُشركين، وآيات كِتابه المَقرونة بالإعجاز، والبراهين التي قررّها رَسُوله، وإنّما وكَلَكُم إلىٰ عُقولكم وقُدرتكم واخْتِياركم لاقْتِضاء ذلك حِكمته **﴿فَلَوْ شَاءَ﴾** بالإرادة التَكوينيّة، وأقتضَتْ حِكمتُه إجباركم علىٰ الهِداية والإيمان **﴿لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾** البتّة، وحمَلكم علىٰ ا لإيمان لا محالة، فلا يكون مِنكم ضالّ ولا مُشرك.

عن القُمّي ﷺ قال: «لَو شاء لجعلَكم كُلَكم علىٰ أمرٍ واحد، ولكن جعلَكم علىٰ الاختلاف»[١].

عن الكاظم عليه السلام: «أنّ لله [علىٰ النّاس] حُجّتين: حُجّة ظاهرة، وحُجَة باطنة، فأمّا الظاهرة: فالرُسُل والأنبياء والأئمّة، وأمّا الباطنة: فالعُقول»[٢].

وعن الصادق عليه السلام، سُئل عن قوله: **﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَالِغَةُ﴾**، فقال: «إنّ الله تعالىٰ يقول للعَبد يومَ القِيامة: عبدي أكنتَ عالِماً؟ فإن قال: نعَم، قال له: أفلا عمِلتَ [بما علِمتَ]، وإن كان جاهلاً قال له: أفلا تعلّمت حتّىٰ تعمَل، فيخصِمه، فتِلك الحُجَة البالغة»[٣].

وعنه عليه السلام: «الحُجَة البالغة التي تبلُغ الجاهل مِن أهل الكِتاب فيعلَمها بجَهله كما يعلَمها العالِم بعِلمه»[٤].

﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[١٥٠]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ إبطال دَليل المُشركين علىٰ صِحّة مُفترياتهم وإنكار مُشاهدتهم الله وسَماعها مِنه، طالب مِنهم إحضار[٥] غيرهم مِمّن شاهده وسمِع مِنه بقوله: **﴿قُلْ هَلُمَّ﴾** أيُّها المُشركون وأحضِروا **﴿شُهَدَاءَكُمُ﴾** وقادتكم **﴿ٱلَّذِينَ﴾** ينصُرون مَذهبكم لأجل أنّهم **﴿يَشْهَدُونَ﴾** عن عِلمٍ وعِيان **﴿أَنَّ﴾**

---

١. تفسير القمي ١: ٢٢٠، تفسير الصافي ٢: ١٦٨.
٢. الكافي ١: ١٢/١٣، تفسير الصافي٢: ١٦٨.
٣. أمالي الطوسي: ١٠/٩، تفسير الصافي ٢: ١٦٩.
٤. تفسير الصافي ٢: ١٦٩.
٥. كذا، والظاهر: طالبهم بإحضار.

آللهَ حَرَّمَ هٰذَا﴾ الذي تدّعون حُرمته، ﴿فَإِن شَهِدُوا﴾ علىٰ سَبيل الفَرض أنّ الله حرّمه ﴿فَلَا تَشْهَدْ﴾ أنت ﴿مَعَهُمْ﴾ ولا تُصدّقهم؛ لأنّهم كاذبون مُتّبعون لهَوىٰ أنفسهم ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ﴾ المُشركين ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الدالّة علىٰ تَوحيدنا ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ يُنكرون البَعث، و﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ ودار الجَزاء ﴿وَ﴾ الّذينَ ﴿هُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ غيرَه ويُشركونه خلقَه.

قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَاحَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلَاتَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا ٱلْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ[١٥١]

ثمّ لمّا أبطل قولهم بحُرمة ما حرّموه مِن قِبَل أنفسهم، أمر سُبحانه نبيّه ﷺ بدَعوتهم إلىٰ الإيمان بحُرمة ما حرّمه الله بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد، لقومك المُشركين: ﴿تَعَالَوْا﴾ وجيئوا يا قوم ﴿أَتْلُ﴾ وأقرأ ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُم عَلَيْكُمْ﴾ وهُو ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾ مِن الكَواكب والأصنام وغيرهما.

ثمّ أردف النَهي عن الشِّرك بالنَهي عن إيذاء الوالدين، لكونهما بعدَه تعالىٰ أعظم نِعمةً وحقّاً بقوله: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ﴾ أحسِنوا ﴿إِحْسَاناً﴾ عظيماً. وإنّما وضَع وُجوب الإحسان مَوضع تَحريم الإساءة، للمُبالغة في تَحريمها، وللإشارة إلىٰ عدَم جَواز الاكتِفاء بتَرك الإساءة في شأنهما.

عن القُمّي ﷺ قال: «الوالدين رَسُول الله وأمير المُؤمنين صلوات الله عليهما»[١].

﴿وَ﴾ أن ﴿لَا تَقْتُلُوا﴾ بالدَفن في الأرض ﴿أَوْلَادَكُم﴾ الإناث ﴿مِن﴾ أجل ﴿إِمْلَاقٍ﴾ وفَقر، أومِن خَشيته، فإنّه ليس عليكم رِزقهم، بَل ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ فكما أنّه يجب عليكم الاتّكال علينا في رِزقكم، كذلك يجب عليكم الاتّكال علينا في رِزقهم؛ فلا تخافوا الفَقر والعَجز عن الإنفاق عليهم، ﴿وَ﴾ أن ﴿لَا تَقْرَبُوا﴾ ولا ترتكبوا ﴿ٱلْفَوَاحِشَ﴾ والأعمال الشديدة القباحة ككبائر الذُّنوب أو الزنا، سَواءً ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ وما يُفعل عَلانيةً ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ وخفي مِنها.

عن ابن عبّاس ﷺ: كانوا يكرهون الزّنا عَلانية ويفعلون ذلك سرّاً، فنَهاهم [الله] عن الزّنا علانيةً وسِرّاً[٢].

وعن الباقر ﷺ: «ما ظهر: هُو الزّنا، وما بطن: المُخالّة»[٣].

---

١. تفسير القمي ١: ٢٢٠، تفسير الصافي ٢: ١٦٩. ٢. تفسير الرازي ١٣: ٢٣٣.
٣. مجمع البيان ٤: ٥٩٠، تفسير الصافي ٢: ١٦٩، والمُخالّة: الصداقة.

وفي (الكافي): عن السجاد عليه السلام: «ماظهر نِكاح امرأة الأب، وما بطن: الزّنا»[١].

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ النّهي عن تَضييع حُقوق الأصول وهُم الوالدان، وحُقوق الفُروع وهُم الأولاد، وحُقوق نفسه مِن حِفظها مِن ارتكاب الفواحش المُوجبة لهَلاك الأبد، نهىٰ عن تَضييع حُقوق النّاس بقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ قتلها بأيّ عِلّة مِن العِلَل ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ الذي جعله الله مِن حُكمه بُوجوب قتلها في الحَدّ، أو جَوازه في القِصاص.

عن النبيّ صلى الله عليه وآله: «لا يَحلّ دَم أمرىٍ مُسلم إلّا بإحدىٰ ثلاث: كُفرٌ بعدَ إيمان، وزناً بعدَ إحصان، وقتلُ نفسٍ بغير حَقّ»[٢]. وإنّما خصّه سُبحانه بالذّكر معَ دُخوله في عُموم الفَواحش، للإشعار بعِظَم شأنه.

ثمّ أكّد سُبحانه النّواهي بالحَثّ علىٰ امتِثالها بقوله: ﴿ذٰلِكُمْ﴾ المَذكور مِن الأحكام مِمّا ﴿وَصَّاكُمْ﴾ الله ﴿بِهِ﴾ وأمركم بحِفظه ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وتفهمون مَنافع دِينكم ودُنياكم.

وإنّما عبّر عن الأمر بالمُحافظة بلفظ الوَصيّة، لِما فيه مِن اللّطف والرّحمة حتّىٰ يكون المُكلّف أقرب إلىٰ القَبُول والقِيام إلىٰ الطّاعة.

وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَانُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ ٱللهِ أَوْفُوا ذٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ[١٥٢]

ثمّ بيّن المُحرّم السّادس بقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ ٱلْيَتِيمِ﴾ ولا تتصرّفوا فيه بخَصْلة مِن الخِصال ﴿إِلَّا بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ ما يُفعل به مِن حِفظه وتَنميته، أو أحسن مِن التّرك كحِفظه فقط، أو تِجارة يكون غيرها أنفع، واستمرّوا علىٰ ذلك ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ﴾ اليتيمُ ﴿أَشُدَّهُ﴾ وقوّته، وهُو كِناية عن حِلمه ورُشده.

عن الصادق عليه السلام: «انْقِطاع يُتم اليَتيم الاحتِلام، وهُو أشدّه، وإن احْتلم ولَم يُؤنس مِنه رُشدٌ، وكان سفيهاً أو ضعيفاً، فليُمسِك عنه وَليّه [ماله]»[٣].

عن أبي جعفر عليه السلام - في حديثٍ - قال: «إنّ الجارية ليسَتْ مِثل الغُلام، إنّ الجارية إذا تزوّجت ودخل بها ولها تِسع [سنين]، ذَهب عنها اليُتم، ودُفع إليها مالُها، وجاز أمرُها في الشِّراء والبَيع، وأُقيمت عليها الحُدود التامّة، وأُخذت لها بها» قال: «والغُلام لا يَجوز أمرُه في الشِّراء والبَيع، ولا يخرُج مِن اليُتم حتّىٰ يبلُغ خمس عشرة سنة، أو يحتلِم، أو يُشعر، أو يُنبت قبلَ ذلك»[٤].

---

١. الكافي ٥: ٤٧/٥٦٧، تفسير الصافي ٢: ١٦٩.
٢. تفسير الرازي ١٣: ٢٣٣.
٣. من لا يحضره الفقيه ٤: ٥٦٩/١٦٣، تفسير الصافي ٢: ١٧٠.
٤. الكافي ٧: ١/١٩٨.

﴿وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ﴾ في المَكيلات ﴿وَالمِيزَانَ﴾ في المَوزونات، وأكمِلوا الحقّ فيهما، حالَ كونكم مُتلبّسين ﴿بالقِسْطِ﴾ والعَدل والتسوية، لا يُنقِص مَن عليه الحَقّ مِنه شيئاً، ولا يطْلب مَن له الحقّ زِيادة عليه شيئاً، وإن كان اتّباع العَدل عَسِراً، فنحنُ ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا﴾ بعَدل يكون ﴿وُسْعَهَا﴾ ومَيْسورها، وأمّا مَعسورها فمعفوٌّ عنه لا تُؤاخذ بِهِ.

﴿وَإِذَا قُلْتُمْ﴾ قولاً في حُكومة أو شهادة أو نَحوهما ﴿فَاعْدِلُوا﴾ فيه ولا تجُوروا ولا تَجاوزوا عن الحقّ ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ المَقول له أو عليه ﴿ذَا قُرْبَىٰ﴾ مِنكم وصاحب رَحِم ﴿وَبِعَهْدِ ٱللهِ﴾ مِن نُذوركم وأيمانكم، وما أمركم به مِن مُلازمة العَدل والعَمل بأحكامه ﴿أَوْفُوا﴾ واعْملوا علىٰ نَحو الكمال، ﴿ذٰلِكُمْ﴾ الذي فصّل لكم مِن الأحكام مِمّا ﴿وَصَّاكُم﴾ الله ﴿بِهِ﴾ وأمركم بحِفظه ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ما فيه مِن الحُسن والصَّلاح، وتعمَلون به.

قيل: إن النُّكتة في خَتم الآية الأولىٰ بقوله: ﴿لَعَلَّكُم تَعْقِلُونَ﴾ كون التّكاليف الخَمسة التي فيها اُموراً ظاهرة يكفي في العمَل بها التَعقّل والفَهم، وفي خَتم هذه الآية بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ كون التّكاليف الأربعة التي فيها اُموراً غامضة مُحتاجة إلىٰ الاجتِهاد والفِكر حتّىٰ يقِف المُكلّف علىٰ مَوضع الاعتِدال[1].

وَأَنَّ هٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَاتَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ[١٥٣]

عن ابن عبّاس ﷺ: هذه الآيات مُحكمات لَم ينسَخهنّ شيءٌ مِن جميع الكُتب، مَن عمِل بهنّ دخَل الجنّة، ومَن ترَكهُنّ دخل النّار[2].

﴿وَ﴾ اعلموا ﴿أَنَّ هٰذَا﴾ الذي ذكرتُ في السُّورة المُباركة مِن التّوحيد والمَعاد وأحكام الدِّين ﴿صِرَاطِي﴾ ومَسلكي وشَرعي المُؤدّي إلىٰ كُلّ خير، أو إلىٰ جنّتي ورِضواني، حالَ كونه ﴿مُسْتَقِيماً﴾ مُستوياً لا عِوج فيه، إذَن ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ أيُّها النّاس، ولا تعدِلوا عنه إلىٰ غيره ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ﴾ المُتفرّقة والمَذاهب المُختلفة كاليَهودية والنَصرانيّة وغيرهما مِن المِلَل ﴿فَتَفَرَّقَ﴾ وتباعد ﴿بِكُمْ﴾ أو أمالكم[3] ﴿عَن سَبِيلِهِ﴾ الحقّ ودِينه المَرضِيّ ﴿ذٰلِكُمْ﴾ الاتّباع مِمّا ﴿وَصَّاكُم﴾ الله وأمركم ﴿بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ الضّلالات.

---

١. تفسير الرازي ١٣: ٢٣٦.
٢. تفسير الرازي ١٤: ٣.
٣. كذا، والظاهر: تتباعد بكم أو تميلكم...

عن ابن مَسعود رضي الله عنه: عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنه لمّا تلا هذه الآية خَطّ خطّاً ثمّ قال: «هذا سَبيل الرُّشد» أو «سَبيل الله»، ثمّ خطّ عن يمينه وشِماله خُطوطاً، ثمّ قال: «هذه سُبُل، على كُلّ سَبيل مِنها شَيطان يدعو إليه»[1].

عن النبيّ صلى الله عليه وآله، في هذه الآية: «سألتُ الله أن يجعلها لعليّ ففعل»[2].

وفي (الاحتجاج): عنه صلى الله عليه وآله، في خُطبة الغدير: «مَعاشر النّاس، إنّ الله [قد] أمرني ونَهاني، وقد أمرتُ علياً ونهيتُه فعلِم الأمرَ والنَّهي مِن ربّه، فاسْمعوا لأمره تَسلموا، وأطيعوه تهتدوا، وانْتَهوا لنَهيه ترشُدوا، وصِيروا إلىٰ مُراده، ولا تتفرّق بكُم السُّبُل عن سَبيله.

معَاشر النّاس، أنا الصّراط المُستقيم[3] الذي أمركم باتِّباعه، ثمّ عليّ مِن بعدي، ثمّ وُلدي مِن صُلبه أئمّة يهدون بالحقّ وبه يعدِلون»[4].

وعن الباقر عليه السلام، قال لبُريد العِجلي: «تدري ما يعني بـ ﴿صِرَاطِي مُسْتَقِيماً﴾؟»، قال: قلتُ: لا، قال: «وِلاية عليّ والأوصياء»، قال: «وتدري مايعني ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾؟»، قال: قلت: لا، قال: «يعني: عليّ بن أبي طالب». قال: «وتدري ما يعني ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾؟». قال: قلتُ: لا، قال: «ولاية فلان وفلان والله» قال: «وتدري ما يعني ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُم عَن سَبِيلِهِ﴾؟» قال: قلت: لا. قال: «يعني سَبيل عليّ»[5].

ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَابَ تَمَاماً عَلَى ٱلَّذِى أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ[١٥٤]

ثمّ لمّا بيّن الله سُبحانه وصَاياه بجَميع الأُمَم بالالتِزام بالمُحرّمات المُفصّلة في الآيات غير المُتغيّرة بتغيير الشّرائع، مَنّ علىٰ النّاس بتكميل شَريعته لهم بالأحكام التي شرّعها في التّوراة المُنزلة علىٰ مُوسى عليه السلام بقوله: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَابَ﴾ المُسمّىٰ بالتّوراة، لأجل أن يكون ﴿تَمَاماً﴾ ومُكمّلاً للنِّعمة والكرامة ﴿عَلَى ٱلَّذِى أَحْسَنَ﴾ القِيام به، وادّىٰ حقّ العمَل بأحكامه، واجْتهد في تَبليغه كائناً مَن كان مِن الأنبياء والمُؤمنين، ﴿وَ﴾ ليكون ﴿تَفْصِيلاً﴾ كافياً وبَياناً وافياً ﴿لِكُلّ شىءٍ﴾ مِن العُلوم والأحكام التي يحتاج إليها النّاس، ومِنها البِشارة بنُبوّة خاتَم الأنبياء وذِكْر عَلائمه ونُعوته، ﴿وَ﴾ يكون ﴿هُدًى﴾ مِن الضّلالة ورَشاداً إلىٰ كُلّ حقّ ﴿وَرَحْمَةً﴾ وتفضُّلاً عظيماً بالمُؤمنين به، العاملين بأحكامه ﴿لَعَلَّهُم﴾ بالنّظر إلىٰ ظُهور قُدرة الله وكَمال حِكْمته في إنزال هذا الكِتاب ﴿بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ﴾

---

١. تفسير الرازي ١٤: ٣.
٢. روضة الواعظين: ١٠٦، تفسير الصافي ٢: ١٧١.
٣. في المصدر: صراط الله المستقيم.
٤. الاحتجاج: ٦٢، تفسير الصافي ٢: ١٧١.
٥. تفسير العياشي ٢: ١٥٢٠/١٢٧، تفسير الصافي ٢: ١٧١.

والحَشر إلىٰ دار الجَزاء، أو بلِقاء ثَوابه وعِقابه ﴿يُؤمِنُونَ﴾ به عن صَميم القلب، ويُوقنون حقّ اليقين.

وَهٰذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِن رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ[١٥٥ ـ ١٥٧]

ثمّ لمّا مَنّ سُبحانه علىٰ بني إسرائيل وغيرهم بإتمام النِّعمة عليهم بإنزال التّوراة، وبيّن ما لها مِن الفضائل، مَنّ علىٰ مُشركي أهل مكّة وبني إسماعيل وغيرهم، واحْتجّ عليهم بإنزال القُرآن الذي هُو أفضل الكُتب السّماوية بقوله: ﴿وَهٰذَا﴾ القُرآن الذي بين أيديكم ﴿كِتَابٌ﴾ كريم عَظيم الشّأن ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ مِن السّماء إليكم، والدّليل علىٰ أنّه مِن قِبَلنا لا مِن قِبَل الرّسُول كما تزعُمون، أنّه ﴿مُبَارَكٌ﴾ كثير النّفع لدِينكم ودُنياكم. وقيل: يعني: ثابت لا يتطرّق إليه النّسخ؛ كما تطرّق في الكِتابين[١] ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ واعمَلوا بما فيه مِن الأحكام ﴿وَاتَّقُوا﴾ الله في تكذيبه ومُخالفته ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ باتّباعه واتّقاء مُخالفته، وإنّما كان إنزاله عليكم لأجل كَراهة ﴿أَن تَقُولُوا﴾ يا أهل مكّة يومَ القِيامة اعتِذاراً مِن كُفركم وضَلالكم واحْتِجاجاً علينا: ﴿إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ﴾ التّوراة والإنجيل ﴿عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ﴾ كائنتين ﴿مِن قَبْلِنَا﴾ هُما اليَهود والنّصارىٰ ﴿وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ﴾ وتِلاوتهم الكِتاب ﴿لَغَافِلِينَ﴾ وبما فيه جاهلين، لكَونه علىٰ غير لُغتنا، فلَم نقدر علىٰ قراءته وفَهمه ﴿أَوْ تَقُولُوا﴾ يومَ القِيامة: ﴿لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ مِن السّماء ﴿الْكِتَابُ﴾ العرَبيّ كما اُنزل علىٰ الطّائفتين الكِتاب العِبْريّ ﴿لَكُنَّا﴾ بسبب شِدّة ذَكائنا وقُوّة أفهامنا ﴿أَهْدَىٰ﴾ وأرشد ﴿مِنْهُمْ﴾ إلىٰ كُلّ حقّ، أو إلىٰ ما فيه مِن العُلوم والمَعارف والأحكام ﴿فَقَدْ جَاءَكُم﴾ القُرآن الذي هُو ﴿بَيِّنَةٌ﴾ وحُجة واضحة قاطعة للعُذر، كائنة ﴿مِن﴾ قِبَل ﴿رَبِّكُمْ﴾ اللّطيف بكم ﴿وَهُدًى﴾ إلىٰ كُلّ حقّ، وخَير ورَشاد مِن الضّلال ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ عظيمة ونِعمة جَسيمة للمُؤمنين به، كما كانت التّوراة كذلك.

قيل: الفَرق بين البيّنة والهُدىٰ، أنّ البيّنة الوُضوح فيما يُعلم بالسّمع، والهُدىٰ الوُضوح فيما يُعلم بالسّمع والعَقل[٢].

ثمّ ذمّهم سُبحانه علىٰ تَكذيبهم القُرآن بقوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ وأضرّ علىٰ نفسه وغيره ﴿مِمَّن كَذَّبَ

---

١. تفسير الرازي ١٤: ٥. ٢. تفسير الرازي ١٤: ٥.

بآيَاتِ اللهِ﴾ المُنزلة، والقُرآن الذي هُو في دَرجة الإعجاز، معَ العِلم به ﴿وَصَدَفَ﴾ وأعرض، أو صَدّ النّاس ﴿عَنْهَا﴾ ومنعهم مِن الإيمان بها.

ثمّ هدّدهم بعدَ إنكار كون أحد أظلم مِنهم بقوله: ﴿سَنَجْزِى﴾ في الدُّنيا أو الآخرة أو فيهما الكُفّار ﴿الَّذِينَ يَصْدِفُونَ﴾ ويُعرضون، أو يصُدّون النّاس ﴿عَنْ آيَاتِنَا﴾ القُرآنيّة ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ وأشدّه ﴿بِمَا كَانُوا﴾ في الدُّنيا ﴿يَصْدِفُونَ﴾ النّاس ويُضلّونهم عن الحقّ علىٰ التّجدُّد والاسْتِمرار.

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِى إِيمَانِهَا خَيْراً قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ[١٥٨]

ثمّ لمّا بيّن سُبحانه انقِطاع عُذر الكُفّار في عدَم إيمانهم بتَوحيده ورِسالة رَسُوله بسبب نُزول القُرآن الذي هُو أفضل الكُتب السّماويّة بلُغتهم، أكّد سُبحانه ذلك ببَيان أنّه لا عُذر لهم في عدَم الإيمان إلّا انتِظار وُقوع أحدِ اُمورٍ كُلّها مِن المُحالات، أو بُلوغ وقت انقِطاع التّكليف، بقوله إنكاراً عليهم: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ وينتظرون في إيمانهم برِسالتك وصِحّة دِينك ﴿إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْـمَلَائِكَةُ﴾ مِن السّماء بصُورتهم المَلَكيّة، يشهدون عندهم برِسالتك، أو الملائكة المُوكّلون علىٰ قبض الأرواح ﴿أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ﴾ عندهم بتَصديقك وهُم يشهدون بأعيُنهم، أو بالعذاب، أو بجميع آيات القِيامة وأشراط السّاعة والهَلاك الكُلّي ﴿أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ مِن المُعجزات القاهرات أو أشراط السّاعة.

عن الصادق عليه السلام: «الآية المُنتظَرَةُ: القائم»[١].

معَ أنّه ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ﴾ كالدُّخان، ودابّة الأرض، وطُلوع الشّمس مِن مَغربها، وخروج الدجّال، وغيرها.

وعنهم عليهم السلام: «أنّه العَذاب في الدُّنيا»[٢].

﴿لَا ينفَعُ نَفساً وإِيمَانُهَا﴾ لَصيرورته ضَرورياً لها، ولكن ذلك إذا ﴿لَمْ تَكُن﴾ تِلك النّفس ﴿آمَنَت مِن قَبْلُ﴾ وفي حال عدَم مُعاينة الآخرة.

عن الصادق عليه السلام: «يعني [في] الميثاق»[٣].

﴿أَوْ﴾ ما ﴿كَسَبَتْ﴾ وحصّلت ﴿فِى﴾ حال ﴿إِيمَانِهَا﴾ قبلَ ذلك ﴿خَيْراً﴾ وعملاً صالحاً.

---

١. كمال الدين: ٨/٣٣٦، تفسير الصافي ٢: ١٧٣.
٢. الاحتجاج: ٢٥٠، تفسير الصافي ٢: ١٧٢.
٣. الكافي ١: ٨١/٣٥٥، تفسير الصافي ٢: ١٧٣.

عن أحدهما عليهما السلام، في قوله: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً﴾ قال: «المؤمن العاصي حالت بينه وبين إيمانه كَثرةُ ذُنوبه، وقِلّة حَسناته، فلَم يكسِب في إيمانه خيراً»[1].

وعن الصادق عليه السلام، في حديثٍ ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً﴾ قال: «الإقرار بالأنبياء والأوصياء وأمير المؤمنين خاصّة» قال: «لا ينفع إيمانها لأنه سُلِب»[2].

وعن أمير المؤمنين صلوات الله عليه في حديث خُروج الدجّال وقاتله، ودابّة الأرض، وفي آخره: «ثمّ ترفع الدابّةُ رأسها، فيراها مَن بَيْن الخافقين بإذان الله جلّ جَلالُه، وذلك بعدَ طُلوع الشمس مِن مَغربها، فعندَ ذلك تُرفع التّوبة فلا تُقبل تَوبةٌ، ولا عمَلٌ يُرفع، و﴿لَا يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً﴾» ثمّ فسّر صَعصعة راوي الحديث طُلوع الشّمس مِن مَغربها بخُروج القائم عليه السلام[3].

ثمّ أمر النبيّ صلى الله عليه وآله بتَهديد المُصرّين على الكُفر بقوله: ﴿قُلِ﴾ يا محمّد: ﴿ٱنتَظِرُوا﴾ إتيان أحدِ الأمور الثّلاثة ﴿إِنَّا﴾ أيضاً ﴿مُنتَظِرُونَ﴾ لذلك، وحينئذٍ لنا الفَوز وعليكم الوَيل بما حَلّ بكم مِن سُوء العاقبة.

إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ[١٥٩]

ثمّ أنه تعالى بعدَ إتمام الحُجّة على المُشركين بنُزول القُرآن بلِسانٍ عرَبيّ مُبين، ووَعيدهم على تكذيبه، وتَوبيخهم على الإصرار على الكُفر، أمرَ النبيّ صلى الله عليه وآله بالتبرّي مِنهم وعدَم التّعرُّض لهم بالقِتال، بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا﴾ وشعَبوا ﴿دِينَهُمْ﴾.

عن ابن عبّاس رضي الله عنه قال: يُريد المُشركين، بعضُهم يعبُدون الملائكة ويزعُمون أنهم بناتُ الله، وبعضُهم يعبُدون الأصنام ويقولون: هؤلاء شُفعاؤنا عندَ الله[4].

وعن مُجاهد: هُم اليَهود والنّصارى، كُلٌّ مِنهم تفرّقوا فِرقاً، وكفَر بعضُهم بعضاً[5].

وقيل: هُم أهلُ البِدع مِن هذه الأمّة[6]، [وقد] رُوي عن الباقر عليه السلام[7].

﴿وَكَانُوا شِيَعاً﴾ وأحزاباً في الضّلالة، أو كانوا أتباعاً لأئمّة الضّلال، كُلّ فِرقة تشايع[8] إماماً.

---

١. تفسير العياشي ٢: ١٥٢٥/١٢٨، تفسير الصافي ٢: ١٧٣.
٢. الكافي ١: ٨١/٣٥٥، تفسير الصافي ٢: ١٧٣.
٣. كمال الدين: ١/٥٢٧، تفسير الصافي ٢: ١٧٣.
٤. تفسير الرازي ١٤: ٧.
٥. تفسير الرازي ١٤: ٧.
٦. تفسير الرازي ١٤: ٨.
٧. مجمع البيان ٤: ٦٠٠، تفسير الصافي ٢: ١٧٤.
٨. في النسخة: شافع.

والقُميّ [قال]: فارقوا أمير المؤمنين عليه السلام، وصاروا أحزاباً[١].

﴿لَسْتَ مِنْهُمْ﴾ ومِن السُّؤال عن تفرُّقهم وعقائدهم، أو مِن قِتالهم[٢]، أو مِن عِقابهم ﴿فِى شَىْءٍ﴾ وقيل: يعني: أنت برئ مِنهم[٣]، أو علىٰ التّباعُد التامّ مِن الاجتِماع معهم في شيءٍ مِن مَذاهبهم الفاسدة[٤] ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُمْ﴾ في الإمهال والإهلاك في الدُّنيا، والحُكم بينهم فيما اختلفوا فيه راجعٌ ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ وَحده، لا إليك ولا إلىٰ غيرك ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم﴾ ويُخبرهم يومَ القيامة ﴿بِمَا كَانُوا﴾ في الدُّنيا ﴿يَفْعَلُونَ﴾ مِن المَعاصي والقبائح بأن يُعاقبهم علىٰ رؤوس الأشهاد.

مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لاَيُظْلَمُونَ[١٦٠]

ثمّ أعلن سُبحانه بكمال فضله علىٰ المُحسنين، وغاية عَدله في عِقاب العاصين بقوله: ﴿مَن جَاءَ﴾ وأتىٰ مِن المُؤمنين يومَ القِيامة ﴿بِالحَسَنَةِ﴾ مِن الإيمان والعمَل الصّالح ﴿فَلَهُ﴾ مِن الثواب ﴿عَشْرُ﴾ حسَنات ﴿أَمْثَالِهَا﴾ تفضُّلاً مِن الله تعالىٰ. وقيل: إنّ العَشر كِناية عن مُطلق الإضعاف[٥].

﴿وَمَن جَاءَ﴾ وأتىٰ في ذلك اليوم ﴿بِالسَّيِّئَةِ﴾ والفِعلة القبيحة ﴿فَلَا يُجْزَىٰ﴾ الجانيْ بها ﴿إِلَّا﴾ سيِّئة ﴿مِثْلَهَا﴾ عدلاً منه تعالىٰ ﴿وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ بزيادة العِقاب.

عن الصادق عليه السلام: «لمّا أعطىٰ الله سُبحانه إبليس ما أعطاه مِن القُوّة، قال آدم: يا رَبِّ سلّطتَهُ علىٰ وُلدي، وأجريتَهُ فيهم مَجرىٰ الدَمَ في العُروق، وأعطيتَهُ ما أعطيتَه، فما لي ولوُلدي؟ فقال: لك ولولدك السّيِّئة بواحدة، والحسَنة بعَشر أمثالها، قال: رَبِّ زِدني، قال: التّوبة مَبسوطة إلىٰ أن تبلُغ النّفس الحُلقوم، فقال: يا رَبِّ زِدني، قال: أغفرُ ولا أُبالي، قال: حَسْبي»[٦].

قُلْ إِنَّنِى هَدَانِى رَبِّى إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ[١٦١]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ إثبات التّوحيد، وإبطال مَذهب الشِّرك وأباطيل أهل الجاهليّة، أمر نبيّه صلى الله عليه وآله بإعلان النّاس بأنّ تَوحيده في الرُّبوبيّة مِلّة إبراهيم، والدِّين القَويم، والصِّراط المُستقيم، بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد، للمُشركين الزّاعمين أنّهم علىٰ الدِّين الحقّ: ﴿إِنَّنِى هَدَانِى﴾ وأرشدني ﴿رَبِّي﴾ بلُطفه ﴿إِلَىٰ﴾

---

١. تفسير القمي ١: ٢٢٢، تفسير الصافي ٢: ١٧٤.
٢. في النسخة: قبالهم.
٣. تفسير الرازي ١٤: ٨.
٤. تفسير الصافي ٢: ١٧٥.
٥. تفسير الرازي ١٤: ٩.
٦. تفسير القمي ١: ٤٢، تفسير الصافي ٢: ١٧٦.

صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ إلىٰ قُربه ورِضوانه، وأوحىٰ إليّ ﴿دِيناً قِيَماً﴾ قَويماً، كان هُو ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ حالَ كونه عليه السلام ﴿حَنِيفاً﴾ ومائلاً عن كُلّ باطل، أو حالَ كون مِلّته حَنيفيّة ﴿وَمَا كَانَ﴾ إبراهيم ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾. وفيه رَدّ [على] ما ادّعَوه مِن أنّهم علىٰ دِين إبراهيم.

قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ [١٦٢ و ١٦٣]

ثمّ أمره سُبحانه بالإعلان بتَوحيده في العِبادة وتمحُّضه في الخُلوص له تعالىٰ بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي﴾ وخُضوعي ﴿وَنُسُكِي﴾ وعِباداتي كُلّها، أو قُرباني.

وقيل: إنّ الصّلاة: صَلاة العِيد، والنُّسُك: الأُضحِيّة[1].

﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ وحَياتي وموتي، أو ما أنا عليه في حياتي وما أكون عليه عندَ موتي مِن الإيمان والطّاعة، خالصة ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ وحدَه ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ فيها، ﴿وَبِذَٰلِكَ﴾ التّوحيد أو الإخلاص ﴿أُمِرْتُ﴾ مِن جانب ربّي ﴿وَأَنَا أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ والمُنقادين لعِبادته في عالَم الذَرّ لأنّه أوّل مَن أجاب، أو في هذه الأُمّة لأنّ إسلام النبيّ قبلَ إسلام أُمّته.

قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ [١٦٤]

ثمّ أمر سُبحانه بأن يُبالغ في التِزامه بالتّوحيد في الرُّبوبيّة والعِبادة بإظهار غاية قَباحة الشِّرك مِن نفسه، وإنكاره عليهم بعدَ قِيام البَراهين القاطعة علىٰ وُجوب التّوحيد بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾ مِن الملائكة والكَواكب والأصنام وغيرها ﴿أَبْغِي﴾ وأطلُب لنفسي ﴿رَبّاً وَهُوَ﴾ تعالىٰ ﴿رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ باعْتِراف جميع الفِرَق، وبحُكم العقل القطعي لبَداهة وُجوب انْتِهاء وجُود المُمكن إلىٰ الواجب، وامْتِناع تعدُّده، وكَون المُمكن شريكاً له.

ثمّ نبّههم علىٰ أنّ ضَرر الشِّرك وعِقابه عليهم بقوله: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ مِن الأنفس ضَرراً ﴿إِلَّا﴾ كان ذلك الضَّرر ﴿عَلَيْهَا﴾ لا يتعدّاها إلىٰ غيرها ﴿وَلَا تَزِرُ﴾ ولا تحتمل نفسٌ ﴿وَازِرَةٌ﴾ وحاملة المَعصية ﴿وِزْرَ﴾ نفسٍ ﴿أُخْرَىٰ﴾ وحِملها وعُقوبتها.

وفيه رَدٌّ علىٰ المُشركين القائلين للمُؤمنين: ﴿ٱتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾[2].

---

١. تفسير روح البيان ٣: ١٢٩.

٢. العنكبوت: ١٢/٢٩.

﴿ثُمَّ﴾ أنتم بعدَ المَوت ﴿إِلَىٰ رَبِّكُم﴾ ومَليككم، وإلىٰ حُكمه ومَحضر عَدله ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ ومَصيركم ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ ويُخبركم يومئذٍ ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾ في الدنيا ﴿فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ مِن الرُّشد والغَيّ، والحَقّ والباطل، بإعطاء الثّواب العَظيم للمُحقّين، والحُكم بالعِقاب الشّديد للمُبطلين.

وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِى مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ[١٦٥]

ثمّ أنّه تعالىٰ لمّا بدأ في السُّورة المُباركة بَبيان كمال قُدرته وحِكمته وأُلوهيّته في عالَم الوُجود، ختَمها ببَيان كمال مِنّته ورأفته ووُفور نِعَمه، وشِدّة عِقابه وسَعَة رَحمته بقوله: ﴿وَهُوَ﴾ الله القادر ﴿ٱلَّذِى﴾ خلقَكم ومَنّ عليكم بأن ﴿جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرضِ﴾ وساكنيها بعدَ بني الجَان، أو بعدَ فَناء الأُمم الماضية، أو خُلفاء نفسه في الأرض تتصرّفون فيهاكتصرُّف المُلّاك في أملاكهم، وتنتَفعون بها وبما خلَق فيها ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ﴾ في القُوىٰ الجِسمانيّة، والعقل والعِلم، والشّرف والمال، وغيرها مِن الكمالات الوُجودية والسّعادات الدُّنيويّة والأُخرويّة ﴿فَوْقَ بَعْضٍ﴾ آخر، وفضّل كُلّاً مِنكم في الصِّفات الخُلُقيّة، والمَحاسن الخَلْقيّة علىٰ الآخر بجُوده ورأفته إلىٰ ﴿دَرَجَاتٍ﴾ كثيرة مُتفاوتة، لا للجَهل والقَرابة أو غيرهما مِن الدّواعي النَفسانيّة، بَل ﴿لِيَبْلُوَكُم﴾ ويُعاملكم مُعاملة المُمتحِن لطاعتكم وعِصيانكم ﴿فِى مَا آتَاكُمْ﴾ وجعَل عليكم مِن التّكاليف والأحكام.

ثمّ هدّد سُبحانه علىٰ عِصيانه بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ في الآخرة علىٰ عِصيانه ومُخالفة أحكامه، ثمّ رغّب في طاعته بقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ﴾ للذُّنوب، وستّار للمَعاصي بفَضله وكرَمه البتّة ﴿رَحِيمٌ﴾ بعِباده المُطيعين له بإفاضة نِعَمه الجَسيمة عليهم في الدُّنيا والآخرة لا محالة.

في (الكافي): عن الصادق عليه السلام: «أنّ سُورة الأنعام نزلت جُملةً واحدة، شيّعها سَبعون ألف مَلَك حتّىٰ نزلت علىٰ محمّد صلى الله عليه وآله، فعظِّموها وبجِّلوها، فإنّ اسْم الله عزّ وجلّ فيها في سَبعين مَوضعاً، ولَو يعلَم النّاس ما في قراءتها ما ترَكوها»[١].

وعن الرضا عليه السلام: «نزلت الأنعام جُملةً واحدة، شيّعها سَبعون ألف مَلَك، لهم زَجَل بالتّسبيح والتّهليل والتكبير، فمَن قرأها سبّحوا له إلىٰ يوم القِيامة»[٢].

---

١. الكافي ٢: ١٢/٤٥٥، ثواب الأعمال: ١٠٥، تفسير الصافي ٢: ١٧٨.

٢. تفسير القمي ١: ١٩٣، تفسير الصافي ٢: ١٧٨.

في تفسير سورة الأعراف

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓصٓ * كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ[١ و ٢]

ثمّ لمّا ختم الله سُورة الأنعام ـ المُشتملة علىٰ رَدّ المُشركين وإبطال بِدَعهم ـ بالوعيد بالعِقاب السّريع ووَعْد المُؤمنين بسَعة رَحمته وغِفرانه، أردفها بسُورة الأعراف المُتضمّنة للرَدّ علىٰ المُشركين، وتَهديدهم بالعُقوبات النّازلة في الدُّنيا علىٰ الأمم الّذِين كانوا مِثْلهم في الكُفر والطُّغيان ومُعارضة الأنبياء العِظام، وتوعيدهم بالعُقوبات الشّديدة في الآخرة، ولمَدح المُؤمنين بالنُّصرة والإكرام في الدُّنيا، والفَوز بالنّعم الدّائمة في الآخرة.

فافتتحها سُبحانه ـ علىٰ دأبه الجاري في الكِتاب الكريم ـ بأسمائه المُباركة تيمُّناً وتعليماً للعِباد، ليتبرّكوا بذِكْرها عند الشُّروع في كُلّ أمرٍ ذي بال بقوله: ﴿بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وقد مرّ تفسيره.

ثم ابتدأ فيها بذِكر الحُروف المُقطّعات بقوله: ﴿الٓمٓصٓ﴾ توجيهاً للقُلوب إلى ما بعدها مِن المطالب المُهمّة، وإرمازاً مِن إسمائه الحُسنىٰ، وإيماءً إلىٰ العُلوم الكثيرة التي يستنبطها الرّاسخون في العِلم منها.

عن الصادق عليه السلام، في حديثٍ قال: «و ﴿المص﴾ أنا الله المُقتدر الصّادق»[1].

وعن العيّاشي عنه عليه السلام أنّه أتاه رجلٌ مِن بَني أُميّة، وكان زِنديقاً، فقال له: قول الله عزّ وجلّ في كِتابه: ﴿الٓمٓصٓ﴾ أي شيءٍ أراد بهذا؟ وأيّ شيءٍ فيه مِن الحلال والحَرام؟ وأي شيءٍ فيه مِمّا ينتفِع به النّاس؟ قال: فاغْتاظ عليه السلام مِن ذلك فقال: «أمسِك وَيْحَك، الألف: واحد، واللام: ثلاثون، والميم: أربعون، والصّاد: تِسعون، كم معك»؟ فقال الرجل: مائة وواحد وسِتّون، فقال: «إذا انقضت سنةُ إحدىٰ وستين ومائة فينقضي مُلكُ أصحابك»، قال: فنظر، فلمّا انقضتْ سنةُ إحدىٰ وستّين ومائة يوم

---

١. معاني الأخبار: ١/٢٢، تفسير الصافي ٢: ١٧٩.

عاشوراء دخل المُسوّدة الكوفة وذهب مُلكهم[1].

وقيل: إنّ (الَمَصَ) اسمٌ للكِتاب العزيز، وقيل: اسم للسُّورة[2]. وكِلا القَولين مبنيّان علىٰ الاجتهاد الذي لا اعتماد عليه.

ثمَ بيَن سُبحانه أهمَ المَطالب، وهُو صِدق الكِتاب العزيز الدَّالّ علىٰ صِدق النُبوّة بقوله: **﴿كِتَابٌ﴾** عظيم الشّأن، كافٍ لإثبات نُبوّتك يا محمّد، شاهدٌ صِدقٍ علىٰ صِدقك، وافٍ بجميع ما تحتاج إليه اُمّتك **﴿أُنزِلَ﴾** مِن جانب الله بتَوسُّط أمينُ وَحْيه **﴿إِلَيْكَ﴾** تفضُّلاً منه عليك، فإذا علِمتَ ذلك **﴿فَلَا يَكُن﴾** ولا يوجد **﴿فِي صَدْرِكَ﴾** وقلبك **﴿حَرَجٌ﴾** وضِيق **﴿مِنْهُ﴾**، مِن جِهه الخوف مِن التكذيب في تبليغه.

قيل: إنّه ﷺ كان يخاف تَكذيبَ قومه وإعراضهم مِن قَبول قوله وأذاهم، فكان يضيق صَدرُه في الأداء، فأمّنه الله تعالىٰ بهذه الآية[3].

أو بسَبب الشّك في أنّه نازل مِن الله **﴿لِتُنذِرَ﴾** النّاس وتُخوّفهم مِن سَخَطه وعَذابه علىٰ الشِّرك والعِصيان **﴿بِهِ﴾** وبآياته **﴿وَ﴾** ليكون هذا الكِتاب **﴿ذِكْرَىٰ﴾** وعظةً **﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾** به.

اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِن رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَاتَذَكَّرُونَ[٣]

ثمَ أنّه تعالىٰ بعد شَهادته بصِدق القُرآن الذي هُو دليلٌ علىٰ صِدق نبيّه ﷺ، وأمرِه رَسُوله بتَبليغه وعدَم المُبالاة بتَكذيب قومه، أمرَ النّاسَ باتِّباعه والعمَل بكِتابه، ودعاهم بذاته المُقدّسة إليه بقوله: **﴿اتَّبِعُوا﴾** أيُّها النّاس، ولازموا في عَقائدهم وأعمالكم **﴿مَا أُنزِلَ﴾** بتوسُّط محمّد ﷺ **﴿إِلَيْكُم﴾** جميعاً **﴿مِن﴾** قِبَل **﴿رَبِّكُمْ﴾** اللّطيف بكم، المُراعي لصَلاحكم، مِن القُرآن الجامع لجميع المَعارف والأحكام.

ثمّ بعدَ أمرِهم بالمعروف نهاهم عن الشِّرك الذي هُو أعظم المُنكرات بقوله: **﴿وَلَا تَتَّبِعُوا﴾** بإغواء الشّياطين شيئاً مِن خَلق الله، ولا تتّخذوا **﴿مِن دُونِهِ﴾** ومِمّا سِواه مِن الكواكب والأصنام وغيرها

---

١. تفسير العيّاشي ٢: ١٥٤٤/١٣٥، تفسير الصافي ٢: ١٧٩. قوله عليه السلام: «إذا انقضت سنة إحدى وستين ومائة...» استظهر صحته العلامة المجلسي في بحار الأنوار ١٠: ١٦٤، حسب ترتيب الأبجدية عند المغاربة «أبجد، هوز، حطي، كلمن، صعفض، قرست، تخذ، ظغش» فالصاد المهملة عندهم ستون، والضاد المعجمة تسعون، فحينئذ يستقيم ما في أكثر النسخ في عدد المجموع، ولعل الاشتباه في قوله: والصاد تسعون من النسّاخ، لظنهم أنه مبنيّ علىٰ المشهور، وبذلك يصح المجموع المذكور ويطابق سنة انهيار وسقوط دولة بني اُميّة، أي سنة ١٣١ هـ.

٢. تفسير روح البيان ٣: ١٣٣.

٣. تفسير روح البيان ٣: ١٣٤.

﴿أَوْلِيَاءَ﴾ وآلهة محبوبين، فاذكروا ما ينفعكم، واتّعظوا بمواعظ الله، ولكنَ زماناً أو تذكُّراً واتّعاظاً﴿قَلِيلاً مَا﴾ وفي غاية القِلّة ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ وتتعظون، لشدّة قَساوة قُلوبكم، وغَلبة شَهواتكم. ويُمكن أن يكون تَوصيف تَذكّرهم بالقِلّة بمُلاحظة قِلّة المُتذكّرين.

وَكَم مِن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً أَوْ هُمْ قَائِلُونَ * فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلاَّ أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ [٤ و ٥]

ثمّ لمّا كان التّخويف بعَذابِ الاستِئصال في الدُّنيا أردعَ لهم مِن الكُفر والقبائح، شرَع سُبحانه في تَهديد المُشركين علىٰ شِركهم وعدَم اتّعاظهم واتّباعهم لكِتاب الله، ومُعارضتهم ا لرّسُول وتَكذيبه بما نزَل علىٰ الأمَم الماضية ـ المُعارضين للرُّسُل، التّابعين للشّياطين ـ مِن عذاب الاستئصال في الدُّنيا بقوله: ﴿وَكَم مِن قَرْيَةٍ﴾ مِن القُرىٰ، وكثيراً مِن بَلدة مِن البِلاد ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ وأردنا إفناء أهلِها عُقوبةً علىٰ شِركهم وإصرارهم علىٰ الكُفْر، ومُعارضة الأنبياء، وانْهماكهم في الشّهوات، وتعرُّضهم علىٰ قبائح الأعمال.

ثمّ بيّن سبحانه كيفيّة إهلاكهم بقوله: ﴿فَجَاءَهَا بَأْسُنَا﴾ وقرُب منها عذابُنا، إمّا ﴿بَيَاتاً﴾ وليلاً وهُم مُستريحون غافلون عنه، كقوم لُوط ﴿أَوْ﴾ نهاراً و﴿هُم قَائِلُونَ﴾ نائمون غير مُتوقّعين سُوءاً ومكروهاً، كقوم شُعيب، أُهلِكوا في وسَط النّهار وهُم قائلون. فلا يغترّ هؤلاء الكفَرة بحالِ الأمن والرّاحة، فإنّ عذابَ الله يقع دُفعةً وبَغتة.

قيل: إنّ ذِكر نُزول العذاب في الوقتين، لاخْتصاصهما بالرّاحة، وعدم توقُّع العذاب فيهما، ولذا كان أشدّ، كما أنّ النِّعمة غير المُرتقبة ألَذّ.

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ﴾ وتضرُّعهم، كما عن ابن عبّاس[1] ﴿إذا جَاءَهُم﴾ ونزل عليهم ﴿بَأْسُنَا﴾ وعذابُنا شيئاً ﴿إِلَّا أَن قَالُوا﴾ اعترافاً باستحقاقهم له ونَدامةً علىٰ شِركم وطُغيانهم: يا ويلنا ﴿إِنَّا كُنَّا﴾ من قبلُ ﴿ظَالِمِينَ﴾ باختيار الشِّرك، و ارتكِاب السيّئات.

فَلَنَسْئَلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ * فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ (٦ و ٧)

---

١. تفسير الرازي ١٤: ٢١.

ثمَ هدّدهم الله بأهوال يوم القِيامة بقوله: ﴿فَلَنَسْئَلَنَّ﴾ توبيخاً وتقريعاً كافّة الأمم ﴿ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ الرُّسُل، عمّا أجابوهم بعدَ دَعوتهم إلىٰ الهدىٰ ودِين الحقّ، ونقول: ماذا أجبتُم المُرسلين؟ ﴿وَ﴾ والله ﴿لَنَسْئَلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ عن تأدية الرِّسالة، وعمّا اُجيبوا بـه مَن رَدٍّ وتَكذيب، أو قـبول وطاعة، فيقولون تشكيّاً مِن اُمَمهم: لا عِلم لنا إلّا ما علّمتنا.

عن أمير المُؤمنين عليه السلام: «فيُقام الرُّسُل فـيُسألُنّ عـن تأديـة الرِّسـالات التـي حـمَلوها إلىٰ اُمَـمهم، فيُخبِرون أنّهم قد أدّوا ذلك إلىٰ اُممهم، وتُسأل الأمَم فيجحَدون، كما قال الله: ﴿فَلَنَسْئَلَنَّ﴾[1] الآية».

وفائدة هذا السُّؤال تَضعيف[2] الإكرام للرُّسُل، والإهانة والفَضيحة للكُفّار.

﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ﴾ ولَنبَيِّنُنَّ لهم[3] جميعاً جميعَ ما صدر عنهم مِن التّبليغ والإنكار والمُعارضة ﴿بِعِلْمٍ﴾ كامل مِنّا بظَواهرهم وبَواطنهم، لأنّا كُنّا شاهدين عليهم، مُطّلعين علىٰ خَفيّاتهم ﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ عنهم في حالٍ مِن الأحوال، ولا غافلين عن أعمالهم وأحوالهم في آنٍ مِن الآنات.

وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ[٨ و ٩]

ثمَ أنّه تعالىٰ بعدَ تَهديد المُشركين بالسُّؤال عنهم[4] يومَ القِيامة، هدّدهم بوَزن الأعمال وعقائدهم بقوله: ﴿وَٱلْوَزْنُ﴾ لأعمال النّاس وعقائدهم: تَعيين راجِحها ومَرجُوحها، وجيِّدها ورَديئها ﴿يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ الثّابت بحيث لا مَجال للرَّيب فيه.

في بيان الوجوه والأقوال في الميزان

إنّما الكلام في المِيزان والموزون. أمّا الأوّل: فمُجمل القول فيه أنّ المِيزان في القِيامة حِسِّي ومَعنوي، أمّا الحِسّي: فالحقّ أنّه يُنصب ميزان له عَمود وكـفّتان، فـي بـعض الرِّوايات العاميّة: طُول عَموده خمسون ألف سنة، وإحدىٰ كفّتيه من نور فيُوضع فيها الحسَنات، والأُخرىٰ مِن الظُّلمة يوضع فيها السيِّئات[5].

وعن ابن عبّاس رضي الله عنه: أنّه تعالىٰ ينصِب ميزاناً له لِسان وكفّتان يومَ القِيامة يُوزن بـه أعـمال العِباد خَيرها وشرّها[6].

وعن عبدالله بن سلّام: أنّ مِيزان ربّ العالَمين [يُنصب] بين الجِنّ والإنس، يُستقبل بـه العَرش، إحدىٰ كفّتي الميزان علىٰ الجنة، والأُخرىٰ علىٰ جهنّم، ولَو وُضعتْ السّماوات والأرض في إحداهما

---

١. الاحتجاج: ٢٤٢، تفسير الصافي ٢: ١٨٠. ٢. أي مضاعفة. ٣. كذا، والظاهر: ولنبيّننّهم.
٤. كذا، والظاهر: بسؤالهم. ٥. تفسير روح البيان ٣: ١٣٧.
٦. تفسير الرازي ١٤: ٢٤.

لوسِعتْهُنّ، وجَبرئيل آخذٌ بعَموده ينظُر إلىٰ لِسانه[١]. إلىٰ غير ذلك مِن الرّوايات.

وأمّا المعنوي: فهُو النبيّ والوَصيّ والدِّين، فميزانُ أعمال كُلّ اُمّة نبيُّها وشريعتُها التي أتىٰ بها.

عن الصادق عليه السلام أنّه سُئل عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَازِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ﴾[٢]، قال: «هُم الأنبياء والأوصياء»[٣].

وفي رِوايةٍ: هُم المَوازين[٤].

وعن مُجاهد والضَحّاك وكثيرٍ من العامّة: أنّه العَدل والقضاء[٥]. وأنكروا المِيزان الحِسّي، واستُدِلّ لقولهم بأنّ الميزان ما يُعرف به مِقدار الشيء، ومَقادير الثّواب والعِقاب لا يُمكن مَعرفتها بالميزان، وأمّا نفس الأعمال فغير قابلة للوَزن؛ لأنّها أعراض قد فنِيتْ، ووَزن المَعدوم مُحال، وعلىٰ تقدير بقائها كان وزنُها مُحالاً.

وعن (الاحتجاج): عنه عليه السلام[٦] أنّه سُئل أو ليس توزن الأعمال؟ قال: «لا، لأنّ الأعمال ليست أجساماً، وإنّما هي صِفة ما عمِلوا، وإنّما يَحتاج إلىٰ وزن الشيء مَن جَهِل عدد الأشياء ولا يعرِف ثقلها وخِفّتها، وإنّ الله لا يخفىٰ عليه شيءٌ». قيل: فما معنى الميزان؟ قال: «العدل». قيل: فما معناه في كِتابه ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾؟ قال: «فمَن رجَح عملهُ»[٧].

أقول: بناءً علىٰ ما هو الحقّ مِن تجسُّم الأعمال في الآخرة، وإمكان تأثير حُسن العمل ثِقلاً فيه، وكون الحكمة في الوزن تَهويل العاصي وتَفضيحة، وتَبشير المطيع وازدياد فرحة، وإظهار غاية العدل. ففي الرواية وُجوهٌ مِن الإشكال، فلابدّ من تأويلها إن أمكن، وإلاّ فطَرحها أو حَملها علىٰ التقيّة.

وأمّا المَوزون، فهُو نفس الأعمال وما ينتهي الى اختيار العِباد مِن الحسنات والسيِّئات.

عن ابن عبّاس رضي الله عنه قال: أمّا المؤمن فيُؤتىٰ بعمله في أحسن صورة، فيوُضع في كفّة الميزان، فتثقُل حسناتُه علىٰ سيِّئاته[٨].

وقيل: المَوزون صحائف[٩].

عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه سئل عمّا يُوزن يومَ القيامة، فقال: «الصُّحُف»[١٠].

---

١. تفسير الرازي ١٤: ٢٥.
٢. الأنبياء: ٤٧/٢١.
٣. الكافي ١: ٣٦/٣٤٦، معاني الأخبار: ١/٣١، تفسير الصافي ٢: ١٨١.
٤. بحار الأنوار ٧١: ٢٢٦.
٥. تفسير الرازي ١٤: ٢٥.
٦. أي عن الامام الصادق عليه السلام.
٧. الاحتجاج: ٣٥١، تفسير الصافي ٢: ١٨١.
٨. تفسير الرازي ١٤: ٢٤.
٩. تفسير الرازي ١٤: ٢٥.
١٠. تفسير الرازي ١٤: ٢٥.

وعنه صلى الله عليه وآله قال: «يُؤتىٰ برَجلٍ يومَ القيامة إلىٰ الميزان، ويُؤتىٰ له بتِسعة وتسعين سِجلاً، كُلّ سِجلٍ منها مَدّ البَصر، فيها خَطاياه وذُنوبه، فتوضع في كفّة الميزان، ثمّ يُخرَج له قِرطاس كالأنمُلة فيه شَهادة أن لا إله إلّا الله، وأنّ محمّداً عبدُه ورَسُولُه، يُوضع في الأُخرىٰ فترجَح»[1].

وقيل: إنّ المَوزون بالميزان الحِسيّ هُو أعمال الجَوارح دُون الأعمال القلبيّة؛ كالعقائد والنِيّات وغيرهما، فإنّه يُقام لها الميزان المعنوي وهُو العَدل، فالحسّي للحسّي، والمعنوي للمعنوي.

وقيل: يُوزن نفسُ المُؤمن والكافر[2]، فيظهر بالميزان عِظَم قَدْر الأول وذُلّ الثّاني ومَهانته.

رُوي أنّه يُؤتىٰ يوم القيامة بالرَجُل العظيم الطَويل الأكول الشَّروب فيُوزن، فلا يزِن جَناح بَعوضة[3].

وقيل: إنّ الوَزن لأهل الحقّ والصِّدق وأصحاب البِرّ، دُون الكُفّار وأهل الباطل؛ لأنّه لا وَزن للباطل وأهله.

عن السجّاد عليه السلام ـ في حديثٍ ـ: «اعلَموا عِباد الله أنّ أهل الشِّرك لا يُنصب لهم المَوازين، ولا يُنشر لهم الدَواوين، وإنّما يُحشرون الىٰ جهنّم زُمَراً، وإنّما نَصْب المَوازين ونَشْر الدَواوين لأهل الإسلام، فاتّقوا الله عِباد الله»[4].

أقول: يدُلّ عليه قولُه تعالىٰ: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾[5]، ويُمكن حَمل الآية والرِّواية علىٰ أنّه لا يُنصب لهم الميزان لتَعيين وَزن حسَناتهم ومِقدار ثَوابها بالنِّسبة إلىٰ سيِّئاتهم، لحَبْط حسَناتهم. وأمّا تَعيين مِقدار عَظَمة سيِّئاتهم في أنظار النّاس فيحتاج إلى نصَب الميزان.

وقيل: إنّ وزن الأعمال يكون بعدَ الحِساب؛ لأنّ المُحاسبة لتَقرير الأعمال، والوَزن لإظهار مَقاديرها؛ ليكون الجَزاء بحَسَبها، فينبغي أن يكون بعدها.

وعلىٰ أيّ تقدير ﴿فَمَن ثَقُلَتْ﴾ ورجَحتْ ﴿مَوَازِينُهُ﴾ بسبب كَثرة الحَسنات، أو عِظَم قَدْرها ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ المُؤمنون المُحسنون ﴿هُمُ﴾ بالخُصوص ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾ والنّاجون في الآخرة، الفائزون بالجنّة والنِّعَم الدّائمة والكرامة الأبديّة.

رُوي أنّ داود عليه السلام سأل ربّه أن يُريَه الميزان الذي يُنصب يومَ القيامة، فرأىٰ كُلّ كفّة مِلْء ما بين المَشرق والمَغرب فُغشي عليه، فلمّا أفاق قال: إلهي مَن يقدُر أن يملأ كفّته بالحسَنات؟ فقال الله

---

١. تفسير الرازي ١٤: ٢٥.
٢. بحار الأنوار ٧١: ٢٢٦.
٣. تفسير روح البيان ٣: ١٣٧.
٤. الكافي ٨: ٧٥/٢٩.
٥. الكهف: ١٨/١٠٥.

تعالىٰ: يا داود، إذا رضيتُ عن عبدي ملأتُها بتَمرةٍ مِن صَدَقة[١].

عن النبيّ ﷺ: «ما وُضع في الميزان أثقل مِن حُسن الخُلق»[٢].

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ بكَثرة السيّئات، أو شِدّة قُبحها ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ خِفاف المَوازين هم ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا﴾ في الدُّنيا وغبنوا ﴿أَنفُسَهُم﴾ بأن ضيّعوا فِطرتهم السّليمة التي هي بمنزلة رأس مالهم في سُوق الدُّنيا ﴿بِمَا كَانُوا﴾ فيها ﴿بِآيَاتِنَا﴾ الدالّة علىٰ تَوحيدنا في الألوهيّة، وكَمال الصِّفات والمُعجزات الشّاهدة علىٰ صِدق نبيّنا، والبَراهين الواضحة علىٰ وُجوب طاعة أوليائنا ﴿يَظْلِمُونَ﴾ وحقَّها يُضيّعون، حيثُ إنّ حقّها أن يُصدّقوها، وهُم يُكذّبون.

قيل: إنّما قال الله: ﴿مَوَازِينُهُ﴾ بصِيغة الجَمع، لأنّ كُلّ عبدٍ يُنصب له مَوازين بالقِسط تُناسب حالاته، فلبدنه ميزان توزن به أوصافه، ولروحه ميزان تُوزن به نُعوته، ولسرّه ميزان تُوزن به أحواله، ولخَفيّه ميزان تُوزن به أخلاقه[٣].

وقيل: إنّ لأفعال القُلوب ميزاناً، ولأفعال الجَوارح ميزان، وللأقوال ميزان[٤].

وعن الزجّاج: أنّه قد يُطلق الجَمع علىٰ الواحد، كما يُقال: خرج فُلان إلىٰ مكّة علىٰ البِغال[٥].

وقيل: إنّ الموازين جَمع مَوزون[٦].

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «فانّما يعني الحِساب[٧]، تُوزن الحَسنات والسيّئات، والحَسناتُ ثِقْل الميزان، والسيّئات خِفّة الميزان»[٨].

وعنه عليه السلام: «هي قِلّة الحسَنات وكَثرتها»[٩].

وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ[١٠]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعد زَجْر النّاس عن مُتابعة الشّياطين وعِبادة الأصنام، بتَخويفهم مِن العذاب الدُّنيوي والأُخروي، شرع سُبحانه في ترغيبهم إلىٰ اتّباع ذاته المُقدّسة بتَذكيرهم نِعَمه العظام بقوله: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ﴾ وأسكناكم أيُّها النّاس ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أو أقدرناكم علىٰ التَصرُّف فيها بالسّكونة[١٠] والزَرع وغيرهما مِن وُجوه الانتفاعات ﴿وَجَعَلْنَا﴾ وأوجدنا ﴿لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ وما به بقاؤكم وتقوُّم أُموركم من المَطاعم والمَشارب والمَلابس والمَناكح، وما به تُحصّلون الخَيرات الدُّنيويّة والأُخرويّة،

---

١. تفسير روح البيان ٣: ١٣٧.
٢. تفسير روح البيان ٣: ١٣٧.
٣. تفسير روح البيان ٣: ١٣٧.
٤ ـ ٦. تفسير الرازي ١٤: ٢٦.
٧. في النسخة: يعني إنّما الحسنات.
٨. التوحيد: ٥/٢٦٨، تفسير الصافي ٢: ١٨١.
٩. تفسير الصافي ٢: ١٨١.
١٠. كذا، والظاهر: بالسَّكن، أو السُّكنىٰ.

ومَع ذلك ﴿قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾ تِلك النِّعَم العظام. وهُو نظير قوله: ﴿وقليلٌ مِن عِبادي الشّكور﴾[1].

وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِنَ ٱلسَّاجِدِينَ * قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ * قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّاغِرِينَ[١١ـ١٣]

ثمّ نبّه سُبحانه علىٰ عدم انحصار نِعَمه بالتّمكين في الأرض وخَلق ما يعيشون به، بَل أصل الوُجود الذي هُو أعظم النِّعم منه تعالىٰ، بقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ﴾ وأخرجناكم مِن العدَم إلىٰ الوجود، مبتدئاً بخلق أبيكم آدم مِن طين ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ بأحسن صُورة بعد خلق آدم وتَصويره ونَفخ الرُّوح فيه.

عن الباقر عليه السلام: «أمّا (خلقناكم) فنُطفة ثمّ علقة ثمّ مُضغة ثمّ عَظماً ثمّ لحماً، وأمّا (صورناكم) فالعين والأنف والأذُنين والفَم واليَدين والرِّجلين، صوّر هذا ونَحوه، ثمّ جعل الدّميم[2] والوَسيم والجَسيم والطَّويل والقَصير، وأشباه هذا»[3].

في أمر الله الملائكة بالسجود لآدم

ثمّ لمّا كان خَلق الإنسان مِن آدم عليه السلام، وكان إكرام الأب مِنّةً علىٰ الأبناء، أتبع نِعمة الخَلق ببَيان إكرام آدم عليه السلام بإسجاد الملائكة له بقوله: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلمَلائِكَةِ﴾ جميعاً: ﴿ٱسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ تكريماً له، وقيل: لمّا كان خَلق نَوع البشر بخَلق أوّل فَرد منه، كنّىٰ سُبحانه عن خَلق أبي البشر بالخِطاب إلىٰ النَوع، وعلىٰ أيّ تقدير ﴿فَسَجَدُوا﴾ كُلّهم لأدم مِن غير رَيْث ﴿إِلَّا إِبلِيسَ﴾ فإنّه وَحده خالف أمر ربّه و﴿لَمْ يَكُن مِنَ ٱلسَّاجِدِينَ﴾ لآدم، فعاتبه جَلّ جلالُه، و﴿قَالَ﴾: يا إبليس ﴿مَا مَنَعَكَ﴾ عن طاعتي، وأيّ شيءٍ أجرأك علىٰ ﴿أَلَّا تَسْجُدَ﴾ لآدم ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ مع الملائكة بالسُّجود له، وحينَ أوجبتُه عليك.

﴿قَالَ﴾ إبليس: كيفَ أمرتني بالسُّجود لآدم و﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ وأفضل؟ ولا يجوز أمرُ الأفضلِ بالسُّجود والتّواضع للمَفضول، أمّا فضيلتي علىٰ آدم فلأنّك ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَارٍ﴾ وهي حقيقة لطيفة مُشرقة عُلويّة فَعّالة ﴿وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ كثيف ثقيل، مُظلم مُنفعل، ومِن الواضح أنّ المَخلوق مِن الأفضل أفضل.

في عدم جواز القياس في الدين

عن ابن عبّاس أنّه قال: كانت الطّاعة أولىٰ بإبليس مِن القِياس، فعصىٰ ربّه وقاس،

---

١. سبأ: ١٣/٣٤.　　٢. الدَّمامة: قُبح المنظر وصغر الجسم.

٣. تفسير القمي ١: ٢٢٤، تفسير الصافي ٢: ١٨٢.

وأوّل مَن قاس إبليس فكفر بقياسه، فمَن قاس الدِّين بشيءٍ مِن رأيه قرَنه الله مع إبليس[١].

وعن الصادق عليه السلام، في حديثٍ: «فطرده الله عن جِواره، ولَعنه وسمّاه رَجيماً، وأقسم بعِزّته: لا يقيس أحدٌ في دِينه إلّا قرَنه مع عدُوّه إبليس في أسفل دَرْكٍ مِن النّار»[٢].

وعنه عليه السلام أنّه دخل عليه أبو حنيفة، فقال: «يا أبا حنيفة، بلغني أنّك تقيس؟»، قال: نعم أقيس، قال: «لا تقِسْ، فإنّ أوّل مَن قاس إبليس حينَ قال: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ فقاس ما بين النّار والطِّين، ولَو قاس نُوريّة آدم بنُوريّة النّار، عرَف فَضل ما بين النُّورَين وصَفاء أحدهما علىٰ الآخر»[٣].

﴿قَالَ﴾ الله تعالىٰ لابليس وهُو في جنّة عَدْن ـ كما عن ابن عبّاس[٤] ـ أو في جنّة الدُّنيا: ﴿فَاهْبِطْ﴾ وانزِل أو انتقل ﴿مِنْهَا﴾ إلىٰ الأرض، أو إلىٰ خارجها، أو مِن المَنزلة التي أنت عليها، أو مِن زُمرة الملائكة ﴿فَمَا يَكُونُ﴾ جائز ﴿لَكَ﴾ يا إبليس ﴿أَنْ تَتَكَبَّرَ﴾ وتترفَع في وقتٍ مِن الأوقات، أو مكانٍ مِن الأمكنة، لا سيمّا ﴿فِيهَا﴾ لأنّها مكان المُطهّرين مِن الرّذائل.

ثمّ أكّد الأمر بخروجه بقوله: ﴿فَاخْرُجْ﴾ مِن الجنّة، أو مِن زُمرة الملائكة المُكرمين ﴿إِنَّكَ﴾ بتكبُّرك وعِصيانك بعدُ ﴿مِنَ ٱلصَّاغِرِينَ﴾ ومِن زُمرة الأذلّاء المَهينِين.

عن ابن عبّاس: يُريد أنّ أهلَ السّماوات ملائكةٌ متواضعون خاشعون، فاخرُج إنّك مِن الصّاغرين. والصَّغار: الذِلّة[٥].

في التواضع وذمّ التكبر

قيل: إنّ إبليس طلب التكبُّر فابْتلاه الله بالذِلّة والصَّغار، تنبيهاً علىٰ صِحّة ما قاله النبيّ صلى الله عليه وآله: «مَن تواضع رفعه الله، ومَن تكبّر وضَعه الله»[٦].

قَالَ أَنظِرْنِى إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنْظَرِينَ [١٤ و ١٥]

ثمّ لمّا اشتدّت عداوته لآدم عليه السلام وذُرّيّته طلَب الفُسحة لإغوائهم و﴿قَالَ﴾ بعد طَرده مِن الجنّة والرّحمة: رَبِّ ﴿أَنظِرْنِى﴾ وأمهلني في الدُّنيا، وأدِم حَياتي ﴿إِلَىٰ يَوْمِ﴾ القيامة الذي فيه ﴿يُبْعَثُونَ﴾ مِن قُبورهم ويُحشرون إليك لجَزاء أعمالهم. ولمّا اقتضتْ الحِكمة ابْتلاء آدم وذُرّيّته، اسْتجاب دُعاءه و ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنْظَرِينَ﴾ والمُمهلين، ولكن لا إلىٰ يوم البَعث، وهُو النَفخة الثانية، بَل إلىٰ يوم يموتون جميعاً بالنَفخة الأولىٰ.

---

١. تفسير الرازي ١٤: ٣٤.
٢. علل الشرائع: ١/٦٢، تفسير الصافي ٢: ١٨٣.
٣. الكافي ١: ٢٠/٤٧، الاحتجاج: ٣٦٢، علل الشرائع: ١/٨٦، تفسير الصافي ٢: ١٨٣.
٤. تفسير الرازي ١٤: ٣٥.
٥. تفسير الرازي ١٤: ٣٥.
٦. تفسير الرازي ١٤: ٣٥.

عن الصادق عليه السلام: «يموتُ إبليس ما بين النّفخة الأولىٰ والثانية»[1].

وعنه عليه السلام: «أنظره إلىٰ يوم يُبعث فيه قائمُنا»[2].

عن ابن عبّاس: أنّ الدّهر يمُرّ بإبليس فيهرَم، ثمّ يعود ابن ثلاثين[3].

قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ[١٦ و ١٧]

ثمّ أنّ اللّعين بعدما رأىٰ إسعاف مسألتة ﴿قَالَ﴾ مُعارضةً لله: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ وبسبب أن أوقعتني في عِصيانك بأمرك إيّاي بالسُّجود، بعِزّتك لأغوِيَنّ آدمَ وذُرّيته، و﴿لَأَقْعُدَنَّ﴾ ترصُّداً ﴿لَهُمْ صِرَاطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ وعلىٰ منهجك القَويم المُوصل لهم إلىٰ كُلّ خير، وهُو دِين الإسلام. وقيل: إنّ الباء في قوله: (فبما) للقَسم، والمعنىٰ: فبقُدرتك عليّ ونَفاذ سُلطانك فيّ[4].

ثمّ أنّ اللّعين بعد إعلانه بترصُّده لذُريّة آدم وقُعوده علىٰ طَريقهم إلىٰ الجنّة كقُعود السُّرّاق علىٰ طَريق العابرين ترصُّداً لهم، بيّن تَهاجُمه عليهم مِن الجِهات التي يَعتاد الهُجوم مِنها، ومُحاصرته إيّاهم مِن الجَوانب بقوله: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم﴾ ولأحمِلنّ عليهم ﴿مِن بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ وقُدّامهم، يعني: أُشكّكهم في صِحّة البَعث، أو أُفتّرهم عن الرّغبة فيما ينفعهم في الآخرة، أو أزيِّن لهم الدُّنيا، أو أبعثُهم إلىٰ تكذيب الأنبياء الحاضرين في عصرهم ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ قيل: يعني: أُوهِمُهم أنّ الدُّنيا أزليّة باقية، وأُزيّنها في نظرهم، أو أُفتّرهم عن الرّغبة في المَنافع الأُخرويّة، أو أبعثُهم إلىٰ تكذيب الماضين مِن الأنبياء ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾ قيل: يعني: أُرغّبهم في الكُفر، أو أصرِفهم عن الحقّ، أو أُفتّرهم عن الرّغبة في الآخرة والأعمال الحَسَنة ﴿وَعَن شَمَائِلِهِمْ﴾ قيل: يعني: أُوقعهم في المعاصي، وأُزيِّن لهم السّيئات وأُرغّبهم في الباطل.

عن الباقر عليه السلام: «﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ معناه: أهوّن عليهم أمرَ الآخرة ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ آمرُهم بجَمع الأموال والبُخل بها عن الحُقوق لتبقىٰ لورثتهم، ﴿وَعَن أَيمَانِهِمْ﴾ أُفسِد عليهم أمرَ دِينهم بتَزيين الضّلالة، وتَحسين الشُّبهة، ﴿وَعَن شَمَائِلِهِمْ﴾ بتَحبيب اللّذات إليهم، وتَغليب الشّهوات علىٰ قُلوبهم»[5].

---

١. علل الشرائع: ٢/٤٠٢، تفسير الصافي ٢: ١٨٣.

٢. تفسير العياشي ٢: ٢٣٢٧/٤٢٨، تفسير الصافي ٢: ١٨٣.

٣. تفسير روح البيان ٣: ١٤٢.

٤. تفسير الرازي ١٤: ٣٨.

٥. مجمع البيان ٤: ٦٢٣، تفسير الصافي ٢: ١٨٤.

وقيل: إنّ الجهات مؤوّلة بالقِوىٰ الأربعة المُفوّتة للسّعادات الرُّوحانيّة، فالمراد مِن قوله: ﴿مَن بَينِ أيدِيهِم﴾ القُوّة الخَياليّة التي تكون في البطن المُقدّم مِن الدِّماغ، تردُ عليها صُوَر المَحسوسات، ومن قوله: ﴿مِن خَلفِهِم﴾ القُوة الوَهميّة التي تكون في البطن المُؤخّر منه، تحكم في غير المَحسوسات بالأحكام المُناسبة للمحسوسات، ومن قوله: ﴿عَن أيمَانِهِم﴾ القُوّة الشّهويّة التي تكون في الكَبِد، ومن قوله: ﴿وَعَن شَمَائِلِهِم﴾ القُوّة الغضبيّة التي تكون في البَطن الأيسر مِن القلب.

قيل: إنّ النُّكتة في تخصيص الأيمان والشّمائل بكلمة (عن) الدالّة علىٰ المُجاوزة: أنّ المَلَكين الكاتبين للأعمال لمّا كانا قاعدين عن اليمين والشِّمال، لا يقرُب الشّيطان منهما، بل يتباعد عنهما.

عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «إنّ الشّيطان قعد لابن آدم بطَريق الإسلام فقال له: تدَع دِين آبائك، فعصاه فأسلم، ثمّ قعد له بطَريق الهِجرة فقال له: تدَع دِيارك وتتغرّب[1]، فعصاه وهاجر، ثمّ قعد له بطَريق الجِهاد فقال له: تُقاتل فتُقتل فيُقسّم مالُك وتُنكح امرأتُك، فعصاه فقاتل»[2].

رُوي أنّ الشّيطان لمّا قال هذا الكلام رقّتْ قُلوب الملائكة علىٰ البشر، فقالوا: يا إلهنا، كيف يتخلّص الإنسانُ مِن الشّيطان، مع كونه مُستولياً عليه مِن هذه الجِهات الأربع؟ فأوحىٰ الله تعالىٰ إليهم: إنّه بقي للإنسان جِهتان؛ الفَوق والتّحت، فإذا رفع يدَيه إلىٰ فَوق في الدُّعاء علىٰ سَبيل الخُضوع، أو وضع جَبهته علىٰ الأرض على سبيل الخُشوع، غفرتُ له ذنبَ سبعين سنة[3].

ثمّ أخبر اللّعين ظنّاً بنتيجة حَمَلاته ومُحاصرته بني آدم بقوله: ﴿وَلَا تَجِدُ﴾ يارَبِّ ﴿أَكثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ لك، مُطيعين لأحكامك، عاملين برِضاك.

قَالَ آخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُوماً مَدْحُوراً لَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ[١٨]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعد إجهار اللّعين بمُعارضته له، ومُعاندته لبني آدم، عاتبه زَجراً ومَهانةً و ﴿قَالَ﴾ له طرداً مِن الجنّة، أو السّماوات: ﴿آخْرُجْ مِنْهَا﴾ حال كَونك ﴿مَذْءُوماً﴾ مَذموماً عندي وعندَ ملائكتي وسائر خلقي﴿مَدْحُوراً﴾ ومطروداً عن جنّتي ورَحمتي، فبِعزّتي ﴿لَمَن تَبِعَكَ﴾ واقْتفىٰ خطواتك مِن ذُريّة آدم، وأطاعك ﴿مِنْهُمْ﴾ في الدُّنيا، وخالفني في أحكامي ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ البتّة ﴿جَهَنَّمَ﴾ أيُّها التّابع والمَتبوع ﴿مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لا ينجو مِنها أحدٌ منكم إذا لم تتوبوا.

---

١. في النسخة: وتتعرب.

٢ و٣. تفسير الرازي ١٤: ٤٢.

وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ[١٩ و ٢٠]

ثمّ أنه تعالىٰ بعد العِتاب على اللّعين وطَرْده مِن الجنة ووَعيده بالنّار، خاطب آدمعليه السلام لُطفاً به ورَحمة عليه بقوله: ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ﴾ حَوّاء ﴿الجَنَّة﴾ ودار الكَرامة ﴿فَكُلَا﴾ وتمتّعا ﴿مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ ومِن أيّ نوعٍ من الثّمار والنِّعم ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ -مَرّ تفسيره في البقرة[1] - ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ وزيّن في نظرهما قُرب الشّجرة والأكل منها ببَياناته المُموّهة ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا﴾ ويُبرز في نظرهما ﴿مَا وُورِيَ﴾ وسُتِر ﴿عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا﴾ وعَوراتهما، ويُخزيهما بانكشافها عند الملائكة.

قيل: إنّ اللّعين عِلم أنّ لهما سوءة، وأنّهما إن أكلا منها بدَتْ، بقراءته في كُتب الملائكة، ولَم يكُن آدم يعلَم ذلك.

أقول فيه: إنّ الله علّم آدمَ عِلمَ كُلّ شيء، فكيف يُمكن أن لا يعلم عَورة نفسه؟، معَ أنّه يلزَم أن يكون إبليس أعلم منه.

وقيل: لَم يرياها مِن أنفسهما، ولا أحدهما مِن الآخر.

وعن الصادق عليه السلام: «كانت سَوآتُهما لا تبدو لهما»، يعني كانت داخلة[2].

أقول: يُحتمل كون التّفسير مِن الرّاوي.

ثمّ بيّن سُبحانه كيفيّة وَسْوسة الشّيطان بقوله: ﴿وَقَالَ﴾ اللّعين لآدم وزَوجته: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ﴾ الأكل مِن ﴿هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ﴾ لعِلّةٍ مِن العِلَل ﴿إِلَّا﴾ كَراهةً مِن ﴿أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ لطيفين قويّين غنيّين عن ما يحتاج إليه البَشر مِن الطّعام والشّراب وغيرهما ﴿أَوْ تَكُونَا﴾ في الجنّة ﴿مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ والدّائمين، لا تخرُجون مِنها ولا تُموتون.

وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ * فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ

---

١. تقدم في تفسير الآية (٣٥) من سورة البقرة.

٢. تفسير العياشي ٢: ١٥٥٤/١٤٠، تفسير القمي ١: ٢٢٥، تفسير الصافي ٢: ١٨٦.

أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ * قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ[٢١ـ٢٣]

ثمّ أكّد اللّعين صِدق قوله ونُصحه بأن حلَف بالله لهما ﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾ كِذْباً: ﴿إِنِّي لَكُمَا﴾ فيما أقول ﴿لَمِنَ ٱلنَّاصِحِينَ﴾ والدّالّين لكما إلىٰ الخير والصّلاح ﴿فَدَلَّاهُمَا﴾ وحطّهما مِن المَنزلة العالية التي كانت لهما بطّاعة الله إلىٰ مَهوىٰ عصيانه الذي هُو أنزل المَراتب، وأجرأهما علىٰ أكل الشجرة المَنهيّ عنها ﴿بِغُرُورٍ﴾ وتسويل عظيم.

عن ابن عَبّاس: أي غرّهما باليمين، وكان آدم عليه السلام يظُنّ أن لا يحلِف أحدٌ بالله كاذباً[١].

قيل: إنّ اللّعين أوّل مَن حلَف بالله كاذباً.

فأكلا منها ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ﴾ ووجدا طَعم ثَمرها أخذتهما العُقوبة، فتهافت عنهما لِباسهما فوراً، و ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾ وظهرتْ عَوراتُهما بشُؤم العِصيان.

قيل: كان لِباسهما من حُلَل الجنّة.

وقيل: كان ظفراً في أشدّ اللّطافة واللّين والبَياض، وكان حاجباً من النّظر إلى أصل البدن، فلما أصابا الخطيئة نُزع عن بدنهما، وبقي علىٰ رؤوس الأصابع تذكيراً لِما فاتَ مِن النِّعم وتجديداً للنّدم[٢].

وقيل: كان لباسهما نُوراً يحول بينهما وبين النّظر إلىٰ البدن، فلمّا عصَيا زال النُّور عنهما[٣].

وعلىٰ أي تقدير، لمّا انكشفتْ عورتُهما، استقبحا ذلك واستحيَيا مِن الملائكة ﴿وَطَفِقَا﴾ وأخذا ﴿يَخْصِفَانِ﴾ ويرقعان ويلزّقان ﴿عَلَيْهِمَا﴾ وعلىٰ عوراتهما ورقةً فوق ورقة ﴿مِن وَرَقِ﴾ أشجار ﴿ٱلْجَنَّةِ﴾.

قيل: كان ذلك الورق مِن شجرة التّين، ولم تسترْهما شجرةٌ غيرها، فقال الله تعالى: كما سترتِ آدم أُخرج منك المعنى قبل الدّعوىٰ، وسائر الأشجار يخرُج منها الدّعوىٰ قبل المعنى، ولهذه الحِكمة يخرُج ثمرُ سائر الأشجار في أكمامها أوّلاً، ثمّ تظهر الثّمرة مِن أكمامها ثانياً، وثمرةُ التّين أوّل ما يبدو يبدو بارزاً[٤] مِن غير أكمام[٥].

عن الصادق عليه السلام: «لمّا أسكنه الله الجنّة وأباحها له إلّا الشجرة؛ لأنّه خلق خِلقة لا تبقىٰ إلّا بالأمر والنّهي والغذاء واللّباس والأكنان والتّناكح، ولا يُدرك ما ينفعه ممّا يضُرّه إلّا بالتّوقيف، فجاءه إبليس»

---

١. تفسير الرازي ١٤: ٤٩.
٢. تفسير روح البيان ٣: ١٤٥.
٣. تفسير روح البيان ٣: ١٤٦.
٤. كذا، الظاهر: أول ما تبدو تبدو بارزة، والذي في روح البيان: وشجرة التين أول ما يبدو ثمره يبدو بارزاً...
٥. تفسير روح البيان ٣: ١٤٦.

إلىٰ أن قال: «فقبِل آدم عليه السلام قوله، فأكلا مِن الشّجرة، وكان كما حكىٰ الله ﴿بدَت لهما سوآاتهما﴾ وسقط عنهما ما ألبسهما الله مِن لِباس الجنّة، وأقبلا يستّران مِن وَرق الجنّة». الخبر[1].

فدلّت الآية علىٰ قُبح كَشف العورة عقلاً مِن لدُن آدم عليه السلام.

﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا﴾ المالك لأمرهما عِتاباً وتوبيخاً: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن﴾ مقاربة ﴿ تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ قيل: ثمّ نادىٰ آدمَ عليه السلام ربُّه: أما خلقتُك بيدي، أما نفختُ فيك مِن رُوحي، أما أسجدتُ لك ملائكتي، أما أسكنتُك في جنّتي وفي جِواري؟! ﴿وَ﴾ ألم ﴿أَقُل لكُمَا﴾ حين أبىٰ الشّيطان عن السُّجود وقال: لأقعدنّ صِراطك المُستقيم: ﴿إِنَّ ٱلشَّيطَانَ لَكُمَا﴾ ولذُريّتكما ﴿عَدُوٌّ﴾ ومُبغض ﴿مُبِينٌ﴾ ظاهر العَداوة والبُغض؟! قيل: كان خَجلتُهما بهذا العِتاب أشدّ عليهما مِن كُلّ مِحنة[2]، فاعترفا بذَنبهما واعتذرا عن خطئهما و﴿قَالَا رَبَّنَا﴾ ومليكنا، إنّا ﴿ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾ بإيقاعها في العِصيان، وتَعريضها للحِرمان مِن الجِنان ﴿وَإِن لَمْ تَغفِرْ لَنَا﴾ ذَنبنا ﴿وَتَرْحَمْنَا﴾ بقَبول تَوبتنا برُبوبيّتك ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ﴾ زُمرة ﴿ٱلخَاسِرِينَ﴾ والمَغبونين، حيثُ بِعنا الجنّة ونَعيمها بأكلةٍ مِن الشّجرة.

قَالَ ٱهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ * قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ[٢٤ و ٢٥]

﴿قَالَ﴾ الله تعالىٰ: يا آدم، ويا حَوّاء، ويا إبليس ﴿ٱهْبِطُوا﴾ وانزِلوا مِن الجنّة، أو السّماوات إلىٰ الأرض، في حالِ ﴿بَعْضُكُمْ﴾ يكون ﴿لِبَعْضٍ﴾ آخر ﴿عَدُوٌّ﴾ ومُبغض إلىٰ الأبد ـ قيل: العَداوة ثابتة بين الجِنّ والإنس أبداً ـ ﴿وَ﴾ يكون ﴿لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ ومَتَاعٌ﴾ ومَكان وتَعيُّش ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ انقضاء آجالكم.

و﴿قَالَ﴾ تعالىٰ تقريراً لما سبق: ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ﴾ وتعيشون ﴿وَفِيهَا تَمُوتُونَ﴾ وتُقبَرون ﴿وَمِنْهَا﴾ بعدَ إحيائكم في القُبور ﴿تُخرَجُونَ﴾ لتُجزَون بماكنتُم تعملون.

يَا بَنِى آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآاتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ ٱللهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ[٢٦]

ثمّ لمّا ذكر الله قضيّة ابتلاء آدم بكَشف العَورة واضطراره إلىٰ سَترها بأوراق الأشجار، بيّن مِنّته علىٰ ذُريّته بخَلق اللّباس وسائر ما يحتاجون إليه، مُخاطباً لهم بقوله: ﴿يَا بَنِى آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ﴾ المطر

---

١. تفسير القمي ١: ٤٣، تفسير الصافي ٢: ١٨٦. ٢. تفسير روح البيان ٣: ١٤٦.

الذي يخرُج به القطنُ، ويُحيي الحَيوانات التي لها صُوف وشَعْر ووَبَر، فكأنّا أنزلنا إليكم ﴿لِبَاساً﴾ مِن السّماء كي ﴿يُوَارِى سَوْآتِكُمْ﴾ ويُغنيكم عن أوراق الأشجار، ويقطع عُذركم في كشف العَورة، ﴿وَ﴾ أنزلنا ﴿رِيشاً﴾ وزِينةً تتجمّلون بها بين النّاس.

وقيل: إنّ الرِّيش كُل ما يعيش به الإنسان مِن المَتاع والمأكول.

عن الباقر عليه السلام: «أمّا اللّباس: فالثّياب التي تلبسون، وأمّا الريش[1]: فالمَتاع والمال[2]» انتهى.

﴿وَ﴾ لكن ﴿لِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ والخوف مِن الله والالتزام بأحكامه ﴿ذَٰلِكَ﴾ اللّباس ﴿خيرٌ﴾ وأنفع لصاحبه ولابسه، وأقرب له إلىٰ الله تعالىٰ مِمّا خلق مِن اللِّباس.

عن الباقر عليه السلام: «مَا لِباسُ التّقوىٰ: فالعَفاف، إنّ العَفيف لا تبدو له عَورة وإن كان عارياً مِن الثّياب، والفاجر بادي العَورة وإن كان كاسياً مِن الثّياب، ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ يقول: والعَفاف خيرٌ»[3].

وعن ابن عبّاس: لِباسُ التّقوىٰ: العمل الصالح[4].

وعن جماعةٍ من المُفسّرين هُو الإيمان[5]، وقيل: هو السَّمْت الحَسن، و [قيل]: هُو الحياء[6]، وقيل: هُو السّكينة والإخبات والعمل الصالح[7].

وإنّما شبّه ا لتّقوىٰ باللِّباس لأنّه يستُر عُيوب صاحبه، ويحفَظه ممّا يضُرّه كما يستُر اللّباس عَورته ويحفَظه. وقيل: لأنّه يَقيه مِن العذاب[8].

وقيل: إنّ المُراد مِن لِباس التّقوىٰ: مُطلق اللّباس، والمُراد مِن قوله: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ يعني: من التَعرّي، فإنّ أهل الجاهليّة كانوا يتعبّدون بالتعرّي في الطّواف بالبيت[9].

وقيل: إنّه ما يُلبس في الحُروب كالدُّروع والجَواشن والمَغافِر.

وقيل: إنّه المَلبوسات المُعدّة للصّلاة.

عن القُمي: لِباسُ التّقوىٰ الثياب البياض[10].

---

١. في تفسير القمي: الرياش.

٢ و٣. تفسير القمي ١: ٢٢٦، تفسير الصافي ٢: ١٨٧.

٤. تفسير الرازي ١٤: ٥٢.

٥. تفسير الرازي ١٤: ٥٢، عن قتادة والسُّدي وابن جُريج.

٦ و٧. تفسير الرازي ١٤: ٥٢.

٨. تفسير روح ا لبيان ٣: ١٤٨.

٩. ورد في حديثٍ عن الامام الصادق عليه السلام أنه قال: «كانت سنة العرب في الحجّ، أنّه من دخل مكّة وطاف بالبيت في ثيابه لم يحلّ له إمساكها، وكانوا يتصدّقون بها ولا يلبسونها بعد الطواف، فكان من وافى مكّة يستعير ثوباً ويطوف فيه ثمّ يردّه، ومن لم يجد عارية اكترى ثياباً، ومن لم يجد عارية ولا كرىً، ولم يكن له إلّا ثوب واحد، طاف بالبيت عرياناً...» راجع بحار الأنوار ٣٥: ٧/٢٩١ عن تفسير القمي.

ومنه يتبين ما كانوا يتعبّدون بالتعري في الطواف، بل كانوا يتعرّون عند الاضطرار، وقيل: كانوا يطوفون عراة لأنّهم يقولون: لا نعبد في ثياب أذنبنا فيها. راجع بحار الأنوار ٨٣: ١٦٩، روح البيان ٣: ١٥٣.

١٠. تفسير القمي ١: ٢٢٥، تفسير الصافي ٢: ١٨٧.

ثمّ بيّن سبحانه أهمّ مَنافع خَلق اللّباس بقوله: ﴿ذٰلِكَ﴾ الإنزال للّباس، أو خلقه بعضٌ ﴿مِنْ آيَاتِ آللهِ﴾ ودلائله الدالّة علىٰ كمال قُدرته وفضله ورحمته علىٰ بني آدم ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ عِظَم نِعَمه، ويعرِفون غاية فضله وكَرَمه.

يَا بَنِي آدَمَ لَايَفْتِنَنَّكُمُ آلشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِنَ آلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَاتَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا آلشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ[٢٧]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعد بَيان شِدّة عَداوة الشّيطان لآدم ولذُريّته ونَهيه تعالىٰ عن اتّباعه، أخذ في نُصح بني آدم تأكيداً لنهيه السّابق بقوله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَايَفْتِنَنَّكُمُ آلشَّيْطَانُ﴾ ولا يغُرَنّكم بتَسويلاته، ولا يُوقعنّكم في البَليّة، بأن يمنعكم مِن دُخول الجنّة ﴿كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم﴾ آدم وحوّاء بإغوائه ﴿مِنَ الجَنَّةِ﴾ بعدَما كانا فيها، وعرَفتم أنّه مِن شِدّة عَداوته لهما كان ﴿يَنزِعُ﴾ ويسلُب ﴿عَنْهُمَا﴾ بإيقاعهما في معصيةٍ واحدة ﴿لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآاتِهِمَا﴾ ويُخزيهما عند الملائكة، معَ أنّ الله أكرمهما بغايةِ الكَرامة، فكيف أنتُم! ولا تتوهّموا حيث لا ترَونه أنّه بعيد منكم غافل عنكم[١] ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ﴾ بنفسه ﴿وقَبِيلُهُ﴾ وجُنوده الّذين هُم مِن نَسله ﴿مِنْ حَيْثُ لَاتَرَوْنَهُمْ﴾ ومِن مَكان لا تُبصِرونهم، ومِن المَعلوم أنّ الحذَر مِن عدُوٍّ يراكم ولا ترَونه أصعب، فكونوا منه علىٰ حذرٍ عظيم.

عن مُجاهد قال: قال الشّيطانُ: أُعطينا أربعَ خِصال: نرىٰ، ولا نُرىٰ، ونخرُج مِن تحت الثّرىٰ، ويعود شيخُنا فتىً[٢].

رُوي «أنّه يجري مِن ابن آدم مَجرىٰ الدّم»[٣].

ثمّ أنّه تعالىٰ أكّد النّهي عن اتّباعه ومُوالاته، والأمر بالتّحرُّز عنه، بالتّنبيه علىٰ عدَم المُناسبة والسِّنخيّة المُوجبة للمُوالاة بينه وبين المُؤمنين، بقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا آلشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ﴾ وأصدقاء ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بتَوحيدنا، ورِسالة رُسُلنا، ودار الجَزاء، للتّسانخ بينهم في الخَباثة وسُوء الأخلاق، والتّناسب في الطُّغيان والخِذلان، دون المُؤمنين الذين لا يُسانِخونهم ولا يُناسِبونهم.

وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَآللهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ آللهَ لَايَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى آللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ[٢٨]

---

١. زاد في النسخة: بأنكم لا ترونه.
٢. تفسير الرازي ١٤: ٥٤.
٣. تفسير روح البيان ٣: ١٥٠.

ثمّ شرَع في قَدح الّذين لا يُؤمنون بتَوحيده بقوله: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا﴾ فعلةً ﴿فَاحِشَةً﴾ متناهيةً في القُبح، كعِبادة الأصنام وتَحريم السّائبة وأخواتها، والطّواف بالبيت عُراةً، واعتُرض عليهم فيها ﴿قَالُوا﴾ مُستدلّين علىٰ صِحّة عَملهم مِن الفاحشة: إنّا ﴿وَجَدْنَا﴾ مرتكبين لتِلك الفاحشة مُواظبين ﴿عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾ وكبراءنا، وهُم كانوا أعقل وأعلم، فعلينا أن نُقلّدهم ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾.

ولمّا كان استدلالُهم بتقليد آبائهم في غاية الفَساد، لأنّه ظنّي، والظنّ لا يُغني مِن الحقّ شيئاً، أعرض سُبحانه عن ردّه، وأمر نبيّه ﷺ بردّ دليلهم الثاني بقوله: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمّد: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ حكيم في فِعاله، عليم بمَصالح عِباده، ومِن الواضح أنّ الله الحكيم ﴿لَا يَأْمُرُ﴾ عِباده ﴿بِالْفَحْشَاءِ﴾ والقبائح.

وقد ثبت بحُكم العُقول السّليمة، وبَيان الرُّسُل أنّ هذه الأعمال مِن أقبح القبائح، فكيف يُمكن أن يأمر الله بها، مع أنّكم لا ترَون الله، ولا تسمعون كلامه، ولا تعترفون برِسالة رَسُوله؟ فبأيّ دليلٍ علِمتُم بأمره؟ ثمّ أنكر عليهم الدّعوىٰ بقوله: ﴿أَتَقُولُونَ﴾ وتفترون ﴿عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ مِن أنّه أمركم بها.

عن الصادق عليه السلام قال: «مَن زعَم أنّ الله يأمُر بالفَحشاء فقد كذَب علىٰ الله، ومَن زعَم أنّ الخَير والشرّ إليه فقد كذَب علىٰ الله»[1].

عن العبد الصالح عليه السلام قال: «هَل رأيت أحداً زعَم أنّ الله أمر بالزّنا، وشُرب الخَمر، وشيء مِن هذه المحارم؟» فقيل: لا، قال: «ما هذه الفاحشة التي يدّعون أنّ الله أمرهم بها؟» قيل: الله أعلم ووليّه. فقال: «إنّ هذا في أئمّة الجَور؛ ادّعوا أنّ الله أمرهم بالائتِمام بقومٍ لَم يأمُرهم الله بالائتِمام بهم، فردّ الله عليهم، فأخبر أنّهم قالوا علىٰ الله الكَذِب»[2].

أقول: لعلّ المُراد أنّ الإنكار في الآية راجعٌ إلىٰ تقليد آبائهم.

قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ[٢٩]

ثمّ بيّن الله ما أمر به مِن المُحسّنات العقليّة بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد لهؤلاء المُشركين: ﴿أَمَرَ رَبِّي﴾ جميع النّاس ﴿بِالْقِسْطِ﴾ والعَدل في الأمور، والتوسُّط في المَعاش مِن المأكل والمَشرب واللِّباس وغيرها، وسائر ما تستحسنه العقول، عن ابن عبّاس: القِسط هُو قول: لا إلهَ إلّا الله[3] ﴿وَ﴾ أن ﴿أَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ﴾ واستقبلوا بمَقاديم أبدانكم إلىٰ القِبلة للدُّعاء والعِبادة ﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ وفي مكان

---

١. تفسير العياشي ٢: ١٥٥٨/١٤١، تفسير الصافي ٢: ١٨٨.
٢. تفسير العياشي ٢: ١٥٥٧/١٤٠، تفسير الصافي ٢: ١٨٨.
٣. تفسير الرازي ١٤: ٥٧.

للصلاة، أو في وقتها.

عن الصادق عليه السلام: «المَساجد مُحدَثه، فأمروا أن يُقيموا وُجوههم شَطر المَسجد الحرام»[١].

وعنه عليه السلام: «﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ يعني: الأئمّة»[٢].

أقول: هذا تأويل، والأوّل تفسير.

﴿وَٱدْعُوهُ﴾ واعبُدوه أيّها النّاس حالَ كَونكم **﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾** والطّاعة بصلاتكم وسائر عِباداتكم، مُبرّأين عن الشِّرك فيها.

ثمّ هدّدهم علىٰ مُخالفة أحكامه بقوله: **﴿كَمَا بَدَأَكُمْ﴾** الله وأنشأكم أوّلاً **﴿تَعُودُونَ﴾** إليه بأن يُحييكم بعدَ مَوتكم ثانياً، ليُجازيكم علىٰ أعمالكم وخُلوص نِيّاتكم.

عن ابن عبّاس: كما بدأ خَلقكم مُؤمناً أو كافراً، تعودون فيبعث المُؤمنَ مُؤمناً والكافرَ كافراً، فإنّ مَن خلَقه الله في أوّل الأمر للشّقاوة، أعمله بعمَل أهل الشّقاوة، وكانت عاقبتُه الشّقاوة، وإنّ [مَن] خلقه للسّعادة أعمله بعمَل أهل السعادة، وكانت عاقبتُه السّعادة[٣].

عن القُمّي رحمه الله: عن الباقر عليه السلام، في هذه الآية: «خلَقهم حينَ خلَقهم مُؤمناً وكافراً، وشقيّاً وسعيداً، وكذلك يعودون يومَ القِيامة مُهتدٍ وضالّ»[٤].

فَرِيقاً هَدَىٰ وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلاَلَةُ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا ٱلشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ ٱللهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُهْتَدُونَ[٣٠]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ بَيان ما أمر به مِن المُحسّنات المُسلّمة عند العُقول، بيّن اختلاف النّاس في قَبولِه وردِّه بقوله: **﴿فَرِيقاً﴾** مِن النّاس **﴿هدا﴾** هم الله إلىٰ الصّواب، ووفّقهم بقَبول أوامره بطِيب طِينتهم وقُوّة عُقولهم وحُسن أخلاقهم **﴿وَفَرِيقاً﴾** آخر مِنهم خذَلهم بخُبث طينتهم وضَعف عُقولهم، وسُوء أخلاقهم، ولذا **﴿حَقَّ﴾** واستقرّ **﴿عَلَيْهِمُ ٱلضَّلاَلَةُ﴾** عن الحقّ.

ثمّ بيّن غاية ضَلالتهم بقوله: **﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا﴾** وآختاروا **﴿ٱلشَّيَاطِينَ﴾** ومَرَدة الجِنّ والإنس **﴿أَوْلِيَاءَ﴾** وأحبّاء متبوعين لأنفسهم **﴿مِن دُونِ ٱللهِ﴾** الذي هُو وليّهم الحقّ، فيُخالفونه ويُطيعونهم فيما أمروهم به **﴿وَيَحْسَبُونَ﴾** مع ذلك **﴿أَنَّهُم﴾** في طاعتهم لهم **﴿مُهْتَدُونَ﴾** إلىٰ الحقّ، والحال أنّهم مُخطئون ضالّون.

---

١. التهذيب ٢: ١٣٦/٤٣، تفسير الصافي ٢: ١٨٨.

٢. تفسير العياشي ٢: ١٥٦٠/١٤١، تفسير الصافي ٢: ١٨٨.

٣. تفسير الرازي ١٤: ٥٨.

٤. تفسير القمي ١: ٢٢٦، تفسير الصافي ٢: ١٨٨.

عن (العلل): عنه عليه السلام: «﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا ٱلشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ ٱللهِ﴾ يعني: أئمّة دون أئمّة الحقّ»[١].

يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَٱشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ[٣١]

ثمّ لمّا أمر الله تعالىٰ بالقِسط في جميع الأُمور مِن المأكل والمَشرب واللّباس وغيرها، وبإقامة الصّلاة، رغّب عِباده بالتزيُّن في الصّلاة، ونهاهم عن الإسراف في المأكل والمَشرب بقوله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا﴾ واستصحبوا ﴿زِينَتَكُمْ﴾ وثِيابكم الجيّدة الطّاهرة، وسائر ما تتجمّلون به ﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ وفي وقت كُلّ صلاة.

في استحباب التزين والتمشيط عند كلّ صلاة

عن الحسن بن علي عليه السلام أنّه كان إذا قام إلىٰ الصّلاة لبِس أجود ثِيابه، فقيل له في ذلك، فقال: «إنّ الله جميلٌ يُحِبّ الجَمال، فأتجمّل لربّي» وقرأ الآية[٢].

وعن الباقر عليه السلام: «أي خُذوا ثِيابكم التي تتزيّنون بها للصّلاة في الجُمُعات والأعياد»[٣].

والقُمّي قال: في العِيدين والجُمعة يغتسل ويلبس ثِياباً بيضاً[٤].

وعن الرضا عليه السلام: «مِن ذلك التمشّط عند كُلّ صلاة»[٥].

وعن الصادق عليه السلام: «تمشّطوا فإنّ التمشّط يجلِب الرّزق، ويُحسّن الشّعْر، ويُنجز الحاجة، ويزيد في ماء الصُّلْب، ويقطع البلغم»[٦].

وقيل: إنّ المُراد بالزّينة: مُطلق اللّباس، وكان أهلُ الجاهلية مِن قبائل العرَب يطوفون بالبيت عُراة[٧]، وكانوا يقولون: لا نطوف في ثِيابٍ أصبنا فيها الذُّنوب ودنّسناها بها، فكان الرّجال يطوفون بالنّهار والنساء باللّيل عُراة[٨]، فأمرهم الله أن يلبَسوا ثِيابهم ولا يتعرّوا عندَ كُلّ مَسجد، سَواءً دَخلوه للصّلاة أو للطّواف، وكانوا قبل ذلك يدَعون ثيابهم وَراء المسجد عند قَصْد الطواف[٩].

عن الصادق عليه السلام، في هذه الآية. قال: «الغُسل عندَ لقاء الامام»[١٠].

---

١. علل الشرائع: ٨١/٦١٠ عن الصادق عليه السلام، تفسير الصافي ٢: ١٨٩.
٢. تفسير العياشي ٢: ١٥٧١/١٤٣، تفسير الصافي ٢: ١٨٩.
٣. مجمع البيان ٤: ٦٣٧، تفسير الصافي ٢: ١٨٩.
٤. تفسير القمي ١: ٢٢٩، تفسير الصافي ٢: ١٨٩.
٥. من لا يحضره الفقيه ١: ٣١٩/٧٥، تفسير الصافي ٢: ١٨٩.
٦. الخصال: ٣/٢٦٨، تفسير الصافي ٢: ١٨٩.
٧ و٨. في النسخة: عرياناً.
٩. تفسير روح البيان ٣: ١٥٣.
١٠. تهذيب الأحكام ٦: ١٩٧/١١٠، تفسير الصافي ٢: ١٩٠.

ثمّ قيل: كان مِن بِدَع المُشركين أنّهم لا يأكُلون في أيّام الحجّ إلّا قُوتاً، ويُعظّمون بذلك حَجّهم، فهم المُسلمون به، فنزلت[١] ﴿وَكُلُوا وَٱشْرَبُوا﴾ ممّا تشتهون مِن الطّعام والشّراب ﴿وَلا تُسْرِفُوا﴾ بالإفراط في الأكل والشُّرب، وإتلاف نِعَم الله، وبالتعدّي إلىٰ الحَرام وتَحريم الحَلال ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ لإسرافهم، ولا ينظُر إليهم نظر الرّحمة.

نُقل أنّه كان لهارون الرّشيد طبيب نَصراني، فقال لعلي بن حسين بن واقد: ليس في كِتابكم شيء مِن عِلم الطِبّ؟ فقال له: إنّ الله جمع الطِبّ كُلّه في نِصف آية في كِتابنا، قال: ما هي؟ قال: قوله تعالىٰ: ﴿وَكُلُوا وَٱشْرَبُوا وَلا تُسرِفُوا﴾، فقال النّصراني: وهَل يُؤثر عن رَسُولكم شيءٌ مِن الطِبّ؟ قال: نعم، جمع رَسُولنا ﷺ الطبّ في ألفاظٍ يسيرة، قال: ما هي؟ قال: قوله: «المِعدة بيتُ الدّاء، والحِمْية رأسُ كُلّ دَواء، وعوّدوا كُلّ جِسم ما اعتاده»، فقال النّصراني: ما ترك كتابُكم ولا نبيُّكم لجالينوس شيئاً[٢].

وعن ابن عبّاس رضي الله عنه: كُلْ ما شِئتَ، والبَس ما شِئتَ، ما أخطأك خَصلتان: السَّرَف والمَخيلة[٣].

عن الصادق عليه السلام قال: «مَن سأل النّاسَ وعنده ما يقُوته يوماً فهُو مِن المُسرفين»[٤].

قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللهِ ٱلَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَٱلطَّيِّبَاتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِى ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ كَذٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ[٣٢]

ثمّ لمّا طاف المُسلمون كُساةً[٥]، وأكلوا اللَّحْم والدَّسَم في أيّام الحجّ، عيّرهم المُشركون لأنّهم كانوا يطوفون عُراةً، ولا يأكُلون اللّحم والدّسَم حالَ الإحرام، فأمر الله نبيّه ﷺ بأن يرُدّهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد لهم: ﴿مَنْ﴾ الذي ﴿حَرَّمَ﴾ علىٰ النّاس ﴿زِينَةَ ٱللهِ﴾ مِن الألبسة الفاخرة ﴿ٱلَّتِى أَخْرَجَ﴾ بقُدرته ولُطفه ﴿لِعِبَادِهِ﴾ مِن الأرض والحَيوانات والمَعادن؛ كالقُطن والكتّان والحَرير والصُّوف والوَبَر والدُّروع وغيرها ﴿وَٱلطَّيِّبَاتِ﴾ والمُستلذّات ﴿مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ كاللُّحوم والدُّسوم والألبان وغيرها.

عن الصادق عليه السلام: «بعث أمير المؤمنين عليه السلام عبدَالله بن عبّاس إلىٰ ابن الكوّاء وأصحابه وعليه قَميص رَقيق وحُلّة، فلمّا نظروا إليه قالوا: يا ابن عبّاس، أنت خيرُنا في أنفسنا، وأنت تلبَس هذا اللّباس! قال: هذا أوّل ما أخاصِمكم فيه ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللهِ ٱلَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَٱلطَّيِّبَاتِ مِنَ

---

١. تفسير روح البيان ٣: ١٥٤.

٢. تفسير روح البيان ٣: ١٥٥، وفيه: لجالينوس طباً.

٣. تفسير روح البيان ٣: ١٥٥.

٤. تفسير العياشي ٢: ١٥٧٠/١٤٣، تفسير الصافي ٢: ١٩٠.

٥. في النسخة: كاسياً.

﴿ٱلرِّزْقِ﴾، وقال الله: **﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾**»[١].

وعنه عليه السلام، أنّه رآه سُفيان الثّوري وعليه ثِياب كثيرة القيمة حِسان، فقال: والله، لآتينّه ولأوبّخنّه، فدنا منه فقال: يا بن رَسُول الله، ما لبِس رَسُول الله صلى الله عليه وآله مِثل هذا اللباس، ولا عَلِيٌ ولا أحدٌ مِن آبائك؟ فقال [له]: «كان رَسُول الله صلى الله عليه وآله في زمانٍ قَترٍ مُقتِر، وكان يأخُذ لقَتْره وإقتاره، وإنّ الدُّنيا بعدَ ذلك أرخَتْ عزَاليها[٢]، فأحقّ أهلها بها أبرارُها ـ ثمّ تلا هذه الآية **﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللهِ﴾** الآية ـ فنحن أحقُّ مَن أخذ مِنها ما أعطاه الله، غيرَ أنّي يا ثَوري، ما ترى عليّ مِن ثوبٍ إنّما ألبَسُه للنّاس».

ثمّ اجْتذب يدَ سُفيان فجرّها إليه، ثمّ رفع الثّوب الأعلىٰ وأخرج ثوباً تحت ذلك علىٰ جِلده غَليظاً، فقال: هذا لبِستُه لنفسي، وما رأيتَهُ للنّاس. ثمّ جذب ثوباً علىٰ سُفيان أعلاه غليظٌ خشِن وداخلُ ذلك الثّوب ثوبٌ ليّن، فقال: «لبِستَ هذا الأعلىٰ للنّاس، ولبِستَ هذا لنفسك تَسُرّها»[٣].

وعنه عليه السلام، أنّه كان مُتكئاً علىٰ بعضِ أصحابه، فلقيه عبّاد بن كَثِير وعليه ثِياب مَرويّة[٤] حِسان فقال: يا أبا عبدالله، إنّك مِن أهل بيتِ النّبوة، وكان أبوك من كان[٥]، فما هذه الثّياب المَرويّة عليك؟ فلو لبِستَ دُون هذه الثّياب؟ فقال له: «ويْلك يا عبّاد **﴿مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللهِ ٱلَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَٱلطَّيِّبَاتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾** إنّ الله عزّ وجلّ إذا أنعم علىٰ عبدٍ نِعمةً أحبّ أن يراها عليه، ليسَ بها بأسٌ، وَيْلك يا عبّاد، إنّما أنا بَضعةٌ مِن رَسُول الله صلى الله عليه وآله فلا تُؤذِني». وكان عبّاد يلبَس ثَوبين مِن قُطن[٦].

وعنه عليه السلام أنّه قيل له: أصلحك الله، ذكرتَ أنّ عليَّ بن أبي طالب عليه السلام كان يلبَس [الخشن، يلبس] القميص بأربعةِ دَراهم وما أشبه ذلك، ونرىٰ عليك اللّباس الجيّد؟ فقال له: «[إنّ] عليَّ بن أبي طالب عليه السلام كان يلبَس ذلك في زمانٍ لا ينكر، ولو لبِس مثل ذلك اليوم لشُهّر به، فخيرُ لِباس كُلّ زمانٍ لِباسُ أهله، غير أنّ قائمنا إذا قام لبِس لِباس عَلِيّ عليه السلام وسار بسيرته»[٧].

ثمّ لمّا لَم يكُن للمُشركين جَوابٌ عن السؤال الإنكاري غير السُّكوت، أمر الله نبيّه صلى الله عليه وآله بالجَواب عن سُؤال نفسه بقوله: **﴿قُلْ﴾** يا محمّد: ما حرّم الله الزّينة والطّيّبات علىٰ أحدٍ، بَل **﴿هِىَ﴾** حَلال **﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾** بالأصالة **﴿فِى ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا﴾** وللمُشركين والكُفّار بتَبعهم، وتكون للمُؤمنين حالَ كَونها **﴿خَالِصَةً﴾**

---

١. الكافي ٦: ٦/٤٤١، تفسير الصافي ٢: ١٩١.
٢. العَزالي: جمع عَزْلاء، وهو مَصَبُّ الماء مِن القِربة ونحوها، وأرختْ الدنيا عزاليها: بمعنىٰ كَثُر نعيمُها.
٣. الكافي ٦: ٨/٤٤٢، تفسير الصافي ٢: ١٩١.
٤. نسبةً إلى مَرو، وهي بلدة بخراسان.
٥. في الكافي: وكان.
٦. الكافي ٦: ١٣/٤٤٣، تفسير الصافي ٢: ١٩٢، وفيه: ثوبين قطريين.
٧. الكافي ٦: ١٥/٤٤٤، تفسير الصافي ٢: ١٩٢.

ومُختصَةً [بهم] لا يشركهم فيها الكُفّار ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ﴾ وعالَم الآخرة ﴿كَذٰلِكَ﴾ التَفصيل والتَبيين الواضح ﴿نُفَصِّلُ﴾ ونبيّن ﴿ٱلآيَاتِ﴾ الدالّة على المَعارف والأحكام ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ حُسن العِرفان والطّاعة دون غيرهم لعدَم أهليّتهم للانتفاع بها.

قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَاحِشَ مَاظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى ٱللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ[٣٣]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعد إبطال حُرمة ما حرّم المُشركون، أمر نبيّه ﷺ ببَيان ما حرّم الله بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ﴾ علىٰ النّاس ﴿ٱلْفَوَاحِشَ﴾ والقبائح التي بلغ قُبحها النّهاية، سَواءً ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ كالزّنا المُعلَن به، وغيرِه مِن الكبائر ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ وخفي كالزّنا في السِرّ ﴿وَٱلإِثْمَ﴾ وما توسّط في القُبح كالصّغائر ﴿وَٱلبَغْىَ﴾ والإضرار بالغير نفساً أو مالاً ﴿بِغَيْرِ ٱلحَقِّ﴾ ومُجوّز له ﴿وَأَن تُشْرِكُوا بِاللهِ﴾ في اُلوهيّته وعِبادته شيئاً لَم يحكُم العقلُ بجَواز إشراكه وعِبادته، و﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ﴾ الله ﴿بِهِ﴾ إليكم ﴿سُلْطَاناً﴾ وبُرهاناً.

عن الكاظم عليه السلام: «أمّا ﴿الفَوَاحِشَ﴾ فإنّها الزّنا، وأمّا قوله ﴿مَا ظَهَرَ مَنهَا﴾ يعني: الزّنا المُعلَن به ونَصب الرّايات التي كانت ترفعها الفواجر للفواحش في الجاهليّة. وأمّا قوله: ﴿مَا بَطَنَ﴾ يعني ما نُكح مِن أزواج الآباء؛ لأنّ النّاس كانوا قبل أن يُبعث النبي ﷺ إذا كان للرُّجل زَوجة ومات عنها تزوّجها ابنُه من بعده إذا لم تكن اُمّه، فحرّم الله عزّ وجلّ ذلك. وأمّا ﴿الإثمَ﴾ فإنّها الخَمر بعينها، وقد قال الله عزّ وجلّ في موضعٍ آخر: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾[١]. فأمّا ﴿الإثم﴾ في كِتاب الله فهي الخَمر والميسر[٢]، وإثمهما كبير، وأمّا ﴿البغي﴾ فهو الزّنا سِراً»[٣].

أقول: في الرّواية ما لا يخفى من الخَلَل، ولا يبعُد حملُها علىٰ بَيان أظهر المصاديق الشّائعة بين المُشركين في زَمان النُزول. نعَم فسّر جمعٌ مِن المُفسّرين ﴿الفَوَاحِشَ﴾ بخُصوص الزّنا بدَعوىٰ انْصراف الفاحشة في العُرف إليه، ولقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾[٤]، و﴿مَا ظَهَرَ﴾ بالزّنا العَلانية، أو القُبلة والمُلامسة، و﴿مَا بَطَنَ﴾ بالسِرّ منه، أو بالدُّخول، و﴿الإثمَ﴾، بخُصوص الخَمر و﴿البَغيَ﴾ بالكِبْر والظُّلم علىٰ الغير[٥]. وفي الكُلّ نظرٌ.

---

١. البقرة: ٢١٩/٢.
٢. زاد في تفسير العياشي: فهي النَّرد.
٣. الكافي ٦: ١/٤٠٦، تفسير العياشي ٢: ١٥٨٠/١٤٦، تفسير الصافي ٢: ١٩٣.
٤. النساء: ٢٢/٤.
٥. راجع: تفسير الرازي ١٤: ٦٥ و٦٦.

وعلىٰ ما قُلنا مِن عُموم الفواحش والإثم، يكون إفرادُ البَغي بالذِّكْر معَ دُخوله في الأوَلين، للمُبالغة في الزَّجْر عنه. وتَقييد البغي ﴿بِغَيْرِ الحَقِّ﴾ معَ دُخول القَيد في مَفهومه للتّأكيد. وتقييد الاشتراك بـ ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلطَاناً﴾ للتَهكُّم وللإشعار بعدَم جَواز الالتزام بشيءٍ لا حُجَة عليه.

عن الصادق عليه السلام: «أنّ القُرآن له ظَهرٌ وبَطن، فجميع ما حرَم الله في القُرآن هُو الظّاهر، والباطن مِن ذلك أئمّة الجَور، وجميع ما أحلّ الله في الكِتاب هُو الظاهر، والباطن [من ذلك] أئمّة الحق»[١].

﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي تتقوّلوا وتفتروا.

عن الباقر عليه السلام أنّه سُئل: ما حُجَة الله علىٰ العِباد؟ فقال: «أن يقولوا ما يعلمون، ويقِفوا عندَ ما لا يعلمون»[٢].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام، في وصيّته لابنه محمّد بن الحنفية: «يا بُني، لا تقُل ما لا تعلم، بَل لا تقُل كُلّ ما تعلم»[٣].

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ [٣٤]

ثمَ لمَا بيّن الله تعالىٰ مُعظم مُحرَماته، أو بعضَها بنحوِ العُموم والإجمال وبعضَها بنحوِ التَفصيل، هدّد النّاس علىٰ مُخالفتها بقوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ مِن الأمَم وطائفة مِن الطوائف ﴿أَجَلٌ﴾ وأمدٌ مُعيّن في عِلم الله واللّوح المَحفوظ، يعيشون فيه ويُمهَلون إلىٰ انقضائه بمقتضىٰ الحِكمة البالغة ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾ وانقضتْ مُدّةُ عَيشهم ومُهلتهم في الدُّنيا، أتاهم الموتُ أو عذابُ الاسْتئصال، إذاً ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ ولا يُمهلون ﴿سَاعَةً﴾ وزَماناً قليلاً ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ ولا يُعجَلون، ولَو كانوا طالبين للتّأخير والتّقديم، مُشتاقين إليهما. فاسْتنهِضوا الفُرصة ولا تأمنوا مَكْرَ الله وبأسه.

عن ابن عبّاس: أنّ معنىٰ الآية أنّ الله أمهل كُلّ اُمّة كذّبتْ رَسُولَها إلىٰ وقتٍ مُعيّن، وهُو تعالىٰ لا يُعذّبهم إلىٰ أن ينظُروا ذلك الوقت الذي يصِيرون فيه مُستحقّين لعذاب الاستئصال، فإذا جاء ذلك الوقت نزل ذلك العذاب لا محالة[٤].

عن الصادق عليه السلام: «هُو الذي سُمّي لمَلَكِ الموت في ليلة القدر»[٥].

وعنه عليه السلام: «تُعدّ السِّنين، ثمّ تُعَدّ الشُّهور، ثمّ تُعدّ الأيام، ثمّ تُعدّ الأنفاس، فإذا جاء أجلُهم لا

---

١. تفسير العياشي ٢: ١٥٧٨/١٤٥، الكافي ١: ١٠/٣٠٥، تفسير الصافي ٢: ١٩٤.
٢. التوحيد: ٢٧/٤٥٩، تفسير الصافي ٢: ١٩٤.
٣. من لا يحضره الفقيه ٢: ١٦٢٧/٣٨١، تفسير الصافي ٢: ١٩٤.
٤. تفسير الرازي ١٤: ٦٧.
٥. تفسير العياشي ٢: ١٥٨١/١٤٧، ولم يرد فيه: في ليلة القدر، تفسير الصافي ٢: ١٩٤.

يستأخرون ساعةً ولا يستقدِمون»[١].

يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ آتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُون * وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ[٣٥و ٣٦]

ثمّ بعد بَيان المُحرَمات والتّهديد علىٰ مُخالفتها، بيّن الله تعالىٰ وُجوب مُتابعة الرُّسُل، ووعدهم بالثّواب علىٰ طاعتهم والعِقاب علىٰ تَكذيبهم ومُخالفتهم بقوله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ﴾ وإذا جاءكم مِن قِبَلي ﴿رُسُلٌ مِنكُمْ﴾ جِنساً؛ ليكون إرشادهم أقطع للعُذْر، وأبين للحُجّة، وهُم ﴿يَقُصُّونَ﴾ ويتلُون ﴿عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾ مِن الكُتب السّماويّة ودَلائل التّوحيد، ويُبيّنون أحكام شريعتي ﴿فَمَنِ آتَّقَىٰ﴾ مُخالفتي في الإيمان بهم ومُخالفتهم في أحكامهم ﴿وَأَصْلَحَ﴾ عقائده وأخلاقه وأعماله بامْتِثاله أوامرهم، وانْتهائه عمّا نهَوا عنه ﴿فَلَا خَوفٌ عَلَيْهِمْ﴾ بوَجهٍ مِن الوُجوه مِمّا يُصيب العُصاة مِن عذابِ الآخرة ﴿وَلَاهُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أبداً علىٰ ما فاتهم مِن الدُّنيا، لاسْتغراقهم في اللّذّات الرُّوحانيّة في الدُّنيا، والنِّعَم التي أعدّها الله للمُتّقين في الآخرة.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الدالّة علىٰ تَوحيدي ورِسالة رُسُلي ﴿وَٱسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ وترفَعوا عن الإيمان بها، وتَجافَوا عن قَبُولها تعظُّماً ﴿أُولَـٰئِكَ﴾ البعيدون عن رَحمتي ﴿أَصْحَابُ ٱلنَّارِ﴾ ومُلازموها ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ مُقيمون أبداً، لا خَلاص لهم منها ولا مَناص.

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِنَ ٱلْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ * قَالَ ٱدْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنْسِ فِى ٱلنَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ٱدَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلٰكِن لَا تَعْلَمُونَ * وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ[٣٧ـ ٣٩]

---

١. الكافي ٣: ٤٤/٢٦٢، تفسير الصافي ٢: ١٩٤.

ثمّ بالغ سُبحانه في ذمّ المُكذّبين للرُّسُل، والمفترين علىٰ الله بالبِدع والأحكام الفاسدة الباطلة بقوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ علىٰ نفسه، وأخسر في تِجارته ﴿مِمَّنِ افْتَرَىٰ﴾ وتقوّل ﴿عَلَى اللهِ﴾ قولاً ﴿كَذِباً﴾ ونسَب إليه حُكماً باطلاً، كحُرمة البَحِيرة وأخواتها ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ وأنكر دلائله الدالّة علىٰ تَوحيده في الألوهيّة والعِبادة والعَظَمة، ورِسالة رُسُله، ودار جَزائه.

﴿أُوْلَئِكَ﴾ البالغون في الظُّلم غايته ﴿يَنَالُهُمْ﴾ ويصِل إليهم ﴿نَصِيبُهُم مِنَ﴾ الشّقاوة كما عن ابن عبّاس [١]، أو مِن العُقوبات كما عن القُمّي [٢]، أو مِن الأرزاق والأعمار والحُظُوظ الدُّنيويّة المكتوبة لهم في ﴿الْكِتَابِ﴾ ولَوح القضاء.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ﴾ ونزلتْ عليهم ﴿رُسُلُنَا﴾ والمَبعوثون مِن قِبَلنا مِن الملائكة المُوكّلين بقَبض الأرواح، لأجل أنّهم ﴿يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ ويقبِضون أرواحهم، إذَن ﴿قَالُوا﴾ لهم توبيخاً وتقريعاً: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ في حَياتكم ﴿تَدْعُونَ﴾ وتعبُدونه ﴿مِن دُونِ اللهِ﴾ وبَدلاً مِنه، مِن الأصنام والكواكب وغيرها، وترجُون نَفعه لكم عندَ الشّدائد؟ فادْعُوهم الآن ليُنجوكم مِن أيدينا ﴿قَالُوا﴾ في جَوابهم تحسُّراً وتندُّماً: إنّهم قد ﴿ضَلُّوا﴾ وغابوا ﴿عَنَّا﴾ ولا ينفعوننا اليومَ ﴿وَشَهِدُوا﴾ واعترفوا ﴿عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ الخبيثة ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا﴾ في ا لدُّنيا ﴿كَافِرِينَ﴾ بالله، عابدين لما لا يستحقّ العِبادة.

قيل: هذا بَيان سُوء حالهم في القيامة، والمُراد مِن (الرُّسُل) ملائكة العَذاب، ومِن (التَّوفية) جمعُهم واسْتكمال عِدّتهم للحَشر إلىٰ النّار، حتّىٰ لا ينفلتْ مِنهم أحدٌ [٣] إذن ﴿قَالَ﴾ الله تعالىٰ، أو خازِن النّار: ﴿ادْخُلُوا﴾ أيُّها المُشركون اليومَ ﴿فِي﴾ زُمرة ﴿أُمَمٍ﴾ وجَماعات مُشركين ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ ومضتْ تِلك الأُمَم في الأزمنة التي كانت ﴿مِن قَبْلِكُم﴾ في الدُّنيا وهُم كانوا ﴿مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ جِنساً ﴿فِي النَّارِ﴾ فيدخُلونها فوجاً بعدَ فوج، وأُمّةً بعدَ أُمّة.

فلمّا رأوا سُوء عاقبة الشِّرك ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ﴾ منهم في النّار ﴿لَعَنَتْ﴾ تِلك الأُمّة ﴿أُخْتَهَا﴾ وشَريكتها في الكُفر والضّلال، وتبرّأت مِن الجَماعة المُوافقة لها في الشِّرك، فهُم يكونون علىٰ تِلك الحالة ﴿حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا﴾ وتلاحقوا في النّار واجتمعوا ﴿فِيهَا جَمِيعاً﴾ وكافّة ﴿قَالَتْ أُخْرَاهُمْ﴾ دُخولاً وأدناهم مَنزلة، وهُم الأتباع والسَّفِلة، تخفيفاً للعذاب عن أنفسهم، وازدياداً ﴿لِأُولَاهُمْ﴾ دَخولاً وأعلاهم مَنزلة في الدُّنيا مِن الرُّؤساء والقادة: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ﴾ الرُّؤساء والكُبراء ﴿أَضَلُّونَا﴾ عن الدِّين الحقّ، بأن سَنُّوا لنا سُنّة سيّئة فاقْتدينا بهم، ﴿فَآتِهِمْ﴾ وأنزل بهم ﴿عَذَاباً ضِعْفاً﴾ مضاعفاً ﴿مِنَ

---

١. تفسير الرازي ١٤: ٧١.
٢. تفسير القمي ١: ٢٣٠، تفسير الصافي ٢: ١٩٥.
٣. تفسير الرازي ١٤: ٧١.

﴿ٱلنَّارِ﴾ حيثُ إنّهم ضَلّوا بأنفسهم عن الحقّ، وأضلّوا أتباعهم ﴿قَالَ﴾ الله تعالىٰ أو خازن جهنّم: ﴿لِكُلٍّ﴾ مِن المَتبوع والتّابع مِنكم عذابٌ ﴿ضِعْفٌ﴾ أمّا الرُّؤساء فبضَلالهم وإضلالهم، وأمّا الأتباع فبكُفرهم وتَقليدهم ﴿وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ قَدْره وشِدّته لكلّ فَريق.

﴿وَقَالَتْ أُولَاهُمْ﴾ وقادتُهم مُخاطبين ﴿لِأُخْرَاهُمْ﴾ وأتباعهم بعد استماعهم جَواب الله أو الخازن: ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ﴾ أيُّها الأتباع إذَن ﴿عَلَيْنَا﴾ شيءٌ ﴿مِن فَضْلٍ﴾ ومَزِيّة بخفّة عَذابكم وشِدّة عَذابنا، بَل كُلّنا مُتساوون في العذاب قَدْراً وشِدّةً، لأنّا ما ألجأناكم إلىٰ الكُفر، بَل اتّبعتُم هوىٰ أنفسكم كما اتّبعنا ﴿فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ﴾ واطْعَموا طَعْمَه ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ لأنفسكم مِن الكُفر والعِصيان.

عن القُمّي: قالوا ذلك شَماتةً بهم[1].

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَاتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ ٱلسَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ[٤٠]

ثمّ بالغ سُبحانه في تَهديد المُشركين والمُكذّبين للرُّسُل بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الدالّة علىٰ التّوحيد والرِّسالة والبَعث ﴿وَٱسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ وامتنعوا ترفُّعاً عن الإقرار بها ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ ٱلسَّمَاءِ﴾ حتّىٰ تُرفع إليها أدعيتُهم وأعمالُهم في حَياتهم، وأرواحُهم بعدَ مَوتهم.

عن الباقر عليه السلام: «أمّا المُؤمنون فتُرفع أعمالُهم وأرواحُهم إلىٰ السّماء فتُفتح لهم أبوابُها، وأمّا الكافر فيُصعَد بعَمله ورُوحه، حتّىٰ إذا بلغ السّماء نادىٰ مُنادٍ: اهْبِطوا إلىٰ سِجّين؛ وهُو وادٍ بحَضْرموت يقال له بَرهوت»[2].

ورُوي أنّ رُوح المُؤمن يُعرَج بها إلىٰ السّماء، فيُستفتح لها فيُقال: مَرحباً بالنّفس الطيِّبة التي كانت في الجَسد الطَّيِّب، ويقال لها ذلك حتّىٰ تنتهي إلىٰ السماء السّابعة، ويُستفتح لرُوح الكافر فيُقال لها: ارْجِعي ذَميمة[3]، فإنّه لا تُفتَح لك أبواب السّماء.

﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ في الآخرة أبداً ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ﴾ ويدخُل ﴿ٱلْجَمَلُ﴾ مع عِظَم جُثّته ﴿فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ وثَقْب الإبرة، وهذا مُحال، فدُخول الكافر في الجنّة أيضاً مُحال ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ الحِرمان مِن الجنّة ﴿نَجْزِي﴾ فِرَق ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ والعُصاة.

---

١. تفسير القمي ١: ٢٣٠، تفسير الصافي ٢: ١٩٦.
٢. مجمع البيان ٤: ٦٤٦، تفسير الصافي ٢: ١٩٦.
٣. تفسير روح البيان ٣: ١٦٠.

لَهُم مِن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّالِمِينَ * وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَانُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا أُولٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ[٤١ و ٤٢]

ثمّ بيّن شِدة عَذابهم بقوله: ﴿لَهُم مِن﴾ نار ﴿جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ وفِراش يقعُدون ويضطجعون عليه ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ﴾ وعلىٰ أجسادهم ﴿غَوَاشٍ﴾ وأغطية مِن النّار فيحيط بهم العذابُ مِن كُلّ جانب ﴿وَكَذٰلِكَ﴾ الجَزاء الفظيع والعذاب الشديد ﴿نَجْزِى﴾ القوم ﴿ٱلظَّالِمِينَ﴾ علىٰ أنفسهم[1] باختيار الشِّرك ومُعارضة الأنبياء.

ثمّ أنّه تعالىٰ علىٰ دأبه في الكِتاب العظيم بعدَ وَعيد الكُفّار، شَرع في وَعْد المُؤمنين بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ورُسُله، ﴿وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ﴾، وواظبوا علىٰ الحَسَنات وتَرْك السيّئات بمقدارٍ وسَعَةٍ بحيثُ لا يشُقّ عليهم[2]، فإنّا ﴿لَانُكَلِّفُ نَفْساً﴾ مِن النُّفوس ﴿إِلَّا﴾ تكليفاً يكونُ امْتثالُه والقِيام به ﴿وُسْعَهَا﴾ ودُون طاقتها، بحيثُ لا يكون حَرَجٌ عليها، ﴿أُولٰئِكَ﴾ العِباد المُطيعون ﴿أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ﴾ ومُلازمو النِّعمة ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ دائمون لا زَوال لِنعَمهم ولا نَفاد.

وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَارُ وَقَالُوا ٱلْحَمْدُ لِلّٰهِ ٱلَّذِى هَدَانَا لِهٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا ٱللهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ[٤٣]

ثمّ بعدما بشّرهم ربُّهم بطِيب المَسكن ودَوام النِّعمة، بشّرهم بفَراغ القلب مِن الآلام الرُّوحانيّة، وصَفاء المَنظر بقوله: ﴿وَنَزَعْنَا﴾ وسلَبنا ﴿مَا فِى صُدُرِهِم﴾ وقُلوبهم ﴿مِنْ غِلٍّ﴾ وحِقدٍ كان لهم علىٰ المُؤمنين في الدُّنيا، وحَسَدٍ علىٰ ما أتىٰ الكُمَّلين في الآخرة من فَضله وإحسانه، فلا يكون بينهم إلّا التَوادُد والتّحابُب، فهُم إخوان علىٰ سُرُرٍ مُتقابلين، كما لا يكون بين الكُفّار في جهنّم إلّا التَباغُض والتَنافُر بحيثُ يلعَن بعَضُهم بعضاً.

القُمّي: عن الباقر عليه السلام: «العَداوة تُنزع مِنهم»، أي مِن المُؤمنين في الجنّة[3].

وأمّا صَفاء مَنظرهم بأنّه ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ﴾ وأسفل قُصورهم ﴿ٱلْأَنْهَارُ﴾ الكثيرة، أو الأربعة، وقيل: إنّ جَرَيان الأنهار كِناية عَن المُكاشفات والفُيوضات الرُّوحانيّة ﴿وَقَالُوا﴾ بعدَ مُشاهدة مَنازلهم

---

١. كذا، والظاهر: الظالمين أنفسهم.
٢. في النسخة: عليه.
٣. تفسير القمي ١: ٢٣١، تفسير الصافي ٢: ١٩٧.

وكَثرة فَضل الله عليهم: **﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَانَا﴾** بفضله إلىٰ مَعرفته، وأرشدنا بتوسُّط رَسُوله لهذا الدِّين القَويم، وأوصلنا بتوفيقه **﴿لِهَٰذَا﴾** الجَزاء العَظيم **﴿وَمَا كُنَّا﴾** في الدُّنيا **﴿لِنَهْتَدِىَ﴾** بعُقولنا وسَعينا **﴿لَوْلَا أَنْ هَدَانَا ٱللَّهُ﴾** بلُطفه إليه.

عن (الكافي): عن الصادق عليه السلام، في هذه الآية: «إذا كان يومُ القِيامة دُعي النبيّ صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين والأئمة مِن وُلده عليهم السلام فيُنصَبون للنّاس، فإذا رأتْهم شيعتُهم قالوا: **﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَانَا لِهَٰذَا﴾** الآية، يعني: هَدانا إلىٰ وَلاية أمير المؤمنين والأئمة مِن وُلده عليهم السلام»[1].

ثمّ يذكُرون عِلّة انْتِساب هِدايتهم إلىٰ الله بقوله: **﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا﴾** مِن جانب الله **﴿بِالْحَقِّ﴾** والدِّين الصِّدق، أو بالمُعجزات ودَلائل الصِّدق، فاهْتدينا بإرشادهم، وصدّقناهم واتّبعناهم بتَوفيقه. وإنّما يقولون ذلك نَشاطاً وسُروراً بإنجاز ما وعَدهم الله علىٰ لِسان رُسُله، وفرحاً بانْقِلاب يَقينهم البُرهاني باليقين الشُّهودي **﴿وَنُودُوا﴾** مِن قِبَل الله عند رُؤيتهم الجنّة، أو بعد اسْتقرارهم فيها إظهاراً للمِنّة عليهم: **﴿أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ﴾** التي وُعد المُتقون وأنتم **﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾** ومُلّكتموها **﴿بِمَا كُنتُمْ﴾** في الدُّنيا **﴿تَعْمَلُونَ﴾** لطاعة الله ومَرضاته، فادْخُلوها، أو أقيموا فيها خالدين.

عن النبيّ صلى الله عليه وآله: «ما مِن أحدٍ إلّا وله مَنزل في الجنّة ومَنزل في النّار، فأمّا الكافر فيرثُ المُؤمنَ مَنزلَه في النّار، والمُؤمنُ يرثُ الكافرَ منزلَه في الجنّة، فذلك قوله: **﴿أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾**»[2].

وعنه صلى الله عليه وآله: «ليس مِن كافرٍ ولا مُؤمنٍ إلّا وله في الجنّة والنّار مَنزل، فإذا دخل أهلُ الجَنّة الجنّة وأهلُ النّارِ النّارَ، رُفعت الجنّةُ لأهل النّار، فنظروا إلىٰ منازلهم فيها فقيل: لهم هذه مَنازلكم لَو عمِلتُم بطاعة الله، ثمّ يُقال لأهل الجنّة: رِثُوهم[3] بماكنتُم تعملون، فيُقسّم بين أهل الجنّة منازلهم»[4].

وعن الصادق عليه السلام[5]، في هذه الآية: «أنّ أهل الجنّة إذا سِيقوا إلىٰ الجنّة وجدوا عندَ بابها شَجَرة، في أصل ساقها عينان؛ فشربوا مِن إحداهما فيُنزع ما في صُدورهم مِن غِلٍّ، وهُو الشّراب الطّهور، واغتسلوا مِن الأخرىٰ فجرَتْ عليهم نَضرَةُ النّعيم، فلَم يَشْعَثوا ولَم يَشْحَبوا، ويُبشّرهم خَزَنَةُ الجنّة قبل أن يدخُلوها بأن يقولوا لهم: **﴿أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾**، فإذا دخلوا فيها قالوا: **﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَانَا﴾** الآية»[6].

وفي الخبر: «يُقال لهم: جُوزوا الصِّراط بعَفْوي، وادخُلوا الجنّة برَحمتي، واقتسِموها بأعمالكم»[7].

---

١. الكافي ١: ٣٣/٣٤٦، تفسير الصافي ٢: ١٩٧.
٢. مجمع البيان ٤: ٦٤٩، تفسير الصافي ٢: ١٩٧.
٣. رِثُوهم: فعل أمر من ورِث يرث.
٤. تفسير الرازي ١٤: ٨٢.
٥. في روح البيان: عن السدّي.
٦. تفسير روح البيان ٣: ١٦٣.
٧. تفسير روح البيان ٣: ١٦٣.

وَنَادَىٰ أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَابَ ٱلنَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَاوَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً فَهَلْ وَجَدْتُّم مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَعْنَةُ ٱللهِ عَلَى ٱلظَّالِمِينَ[٤٤]

ثمّ لمّا بيّن الله تعالىٰ وعيد الكُفّار بالنّار ووَعْد المُؤمنين بالجنّة، ذكر مُخاطبة المُؤمنين للكُفّار بقوله: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ﴾ بعدَ اسْتِقرارهم فيها، وإشرافهم على جهنّم فرحاً بما هُم فيه مِن النِّعم ﴿أَصْحَابَ ٱلنَّارِ﴾ المُنكرين للتّوحيد والرِّسالة والحَشر، توبيخاً وشَماتةً لهم: ﴿أَنْ قَدْ وَجَدْنَا﴾ وشهِدنا بالعَيان ﴿مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا﴾ في الدُّنيا بلِسان رَسُوله مِن الثّواب والكَرامة علىٰ الإيمان والطاعة ﴿حَقّاً﴾ وصِدقاً ﴿فَهَلْ وَجَدتُّم﴾ اليوم، وشاهدتُم أيّها المُكذبون ﴿مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ﴾ مِن العِقاب الشّديد علىٰ الكُفر به وعصيانه وتَكذيب رُسُله ﴿حَقّاً﴾؟ وإنّما لَم يقُل سُبحانه: (ما وعدكم ربكم) إشعاراً بعدم قابليّتهم لأن يكونوا طَرَفاً لوَعد الله وتوجُّهه ﴿قَالُوا﴾ وهُم في النّار تحسُّراً وتندُّماً: ﴿نَعَمْ﴾ وجدنا جميعَ ما وعده حقّاً ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ مِن قِبَل رَبِّ العِزّة ﴿بَيْنَهُمْ﴾ وفي وَسَطهم، أو مِن بينهم أذاناً يُسمِع الخلائق ـ كما عن القُمّي[١] ـ ﴿أَن لَعْنَةُ ٱللهِ﴾ وعَذابه ثابتٌ أو مُستقرٌ ﴿عَلَىٰ﴾ الكفارين ﴿ٱلظَّالِمِينَ﴾ على أنفسهم بتَعريضها للهَلاك.

عن الكاظم والرضا عليهما السلام: «المُؤذّن أميرُ المؤمنين عليه السلام»[٢].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «أنا ذلك المُؤذّن»[٣].

ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُم بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ[٤٥]

ثمّ ذَمّ الله الظّالمين بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ﴾ النّاس ﴿عَن سَبِيلِ ٱللهِ﴾ ودِين الإسلام، ويمنعونهم عن قَبوله بالقَهر أو التّطميع أو غيرهما مِن الحِيل ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً﴾ ويطلُبون فيها مَيلاً وانْحِرفاً عمّا هي عليه مِن الاستِقامة، بإلقاء الشُّكوك والشُّبهات فيها وفي دلائل صِحّتها ﴿وَهُم بِالآخِرَةِ﴾ ودار الجَزاء ﴿كَافِرُونَ﴾ جاحدون. وفيه إشعارٌ بعِلّة ما سبق مِن سُوء أعمالهم.

وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوا أَصْحَابَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ * وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ

---

١. تفسير القمي ١: ٢٣١، تفسير الصافي ٢: ١٩٧.

٢. تفسير العياشي ٢: ١٥٨٣/١٤٧، الكافي ١: ٧٠/٣٥٢، تفسير القمي ١: ٢٣١، تفسير الصافي ٢: ١٩٧.

٣. مجمع البيان ٤: ٦٥١، تفسير الصافي ٢: ١٩٨.

تِلْقَاءَ أَصْحَابِ ٱلنَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَاتَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ[٤٦ و ٤٧]

ثمّ لمّا حكىٰ الله تعالىٰ مُخاطبة أهل الجنّة لأهلِ النّار، وكان مَجال توهُّم القُرب بينهما، وتلذُّذ أهل النّار برائحة الجنّة ونِعَمها، وتأذّي أهل الجنّة مِن نَتْن الجَحيم وحرّها، دَفع التوهُّم بقوله: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ وسُور كسُور المَدينة ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ﴾ وأعالي ذلك السُّور ـ كما عن ابن عبّاس[1] ـ أو المأمورون علىٰ تَعريف الفَريقين ﴿رِجَالٌ﴾ مِن أشراف أهل الإيمان والطّاعة قيل: هُم الأنبياء يُجلِسهم الله علىٰ أعالي ذلك السُّور تميُّزاً لهم عن سائر أهل القِيامة، وإظهاراً لشَرفهم وعُلُوّ مَرتبتهم، وليكونوا مُشرفين علىٰ أهل الجنّة والنّار، مُطّلعين علىٰ أحوالهم ومِقدار ثَوابهم وعِقابهم[2]، وقيل: هُم الشُّهداء[3] ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا﴾ مِن أهل الجنّة والنّار ﴿بِسِيمَاهُمْ﴾ وعَلامتهم التي أعلمهم الله بها.

في معنىٰ الأعراف والمراد من أصحابه

عن الصادق عليه السلام: «الأعراف: كُثبان[4] بين الجنّة والنّار، والرجال: الأئمّة»[5].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «نحنُ نُوقَف يومَ القيامة بين الجنّة والنّار، فمَن ينصُرنا عرَفناه بسيماه فأدخلناه الجنّة، ومَن أبغضنا عرَفناه بسيماه فأدخلناه النّار»[6].

وعنه عليه السلام، في هذه الآية: «نحنُ علىٰ الأعراف نعرِف أنصارنا بسيماهم، ونحن الأعراف الّذين لا يُعرَف الله عزّ وجلّ إلّا بسبيل مَعرفتنا، ونحنُ الأعراف يُوقفنا الله عزّ وجلّ يومَ القِيامة علىٰ الصِّراط، فلا يدخُل الجنّة إلّا مَن عرفَنا وعرَفْناه، ولا يدخُل النّار إلّا مَن أنكرَنا وأنكرْناه»[7].

وعن سَلمان رضي الله عنه، قال: سمِعتُ رَسُول الله صلى الله عليه وآله يقول لعليّ عليه السلام أكثر مِن عَشر مرات: «يا علي، إنّك والأوصياء مِن بعدك أعرافٌ بينَ الجنّة والنّار، ولا يدخُل الجنّة إلّا مَن عَرفَكم وعرَفتُموه، ولا يدخُل النّار إلّا مَن أنكرَكم وأنكرْتُموه»[8]. إلىٰ غير ذلك مِن الأخبار الكثيرة بهذا المَضمون، أو ما يقرُب منه.

وفي بعضِها: «الرِّجال هُم الأئمّة مِن آل محمّد، والأعراف صِراطٌ بين الجنّة والنّار»[9].

وعن الباقر عليه السلام أنّه سُئل عن أصحاب الأعراف، فقال: «إنّهم قومٌ استوتْ حَسَناتُهم وسَيّئاتُهم، فقصُرتْ بهم الأعمال». الخبر[10].

وعن الصادق عليه السلام أنّه سُئل عنهم، فقال: «قومٌ استوتْ حَسناتُهم وسَيّئاتهم، فإن أدخلهم النّار

---

١ ـ٣. تفسير الرازي ١٤: ٨٧.

٤. الكُثبان، جمع الكثيب: هو الرمل المجتمع المحدَودِب.

٥ و٦. مجمع البيان ٤: ٦٥٣، تفسير الصافي ٢: ١٩٨. ٧. الكافي ١: ٩/١٤١، تفسير الصافي ٢: ١٩٨.

٨. تفسير العياشي ٢: ١٥٨٦/١٤٨، تفسير الصافي ٢: ١٩٩.

٩. بصائر الدرجات: ٥/٥١٦، تفسير الصافي ٢: ١٩٩. ١٠. تفسير الصافي ٢: ١٩٩.

فبذُنوبهم، وإن أدخلهم الجنّة فبَرحمته»[١]. وعليه جمعٌ مِن مُفسّري العامّة[٢].

ويجمعُ بين الرِّوايات ما في (الجوامع) عن الصادق عليه السلام قال: «الأعراف كُثبان بين الجنّة والنّار، يُوقف عليها كُلّ نبيّ وكُلّ خليفة نبيّ معَ المُذنبين مِن أهل زمانه، كما يقفُ صاحبُ الجَيش مع الضّعفاء مِن جُنده، وقد سيق المُحسنون إلى الجنّة». الخبر[٣].

ففيه الدّلالة على أنّ الرّجال الّذين على الأعراف أشراف المُؤمنين، وأسفلهم الّذين استوتْ حَسناتُهم وسيّئاتهم.

﴿وَنَادَوا﴾ أولئك السِّفْلَة[٤] ﴿أَصْحَابَ ٱلجنَّةِ﴾ والمُحسنين الّذين سبقوهم إليها، إذا عايَنوهم يدخُلونها وهُم بعدُ واقفون مُنتظرون للشّفاعة: ﴿أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ عن الصادق عليه السلام، في الرِّواية السّابقة: «فيقول الخَليفةُ للمُذنبين الواقفين معه: انظُروا إلى إخوانكم المُحسنين قد سيقوا[٥] إلى الجنّة، فيُسلّم عليهم المُذنبون، وذلك قوله: ﴿سَلام عَلَيكُم﴾»[٦]. الخبر ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ أن يُدخلهم الله أيّاها بشفَاعة النبيّ والإمام.

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ﴾ ووقعتْ ﴿أَبْصارُهُم﴾ ـ حالَ كونهم على الأعراف ﴿تِلْقَاءَ أَصْحَابِ ٱلنَّارِ﴾ ومُقابلهم ـ عليهم ﴿قَالُوا﴾ تضرُّعاً إلى الله وتعوّذاً به: ﴿رَبَّنَا لَاتَجْعَلْنَا﴾ في النّار ﴿مَعَ ٱلقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ﴾.

عن الصادق عليه السلام، في الرِّواية السّابقة: «وينظر هؤلاء إلى أصحاب النّار فيقولون: ﴿رَبَّنَا لا تَجْعَلنَا﴾. الخبر[٧].

وَنَادَىٰ أَصْحَابُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُم قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ * أَهٰؤُلَاءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَايَنَالُهُمُ ٱللهُ بِرَحْمَةٍ ٱدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ لَاخَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَاأَنْتُمْ تَحْزَنُونَ[٤٨ و ٤٩]

ثمّ لمّا بيّن الله تعالى إشراف أشراف المُؤمنين الّذين هُم على الأعراف، حكى تَوبيخهم أصحاب النّار، وشَماتتهم بهم إلتذاذاً لأنفسهم، وازْدياداً لعذاب هؤلاء الكَفَرة بقوله: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ

---

١. الكافي ٢: ١/٢٨٢، تفسير الصافي ٢: ٢٠٠. ٢. تفسير الرازي ١٤: ٨٨.
٣. جوامع الجامع: ١٤٦، تفسير الصافي ٢: ٢٠٠.
٤. السِّفْلَة: نقيض العِلْوَة، سِفْلَة الناس أو سَفِلَتهم: أسافلهم.
٥. في جوامع الجامع: سبقوا. ٦. جوامع الجامع: ١٤٦، تفسير الصافي ٢: ٢٠١.
٧. جوامع الجامع: ١٤٦، تفسير الصافي ٢: ٢٠١.

﴿ٱلْأَعْرَافِ﴾ الذين هم أشراف المؤمنين ﴿رِجَالاً﴾ من رؤساء الكفار الذين كانوا ﴿يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ تقريعاً وتوبيخاً، و﴿قَالُوا﴾: لقد شاهدتم أيها الرؤساء أنه ﴿مَا أَغْنَىٰ﴾ ولم يكف في دفع العذاب ﴿عَنكُمْ﴾ اليومَ ﴿جَمْعُكُمْ﴾ الأعوان والأتباع والأموال في الدنيا ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ به من النسب والجاه، على الأنبياء والأولياء والفقراء من المؤمنين.

وقيل: إن كلمة (ما) في ﴿مَا أَغْنَىٰ﴾ استفهاميّة، و(ما) في ﴿ما كنتم﴾ مصدريّة[1].

ثمّ بالغوا في تقريعهم وتوبيخهم بقولهم، مشيرين إلى فقراء المؤمنين: ﴿أَهَٰؤُلَاءِ﴾ الفقراء الضعفاء ﴿ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ﴾ وحلفتم على أنه ﴿لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ﴾ ولا يصيبهم ﴿بِرَحْمَةٍ﴾ منه وفضلٍ أبداً؟ ثمّ يلتفتون إلى فقراء المؤمنين ويقولون لهم: ﴿ٱدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ﴾ على رغم هؤلاء الرؤساء المتكبّرين عليكم ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ﴾ حين يخاف الكفرة المتكبّرون ﴿وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ حين يحزن هؤلاء.

وعن الصادق عليه السلام، في الحديث السابق: «ويُنادي أصحابُ الأعراف ـ وهم الأنبياء والخلفاء ـ رجالاً من أهل النّار ورؤساء الكفّار، يقولون لهم مقرّعين: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ واستكباركم، ﴿أَهَٰؤُلَاءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾، إشارة لهم إلى أهل الجنة الذين كان الرؤساء يستضعفونهم ويحقّرونهم لفقرهم، ويستطيلون عليهم بدنياهم، ويقسمون أنّ [الله] لا يدخلهم الجنة ﴿ٱدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ﴾ يقول أصحابُ الأعراف لهؤلاء المستضعفين، عن أمرٍ من أمر الله عزّ وجلّ لهم بذلك: ﴿ٱدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ أي لا خائفين ولا محزونين»[2].

وَنَادَىٰ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ أَصْحَابَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالُوا إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَافِرِينَ[٥٠]

ثمّ أنه تعالى بعدَ بيان مخاطبة أهل الجنّة وأصحاب الأعراف لأصحاب النّار، حكى مخاطبة أهل النّار لهم بقوله: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ﴾ بعدَ استقرارهم فيها ﴿أَصْحَابَ ٱلْجَنَّةِ﴾ بعدَ استغراقهم في نِعَمها: ﴿أَنْ أَفِيضُوا﴾ وصبّوا أيّها المؤمنون ﴿عَلَيْنَا﴾ شيئاً قليلاً ﴿مِنَ ٱلْمَاءِ﴾ البارد ﴿أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ وأنعم عليكم بفضله من سائر الأشربة، أو منها ومن الفواكه والأطعمة ليُخفّف عنّا به حرّ النّار، أو العطش والجوع.

عن ابن عبّاس: لمّا صار أصحابُ الأعراف إلى الجنة، طمع أهلُ النّار بفرجٍ بعدَ اليأس[3].

---

١. تفسير روح البيان ٣: ١٦٩.
٢. جوامع الجامع: ١٤٦، تفسير الصافي ٢: ٢٠١.
٣. تفسير الرازي ١٤: ٩٢.

وقيل: إنّ أهل النّار لمّا بقُوا فيها جياعاً عِطاشاً قالوا: يا رَبّنا، إنّ لنا قَرابات في الجنّة فأذَنْ لنا حتّىٰ نراهم ونُكلّمهم، فأمر الله الجنّة فتزحزحت[1] فيُؤذِن في ذلك، فينظُرون إلىٰ قَراباتهم في الجنّة، وإلىٰ ما هم فيه مِن أنواع النَّعيم، فيعرِفونهم ولا يعرفهم أهلُ الجنّة لسَواد وجوههم، فيُنادون قَراباتهم مِن أهل الجنّة بعدَ إخبارهم بقَرابتهم ويقولون: ﴿أَفِيضُوا عَلَيْنَا﴾[2].

وقيل: إنّ المُراد مِن (ما رزقكم الله) الأطعمة والفواكه[3].

عن الصادق عليه السلام: «يومَ التّناد يومَ يُنادي أهلُ النّار أهل الجنّة: ﴿أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾»[4].

عن أحدهما عليهما السلام قال: «إنّ أهل النّار يموتون عِطاشاً، ويدخلُون قُبورهم عِطاشاً، ويدخُلون جهنّم عِطاشاً، فيُرفع لهم قَراباتهم مِن أهل الجنّة، فيقولون: ﴿أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾»[5].

رُوي أنّه لا يُؤذن لأهل الجنّة في الجَواب أربعينَ سنة.[6]

ثمّ يُؤذن لهم فيَ جَوابهم، كما حكىٰ الله تعالى بقوله: ﴿قَالُوا﴾ في جَوابهم: ﴿إِنَّ﴾ شرابَ الجنّة وطَعامها ممنوعان مِنكم؛ لأنّ ﴿اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ بأنّكم أذهبتُم طيّباتكم في حياتكم الدُّنيا واستمتعتُم بها، فاليوم تُجزَون عذاب الهُون بماكنتم تكفرون.

ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ[٥١]

ثمّ شرَع الله تعالىٰ في ذمّ الكُفّار وقَدْحِهم بأشنع ذَمائمهم وصِفاتهم، وتَهديدهم بأشدّ العذاب بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا﴾ وجعلوا ﴿دِينَهُمْ﴾ الذي أمرهم الله بالتديُّن به، وهُو دِين الإسلام ﴿لَهْواً﴾ وبطراً ﴿وَلَعِباً﴾ وعَبَثاً، حيثُ إنّهم يُحرّمون ما شاءوا، ويُحِلّون ما شاءوا، ولا يتّبعون أحكام الله، بَل يتّبعون هوىٰ أنفسهم التي زيّنها الشّيطان لهم، قيل: كان دِينُهم دِين إسماعيل فغيّروه بهَواهم. وقيل: إنّ المُراد: أنّهم اتّخذوا اللّهوَ واللّعِب دِيناً لأنفسهم. وعن ابن عبّاس: يُريد المُستهزئين المُقتسمين[7].

﴿وَغَرَّتْهُمُ﴾ وشغلَتْهم ﴿ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنيَا﴾ ولذّاتُها وزَخارفُها عن ذِكر الله، والتدبُّر في آياته ودَلائل تَوحيده، والتفكُّر في عواقبهم، فصار همُّهم في تحصيل الجاه والمال وسائر المُشتَهيات ﴿فَالْيَوْمَ

---

١. في النسخة: فتزخرفت.
٢. تفسير الرازي ١٤: ٩٢.
٣. تفسير الرازي ١٤: ٩٣.
٤. تفسير العياشي ٢: ١٥٩٢/١٥٠، تفسير الصافي ٢: ٢٠٢.
٥. تفسير العياشي ٢: ١٥٩١/١٤٩، تفسير الصافي٢: ٢٠٢
٦. تفسر روح البيان ٣: ١٧١.
٧. تفسير الرازي ١٤: ٩٣.

نَنْسَاهُمْ﴾ ولا نعتني بهم، ولا نلتفِتُ إليهم، كما لا يلتفِتُ النّاسي إلىٰ المَنسيّ، أو نترُكهم في النّار أبداً ﴿كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هٰذَا﴾ ولَم يلتفتوا إليه، ولَم يعتنوا بما ينفعهم فيه، ولَم يستعدُّوا له.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «يعني بالنِّسيان أنه لَم يُثِبهم كما يُثيب أولياءه الّذين كانوا في دَار الدُّنيا مُطيعين ذاكرين حينَ آمنوا به وبرُسُله، وخافوه في الغيب، وقد يقول العَرب في باب النِّسيان: قد نسِيَنا فُلانٌ فلا يذكُرُنا، أي أنه لا يأمُر لهم بخيرٍ ولا يذكُرهم به»[١].

وعن الرضا عليه السلام: «أي نترُكهم كما تركوا الاستعداد للِقاء يومِهم هذا، وقال: إنّما يُجازي مَن نَسِيه ونَسِيَ لِقاء يومِه بأن ينسيهم أنفسهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللّٰهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾»[٢].

﴿وَ﴾ مِثل ﴿مَا كَانُوا﴾ في الدُّنيا ﴿بِآيَاتِنَا﴾ ودَلائل تَوحيدنا، ورِسَالة رُسُلنا ﴿يَجْحَدُونَ﴾ وإيّاها يُنكِرون عِناداً واستكباراً.

وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ[٥٢]

ثمّ أنه تعالىٰ بعدَ شرح أحوال الكفّار والمؤمنين في القيامة ببيان مُعجز، أعلن بانقطاع عُذر الكفّار في ترك الايمان بالنّبوّة والكِتاب بقوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ﴾ عظيم الشّأن ﴿فَصَّلْنَاهُ﴾ وشرحنا ما فيه مِن المَعارف والأحكام والمواعظ، وغيرها مِن العُلوم واحداً بعد واحد مَبنياً ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ كامل مِنّا بتَفاصيله وواقعيات الأمور، ومَنافع ما فيه، ليكون ذلك الكتاب ﴿هُدىً﴾ ورَشاداً إلىٰ الحقّ، وسعادة الدُّنيا والآخرة ﴿وَرَحْمَةً﴾ ونِعمة تامّة وفضلاً عظيماً ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ به، المُصدّقين بأنه مِن الله، فإنّهم المُنتفعون والمُتدبّرون في آياته،المُقتبسون مِن أنواره.

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ[٥٣]

ثمّ وبّخهم الله علىٰ ترك الإيمان معَ انقطاع عُذرهم فيه بقوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ ويتوقّعون شيئاً آخر بعدَ هذا القُرآن يكون باعثاً لهم علىٰ الإيمان بالله وبرُسُوله واليوم الآخر، معَ أنه ليسَ شيءٌ أبعث مِن

---

١. التوحيد: ٥/٢٥٩، تفسير الصافي ٢: ٢٠٢.

٢. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١٨/١٢٥، تفسير الصافي ٢: ٢٠٢، والآية من سورة الحشر: ١٩/٥٩.

هذا الكِتاب ﴿إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ ووُقوع ما هُدِّدوا به فيه، مِن عذاب الاستئصال في الدُّنيا، أو مجيء يوم القِيامة ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ ٱلَّذِينَ﴾ كفروا به و﴿نَسُوهُ﴾ وتركوا العمل بما فيه ﴿مِن قَبْلُ﴾ وفي دار الدُّنيا إيماناً واعترافاً بصِدق الرُّسُل: ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا﴾ لهِدايتنا ﴿بِالحَقِّ﴾ والدِّين القَويم، أو بالمُعجزات الباهرات. فلمّا رأوا أنّه لا ينفَعهم إيمانُهم، ولا مُخلَص لهم مِن العَذاب، قالوا تمنّياً وتحسُّراً: ﴿فَهَل لَنَا﴾ اليوم ﴿مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾ ويدفعوا بشَفاعتهم العذابَ عنّا؟ ﴿أَوْ نُرَدُّ﴾ ونُرجَع إلىٰ الدُّنيا ﴿فَنَعْمَلَ﴾ فيها عملاً ﴿غَيْرَ﴾ العمل ﴿ٱلَّذِى كُنَّا نَعمَلُ﴾ ونتديّن بدِين غير الذي كُنّا نتديّن به، فإنّه لا يُمكن الخَلاص إلّا بأحد هذين الأمرين.

ثمّ نبّه الله سُبحانه علىٰ امتناع مَطلوبهم ومأمولهم بقوله: ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بصَرْف أعمارهم التي كانت بمَنزلة رأس مالهم، في الكُفْر والعِصيان ﴿وَضَلَّ﴾ وغاب أو فات ﴿عَنْهُمْ﴾ مَنافع ﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ على الله أن يقبل شَفاعته مِن الأصنام، وظهر لهم بُطلان الأديان التي كانوا ينصُرونها.

إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ [٥٤]

ثمّ لمّا كان الاعتقاد بالمَعاد متوقّفاً علىٰ مَعرفة الله بالوَحدانيّة وكَمال القُدرة والعِلم، عرّف ذاته المُقدّسة بتِلك الصِّفات بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ﴾ هُو ﴿ٱللهُ ٱلَّذِى﴾ بقُدرته الكاملة ﴿خَلَقَ ٱلسَّماوَاتِ﴾ السّبع بما فيها مِن الكواكب وغيرها ﴿وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ عن القُمّي ﷺ: في ستّة أوقات[١].

عن الصادق عليه السلام: «أنّ الله خلَق الخَير يومَ الأحد، وما كان ليخلُق الشَرّ قبل الخَير، وفي الأحد والاثنين خلق الأرضين، وخلق أقواتها يومَ الثّلاثاء، وخلق السّماوات يومَ الأربعاء ويوم الخميس، وخلَق أقواتها يومَ الجُمعة»[٢]. الخبر.

أقول: الظاهر أنّ المُراد مِن الأيام في الرِّواية: الأوقات التي لَو كانت الشمس ـ التي بطُلوعها وغُروبها تُوجد الأيام وتتعدّد ـ موجودة لكانت تِلك الأوقات [هي] تِلك الأيّام. وأمّا تقدير الأوقات فيُحتمل أنه كان إمّا بِنسبة كُلّ مَوجود إلىٰ الآخر، وإمّا بالنِّسبة إلىٰ حركة فَلَك الأفلاك. وإرادة غيره مِن قوله ﴿خَلَقَ ٱلسّماوَاتِ﴾.

وقيل: إنّ الله خلَق الموجودات تدريجاً، ليُعلّم العِباد التَأنّي في الأُمور.

---

١. تفسير القمي ١: ٢٣٦، تفسير الصافي ٢: ٢٠٣.
٢. الكافي ٨: ١٤٥/١١٧، تفسير الصافي ٢: ٢٠٣.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «ولَو شاء أن يخلُقها في أقلّ مِن لَمح البَصر لخلَق، ولكنّه جعل الأناة والمُداراة مِثالاً لأمنائه، وإيجاباً للحُجّة علىٰ خلقه»[1].

وعن الرضا عليه السلام: «وكان قادراً علىٰ أن يخلُقها في طَرفة عين، ولكنّه عزّ وجلّ خلقها في ستّة أيام ليظهَر علىٰ الملائكة ما يخلُقه منها شيئاً بعدَ شيءٍ، فيُستَدلّ بحُدوث ما يحدُث على الله تعالىٰ مرّةً بعد مرّة»[2].

وقيل: للتّنبيه علىٰ أن لكُلّ شيءٍ حدّاً مَحدوداً ووقتاً مُعيّناً، فلا يدخُله في الوجود إلّا علىٰ ذلك الوَجه، فتأخير ثَواب المُطيعين وعِقاب العاصين لذلك.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ﴾ واستولىٰ بعِلمه وتَدبيره ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾. عن أمير المؤمنين عليه السلام: «استوىٰ تَدبيرُه، وعَلا أمرُه»[3].

وعن الكاظم عليه السلام: «استولىٰ علىٰ ما دَقّ وجَلّ»[4].

وعن الصادق عليه السلام: «استوىٰ علىٰ كُلّ شيءٍ، فليسَ شيءٌ أقرب إليه مِن شيء»[5].

وفي رِوايةٍ: «لَم يبعُد منِه بعيدٌ، ولَم يقرُب مِنه قريب»[6].

فحاصل الرّوايتين[7]: أنّ المُراد بالعَرش جميعَ المَوجودات؛ كما مرّ في آية الكُرسي أنّه أحدُ مَعنَييه.

وقيل: إنّ المُراد بالعرش هُو السّرير[8]، كما هُو معناه لغةً، وكنّىٰ به عن المُلك، فإنّه إذا اختلّ مُلْك مَلِكٍ يُقال: ثُلّ عرشُه، وإذا استقام مُلكُه واطّرد أمرُه وحُكمه يُقال: استوىٰ علىٰ عَرشه واستقرّ علىٰ سريرِ مُلكه.

وعن أمير المُؤمنين عليه السلام قال: «إنّ الملائكة تحمِل العرش، وليسَ العَرشُ كما يُظَنّ كهيئة السّرير، ولكنّه شيءٌ مَحدود مَخلوق مُدبرّ، وربُّك عزّ وجلّ مالكه، لا أنّه عليه؛ ككَون الشيء علىٰ الشيء»[9].

ثمّ استشهد سُبحانه علىٰ كَمال قُدرته وتَدبيره بقوله: ﴿يُغْشِى﴾ ويغطّي ﴿ٱلَّيْلَ﴾ بظُلمته ﴿ٱلنَّهَارَ﴾ ويذهب بنُوره، وهُو معَ ذلك ﴿يَطْلُبُهُۥ﴾ ويشتاقُ إلىٰ مجيئه بعده ﴿حَثِيثًا﴾ وسَريعاً لا يفصِل بينهما شيءٌ، فإنّ في تنظيم تعاقُب اللّيل والنّهار ـ مع وضوح أن فيه مَنافع عظيمة؛ إذ به يتِمُّ أمرُ الحَياة،

---

١. الاحتجاج: ٢٥٤، تفسير الصافي ٢: ٢٠٣.
٢. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٣٣/١٣٤، تفسير الصافي ٢: ٢٠٣.
٣. الاحتجاج: ٢٥٠، تفسير الصافي ٢: ٢٠٤.
٤. الاحتجاج: ٣٨٦، تفسير الصافي ٢: ٢٠٤.
٥. الكافي ١: ٦/٩٩، تفسير الصافي ٢: ٢٠٤.
٦. الكافي ١: ٨/٩٩، تفسير الصافي ٢: ٢٠٤.
٧. أي اللتين عن الامامين الكاظم والصادق عليهما السلام.
٨. تفسير روح البيان ٣: ١٧٤.
٩. التوحيد: ٣/٣١٦، تفسير الصافي ٢: ٢٠٥.

وكَمالُ صَلاح المَوجودات ـ دلالةً واضحةً علىٰ كَمال قُدرته وحِكمته.

ثمّ قرّر ذلك بقوله: ﴿وَٱلشَّمْسَ﴾ التي هي سُلطان الكواكب ﴿وَٱلْقَمَرَ﴾ الذي هُو نائبها ﴿وَٱلنُّجُومَ﴾ التي هي خَدَمها، خَلقهُنّ حالَ كَونهنّ ﴿مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ مَقهوراتٍ تحتَ إرادته.

ثمّ لمّا كان ما سِوىٰ الله إمّا جِسماني له مادّة ومُدّة وحَجْم ومِقدار؛ ويُسمّىٰ بعالَم الخَلق، وإمّا رُوحاني لا مادّة له ولا مُدّة له ولا حَجم؛ ويُسمّىٰ بعالَم الأمر، بالَغ سُبحانه في تَعريف ذاته المُقدّسة بالوَحدانيّة، وكمَال القُدرة والتّدبير والسّلطنة فيهما بقوله: ﴿أَلَا لَهُ﴾ تعالىٰ خاصّة ﴿الْخَلْقُ﴾ وعالَم الجِسمانيّات ﴿وَٱلْأَمْرُ﴾ وعالَم الرُّوحانيّات، إيجاداً أو إعداماً، وتصرُّفاً وتدبيراً، لا مالك شيءٍ منهما غيرُه ﴿تَبَارَكَ﴾ وتعالىٰ بالوَحدانيّة في الأُلوهيّة والقُدرة، وتعظّم بالفَردانيّة في السّلطنة والرُّبوبيّة ﴿ٱللَّهُ﴾ الذي هُو ﴿رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ وخالقُها ومُدبّرُها.

ففيه رَدٌّ علىٰ الّذِين اتّخذوا مِن دُون الله أرباباً، ودَعوتُهم إلىٰ القول بتَوحيده فيالرُّبوبيّة لجميع الكائنات، وتَنظيم عالَم الوُجود، كالمَلِك المُتمكّن في مَملكته بتَدبيره.

ٱدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ [٥٥]

ثمّ لمّا بيّن الله سُبحانه أنّ تَدبير العالَم بيده وجميع الخَيرات نازلٌ مِنه، أمر النّاس بُسؤاله ورَفع حَوائجهم إليه، وقطع طمَعهم عن غيره بقوله: ﴿ٱدْعُوا﴾ واسألوا ﴿رَبَّكُمْ﴾ اللّطيف بكم، السّميع لدُعائكم، القادر علىٰ إجابتكم جميع حَوائكم الدُّنيويّة والأُخرويّة، وليكُن دعاؤكم له ﴿تَضَرُّعاً﴾ وخُضوعاً وتذلُّلاً ﴿وَخُفْيَةً﴾ وسِرّاً بحيث بلا يسمَعه غيرُكم، فإنّه أقرب إلىٰ الخُلوص والاستجابة، ولا تعتدوا في دُعائكم، ولا تُجاوزوا فيه عن حدّ ما أمرتُم ﴿إِنَّهُ﴾ تعالىٰ ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ ولا يرضىٰ عن المُتجاوزين عن الحدّ؛ بالاقْتراح عليه، وطلَب ما لا ينبغي طلبه.

عن النبيّ ﷺ: «سيكون قومٌ يعتدون في الدُّعاء، وحَسبُ المَرء أن يقول: اللّهمّ إنّي أسألُك الجنّة وما قرّبَ إليها مِن قولٍ وعملٍ، وأعوذُ بك من النّار وما قرّب إليها مِن قولٍ وعملٍ»[1].

في استحباب الاخفات في الدعاء

وعنه ﷺ، أنّه كان في غَزاةٍ، فأشرف علىٰ وادٍ، فجعل النّاسُ يُهلّلون ويُكبّرون، ويرفعون أصواتهم، فقال: «يا أيُّها النّاس، ارْبَعوا[2] على أنفسكم، أما إنّكم لا تدعُون أصمّاً[3] ولا غائباً، إنّكم تدعُون سميعاً قريباً إنّه معكم»[4].

---

١. تفسير أبي السعود ٣: ٢٣٣.

٢. ارْبَعوا: تريّثوا وانتظروا.

٣. كذا، وفي المجمع: الأصمّ، وفي الصافي: أصمّ.

٤. مجمع البيان ٤: ٦٦٢، تفسير الصافي ٢: ٢٠٦.

وعنه ﷺ قال: «دَعوةٌ في السِرّ تعدُل سَبعين دَعوة في العَلانية»[١].

وعن الصادق عليه السلام: «استعِنْ بالله في جميع أُمورك تضرّعاً[٢] إليه آناء اللّيل والنّهار، قال الله: ﴿ٱدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَايُحِبُّ ٱلْمُـعْتَدِينَ﴾ والاعتداء مِن صِفة قُرّاء زمَاننا هذا وعَلامتهم»[٣].

وَلَا تُفْسِدُوا فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْـمَتَ ٱللهِ قَرِيبٌ مِنَ ٱلْمُـحْسِنِينَ[٥٦]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ بَيان كونه مُدبّر اُمور العالَم ومُصلحها، نهىٰ النّاس عن الإفساد بقوله: ﴿وَلَا تُفسِدوا فى الأرضِ﴾ بقَتلٍ ونَهب، وهَتكِ عِرضٍ، وإشاعة الكُفر ﴿بَعْدَ إِصْـلَاحِهَا﴾ وتَـنظيم اُمورها علىٰ أحسن نِظام.

وقيل: يعني لا تُفسدوا فيها باختيار الكُفر، وارْتكاب المعاصي بعد إصلاحها ببعث الرُّسُل وتَشريع الأحكام.

عن الباقر عليه السلام: «أنّ الأرض كانت فاسدة، فأصلحها الله بنبيّه ﷺ. الخبر[٤].

والقُـمّي رحمه الله: أصـلحها بـرَسُول الله ﷺ وأمـير المؤمنين عليه السلام، فأفسـدوها حـين تـركوا أمير المؤمنين عليه السلام[٥].

ثمّ لمّا كان داعي الإفساد تحصيل المَنافع الدُّنيويّة، وهُو يكون في الدُّعاء، أكّد التّرغيب إليه بقوله: ﴿وَٱدْعُوهُ﴾ واسألوه كُلّ ما تحتاجون إليه مَن المنافع ﴿خَوفاً﴾ مِن أن تُردَ دَعوتُكم بسُوء أعمالكم ﴿وَطَمَعاً﴾ ورجاءَ أن يُستجاب لسَعة رَحمته ﴿إِنَّ رَحْـمَتَ ٱللهِ قَـرِيبٌ مِـنَ ٱلْـمُـحْسِنِينَ﴾، ومِن الأعمال الحَسنة: الدُّعاء بأدائه.

وفيه ترجيحٌ للطّمع، وتَغليبُ جانب الرّحمة، وتَنبيهٌ علىٰ وَسيلة الإجابة، وهُـو القيام بـوظائف العُبوديّة.

وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ ٱلْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ كَذٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ[٥٧]

---

١. تفسير الرازي ١٤: ١٣١.

٢. في مصباح الشريعة: مُتضرعاً.

٣. مصباح الشريعة: ٥٨، تفسير الصافي ٢: ٢٠٦.

٤. تفسير العياشي ٢: ١٥٩٣/١٥٠، تفسير الصافي ٢: ٢٠٦.

٥. تفسير القمي ١: ٢٣٦، تفسير الصافي ٢: ٢٠٦.

ثمّ لمَا بشّر سُبحانه بسَعة رَحمته، قرّره بما أراهم مِن إنزال الأمطار النّافعة التي منها حياة كُلّ شيء، وفيها الشّهادة علىٰ سَعة رحمته، وكَمال قُدرته، وتَدبيره لمصالح خَلقه بقوله: ﴿وَهُوَ﴾ القادر المُدبّر الرحيم ﴿ٱلَّذِى يُرسِلُ﴾ بقُدرته وحُسن تَدبيره ﴿ٱلرِّيَاحَ﴾ الأربعة، حالَ كَونها ﴿بُشْراً﴾ وإعلاماً للنّاس بما يَسَرّون به ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ﴾ وقُدّام المَطر المُحيي للأرض ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ﴾ الرّياح وحمَلتْ بسُهولة ﴿سَحَاباً﴾ وغَماماً سارية في العُلوّ، حالَ كَونها ﴿ثِقالاً﴾ بحمل الماء ﴿سُقنَاهُ﴾ وسيّرناه ﴿لِبَلَدٍ﴾ وإلىٰ أرضٍ ﴿مَيِّتٍ﴾ حافٍ[1] لا نبات فيها، أو لأجل الأرض اليابسة ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ﴾ أي بسبَب السّحاب أو بالبلد ﴿ٱلْمَاءَ﴾ والمَطر النّافع ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ مِن الأرض ما تعيشون به ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ﴾ وجميع أنواعها.

ثمّ استدلّ سُبحانه بإحياء الأرض بعدَ مَوتها وإخراج الثّمرات منها، علىٰ إحياء الرِّمَم، وإخراج المَوتىٰ مِنها للحَشر، وجزاء الأعمال بقوله: ﴿كَذٰلِكَ﴾ الإحياء والإخراج ﴿نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ مِن الأرض إلىٰ الحَشر بعد إحيائهم في القُبور. وإنّما ضربنا لكُم المَثل ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ أيُّها النّاس ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ وتتنبّهون علىٰ أنّ مَن قَدر علىٰ ذلك قدَر علىٰ هذا بِلا ريب.

عن ابن عبّاس ﵁: إذا مات النّاس كُلّهم في النّفخة الأُولىٰ مطرتْ السّماءُ أربعين يوماً قبل النّفخة الأخيرة مِثل مَنِيِّ الرِّجال، فينبُتون مِن قُبورهم بذلك المطر، كما ينبُتون في بُطون أُمّهاتهم، وكما ينبُت الزّرعُ مِن الماء، حتّىٰ إذا استكملتْ أجسادهم نُفخ فيها الرُّوح، ثمّ تُلقىٰ عليهم نَومةٌ فينامون في قُبورهم، فإذا نُفخ في الصُّور النفخة الثانية ـ وهي نفخة البَعث ـ جاشوا وخرجوا مِن قُبورهم وهُم يجِدون طَعم النّوم في رُؤوسهم كما يجده النائم إذا استيقظ مِن نومه، فعندَ ذلك يقولون: ﴿مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾؟ فيُناديهم المُنادي: ﴿هٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾[2].

وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَايَخْرُجُ إِلَّا نَكِداً كَذٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ[٥٨]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ بَيان رَحمته العامّة بإنزال المطر وإخراج الثِّمار مِن الأرض، نبّه علىٰ أنّ عدَم نَبت الثِّمار مِن الأرض الصّلبة أو السَّبِخة ليسَ لعدم نُزول المطر عليها، أو عدم النّفع فيه، بَل إنّما هُو لخباثة الأرض، وعدَم قابليّتها للتأثُّر به بقوله: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ﴾ والأرض الخيّرة لرَخاوتها، وقُوّة استعدادها

---

١. كذا، ولعلّه من قولهم: حفا شاربه، فهو حافٍ، إذا بالغ في قصّه. أو تصحيف (جافٍ) من الجفاف. وينبغي تأنيث هذه الكلمة نظراً إلى قوله: (أرض) ثمّ قوله: (لا نبات فيها).

٢. تفسير روح البيان ٣: ١٨٠، والآية من سورة يس: ٥٢/٣٦.

﴿يَخْرُجُ نَبَاتُهُ﴾ مِن الأشجار والزُّروع والرَّياحين والأزهار **﴿بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾** وقُدرته وإرادته، **﴿وَ﴾** البلد **﴿ٱلَّذِى خَبُثَ﴾** بأن كان سَبِخاً أو صُلباً لا تأثُّر بنُزول المطر عليه، **﴿لَايَخْرُجُ﴾** نباته منه **﴿إِلَّا﴾** نباتاً **﴿نَكِدًا﴾** قليلاً غير نافع.

في أن النفوس صنفان طيبة وخبيثة

قيل: هُو مَثَل الاختلاف في الذّات والطِّينة وتَشبيههما في الطِّيب والخُبث بالأراضي الطيِّبة والخَبيثة، فإنّ النُّفوس البشريّة بعضُها بذاتها وجَوهرها طيِّبة نقيّة نُورانية، مُستعدّة لقَبول الحقّ والتأثّر بالمواعظ والحِكم، والتنوُّر بآيات القُرآن الذي هُو ماء الحَياة للقُلوب الميّتة؛ كنُفوس المُؤمنين علىٰ اختلاف مَراتبهم، فإنّهم إذا تُليت عليهم آياتُ القُرآن وذُكرت لهم دلائل التّوحيد والمَعاد، ظهر منهم الانقياد والخُضوع، وأشرقتْ قُلوبُهم بأنوار العقائد الحقّة والمَعارف الإلهية، وخرجتْ من جَوارحهم أزهارُ الطّاعة والأعمال الحسَنة.

وبعضُها خبيثة سِجِّينيّة ظُلمانيّة، لا تتأثّر بشيء مِن المواعظ والحِكم، ولا تنقاد لقَبول الحقّ، بَل لا تزيده آياتُ القُرآن ودَلائل التّوحيد وغيره مِن المعارف إلّا بُعداً وكُفراً وطُغياناً؛ كنُفوس الكفّار المُصرّين علىٰ الكُفر. فالنَّفسُ الطيِّبة الطاهرة يخرُج نباتُها مِن المعارف الحقّة، والأخلاق الكريمة، والأعمال الصّالحة بإذن ربّها وتَوفيقه وتفضُّله، والنَّفس الخبيثة لا يخرجُ منها إلّا نباتاً نَكِداً قليلَ الفائدة.

وقيل: إنّ المُراد مِن المَثَل أنّ الأرض الخبيثة مع قِلّة نَفعها لا يُهملها صاحبُها، بَل يُتعب نفسَه في إصلاحها طمعاً في تحصيل ما يليق بها. فمَن طلب النَّفع اليسير بالمشقّة العظيمة كان طلبُه للمَنافع العظيمة الأُخرويّة بالمشقّة أوْلىٰ.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ التّصريف البَديع **﴿نُصَرِّفُ ٱلْآيَاتِ﴾** الدالّة علىٰ المَعارف والحِكم والأحكام **﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾** ألطاف الله ونِعمه الجِسمانيّة والرُّوحانيّة.

وإنّما ختم سُبحانه الآية السّابقة بقوله: **﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾** لكونها مُتضمّنة لدليل صِحّة المَعاد، وختم هذه الآية بقوله: **﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾** لكونها متضمّنة لبَيان النِّعمة الجِسمانيّة والرُّوحانيّة.

عن القُمّي ﴿ : مَثَل للأئمّة يخرُج عِلمُهم بإذن ربّهم، ولأعدائهم لا يخرُج عِلمُهم إلّا كَدِراً فاسداً[1].

وفي (المناقب): قال عَمرو بن العاص للحُسين عليه السلام: ما بال لِحاكُم أوفَر مِن لِحانا؟ فقرأ عليه السلام هذه الآية[2].

ورُوي أنّ مُعاوية سأل الحسن عليه السلام عن ذلك، فقرأ عليه السلام هذه الآية.

---

١. تفسير القمي ١: ٢٣٦، تفسير الصافي ٢: ٢٠٨.   ٢. مناقب ابن شهر آشوب ٤: ٦٧، تفسير الصافي ٢: ٢٠٨.

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللهَ مَالَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالَ ٱلْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِى ضَلالٍ مُبِينٍ * قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلالَةٌ وَلٰكِنِّى رَسُولٌ مِن رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّى وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللهِ مَا لاتَعْلَمُونَ [٥٩ و ٦٢]

في قصة نوح وكيفية دعوته

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ بَيان خُبث ذات الكُفار، ذكر سُبحانه قِصص الأمَم الماضية وسُوء عاقبة المُصرّين منهم علىٰ الكُفر، تهديداً لمُشركي عصر النبيّ ﷺ، وتسليةً لخاطره الشّريف، وإثباتاً لنُبوّته؛ لأنّ ذِكرها مع اُميّته مِن الإخبار بالمُغيّبات، فابتدأ سُبحانه بذِكر مُعارضة قوم نُوح وهلاكهم بقوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ لهِدايتهم إلىٰ التّوحيد ودِين الحقّ، فدعاهم أوّلاً إلىٰ التّوحيد الذي هُو أهمّ الاُصول ﴿فَقَالَ﴾ لقومه رَحمةً وشَفَقةً: ﴿يَا قَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللهَ﴾ وحده، وخُصّوه بالخُضوع والطّاعة، فإنّه ﴿مَالَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ﴾ مُستحقّ للعِبادة والطّاعة في عالَم الوُجود ﴿غَيْرُهُ﴾ تعالىٰ.

ثمّ هدّدهم علىٰ الاشراك ببَيان مُعلن بغاية شَفَقته عليهم بقوله: ﴿إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ إن بقيتُم علىٰ ما أنتم عليه مِن عِبادة الأصنام مِن أن يُنزّل الله عليكم ﴿عَذَابَ﴾ الاستئصال في ﴿يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ مِن أيام الدُّنيا لعَظَمة عَذابه، أو عذاب النّار في يوم القيامة الذي هُو أعظم الأيام وأشدّها ﴿قَالَ ٱلْمَلأُ مِن قَوْمِهِ﴾ والأكابر مِن طائفته: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ﴾ ونعتقدُك يا نُوح مُنغمراً ﴿فِى ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾ عن الحقّ، وانْحرافٍ واضحٍ عن الصّواب حيثُ خالفتَ العامّة في قولك، وخرجت عن رِبقة تقليد آبائنا الأقدمين في رأيك.

﴿قَالَ﴾ نوح مُبالغاً في استمالتهم بندائهم وإضافتهم إلىٰ نفسه، بعد تغليظهم عليه في القول المُقتضي للتّغليظ عليهم في الجَواب: ﴿يَا قَوْمِ﴾ كيف تنسُبونني إلىٰ الضّلال والحال أنه ﴿لَيْسَ بِى ضَلالَةٌ﴾ أبداً وانْحرافٌ عن الصّواب بوَجهٍ ﴿وَلٰكِنِّى رَسُولٌ مِن﴾ رُسُل ﴿رَبِّ ٱلعَالَمِينَ﴾ مَبعوث من قِبَله إليكم لأرشدكم إلىٰ الحقّ وأهديكم إلىٰ التّوحيد، فأنا علىٰ حَسَب وظيفتي ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾ وأؤدي إليكم ﴿رِسَالاَتِ رَبِّى﴾ مِن توحيده وأحكامه ومَواعظه ﴿وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾ وأشير إليكم ما فيه خيرُكم وصَلاحكُم ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ﴾ عُقوبة ﴿ٱللهِ﴾ أو مِن مَعارفه وأحكامه بوَحيه وتَعليمه ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، قيل: كانوا لَم يسمعوا بقومٍ حَلّ بهم العذابُ مِن قَبلهم، ولذا كانوا غافلين آمنين لا يعلَمون ما عَلِمه نُوح عليه السلام.

أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً عَمِينَ [٦٣ و ٦٤]

ثمّ لمّا كان القوم تعجّبوا مِن أدّعائه الرّسالة وبالغوا في تكذيبه، أنكر عليهم بقوله: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾ - قيل: إنّ التّقدير: أكذّبتم وعجِبتم[1] - مِن ﴿أَنْ جَاءَكُمْ﴾ ونزل عليكم ﴿ذِكْرٌ﴾ ومَوعظة، أو وَحي، أو كِتاب ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ وخالقكم اللّطيف بكم ﴿عَلَىٰ﴾ لِسان ﴿رَجُلٍ مِنْكُمْ﴾ وبشَرٍ مِثلكم ﴿لِيُنْذِرَكُمْ﴾ من بأس الله، ويُخوّفكم مِن عُقوبته ﴿وَلِتَتَّقُوا﴾ مُخالفة الله، وتحترزوا سَخَطه بإنذاره، ولأجل أنّه ﴿ولَعَلَّكُم تُرْحَمُونَ﴾ بالتّقوىٰ، وتفوزون بأكمل السّعادة وأفضل النِّعَم بطاعته.

وفي ذِكر (لعلَ) إشعارٌ بعدَم عِلّيّة التّقوىٰ لشُمول الرّحمة.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ بعد الإبلاغ والإنذار والإعذار، وأصرّوا علىٰ مُعارضتة حتّىٰ حَقّ عليهم العذابُ، فصنع نُوح الفُلك وفارَ التّنُّور ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ﴾ آمنوا ﴿مَعَهُ﴾ مِن أهله وغيرهم ﴿فِي الْفُلْكِ﴾، قيل: هُم أربعون[2] ﴿وَأَغْرَقْنَا﴾ بالطُّوفان الكفّار ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ وأستمرّوا علىٰ التّكذيب.

ثمّ نبّه سُبحانه علىٰ عِلّة إهلاكهم بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً عَمِينَ﴾ في البَصيرة، مَكفوفين عن رُؤية المُعجزات، قاصرين عن فَهم المَواعظ، لَم يكونوا يُرجىٰ منهم الهِداية والإيمان.

وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلٰكِنِّي رَسُولٌ مِن رَبِّ الْعَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ [٦٥ - ٦٨]

في قصة هود

ثمّ أردف سُبحانه قِصّة قوم نُوح بقِصّة هُود وتَكذيب قومه، وابتلائهم بالعذاب بقوله: ﴿وَإِلَىٰ﴾ قومِ ﴿عَادٍ﴾ بن إرم بن سام بن نوح، أو ابن شالخ بن أرفخشد بن سام، وهُم قومٌ كانوا باليمن بالأحقاف؛ وهُو الرّمل الذي كان بين عُمان وحَضرموت - كذا قيل[3] - أرسلنا ﴿أَخَاهُمْ﴾ في النّسب كان اسمُه ﴿هُوداً﴾ قيل: هو ابن عبدالله بن رباح[4] بن خلود بن عاد[5].

---

١. تفسير الرازي ١٤: ١٥٢.
٢. تفسير البيضاوي ١: ٣٤٤، وفيه: كانوا أربعين رجلاً وأربعين امرأة.
٣. تفسير الرازي ١٤: ١٥٥.
٤. في روح البيان: رياح.
٥. تفسير البيضاوي ١: ٣٤٤، تفسير روح البيان ٣: ١٨٥.

عن السجاد عليه السلام أنّه قيل له: إنّ جدّك قال: «إخواننا بغوا علينا فقاتلناهم علىٰ بَغيهم»، فقال: «وَيْلك، أما تقرأ القرآن ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً﴾، ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً﴾[١]، ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً﴾[٢] فهُو مِثلُهم، كانوا إخوانَهم في عَشيرتهم، وليسُوا إخوانَهم في دِينهم»[٣].

عن الباقر عليه السلام ـ في حديثٍ ـ «وبشّر نُوح ساماً بهُود وقال: إنّ الله باعث نبيّاً يُقال له هُود، وأنّه يدعو قومه إلىٰ الله فيُكذّبونه». الخبر[٤].

وعن الصادق عليه السلام: «لمّا حضرتْ نُوحاً الوفاة دعا الشيعة فقال لهم: [اعلموا] أنّه سيكون مِن بعدي غَيبة يظهرُ فيها الطّواغيب، وإنّ الله عزّ وجلّ سيفرّج عنكم بالقائم مِن وَلدي، اسمُه هُود، له سَمْتٌ وسكينة ووَقار، يُشبهني في خَلقي وخُلُقي»[٥].

عن الباقر عليه السلام: «أنّ الأنبياء بُعثوا خاصّة وعامّة، وأمّا هُود فإنّه اُرسل إلىٰ [عادٍ] بنبوّةٍ خاصّة»[٦].

في كيفية دعوة هود ومحاجته

﴿قَالَ﴾ هُود لقومه: ﴿يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وحده ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ﴾ ولمّا كان قومُه مُطّلعين علىٰ واقعة الطُّوفان وهَلاك قومِ نُوح، هدّدهم على الشِّرك بقوله: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ بأس الله وعَذابه، أشار به إلىٰ التّخويف بمِثل واقعة قومِ نُوح المَشهورة عندهم ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بتَوحيد الله ورِسالة هُود ﴿مِن قَوْمِهِ﴾ في جَوابه مُغلّظين له في القول: يا هُود ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ﴾ مُتمكنّاً وراسخاً ﴿فِي سَفَاهَةٍ﴾ وخِفّة العَقل، حيثُ فارقتَ الجَماعة، وخالفَت العامّة ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ﴾ ألبتّة ﴿مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ في دَعوىٰ تَوحيد المَعبود، ورِسالتك.

﴿قَالَ﴾ هُود لهم بلِينٍ وعُطوفة، بعد ما سمع منهم الكلام الشّنيع: ﴿يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ﴾ أبداً ﴿وَلٰكِنِّي﴾ لكَمال عقلي وغَاية رُشدي ﴿رَسُولٌ مِن﴾ رُسُل ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فإنّه لا يكون الرّسُول إلّا مِن كمُل عَقلُه وتمّ رُشده وصَلاحُه، وما أقول لكم شيئاً مِن قِبَل نفسي، بَل ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾ وأُؤدّي إليكم ﴿رِسَالاتِ رَبِّي﴾ على حَسَب وظيفتي ﴿وَأَنَا﴾ مع ذلك ﴿لَكُمْ﴾ فيما أدعوكم إليه مِن تَوحيد الله وإخلاص العِبادة له ﴿نَاصِحٌ﴾ ومُشير إلىٰ مَحض خَيركم ﴿أَمِينٌ﴾ وثِقة عند الله في تأدية رِسالته، وعندكم في النُّصح، لا أغُشّ ولا أخون أبداً.

أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِن رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ

---

١. الأعراف: ٨٥/٧. ٢. هود: ٦١/١١. ٣. تفسير العياشي ٢: ١٥٩٥/١٥٠، تفسير الصافي ٢: ٢٠٩.
٤. الكافي ٨: ٩٢/١١٥، تفسير الصافي ٢: ٢٠٩. ٥. كمال الدين: ٤/١٣٥، تفسير الصافي ٢: ٢٠٩.
٦. كمال الدين: ٢/٢١٩، تفسير الصافي ٢: ٢٠٩.

لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ[٦٩]

ثمّ لمّا كانوا مُتعجّبين مِن ادّعاء الرِّسالة، أنكر عليهم تعجُّبهم بقوله: **﴿أَوَ عَجِبْتُمْ﴾** واستبعدتُم **﴿أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ﴾** ووَعظٌ **﴿مِن﴾** قِبَل **﴿رَبِّكُمْ﴾** اللّطيف بكم **﴿عَلَىٰ﴾** لِسان **﴿رَجُلٍ مِنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾** ويُحذّركم مِنْ عُقوبة الله علىٰ الشِّرك به والطُّغيان عليه.

ثمّ أنّه عليه السلام بعدَ التّهديد والتّوعيد بالعَذاب علىٰ الكُفر، شرَع في تَرغيبهم إلىٰ الإيمان بالله وطاعته بقوله: **﴿وَاذْكُرُوا﴾** نِعمة الله عليكم **﴿إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ﴾** وسُكّان في الأرضين مُتمتّعين بما فيها **﴿مِن بَعْدِ﴾** إهلاك **﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾** بالطُّوفان عُقوبةً علىٰ شِركهم وطُغيانهم وتَكذيبهم نُوحاً عليه السلام.

وقيل: إنّ المعنىٰ: أنّ الله سلّطكم في مَحالّهم بأن جعلكم مُلوكاً فيها.

قيل: إنّ شدّاد بن عاد مَلك مَعمورة الأرض[١].

ثمّ بالغ في تَرغيبهم بقوله: **﴿وَزَادَكُمْ﴾** علىٰ سائر النّاس **﴿فِي الْخَلْقِ﴾** والجُثّة **﴿بَصْطَةً﴾** وعَظَمَةً مِن حيث القامَة والقوّة.

قيل: لَم يكُن في زمانهم مِثلُهم في عِظَم الأجرام؛ كانت قامةُ الطّويل منهم مائة ذِراع، وقامة الصغير سِتّون ذِراعاً[٢].

عن الباقر عليه السلام: «كانوا كالنّخل الطّوال، وكان الرّجلُ منهم ينحو[٣] الجبل بيده فيهدِم منه قِطعة»[٤].

﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾ ونِعمه الجِسام عليكم، كَي يبعثكم ذِكرُ نِعَمه إلىٰ القِيام بشُكره، وبذل الجُهد في طاعته **﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾** وتفُوزون بالمَقصد الأعلىٰ؛ وهُو النّجاة مِن العَذاب، والدُّخول في الجنّة والنِّعَم الدّائمة.

في (الكافي): عن الصادق عليه السلام: «أتدري ما آلاءُ الله؟» قيل: لا، قال: «هي أعظمُ نِعَم الله على خلقه؛ وهِي ولايتُنا»[٥].

قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِن رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم

---

١. تفسير روح البيان ٣: ١٨٦.
٢. تفسير الرازي ١٤: ١٥٧، تفسير روح البيان ٣: ١٨٦.
٣. في تفسير الصافي: ينحر، يقال: نحا إليه، أي مال إليه، وأنحىٰ عليه: أقبل عليه، ويقال: نحر الشيء: قابله.
٤. مجمع البيان ٤: ٦٧٤، تفسير الصافي ٢: ٢١٠.
٥. الكافي ١: ١٦٩/٣، تفسير الصافي ٢: ٢١١.

مِنَ ٱلْمُنْتَظِرِينَ [٧٠ و ٧١]

ثمّ أنهم بعدما سمِعوا تِلك المَواعظ البليغة والنَصائح الجليلة، بالغوا في مُعارضتة وتَكذيبه و﴿قَالُوا﴾ مُجيبين عنه إنكاراً عليه واستبعاداً لقوله بالتّوحيد، حُبّاً لِما ألِفوه، وتمسُّكاً بتقليد الآباء: ﴿أَجِئْتَنَا﴾ يا هُود مِن مكان اعْتزالك، أو مِن السّماء؟، قالوه استهزاءً له، أو المُراد: حضرتَ في مُقابلنا، أو في مَحافلنا وقلتَ ما قلت ﴿لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُ﴾ ونخُصّه بالخُضوع والضَراعة ﴿وَنَذَرَ﴾ ونترُك عِبادة ﴿مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنا﴾ الأقدمون، مِن الكَواكب أو الأصنام، ونُعرض عن سِيرتهم، ونخرُج عن رِبقه تَقليدهم، لا يكون ذلك أبداً، فإذا علِمتَ أنّا نكون ثابتين علىٰ ما نحنُ عليه مِن الشِّرك، غير مُعتنين بما تَدعونا إليه ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ وتُهدِّدنا به مِن العَذاب الذي أمرتنا بالاتِّقاء منه ﴿إِن كُنْتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ﴾ في دَعوىٰ رِسالتك ووعيدك، وكانوا مُستهزئين به في سُؤالهم نُزول العَذاب، مُظهرين عدَم احتمالهم صِدقه.

فلمّا رآهم مُصرّين علىٰ كُفرهم، مُجدّين في تكذيبه، يئِس مِن إيمانهم و ﴿قَالَ﴾ تأسُّفاً عليهم: يا قوم ﴿قَدْ وَقَعَ﴾ ووَجب ﴿عَلَيْكُمْ مِن﴾ قِبَل ﴿رَبِّكُمْ﴾ معَ سَعة رَحمته ﴿رِجْسٌ﴾ وعَذاب، أو الرَّيْن في القُلوب ﴿وَغَضَبٌ﴾ شديد لأجل كُفركم وإصراركم عليه وعلىٰ معارضة رَسُوله.

ثمّ بالغ في تَوبيخهم علىٰ عِبادة الجَمادات وتَسميتها آلهة، ومُجادلتهم في ذلك بقوله: ﴿أَتُجَادِلُونَنِي﴾ وتُعارضونني ﴿فِي﴾ شأن ﴿أَسْمَاءٍ﴾ وألفاظٍ ﴿سَمَّيْتُمُوهَا﴾ ووضعتُموها للجَمادات ﴿أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُم﴾ مِن قِبَل أنفسكم وبمُقتضىٰ شَهواتكم، معَ أنّه لا معنىٰ لها في الحقيقة ولا مُسمّيات، لعدَم إمكان تعقُّل تحقُّق الأُلوهيّة في المُمكن ولَو كان أعلىٰ وأشرف بمَراتب مِن الجَمادات فضلاً عنها، مع أنّكم لَم تكتفوا بالتّسميّة، بَل التزمتُم بعِبادتها، والحالُ أنّه ﴿مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ وبجِوار عِبادتها ﴿مِن سُلْطَانٍ﴾ بيِّن، وحُجّة واضحة، وبُرهان قاطع، ومِن الواضح أنّه لا ينبغي للعاقل أن يلتزم بدِينٍ ليس عليه بيّنة ساطعة وحُجّة قاطعة، فإن كنتُم مُصرّين علىٰ ما أنتم عليه مِن اللّجاج وعِبادة الجَماد، ومُستهزئين بما أدعوكم إليه مِن التّوحيد، وسائلين مِنّي إنزال العذاب ﴿فَانتَظِرُوا﴾ نُزوله عليكم و﴿إِنِّي﴾ أيضاً ﴿مَعَكُم مِنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ له حتّىٰ ترَون وأرىٰ هَلاككم واستئصالكم.

فَأَنْجَيْنَاهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ [٧٢]

ثمَ أخبر سُبحانه بنُزول عذاب الاستئصال عليهم، وإكرام هُود ومَن آمن بـه تسـليةً للنبيّ ﷺ وتَهديداً لمُعارضيه مِن مُشركي مكّة بقوله: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ وآمنوا به من عـذاب الخِـزي ﴿بِرَحْمَةٍ﴾ عظيمة ﴿مِّنَّا﴾ عليهم، وإكرامنا إيّاهم بسـبب إيـمانهم وطـاعتهم ﴿وَقَطَعْنَا﴾ بـالعذاب ﴿دَابِرَ﴾ القوم ﴿الَّذِينَ﴾ كفروا و﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ مِن دلائل التّوحيد ومُعجزات هُود، واستأصلناهم وأهلكناهم عن آخرهم ﴿وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ بشيءٍ مِن الحقّ، ولَم يُرجَ لهم[١] الإيمان أبداً.

وكان هَلاكهم بالرِّيح العقيم تخرُج مِن تحت الأرضين السّبع، وما خرجتْ مِنها ريحٌ قَطّ إلّا علىٰ قوم عاد حينَ غضِب الله عليهم، فأمر الخُزّان عليهم أن يُخرجوا منها مثل سَعة الخاتم فعتَتْ علىٰ الخُزّان، فخرج علىٰ مِقدار مِنخر الثّور تغيُّظاً منها علىٰ قومِ عاد، فضجّ الخَزَنة إلىٰ الله تعالىٰ مِن ذلك فقالوا: ربّنا إنّها عتَتْ عن أمرنا ونحنُ نخافُ أن يهلِك مَن لم يعصِك مِن خلقك وعُمّار بِلادك، فبعث الله إليها جَبرئيل فردّها بجَناحه فقال لها: اخرُجي علىٰ ما أُمرتِ به، وأهلكتْ قـومَ عـادٍ ومَـن كـان بحضرتهم.

وعن (المجمع): عنه عليه السلام[٢]: «أنّ لله تعالىٰ بيتَ ريحٍ مُقْفل [عليه] لَو فُتحت لأذرَتْ[٣] ما بين السّماء والأرض، فما أُرسل إلى عادٍ إلّا قَدْر خاتم» قال: «وكان هُود وصالح وشُعيب وإسماعيل ونبيّنا صلّى الله عليهم أجمعين يتكلّمون بالعربيّة»[٤].

وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هٰذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ[٧٣]

ثمّ ذكر سُبحانه قِصة دَعوة صالح ومُعارضة قومه وهَلاكهم بالعذاب بقوله: ﴿وَإِلَىٰ﴾ قوم ﴿ثَمُودَ﴾ وهُم قبيلة مِن العرب سُمُّوا باسم أبيهم الأكبر ثَمود بن عاد بن إرَم بن سام ـ وقيل: سمُّوا به لِقلّة مائهم[٥] ـ أرسلنا ﴿أَخَاهُمْ﴾ في النَّسب ﴿صَالِحاً﴾.

عن الباقر عليه السلام: «أنّه أُرسل إلىٰ ثمود، وهي قرية واحدة لا تكمُل أربعين بيتاً عـلىٰ سـاحل البـحر صغيرة»[٦].

وقيل: كانت مَساكنهم بين الحِجاز والشّام إلىٰ وادي القُرىٰ، فبعث الله إليـهم صـالحاً، وكـان مِـن

---

١. في النسخة: بهم.
٢. في مجمع البيان: عن أبي جعفر عليه السلام.
٣. أذرت الريح التراب: أطارته وفرّقته.
٤. مجمع البيان ٤: ٦٧٦، تفسير الصافي ٢: ٢١٢.
٥. تفسير الرازي ١٤: ١٦١.
٦. اكمال الدين: ٢/٢٢٠، تفسير الصافي ٢: ٢١٢.

أوسطهم نسَباً وأفضلهم حسَباً، فدعاهم إلىٰ عِبادة الله، و﴿قَالَ﴾ لهم بلُطف وعُطوفة: ﴿يَا قَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ﴾ وحده ﴿مَا لَكُمْ مِن إِلٰهٍ غَيْرُهُ﴾.

في كيفية دعوة صالح ومحاجته ومعارضته قومه

قيل: لمّا دَعاهم إلىٰ التّوحيد طالبوه بالمُعجزة فقال: ما تُريدون؟ فقالوا: تخرُج معنا في عِيدنا، ونُخرج أصنامنا، وتسأل إلٰهك ونسأل أصنامنا، فإذا ظهر دُعاؤك اتّبعناك، وإن ظهر أثر دُعائنا اتّبَعْتَنا، فخرج معهم فسألوه أن يُخرج لهم ناقةً كبيرة مِن صَخرة مُعيّنة، فأخذ مَواثيقهم أنه إن فعل ذلك آمنوا به فقبلوا، فصلّىٰ رَكعتين ودَعا الله؛ فتمخّضت تِلك الصّخرة كما تتمخّض الحامل، ثمّ انفرجت وحرّكتْ النّاقة مِن وسطها، وكانت في غاية الكِبْر[١].

فبعد ظُهور هذه المُعجزة قال صالح: يا قوم ﴿قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ﴾ عظيمة، وحُجّة واضحة علىٰ صدقي في دَعوىٰ الرِّسالة والتّوحيد ﴿مِن﴾ قِبَل ﴿رَبِّكُمْ﴾ فلا عُذْر لكم في ترك الإيمان بعدها، فإنّكم سألتُم أن أُخرِج مِن الصّخرة ناقةً لتكون آية علىٰ صِدقي، فانظُروا ﴿هٰذِهِ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾ ظاهرة، ومُعجزة باهرة ﴿فَذَرُوهَا﴾ ودَعُوها ﴿تَأْكُلْ﴾ وترتَع مِن الكَلأ والعُشب ﴿فِي أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ وأكرموها ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ﴾ ولا تقرَبوها بإيذاءٍ ومَكروه فضلاً عن القتل والجُرح ﴿فَيَأْخُذَكُمْ﴾ ويُصيبكم إذَن ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وَٱذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُوا آلَاءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُرْسَلٌ مِن رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ * قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ [٧٤-٧٦]

ثمّ أنّه بعدَ تَهديدهم علىٰ العِصيان رغّبهم في الطّاعة والانقياد بتَذكيرهم نِعَم الله المُوجبة لشُكره بقوله: ﴿وَٱذْكُرُوا﴾ نِعمة الله عليكم ﴿إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ﴾ إهلاكه قوم ﴿عَادٍ﴾ بشِركهم وطُغيانهم ﴿وَبَوَّأَكُمْ﴾ وأسكنكم ﴿فِي ٱلأرضِ﴾ التي كانوا يسكُنونها، وهي أرض حَجَر بين الحِجاز والشّام، وأنتم ﴿تَتَّخِذُونَ﴾ وتبنُون ﴿مِن سُهُولِهَا﴾ والمُسطّحات الليّنات منها لأنفسكم ﴿قُصُوراً﴾ وأبنية رفيعة ﴿وَتَنْحِتُونَ﴾ وتنجُرون مِن ﴿ٱلجِبَالَ﴾ والصُّخور ﴿بُيُوتاً﴾ ومَساكن.

نُقل أنّه لمّا أهلك الله تعالىٰ عاد، أقام ثمودَ مقامهم وعمّروا بِلادهم وأخلفوهم في أرضهم في

---

١. تفسير الرازي ١٤: ١٦٢.

خِصْبٍ وسَعة، وطالت أعمارُهم وكثُرتْ نِعَمُهم، وبنَوا قُصوراً في الأرض السُّهلة لصَيفهم، ونَحتوا في الجِبال بُيوتاً لشِتائهم.

وقيل: إنّهم لطُول أعمارهم كانوا يحتاجون إلىٰ أن ينحِتوا مِن الجِبال بُيوتاً؛ لأن السُّقوف والأبنيَة كانت تبلىٰ قبل فَناء أعمارهم، فعتَوا علىٰ الله وأفسدوا في الأرض.

ثمّ بالغ صالح في ترغيبهم بقوله: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللهِ﴾ ونِعَمه العِظام عليكم، واجتهدوا في أداء شُكرها بالتّوحيد والقِيام بالطّاعة ﴿وَلَا تَعْثَوْا﴾ ولا تَسعَوا ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ حال كونكم ﴿مُفْسِدِينَ﴾ فيها.

﴿قَالَ الْمَلَأُ﴾ والأشراف ﴿الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ وترفّعوا عن الإيمان به واتّباعه، وهُم ﴿مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ واستُحقِروا لفَقرهم ﴿لِمَنْ آمَنَ﴾ به ﴿مِنْهُمْ﴾ واتّبعوه، إنكاراً واستهزاءً بهم: ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُرْسَلٌ مِن رَبِّهِ﴾ ولمّا كانت رِسالته لشَهادة مُعجزاته واضحة، عدَل المُؤمنون عن جَواب سؤالهم، وأخبروا بإيمانهم بما جاء به و﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ﴾ صالح ﴿بِهِ﴾ من التّوحيد والأحكام ﴿مُؤْمِنُونَ﴾ مُصدّقون ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ عِناداً أو لَجاجاً: ﴿إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ﴾ مِن رِسالة صالح وصِدق دَعواه مِن التّوحيد ووَعد العذاب ﴿كَافِرُونَ﴾ وجاحدون.

فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ * فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلٰكِن لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ [٧٧ـ٧٩]

في كيفية عقر ناقة صالح

ثمّ أنّه رُوي أنّه زيّنت عَقْر الناقة امرأتان لمّا أضرّتْ بمَواشيهما، وكانتا كثيرتي المَواشي، وكانت إحداهما جميلة الخَلْق، فطلبتْ ابنَ عمٍّ لها يُقال له مِصدَع ابن دهر، وجعلت له نفسها إن عقَر النّاقة، فأجابها إلى ذلك، ثمّ طلبتْ قدار بن سالف وكان رَجلاً أحمر أزرق قصيراً، يزعُمون أنّه وَلَدُ زنا، ولكنّه ولُد في فِراش سالف، فقالت: يا قدار، أزوّجك أي بناتي شِئتَ علىٰ أن تعقِر النّاقة، وكان مُتّبعاً في قومه، فأجابها أيضاً، فانطلق قدار ومصدع فاستعانا بطُغاة ثمود، فأتاهم تسعةُ رَهْط فاجتمعوا علىٰ عَقر النّاقة، فأوحىٰ الله تعالى إلى صالح: أنّ قومك سيعقرون الناقة، فقال لهم صالح ذلك، فقالوا: ما كُنّا لنفعل[1].

---

١. تفسير روح البيان ٣: ١٩٢.

وقيل: إنّ صالح قال لقومه: يُولَد في شهركم هذا غلام يكون هَلاككم بيده، فذبح تِسعةُ نَفرٍ منهم أبناءهم، ثمّ وُلد العاشر فأبىٰ أبوه أن يذبحه، فنبَت نباتاً سريعاً، ولما كبِر الغُلام جلس مع قومٍ يُصيبون مِن الشّراب، فأرادوا ماءً يمزُجونه به؛ وكان يومَ شِربِ النّاقة، فما وجدوا الماء واشتدّ ذلك عليهم، فقال الغُلام: هل لكم في أن أعقِر النّاقة؟ فشدّ عليها، فلمّا بصُرت به شدّتْ عليه فهرب منها إلىٰ خلف، فأحاشوها عليه ﴿فَعَقَرُوا ٱلنَّاقَةَ﴾ فسقطت[1].

﴿وَعَتَوْا﴾ وتجافَوا ﴿عَنْ﴾ امتثال ﴿أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ بتَرك مَسّ الناقة بسُوء. قيل: إن مصدعاً وقداراً وأصحابهما التّسعة رَصدوا النّاقة حينَ صدَرتْ عن الماء، فكمَن لها مصدع في أصل صخرة، فمرّت النّاقة عليه فرماها بسَهم، فانتظم به عَضلة ساقها، ثمّ خرج قدار فعقَرها بالسّيف فخرّتْ ترغو[2]، ثمّ طعنها في لَبّتها[3] ونَحرها، وخرج أهلُ البلد واقتَسموا لَحمها[4].

﴿وَقَالُوا﴾ استهزاءً: ﴿يَا صَالِحُ ٱئْتِنَا بِمَا﴾ كُنتَ ﴿تَعِدُنَا﴾ مِن العذاب علىٰ مَسّ النّاقة بسُوء ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ فإنّ الرّسُول لابُدّ مِن أن يكون صادق القَول والوَعد.

رُوي أنّهم لمّا عقَروا النّاقة هرب ولدُها إلىٰ جبلٍ فَرغا ثلاثاً، وكان صالح قال لهم بعدَ بُلوغه خبر قَتل النّاقة: ادرُكوا الفَصيل عسىٰ أن يدفع عنكم العذاب، فلم يقدِروا عليه، فانفرجتْ الصّخرة بعد رغائه فدخلها، فقال صالح: لكُلّ رَغْوةٍ أجلُ يوم، تمتّعوا في داركم ثلاثة أيّام. وقد عقَروا النّاقة يومَ الأبعاء، فقال لهم صالح: ابشِروا بعَذاب الله ونِقمته، فقالوا: ما علامته؟ فقال: تُصبحون غَداةَ يومِ الخميس ووجُوهكم مصفرّة، ثمّ تُصبحون يومَ الجُمعة ووجُوهكم مُحمرّة، ثمّ تُصبحون يومَ السّبت ووجوهكم مُسودّة، ثمّ يصبّحكم العذابُ أوّلَ يومِ الأحد.

فكان الأمرُ كما وصف، حيثُ أصبحوا يومَ الخَميس كأنّ وُجوههم طُليتْ بالزّعفران؛ صغيرهم وكبيرهم، ذَكَرهم وأُنثاهم، فأيقنوا بالعذاب، فطلَبوا صالحاً ليقتلُوه، فهرب منهم واختفىٰ في مَوضعٍ فلَم يجِدوه، فجعلوا يُعذّبون أصحابه ليدُلّوهم عليه، فلمّا أصبحوا يومَ الجُمعة أصبحتْ وُجوههم مُحمرّة كأنّما خُضبت بالدّماء، فصاحوا بأجمعهم وضجّوا وبكَوا وعرَفوا أنّ العذابَ قد دنا إليهم، وجعل كُلُّ واحدٍ يُخبِر الآخر بما يرىٰ فيوجهه، ثمّ أصبحوا يومَ السّبت ووجُوهم مُسوَدّة كأنّها طُليت بالقَار والنّيل[5]، فصاحوا جميعاً: ألا قد حضَر العذابُ، فلمّا كانت ليلةُ الأحد خرج صالح ومن آمن معه

---

١. تفسير الرازي ١٤: ١٦٢.
٢. رغَت الناقة: إذا صوّتت وضَجّت.
٣. اللَّبَّة: موضع النحر من عنق الناقة.
٤. تفسير روح البيان ٣: ١٩٣.
٥. القار: الزّفت، والنّيل: مادة زرقاء للصّباغ تستخرج من ورق نباتٍ بنفس الاسم.

مِن بين أظهُرهم إلىٰ الشام فنزل رَملة فلسطين.

فلمّا كان يومُ الأحد وهُو اليوم الرّبع وارتفع النّهار، تحنّطوا بالصَّبِر[1] لِئلا يتعرّض لهم السِّباع لمَرارته، وتكفّنوا بالأنطاع[2]، وألقَوا نُفوسهم علىٰ الأرض يُقلّبون أبصارهم إلىٰ السّماء مرّه وإلىٰ الأرض اُخرىٰ، لا يدرون مِن أين يأتيهم العَذاب، فأتَتْهم صيحةٌ مِن السّماء فيها صوتُ كُلّ صاعقة وصوت كُلّ شيء له صوت[3].

﴿فَأَخَذَتْهُمُ﴾ بعدَ تِلك، ومِن أثرها ﴿ٱلرَّجْفَةُ﴾ والزّلزلة مِن الأرض، فانقطعتْ قُلوبُهم في صُدورهم ﴿فَأَصْبَحُوا﴾ كبيرُهم وصغيرُهم ﴿فِي دَارِهِمْ﴾ وبَلدهم ﴿جَاثِمِينَ﴾ موتى غير مُتحرّكين.

في ذكر قصة ثمود وهلاكهم

عن الصادق عليه السلام، في قوله تعالى ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾[4]: «هذا فيما كذّبوا صالحاً، وما أهلك الله تعالىٰ قوماً قَطّ حتّىٰ يبعث إليهم قبل ذلك الرُّسُل فيحتجّوا عليهم، فبعث الله إليهم صالحاً، فَدعاهم إلىٰ الله فَلم يُجيبوا وعتَوا عليه وقالوا: لَن نُؤمن لك حتّىٰ تُخرج لنا مِن هذه الصّخرة ناقةً عُشَراء[5]، وكانت الصّخرة يُعظّمونها ويعبُدونها، ويذبَحون عندها في رأس كُلّ سنة، ويجتمعون عندها، فقالوا له: إن كُنتَ كما تزعُم نبيّاً رَسُولاً، فادعُ إلهك حتّىٰ يُخرج لنا مِن هذه الصّخرة الصمّاء ناقةً عُشَراء، فأخرجها الله كما طلَبوا منه، ثمّ أوحىٰ الله إليه: أن يا صالح، قُل لهم: إنّ الله قد جعل لهذه النّاقة مِن الماء شِرب يومٍ ولكم شِرب يوم، وكانت النّاقة إذا كان يومُ شِربها شربت ذلك اليوم الماء، فيحلِبونها فلا يبقىٰ صغيرٌ ولاكبيرٌ إلّا شرِب مِن لَبَنها يومَهم ذلك، فإذا كان اللّيلُ وأصبحوا غدَوا إلىٰ مائهم فشرِبوا منه ذلك اليوم ولَم تشرَب النّاقةُ ذلك اليوم، فمكثوا بذلك ما شاء الله.

ثمّ أنّهم عتَوا علىٰ الله ومَشىٰ بعضُهم إلىٰ بعض فقالوا: اعْقِروا هذه النّاقة واستريحوا مِنها، لا نرضىٰ أن يكون لها شِربُ يومٍ ولنا شِرب [يوم]، ثمّ قالوا: مَن الذي يلي قَتْلها ونجعل له جُعلاً[6] ما أحبّ، فجاءهم رجلٌ أحمر أشقر أزرق ولدُ زنا، لا يُعرف له أبٌ يُقال له قذار، شقيٌّ مِن الأشقياء مشؤُوم عليهم، فجعلوا له جُعلاً، فلمّا توجّهتْ النّاقة إلىٰ الماء الذي كانت ترِده، تركها حتّىٰ شربَت ذلك الماء وأقبلتْ راجعة، فقعد لها في طريقها فضربها بالسّيف ضربةً فلَم تعمل شيئاً، فضربها ضربةً أُخرىٰ فقتلها وخرّتْ إلىٰ الأرض علىٰ جَنبها، وهرب فصيلُها حتىٰ صعِد إلى الجبل فرغا ثلاثَ مرّات إلىٰ

---

١. الصَّبِر: عُصارة شجرٍ مُرٍّ، واحدته: صَبِرة.
٢. الأنطاع، جمع نِطْع، وهو بساط من جِلد.
٣. تفسير روح البيان ٣: ١٩٤.
٤. القمر: ٢٣/٥٤.
٥. العُشَراء: الناقة التي مضىٰ علىٰ حَملها عشرةُ أشهر.
٦. الجُعْل: ما يُجعل على العمل مِن أجرٍ ورَشوة، وكذا الجَعالة والجِعال.

السّماء، وأقبل قومُ صالح فلَم يبقَ أحدٌ منهم إلّا شرَكه في ضربته، واقتسموا لَحمها فيما بينهم، فلَم يبقَ مِنهم صغيرٌ ولا كبير إلّا أكل منها.

فلمّا رأىٰ ذلك صالح أقبل إليهم فقال: يا قوم، ما دَعاكم إلىٰ ما صنعتُم، أعصيتُم ربّكم؟! فأوحىٰ الله إلىٰ صالح: إنّ قومك قد طغَوا وبغَوا، وقتلوا ناقةً بعثتُها إليهم حُجّةً عليهم، ولَم يكُن عليهم منها ضرَرٌ، وكان لهم فيها أعظم المنفعة، فقل لهم: إنّي مُرسِلٌ إليكم عذابي إلىٰ ثلاثة أيام، فإن هُم تابوا ورجَعوا قَبِلتُ تَوبتهم وصدَدْتُ عنهم، وإن هُم لَم يتُوبوا ولَم يرجِعوا بعثتُ عليهم عذابي في اليوم الثّالث، فأتاهم صالح فقال لهم: يا قوم، إنّي رسول الله ربكم إليكم، وهُو يقول لكم: إن أنتم تُبتم ورجَعتُم واستغفرتُم غفرتُ لكم وتُبت عليكم، فلمّا قال لهم ذلك كانوا أعتىٰ ما كانوا وأخبث، وقالوا: يا صالح، إئتِنا بما تعِدُنا إن كُنت مِن المرسلين، قال: يا قوم، إنّكم تُصبحون غداً ووُجوهكم مُصفرّة، [واليوم الثاني وجوهكم مُحمرّة، واليوم الثالث وجوهكم مُسودّة.

فلَما أن كان أوّل يومٍ أصبحوا ووجوههم مصفرّة]، فمشىٰ بعضهم إلىٰ بعضٍ وقالوا: قد جاءكم ما قال لكم صالح، فقال العُتاة منهم: لا نسمع قول صالح ولا نقبَل قولَه وإن كان عظيماً، فلمّا كان اليومُ الثاني أصبحتْ وجُوهُهم مُحمرّة، فمشىٰ بعضُهم إلىٰ بعضٍ فقالوا: يا قوم قد جاءكم ما قال لكم صالح، فقال العُتاة منهم: لو أُهلكنا جميعاً ما سمِعنا قول صالح، ولا تركنا آلهتنا التي كان آباؤنا يعبُدونها، ولَم يتُوبوا ولَم يرجِعوا، فلمّا كان اليومُ الثالث أصبحوا ووجُوههم مُسودّة، فمشىٰ بعضُهم إلىٰ بعضٍ وقالوا: يا قوم، قد أتاكم ما قال لكم صالح، فقال العُتاة منهم: لا نقبل[1] ما قال لنا صالح، فلمّا كان نِصف اللّيل أتاهم جَبرئيل فصرخ بهم صَرخةً خرقتْ تِلك الصرخة أسماعهم، وفلقت قُلوبهم، وصدَعتْ أكبادَهم، وقد كانوا في تِلك الثلاثة أيام قد تحنّطوا وتكفّنوا وعلِموا أنّ العذاب نازلٌ بهم، فماتوا أجمعون في طَرفة عين صغيرُهم وكبيرُهم». إلىٰ أن قال: «ثمّ أرسل الله عليهم مع الصَيحة النّارَ مِن السّماء فأحرقتْهم أجمعين»[2].

﴿فَتَوَلَّىٰ﴾ صالح وأعرض **﴿عَنْهُمْ﴾** بعد هَلاكهم **﴿وَقَالَ﴾** تحسُّراً وتحزُّناً عليهم: **﴿يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى﴾** وَدعوتُكم إلىٰ الحقّ **﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾** بالتّرغيب والتّرهيبَ، وبذلتُ جُهدي في هِدايتكم إلى ما فيه خيرُكم وصَلاحُكم **﴿وَلٰكِن﴾** لمَرارة الحقّ وثِقْل النُّصح عليكم، كنتُم **﴿لَاتُحِبُّونَ ٱلنَّاصِحِينَ﴾** وتستهزئون بي وبالمؤمنين.

عن جابر بن عبدالله أنّه قال: لمّا مرّ النبيّ ﷺ بالحِجْر في غَزوة تَبوك ـ يعني: مَواضع ثمود ـ قال

---

١. في الكافي: قد أتانا.   ٢. الكافي ٨: ٢١٤/١٨٧، تفسير الصافي ٢: ٢١٥.

لأصحابه: «لا يدخُلَنَ أحدٌ منكم هذه القرية، ولا تشربوا مِن مائها، ولا تدخُلوا على هؤلاء المُعذّبين، إلّا أن تكونوا باكين أن يُصيبكم مِثلَ ما أصابهم». ثمّ قال: «لا تسألوا رَسُولكم الآيات، فإنّ هؤلاء قوم صالح، سألوا رَسُولهم الآية، فبعثَ الله إليهم النّاقة، فكانت ترِدُ مِن هذا الفَجّ، وتصدُر مِن هذا الفَجّ فتشرب ماءهم يومَ ورودها» وأراهم مُرتقىٰ الفصيل [حيث ارتقى]، ثمّ أسرع رَسُول الله ﷺ السّيرَ حتّىٰ جاوز الوادي[١].

في ذكر فضيلة لأمير المؤمنين عليه السلام

روىٰ الفخر الرازي وغيره مِن العامّة عن النبيّ ﷺ أنه قال لعلي عليه السلام: «يا علي، أتدري مَن أشقىٰ الأوّلين؟» قال: «الله ورَسُوله أعلم»، قال: «عاقر ناقة صالح»، ثمّ قال: «أتدري مَن أشقىٰ الآخرين؟» قال: «الله ورسوله أعلم». قال: «قاتِلُك»[٢].

وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ ٱلْفَاحِشَةَ مَاسَبَقَكُمْ بِهَا مِن أَحَدٍ مِنَ ٱلْعَالَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِن دُونِ ٱلنِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ * وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ * فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَابِرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَطَراً فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ [٨٠ ـ ٨٤]

ثمّ ذكر شبحانه قِصّة قوم لُوط وهَلاكهم بقوله: ﴿وَلُوطاً﴾ أرسلنا إلىٰ قومه. قيل: كان ابن هاران أخي إبراهيم[٣].

وعن الصادق عليه السلام: «أنّ أمّ إبراهيم وأمّ لوط كانتا أختين، وهُما ابنتا لاحج، وكان اللاحج نبياً مُنذراً ولَم يكُن رَسُولاً»[٤].

وعن الباقر عليه السلام: «كان لُوط ابن خالة إبراهيم، وكانت سارة امرأة إبراهيم أخت لُوط، وكان لُوط وإبراهيم نبيّين مُنذِرين»[٥].

في كيفية دعوة لوط

وعن الصادق عليه السلام: «أنّ إبراهيم خرَج مِن بلاد نمرود ومعه لُوط لا يُفارقه وسارة، إلىٰ أن نزل بأعلىٰ الشّامات، وخلّف لوطاً بأدنى الشامات»[٦].

وقيل: إنّ لوطاً هاجر مع ابراهيم إلىٰ الشّام، ونزل الأُردُنّ ـ وهُو كُورة بالشّام ـ فأرسله

---

١. تفسير روح البيان ٣: ١٩٤.
٢. تفسير الرازي ١٤: ١٦٣، تفسير روح البيان ٣: ١٩٥، تفسير الكشاف ٢: ١٢١.
٣. تفسير روح البيان ٣: ١٩٥.
٤. الكافي ٨: ٥٦٠/٣٧٠، تفسير الصافي ٢: ٢١٧.
٥. علل الشرائع: ٥٤٩/٤، تفسير الصافي ٢: ٢١٧.
٦. الكافي ٨: ٣٧١و٣٧٣/٤، تفسير الصافي٢: ٢١٧.

الله إلىٰ أهل سَدُوم وهُو بَلد بحِمص[١].

وقيل: أُرسل إلىٰ خمسة بِلاد أعظمها سَدُوم، وكان في كلّ بلدٍ أربعة ألف ألف نفس، وكان لُوط يأمُرهم بالخَيرات وينهاهم عن الفواحش[٢].

﴿إذ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ توبيخاً لهم وإنكاراً لعملهم القبيح عليهم: ﴿أَتَأْتُونَ﴾ وترتكبون الفِعْلة ﴿الفَاحِشَةَ﴾ واللّواطة البالغة في القبح الغايّة ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا﴾ وما بادر قَبلكم إليها ﴿مِنْ أَحَدٍ﴾ من بني آدم ﴿مِنَ ٱلعَالَمِينَ﴾ والقُرون الأوّلين.

ثمّ صرّح بمُراده مِن الفاحشة بقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ﴾ وتنكِحون ﴿ٱلرِّجَالَ﴾ والذُّكران ﴿شَهْوَةً﴾ وطلباً لِلَذّة النَفس ﴿مِن دُونِ ٱلنِّسَاءِ﴾ ومُتجاوزين عن الزّوجات اللاتي خُلِقْنَ لقضاء الشّهوة بِهنّ، وأُبيح التمتّع منهنّ. ثمّ أضْرَبَ عن التّوبيخ وذَمّهم بخُبث الذّات وخِفّة العَقل بقوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ ومُتجاوزون عن حُدود العقل والشّرع، أو مُتجاوزون في الفساد.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «أنّ أوّل مَن عمِل عمَل قوم لُوطٍ إبليس، فإنّه أمكن مِن نفسه»[٣].

و[في] (الكافي): عن أحدهما عليهما السلام، في قومِ لُوط: «أن إبليس أتاهم في صُورةٍ حَسَنة فيها تأنيث، وعليه ثياب حَسَنة، فجاء إلىٰ شُبّان مِنهم، فأمرهم أن يقعوا به، ولَو طلَب إليهم أن يقع بهم لأبَوا عليه؛ ولكن طلب إليهم أن يقعوا به، فلمّا وقعوا به التذّوه، ثمّ ذهب [عنهم] وتركهم، فأحال بعضَهم علىٰ بعضٍ»[٤].

فـي قـصة قـوم لوط

في (المجمع): عن الباقر عليه السلام: أنّ لُوطاً لبِث في قومه ثلاثين سنة، وكان نازلاً فيهم ولَم يكُن مِنهم، يدعوهم إلىٰ الله، وينهاهم عن الفواحش، ويحُثّهم علىٰ الطّاعة، فلَم يُجيبوه ولَم يُطيعوه، وكانوا لا يتطهّرون مِن الجَنابة، بُخَلاء أشحّاء علىٰ الطعام[٥]، فأعقبهم البُخل الدّاءَ الذي لا دَواء له في فُروجهم، وذلك أنّهم كانوا علىٰ طَريق السيّارة إلىٰ الشّام ومِصر، وكان ينزل بهم الضِّيفان، فدعاهم البخلُ إلىٰ أن كانوا إذا نزل بهم الضَّيف فضَحوه، وإنّما فعلوا ذلك لتنكّل[٦] النازلة عليهم مِن غير شَهوة بهم إلىٰ ذلك، فأوردهم البُخل هذا الدّاء حتّىٰ صاروايطلُبونه مِن الرِّجال ويعطون عليه الجُعل، وكان لُوط سخيّاً كريماً، يَقري الضَيف إذا نزل به، فنهوه عن ذلك، فقالوا: : (لا تَقري ضيفاً ينزِل بك)، فإنّك إن فعلتَ فضَحْنا ضيفك، فكان لوط إذا نزل به الضَيف كتمَ

---

١. تفسير روح البيان ٣: ١٩٥.
٢. تفسير روح البيان ٣: ١٩٥.
٣. تفسير الصافي ٢: ٢١٧.
٤. الكافي ٥: ٤/٥٤٤، تفسير الصافي ٢: ٢١٧.
٥. في النسخة: على الضيافة.
٦. أي تُدفَع عنهم.

أمره مَخافة أن يفضحه قومُه، وذلك أنّه لَم يكُن لِلُوط عشيرة فيهم»[١].

وعن (العلل) و(العيّاشي): مِثله[٢].

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ﴾ لُوطٍ وأتباعه النّاهين عن الفاحشة مِن ﴿قَوْمِهِ﴾ بعد إبلاغهم النُّصح شيئاً ﴿إِلَّا أَن قَالُوا﴾ فيما بينهم تخلُّصاً مِن مَواعظ لوط وأتباعه: يا قوم ﴿أَخْرِجُوهُم﴾ جميعاً ﴿مِن قَرْيَتِكُمْ﴾ وبلدكم ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ﴾ وجمَاعة ﴿يَتَطَهَّرُونَ﴾ مِن الرّذائل، ويتنزّهون مِن الخَبائث والفَواحش، قيل: كانوا مُستهزئين بهم[٣] بهذا القول، فاستحقّوا العَذاب بطُغيانهم وكُفرهم واستخفافهم بلُوط ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ وأتباعه المُؤمنين به ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُ﴾ وزوجته الكافرة إنّها ﴿كَانَتْ مِنَ ٱلْغَابِرِينَ﴾ والباقين في القرية غير المُدركين للنّجاة. قيل: كانت تُبطن الكُفر وتُغري الكفار على إنكار لُوط[٤] ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم﴾ مِن السّماء ﴿مَطَراً﴾ مُعجباً؛ لأنّه كان مِن الحِجارة ﴿فَانظُرْ﴾ وتأمّل أيُّها العاقل، النّاظر في العواقب، والمُتأمّل في الأمور ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ﴾ أمر ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ والعاصين بالكُفر وتَكذيب الرُّسُل حتّىٰ تعتبر بحالهم، وتحترز مِن أعمالهم.

في هلاك قوم لوط

قيل: لمَا كثُرت فيهم اللِّواطة زَماناً عجّت الأرضُ إلىٰ ربّها، فسمِعتْ السّماء فعجّتْ إلىٰ ربّها، فسمِع العَرش فعجّ إلىٰ ربّه، فأمر الله السّماء أن تحصِبهم، والأرض أن تخسِف بهم، فأُمطروا أوّلاً بالحِجارة، ثمّ خُسِفت بهم الأرض. وقيل: خُسِف بالمُقيمين وأُمطرتْ الحِجارة علىٰ مُسافريهم.

رُوي أنّ تاجراً منهم كان في الحرَم، فوقف له الحجر أربعين يوماً حتّىٰ قضىٰ تِجارته، وخرج مِن الحَرم فوقع عليه[٥].

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَاقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللهَ مَالَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا ٱلنَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ [٨٥]

في قصة شعيب وقومه

ثمّ ذكر سُبحانه قِصّة دعوة شُعيب ومُعارضة قومه له وهَلاكهم بقوله: ﴿وَإِلَىٰ﴾ قبيلة ﴿مَدْيَنَ﴾ بن إبراهيم أرسلنا ﴿أَخَاهُمْ﴾ في النّسب، وكان اسمُه ﴿شُعَيْباً﴾ قيل: هو ابن ميكيل بن يشجر بن مدين، وإنّ مَدين تزوّج ريثا بنت لُوط فولدتْ له وكثُر نسلُه،

---

١. مجمع البيان ٤: ٦٨٥، تفسير الصافي ٢: ٢١٨.

٢. علل الشرائع: ٤/٥٤٨، تفسير العياشي ٢: ٢٣٣٩/٤٣٢، تفسير الصافي ٢: ٢١٨.

٣. في النسخة: لهم.

٤. تفسير روح البيان ٣: ١٩٦.

٥. تفسير روح البيان ٣: ١٩٧، تفسير أبي السعود ٣: ٢٤٦.

فصاروا قبيلةً سمُّوا باسم أبيهم، وإنّ شُعيباً بكىٰ من خَشية الله حتّىٰ ذهبت عيناه، وكان يُقال له خَطيب الأنبياء لحُسن مُراجعة قومه، وكانوا أهل بَخْسٍ للمِكيال والميزان[1]، فدعاهم شُعيب أوّلاً إلىٰ التّوحيد و﴿قَالَ يَاقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللهَ﴾ فإنّه ﴿مَالَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ﴾ وخالق مُستحقّ للعِبادة ﴿غَيْرُهُ﴾، ثمّ استدلّ علىٰ صِحّة نُبوّته وصِدق دَعوته بمُعجزته التي لابُدّ لكُلّ نبيٍّ مِن إتيانها إثباتاً لنُبوّته بقوله: ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ﴾ وظهرتْ لكم ﴿بَيِّنَةٌ﴾ ومُعجزة باهرة ﴿مِن﴾ قِبَل ﴿رَبِّكُمْ﴾ تصديقاً لنُبوّتي.

أقول: لَم نعثَر علىٰ تفصيل مُعجزاته.

وقيل: إنّه كان إذا أراد الصُّعود علىٰ الجَبل العظيم انْحَطّ الجبل ليصعد عليه بسُهولة، وكان يُخبر بالمُغيّبات.

ثمّ لمّا كان القبيح الشائع في زمانه في قومه البَخْس في المِكيال والمِيزان، بدأ بعدَ الدّعوة إلىٰ التّوحيد بالنّهي عن البَخس بقوله: ﴿فَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ﴾ إذا أدّيتُم حُقوق النّاس به ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾ إذا وزنتموها ﴿وَلَا تَبْخَسُوا﴾ ولا تنقُصوا ﴿ٱلنَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ وحُقوقهم مُطلقاً [سواءً أ] كانت في المكيلات والمَوزونات، أو في غيرهما ﴿وَلَا تُفْسِدُوا﴾ بالشِّرك وتَضييع الحُقوق ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ولا تُشيعوا الظُّلم فيها ﴿بَعْدَ إِصلاحِهَا﴾ مِن جانب الله ببَعث الرُّسُل، وتَشريع الأحكام، وإيجاب العَدل ﴿ذَلِكُمْ﴾ الإيفاء ﴿خَيرٌ لَكُم﴾ وأنفع في الدُّنيا لإيجابه رَغبة النّاس في مُعاملتكم وكَثرة أرباحكم، وفي الآخرة بغاية إكرامكم وإجزال ثَوابكم علىٰ التّوحيد والعَدل في الحُقوق ﴿إِن كُنتُم مُؤمِنِينَ﴾ بي وبدَار الجَزاء.

وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً وَٱذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَٱنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ [٨٦]

ثمّ أنّه قيل: إنّ القوم كانوا إذا رأوا أحداً يُريد شُعيباً يقولون له: لا يفتِنَنّك شعيبٌ عن دِينك فإنّه كذّاب، وكانوا يتوعّدون مَن آمن به، وقيل: إنّهم يقطعون الطّريق، فنهاهم عن ذلك بقوله: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾ وفي كُلّ طَريق، حالَ كَونكم ﴿تُوعِدُونَ﴾ وتُهدّدون النّاس علىٰ الإيمان بي، أو تُخوّفونهم علىٰ أنفسهم وأموالهم وقيل: إنّ المُراد: ولاتقتدوا بالشّيطان في قوله: **﴿لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم﴾**[2].

﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللهِ﴾ وتمنعون عن السُّلوك في طَريق عُبوديّته بتَحصيل مَعارفه والمُداومة

---

١. تفسير روح البيان ٣: ٢٠٠.

٢. الأعراف: ١٦/٧.

على العمل بأحكامه ﴿مَنْ آمَنَ بِهِ﴾ وصدَق بربوبيّته وتَوحيده ﴿وَتَبْغُونَهَا﴾ وتطلُبون لها ﴿عِوَجاً﴾ ومَيلاً وانحرافاً عن الاستقامة التي تكون للحقّ بإلقاء الشُّبُهات والحِيَل والتَسويلات.

في كيفية دعوة شعيب ومحاجّته

ثمَ رغّبهم في الايمان والطاعة بقوله: ﴿واذكُرُوا﴾ نعمة الله عليكم ﴿إذ كُنتُم﴾ في بدو الأمر ﴿قليلاً﴾ مِن حيث النَسل والمال ﴿فَكَثَّرَكُمْ﴾ فيهما بفضله ورَحمته.

ثمَ وعظهم وهدّدهم علىٰ الكُفر والمُخالفة بقوله: ﴿وَٱنظُرُوا﴾ وتفكّروا في الأُمَم الماضية أنّه ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ﴾ أمر ﴿الْمُفْسِدِينَ﴾ في الأرض مِنهم؛ كقوم نُوحٍ وعادٍ وثمود، واعتبِروا بهم، واحْذروا أن تكونوا مِثلهم في الكُفر والشِّقاق معَ الرُّسُل واستحقاق عذاب الاستئصال.

وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِى أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَاكِمِينَ * قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَاشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ * قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا ٱللهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ ٱللهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْماً عَلَى ٱللهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ ٱلْفَاتِحِينَ * وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ[٨٧_٩٠]

ثمَ لمّا كان الكُفّار يطعنون علىٰ المؤمنين بالفقر ويقولون لهم: لَو كنتُم علىٰ الحقّ لكان لكم القُوّة والثَّروة، وحيثُ إنّ لنا الغِنىٰ والشَوكة كان الحقّ معنا، ردّهم بأنّ الحقّ لمَن كان له حُسن العاقبة، وسلّىٰ قُلوبَ المُؤمنين به، وهدّد الكُفّار بالعذاب بقوله: ﴿وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِى أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ من التَوحيد ودَار الجزاء وأحكام الله وقَوانينه المُقرّرة في شَرعه ﴿وَطَائِفَةٌ﴾ أُخرىٰ منكم ﴿لَمْ يُؤْمِنُوا﴾ بما جئتُ به إصراراً علىٰ الكُفر، ولَجاجاً معَ الحقّ ﴿فَاصْبِرُوا﴾ يا قوم وتربّصوا، ولا تغترّوا بما آتاكم الله في الدُّنيا ﴿حَتَّىٰ﴾ يأتي الوقت المَوعود، وهُو يومُ القيامة، أو وقت نُزول عذاب الاستئصال، إذَن ﴿يَحْكُمَ ٱللهُ بَيْنَنَا﴾ وبينكم بالحق مِن نَصْري ونَصر مَن معي وإعلاء دَرجاتنا، وخَزي الكافرين وتَعذيبهم ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَاكِمِينَ﴾ وأعدل القاضين، لا مُعقّب لحُكمه، ولا رادّ لقضائه.

في محاجة شعيب مع قومه وكيفية هلاك القوم

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا﴾ وترفّعوا عن قَبول الحقّ ﴿مِن قَوْمِهِ﴾ بعدَ المَواعظ الشافية والنّصائح البليغة: ﴿لَنُخرِجَنَّكَ يا شُعَيْبُ﴾ بالأصالة ﴿وَٱلَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ﴾

تَبَعاً لك ﴿مِن قَرْيَتِنَا﴾ وبلدنا بُغضاً لكم، وتخلُّصاً مِن زَحمتكم وفِتنتكم ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ﴾ ولترجعُنَّ ﴿فِى مِلَّتِنَا﴾ مِن عِبادة الأصنام.

وإنّما عبّروا عن الدخُول في مِلّتهم بالعَود ـ مع أنّ شُعيباً لم يكُن علىٰ مِلّتهم قَطّ، لعدَم جَواز الكُفر علىٰ الأنبياء ـ لاعتقادهم في حقّه الكُفر قَبل إظهاره الدّعوة إلىٰ التّوحيد.

فلمّا سمِع شُعيب منهم هذا الكلام الشّنيع ﴿قَالَ﴾ إنكاراً عليهم وتعجُّباً مِن قولهم: أنعودُ ﴿أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ لمِلّتكم، مُتنفّرين مِن الدُّخول في دِينكم؟! لا يكون ذلك أبداً، فإنّه بعد حُكم العقل الفِطري بالتّوحيد، وشَهادة جميع المَوجودات، وانتظام العالَم أحسن نِظام، واتّفاق جَميع الأنبياء مِن أوّل الدُّنيا عليه، وعلىٰ بُطلان الشِّرك وعِبادة الأصنام ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللهِ كَذِباً﴾ عظيماً ﴿إِنْ﴾ أشركنا و﴿عُدْنَا﴾ كما تزعُمون ﴿فِى مِلَّتِكُم﴾ الباطلة، وقُلنا بأنّ الله اتّخذ لنفسه نِدّاً ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا ٱللهُ مِنْهَا﴾ بتكميلِ عُقولنا، وتَهذيب أخلاقنا، وإلهامه إيّانا أنّه ليس كمِثله شيءٌ، وأنّ الأصنام لا تضُرّ ولا تنفع.

ثمّ بالغ في الإنكار بقوله: ﴿وَمَا يَكُونُ﴾ جائزاً ﴿لَنَا﴾ بحُكم العقل السّليم ﴿أَن نَعُودَ فِيهَا﴾ ونتديّن بها ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ ٱللهُ﴾ ضَلالنا وخِزينا، ولا يشاء ذلك أبداً؛ لأنّه ﴿رَبُّنَا﴾ اللّطيف بنا وبجميع عِباده، لا يُريد لنا إلّا ما يُقرّبنا إليه، ويُؤهّلنا لفضله ورَحمته. وفيه الاعتراف بعَجز نفسه عن تَحصيل كُلّ خَير، وأنّ الهِداية والضّلالة بتَوفيق الله وخِذلانه.

ثمّ لمّا كان فضله مُتوقّفاً علىٰ القابليّة والاستعداد، وإثابته وتَعذيبه علىٰ الإيمان والكُفر، والطاعة والعِصيان، وكُلّها مَنوطة بعِلمه بحقائق الأشياء وضمائر عِباده وأحوالهم وأعمالهم، أعلن بسَعة عِلمه بقوله: ﴿وسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ﴾ مِن القابليّات والضمائر والظّواهر ﴿عِلْماً﴾[1] لا يعزُب عنه مِثقال ذرّة.

ثمّ لما وَعده الكُفّار أن يُخرجوه مِن بَلدهم، أويُعيدوه في مِلّتهم، أظهر اعتماده علىٰ الله بقوله: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ﴾ واحكُم ﴿بَيْنَنَا وبَيْنَ قَوْمِنَا بِالحَقِّ﴾ وبما نستحقّه ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الفَاتِحِينَ﴾ وأعدل الحاكمين تحُلّ المُعضلات وتفصِل الأمور ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ تثبيطاً للنّاس عن اتّباعه: أيُّها النّاس ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً﴾ وأمتثلتم ما أمركم به مِن الإيمان بتَوحيد الله، وتَرك البَخس ﴿إِنَّكُمْ إِذاً﴾ ألبتّة ﴿لخَاسِرُونَ﴾ ومُتضرّرون في دُنياكم لفَوات نَفع البَخس عنكم، وفي دِينكم لتَرككم ماكان عليه آباؤكم.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دَارِهِمْ جَاثِمِينَ * ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَن لَمْ

---

١. لم يرد في النسخة تفسير قوله تعالى: ﴿على الله توكلنا﴾.

يَغْنَوْا فِيهَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَانُوا هُمُ ٱلْخَاسِرِينَ * فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ [٩١ـ٩٣]

فلمّا بالغوا في الضّلال والإضلال استحقّوا عذاب الاستئصال ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ والزلزلة الشّديدة الحاصلة مِن الصّيحة. عن ابن عبّاس ﷺ: رجفتْ بهم الأرض وأصابهم حَرٌّ شديد، فَرفعتْ لهم سَحابة فخرجوا إليها يطلُبون الرَّوْح منها، فلمّا كانوا تحتها سالت عليهم بالعذاب ومعه صَيحة جَبرئيل[1] فأحاط بهم العذابُ مِن فوقهم ومِن تحت أرجلهم ﴿فَأَصْبَحُوا فى دَارِهِمْ﴾ وبلد أمنهم ﴿جَاثِمِينَ﴾ خامدين ساكنين لا حَراك لهم.

عن الصادق ﷺ: «بعث الله عليهم صيحةً واحدة فماتوا»[2].

ثمَ بيّن الله تعالىٰ أن جُثومهم كان علىٰ قولهم: ﴿لنُخرجَنّك يا شُعيبُ﴾[3] بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً﴾ وهدّدوه بأن يُخرجوه مِن القرية، أخرجهم الله مِنها بالإهلاك فصاروا ﴿كَأَن لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ ولَم يقيموا بها مع قُوّتهم وشَوكتهم، فهُم المُخرَجون منهابحيث أضمحلَت آثارُهم منها دُون شعيب.

ثمَ ردَ الله عليهم قولهم: ﴿لَئِن اتّبعتُم شعيباً﴾[4] بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَانُوا هُمُ ٱلْخَاسِرِينَ﴾ دُنياً وآخرة، لا الّذِين اتّبعوا شعيباً ﴿فَتَوَلَّىٰ﴾ وأعرض ﴿عَنْهُمْ﴾ شُعيب بعدَ هَلاكهم. وقيل: قبل ذلك. ﴿وَقَالَ يَا قَوْمِ﴾ والله ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ﴾ وأدّيتُ إليكم ﴿رِسَالَاتِ رَبِّى﴾ بأوفىٰ بَيان، بحيث لَم يبقَ لكُم العُذر في تَرك الإيمان، فلَم تُصدّقوني ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ أبلغ نُصح، فلَم تقبلوا مِنّي، وأنذرتُكم مِن سُوء عاقبة الكُفر والعِصيان، فلَم تعتنوا بقولي ﴿فَكَيْفَ آسَىٰ﴾ وأتحزّن بعد ذلك كُلّه ﴿عَلَىٰ﴾ هلاك ﴿قَوْمٍ﴾ استحقّوا ما نزل عليهم مِن عذاب الاستئصال لكونهم ﴿كَافِرِينَ﴾ بالله ورُسُله ودَار الجزاء.

قيل: إنّه اشتدّ حُزنُه علىٰ قومه لكَثْرتهم، وقَرابتهم، وطُول الأُلفة[5] بهم، وتوقُّعه إجابتهم إلىٰ قَبُول قوله[6].

وَمَا أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِنْ نَبِىٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَٱلضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ * ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا ٱلضَّرَّاءُ وَٱلسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ [٩٤ و ٩٥]

---

١. تفسير روح البيان ٣: ٢٠٣.
٢. مجمع البيان ٤: ٦٩٣، تفسير الصافي ٢: ٢٢٠.
٣. الأعراف: ٨٨/٧.
٤. الأعراف: ٩٠/٧.
٥. في النسخة: الفتنة.
٦. تفسير الرازي ١٤: ١٨٣.

ثمَ عزّىٰ نفسه بأنّهم أهلكوا أنفسهم بسُوء اخْتيارهم وإصرارهم علىٰ الكُفر، ومُشاقّة الله ورَسُوله، فليسوا بأهلٍ لأن يأسىٰ ويحزَن عليهم، ثمّ بيّن الله تعالىٰ غاية لُطفه بعِباده، وأنّه لا يكتفي في هِدايتهم بإرسال الرُّسُل، بَل كان يوجد لهم مُنبّهات أُخَر بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ﴾ ومَحَلّة قوم، بلداً كانت أو رُستاقاً[١] ﴿مِنْ نَبِيٍّ﴾ مُنذرٍ لهِدايتهم، فكـذّبه أهـلُها ﴿إِلَّا أَخَـذْنَا﴾ وابـتلَينا ﴿أَهْـلَهَا﴾ وسـاكـنيها ﴿بِالبَأْسَاءِ﴾ والشّدائد من الفَقر والفَاقة ﴿وَٱلضَّرَّاءِ﴾ مِن الأمراض والأوجاع. وقيل فـي تـفسيرهما علىٰ العكس؛ لأجل أنّه ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ ورَجاءَ أنّهم يخشعون لنا وينقادون لأوامرنا، فإنّ البَلايا من الفَقر والمَرض تُرِقّ القُلوبَ وتُؤثّر الانكسار والتّواضع في النُّفوس.

﴿ثُمَّ﴾ إذا لَم يتأدّبوا بالبَلاء ﴿بَدَّلْنَا﴾ ما كان مِن حالهم بأن أعطيناهم ﴿مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ﴾ والبليّة التي كانت أصابتهم ﴿ٱلحَسَنَةَ﴾ مِن الرَخاء والسَّعة والصِحّة، لتدعوهم النِّعمة بعدَ النِّقمة والرَخـاء بـعدَ الشِدّة إلىٰ الشُّكر والخُضوع والطّاعة، فلَم ينفعهم ذلك وبقُوا علىٰ كُفرهم وطُغيانهم ﴿حَتَّىٰ عَفَوْا﴾ وكثروا عَدداً وعُدةً ونِعمة ﴿وَقَالُوا﴾ جهلاً بأنّ الشّدائد كانت لتأديبهم، والإحسان إليهم بالنِّعَم كـان لتَنبيههم: إنّ هذه التّغييرات مِن عادة الزمان في أهله، و﴿قَدْ مَسَّ﴾ وأصاب ﴿آبَاءَنَا﴾ وأجدادنا في سالف الزّمان البأساء مرّةً، و﴿ٱلضَّرَّاءُ﴾ أُخرىٰ ﴿وَٱلسَّرَّاءُ﴾ مِن النِّعمة والرَخاء ثالثةً، فلَم ينتقلوا عمّا كانوا عليه، فكونوا أنتُم كما كان آباؤكم.

فلمّا لَم ينتفعوا بتِلك الأحوال المُختلفة، ولَم ينقادوا، بَل اصرّوا علىٰ ما هم عليه مِن الكُفر والطُّغيان وتَكذيب الرُّسُل ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ﴾ بالعَذاب ﴿بَغْتَةً﴾ وفَجأةً ﴿وَهُمْ﴾ حال نُزوله ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ به ولا يحتمِلون ابتلاءهم به، فكان عذابُهم لعدم انتظارهم له أشدّ عليهم نَكالاً وأعظم حَسرةً.

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰ آمَنُوا وَٱتَّقَوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ ٱلسَّماءِ وَٱلْأَرْضِ وَلٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ[٩٦]

ثمّ دعا سُبحانه النّاس إلىٰ الإيمان ورغّبهم فيه بتَنبيههم علىٰ فوائده بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰ﴾ المُهلَكة بكُفرهم وعِصيانهم ﴿آمَنُوا﴾ بي وبوَحدانيّتي، وصـدّقوا رُسُـلي الّـذِين أرسـلناهم إليـهم لِهدايتهم، بدل كُفرهم وتَكذيبهم ﴿وَٱتَّقَوا﴾ المعاصي والسيّئات بدلَ ارْتكابهم لها وانْغمارهم فيها، والله ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ﴾ كثيرةً ﴿مِنَ ٱلسَّماءِ﴾ بالأمطار النافعة ﴿وَ﴾ مِن ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ بـإنبات النّباتات الكثيرة والثِّمار والزُّروع، وإكثار المَواشي وإدامة الأمن والسّلامة، ولوسّـعنا عـليهم جـميع

---

١. الرُّستاق: معرّب «روستاه» وهي القرية بالفارسية.

الخَيرات، ويسّرناها لهم مِن كُلّ جانب ﴿وَلٰكِن﴾ الأسف كُلّ الأسف أنهم ﴿كَذَّبُوا﴾ الرُّسُل فيما جاءوا به مِن التّوحيد والشّرائع، واستكبروا عن الإيمان بهم، وعتَوا علىٰ ربّهم ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ﴾ بعذاب الاستئصال، وأهلكناهم عن آخرهم، لا للتشفّي؛ لأنه مُحال علينا، بَل كان هَلاكهم ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ بسَعيهم مِن الكُفر والمَعاصي العِظام المُوجبين لاستحقاقهم ذلك في الدُّنيا.

أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ * أَوْ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحىً وَهُمْ يَلْعَبُونَ * أَفَأَمِنُوا مَكْرَ ٱللهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَاسِرُونَ[٩٧ـ٩٩]

ثمّ هدّد الله تعالىٰ النّاس علىٰ كُفرهم وعِصيانهم بعذاب الاستئصال بأن أنكر عليهم الأمن منه بقوله: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰ﴾ مِن الكُفّار ﴿أَنْ يَأْتِيَهُمْ﴾ وينزل عليهم ﴿بَأْسُنَا﴾ وعذابُنا﴿بَيَاتاً﴾ وليلاً ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ مستريحون لا يحتملون وقُوع العذاب عليهم ﴿أَوْ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحىً﴾ وحال ارْتفاع الشمْس ﴿وَهُمْ﴾ مِن غاية غَفْلتهم ﴿يَلْعَبُونَ﴾ ويشتغلون بما لاينفعهم في الدِّين والدُّنيا، بل يضُرّهم كإنكار التّوحيد وتَكذيب الرُّسُل، أو يصرفون هِمَمَهم في تحصيل الدُّنيا.

ثمّ بالغ سُبحانه في إنكار الأمن عليهم بقوله: ﴿أَفَأَمِنُوا﴾ هؤلاء المُكذّبون للرُّسُل ﴿مَكْرَ ٱللهِ﴾ وعذابه البغتي أو استدارجه لهم[1] ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللهِ﴾ وأخذه فَجأةً ﴿إِلَّا ٱلقومُ ٱلْخَاسِرُونَ﴾ والمُضرُّون علىٰ أنفسهم بجهلهم بالله وقُدرته، وتَركهم النّظر في عَواقب الأمور، وعدم اعتبارهم مِن حال الأُمَم الماضية والمُهلَكة، فإنّهم الّذين لا يخافون الله وعذابه.

أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَايَسْمَعُونَ[١٠٠]

ثمّ نبّه الله تعالىٰ علىٰ أنّ ذِكر قَصَص الأنبياء وعِصيان أُمَمهم وإنزال العذاب علىٰ معارضيهم، كان لِعبرة النّاس بقوله: ﴿أَوَ لَمْ يَهْدِ﴾ ولَم يتّضح ﴿لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ﴾ ويسكُنونها ويعيشون فيها ﴿مِنْ بَعْدِ﴾ إهلاك ﴿أَهْلِهَا﴾ الذين كانوا ساكنين فيها، فعُذّبوا بذُنوبهم وطُغيانهم ﴿أَنْ لَوْ نَشَاءُ﴾ أهلكناهم بكُفرهم و﴿أَصَبْناهُم﴾ بالعذاب ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ كما أصبنا بالعذاب مَن قَبلهم؟ لا والله لا يهتدون؛ لأنّا نختِم علىٰ أفئدتهم ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ بكُفرهم وإصرارهم عليها[2] ﴿فَهُمْ﴾ إذَن ﴿لَا

١. في النسخة: بهم.
٢. في النسخة: عليهم.

يَسْمَعُونَ﴾ مَواعظ الله وآياته، وما يُقَصّ عليهم مِن العِبَر سَماعَ القَبُول، أو لا يعتنُون بها كَي ينتفعوا بها ويعتبِروا منها، فكأنّهم لا يسمَعونها.

تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ كَذٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَافِرِينَ[١٠١]

ثمّ بيّن الله تعالىٰ كيفيّة الطبع على القُلوب بقوله: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ الخمس التي ﴿نَقُصُّ﴾ ونتلو ﴿عَلَيْكَ﴾ بعضاً ﴿مِنْ أَنبَائِهَا﴾ وأخبارها التي فيها الغِبطة والتّذكير ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُم رُسُلُهُمْ بِالبَيِّناتِ﴾ والمُعجزات الباهرات، ومعَ ذلك طُبع على قلُوبهم ﴿فَمَا كَانُوا﴾ بعدَ مجيء الرُّسُل، ومُشاهدة المُعجزات، واستماع المَواعظ والتّهديدات ﴿لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ﴾ بَل استمرّوا علىٰ كُفرهم السّابق، وأصرّوا علىٰ ما كانوا عليه من التكذيب ﴿كَذٰلِكَ﴾ الطّبع الذي كان علىٰ قُلوب أهالي القُرىٰ الخمس المُهلَكة الّذين مرّ ذِكْرهم ﴿يَطْبَعُ ٱللهُ﴾ ويختِم ﴿عَلَىٰ قُلُوبِ﴾ جميع ﴿ٱلْكَافِرِينَ﴾ المُصرّين علىٰ كُفرهم مِن أهل عَصرك وغيرهم، فلا يدخُل في قُلوبهم الإيمان، ولا تُؤثّر فيها الآيات والنُّذر، فلا يُحزِنك تَكذيبُهم وإعراضُهم.

في ذكر بعض اخبار عالم الذر والطينة

عن القُمّي ﷺ: لا يُؤمنون في الدُّنيا بما كذّبوا في الذَرّ، وهُو رَدٌّ علىٰ مَن أنكر المِيثاق في الذَرّ الأوّل[١].

عن (الكافي) عن الباقر عليه السلام: «أنّ الله خلَق الخَلق، فخلق مَن أحبّ مِمّا أحبّ، وكان ما أحبّ أن خلقَه مِن طِينة الجنّة، وخلق مَن أبغض مِمّا أبغض، [وكان ما أبغض] أن خلقَه مِن طِينة النّار، ثمّ بعثهم في الظِّلال». فقيل: وأيُّ شيءٍ الظِّلال؟ قال: «ألم ترَ إلىٰ ظِلِّك في الشّمس؛ شيءٌ وليسَ بشيء، ثمّ بعثَ مِنهم النّبيِّين فدَعَوهم إلىٰ الإقرار بالله، وهُو قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللهُ﴾[٢]، ثمّ دَعَوهم إلىٰ الإقرار بالنّبيِّين، فأقرّ بعضهُم وأنكر بعضٌ، ثمّ دَعَوهم إلىٰ ولايتنا، فأقرّ بها والله مَن أحبّ وأنكرها مَن أبغض، وهُو قوله: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ﴾ ثمّ قال: «كان التّكذيب ثمّ»[٣].

وفي روايةٍ أُخرىٰ: «فمنهم مَن أقرّ بلِسانه ولَم يُؤمن بقلبه، فقال الله: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ﴾»[٤].

وعنهما عليهما السلام: «بعث الله الرُّسُل إلىٰ الخَلق وهُم في أصلاب الرِّجال وأرحام النِّساء، فمَن صدّق

---

١. تفسير القمي ١: ٢٣٦، تفسير الصافي ٢: ٢٢٢.
٢. الزخرف: ٨٧/٤٣.
٣. الكافي ٢: ٣/٨، تفسير الصافي ٢: ٢٢٢
٤. تفسير القمي ١: ٢٤٨، تفسير الصافي ٢: ٢٢٢.

حينئذٍ صدّق بعد ذلك، ومَن كذّب حينئذٍ كذّب بعد ذلك»[١].

وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ[١٠٢]

ثمّ لمّا كان الكفّار عند مَساس البأساء والضرّاء، يُعاهدون الله بقولهم: **﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّاكِرِينَ﴾**[٢]، عيّرهم سُبحانة علىٰ نَقض العهد بقوله: **﴿وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِنْ﴾** وفاء بعد **﴿عَهْدٍ﴾** عاهدوه معَ حُكم العَقل بوُجوبه.

ثمّ أكّد ذلك التّعيين بقوله: **﴿وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾** وخارجين مِن حُدود العقل والدِّين، وعلِمنا أغلبَهم عن شُكر ربهِم وطاعته آبين.

وقيل: إنّ المُراد مِن العَهد: نَصب الأدلّة الدالّة علىٰ تَوحيده ورِسالة رَسُوله.

وعن ابن مسعود قال: العهد هُنا الايمان، والدليل عليه قوله تعالى: **﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمٰنِ عَهْداً﴾**[٣] يعني: آمن وقال: لا إلهَ إلّا الله[٤].

وقيل: إنّ المُراد به: العهد الذي أخذه الله مِنهم في عالم الذرّ.

عن ابن عبّاس قال: يُريد الوَفاء بالعَهد الذي عاهدهم الله وهُم في صُلب آدم حيثُ قال: **﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُم قَالُوا بَلَىٰ﴾**[٥]، فلمّا أخذ الله منهم هذا العهد وأقرّوا به ثمّ خالفوا ذلك، صار كأنّه ما كان لهم عهدٌ، فلهذا قال: **﴿وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ﴾**[٦]

العياشي: عن أبي ذَرّ رضوان الله عليه قال: والله، ما صَدَق أحدٌ مِمّن أخذ ميثاقه فوفىٰ بعهد الله غير أهل بيت نبيّهم وعِصابة قليلة مِن شيعتهم، وذلك قول الله: **﴿وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾**[٧].

وعن الصادق عليه السلام، أنّه قال لأبي بصير: يا أبا بصير، إنّكم وفَيتُم بما أخذ الله عليه ميثاقكم مِن ولايتنا، وإنّكم لَم تُبدّلوا بنا غيرنا، ولَو لَم تفعلوا لعيّركم الله كما عيّرهم حيثُ يقول جلَّ ذِكرُه: **﴿وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾**[٨].

وعن الكاظم عليه السلام: «أنّها نزلت في الشاكّ»[٩].

---

١. تفسير العياشي ٢: ١٩٧١/٢٨٢، تفسير الصافي ٢: ٢٢٣.
٢. يونس: ٢٢/١٠.
٣. مريم: ٨٧/١٩.
٤. تفسير الرازي ١٤: ١٨٨.
٥. الأعراف: ١٧٢/٧.
٦. تفسير الرازي ١٤: ١٨٨.
٧. تفسير العياشي ٢: ١٦٠١/١٥٤، تفسير الصافي ٢: ٢٢٣.
٨. الكافي ٨: ٦/٣٥، تفسير الصافي ٢: ٢٢٣.
٩. الكافي ٢: ١/٢٩٣، تفسير الصافي ٢: ٢٢٣.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِ فَظَلَمُوا بِها فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ [١٠٣]﴾

ثمّ شرَع سُبحانه في ذكر قصّة مُوسىٰ ودَعوته، ومُخالفة فِرعون وغرَقه بجُنوده، ولمّا كان مُوسىٰ أكثر مُعجزةً وأقواها مِن سائر الأنبياء، وقِصّته أشدّ تأثيراً في نُفوس اليَهُود والنّصارىٰ، بسطها بقوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ في بني إسرائيل ومَملكة مِصر ﴿مُوسَىٰ﴾ بن عِمران مُلتبساً ﴿بِآيَاتِنَا﴾ الدالّة علىٰ رِسالته ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ مَلِك مِصر، قيل: اسمُه وليد بن مصعب، وقيل: قابوس[١] ﴿وَمَلَإِيهِ﴾ وأشراف مَملكته، وإنّما خصّهم بالذّكر مع عُموم رِسالته لكون غيرهم تبعاً لهم ﴿فَظَلَمُوا﴾ بالمُعجزات والآيات، وكفروا ﴿بِها﴾ حيث نَسبوها إلىٰ السِّحر، وسعَوا في الإفساد في أمر نُبوّته وفي الأرض ﴿فَانْظُرْ﴾ يامحمّد، أو أيّها العاقل بنظر الاعتِبار ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ﴾ أمر ﴿ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ في الأرض بالإفساد في أمر الرُّسُل.

ثمّ أنّه روىٰ الصّدوق عن الباقر عليه السلام - في حديثٍ -: «ثمّ أنّ الله تعالىٰ أرسل الأسباط اثني عشر بعد يوسف، ثمّ مُوسى وهارون إلىٰ فِرعون ومَلئه إلىٰ مِصر وحدها»[٢].

وروىٰ العيّاشي: «أنّ فِرعون بنىٰ سَبع مدائن يتحصّن فيها مِن موسىٰ عليه السلام، وجعل فيما بينها آجاماً وغِياضاً[٣]، وجعل فيها الأُسد ليتحصّن بها مِن موسى، فلمّا بعث الله موسىٰ عليه السلام إلى فِرعون فدخل المدينة، فلمّا رآه الأُسد تبصبصت[٤] وولّت مُدبرة، ولم يأت مدينة إلّا انفتح له بابُها، حتّىٰ انتهىٰ إلىٰ قصر فِرعون الذي هُو فيه. قال: فقعد علىٰ بابه وعليه مِدْرعة[٥] مِن صوف ومعه عَصاه، فلمّا خرج الآذِن قال له مُوسىٰ عليه السلام استأذنْ لي علىٰ فِرعون، فلَم يلتفت إليه، قال: فمكث بذلك ما شاء الله يسأله أن يستأذِن له، قال: فلمّا أكثر عليه قال له: أما وجد ربُّ العالَمين مَن يُرسل غيرك؟! قال: فغضِب مُوسىٰ عليه السلام فضرب الباب بعَصاه، فلَم يبقَ بينه وبين فِرعون باب إلّا انفتح، حتّىٰ نظر فِرعون إليه وهُو في مَجلسه، فقال: ادخُلوه، فدخل عليه وهُو في قُبّةٍ له مُرتفعة كثيرة الارتفاع ثمانون ذِراعاً»[٦].

وفي روايةٍ: «أنّ مُوسىٰ وهارون أتيا باب فِرعون، فضرب عصاه بالباب، ففزِع فِرعون فشاب رأسه فاستحيىٰ فخضَب بالسّواد[٧]، فأذِن لمُوسىٰ في الدُّخول، فدخل هُو وأخوه هارون عليه».

---

١. تفسير روح البيان ٣: ٢١٠.
٢. كمال الدين: ٢/٢٢٠، تفسير الصافي ٢: ٢٢٣.
٣. الآجام: جمع أجمة، وهي الشجر الكثير الملتفّ، والغياض: جمع غيضة، مجتمع الشجر في مغيض ماء.
٤. تبصبص الكلب: حرّك ذنبه.
٥. المِدرعة: جُبّة من صوف مشقوقة المُقدّم.
٦. تفسير العياشي ٢: ١٦٠٣/١٥٤، تفسير الصافي ٢: ٢٢٤.
٧. تفسير الرازي ١٤: ١٨٩، تفسير روح البيان ٣: ٢١٠.

وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِنْ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ * حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى ٱللهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِى إِسْرَاءِيلَ * قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ * فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِىَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ [١٠٤ـ١٠٨]

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ﴾ مِن الرُّسُل مَبعوثٌ إليك ﴿مِنْ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ لأدعوك إلىٰ عِبادته، وأنهاك عن دَعوىٰ الألوهيّة، فقال فِرعون: كذَبتَ، ما أنت برَسُول، فقال موسىٰ عليه السلام: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَاأَقُولَ عَلَى ٱللهِ﴾ قولاً ﴿إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ والصِّدق.

ثمّ أخبر بأنّ له مُعجزة دالّة علىٰ صِدقه بقوله: ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ﴾ وأتيتُ إليكم ﴿بِبَيِّنَةٍ﴾ واضحة ومُعجزة باهرة دالّة علىٰ صِدقي ﴿مِنْ﴾ قِبَل ﴿رَبِّكُمْ﴾ فإذا تبيّن لك صِدق رِسالتي ﴿فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِى إِسْرَاءِيلَ﴾ وفُكّهم مِن قَيد العُبوديّة، وخَلِّهم حتّىٰ أذهب بهم إلىٰ الأرض المُقدّسة التي هي مَوطن آبائهم. قيل: كان يستعملهم في الأعمال الشاقّة لعدم اعْتِرافهم برُبوبيّته.

﴿قَالَ﴾ فِرعون: ﴿إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ﴾ ومُعجزة مِن عند إلهك الذي أرسلك ﴿فَأْتِ بِهَا﴾ وأظهِرها ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ﴾ في دَعوىٰ رِسالتك حتّىٰ نعلم بِصدقك ﴿فَأَلْقَىٰ﴾ موسىٰ عليه السلام ﴿عَصَاهُ﴾ مِن يده علىٰ الأرض ﴿فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ﴾ وحيّة[1] عظيمة ﴿مُبِينٌ﴾ لا يشُكّ أحدٌ في أنّها ثُعبان.

في رِواية العيّاشي: «كان لها شُعبتان، فإذا هي حيّةٌ قد وقع إحدىٰ الشُّعبتين في الأرض والشُّعبة الأخرىٰ في أعلىٰ القُبّة، قال: فنظر فِرعون إلىٰ جوفها وهو يلتهب نِيراناً، قال: وأهوت إليه فأحدث وصاح: يا مُوسىٰ خُذها»[2].

﴿وَنَزَعَ﴾ مُوسىٰ عليه السلام بعد معجزة العصا ﴿يَدَهُ﴾ وأخرجها مِن جيبه أو جَناحه ﴿فَإِذَا هِىَ بَيْضَاءُ﴾ بَياضاً خارقاً للعادة ﴿لِلنَّاظِرِينَ﴾ إليها.

رُوي أنّ مُوسىٰ أرىٰ فِرعون يده وقال: ما هذه؟ فقال: يدُك، ثمّ أدخلها جيبَه وعليه مِدرعة صُوف ونزعها، فإذا هي بيضاء بياضاً نُورانياً غلب شُعاعُه شُعاعَ الشمس. وكان عليه السلام آدم[3] شَديد الأدَمة[4].

وعن ابن عبّاس قال: كان لها نُور ساطع يُضيء ما بين السّماء والأرض[5]

---

١. في النسخة: وجنّة. ٢. تفسير العياشي ٢: ١٦٠٣/١٥٥، تفسير الصافي ٢: ٢٢٤.
٣. أدِمَ: اشتدت سُمرتُهُ، فهو آدَمُ. ٤. تفسير روح البيان ٣: ٢١١.
٥. تفسير الرازي ١٤: ١٩٦.

قَالَ ٱلْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ * وَجَاءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ * قَالُوا يَامُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقِىَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ * قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ[١٠٨-١١٦]

فلمّا رأىٰ فِرعون هاتين المُعجزتين وشاور مع أشراف[١] قومه في أمر مُوسىٰ عليه السلام ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ والأشراف ﴿مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ في مَجلس المَشْوَرَة: ﴿إِنَّ هٰذَا﴾ الرَّجُل المُدّعي للرِّسالة ﴿لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ بالسّحر ماهر فيه، يطلُب السّلطنة ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ﴾ بوسيلة سِحره ﴿مِنْ أَرْضِكُمْ﴾ ومَملكتكم، ويجعل الحُكومة فيها لبني إسرائيل، فلمّا سمِع فِرعون ذلك منهم قال لهم: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ وبأيّ شيء تُشيرون عَليّ؟ ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ وأخّر أمرهما، ولا تعجَل في شأنهما ﴿وَأَرْسِلْ﴾ الرُّسُل ﴿فِى ٱلْمَدَائِنِ﴾ والبِلاد التي فيها السَّحَرة، حالَ كَون رُسُلك ﴿حَاشِرِينَ﴾ وجامعين مَن له عِلمٌ بالسِّحر ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ بالسِّحر حاذِق فيه.

عن العيّاشي: رُوي أنه لَم يكُن في جُلَسائه يومئذٍ ولدُ سِفاح، ولَو كان لأمر بقلتهما. الخبر[٢].

قيل: كان له مَدائن فيها السَّحرة المُعدّة لوقت الحاجة إليهم، ولَم يكُن في زمان السَّحرة أكثر مِن زَمان مُوسىٰ عليه السلام.

في معارضة السحرة مع موسىٰ عليه السلام

﴿وَجَاءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ﴾ بعد إرسال الشُّرْطة إليهم وإحضارهم ﴿قَالُوا﴾: يا فِرعون ﴿إِنَّ لَنَا﴾ عندك ﴿لَأَجْراً﴾ عظيماً ألبتّة ﴿إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ علىٰ مُوسىٰ في عمَل السِّحر ﴿قَالَ﴾ فرعون: ﴿نَعَمْ﴾ إنّ لكم لأجراً جزيلاً عندي ﴿وَإِنَّكُمْ﴾ مع ذلك ﴿لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ عندي منزلةً ومقاماً.

قيل: إنّه قال لهم: تكونون أوّل مَن يدخُل مجلسي، وآخر مَن يخرُج منه.

نُقل أنّه كان في المدائن أخَوان ماهران في السِّحر، فلمّا بلَغهم أنّ فِرعون طلَبهم لمُعارضة مُوسىٰ عليه السلام جاءوا إلىٰ قبر أبيهم وقالوا: يا أبه، إنّ فِرعون طلَبنا لنُعارض رَجُلين معهما عصاً إذا ألقَياها تصير ثُعباناً يأكل كُلّ ما يراه، ولذا ضيّقا علىٰ فِرعون، قال أبوهم: انظُروا هل تصيرُ ثُعباناً حالَ نَوم

---

١. كذا، والظاهر: شاور أشراف.

٢. تفسير العياشي ٢: ١٦٠٤/١٥٦، تفسير الصافي ٢: ٢٢٥.

صاحبيها، فإن صارتْ ثُعباناً عند نومهما فإنّه ليسَ مِن السّحر، ولا يقدِر أهلُ العالَم علىٰ مُعارضة الرَّجُلين. ثمّ حضر الأخوان مع أصحابهما ـ وكانوا أثني عشر ألفاً، وقيل: سبعين ألفاً ـ عند فِرعون وقالوا ما قالوا، ثمّ ذكر الأخَوان لأصحابهما ما وقع بينهما وبين أبيهما مِن السّؤال والجَواب، ففتّش السّحرةُ عن حال العصا وقتَ نَوم مُوسىٰ عليه السلام، فعلِموا أنّ مُوسىٰ عليه السلام إذا نام تصير العصا حيّة وتحرِسه، فتردّد القوم وفتَروا عن مُعارضته.

فجلس فِرعون في قصره، وطلَب مُوسىٰ عليه السلام، وأحضر السّحرة كَي يُعارضوه، وحضر عامّةُ أهل مِصر، فاصطفّ السّحرةُ في جانبٍ وقام، مُوسىٰ وهارون عليهما السلام في جانب آخر، فتقدّم السّحرة إليهما[1] و ﴿قَالُوا يا مُوسىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ﴾ عَصاك أوّلاً ﴿وَإِمَّا أَن نَكُونَ نَحنُ ٱلمُلقِينَ﴾ حِبالنا وعِصِيّنا أوّلاً، فجعلوا الاختيار لمُوسىٰ في السَّبقة إلى الإلقاء.

قيل: كان سبب إيمانهم تأدُّبهم مع موسىٰ عليه السلام[2].

قيل: في تغيير النَّظْم إشعارٌ بمَيلهم إلى كونهم السّابقين في الإلقاء[3].

﴿قَالَ﴾ لهم مُوسىٰ تأكيداً لأمر المُعجزة: ﴿أَلْقُوا﴾ انتم، أولاً حِبالكم وعِصِيّكم ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا﴾ ما معهم ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ وخيّلوا إليهم ما لا حقيقةَ له ﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ وبالغوا في إرعابهم ﴿وَجَاءُو بِسحرٍ عَظِيمٍ﴾.

رُوي أنّهم جمعوا حِبالاً غِلاظاً وخُشُباً طِوالاً كأنّها حيّات جِسام غِلاظ، ولطّخوا تِلك الحِبال بالزِّئبق، وجعلوا الزّئبق داخل تِلك العِصِيّ، فلمّا أثّرت حَرارة الشّمس فيها تحرّكتْ والْتوىٰ بعضُها على بعض، وكانت كثيرة جدّاً، فتخيّل النّاس أنّها تتحرّك وتلتوي باخْتيارها، وصار الميدان كأنّه مَملوء بالحيّات[4].

وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ*فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَاكَانُوا يَعْمَلُونَ * فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَٱنْقَلَبُوا صَاغِرِينَ*وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَاجِدِينَ*قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ*رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ[١١٧ـ١٢٢]

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ مِن يدك، فألقاها ﴿فَإِذَا هِيَ﴾ صارَتْ حيّة عظيمة ﴿تَلْقَفُ﴾ وتبلَع ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ ويُزوّرون.

---

١. تفسير روح البيان ٣: ٢١٢ و٢١٣.
٢. تفسير روح البيان ٣: ٢١٣.
٣. تفسير الرازي ١٤: ٢٠٢.
٤. تفسير روح البيان ٣: ٢١٣.

رُوي [أنّها] لما تلقّفت حِبالهم وعِصِيّهم وابتلعتها بأسرها، أقبلتْ علىٰ الحاضرين فهرَبوا، وازدحموا حتّىٰ هلك منهم جمعٌ كثير لا يعلَم عددَهم إلّا الله. ثمّ أخذها مُوسىٰ وصارت عصاً كما كانت، وأعدم الله بقُدرته القاهرة تِلك الأجرام العِظام، وقيل: فرّقها أجزاءً لطيفةً، فقالت السّحرةُ: لَو كان هذا سِحراً لبقيت حِبالنا وعِصيّنا[1].

﴿فَوَقَعَ﴾ ما هُو ﴿ٱلحَقُّ﴾ الثابت في الواقع، وظهر صِدق مُوسىٰ عليه السلام ﴿وَبَطَلَ﴾ وأضمحلّ ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ مِن السِّحر، وأمّا فرعون وملؤه ﴿فَغُلِبُوا﴾ في مَجلسهم ﴿هُنَالِكَ﴾ بحيث لَم تكُن غَلَبتُه أظهر مِن ذلك ﴿وَٱنْقَلَبُوا﴾ ورجَعوا عن مُعارضته إلى محالّهم ﴿صَاغِرِينَ﴾ بحيث لا صَغار ولا ذُلّ في حقّ مُبطِل مثل ذلك ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ﴾ وخَرّوا علىٰ الأرض ﴿سَاجِدِينَ﴾ بالشدّة كأنّه ألقاهم مُلقٍ، إظهاراً لبُهور الحقّ وعدم تَمالكهم مِن قَبُوله، وإعلاماً بكَسر فرعون بإيمان الّذِين أتىٰ بهم لكسر مُوسىٰ عليه السلام، وانقلاب الأمر عليه.

استدلّ المُتكلّمون بهذه الآية علىٰ غاية فضيلة العِلم؛ لأنّ السّحرة لعِلمهم بحقيقة السِّحر ومُنتهاه عِلموا أنّ ما أتاه مُوسىٰ عليه السلام خارج عن السِّحر، وأنّه مِن المُعجزات الإلهية لا مِن التمويهات البشرية، ولذا ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ ولَو لَم يكونوا كاملين في عِلم السِّحر لَم يمْكنهم الاستدلال بتلك المُعجزة لاحتمال كونها السِّحر الكامل.

ثمّ لمّا كان في كلامهم «ربّ العالمين»، وكان فِرعون مُدّعياً للرُّبوبيّة أوضحوه بقوله: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ فإنّ فِرعون وإنّ ربّىٰ مُوسىٰ في صِغَره فإنّه لم يُرَبِّ هارون.

قيل: إنّهم لمّا قالوا: ﴿آمَنَّا بِرَبِّ ٱلعَالَمِينَ﴾ قال فِرعون: إيّاي عنَوا، فلمّا قالوا: ﴿ربّ موسىٰ﴾ قال: إيّاي عَنوا، لأنّي ربّيتُ مُوسىٰ، فلمّا قالوا: ﴿وهارون﴾ زالت الشُّبهة، وعرف الكُلّ أنّهم كفروا بفرعون[2].

وقيل: إنّما خَصّوهما بالذِّكر تفضيلاً وتَشريفاً لهما[3].

عن ابن عبّاس: آمنتْ السّحرةُ واتّبع مُوسىٰ عليه السلام مِن بني إسرائيل سِتمائة ألف[4].

قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هٰذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ[١٢٣]

---

١. تفسير روح البيان ٣: ٢١٣.

٢. تفسير الرازي ١٤: ٢٠٦.

٣. تفسير الرازي ١٤: ٢٠٧.

٤. تفسير روح البيان ٣: ٢١٤.

ثمّ ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ للسّحرة بعد إيمانهم لموسىٰ عليه السلام إنكاراً عليهم وتوبيخاً لهم: ﴿آمَنْتُمْ بِهِ﴾ وصدّقتموه في دعوىٰ رِسالته ﴿قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ في الإيمان به، مع أنكم عبيدي، ولَم يجُز لكم عملٌ بغير إذني ﴿إِنَّ هٰذَا﴾ الصّنيع البتّة ﴿لَمَكْرٌ﴾ عظيم ﴿مَكَرْتُمُوهُ﴾ وحِيلة واضحة اختلتّموها أنتم وموسى ﴿فِي﴾ هذه ﴿الْمَدِينَةِ﴾ قبل أن تخرجوا إلىٰ المِيعاد ﴿لِتُخْرِجُوا مِنْهَا﴾ بذلك المَكر ﴿أَهْلَهَا﴾ وساكنيها مِن القِبط وتُخلَىٰ لكم ولبني إسرائيل ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ جزاء مَكركم وصنيعكم، وعن قريبٍ تدرون سُوء عاقبة عملِكم.

قيل: إنّ فِرعون لمّا رأىٰ إيمان السّحرة بمُوسىٰ عليه السلام حُجّةً قَويةً علىٰ صِحّة نُبوّته، ألقىٰ الشُّبهة في ذلك بقوله ﴿إِنَّ هٰذَا لَمَكْرٌ﴾ يعني أنّ إيمانهم به ليس إلّا لتواطُئِهم مع مُوسىٰ علىٰ ذلك، وغرضُهم منه انقراضُ سَلطنة القِبط، وإخراجهم مِن مصر.

وعن ابن مسعود، وابن عبّاس: أنّ مُوسىٰ وأمير السَّحرة التقيا، فقال له موسى عليه السلام: أرأيتَك إن غلبتُك أتُؤمن بي وتشهد أنّ ما جئتُ به الحَقّ؟ قال السّاحر: لآتينّ غداً بسِحرٍ لا يغلِبُه سِحرٌ، فوالله لَئِن غلَبْتَني لأُؤمِنَنّ بك، وفِرعون ينظُر إليهما ويسمَع قولها. فهذا هُو قول فِرعون ﴿إِنَّ هٰذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ﴾[1].

لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ * قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ * وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ * وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ [١٢٤ ـ ١٢٧]

ثمّ فصل ما أجمله أوّلاً مِن التّهديد بقوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ﴾ مِن طَرَف ﴿وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ﴾ ذلك الطَّرَف ﴿ثُمَّ﴾ بعد ذلك ﴿لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ على جُذوع النّخل تفضيحاً لكم، وتنكيلاً وعِبرةً لأمثالكم.

قيل: هُو أوّل مَن سَّن ذلك، فشرعة الله تعالىٰ لقُطّاع الطّريق تعظيماً لجُرمهم[2].

ثمّ لمّا سمِع السّحرةُ هذا التهديد الشديد ﴿قَالُوا﴾ إعلاماً بثَباتهم علىٰ دِينهم، وعدَم مُبالاتهم بالموت، والقتل، بَل شَغَفهم علىٰ لِقاء الله: ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا﴾ ورَحمته الواسعة ﴿مُنْقَلِبُونَ﴾ راجعون، إن

---

١. تفسير الرازي ١٤: ٢٠٨.

٢. تفسير روح البيان ٣: ٢١٤.

فعلتَ بنا ذلك.

قيل: إنّ المُراد: أنا نموت لا محالة قتَلْتَنا أم لا، فلا نُبالي بوَعيدك[١]، أو أنّا وإيّاكم جميعاً ننقلب إلىٰ الله، فيحكُم بيننا وبينكم ﴿وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا﴾ ولا تغضَب علينا، أو لا تُنكر مِنّا ولا تعيب علينا لجِهةٍ مِن الجهات ﴿إِلَّآ﴾ لأجل ﴿أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾ ومُعجزاته التي أجراها علىٰ يد مُوسىٰ عليه السلام ﴿لَمَّا جَاءَتْنَا﴾ وشاهدناها، وهذا الإيمان بحُكم العقل عينُ الصّواب وكُلّ المَنقبة.

عن ابن عبّاس: يُريد: ما أتينا بذَنبٍ تُعذّبنا عليه إلّا أن آمنّا بآيات ربّنا مِن المُعجزات الجارية علىٰ يد مُوسىٰ عليه السلام[٢].

ثمّ أعرضوا عن فِرعون وتوجّهوا إلىٰ الله وتضرّعوا إليه وقالوا: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ﴾ وأفِض ﴿عَلَيْنَا﴾ وصُبّ في قُلوبنا ﴿صَبْرًا﴾ كاملاً كثيراً ـ كما يُصبّ الماءُ في الإناء ـ حين القَطع والصَّلب ﴿وَتَوَفَّنَا﴾ وأقبِضْ أرواحنا حالَ كَوننا ﴿مُسلِمِينَ﴾ ولأوامرك وأوامر رَسُولك مُنقادين، وبتَوحيدك وبما جاء به مُوسىٰ عليه السلام مُتديِّنين.

عن ابن عبّاس رضي الله عنه: أنّ فِرعون قطَع أيديهم وأرجلهم مِن خِلاف، ثمّ صلَبهم علىٰ شاطئ نِيل مِصر[٣].

ثمّ رُوي أنّ فِرعون بعد ما رأىٰ من موسى عليه السلام ما رأى من مُعجزة العصا واليد البيضاء، خافه خوفاً شديداً، ولذا لم يجِب ولَم يتعرّض له بسُوء، بَل خلّىٰ سبيله[٤].

﴿وَ﴾ لذا ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ والأشراف ﴿مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ اعتراضاً وإنكاراً عليه: ﴿أَتَذَرُ﴾ وتترُك ﴿مُوسىٰ وَقَوْمَهُ﴾ مِن بني إسرائيل الّذين تبِعوه علىٰ دِينه ﴿لِيُفْسِدُوا﴾ علىٰ النّاس دِينَهم ﴿فِى﴾ هذه ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ وهذا البلد ﴿وَيَذَرَكَ﴾ ويترُكك ﴿وَآلِهَتَكَ﴾ ومَعبوداتك ـ قيل: كان يعبُد الكواكب[٥]، وقيل: إنّه صنع لقومه أصناماً علىٰ صُورته، وأمرهم أن يعبُدوها تقرُّباً إليه[٦] ـ فأجابهم فِرعون و﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ﴾ كما كُنّا نقتُلهم قبل مجيء مُوسىٰ ﴿وَنَسْتَحْيِى﴾ ونُبقي ﴿نِسَاءَهُمْ﴾ أحياء لنستخدمهُنّ كما [كنّا] نستخدمُهنّ فيما قَبل ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُم قَاهِرُونَ﴾ وعلىٰ ما يزيد في حقّهم مُقتدرون، وعلى مَملكة مصر مُستقلّون، كما كُنّا كذلك مِن قبل، وبنو إسرائيل تحت أيدينا في ذُلّ الأسر والهَوان كما كانوا كذلك، فلَم تتغيّر حالُنا وحالُهم بغَلبة مُوسىٰ علينا بالسّحر. فلمّا فشا هذا

---

١. تفسير روح البيان ٣: ٢١٤.
٢. تفسير الرازي ١٤: ٢٠٩.
٣. تفسير روح البيان ٣: ٢١٥.
٤. تفسير روح البيان ٣: ٢١٥.
٥. تفسير روح البيان ٣: ٢١٥.
٦. تفسير روح البيان ٣: ٢١٥.

التَهديد مِن فِرعون في بني إسرائيل خافوا منه خوفاً شديداً.

قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا بِاللهِ وَٱصْبِرُوا إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَٱلْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ * قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ[١٢٨ و ١٢٩]

﴿قَالَ مُوسىٰ لِقَوْمِهِ﴾ وأتباعه تَسليةً لهم، وتقويةً لقلوبهم: يا قوم، لا تخافوا ولا تحزنوا، و﴿ٱسْتَعِينُوا بِاللهِ﴾ واستنصروا مِنه في دفع تَعدَيات فِرعون وقومه، وتوكّلوا علىٰ الله ﴿وَٱصْبِرُوا﴾ علىٰ ما أصابكم في سبيله، ولا تُصغوا إلىٰ ما قال فِرعون مِن الأباطيل ﴿إِنَّ﴾ هذه ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ التي يدّعي فِرعون السَّلطنة فيها ﴿لِلَّهِ﴾ خاصّة لا لفِرعون وغيره، وهُو تعالىٰ ﴿يُورِثُهَا﴾ ويُسلّط علىٰ التصرُّف فيها ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ سَلطنته ﴿مِنْ عِبَادِهِ﴾ إلىٰ أجلٍ مَعلوم، ليس الأمر بيد فِرعون ﴿وَالعَاقِبَةُ﴾ المَحمودة مِن الغَلَبة والنُّصرة وخير الآخرة ﴿لِلمُتَّقِينَ﴾ والمُنزّهين مِن الشِّرك والعِصيان، وأنتم منهم، وفيه وَعدٌ بالنَّصر وإهلاك القِبط.

عن الباقر عليه السلام قال: «وجدنا في كِتاب عليّ عليه السلام: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَٱلْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أنا وأهل بيتي الّذين أورثنا الله الأرض، ونحنُ المُتّقون، والأرض كُلّها لنا، فمَن أحيا أرضاً مِن المُسلمين فعمّرها فليُؤدّ خَراجها إلىٰ الإمام مِن أهل بيتي، وله ما أكل منها حتّىٰ يظهر القائم مِن أهل بيتي» الخبر[١].

فلَم تستكن قُلوب بني إسرائيل مِن الاضطراب، ولذا ﴿قَالُوا﴾: يا موسىٰ، قد كُنّا ﴿أُوذِينَا﴾ مِن ظُلم فِرعون وقومه ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا﴾ بالرِّسالة ﴿وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ رَسُولاً.

عن القمّي رحمه الله قال: قال الّذين آمنوا بموسى عليه السلام: قد أُوذينا قبلَ مَجيئك يا مُوسىٰ بقتل أولادنا، ومِن بعد ماجئتنا. لمّا حبَسهم فِرعون لإيمانهم بموسىٰ عليه السلام[٢].

فلمّا رأىٰ مُوسىٰ شِدّة خوف قومه مِن تَهديدات فِرعون، وعدم تَسكين قُلوبهم بما أشعر به في كلامه السّابق مِن الوعد بَهلاك فِرعون ونُصرتهم عليه، صرّح بما كنّىٰ عنه بقوله: ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ﴾ اللّطيف بكم، وأرجو منه ﴿أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾ فِرعون ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ﴾ ويُمكّنكم بعد إهلاكه ﴿فِي﴾

---

١. تفسير العياشي ٢: ١٦٠٨/١٥٧، تفسير الصافي ٢: ٢٢٨.

٢. تفسير القمي ١: ٢٣٧، تفسير الصافي ٢: ٢٢٨.

هذه ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ التي تمكّن فيها، وتستريحون في مَحلّ راحته من بأسه ﴿فَيَنظُرَ﴾ ويرىٰ أنكم بعد تِلك النِّعمة العظيمة عليكم ﴿كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ أتطيعونه أو تعصُونه، أو تشكُرونه أو تكفُرونه؟ فيُجازيكم حَسبما يظهر مِنكم.

وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ[١٣٠]

ثمّ بيّن الله تعالىٰ غاية لُطفه بفِرعون وقومه بإنزال المِحَن والشّدائد عليهم حالاً بعد حال ليُؤدّبهم ويردَعهم عن ما هم عليه مِن الكُفر والطُّغيان بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا﴾ وابتلينا ﴿آلَ فِرْعَوْنَ﴾ وقومه ﴿بِالسِّنِينَ﴾ المُجدبة ـ كما عن القمي[١] ـ أو القَحط ﴿وَنَقْصٍ﴾ كثير ﴿مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ﴾ بإنزال الآفات الكثيرة علىٰ بَساتينهم وأشجارهم، تأديباً لهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ ويتنبّهون أنّ ذلك بشؤم ما هم عليه مِن التمرُّد والطُّغيان والكُفر والعِصيان.

قيل: إنّ السّنين والقَحط والجُوع كان لأهل البَوادي، ونقص مِن الثّمرات كان لأهل القُرىٰ[٢].

فَإِذَا جَاءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هٰذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ ٱللهِ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَايَعْلَمُونَ[١٣١]

ثمّ بيّن الله تعالىٰ أنّ تِلك المِحَن مع أنّها لَم تُوجب تنبُّههم واتّعاظهم، ولم تؤثّر في قُلوبهم الرّقة والخُشوع، زادتهم عُتوّاً بقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ﴾ من قِبَل الله ﴿ٱلْحَسَنَةُ﴾ مِن الخِصب والسَّعة والصِحّة ﴿قَالُوا لَنَا هٰذِهِ﴾ الحَسنة، وبحُسن إقبالنا ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ مِن قَحطٍ ومَرض وضرر ﴿يَطَّيَّرُوا﴾ ويتشاءَموا ﴿بِمُوسىٰ ومَن مَعه﴾ وتَبِعه في الدّين ـ القُمّي ﷺ قال: الحسنة هاهنا: الصِحّة والسلامة والأمن والسَّعة، والسيئة هُناالجُوع والخَوف والمرض[٣].

﴿أَلَا إِنَّمَا﴾ يكون ﴿طَائِرُهُمْ﴾ وما به خيرُهم وشرّهم ونَفعُهم وضَرُّهم ﴿عِنْدَ ٱللهِ﴾ وبإرادته ومَشيئته، لا فاعلّ لها غيره تعالىٰ ﴿وَلٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَايَعْلَمُونَ﴾ أنّ ما يُصيبهم بقضاء الله وإرادته وبشُؤم أعمالهم، ومَن يعلَمه قليلٌ منهم، ولكن لا يعلمون بمُقتضاه.

وعن ابن عبّاس قال: إنّما طائرهم ما قضىٰ عليهم وقدّر لهم[٤].

وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ*فَأَرْسَلْنَا

---

١. تفسير القمي ١: ٢٣٧، تفسير الصافي ٢: ٢٢٨.
٢. تفسير روح البيان ٣: ٢١٧.
٣. تفسير القمي ١: ٢٣٧، تفسير الصافي ٢: ٢٢٩.
٤. تفسير الرازي ١٤: ٢١٦.

عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ * وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِى إِسْرَاءِيلَ *فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ[١٣٢-١٣٥]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعد حِكاية إسنادهم الحَوادث إلىٰ عادة الدّهر وشُؤم مُوسىٰ، حكىٰ مُبالغتهم في الإصرار علىٰ تَكذيب مُوسىٰ عليه السلام، ولَجاجهم معه، وإنكار مُعجزاته وإسنادها إلىٰ السِّحر بقوله: ﴿وَقَالُوا﴾ بعد مُشاهدتهم المُعجزات، مِن العَصا واليَد البَيضاء والقَحط ونَقص الثّمرات وغيرها: يا موسىٰ ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ﴾ وأيّ ما تُظهر لنا ﴿مِنْ آيَةٍ﴾ وفعلة عجيبة ﴿لِتَسْحَرَنَا بِهَا﴾ وتُسكّر أبصارنا وتُموّه علينا ﴿فَمَا نَحْنُ لَكَ﴾ في دَعوىٰ رِسالتك وإعجاز ما أتيتَ به ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾ ومصدّقين، فغضِب مُوسىٰ فدَعا عليهم ﴿فَأَرْسَلْنَا﴾ بدُعائه ﴿عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ﴾ حالَ كَون المَذكورات ﴿آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ﴾ وعلامات بيّنات بحيث لم يكُن يشُكّ فيها أحدٌ.

وقيل عنىٰ بالمُفصّلات مُتفرّقات مُنفصلات لامتحان أحوالهم قيل: كان امتدادُ كُلٍّ أُسبوعاً، وبين كُلّ آيتَين سنة، وقيل: شهر.

﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ وترفَعوا معَ ذلك علىٰ الإيمان بمُوسىٰ ﴿وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ﴾ ومُعاندين للحقّ.

عن ابن عبّاس أنه قال: إنّ القوم لمّا قالوا [لموسىٰ عليه السلام]: مهما تأتنا به من آية مِن ربّك، فهي عندنا مِن باب السّحر، ونحن لا نؤمن بها البتّة، وكان مُوسىٰ عليه السلام رجلاً حديداً[١]، فعند ذلك دعا عليهم فاستجاب الله له، فأرسل عليهم الطُّوفان الدّائم ليلاً ونهاراً سَبتاً إلىٰ سَبت، حتّىٰ كان الرّجلُ منهم لا يرىٰ شمساً ولا قمراً، ولا يستطيع الخُروج مِن داره، وجاءهم الغرقُ فصرخوا إلىٰ فِرعون واستغاثوا به، فأرسل إلىٰ مُوسىٰ عليه السلام وقال: اكشِف عنّا العذاب، فقد صارت مِصرُ بحراً واحداً، فإن كشفتَ هذا العذاب آمنّا بك، فأزال الله عنهم المطر، وأرسل الرّياح فجفّفت الأرض، وخرج مِن النبات ما لَم يرَوا مثله قطّ.

فقالوا: هذا الذي جَزِعنا منه خيرٌ لنا لكنّا لا نشعُر، فلا والله لا نُؤمن بك ولا نُرسل معك بني إسرائيل، فنكثوا العهد، فأرسل الله عليهم الجَراد فأكل النّبات، وعظُم الأمرُ عليهم، حتّىٰ صارت عند طَيرانها تُغطّي الشّمس، ووقع بعضُها علىٰ بعض في الأرض ذِراعاً فأكلت النّبات، فصَرَخ أهلُ مِصر، فدعا

---

١. الحديد من الحِدَّة: ما يعتري الإنسان من الغضب.

موسى عليه السلام فأرسل الله رِيحاً فاحتملتْ الجَراد فألقته في البحر.

فنظر أهلُ مِصر إلىٰ أنّ بقيّةً مِن كلئهم وزَرعهم تكفيهم فقالوا: هذا الذي بقي يكفينا ولا نُؤمن بك، فأرسل الله بعد ذلك عليهم القُمّل سَبتاً إلىٰ سَبت، فلَم يبقَ في أرضهم عُودٌ أخضر إلّا أكلته، فصاحوا، فسأل مُوسىٰ عليه السلام ربّه فأرسل الله عليها ريحاً حارّة فأحرقتها واحتملتْها الريحُ إلىٰ البحر، فلَم يُؤمنوا، فأرسل الله عليهم الضّفادع بعد ذلك، فخرجت مِن البحر مِثل اللّيل الدّامس، ووقعت في الثّياب والأطعمة، فكان الرّجل منهم يسقط وعلىٰ رأسه ذِراع مِن الضّفادع، فصرخوا إلىٰ موسى عليه السلام وحلفوا بالٰهه: لَئِن رفعتَ عنّا هذا العذاب لنُؤمنَنّ بك، فدعا الله تعالىٰ فأمات الضّفادع، وأرسل عليها المطر فاحْتملها إلىٰ البحر.

ثمّ أظهروا الكُفر والفسَاد، فأرسل الله عليهم الدَّم فجرتْ أنهارُهم دماً، فلَم يقدِروا علىٰ الماء العَذِب، وبنو إسرائيل يجِدون الماء العَذِب الطيّب، حتّىٰ بلغ منهم الجَهد فصرخوا، ورَكِب فِرعون وأشراف قومه إلىٰ أنهار بني إسرائيل، فجعل يدخُل الرّجلُ مِنهم النهر فإذا اغْترف صار في يده دماً، ومكثوا سبعة أيام في ذلك لا يشربون إلّا الدّم، فقال فِرعون: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ﴾ الآية[1].

وعن الباقر عليه السلام قال: «لمّا سجَد السّحرة وآمن به النّاس، قال هامان لفِرعون: إنّ النّاس قد آمنوا بموسىٰ، فانظُر مَن دخل في دينه فاحبِسْه، فحبَس كُلّ مَن آمن به مِن بني إسرائيل، فجاء إليه مُوسىٰ عليه السلام فقال له: خَلِّ عن بني إسرائيل، فلَم يفعل، فأنزل الله عليهم في تِلك السّنة الطُّوفان، فخرّب دُورهم ومَساكنهم حتّىٰ خرجوا إلىٰ البريّة وضربوا الخِيام، فقال فِرعون لموسى: ادعُ [لنا] ربّك حتّىٰ يكُفّ عنّا الطُّوفان حتّىٰ أُخلّي عن بني إسرائيل وأصحابك، فدعا مُوسىٰ عليه السلام ربّه، فكَفّ عنهم الطُّوفان، وهَمّ فِرعون أن يُخلّي عن بني إسرائيل، فقال له هامان: إن خلّيتَ عن بني إسرائيل غَلَبك مُوسىٰ وأزال مُلكَك، فقبِل منه ولَم يُخلِّ عن بني إسرائيل.

فأنزل الله عليهم في السّنة الثانيَة الجَراد، فجَردَتْ كُلّ شيء كان لهم مِن النّبت والشّجر حتّىٰ كانت تجرِد شَعرَهم ولِحاهم، فجزِع فِرعون مِن ذلك جزعاً شديداً وقال: يا موسىٰ، ادعُ ربّك أن يكُفّ عنّا الجَراد حتّىٰ أُخلّي عن بني إسرائيل وأصحابك، فدعا مُوسىٰ عليه السلام ربّه فكَفّ عنهم الجَراد، فلَم يدَعه هامان أن يُخلّي عن بني إسرائيل.

فأنزل الله عليهم في السنة الثالثة القُمّل، فذهبتْ زُروعهم وأصابتهم المَجاعة، فقال فرعون لمُوسىٰ عليه السلام: إن دفعت عنّاالقُمّل كففْتُ عن بني إسرائيل، فدعا مُوسىٰ عليه السلام ربّه حتّىٰ ذهبَ القُمّل».

---

١. تفسير الرازي ١٤: ٢١٧.

وقال: «أوّل ما خلق الله القُمّل في ذلك الزّمان، فلَم يُخلّ عن بني إسرائيل، فأرسل الله عليهم بعد ذلك الضَفادع، فكانت تكون في طَعامهم وشَرابهم ويُقال إنّها تخرجُ مِن أدبارهم وآذانهم وآنافهم، فجزِعوا من ذلك جزعاً شديداً، فجاءوا إلىٰ مُوسىٰ عليه السلام فقالوا: ادعُ الله يُذهب عنّا الضّفادع، فإنا نُؤمن بك ونُرسل معك بني إسرائيل، فدعا مُوسىٰ عليه السلام ربّه، فرفع الله عنهم ذلك.

فلمّا أبَوا أن يُخَلّوا عن بني إسرائيل حوّل الله ماء النيل دماً، فكان القِبطيَ يراه دماً، والاسرائيلي يراه ماءً، فإذا شرِبه الإسرائيلي كان ماءً، وإذا شرِبه القِبطيَ يشربه دماً، فكان القِبطيَ يقول للإسرائيلي: خُذ الماء في فيك وصُبّة في فيَ، فكان إذا صبّه في فم القِبطي تحوّل دماً، فجزِعوا مِن ذلك جزَعاً شديداً فقالوا لمُوسىٰ عليه السلام: لئِن رُفع عنّا الدّم لنُرسلنّ معك بني إسرائيل، فلمّا رفع الله عنهم الدّم غَدروا ولم يُخلّوا عن بني إسرائيل»[1] الخبر.

وقيل: إنّ المُراد بالطُّوفان الموت[2].

ورُوي عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه قال: «الطُّوفان هُو الموت»[3].

وعن الصادق عليه السلام أنّه سُئل ما الطُّوفان؟ فقال: «هُو طُوفان الماء والطّاعون»[4].

وعن سعيدبن جُبير: كان إلىٰ جَنبهم كَثيب أعفر[5]، فضربه مُوسىٰ عليه السلام بعَصاه فصار قُمّلاً، فأخذتْ فيأبشارهم وأشعارهم وأشفار عُيونهم وحَواجبهم، ولزِم جُلودهم كأنّهالجُدري، فصاحوا وصرخوا و فزِعوا إلىٰ مُوسىٰ عليه السلام فرُفع عنهم فقالوا: قد تيقّنّا الآن أنّك ساحرٌ عليم، وعِزّة فِرعون لا نُؤمن لك أبداً[6].

وقيل: إنّ المُراد بالقُمّل الجراد الصِّغار الذي لا أجنحة له[7].

وقيل: إنّ المُراد بالدّم أنّه تعالىٰ سلّط عليهم الرُّعاف[8].

ثمّ أنّه رُوي أنّ مُوسىٰ عليه السلام مكث فيهم بعدما غلَب السّحرة عِشرين سنة يُريهم الآيات، ثمّ لمّا أصرّوا علىٰ الكُفر والطُّغيان نزل عليهم الرجز، قيل: هُو الأنواع الخَمسة المَذكورة مِن العذاب، وقيل: هُو الطّاعون، قال به سعيد بن جُبير، وقال: فمات به مِن القِبط تسعون[9] ألف إنسان في يوم واحد، فتُركوا غير مَدفونين[10].

وفي الرِّواية السابقة، عن الباقر عليه السلام: «فأرسل الله عليهم الرّجز؛ وهو الثّلج، ولَم يرَوه قبلَ ذلك،

---

١. تفسير القمي ١: ٢٣٧، وفي مجمع البيان ٤: ٧٢١، وتفسير الصافي ٢: ٢٣٠ عن الباقر والصادق عليهما السلام.

٢ و٣. تفسير الرازي ١٤: ٢١٨.

٤. تفسير العياشي ٢: ١٦٠٩/١٥٧، تفسير الصافي ٢: ٢٢٩.

٥. الكثيب الأعفر: الرّمل الأحمر، أو الأبيض القليل البياض.

٦ ـ٧. تفسير الرازي ١٤: ٢١٨.

٩. في تفسير الرازي: سبعون.

١٠. تفسير الرازي ١٤: ٢١٩.

فماتوا فيه وجزعوا وأصابهم ما لَم يعهدوه قبله» الخبر[1].

﴿وَلَمَّا وَقَعَ﴾ ونزل ﴿عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ﴾ مِن السّماء فزعوا إلىٰ مُوسىٰ عليه السلام فزع الأمَة إلىٰ نبيّها و﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ مُتوسّلاً ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ مِن النّبوّة. وقيل: إنّ (الباء) للقَسم، والمعنىٰ: نقسمك بعَهد الله الذي عندك[2]، أونُقسم بـه ﴿لَـئِنْ كَشَـفْتَ﴾ ورفـعتَ ﴿عَـنَّا ٱلـرِّجْزَ﴾ والعذاب ﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾ البتّة، ونُصدّقك في رِسالتك ﴿وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَاءِيلَ﴾ تذهبُ بهم أينما شِئت ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ﴾ ولكن لا مُطلقاً، بَل ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ﴾ وحَدّ مُعيَن مِن الزّمان ﴿هُمْ بَالِغُوهُ﴾ فإذا بلَغوه نُهلكهم، ﴿إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ وينقُضون العَهد مُبادرين إليه.

وفي الحديث السابق عن الباقر عليه السلام: «فدعا ربّه فكشَف عنهم الثلج، فخلّىٰ عن بني إسرائيل، فلمّا خلّىٰ عنهم اجتمعوا إلىٰ مُوسىٰ عليه السلام، وخرج مُوسىٰ مِن مِصر واجتمع إليه مَن كان هرَب مِن فرعون، فبلغ فرعون ذلك فقال له هامان: قد نهيتُك عن أن تُخلّي عن بني إسرائيل فقد اجتمعوا إليه، فجزع فِرعون وبعث في المدائن حاشرين وخرج في طلب مُوسىٰ»[3]، فآلَ أمرُه إلىٰ الغرَق.

فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ * وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا ٱلَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَاءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ[١٣٦ و ١٣٧]

ثمّ أخبرَ الله تعالىٰ بإنجازه وَعد مُوسىٰ عليه السلام لبني إسرائيل من قوله: «عسىٰ ربُّكم أن يُهلك عدوَّكم ويستخلفكم في أرض مِصر» بقوله: ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ وأخذناهم بذَنب نَكْثهم العهد، أو سلبنا عنهم النِّعمة بالعذاب ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي ٱلْيَمِّ﴾ وبحر القُلزُم، وكان قريباً من مِصر ﴿بِأَنَّهُمْ كَـذَّبُوا بِـآيَاتِنَا﴾ وبَراهين تَوحيدنا، ومُعجزات رَسُولنا ﴿وَكَـانُوا عَـنْهَا﴾ مُعرضين كأنـهم كـانوا عـنها ﴿غَـافِلِينَ * وَأَوْرَثْنَا﴾ وملّكنا ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ﴾ ويُقهرون ويُستذلّون بذَبح أبـنائهم واسـتخدام نِسائهم ﴿مَشَارِقَ ٱلْأَرْضِ﴾ المُقدّسة مِن الشام ومِصر ﴿وَمَغَارِبَهَا ٱلَّتِي بَـارَكْـنَا فِـيهَا﴾ بـالخَصْب ووُفور النِّعم والأمن، فتملّكوها بعد الفَراعنة وتمكّنوا فيها بالتصرُّف والاستراحة ﴿وَتَمَّتْ﴾ وأُنجزتْ

---

١. تفسير القمي ١: ٢٣٨، تفسير الصافي ٢: ٢٣١.

٢. كذا، وفي تفسير الرازي ١٤: ٢٢٠ أقسمنا بعهد الله عندك.

٣. تفسير القمي ١: ٢٣٨، تفسير الصافي ٢: ٢٣١.

بذلك الإهلاك والتوريث ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ ووَعْدُه بالنصر، والغَلَبة علىٰ الأعداء، وتَوريث الأراضي المُقدّسات ﴿عَلَىٰ بَنِي إِسْرَاءِيلَ﴾ مع غاية ضَعفهم وذُلّهم وأسرهم في أيدي الفَراعنة ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ علىٰ الشّدائد والمِحَن التي أصابوها منهم ﴿وَدَمَّرْنَا﴾ وخرّبنا ﴿مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ﴾ مِن القِبط مِن العِمارات والقُصور العالية ﴿وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ ويرفَعون مِن جنّات الكُروم والأشجار المُحتاجة إلىٰ العَريش، أو مِن الأبنية الرّفيعة.

وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَاءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَامُوسَى ٱجْعَل لَنَا إِلـٰهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَاهُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَاكَانُوا يَعْمَلُونَ[١٣٨ و ١٣٩]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ بَيان نِعمَه الجِسام علىٰ بني إسرائيل، ذكر نِعمة مُجاوزتهم مِن البحر مع السّلامة، وكُفرانهم لتِلك النِّعم لغاية جَهلهم؛ بقوله: ﴿وَجَاوَزْنَا﴾ وعبرنا بإعجازِ مُوسىٰ عليه السلام وكرامته ﴿بِبَنِي إِسْرَاءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ القُلزم بعد إغراق فِرعون وقومه فيه، وإهلاكهم ﴿فَأَتَوْا﴾ ومرّوا ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ مِن العَمالقة الكنعانيّين ـ علىٰ قولٍ ـ أو علىٰ قبيلةٍ في نَواحي مِصر، فرَأوهم ﴿يَعْكُفُونَ﴾ ويُواظبون ﴿عَلَىٰ﴾ عِبادة ﴿أَصْنَامٍ﴾ كانت ﴿لَهُمْ﴾ فلمّا شاهدوهم علىٰ ذلك ﴿قَالُوا﴾ لفَرط جَهلهم، وغاية سَفَههم: ﴿يَا مُوسىَ ٱجْعَلْ لَنَا﴾ صَنَماً أيضاً ليكون لنا ﴿إِلٰهاً﴾ ومَعبوداً نعبُده ﴿كَمَا﴾ يكون ﴿لَهُمْ﴾ مِن الأصنام ﴿آلِهَةٌ﴾ ومعبودات يعبُدونها. فغضِب مُوسىٰ مِن قولهم و﴿قَالَ﴾ لهم: ياقوم ﴿إِنَّكُمْ﴾ في الحقيقة ﴿قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ وتُفرِطون في السَّفَه ﴿إِنَّ هٰؤُلَاءِ﴾ القوم العاكفين علىٰ الأصنام ﴿مُتَبَّرٌ﴾ ومُهلِك ﴿مَا هُمْ فِيهِ﴾ مِن الدِّين الفاسد، حيثُ إنّ الله يُذهب به ويُبيد أصنامهم ﴿وَبَاطِلٌ﴾ ومضمحلٌّ ﴿مَا كَانُوا يَعمَلُونَ﴾ مِن عِبادتها، لا يترتّب عليه نَفعٌ في الدُّنيا ولا في الآخرة، وإن كانوا مُتقرّبين به الى الله، لأنّه مَحْض الكُفر. والحاصل أنّه لا أصنامهم تبقىٰ ولا دِينهم ينفع.

قَالَ أَغَيْرَ ٱللهِ أَبْغِيكُمْ إِلٰهاً وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ * وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ[١٤٠ و ١٤١]

ثمّ أنكر عليهم عِبادة الأصنام بعدَ مُشاهدتهم آيات وحَدانية الله وعِظام نِعمه بقوله: ﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللهِ﴾ مِن الأصنام والجَمادات ﴿أَبْغِيكُمْ﴾ وأطلُب لكم ﴿إِلٰهاً﴾ ومعَبوداً ﴿وَهُوَ﴾ الذي خصّكم بنِعَمه

الجِسام، و﴿فَضَّلَكُمْ﴾ بتلك الخصائص ﴿عَلَى ٱلْعَالَمِينَ﴾ فإنّه تعالىٰ لم يُعطِ أحداً مِن الخَلق ما أعطاكم من الآيات الباهرات والمُعجزات القاهرات، لا والله لا يجوز لي الابتِغاء ولا لكم الاشتِراك به.

ثمّ ذكّرهم أعظم نِعم الله بقوله: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَاكُمْ﴾ وخلّصناكم بقُدرة الله ورحمته ﴿مِنْ﴾ أسركم في أيدي ﴿آلِ فِرْعَوْنَ﴾ وقومه مِن القِبط، فإنّهم كانوا ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ ويطلُبون لكم ﴿سُوءَ ٱلْعَذَابِ﴾ وشديده.

ثمّ ذكّرهم أشدّ عذابهم بقوله: ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ ويُكثرون في ذبحهم وإهلاكهم ﴿وَيَسْتَحْيُونَ﴾ ويستبقون ﴿نِسَاءَكُمْ﴾ وبناتكم ليستخدموهُنّ ﴿وَفِي ذٰلِكُمْ﴾ الإنجاء، أو سُوء العذاب ﴿بَلاءٌ﴾ وفَوز بالنِّعمة، أو مِحنة وكَرب ﴿مِنْ﴾ جانب ﴿رَبِّكُمْ﴾ اللّطيف بكم، والمالك لأموركم ﴿عَظِيمٌ﴾ في الغاية.

وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لأَخِيهِ هَارُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَاتَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ * وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلٰكِنِ ٱنْظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقاً فَلَمّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَـا أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ [١٤٢ و ١٤٣]

ثمّ أنّه رُوي أنّ موسى عليه السلام وعد بني إسرائيل وهُو بمِصر: إن أهلك الله عدوَّهم أتاهم بكِتاب مِن عندِ الله فيه بَيان ما يأتون ويذرون، فلمّا هلَك فِرعون سأل الله ربّه ذلك الكِتاب، فبيّن الله كيفيّة نُزول التوراة[1] بقوله: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ﴾ ودَعوناه إلىٰ الطُّور ﴿ثَلاثِينَ لَيْلَةً﴾ مِن ذي القعدة بأيّامها لِمِيقَاتِنَا والوقت الذي وقّتناه، كي يصوم في تَمامها، ويجتهد في العِبادة فيها ﴿وَأَتْمَمْنَاهَا﴾ بعدُ وأكملناها ﴿بِعَشْرٍ﴾ مِن ليالي ذي الحِجّة ﴿فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ﴾ والوقت المضروب لعِبادة مَليكه ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ مِن أوّل ذي القعدة إلىٰ العِيد الأضحىٰ.

رُوي أنّ الله أمر مُوسىٰ عليه السلام بصوم ثلاثين يوماً؛ وهُو شهر ذي القعدة، فلمّا أتمّ الثلاثين أنكر خُلوف[2] فيه فتسوّك، فقالت الملائكة: كُنّا نشَمّ مِن فيك رائحة المِسك فأفسدتُه بالسِّواك، فأوحىٰ الله إليه: أما علِمتَ أن خُلوف فَم الصائم أطيب عندي مِن رِيح المِسك، فأمره الله أن يزيد عليها عشرة

---

١. تفسير الرازي ١٤: ٢٢٦.

٢. خَلَف الشيء خُلُوفاً: تغيّر وفَسَد، والخُلوف: رائحة فم الصائم.

أيام مِن ذي الحِجّة لهذا السبب[١]، وهذه حكمة زِيادة العَشر على الثلاثين.

وقيل: إنّ الله أمره أن يصوم ثلاثين يوماً، وأن يعمل فيها ما يُقرّبه إلى الله، ثمّ اُنزلت التوراة [عليه] في العشر البواقي، وكلّمه فيه أيضاً. وهذه حِكمة تَعْبير الأربعين بثلاثين وعشر[٢].

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ حين ذَهابه إلى مِيقات ربّه ﴿لِأَخِيهِ هَارُونَ﴾ الذي كان شريكاً له في النُبوّة وتابعاً له: ﴿ٱخْلُفْنِي﴾ وقُم مَقامي ﴿فِي قَوْمِي﴾ بني إسرائيل، وسِرْ فيهم بسِيرتي. ثمّ أكّد وصيّته بهم بقوله: ﴿وَأَصْلِحْ﴾ جميعَ ما يجبُ أن يُصلَح مِن اُمورهم واُمور دِينهم ﴿وَلَاتَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ ولا تسلُك طريقتهم في الإفساد، ولا تُساعدهم ولا تُجبْهم إليه.

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا﴾ وحضر في الوقت الذي وقّتناه لحُضوره، أو إلى المكان الذي واعدناه فيه ﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ مُشافهةً بلا واسطة مَلَك ﴿قَالَ﴾ بعد استماع كلامه: ﴿رَبِّ أَرِنِي﴾ نَفْسك ومكّنّي من رُؤيتك ﴿أَنظُرْ﴾ بعين رأسي ﴿إِلَيْكَ﴾.

عن أمير المُؤمنين عليه السلام في حديث: «وسأل مُوسىٰ، وجرىٰ على لِسانه مِن حَمد الله عزّ وجلّ ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ فكانت مسألته تِلك أمراً عظيماً، وسأل أمراً جسيماً فعوقب»[٣].

﴿قَالَ﴾ الله تعالىٰ: ﴿لَن تَرَانِي﴾ أبداً، لا في الدُّنيا ولا في الآخرة ﴿وَلَٰكِنِ﴾ إن أردتَ أن تراني في الدُّنيا ﴿ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ﴾ الذي أنت عليه ـ قيل: هُو أعظم جَبل بمَدين، يُقال له زبير[٤] ـ وأنا أتجلّىٰ بجَلوةٍ مِن جَلَواتي ﴿فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ﴾ الجبل وثبَت ﴿مَكَانَهُ﴾ ولم يتفتّت بذلك التَجلّي ﴿فَسَوْفَ تَرَانِي﴾.

قيل: لمّا سمِعتْ الجِبالُ ذلك تعاظمتْ رجاءَ أن يتجلّىٰ لها، وجعل طُورٌ أو زُبير يتواضع، فلمّا رأىٰ الله تواضُعَه رفعه مِن بينها وخصّه بالتَجلّي[٥].

عن ابن عبّاس قال: لمّا قال مُوسىٰ عليه السلام: ﴿أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ كشف الحِجاب، وأبرز له الجبل وقال: انظُر، فنظر فإذا أمامه مائة ألف نبيّ وأربعة وعشرون [ألف] نبيّ، مُحرمِين مُلَبّين، كُلّهم يقولون: أرني أرني[٦].

﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾، قيل: كشَف نُورَه من حُجُبه قَدْر ما بين الخِنْصِر والإبهام[٧]، وظهرتْ له

---

١ و٣. تفسير الرازي ١٤: ٢٢٦.
٣. التوحيد: ٥/٢٦٢، وفيه: فعُوتب بدل: فعوقب، تفسير الصافي ٢: ٢٣٤.
٤. تفسير روح البيان ٣: ٢٣٣.
٥. تفسير روح البيان ٣: ٢٣٤.
٦. تفسير روح البيان ٣: ٢٣١.
٧. تفسير روح البيان ٣: ٢٣٤.

عَظمتُه واقْتِدارُه ـ وعن سَهل بن سعد: أنّ الله أظهر مِن تسعين[١] ألف حِجاب نُوراً قَدْر الدِّرهم[٢] ـ إذا **﴿جَعَلَهُ دَكّاً﴾** مُفتتاً كأن لَم يكُن **﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ﴾** وسقط على الأرض **﴿صَعِقاً﴾** ومَغشياً عليه.

عن الصادق عليه السلام: «أنّ مُوسَىٰ بن عِمران عليه السلام لمّا سأل ربّه النَظَر إليه وعدَه الله أن يقعُد في موضعٍ، ثمّ أمر الملائكة أن يمُرّوا عليه مَوكباً بعد مَوكب بالبَرق والرّعد والرّيح والصّواعق، فكُلّما مَرّ به مَوكبٌ مِن المواكب ارْتعدتْ فَرائصُه فيرفع رأسه فيسأل: أفيكم ربّي؟ فيُجاب: هُو آتٍ، وقد سألتَ عظيماً يا بن عِمران»[٣].

وعن الباقر عليه السلام: «لمّا سأل مُوسىٰ عليه السلام ربّه تعالىٰ وقال: **﴿رَبِّ أَرِنِى أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِى وَلٰكِنِ ٱنْظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِى﴾** فلمّا صعِد مُوسىٰ عليه السلام علىٰ الجبل فُتحت أبوابُ السّماء، وأقبلتْ الملائكة أفواجاً في أيديهم العُمُد وفي رأسها النُّور، يمُرّون به فوجاً بعد فوجٍ، يقولون: يا بن عِمران، اثبُتْ فقد سألت عظيماً. قال: فلَم يزل مُوسىٰ عليه السلام واقفاً حتّىٰ تجلّىٰ ربُّنا جلّ جلالُه، فجعل الجَبَل دكّاً وخَرّ مُوسىٰ صعِقاً **﴿فَلَمَّا﴾** أن رَدّ الله عليه رُوحه و**﴿أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾**[٤].

وعن القُمّي رحمه الله قال: فرفع الله الحِجاب ونظر إلىٰ الجبل، فساخ الجبلُ في البحر، فهُو يهوي حتّىٰ السّاعة، [ونزلت الملائكة وفتحت أبواب السماء، فأوحى الله إلىٰ الملائكة: أدركوا موسى لا يهرُب، فنزلت الملائكة وأحاطت بموسى عليه السلام، وقالوا: تُب يابن عمران، فقد سألت الله عظيماً، فلمّا نظر موسى عليه السلام إلىٰ الجبل قد ساخ]. والملائكةُ قد نزلتْ فوقع مُوسىٰ عليه السلام علىٰ وجهه مِن خشية الله وهول ما رأى، فردّ الله عليه رُوحه، فرفع رأسه وأفاق وقال: **﴿سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾** أي أوّل المُصدّقين بأنّك لا تُرىٰ[٥].

وعن الصادق عليه السلام: «أنّ الكَرُوبيّين قومٌ مِن شِيعتنا مِن الخَلق الأوّل، جعلهم الله خلف العَرش، لَو قُسّم نُورُ واحدٍ منهم علىٰ أهل الأرض لكفاهم» ثمّ قال: «إنّ مُوسىٰ عليه السلام لمّا سأل ربّه ما سأل، أمرَ واحداً مِن الكَرُبيّين فتجلّىٰ للجبل وجعله دَكّاً»[٦].

عن الرضا عليه السلام: أنّه سُئل: كيف يجُوز أن يكون كليمُ الله مُوسىٰ بن عِمران لا يعلم أنّ الله لا يجوز عليه الرُّؤية حتّىٰ يسأله هذا السُّؤال؟

---

١. في تفسير روح البيان: سبعين.
٢. تفسير روح البيان ٣: ٢٣٤.
٣. تفسير العياشي ٢: ١٦١٦/١٥٩، تفسير الصافي ٢: ٢٣٤.
٤. تفسير العياشي ٢: ١٦١٤/١٥٨، تفسير الصافي ٢: ٢٣٤.
٥. تفسير القمي ٢: ٢٤٠، تفسير الصافي ٢: ٢٣٥.
٦. بصائر الدرجات: ٢/٨٩، تفسير الصافي ٢: ٢٣٥.

فقال عليه السلام: «إنّ كليمَ الله عَلِم أنّ الله مُنزّه عن أن يُرىٰ بالأبصار، ولكنّه لمّا كلّمه الله وقرّبه نجياً رَجع إلىٰ قومه فأخبرهم أنّ الله كلّمه وقرّبه وناجاه، فقالوا: لن نُؤمن لك حتّىٰ نسمع كلامه كما سمِعتَه، وكان القوم سبعمائة ألف، فاختار منهم سبعين ألفاً، ثمّ اختار منهم سبعة آلاف [ثمّ اختار منهم سبعمائة] ثمّ اختار مِنهم سَبعين رجلاً لمِيقات ربّه، فخرج بهم إلىٰ طُور سَيناء، فأقامهم في سَفح الجبل، وصَعِد مُوسىٰ عليه السلام إلى الطُّور، وسأل الله أن يُكلّمه ويُسمعهم كلامه، فكلّمهم الله وسمِعوا كلامه مِن فَوق وأسفل، ويمين وشِمال، ووراء وأمام؛ لأنّ الله أحدثه في الشّجرة، ثمّ جعله مُنبعثاً منها حتّىٰ سمِعوه مِن جميع الوّجوه، فقالوا: لن نُؤمن بأنّ هذا الذي سِمعناه كلام الله حتّىٰ نرىٰ الله جَهرةً.

فلمّا قالوا هذا القول العظيم واستكبروا وعتَوا، بعثَ الله عليهم صاعقةً فأخذتهم الصاعقة بظُلمهم فماتوا، فقال مُوسىٰ عليه السلام: يا رَبّ، ما أقول لبني إسرائيل إذا رجَعتُ إليهم وقالوا: إنّك ذهبتَ بهم فقتلتَهم؛ لأنّك لَم تُكن صادقاً فيما ادّعيتَ مِن مُناجاة الله إيّاك؛ فأحياهم وبعثهم معه، فقالوا: إنّك لَو سألت الله أن يُريك تنظُر إليه لأراك[1]، فتُخبرنا كيف هُو ونعرِفه حقّ معرفته.

فقال مُوسىٰ عليه السلام: يا قوم، إنّ الله لا يُرىٰ بالأبصار، ولا كيفيّة له، وإنّما يُعرف بآياته، ويُعلم بأعلامه، فقالوا: لن نُؤمن لك حتّىٰ تسأله.

فقال مُوسىٰ عليه السلام: يا رَبّ، إنّك قد سمِعتَ مَقالةَ بني إسرائيل وأنت أعلم بصَلاحهم، فأوحىٰ الله إليه: يا مُوسىٰ، سَلني ما سألوك فلَم اُؤاخذك بجَهلهم.

فعند ذلك قال موسىٰ عليه السلام: **﴿رَبِّ أَرِنِى أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِى وَلٰكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ﴾** [وهو يَهوي] **﴿فَسَوْفَ تَرَانِى فَلَمَّا تَجَلّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾** بآيةٍ مِن آياته **﴿جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ مُوسىٰ صَعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيكَ﴾** يقول: رجَعتُ إلىٰ معرفتي بك عن جَهل قومي **﴿وأنا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾** منهم بأنّك لا تُرىٰ»[2].

أقول: ما في الرِّواية مِن التّوجيه، وإن كان أحسن الوّجوه في دَفع الإشكال، إلّا أنّ الظاهر بَل المُتيقّن أنّ قضيّة اختيار مُوسىٰ عليه السلام سبعين رجلاً لمِيقات ربّه كان بعدَ هذا المِيقات الذي سأل فيه الرُّؤية وأُعطي فيه التّوراة.

وما نقله الطَّبرسي ـ مِن أنّ المُراد مِن قوله: **﴿أَرِنِى أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾** عرّفني نفسك تعريفاً واضحاً جليّاً بإظهار بعضِ آيات الآخرة التي تضطرّ الخَلقَ إلىٰ مَعرفتك **﴿أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾** يعني: أعرِفُك معرفةً

---

١. في عيون أخبار الرضا عليه السلام: لأجابك.

٢. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١/٢٠٠، تفسير الصافي ٢: ٢٣٣.

ضَرورية كأنّي أنظر إليك؛ كما جاء في الحديث: «ستَرون ربّكم كما ترَون القمر ليلةَ البَدْر» بمعنى: ستعرِفونه مَعرفةً جليّةً هي في الجَلاء مِثل إبصاركم القمر إذا امتلأ واستوىٰ بَدْراً ﴿قَالَ لَنْ تَرَانِى﴾ لن تُطيق مَعرفتي علىٰ هذه الطَّريقة، ولَن تحتمِل قُوتُك تِلك الآية ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ﴾ فإنّي أُورد عليه آيةً مِن تِلك الآيات، فإن ثبَت لتَجلّيها واستقرّ مكانه، فسوف تثبُت لها وتُطيقها ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ﴾ فلمّا ظهرتْ للجبل آيةٌ مِن آيات ربّه ﴿جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ مُوسىٰ صَعِقاً﴾ لعِظَم ما رأى ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيكَ﴾ مِمّا اقترحتُ ﴿وأنا أوّل المُؤمنين﴾ بعَظمتك وجَلالك. انتهى[1].

وبه قال بعضُ العامّة حيثُ قال: إنّه سأل المعرفة الضّروريّة، أو الآيات الباهرات التي تزول عندها الخَواطر والوَساوس، انتهى[2] ـ مُخالفٌ لظاهر الآية وصَريح الرِّوايات المرويّة بطريق العامّة والخاصّة.

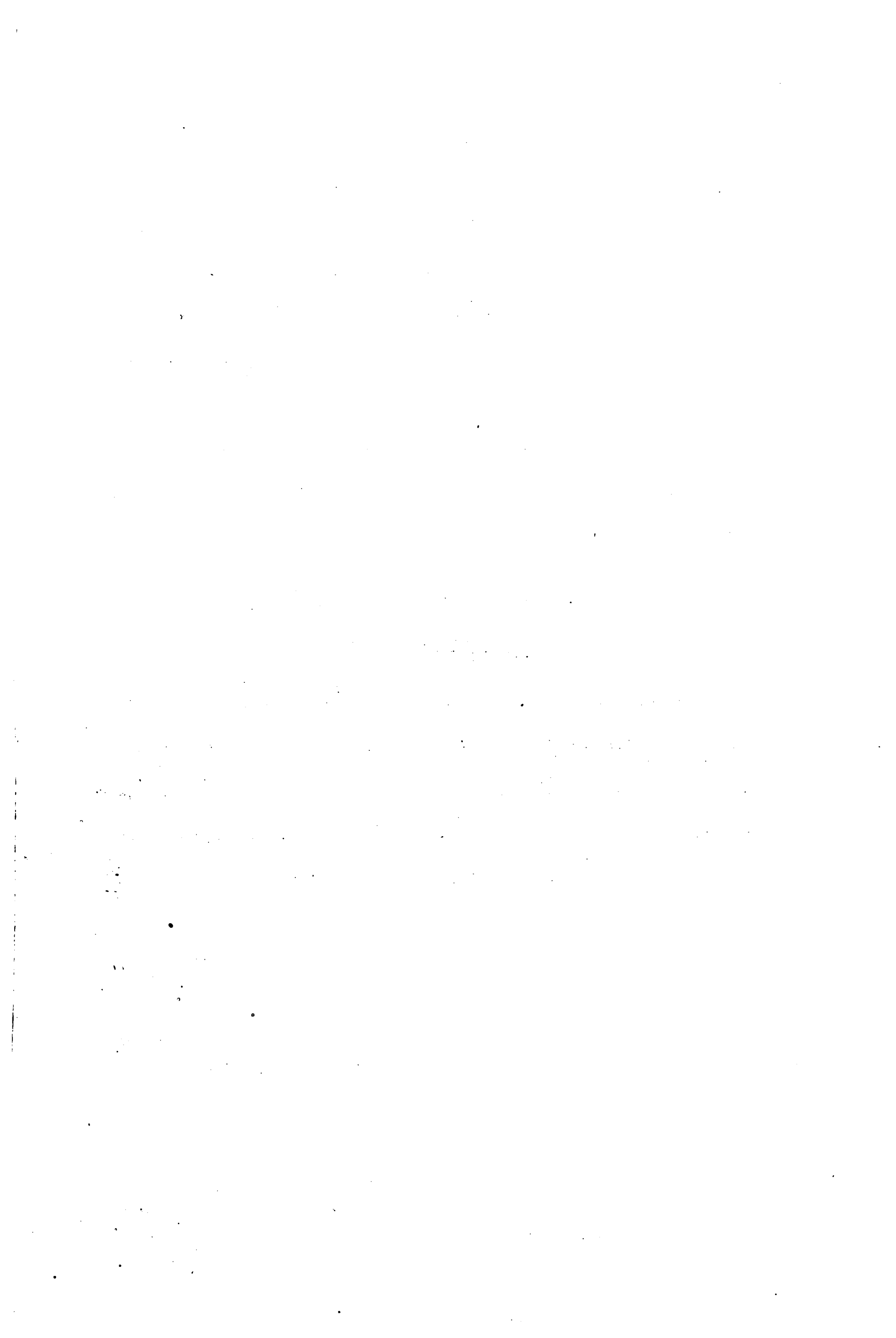
وقيل: إنّه الرُّؤية، وأراد تأكيد الدّليل العقلي الدالّ علىٰ امتناع الرُّؤية بالدليل السّمعي مِن قوله ﴿لَنْ تَرَانِى﴾. وفيه ما لا يخفىٰ مِن الضَّعف، فالأولىٰ الكَفّ عن التكلُّم في تَوجيه الآية وإيكال عِلمه إلىٰ الرّاسخين في العلم.

قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَالَاتِى وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَاآتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ ٱلشَّاكِرِينَ[١٤٤]

ثمّ أنّه تعالىٰ بعدَ إفاقة مُوسىٰ عليه السلام وتوبته مِن سؤال الرُّؤية في يومِ عَرفة ـعلى روايةٍ ـ أظهر غايةَ لُطفه به و﴿قَالَ﴾ له في يوم النَّحر ـكما رُوي[3] ـ: ﴿يَا مُوسَىٰ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ﴾ وفضّلتُك أو آثرتُك ﴿عَلَىٰ ٱلنَّاسِ﴾ جميعاً مِن الأوّلين والآخرين ﴿بِرِسَالَاتِى وَبِكَلَامِى﴾ ومُخاطبتي إيّاك مُشافهةً في الأرض بِلا واسطة مَلَك، فإنّ مجموع الأمرين لَم يكُن ولا يكون لأحدٍ غيرك ﴿فَخُذْ﴾ الآن ﴿مَا آتَيْتُكَ﴾ وأعطيتُك مِن التّوراة ﴿وَكُنْ مِنَ ٱلشَّاكِرِينَ﴾ لنِعَمي عليك.

---

١. جوامع الجامع: ١٥٦، تفسير الصافي ٢: ٢٣٥.
٢. تفسير الرازي ١٤: ٢٢٩.
٣. تفسير الرازي ١٤: ٢٣٦.



الفهرس

[٥٧]وَأَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَٱللهُ ٥

[٥٨]ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلآيَاتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ٥

[٥٩ـ ٦١]إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ٥

[٦٢و ٦٣]إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللهُ وَإِنَّ ٱللهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ.......... ١٠

[٦٤]قُلْ يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللهَ ١٠

[٦٥]يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ ٱلتَّوْرَاةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنْ............ ١٣

[٦٦و ٦٧]هَا أَنْتُمْ هَٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ وَٱللهُ ١٤

[٦٨]إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَٱللهُ وَلِيُّ.......... ١٤

[٦٩]وَدَّت طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ.......... ١٤

[٧٠]يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ ٱللهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ.............................. ١٥

[٧١]يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ١٥

[٧٢و ٧٣]وَقَالَت طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ آمِنُوا بِٱلَّذِي أُنْزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ ٱلنَّهَارِ.......... ١٥

[٧٤]يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَٱللهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ.................................. ١٧

[٧٥]وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ ١٧

[٧٦]بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ١٨

[٧٧]إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي ٱلآخِرَةِ............ ١٨

[٧٨]وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ............ ١٩

[٧٩و ٨٠]مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللهُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً........ ٢٠

[٨١و ٨٢]وَإِذْ أَخَذَ ٱللهُ مِيثَاقَ ٱلنَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ ٢٢

[٨٣]أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً.............. ٢٤

[٨٤]قُلْ آمَنَّا بِٱللهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ٢٥

[٨٥]وَ مَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلآخِرَةِ ٢٦
[٨٦]كَيْفَ يَهْدِى ٱللهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ ٢٧
[٨٧ و ٨٨]أُولٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللهِ وَٱلمَلَائِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ ٢٨
[٨٩]إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ ٱللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ٢٨
[٩٠]إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا كُفْراً لَن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولٰئِكَ هُمُ ٢٩
[٩١]إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَباً ٣٠
[٩٢]لَن تَنَالُوا ٱلبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللهَ بِهِ ٣٠
[٩٣]كُلُّ ٱلطَّعامِ كَانَ حِلاًّ لِبَنِى إِسْرَاءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَاءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ ٣٢
[٩٤]فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللهِ ٱلْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ فَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلظَّالِمُونَ ٣٤
[٩٥]قُلْ صَدَقَ ٱللهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٣٤
[٩٦ و ٩٧]إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدىً لِلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ ٣٤
[٩٨]قُلْ يَاأَهْلَ ٱلْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ ٱللهِ وَٱللهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ٤٠
[٩٩]قُلْ يَاأَهْلَ ٱلْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجاً وَأَنْتُمْ ٤١
[١٠٠ و ١٠١]يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ ٤٢
[١٠٣]وَٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ ٱللهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَٱذْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ ٤٣
[١٠٤ و ١٠٥]وَلْتَكُن مِنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٤٦
[١٠٦ و ١٠٧]يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ ٥٠
[١٠٨ و ١٠٩]تِلْكَ آيَاتُ ٱللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالحَقِّ وَمَا ٱللهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعَالَمِينَ * وَلِلّٰهِ مَا فِى ٥٢
[١١٠]كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ ٥٣
[١١١]لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذىً وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ ٥٥
[١١٢]ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ ٱللهِ وَحَبْلٍ مِنَ ٱلنَّاسِ وَبَاءُو ٥٦
[١١٣ و ١١٤]لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ ٱللهِ آنَاءَ ٱللَّيْلِ وَهُمْ ٥٨
[١١٥]وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَٱللهُ عَلِيمٌ بِالمُتَّقِينَ ٦٠
[١١٦]إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ ٱللهِ شَيْئاً وَأُولٰئِكَ ٦٠
[١١٧]مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِى هٰذِهِ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ ٦١
[١١٨]يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا ٦٢
[١١٩]هَاأَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ٦٣
[١٢٠]إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا ٦٤

[١٢١-١٢٣]وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِذْ ٦٥
[١٢٤ و ١٢٥]إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ ٱلْمَلَائِكَةِ.......... ٦٩
[١٢٦]وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٧٠
[١٢٧]لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ ٧١
[١٢٨]لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ٧١
[١٢٩]وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَٱللَّهُ.......... ٧٣
[١٣٠-١٣٢]يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا ٱلرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ.......... ٧٣
[١٣٣]وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِن رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَاوَاتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ.......... ٧٤
[١٣٤]ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّاءِ وَٱلضَّرَّاءِ وَٱلْكَاظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ.......... ٧٦
[١٣٥]وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا ٱللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ.......... ٧٧
[١٣٦]أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَغْفِرَةٌ مِن رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ.......... ٨٢
[١٣٧ و ١٣٨]قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٨٢
[١٣٩ و ١٤٠]وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُؤْمِنِينَ * إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ ٨٣
[١٤١]وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ ٱلْكَافِرِينَ.......... ٨٤
[١٤٢]أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ.......... ٨٥
[١٤٣]وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ.......... ٨٧
[١٤٤]وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِن مَاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ.......... ٩٠
[١٤٥]وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَاباً مُؤَجَّلاً وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا ٩٦
[١٤٦]وَكَأَيِّن مِن نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ٩٧
[١٤٧ و ١٤٨]وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا وَثَبِّتْ ٩٩
[١٤٩ و ١٥٠]يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا.......... ١٠٠
[١٥١]سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً.......... ١٠٠
[١٥٢]وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِى ١٠١
[١٥٣]إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِى أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ.......... ١٠٣
[١٥٤]ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِن بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاساً يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ.......... ١٠٥
[١٥٥]إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا.......... ١٠٨
[١٥٦]يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِى ١٠٩
[١٥٧]وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا.......... ١١٠

[١٥٨]وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللهِ تُحْشَرُونَ ١١١
[١٥٩]فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ١١١
[١٦٠]إِن يَنصُرْكُمُ ٱللهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ ١١٧
[١٦١]وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ ١١٨
[١٦٢]أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَانَ ٱللهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ١٢١
[١٦٣]هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ ٱللهِ وَٱللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ١٢١
[١٦٤]لَقَدْ مَنَّ ٱللهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ١٢٢
[١٦٥]أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ ١٢٥
[١٦٦ و ١٦٧]وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * وَلِيَعْلَمَ ١٢٦
[١٦٨]ٱلَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ ١٢٧
[١٦٩]وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ ٱللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ ١٢٨
[١٧٠]فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ ٱللهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّن ١٢٩
[١٧١]يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١٣٠
[١٧٢-١٧٤]ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِلهِ وَٱلرَّسُولِ مِن بَعْدِمَا أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا ١٣١
[١٧٥]إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم ١٣٤
[١٧٦]وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا ٱللهَ شَيْئاً يُرِيدُ ٱللهُ أَلَّا ١٣٥
[١٧٧]إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا ٱلْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا ٱللهَ شَيْئاً وَلَهُمْ عَذَابٌ ١٣٥
[١٧٨]وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ ١٣٦
[١٧٩]مَا كَانَ ٱللهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ١٣٧
[١٨٠]وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ ٱللهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ ١٣٨
[١٨١]لَقَدْ سَمِعَ ٱللهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوا إِنَّ ٱللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا ١٣٩
[١٨٢]ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ١٤١
[١٨٣]ٱلَّذِينَ قَالُوا إِنَّ ٱللهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ١٤١
[١٨٤]فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُو بِالْبَيِّنَاتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَابِ ١٤٢
[١٨٥]كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ١٤٣
[١٨٦]لَتُبْلَوُنَّ فِى أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ ١٤٤
[١٨٧]وَإِذْ أَخَذَ ٱللهُ مِيثَاقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ ١٤٥
[١٨٨]لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا ١٤٦

[١٨٩]وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ.......... ١٤٧

[١٩٠]إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَافِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُوْلِى ١٤٧

[١٩١]ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ.......... ١٤٩

[١٩٢]رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ١٥١

[١٩٣]رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِى لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا.......... ١٥٢

[١٩٤]رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ.......... ١٥٣

[١٩٥]فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُم مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُم ١٥٤

[١٩٦ و ١٩٧]لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِى ٱلْبِلَادِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ.......... ١٥٦

[١٩٨]لٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا.......... ١٥٧

[١٩٩]وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ ١٥٨

[٢٠٠]يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَٱتَّقُوا ٱللهَ لَعَلَّكُمْ.......... ١٥٩

في تفسير سورة النساء.......... ١٦٥

[١]بسم الله الرحمن الرحيم يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ.......... ١٦٥

[٢]وَآتُوا ٱلْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا ٱلْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ ١٦٩

[٣]وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِى ٱلْيَتَامَىٰ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِنَ ٱلنِّسَاءِ مَثْنَىٰ.......... ١٧٠

[٤]وَآتُوا ٱلنِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً.......... ١٧٢

[٥]وَلَا تُؤْتُوا ٱلسُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللهُ لَكُمْ قِيَاماً وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا ١٧٣

[٦]وَٱبْتَلُوا ٱلْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ.......... ١٧٥

[٧]لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَالِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ ١٧٧

[٨]وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُولُوا ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَامَىٰ وَٱلْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِنْهُ.......... ١٧٩

[٩]وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا ٱللهَ.......... ١٧٩

[١٠]إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ ٱلْيَتَامَىٰ ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَاراً ١٨١

[١١]يُوصِيكُمُ ٱللهُ فِى أَوْلَادِكُم لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنْثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ ١٨٢

[١٢]وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَم يَكُن لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ.......... ١٨٥

[١٣]تِلْكَ حُدُودُ ٱللهِ وَمَن يُطِعِ ٱللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا.......... ١٨٨

[١٤]وَمَن يَعْصِ ٱللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ.......... ١٨٩

[١٥]وَٱللَّاتِى يَأْتِينَ ٱلْفَاحِشَةَ مِن نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنكُمْ فَإِن.......... ١٨٩

[١٦]وَٱللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ ٱللهَ كَانَ ١٩٠

[١٧]إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ١٩٠
[١٨]وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ ١٩٢
[١٩]يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا ٱلنِّسَاءَ كَرْهاً وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ ١٩٣
[٢٠]وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَاراً فَلَا تَأْخُذُوا ١٩٤
[٢١]وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِيثَاقاً ١٩٥
[٢٢]وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ ٱلنِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً ١٩٦
[٢٣]حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ ١٩٧
[٢٤]وَٱلْمُحْصَنَاتُ مِنَ ٱلنِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم ١٩٨
[٢٥]وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَاتِ ٱلْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَا ٢٠٠
[٢٦]يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ ٢٠٢
[٢٧]وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً ٢٠٢
[٢٨]يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَانُ ضَعِيفاً ٢٠٢
[٢٩]يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَاطِلِ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً ٢٠٣
[٣٠]وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ ٢٠٤
[٣١]إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُم وَنُدْخِلْكُم مُدْخَلاً ٢٠٥
[٣٢]وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا ٱكْتَسَبُوا ٢٠٦
[٣٣]وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَالِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ ٢٠٧
[٣٤]ٱلرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى ٱلنِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا ٢٠٩
[٣٥]وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا ٢١١
[٣٦]وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِٱلْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي ٱلْقُرْبَىٰ ٢١٢
[٣٧]ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ ٢١٤
[٣٨]وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَن ٢١٥
[٣٩]وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ ٢١٦
[٤٠]إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَدُنْهُ أَجْراً ٢١٦
[٤١]فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيداً ٢١٦
[٤٢]يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٢١٧
[٤٣]يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا ٱلصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ٢١٨
[٤٤]أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ ٱلْكِتَابِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن ٢٢٢

[٤٥]وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَىٰ بِاللهِ وَلِيّاً وَكَفَىٰ بِاللهِ نَصِيراً ٢٢٣

[٤٦]مِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ٢٢٣

[٤٧]يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُم مِن قَبْلِ أَن ٢٢٤

[٤٨]إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ ٢٢٥

[٤٩]أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُم بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ ٢٢٦

[٥٠]اُنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْماً مُبِيناً ٢٢٧

[٥١]أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ ٱلْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَٱلطَّاغُوتِ ٢٢٧

[٥٢]أُولَـٰئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيراً ٢٢٨

[٥٣]أَم لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذاً لَا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيراً ٢٢٨

[٥٤]أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ ٢٢٨

[٥٥]فَمِنْهُم مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيراً ٢٢٩

[٥٦]إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ ٢٢٩

[٥٧]وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٢٣٠

[٥٨]إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا ٱلْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن ٢٣٠

[٥٩]يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَأُولِى ٱلْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن ٢٣١

[٦٠]أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِن قَبْلِكَ ٢٤٠

[٦١]وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ ٢٤١

[٦٢]فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنْ ٢٤١

[٦٣]أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَهُمْ فِى ٢٤٢

[٦٤]وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ ٢٤٢

[٦٥]فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِى ٢٤٣

[٦٦-٦٨]وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَا فَعَلُوهُ إِلَّا ٢٤٤

[٦٩و ٧٠]وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِنَ ٱلنَّبِيِّينَ ٢٤٥

[٧١]يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا جَمِيعاً ٢٤٦

[٧٢و ٧٣]وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن ٢٤٦

[٧٤]فَلْيُقَاتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِى ٢٤٧

[٧٥]وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَاءِ ٢٤٧

[٧٦]ٱلَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٢٤٨

[٧٧]أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ وَآتُوا ٱلزَّكَاةَ فَلَمَّا ٢٤٨
[٧٨]أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ ٢٤٩
[٧٩]مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ.......... ٢٥٠
[٨٠]مَن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً.......... ٢٥١
[٨١]وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ وَٱللَّهُ ٢٥٢
[٨٢]أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ ٱخْتِلَافاً ٢٥٢
[٨٣]وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ.......... ٢٥٣
[٨٤]فَقَاتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَسَى ٱللَّهُ أَن.......... ٢٥٤
[٨٥]مَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن.......... ٢٥٥
[٨٦]وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ.......... ٢٥٦
[٨٧]ٱللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ.......... ٢٥٧
[٨٨]فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا ٢٥٧
[٨٩]وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ ٢٥٨
[٩٠]إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ.......... ٢٥٩
[٩١]سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى ٱلْفِتْنَةِ.......... ٢٦١
[٩٢]وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلَّا خَطَأً وَمَن قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ٢٦٢
[٩٣]وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ ٢٦٤
[٩٤]يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ ٢٦٦
[٩٥ و ٩٦]لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَاعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَاهِدُونَ فِى ٢٦٨
[٩٧]إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ ٱلْمَلَائِكَةُ ظَالِمِى أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا ٢٦٩
[٩٨]إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَاءِ وَٱلْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا.......... ٢٧١
[٩٩]فَأُولَٰئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوّاً غَفُوراً ٢٧٢
[١٠٠]وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ.......... ٢٧٣
[١٠١]وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ ٱلصَّلَاةِ إِنْ.......... ٢٧٣
[١٠٢]وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا.......... ٢٧٥
[١٠٣]فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا ٱللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ ٢٧٧
[١٠٤]وَلَا تَهِنُوا فِى ٱبْتِغَاءِ ٱلْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ٢٨٠
[١٠٥ و ١٠٦]إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلْكِتَابَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَا أَرَاكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُن.......... ٢٨١

[١٠٧]وَلَا تُجَادِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ ٱللهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّاناً........ ٢٨١

[١٠٨]يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ........ ٢٨٣

[١٠٩]هَا أَنْتُمْ هٰؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ ٱللهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٢٨٣

[١١٠]وَمَن يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللهَ يَجِدِ ٱللهَ غَفُوراً رَحِيماً........ ٢٨٤

[١١١]وَمَن يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَكَانَ ٱللهُ عَلِيماً حَكِيماً........ ٢٨٤

[١١٢]وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً........ ٢٨٤

[١١٣]وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا........ ٢٨٤

[١١٤]لَا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِن نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ........ ٢٨٥

[١١٥]وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ........ ٢٨٦

[١١٦]إِنَّ ٱللهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللهِ........ ٢٨٧

[١١٧ و ١١٨]إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثاً وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَاناً مَرِيداً * لَعَنَهُ ٱللهُ وَقَالَ........ ٢٨٧

[١١٩]وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ ٱلْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ........ ٢٨٨

[١٢٠]يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً........ ٢٨٩

[١٢١]أُولٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصاً........ ٢٨٩

[١٢٢]وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا........ ٢٩٠

[١٢٣]لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ........ ٢٩٠

[١٢٤ و ١٢٥]وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولٰئِكَ يَدْخُلُونَ........ ٢٩١

[١٢٦]وَلِلهِ مَا فِى ٱلسَّماوَاتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُحِيطاً........ ٢٩٢

[١٢٧]وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَاءِ قُلِ ٱللهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَابِ........ ٢٩٣

[١٢٨]وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا........ ٢٩٣

[١٢٩]وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ ٱلنِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ ٱلْمَيْلِ........ ٢٩٥

[١٣٠]وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللهُ كُلّاً مِن سَعَتِهِ وَكَانَ ٱللهُ وَاسِعاً حَكِيماً........ ٢٩٦

[١٣١]وَلِلهِ مَا فِى ٱلسَّماوَاتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ مِن........ ٢٩٧

[١٣٢ و ١٣٣]وَلِلهِ مَا فِى ٱلسَّماوَاتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللهِ وَكِيلاً * إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ........ ٢٩٧

[١٣٤]مَن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِنْدَ ٱللهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَكَانَ ٱللهُ سَمِيعاً........ ٢٩٨

[١٣٥]يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ........ ٢٩٩

[١٣٦]يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِٱللهِ وَرَسُولِهِ وَٱلْكِتَابِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ........ ٢٩٩

[١٣٧ و ١٣٨]إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ٱزْدَادُوا كُفْراً لَمْ يَكُنِ ٱللهُ........ ٣٠٠

[١٣٩]ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ.......... ٣٠١
[١٤٠]وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ ٱللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا.......... ٣٠٢
[١٤١]ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ ٱللهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَعَكُمْ وَإِن كَانَ ٣٠٣
[١٤٢و ١٤٣]إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ ٱللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى ٱلصَّلَاةِ قَامُوا.......... ٣٠٥
[١٤٤]يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا ٱلْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ.......... ٣٠٦
[١٤٥و ١٤٦]إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً * إِلَّا ٱلَّذِينَ.......... ٣٠٦
[١٤٧]مَا يَفْعَلُ ٱللهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ ٱللهُ شَاكِراً عَلِيماً.......... ٣٠٧
[١٤٨]لَا يُحِبُّ ٱللهُ ٱلْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ وَكَانَ ٱللهُ سَمِيعاً.......... ٣٠٧
[١٤٩]إِن تُبْدُوا خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ ٱللهَ كَانَ عَفُوّاً قَدِيراً.......... ٣٠٨
[١٥٠و ١٥١]إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ ٱللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ.......... ٣٠٩
[١٥٢]وَٱلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ.......... ٣٠٩
[١٥٣]يَسْأَلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِنَ ٱلسَّماءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ ٣٠٩
[١٥٤]وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا ٱلْبَابَ سُجَّداً وَقُلْنَا لَهُمْ لَا.......... ٣١٠
[١٥٥]فَبِمَا نَقْضِهِم مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ ٱللهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ.......... ٣١١
[١٥٦]وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً.......... ٣١١
[١٥٧]وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ.......... ٣١٢
[١٥٨]بَل رَفَعَهُ ٱللهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللهُ عَزِيزاً حَكِيماً.......... ٣١٣
[١٥٩]وَإِن مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ.......... ٣١٤
[١٦٠و ١٦١]فَبِظُلْمٍ مِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن.......... ٣١٥
[١٦٢]لَٰكِنِ ٱلرَّاسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ.......... ٣١٦
[١٦٣]إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ ٣١٦
[١٦٤]وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ ٱللهُ.......... ٣١٨
[١٦٥]رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَىٰ ٱللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ.......... ٣١٨
[١٦٦]لَٰكِنِ ٱللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَٱلْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللهِ.......... ٣١٩
[١٦٧]إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالاً بَعِيداً.......... ٣١٩
[١٦٨و ١٦٩]إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ ٱللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً * إِلَّا.......... ٣١٩
[١٧٠]يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِالحَقِّ مِن رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْراً لَكُمْ وَإِن.......... ٣٢٠
[١٧١]يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَىٰ ٱللهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ إِنَّمَا ٣٢٠

[١٧٢]لَن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِلهِ وَلاَ ٱلْمَلاَئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ وَمَن ٣٢٢
[١٧٣]فَأَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِن فَضْلِهِ........................ ٣٢٢
[١٧٤]يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِن رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً ٣٢٣
[١٧٥]فَأَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَٱعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ ٣٢٣
[١٧٦]يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلاَلَةِ إِنِ ٱمْرُؤٌا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ ٣٢٤
في تفسير سورة المائدة ٣٢٧
[١]بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ ٱلأَنْعَامِ........................ ٣٢٧
[٢]يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحِلُّوا شَعَائِرَ ٱللهِ وَلاَ ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلاَ ٱلْهَدْيَ وَلاَ ٣٢٨
[٣]حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللهِ بِهِ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ........................ ٣٣٠
[٤]يَسْئَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِنَ ٱلْجَوَارِحِ ٣٣٣
[٥]ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ........................ ٣٣٥
[٦]يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلاَةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٣٣٦
[٧]وَٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا........................ ٣٤٢
[٨]يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ ٣٤٣
[٩ و ١٠]وَعَدَ ٱللهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَهُم مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ * وَٱلَّذِينَ........................ ٣٤٤
[١١]يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱذْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ........................ ٣٤٤
[١٢]وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَاءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً وَقَالَ ٱللهُ ٣٤٦
[١٣]فَبِمَا نَقْضِهِم مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن........................ ٣٤٧
[١٤]وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ........................ ٣٤٨
[١٥]يَاأَهْلَ ٱلْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٣٥٠
[١٦]يَهْدِي بِهِ ٱللهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ ٱلسَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى ٣٥٢
[١٧]لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا إِنَّ ٱللهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللهِ........................ ٣٥٢
[١٨]وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاؤُا ٱللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم........................ ٣٥٣
[١٩]يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا........................ ٣٥٤
[٢٠]وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ ٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ........................ ٣٥٥
[٢١]يَاقَوْمِ ٱدْخُلُوا ٱلأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَىٰ........................ ٣٥٥
[٢٢ و ٢٣]قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن ٣٥٦
[٢٤]قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَدْخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا........................ ٣٥٧

[٢٥]قَالَ رَبِّ إِنِّى لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ........ ٣٥٧
[٢٦]قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى........ ٣٥٨
[٢٧-٢٩]وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ........ ٣٦٠
[٣٠]فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ........ ٣٦٢
[٣١]فَبَعَثَ ٱللهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ........ ٣٦٣
[٣٢]مِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِى إِسْرَاءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ........ ٣٦٥
[٣٣]إِنَّمَا جَزَاؤُا ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَاداً أَن........ ٣٦٧
[٣٤]إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ ٱللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ........ ٣٧٠
[٣٥]يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا ٱللهَ وَٱبْتَغُوا إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِى سَبِيلِهِ........ ٣٧٠
[٣٦]إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ........ ٣٧١
[٣٧]يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ........ ٣٧١
[٣٨]وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ ٱللهِ وَٱللهُ عَزِيزٌ........ ٣٧١
[٣٩]فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ........ ٣٧٣
[٤٠]أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللهَ لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن........ ٣٧٣
[٤١]يَا أَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا........ ٣٧٤
[٤٢]سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ........ ٣٧٦
[٤٣]وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ ٱلتَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ........ ٣٧٨
[٤٤]إِنَّا أَنْزَلْنَا ٱلتَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ........ ٣٧٨
[٤٥]وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَٱلْأَنْفَ بِالْأَنْفِ........ ٣٨٠
[٤٦]وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَاةِ........ ٣٨١
[٤٧]وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ ٱللهُ فِيهِ وَمَن لَمْ يَحْكُم بِمَا أَنْزَلَ ٱللهُ فَأُولٰئِكَ........ ٣٨١
[٤٨]وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً........ ٣٨١
[٤٩]وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ ٱللهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ........ ٣٨٣
[٥٠]أَفَحُكْمَ ٱلْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ........ ٣٨٤
[٥١]يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ........ ٣٨٥
[٥٢]فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا........ ٣٨٦
[٥٣]وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَهٰؤُلَاءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ........ ٣٨٦
[٥٤]يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ........ ٣٨٧

[٥٥]إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَاةَ........ ٣٩٣

[٥٦]وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَالِبُونَ........ ٤٠١

[٥٧]يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِنَ ٱلَّذِينَ........ ٤٠٢

[٥٨]وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَاةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ........ ٤٠٢

[٥٩]قُلْ يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ........ ٤٠٣

[٦٠]قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ........ ٤٠٣

[٦١]وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا........ ٤٠٤

[٦٢ و ٦٣]وَتَرَىٰ كَثِيراً مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا........ ٤٠٥

[٦٤]وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ........ ٤٠٦

[٦٥]وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَابِ آمَنُوا وَٱتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ........ ٤٠٧

[٦٦]وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا ٱلتَّوْرَاةَ وَٱلْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِم مِن رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ........ ٤٠٨

[٦٧]يَا أَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ وَإِن لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ........ ٤٠٨

[٦٨]قُلْ يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا ٱلتَّوْرَاةَ وَٱلْإِنْجِيلَ وَمَا........ ٤١٢

[٦٩]إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَٱلَّذِينَ هَادُوا وَٱلصَّابِئُونَ وَٱلنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَٱلْيَوْمِ........ ٤١٣

[٧٠]لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَاءِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا........ ٤١٣

[٧١]وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا........ ٤١٤

[٧٢]لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَابَنِي........ ٤١٤

[٧٣]لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَمْ يَنْتَهُوا........ ٤١٥

[٧٤]أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ........ ٤١٥

[٧٥]مَا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا........ ٤١٥

[٧٦]قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ........ ٤١٦

[٧٧]قُلْ يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ........ ٤١٧

[٧٨ و ٧٩]لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَاءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ........ ٤١٧

[٨٠]تَرَىٰ كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَن سَخِطَ........ ٤١٩

[٨١]وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيراً........ ٤١٩

[٨٢]لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ........ ٤١٩

[٨٣-٨٥]وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا........ ٤٢٠

[٨٦]وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلْجَحِيمِ........ ٤٢١

[٨٧]يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ ٱللهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ ٱللهَ لَا ٤٢١
[٨٨]وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللهُ حَلَالاً طَيِّباً وَٱتَّقُوا ٱللهَ ٱلَّذِى أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ٤٢٤
[٨٩]لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللهُ بِاللَّغْوِ فِى أَيْمَانِكُمْ وَلٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدْتُمُ ٱلْأَيْمَانَ ٤٢٤
[٩٠ و ٩١]يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنْصَابُ وَٱلْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ ٤٢٦
[٩٢]وَأَطِيعُوا ٱللهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ ٤٢٩
[٩٣]لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا ٱتَّقَوْا ٤٢٩
[٩٤]يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللهُ بِشَىْءٍ مِنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ ٤٣٢
[٩٥]يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا ٱلصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُتَعَمِّداً ٤٣٣
[٩٦]أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ ٤٣٧
[٩٧]جَعَلَ ٱللهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ ٤٣٨
[٩٨]ٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ٤٤٠
[٩٩]مَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَاغُ وَٱللهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ٤٤٠
[١٠٠]قُل لَا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ فَاتَّقُوا ٱللهَ ٤٤٠
[١٠١]يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْئَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْئَلُوا ٤٤١
[١٠٢]قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ٤٤٢
[١٠٣]مَا جَعَلَ ٱللهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٤٤٣
[١٠٤]وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ ٱللهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا ٤٤٤
[١٠٥]يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ إِلَى ٱللهِ ٤٤٤
[١٠٦ و ١٠٧]يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٤٤٥
[١٠٨]ذٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ ٤٤٨
[١٠٩]يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ ٤٤٩
[١١٠-١١٣]إِذْ قَالَ ٱللهُ يَاعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ ٤٥٠
[١١٤ و ١١٥]قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللّٰهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ ٱلسَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً ٤٥٢
[١١٦]وَإِذْ قَالَ ٱللهُ يَاعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلٰهَيْنِ مِن ٤٥٥
[١١٧]مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِى بِهِ أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ٤٥٦
[١١٨]إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ٤٥٧
[١١٩]قَالَ ٱللهُ هٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٤٥٧
[١٢٠]لِلّٰهِ مُلْكُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ٤٥٩

في تفسير سورة الأنعام ٤٦١
[١]بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ٱلْحَمْدُ لِلهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ........ ٤٦١
[٢]هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلاً وأَجَلٌ مُسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ ٤٦٢
[٣]وَهُوَ ٱللهُ فِى ٱلسَّماوَاتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا ٤٦٣
[٤ و ٥]وَمَا تَأْتِيهِم مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ * فَقَدْ كَذَّبُوا........ ٤٦٣
[٦]أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِمْ مِن قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَكُمْ........ ٤٦٤
[٧]وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ ٤٦٤
[٨ و ٩]وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكاً لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ * وَلَوْ........ ٤٦٥
[١٠]وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَا كَانُوا بِهِ........ ٤٦٦
[١١]قُل سِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ........ ٤٦٧
[١٢]قُل لِمَن مَا فِى ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِلهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ........ ٤٦٧
[١٣ و ١٤]وَلَهُ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ * قُلْ أَغَيْرَ ٱللهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً ٤٦٨
[١٥]قُلْ إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ........ ٤٦٩
[١٦]مَن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ٤٦٩
[١٧]وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ ٤٧٠
[١٨]وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ٤٧٠
[١٩]قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ ٱللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هٰذَا ٱلْقُرْآنُ........ ٤٧٠
[٢٠]ٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوا ٤٧١
[٢١]وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ........ ٤٧٢
[٢٢ و ٢٣]وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ ٤٧٣
[٢٤]ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ........ ٤٧٣
[٢٥]وَمِنْهُم مَن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِى آذَانِهِمْ ٤٧٤
[٢٦]وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ٤٧٥
[٢٧]وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا يَالَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ........ ٤٧٥
[٢٨]بَلْ بَدَا لَهُم مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ........ ٤٧٥
[٢٩ و ٣٠]وَقَالُوا إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ * وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ ٤٧٦
[٣١]قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ ٱللهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا ٤٧٦
[٣٢]وَمَا ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا........ ٤٧٧

[٣٣]قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَايُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّالِمِينَ ٤٧٧
[٣٤]وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَاكُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا........ ٤٧٩
[٣٥]وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقاً فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ ٤٧٩
[٣٦]إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ........ ٤٨٠
[٣٧]وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِن رَبِّهِ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ........ ٤٨٠
[٣٨]وَمَا مِن دَابَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا ٤٨١
[٣٩]وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ........ ٤٨٢
[٤٠ و ٤١]قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ........ ٤٨٢
[٤٢]وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَٱلضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ........ ٤٨٣
[٤٣ـ٤٥]فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَانُ مَا ٤٨٣
[٤٦]قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ........ ٤٨٥
[٤٧]قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ........ ٤٨٥
[٤٨ و ٤٩]وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ ٤٨٦
[٥٠]قُل لَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَائِنُ ٱللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ........ ٤٨٦
[٥١]وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا........ ٤٨٨
[٥٢]وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ ٤٨٨
[٥٣]وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِن بَيْنِنَا أَلَيْسَ ٱللَّهُ........ ٤٩٠
[٥٤]وَإِذَا جَاءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ........ ٤٩٠
[٥٥]وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ........ ٤٩١
[٥٦]قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُل لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ........ ٤٩١
[٥٧]قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِن رَبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ ٱلْحُكْمُ........ ٤٩٢
[٥٨]قُل لَوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ ٤٩٢
[٥٩]وَعِندَهُ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَايَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ........ ٤٩٣
[٦٠]وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ........ ٤٩٤
[٦١ و ٦٢]وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ........ ٤٩٥
[٦٣ و ٦٤]قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِن ظُلُمَاتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنجَانَا........ ٤٩٦
[٦٥]قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ........ ٤٩٧
[٦٦ و ٦٧]وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ قُل لَسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ * لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ ٤٩٨

[٦٨ و ٦٩]وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِى آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِى ٤٩٨
[٧٠]وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن ٤٩٩
[٧١ و ٧٢]قُلْ أَنَدْعُوا مِن دُونِ ٱللهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ ٥٠٠
[٧٣]وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ........ ٥٠١
[٧٤]وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّى أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَالٍ ٥٠٢
[٧٥]وَكَذٰلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ........ ٥٠٣
[٧٦-٧٨]فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱللَّيْلُ رَءَا كَوْكَباً قَالَ هٰذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَاأُحِبُّ ٱلآفِلِينَ * ٥٠٤
[٧٩]إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ ٥٠٥
[٨٠]وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّى فِى ٱللهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَاتُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا ٥٠٨
[٨١]وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ مَالَمْ يُنَزِّلْ بِهِ ٥٠٨
[٨٢]ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلٰئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ........ ٥٠٩
[٨٣]وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ........ ٥١٠
[٨٤و ٨٥]وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلّاً هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ........ ٥١٠
[٨٦ و ٨٧]وَإِسْمَاعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلّاً فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَالَمِينَ * وَمِنْ آبَائِهِمْ ٥١١
[٨٨]ذٰلِكَ هُدَى ٱللهِ يَهْدِى بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَاكَانُوا........ ٥١٣
[٨٩]أُولٰئِكَ ٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هٰؤُلَاءِ فَقَدْ........ ٥١٣
[٩٠]أُولٰئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللهُ فَبِهُدَاهُمُ ٱقْتَدِهْ قُل لَاأَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلَّا........ ٥١٤
[٩١]وَمَا قَدَرُوا ٱللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ ٱللهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِن شَىْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ ٥١٤
[٩٢]وَهٰذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ........ ٥١٦
[٩٣]وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ ٥١٧
[٩٤]وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ٥١٩
[٩٥]إِنَّ ٱللهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٥٢٠
[٩٦ و ٩٧]فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱللَّيْلَ سَكَناً وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَاناً ذٰلِكَ تَقْدِيرُ........ ٥٢٢
[٩٨]وَهُوَ ٱلَّذِى أَنْشَأَكُمْ مِن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلآيَاتِ ٥٢٣
[٩٩]وَهُوَ ٱلَّذِى أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّماءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ ٥٢٤
[١٠٠ و ١٠١]وَجَعَلُوا لِلهِ شُرَكَاءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ........ ٥٢٦
[١٠٢]ذٰلِكُمُ ٱللهُ رَبُّكُمْ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ........ ٥٢٧
[١٠٣]لَاتُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَارَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ........ ٥٢٧

[١٠٤]قَدْ جاءَكُم بَصائِرُ مِن رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا ٥٢٩
[١٠٥]وَكَذٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ. ٥٢٩
[١٠٦ و ١٠٧]ٱتَّبِعْ مَاأُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ * وَلَوْ ٥٢٩
[١٠٨]وَلَا تَسُبُّوا ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللهِ فَيَسُبُّوا ٱللهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذٰلِكَ زَيَّنَّا ٥٣٠
[١٠٩]لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ٥٣٢
[١١٠]وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ ٥٣٣
[١١١]وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً ٥٣٣
[١١٢]وَكَذٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ ٱلْإِنْسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ ٥٣٤
[١١٣ و ١١٤]وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم ٥٣٥
[١١٥ و ١١٦]وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ. ٥٣٦
[١١٧ و ١١٨]إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ * فَكُلُوا مِمَّا ٥٣٧
[١١٩]وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَاحَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا ٥٣٧
[١٢٠]وَذَرُوا ظَاهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا ٥٣٨
[١٢١]وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ ٱلشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ ٥٣٨
[١٢٢]أَوَمَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَثَلُهُ فِي. ٥٣٩
[١٢٣ و ١٢٤]وَكَذٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا. ٥٤١
[١٢٥ و ١٢٦]فَمَن يُرِدِ ٱللهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ ٥٤٢
[١٢٧]لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. ٥٤٥
[١٢٨ و ١٢٩]وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَامَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِنَ ٱلْإِنْسِ وَقَالَ. ٥٤٥
[١٣٠]يَا مَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي ٥٤٧
[١٣١]ذٰلِكَ أَن لَمْ يَكُن رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ٥٤٨
[١٣٢]وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ٥٤٨
[١٣٣]وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَايَشَاءُ كَمَا ٥٤٨
[١٣٤ و ١٣٥]إِنَّ مَاتُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُم بِمُعْجِزِينَ * قُلْ يَا قَوْمِ ٱعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ٥٤٩
[١٣٦]وَجَعَلُوا لِلهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُوا هٰذَا لِلهِ بِزَعْمِهِمْ وَهٰذَا ٥٤٩
[١٣٧]وَكَذٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ. ٥٥٠
[١٣٨]وَقَالُوا هٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَايَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ. ٥٥١
[١٣٩]وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هٰذِهِ ٱلْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِن ٥٥٢

[١٤٠]يَكُن مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ٥٥٢
[١٤١]وَهُوَ ٱلَّذِى أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفاً.......... ٥٥٣
[١٤٢]وَمِنَ ٱلْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ.......... ٥٥٥
[١٤٣ و ١٤٤]ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ.......... ٥٥٥
[١٤٥]قُل لَا أَجِدُ فِى مَاأُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّماً عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ.......... ٥٥٧
[١٤٦]وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ.......... ٥٥٩
[١٤٧]فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَبُّكُمْ ذُورَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَايُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ ٱلْقَوْمِ.......... ٥٦٠
[١٤٨]سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ ٱللهُ مَاأَشْرَكْنَا وَلَاآبَاؤُنَا وَلَاحَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ.......... ٥٦٠
[١٤٩]قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ٥٦١
[١٥٠]قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللهَ حَرَّمَ هٰذَا فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ ٥٦١
[١٥١]قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَاحَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً ٥٦٢
[١٥٢]وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ ٥٦٣
[١٥٣]وَأَنَّ هٰذَا صِرَاطِى مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَاتَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ.......... ٥٦٤
[١٥٤]ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَابَ تَمَاماً عَلَى ٱلَّذِى أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَىْءٍ.......... ٥٦٥
[١٥٥ـ١٥٧]وَهٰذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * أَن تَقُولُوا إِنَّمَا.......... ٥٦٦
[١٥٨]هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ٥٦٧
[١٥٩]إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ إِنَّما أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللهِ.......... ٥٦٨
[١٦٠]مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا.......... ٥٦٩
[١٦١]قُلْ إِنَّنِى هَدَانِى رَبِّى إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا.......... ٥٦٩
[١٦٢ و ١٦٣]قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ.......... ٥٧٠
[١٦٤]قُلْ أَغَيْرَ ٱللهِ أَبْغِى رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا ٥٧٠
[١٦٥]وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ.......... ٥٧١
في تفسير سورة الأعراف ٥٧٣
[١ و ٢]بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٱلمَصَ * كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ.......... ٥٧٣
[٣]ٱتَّبِعُوا مَاأُنْزِلَ إِلَيْكُم مِن رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً.......... ٥٧٤
[٤ و ٥]وَكَم مِن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً أَوْ هُمْ قَائِلُونَ * فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ ٥٧٥
(٦ و ٧)فَلَنَسْئَلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ* فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا ٥٧٥
[٨ و ٩]وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ.......... ٥٧٦

[١٠]وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَاتَشْكُرُونَ ٥٧٩
[١١-١٣]وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ ٥٨٠
[١٤ و ١٥]قَالَ أَنظِرْنِى إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنْظَرِينَ ٥٨١
[١٦ و ١٧]قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِن بَيْنِ ٥٨٢
[١٨]قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُوماً مَدْحُوراً لَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ ٥٨٣
[١٩ و ٢٠]وَيَا آدَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٥٨٤
[٢١-٢٣]وَقَاسَمَهُمَا إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّاصِحِينَ * فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ ٥٨٤
[٢٤ و ٢٥]قَالَ ٱهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ٥٨٦
[٢٦]يَا بَنِى آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ٥٨٦
[٢٧]يَا بَنِى آدَمَ لَايَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا ٥٨٨
[٢٨]وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَٱللهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ ٱللهَ لَايَأْمُرُ ٥٨٨
[٢٩]قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ ٥٨٩
[٣٠]فَرِيقاً هَدَىٰ وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا ٱلشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن ٥٩٠
[٣١]يَا بَنِى آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَٱشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ ٥٩١
[٣٢]قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللهِ ٱلَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَٱلطَّيِّبَاتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ٥٩٢
[٣٣]قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَاحِشَ مَاظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٥٩٤
[٣٤]وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَايَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ٥٩٥
[٣٥ و ٣٦]يَا بَنِى آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِى فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ ٥٩٦
[٣٧-٣٩]فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُوْلَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم ٥٩٦
[٤٠]إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَاتُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ ٱلسَّمَاءِ ٥٩٨
[٤١ و ٤٢]لَهُم مِن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّالِمِينَ * وَٱلَّذِينَ ٥٩٩
[٤٣]وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَارُ وَقَالُوا ٱلْحَمْدُ لِلهِ ٥٩٩
[٤٤]وَنَادَىٰ أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَابَ ٱلنَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَاوَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً فَهَلْ ٦٠١
[٤٥]ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُم بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ ٦٠١
[٤٦ و ٤٧]وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوا ٦٠١
[٤٨ و ٤٩]وَنَادَىٰ أَصْحَابُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُم قَالُوا مَاأَغْنَىٰ عَنكُمْ ٦٠٣
[٥٠]وَنَادَىٰ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ أَصْحَابَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَاءِ أَوْ مِمَّا ٦٠٤
[٥١]ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا ٦٠٥

[٥٢]وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ٦٠٦
[٥٣]هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ........ ٦٠٦
[٥٤]إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٦٠٧
[٥٥]ٱدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ٦٠٩
[٥٦]وَلَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ ٱللهِ........ ٦١٠
[٥٧]وَهُوَ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً ٦١٠
[٥٨]وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِداً كَذٰلِكَ........ ٦١١
[٥٩ و ٦٢]لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللهَ مَالَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي ٦١٣
[٦٣ و ٦٤]أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا........ ٦١٤
[٦٥-٦٨]وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَاقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٦١٤
[٦٩]أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِن رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَٱذْكُرُوا إِذْ........ ٦١٥
[٧٠ و ٧١]قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنْتَ ٦١٦
[٧٢]فَأَنْجَيْنَاهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا ٦١٧
[٧٣]وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللهَ مَا لَكُمْ مِن إِلٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ ٦١٨
[٧٤-٧٦]وَٱذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن ٦١٩
[٧٧-٧٩]فَعَقَرُوا ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَاصَالِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ ٦٢٠
[٨٠-٨٤]وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ ٱلْفَاحِشَةَ مَاسَبَقَكُمْ بِهَا مِن أَحَدٍ مِنَ ٱلْعَالَمِينَ........ ٦٢٤
[٨٥]وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَاقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللهَ مَالَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ........ ٦٢٦
[٨٦]وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللهِ مَنْ آمَنَ بِهِ ٦٢٧
[٨٧-٩٠]وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا........ ٦٢٨
[٩١-٩٣]فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ *ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَن ٦٢٩
[٩٤ و ٩٥]وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَٱلضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ........ ٦٣٠
[٩٦]وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰ آمَنُوا وَٱتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ ٱلسَّماءِ وَٱلْأَرْضِ........ ٦٣١
[٩٧-٩٩]أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ * أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰ ٦٣٢
[١٠٠]أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ........ ٦٣٢
[١٠١]تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا........ ٦٣٣
[١٠٢]وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ........ ٦٣٤
[١٠٣]ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ........ ٦٣٥

[١٠٤-١٠٨]وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنَ إِنِّى رَسُولٌ مِنْ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ * حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا ٦٣٦

[١٠٨-١١٦]قَالَ ٱلْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ ٦٣٧

[١١٧-١٢٢]وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ*فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ ٦٣٨

[١٢٣]قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هٰذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٦٣٩

[١٢٤-١٢٧]لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ * قَالُوا إِنَّا ٦٤٠

[١٢٨ و ١٢٩]قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا بِاللهِ وَٱصْبِرُوا إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ ٦٤٢

[١٣٠]وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ٦٤٣

[١٣١]فَإِذَا جَاءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هٰذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ ٦٤٣

[١٣٢-١٣٥]وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * فَأَرْسَلْنَا ٦٤٣

[١٣٦ و ١٣٧]فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ * ٦٤٧

[١٣٨ و ١٣٩]وَجَاوَزْنَا بِبَنِى إِسْرَاءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا ٦٤٨

[١٤٠ و ١٤١]قَالَ أَغَيْرَ ٱللهِ أَبْغِيكُمْ إِلٰهاً وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ * وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ ٦٤٨

[١٤٢ و ١٤٣]وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ٦٤٩

[١٤٤]قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَالَاتِى وَبِكَلَامِى فَخُذْ ٦٥٣

الفهرس ٦٥٥